مناظراته، وحواراته ﷺ
مُعاملاته ﷺ المالية، والتجارية
توضيحاته ﷺ وكان يبيع بالمزايدة هـمـومه واهتماماته
التعليمية ذكرياته ﷺ " " فطنته
التوضيحُ بالرسم، والخط صلى الله عليه وسلم كلامُه ﷺ صلى الله عليه وسلم
تَعَجُّبُه ﷺ مُعاتبات النبي السماحة واليسر
مُعاتبتهُ الأنصار يوم حُنين وكان يَفصِل بينَ الحَمدِ والثناء
صلى الله عليه وسلم استخدام الأشياء بعينها و محبوباته مِنَ الثياب والألوان مُلاطفاته
رؤاه ﷺ " ؛ ما يحبُّه النبي ﷺ ؛ مُلاطفته لزوجاته
وأحسن الحِجامة " محبوباته من الناس يبغض الكذب " صلى الله عليه وسلم
تَطَبُّبُه ﷺ فرحه ما يحبه من الأعمال والطاعات و كما تبسَّمَ من قولِ عُمرَ
وفرحَ بمبادرةِ الصَّحابة إلى طاعة الله وكان يَكرَه أنْ يُقامَ له ضحكه وضحك عَجَبًا لأمرِ المؤمنِ
فَضَحِكَ مِن فِعلِ سعدٍ.
تَفَكُّره ﷺ " ما يُبغضه النبي كيف كان ضَحِكُهُ عليه الصلاة والسلام؟
صلى الله عليه وسلم حزنه ﷺ و صَمْتُه وَسُكوتُه
" حزنه عند فتور الوَحْي بُكاؤه بُكاؤه على شهداء مُؤتة
غضبه وبكى على عمِّه حمْزة
غضبُه على كفار قريش " " افتتاحاته
صلى الله عليه وسلم إشاراته ﷺ صلى الله عليه وسلم ورُبَّما استفتح كلامَه بالاستفهام
وأشار إلى أصحابه بخَفض الصَّوت صلى الله عليه وسلم نسيانه
وصاياه ﷺ تحْفيزه تعزيره
" وأوصى بالنساء خيرًا

أَحْوَالُ المصطفى

محمد صالح المنجد

أَحْوَالُ المصطفى

ⓒ مجموعة زاد للنشر، ١٤٤٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المنجد، محمد صالح

أحول المصطفى صلى الله عليه وسلم./ محمد صالح المنجد.- الرياض، ١٤٤٠هـ

٧٧٦ص. ٥, ١٦×٢٤سم

ردمك: ٤-١٧-٨٢٣٤-٦٠٣-٩٧٨

١- السيرة النبوية أ. العنوان

ديوي: ٢٤٠ ١٤٤٠/١١٥٨

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ/٢٠١٩م

نشر

المملكة العربية السعودية - جدة

حي الشاطئ - بيوتات الأعمال - مكتب ١٦

موبايل: ٦٤٣٢ ٤٤٤ ٥٠ ٩٦٦+، هاتف: ٦٩٢٩٢٤٢ ١٢ ٩٦٦+

ص.ب: ١٢٦٣٧١ جدة ٢١٣٥٢

www.zadgroup.net

توزيع العبيكان

المملكة العربية السعودية - الرياض

طريق الملك فهد - مقابل برج المملكة

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ ١١ ٩٦٦+، فاكس: ٤٨٠٨٠٩٥ ١١ ٩٦٦+

ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧

www.obeikanretail.com

المحتويات

المقـدّمة

الحمدُ للهِ الذي أرسلَ رسولَهُ بالهُدى، ودينِ الحقِّ؛ ليُظهِرَه على الدِّينِ كُلِّه، ولو كَرِهَ المشركونَ.

وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ، وحدَهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلى الله عليه، وعلى آلِهِ، وصحبِه، أجمعينَ.

أما بعد:

فقد مَنَّ اللهُ تعالى على خَلقِهِ أجمَعين، بأن أرسلَ رسولَه محمدًا، رحمةً للعالَمِينَ، وأيَّدهُ بالدَّلائلِ البيِّناتِ، والأدلَّةِ الواضحاتِ، واصطَفَى له أسمَى الصِّفات البشريَّةِ، وأكرَمَ المكارمِ العليَّة، وهَداهُ صِراطَهُ المُستقيمَ، وحَلَّاهُ بالخُلُقِ العظيمِ، وزانَهُ بالسَّمتِ القويمِ، فلا أحدَ هو أهدَى منه سبيلًا، ولا أحسَنَ منه قيلًا، ولا أصدَقَ منه لسانًا، ولا أفصَحَ منه بيانًا، ولا أعذبَ منه مَنطِقًا، ولا أطهَرَ منه نفسًا، ولا أنقَى منه قَلبًا، ولا أعدَلَ منه حُكمًا، ولا أكرَمَ منه خُلُقًا، ولا أصفَى منه طويَّةً ، ولا أطهَرَ منه سجيَّةً، ولا ألينَ منه عَريكةً، ولا أكرَمَ منه عَطاءً، ولا أحسَنَ منه بَلاءً.

ولم يجعلهُ اللهُ مَلكًا رسولًا، ولكن عبدًا رسولًا، يأكُلُ الطَّعامَ، ويَمشي في الأسواقِ، ويتزوَّجُ النِّساءَ، ويفرحُ كما يفرحُ الناسُ، ويَضحَكُ كما يضحَكُونَ، ويحزنُ كما يحزنون، ويبكي كما يبكُونَ، له كامِلُ الصِّفاتِ البشريَّةِ، في أتمِّ صُورَةٍ، وأكرَمِ حالةٍ مَرضيَّةٍ.

ولمَّا كان التعرُّفُ على كمال سجيَّتِه، وحُسنِ خُلُقِه، ومُختَلفِ أحواله، من تمامِ التعرُّفِ عليه: عبدًا رسولًا، توجَّه الحديثُ عن أحواله الكريمَةِ، ومَواقِفه العظيمَةِ؛ ليقتَديَ به المُقتدُونَ، ويتأسَّى بِهِ المُؤمنونَ.

فهذه جُملةٌ مِن أحوالِهِ، ومَواقِفِهِ الشَّريفَةِ ﷺ جُمِعَتْ لهذا المقصِدِ النبيلِ والمرامِ الجليلِ.

وهذه المادة في أصلها مجموعة من الدروس الرمضانية التي أُلقيت في بعض مساجد جدة بعد صلاة التراويح، تم جمعها وإعادة صياغتها وتحريرها وتوثيقها ليعم النفع بها.

نسأل الله التوفيق والسداد والقبول.

ما يحبُّهُ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الحُبُّ من أنبلِ الصِّفاتِ، وأحسَنِ الأخلاقِ، وأطيَبِ السَّجايا، إذا كان مُنضبِطًا بشَرائِعِ الهُدى، ولم يكُن تبَعًا لمجرَّدِ الهوى، ولا أحَدَ هو أضبَطُ لمعاني أخلاقِهِ، وأحاسيسِ نفسِهِ، ومعاملاتِ قلبِهِ، من رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

*** وقد أحَبَّ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشياء متنوعةً، وأجناسًا مختلفةً:**

فَلِكُلِّ امرِئٍ في هذِه الحياةِ الدُّنيا مَحبوباتُه الخاصَّةُ، مِن الإخوانِ، والأعمالِ، والأطعِمَةِ، والألبِسَةِ، والأمكِنةِ، وغيرِ ذلك، وهكَذا نبيُّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقَد كان له مَحبوباتُه الخاصَّةُ، في هذِه الدُّنيا، مِن جَميعِ هذِه الأجناسِ.

قال ابنُ حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وحُبُّ المُصطَفى صلَّى اللهُ عليه وآلِهِ وسَلَّمَ للشيءِ: إمَّا بإخبارِهِ للصَّحابيِّ بذلك، أو: بالقَرائِنِ»(١).

وإنَّ من صِفاتِ المُحِبِّ الصَّادقِ: أنَّهُ يُحِبُّ ما يُحِبُّه مَحبوبُه، ويَكرَهُ ما يَكرَهُهُ.

---

(١) فيض القدير (٥/ ٢٠٦).

مَحبوباتُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الناسِ

* **كان أحَبَّ الخَلقِ إليهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: رَفيقُهُ في الهِجرةِ، وأنيسُهُ في الغارِ، وأفضَلُ الصَّحابَةِ، وأكرَمُهم عليه: أبو بكرٍ الصِّديقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.**

فعن عَمرو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَهُ على جَيشِ ذاتِ السَّلاسِلِ، قال: فأتَيتُهُ، فقُلتُ: أيُّ الناسِ أحَبُّ إلَيكَ؟[1].

قال: «**عائشةُ**».

فَقُلتُ: مِنَ الرِّجال؟

فقال: «**أبوها**».

قُلتُ: ثم مَن؟

قال: «**ثم عمرُ بنُ الخَطَّابِ**».

فَعَدَّ رِجالًا[2].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فيه**: جوازُ ذِكرِ الأحَبِّ مِنَ النِّساءِ، والرِّجال، وأنَّهُ لا يُعابُ على مَن فعَلَهُ؛ إذا كان المقولُ له من أهلِ الخَيرِ، والدِّينِ، ويَقصِدُ بذلك مَقاصِدَ الصَّالحينَ؛ وليُقتَدَى بهِ في ذلك، فيُحبُّ مَن أحبَّ، فإنَّ المرءَ مع مَن أحبَّ.

وإنما بدأ بذِكرِ مَحبَّتِهِ عائشةَ؛ لأنَّها مَحبَّةٌ جِبلِّيَّةٌ، ودينيَّةٌ، وغَيرُها دينيَّةٌ، لا جِبلِّيَّةٌ، فسَبَقَ الأصلُ على الطَّارِئِ، فقيل لَه: ومِن الرجال؟ قال: «**وَمِن الرِّجال: أبوها**»؛ لسابِقَتِهِ في الإسلامِ، ونُصحِهِ للهِ تعالى، ورسولِهِ، وللإسلامِ، وأهلِهِ، وبَذلِ مالِهِ، ونفسِهِ في رِضاهما»[3].

---

(١) سبب هذا السؤال: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمَّره على الجيش، وفيهم أبو بكر، وعمر، فظنَّ أنه مقدَّم عنده في المنزلة عليهم، فسأله لذلك، وعند البيهقي في دلائل النُّبوة (٤/ ٤٠٤) قال عمرو: فحدَّثت نفسي أنه لم يبعثني على قوم، فيهم أبو بكر وعمر، إلا لمنزلةٍ لي عنده، فأتيته، حتى قعدت بين يديه، فقلت: يا رسول الله، من أحب الناس إليك؟ ... الحديث.

(٢) رواه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).

(٣) فيض القدير (١/ ١٦٨).

* وكانت مَحَبَّةُ النبيِّ ﷺ لأبي بكرٍ عظيمةً:

فعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه قال: خَطَبَ النبيُّ ﷺ في مَرَضِهِ الذي ماتَ فيه، فقال: «**إنَّ اللهَ خَيَّرَ عبدًا بين أن يُؤتيَهُ زَهرَةَ الدُّنيا، وبين ما عندَهُ، فاختارَ ما عندَ اللهِ**».

فَبَكَى أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه، وبَكَى[1].

فقال: فدَيناكَ بآبائِنا، وأُمَّهاتِنا.

فَقُلتُ في نَفسي: ما يُبكي هذا الشَّيخَ، إن يَكُنِ اللهُ خَيَّرَ عبدًا بين الدُّنيا، وبين ما عندَهُ، فاختارَ ما عندَ اللهِ؟!

فكان رسولُ اللهِ ﷺ هو العبدَ، وكان أبو بكرٍ أعلَمَنا.

قال: «**يا أبا بكرٍ لا تَبكِ، إنَّ أمَنَّ الناسِ عَلَيَّ في صُحبتِهِ، ومالِهِ: أبو بكرٍ، ولو كنتُ مُتَّخِذًا مِنَ الناسِ خليلًا، لاتَّخَذتُ أبا بكرٍ خليلًا، ولكن أُخوَّةُ الإسلامِ، ومَوَدَّتُهُ، لا يَبقَيَنَّ في المسجِدِ بابٌ إلا سُدَّ، إلا بابُ أبي بكرٍ**».

وفي رواية: «**لا تُبقَيَنَّ في المسجِدِ خوخَةٌ، إلا خوخَةَ أبي بكرٍ**»[2].

وقولُهُ ﷺ: «**إنَّ أمَنَّ الناسِ عَلَيَّ في صُحبتِهِ، ومالِهِ: أبو بكرٍ**»:

قولُه: «**أمَنَّ**»: أفعَلُ تفضيلٍ، مِنَ المنِّ، بمعنى: العَطاءِ، والبَذلِ، والمعنى: إنَّ أبذَلَ الناسِ لنَفسِهِ، ومالِهِ، لا مِنَ المِنَّةِ، التي تُفسِدُ الصَّنيعَةَ.

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، عنِ النبيِّ ﷺ قال: «**لَو كنتُ مُتَّخِذًا من أُمَّتي خليلًا، لاتَّخَذتُ أبا بكرٍ، ولكن أخي، وصاحِبي**»[3].

---

(١) معناه: بكى كثيرًا، وكأن أبا بكر رضي الله عنه، فهم الرمز الذي أشار به النبي ﷺ، من قرينة ذكره ذلك في مرض موته، فاستشعر منه أنه أراد نفسه؛ فلذلك بكى. فتح الباري (٧/ ١٢).

(٢) رواه البخاري (٤٦٦)، (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢).

(٣) رواه البخاري (٣٦٥٦)، ورواه مسلم (٢٣٨٣)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

الفَرقُ بينَ المحَبَّةِ، والخُلَّةِ:

«المحَبَّةُ: عامَّةٌ، والخُلَّةُ: خاصَّة، والخُلَّةُ: نِهايةُ المحَبَّةِ»(١).

«الخُلَّة: هي كمالُ المحبَّةِ، وهي مرتبَةٌ لا تَقبلُ المُشاركةُ، والمزاحمةُ»(٢).

وقولُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا تُبقَيَنَّ في المسجِدِ خوخَةٌ، إلا خوخَةَ أبي بكرٍ»:**

الخَوخَة: هيَ البابُ الصَّغيرُ بَين البَيتَينِ، أوِ الدَّارَينِ، ونَحوِه، والمعنى: لا تُبقوا بابًا غَيرَ مَسدودٍ، إلا باب أبي بكر، فاترُكوهُ، بغَيرِ سَدٍّ.

وبَيانُ ذلك: أنَّ بَعضَ دورِ الصَّحابةِ، كانت مُلاصِقةً للمسجِدِ، فكان الواحدُ منهم يجعلُ بينَ بيتِهِ وبينَ المسجِدِ بابًا؛ بحَيثُ يَفتحُ البابَ، فيصيرُ في المسجِدِ، فكرِهَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُجعَلَ المسجِدُ بهذه المثابَةِ، فما أبقَى خَوخَةً شارعةً في المسجِدِ، إلا خَوخَةَ أبي بَكرٍ.

وفي الحديثِ: فضيلَةٌ ظاهِرَةٌ لأبي بكر الصِّدِّيق، وأنَّهُ كان مُتأهِّلًا لأن يَتَّخِذهُ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خليلًا، لَولا المانِعُ المُتَقَدِّمُ ذِكرُهُ، ويُؤخَذُ منه: أنَّ للخَليلِ صِفَةً خاصَّةً، تَقتَضي عَدَمَ المُشارَكَةِ فيها(٣).

* ويَتلو أبا بكرٍ في هذه المحَبَّةِ: عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

وقد بلغَت محَبَّةُ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهما: أن جعَلَهما بمنزِلَةِ سَمعِه، وبَصَرِه؛ فعن عبدِاللهِ بنِ حَنطَبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأى أبا بكرٍ، وعمرَ، فقال: «**هَذانِ: السَّمعُ، والبَصَرُ**»(٤).

أي: أبو بكرٍ وعمرُ مِنِّي، بمَنزلَةِ السَّمعِ والبَصَرِ مِنَ الرأسِ(٥).

وعن عبدِاللهِ بنِ شَقيقٍ، قال: قُلتُ لعائشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: أيُّ أصحابِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أحَبَّ إليه؟

---

(١) الجواب الكافي (ص١٣٥).

(٢) جلاء الأفهام (ص٢٧٤).

(٣) فتح الباري (٧/ ١٥).

(٤) رواه الترمذي (٣٦٧١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٨١٤).

(٥) تحفة الأحوذي (١٠/ ١٠٧).

قالت: «أبو بكرٍ».

قُلتُ: ثم مَن؟

قالت: «ثم عمرُ».

قُلتُ: ثم مَن؟

قالت: ثم «أبوعبيدةَ بنُ الجَرَّاحِ».

قُلتُ: ثم مَن؟

فَسَكَتَت(١).

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: وُضِعَ عمرُ على سَريرِهِ(٢)، فتكَنَّفَهُ الناسُ؛ يَدعونَ، ويُصَلُّونَ، قبلَ أن يُرفَعَ، وأنا فيهم.

فَلَم يَرُعني إلا رَجُلٌ من خَلفي، قَد وضَعَ مِرفَقَهُ على مَنكِبي، يقولُ: رَحِمَكَ اللهُ، ما خَلَّفتَ أحَدًا أحَبَّ إلَيَّ أن ألقى اللهَ بمِثلِ عَمَلِهِ مِنكَ، وايمُ اللهِ، إن كنتُ لَأظُنُّ أن يَجعَلَكَ اللهُ مع صاحِبَيكَ؛ لأنِّي كَثيرًا ما كنتُ أسمَعُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**كنتُ وأبو بكرٍ، وعمرُ، وفَعَلتُ وأبو بكرٍ، وعمرُ، وانطَلَقتُ وأبو بكرٍ، وعمرُ**».

فإن كنتُ لَأرجو أن يَجعَلَكَ اللهُ مَعَهما.

فالتَفَتُّ، فإذا هو عليُّ بنُ أبي طالبٍ(٣).

وعن محمدِ بنِ سيرينَ رَحِمَهُ اللهُ، قال: «ما أظُنُّ رَجُلًا يَنتَقِصُ أبا بكرٍ، وعمرَ، يُحِبُّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(٤).

وذلك لأنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحبُّ أبا بكرٍ، وعمرَ، ومَن لا يُحِبُّ مَن يُحِبُّه النبيُّ، فهو لا يُحِبُّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٥٧)، وابن ماجه (١٠٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٢) أي: النَّعش.

(٣) رواه البخاري (٣٦٧٧)، ومسلم (٢٣٨٩).

(٤) رواه الترمذي (٣٦٨٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

* ومِنَ الذينَ كان يُحِبُّهم النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عثمانُ بنُ عفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وقد قال عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قبلَ وفاتِهِ: «إنِّي لا أعلَمُ أحَدًا أحَقَّ بهذا الأمرِ من هَؤُلاءِ النَّفَرِ، الذينَ توُفِّيَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو عنهم راضٍ، فمَنِ استَخلَفوا بعدي فهو الخَليفَةُ، فاسمَعوا لَهُ، وأطيعوا».

فَسَمَّى: عثمانَ، وعليًّا، وطَلحَةَ، والزبيرَ، وعبدَالرحمَنِ بنَ عَوفٍ، وسَعدَ بنَ أبي وقَّاصٍ[(١)].

وقد زَوَّجَهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابنتَيهِ: رُقَيَّةَ، وأُمَّ كُلثومٍ.

وعن عبَّادِ بنِ عبَّادٍ قال: «أتَيتُ يونُسَ بنَ خَبَّابٍ[(٢)] بمِنًى، وهو يَقُصُّ، فسألتُهُ عن حديثِ القَبرِ، فحَدَّثَني به، ثم قال: إنَّ فيه شيئًا، قد كَتَمَتهُ المُرجِئَةُ الفَسَقَةُ.

قُلتُ: ما هوَ؟

قال: يُسألُ: مَن وليُّكَ؟ فيقولُ: وليِّي عليٌّ.

فقلتُ: ما سَمِعتُ بهذا قَطُّ.

قال: من أينَ أنتَ؟

قُلتُ: من أهلِ البَصرَة.

قال: أنتم تُحِبُّونَ عثمانَ، الذي قَتَل بنتَي رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قُلتُ: قتلَ واحِدةً، فلِمَ زوَّجَهُ الأُخرَى؟

فبُهِتَ الرافِضيُّ، ولم يَجِد جَوابًا، وقال: أنتَ عثمانيٌّ، خَبيثٌ»[(٣)].

* وكان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ أهلَهُ، وأقارِبَهُ، ومِن أحَبِّهم إليه: فاطمةُ، وعليٌّ، والحسَنُ، والحُسَينُ.

فعن عليِّ بنِ أعبُدَ رَحِمَهُ اللَّهُ قال: قال لي عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ألا أُحَدِّثُك عَنِّي، وعن فاطمةَ بنتِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ وكانت من أحَبِّ أهلِهِ إليه.

---

(١) رواه البخاري (١٣٩٢).

(٢) وكان رافضيًا.

(٣) الضعفاء للعقيلي (٢٠٨٩)، الكامل لابن عدي (٢٠٨٠).

قُلتُ: بَلى.

قال: إنَّها جَرَّت بالرحَى[1]، حتى أثَّرَ في يَدِها، واستَقَت بالقِربَةِ، حتى أثَّرَ في نَحرِها[2]، وكَنَسَتِ البَيتَ، حتى اغبَرَّت ثيابُها.

فَأتَى النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَدَمٌ، فقُلتُ: لَو أتَيتِ أباكِ، فسَألتيهِ خادِمًا؟

فَأتَتهُ، فوَجَدَت عندَهُ حُدَّاثًا[3]، فرَجَعَت.

فَأتاها مِنَ الغَدِ، فقال: «**ما كان حاجَتُكِ؟**».

فَسَكَتَت.

فَقُلتُ: أنا أُحَدِّثُكَ يا رسولَ اللهِ: جَرَّت بالرحَى، حتى أثَّرَت في يَدِها، وحَمَلَت بالقِربَةِ، حتى أثَّرَت في نَحرِها، فلَمّا أن جاءَكَ الخَدَمُ، أمَرتُها أن تَأتيَكَ، فتَستَخدِمَكَ[4] خادِمًا، يَقيها حَرَّ ما هيَ فيه.

قال: «اتَّقي اللهَ يا فاطمةُ، وأدِّي فريضَةَ رَبِّكِ، واعمَلي عَمَلَ أهلِكِ، فإذا أخَذتِ مَضجَعَكِ، فسَبِّحي ثَلاثًا وثَلاثينَ، واحمَدي ثَلاثًا وثَلاثينَ، وكَبِّري أربَعًا وثَلاثينَ، فتِلكَ مِائَةٌ، فهيَ خَيرٌ لَكِ من خادِمٍ».

قالت: رَضيتُ عن اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وعن رسولِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[5].

ويُفهَم حُبُّهُ إيَّاها من هذا الحديثِ: من حِرصِهِ على تعليمِها ما هو أعظمُ، وأجَلُّ، وخيرٌ، من خادِمٍ.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّهُ أحالَها على التَّسبيحِ، والتَّهليلِ، والتَّكبيرِ؛ ليكونَ ذلك عِوَضًا مِن الدُّعاءِ عِندَ الكربِ، والحاجَةِ، كما كانت عادَتُه عِندَ الكربِ.

---

(١) الجرُّ: الجذب، أي: أدارتها.

(٢) أي: أعلى صدرها.

(٣) أي: رجالًا يتحدَّثون.

(٤) تطلب منك.

(٥) رواه أبوداود (٢٩٨٨)، وفي سنده ضعفٌ، وأصله في البخاري (٣١١٣)، ومسلم (٢٧٢٧).

ويُمكنُ أن يَكونَ من جِهَةِ أَنَّهُ أَحَبَّ لابنَتِهِ ما يُحِبُّ لنفسِهِ، إذ كانت بَضعةً منه»[١].

وقال المهلب رَحِمَهُ اللَّهُ: «عَلَّمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابنَتَهُ مِنَ الذِّكر، ما هو أكثَرُ نَفعًا لها في الآخِرَةِ»[٢].

وحبُّ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لفاطمةَ لا يَخفَى، وقد دَلَّت عليه الأحاديثُ الكثيرَةُ، التي أفادَ مجموعُها التواترَ المعنويَّ[٣].

وقد بلغَ من حُبِّهِ لها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن قال: «**إنما فاطمةُ بَضعَةٌ مِنِّي، يُؤذيني ما آذاها**»[٤].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «ما رَأيتُ أحَدًا أشبهَ سَمتًا[٥]، ودَلاًّ[٦]، وهَديًا، برسولِ اللهِ في قيامِها، وقُعودِها، من فاطمةَ بنتِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

قالت: «وكانت إذا دَخَلَت على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قامَ إلَيها، فقَبَّلَها، وأجلَسَها في مَجلِسِهِ، وكان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا دَخَلَ عليها، قامَت من مَجلِسِها، فقَبَّلَتهُ، وأجلَسَتهُ في مَجلِسِها»[٧].

وفي رواية أبي داودَ: «فَأَخَذَ بيَدِها، فقَبَّلَها»[٨].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: أقبَلَت فاطمةُ تَمشي، كَأنَّ مِشيَتَها مَشيُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَرحَبًا بابنَتي**»، ثم أجلَسَها، عن يَمينِهِ، أو عن شِمالِهِ... الحديث[٩].

وفي هذا الحديثِ: مَكانةُ فاطمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِن النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وشِدَّةُ حُبِّهِ لها.

وفيه: احتِفاؤُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها، إذا لَقيَها.

---

(١) المفهم (٢٢/ ١٠٣).

(٢) فتح الباري (١٨/ ٨١).

(٣) التيسير بشرح الجامع الصغير (١/ ٧٦).

(٤) رواه البخاري (٥٢٣٠)، ومسلم (٢٤٤٩).

(٥) السَّمت: القصد، والطَّريق القويم. فتح الباري (١٠/ ٦٠١).

(٦) قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «الدَّلُّ، والهديُ، والسَّمت: عبارةٌ عن الحالة التي يكون عليها الإنسان، من السَّكينة، والوقار، وحسن السِّيرة، والطَّريقة، واستقامة المنظر، والهيئة». النهاية (٢/ ١٣١).

(٧) رواه الترمذي في سننه (٣٨٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٠٣٩).

(٨) رواه أبوداود (٥٢١٧)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٦٨٩). وقوله: «فأخذ بيدها»، أي: تكريمًا لها.

(٩) رواه البخاري (٣٦٢٤)، ومسلم (٢٤٥٠).

* **وأمَّا حُبُّهُ ﷺ لعليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه:**

فيدُلُّ عليه: حديثُ سَهلِ بنِ سَعدٍ رضي الله عنه، قال: قال النبيُّ ﷺ يومَ خَيبَرَ: «**لَأُعطِيَنَّ الرايَةَ -غدًا- رَجُلًا يُفتَحُ على يَدَيهِ، يُحِبُّ اللهَ ورسولَهُ، ويُحِبُّهُ اللهُ ورسولُهُ**»، فباتَ الناسُ -لَيلَتَهم-: أيُّهم يُعطَى، فغَدَوا كُلُّهم يَرجوهُ، فقال: «**أينَ عليٌّ؟**»، فقيل: يَشتكي عَينَيهِ، فبَصَقَ في عَينَيهِ، ودَعا لَهُ، فبَرَأ، كَأن لم يَكُن بِهِ وجَعٌ، فأعطاهُ، فقال: أُقاتِلُهم حتى يكونوا مِثلَنا؟ فقال: «**انفُذ على رِسلِكَ، حتى تَنزِلَ بساحَتِهِم، ثم ادعُهم إلى الإسلامِ، وأخبِرهم بما يَجِبُ عليهم، فواللهِ لَأن يَهديَ اللهُ بكَ رَجُلًا، خَيرٌ لَكَ من أن يكونَ لَكَ حُمرُ النَّعَمِ**»(١).

* **وقد جَعَلَ النبيُّ ﷺ حُبَّهُ من علامةِ الإيمانِ:**

فعن عليٍّ رضي الله عنه قال: «**والذي فلَقَ الحَبَّةَ**(٢)**، وبَرَأ النَّسَمَةَ**(٣)**، إنَّهُ لَعَهدُ النبيِّ الأُمِّيِّ ﷺ إلَيَّ: أن لا يُحِبَّني إلا مُؤمِنٌ، ولا يُبغِضَني إلا مُنافِقٌ**»(٤).

ومعنى ذلك: أنَّ مَن عَرَفَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رضي الله عنه، وقُربَهُ من رسولِ الله ﷺ، وحُبَّ النبيِّ ﷺ لَهُ، وما كان منه في نُصرَةِ الإسلامِ، وسَوابِقَه فيه، ثم أحَبَّهُ لهذا: كان ذلك من دَلائِلِ صِحَّةِ إيمانِهِ، وصِدقِهِ في إسلامِهِ، ومَن أبغَضَهُ: كان بضِدِّ ذلك، واستُدِلَّ بِهِ على نِفاقِه، وفَسادِ سَريرَتِه(٥).

* **وأمَّا حُبُّهُ ﷺ للحَسنِ، والحُسَينِ:**

فعن أُسامَةَ بنِ زَيدٍ رضي الله عنهما، قال: طَرَقتُ النبيَّ ﷺ، ذاتَ لَيلَةٍ، في بَعضِ الحاجَةِ، فخرجَ النبيُّ ﷺ، وهو مُشتَمِلٌ على شيءٍ، لا أدري ما هوَ.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦).

(٢) فلق الحبَّة: شقَّها بالنبات.

(٣) برأ النَّسمة؛ أي: خلق النَّسمة، وهي الإنسان.

(٤) رواه مسلم (٧٨).

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٦٤).

فلمَّا فرَغتُ من حاجَتي قُلتُ: ما هذا الذي أنتَ مُشتَمِلٌ عليه؟

فَكَشَفهُ، فإذا حَسَنٌ، وحُسَينٌ، على ورِكَيهِ.

فقال: «**هَذانِ ابناىَ، وابنا ابنَتي، اللهمَّ إنِّي أُحِبُّهما فأحِبَّهما، وأحِبَّ مَن يُحِبُّهما**»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرجتُ مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في طائِفَةٍ مِنَ النَّهارِ، لا يُكَلِّمُني، ولا أُكَلِّمُهُ، حتى جاءَ سوقَ بَني قَينُقاعَ، ثم انصَرَفَ، حتى أتَى خِباءَ فاطمةَ، فقال: «**أثَمَّ لُكَعُ؟ أثَمَّ لُكَعُ؟**»(٢) يعني: حَسَنًا.

فَظَنَنَّا أنَّهُ إنما تَحبِسُهُ أُمُّهُ؛ لأن تُغَسِّلَهُ، وتُلبِسَهُ سِخابًا(٣)، فلَم يَلبَث أن جاءَ يَسعَى، حتى اعتَنَقَ كُلُّ واحِدٍ منهما صاحِبَهُ.

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهمَّ إنِّي أُحِبُّهُ؛ فأحِبَّهُ، وأحبِب مَن يُحِبُّهُ».

قال أبو هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فما كان أحَدٌ أحَبَّ إلَيَّ من الحَسَنِ بنِ عليٍّ، بعدَ ما قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما قال»(٤).

وعن يَعلى بنِ مُرَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّهم خرجوا مع النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى طعامٍ دُعوا لَهُ، فإذا حُسَينٌ يَلعَبُ في السِّكَّةِ، فتَقَدَّمَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمامَ القَومِ، وبَسَطَ يَدَيهِ، فجَعَلَ الغُلامُ يَفِرُّ هاهُنا، وهاهُنا، ويُضاحِكُهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى أخَذَهُ، فجَعَلَ إحدَى يَدَيهِ تحتَ ذَقنِهِ، والأُخرَى في فأسِ رَأسِهِ(٥)، فقَبَّلَهُ.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حُسَينٌ مِنِّي، وأنا من حُسَينٍ، أحَبَّ اللهُ مَن أحَبَّ حُسَينًا، حُسَينٌ سِبطٌ مِنَ الأسباطِ**»(٦).

---

(١) رواه الترمذي، وحسنه (٣٧٦٩)، وحسنه الألباني.

(٢) اللُّكع: يطلق على معنيين: أحدهما: الصغير، والآخر: اللَّئيم، والمراد هنا: الأول.

(٣) السِّخاب هو: قلادةٌ من القرنفل، والمسك، والعود، ونحوها من أخلاط الطِّيب، يعمل على هيئة السُّبحة، ويجعل قلادة للصِّبيان والجواري. شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ١٩٣).

(٤) رواه البخاري (٢١٢٢)، ومسلم (٢٤٢١).

(٥) هو: طرف مؤخره، المنتشر على القفا.

(٦) رواه الترمذي (٣٧٧٥)، وابن ماجه (١٤٤)، وحسنه الألباني في التعليقات الحسان (٦٩٣٢).

وقولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حُسَين مِنِّي، وأنا من حُسَين**»: أي: بَيننا مِن الاتِّحادِ، والاتِّصال، ما يَصِحُّ أن يُقال: كُلٌّ منهما من الآخر.

والسِّبط، هوَ: ولَدُ الوَلَدِ، وقالهُ؛ تَأكيدًا للاتِّحادِ، والبَعضيَّةِ، وتَقريرًا لها.

وقيل: يُطلَقُ السِّبطُ على القَبيلَةِ، وهو المُرادُ هاهُنا، والمقصودُ: الإخبارُ ببَقائِهِ، وكَثرَةِ أولادِهِ، على معنى: أنَّهُ يَتَشَعَّبُ منه قَبيلَةٌ، ويكونُ من نَسلِهِ خَلقٌ كَثيرٌ، فيكونُ إشارَةً إلى أنَّ نَسلَهُ يكونُ أكثَرَ، وأبقى، وكان الأمرُ كَذلك.

وقيل: المُرادُ أنَّهُ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ في الخَيرِ، على حَدِّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠][١].

* وقد اعتبَرَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَفيدَيهِ، رَيحانَتَيهِ مِن الدُّنيا:

فَعنِ ابنِ أبي نعم رَحِمَهُ اللهُ قال: كنتُ شاهِدًا لابنِ عمرَ، وسَألَهُ رَجُلٌ عن دَمِ البَعوضِ، **فقال**: مِمَّن أنتَ؟ فقال: من أهلِ العِراقِ. **قال**: انظُروا إلى هذا يَسألُني عن دَمِ البَعوضِ، وقد قَتَلوا ابنَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسَمِعتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**هما رَيحانَتايَ مِنَ الدُّنيا**»[٢].

وقولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رَيحانَتايَ**»: المعنى: أنَّهما مِمَّا أكرَمَني الله، وحَباني بِهِ؛ لأنَّ الأولاد يُشَمُّونَ، ويُقَبَّلونَ، فكَأنَّهم من جُملَة الرياحين.

وقوله: «**مِنَ الدُّنيا**»، أي: نَصيبي مِنَ الريحان الدُّنيَويِّ[٣].

* ومِمَّن كان يُحِبُّهم النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أقارِبِهِ: عَمُّهُ أبو طالبٍ:

«فَقَد كان يَحوطُهُ، ويَنصُرُهُ، ويَقومُ في صَفِّهِ، وكان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّهُ حُبًّا شَديدًا، حُبًّا طَبعيًّا، لا شَرعيًّا، فلَمَّا حَضَرَتهُ الوَفاةُ، وحانَ أجَلُهُ، دَعاهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الإيمانِ،

---

(١) انظر: تحفة الأحوذي (١٠/ ١٧٨)، حاشية السِّنديِّ على ابن ماجه (١/ ٦٥).

(٢) رواه البخاري (٥٩٩٤).

(٣) فتح الباري (١٠/ ٤٢٧).

والدُّخولِ في الإسلام، فسَبَقَ القَدَرُ فيه، واختُطِفَ من يَدِهِ، فاستَمَرَّ على ما كان عليه مِن الكُفرِ، ولله الحِكمَةُ التَّامَّةُ»[١].

وعن سَعيدِ بنِ المُسَيَّبِ عن أبيهِ قال: لَمَّا حَضَرَت أبا طالبٍ الوفاةُ[٢]، جاءَهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوَجَدَ عندَهُ أبا جَهلٍ، وعبدَاللهِ بنَ أبي أُمَيَّةَ بنِ المُغيرَةِ.

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا عَمِّ، قُل لا إلَهَ إلا اللهُ، كَلِمَةً أشهَدُ لك بها عندَ اللهِ**».

فقال أبو جَهلٍ، وعبدُاللهِ بنُ أبي أُمَيَّةَ: يا أبا طالبٍ، أترغَبُ عن مِلَّةِ عبدِالمُطَّلِبِ؟

فَلَم يَزَل رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعرِضُها عليه، ويُعيدُ له تِلكَ المقالَةَ، حتى قال أبو طالبٍ -آخِرَ ما كَلَّمَهم-: هو على مِلَّةِ عبدِالمُطَّلِبِ[٣]، وأبى أن يقولَ لا إلَهَ إلا اللهُ[٤].

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أما واللهِ لَأستَغفِرَنَّ لك، ما لم أُنهَ عنك**».

فأنزلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

وأنزلَ اللهُ تعالى في أبي طالبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦][٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾: يكونُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: مَعناهُ: مَن أحبَبتَه؛ لقَرابَتِهِ.

والثاني: مَن أحبَبتَ أن يَهتَدي[٦].

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٤٦).

(٢) المراد: قربت وفاته، وحضرت دلائلها، وذلك قبل المعاينة، والنَّزع، ولو كان في حال المعاينة، والنَّزع، لما نفعه الإيمان. شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ٢١٤).

(٣) قال النووي: «فهذا من أحسن الآداب، والتصرُّفات، وهو: أن من حكى قول غيره القبيح، أتى به بضمير الغيبة؛ لقبح صورة لفظه الواقع» شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ٢١٤).

(٤) وفي رواية لمسلم (٢٥) من حديث أبي هريرة: قال: «لولا أن تعيِّرني قريشٌ، يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع، لأقررت بها عينك».

(٥) رواه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤)، واللفظ له.

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ٢١٥).

فائدة:

قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: «﴿إِنَّكَ﴾ أيُّها الرسولُ، ﴿لَا تَهْدِي﴾ لا تَملِكُ هِدايَةَ ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ من أقارِبِك، وعَمِّك.

والمُرادُ بالمحبَّةِ هُنا: المحبَّةُ الطَّبعيَّةُ، ليست المحبَّة الدِّينيَّة، فالمحبَّةُ الدينيَّةُ لا تَجوزُ للمُشرِكِ، ولو كان أقربَ الناسِ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، فالمودَّةُ الدِّينيَّةُ لا تَجوزُ، أمَّا الحُبُّ الطَّبعيُّ: فهذا لا يدخلُ في الأُمورِ الدِّينيّةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ نَفَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن نَبيِّهِ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّهُ يَملِكُ الهِدايَةَ لأحدٍ، كَما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

فإن قُلتَ: أليسَ اللهُ جلَّ وعَلا قال في الآيةِ الأُخرَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فأثبَتَ في هذهِ الآيةِ أنَّ الرسولَ يَهدي إلى صِراطٍ مُستقيمٍ؟

فالجوابُ عن ذلك: أنَّ الهِدايَةَ هِدايَتان:

١. هِدايَةٌ يَملِكُها الرسولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٢. وهِدايَةٌ لا يَملِكُها.

أمَّا الهِدايَةُ التي يَملِكُها الرسولُ، فهي: هِدايَةُ الإرشادِ، والدَّعوةِ، والبَيانِ، ويَملِكُها كُلُّ عالمٍ، يَدعو إلى الخَيرِ.

أمَّا الهِدايَةُ المنفيَّةُ، فهي: هِدايةُ القُلوبِ، وإدخالُ الإيمانِ في القُلوبِ، لا يَملِكُهُ أحَدٌ إلا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فنحنُ عَلَينا الدَّعوَةُ، وهِدايَةُ الإرشادِ، والإبلاغُ، أمَّا هِدايَةُ القُلوبِ: فهذِهِ بيَدِ اللهِ

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا أحَدَ يَستَطيعُ أن يوجِدَ الإيمانَ في قَلبِ أحَدٍ، إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، هذا هو الجَوابُ عن الآيتَينِ الكريمَتَينِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ فلا يَضَعُ هِدايَةَ القَلبِ، إلا فيمَن يَستَحِقُّها، أمَّا الذي لا يَستَحِقُّها: فإنَّ اللهَ يَحرِمُهُ منها، واللهُ عليمٌ حكيمٌ جَلَّ وعَلا، ما يُعطي هِدايَةَ القَلبِ لكُلِّ أحَدٍ.

وإنما يُعطيها سبحانه مَن يَعلَمُ أنَّهُ يَستَحِقُّها، وأنَّهُ أهلٌ لها، أمَّا الذي يَعلَمُ منه أنَّهُ ليس أهلًا لها، ولا يَستَحِقُّها: فإنَ اللهَ يَحرِمُهُ منها، ومِن ذلك: حِرمانُ أبي طالبٍ، حَرَمَهُ اللهُ مِنَ الهِدايَةِ؛ لأنَّهُ لا يَستَحِقُّها، فلِذلك حَرَمَهُ منها»[١].

* وكان النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يحبُّ زَوجاتِهِ، وخاصّةً: خديجة، وعائشة:

قالت عائشةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «ما غِرتُ على نِساءِ النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، إلا على خديجَةَ، وإنِّي لم أُدرِكها.

كان رسولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذا ذَبحَ الشَّاةَ يقولُ: «**أرسِلوا بها إلى أصدِقاءِ خديجَةَ**».

فَأغضَبتُهُ يومًا، فقُلتُ: خديجَةَ!

فقال رسولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنِّي قَد رُزِقتُ حُبَّها**»[٢].

وفي رواية: ما غِرتُ على أحَدٍ من نِساءِ النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ما غِرتُ على خديجَةَ، وما رَأيتُها، ولكن كان النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يُكثِرُ ذِكرَها، ورُبَّما ذَبحَ الشَّاةَ، ثم يُقَطِّعُها أعضاءً، ثم يَبعَثُها في صَدائِقِ خديجَةَ، فرُبَّما قُلتُ لَهُ: كَأنَّهُ لم يَكُن في الدُّنيا امرَأةٌ، إلا خديجَةُ.

فيقولُ: «**إنَّها كانت، وكانت، وكان لي منها ولَدٌ**»[٣].

---

(١) إعانة المستفيد بشرح كتاب التَّوحيد (١/ ٢٥٨).
(٢) رواه البخاري (٣٨١٦)، ومسلم (٢٤٣٥)، واللفظ له.
(٣) رواه البخاري (٣٨١٨).

ومعنى قولِهِ ﷺ: «**كانت، وكانت**»، أي: كانت فاضِلَةً، وكانت عاقِلَةً، ونَحو ذلك، وكان جَميعُ أولادِ النبيِّ ﷺ من خديجةَ، إلا إبراهيمَ، فإنَّهُ كان من جاريَتِهِ ماريَةَ[1].

وما هذا الحُبُّ إلا لسَبقِ خديجةَ رَضِيَ اللهُ عَنها للإسلامِ، ونُصرَةِ النبيِّ ﷺ في بدايةِ دعوتِهِ لدينِ اللهِ.

وكانت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنها، **لها مَنزِلَةٌ خاصَّةٌ في قَلبِ رسولِ اللهِ**، وكان يُظهِرُ ذلك الحُبَّ، ولا يُخفيه، وقد تقدَّمَ حديثُ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، لَمَّا سألَ النبيَّ ﷺ: أيُّ الناسِ أحَبُّ إلَيكَ؟

قال: «**عائشةُ**» ... الحديث[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «مِن خَصائِصِ عائشةَ: أنَّها كانت أحَبَّ أزواجِ رسولِ اللهِ ﷺ إليه»[3].

* **وكان المسلمونَ يَعلمونَ حُبَّ النبيِّ ﷺ لعائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنها؛ فيَتَحَرَّونَ بهَداياهم يومَها عِند رسولِ اللهِ:**

فعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنها: أنَّ نِساءَ رسولِ اللهِ ﷺ كُنَّ حِزبَينِ:

فَحِزبٌ فيه عائشةُ، وحَفصَةُ، وصَفيَّةُ، وسَودَةُ.

والحِزبُ الآخَرُ: أُمُّ سَلَمَةَ، وسائِرُ نِساءِ رسولِ اللهِ ﷺ.

وكان المسلمونَ قَد عَلِموا حُبَّ رسولِ اللهِ ﷺ عائشةَ، فإذا كانت عندَ أحَدِهِم هَديَّةٌ، يُريدُ أن يُهديَها إلى رسولِ اللهِ ﷺ، أخَّرَها، حتى إذا كان رسولُ اللهِ ﷺ في بَيتِ عائشةَ، بَعَثَ صاحِبُ الهَديَّةِ بها، إلى رسولِ اللهِ ﷺ، في بَيتِ عائشةَ.

---

(١) فتح الباري (١١/ ١٣٣).

(٢) رواه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).

(٣) جلاء الأفهام (ص٢٣٨).

فَكَلَّمَ حِزبُ أُمِّ سَلَمَةَ، فقُلنَ لها: كَلِّمي رسولَ اللهِ ﷺ يُكَلِّمُ الناسَ، فيقولُ: «**من أرادَ أن يُهديَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ هَديَّةً، فليُهدِهِ إليه حيث كان من بُيوتِ نِسائِهِ**».

فَكَلَّمَتهُ أُمُّ سَلَمَةَ بما قُلنَ، فلَم يَقُل لها شَيئًا.

فَسَألنَها، فقالت: ما قال لي شَيئًا.

فقُلنَ لها: فكَلِّميهِ.

قالت: فكَلَّمَتهُ، حينَ دارَ إلَيها -أيضًا-، فلَم يَقُل لها شَيئًا.

فَسَألنَها، فقالت: ما قال لي شَيئًا.

فقُلنَ لها: كَلِّميهِ، حتى يُكَلِّمَكِ.

فَدارَ إلَيها، فكَلَّمَتهُ، فقال لها: «**لا تُؤذيني في عائشةَ؛ فإنَّ الوَحيَ لم يَأتِني وأنا في ثَوبِ امرَأةٍ، إلا عائشةَ**».

فقالت: أتوبُ إلى اللهِ من أذاكَ يا رسولَ اللهِ.

ثم إنَّهُنَّ دَعَونَ فاطمةَ بنتَ رسولِ اللهِ ﷺ.

فاستَأذَنَت عليه، وهو مُضطَجِع مَعي في مِرطي.

فقالت: يا رسول الله إنَّ أزواجك أرسَلنَني، يَسألنَك العَدل في بنت ابن أبي قُحافَة[1]، وأنا ساكِتَةٌ.

فقال: «**يا بُنَيَّةُ، ألا تُحِبِّينَ ما أُحِبُّ؟**».

قالت: بَلى.

قال: «**فَأَحِبِّي هَذِهِ**».

---

(١) أي: يطلبن العدل والمساواة في قضية الهدايا، بحيث لا تكون مخصوصةً بيوم عائشة، والنبيُّ ﷺ معذورٌ في هذا الأمر؛ لأن إرسال الهدايا ليس من فعله، وإنما هو من فعل الناس، ومن غير اللائق أن يحدد للناس وقت إرسال هداياهم، قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «وإنما لم يمنعهم النبيُّ ﷺ؛ لأنه ليس من كمال الأخلاق: أن يتعرَّض الرجل إلى الناس بمثل ذلك؛ لما فيه من التعرض لطلب الهدية» فتح الباري (٥/ ٢٠٨).

فَقامَت فاطمةُ حينَ سَمِعت ذلك، فرَجَعَت إلى أزواجِ النبيِّ ﷺ، فأخبَرَتهُنَّ بالذي قالت، وبالذي قال لها رسولُ اللهِ ﷺ.

فقُلنَ لها: ما نُراكِ أغنَيتِ عَنَّا من شيءٍ، فارجِعي إلى رسولِ اللهِ ﷺ.

فقالت فاطمةُ: واللهِ لا أُكَلِّمُهُ فيها أبَدًا.

فأرسَلنَ زينبَ بنتَ جَحشٍ، وهي التي كانت تُساميني منهنَّ في المنزِلَةِ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ، ولم أرَ امرَأةً قَطُّ خَيرًا في الدِّينِ من زينبَ، وأتقى للهِ، وأصدَقَ حديثًا، وأوصَلَ للرَّحِمِ، وأعظَمَ صَدَقَةً، وأشَدَّ ابتِذالًا لنَفسِها في العَمَلِ الذي تصدَّقُ بهِ، وتقرَّبُ بهِ إلى اللهِ تعالى، ما عَدا سَورَةً من حِدَّةٍ كانت فيها، تُسرِعُ منها الفيئَةَ[١].

فذهَبَت زَينَبُ حتى استَأذَنَت، ورسولُ الله ﷺ مع عائشةَ في مِرطِها، على الحال التي دخلَت فاطمةُ وهو بها.

فقالت: يا رسولَ اللهِ، إنَّ أزواجَكَ أرسَلنَني إلَيكَ، يَسألنَكَ العَدلَ في ابنَةِ أبي قُحافَةَ.

قالت: ثم وقَعَت بي، فاستَطالَت عَلَيَّ.

قالت عائشةُ: وأنا أرقُبُ رسولَ الله ﷺ، وأرقُب طَرفَهُ: هَل يَأذَنُ لي فيها؟ فلَم تَبرَح زَينَبُ، حتى عَرَفتُ أنَّ رسولَ الله ﷺ لا يكرَهُ أن أنتَصِرَ.

قال: فتكَلَّمَت عائشةُ، تَرُدُّ على زَينَبَ، حتى أسكَتَتها.

قالت: فنَظَرَ النبيُّ ﷺ إلى عائشةَ، وتَبَسَّمَ، وقال: «**إنَّها بنتُ أبي بكرٍ**»[٢].

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَفيه: تَنافُسُ الضَّرائِرِ، وتَغايُرُهنَّ على الرجُلِ، وأنَّ الرجُلَ يَسَعُهُ السُّكوتُ إذا تَقاوَلنَ، ولا يَميلُ مع بَعضٍ على بَعضٍ»[٣].

---

(١) ومعنى الكلام: أنها كاملة الأوصاف، إلا أن فيها شدة خلقٍ، وسرعة غضبٍ، تسرع منها الفيئة؛ أي: الرجوع. شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ٢٠٦).

(٢) إشارة إلى كمال فهمها، ومتانة عقلها؛ حيث صبرت، إلى أن ثبت أن التعدي من جانب الخصم، ثم أجابت بجواب إلزام، فهي عاقلة عارفة كأبيها. والحديث رواه البخاري (٢٥٨١)، ومسلم (٢٤٤٢).

(٣) فتح الباري (٥/ ٢٠٨).

* ومِن حُبِّهِ لها: أنَّهُ كان يحبُّ أن يُمَرَّضَ في بيتِها:

فَعن عُروةَ بنِ الزَّبيرِ: أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا كان في مَرَضِهِ، جَعَلَ يَدورُ في نِسائِهِ، ويقولُ: «**أينَ أنا غَدًا؟ أينَ أنا غَدًا؟**»؛ حِرصًا على بَيتِ عائشةَ[1]، قالت عائشةُ: فلمَّا كان يومي، سَكَنَ[2].

أي: «سَكَتَ عن ذلك القولِ»[3].

* وقد ماتَ على نَحرِها، وخالَطَ ريقُهُ ريقَها:

فعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: توُفِّيَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بَيتي، وفي يومي، وبين سَحري[4] ونَحري.

وكانت إحدانا تُعَوِّذُهُ بدُعاءٍ إذا مَرِضَ، فذَهَبتُ أُعَوِّذُهُ، فرَفَعَ رَأسَهُ إلى السَّماءِ، وقال: «**في الرفيقِ الأعلى، في الرفيقِ الأعلى**».

ومَرَّ عبدُالرحمَنِ بنُ أبي بكرٍ، وفي يَدِهِ جَريدَةٌ رَطبَةٌ، فنَظَرَ إليه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فظَنَنتُ أنَّ له بها حاجَةً، فأخَذتُها، فمَضَغتُ رَأسَها، ونَفَضتُها، فدَفَعتُها إليه، فاستَنَّ بها، كَأحسَنِ ما كان مُستَنًّا، ثم ناوَلَنيها، فسَقَطَت يَدُهُ، أو سَقَطَت من يَدِهِ، فجَمَعَ اللهُ بين ريقي وريقِهِ، في آخِرِ يومٍ من الدُّنيا، وأوَّلِ يومٍ من الآخِرَةِ[5].

* ومِنَ الصَّحابَةِ الذينَ يُحِبُّهُمُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مُعاذُ بنُ جبلٍ:

فَعن أبي عبدِالرحمَنِ الحُبُلِيِّ، عن الصُّنابِحيِّ، عن مُعاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخَذَ بيَدِهِ، وقال: «**يا مُعاذُ، واللهِ إنِّي لَأُحِبُّكَ، واللهِ إنِّي لَأُحِبُّكَ، فلا تَدَعَنَّ في دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ أن تقولُ: اللهمَّ أعِنِّي على ذِكرِكَ، وشُكرِكَ، وحُسنِ عِبادَتِكَ**».

---

(١) وفي رواية في الصحيحين: «استبطاءً ليوم عائشة».

(٢) رواه البخاري (٣٧٧٤)، ومسلم (٢٤٤٣).

(٣) فتح الباري (٧/ ١٠٨).

(٤) السَّحر: هو الصدر، والرئة، تريد: أنه مات وهو مستند لصدرها، ما بين جوفها وعنقها. فتح الباري (١/ ١٣٠).

(٥) رواه البخاري (٤٤٥١).

وأوصَى بذلك مُعاذٌ الصُّنابِحيَّ، وأوصَى بهِ الصُّنابِحيُّ أبا عبدِالرحمَنِ الحُبُلي[١].

و«أخَذَ بيَدِهِ»: كأنَّهُ عَقدُ محبَّةٍ، وبَيعَةُ مَودَّةٍ.

وقولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**واللهِ إنِّي لأُحِبُّك**»؛ فيه: أنَّ مَن أحَبَّ أحَدًا، يُستَحَبُّ له إظهارُ المحبَّةِ لَهُ.

فقد كان مُعاذٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمَنزِلَةٍ عليَّةٍ، وهو أعلَم الأُمَّةِ بالحَلال والحَرامِ[٢]، ومِن فضلِهِ: أنَّهُ بعَثَهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُبلِّغًا عنهُ، داعيًا، ومُفقِّهًا، ومُفتيًا، وحاكِمًا إلى أهلِ اليَمَنِ.

وكان يُشَبَّه بإبراهيمَ الخَليلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإبراهيمُ إمامُ الناسِ، وكان ابنُ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقولُ: «إنَّ مُعاذًا كان أُمَّةً قانِتًا»، فأعادوا عليه، فأعادَ، ثم قال: «أتَدرونَ ما الأُمَّةُ؟ الذي يُعَلِّمُ الناسَ الخَيرَ، والقانِتُ: الذي يُطيعُ اللهَ ورسولَهُ»[٣].

وقولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أوصيكَ يا مُعاذُ لا تَدَعَنَّ ..**»؛ أي: إذا أرَدتَ ثَباتَ هَذِهِ المحَبَّةِ، فلا تَترُكَنَّ هذا الدُّعاءَ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِن أفضَلِ ما يُسألُ الربُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: الإعانَةُ على مَرضاتِهِ، وهو الذي عَلَّمَهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحِبِّهِ، مُعاذِ بنِ جَبلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فأنفَعُ الدُّعاءِ: طَلَبُ العَونِ على مَرضاتِهِ، وأفضَلُ المواهِبِ: إسعافُهُ بهذا المطلوبِ، وجَميعُ الأدعيةِ المأثورة، مَدارُها على هذا، وعلى دفعِ ما يُضادُّه، وعلى تكميلِهِ، وتَيسيرِ أسبابِهِ، فتَأمَّلها».

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَأمَّلتُ أنفعَ الدُّعاءِ، فإذا هو: سُؤالُ العَونِ على مَرضاتِهِ، ثُم رأيتُهُ في الفاتحة في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾...»[٤].

---

(١) رواه أبوداود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣)، وصححه الألباني في التعليقات الحسان (٢٠١٧).

(٢) رواه الترمذي (٣٧٩٠)، وصححه الألباني.

(٣) رواه الحاكم (٣٣٦٧)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي.

(٤) مدارج السالكين (١/ ١٠٠).

* ومنهم: الزبيرُ بنُ العوَّامِ:

قال مروانُ بنُ الحَكَمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أصابَ عثمانَ بنَ عفَّانَ رُعافٌ شَديدٌ، سَنَةَ الرُّعافِ[١]، حتى حَبَسَهُ عن الحَجِّ، وأوصَى[٢].

فَدَخَلَ عليه رَجُلٌ من قُرَيشٍ فقال: استَخلِف[٣].

قال: «وقالوهُ؟»[٤].

قال: نعم.

قال: «وَمَن؟»[٥].

فَسَكَتَ.

فَدَخَلَ عليه رَجُلٌ آخَرُ -أحسبُهُ الحارِثَ[٦]-، فقال: استَخلِف.

فقال عثمانُ: «وقالوا؟».

فقال: نعم.

قال: «ومَن هو؟».

فَسَكَتَ.

قال: «فَلَعَلَّهم قالوا: الزبيرَ».

قال: نعم.

---

(١) كان ذلك سنة إحدى وثلاثين، وكان للناس فيها رعافٌ كثيرٌ، كما ذكر عمر بن شبَّة في (كتاب المدينة)، وأفاد: أن عثمان كتب العهد بعده لعبدالرحمن بن عوفٍ، واستكتم ذلك حمران كاتبه، فوشى حمران بذلك إلى عبد الرحمن، فعاتب عبدالرحمن عثمان على ذلك، فغضب عثمان على حمران، فنفاه من المدينة إلى البصرة، ومات عبدالرحمن بعد ستة أشهرٍ. فتح الباري (٧/ ٨٠).

(٢) كتب وصيَّته؛ عملًا بالسُّنَّة.

(٣) أي: اعهد بالخلافة، لرجلٍ من بعدك.

(٤) أي: وقال الناس هذا؟

(٥) أي: من هو الخليفة الذي قالوا: إنِّي استخلفه؟

(٦) هو الحارث بن الحكم، أخو مروان.

قال: «أما والذي نَفسي بيَدِهِ، إنَّهُ لَخَيرُهم -ما عَلِمتُ-، وإن كان لَأحَبَّهم إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[١].

والزبيرُ، هو: ابنُ عَمَّةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صفيةَ بنتِ عبدِالمُطَّلِبِ، وزَوجُ أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ، وأحَدُ العَشَرَةِ المبشَّرينَ بالجَنَّةِ، وأحَدُ السِّتَّةِ أصحابِ الشُّورَى، الذينَ اختارَهم عمرُ.

* وقد جعلهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خاصَّتِهِ:

فعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ لكلِّ نبيٍّ حواريًّا، وإنَّ حواريَّ**[٢]**: الزبيرُ بنُ العوامِ**»[٣].

وقد كان الزبيرُ ذا مالٍ جَزيلٍ، وصَدَقاتٍ عَظيمةٍ، وفَضائِلُه مَشهورَةٌ، قال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «أسلَمَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَديمًا، وهو ابنُ سِتَّ عَشرَةَ سَنَةً، ويُقال: ابنُ ثَمانِ سِنينَ، وهاجَرَ الهِجرَتَينِ، وشَهِدَ المُشاهِدَ كُلَّها، وهو أوَّلُ مَن سَلَّ سَيفًا في سَبيلِ اللهِ، وقد جَمَعَ له رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ الخَنَدقِ أبَوَيهِ[٤]، وشَهِدَ اليرَموكَ، وكان أفضَلَ مَن شَهِدَها، واختَرَقَ -يومَئِذٍ- صُفوفَ الرُّومِ، من أوَّلهم إلى آخرهم -مرتينِ-، ويخرجُ منَ الجانبِ الآخرِ سالمًا، لكن جُرِحَ في قَفاهِ بِضَربَتَينِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ولَهُ فضائِلُ ومَناقِبُ كَثيرَةٌ»[٥].

* ومنهم: ابنُ مَسعودٍ، وعَمَّارُ بنُ ياسرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا:

فعن عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «أشهَدُ على رَجُلَينِ أنَّ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَد فارَقَ الدنيا وهو يحبُّهما: ابن سميَّةَ، وابن أُمِّ عبدٍ»[٦].

وكلاهما كان من السابقين الأولين، ومن النُّجباءِ العالمين، ومنَ الأعيانِ البدريِّينَ.

---

(١) رواه البخاري (٣٧١٧).

(٢) أي: خاصتي من أصحابي، وناصري. فالحواريُّ، هو: الوزير، وقيل: الناصر، وقيل: الخالص. فتح الباري (٧/ ٨٠).

(٣) رواه البخاري (٢٨٤٦)، ومسلم (٢٤١٥).

(٤) أي: قال له: فداك أبي وأمي.

(٥) البداية والنهاية (٨/ ٣٣٣).

(٦) رواه أحمد (١٧٧٨١)، وقال محققو المسند: «إسناده صحيح، على شرط مسلم».

* ومِمَّن كان يُحِبُّهم النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُبًّا كَثيرًا: أسامةُ بنُ زيدٍ، وأبوه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا:

فعن عبدِاللهِ بنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: بَعَثَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعثًا، وأمَّرَ عليهم أُسامَةَ بنَ زَيدٍ، فطَعَنَ بَعضُ الناسِ في إمارَتِهِ[١]، فقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن تَطعُنوا في إمارَتِهِ، فقَد كنتُم تَطعُنونَ في إمارَةِ أبيهِ من قبلُ**[٢]**، وايمُ اللهِ، إن كان لَخَليقًا للإمارَةِ، وإن كان لَمِن أحَبِّ الناسِ إلَيَّ، وإنَّ هذا لَمِن أحَبِّ الناسِ إلَيَّ بعدَهُ**»[٣].

وعن **فاطمةَ بنتِ قَيسٍ** رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أنَّ أبا عَمرِو بنَ حَفصٍ طَلَّقَها البَتَّةَ[٤]، وهو غائِبٌ، فأرسَلَ إلَيها وكيلُهُ بشَعيرٍ، فسَخِطَتهُ[٥]، فقال: واللهِ ما لَكِ عَلَينا من شيءٍ، فجاءَت رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذَكَرَت ذلك لَهُ، فقال: «**ليس لَكِ عليه نَفَقَةٌ**»[٦]، فأمَرَها أن تَعتَدَّ في بَيتِ أُمِّ شَريكٍ، ثم قال: «**تِلكِ امرَأةٌ يَغشاها أصحابي، اعتَدِّي عندَ ابنِ أُمِّ مَكتومٍ؛ فإنَّهُ رَجُلٌ أعمَى، تَضَعينَ ثيابَكِ**[٧]**، فإذا حَلَلتِ، فآذِنيني**».

قالت: فلَمَّا حَلَلتُ، ذَكَرتُ له أنَّ مُعاويَةَ بنَ أبي سُفيانَ وأبا جَهمٍ خَطَباني.

---

(١) قيل: إنما طعنوا فيه؛ لكونه مولىً، وقد كان في الجيش تحت إمرته: عمر، وأبوعبيدة، وسعدٌ، وغيرهم من الكبار، فتكلَّم بعض الناس، وقال: أمَّر غلامًا حدثًا، على جلة المهاجرين والأنصار. انظر: الروض الأنف (٧/ ٥٤٢)، فتح الباري (١٣/ ١٨٠).

(٢) يشير صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلى إمارة زيد بن حارثة، في غزوة مؤتة.

(٣) رواه البخاري (٣٧٣٠)، ومسلم (٢٤٢٦).

(٤) أي: طلَّقها طلاقًا، صارت به مبتوتة بالثَّلاث.

(٥) أي: ما رضيت به.

(٦) فيه: أنه لا نفقة ولا سكنى، للمطلَّقة ثلاثًا.

(٧) ومعنى هذا الحديث: أن الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم كانوا يزورون أمَّ شريكٍ، وهي من القواعد من النِّساء، وكانوا يكثرون التَّردُّد إليها؛ لصلاحها، وكرمها، وجودها، وعطائها عليهم، فرأى النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن على فاطمة -من الاعتداد عندها- حرجًا، من حيث إنه يلزمها التَّحفُّز من نظرهم إليها، ونظرها إليهم، وانكشاف شيءٍ منها، وفي التَّحفُّظ من هذا -مع كثرة دخولهم، وتردُّدهم-، مشقَّةٌ ظاهرةٌ، فأمرها بالاعتداد في بيت ابن عمِّها، ابن أمِّ مكتومٍ؛ لأنه لا يبصرها، ولا يتردَّد إلى بيته، من يتردَّد إلى بيت أمِّ شريكٍ. شرح النووي على صحيح مسلم (١٠/ ٩٦).

وقال ابن عبدالبرِّ: «فيه دليلٌ على أن المرأة المتجالَّة العجوز الصالحة، جائزٌ أن يغشاها الرِّجال في بيتها، ويتحدَّثون عندها، وكذلك لها أن تغشاهم في بيوتهم، ويرونها وتراهم، فيما يحلُّ، ويجمل، وينفع، ولا يضرُّ» الاستذكار (٦/ ١٦٨).

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أمَّا أبو جَهمٍ: فلا يَضَعُ عَصاهُ عن عاتِقِهِ**[١]**، وأمَّا مُعاويَةُ: فصُعلوكٌ**[٢]**، لا مالَ لَهُ، انكِحي أُسامَةَ بنَ زَيدٍ»**.

فكَرِهتُهُ[٣].

ثم قال: «انكِحي أُسامَةَ».

فنكَحتُهُ، فجَعَلَ اللهُ فيه خَيرًا، واغتَبَطتُ[٤].

وفي رواية: وكنتُ قد حُدِّثتُ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: « **مَن أحَبَّني فليُحِبَّ أُسامَةَ**»[٥].

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «وَأمَّا إشارَتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنِكاحِ أُسامَة: فلِما عَلِمَهُ من دينِه، وفَضلِه، وكَرَمِ شَمائِلِه، فنَصَحَها بذلك، فكَرِهَتهُ؛ لكَونِهِ مَولًى، وقد كان أسوَد جِدًّا، فكَرَّرَ عليها النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحَثّ على زَواجه؛ لما عَلِمَ من مَصلَحَتِها في ذلك، وكان كَذلك؛ ولهذا قالت: «فَجَعَلَ الله لي فيه خَيرًا، واغتَبَطتُ»»[٦].

وقد كان الصَّحابةُ يعلمونَ حُبَّ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأسامةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ ولهذا حينَ أهَمَّ قريشًا شأنُ المخزوميةِ التي سَرَقت، قالوا: «وَمَن يَجتَرِئُ عليه، إلا أُسامَةُ بنُ زَيدٍ، حِبُّ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟»[٧].

وعن أسامةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنَّهُ كان يَأخُذُهُ والحَسَنَ، فيقولُ: **«اللهمَّ أحِبَّهما؛ فإنِّي أُحِبُّهما»**[٨].

---

(١) فيه تفسيران مشهوران، أحدهما: أنه كثير الأسفار، والثاني: أنه كثير الضَّرب للنِّساء وهذا أصحُّ، بدليل ما في صحيح مسلم (١٤٨٠): «وأمَّا أبو جهم: فرجلٌ ضرَّابٌ للنِّساء»، وفيه: دليلٌ على جواز ذكر الإنسان بما فيه، عند المشاورة، وطلب النَّصيحة، ولا يكون هذا من الغيبة المحرَّمة، بل من النَّصيحة الواجبة. شرح النووي على صحيح مسلم (١٠/ ٩٧).

(٢) الصُّعلوك: الفقير، الذي لا مال له.

(٣) وكان شديد السواد، وكان أبوه أبيض.

(٤) رواه مسلم (١٤٨٠).

(٥) رواه مسلم (٢٩٤٢).

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم (١٠/ ٩٨).

(٧) رواه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨).

(٨) رواه البخاري (٣٧٣٥).

وعن عائشةَ أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: أرادَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُنَحِّيَ مُخاطَ أُسامَةَ، قالت عائشةُ: دَعني؛ حتى أكونَ أنا الذي أفعَلُ، قال: «**يا عائشةُ أحِبِّيهِ؛ فإنِّي أُحِبُّهُ**»[١].

*** ومِن الصَّحابَةِ الذينَ كان يُحِبُّهم النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: زاهرُ بنُ حَرامٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:**

وكان بَدَويًّا من أشجَعَ، لا يأتي النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلا أتاهُ بطُرفةٍ أو تُحفةٍ مِن الباديةِ[٢].

فعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَّ رَجُلًا من أهلِ الباديَةِ، كان اسمُهُ زاهِرًا، كان يُهدي للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الهَديَّةَ مِنَ الباديَةِ، فيُجَهِّزُهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أرادَ أن يَخرُجَ، فقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ زاهِرًا باديَتُنا**[٣]**، ونَحنُ حاضِروهُ**[٤]» وكان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّهُ، وكان رَجُلًا دَميمًا، فأتاهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومًا، وهو يَبيعُ مَتاعَهُ، فاحتَضَنَهُ من خَلفِهِ، وهو لا يُبصِرُهُ.

فقال: أرسِلني، مَن هَذا؟

فالتَفَتَ، فعَرَفَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجَعَلَ لا يَألو ما ألصَقَ ظَهرَهُ بصَدرِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حينَ عَرَفَهُ.

وجَعَلَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**مَن يَشتَري العبدَ؟**»[٥]، فقال: يا رسولَ اللهِ، إذًا -واللهِ- تَجِدُني كاسِدًا.

فقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لكنك عندَ اللهِ لَستَ بكاسِدٍ**»، أو قال: «**لكن عندَ اللهِ أنتَ غالٍ**»[٦].

وفي الحديثِ: التنبيهُ على أنَّ المدارَ على حُسنِ الباطِنِ؛ ولِذا قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ لا يَنظُرُ إلى صوَرِكُم، وأموالِكُم، ولكن يَنظُرُ إلى قُلوبِكُم، وأعمالِكُم**»[٧].

---

(١) رواه الترمذي (٣٨١٨)، وحسنه الألباني.

(٢) الإصابة (٢/ ٤٥٢).

(٣) أي: ساكن باديتنا، أو: يهدي إلينا من باديتنا.

(٤) أي: نجهزه ما يحتاجه من الحاضرة.

(٥) وهذا من مزاحه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي لا يقول فيه إلا حقًّا؛ حيث أطلق عليه العبد؛ لكون الناس كلِّهم عبيدًا لله.

(٦) رواه أحمد في مسنده (١٢٦٤٨)، وقال محققو المسند: «إسناده صحيح، على شرط الشيخين».

(٧) رواه مسلم (٢٥٦٤)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

* حُبُّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأنصارِ:

ومِمَّن أحَبَّهم النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُبًّا شديدًا: الأنصارُ؛ لما لهم مِن الفَضلِ، في نُصرَةِ هذا الدِّينِ، والذَّودِ عَنهُ.

* وقد صرَّحَ لهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحُبِّهِ:

فعن أنسِ بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رَأى النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النِّساءَ والصِّبيانَ مُقبِلينَ من عُرُسٍ، فقامَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **مُمْثِلًا**(١)، فقال: «**اللهمَّ أنتم من أحَبِّ الناسِ إليَّ، اللهمَّ أنتم من أحَبِّ الناسِ إليَّ، اللهمَّ أنتم من أحَبِّ الناسِ إليَّ**»، يعني: الأنصارَ(٢).

وفي رواية: عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ امرأةً مِنَ الأنصارِ أتَتِ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَعَها أولادٌ لها، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والذي نَفسي بيَدِهِ، إنَّكُم لَأحَبُّ الناسِ إليَّ**»، قالها ثَلاثَ مِرارٍ(٣).

وهذا يدلُّ على مَكانةِ الأنصارِ، في قَلبِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومِقدارِ حُبِّهِ لَهم.

والحُكمُ بأحَبِّيَّةِ الأنصارِ، إنما هو للمَجموعِ، وعلى طَريقِ الإجمال، أي: مَجموعُكُم أحبُّ إليَّ من مَجموعِ غَيرِكُم(٤).

* وجعلَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُبَّ الأنصارِ، عَلامةً على الإيمانِ:

فَعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**آيةُ الإيمانِ: حُبُّ الأنصارِ، وآيةُ النِّفاقِ: بُغضُ الأنصارِ**»(٥).

قال ابنُ التين رَحِمَهُ اللَّهُ: «المُرادُ: حُبُّ جَميعِهم، وبُغض جَميعِهم؛ لأنَّ ذلك إنما يكونُ للدِّينِ، ومَن أبغَضَ بَعضَهم؛ لَمعنًى يُسَوِّغُ البُغضَ لَهُ، فليس داخِلًا في ذلك».

---

(١) مثل الرجل: إذا انتصب قائمًا.

(٢) رواه البخاري (٣٧٨٥)، ومسلم (٢٥٠٨).

(٣) رواه البخاري (٦٦٤٥)، ومسلم (٢٥٠٩).

(٤) ينظر: الفتح (٧/ ١١٤)، عمدة القاري (١٦/ ٢٥٨).

(٥) رواه البخاري (١٧)، ومسلم (٧٤).

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَهوَ تَقريرٌ حَسَنٌ»(١).

*** ومعَ حُبِّهِ لهم صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يَكُن يُؤثِرُهم على غَيرِهِم بالعَطاءِ، بل رُبَّما قَدَّمَ غَيرَهم عليهم؛ لما يَعلمُهُ مِن إيمانِهم، ويَقينِهم:**

فعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ، قال: لَمَّا أعطَى رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أعطَى من تِلكَ العَطايا في قُرَيشٍ، وقَبائِلِ العَرَبِ، ولم يَكُن في الأنصارِ منها شيءٌ، وجَدَ هذا الحَيُّ مِنَ الأنصارِ في أنفُسِهِم، حتى كَثُرَت فيهِمُ القالَةُ، حتى قال قائِلُهم: لَقيَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَومَهُ، فدَخَلَ عليه سَعدُ بنُ عُبادَةَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ هذا الحَيَّ قَد وجَدوا عَلَيكَ في أنفُسِهِم؛ لما صَنَعتَ في هذا الفيءِ الذي أصَبتَ: قَسَمتَ في قَومِكَ، وأعطَيتَ عَطايا عِظامًا في قَبائِلِ العَرَبِ، ولم يَكُ في هذا الحَيِّ مِنَ الأنصارِ شيءٌ.

قال: «**فَأينَ أنتَ من ذلك يا سَعدُ؟**»

قال: يا رسولَ اللهِ، ما أنا إلا امرُؤٌ من قَومي، وما أنا؟

قال: «**فاجمَع لي قَومَكَ في هَذِهِ الحَظيرَةِ**».

قال: فخرجَ سَعدٌ، فجَمَعَ الأنصارَ في تِلكَ الحَظيرَةِ، قال: فجاءَ رِجالٌ مِنَ المُهاجِرينَ، فتَرَكَهم، فدَخَلوا وجاءَ آخَرونَ، فرَدَّهم، فلَمَّا اجتَمَعوا، أتاهُ سَعدٌ فقال: قَدِ اجتَمَعَ لَكَ هذا الحَيُّ مِنَ الأنصارِ، قال: فأتاهم رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحَمِدَ اللهَ، وأثنَى عليه بالذي هو له أهلٌ، ثم قال:

«**يا مَعشَرَ الأنصارِ، ما قالَةٌ بَلَغَتني عَنكُم، وجِدَةٌ وجَدتُموها في أنفُسِكُم؟ ألَم آتِكُم ضُلَّالًا فهَداكُمُ اللهُ؟ وعالَةً فأغناكُمُ اللهُ؟ وأعداءً فألَّفَ اللهُ بين قُلوبِكُم؟**».

قالوا: بَلِ اللهُ ورسولُهُ أمَنُّ وأفضَلُ.

قال: «**ألا تُجيبونَني يا مَعشَرَ الأنصارِ؟**»

---

(١) فتح الباري (٧/ ١١٤).

قالوا: وبماذا نُجيبُكَ يا رسولَ اللهِ، وللهِ ولِرسولِهِ المنُّ والفَضلُ؟

قال: «**أما واللهِ لَو شِئتُم لَقُلتُم، فلَصَدَقتُم وصُدِّقتُم:**

أتيتَنا مُكَذَّبًا فصَدَّقناكَ.

ومَخذولًا فنَصَرناكَ.

وطَريدًا فآوَيناكَ.

وعائِلًا فآسَيناكَ .

أوَجَدتُم في أنفُسِكُم يا مَعشَرَ الأنصارِ في لُعاعَةٍ مِنَ الدُّنيا، تَألَّفتُ بها قَومًا ليُسلِموا، ووَكَلتُكُم إلى إسلامِكُم؟ أفَلا تَرضَونَ يا مَعشَرَ الأنصارِ أن يَذهَبَ الناسُ بالشَّاةِ، والبَعيرِ، وتَرجِعونَ برسولِ اللهِ في رِحالكُم؟ فوالذي نَفسُ محمدٍ بيَدِهِ، لَولا الهِجرَةُ لَكنتُ امرَأً مِنَ الأنصارِ، ولو سَلَكَ الناسُ شِعبًا، وسَلَكَتِ الأنصارُ شِعبًا، لَسَلَكتُ شِعبَ الأنصارِ، اللهمَّ ارحَمِ الأنصارَ، وأبناءَ الأنصارِ، وأبناءَ أبناءِ الأنصارِ»

قال: فبَكَى القَومُ، حتى أخضَلوا لحاهم، وقالوا: رَضينا برسولِ اللهِ قسمًا وحَظًّا، ثم انصَرَفَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتَفَرَّقوا[١].

فلَمَّا شَرَحَ لهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما خَفيَ عليهم مِنَ الحِكمَة فيما صَنَعَ؛ رَجَعوا مُذعِنينَ، ورَأوا أنَّ الغَنيمَةَ العُظمَى: ما حَصَلَ لَهم من عَود رسول الله إلى بلادهم، فسَلَوا عن الشَّاةِ، والبَعير، بما حازوهُ من الفَوزِ العَظيمِ، ومُجاوَرَةِ النبيِّ الكريمِ لَهم حَيًّا ومَيِّتًا، وهذا دَأب الحَكيم، يُعطي كُلَّ أحَدٍ ما يُناسِبُهُ[٢].

فكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعطي مَن يَخشَى عليه الجَزَعَ والهَلَعَ، لَو مُنِعَ، ويَمنَعُ مَن يَثِقُ بصَبرِهِ، واحتِمالِهِ، وقَناعَتِهِ بثَوابِ الآخِرَةِ[٣].

---

(١) رواه أحمد (١١٧٣٠)، وحسنه محققو المسند، وينظر: البخاري (٤٣٣٣)، ومسلم (١٠٥٩).

(٢) فتح الباري (٨/ ٤٩).

(٣) فتح الباري (١٣/ ٥١١).

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: مَرَّ أبو بكرٍ والعبَّاسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بمَجلِسٍ من مَجالسِ الأنصارِ، وهم يَبكونَ.

فقال: ما يُبكيكُم؟

قالوا: ذَكَرنا مَجلِسَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَّا(١).

فَدَخَلَ(٢) على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخبَرَهُ بذلك.

فَخرجَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد عَصَبَ على رَأسِهِ حاشيَةَ بُردٍ(٣)، فصَعِدَ المِنبَرَ، ولم يَصعَدهُ بعدَ ذلك اليومِ، فحَمِدَ اللهَ، وأثنَى عليه، ثم قال:

«أوصيكُم بالأنصارِ؛ فإنَّهم كَرِشي، وعَيبَتي(٤)، وقد قَضَوُا الذي عليهم، وبَقيَ الذي لَهم، وإنَّ الناسَ يَكثُرونَ، وتَقِلُّ الأنصارُ، حتى يكونوا كالمِلحِ في الطَّعامِ، فاقبَلوا من مُحسِنِهم، وتَجاوَزوا عن مُسيئِهم»(٥).

وعُمومًا: فالصحابةُ رِضوانُ اللهِ عليهم أجمَعينَ، هم أحَبُّ الناسِ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنهم ليسوا على دَرجةٍ واحدةٍ مِن المحَبَّةِ، فحُبُّ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبعضِهم كان أكثرَ من البعضِ الآخرِ؛ ولهذا ورَدت أحاديثُ، تُقرِّرُ حُبَّ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لصحابَةٍ مُعَيَّنينَ.

ولا يَعني هذا: أنَّ مَن لم تذكرهُ الأحاديثُ فإنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يحبُّهُ، بل يُحِبُّهُ، ولكن مَن ذُكِرَ: فلَهُ حُبٌّ خاصٌّ في قلبِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) أي: الذي كانوا يجلسونه معه، وكان ذلك في مرض النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخشوا أن يموت من مرضه، فيفقدوا مجلسه، فبكوا؛ حزنًا على فوات ذلك.

(٢) أي: العبَّاس، كما ذكر ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٣) البرد: نوعٌ من الثياب معروفٌ، قال ابن سيده: «البرد: ثوبٌ فيه خطوطٌ». لسان العرب (٣/ ٨٧)، والحاشية: جانبه، وطرفه.

(٤) أي: بطانتي، وخاصَّتي، وموضع سرِّي، وأمانتي

(٥) رواه البخاري (٣٧٩٩)، ومسلم (٢٥١٠).

❋ وكان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ المساكينَ، ويسألُ اللهَ حُبّهم:

فعن عبدِالله بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أتاني اللَّيلَةَ رَبِّي** تَبَارَكَ وَتَعَالَى، **في أحسَنِ صورةٍ**، -قال: أحسَبُهُ في المنامِ- **فقال: يا محمدُ، هَل تَدري فيمَ يَختَصِمُ الملأُ الأعلى؟ قُلتُ: لا، فوَضَعَ يَدَهُ بين كَتِفيَّ، حتى وجَدتُ بَردَها بين ثَديَيَّ**، -أو قال: «**في نَحري**»-، **فعَلِمتُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ، قال: يا محمدُ، هَل تَدري فيمَ يَختَصِمُ الملأُ الأعلى؟ قُلتُ: نعم، في الكفَّاراتِ، والكفَّاراتُ: المُكثُ في المساجِدِ بعدَ الصَّلاةِ، والمشيُ على الأقدامِ إلى الجَماعاتِ، وإسباغُ الوُضوءِ في المكارِهِ، ومَن فعَلَ ذلك عاشَ بخَيرٍ وماتَ بخَيرٍ، وكان من خَطيئَتِهِ كيومِ ولَدَتهُ أُمُّهُ، وقال: يا محمدُ، إذا صَلَّيتَ فقُل: اللهمَّ إنِّي أسأَلُكَ فِعلَ الخَيراتِ، وتَركَ المُنكَراتِ، وحُبَّ المساكينِ، وإذا أرَدتَ بعِبادِكَ فِتنَةً، فاقبِضني إلَيكَ غَيرَ مَفتونٍ**»[(١)].

قال ابنُ رجبٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وَحُبُّ المساكينِ أصلُ الحُبِّ في اللهِ تعالى؛ لأنَّ المساكينَ ليس عِندَهم مِنَ الدُّنيا ما يوجِبُ محبَّتَهم لأجلِهِ، فلا يُحِبُّونَ إلا للهِ عَزَّ وَجَلَّ، والحبُّ في اللهِ مِن أوثقِ عُرى الإيمانِ»[(٢)].

❋ وحُبُّ المساكينِ قَد وصَّى بِهِ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، غَيرَ واحِدٍ من أصحابِهِ:

قال أبو ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أمَرَني خَليلي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسَبعٍ: «**أمَرَني بحُبِّ المساكينِ، والدُّنوِّ منهم، وأمَرَني أن أنظُرَ إلى مَن هو دوني، ولا أنظُرَ إلى مَن هو فوقي، وأمَرَني أن أصِلَ الرحِمَ، وإن أدبَرَت، وأمَرَني أن لا أسأَلَ أحَدًا شَيئًا، وأمَرَني أن أقولَ بالحَقِّ، وإن كان مُرًّا، وأمَرَني أن لا أخافَ في اللهِ لَومَةَ لائِمٍ، وأمَرَني أن أُكثِرَ من قولِ: لا حَولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ؛ فإنَّهُنَّ من كَنزٍ تحتَ العَرشِ**»[(٣)].

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٣٣)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٢) اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى (ص٩٣) .

(٣) رواه أحمد (٢١٤١٥)، وصححه محققو المسند.

ولم يَزَلِ السَّلفُ الصَّالحُ رِضوانُ اللهِ عليهم، يوصونَ بحُبِّ المساكينِ:

فَكتبَ سُفيانُ الثَّوريُّ إلى بعضِ إخوانِهِ: «عليكَ بالفُقَراءِ، والمساكينِ، والدُّنوِّ منهم؛ فإنَّ رسولَ اللهِ كان يَسألُ رَبَّهُ حُبَّ المساكينِ».

وحُبُّ المساكينِ مُستلزِمٌ لإخلاصِ العَمَلِ للهِ تعالى، والإخلاصُ هو أساسُ الأعمالِ، الذي لا تَثبُتُ الأعمالُ إلا عليه؛ فإنَّ حُبَّ المساكينِ يقتضي إسداءَ النَّفعِ إليهِم، بما يمكنُ من مَنافِعِ الدِّينِ والدُّنيا، فإذا حَصلَ إسداءُ النَّفعِ إليهم؛ حُبًّا لهم، والإحسانُ إليهِم، كان هذا العملُ خالصًا.

وقد دلَّ القرآنُ على ذلك، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨-٩].

وكان جعفرُ بنُ أبي طالبٍ يُحِبُّ المساكينَ، ويجلسُ إليهِم، ويُحَدِّثُهم، ويُحَدِّثونَهُ، وكان يكَنَّى: أبا المساكينِ.

وكانت زينبُ بنتُ خزيمةَ أم المؤمنين، تُسَمَّى أمَّ المساكينِ؛ لكثرَةِ إحسانِها إليهِم.

وكان ابنُ عمرَ لا يَأكُلُ -غالبًا- إلا مع المساكينِ، ويقولُ: «لَعلَّ بعضَ هؤلاءِ أن يكونَ مَلِكًا يومَ القيامَةِ»(١).

❋ وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ صاحِبَ الخُلُقِ الحَسَنِ:

قال عبدُاللهِ بنُ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يَكُن فاحِشًا، ولا مُتَفَحِّشًا، وقال: «**إنَّ من أحَبِّكُم إلَيَّ: أحسَنكُم أخلاقًا**»(٢).

وعن جابرٍ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ من أحَبِّكُم إلَيَّ، وأقرَبِكُم مِنِّي مَجلِسًا يومَ القيامَةِ: أحاسِنكُم أخلاقًا**»(٣).

قال المناويُّ رَحِمَهُ اللهُ: «**أي**: أكثَرَكُم حُسنَ خُلقٍ، وهو اختيارُ الفضائلِ، وتركُ الرذائلِ؛

---

(١) شرح حديث اختصام الملأ الأعلى (ص٩٥- ٩٨).

(٢) رواه البخاري (٣٧٥٩)، ومسلم (٢٣٢١).

(٣) رواه الترمذي (٢٠١٨)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

وذلك لأنّ حسنَ الخُلقِ يَحملُ على التّنزّهِ عن الذنوبِ، والعُيوبِ، والتَّحلِّي بمكارِمِ الأخلاقِ، مِن الصدقِ في المقال، والتلطُّفِ في الأحوال، والأفعال، وحُسنِ العِشرةِ مع الإخوانِ، وطَلاقَةِ الوَجهِ، وصِلةِ الرحِمِ، والسّخاءِ، والشجاعةِ، وغيرِ ذلك مِنَ الكمالاتِ»[١].

وقال ﷺ: «**إنَّ كُنتُم تُحِبُّونَ أن يُحِبَّكُمُ اللهُ ورسولُهُ، فحافِظوا على ثلاثِ خِصالٍ: صِدقِ الحديثِ، وأداءِ الأمانَةِ، وحُسنِ الجِوارِ**»[٢].

مَحبوباتُهُ ﷺ من أنواعِ المأكولاتِ، والمشروباتِ

إنَّ اللهَ تعالى فطَرَ الناسَ على حُبِّ ما يَنفَعُهم، وتَشتَهيهِ نُفوسُهم، والنُّفرَةِ مِمَّا يَضُرُّهم، وتَأباهُ نُفوسُهم، والأمزِجَةُ في هذا مُختلفِةٌ، فتجدُ أحدَهم يُحِبُّ صِنفًا مِنَ الطَّعامِ، بينما يَعافُهُ آخرُ، ويَشتَهي البَعضُ شَرابًا قَد لا يَشتَهيهِ غَيرُهُ، وهَكَذا.

وقد كان النبيُّ ﷺ في ذلك كَغيرِهِ. فكان عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ يَشتَهي أنواعًا مِنَ الطَّعامِ، والشَّرابِ، مِمَّا تَرتاحُ نَفسُهُ إلَيها، ويَطمَئِنُّ إلى تناوِلِها، على وفقِ هذه الطَبيعَةِ التي جُبِلَ عليها الخَلقُ، وألِفوها، واعتادوها.

* وقد كان هديُهُ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، فيما تَأباهُ نَفسُهُ مِنَ الطَّعامِ، أكمَلَ هَديٍ:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنهُ قال: «**ما عابَ النبيُّ ﷺ طعامًا قَطُّ، إن اشتَهاهُ أكَلَهُ، وإلا تَرَكَهُ**»[٣].

وفي رواية لمسلِمٍ: «**ما رَأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ عابَ طعامًا قَطُّ، كان إذا اشتَهاهُ أكَلَهُ، وإن لم يَشتَهِهِ سَكَتَ**».

(١) فيض القدير (٢/ ٥٢٩).

(٢) رواه الخلعيُّ في الخلعيَّات (٤٧)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٩٩٨).

(٣) رواه البخاري (٣٥٦٣)، ومسلم (٢٠٦٤).

قال ابن بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا من حُسنِ الأدبِ على اللهِ تعالى؛ لأَنَّهُ إذا عابَ المرءُ ما كَرِهَهُ مِنَ الطَّعامِ؛ فقد رَدَّ على اللهِ رِزقَهُ، وقد يَكرَهُ بَعضُ الناسِ مِنَ الطَّعامِ، ما لا يَكرَهُهُ غَيرُهُ.

ونِعَمُ اللهِ تعالى لا تُعابُ، وإنما يَجِبُ الشُّكرُ عليها، والحَمدُ للهِ لأجلِها؛ لأَنَّهُ لا يَجِبُ لنا عليه شيءٌ منها، بل هو مُتَفضِّلٌ في إعطائِهِ، عادِلٌ في مَنعِهِ»[١].

* وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ اللَّحمَ:

ففي حديثِ جابِرِ بنِ عبدِاللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، لَمَّا أتاه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذَبحَ له داجِنًا[٢]، فقال له: «**يا جابِرُ، كَأَنَّكُم عَرَفتُم حُبَّنا اللَّحمَ**»[٣].

* وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحبُّ ذِراعَ الشَّاةِ:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «وُضِعَت بين يَدَي رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَصعَةٌ من ثَريدٍ، ولَحمٍ، فتَناوَلَ الذِّراعَ، وكانت أحَبَّ الشَّاةِ إليه»[٤].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كُنَّا مع النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دَعوَةٍ، فرُفِعَ إليه الذِّراعُ، وكانت تُعجِبُهُ...»، الحديث[٥].

وعن عبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان أحَبُّ العُراقِ[٦] إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عُراقَ الشَّاةِ».

وقال: «كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعجِبُهُ الذِّراعُ[٧]، وسُمَّ في الذِّراعِ»، وكان يرَى أنَّ اليَهودَ هم سَمُّوهُ[٨].

---

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطَّال (٩/ ٤٧٨).

(٢) أي: غنمًا، ملازمًا للبيت.

(٣) رواه أحمد (١٤٢٤٥)، والدَّارميُّ (٤٦)، وصححه محققو المسند.

(٤) رواه مسلم (١٩٤).

(٥) رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).

(٦) العظم إذا أخذ عنه اللحم.

(٧) أي: يروقه، وهو يستحسنه، ويحبُّه.

(٨) رواه أبوداود (٣٧٨٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

والسَّببُ في وضعِ السُّمِّ في الذِّراعِ دونَ بقيةِ الأعضاءِ: أنَّ المرأةَ التي سمَّتهُ سألت: أيُّ عُضوِ الشَّاةِ أحبُّ إليهِ؟ قيل لها: الذراعُ، فأكثرت فيها من السُّمِّ(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يُحِبُّ** اللَّحمَ، وأحَبُّهُ إليه: الذِّراعُ، ومُقَدَّمُ الشَّاةِ؛ ولِذلك سُمَّ فيه»(٢).

وعن أبي عُبَيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: طَبختُ للنبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِدرًا، وقد كان يعجبُهُ الذراعُ.

فقال رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ناوِلني ذِراعَها**». فَناوَلتُهُ.

فقال: «**ناوِلني ذِراعَها**». فَناوَلتُهُ .

فقال: «**ناوِلني ذِراعَها**».

فَقَلت: يا نَبيَّ اللهِ، كَم للشَّاةِ من ذِراعٍ؟

قال: «**والذي نَفسي بيَدِهِ لَو سَكَتَّ؛ لَأعطَتكَ ذِراعًا ما دَعَوتُ بهِ**»(٣).

قال القاضي عياضٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَحَبَّتُهُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للذِّراعِ؛ لنُضجِها، وسُرعَةِ استمرائِها، مع زيادَةِ لَذَّتِها، وحَلاوَةِ مَذاقِها، وبُعدِها عن مَواضِعِ الأذَى»(٤).

❊ وكان صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ المرَق:

فعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يُعجِبُهُ الثُّفلُ**».

قال عَبَّادٌ(٥): يعني: ثُفلَ المرَقِ(٦).

---

(١) انظر: فتح الباري (٧/ ٤٩٧).

(٢) زاد المعاد (٤/ ١٩٩).

(٣) رواه أحمد (١٥٩٦٧)، وحسنه محققو المسند.

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (٣/ ٦٥).

(٥) هو عبَّاد بن العوَّام، أحد رواة الحديث.

(٦) رواه أحمد (١٣٣٠٠)، وصححه محققو المسند. والمرق هو: الحساء، أو «الشُّوربة»، ويصنع من أطعمةٍ مختلفةٍ، كاللُّحوم، والخضار، وقيل: الثُّفل: هو ما بقي من الطعام في القدر، وقيل: هو الثريد، وقيل غير ذلك. انظر: النهاية (١/ ٢١٥)، مرقاة المفاتيح (٧/ ٢٧١٨)، فيض القدير (٥/ ٢٢٩).

وعن جابرِ بنِ عبدِالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، في حديثِ حجَّةِ النبي ﷺ، ونحرِهِ ثلاثا وستين ناقةً، قال: «ثم أمَرَ من كُلِّ بَدَنَةٍ ببَضعَةٍ، فجُعِلَت في قِدرٍ، فطُبِخَت، فأكَلا[١] من لحمِها، وشَرِبا من مَرَقِها»[٢].

* وكان ﷺ يُحبُّ الخَلَّ:

فَعن طلحةَ بنِ نافعٍ، أنه سمع جابِرَ بنَ عبدِالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: أخَذَ رسولُ الله ﷺ بيَدي ذاتَ يومٍ إلى مَنزِلِه.

فَأخرَجَ إليه[٣] فِلَقًا[٤] من خُبزٍ فقال: «**ما من أُدُمٍ[٥]؟**».

فقالوا: لا، إلا شيءٌ من خَلٍّ.

قال: «**فإنَّ الخَلَّ نعم الأُدُمُ**».

قال جابرٌ: فما زِلتُ أُحِبُّ الخَلَّ، مُنذُ سَمِعتُها من نَبيِّ الله ﷺ.

وقال طَلحَةُ: ما زِلتُ أُحِبُّ الخَلَّ، مُنذُ سَمِعتُها من جابرٍ[٦].

والخلُّ غذاءٌ، ودواءٌ قديمٌ، قال عنه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخلُّ ينفعُ مِن المعِدةِ الملتهبةِ، ويقمَعُ الصفراءَ، ويدفعُ ضرَرَ الأدويةِ القتَّالةِ، ويُحَلِّلُ اللبنَ، والدَّم، وينفعُ الطِّحالَ، ويدبغُ المعِدةَ، ويعقلُ البطنَ، ويقطعُ العطشَ، ويُعينُ الهضمَ، ويُلَطِّفُ الأغذيةَ الغليظةَ، ويُرِقُّ الدَّم، وإذا تُمُضمِضَ به مُسخَّنًا نفعَ من وجعِ الأسنانِ، وقوَّى اللِّثَةَ»[٧].

وفي الحديث: أن الخَلَّ يُسَمَّى: أُدُمًا، وأنَّهُ أُدمٌ، فاضِلٌ، جَيِّدٌ[٨].

---

(١) يعني: النبيَّ ﷺ، وعليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم (١٢١٨).

(٣) أي: أخرج الخادم، ونحوه.

(٤) أي: قطعًا.

(٥) أدم، بضمتين، وسكون الثاني.

(٦) رواه مسلم (٢٠٥٢).

(٧) زاد المعاد (٤/ ٢٨١).

(٨) شرح النووي على مسلم (١٤/ ٦).

والإدام، والأدم: ما يُؤكَلُ مع الخُبزِ، أيّ شيء كان[١].

قال أبوعبيد رَحِمَهُ اللهُ: «إنما سَمَّاهُ إدامًا؛ لأَنَّهُ يُصطَبَغُ بهِ[٢]، وكلُّ شيءٍ يُصطَبَغُ به، لَزِمَهُ اسمُ الإدامِ، يَعني مِثل: الخَلِّ، والزَّيتِ، واللّبنِ، وما أشبَهه، فإن حَلفَ حالفٌ: أن لا يَأكلَ إدامًا، فأكلَ بَعضَ ما يُصطَبَغُ بِهِ، فهو حانِثٌ»[٣].

وذكرَ ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ، أنَّ تَفضيلَ الرسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للخَلِّ، كان لِمُقتَضَى الحال، لا مُطلقًا، فقال: «وكان يأكلُ الخُبزَ مَأدومًا، ما وجدَ له إدامًا، فتارةً: يأدِمُهُ باللَّحمِ، وتارةً: بالبِطِّيخِ، وتارةً: بالتَّمرِ، وتارةً: بالخَلِّ، ويقولُ: «**نِعمَ الإدامُ الخَلُّ**»، وهذا ثَناءٌ عليه، بحَسبِ مُقتضَى الحال الحاضرِ، وليسَ تَفضيلًا له على غَيرِه»[٤].

وقال: «ليسَ في هذا تفضيلٌ له على اللَّبنِ، واللَّحمِ، والعَسَلِ، والمَرَقِ، وإنما هو مدحٌ له في تلك الحال التي حَضَرَ فيها، ولو حَضَرَ لَحمٌ، أو لبَنٌ، كان أولى بالمدحِ منه، وقال هذا؛ جَبرًا وتَطييبًا لقلبِ مَن قَدَّمَهُ، لا تَفضيلًا له على سائرِ أنواعِ الإدامِ»[٥].

وقال مُلا علي القاري: «ولا يَخفَى أنَّ العِبرةَ بعُموم اللَّفظِ، لا بخُصوصِ السَّببِ، مع أنَّ الحديثَ ليسَ فيه إلا مَدحُهُ، لا أنَّهُ أفضَلُ من سائرِ الأُدمِ»[٦].

فَدَلّ الحديثُ على ارتِضاءِ الرسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ، ومَدحِهِ، ولا يعني ذلك أَنَّهُ خَيرٌ من غَيرِهِ، فالحديثُ فيه مَدحٌ للخَلِّ، لا تَفضيلُهُ على غَيرِهِ.

* وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ الدُّبَّاءَ[٧]:

فعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: إنَّ خَيَّاطًا دَعا رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لطعامٍ صَنَعَهُ، فذَهَبتُ مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقَدَّمَ إليه قَصعَةً فيها ثَريدٌ، وعليه دُبَّاءٌ، وأقبَلَ على عَمَلِهِ،

---

(١) النهاية (١/ ٦٢).

(٢) يعني: يُغمس فيه الخبزُ.

(٣) غريب الحديث (٢/ ١٥٢).

(٤) زاد المعاد (٤/ ٢٠٠).

(٥) زاد المعاد (٢/ ٣٦٧).

(٦) جمع الوسائل في شرح الشَّمائل (١/ ٢٠٠).

(٧) الدُّبَّاء: هو اليقطين، والقرع.

فجَعَلَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتتَبَّعُ الدُّبَّاءَ من حَوالَي القَصعَةِ، فلمَّا رَأيتُ ذلك جَعَلتُ أَتتَبَّعُهُ، فأَضَعُهُ بين يَدَيهِ.

قال: فلَم أزَل أُحِبُّ الدُّبَّاءَ من يومِئذٍ.

قال ثابتٌ: فسَمِعتُ أنسًا يقولُ: فما صُنِعَ لي طعامٌ -بَعدُ-، أقدِرُ على أن يُصنَعَ فيه دُبَّاءٌ، إلا صُنِعَ[1].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «**كان النبيُّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يُحِبُّ القَرعَ**»[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واليَقطينُ المذكورُ في القُرآنِ: هو نَباتُ الدُّبَّاءِ، وثَمَرُهُ يُسَمَّى الدُّبَّاءَ والقَرعَ، وشَجَرَةَ اليَقطينِ»[3].

ويَحتوي القَرعُ على فوائِدَ غِذائيَّةٍ، وطِبِّيَّةٍ عَظيمةٍ، وقد اكتَشفَ العُلَماءُ -حديثًا- في القَرعِ مُركَّباتٍ، تَعملُ على تنشيطِ الخَلايا الدِّماغيَّةِ، وتُنَمِّي التَّلافيفَ المُخِّيَّةَ المسئولةَ عن الاستيعابِ، والذَّكاءِ.

ومِنَ الناحيةِ الغِذائيَّةِ: فتكمُنُ فوائِدُ القَرعِ في احتِوائِهِ على كمِّيَّاتٍ وافرةٍ مِن فيتامينات: (أ، ب، ج)، وبُروتيناتٍ سَهلةِ الهَضمِ، والامتصاصِ، ودُهونٍ، وعناصرَ مَعدنيَّةٍ كَثيرةٍ، مِثل: الحَديدِ، والكالسيوم، والبوتاسيوم، والفوسفور، والمنجَنيز.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عن اليَقطينِ**: «وَبالجُملةِ: فهو من أَلطَفِ الأغذيَةِ، وأسرَعِها انفِعالًا»[4].

وقولُهُ في الحديثِ: «فَرَأيتُ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتتَبَّعُ الدُّبَّاءَ حَوالَي القَصعَةِ» يَحتملُ أمرينِ:

١- من حَوالَي، أي: جانِبه، وناحيَته من الصَّفحةِ، لا من حَوالَي جَميعِ جَوانِبِها.

٢- أن يكونَ من جميعِ جَوانِبِها، وإنما النَّهي عن ذلك؛ لئَلَّا يَتَقَذَّرَ جَليسُهُ، ورسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَتقذَّرُهُ أحدٌ، بل يَتَبَرَّكونَ بآثارِهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

---

(١) رواه البخاري (٥٤٣٥)، ومسلم (٢٠٤١).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٣٠٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه.

(٣) زاد المعاد (٤/ ٣٧١).

(٤) المصدر السابق (٤/ ٣٧٢).

وقال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ظاهِرُهُ يُعارِضُ الأمرَ بالأكلِ مِمَّا يَليه، فجمع البخاري بَينهما، بحملِ الجَوازِ على ما إذا عَلِمَ رِضا مَن يَأكُلُ مَعَهُ، وحَمَلَ بَعضُ الشُّرَّاحِ فِعلَهُ ﷺ في هذا الحديثِ، على أنّ الطَّعامَ كان مُشتَمِلًا على مَرَقٍ، ودُبَّاء، وقَديدٍ، فكان يَأكُلُ مِمَّا يُعجِبُهُ، وهو الدُّبَّاءُ، ويَترُكُ ما لا يُعجِبُهُ، وهو القَديدُ، وحَمَلَهُ الكِرمانيُّ على أنَّ الطَّعامَ كان للنَّبيِّ ﷺ وحدَهُ، قال: «فَلَو كان لَهُ ولِغَيرِهِ، لَكان المُستَحَبُّ أن يَأكُلَ مِمَّا يَلِيهِ».

ونَقَلَ ابنُ بَطَّالٍ عن مالكٍ جَوابًا يَجمَعُ الجَوابَينِ المذكورينَ، فقال: «إنَّ المُؤاكِلَ لأهلِهِ، وخَدَمِهِ، يُباحُ له أن يَتبَعَ شَهوَتَهُ، حيث رَآها، إذا عَلِمَ أنَّ ذلك لا يُكرَهُ منه، فإذا عَلِمَ كَراهَتَهم لذلك، لم يَأكُل إلا مِمَّا يَليهِ».

وقال -أيضًا-: «إنما جالَت يَدُ رسولِ الله ﷺ في الطَّعامِ؛ لأَنَّهُ عَلِمَ أنَّ أحَدًا لا يَتكَرَّهُ ذلك منه، ولا يتقذَّره، بل كانوا يتبركون بريقِهِ، ومُماسَّةِ يَدِهِ، بل كانوا يَتَبادَرونَ إلى نُخامَتِهِ، فيَتَدَلَّكونَ بها، فكَذلك مَن لم يُتَقَذَّر من مُؤاكِلِهِ، يَجوزُ له أن تَجولَ يَدُهُ في الصحفة».

وقال ابن التينِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا أكَلَ المرءُ مع خادِمِهِ، وكان في الطَّعامِ نَوعٌ مُنفَرِدٌ، جازَ له أن يَنفَرِدَ بهِ»[١].

❋ وكان ﷺ يُحِبُّ الحَلواءَ[٢]، والعسَلَ:

فعن عائشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان النبيُّ ﷺ يُعجِبُهُ الحَلواءُ، والعَسَلُ»[٣].

وقال ابنُ سيدَه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحَلواءُ: كلُّ ما عولِجَ مِنَ الطَّعام بحَلاوَةٍ، والحَلواء -أيضا-: الفاكِهَة»[٤].

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**قال العُلَماءُ**: المُرادُ بالحَلواءِ -هُنا-: كل شئ حُلوٍ، وذَكَرَ العَسَلَ بعدَها؛ تَنبيهًا على شَرافَتِهِ، ومَزيَّتِهِ، وهو من بابِ ذِكرِ الخاصِّ بعدَ العامِّ.

---

(١) فتح الباري (٩/ ٥٢٤).

(٢) الحلواء، أو: الحلوى، هي: كل حلو يؤكل، وقال الخَطَّابيُّ: «اسم الحلوى لا يقع إلا على ما دخلته الصنعة». الفتح (٩/ ٥٥٧).

(٣) رواه البخاري (٥٦١٤)، ومسلم (١٤٧٤).

(٤) المخصَّص (٥/ ١٣).

وفيه: جَوازُ أكلِ لَذيذِ الأطعِمَةِ، والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزقِ، وأنَّ ذلك لا يُنافي الزُّهدَ، والمُراقَبَةَ، لا سيَّما إذا حَصَلَ اتِّفاقًا»[١].

وذكرَ البَيهقيُّ[٢] عن أبي سُلَيمان الخطَّابيّ قال: «قولُ عائشةَ: «كان يُعجِبُهُ الحَلوَى»، ليسَ على معنى كَثرَةِ التَّشَهِّي لها، وشِدَّةِ نِزاعِ النَّفسِ إلَيها، وتَأنُّق الصَّنعَة في اتِّخاذها؛ كَفِعلِ أهل التَّرَفُّهِ، والشَّرَهِ، وإنما كان إذا قُدِّمَت إليه، يَنالُ منها نَيلًا جَيِّدًا، فيُعلَم بذلك أنَّهُ يُعجِبهُ طَعمُها، وفيه دَليلٌ على اتِّخاذِ الحَلاواتِ، والأطعِمَةِ، من أخلاطٍ شَتَّى».

وكان بَعضُ أهلِ الوَرَعِ يَكرَهُ ذلك، ولا يُرَخِّصُ أن يَأكُلَ مِنَ الحَلاوَةِ، إلا ما كان حُلوُهُ بطَبعِهِ؛ كالتَّمرِ، والعَسَل، وهذا الحديث يَرُدُّ عليه[٣].

وأمَّا العَسَلُ: فهو الشَّرابُ الذي يخرجُ من بُطونِ النَّحلِ، وهو أنواعٌ مُختلفةٌ، منه الأحمرُ، والأصفرُ، والأبيضُ، والجامدُ، والسَّائلُ، قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩].

* وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ الزبدَ والتَّمرَ:

فَعنِ ابنَي بُسرٍ، السُّلَميَّينِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قالا: «دَخَلَ عَلَينا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوَضَعنا تحتَهُ قَطيفَةً لَنا، صَبَبناها له صَبًّا، فجَلَسَ عليها، وأنزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عليه الوَحيَ في بَيتِنا، وقَدَّمنا له زُبدًا[٤]، وتمرًا، وكان يُحِبُّ الزبدَ، والتَّمرَ»[٥].

أي: يُحِبُّ الجَمعَ بَينهما في الأكلِ؛ لأنَّ الزبدَ حارٌّ رَطبٌ، والتَّمرُ بارِدٌ يابسٌ، ففي الجَمعِ إصلاحُ كُلٍّ بالآخرِ[٦].

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٠/ ٧٧).

(٢) في الشُّعب (٨/ ٨٣).

(٣) فتح الباري (٩/ ٥٥٧).

(٤) ما يستخرج بالمخض من لبن بقرٍ، أو غنم.

(٥) رواه أبوداود (٣٨٣٧)، وابن ماجه (٣٣٣٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٩٢١).

(٦) فيض القدير (٥/ ٢٠٨).

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُؤخَذُ منه: جَوازُ مُراعاةِ صِفاتِ الأطعِمَةِ، وطَبائِعِها، واستعمالها على الوَجهِ اللَّائِقِ بها، على قاعِدَةِ الطِّبِّ، وهذا أصلٌ كَبيرٌ في المُرَكَّباتِ مِنَ الأدويَةِ»[1].

والتمرُ مِنَ الأطعِمَةِ المُفيدةِ، التي كان يَحرِصُ عليها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقولُ: «**يا عائشةُ بَيتٌ لا تَمرَ فيه، جياعٌ أهلُهُ، يا عائشةُ بَيتٌ لا تَمرَ فيه، جياعٌ أهلُهُ**». قالها مَرَّتَينِ، أو ثَلاثًا[2].

والتّمرُ -كما يُقال-: مَنجَمٌ غَنيٌّ بالمعادِنِ، فهو غَنيٌّ جِدًّا بالموادِّ الغِذائيَّةِ الضَّروريَّةِ للإنسانِ، وكما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «هو من أكثَرِ الثِّمارِ تغذيَةً للبَدَنِ... وهو فاكِهَةٌ، وغِذاءٌ، ودَواءٌ، وشَرابٌ، وحَلوَى»[3].

وقد كان من سُنَّةِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الفِطرُ على الرُّطَبِ، أوِ التَّمرِ، إذا كان صائِمًا، ثم يُصَلِّي المغرِبَ بعدَ ذلك.

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُفطِرُ قبلَ أن يُصَلِّيَ على رُطَباتٍ، فإن لم تَكُن رُطَباتٌ: فتُمَيراتٌ، فإن لم تَكُن تُمَيراتٌ: حَسا حَسَواتٍ من ماءٍ»[4].

* وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ مِنَ الشرابِ: الحُلوَ البارِدَ:

فعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان أحبُّ الشَّرابِ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحُلوَ البارِدَ»[5].

وفي المُرادِ بالشَّرابِ الحُلوِ البارِدِ، ثلاثةُ احتمالاتٍ:

الأولُ: يُحتَمَلُ أن يُرادَ بِهِ: الماءُ العَذبُ، كمياهِ العُيونِ، والآبارِ الحُلوةِ، فإنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُستَعذَبُ له الماءُ.

---

(١) فتح الباري (٩/ ٥٧٣).

(٢) رواه مسلم (٢٠٤٦).

(٣) زاد المعاد (٤/ ٢٦٧).

(٤) رواه الترمذي (٦٩٦)، وصححه الألباني.

(٥) رواه الترمذي (١٨٩٥)، وأحمد (٢٤١٠٠)، وحسنه محققو المسند.

فقد روى أبوداود[١] عن عائشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «**أنَّ النبيَّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كان يُستَعذَبُ له الماءُ من بُيوتِ السُّقيا**»[٢].

«**يُستَعذَبُ له الماءُ**»، أي: يُجاءُ بالماءِ العَذبِ، وهو الطَّيِّبُ، الذي لا مُلوحَةَ فيه؛ لأنَّ مياهَ المدينَةِ كانت مالحَةً .

«**مِن بُيوتِ السُّقيا**»: وهي عَينٌ، بَينها وبين المدينَةِ يومانِ[٣].

الثاني: يُحتَمَلُ أن يكونَ المُرادُ بالحُلوِ البارِدِ: الماءَ الممزوجَ بالعَسَلِ.

الثالثُ: أن يكونَ المُرادُ بهِ: الماءَ الذي نُقِعَ فيه التَّمرُ، أوِ الزَّبيبُ.

وهذا النبيذُ، هوَ: ماءٌ حُلوٌ، يُطرَحُ فيه تَمرٌ؛ يُحَلِّيه، ولَهُ نَفعٌ عَظيمٌ في زيادَةِ القوَّةِ.

وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**يُنتَبَذُ له أوَّلَ اللَّيلِ، فيَشرَبُهُ إذا أصبَحَ يومَهُ ذلك، واللَّيلَةَ التي تَجيءُ، والغَدَ، واللَّيلَةَ الأُخرَى، والغَدَ إلى العَصرِ، فإن بَقيَ شيءٌ، سَقاهُ الخادِمَ، أو أمَرَ بهِ، فصُبَّ**»، كما روى ذلك مُسلِمٌ في صَحيحِهِ[٤]، ولم يكُن يشَربُهُ بعدَ ثلاثٍ؛ خَوفًا من تَغيرُّهِ إلى الإسكارِ.

وأي هذه الاحتمالات أرجح؟

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الأظهرُ: أنّه يَعُمُّ ذلك جَميعًا**»[٥].

قال ابنُ بطَّالٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وفي هذا الحديثِ[٦] دَليلٌ على أنّ استعذابَ الأطعِمةِ، وجميعِ**

(١) سنن أبي داود (٣٧٣٥).

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١٠/ ٧٤): «سنده جيدٌ»، وصححه الألباني في التعليقات الحسان (٥٣٠٨).

(٣) فتح الباري (١٠/ ٧٤)، عون المعبود (١٠/ ١٤٤).

(٤) صحيح مسلم (٢٠٠٤) عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) زاد المعاد (٤/ ٢٠٩).

(٦) يعني: حديث أنسٍ، «كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالا من نخلٍ، وكان أحبُّ ماله إليه بيرحاء، وكانت مستقبل المسجد، وكان النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدخلها، ويشرب من ماءٍ فيها طيِّبٍ». رواه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨).

المآكلِ، جائزٌ لأولي الفَضلِ، وأنَّ ذلك من أفعال الصَّالحينَ، ولو أرادَ اللهُ ألَّا تُؤكَلَ لَذيذُ المطاعِمِ لم يَخلُقها لعِبادِهِ، ولا امتنَّ بها عليهم، بل أرادَ تعالى منهم أكلَها، ومُقابلتَها من الشُّكرِ الجزيلِ عليها، والحَمدِ بما مَنَّ بِهِ منها، بما يَنبغي لكَرمِ وجهِهِ، وعزِّ سلطانِه، وإن كانت نعمة لا يكافئُ شُكر أقلِّها إلا بتجاوزِهِ عن تقصيرِنا، وقد قال أهلُ التَّأويلِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: ٨٧] أنَّها نَزلت فيمن حرَّمَ على نَفسِهِ لذيذَ المطاعِمِ»[١].

* وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحبُّ الرُّطَبَ، والبِطِّيخَ:

فعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يَأكُلُ البِطِّيخَ بالرُّطَبِ، ويقولُ: «نكسِرُ حَرَّ هَذا، ببَردِ هَذا، وبَردَ هَذا، بحَرِّ هَذا»[٢].

«**نكسِرُ حَرَّ هَذا**»: أي: الرُّطَب.

«**ببَرَدِ هَذا**»: أي: البِطِّيخ[٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «المُرادُ بِهِ: الأخضَرُ»[٤].

ولكن قال الحافظُ رَحِمَهُ اللهُ: «والمُرادُ بِهِ: الأصفَرُ، بدَليلِ وُرودِ الحديثِ بلَفظِ: «الخِربزِ»، بَدَلَ: «البِطِّيخِ»، وكان يَكثُر وُجودُهُ بأرضِ الحِجازِ، بخِلافِ البِطِّيخِ الأخضَرِ»[٥].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «رَأيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجمَعُ بين الرُّطَبِ، والخِربِزِ»[٦].

وقال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «في حديثِ البابِ: جَوازُ أكلِ الشَّيئَينِ مِنَ الفاكِهَةِ وغَيرِها مَعًا، وجَوازُ أكلِ طعامَينِ مَعًا، ويُؤخَذُ منه: جَوازُ التَّوسُّعِ في المطاعِمِ، ولا خِلافَ بين العُلَماءِ

(١) شرح صحيح البخاري (٦/ ٦٨).
(٢) رواه أبوداود (٣٨٣٦)، والترمذي (١٨٤٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٧٩).
(٣) عون المعبود (١٠/ ٢٢٢).
(٤) زاد المعاد (٤/ ٢٣٦).
(٥) فتح الباري (٩/ ٥٧٤).
(٦) رواه أحمد (١٢٤٤٩)، وصححه محققو المسند، على شرط الشيخين. والخربز: نوع من البطِّيخ الأصفر.

في جَوازِ ذلك، وما نُقِلَ عن السَّلَفِ من خِلافِ هَذا: مَحمولٌ على الكراهَةِ؛ مَنعًا لاعتيادِ التَّوسُّعِ، والتَّرَفُّهِ، والإكثارِ لغَيرِ مَصلَحَةٍ دينيَّةٍ»[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي البِطِّيخ عِدَّةُ أحاديثَ، لا يَصِحُّ منها شيءٌ، غَير هذا الحديثِ الواحِدِ، وهو بارِدٌ رَطبٌ، وفيه جَلاءٌ، وهو أسرَعُ انحِدارًا عن المِعدَةِ مِنَ القِثَّاءِ، والخيارِ، وهو سَريعُ الاستحالَةِ إلى أيِّ خَلطٍ كان صادفَهُ في المِعدَةِ، وإذا كان آكِلُهُ مَحرورًا انتَفَعَ بهِ جِدًّا، وإن كان مَبرودًا دُفِعَ ضَرَرُهُ، بيَسيرٍ مِنَ الزَّنجَبيلِ، ونَحوِهِ.

وقال بَعضُ الأطِبَّاءِ: إنَّهُ قبلَ الطَّعامِ يَغسِلُ البَطنَ غَسلًا، ويَذهَبُ بالدَّاءِ أصلًا»[٢].

مَحبوباتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأمكنَةِ، والأزمِنَةِ، والثِّيابِ، والألوانِ

أوَّلًا: محبوباتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الأمكِنَةِ:

* مِنَ الأمكنةِ التي كان يُحِبُّها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَكَّةُ.

فَعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال لمَكَّةَ: «**ما أطيَبَكِ، وأحَبَّكِ إليَّ، ولَولا أنَّ قَومَكِ أخرَجوني مِنكِ، ما سَكَنتُ غَيرَكِ**»[٣].

وعن عبدِالله بنِ عَديِّ بنِ الحَمراءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: رَأيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو على ناقَتِهِ، واقِفٌ بالحَزوَرَةِ[٤]، يقولُ: «**واللهِ إنَّكِ لَخَيرُ أرضِ اللهِ، وأحَبُّ أرضِ اللهِ إليَّ، واللهِ لَولا أنِّي أُخرِجتُ مِنكِ ما خرجتُ**»[٥].

---

(١) فتح الباري (٩/ ٥٧٣).

(٢) زاد المعاد (٤/ ٢٦٣).

(٣) رواه الترمذي (٣٩٢٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٥٣٦).

(٤) موضعٌ بمكة، والحزورة في الأصل، بمعنى: التل الصغير.

(٥) رواه الترمذي (٣٩٢٥)، وابن ماجه (٣١٠٨)، وصححه الألباني في التعليقات الحسان (٣٧٠٠).

وفي هَذا: بَيانُ عظيمِ مَحبّةِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَكّةَ، والتي هي: أمُّ القُرى، والبَلَدُ الحرامُ، والبلدُ الأمينُ.

وفيه: دَليلٌ على أنَّ مَكَّةَ خَيرُ أرضِ اللهِ على الإطلاقِ، وأحَبُّها إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبِذلك استدلَّ الجُمهورُ على أنَّها أفضَلُ مِنَ المدينَةِ، خِلافًا للإمامِ مالكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

«وأمَّا ما رويَ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنَّهُ قال -في حينِ خُروجِهِ مِن مكَّةَ إلى المدينةِ-: «اللهمَّ إنَّكَ تعلمُ أنَّهم أخرجوني من أحبِّ البلادِ إليَّ، فأسكِنِّي أحبَّ البلادِ إليكَ[١]»، فهو حديثٌ موضوعٌ مُنكَرٌ، لا يختلفُ أهلُ العلمِ في نكارتِهِ وضَعفِهِ، وأنَّهُ موضوعٌ»[٢].

* وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحبُّ المدينةَ:

فعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قَدِمنا المدينَةَ، وهي وبيئَةٌ[٣]، فاشتكَى أبو بكرٍ، واشتكَى بلالٌ، وعامِرُ بنُ فُهَيرَةَ.

فكان أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا أخَذَتهُ الحُمَّى، يقولُ:

كُلُّ امـرِئٍ مُصَبَّـحٌ في أهلِـهِ والمـوتُ أدنَـى مـن شِراكِ نَعلِهِ

وكان بلالٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا أُقلِعَ عنه الحُمَّى، يَرفَعُ عَقيرَتَهُ[٤]، يقولُ:

ألا لَيتَ شِعري هَل أبيتَنَّ لَيلَةً بِـوادٍ وحَـولي إذخِرٌ وجَليـلُ
وَهَـل أرِدَن يومًـا ميـاهَ مَجَنَّـةٍ وَهَـل يَبـدوَن لي شـامَةٌ وطَفيلُ[٥]

---

(١) رواه الحاكم (٤٢٦١)، وقال الذهبي: «موضوعٌ».

(٢) الاستذكار (٨/ ٢٢٢).

(٣) يعني ذات وباء، وهو الموت الذَّريع، هذا أصله، ويطلق -أيضًا- على الأرض الوخمة، التي تكثر بها الأمراض، لا سيَّما للغرباء، الذين ليسوا مستوطنيها.

(٤) عقيرته، أي: صوته، قال الأصمعيُّ: «أصله: أن رجلًا انعقرت رجله، فرفعها على الأخرى، وجعل يصيح، فصار كلُّ من رفع صوته، يقال: رفع عقيرته، وإن لم يرفع رجله»، وقال ثعلب رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا من الأسماء التي استعملت، على غير أصلها». فتح الباري (٧/ ٢٦٣).

(٥) بوادٍ، أي: بوادي مكَّة، وجليلٌ: نبتٌ، ضعيفٌ، يحشى به خصاص البيوت، وغيرها، ومياه مجنَّة: موضعٌ على أميالٍ من مكة، وكان به سوقٌ، وشامةٌ وطفيلٌ: جبلان بقرب مكَّة. فتح الباري (٧/ ٢٦٣).

اللهمَّ الْعَنْ شَيبَةَ بنَ رَبيعَةَ، وعُتبَةَ بنَ رَبيعَةَ، وأُمَيَّةَ بنَ خَلَفٍ، كَما أخرَجونا من أرضِنا، إلى أرضِ الوَباءِ.

فلمَّا رَأى رسولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ شكوَى أصحابِهِ، قال: «**اللهمَّ حَبِّب إلينا المدينَةَ، كَحُبِّنا مَكَّةَ، أو أشَدَّ، اللهمَّ بارِك لَنا في صاعِنا، وفي مُدِّنا، وصَحِّحها لَنا، وانقُل حُمَّاها إلى الجُحفَةِ**».

قالت: وقَدِمنا المدينَةَ، وهي أوبَأُ أرضِ اللهِ، فكان بُطحانُ يَجري نَجلًا، تَعني: ماءً آجِنًا[١].

فقد دعا النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ربَّهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يُحَبِّبَ إليهم المدينةَ، فاستجابَ اللهُ دعاءَهُ.

وقولُه: «**كَحُبِّنا مَكَّةَ، أو أشَدَّ**»: أي: بل أكثَرُ، وأعظَمُ.

ولا يُنافي هذا ما سبق من أَنَّهُ عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ قال لمكةَ: «**إنَّكِ لَخيرُ أرضِ اللهِ وأحَبُّ أرضِ اللهِ إليَّ**»، فإنَّ المُرادَ بهِ المبالغةُ، أو لأنَّهُ لَمَّا أوجَبَ اللهُ على المُهاجرينَ مجاورةَ المدينةِ، وتركَ التوطُّنَ، والسُّكونَ بمكة؛ طلبَ من اللهِ أن يَزيدَ محبةَ المدينةِ في قُلوبِ أصحابِهِ؛ لئلا يَميلوا بأدنَى الميلِ غَرَضًا؛ إذِ المُرادُ بالمحبَّةِ الزَّائِدَةِ: المُلائِمَةُ لَملاذِّ النَّفسِ، ونَفي مَشاقِّها، لا المحبَّةُ المُرَتَّبَةُ على كَثرَةِ المثوبَةِ، فالحَيثيَّةُ مُختَلِفَةٌ.

وقولُه: «**وَصَحِّحها**»، أي: اجعل هواءَها وماءَها صَحيحًا[٢].

وقولُه: «**وَبارِك لَنا في صاعِها، ومُدِّها**».

عن أنسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال: «اللهمَّ اجعَل بالمدينَةِ ضِعفي ما جَعَلتَ بمَكَّةَ من البَرَكَةِ»[٣].

قال النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: «الظَّاهِرُ: أنَّ البَرَكَةَ حَصَلَت في نَفسِ المكيلِ، بحَيثُ يَكفي المُدُّ فيها، مَن لا يَكفيه في غَيرِها، وهذا أمرٌ مَحسوسٌ عندَ مَن سَكَنَها»[٤].

---

(١) الآجن هو: الماء المتغير الطَّعم، واللَّون، وغرضها بذلك: بيان السبب في كثرة الوباء بالمدينة، لأن الماء الذي هذه صفته، يحدث عنده المرض. والحديث رواه البخاري (١٨٨٩)، ورواه مسلم (١٣٧٦)، مختصرًا.

(٢) مرقاة المفاتيح (٥/ ١٨٧٨).

(٣) رواه البخاري (١٨٨٥)، ومسلم (١٣٦٩).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ١٤٢).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا وُجِدَت البَرَكَةُ فيها في وقتٍ، حَصَلَت إجابَةُ الدَّعوَةِ، ولا يَستَلزِم دَوامها في كُلِّ حينٍ، ولِكُلِّ شَخصٍ، والله أعلَم»[١].

وقولُه: «وَحَوِّل حُمَّاها إلى الجُحفَةِ» قال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: حَوِّل وباءَها، وشِدَّتَها، وكَثرَتَها، «فاجعَلها بالجُحفَةِ»، قال الخَطَّابيُّ وغَيرُهُ: كان ساكِنو الجُحفَةِ في ذلك الوَقتِ يَهودًا، وقد استَجابَ اللهُ دُعاءَهُ؛ فإنَّ الحُمَّى انتَقَلَت إلَيها، حتى مَن شَرِبَ من مائِها حُمَّ، بل لَو مَرَّ الطَّيرُ في هَوائِها حُمَّ»[٢].

وكان ساكِنو الجُحفَة في ذلك الوَقتِ يَهودًا، شديدي الأذَى والعَداوةِ للمُؤمنينَ؛ فلِذلك دَعا عليهم.

ومِن حُبِّ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمدينةِ؛ أنَّهُ كان يحرِّكُ دابَّتَهُ عندَ رُؤيتِها:

فعن أنسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا قَدِمَ من سَفَرٍ، فنَظَرَ إلى جُدُراتِ المدينَةِ، أوضَعَ راحِلَتَهُ، وإن كان على دابَّةٍ حَرَّكَها؛ من حُبِّها»[٣].

«**جُدُرات**»: جَمع جُدُر، جَمع جِدار .

«**أوضَع**»: أي: أسرَعَ السَّير .

«**مِن حُبّها**»: أي: حَرَّكَ دابَّته؛ بسببِ حُبّه المدينَة[٤].

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي الحديثِ دَلالَةٌ على فضلِ المدينَةِ، وعلى مشروعيَّةِ حُبِّ الوَطَنِ، والحَنينِ إليه»[٥].

---

(١) فتح الباري (٤/ ٩٨).

(٢) مرقاة المفاتيح (٥/ ١٨٧٨).

(٣) رواه البخاري (١٨٨٦).

(٤) فتح الباري (٣/ ٦٢٠).

(٥) المصدر السابق (٣/ ٦٢١).

* ومِن الأماكنِ التي كان يُحبُّها: جَبَلُ أُحُدٍ.

فعن أنسِ بن مالكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: خرجتُ مع رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى خَيبَرَ؛ أخدُمُهُ، فلمَّا قَدِمَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راجِعًا، وبَدا له أُحُدٌ، قال: «**هَذا جَبَلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّهُ**»(١)

وقولُهُ: «**هَذا جَبَلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّهُ**»، قيل: هو على الحَقيقَةِ، ولا مانِعَ من وُقوعِ مِثلِ ذلك؛ بأن يَخلُقَ اللهُ المحَبَّةَ في بَعضِ الجَماداتِ، وقيل هو على المجازِ، والمُرادُ: أهلُ أُحُدٍ، على حَدِّ قولِهِ تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، وقال الشَّاعِرِ:

وما حُبّ الدِّيارِ شَغَفنَ قَلبي ... ولكن حُبُّ مَن سَكَن الدِّيارا

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الصَّحيحُ المُختارُ: أنَّ معناهُ**: أنَّ أُحُدًا يُحِبُّنا حَقيقَةً، جَعَلَ اللهُ تعالى فيه تَمييزًا يُحِبُّ بِهِ، كَما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ**﴾ [البقرة: ٧٤]، وكما حَنَّ الجِذعُ اليابِسُ، وكما سَبَّحَ الحَصَى، وكما فَرَّ الحجرُ بثَوبِ موسَى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكما قال نَبيُّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنِّي لأعرِفُ حجرًا بمَكَّةَ كان يُسَلِّمُ عَلَيَّ**»، وكما دَعا الشَّجَرَتَينِ المُفتَرِقَتَينِ، فاجتَمَعَتا، وكما كَلَّمَهُ ذِراعُ الشَّاةِ، وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾ [الإسراء: ٤٤]، والصَّحيحُ في معنى هَذِهِ الآيةِ: أنَّ كُلَّ شيءٍ يُسَبِّحُ، حَقيقَةً، بحَسَبِ حالِهِ، ولكن لا نَفقَهُهُ، وهذا وما أشبَهَهُ، شَواهِدُ لما اختَرناهُ، واختارَهُ المُحَقِّقونَ في معنى الحديث، وأنَّ أُحُدًا يُحِبُّنا حَقيقَةً»(٢).

وقد تكرَّرَ مِن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إخبارُهُ بحُبِّ جبلِ أُحُدٍ، فقال ذلك وهو راجِعٌ من تَبوكَ، وقالهُ لَمَّا رَجَعَ من خيبرَ، وقالهُ لَمَّا رَجَعَ مِنَ الحَجِّ .

(١) رواه البخاري (٢٨٨٩)، ومسلم (١٣٦٥).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ١٤٠).

ثانيًا: محبوباتُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الأزمِنَةِ:

* كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أرادَ أن يخرجَ، أحبّ أن يخرجَ يومَ الخَميسِ:

فعن كَعبِ بنِ مالكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «لَقَلَّما كان رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخرُجُ -إذا خرجَ في سَفرٍ-، إلا يومَ الخَميسِ»[١].

وفي رواية: «أنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرجَ يومَ الخَميسِ في غَزوَةِ تَبوكَ وكان يُحِبُّ أن يَخرُجَ يومَ الخَميسِ»[٢].

واختيارُهُ يومَ الخَميسِ للخُروجِ، مُحتمِلٌ لوُجوهٍ:

أحدُها: أنَّهُ يومٌ مباركٌ، تُرفَعُ فيه أعمالُ العبادِ إلى اللهِ تعالى، وقد كانت سَفَراتُهُ للهِ، فأحَبَ أن يُرفعَ له فيه عَمَلٌ صالحٌ.

وثانيها: أنَّهُ أتَمُّ أيَّامِ الأُسبوعِ عَدَدًا.

وثالثُها: أنَّهُ كان يَتَفاءَلُ بالخَميسِ في خُروجِهِ، وكان من سُنَّتِهِ: أن يَتَفاءَلَ بالاسمِ الحَسَنِ، والخَميسُ: الجيشُ؛ لأنَّهُ خَمسُ فِرَقٍ: المُقدِّمةُ، والقَلبُ، والميمَنةُ، والميسَرةُ، والسَّاقةُ، فيرَى في ذلك من الفَألِ الحَسَنِ، حِفظَ اللهِ لَهُ، وإحاطَةَ جُنودِهِ به حِفظًا، وحِمايَةً، ولِتَفاؤُلِهِ بالخَميسِ على أنَّهُ يَظفرُ على الخَميسِ، الذي هو جيشُ العَدوِّ، ويَتَمَكَّنُ عليهم، أو لأنَّهُ يُخَمَّسُ فيه الغنيمَةَ[٣].

وكَونُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُحِبُّ الخُروجَ يوم الخَميسِ، لا يَستلزِمُ المواظَبَةَ عليه، لقيامِ مانِعٍ منه[٤].

وقد ثَبَتَ أنَّهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرجَ لحَجَّةِ الوَداعِ يوم السَّبت[٥].

---

(١) رواه البخاري (٢٩٤٩).

(٢) رواه البخاري (٢٩٥٠).

(٣) مرقاة المفاتيح (٦/ ٢٥١١).

(٤) فتح الباري (٦/ ١١٣).

(٥) نيل الأوطار (٧/ ٢٨٤).

* **وكان أَحَبَّ الشُّهورِ إليه أن يَصومَهُ بعدَ رمضانَ: شَعبانُ.**

فعن عائشةَ رضي الله عنها **قالت:** «كان أَحَبَّ الشُّهورِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ أن يَصومَهُ: شَعبانُ، بل كان يَصِلُهُ برَمَضانَ»[١].

قال ابن رَسلان: «فإن قيل: كَيفَ كان رسولُ اللهِ ﷺ يَخُصُّ شَعبانَ بصيامِ التَّطَوُّعِ فيه، مع أَنَّهُ قال: «أفضَلُ الصِّيامِ بعدَ رَمَضانَ: شَهرُ اللهِ المُحَرَّمُ»[٢].

فالجَوابُ: أفضَلُ الصِّيامِ بعدَ شَهرِ رَمَضانَ: شَعبانُ؛ لمُحافَظَتِهِ ﷺ **على** صَومِهِ، أو صَومِ أكثَرِهِ، ويكونُ قولُهُ: «**أفضَلُ الصِّيامِ بعدَ رَمَضانَ: المُحَرَّمُ**» محمولًا على التَّطَوُّعِ المُطلَقِ، وكذا: أفضَلُ الصَّلاةِ بعدَ المكتوبَةِ قيامُ اللَّيلِ، إنما أُريدَ بِهِ تَفضيلُ قيامِ اللَّيلِ على التَّطَوُّعِ المُطلَقِ، دونَ السُّنَنِ والرواتِبِ، التي قبلَ الفَرضِ وبَعدَهُ.

فَكَذلك ما كان قبلَ رَمَضانَ، أو بعدَهُ من شَوَّالٍ، تَشبيهًا له بالسُّنَنِ والرواتِب»[٣].

ثالثًا: محبوباتُهُ ﷺ مِنَ الثِّيابِ، والألوانِ:

* **كان أحبَّ الثِّيابِ إليهِ ﷺ: القَميصُ:**

فعن أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها، قالت: «كان أَحَبَّ الثِّيابِ إلى النبيِّ ﷺ: القَميصُ»[٤].

والقَميص: اسم لما يُلبَس مِنَ المخيطِ، الذي له كُمّانِ، وجَيبٌ[٥].

وإنما سُمِّيَ القَميصُ قَميصًا؛ لأنَّ الآدَميَّ يتقمَّصُ فيه، أي: يَدخُلُ فيه؛ ليَستُرَهُ[٦].

ويُعرَفُ -اليوم- بأسماء مُختلفَةٍ، باختِلافِ البلدانِ، ومِن أسمائِهِ: الثَّوبُ، الدَّشداشةُ، الجَلَّابيةُ.

---

(١) رواه النسائي (٢٣٥٠)، وصححه الألباني في صحيح النسائي.
(٢) رواه مسلم (١١٦٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) عون المعبود (٧/ ٦٠).
(٤) رواه أبوداود (٤٠٢٥)، والترمذي (١٧٦٢)، وابن ماجه (٣٥٧٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٦٢٥).
(٥) عون المعبود (١١/ ٤٧).
(٦) نيل الأوطار (٢/ ١٢٥).

فكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَمِيلُ نَفسُهُ إلى لُبسِهِ، أكثَرَ من غَيرِهِ، من نحوِ رِداءٍ، أو إزارٍ؛ لأَنَّهُ أسترُ منهما وأيسَرُ؛ لاحتياجِهِما إلى حَلٍّ وعَقدٍ بخِلافِهِ، فهو أحَبُّها إليهِ لُبسًا[١].

*** وكان من أحَبِّ الثِّيابِ إليهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -أيضا-: الحِبَرَةُ:**

فعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «كان أحَبُّ الثِّيابِ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يَلبَسَها: الحِبَرَةَ»[٢].

والحِبَرَةُ -بِوَزنِ عِنَبَةٍ-: ضَربٌ من بُرودِ اليَمَنِ، مُنَمَّرٌ[٣].

قال أبو العبَّاسِ القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «وهي ثيابٌ مُخَطَّطَةٌ، يُؤتَى بها من اليَمَنِ، وسُمِّيَت بالحِبَرَةِ؛ لأنَّها مُحَبَّرَةٌ، أي: مُزَيَّنَةٌ، والتحبيرُ: التَّزيينُ والتَّحسينُ»[٤].

وقيل: إنما كانت هيَ أحَبَّ الثِّيابِ إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّهُ ليس فيها كَثيرُ زينَةٍ، ولأنَّها أكثَرُ احتِمالًا للوَسَخِ[٥].

قال الجَزَريُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَفيه دَليلٌ على استحبابِ لُبسِ الحِبَرَةِ، وعلى جَوازِ لُبسِ المُخَطَّطِ»[٦].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -حينَ تُوُفِّيَ- سُجِّيَ ببُردٍ حِبَرَةٍ»[٧].

*** وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ من الثِّيابِ: البِيضَ.**

فعن سَمُرَةَ بنِ جُندَبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**البَسوا البَياضَ؛ فإنَّها أطهَرُ وأطيَبُ، وكَفِّنوا فيها مَوتاكُم**»[٨].

---

(١) فيض القدير (٥/ ٨٢).

(٢) رواه البخاري (٥٨١٣)، ومسلم (٢٠٧٩).

(٣) لسان العرب (٤/ ١٥٩).

(٤) المفهم (١٧/ ٩٢).

(٥) عمدة القاري (٢١/ ٣١٣).

(٦) تحفة الأحوذي (٥/ ٣٩٧).

(٧) رواه البخاري (٥٨١٤)، ومسلم (٩٤٢).

(٨) رواه الترمذي (٢٨١٠)، وابن ماجه (٣٥٦٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٣٥).

وعن عبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**البَسوا من ثيابِكُم البَياضَ؛ فإنَّها من خَيرِ ثيابِكُم، وكَفِّنوا فيها مَوتاكُم**»(١).

وقولُهُ: «**فإنَّها أطهَرُ**»، أي: لا دَنَسَ ولا وسَخَ فيها.

قال الطِّيبيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «لأنَّ البيضَ أكثَرُ تَأثُّرًا مِنَ الثِّيابِ المُلَوَّنَةِ؛ فتكونُ أكثَرَ غَسلًا منها، فتكونُ أطهَرَ».

وقولُهُ: « **وأطيَبُ**»، قيل: أطيَبُ؛ لدَلالَتِهِ -غالبًا- على التَّواضُعِ، وعَدَمِ الكِبرِ، والخُيَلاءِ، والعُجبِ، وسائِرِ الأخلاقِ الطَّيِّبَةِ(٢).

ورويَ عن الزُّهريِّ رَحِمَهُ اللهُ أنَّهُ قال: «خرجَ أُمَيَّةُ في سَفَرٍ، فنَزَلوا مَنزِلًا، فأمَّ أُمَيَّةُ وجهًا، وصَعِدَ في كَثيبٍ، فرُفِعَت له كَنيسَةٌ، فانتَهَى إلَيها، فإذا بشَيخٍ جالسٍ، فقال لأُمَيَّةَ -حينَ رَآهُ-: إنَّكَ لَمتبوعٌ، فمِن أينَ يَأتيكَ رَئِيُّكَ؟

قال: من شِقِّي الأيسَرِ.

قال: فأيُّ الثِّيابِ أحَبُّ إليه أن تَلقاهُ فيها؟

قال: السَّوادُ.

قال: كِدتَ تكونُ نَبيَّ العَرَبِ، ولَستَ هوَ- أو: ولَستَ بِهِ- هذا خاطِرٌ مِنَ الجِنِّ، وليس بمَلَكٍ، وإنَّ نَبيَّ العَرَبِ، صاحِبَ هذا الأمرِ، يَأتيهِ المَلَكُ من شِقِّهِ الأيمَنِ، وأحَبُّ الثِّيابِ إليه أن يَلقاهُ فيها: البَياضُ»(٣).

*** وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ من الألوانِ -بعدَ البَياضِ-: الخُضرةَ.**

فعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «كان أحَبَّ الألوانِ إلى رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الخُضرةُ»(٤).

والأخضَرُ: من أنفَعِ الألوانِ للأبصارِ، ومِن أجمَلِها في أعيُنِ الناظِرينَ(٥).

---

(١) رواه أبوداود (٤٠٦١)، والترمذي (٩٩٤)، وابن ماجه (١٤٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٣٦).

(٢) تحفة الأحوذي (٨/ ٧٧).

(٣) هداية الحيارى، لابن القيم (٢/ ٤٠٢).

(٤) رواه الطبراني في الأوسط (٥٧٣١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٩١٦)، وقال الهيثميُّ في المجمع (٥/ ١٢٩): «رجال الطبراني ثقاتٌ»، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٦٢٣).

(٥) عون المعبود (١١/ ٧٨).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكان أحَبّ ألوانِ الثِّيابِ إليه: البَياض، والحِبَرَة، وهي البُرودُ المُحَبَّرَةُ. ولَم يَكُن من هَديِهِ لُبسُ الأحمَرِ، ولا الأسوَدِ، ولا المُصَبَّغِ[١]، ولا المصقولِ[٢].

وأمَّا الحُلَّةُ الحمراءُ التي لَبِسَها، فهيَ: الرِّداءُ اليَمانيُّ، الذي فيه سَوادٌ، وحُمرَةٌ، وبَياضٌ، كالحُلَّةِ الخَضراءِ، فقَد لَبِسَ هَذِهِ، وهذه»[٣].

* ومِن الأشياءِ التي كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّها من الدُّنيا: الطِّيبُ:

فعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حُبِّبَ إليَّ من الدُّنيا: النِّساءُ، والطِّيبُ، وجُعِلَ قُرَّةُ عَيني في الصَّلاةِ**»[٤].

وقولُهُ: «**وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيني في الصَّلاةِ**»: أي: النِّساءُ، والطِّيبُ ما شَغَلاني عن الصَّلاةِ، بل كان يَقومُ الليلَ حتى تَفَطَّرَت قَدَماهُ، فما شَغَلَه الفِراشُ، ولا الزَّوجاتُ، ولا الطِّيبُ، عن أداءِ واجِبِهِ، والتَّقرُّبِ إلى رَبِّهِ[٥].

وعَنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كانت للنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُكَّةٌ، يَتَطَيَّبُ منها»[٦].

وكانت الرِّيحُ الطَّيِّبةُ صِفَتَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن لم يَمَسّ طيبًا، ومَعَ هذا: كان يَستعملُ الطِّيبَ في أكثَرِ أوقاتِهِ؛ مُبالغَةً في طيبِ رائِحتِهِ؛ لمُلاقاةِ الملائِكةِ، ومُجالَسَةِ المُسلمينَ.

* وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَمَيَّزُ بطيبِ الرائحَةِ، فكان يَفوحُ طيبًا:

فعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ما مَسِستُ حَريرًا ولا ديباجًا أليَنَ من كَفِّ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا شَمِمتُ ريحًا قَطُّ، أو عَرفًا قَطُّ، أطيَبَ من ريحِ أو عَرفِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[٧].

---

(١) أي: الملون.

(٢) المصقولُ: اسمُ مفعولٍ، يطلقُ على نوع من الثياب اللطيفة تُلبس في أيام الصيف.

(٣) زاد المعاد (٤/ ٢١٨).

(٤) رواه النسائي (٣٩٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٢٤).

(٥) شرح الأربعين النووية (٧٣/ ٦) لعطية سالم.

(٦) رواه أبوداود (٤١٦٢)، وصححه الألباني، والسُّكة: قيل: طيبٌ مركَّبٌ، وقيل: يحتمل أن يكون وعاءً. انظر: مرقاة المفاتيح (٧/ ٢٨٢٤).

(٧) رواه البخاري (٣٥٦١).

وفي رواية: «ما شَمَمتُ عَنبَرًا قَطُّ، ولا مِسكًا، ولا شَيئًا، أطيَبَ من ريحِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا مَسِستُ شَيئًا قَطُّ، ديباجًا، ولا حَريرًا، ألْيَنَ مَسًّا من رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(١).

❋ وكان يُعرَفُ بطيبِ رائحَتِهِ، إذا أقبلَ، أو أدبَرَ:

فعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا مَرَّ في الطَّريقِ من طُرُقِ المدينَةِ، وُجِدَ منه رائِحَةُ المِسكِ، قالوا: مَرَّ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الطَّريقِ اليومَ»(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكثِرُ التطيُّبَ، وتَشتَدُّ عليه الرائِحَةُ الكريهَةُ، وتشُقُّ عليه.

وكان الطِّيبُ من أحَبِّ الأشياءِ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولَهُ تأثيرٌ في حِفظِ الصِّحَّةِ، ودَفعِ كَثيرٍ من الآلامِ، وأسبابِها، بسببِ قوَّةِ الطَّبيعةِ به»(٣).

❋ وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ الفَألَ الحَسَنَ:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعجِبُهُ الفَألُ الحَسَنُ، ويَكرَهُ الطِّيَرَةَ»(٤).

والتَّفاؤُلُ: هو الكلِمةُ الحَسَنةُ، التي تَسُرُّ الإنسانَ، وما أشبَه ذلك من الأُمورِ المُبَشِّرَةِ، فهو يَشملُ كُلَّ قولٍ أو فعلٍ يُستَبشَرُ بهِ.

فعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا عَدوَى، ولا طيَرَةَ، ويُعجِبُني الفَألُ الصَّالحُ: الكلِمَةُ الحَسَنَةُ**»(٥).

وعَنه -أيضًا- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُعجِبُهُ -إذا خرجَ لحاجَةٍ- أن يَسمَعَ: يا راشِدُ، يا نَجيحُ(٦).

---

(١) رواه مسلم (٢٣٣٠).

(٢) رواه أبو يعلى (٣١٢٥)، وصححه ابن حجر في الفتح (٦/ ٥٧٤).

(٣) زاد المعاد (٤/ ٣٠٩).

(٤) رواه ابن ماجه (٣٥٣٦)، وهو في البخاري (٥٧٥٤)، ومسلم (٢٢٢٠) بنحوه.

(٥) رواه البخاري (٥٧٥٦)، ومسلم (٢٢٢٤).

(٦) رواه الترمذي (١٦١٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٩٧٨).

وإنما كان يُعجبُهُ الفألُ؛ لأنَّهُ تَنشَرِحُ له النَّفسُ، وتَستَبشِرُ بقضاءِ الحاجَةِ، وبُلوغِ الأمَلِ؛ فيُحسِنُ الظَّنَّ باللهِ عَزَّوَجَلَّ[1].

قال الحافِظُ ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**قال الحَليميُّ**: «وإنما كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يُعجِبُهُ الفَألُ**؛ لأنَّ التَّشاؤُمَ سوءُ ظَنٍّ باللهِ تعالى، والتَّفاؤُل حُسنُ ظَنٍّ بِهِ، والمُؤمِنُ مَأمورٌ بحُسنِ الظَّنِّ باللهِ تعالى، على كُلِّ حالٍ».

وقال الطِّيبيُّ: «معنى التَّرَخُّصِ في الفَألِ، والمنعِ مِنَ الطِّيَرَةِ: هو أنَّ الشَّخصَ لَو رَأى شَيئًا، فظَنَّهُ حَسَنًا، مُحَرِّضًا على طَلَبِ حاجَتِهِ: فليَفعَل ذلك، وإن رَآهُ بضِدِّ ذلك: فلا يَقبَلهُ، بل يَمضي لسَبيلِهِ، فلَو قَبِلَ، وانتَهَى عن المُضيِّ: فهو الطِّيَرَةُ التي اختُصَّت بأن تُستَعمَلَ في الشُّؤمِ، واللهُ أعلَمُ»[2].

فائدة:

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أمَّا الشَّرعُ: فخَصَّ الطِّيَرَةَ بما يَسوءُ، والفَألَ بما يَسُرُّ، ومِن شَرطِهِ: أن لا يُقصَدَ إليه[3]، فيَصيرَ من الطِّيَرةِ»[4].

* وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ الاسمَ الحَسَنَ:

فعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «كان رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَفاءَلُ، ولا يَتَطَيَّرُ، ويُعجِبُهُ كُلُّ اسمٍ حَسَنٍ»[5].

وعن بُرَيدَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان لا يَتَطَيَّرُ من شيءٍ، وكان إذا بَعَثَ عامِلًا، سَأَلَ عن اسمِهِ:

---

(١) المفهم (٨/ ١٢٥).

(٢) فتح الباري (١٠/ ٢١٥).

(٣) يعني: يحصلُ اتفاقًا بغير قصدٍ وتعمُّدٍ له.

(٤) المصدر السابق (١٠/ ٢١٥).

(٥) رواه أحمد (٢٩٢٥)، وحسنه محققو المسند.

فإذا أعجَبَهُ اسمُهُ، فرِحَ بِهِ، ورُئِيَ بشرُ ذلك في وجهِهِ.

وإن كَرِهَ اسمَهُ، رُئِيَ كَراهيَةُ ذلك في وجهِهِ[١].

وإذا دَخَلَ قَريَةً سَأَلَ عن اسمِها:

فإن أعجَبَهُ اسمُها فرِحَ، ورُئِيَ بشرُ ذلك في وجهِهِ.

وإن كَرِهَ اسمَها، رُئِيَ كَراهيَةُ ذلك في وجهِهِ»[٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «واللهُ سبحانه قَد جَعَلَ في غَرائزِ الناسِ الإعجابَ بسَماعِ الاسمِ الحَسَنِ، ومحَبَّتَهُ، ومَيلَ نُفوسِهِم إليهِ، وكذلك جَعَلَ فيها الارتياحَ، والاستبشارَ، والسُّرورَ، باسمِ السَّلامِ، والفَلاحِ، والنَّجاحِ، والتَّهنِئَةِ، والبُشرَى، والفَوزِ، والظَّفَرِ، والغُنمِ، والرِّبحِ، والطِّيبِ، ونَيلِ الأُمنيَةِ، والفَرَحِ، والغَوثِ، والعِزِّ، والغِنَى، وأمثالها.

فإذا قَرَعَت هذِهِ الأسماءُ الأسماعَ: استَبشَرَت بها النَّفسُ، وانشَرَحَ لها الصَّدرُ، وقَويَ بها القَلبُ»[٣].

* وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ الرُّؤيا الحَسَنَةَ:

فعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُعجِبُهُ الرُّؤيا الحَسَنَةُ»[٤].

وعن أبي بكرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعجِبُهُ الرُّؤيا الصَّالحَةُ، ويَسأَلُ عَنها»[٥].

* فكان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسأَلُ أصحابَهُ عَمَّا رَأوهُ من رُؤًى:

فعن سَمُرَةَ بنِ جُندَبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** كان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا صَلَّى صَلاةً أقبَلَ عَلَينا بوَجهِهِ، فقال: **«مَن رَأى مِنكُم اللَّيلَةَ رُؤيا؟»**.

---

(١) لا تشاؤمًا، وتطيُّرًا باسمه؛ بل، لانتفاء التفاؤل.

(٢) رواه أبوداود (٣٩٢٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٣) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٤٤).

(٤) رواه أحمد (١٢٣٨٥)، وصححه محققو المسند، على شرط مسلم.

(٥) رواه أحمد (٢٠٤٤٥)، وحسنه محققو المسند.

فإن رَأى أحَدٌ قَصَّها، فيقولُ ما شاءَ اللهُ... وذَكَرَ الحديثَ[١].

ومعنَى قولِه: «فيقولُ ما شاءَ اللهُ»: أي: يقولُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تَعبيرِها ما شاءَ اللهُ أن يَقولَه[٢].

وكان يُعجِبُهُ الرُّؤيا الصَّالحةُ؛ لأنَّها منَ اللهِ، فعن أبي قَتادَةَ، عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنَّهُ قال: «**الرُّؤيا الصَّالحَةُ مِنَ اللهِ، والرُّؤيا السَّوءُ مِنَ الشَّيطانِ**»[٣].

قال ابنُ المُلقِّنِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**قوله: «الرُّؤيا الصَّالحَةُ مِنَ اللهِ»**: يُريدُ: أنَّها بشارةٌ منه؛ ليشكرَه عليها»[٤].

* وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ التيامُنَ في شَأنِهِ كُلِّهِ:

فيَأكُلُ بيَمينِهِ، ويَشرَبُ بها، ويَأخُذُ بها، ويُعطي بها، ويُقَدِّمُها في الأشياءِ الفاضِلَةِ، فيُقَدِّمُها في دُخولِ المسجِدِ، وفي لُبسِ النَّعلِ، وفي التَّطَهُّرِ، وفي التَّرَجُّلِ، وينامُ على الشِّقِّ الأيمنِ.

فعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ التيمُّنَ في طُهورِهِ إذا تَطَهَّرَ، وفي تَرَجُّلِهِ إذا تَرَجَّلَ، وفي انتِعالِهِ إذا انتَعَلَ»[٥].

ومعنى «التيمُّن»: استعمالُ اليمينِ في تَعاطي الأشياء، والابتِداءُ باليَمينِ.

وقَولُه: «في طُهورِهِ»: أي: تَطَهُّره من الحَدَثِ، أوِ النَّجَسِ.

«وتَرَجُّلِهِ»: أي: دَهنِ شَعرِهِ، وتَسريحِه.

«وفي انتِعالِهِ»: لُبسِه النَّعلَ.

---

(١) رواه البخاري (١٣٨٦).

(٢) مرقاة المفاتيح (٧/ ٢٩٢٥).

(٣) رواه البخاري (٣٢٩٢)، ومسلم (٢٢٦١).

(٤) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (١٩/ ٢١٥).

(٥) رواه البخاري (١٦٨)، ومسلم (٢٦٨).

وفي رواية: «كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ التيامُنَ، يَأخُذُ بيَمينِهِ، ويُعطي بيَمينِهِ، ويُحِبُّ التيمُّنَ في جَميعِ أُمورِهِ»[١].

وعِندَ البخاري: «كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ التيمُّنَ ما استَطاعَ في شَأنِهِ كُلِّهِ، في طُهورِهِ، وتَرَجُّلِهِ، وتَنَعُّلِهِ»[٢].

وقولُهُ: «**ما استطاعَ**»: دليلٌ على أنَّ المُحافَظَةَ على ذلك حيث لم يمنَع منها مانِعٌ، كما قال الحافظُ ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ[٣].

وقولُهُ: «**في شَأنِهِ كُلِّهِ**»: أي: في كُلِّ عملٍ من الأعمالِ الطَّيِّبةِ المُستَحسَنَةِ.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**هَذِهِ قاعِدَةٌ مُستَمِرَّةٌ في الشَّرعِ، وهيَ**: أنَّ ما كان من بابِ التَّكريمِ والتَّشريفِ، كَلُبسِ الثَّوبِ، والسَّراويلِ، والخُفِّ، ودُخولِ المسجِدِ، والسِّواكِ، والاكتِحال، وتَقليمِ الأظفارِ، وقَصِّ الشَّارِبِ، وتَرجيلِ الشَّعرِ، وهو مَشطُهُ، ونَتفِ الإبطِ، وحَلقِ الرأسِ، والسَّلامِ مِنَ الصَّلاةِ، وغَسلِ أعضاءِ الطَّهارَةِ، والخُروجِ من الخَلاءِ، والأكلِ والشُّربِ، والمُصافَحَةِ، واستلامِ الحجرِ الأسوَدِ، وغَيرِ ذلك مِمَّا هو في مَعناهُ: يُستَحَبّ التيامُنُ فيه.

وأمَّا **ما كان بضِدِّهِ**، كَدُخولِ الخَلاءِ، والخُروجِ مِنَ المسجِدِ، والامتِخاطِ، والاستنجاءِ، وخَلعِ الثَّوبِ، والسَّراويلِ، والخُفِّ، وما أشبَهَ ذلك: فيُستَحَبُّ التياسُرُ فيه، وذلك كُلُّهُ، بكَرامَةِ اليَمينِ، وشَرَفِها. والله أعلَم»[٤].

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يُحِبُّ التيامُنَ؛ تبرُّكًا منه باسمِ اليَمينِ**؛ لإضافَةِ الخَيرِ إليها، كَما قال اللهُ تعالى: ﴿**وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ**﴾ [الواقعة: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿**وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ**﴾ [مريم: ٥٢]، ولِما فيه من اليُمنِ والبَرَكةِ، وهو من بابِ التَّفاؤُلِ، ونَقيضُهُ الشِّمالُ[٥].

---

(١) رواه النسائي (٥٠٥٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي.

(٢) صحيح البخاري (٤٢٦).

(٣) فتح الباري (١/ ٢٦٩).

(٤) شرح النووي على مسلم (٣/ ١٦٠).

(٥) المفهم (١/ ٤٥٩).

قال ابنُ بطَّالٍ: «وبدؤُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالميامِنِ في شَأنِهِ كُلِّهِ: هو على وجهِ التَّفاؤُلِ من أهلِ اليَمينِ باليَمينِ؛ لأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُعجِبُهُ الفَألُ الحَسَن»(١).

* وكان يُحِبُّ لقاءَ العَدوِّ عِندَ الزَّوال:

فعن عبدِاللهِ بنِ أبي أوفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ أن يَنهَضَ إلى عَدوِّهِ، عندَ زَوال الشَّمسِ»(٢)

وعَنه -أيضًا- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بَعضِ أيَّامِهِ التي لَقيَ فيها، انتَظَرَ حتى مالَتِ الشَّمسُ، ثم قامَ في الناسِ خَطيبًا، قال: «**أيُّها الناسُ، لا تَتَمَنَّوا لقاءَ العَدوِّ، وسَلوا اللهَ العافيَةَ، فإذا لَقيتُموهم فاصبِروا، واعلَموا أنَّ الجَنَّةَ تحتَ ظِلال السُّيوفِ**».

ثم قال: «**اللهمَّ مُنزِلَ الكِتابِ، ومُجريَ السَّحابِ، وهازِمَ الأحزابِ، اهزِمهم، وانصُرنا عليهم**»(٣).

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: « فيَظهَرُ أنَّ فائِدَةَ التَّأخيرِ؛ لكَونِ أوقاتِ الصَّلاةِ مَظِنَّةَ إجابَةِ الدُّعاء ...»(٤).

هَذا بخلافِ الإغارةِ على العَدوِّ، فإنه يُندبُ أن يكونَ أوّلَ النهارِ؛ لأنّه وقتُ غَفلتِهم كَما فعلَ في خَيبر(٥).

* وكان يُحِبُّ الحِنَّاءَ:

فعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت تُعجِبُهُ الفاغيَةُ، وكان أعجَبُ الطَّعامِ إليه: الدُّبَّاءَ»(٦).

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطَّالٍ (١/ ٢٦٢).

(٢) رواه أحمد (١٩١٤١)، وصححه محققو المسند.

(٣) رواه البخاري (٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢).

(٤) فتح الباري (٩/ ١٤٤).

(٥) فيض القدير (٥/ ٢٣١).

(٦) رواه أحمد (١٢٥٤٦)، وحسنه محققو المسند، وضعَّفه الألباني في الضَّعيفة (٤٢٧٨).

الفاغيَةُ: هيَ نَورُ الحِنَّاء، وقيل: نَورُ الريحان، وقيل: نَورُ كلِّ نَبتٍ من أنوارِ الصَّحراءِ التي لا تُزرَع، وقيل: فاغيَةُ كُلِّ نَبتٍ: نَورُه[١].

قال المُناويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وتُسَمِّيها العامَّةُ: تمر حنَّاء»[٢].

ما يُحِبُّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأعمال والطَّاعاتِ

كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعجبُهُ كلّ عَملٍ صالحٍ، ويبادرُ إليه، ويَحثُّ أمّتَه عليه، وقال: «ما بقيَ شيءٌ يُقرّبُ منَ الجنةِ، ويُباعدُ منَ النارِ، إلا وقد بُيِّنَ لكُم»[٣].

* ولذلك كان يُحِبُّ المُداوَمَةَ على العَمَلِ الصَّالحِ:

فعن مَسروقٍ قال: سَألتُ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أيُّ العَمَلِ كان أحَبَّ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قالت: «الدَّائِمُ»[٤].

وعنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «كان عَمَلُهُ دِيمَةً، وأيُّكُم يُطيقُ ما كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطيقُ؟»[٥].

وسببُ **مَحَبَّتِهِ للدَّائِمِ**: أنَّ فاعِلَهُ لا يَنقَطِعُ عن عَمَلِ الخَيرِ، ولا يَنقطِعُ عنه الثَّوابُ والأجرُ، ويَجتَمِعُ منه الكثيرُ، وإن قَلَّ العَمَلُ، في الزَّمانِ الطَّويلِ، ولا تَزالُ صَحائِفُهُ مَكتوبةً بالخَيرِ، ومصعدُ عَمَلِهِ مَعمورًا بالبِرِّ، ويَحصُلُ بِهِ مُشابَهَةُ الملائِكَةِ في الدَّوامِ، واللهُ أعلمُ[٦].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «بِدَوامِ القَليل تَستَمِرُّ الطَّاعَة بالذِّكرِ، والمُراقَبَة، والإخلاص،

---

(١) النهاية (٣/ ٤٦١).

(٢) فيض القدير (٥/ ٢٢٩).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٦٤٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٨٠٣).

(٤) رواه البخاري (١١٣٢)، ومسلم (٧٤١).

(٥) رواه البخاري (١٩٨٧)، ومسلم (٧٨٣).

(٦) المفهم (٧/ ١٠).

والإقبال على الله، بخِلافِ الكثيرِ الشَّاقِّ، حتى يَنموَ القَليلُ الدَّائِمُ، بحَيثُ يَزيد على الكثيرِ المُنقَطِعِ، أضعافًا كَثيرَة»[١].

وقال ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ اللهُ: «إنما أحَبَّ الدَّائِمَ؛ لمَعنيَينِ:

أحَدهما: أنَّ التَّارِكَ للعَمَلِ بعد الدُّخول فيه، كالمُعرِضِ بعد الوَصلِ، فهو مُتَعَرِّضٌ للذَّمِّ.

ثانيهما: أنَّ مُداوِمَ الخَيرِ مُلازِمٌ للخِدمَةِ، وليس مَن لازَمَ البابَ في كُلِّ يومٍ وقتًا ما، كَمَن لازَمَ يومًا كامِلًا ثم انقَطَعَ»[٢].

*** وكان مِن أكثرِ ما يُحبّ أن يُداومَ عليه مِن العَملِ الصالحِ: الصّلاة.**

فعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**حُبِّبَ إلَيَّ مِنَ الدُّنيا: النِّساءُ، والطِّيبُ، وجُعِلَت قُرَّةُ عَيني في الصَّلاةِ**»[٣].

قال أبو عبدِالله محمدُ بنُ نصر المروزيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «ولَو لم يَستَدِلَّ المُؤمِنُ على أنَّ الصَّلاة أحَبُّ الأعمال إلى اللهِ، إلا بما أُلزِمَ قَلبُ حَبيبِهِ المُصطَفَى محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حُبِّ الصَّلاةِ، وجَعل قُرَّةِ عَينِهِ فيها، دونَ سائِرِ الأعمال كُلِّها- وإن كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحِبًّا لجَميعِ الطاعاتِ، ولكنهُ خَصَّ الصَّلاةَ، فأخبَرَ أنَّ قُرَّةَ عَينِهِ جُعِلَت في الصَّلاةِ لرَبِّهِ-: لَكَفاهُ بذلك دَليلا»[٤].

فالصَّلاةُ من أحَبِّ المحبوباتِ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي عَمودُ الإسلامِ، ورَأسُ القُربَاتِ، والصِّلَةُ بينَ العَبدِ ورَبِّهِ.

وعن رَجُلٍ من خُزاعَةَ، أنَّهُ قال: لَيتَني صَلَّيتُ؛ فاستَرَحتُ! فكَأنَّهم عابوا عليه ذلك، فقال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**يا بلالُ، أقِمِ الصَّلاةَ، أرِحنا بها**»[٥].

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ٧١).

(٢) كشف المشكل (٤/ ٢٧٨)، فتح الباري (١/ ١٠٣).

(٣) رواه النسائي (٣٩٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٢٤).

(٤) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٣٣١).

(٥) رواه أبوداود (٤٩٨٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٩٢).

فكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يَعُدُّ** غَيرها مِنَ الأعمال الدُّنيَوِيَّةِ تَعَبًا، فكان يَستَريحُ بالصَّلاةِ؛ لما فيها من مُناجاةِ اللهِ تعالى؛ ولهذا قال: «**وَجُعِلَت قُرَّة عَيني في الصَّلاةِ**»، وما أقرَبَ الراحَةَ من قُرَّةِ العَينِ(١).

وعن حُذَيفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «كان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حَزَبَهُ أمرٌ صَلَّى»(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وَأَمَّا الصّلاةُ: فشَأنُها في تَفريحِ القَلبِ، وتَقويتِهِ، وشَرحِهِ، وابتِهاجِهِ، ولَذّتِهِ، أكبَرُ شَأنٍ.

وفيها مِن اتّصال القَلبِ والرُّوحِ باللهِ، وقُربِهِ، والتّنَعُّمِ بذِكرِهِ، والابتِهاجِ بمُناجاتِهِ، والوُقوفِ بين يَدَيهِ، واستعمال جَميعِ البَدَنِ وقواهُ وآلاتِهِ في عُبوديّتِهِ، وإعطاءِ كُلِّ عُضوٍ حَظَّهُ منها، واشتِغالِهِ عن التّعَلُّقِ بالخَلقِ، ومُلابَسَتِهِم، ومُحاوَراتِهِم، وانجِذابِ قوَى قَلبِهِ وجَوارِحِهِ إلى رَبّهِ وفاطِرِهِ، وراحَتِهِ من عَدوِّهِ حالَةَ الصّلاةِ: ما صارَت بِهِ من أكبَرِ الأدويَةِ، والمُفَرِّحاتِ، والأغذيَةِ التي لا تُلائِمُ إلا القُلوبَ الصّحيحَةَ.

فالصّلاةُ من أكبَرِ العَونِ على تَحصيلِ مَصالحِ الدّنيا والآخِرَةِ، ودَفعِ مَفاسِدِ الدّنيا والآخِرَةِ، وهي منهاةٌ عن الإثمِ، ودافِعَةٌ لأدواءِ القُلوبِ، ومَطرَدَةٌ للدّاءِ عن الجَسَدِ، ومُنَوِّرَةٌ للقَلبِ، ومُبَيِّضَةٌ للوَجهِ، ومُنَشِّطَةٌ للجَوارِحِ والنّفسِ، وجالبَةٌ للرِّزقِ، ودافِعَةٌ للظُّلمِ، وناصِرَةٌ للمَظلومِ، وقامِعَةٌ لأخلاطِ الشّهَواتِ، وحافِظَةٌ للنّعمَةِ، ودافِعَةٌ للنّقمَةِ، ومُنزِلَةٌ للرّحمَةِ، وكاشِفَةٌ للغُمّةِ»(٣).

* وكان يُحبُّ أن يُعرَضَ عَمَلُهُ، وهو صائِمٌ:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**تُعرَضُ الأعمالُ يومَ الاثنَينِ والخَميسِ، فأُحِبُّ أن يُعرَضَ عَمَلي، وأنا صائِمٌ**»(٤).

---

(١) النهاية (٢/ ٢٧٤).

(٢) رواه أبوداود (١٣١٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٠٣).

(٣) زاد المعاد (٤/ ١٩٢).

(٤) رواه الترمذي (٧٤٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٥٩).

وعن أُسامَةَ بنِ زَيدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّكَ تَصومُ حتى لا تَكادَ تُفطِرُ، وتُفطِرُ حتى لا تَكادَ أن تَصومَ، إلا يومَينِ، إن دَخَلا في صيامِكَ، وإلا صُمتَهما.

قال: «**أيُّ يومَينِ؟**».

قُلتُ: يومَ الاثنَينِ، ويومَ الخَميسِ.

قال: «**ذانِكَ يومانِ تُعرَضُ فيهما الأعمالُ على رَبِّ العالَمينَ، فأُحِبُّ أن يُعرَضَ عَمَلي، وأنا صائِمٌ**»(١).

وعَنه- رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-، قال: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، لم أرَكَ تَصومُ شَهرًا مِنَ الشُّهورِ، ما تَصومُ من شَعبانَ.

قال: «**ذلك شَهرٌ يَغفُلُ الناسُ عَنهُ، بين رَجَبٍ ورَمَضانَ، وهو شَهرٌ تُرفَعُ فيه الأعمالُ إلى رَبِّ العالَمينَ، فأُحِبُّ أن يُرفَعَ عَمَلي، وأنا صائِمٌ**»(٢).

فأعمالُ العِبادِ تُعرَضُ على اللهِ تعالى كُلَّ يومٍ، ثم تُعرَضُ عليه أعمالُ الجُمُعَةِ في كُلِّ اثنَينِ وخَميس، ثم تُعرَضُ عليه أعمالُ السَّنَةِ في شَعبانَ، فتُعرَضُ عَرضًا بعد عَرضٍ، ولِكُلِّ عَرضٍ حِكمَةٌ يُطلِعُ اللهُ عليها مَن يَشاءُ من خَلقِهِ، أو يَستَأثِرُ بها عندَهُ، مع أنَّهُ تعالى لا يَخفَى عليه من أعمالِهِم خافيَةٌ(٣).

قال ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُٱللَّهُ: «وفي قوله: «**يَغفُلُ الناسُ عنه بين رَجَبٍ ورَمَضانَ**» إشارةٌ إلى أنَّ بَعضَ ما يشتَهِرُ فضلُهُ من الأزمانِ، أوِ الأماكِنِ، أوِ الأشخاصِ، قَد يكونُ غَيرُهُ أفضَلَ منه، إمَّا مُطلقًا، أو لخُصوصيَّةٍ فيه، لا يَتَفَطَّنُ لها أكثَرُ الناسِ، فيَشتَغِلونَ بالمشهورِ عَنهُ، ويُفَوِّتونَ تَحصيلَ فضيلَةِ ما ليس بمَشهورٍ عِندَهم»(٤).

---

(١) رواه أبوداود (٢٤٣٦)، والنسائي (٢٣٥٨)، وصححه الألباني.

(٢) رواه النسائي (٢٣٥٧)، وحسنه الألباني.

(٣) حاشية السِّنديِّ على سنن النسائي (٤/ ٢٠٢).

(٤) لطائف المعارف (ص١٣١).

* وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ الجَوامِعَ من الدُّعاءِ:

فعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: «كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَستَحِبُّ الجَوامِعَ مِنَ الدُّعاءِ، ويَدَعُ ما سِوَى ذلك»(١).

ومعنى: «**الجَوامِع مِنَ الدُّعاء**»: أيِ: الأدعية الجامعة لخَيرِ الدُّنيا والآخِرَةِ، وهي ما كان لَفظُهُ قَليلًا، ومَعناهُ كَثيرًا، كَما في قولِهِ تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]، ومِثلُ الدُّعاءِ بالعافيَةِ، في الدُّنيا والآخِرَةِ.

ومعنى: «**وَيَدَعُ ما سِوَى ذلك**»: أي: مِمَّا لا يكونُ جامِعًا، بأن يكونَ خاصًّا بطَلَبِ أُمورٍ جُزئيَّةٍ(٢).

* وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ تَكرارَ الدُّعاءِ:

فعن عبدِاللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُعجِبُهُ أن يَدعوَ ثَلاثًا، ويَستَغفِرَ ثَلاثًا»(٣).

وذلك لأنَّ في تَكريرِهِ، إظهارًا لِمَوضِعِ الفَقرِ والحاجَةِ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، والتَّذَلُّلِ، والخُضوعِ لَهُ(٤).

وعَنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا دَعا دَعا ثَلاثًا، وإذا سَألَ سَألَ ثَلاثًا»(٥).

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «**فيه**: استحبابُ تَكريرِ الدُّعاءِ ثَلاثًا، وقولُهُ: «وَإذا سَألَ»: هو الدُّعاءُ، لكن عَطَفَهُ لاختِلافِ اللَّفظِ؛ تَوكيدًا»(٦).

(١) رواه أبوداود (١٤٨٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٩٤٩).
(٢) عون المعبود (٤/ ٢٤٩).
(٣) رواه أبوداود (١٥٢٤)، وأحمد (٣٧٤٤)،، وصححه محققو المسند.
(٤) عمدة القاري (٢٣/ ١٦).
(٥) رواه مسلم (١٧٩٤)، في حديث طويل.
(٦) شرح النووي على مسلم (١٢/ ١٥٢).

* وكان يُحِبُّ سَماعَ القُرآنِ من غَيرِهِ:

فعن عبدِالله بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال لي النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقرَأ عَلَيَّ**».

قُلتُ: آقرَأُ عَلَيكَ، وعَلَيكَ أُنزِلَ؟

قال: «**فإنِّي أُحِبُّ أن أسمَعَهُ من غَيري**».

فَقَرَأتُ عليه سورَةَ النِّساءِ، حتى بَلَغتُ: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا** ﴾ [النساء: ٤١]، قال: «**أمسِك**»، فإذا عَيناهُ تَذرِفانِ[١].

قوله: «فإنِّي أُحِبُّ أن أسمَعَهُ من غَيري»:

قال ابنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَذلك أنَّ المُستَمِعَ أقوَى على التَّدَبُّرِ، ونَفسهُ أخلى وأنشَطُ لذلك مِنَ القارِئِ؛ لاشتِغالِهِ بالقِراءَةِ، وأحكامِها»[٢].

وقال ابنُ عَلَّانَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذلك؛ لكَونِهِ أبلغَ في التّفهيمِ والتّدبيرِ؛ لأنَّ القلبَ -حينئذٍ- يَخلُصُ لتعلُّقِ المعاني، والقارئ مَشغولٌ بضبطِ الألفاظِ، وأدائِها حقَّها، ولأنّهُ اعتادَ سَماعَهُ مِن جِبريلَ، والعادةُ محبوبةٌ بالطّبعِ؛ ولهذا: كان عَرضُ القُرآنِ على الغَيرِ سُنَّةً»[٣].

(١) رواه البخاري (٤٥٨٢)، ومسلم (٨٠٠).

(٢) شرح صحيح البخاري (١٠/ ٢٧٧).

(٣) دليل الفالحين (٤/ ٣٦١).

ما يُبغِضُه النبيُّ ﷺ

فكما أحبّ النبيُّ ﷺ أشخاصًا، وأعمالًا، وأشياءَ، فكذلك أبغضَ أشخاصًا، وأعمالًا، وأشياءَ.

والمُؤمنُ يَقتَدي بنبيِّهِ ﷺ، فيما يُحِبُّ ويُبغضُ، الحُبّ والبُغض الشَّرعيّ، فيُحبُّ ما يُحِبُّ، ويُبغِضُ ما يُبغِضُ، وهذا من تَمامِ الإيمانِ.

❋ **فكان مِمّن أبغضَهم النبيُّ ﷺ: الثَّرثارونَ، والمُتَشَدِّقونَ، والمُتَفيهقونَ:**

فعن جابرِ بنِ عبدِالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إنَّ من أحَبِّكُم إليَّ، وأقرَبِكُم مِنِّي مَجلِسًا يومَ القيامَةِ: أحاسِنكُم أخلاقًا، وإنَّ أبغَضَكُم إليَّ، وأبعَدَكُم مِنِّي مَجلِسًا يومَ القيامَةِ: الثَّرثارونَ[1]، والمُتَشَدِّقونَ، والمُتَفيهقونَ**».

قالوا يا رسولَ اللهِ: قَد عَلِمنا الثَّرثارونَ، والمُتَشَدِّقونَ، فما المُتَفيهقونَ؟

قال: «**المتكبِّرونَ**»[2].

والنبيُّ ﷺ يُبغِضُ الثَّرثارَ؛ لأنَّهُ يَتكَلَّمُ بما لا خَيرَ فيه، وقد قال تعالى: ﴿**لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ١١٤].

(١) الثَّرثار: هو الذي يكثر من الكلام تكلُّفًا، والثَّرثرة: كثرة الكلام، وترديده.

(٢) رواه الترمذي (٢٠١٨)، وصححه الألباني.

وعن المُغيرَةِ بنِ شُعبةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**إنَّ اللهَ حَرَّمَ عليكم: عُقوقَ الأُمَّهاتِ، ووَأْدَ البَناتِ، ومَنَعًا وهاتِ، وكَرِهَ لكُم: قيل، وقال، وكَثرَةَ السُّؤال، وإضاعَةَ المال**»[١].

والمُتَشَدِّقونَ: المُتَوَسِّعونَ في الكلامِ، من غَيرِ احتياطٍ، واحتِرازٍ، وقيل: أرادَ بالمُتَشَدِّقِ: المُستَهزِئَ بالناسِ، يَلوي شِدقَهُ بِهِم، وعليهم[٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: «المُتَشَدِّقُ: المُتَكَلِّمُ بملءِ فيه، تَفاصُحًا، وتَعاظُمًا، وتَطاوُلًا، وإظهارًا لفَضلِهِ على غَيرِهِ»[٣].

والمُتَفيهقونَ: همُ الذينَ يَتَوَسَّعونَ في الكلامِ، ويَفتَحون بِهِ أفواهَهم، مَأخوذٌ مِنَ الفهقِ، وهو الامتِلاءُ، والاتِّساعُ[٤].

فهو يَملأُ فمَهُ بالكلامِ، ويَتَوَسَّعُ فيه؛ إظهارًا لفَصاحَتِهِ، وفَضلِهِ، واستعلاءً على غَيرِهِ؛ ولهذا فسَّرَهُ النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **بالمُتكبِّرِ**[٥].

قال النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: «يُكرَهُ التَّقعيرُ في الكلامِ، بالتَّشَدُّقِ، وتَكَلُّفِ السَّجعِ، والفَصاحَةِ، والتَّصَنُّعِ بالمُقدّماتِ التي يَعتادُها المُتَفاصِحونَ، وزَخارِفِ القولِ، فكُلُّ ذلك مِنَ التَّكلُّفِ المذمومِ، وكَذلك تَكَلُّفُ السَّجعِ، وكَذلك التَّحَرِّي في دقائِقِ الإعرابِ، ووَحشيِّ اللُّغةِ، في حال مُخاطَبَةِ العَوامِّ، بل يَنبَغي أن يقصدَ في مُخاطَبَتِهِ لَفظًا يَفهَمُهُ صاحِبُهُ فهمًا جَليًّا، ولا يَستَثقِلُهُ»[٦].

ولذلك قال صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ يَبغَضُ البَليغَ مِنَ الرِّجال، الذي يَتَخَلَّلُ بلِسانِهِ، كَما تَتَخَلَّلُ البقرةُ بلِسانِها**»[٧].

---

(١) رواه البخاري (٢٤٠٨)، ومسلم (٥٩٣).

(٢) النهاية (٢/ ٤٥٣).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٢٩٤).

(٤) النهاية (٣/ ٤٨٢).

(٥) تحفة الأحوذي (٦/ ١٣٦).

(٦) الأذكار (ص٣٧٢).

(٧) رواه الترمذي (٢٨٥٣)، وأبوداود (٥٠٠٥)، وصححه الألباني.

وقولُهُ: «**كَما تَتَخَلَّلُ البقرةُ بِلِسانِها**»، **قال ابنُ الأثيرِ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: يَتَشَدَّقُ في الكلامِ بِلِسانِهِ، ويَلُفُّهُ، كَما تَلُفُّ البقرةُ الكلأَ بِلِسانِها لَفًّا»(١).

وخَصَّ البقرةَ؛ لأنَّ جَميعَ البَهائِمِ تَأخُذُ النباتَ بأسنانِها، وهي تَجمَعُ بِلِسانِها(٢).

وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «واعلَم أنَّهُ لا يَدخُلُ في الذَّمِّ: تَحسينُ ألفاظِ الخُطَبِ والمواعِظِ، إذا لم يَكُن فيها إفراطٌ، وإغرابٌ؛ لأنَّ المقصودَ منها: تَهييجُ القُلوبِ إلى طاعَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولِحُسنِ اللَّفظِ في هذا أثَرٌ ظاهِرٌ»(٣).

* وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبغِضُ الكذبَ، وأهلَه:

قالت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ما كان خُلُقٌ أبغَضَ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الكذِبِ، ولَقَد كان الرجُلُ يُحَدِّثُ عندَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالكِذبَةِ، فما يَزالُ في نَفسِهِ، حتى يَعلَمَ أنَّهُ قَد أحدَثَ منها تَوبَةً»(٤).

وفي رواية: «كان إذا اطَّلَعَ على أحَدٍ من أهلِ بَيتِهِ كَذَبَ كَذبَةً(٥)، لم يَزَل مُعرِضًا عنه حتى يُحدِثَ تَوبَةً»(٦).

وقولُهُ: «**لَم يَزَل مُعرِضًا عَنهُ**» إظهارًا لكَراهتِهِ الكذِبَ، وتَأديبًا لَهُ، وزَجرًا عن العَودِ لِمثلِها.

وقولُهُ: «**حتى يحدث توبة**» أي: من تلك الكِذبةِ التي كَذبَها(٧).

وقد قيل:

شَرُّ المقال الكذِبُ   خَيرُ الخِلال الأدَبُ

---

(١) النهاية (٢/ ٧٣).

(٢) عون المعبود (١٣/ ٢٣٧).

(٣) الأذكار (ص٣٧٢).

(٤) رواه أحمد (٢٥١٨٣)، وحسنه ابن القيم في إعلام الموقِّعين (١/ ٩٣)، وصححه الألباني في التعليقات الحسان (٥٧٠٦).

(٥) بفتح الكاف وكسرها، والذال ساكنة فيهما.

(٦) رواه ابن عبد البرِّ في التمهيد (١/ ٦٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٦٧٥).

(٧) فيض القدير (٥/ ١٠٦).

فالكَذِبُ من أبغَضِ الأخلاقِ؛ لكَثرَةِ ضَرَرِهِ، وما يَتَرَتَّبُ عليه من المفاسِدِ، والفِتَنِ؛ ولهذا كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبغِضُهُ.

* وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبغِضُ أهلَ الخُلقِ السِّيء:

فعن أبي ثَعلَبَةَ الخُشَنيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ أحَبَّكُم إلَيَّ، وأقرَبَكُم مِنِّي في الآخِرَةِ: محَاسِنُكُم أخلاقًا، وإنَّ أبغَضَكُم إلَيَّ، وأبعَدَكُم مِنِّي في الآخِرَةِ: مَساوِئُكُم أخلاقًا**»[١].

فَصاحِبُ الخُلُقِ السَّيِّءِ مَبغوضٌ من اللهِ، ومِن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل هو أبعَدُ الناسِ عنه في الآخِرَةِ.

* وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكرَهُ الاسمَ القَبيحَ:

فعن بُرَيدَةَ بنِ الحُصَيبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان لا يَتَطَيَّرُ من شيءٍ، وكان إذا بَعَثَ عامِلًا سَأَلَ عن اسمِه: فإذا أعجَبَهُ اسمُهُ فرِحَ بهِ، ورُئِيَ بشرُ ذلك في وجهِهِ، وإن كَرِهَ اسمَهُ، رُئِيَ كَراهيَةُ ذلك في وجهِهِ.

وإذا دَخَلَ قَريَةً سَأَلَ عن اسمِها: فإن أعجَبَهُ اسمُها فرِحَ، ورُئِيَ بشرُ ذلك في وجهِهِ، وإن كَرِهَ اسمَها، رُئِيَ كَراهيَةُ ذلك في وجهِهِ»[٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَشتَدُّ عليه الاسمُ القَبيحُ، ويَكرَهُهُ جِدًّا، من الأشخاصِ، والأماكِنِ، والقَبائِلِ، والجِبال، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَديدَ الاعتِناءِ بذلك.

ومَن **تَأَمَّلَ السُّنَّةَ**: وجَدَ مَعانيَ في الأسماءِ مُرتَبِطَةً بها، حتى كَأَنَّ مَعانيَها مَأخوذَةٌ منها، وكَأَنَّ الأسماءَ مُشتَقَّةٌ من مَعانيها، فتَأَمَّل قولَهُ: «**غِفار غَفَرَ اللهُ لها، وأسلَمُ سالَمَها اللهُ، وعُصَيَّةُ عَصَتِ اللهَ ورسولَهُ**»[٣].

---

(١) رواه أحمد (١٧٧٣٢)، وحسنه محققو المسند.

(٢) رواه أبوداود (٣٩٢٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٧٦٢).

(٣) رواه البخاري (٣٥١٣)، ومسلم (٢٥١٨)، عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقولهُ -لَمَّا جاءَ سهيلُ بنُ عمروٍ، يَومَ الصُّلحِ-: «**لَقَد سَهُلَ لَكُم من أمرِكُم**»[١].

وإذا أرَدتَ أن تَعرِفَ تَأثيرَ الأسماءِ في مُسَمَّياتِها، فتَأمَّل حديثَ سَعيدِ بنِ المُسيّبِ، عن أبيهِ، عن جَدِّهِ قال: أتَيتُ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**ما اسمُكَ؟**».

قال: حَزنٌ.

قال: «**أنتَ سَهلٌ**».

قال: لا أُغَيِّرُ اسمًا سَمَّانيهِ أبي.

قال ابنُ المُسَيَّبِ: فما زالَت الحُزونَةُ[٢] فينا بعدُ[٣].

وتَأمَّل ما رَواهُ مالكٌ في الموطَّأ[٤] عن يحيَى بنِ سَعيدٍ: أنَّ عمرَ بنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لرَجُلٍ: «ما اسمُكَ؟».

فقال: جَمرَةُ.

فقال: «ابنُ مَن؟».

فقال: ابنُ شِهابٍ.

قال: «مِمَّن؟».

قال: مِنَ الحُرَقَةِ.

قال: «أينَ مَسكَنُكَ؟».

قال: بحَرَّةِ النارِ.

قال: «بِأيِّها؟».

قال: بذاتِ لَظًى.

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣١) أثناء حديث المسور بن مخرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صلح الحديبية، عن عكرمة مرسلًا، وله شواهد، انظر: الفتح (٥/ ٣٤٢).

(٢) الحزونة: الصعوبة في الأخلاق.

(٣) رواه البخاري (٦١٩٠).

(٤) الموطأ (١٨٢٠)، وهو منقطعٌ.

قال عمرُ: «أدرِك أهلَكَ فقَد احترَقوا».

فكان كَما قال عمرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد استَشكَلَ هذا مَن لم يَفهَمهُ، وليس -بِحَمدِ اللهِ- مُشكلًا؛ فإنَّ مُسَبِّبَ الأسبابِ جَعَلَ هَذِهِ المُناسَباتِ مُقتضَياتٍ لهذا الأثَرِ، وجَعَلَ اجتِماعَها على هذا الوَجهِ الخاصِّ موجِبًا لَهُ، وأخَّرَ اقتِضاءَها لأثَرِها، إلى أن تَكَلَّمَ بهِ، مَن ضربَ الحقُّ على لسانِهِ، ومَن كان المَلَكُ يَنطِقُ على لسانِهِ، فحينئذٍ كَمُلَ اجتِماعُها، وتَمَّت، فرُتِّبَ عليها الأثَرُ.

ولَمَّا نَزَلَ الحُسَينُ وأصحابُهُ بكَربلاءَ، سَأَلَ عن اسمِها، فقيل: كَربَلاء.

فقال: «كَربٌ، وبَلاءٌ»[1].

ولَمَّا وقَفَت حَليمَةُ السَّعديَّةُ على عَبدِ المُطَّلِبِ، تَسألُهُ رضاعَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لها: «مَن أنتِ؟».

قالت: امرأةٌ مِن بني سَعدٍ.

قال: «فما اسمُكِ؟».

قالت: حَليمَةُ.

فقال: «بَخٍ، بَخٍ، سَعدٌ، وحِلمٌ، هاتانِ خُلَّتانِ، فيهما غناءُ الدَّهرِ».

وقد رَأينا من هذا عِبَرًا فينا، وفي غَيرِنا، والذي رَأيناهُ كَقَطرَةٍ في بَحرٍ»[2].

وقال: «فبينَ الاسمِ والمُسَمَّى عَلاقةٌ ورابِطَةٌ تُناسِبُهُ، وقلَّما يَتَخَلَّفُ ذلك، فالألفاظُ قَوالبُ للمَعاني.

وَقَلَّ إن أبصَرَت عَيناكَ ذا لَقَبٍ ... إلا ومَعناهُ إن فكَّرتَ في لَقَبِه

فاللهُ سبحانه -بِحِكمَتِهِ في قَضائِهِ، وقَدَرِه- يُلهِمُ النُّفوسَ أن تَضَعَ الأسماءَ على حَسَبِ

(١) البداية والنهاية (٨/ ١٨٣).

(٢) تحفة المودود (ص١٢٠-١٢٣)، باختصارٍ.

مُسَمَّياتِها؛ لتُناسِبَ حكمتهُ تعالى بين اللَّفظِ ومَعناهُ، كَما تَناسَبَت بين الأسبابِ ومُسَبَّباتِها.

وبِالجُملَةِ: فالأخلاقُ والأعمالُ والأفعالُ القَبيحَةُ تَستَدعي أسماءً تُناسِبُها، وأضدادُها تَستَدعي أسماءً تُناسِبُها.

وكما أنَّ ذلك ثابِتٌ في أسماءِ الأوصافِ، فهو كَذلك في أسماءِ الأعلامِ.

وما سُمِّيَ رسولُ اللهِ مُحَمَّدًا، وأحمَدَ؛ إلا لكَثرَةِ خِصال الحمدِ فيه؛ ولهذا كان لواءُ الحَمدِ بيَدِهِ، وهو أعظَمُ الخَلقِ حَمدًا لرَبِّهِ تعالى.

وصاحبُ الاسمِ الحَسَنِ قَد يَستَحي مِن اسمِهِ، وقد يَحمِلُهُ اسمُهُ على فِعلِ ما يُناسِبُهُ، وتَركِ ما يُضادُّهُ؛ ولهذا تَرَى أكثَرَ السُّفَّلِ أسماؤُهم تُناسِبُهم، وأكثَرَ العِليَةِ أسماؤُهم تُناسِبُهم»[١].

* وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكرَهُ الطِّيَرَةَ:

وقد أخبَرَ أبو هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُعجِبُهُ الفَألُ الحَسَنُ، ويَكرَهُ الطِّيَرَةَ[٢].

والتَّطيُّرُ: هو التَّشاؤُمَ، والنبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يَكرَهُهُ؛ لأنَّ التَّشاؤُمَ سوءُ ظَنٍّ باللهِ تعالى.

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وَذَكَرَ البَيهَقيُّ في الشُّعَبِ عن الحَليميِّ ما مُلَخَّصُهُ:

كان التَّطيُّرُ في الجاهِليَّةِ في العَرَبِ إزعاجَ الطَّيرِ، عندَ إرادَةِ الخُروجِ للحاجَةِ ... وهَكَذا كانوا يَتَطَيَّرونَ بصَوتِ الغُرابِ، وبِمُرورِ الظِّباءِ، فسَمَّوُا الكُلَّ تَطَيُّرًا؛ لأنَّ أصلَهُ الأولُ.

قال: وكان التَّشاؤُمُ في العَجَمِ: إذا رَأى الصَّبيَّ ذاهِبًا إلى المُعَلِّمِ: تَشاءَمَ، أو راجِعًا: تَيَمَّنَ.

وكَذا إذا رَأى الجَمَلَ موقَرًا حِملًا: تَشاءَمَ، فإن رَآهُ واضِعًا حِملَهُ: تَيَمَّنَ، ونَحو ذلك، فجاءَ الشَّرعُ برَفعِ ذلك كُلِّهِ»[٣].

---

(١) تحفة المودود (ص١٤٧).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٥٣٦)، وهو في البخاري (٥٧٥٤)، ومسلم (٢٢٢٠) بنحوه.

(٣) فتح الباري (١٠/ ٢١٥).

لَعَمرُكَ ما تَدري الطَّوارِقُ بالحَصَى ... وَلا زاجِراتُ الطَّيرِ ما اللهُ صانعُ

وصَحَّ عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنَّهُ قال: «**ليس مِنَّا مَن تَطيَّرَ، ولا تُطيِّرَ له**»(١).

وعن عبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**الطِّيَرَةُ شِركٌ، الطِّيَرَةُ شِركٌ**» ثَلاثًا(٢).

وقولُهُ: «**الطِّيَرَةُ شِركٌ**» أي: لاعتِقادِهِم أنَّ الطِّيَرَةَ تَجلِبُ لهم نَفعًا، أو تَدفَعُ عنهم ضُرًّا، فإذا عَمِلوا بموجبِها، فكَأنَّهم أشرَكوا باللهِ في ذلك، ويُسَمَّى شِركًا خَفيًّا.

وقال بَعضُهم: «يعني: مَن اعتَقَدَ أنَّ شَيئًا سِوَى اللهِ تعالى يَنفَعُ أو يَضُرُّ بالاستقلال، فقَد أشرَكَ، أي: شِركًا جليًّا».

وقال القاضي: «إنما سَمَّاها شِركًا؛ لأنَّهم كانوا يَرونَ ما يَتَشاءَمونَ بِهِ سببًا مُؤَثِّرًا في حُصولِ المكروه»(٣).

* وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكرَهُ الثُّومَ والبَصَلَ؛ من أجلِ ريحِهِما:

فَعن أبي أيُّوبَ الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أُتِيَ بطعامٍ أكَلَ منه، وبَعَثَ بفَضلِهِ إلَيَّ، وإنَّهُ بَعَثَ إلَيَّ يومًا بفَضلَةٍ، لم يَأكُل منها؛ لأنَّ فيها ثومًا، فسَألتُهُ: أحَرامٌ هوَ؟

قال: «**لا، ولكني أكرَهُهُ؛ من أجلِ ريحِهِ**».

قال: فإنِّي أكرَهُ ما كَرِهتَ(٤).

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: لم نَعدُ أن فُتِحَت خَيبَرُ، فوَقَعنا -أصحابَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في تِلكَ البَقلَةِ: الثُّومِ، والناسُ جياعٌ، فأكَلنا منها أكلًا شَديدًا، ثم رُحنا إلى

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٣٥٥)، عن عمران بن حصينٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في الصحيحة (٢١٩٥).

(٢) رواه أبوداود (٣٩١٠)، والترمذي (١٦١٤)، وصححه، وابن ماجه (٣٥٣٨)، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٢٩).

(٣) تحفة الأحوذي (٥/ ١٩٧).

(٤) رواه مسلم (٢٠٥٣).

المسجِدِ، فوَجَدَ رسولُ اللهِ ﷺ الرِّيحَ، فقال: «**مَن أكَلَ من هَذِهِ الشَّجَرَةِ الخَبيثَةِ شَيئًا، فلا يَقرَبَنَّا في المسجِدِ**».

فقال الناسُ: حُرِّمَت، حُرِّمَت.

فَبَلَغَ ذاكَ النبيَّ ﷺ، فقال: «**أيُّها الناسُ، إنَّهُ ليس بي تَحريمُ ما أحَلَّ اللهُ لي، ولكنها شَجَرَةٌ أكرَهُ ريحَها**»[1].

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هَذا تَصريحٌ بإباحَةِ الثُّومِ، وهو مُجمَعٌ عليه، لكن يُكرَهُ لَمن أرادَ حُضورَ المسجِدِ، أو حُضورَ جَمعٍ في غَيرِ المسجِدِ، أو مُخاطَبَةَ الكِبارِ، ويَلحَقُ بالثُّومِ: كُلُّ ما له رائِحَةٌ كَريهَةٌ»[2].

* **وكان ﷺ يكرَهُ أكلَ الضَّبِّ:**

فعن عبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «أهدَت أُمُّ حُفيدٍ، خالَةُ ابنِ عبَّاسٍ، إلى النبيِّ ﷺ أقِطًا، وسَمنًا، وأضُبًّا.

فَأكَلَ النبيُّ ﷺ مِنَ الأقِطِ، والسَّمنِ، وتَرَكَ الضَّبَّ؛ تَقَذُّرًا».

قال ابنُ عبَّاسٍ: «فَأُكِلَ على مائِدَةِ رسولِ اللهِ ﷺ، ولو كان حَرامًا ما أُكِلَ على مائِدَةِ رسولِ اللهِ ﷺ»[3].

وعن خالدِ بنِ الوَليدِ، قال: أُتِيَ النبيُّ ﷺ بضَبٍّ مَشويٍّ، فأهوَى إليه ليَأكُلَ، فقيل لَهُ: إنَّهُ ضَبٌّ، فأمسَكَ يَدَهُ، فقال خالدٌ: أحَرامٌ هوَ؟ قال: «**لا، ولكنهُ لا يكونُ بأرضِ قَومي، فأجِدُني أعافُهُ**»، فأكَلَ خالدٌ، ورسولُ اللهِ ﷺ يَنظُرُ[4].

قال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أعافُهُ»: أي: أكرَهُهُ، طَبعًا، لا شَرعًا»[5].

---

(١) رواه مسلم (٥٦٥).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/ ٩).

(٣) رواه البخاري (٢٥٧٥)، ومسلم (١٩٤٧).

(٤) رواه البخاري (٥٤٠٠)، ومسلم (١٩٤٦).

(٥) مرقاة المفاتيح (٧/ ٢٦٦٥).

* وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكرَهُ شُربَ الشَّرابِ الحارِّ:

فعن عُقبَةَ بنِ عامرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكرَهُ شُربَ الحَميمِ»(١).

وعن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّها كانت إذا ثَرَدَت، غَطَّتهُ -شَيئًا-؛ حتى يَذهَبَ فورُهُ، ثم تقولُ: إنِّي سَمِعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «إنَّهُ أعظَمُ للبَرَكَةِ»(٢).

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّهُ كان يقولُ: «لا يُؤكَلُ طعامٌ حتى يَذهَبَ بُخارُهُ»(٣).

قال المُناويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيُكرهُ استعمالُ الحارِّ؛ لمخالفتِهِ للسّنَّةِ، بل إن غَلَبَ على ظَنِّهِ ضَررُهُ: حَرُمَ»(٤).

وإنما كان يُحِبُّ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحُلوَ البارِدَ، كما سَبَقَ.

* وكان يَكرَهُ الشِّكالَ مِنَ الخَيلِ:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكرَهُ الشِّكالَ(٥) مِنَ الخَيلِ»(٦).

وإنما كَرِهَهُ؛ لأَنَّهُ كالمشكولِ صورةً -تَفاؤُلًا-، ويُمكِنُ أن يكونَ جَرَّب ذلك الجنس، فلَم يَكُن فيه نَجابةٌ، وقيل: إذا كان مع ذلك أغَرَّ زالَت الكراهَةُ؛ لزَوال شِبه الشِّكال، واللهُ أعلَمُ(٧).

* وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكرَهُ الخَذفَ:

فعن عبدِاللهِ بنِ مُغَفَّلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّهُ رَأى رَجُلًا يَخذِفُ، فقال لَهُ: لا تَخذِف؛ فإنَّ رسولَ اللهِ

---

(١) رواه أحمد (١٧٤٢٦)، وصححه محققو المسند، والحميم: الماء الحارُّ. النهاية (١/ ٤٤٥).

(٢) رواه أحمد (٢٦٩٥٨)، وحسنه محققو المسند.

(٣) رواه البيهقي (١٥٠٢٧)، بسندٍ صحيح.

(٤) فيض القدير (١/ ٧٧).

(٥) الشِّكال: هو أن تكون ثلاث قوائم منه محجَّلةً، وواحدةٌ مطلقة، تشبيهًا بالشِّكال، الذي تشكل به الخيل؛ لأنه يكون في ثلاث قوائم -غالبًا-، وقيل: هو أن تكون الواحدة محجَّلة، والثَّلاث مطلقة، وقيل: هو أن تكون إحدى يديه وإحدى رجليه -من خلافٍ- محجَّلتين. النهاية (٢/ ٤٩٦).

(٦) رواه مسلم (١٨٧٥).

(٧) النهاية (٢/ ٤٩٦)، شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/ ١٩).

صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نَهى عن الخَذفِ[١] -أو: كان يَكرَهُ الخَذفَ- وقال: « **إنَّهُ لا يُصادُ بِهِ صَيدٌ، ولا يُنكَى بِهِ عَدوٌّ، ولكنها قَد تَكسِرُ السِّنَّ، وتَفقَأُ العَينَ**».

ثم رَآهُ بعدَ ذلك يَخذِفُ، فقال لَهُ: أُحَدِّثُكَ عن رسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنَّهُ نَهى عن الخَذفِ -أو: كَرِهَ الخَذفَ- وأنتَ تَخذِفُ؟! لا أُكَلِّمُكَ كَذا، وكذا[٢].

وقد بَيَّنَ سببَ الكراهَةِ في الحديثِ بقولِهِ: «إنَّهُ لا يُصادُ بِهِ صَيدٌ، ولا يُنكَى بِهِ عَدوٌّ، ولكنها قَد تَكسِرُ السِّنَّ، وتَفقَأُ العَينَ».

قال النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: «**في هذا الحديثِ**: النَّهيُ عن الخَذفِ؛ لأنَّهُ لا مَصلَحَةَ فيه، ويُخافُ مَفسَدَتُهُ، ويَلتَحِقُ بِهِ: كُلُّ ما شارَكَهُ في هَذا.

وفيه: أنَّ ما كان فيه مَصلَحَة، أو حاجَة، في قِتال العَدوِّ، وتَحصيلِ الصَّيدِ، فهو جائِزٌ، ومِن ذلك: رَميُ الطُّيورِ الكِبارِ بالبُندُقِ، إذا كان لا يَقتُلُها -غالبًا- بل تُدرَكُ حَيَّةً، وتُذَكَّى، فهو جائِزٌ»[٣].

قال ابنُ حَجرٍ رَحِمَهُٱللَّهُ: «**وفي الحديثِ**: جَوازُ هِجرانِ مَن خالَفَ السُّنَّةَ، وتَركِ كَلامِهِ، ولا يَدخُلُ ذلك في النَّهيِ عن الهَجرِ فوقَ ثَلاثٍ؛ فإنَّهُ يَتَعَلَّقُ بمَن هَجَرَ لحَظِّ نَفسِهِ»[٤].

*** وكان صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَكرَهُ أن يُقامَ لَهُ:**

فعن أنسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «لَم يَكُن شَخصٌ أحَبَّ إليهم من رسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وكانوا إذا رَأوهُ لَم يَقوموا؛ لما يَعلَمونَ من كَراهيَتِهِ لذلك»[٥].

ومعنى «**مِن كَراهيَتِهِ لذلك**» أي: لقيامِهِم؛ تَواضُعًا لرَبِّهِ، ومخالَفَةً لعادَةِ المُتَكَبِّرينَ

---

(١) هو رميك حصاةً أو نواةً، تأخذها بين سبَّابتيك وترمي بها، أو تتَّخذ مخذفةً من خشبٍ، ثمَّ ترمي بها الحصاة، بين إبهامك والسَّبَّابة. النهاية (٢/ ١٦).

(٢) رواه البخاري (٥٤٧٩)، ومسلم (١٩٥٤).

(٣) شرح مسلم (١٣/ ١٠٦).

(٤) فتح الباري (٩/ ٦٠٨).

(٥) رواه الترمذي (٢٧٥٤)، وقال: «هذا حديث حسنٌ صحيح غريبٌ من هذا الوجه»، وقال الألباني: «إسناده صحيح على شرط مسلم». الصحيحة (٣٥٨).

والمُتَجَبِّرِينَ، بَلِ اختارَ الثَّباتَ على عادَةِ العَرَبِ في تَركِ التَّكَلُّفِ في قيامِهم، وجُلوسِهم، وأكلِهم، وشُربِهم، ولُبسِهم، ومَشيِهم، وسائرِ أفعالِهم، وأخلاقِهم[١].

وعن جابرِ بنِ عبدِالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: اشتكَى رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فصَلَّينا وراءَهُ، وهو قاعِدٌ، وأبو بكرٍ يُسمِعُ الناسَ تكبيرَهُ، فالتفَتَ إلَينا، فرَآنا قيامًا، فأشارَ إلَينا، فقَعَدنا، فصَلَّينا بصَلاتِهِ قُعودًا، فلمَّا سَلَّمَ قال: «**إن كِدتُم -آنِفًا- لَتَفعَلونَ فِعلَ فارِسَ والرُّومِ، يَقومونَ على مُلوكِهِم وهم قُعودٌ، فلا تَفعَلوا، ائتَمُّوا بأئِمَّتِكُم: إن صَلَّى قائِمًا، فصَلُّوا قيامًا، وإن صَلَّى قاعِدًا، فصَلُّوا قُعودًا**»[٢].

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «فيه النَّهيُ عن قيامِ الغِلمانِ والتُّبَّاعِ على رَأسِ مَتبوعِهِم الجالسِ لغَيرِ حاجَةٍ، وأمَّا القيامُ للدَّاخِلِ، إذا كان من أهلِ الفَضلِ والخَيرِ، فليس من هَذا، بل هو جائِز، قَد جاءَت بِهِ أحاديثُ، وأطبَقَ عليه السَّلَفُ والخَلَفُ»[٣].

وقال ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ اللهُ: «قال أهلُ العِلمِ: القيامُ ثلاثةُ أقسامٍ:

الأولُ: قيامٌ إلى الرجلِ.

الثاني: قيامٌ للرَّجُلِ.

والثالثُ: قيامٌ على الرجُلِ.

فالقيامُ إلى الرجلِ: لا بأسَ بِهِ، وقد جاءت بِهِ السُّنَّةُ: أمرًا، وإقرارًا، وفعلًا -أيضًا-.

الثاني: القيامُ للرَّجلِ: وهذا -أيضًا- لا بأسَ بِهِ، لا سيَّما إذا اعتادَ الناسُ ذلك، وصارَ الداخلُ -إذا لم تَقُم له- يَعُدُّ ذلك امتِهانًا لَهُ، فإنَّ ذلك لا بأسَ بِهِ، وإن كان الأولَى تَركهُ، كما في السُّنةِ، لكن إذا اعتادَهُ الناسُ: فلا حَرَجَ فيه.

الثالث: القيامُ عليه: كَأن يكونَ جالسًا، ويقومَ واحدٌ على رأسِهِ؛ تَعظيمًا له، فهذا منهيٌّ عَنهُ.

(١) تحفة الأحوذي (٨/ ٢٤).

(٢) رواه مسلم (٤١٣).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٤/ ١٣٥).

اللهم إلا إذا دَعَتِ الحاجَةُ إلي ذلك، كأن يخافَ على الرجلِ أن يَتَعَدَّى عليه أحَدٌ، فلا بَأسَ أن يقومَ عليه القائمُ...»(١).

❋ وكان صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يكرهُ أن يمشيَ أحدٌ خَلفهُ:

فعن عبدِالله بنِ عَمرٍو رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، قال: «كان رسولُ اللهِ صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يكرَهُ أن يَطَأَ أحَدٌ عَقِبَهُ، ولكن يَمينٌ، وشِمالٌ»(٢).

أي: كان يَكرهُ أن يمشيَ أحدٌ خلفهُ، ولكن: عن يمينِهِ، وشِمالِهِ، وكان يَكرهُ أن يَمشيَ أمامَ القَومِ، بل في وسطِ الجمعِ، أو في آخرِهِم؛ تواضعًا للهِ، واستكانةً له، وليطَّلِعَ على حركاتِ أصحابِهِ، وسكناتِهِم، فيُعَلِّمَهم آدابَ الشَّريعةِ(٣).

وعن جابِرِ بنِ عبدِالله رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، قال: «كان النبيُّ صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إذا مَشَى مَشَى أصحابُهُ أمامَهُ، وتَرَكوا ظَهرَهُ للمَلائِكَةِ»(٤).

قولُهُ: «**للملائكةِ**»: أي: تَعظيمًا للمَلائِكَةِ الماشينَ خَلفهُ، لا لدَفعِ التَّضييقِ عَنهم(٥).

وكأنَّ الكراهةَ منه صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ للمشيِ خلفهُ؛ لأنَّ الملائكةَ تَمشي خلفهُ، فترَكُ الملائكةِ خلفَ النبيِّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، أليقُ من المشيِ معهم.

❋ وكان صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يكرَهُ النَّومَ قبلَ العِشاءِ، والحديثَ بعدَها:

فعن أبي بَرزَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كان يَكرَهُ النَّومَ قبلَ العِشاءِ، والحديثَ بعدَها»(٦).

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ١٥٥ -١٥٨)، باختصار.

(٢) رواه الحاكم (٧٧٤٤)، وقال: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٠٩).

(٣) فيض القدير (٥/ ٢٤٣) بتصرف.

(٤) رواه ابن ماجه (٢٤٦)، وصححه البوصيريُّ في مصباح الزجاجة (١/ ٣٦)، والألباني في الصحيحة (٢٠٨٧).

(٥) شرح سنن ابن ماجه للسِّندي (١/ ١٠٨).

(٦) رواه البخاري (٥٦٨)، ومسلم (٦٤٧)، واللفظ للبخاري.

والعلّةُ من الكراهَةِ: أنَّ النَّومَ قبلَها قَد يُؤَدِّي إلى إخراجِها عن وقتها مُطلَقًا، أو عن الوَقتِ المُختارِ، والسَّمَرَ بعدَها قَد يُؤَدِّي إلى النَّومِ عن الصُّبح، أو عن وقتِها المُختارِ، أو عن قيامِ اللَّيلِ، وكان عمرُ بنُ الخَطَّابِ يَضرِبُ الناسَ على ذلك، ويقولُ: «أَسَمَرًا أَوَّلَ اللَّيل، ونَومًا آخِرَهُ؟»[١].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وَسببُ كَراهَةِ الحديثِ بعدَها:** أَنَّهُ يُؤَدِّي إلى السَّهَرِ، ويُخافُ منه غَلَبَةُ النَّومِ عن قيامِ اللَّيلِ، أوِ الذِّكرِ فيه، أو عن صَلاةِ الصُّبحِ في وقتِها الجائِزِ، أو في وقتِها المُختارِ، أوِ الأفضَلِ، ولأنَّ السَّهَرَ في اللَّيلِ سببٌ للكَسَلِ في النَّهارِ، عَمَّا يَتَوَجَّهُ من حُقوقِ الدِّينِ والطَّاعاتِ، ومَصالحِ الدُّنيا.

قال العُلَماءُ: والمكروهُ مِنَ الحديثِ بعدَ العِشاءِ: هو ما كان في الأُمورِ التي لا مَصلَحَةَ فيها، أمَّا ما فيه مَصلَحَةٌ وخَيرٌ: فلا كَراهَةَ فيه، وذلك كَمُدارَسَةِ العِلمِ، وحِكاياتِ الصَّالحينَ، ومُحادَثَةِ الضَّيفِ، والعَروسِ؛ للتَّأنيسِ، ومُحادَثَةِ الرجُلِ أهلَهُ، وأولادَهُ؛ للمُلاطَفَةِ، والحاجَةِ، ومُحادَثَةِ المُسافِرينَ بحِفظِ مَتاعِهِم، أو أنفُسِهِم، والحديثِ في الإصلاحِ بين الناسِ، والشَّفاعَةِ إليهم في خَيرٍ، والأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المُنكَرِ، والإرشادِ إلى مَصلَحَةٍ، ونَحوِ ذلك. فَكُلُّ هذا لا كَراهَةَ فيه، وقد جاءَت أحاديثُ صَحيحَةٌ ببَعضِهِ، والباقي في مَعناهُ»[٢].

❋ وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكرَهُ أن يُؤخَذَ من رَأسِ الطَّعامِ:

ويَدُلُّ على هذا: حديثُ عُبيدِ اللهِ بنِ عليِّ بنِ أبي رافعٍ، عن جَدَّتِهِ سَلمَى، قالت: «كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكرَهُ أن يُؤخَذَ من رَأسِ الطَّعامِ»[٣].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «البَرَكَةُ تَنزِلُ وسَطَ الطَّعامِ؛ فكُلوا من حافَتَيهِ، ولا تَأكُلوا من وسَطِهِ»[٤].

---

(١) فتح الباري (٢/ ٣٩٠).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٥/ ١٤٦).

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٧٥٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٠٨).

(٤) رواه الترمذي (١٨٠٥)، وابن ماجه (٣٢٧٧)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

«**البَرَكَةُ تَنزِلُ وسَطَ الطَّعامِ**»: «أي: تَنزِلُ في وسطِهِ، ثمّ تَسري»(١).

قال العِراقيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَجهُ النَّهيِ عن الأكلِ من الوَسطِ: أنَّ وجهَ الطَّعامِ أفضَلُهُ وأطيبُهُ، فإذا قَصَدَهُ بالأكلِ، استأثَرَ بِهِ على رِفقتِهِ، وهو تَركُ أدَبٍ، وسوءُ عِشرَةٍ، فأمَّا إذا أكَلَ وحدَه: فلا حَرَجَ»(٢).

وهذا سببٌ آخرُ في كَراهَةِ الأكلِ مِنَ الوَسطِ.

وقد نصَّ الإمامُ الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **على التّحريم، إذا عَلِمَ بالنّهيِ، فقال:** «فإن أكَلَ مِمَّا لا يَليهِ، أو من رَأسِ الطَّعامِ، أو عَرَّسَ على قارِعَةِ الطَّريقِ: أثِمَ بالفِعلِ الذي فعَلَهُ، إذا كان عالمًا بنَهيِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(٣).

* وكَرِهَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تُعرَى المدينةُ(٤):

قال جابرُ بنُ عبدِالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: خَلَتِ البِقاعُ حَولَ المسجِدِ، فأرادَ بَنو سَلِمَةَ أن يَنتَقِلوا إلى قُربِ المسجِدِ، فبَلَغَ ذلك رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال لَهم: «**إنَّهُ بَلَغَني أنَّكُم تُريدونَ أن تَنتقِلوا قُربَ المسجِدِ**».

قالوا: نعم يا رسولَ اللهِ، قَد أرَدنا ذلك.

فقال: «**يا بَني سَلِمَةَ! ديارَكُم؛ تُكتَب آثارُكُم**(٥)**، ديارَكُم؛ تُكتَب آثارُكُم**»(٦).

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أرادَ بَنو سَلِمَةَ أن يَتَحَوَّلوا إلى قُربِ المسجِدِ، فكَرِهَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن تُعرَى المدينةُ، وقال: «**يا بَني سَلِمَةَ! ألا تحتَسِبونَ آثارَكُم؟**»، فأقاموا(٧).

فكَرِهَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تُترَكَ جِهاتُ المدينةِ خاليةً من السُّكَّانِ، فيُؤتَونَ منها(٨).

---

(١) فيض القدير (١/ ٤٥٢).

(٢) فيض القدير (٥/ ٤٥).

(٣) الأم (٧/ ٣٠٦).

(٤) أي: تخلو من الناس.

(٥) أي: خطاكم.

(٦) رواه مسلم (٦٦٥).

(٧) رواه البخاري (١٨٨٧)، وبوب له: «باب كراهية النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تعرى المدينة».

(٨) المفهم (٦/ ٧٩).

فأمَرَهم أن يَبقوا في أماكِنِهم؛ لما لهم في ذلك من أجرٍ؛ بكَثْرَةِ الخُطَى، ولِما في وُجودِهم من المصلَحَةِ.

* وكان يَكرَهُ الاكتِواءَ(١):

فعن جابِرِ بنِ عبدِالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: سَمِعتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**إن كان في شيءٍ من أدويَتِكُم خَيرٌ، ففي شَرطَةِ مِحجَمٍ، أو شَربَةِ عَسَلٍ، أو لَذعَةٍ بنارٍ توافِقُ الدَّاءَ، وما أُحِبُّ أن أكتَويَ**»(٢).

وقولُهُ: «**ما أُحِبُّ أن أكتَويَ**»: إشارَةٌ إلى تَأخيرِ العِلاجِ بالكيِّ، حتى يُضطَرَّ إليه؛ لما فيه مِنِ استعمالِ الألَمِ الشَّديدِ، في دَفعِ ألَمٍ، قَد يكونُ أضعَفَ من ألَمِ الكيِّ.

والكيُّ: إنما يُشرَع منه ما يَتَعَيَّنُ طَريقًا إلى إزالَةِ ذلك الدَّاءِ.

قال الخَطَّابيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَلهذا وصَفهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم نَهَى عَنهُ، وإنما كَرِهَهُ؛ لما فيه مِنَ الألَمِ الشَّديدِ، والخَطَرِ العَظيمِ؛ ولهذا كانتِ العَرَبُ تقولُ في أمثالها: «آخِرُ الدَّواءِ: الكيُّ».

وقد كَوَى النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَعدَ بنَ مُعاذٍ وغَيرَهُ واكتَوَى غَيرُ واحِدٍ من الصَّحابَةِ»(٣).

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وَلَم يُرِدِ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحَصرَ في الثَّلاثَةِ؛ فإنَّ الشِّفاءَ قَد يكونُ في غَيرِها، وإنما نَبَّهَ بها على أُصولِ العِلاجِ.

وأمَّا الكيُّ: فإنَّهُ يَقَعُ آخِرًا؛ لإخراجِ ما يَتَعَسَّرُ إخراجُهُ مِنَ الفَضَلاتِ، وإنما نَهَى عَنهُ- مع إثباتِهِ الشِّفاءَ فيه-: لكَونِهِم كانوا يَرَونَ أنَّهُ يَحسِمُ المادَّةَ بطَبعِهِ، فكَرِهَهُ لذلك، ولِذلك كانوا يُبادِرونَ إليه قبلَ حُصولِ الدَّاءِ؛ لظَنِّهِمُ أنَّهُ يحسِمُ الدَّاءَ، فيَتعجلُ الذي يَكتَوي التَّعذيبَ بالنارِ لأمرٍ مَظنونٍ، وقد لا يَتَّفِقُ أن يَقَعَ له ذلك المَرَضُ الذي يَقطَعُهُ الكيُّ.

ويُؤخَذُ مِنَ الجَمعِ بين كَراهَتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للكَيِّ، وبين استعمالِهِ لَهُ: أنَّهُ لا يُترَكُ مُطلَقًا،

---

(١) الاكتواء: هو الكيُّ بالنار؛ لأجل العلاج.

(٢) رواه البخاري (٥٦٨٣)، ومسلم (٢٢٠٥).

(٣) فتح الباري (١٠/ ١٣٨).

ولا يُستعمَلُ مُطلَقًا، بل يُستعمَلُ عندَ تَعَيُّنِهِ طَرِيقًا إلى الشِّفاءِ، مع مُصاحَبَةِ اعتِقادِ أنَّ الشِّفاءَ بإذنِ اللهِ تعالى»[١].

وقال ابنُ بطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فإن قال قائلٌ**: ما مَعنَى قَولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا أُحِبُّ أن أكتَوِيَ**»؟ قيل: مَعنَى ذلك -واللهُ أعلمُ- أنَّ الكيَّ إحراقٌ بالنارِ، وتَعذيبٌ، وقد كان عَلَيْهِ السَّلَامُ يَتعوَّذُ كثيرًا مِن فِتنَةِ النارِ، وعَذابِ النارِ، فلَوِ اكتَوَى بها لَكان قَد عَجَّلَ لنفسِهِ ألَمَ ما قَدِ استَعاذَ باللهِ منه»[٢].

* وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكرَهُ تَبييتَ مال الصَّدَقَةِ:

فعن عُقبَةَ بنِ الحارثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: صَلَّيتُ وراءَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينَةِ العَصرَ، فسَلَّمَ، ثم قامَ مُسرِعًا، فتَخَطَّى رِقابَ الناسِ إلى بَعضِ حُجَرِ نِسائِهِ، ففَزِعَ الناسُ من سُرعَتِهِ، فخرجَ عليهم، فرَأى أنَّهم عَجِبوا من سُرعَتِهِ، فقال: «**ذَكَرتُ شَيئًا من تِبرٍ**[٣]**عندَنا، فكَرِهتُ أن يَحبِسَني، فأمَرتُ بقِسمَتِهِ**»[٤].

وفي رواية: «**فكَرِهتُ أن أُبَيِّتَهُ، فقَسَمتُهُ**»[٥].

قَولُهُ: «**يَحبِسني**»: أي: يَشغَلني التفكُّرُ فيه، عن التوجُّهِ والإقبال على اللهِ تعالى[٦].

وقيل: «كَرِهتُ أن يَحبِسَني»، يَعني: في الآخرَةِ[٧].

فالنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَرِهَ أن يبيتَ هذا المالُ عِندَهُ، دونَ أن يُقسمَ على مستحقيهِ؛ ولهذا بادَرَ إلى توزيعِهِ.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) شرح صحيح البخاري (٩/ ٤٠٤).

(٣) التِّبر: هو الذَّهب، والفضَّة، قبل أن يضربا دنانير، ودراهم، فإذا ضربا: كانا عينًا. النهاية (١/ ١٧٩).

(٤) رواه البخاري (٨٥١).

(٥) رواه البخاري (١٤٣٠).

(٦) عمدة القاري (٩/ ٤٤٢).

(٧) شرح صحيح البخاري، لابن بطَّالٍ (٢/ ٤٦٣)

وقال ابنُ بطَّالٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيه أنَّ الخَيرَ يَنبَغي أن يُبادَرَ بِهِ؛ فإنَّ الآفاتِ تَعرِضُ، والموانِعَ تَمنَعُ، والموتَ لا يُؤمَنُ، والتَّسويفَ غَيرُ مَحمود، وهو أخلَصُ للذِّمَّةِ، وأنفَى للحاجَةِ، وأبعَدُ من المطلِ المذمومِ، وأرضَى للرَّبِّ، وأمحَى للذَّنبِ»(١).

* وكان يَكرهُ أن يَذكُرَ اللهَ على غَيرِ طَهارةٍ:

فعنِ المُهاجِرِ بنِ قُنفُذٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّهُ أتَى النبيَّ ﷺ، وهو يَبولُ، فسَلَّمَ عليه، فلَم يَرُدَّ عليه حتى تَوَضَّأ، ثم اعتَذَرَ إليه، فقال: «**إنِّي كَرِهتُ أن أذكُرَ اللهَ** عَزَّوَجَلَّ **إلا على طُهرٍ**» أو قال: «**عَلى طَهارَةٍ**»(٢).

فكَرِهَ النبيُّ ﷺ أن يَردَّ السّلامَ، وهو على غيرِ طهارةٍ؛ طلبًا للأكملِ.

قال ابنُ عَلاَّنَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**يُؤخَذُ مِنَ الحديثِ**: أنَّ الأفضَل ألَّا توجَدَ الأذكارُ إلا في أكمَلِ الأحوال، كالطَّهارَةِ مِنَ الحَدَثَينِ، وطَهارَةِ الفَمِ مِنَ الخَبَثِ»(٣).

---

(١) فتح الباري (٣/ ٢٩٩).

(٢) رواه أبوداود (١٧)، وأحمد (١٩٠٣٤)، وصححه النووي في الأذكار (ص٢٦).

(٣) الفتوحات الربانيَّة (١/ ٢٢٤).

فَرَحُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

خلَقَ اللهُ تعالى البشَرَ، وخَلَق فيهم مِنَ الصِّفاتِ الفِطريَّة، والأمورِ الجِبلِّيَّة، ما جَعَلَهم يَعرِفونَ بها قَدرَ نعمةِ اللهِ تعالى عليهم.

ومِن تلكَ الصِّفاتِ: صِفَةُ الفَرَحِ، وأعظمُ الفَرحِ، وأفضلُه، وأتمُّه، وأكرمُه: الفرحُ بنِعمةِ الدِّينِ، المُتّصلَةِ بسعادةِ الدَّارينِ، قال تعالى: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ [يونس: ٥٨].

أي: بهذا الذي جاءَهم مِنَ اللهِ، مِنَ الهدى ودينِ الحَقِّ، فليفرحوا؛ فإنَّه أولى ما يَفرَحونَ به[١].

قال السّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وإنّما أمَرَ اللهُ تعالى بالفَرحِ بفضلِه ورَحمَتِهِ؛ لأنَّ ذلك ممَّا يوجِبُ انبساطَ النّفسِ، ونَشاطَها، وشُكرَها للهِ تعالى، وقوَّتَها، وشدّةَ الرّغبَةِ في العِلمِ والإيمانِ، الدَّاعي للازديادِ منها، وهذا فرحٌ محمودٌ، بخلافِ الفَرحِ بشهواتِ الدّنيا ولَذّاتِها، أوِ الفَرَحِ بالباطِلِ؛ فإنَّ هذا مَذمومٌ، كما قال تعالى عن قَومِ قارونَ لَهُ: ﴿**لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ**﴾ [القصص: ٧٦]»[٢].

ونَتعرّضُ في هذا الفَصلِ، للكَلامِ عن فرحِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٥).
(٢) تفسير السعدي (ص٣٦٧).

*** فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا فرِحَ، ظَهَرَ ذلك على وجهِهِ، فاستنارَ:**

فعن كَعب بن مالكٍ قال: «كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا سُرَّ استَنارَ وجهُهُ، حتى كَأَنَّهُ قِطعَةُ قَمَرٍ، وكُنَّا نَعرِفُ ذلك منه»(١).

«استَنارَ وجهُه كَأَنَّهُ قِطعَةَ قَمَر»:

إنما شبَّهَه بقِطعَةٍ منه، لا بكُلِّه؛ لأنَّ القَصدَ: الإشارةُ إلى مَوضِعِ الاستنارَةِ، وهو الجَبينُ، وفيه يظهَرُ السُّرورُ، فكأنَّ التشبيهَ وقَعَ لبعضِ الوَجهِ، فناسَبَ أن يُشبَّهَ ببعضِ القمَرِ(٢).

وشبّهَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالقمَرِ دونَ الشَّمسِ؛ لأنَّ القمرَ يملأُ الأرضَ بنورِه، ويؤنِسُ كلَّ مَن شاهَدَه، ويجمَعُ النُّورَ من غيرِ أذًى، ويُتمكَّنُ مِنَ النَّظرِ إلَيه، بخِلافِ الشَّمسِ.

*** وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفرَحُ بدُخولِ الناسِ في الإسلامِ، لا سيَّما مَن كان من أعيانِهِم:**

عنِ ابنِ شِهابٍ الزُّهريِّ: أنَّ أُمَّ حَكيمٍ بنتَ الحارِثِ بنِ هِشامٍ، كانت تحتَ عِكرِمَةَ بنِ أبي جَهلٍ، فأسلمت يومَ الفَتحِ، وهَرَبَ زَوجُها عِكرِمَةُ بنُ أبي جَهلٍ من الإسلامِ، حتى قَدِمَ اليَمَنَ.

فارتَحَلَت أُمُّ حَكيمٍ، حتى قَدِمَت عليه باليَمَنِ، فدَعَتهُ إلى الإسلامِ.

فأسلم، وقَدِمَ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عامَ الفَتحِ.

فلَمَّا رَآهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وثَبَ إليه فرِحًا، وما عليه رِداءٌ، حتى بايَعَهُ(٣).

قال الباجيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وقولُهُ:** «فلَمَّا رَآهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وثَبَ إليه فرِحًا، وما عليه رِداءٌ»:

---

(١) رواه البخاري (٣٥٥٦)، ومسلم (٢٧٦٩).

(٢) فتح الباري (٨/ ١٢٢).

(٣) رواه مالك في الموطأ (١١٥٦)، وعبد الرزَّاق في المصنف (٧/ ١٧٠)، وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «روي مرسلًا، ويجوز الاحتجاج به، لشواهده». الترخيص بالقيام (ص٤٤).

وذلك من حِرصِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على دُخولِ الناسِ في الإسلامِ، لا سيَّما مَن كان من عُظَماءِ الناسِ، وأعيانِهم، كَعِكرِمَةَ في قَومِهِ، فإنَّهُ كان من ساداتِ بَني مَخزومٍ، وعُظَمائِهم»[١].

وقال ابنُ عبدِالبَرِّ رَحِمَهُ اللهُ: «**وفيه**: ما كان عليه رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ السُّرورِ والفَرَحِ، بإسلامِ قُرَيشٍ، وأشرافِ الناسِ، وكذلك سائِرِ مَن أسلَمَ»[٢].

* وفَرِحَ بإسلامِ عَديِّ بنِ حاتِمٍ:

فلمَّا جاءَ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال لَه: «فإنِّي جِئتُ مُسلِمًا»، قال: «فَرَأيتُ وجهَهُ تَبَسَّطَ فَرَحًا»[٣].

وفي رواية: «فأسلمتُ، فرَأيتُ وجهَهُ استَبشَرَ»[٤].

* وفَرِح صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإسلامِ سَوادِ بنِ قارِبٍ، وكان من أشرافِ اليَمنِ:

فعن محمدِ بن كَعبٍ القُرَظيِّ، قال: بينما عمرُ بن الخَطَّابِ رَضيَ اللهُ تعالى عنه قاعِدًا في المسجِدِ، مَرَّ رَجُلٌ في مُؤَخَّرِ المسجِدِ، فقال رَجُلٌ: يا أميرَ المُؤمنينَ، أتَعرِفُ هذا المارَّ؟

قال: «لا، فمَن هوَ؟».

قال: هذا سَوادُ بن قارِبٍ، وهو رَجُلٌ من أهلِ اليَمَنِ، له فيهم شَرَفٌ، ومَوضِعٌ، وهو الذي أتاهُ رِئيُّهُ[٥] بظُهورِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال عمرُ رَضيَ اللهُ تعالى عَنهُ: «عَلَيَّ بِهِ»، فدُعيَ له بِهِ.

قال: «أنتَ سَوادُ بن قارِبٍ؟».

---

(١) المنتقى شرح الموطأ (٣/ ٣٤٦).
(٢) التمهيد (١٢/ ٥٢).
(٣) رواه الترمذي (٢٩٥٣)، وحسنه الألباني.
(٤) رواه أحمد (١٩٣٨١).
(٥) هو التَّابع من الجنِّ سمِّي به؛ لأنه يتراءى لمتبوعه.

قال: نعم.

قال: «فَأنتَ الذي أتاكَ رِئيُّك، بظُهورِ رسولِ اللهِ ﷺ؟».

قال: نعم.

فساقَ الحديثَ في خَبَرِ إسلامِهِ، إلى أن قال:

«فَفَرِحَ رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُهُ بإسلامي فرَحًا شَديدًا، حتى رُؤيَ في وُجوهِهِم»[(١)].

*** وكان ﷺ يفرَحُ بظُهورِ الحَقِّ، ومِن ذلك: فَرَحُهُ بتبَيُّنِ الحَقِّ وتأكُّدِه، في صِحَّةِ نسبِ أسامَةَ بنِ زَيدٍ، إلى أبيهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا:**

فعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ عليها مَسرورًا، تَبرُقُ أساريرُ وجهِهِ، فقال: «**ألَمْ تَسمَعي ما قال المُدلِجيُّ لزَيدٍ وأُسامَةَ، -ورَأى أقدامَهما-: إنَّ بَعضَ هَذِهِ الأقدامِ من بَعضٍ**»[(٢)].

المُدلِجيُّ هو: مُجَزِّزُ بنُ الأعوَرِ بنُ جَعدَةَ، نِسبَةٌ إلى مُدلِجِ بنِ مُرَّةَ، وكانت القيافَةُ فيهم، وفي بَني أسَدٍ، والعَرَبُ تَعتَرِفُ لهم بذلك.

وسُمِّيَ مُجَزِّزًا؛ لأنَّهُ كان إذا أخَذَ أسيرًا في الجاهِليَّة جَزَّ ناصيتَهُ، وأطلَقَهُ.

وكانوا في الجاهِليَّة يَقدَحونَ في نَسَبِ أُسامَةَ؛ لأنَّهُ كان أسوَدَ شَديدَ السَّوادِ، وكان أبوهُ زَيدٌ أبيَضَ من القُطنِ، فلمَّا قال القائِفُ ما قال، مع اختِلاف اللَّون، سُرَّ النبيُّ ﷺ بذلك؛ لكَونِهِ كافًّا لهم عن الطَّعنِ فيه، لاعتِقادِهِم ذلك[(٣)].

فسُرَّ بذلك سُرورًا كثيرًا، حتى دخَلَ على عائشةَ وأساريرُ وجهِهِ تَبرقُ، فرَحًا واستبشارًا؛

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٦٤٧٥)، والحاكم في المستدرك (٦٥٥٨)، وقال الذهبي: «الإسناد منقطعٌ»، وقصة إسلام سواد بن قاربٍ مشهورةٌ، ولها طرقٌ متعددةٌ، انظر: الإصابة (٣/ ١٨١).

(٢) رواه البخاري (٣٥٥٥)، ومسلم (١٤٥٩).

(٣) فتح الباري (١٢/ ٥٧).

للاطمِئنانِ إلى صحَّةِ نِسبَةِ أسامَةَ إلى أبيهِ، ولِدحضِ كلامِ الذينَ يُطلِقونَ ألسِنَتَهم في أعراضِ الناسِ بغَيرِ عِلمٍ.

«**تَبرُق أساريرُ وجهِهِ**»:

«**تَبرُقُ**»: تُضيءُ وتَستَنيرُ مِنَ السُّرورِ.

«**أساريرُ وجهِهِ**»: هيَ الخُطوطُ التي في الجَبهَةِ، واحِدها: سِرٌّ، وسُرورٌ، وجَمعه: أسرارٌ، وجَمع الجَمع: أساريرُ.

وقد أخرَجَ عبد الرزَّاق، من طَريق ابن سيرينَ: «أنَّ أُمَّ أُسامَة -وَهيَ أُمُّ أيمَنَ، مَولاةُ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كانت سَوداءَ؛ فلهذا جاءَ أُسامَةُ أسوَدَ».

وقيل: إنَّ أمَّ أيمَنَ كانت من سَبيِ الحَبَشَةِ، الذينَ قَدِموا زَمَنَ الفيلِ، فصارَت لعبدِالمُطَّلِبِ، فوَهَبَها لعبدِالله، وتَزَوَّجَت قبلَ زَيدٍ عُبَيدًا الحَبَشيَّ، فوَلَدَت له أيمَنَ، فكُنيَت بهِ، واشتهرَت بذلك.

قال عياضٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَو صَحَّ أنَّ أُمَّ أيمَنَ كانت سَوداءَ، لم يُنكِروا سَواد ابنِها أُسامَةَ؛ لأنَّ السَّوداء قَد تَلِدُ من الأبيَض أسوَدَ».

وتعقَّبَهُ الحافظُ ابنُ حجرٍ بقولِهِ: «يَحتَمِلُ أنَّها كانت صافيَةً، فجاءَ أُسامَةُ شَديدَ السَّوادِ، فوَقَعَ الإنكارُ لذلك»[1].

قال المازريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلمَّا قَضَى هذا القائِفُ بإلحاقِ نَسَبه مع اختِلاف اللَّونِ، وكانت الجاهِليَّةُ تَعتَمِد قولَ القائِفِ، فرِحَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لكَونِهِ زاجِرًا لهم عن الطَّعنِ في النَّسَب»[2].

---

(١) انظر: فتح الباري (١/ ١٣١)، (١٢/ ٥٧)، شرح النووي على مسلم (١٠/ ٤٠)، حاشية السيوطي على سنن النسائي (٦/ ١٨٣).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٠/ ٤١).

وبهذا الحديثِ: استدلَّ العلماءُ على جوازِ القيافَةِ، وأنَّ إلحاقَ القافَةِ يُفيدُ النَّسَبَ؛ لسُرورِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهِ، وهو لا يُسَرُّ بباطِلٍ»(١).

والعمَلُ بقولِ القائِفِ هو مذهَبُ جماهيرِ العُلماءِ، واتَّفقَ القائِلونَ بالقائِفِ على أنَّهُ يُشتَرَط فيه العَدالَةُ، واختَلَفوا في أنَّهُ هَل يُكتَفَى بواحِدٍ؟ وهذا الحديثُ يَدُلُّ للاكتِفاءِ بواحِدٍ(٢).

وفي الحديثِ: سُرورُ الحاكِمِ؛ لظُهورِ الحَقِّ لأحَدِ الخَصمَينِ، عند السَّلامَةِ مِنَ الهَوَى(٣).

*** وفرِحَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بظُهورِ براءَةِ عائشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:**

قالت عائشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في سياقِ قصَّةِ الإفكِ:

«وَأُنزِلَ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ساعَتِهِ، فسَكَتنا، فرُفِعَ عَنهُ، وإنِّي لَأتَبَيَّنُ السُّرورَ في وجهِهِ، وهو يَمسَحُ جَبينَهُ، ويقولُ: «**أبشِري يا عائشَةُ؛ فقَد أنزَلَ اللهُ بَراءَتَكِ**»(٤).

فسُرَّ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفرِحَ فرحًا عظيمًا، بما نَزلَ عليه مِنَ الحَقِّ، ببَراءَةِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهذه الفَرحَةُ حصَلَت له بَعدَ أنِ اغتَمَّ شهرًا كامِلًا، وهو يَنتَظِرُ الوَحيَ من ربِّهِ؛ ليُبيِّنَ له البيانَ الشَّافي في هذِهِ القضيَّة.

قال ابنُ حجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه الضَّحِكُ والفَرَحُ والاستبشارُ عندَ ذلك، وتَدريجُ مَن وقَعَ في مُصيبَةٍ فزالَت عَنهُ؛ لئَلَّا يَهجُم على قَلبِهِ الفَرَحُ من أوَّلِ وهلَةٍ فيُهلِكَهُ، يُؤخَذُ ذلك من ابتِداءِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدَ نُزولِ الوَحيِ ببَراءَةِ عائشةَ بالضَّحِكِ، ثم تَبشيرِها، ثم إعلامِها ببَراءَتِها مُجمَلَةً، ثم تِلاوَتِه الآياتِ على وجهِها»(٥).

---

(١) الطرق الحكمية (ص١٨٢).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٠/ ٤١).

(٣) فتح الباري (١٢/ ٥٧).

(٤) رواه البخاري (٤٧٥٧)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٥) فتح الباري (٨/ ٤٨١).

* **وفَرِحَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عندَما اختارَته عائشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لَمَّا نزَلَت آيةُ التَّخييرِ:**

فعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: لَمَّا أُمِرَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتَخييرِ أزواجِهِ بَدَأ بي، فقال: «**إنِّي ذاكِرٌ لَكِ أمرًا، فلا عَلَيكِ أن لا تَعجَلي حتى تَستأمِري أبَوَيكِ**»، قالت: قَد عَلِمَ أنَّ أبَوَيَّ لم يكونا ليَأمُراني بفِراقِهِ، قالت: ثم قال: «إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا**﴾ [الأحزاب: ٢٨-٢٩]».

قالت: فقُلتُ: في أيِّ هذا أستَأمِرُ أبَوَيَّ؟ فإنِّي أُريدُ اللهَ ورسولَهُ والدَّارَ الآخِرَةَ.

قالت: ثم فعَلَ أزواجُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثلَ ما فعَلتُ[1].

وفي رواية: وأسألُكَ أن لا تُخبِرَ امرَأةً من نِسائِكَ بالذي قُلتُ، قال: «**لا تَسألُني امرَأةٌ منهنَّ إلا أخبَرتُها، إنَّ اللهَ لم يَبعثني مُعَنِّتًا، ولا مُتَعَنِّتًا، ولكن بَعَثَني مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا**»[2].

وفي رواية: «قالت: فقُلتُ: قَد اختَرتُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ ورسولَهُ، ففَرِحَ بذلك رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[3].

قال العُلَماءُ: «إنما أمَرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عائشة أن تَستَأمِرِ أبَوَيها؛ خَشيَة أن يَحمِلَها صِغَرُ السِّنِّ على اختيارِ الشِّقِّ الآخَرِ؛ لاحتِمال أن لا يكون عندَها من المَلَكَةِ ما يَدفَعُ ذلك العارِضَ، فإذا استَشارَت أبَوَيها، أوضَحا لها ما في ذلك من المفسَدَةِ، وما في مُقابِلِه من المصلَحَة؛ ولهذا لَمَّا فطِنَت عائشةُ لذلك قالت: «قَد عَلِمَ أنَّ أبَوَيَّ لم يكونا يَأمُراني بفِراقِهِ».

وفيه: مَنقَبَةٌ عَظيمَةٌ لعائشةَ، وبَيانُ كَمالِ عَقلِها، وصِحَّةِ رَأيِها، مع صِغَرِ سِنِّها.

وأنَّ الغَيرَةَ تَحمِلُ المرأةَ الكامِلَةَ الرأيِ والعَقلِ، على ارتِكابِ ما لا يَليق بحالها؛ لسُؤالها

---

(١) رواه البخاري (٤٧٨٥)، ومسلم (١٤٧٥)، واللفظ له.

(٢) رواه مسلم (١٤٧٨).

(٣) رواه أحمد (٢٤٤٨٧)، وصححه محققو المسند.

النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن لا يُخبِر أحَدًا من أزواجِه بفِعلِها، ولكنهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا عَلِمَ أنَّ الحامِلَ لها على ذلك ما طُبِعَ عليه النِّساءُ من الغَيْرَةِ، ومَحَبَّةِ الاستبدادِ دونَ ضَرائِرِها، لم يُسعِفها بما طَلَبَت من ذلك[١].

*** وكان يفرَحُ إذا سَمِعَ خبرًا يُصَدِّقُ بعضَ ما أخبَرَ بِهِ، كما فرِحَ بسماعِ قصةِ تَميمٍ الدَّاريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مع الدَّجَّال:**

فعن فاطمةَ بنتِ قَيسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: سَمِعتُ نِداءَ المُنادي، مُنادي رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُنادي: الصَّلاةَ جامِعَةً، فخرجتُ إلى المسجِدِ، فصَلَّيتُ مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكنتُ في صَفِّ النِّساءِ التي تَلي ظُهورَ القَومِ، فلمَّا قَضَى رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلاتَهُ جَلَسَ على المِنبَرِ وهو يَضحَكُ، فقال: «**ليَلزَم كُلُّ إنسانٍ مُصَلَّاهُ**»، ثم قال: «**أتَدرونَ لِمَ جَمَعتُكُم؟**».

قالوا: اللهُ ورسولُهُ أعلَمُ.

قال: «**إنِّي -واللهِ- ما جَمَعتُكُم لرَغبَةٍ ولا لرَهبَةٍ، ولكن جَمَعتُكم لأنَّ تَميمًا الدَّاريَّ كان رَجُلًا نَصرانيًّا، فجاءَ فبايَعَ وأسلَمَ، وحَدَّثَني حديثًا وافَقَ الذي كنتُ أُحَدِّثُكُم عن مَسيحِ الدَّجَّال...**»[٢].

ثم ذَكَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثَ تَميمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن الدَّجَّال.

وفي رواية: «إنَّ تَميمًا الدَّاريَّ حَدَّثَني بحديثٍ، ففَرِحتُ بِهِ، فأحبَبتُ أن أُحَدِّثَكُم»[٣].

ففرِحَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الحديثِ؛ لكونِهِ وافَقَ الحَقَّ الذي كان حدَّثَهم.

وفي الحديثِ مَنقَبَةٌ شَريفَةٌ لتميمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ روى عنه هَذِهِ القصَّة[٤].

---

(١) فتح الباري (٨/ ٥٢٢).
(٢) رواه مسلم (٢٩٤٢).
(٣) رواه الترمذي (٢٢٥٣)، وقال: «هذا حديث حسنٌ صحيح غريبٌ»، وصححه الألباني.
(٤) شرح النووي على مسلم (١/ ١٤٢).

* **وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفرَحُ إذا أصابَ أصحابُه خيرًا، كما فرِحَ بتوبَةِ اللهِ تعالى على كعبِ بنِ مالكٍ، وأصحابِه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ:**

قال كَعبُ بنُ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في قصَّةِ تخلُّفِه عن غزوَةِ تَبوك:

فلمَّا سَلَّمتُ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهوَ يَبرُقُ وجهُهُ من السُّرورِ-: «**أبشِر بخَيرِ يومٍ مَرَّ عَلَيكَ مُنذُ ولَدَتكَ أُمُّكَ**».

قُلتُ: أمِن عندِكَ يا رسولَ اللهِ، أم من عندِ اللهِ؟

قال: «**لا، بل من عندِ اللهِ**»[1].

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «**فيه**: استحبابُ سُرورِ الإمام وكَبيرِ القَومِ، بما يَسُرُّ أصحابَه وأتباعَه[2].

وقال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «**فيه**: ما كان النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه من كَمال الشَّفَقَة على أُمَّتِه، والرأفَةِ بهِم، والفَرَحِ بما يَسُرُّهم»[3].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وفي سُرورِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك وفَرَحِهِ بهِ واستنارَةِ وجهِهِ، دَليلٌ على ما جَعَلَ اللهُ فيه من كَمال الشّفَقَةِ على الأُمّةِ، والرّحمَةِ بهِم، والرّأفَةِ، حتى لَعَلّ فرَحَهُ كان أعظَمَ من فرَحِ كَعبٍ وصاحِبَيهِ»[4].

* **ورُبَّما فرِحَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلِقاءِ مَن يُذَكِّرُهُ بمَن يُحِبُّ:**

فعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: استَأذَنَت هالَةُ بنتُ خوَيلِدٍ أُختُ خديجةَ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعَرَفَ استئذانَ خديجةَ[5]، فارتاعَ لذلك[6]، فقال: «**اللهمَّ هالَةَ**[7]»[8].

---

(١) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٠١).

(٣) فتح الباري (٨/ ١٢٢).

(٤) زاد المعاد (٣/ ٥١٢).

(٥) أي: صفته؛ لشبه صوتها بصوت أختها، فتذكَّر خديجة بذلك.

(٦) أي: فزع، والمراد من الفزع: لازمه، وهو: التَّغيُّر.

(٧) أي: اجعلها هالة.

(٨) رواه البخاري (٣٨٢١)، ومسلم (٢٤٣٧).

وعندَ مُسلمٍ: « فارتاحَ لذلك».

أي: اهتَزَّ لذلك سُرورًا، وهَشَّ لَمجيئِها؛ لتَذَكُّرِهِ بها خديجة وأيَّامها.

وفي هذا كُلِّهُ: دَليلٌ لحُسنِ العَهدِ، وحِفظِ الوُدِّ، ورِعايَةِ حُرمَةِ الصَّاحِبِ والعَشيرِ، في حَياتِهِ ووَفاتِهِ، وإكرامِ أهلِ ذلك الصَّاحِبِ[١].

وفي الحديث: أنَّ مَن أحَبَّ شَيئًا أحَبَّ مَحبوباتِه، وما يُشبِهُهُ، وما يَتَعَلَّق بهِ[٢].

فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا سَمِعَ صَوتَ هالة تَذَكَّرَ زَوجَتَه خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ لأنَّ صوتَها يُشبِهُ صَوتَ أختِها؛ ولِذا ارتاعَ وهشَّ؛ لَمجيء هالة، واهتَزَّ سُرورًا لذلك.

*** وكذلك، كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفرَحُ، ويُسَرُّ، بسماعِ الكلامِ الحَسنِ، مِن أهلِ الإيمانِ:**

فعنِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: شَهِدتُ من المِقدادِ بنِ الأسوَدِ مَشهَدًا لَأن أكونَ صاحِبَهُ، أحَبُّ إلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بهِ[٣].

أَتَى النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يَدعو على المُشرِكينَ، فقال: لا نقولُ كَما قال قَومُ موسَى: «اذهَب أنتَ ورَبُّكَ فقاتِلا إنَّا هاهُنا قاعِدونَ»، ولكن: نُقاتِلُ عن يَمينِكَ، وعن شِمالِكَ، وبين يَدَيكَ، وخَلفَكَ.

فَرَأيتُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشرَقَ وجهُهُ، وسَرَّهُ -يعني: قولَهُ[٤].

فعندَما سمِعَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقالةَ المِقدادِ فرِحَ، واستَنارَ وجهُهُ؛ لما رَآهُ من تفاني أصحابِهِ واستماتَتِهِم في الدِّفاعِ عنهُ، والجِهادِ في سبيلِ اللهِ.

وذَكَرَ ابنُ إسحاقَ: أنَّ هذا الكلام قالهُ المِقدادُ لَمَّا وصَلَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّفراء، وهي قَريَةٌ بين جَبَلين، فتركَها، وسَلَكَ ذاتَ اليَمينِ، على وادٍ يُقال لَهُ: ذَفِران، فجَزعَ فيه، ثمّ نزلَ.

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٥/ ٢٠٢).

(٢) فتح الباري (٧/ ١٤٠).

(٣) أي: من كلِّ شيءٍ يقابل ذلك، من الدُّنيويَّات، والمراد: المبالغة في عظمة ذلك المشهد، وأنه كان- لو خيِّر بين أن يكون صاحبه، وبين أن يحصل له ما يقابل ذلك- كائنًا ما كان-، لكان حصوله له أحبَّ إليه.

(٤) رواه البخاري (٣٩٥٢)، وأحمد (٣٦٩٨).

وأتاهُ الخَبَرُ عن قُرَيشٍ بمَسيرِهِم؛ ليَمنَعوا عيرَهم، فاستَشارَ الناسَ، وأخبَرَهم عن قُرَيشٍ، فقامَ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ، فقال وأحسَنَ، ثم قامَ عمرُ بنُ الخَطَّابِ، فقال وأحسَنَ، ثم قامَ المِقدادُ بنُ عَمرٍو، فقال: «يا رسولَ اللهِ، امضِ لما أراكَ اللهُ، فنَحنُ مَعَكَ، واللهِ لا نقولُ لَكَ كَما قالت بَنو إسرائيلَ لموسَى: (اذهَب أنتَ ورَبُّكَ فقاتِلا إنَّا هاهُنا قاعِدونَ)، ولكن: اذهَب أنتَ ورَبُّكَ فقاتِلا، إنَّا مَعَكُما مُقاتِلونَ، فوالذي بَعَثَكَ بالحَقِّ، لَو سِرتَ بنا إلى بَركِ الغِمادِ لجَالَدنا مَعَكَ مَن دونَه، حتى تَبلُغَهُ».

فقال له رسولُ اللهِ ﷺ خَيرًا، ودَعا له بهِ.

ثم قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أشيروا عليَّ أيُّها الناسُ**»، وإنما يُريدُ الأنصارَ؛ وذلك أنَّهم عَدَدُ الناسِ، وأنَّهم -حينَ بايَعوهُ بالعَقَبَةِ- قالوا: «يا رسولَ اللهِ، إنَّا بُرآء من ذمامِك، حتى تَصِلَ إلى ديارِنا، فإذا وصَلتَ إلَينا، فأنتَ في ذِمَّتِنا، نَمنَعُكَ مِمَّا نَمنَعُ منه أبناءَنا، ونساءَنا».

فكان رسولُ اللهِ ﷺ يتخوَّف ألَّا تكونَ الأنصارُ تَرَى عليها نُصرَتَهُ، إلا مِمَّن دَهَمَهُ بالمدينَةِ من عَدوِّهِ، وأن ليس عليهم أن يَسيرَ بِهِم إلى عَدوٍّ من بلادِهِم، فلَمَّا قال ذلك رسولُ اللهِ ﷺ، قال له سَعدُ بنُ مُعاذٍ: «واللهِ لَكَأنَّكَ تُريدُنا يا رسولَ اللهِ؟» قال: «**أجَل**»، قال:

«فَقَد آمَنَّا بكَ، وصَدَّقناكَ، وشَهِدنا أنَّ ما جِئتَ بهِ هو الحَقُّ، وأعطَيناكَ على ذلك عهودَنا ومَواثيقَنا، على السَّمعِ والطَّاعَةِ، فامضِ يا رسولَ اللهِ لما أرَدتَ، فنَحنُ مَعَكَ، فوالذي بَعَثَكَ بالحَقِّ لَو استعرَضتَ بنا هذا البَحرَ فخُضتَه لَخُضناهُ مَعَكَ، ما تخَلَّف مِنَّا رَجُلٌ واحِدٌ، وما نَكرَهُ أن تَلقَى بنا عَدوَّنا غَدًا، إنَّا لَصُبُرٌ في الحَربِ، صُدُقٌ في اللِّقاءِ، لَعَلَّ اللهَ يُريك مِنَّا ما تَقَرُّ بهِ عينُك، فسِر بنا على بَرَكَةِ اللهِ».

فسُرَّ رسولُ اللهِ ﷺ بقولِ سَعدٍ، ونشَّطه ذلك، ثم قال: «**سيروا، وأبشِروا؛ فإنَّ اللهَ تعالى قَد وعَدَني إحدَى الطَّائِفتَينِ، واللهِ لَكَأنِّي -الآنَ- أنظرُ إلى مَصارعِ القَومِ**»[١].

---

(١) سيرة ابن هشامٍ (٢/ ١٨٨)، دلائل النبوة، للبيهقيِّ (٣/ ٣٢).

* وفرِحَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمُبادَرةِ الصَّحابَةِ إلى طاعةِ اللهِ:

فعن جَريرٍ، قال: كُنَّا عندَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صَدرِ النَّهارِ، فجاءَهُ قَومٌ حُفاةٌ، عُراةٌ، مُجتابي النِّمارِ(١)، أوِ العَباءِ، مُتَقَلِّدي السُّيوفِ(٢)، عامَّتُهم من مُضَر، بل كُلُّهم من مُضَر.

فتَمَعَّرَ وجهُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لما رَأى بهم من الفاقَةِ(٣).

فَدَخَلَ ثم خرجَ، فأمَرَ بلالًا فأذَّنَ، وأقامَ، فصَلَّى.

ثم خَطَبَ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١](٤).

والآيةَ التي في الحَشرِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

«**تَصَدَّقَ رَجُلٌ من دينارِه(٥)، من دِرهَمِهِ، من ثَوبِهِ، من صاعِ بُرِّهِ، من صاعِ تَمرِه**»، حتى قال: «**وَلَو بشِقِّ تَمرَةٍ**».

فَجاءَ رَجُلٌ من الأنصارِ بصُرَّةٍ، كادَت كَفُّهُ تعجزُ عنها، بل قد عَجَزَت.

قال: ثم تَتابَعَ النّاسُ، حتى رَأيتُ كَومَينِ من طعامٍ وثيابٍ، حتى رَأيتُ وجهَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتهَلَّلُ، كأنَّهُ مُذهَبَةٌ(٦).

---

(١) النِّمار: جمع نمرة، وهي ثياب صوف، فيها تنمير، وقوله: «مجتابي النِّمار» أي: أن الواحد منهم ليس عليه إلا ثوبه، قد قطعه؛ ليستر به عورته، وقد ربطه على رقبته، ومجتابٌ: مأخوذٌ من الجوب: وهو القطع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ [الفجر: ٩]: أي: نحتوه، وقطَّعوه، واتَّخذوه بيوتًا.

(٢) استعدادًا لما يؤمرون به من الجهاد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

(٣) تغيَّر وجهه وتلوَّن؛ لما رأى فيهم من الحاجة، وهم من مضر، من أشراف قبائل العرب، وقد بلغت بهم الحاجة إلى هذه الحال.

(٤) وسبب قراءة هذه الآية: أنها أبلغ في الحثِّ على الصدقة عليهم؛ ولما فيها من تأكُّد الحقِّ؛ لكونهم إخوةً. شرح النووي (٧/ ١٠٢).

(٥) خبرٌ بمعنى الأمر، وهو أبلغ؛ لدلالته على الوقوع، أي: ليتصدَّق.

(٦) من الشَّيء المذهب، وهو المموَّه بالذَّهب. النهاية (٢/ ١٧٣).

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن سَنَّ في الإسلامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فلَهُ أجرُها، وأجرُ مَن عَمِلَ بها بعدَهُ، من غَيرِ أن يَنقُصَ من أُجورِهِم شيءٌ، ومَن سَنَّ في الإسلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كان عليه وِزرُها، ووِزرُ مَن عَمِلَ بها من بعدِهِ، من غَيرِ أن يَنقُصَ من أوزارِهِم شيءٌ**»[١].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأمَّا سببُ سُرورِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ففَرَحًا بمُبادَرَةِ المسلمينَ إلى طاعَةِ اللهِ تعالى، وبَذلِ أموالِهِم للهِ، وامتِثالِ أمرِ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولِدَفعِ حاجَةِ هَؤُلاءِ المُحتاجينَ، وشَفَقَةِ المسلمينَ بَعضِهِم على بَعضٍ، وتَعاوُنِهِم على البِرّ والتَّقوى، ويَنبَغي للإنسانِ -إذا رَأى شَيئًا من هذا القَبيلِ- أن يَفرَحَ، ويُظهِرَ سُرورَهُ، ويكونَ فرَحُهُ لما ذَكَرناهُ»[٢].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وسُرورُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك؛ فرحٌ بما ظَهَرَ من فِعلِ المُسلِمينَ، ومِن سُهولَةِ البَذلِ عليهم، ولمُبادرَتِهم لذلك، وبما كشَفَ اللهُ من فاقاتِ أولئكَ المحاويجِ»[٣].

❊ وكان من سُنَّتِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنَّه إذا جاءَهُ ما يُفرِحُهُ، ويَسُرُّهُ، سَجَدَ للهِ شُكرًا:

فعن أبي بكرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أنَّ النبيَّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كان إذا أتاهُ أمرٌ يَسُرُّهُ، أو بُشِّرَ بهِ، خَرَّ ساجِدًا؛ شُكرًا للهِ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى»[٤].

«**إذا أتاهُ أمرٌ**» أي: عَظيمٌ، جَليلُ القَدرِ، رَفيعُ المنزِلَةِ، من هُجوم نعمةٍ مُنتَظَرَةٍ، أو غَيرِ مُنتَظَرَةٍ، مِمَّا يَندُرُ وُقوعُها، لا ما يَستَمِرُّ وُقوعُها؛ إذ لا يُقال في المُستَمِرِّ: «إذا أتاهُ».

فَلا يَرِدُ قولُ مَن قال: لَو أُلزِمَ العبدُ السُّجودَ عندَ كُلِّ نعمةٍ مُتَجَدِّدَةٍ، عَظيمَةٍ الموقِعِ عند صاحِبِها، لكان عليه أن لا يَغفُلَ عن السُّجودِ طَرفَةَ عَينٍ؛ لأَنَّهُ لا يَخلو عَنها أدنَى ساعَة، فإنَّ من أعظَمِ نعمه على العِباد: نعمةَ الحَياةِ، وذلك يَتَجَدَّد عليه، بتَجَدُّدِ الأنفاسِ عليه[٥].

---

(١) رواه مسلم (١٠١٧).

(٢) شرح النووي على مسلم (٧/ ١٠٣).

(٣) المفهم (٩/ ٣٣).

(٤) رواه أبو داوود (٢٧٧٤)، وابن ماجه (١٣٩٤)، وحسنه الألباني.

(٥) حاشية السِّنديِّ على سنن ابن ماجه (١/ ٤٢٣).

وقـال الشُّـوكانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فإن قُلـتَ**: نعم اللهِ على عِبـادِهِ، لا تَـزالُ واردةً عليهم، في كُلِّ لَحظةٍ ؟

قُلـتُ: المُـرادُ: النِّعَـمُ المُتجـدِّدةُ، التـي يُمكنُ وُصولُـها، ويُمكنُ عَـدَمُ وُصولِهـا؛ ولهذا: فـإنَّ النبـيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يَسـجُد إلا عِندَ تَجـدُّدِ تِلكَ النِّعـمِ، مع اسـتمرارِ نعم اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليـه، وتَجَدّدِهـا في كُلِّ وقتٍ»[١].

وقال المُناويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، **في قولِهِ**: «**خرَّ ساجدًا شاكرًا لله**»: «أي: سقَطَ على الفَورِ، هاويًا إلى إيقاعِ سَجدَةٍ؛ لشُكرِ اللهِ تعالى على ما أحدَثَ له مِنَ السُّرورِ، ومِن ثَمَّ: نُدِبَ سُجود الشُّكرِ عِندَ حُصولِ نعمةٍ، واندِفاعِ نِقمَةٍ»[٢].

وقال ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**سجدةُ الشُّكرِ**: هيَ التي تَكونُ بسببِ تَجدُّدِ نعمةٍ، أوِ اندِفاعِ نِقمةٍ، وهي مَشروعةٌ؛ لأنَّ من هَديِ الرّسولِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنّهُ كان إذا جاءَهُ أمرٌ يُسَرُّ به، خَرّ ساجدًا للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وهذا السّجودُ صِفتُهُ: أن تُكبِّرَ، وتَسجُدَ على أعضائِكَ السّبعةِ، وتقولَ: سُبحانَ رَبِّيَ الأعلى، ثُمّ تُثني على اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، بما أنعَمَ به عليكَ، فتقول -مَثَلًا-: اللهمّ لَكَ الحَمدُ على هَذِهِ النّعمةِ -وَتُعَيِّنُها-، اللهمّ لَكَ الحَمدُ على ما دَفَعتَ من نِقمةٍ -وَتُعَيِّنُها-، وتُكَرّر هَذا، ثُمّ تَرفَع، ولا تُسلِّم، ولا تُكبِّر.

وتُفعلُ سَجدةُ الشّكرِ كُلّما وُجِدَ سببُها، من لَيلٍ أو نَهارٍ، في أيّ وقتٍ، وعلى أيّ حالٍ، حتى وإن كان الإنسانُ على غَيرِ وُضوءٍ، فإنَّهُ لا بَأسَ أن يَسجُدَ»[٣].

---

(١) السيل الجرّار (ص١٧٥).

(٢) فيض القدير (٥/ ١١٨).

(٣) فتاوى نور على الدَّرب (٨/ ٢) بترقيم الشَّاملة.

حُزنُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الإنسانُ السَّويُّ لا بُدَّ أن يَعتريَهُ الشُّعورُ بالحُزنِ، إذا وُجِدَت أسبابُهُ؛ لأنَّ الحُزنَ ممَّا فُطِرَ عليه الإنسانُ، كالفَرَحِ، والألَمِ، والغَضَبِ، والرِّضا، ونَحوِ ذلك، فهيَ عوارِضُ طبيعيَّةٌ للبَشَرِ في الدُّنيا.

ولهذا حَكَى اللهُ تعالى عن أهلِ الجنَّةِ قولَهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤].

وهذا يشمَلُ كلَّ حُزنٍ، فلا حُزنَ يَعرِضُ لَهم، بسبب نقصٍ في جمالِهم، ولا في طعامِهم، وشرابِهم، ولا في لذَّاتِهم، ولا في أجسادِهم، ولا في دوامِ لُبثِهم، فهم في نعيمٍ، ما يَرونَ عليه مَزيدًا، وهو في تزايُدٍ، أبَدَ الآبادِ[1].

والنبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يَحزَنُ كغَيرِه مِنَ البَشَرِ، كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

ومِنَ الأحوال التي حَزِنَ فيها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

* حُزنُه عِندَ فُتورِ الوَحيِ:

فعن عائشةَ زَوجِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالت: «كان أوَّلَ ما بُدِئَ بِهِ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٥١)، تفسير السعدي (ص٦٨٩).

الرُّؤيا الصَّادِقَةُ في النَّومِ، فكان لا يَرَى رُؤيا، إلا جاءَت مِثلَ فلَقِ الصُّبحِ، ثم حُبِّبَ إليه الخَلاءُ، فكان يَلحَقُ بغارِ حِراءٍ، فيَتَحَنَّثُ فيه قبلَ أن يَرجِعَ إلى أهلِهِ، ويَتَزَوَّدُ لذلك، ثم يَرجِعُ إلى خديجةَ، فيَتَزَوَّدُ بمِثلِها، حتى فجِئَهُ الحَقُّ، وهو في غارِ حِراءٍ فجاءَهُ الملَكُ.

فقال: اقرَأ.

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما أنا بقارِئٍ**... » الحديث، وفيه: «وَفتَرَ الوَحيُ فترَةً، حتى حَزِنَ رسولُ اللهِ ﷺ»(١).

فالنبيُّ ﷺ حزِنَ حُزنًا شديدًا بسبَبِ تأخُّرِ الوَحي؛ خَشيَةَ انقطاعِ النُّبوَّةِ، وزَوال الاصطِفاءِ مِنَ اللهِ تعالى لَه.

قال الإسماعيليُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... ثم كان من مُقَدّمات تَأسيس النُّبوَّة: فترَةُ الوَحي؛ ليَتَدَرَّجَ فيه، ويَمرُنَ عليه، فشَقَّ عليه فُتورُهُ؛ إذ لم يَكُن خوطِبَ عن الله -بَعدُ-: أنَّك رسولٌ من الله، ومَبعوثٌ إلى عِبادِه، فأشفَقَ أن يكونَ ذلك أمرًا بُدِئَ بهِ، ثم لم يُرِد استِتمامُه، فحَزِنَ لذلك، حتى تَدَرَّجَ على احتِمال أعباء النُّبوَّةِ، والصَّبرِ على ثِقَلِ ما يَرِد عليه، فتَحَ اللهُ له من أمرِه بما فتَحَ»(٢).

ثمَّ حصَلَ له ﷺ ما يُؤكِّدُ نُبوَّتَه، ويَقطَعُ الشَّكَّ باليقينِ، وذلك عِندَما جاءَه جِبريلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، مرةً أخرَى على صورةِ مَلَكٍ، جالسٍ على كُرسيٍّ، بينَ السَّماءِ والأرضِ.

فعن جابِرِ بن عبدِاللهِ الأنصاريِّ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ -وَهوَ يُحدِّثُ عن فترَةِ الوَحيِ-: «**فَبَينا أنا أمشي، سمعتُ صَوتًا من السَّماءِ، فرَفَعتُ بَصَري، فإذا الملَكُ الذي جاءَني بحِراءٍ، جالسٌ على كُرسيٍّ بين السَّماءِ والأرضِ، فرُعِبتُ منه، فرَجَعتُ، فقُلتُ: زَمِّلوني، زَمِّلوني**.

---

(١) رواه البخاري (٤٩٥٣)، ومسلم (١٦٠).

(٢) فتح الباري (١٢/ ٣٦٠).

فَأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ١-٥] فحَميَ الوَحيُ وتتابعَ»[١].

فكان نُزولُ هذِه الآياتِ؛ إعلامًا للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنُبوَّتِه، وتكليفًا له بتحمُّلِ أعباءِ هذا الدِّينِ، والقيامِ بواجِبِ الدَّعوَةِ والبلاغِ.

وقال الصَّالحي رَحِمَهُ اللهُ: «الحِكمةُ في فترةِ الوَحيِ -واللهُ أعلَمُ-: ليذهَبَ عنه ما كان يَجِدُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الروعِ، وليَحصُلَ له التشوُّقُ إلى العَودِ»[٢].

وأمَّا ما جاءَ في البخاري من قولِ الزُّهري: «حَتَّى حَزِنَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -فيما بَلَغَنا- حُزنًا، غَدا منه -مِرارًا-؛ كَي يَتَرَدَّى من رُءوسِ شَواهِقِ الجِبال، فكُلَّما أوفَى بذِروَةِ جَبَلٍ؛ لكَي يُلقيَ منه نَفسَهُ، تَبَدَّى له جبريلُ، فقال: يا محمدُ، إنَّكَ رسولُ اللهِ حَقًّا، فيَسكُنُ لذلك جَأشُهُ، وتَقِرُّ نَفسُهُ، فيَرجِعُ»[٣].

فهذِهِ الرِّوايةُ لم يذكُرها البخاري مُسنَدَةً، فليست على شَرطِهِ، ولا تُعزَى للبُخاريِّ، وهي من بلاغاتِ الزُّهريِّ.

قال الحافِظُ رَحِمَهُ اللهُ: «ثم إنَّ القائِلَ: «فيما بَلَغَنا» هو الزُّهريُّ، ومعنى الكلام: أنَّ في جُملَة ما وصَلَ إلَينا من خَبَرِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هَذِهِ القِصَّةِ، وهو من بَلاغاتِ الزُّهريِّ، وليس مَوصولًا»[٤].

ومِنَ المعلومِ: أنَّ بلاغاتِ الزُّهريِّ ومراسيلَه من أضعَفِ المراسيلِ.

قال يحيى القَطَّان رَحِمَهُ اللهُ: «مُرسَلُ الزهريِّ شَرٌّ من مرسَلِ غَيرِهِ؛ لأنَّه حافِظٌ، وكلَّما يَقدِرُ أن يُسمِّيَ سَمَّى؛ وإنما يَترُكُ مَن لا يَستَجيزُ أن يُسَمِّيَه».

---

(١) رواه البخاري (٤)، ومسلم (١٦١).
(٢) سبل الهدى والرشاد (٢/ ٢٧٢).
(٣) صحيح البخاري (٩/ ٣٠).
(٤) فتح الباري (١٢/ ٣٥٩).

وقال يحيى بنُ مَعينٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَراسيلُ الزّهريِّ لَيست بشيءٍ».

وقال الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إرسالُ الزّهريِّ عندنا ليس بشيءٍ؛ وذلك أَنَّا نَجِدُهُ يَروي عن سُليمانَ بنِ أرقَم»[١].

وسُليمانُ بنُ أَرقَمَ -هَذا-: مَتروكُ الحديثِ.

وقد تكلَّم على هذِه الروايَةِ بالتفصيلِ، الشَّيخُ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في السِّلسلَةِ الضَّعيفَةِ[٢].

* حُزنُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عدَمِ استجابَةِ قَومِه لَه:

عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنَّها قالت للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَل أتَى عليكَ يومٌ، كان أشَدَّ من يومِ أُحُدٍ؟ قال:

«لَقَد لَقيتُ من قَومِكِ ما لَقيتُ، وكان أشَدَّ ما لَقيتُ منهم يومَ العَقَبَةِ، إذ عَرَضتُ نَفسي على ابنِ عبدِ ياليلَ بنِ عبدِ كُلالٍ[٣]، فلَم يُجبْني إلى ما أرَدتُ، فانطَلَقتُ -وَأنا مَهمومٌ- على وجهي، فلَم أستَفِق إلا وأنا بقَرنِ الثَّعالبِ[٤]، فرَفَعتُ رَأسي، فإذا أنا بسَحابَةٍ قَد أظَلَّتني، فنَظَرتُ، فإذا فيها جبريلُ، فناداني، فقال: إنَّ اللهَ قَد سَمِعَ قولَ قَومِكَ لَكَ، وما رَدُّوا عليكَ، وقد بَعَثَ إلَيكَ مَلَكَ الجِبال؛ لتَأمُرَهُ بما شِئتَ فيهم.

فَناداني مَلَكُ الجِبال، فسَلَّمَ عَلَيَّ، ثم قال: يا محمدُ، إنَّ اللهَ قَد سَمِعَ قولَ قَومِكَ لَكَ، وأنا مَلَكُ الجِبال، وقد بَعَثَني رَبُّكَ إلَيكَ؛ لتَأمُرَني بأمرِكَ، بما شِئتَ، إن شِئتَ أن أُطبِقَ عليهم

---

(١) شرح علل الترمذي، لابن رجبٍ (١/ ٥٣٥).

(٢) الضعيفة (٣/ ١٦٠ -١٦٣).

(٣) وكان ابن عبد ياليل من أكابر أهل الطَّائف من ثقيف، وقد عرض عليه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفسه؛ طالبًا منه النصر، والإعانة على إقامة الدِّين.

(٤) أي: لم أفطن لنفسي وأتنبَّه لحالي، وللموضع الذي أنا ذاهب إليه وفيه إلا وأنا عند قرن الثَّعالب؛ لكثرة همِّي الذي كنت فيه.
وقرن الثَّعالب: هو قرن المنازل، وهو ميقات أهل نجد، وهو على مرحلتين من مكَّة، وأصل القرن: كلُّ جبلٍ صغيرٍ ينقطع من جبلٍ كبيرٍ.

الأخشَبَينِ[١]»، فقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بل أرجو أن يُخْرِجَ اللهُ من أصلابِهِم، مَن يَعبُدُ اللهَ وحدَهُ لا يُشرِكُ بِهِ شَيئًا**»[٢].

فالنبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقطَعُ هذِه المسافَةَ كلَّها، وهو في حالٍ مِنَ الاستغراقِ مع غمِّه وهمِّه وحُزنِه؛ لأجلِ دعوَتِه، بحيثُ إنَّه لم يَستَفِق ولم يَشعُر بما حَولَه، إلا وهو في ميقاتِ أهلِ نَجد.

«**وفي هذا الحديثِ**: بيانُ شفقَةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قومِهِ، ومزيدِ صَبرِه، وحِلمِه، وهو موافِقٌ لقولِهِ تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ**﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله: ﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧]»[٣].

وفيه: بيانُ شديدِ حُزنِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عدَمِ استجابَةِ قومِهِ لَه، وقد قال تعالى -مخاطِبًا نبيَّه-: ﴿**فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا**﴾ [الكهف: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [لقمان: ٢٣].

لأنَّك أدَّيتَ ما عليك مِنَ الدعوَةِ والبلاغِ، فإذا لم يهتَدِ، فقَد وجَبَ أجرُكَ على اللهِ، ولم يَبقَ للحُزنِ موضِعٌ على عدَمِ اهتدائِهِ؛ لأنَّه -لو كان فيه خيرٌ- لهداهُ اللهُ.

والآياتُ في هذا المعنَى كثيرةٌ، كقولِه سبحانه: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨]، وقولِه جلَّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١].

وهذه الآياتُ فيها التَّسليةُ للرسولِ صلَواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه، في حُزنِهِ على المشركينَ الذينَ تَركوا الإيمانَ بهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وابتعَدوا عَنه؛ ألَّا يُهلِكَ نفسَهُ بحُزنِهِ عليهم[٤].

---

(١) وهما جبلا مكة: أبو قبيس، والجبل الذي يقابله، والمراد بإطباقهما: أن يلتقيا على من بمكة، أو المراد: أنهما يصيران طبقًا واحدًا.

(٢) رواه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

(٣) فتح الباري (٦/ ٣١٦).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٩٠).

* وحَزِنَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لما لَقيَ من أذًى من أهلِ مكَّةَ:

فعن أنسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: جاءَ جبريلُ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ -ذاتَ يومٍ- إلى رسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهو جالسٌ حَزينٌ، قَد خُضِّبَ بالدِّماءِ، قَد ضَرَبَهُ بعضُ أهلِ مَكَّةَ.

فقال: ما لَكَ؟

قال: «**فَعَلَ بي هَؤُلاءِ، وفَعَلوا**».

قال: أتُحِبُّ أن أُريَكَ آيةً؟

قال: «**نَعَم، أرِني**».

فَنَظَرَ إلى شَجَرَةٍ من وراءِ الوادي.

قال: ادعُ تِلكَ الشَّجَرَةَ، فدَعاها، فجاءَت تَمشي، حتى قامَت بين يَدَيه.

قال: قُل لها، فلتَرجِع.

فقال لها، فرَجَعَت، حتى عادَت إلى مَكانِها.

فقال: رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**حَسبي**»(١).

«**حَسبي**»: أي: كَفاني في تَسليَتي عَمَّا لَقيتُهُ مِنَ الحُزنِ: هَذِهِ الكرامَةُ من رَبِّي(٢).

* وحَزِنَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على عَمِّه أبي طالبٍ لَمَّا ماتَ على الكُفرِ:

وقد سَبَقَ ذِكرُ قِصَّتِه.

* وحَزِنَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على القُرَّاءِ السبعينَ الذينَ قُتِلوا غدرًا:

وذلك في بئرِ مَعونَةَ، في صَفرٍ على رَأسِ أربَعَةِ أشهُرٍ من أُحُدٍ، وقد حَزِنَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠٢٨)، وأحمد (١٢١١٢)، وقال ابن كثيرٍ في البداية والنهاية (٨/ ٦٧٤): «إسناده على شرط مسلم»، وصححه الألباني، وقال محققو المسند: «إسناده قوي على شرط مسلم».

(٢) مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٨٢١).

على هؤُلاءِ القتلى حُزنًا شديدًا؛ فعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَّ رِعلًا، وذَكوانَ، وعُصَيَّةَ، وبَني لَحيانَ، استَمَدُّوا رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عَدوٍّ.

فقالوا: ابعَث معنا رِجالًا، يُعلِّمونا القُرآنَ والسُّنَّةَ.

فأمَدَّهم بسَبعينَ رَجُلًا من الأنصارِ، كُنَّا نُسَمِّيهم القُرَّاءَ في زَمانِهم، فيهم خالي حَرامٌ، يَقرَءونَ القُرآنَ، ويَتَدارسونَ باللَّيلِ يَتَعَلَّمونَ، وكانوا بالنَّهارِ يَجيئونَ بالماءِ، فيَضَعونَهُ في المسجِدِ، ويَحتَطِبونَ فيَبيعونَهُ، ويَشتَرونَ بِهِ الطَّعامَ لأهلِ الصُّفَّةِ وللفُقَراءِ.

فَبَعَثَهم النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم، فعَرَضوا لهم ببِئرِ مَعونَةَ، فقَتَلوهم وغَدَروا بِهِم، قبلَ أن يَبلُغوا المكان.

فقالوا: اللهمَّ بَلِّغ عَنَّا نَبيَّنا: أنَّا قَد لَقيناكَ، فرَضينا عَنكَ، ورَضيتَ عَنَّا.

قال: وأتَى رَجُلٌ حَرامًا خالَ أنسٍ من خَلفِهِ، فطَعَنَهُ برُمحٍ حتى أنفَذَهُ.

فقال حَرامٌ: فُزتُ، ورَبِّ الكعبَةِ.

قال أنسٌ: فقَرَأنا فيهم قُرآنًا، ثم إنَّ ذلك رُفِعَ: «بَلِّغوا عَنَّا قَومَنا: أنَّا لَقينا رَبَّنا، فرَضيَ عَنَّا، وأرضانا».

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابِهِ: «**إنَّ إخوانَكُم قَد قُتِلوا، وإنَّهم قالوا: اللهمَّ بَلِّغ عَنَّا نَبيَّنا: أنَّا قَد لَقيناكَ، فرَضينا عَنكَ، ورَضيتَ عَنَّا**»(١).

قال أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فقَنَتَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَهرًا حينَ قُتِلَ القُرَّاءُ، فما رَأيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَزِنَ حُزنًا -قَطُّ- أشَدَّ منه(٢).

وفي لَفظٍ: «ما رَأيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجَدَ على سَرِيَّةٍ، ما وجَدَ على السَّبعينَ الذينَ أُصيبوا يومَ بئرِ مَعونَةَ، كانوا يُدعَونَ القُرَّاءَ، فمَكَثَ شَهرًا يَدعو على قَتَلَتِهم»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٤٠٩٠)، مسلم (٦٧٧).

(٢) رواه البخاري (١٣٠٠).

(٣) رواه مسلم (٦٧٧).

فمِن شدَّةِ حُزنِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أقامَ شَهرًا يَدعو على أولئِكَ القَتَلَةِ في صَلاتِه.

* وحَزِنَ على مقتَلِ زيدِ بنِ حارِثَةَ، وجعفَرٍ، وابنِ رواحَةَ، في معركَةِ مُؤتَة:

فعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: لَمَّا جاءَ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَتلُ ابنِ حارِثَةَ، وجَعفَرٍ، وابنِ رَواحَةَ، جَلَسَ يُعرَفُ فيه الحُزنُ، وأنا أنظُرُ من صائِرِ البابِ[١].

فَأتاهُ رَجُلٌ فقال: يا رسولَ اللهِ إنَّ نِساءَ جَعفَرٍ -وَذَكَرَ بُكاءَهُنَّ-.

فَأمَرَهُ أن يَنهاهُنَّ.

فَذَهَبَ الرجُلُ، ثم أتَى، فقال: قَد نَهَيتُهُنَّ، وذَكَرَ أنَّهُنَّ لم يُطِعنَهُ.

فَأمَرَهُ -الثانيَةَ- أن يَنهاهُنَّ.

فَذَهَبَ، ثم أتَى، فقال: واللهِ لَقَد غَلَبنَنا يا رسولَ اللهِ.

فقال: «**فاحثُ في أفواهِهِنَّ التُّرابَ**».

فَقُلتُ: أرغَمَ اللهُ أنفَكَ، لم تَفعَل ما أمَرَكَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولَم تَترُك رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العَناءِ[٢].

قولُهُ: «**يُعرَف فيه الحُزنُ**»:

قال الطِّيبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كَأنَّهُ كَظَمَ الحُزن كَظمًا، فظَهَرَ منه ما لا بُدَّ، للجِبِلَّةِ البَشَريَّة منه»[٣].

قال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وَيُؤخَذُ منه**: أنّ ظُهورَ الحُزنِ على الإنسانِ إذا أُصيبَ بمُصيبَةٍ، لا يُخرِجُهُ عن كَونِهِ صابِرًا راضيًا، إذا كان قَلبُهُ مُطمَئِنًّا، بل قَد يُقال: إنَّ مَن كان يَنزَعِجُ بالمُصيبَةِ، ويُعالِجُ نَفسَهُ على الرِّضا والصَّبرِ، أرفَعُ رُتبَةً مِمَّن لا يُبالي بوُقوعِ المُصيبَةِ أصلًا، أشارَ إلى ذلك الطَّبَريُّ، وأطالَ في تَقريرِهِ»[٤].

---

(١) أي: شقّ الباب.

(٢) رواه البخاري (١٢٩٩)، ومسلم (٩٣٥).

(٣) فتح الباري (٣/ ١٦٧).

(٤) المصدر السابق (٧/ ٥١٤).

ويدُلُّ على ذلك قولُها عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**جَلَسَ، يُعرَفُ فيه الحُزنُ**».

ولذلك بَوَّبَ عليه البخاري بقولِه: «بابُ مَن جَلَسَ عند المُصيبةِ، يُعرَفُ فيه الحُزنُ».

قال الزَّينُ بنُ المُنَيِّرِ: «مَوقِعُ هَذِهِ التَّرجَمَةِ من الفِقهِ: أنَّ الاعتِدالَ في الأحوال هو المسلَكُ الأقوَمُ، فمَن أُصيبَ بمُصيبَةٍ عَظيمَةٍ، لا يُفرِطُ في الحُزنِ، حتى يَقَعَ في المحذورِ من اللَّطمِ، والشَّقِّ، والنَّوحِ، وغَيرِها، ولا يُفرِطُ في التَّجَلُّدِ، حتى يُفضِيَ إلى القَسوَةِ والاستِخفافِ بقَدرِ المُصاب، فيُقتَدَى بهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تِلكَ الحالَةِ، بأن يَجلِسَ المُصابُ جلسَةً خَفيفَةً، بوَقارٍ وسَكينَةٍ، تَظهَر عليه مَخايِلُ الحُزنِ، ويُؤذِنُ بأنَّ المُصيبَةَ عَظيمَةٌ»(١).

وعن أسماءَ بنتِ عُمَيسٍ، قالت: لَمَّا أُصيبَ جعفَرٌ، وأصحابُهُ، دَخَلتُ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد دَبَغتُ أربَعينَ مَنيئَةً(٢)، وعَجَنتُ عَجيني، وغَسَّلتُ بَنِيَّ، ودَهَنتُهم، ونَظَّفتُهم.

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ائتيني ببَني جَعفَرٍ**».

قالت: فأتَيتُهُ بهِم، فشَمَّهم، وذَرَفَت عَيناهُ.

فَقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، بأبي أنتَ وأُمِّي، ما يُبكيكَ؟ أبَلَغَكَ عن جَعفَرٍ وأصحابِهِ شيءٌ؟

قال: «**نَعَم، أُصيبوا هذا اليومَ**».

قالت: فقُمتُ أصيحُ، واجتَمَعَ إليَّ النِّساءُ.

وخرجَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أهلِهِ، فقال: «**لا تُغفِلوا آلَ جَعفَرٍ من أن تَصنَعوا لهم طعامًا؛ فإنَّهم قَد شُغِلوا بأمرِ صاحِبِهِم**»(٣).

وفي مَعناهُ: ما رَواهُ ابنُ ماجَه، عن أسماءَ بنتِ عُمَيسٍ، قالت:

---

(١) المصدر السابق (٣/ ١٦٧).

(٢) المنيئة: الجلد أوَّل ما يدبغ.

(٣) رواه أحمد (٢٧٠٨٦)، وضعَّفه محققو المسند.

لَمَّا أُصيبَ جعفرٌ، رَجَعَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أهلِهِ، فقال: «**إنَّ آلَ جعفرٍ قَد شُغِلوا بشَأنِ مَيِّتِهِم؛ فاصنَعوا لهم طعامًا**»(١).

* وحَزِنَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عمِّه حمزةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

فعنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بنِساءِ عبدِالأشهَلِ، يَبكينَ هَلكاهُنَّ يومَ أُحُدٍ.

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لكنَّ حَمزَةَ لا بَواكيَ لَهُ**».

فَجاءَ نِساءُ الأنصارِ يَبكينَ حَمزَةَ.

فاستيقَظَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**وَيحَهُنَّ! ما انقَلَبنَ بعدُ**(٢)**؟ مُروهُنَّ فليَنقَلِبنَ، ولا يَبكينَ على هالكٍ بعدَ اليومِ**»(٣).

وقولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لكنَّ حَمزَةَ لا بَواكيَ لَهُ**»: دليلٌ على جوازِ مُجَرَّدِ البُكاءِ.

أمَّا قولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلا يَبكينَ على هالكٍ بعدَ اليومِ**»، فمعناهُ: النَّهيُ عن البُكاءِ الذي يَصحَبُهُ شيءٌ ممَّا حرَّمَه الشَّارعُ(٤).

* وحزِنَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا دخَلَ الكعبَةَ؛ خَوفًا أن يَكونَ قد شَقَّ على أُمَّتِهِ:

فعن عائشةَ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرجَ من عندِها وهو مَسرورٌ، ثم رَجَعَ إلَيَّ وهو كَئيبٌ، فقال: «**إنِّي دَخَلتُ الكعبَةَ، ولو استَقبلتُ من أمري ما استَدبَرتُ ما دَخَلتُها؛ إنِّي أخافُ أن أكونَ قَد شَقَقتُ على أُمَّتي**»(٥).

---

(١) رواه ابن ماجه (١٦١١)، وحسنه الألباني، والحديث مشهورٌ من حديث عبدالله بن جعفرٍ، عند أصحاب السنن.

(٢) أي: ما انصرفن بعد؟

(٣) رواه ابن ماجه (١٥٩١)، وصححه الألباني.

(٤) نيل الأوطار (٤/ ١٢٣).

(٥) رواه أبوداود (٢٠٢٩)، والترمذي (٨٧٣)، وصححه، وابن خزيمة في صحيحه (٣٠١٤)، والحاكم في مستدركه (١٧٦٢)، وصححه، وضعَّفه الألباني في ضعيف الترمذي.

قال السّنديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: فعَلَ ما صارَ سببًا لوُقوعِهِم في المشَقَّةِ والتَّعَبِ؛ لقَصدِهِمُ الاتِّباعَ لي في دُخولِهِمُ الكعبَةَ، وذاكَ لا يتَيَسَّرُ لغالبِهِم إلا بتعَبٍ»[1].

وقد وصَفَ اللهُ تعالى رسولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ بقولِه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

(١) حاشية السِّنديِّ على ابن ماجه (٢/ ٢٥٠).

ضَحِكُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

كان النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دائِمَ التَّبَسُّمِ، ومِن أحسنِ الناسِ ثَغرًا، وأطيبِهِم نَفسًا.

وكان في تَبَسُّمِهِ وضَحِكِهِ لا يُجاوِزُ حَدَّ الاعتِدال.

والضَّحِكُ المعتدِلُ: بلسمٌ للرُّوحِ، ودَواءٌ للنَّفسِ، وراحةٌ للخاطرِ المكدودِ، بعدَ الجِدِّ والعمَلِ، والمقتَصدُ منه دَليلٌ على الأريحيَّةِ، وآيةٌ على اعتدال المِزاجِ، وعَلامَةٌ على صَفاءِ الطَّويَّةِ.

وكان رسولُنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعلو مُحيَّاهُ البسمةُ المُشرِقَةُ، فإذا قابلَ بها الناسَ أسَرَ قلوبَهم أسرًا، فمالت نُفوسُهم بالكُلِّيَّةِ إليهِ، وتهافتَت أرواحُهم عليه.

وكان الضَّحِكُ والتَّبَسُّمُ منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

إمَّا مُلاطَفةً، ومُؤانَسَةً، لأزواجِهِ، أو لأصحابِهِ، أو مُشارَكَةً لهم في فرحتِهِم، أو تصديقًا لخبرٍ ما، ضَحِكَ إقرارًا بصِحَّتِهِ، أو فرَحًا وسرورًا ببَعضِ المواقِفِ، أو تَعَجُّبًا، أو لسَماعِ ما يُضحِكُ، ورُؤيَةِ ما يَسُرُّ، أو لغيرِ ذلك مِنَ الأسبابِ.

قال أهلُ اللُّغَةِ: الضَّحِكُ: انبساطُ الوجهِ، أي تهلُّلُه، وتَلألُؤُهُ، حتى تظهرَ الأسنانُ مِنَ السُّرورِ، فإذا تهَلَّلَ الوجهُ؛ لسُرورٍ قامَ بِه، انفتحَ الفَمُ على الهيئةِ المعروفةِ.

فإذا كان بصَوتٍ، وكان يُسمَعُ من بعيدٍ، فهو القَهقَهَةُ، وإن لم يُسمَع من بَعيدٍ، وكان بصوتٍ، فالضَّحِكُ.

والتَّبَسُّمُ: مَبادِئُ الضَّحِكِ أي: مُقدّماتُه، فالتَّبَسُّمُ مِنَ الضَّحِكِ، بمنزلةِ السِّنَةِ مِنَ النَّومِ.

فالفارقُ بينَ الثلاثةِ: أنَّ التبسُّمَ: انفتاحُ الفَمِ بلا صَوتٍ، والضَّحِك: انفتاحُهُ مع صوتٍ قليلٍ، والقَهقَهَة: انفتاحُهُ بصَوتٍ قَويٍّ(١).

كيفَ كان ضحكُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟

عن عبدِالله بنِ الحارثِ بنِ جَزءٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢)، قال: «**ما كان ضَحِكُ رسولِ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **إلا تَبَسُّمًا**»(٣).

أي لا يَزيدُ على التَّبَسُّمِ.

قال الطِّيبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «جَعلَ التَّبَسُّمَ مِنَ الضَّحِكِ، واستَثناهُ منه؛ فإنَّ التَّبَسُّمَ مِنَ الضَّحِكِ، بمنزلةِ السِّنَةِ مِنَ النَّومِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿**فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا**﴾ [النمل: ١٩] أي شارِعًا في الضَّحِكِ»(٤).

وعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «**ما رَأيتُ النبيَّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **مُستَجمِعًا -قَطُّ- ضاحِكًا، حتى أرَى منه لَهَواتِهِ، إنما كان يَتبَسَّمُ**»(٥).

المُستَجمِعُ: المُجِدُّ في الشَّيءِ، القاصِدُ لَهُ، يُقال: استَجمَعَ السَّيلُ: اجتَمَعَ من كُلّ مَوضِعٍ، والمعنى: أي: مُبالغًا في الضَّحِك، لم يَترُك منه شَيئًا.

واللهَواتُ: جَمعُ لهاةٍ، وهيَ: اللّحمَةُ التي بأعلى الحَنجَرَةِ من أقصَى الفَمِ.

ومعنى الحديثِ: أي: ما رَأيتُهُ مُستَجمِعًا من جِهَةِ الضَّحِك، بحَيثُ يَضحَك ضَحِكًا تامًّا، مُقبِلًا بكُلِّيَّتِهِ على الضَّحِكِ(٦).

---

(١) ينظر: فتح الباري (١٠/ ٥٠٤)، والكلِّيَّات للكفويِّ (ص: ٥٧٤).

(٢) وهو آخر من مات بمصر من الصحابة، في سنة ٨٦هـ.

(٣) رواه الترمذي (٣٦٤٢)، وصححه الألباني.

(٤) مرقاة المفاتيح (٧/ ٢٩٩٢)، تحفة الأحوذي (١٠/ ٩٠)

(٥) رواه البخاري (٦٠٩٢)، ومسلم بأطول منه (٨٩٩).

(٦) فتح الباري (١٠/ ٥٠٦)، عون المعبود (١٤/ ٣).

وفي هذه الأحاديثِ: دَلالةٌ على أنَّ ضَحِكَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان تَبَسُّمًا، ولا يزيدُ على التَّبَسُّمِ، وهذا كان في غالبِ أحوالِهِ؛ لأَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ -في بعضِ الأحيانِ- حتى بدَت نواجِذُهُ.

والنَّواجِذُ: جَمعُ ناجِذَةٍ، وهي الأضراسُ، ولا تَكادُ تَظهَرُ إلا عندَ المُبالَغةِ في الضَّحِكِ.

قال الحافظُ ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «والذي يَظهَرُ من مَجموعِ الأحاديثِ: أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في مُعظَمِ أحوالِهِ لا يَزيدُ على التَّبَسُّمِ، ورُبَّما زادَ على ذلك فضَحِكَ، والمكروهُ من ذلك: إنما هو الإكثارُ منه، أوِ الإفراطُ فيه؛ لأَنَّهُ يُذهِبُ الوَقارَ»[١].

*** وكان التَّبَسُّمُ سِمَةً عامَّةً للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يَلقَى زوَّارَهُ وأصحابَهُ، إلا تبَسَّمَ في وُجوهِهِم:**

فعن جَريرِ بنِ عبدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «ما حَجَبَني رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنذُ أسلَمتُ[٢]، ولا رَآني إلا ضَحِكَ».

وفي رواية: «وَلا رَآني إلا تَبَسَّمَ في وجهي»[٣].

فمعنى «ضَحِكَ»: تَبَسَّمَ، كَما صَرَّحَ بِهِ في الرِّوايَةِ الثانيَةِ.

قال القاري رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا من كَمالِ مَكارِمِ أخلاقِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولَعَلَّ مَنشَأَ كَثرَةِ انبِساطِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَهُ: أَنَّهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان من مَظاهِرِ الجَمالِ»[٤].

وفيه: أنَّ لقاءَ الناسِ بالتَّبَسُّمِ وطلاقةِ الوجهِ من أخلاقِ النُّبوَّةِ، وهو منافٍ للتَّكَبُّرِ، وجالبٌ للمودَّةِ[٥].

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٥٠٥).

(٢) أي: ما منعني من الدخول إليه، إذا كان في بيته، فاستأذنت عليه.

(٣) رواه البخاري (٣٨٢٢)، ومسلم (٢٤٧٥).

(٤) مرقاة المفاتيح (٧/ ٢٩٩٢).

(٥) شرح ابن بطَّالٍ (٥/ ١٩٣).

فالابتسامةُ لها تأثيرٌ بالغٌ ومفعولٌ ساحِرٌ على الآخرينَ؛ فقد فطَرَ اللهُ الخلقَ على محبَّةِ صاحِبِ الوجهِ المُشرِقِ، الذي يَلقَى مَن حولَهُ بابتسامةٍ، تُذهِبُ عن النُّفوسِ همومَ الحياةِ، ومتاعبَها، وتُشيعُ أجواءً مِنَ الطُّمَأنينَةِ، وهي مِنَ الخِصالِ المتَّفقِ على استحسانِها، وامتداحِ أصحابِها.

* **وهذه بَعضُ المواقِفِ التي ضَحِكَ فيها النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:**

عن عائشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: رَجَعَ إليَّ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاتَ يومٍ من جِنازَةٍ بالبَقيعِ، وأنا أجِدُ صُداعًا في رَأسي، وأنا أقولُ: وا رَأساهُ[١].

قال: «**بل أنا، وا رَأساهُ**»[٢].

قال: «**ما ضَرَّكِ لَو مِتِّ قبلي، فغَسَّلتُكِ، وكَفَّنتُكِ، ثم صَلَّيتُ عليكِ، ودَفَنتُكِ؟**».

قُلتُ: لَكَأنِّي بكَ -واللهِ- لَو فعَلتَ ذلك، لَقَد رَجَعتَ إلى بَيتي، فأعرَستَ فيه ببعضِ نِسائِكَ[٣].

فَتبَسَّمَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم بُدِئَ بوَجَعِهِ الذي ماتَ فيه[٤].

وأصلُ القِصَّةِ في البخاري بلفظِ: قالت عائشةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: وارَأساهُ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ذاكِ لَو كان، وأنا حَيٌّ**[٥]**، فأستَغفِرُ لَكِ، وأدعو لَكِ**».

فقالت عائشةُ: وا ثُكلياهُ![٦] واللهِ إنِّي لأَظُنُّكَ تُحِبُّ مَوتي، ولو كان ذاكَ، لَظَلَلتَ آخِرَ يومِكَ، مُعَرِّسًا ببعضِ أزواجِكَ[٧].

(١) هو تفجُّعٌ على الرأس؛ لشدَّة ما وقع به من ألم الصُّداع.
(٢) أي: أنا أحقُّ منك بهذه الكلمة؛ لأن مرضك زائلٌ بالصِّحَّة عقبه، بخلاف مرضي، وكان هذا الأمر في قرب الوفاة.
(٣) أعرس الرجل بأهله: إذا بنى بها.
(٤) رواه أحمد (٢٥٩٠٨)، والدَّارميُّ (٨٠)، وابن ماجه (١٤٥٦)، وحسنه الألباني، وكذا حسنه محققو المسند.
(٥) أي: لو متِّ، وأنا حيٌّ.
(٦) أصل الثَّكل: فقد الولد، أو من يعزُّ على الفاقد، وليست حقيقته هنا مرادة، بل هو كلام كان يجري على ألسنتهم، عند حصول المصيبة، أو توقُّعها. الفتح (١٠/ ١٢٥).
(٧) صحيح البخاري (٥٦٦٦).

وتبسَّمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لما تدُلُّ عبارتُها عليه، مِن كمال غَيرتِها، حتى بعدَ وفاتِها[١].

وهذا التَّبسمُ منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من بابِ المُؤانَسَةِ، والمُلاطَفَةِ.

*** ومِن ذلك: ضَحِكُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لما يَحدُثُ بينَ زوجاتِهِ، من مواقِفَ طَرِيفَةٍ:**

قالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: زارَتنا سَودَةُ -يومًا-، فجَلَسَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيني وبينها، إحدَى رِجلَيهِ في حِجري، والأُخرَى في حِجرِها، فعَمِلتُ لها حَريرَةً[٢]، أو قال -يعني على الشَّكِّ من راوي الحديثِ-: خَزيرَةً، فقُلتُ: كُلي، فأبَت.

فقُلتُ: لَتَأكُلِي، أو لَأُلَطِّخَنَّ وجهَكِ، فأبَت.

فَأخَذتُ مِنَ القَصعَةِ شَيئًا، فلَطَّختُ بِهِ وجهَها، فرَفَعَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رِجلَهُ من حِجرِها، تَستَقيدُ مِنِّي، فأخَذَت مِنَ القَصعَةِ شَيئًا، فلَطَّخَت بِهِ وجهي، ورسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يَضحَكُ**.

فإذا عمرُ يقولُ: يا عبدَاللهِ بنَ عمرَ، يا عبدَاللهِ بنَ عمرَ.

فقال لَنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قوما، فاغسِلا وُجوهَكُما؛ فلا أحسِبُ عمرَ إلا داخِلًا**».

فقالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «فَما زِلتُ أهابُ عمرَ؛ لِهَيبَةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[٣].

فهذا المزاحُ منهما رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، جعلَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يضحَكُ**؛ سرورًا لما دارَ بينهما، من مُلاطَفَةٍ ومُداعَبَةٍ.

---

(١) مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٨٥٦).

(٢) حساءٌ مطبوخٌ من الدَّقيق، والدَّسم، والماء، والخزيرة: لحمٌ يقطَّع، ثم يطبخ بماءٍ كثيرٍ، وملحٍ، فإذا نضج، يذرُّ عليه الدقيق، ويعصد به.

(٣) رواه النسائي في السُّنن الكبرى (٨٨٦٨)، وأبو يعلى في مسنده (٤٤٧٦)، وقال العراقيُّ: «إسناده جيِّدٌ»، كما في تخريج الإحياء (٣/ ١٦٠)، وحسَّن إسناده الألباني في الصحيحة (٣١٣١).

* وضَحِكَ من كلامِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهي صغيرةٌ تلعبُ:

فعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قَدِمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غَزوَةِ تَبوكَ، أو خَيبَرَ، وفي سَهوَتِها[١] سِترٌ، فهَبَّت ريحٌ فكَشَفَت ناحيَةَ السِّترِ، عن بَناتٍ لعائشةَ، لُعَبٍ.

فقال: «**ما هذا يا عائشةُ؟**»

قالت: بَناتي.

ورَأى بينهُنَّ فرَسًا له جَناحانِ من رِقاعٍ[٢]، فقال: «**ما هذا الذي أرَى وسطَهُنَّ؟**».

قالت: فرَسٌ .

قال: «**وَما هذا الذي عليه؟**».

قالت: جَناحانِ.

قال: «**فَرَسٌ له جَناحانِ؟**»

قالت: أما سمعتَ أنَّ لسُلَيمانَ خَيلًا لها أجنِحَةٌ؟

قالت: فضَحِكَ، حتى رَأيتُ نَواجِذَهُ[٣].

فكَم أدخلت تلكَ الضَّحكَةُ منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ السُّرورِ على قلبِ زوجِهِ وكم كان لتلكَ المُداعَبَةِ مِنَ الأثَرِ الحَسَنِ على مَشاعِرِها.

بل إنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَثَّ الأزواجَ على هذا الأمرِ؛ لأنَّهُ يجلبُ المَسَرَّةَ للقُلوبِ، ويُحَبِّبُ الطَّرَفينِ إلى بَعضِهِما، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجابرِ بنِ عبدِاللهِ -لَمَّا تزَوَّجَ بامرأةٍ ثيِّبٍ-: «**هَلَّا جاريَةً تُلاعِبُها وتُلاعِبُكَ، وتُضاحِكُها وتُضاحِكُكَ**»[٤].

---

(١) السَّهوة: بيتٌ صغيرٌ، منحدرٌ في الأرض قليلاً، شبيهٌ بالمخدع والخزانة، وقيل: هو كالصُّفَّة، تكون بين يدى البيت، وقيل: شبيهٌ بالرفِّ، أو الطَّاق، يوضع فيه الشيء. النهاية (٢/ ٤٣٠).

(٢) جمع رقعةٍ، وهي الخرقة، وما يكتب عليها.

(٣) رواه أبوداود (٤٩٣٢)، وصححه الألباني.

(٤) رواه البخاري (٥٣٦٧)، ومسلم (٧١٥).

فالمُلاعَبَةُ والمُضاحَكَةُ بين الزَّوجَينِ، تملأُ القلوبَ مَسَرَّةً، والبيتَ أُنسًا ومَحَبَّةً، فتَقوى الرابِطَةُ الزَّوجيَّةُ، وتَتَعَمَّقُ الأُلفَةُ والمودَّةُ.

واستُدِلَّ بهذا الحديثِ: على جَوازِ اتِّخاذِ صوَرِ البَناتِ، واللُّعَبِ؛ من أجلِ لَعِبِ البَناتِ بهِنَّ، وخُصَّ ذلك من عُمومِ النَّهيِ عن اتِّخاذِ الصُّوَرِ؛ لتَدريبِهِنَّ من صِغَرِهِنَّ على أمرِ بُيوتِهِنَّ وأولادِهِنَّ[١].

*** وضَحِكَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من سَلَمَةَ بنِ الأكوَعِ، عندَما أعطَى حَجَفَتَهُ[٢] لعَمِّهِ، وبَقِيَ دونَ سِلاحٍ:**

فعن سَلَمَةَ قال: قَدِمنا الحُدَيبيَةَ مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونَحنُ أربعَ عَشرَةَ مِائَةً، وعليها خَمسونَ شاةً لا تُرويها، فقعَدَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على جَبا الركيَّةِ[٣]، فإمَّا دَعا، وإمَّا بَصَقَ فيها، فجاشَت[٤]، فسَقَينا واستَقَينا، ثم إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعانا للبَيعَةِ في أصلِ الشَّجَرَةِ،

فَبايَعتُهُ أوَّلَ الناسِ، ثم بايَعَ، وبايَعَ، حتى إذا كان في وسَطٍ من الناسِ قال: «**بايِع يا سَلَمَةُ**».

قُلتُ: قَد بايَعتُكَ يا رسولَ اللهِ في أوَّلِ الناسِ.

قال: «**وَأيضًا**».

ورَآني رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَزِلًا[٥]، فأعطاني رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَجَفَةً -أو دَرَقَةً-، ثم بايَعَ، حتى إذا كان في آخِرِ الناسِ، قال: «**ألا تُبايِعُني يا سَلَمَةُ؟**».

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٥٢٧).

(٢) الحجفة: الترُّس.

(٣) وهو ما حول البئر.

(٤) ارتفعت، وفاضت.

(٥) يعني: ليس معه سلاحٌ.

قُلتُ: قَد بايَعتُكَ يا رسولَ اللهِ، في أوَّلِ الناسِ، وفي أوسَطِ الناسِ.

قال: «**وَأيضًا**».

فَبايَعتُهُ الثالثَةَ.

ثم قال لي: «**يا سَلَمَةُ، أينَ حَجَفَتُكَ** -أو **دَرَقَتُكَ**- **التي أعطَيتُكَ؟**».

قُلتُ: يا رسولَ الله، لَقيَني عَمِّي عامِرٌ عَزِلًا، فأعطَيتُهُ إيَّاها.

فَضَحِكَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «**إنَّكَ كالذي قال الأولُ: اللهمَّ أبغِني حَبيبًا، هو أحَبُّ إلَيَّ** من **نَفسي**»[١].

* تَبَسُّمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ مُشارَكَةً لأصحابِهِ في انبساطِهِم:

عن سِماكِ بنِ حَربٍ قال: قُلتُ لجابِرِ بنِ سَمُرَةَ: أكُنتَ تُجالِسُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: «نَعَم، كَثيرًا، كان لا يَقومُ من مُصَلَّاهُ الذي يُصَلِّي فيه الصُّبحَ حتى تَطلُعَ الشَّمسُ، فإذا طَلَعَتِ الشَّمسُ قامَ، وكانوا يَتَحَدَّثونَ، فيَأخُذونَ في أمرِ الجاهِليَّةِ، فيَضحَكونَ، ويَتَبَسَّمُ»[٢].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه: جوازُ الحديثِ بأخبارِ الجاهليَّةِ وغيرِها مِنَ الأُمَمِ، وجوازُ الضَّحِكِ، والأفضَلُ الاقتصارُ على التَّبَسُّمِ، كما فعَلَه رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عامَّةِ أوقاتِهِ»[٣].

وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ **يَضحَكُ؛ تَعَجُّباً مِن بعضِ ما يَرَى، أو يَسمَعُ:**

* فَضَحِكَ من جُرأةِ بعضِ الأعرابِ:

فعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كنتُ أمشي مع النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعليه بُردٌ نَجرانيٌّ[٤] غَليظُ الحاشيةِ[٥]، فأدرَكَهُ أعرابيٌّ، فجَذَبَهُ جَذبَةً شَديدَةً، حتى نَظَرتُ إلى صَفحَةِ عاتِقِ النبيِّ

---

(١) رواه مسلم (١٨٠٧) في حديث طويلٍ.

(٢) رواه مسلم (٦٧٠).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٥/ ٧٩).

(٤) البرد: رداءٌ يلبس فوق الثِّياب، أو كساءٌ مخطَّطٌ.

(٥) الحاشية: الجانب، والطرف.

ﷺ، قَد أثَّرت بهِ حاشيَةُ الرِّداءِ؛ من شِدَّةِ جَذبَتِهِ، حتى انشَقَّ البُردُ، وحَتَّى بَقِيَت حاشيَتُهُ في عُنُقِ رسولِ اللهِ ﷺ.

ثم قال: يا محمدُ، مُر لي من مال اللهِ الذي عندَكَ.

فالتَفَتَ إليه فضَحِكَ، ثم أمَرَ له بعَطاءٍ»(١).

وفيه: لُطفُ رسولِ اللهِ ﷺ، وحلمُه، وكرَمُه، وأنَّه على خُلُقٍ عظيمٍ(٢).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه احتِمالُ الجاهِلينَ، والإعراضُ عن مُقابَلَتِهم، ودَفعُ السَّيِّئَةِ بالحَسَنَةِ، وإعطاءُ مَن يُتَألَّفُ قَلبُهُ، والعَفوُ عَمَّن ارتَكَبَ كَبيرَةً لا حَدَّ فيها بجَهلِهِ، وإباحَةُ الضَّحِكِ عند الأُمورِ التي يُتَعَجَّبُ منها في العادَةِ.

وفيه: كَمالُ خُلُقِ رسولِ اللهِ ﷺ، وحِلمُه، وصَفحُه الجَميلُ»(٣).

*** وضَحِكَ ﷺ من حال أصحابِهِ؛ لَمَّا رَأى سُرعَتَهم إلى الكنِّ، عندَ نزولِ المطرِ:**

عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا، قالت: شَكا الناسُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ قُحوطَ المطَرِ، فأمَرَ بمِنبَرٍ فوُضِعَ له في المُصَلَّى، ووَعَدَ الناسَ يومًا يَخرُجونَ فيه.

قالت عائشةُ: فخرجَ رسولُ اللهِ ﷺ حينَ بَدا حاجِبُ الشَّمسِ(٤)، فقعَدَ على المِنبَرِ، فكَبَّرَ ﷺ، وحَمِدَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، ثم قال: «**إنَّكُم شَكَوتُم جَدبَ ديارِكُم، واستِئخارَ المطَرِ عن إبَّانِ زَمانِهِ عَنكُم، وقد أمَرَكُم اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **أن تَدعوهُ، ووَعَدَكُم أن يَستَجيبَ لَكُم**».

ثم قال: «**الحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ، الرحمَنِ الرحيم، مالكِ يوم الدِّينِ، لا إلَهَ إلا اللهُ، يَفعَلُ ما يُريدُ، اللهمَّ أنتَ اللهُ لا إلَهَ إلا أنتَ، أنتَ الغَنيُّ ونَحنُ الفُقَراءُ، أنزِل عَلَينا الغَيثَ، واجعَل ما أنزَلتَ لَنا قوَّةً وبَلاغًا إلى حينٍ**».

---

(١) رواه البخاري (٣١٤٩)، مسلم (١٠٥٧).
(٢) عمدة القاري (١٥/ ٧٣).
(٣) شرح النووي على مسلم (٧/ ١٤٧).
(٤) ضوؤها، أو ناحيتها.

ثم رَفَعَ يَدَيهِ، فلَم يَزَل في الرفعِ حتى بَدا بَياضُ إبطَيهِ، ثم حَوَّلَ إلى الناسِ ظَهرَهُ، وقَلَبَ -أو: حَوَّلَ- رِداءَهُ، وهو رافِعٌ يَدَيهِ، ثم أقبَلَ على الناسِ، ونَزَلَ فصَلَّى رَكعَتَينِ.

فَأنشَأ اللهُ سَحابَةً، فرَعَدَت، وبَرَقَت، ثم أمطَرَت بإذنِ اللهِ.

فَلَم يَأتِ مَسجِدَهُ حتى سالَت السُّيولُ، فلَمَّا رَأى سُرعَتَهم إلى الكنِّ: ضَحِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى بَدَت نَواجِذُهُ، فقال: «**أشهَدُ أنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ، وأنِّي عبدُ اللهِ ورسولُهُ**»[١].

«**فلَمَّا رَأى سُرعَتَهم**»: أي: سُرعةَ مشيِهِم، والتِجائهِم إلى (الكنِّ)، وهو ما يُرَدُّ به الحَرُّ، والبردُ، مِنَ المساكِنِ، وقيل: وِقاءُ كُلِّ شيءٍ، وسِترُهُ.

قال الطِّيبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان ضَحِكُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تَعَجُّبًا من طَلَبِهِمُ المطرَ اضطِرارًا، ثم طَلَبِهِم الكنَّ عنه فِرارًا، ومِن عظيمِ قدرةِ اللهِ، وإظهارِ قربةِ رسولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصدقِهِ، بإجابةِ دُعائِهِ سريعًا، ولِصِدقِهِ: أتَى بالشَّهادَتَينِ»[٢].

وقال العينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وضَحِكُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ تَعَجُّبًا منهم، حيث اشتكَوا -أوَّلًا- من عَدَمِ المطرِ، فلَمَّا سُقوا: هَرَبوا؛ طالبينَ الكنَّ»[٣].

* وتَبَسَّمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تَعَجُّبًا من قولِ أُمِّ قَيسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لَمَّا تُوُفِّيَ ولَدُها:

عن أبي الحَسَنِ مَولى أُمِّ قَيسٍ بنتِ مِحصَنٍ، عن أُمِّ قَيسٍ[٤] قالت: تُوُفِّيَ ابني، فجَزِعتُ عليه، فقُلتُ للَّذي يُغَسِّلُهُ: لا تُغَسِّلِ ابني بالماءِ البارِدِ، فتَقتُلَهُ.

فانطَلَقَ عُكَّاشَةُ بنُ مِحصَنٍ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخبَرَهُ بقولِها.

فَتبَسَّمَ، ثم قال: «**ما قالت -طالَ عُمرُها-؟**»[٥].

---

(١) رواه أبوداود (١١٧٣)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود.
(٢) عون المعبود (٤/ ٢٧).
(٣) شرح سنن أبي داود (٥/ ٢١).
(٤) أخت عكَّاشة بن محصنٍ.
(٥) استفهامٌ؛ للتعجُّب من قولها.

فَلا نَعلَمُ امرَأةً عُمِّرَت، ما عُمِّرَت[١].

فالنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما حُكيَ له قولُ المرأةِ ضَحِكَ؛ تَعَجُّبًا من قولِها، وإلَّا: فكونُه يُغسِّلُه بماءٍ باردٍ أو حارٍّ، لا يضُرُّ الميِّتَ شيئاً، فتوَهُّمُها أنَّ ولدَها سيُقتَلُ -إذا غُسِّلَ بالماءِ البارِدِ، بعدَ موتِهِ- مَدعاةٌ للعَجَبِ.

* **وضَحِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تَعَجُّبًا من سُرعَةِ تَغَيُّرِ رأيِ أصحابِه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:**

عن عبدِالله بنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: لمَّا حاصَرَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطَّائِفَ، فلَم يَنَل منهم شَيئًا[٢] قال: «**إنَّا قافِلونَ غدًا، إن شاءَ اللهُ**».

فَثَقُلَ عليهم، وقالوا: نَذهَبُ، ولا نَفتَحُهُ؟!

فقال: «**اغدوا على القِتال**».

فَغَدَوا، فأصابَهم جِراحٌ.

فقال: «**إنَّا قافِلونَ غَدًا، إن شاءَ اللهُ**».

فَأعجَبَهم، فضَحِكَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٣].

فَضَحِكَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حيث إنَّهُم امتنعوا مِنَ الرحيلِ أوَّلًا، وانقادوا له ثانيًا؛ لَمَّا أصابتهمُ الجِراحُ، ولم ينالوا مِنَ العَدوِّ شيئًا.

وضَحِك النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -أيضًا- حينَ وافقَهم في ذلك؛ تَعَجُّبًا مِنَ اختلافِ قولِهم، بينَ أمسِ واليومِ؛ للحالَينِ المُختَلِفينِ، ورجوعِهِم إلى الرأيِ السَّديدِ، لكن بعدَ مشَقَّةٍ[٤].

---

(١) رواه النسائي (١٨٨٢)، وأحمد (٢٦٩٩٩)، وقال ابن كثيرٍ في إرشاد الفقيه (١/ ٢٢٢): «إسناده صحيح»، وضعَّفه الألباني؛ لجهالة الراوي عن أمِّ قيسٍ، وهو مولاها، وقال محققو المسند: «إسناده محتملٌ للتَّحسين».

(٢) وكانوا قد أعدُّوا ما يكفيهم لحصار سنةٍ، ورموا المسلمين بسكك الحديد المحماَّة، وبالنبل .

(٣) رواه البخاري (٤٣٢٥) ومسلم (١٧٧٨) .

(٤) إكمال المعلم (٦/ ٦٩).

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « معنى الحديثِ: أَنَّهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَصَدَ الشَّفَقَة على أصحابِه، والرِّفقَ بِهِم، بالرحيلِ عن الطَّائِف؛ لصُعوبَةِ أمرِه، وشِدَّةِ الكُفَّارِ الذينَ فيه وتَقويَتِهِم، على الرغمِ من أَنَّهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِمَ أو رَجا أَنَّهُ سَيَفتَحُهُ بعدَ هَذا، بلا مَشَقَّة كَما جَرَى.

فلمَّا رَأى حِرصَ أصحابِه على المُقامِ والجِهادِ أقامَ، وجَدَّ في القِتال، فلَمَّا أصابَتهمُ الجِراحُ رَجَعَ إلى ما كان قَصَدَهُ -أوَّلًا- مِنَ الرِّفقِ بِهِم، ففَرِحوا بذلك؛ لما رَأوا من المَشَقَّةِ الظَّاهِرَةِ، ولَعَلَّهم نَظَروا، فعَلِموا أنَّ رَأيَ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثرُ بركةً، وأنفَعُ، وأحمَدُ عاقِبَةً، وأقرَبُ إلى الصَّوابِ من رَأيِهِم، فوافَقوا على الرحيلِ، وفَرِحوا، فضَحِكَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تَعَجُّبًا من سُرعَةِ تَغَيُّرِ رَأيِهِم، واللهُ أعلَمُ»[1].

* **وضَحِكَ؛ تَعَجُّبًا من الشَّاةِ، يُقادُ لها يومَ القيامةِ، مِنَ التي نَطَحَتها:**

فعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان جالسًا، وشاتانِ تَقتَرِنانِ[2]، فنَطَحَت إحداهما الأُخرَى، فأجهَضَتها.

فَضَحِكَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَقيل لَهُ: ما يُضحِكُكَ يا رسولَ اللهِ؟

قال: «**عَجِبتُ لها، والذي نَفسي بيَدِهِ، لَيُقادَنَّ لها يومَ القيامَةِ**»[3].

لَيُقادَنَّ: القوَدُ: القِصاصُ مِنَ الجاني.

وفي صحيحِ مسلمٍ: «**لَتُؤَدُّنَّ الحُقوقَ إلى أهلِها يومَ القيامَةِ، حتى يُقادَ للشَّاةِ الجَلحاءِ، من الشَّاةِ القَرناءِ**»[4].

الجَلحاءُ: هيَ الجَمَّاءُ، التي لا قَرنَ لها.

(١) شرح النووي على مسلم (١٢/ ١٢٤).
(٢) تتناطحان.
(٣) رواه أحمد (٢١٥١١)، وحسنه محققو المسند.
(٤) صحيح مسلم (٢٥٨٢).

القَرناءُ: أي: التي لها قَرنٌ.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي هذا تَصريحٌ بحَشرِ البَهائِمِ يومَ القيامَةِ، وإعادَتِها يومَ القيامَةِ، كَما يُعادُ أهلُ التَّكليفِ مِنَ الآدَميِّينَ، وكما يُعادُ الأطفالُ، والمجانينُ، ومَن لم تَبلُغهُ دَعوَةٌ، وعلى هذا تَظاهَرَت دَلائِلُ القُرآنِ والسُّنَّةِ ، كَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]، وإذا ورَدَ لَفظُ الشَّرعِ، ولم يَمنَع من إجرائِهِ على ظاهِرِه عَقلٌ، ولا شَرعٌ، وجَبَ حَملُهُ على ظاهِرِه.

قال العُلَماءُ: وليس من شَرطِ الحَشرِ والإعادَةِ في القيامَةِ: المُجازاةُ، والعِقابُ، والثَّوابُ.

وأمَّا القِصاصُ مِنَ القَرناءِ للجَلحاءِ: فليس هو من قِصاصِ التَّكليفِ؛ إذ لا تَكليفَ عليها، بل هو قِصاصُ مُقابَلَةٍ »(١).

*** وضَحِكَ؛ عَجَبًا من قَومٍ، يُقادونَ إلى الجَنَّةِ بالسَّلاسِلِ:**

عن أبي أُمامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: ضَحِكَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقُلنا: ما يُضحِكُكَ يا رسولَ اللهِ؟

قال: «**عَجِبتُ من قَومٍ، يُقادونَ في السَّلاسِلِ إلى الجَنَّةِ**»(٢).

وعن أبي الطُّفيلِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: ضَحِكَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال: «**ألا تَسألوني مِمَّ ضَحِكتُ؟**»، قالوا: يا رسولَ اللهِ، مِمَّ ضَحِكتَ؟ قال: «**رَأيتُ ناسًا يُساقونَ إلى الجَنَّةِ في السَّلاسِلِ**»، قُلنا: يا رسولَ اللهِ، مَن هم؟ قال: «**قَومٌ مِنَ العَجَمِ، يَسبيهمُ المُهاجِرونَ، فيُدخِلونَهمُ الإسلامَ**»(٣).

والمعنَى: أنَّهم يُؤخَذونَ أُسارَى، قَهرًا وكَرهًا، في السَّلاسِلِ والقُيودِ، فيدخُلونَ

(١) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٣٦).

(٢) رواه أحمد (٢٢١٤٨)، وصححه لغيره محققو المسند.

(٣) رواه البزَّار (٢٧٨٠)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٨٧٤).

في دارِ الإسلامِ، ثم يَرزُقُهمُ اللهُ الإيمانَ، فيَدخُلونَ به الجَنَّةَ[١]، وهذا ما أضحَكَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

* وضَحِكَ؛ عَجَبًا لأمرِ المُؤمِنِ:

عن صُهَيبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بَينا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاعِدٌ مع أصحابِهِ، إذ ضَحِكَ، فقال: «**ألا تَسألوني مِمَّ أضحَكُ؟**».

قالوا: يا رسولَ اللهِ، ومِمَّ تَضحَكُ؟

قال: «**عَجِبتُ لأمرِ المُؤمِنِ؛ إنَّ أمرَهُ كُلَّهُ خيرٌ، إن أصابَهُ ما يُحِبُّ، حَمِدَ اللهَ، وكان له خَيرٌ، وإن أصابَهُ ما يَكرَهُ، فصَبَرَ، كان له خَيرٌ، وليس كُلُّ أحَدٍ أمرُهُ كُلُّهُ له خَيرٌ، إلا المُؤمِنُ**»[٢].

فبيّن لهم رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ ضَحِكَهُ كان تَعَجُّبًا من حال المُؤمِنِ، الذي تِجارَتُهُ -دائِمًا- رابِحَةٌ، وكُلُّ أمرِهِ خيرٌ؛ إذ يصبرُ لَدَى الضَّرَّاءِ، ويشكرُ لَدَى السَّرَّاءِ.

* وضَحِكَ؛ تَعَجُّبًا من قومٍ يَؤُمُّونَ البيتَ، مَصادِرُهم شَتَّى، فيُخسَفُ بِهِم:

عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: بينما رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نائِمٌ، إذ ضَحِكَ في مَنامِهِ، ثم استَيقَظَ.

فَقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، مِمَّ ضَحِكتَ؟

قال: «**إنَّ أُناسًا من أُمَّتي يَؤُمُّونَ هذا البَيتَ، لرَجُلٍ من قُرَيشٍ، قَد استَعاذَ بالحَرَمِ، فلَمَّا بَلَغوا البَيداءَ، خُسِفَ بِهِم، مَصادِرُهم شَتَّى، يَبعَثُهم اللهُ على نيَّاتِهِم**».

قُلتُ: وكَيفَ يَبعَثُهم اللهُ عَزَّ وَجَلَّ على نيَّاتِهِم، ومَصادِرُهم شَتَّى؟

---

(١) مرقاة المفاتيح (٦/ ٢٥٤٦).

(٢) رواه أحمد (٢٣٩٣٠) وصححه محققو المسند، على شرط مسلم.

قال: «**جَمَعَهُمُ الطَّرِيقُ، منهمُ المُستَبصِرُ[١]، وابنُ السَّبيلِ، والمجبورُ، يهلِكون مَهلِكًا واحِدًا، ويَصدُرونَ مَصادِرَ شَتَّى**»[٢].

وهوَ في مُسلِمٍ (٢٨٨٤)، بلفظِ: عَبَثَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مَنامِهِ[٣]، فقُلنا: يا رسولَ اللهِ، صَنَعتَ شَيئًا في مَنامِكَ، لم تكُن تَفعَلُهُ.

فقال: «**العَجَبُ، إنَّ ناسًا من أُمَّتي يَؤُمُّونَ بالبَيتِ، برَجُلٍ من قُرَيشٍ، قَد لَجَأ بالبَيتِ، حتى إذا كانوا بالبَيداءِ، خُسِفَ بِهِم**».

فَقُلنا: يا رسولَ اللهِ، إنَّ الطَّريقَ قَد يَجمَعُ الناسَ.

قال: «**نَعَم، فيهمُ المُستَبصِرُ، والمجبورُ، وابنُ السَّبيلِ، يَهلِكونَ مَهلكًا واحِدًا، ويَصدُرونَ مَصادِرَ شَتَّى، يَبعَثُهم اللهُ على نيَّاتِهِم**».

فيضحَكُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تَعَجُّبًا لسَعَةِ رحمَةِ اللهِ، وعدلِهِ؛ إذِ اطَّلَعَ على نيَّاتِهِم، فمنهمُ المُستَبصِرُ، ومنهم المُكرَهُ، ومنهم عابِرُ السَّبيلِ، فإذا نَزَلَ العذابُ عامَلَهم جميعًا بحَسبِ نيَّاتِهِم، فسبحانَ الملكِ العدلِ السَّميعِ البَصيرِ.

* وضَحِكَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تَعَجُّبًا من هيبَةِ النِّساءِ عمرَ بن الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

عن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «استَأذَنَ عمرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعندَهُ نِسوَةٌ من قُرَيشٍ يَسألنَهُ، ويَستكثِرنَهُ[٤]، عاليَةً أصواتُهُنَّ على صَوتِهِ[٥].

فلمَّا استَأذَنَ عمرُ، تَبادَرنَ الحِجابَ[٦].

---

(١) المستبين لذلك، القاصد له عمدًا.

(٢) رواه أحمد (٢٤٧٣٨)، وصححه محققو المسند.

(٣) معناه: اضطرب بجسمه، وقيل: حرَّك أطرافه، كمن يأخذ شيئًا، ويدفعه.

(٤) يطلبن كثيرًا من كلامه وجوابه، بحوائجهنَّ وفتاويهنَّ.

(٥) يحتمل أن يكون ذلك قبل نزول النَّهي عن رفع الصوت على صوته، أو كان ذلك طبعهنَّ، ويحتمل أن علو أصواتهنَّ إنما كان باجتماعها، لا أن كلام كل واحدة بانفرادها أعلى من صوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ينظر: الفتح (٧/ ٤٧).

(٦) أي: بالانتقال من مكانهنَّ، وإخفاء حالهنَّ وراء السِّتر، فمعنى ابتدارهنَّ الحجاب: اختباؤهنَّ وراء السِّتار عن عمر.

فَأَذِنَ له النبيُّ ﷺ، فدَخَلَ، والنبيُّ ﷺ يَضحَكُ.

فقال: أضحَكَ اللهُ سِنَّكَ يا رسولَ اللهِ، بأبي أنتَ وأُمِّي.

فقال: «**عَجِبتُ من هَؤُلاءِ اللَّاتي كُنَّ عندي، لَمَّا سَمِعنَ صَوتَكَ، تَبادَرنَ الحِجابَ**».

فقال: أنتَ أحَقُّ أن يَهَبنَ يا رسولَ اللهِ.

ثم أقبَلَ عليهِنَّ فقال: يا عَدوَّاتِ أنفُسِهِنَّ! أتَهَبنَني، ولم تَهَبنَ رسولَ اللهِ ﷺ؟! فقُلنَ: إنَّكَ أفَظُّ وأغلَظُ من رسولِ اللهِ ﷺ[1].

قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إيهًا يا ابنَ الخَطَّابِ، والذي نَفسي بيَدِهِ، ما لَقِيَكَ الشَّيطانُ سالكًا فجًّا، إلا سَلَكَ فجًّا غَيرَ فجِّكَ**»[2].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا الحديثُ مَحمولٌ على ظاهِرِه: أنَّ الشَّيطانَ مَتَى رَأى عمرَ سالكًا فجًّا هَرَبَ؛ هَيبَةً من عمرَ، وفارَقَ ذلك الفَجَّ وذَهَبَ في فجٍّ آخَرَ؛ لشِدَّةِ خَوفِه من بَأسِ عمرَ، أن يَفعَلَ فيه شَيئًا»[3].

ومقصودُ النبيِّ ﷺ من هذه الجُملَةِ: أنَّ الشيطانَ يَهابُكَ، فكيفَ لا يهابُكَ هؤلاءِ النِّسوَةُ؟!

* وضَحِكَ ﷺ؛ تَعَجُّبًا مِنِ امرأةِ رفاعَةَ، وتَصريحِها بما تستحيي النِّساءُ من ذِكرِهِ:

فعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: جاءَت امرَأةُ رِفاعَةَ القُرَظيِّ رسولَ اللهِ ﷺ، وأنا جالسَةٌ، وعندَهُ أبو بكرٍ.

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٤٧): «جوَّز بعضهم أن الأفظَّ هنا بمعنى الفظِّ، وفيه نظرٌ؛ للتَّصريح بالتَّرجيح، المقتضي لحمل أفعل على بابه، وكان النبيُّ ﷺ لا يواجه أحدًا بما يكره، إلا في حقٍ من حقوق الله، وكان عمر يبالغ في الزَّجر عن المكروهات مطلقًا، وطلب المندوبات؛ فلهذا قال النِّسوة له ذلك».

(٢) رواه البخاري (٣٦٨٣)، ومسلم (٢٣٩٦).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٥/ ١٦٥).

فقالت: يا رسولَ اللهِ إنِّي كنتُ تحتَ رِفاعَةَ فطَلَّقَني، فبَتَّ طَلاقي، فتزَوَّجتُ بعدَهُ عبدَالرحمَنِ بنَ الزَّبيرِ، وإنَّهُ -واللهِ- ما مَعَهُ يا رسولَ اللهِ إلا مِثلُ هَذِهِ الهُدبَةِ[١].

وأخذَت هُدبَةً من جِلبابِها.

فَسَمِعَ خالدُ بنُ سَعيدٍ قولَها وهو بالبابِ، لم يُؤذَن لَهُ.

فقال خالدٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يا أبا بكرٍ، ألا تَنهَى هَذِهِ عَمَّا تَجهَرُ بِهِ عندَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

فلا واللهِ، ما يَزيدُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على التَّبَسُّمِ.

فقال لها رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَعَلَّكِ تُريدينَ أن تَرجِعي إلى رِفاعَةَ، لا، حتى يَذوقَ عُسَيلَتَكِ، وتَذوقي عُسَيلَتَهُ**»[٢].

قال الحافظُ ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وتَبَسُّمُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان تَعَجُّبًا منها، إمَّا لتَصريحِها بما تَستَحيي النِّساءُ من التَّصريحِ بِهِ -غالبًا-، وإمَّا لضَعفِ عَقلِ النِّساءِ؛ لكَونِ الحامِلِ لها على ذلك: شِدَّة بُغضِها في الزَّوجِ الثاني، ومَحبَّتها في الرُّجوعِ إلى الزَّوجِ الأولِ»[٣].

* وضَحِكَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ من عَجَبِ الربِّ من عبدِهِ، ودُعائِه وحدَهُ؛ ليَغفِرَ ذُنوبَه:

عن عليِّ بنِ رَبيعَةَ، قال: شَهِدتُ عليًّا، أُتيَ بدابَّةٍ ليَركَبَها، فلمَّا وضَعَ رِجلَهُ في الرِّكابِ، قال: بسمِ اللهِ -ثَلاثًا-، فلمَّا استوَى على ظَهرِها، قال: الحَمدُ للهِ.

ثم قال: سُبحانَ الذي سَخَّرَ لَنا هَذا وما كُنَّا له مُقرِنينَ[٤] وإنَّا إلى رَبِّنا لَمُنقَلِبونَ.

ثم قال: الحَمدُ للهِ -ثَلاثًا-، واللهُ أكبَرُ -ثَلاثًا-، سُبحانَكَ إنِّي قَد ظَلَمتُ نَفسي فاغفِر لي؛ فإنَّهُ لا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلا أنتَ، ثم ضَحِكَ.

---

(١) طرف الثوب، وهو كنايةٌ عن الضَّعف الجنسيِّ.

(٢) كنايةٌ عن الجماع، شبَّه لذته بلذَّة العسل، وحلاوته. والحديث رواه البخاري (٥٧٩٢)، مسلم (١٤٣٣).

(٣) فتح الباري (٩/ ٤٦٦).

(٤) مطيقين أي: ما كنَّا نطيق قهره واستعماله؛ لولا تسخير الله تعالى إيَّاه لنا.

قُلتُ: من أيِّ شيءٍ ضَحِكتَ يا أميرَ المُؤمنينَ؟

قال: رَأيتُ رسولَ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ صَنَعَ كَما صَنَعتُ، ثم ضَحِكَ.

فَقُلتُ: من أيِّ شيءٍ ضَحِكتَ يا رسولَ الله؟

قال: «**إنَّ رَبَّكَ لَيَعجَبُ من عبدِهِ إذا قال: رَبِّ اغفِر لي ذُنوبي؛ إنَّهُ لا يَغفِرُ الذُّنوبَ غَيرُكَ**»[١].

وفي رواية: «**يَعلَمُ أنَّهُ لا يَغفِرُ الذُّنوبَ غَيري**»[٢].

فالرسولُ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يضحَكُ؛ تَعَجُّبًا من معرفةِ هذا العبدِ لربِّه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، والتوجُّهِ إليه بالدُّعاءِ، ليغفرَ ذُنوبَه وخطاياهُ.

*** وتَبَسَّمَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ لَمَّا رأى بعضَ أصحابِهِ يتعرّضون له؛ لطلبِ المال:**

عن عَمرِو بنِ عَوفٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بَعَثَ أبا عُبَيدَةَ بنَ الجَرَّاحِ إلى البَحرَينِ[٣]؛ يَأتي بجِزيَتِها.

وكان رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ صالَحَ أهلَ البَحرَينِ، وأمَّرَ عليهمُ العَلاءَ بنَ الحَضرَميِّ.

فَقَدِمَ أبوعبيدةَ بمالٍ مِنَ البَحرَينِ، فسمعتِ الأنصارُ بقُدومِ أبي عُبَيدَةَ، فوافَوا صَلاةَ الفَجرِ مع النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ[٤]، فلمَّا انصَرَفَ تَعَرَّضوا له .

فَتَبَسَّمَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حينَ رَآهم، ثم قال: «**أظُنُّكُم سمعتُم أنَّ أبا عُبَيدَةَ قَدِمَ بشيءٍ**».

قالوا: أجَل يا رسولَ اللهِ.

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٤٦)، وقال: «هذا حديث حسنٌ صحيح»، وصححه الألباني.

(٢) رواه أبوداود (٢٦٠٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٣) البحرين: اسمٌ لجميع البلاد الواقعة بين البصرة، وعمان، كما في معجم البلدان (١/ ٣٤٧).

(٤) يؤخذ منه: أنهم كانوا لا يجتمعون في كلِّ الصلوات في التَّجميع، إلا لأمرٍ يطرأ، وكانوا يصلُّون في مساجدهم، إذ كان لكلِّ قبيلةٍ مسجدٌ يجتمعون فيه، فلأجل ذلك عرف النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنهم اجتمعوا لأمرٍ. الفتح (٦/ ٢٦٣).

قال: «**فَأَبْشِروا، وأَمِّلوا ما يَسُرُّكُم، فواللهِ ما الفَقرَ أَخشَى عليكم، ولكني أخشَى أن تُبسَطَ عليكم الدُّنيا، كما بُسِطَت على مَن كان قبلَكُم، فتَنافَسوها كما تنافَسوها، وتُهلِكَكُم كما أهلَكَتهم، وتُلهيَكُم كما أَلهَتهم**»[١] .

قَولُهُ: «**وَتُهلِكَكُم كما أهلَكَتهم**»: لأنَّ المالَ مَرغوبٌ فيه، فتَرتاحُ النَّفسُ لطَلَبِهِ؛ فتُمنَعُ منه، فتَقَعُ العَداوَةُ، المُقتَضيَةُ للمُقاتَلَةِ، المُفضيَةِ إلى الهَلاكِ.

وتَبَسُّمُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندَ رؤيتِهِم: من حُسنِ خُلُقِه؛ فقد جاءوا يَتَشَوَّقونَ إلى المال، وبعضُ الناسِ إذا رأى أحدًا يَتشوَّقُ لطَلَبِ شيءٍ يشمَئِزُّ، ويعبَسُ وجهُهُ، أمَّا هو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: فجعَلَ يَتَبَسَّمُ[٢] .

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «**فيه**: أنَّ طَلَبَ العَطاءِ من الإمامِ لا غَضاضَةَ فيه، والبُشرَى من الإمامِ لأتباعِهِ، وتَوسيعُ أَمَلِهِم منه، وأنَّ المُنافَسَةَ في الدُّنيا قَد تَجُرُّ إلى هَلاكِ الدِّينِ»[٣] .

* وضَحِكَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مُخاطَبَةِ العبدِ ربَّهُ، وحِلمِ اللهِ عليه:

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كُنَّا عندَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فضَحِكَ.

فقال: «**هَل تَدرونَ مِمَّ أضحَكُ؟**».

قال: قُلنا: اللهُ ورسولُهُ أعلَمُ.

قال: «**مِن مُخاطَبَةِ العبدِ رَبَّهُ، يقولُ: يا رَبِّ أَلَمْ تُجِرني من الظُّلمِ؟**

قال: يقولُ: بَلى.

فيقولُ: فإنِّي لا أُجيزُ على نَفسي إلا شاهِدًا مِنِّي.

فيقولُ: كَفَى بنَفسِكَ اليومَ عليكَ شَهيدًا، وبِالكِرامِ الكاتِبينَ شُهودًا.

---

(١) رواه البخاري (٤٠١٥)، ومسلم (٢٩٦١).

(٢) شرح كتاب الرقاق من صحيح البخاري، لابن عثيمين (١/ ١٩).

(٣) فتح الباري (٩/ ٤٢٦).

فيُختَمُ على فيه، فيُقال لأركانِه[١]: انطِقي.

قال: فتَنطِقُ بأعمالِه.

قال: ثم يُخَلَّى بينهُ وبين الكلامِ.

قال: فيقولُ: بُعدًا لَكُنَّ وسُحقًا، فعنكُنَّ كنتُ أُناضِلُ[٢]»[٣].

* **ومِن أسبابِ ضَحِكِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: رُؤيَتُه ما يُضحِكُ، فَضَحِكَ من فِعلِ سَعدٍ ببَعضِ المُشرِكينَ:**

عن سَعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمَعَ له أبَوَيهِ يومَ أُحُدٍ.

قال: كان رَجُلٌ من المُشرِكينَ قَد أحرَقَ المسلمينَ[٤].

فقال له النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ارمِ، فِداكَ أبي وأُمِّي**».

فنَزَعتُ له بسَهمٍ ليس فيه نَصلٌ[٥]، فأصبتُ جَنبَهُ، فسَقَطَ، فانكَشَفَت عورَتُهُ.

فَضَحِكَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى نَظَرتُ إلى نَواجِذِه[٦].

«**فَضحِكَ**»: أي فرَحًا بقَتلِهِ عَدوَّهُ، لا لانكِشافِهِ[٧]، وذلك لما لَقِيَهُ هذا العَدوُّ من هذه الميتَةِ المُخزيةِ، والنِّهايةِ السَّيِّئَةِ الفاضِحَةِ.

* **وتَبَسَّمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مِزاحِ صُهَيبٍ:**

فعن صُهَيبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قَدِمتُ على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبين يَدَيهِ خُبزٌ وتَمرٌ.

---

(١) أي: لجوارحه.

(٢) أدافع وأجادل.

(٣) رواه مسلم (٢٩٦٩).

(٤) أي: أثخن فيهم، وعمل فيهم نحو عمل النار.

(٥) أي: رميته بسهمٍ، ليس فيه زج .

(٦) رواه مسلم (٢٤١٢).

(٧) شرح النووي على مسلم (١٥/ ١٨٥).

فقال النبيُّ ﷺ: «**ادنُ فكُل**»، فأخَذتُ آكُلُ مِنَ التَّمرِ.

فقال النبيُّ ﷺ: «**تَأكُلُ تمرًا، وبِكَ رَمَدٌ؟**».

فَقُلتُ: إنِّي أمضُغُ من ناحيَةٍ أُخرَى[١].

فتبَسَّمَ رسولُ اللهِ ﷺ[٢].

* وضَحِكَ ﷺ من صَنيعِ أبي بكرٍ مع غُلامِهِ، عندَما أضَلَّ البَعيرَ:

فعن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: خرجنا مع رسولِ اللهِ ﷺ حُجَّاجًا، حتى إذا كُنَّا بالعَرجِ[٣]، نَزَلَ رسولُ اللهِ ﷺ، ونَزَلنا .

فَجَلَسَت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا إلى جَنبِ رسولِ اللهِ ﷺ، وجَلَستُ إلى جَنبِ أبي، وكانت زِمالَةُ أبي بكرٍ وزِمالَةُ رسولِ اللهِ ﷺ واحِدَةً[٤]، مع غُلامٍ لأبي بكرٍ، فجَلَسَ أبو بكرٍ يَنتَظِرُ أن يَطلُعَ عليه، فطَلَعَ وليس مَعَهُ بَعيرُهُ.

قال: أينَ بَعيرُكَ؟

قال: أضلَلتُهُ البارِحَةَ.

فقال أبو بكرٍ: بَعيرٌ واحِدٌ تُضِلُّهُ[٥]؟!

قال: فطَفِقَ يَضرِبُهُ، ورسولُ اللهِ ﷺ يَتبَسَّمُ، ويقولُ: «**انظُروا إلى هذا المُحرِمِ، ما يَصنَعُ!**».

---

(١) أي: آكل على ناحية عيني الصحيحة.

(٢) رواه ابن ماجه (٣٤٤٣)، وحسنه الألباني.

(٣) قريةٌ بين مكَّة، والمدينة.

(٤) تعنى: أن مركوبهما وما كان معهما من أداوت السَّفر كان واحدًا.

(٥) أي: إنها ليست إبلاً كثيرةً، بحيث يشذُّ عنك منها واحدٌ وأنت مشغولٌ عنه، فهو واحدٌ وأنت واحدٌ، فكان اللائق بمثل هذا ألا يفوت منك.

فَما يَزيدُ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أن يقولَ: «**انظُروا إلى هذا المُحرِمِ، ما يَصنَعُ!**» ويَتَبَسَّمُ[١].

* وضَحِكَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من فِطنةِ البَدويِّ، وجوابِهِ:

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يومًا يُحدِّثُ، وعندَهُ رَجُلٌ من أهلِ الباديَةِ: «**أنَّ رَجُلًا من أهلِ الجَنَّةِ، استأذَنَ رَبَّهُ في الزَّرعِ.**

فقال لَهُ: ألَستَ فيما شِئتَ؟

قال: بَلى، ولكني أُحِبُّ أن أزرَعَ.

قال: فبَذَرَ، فبادَرَ الطَّرفَ نَباتُهُ، واستِواؤُهُ، واستِحصادُهُ[٢]، فكان أمثالَ الجِبال.

فيقولُ اللهُ: دونَكَ يا ابنَ آدَمَ؛ فإنَّهُ لا يُشبِعُكَ شيءٌ».

فقال الأعرابيُّ: واللهِ لا تَجِدُهُ إلا قُرَشيًّا، أو أنصاريًّا، فإنَّهم أصحابُ زَرعٍ، وأمَّا نَحنُ: فلَسنا بأصحابِ زَرعٍ.

فَضَحِكَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٣].

أي: من فطانَةِ البَدويِّ، وجوابِهِ البَديعِ[٤].

قال ابنُ بطالٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دلَّ ضَحِكُهُ على إصابَةِ الأعرابيِّ للحَقِّ في استدلالِه، ففي ذلك مِنَ الفِقهِ: أنَّهُ مَن لَزِمَ طريقةً وحالةً، من خَيرٍ أو شَرٍّ، أنَّه يجوزُ وصفُه بها، ولا حَرَجَ على واصِفِهِ بالشَّرِّ، إن لَزِمَ طَريقَتَهُ»[٥].

---

(١) رواه أبوداود (١٨١٨)، وابن ماجه (٢٩٣٣)، وحسنه الألباني.

(٢) والمعنى: أنه لَّما بذر، لم يكن بين ذلك، وبين استواء الزَّرع، ونجاز أمره كلِّه، من القلع والحصد والتذرية والجمع، إلا قدر لمحة البصر.

(٣) رواه البخاري (٢٣٤٨).

(٤) مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٦٠٠).

(٥) شرح ابن بطَّالٍ (٦/ ٤٨٩).

وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يضحَكُ؛ لسَماعِهِ ما يُضحِكُ:

*** كما تبَسَّمَ من قولِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَهُ، بعدَما هَجَرَ نِساءَهُ:**

فعن عبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أنّه قال لعمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يا أميرَ المُؤمِنينَ، مَنِ المرأتانِ من أزواجِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّتانِ قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤].

فقال: واعَجَبي لك يا ابنَ عبَّاسٍ: عائشةُ وحَفصَةُ.

ثم استَقبَلَ عمرُ الحديثَ يَسوقُهُ...

ثمّ ساقَ الحديثَ، إلى أن قال:

فَدَخَلتُ، فسَلَّمتُ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا هو مُتَّكِئٌ على رمالِ حَصيرٍ(١) قَد أثَّرَ في جَنبِهِ، مُتَّكِئٌ على وِسادَةٍ من أدَمٍ، حَشوُها ليفٌ.

فَسَلَّمتُ عليه، ثم قُلتُ -وَأنا قائِمٌ-: طَلَّقتَ نِساءَكَ؟

فَرَفَعَ رَأسَهُ إلَيَّ وقال: «لا».

فَقُلتُ: اللهُ أكبَرُ.

ثم قُلتُ -وَأنا قائِمٌ -أستَأنِسُ(٢)-: لَو رَأيتَنا يا رسولَ اللهِ، وكُنَّا مَعشَرَ قُرَيشٍ قَومًا نَغلِبُ النِّساءَ، فلَمَّا قَدِمنا المدينَةَ وجَدنا قَومًا تَغلِبُهم نِساؤُهم، فطَفِقَ نِساؤُنا يَتَعَلَّمنَ من نِسائِهِم، فتَغَضَّبتُ على امرَأتي يومًا، فإذا هيَ تُراجِعُني، فأنكَرتُ أن تُراجِعَني.

فقالت: ما تُنكِرُ أن أُراجِعَكَ؟ فواللهِ إنَّ أزواجَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيُراجِعنَهُ، وتَهجُرُهُ إحداهُنَّ اليومَ إلى اللَّيلِ.

---

(١) المراد هنا: أن سريره كان مرمولاً، أي: منسوجًا.

(٢) أي: أقول قولاً أستكشف به: هل ينبسط لي، أم لا؟

فَقُلتُ: قَد خابَ مَن فعَلَ ذلك منهنَّ وخَسِرَ، أفتَأمَنُ إحداهُنَّ أن يَغضَبَ اللهُ عليها، لغَضَبِ رسولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا هيَ قَد هَلَكَت؟

فتبَسَّمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم قُلتُ: لَو رَأيتَني، ودَخَلتُ على حَفصَةَ، فقُلتُ: لا يَغُرَّنَّكِ أن كانت جارَتُكِ هيَ أوضَأ[1] مِنكِ، وأحَبَّ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنكِ.

فتَبَسَّمَ أُخرَى.

فَجَلَستُ حينَ رَأيتُهُ تبَسَّمَ.

فَقُلتُ: أستَأنِسُ يا رسولَ اللهِ؟

قال نعم.

فَلَم أزَل أُحَدِّثُهُ، حتى تَحَسَّرَ الغَضَبُ عن وجهِهِ، وحَتَّى كَشَّرَ، فضَحِكَ، وكان من أحسَنِ الناسِ ثَغرًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَجَلَستُ، فرَفَعتُ رَأسي في البَيتِ، فواللهِ ما رَأيتُ فيه شَيئًا يَرُدُّ البَصَرَ، إلا أُهُبًا ثَلاثَةً[2].

فَقُلتُ: ادعُ اللهَ يا رسولَ اللهِ أن يوَسِّعَ على أُمَّتِكَ؛ فقَد وسَّعَ على فارِسَ والرُّومِ، وهم لا يَعبُدونَ اللهَ.

فاستَوَى جالسًا، ثم قال: «**أفي شَكٍّ أنتَ يا ابنَ الخَطَّابِ؟ أولَئِكَ قَومٌ عُجِّلَت لهم طَيِّباتُهم في الحَياةِ الدُّنيا**».

فَقُلتُ: استَغفِر لي يا رسولَ اللهِ.

وكان أقسَمَ أن لا يَدخُلَ عليهنَّ شَهرًا؛ من شِدَّةِ مَوجِدَتِهِ عليهنَّ، حتى عاتَبَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ[3].

---

(١) أجمل.

(٢) جمع إهاب، وهو: الجلد قبل الدِّباغ.

(٣) رواه البخاري (٢٤٦٨)، (٥١٩١)، ومسلم (١٤٧٩).

وفي هذا الحديثِ:

أنَّ المرءَ إذا رَأى صاحِبَهُ مَهمومًا، استُحِبَّ له أن يُحَدِّثَهُ بما يُزيلُ هَمَّهُ، ويُطَيِّبُ نَفسَهُ[1].

*** وضَحِكَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تَمَرُّغِ عَمَّارٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الصَّعيدِ، عندَما لم يجِدِ الماءَ:**

فعن عبدِالرحمَنِ بنِ أبزَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: كُنَّا عندَ عمرَ، فأتاهُ رَجُلٌ، فقال: يا أميرَ المُؤمِنينَ رُبَّما نَمكُثُ الشَّهرَ والشَّهرَينِ، ولا نَجِدُ الماءَ.

فقال عمرُ: أمَّا أنا: فإذا لم أجِدِ الماءَ، لم أكُن لأُصَلِّيَ، حتى أجِدَ الماءَ.

فقال عَمَّارُ بنُ ياسِرٍ: أتَذكُرُ يا أميرَ المُؤمِنينَ حيث كُنتَ بمَكانِ كَذا وكذا، ونَحنُ نَرعَى الإبِلَ، فتَعلَمُ أنَّا أجنَبنا؟

قال: نعم.

قال: أمَّا أنا: فتَمَرَّغتُ في التُّرابِ، فأتَينا النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فضَحِكَ.

فقال: «**إن كان الصَّعيدُ لَكافيكَ**»، وضَرَبَ بكَفَّيهِ إلى الأرضِ، ثم نَفَخَ فيهما، ثم مَسَحَ وجهَهُ وكَفَّيهِ.

فقال: اتَّقِ اللهَ يا عَمَّارُ[2].

فقال: يا أميرَ المُؤمِنينَ، إن شِئتَ لم أذكُرهُ.

قال: لا، ولكن نوَلِّيكَ من ذلك ما تَوَلَّيتَ[3].

*** وضَحِكَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قولِ الأعرابي الذي بالَ في المسجِدِ:**

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: دَخَلَ أعرابيٌّ المسجِدَ، ورسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالسٌ، فقال:

---

(١) فتح الباري (٩/ ٢٩٢).

(٢) معناه: قال عمر لعمَّارٍ: اتَّقِ الله تعالى فيما ترويه، وتثبَّت؛ فلعلَّك نسيت، أو اشتبه عليك الأمر.

(٣) رواه البخاري (٣٤٧)، ومسلم (٣٦٨)، والنسائي (٣١٦).

اللهمَّ اغفِر لي ولِمحمدٍ، ولا تَغفِر لأحَدٍ معنا، فضَحِكَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «**لَقَد احتَظَرتَ واسِعًا**»[١].

ثم ولَّى، حتى إذا كان في ناحيَةِ المسجِدِ، فشَجَ[٢] يبولُ.

فقال: الأعرابيُّ -بَعدَ أن فقِهَ-: فَقامَ إليَّ -بِأبي وأُمِّي-، فلَم يُؤَنِّب، ولم يَسُبَّ، فقال:

«**إنَّ هذا المسجِدَ لا يُبالُ فيه، وإنما بُنيَ لذِكرِ اللهِ، وللصَّلاةِ**»

ثم أمَرَ بسَجلٍ من ماءٍ، فأُفرِغَ على بَولِهِ[٣].

* وضحِكَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حال الرجُلِ الذي واقَعَ أهلَهُ في رَمَضانَ:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: بينما نَحنُ جُلوسٌ عندَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ جاءَهُ رَجُلٌ، فقال: يا رسولَ اللهِ، هَلَكتُ.

قال: «**ما لَكَ؟**».

قال: وقَعتُ على امرَأتي، وأنا صائِمٌ.

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَل تَجِدُ رَقَبَةً تُعتِقُها؟**».

قال: لا.

فقال: «**فهَل تَستَطيعُ أن تَصومَ شَهرَينِ مُتَتابِعَينِ؟**».

قال: لا.

فقال: «**فهَل تَجِدُ إطعامَ سِتِّينَ مِسكينًا؟**».

---

(١) أي: منعت واسعًا، أي: دعوت بمنع من لا منع فيه من رحمة الله ومغفرته. حاشية السِّنديِّ على سنن ابن ماجه (١/ ١٨٩).

(٢) فرق بين رجليه.

(٣) رواه ابن ماجه (٥٢٩)، وأحمد (١٠٥٣٣)، وصححه محققو المسند، وأصله في البخاري (٦٠١٠).

قال: لا.

قال: فمَكَثَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبَينا نَحنُ على ذلك، أُتِيَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعَرَقٍ فيها تمرٌ(١)، فقال: «**أينَ السَّائِلُ؟**»

فقال: أنا.

قال: «**خُذها، فتَصَدَّق بهِ**».

فقال الرجُلُ: أعَلى أفقرَ مِنِّي يا رسولَ اللهِ؟ فواللهِ ما بين لابَتَيها(٢) أهلُ بَيتٍ أفقرُ من أهلِ بَيتي.

فَضَحِكَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى بَدَت أنيابُهُ.

ثم قال: «**أطعِمهُ أهلَكَ**»(٣).

وفي رواية: فضَحِكَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى بَدَت نَواجِذُهُ، قال: «**فَأَنتُم إذًا**»(٤).

أي: فأنتم أحَقُّ حينَئِذٍ.

قيل: إنَّ سببَ ضَحِكِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان من تَبايُنِ حال الرجُلِ، إذ إنَّهُ جاءَ مُتَحَرِّقًا، مُتَلَهِّفًا، خائِفًا على نفسِهِ الهلاكَ، راغِبًا في فِداها، فلمَّا وجَدَ الرُّخصَةَ، طَمِعَ أن يَأكُلَ ما أُعطِيَهُ في الكفَّارَةِ.

وقيل: بل ضَحِكَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حال الرجُلِ في مَقاطِعِ كَلامِهِ، وتَلَطُّفِهِ في الخِطابِ، وحُسنِ تَوَسُّلِهِ في تَوَصُّلِهِ إلى مَقصودِهِ(٥).

---

(١) العرق: المكتل، أو الزِّنبيل، يعمل من سعف النَّخل، وقدَّروها بها يسع خمسة عشر صاعًا.

(٢) يريد: الحرَّتين، واللاَّبة: الحرَّة، وهي الأرض التي تعلوها حجارةٌ سودٌ، والمدينة النبوية بين حرَّتين: شرقيةٍ، وغربيةٍ.

(٣) رواه البخاري (١٩٣٦)، ومسلم (١١١١).

(٤) رواه البخاري (٦٠٨٧).

(٥) عمدة القاري (١١/ ٣٣).

وفي الحديثِ: حُسنُ خُلُقِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكَرَمُ الوِفادَةِ عليه؛ فقَد جاءَهُ هذا الرجُلُ خائِفًا وجِلًا، فراحَ فرِحًا، مَعَهُ ما يُطعِمُ منه أهلَهُ[١].

* وضَحِك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قولِ الرجُلِ المُظاهِرِ، الذي وقَعَ على أهلِهِ قبلَ أن يُكَفِّرَ:

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ رَجُلًا ظاهَرَ مِنِ امرَأتِهِ[٢]، فغَشيَها -وفي رِوايةٍ: فوقَعَ عليها- قبلَ أن يُكفِّرَ.

فأتَى النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذَكَرَ ذلك لَهُ.

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما حَمَلَكَ على ذلك -يَرحَمُكَ اللهُ-؟**».

قال: يا رسولَ اللهِ، رَأيتُ بَياضَ ساقِها في ضَوءِ القَمَرِ، فلَم أملِك نَفسي أن وقَعتُ عليها.

فَضَحِكَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمَرَهُ ألَّا يَقرَبَها حتى يُكَفِّرَ[٣].

ومعنى: «**فَلَم أملِك نَفسي أن وقَعتُ عليها**»: أي: لم أستطِع أن أحبِسَ نَفسي، أو: لم أملِك وُقوعَ نَفسي عليها[٤].

فضَحِكَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تَعَجُّبًا من فِعلِ هذا الرجُلِ، وتبريرِهِ سبَبَ وقوعِهِ على زوجِهِ قبلَ أن يُكَفِّرَ، بقولِهِ: «رَأيتُ بَياضَ ساقِها في ضَوءِ القَمَرِ».

والحديثُ دَليلٌ على أنَّهُ يَحرُمُ وطءُ الزَّوجَةِ التي ظاهَرَ منها قبل التَّكفيرِ، وهو مُجمَعٌ عليه؛ لقولِهِ تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ [المجادلة: ٤].

* وضَحِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حَلِفِ الرجُلِ على ابنِهِ، أنَّهُ ولَدُهُ:

عن أبي رِمثَةَ قال: انطَلَقتُ أنا وأبي، إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلمَّا كُنَّا في بعضِ الطَّريقِ لَقيناهُ، فقال لي أبي: يا بُنَيَّ، هذا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) تيسير العلاَّم (١/ ٢٩٠).

(٢) قال لها: أنت عليَّ كظهر أمِّي.

(٣) رواه أبوداود (٢٢٢١)، والترمذي (١١٩٩)، وصححه، والنسائي (٣٤٥٧)، وابن ماجه (٢٠٦٥)، وحسنه الألباني، ولفظ الضَّحك لابن ماجه وحده.

(٤) مرقاة المفاتيح (٥/ ٢١٥٥).

قال: وكنتُ أحسَبُ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُشبِهُ الناسَ، فإذا رَجُلٌ له وفرَةٌ[١]، بها رَدعٌ[٢] من حِنَّاءٍ، عليه بُردانِ أخضرَانِ، قال: كَأنيِّ أنظُرُ إلى ساقَيهِ.

قال: فقال لأبي: «**ابنُكَ هذا؟**».

قال: إي ورَبِّ الكعبَةِ.

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حقًّا؟**».

قال: أشهَدُ بِهِ.

فَتبَسَّمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضاحِكًا، من ثَبتِ شَبَهي في أبي، ومِن حَلِفِ أبي عَلَيَّ[٣].

ثم قال: «**صَدَقتَ، أما إنَّكَ لا تَجني عليه، ولا يَجني عليكَ**»[٤].

قال: وتَلا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤][٥].

* **وضحِكَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، حينَ ذَكَرَ قِصَّةَ الرجُلِ الذي يَكونُ آخِرَ أهلِ الجَنَّةِ دُخولًا:**

فعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنِّي لَأعلَمُ آخِرَ أهلِ الجَنَّةِ دُخولًا الجَنَّةَ، وآخِرَ أهلِ النارِ خُروجًا منها، رَجُلٌ يُؤتَى بِهِ يومَ القيامَةِ، فيُقال: اعرِضوا عليه صِغارَ ذُنوبِهِ، وارفَعوا عنه كِبارَها، فتُعرَضُ عليه صِغارُ ذُنوبِهِ، فيُقال: عَمِلتَ يومَ كَذا وكذا: كَذا وكذا، وعَمِلتَ يومَ كَذا وكذا: كَذا وكذا.**

فيقولُ: نعم، لا يَستَطيعُ أن يُنكِرَ، وهو مُشفِقٌ من كِبارِ ذُنوبِهِ أن تُعرَضَ عليه[٦].

---

(١) شعر الرأس إذا وصل إلى شحمة الأذن.

(٢) أثر الطِّيب وغيره، في الثياب والجسد.

(٣) أي: من أجل ثبوت مشابهتي في أبي، بحيث يغني ذلك عن الحلف، ومع ذلك حلف أبي.

(٤) أي: جناية كلٍ منهما قاصرةٌ عليه، لا تتعدَّاه إلى غيره.

(٥) رواه أبوداود (٤٤٩٥)، وصححه الألباني في الإرواء (٧/ ٣٣٣).

(٦) خائفٌ من كبار ذنوبه أن تعرض؛ لأن العذاب المترتِّب عليها أكبر وأكثر.

فيُقال لَهُ: فإنَّ لَكَ مَكان كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً(١).

فيقولُ: رَبِّ، قَد عَمِلتُ أشياءَ، لا أراها هاهُنا».

فَلَقَد رَأيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ، حتى بَدَت نَواجِذُهُ(٢).

قوله: «فيقولُ: رَبِّ، قَد عَمِلتُ أشياءَ، لا أراها هاهُنا».

قال شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيمِيةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا رَأى تَبديلَ السَّيِّئاتِ بالحَسَناتِ، طَلَبَ رُؤيَةَ الذُّنوبِ الكِبارِ، التي كان مُشفِقًا منها أن تَظهَرَ»(٣).

فقَد ضَحِكَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لما رَأى من حِرصِ ابنِ آدمَ؛ فإنَّهُ لَمَّا عُرِضَت عليه ذُنوبُهُ الصغارُ أشفَقَ منها، فلمَّا بُدِّلَت حَسَناتٍ أحَبَّ أن تُبَدَّلَ ذُنوبُه الكِبارُ حَسَناتٍ كَذلك.

وقيل: إنما ضَحِكَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ استِعجابًا وسُرورًا بما رَأى من كَمالِ رَحمَتِه تعالى، ولُطفِه على عبدِه المُذنِبِ، وكَمالِ الرِّضا عَنهُ(٤).

وعن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

«آخِرُ مَن يَدخُلُ الجَنَّةَ رَجُلٌ، فهو يَمشي مَرَّةً، ويَكبو مَرَّةً(٥)، **وتَسفَعُهُ النارُ مَرَّةً**(٦)، **فإذا ما جاوَزَها التَفَتَ إلَيها، فقال: تَبارَكَ الذي نَجَّاني مِنكِ، لَقَد أعطاني اللهُ شَيئًا ما أعطاهُ أحَدًا مِنَ الأولينَ والآخِرينَ، فتُرفَعُ له شَجَرَةٌ، فيقولُ: أي رَبِّ: أدنِني من هَذِهِ الشَّجَرَةِ؛ فلأستَظِلَّ بظِلِّها، وأشرَبَ من مائِها.**

فيقولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: **يا ابنَ آدَمَ: لَعَلِّي إنَّ أعطَيتُكَها، سَألتَني غَيرَها.**

فيقولُ: لا يا رَبِّ، ويُعاهِدُهُ أن لا يَسأَلَهُ غَيرَها، ورَبُّهُ يَعذِرُهُ؛ لأنَّهُ يَرى ما لا صَبرَ له عليه.

---

(١) وقع التبديل له، من باب الفضل من الله .

(٢) رواه مسلم (١٩٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٩٤).

(٤) شرح سنن ابن ماجه للسندي (٢/ ٥٩٤).

(٥) يسقط على وجهه.

(٦) تضرب وجهه، وتسوِّده، وتؤثِّر فيه أثرًا.

فيُدنيهِ منها فيَستَظِلُّ بظِلِّها، ويَشرَبُ من مائِها، ثم تُرفَعُ له شَجَرَةٌ، هيَ أحسَنُ من الأولى.

فيقولُ: **أي رَبِّ: أدنِني من هَذِهِ؛ لأشرَبَ من مائِها، وأستَظِلَّ بظِلِّها، لا أسأَلُكَ غيرَها.**

فيقولُ: **يا ابنَ آدَمَ: ألَمْ تُعاهِدني أن لا تَسألَني غيرَها؟**

فيقولُ: **لَعَلِّي إن أدنيتُكَ منها تَسأَلُني غَيرَها، فيُعاهِدُهُ أن لا يَسأَلَهُ غَيرَها، ورَبُّهُ يَعذِرُهُ؛ لأَنَّهُ يَرَى ما لا صَبرَ له عليه.**

فيُدنيهِ منها، فيَستَظِلُّ بظِلِّها، ويَشرَبُ من مائِها، ثم تُرفَعُ له شَجَرَةٌ عندَ بابِ الجَنَّةِ هيَ أحسَنُ من الأولَيَينِ.

فيقولُ: **أي رَبِّ، أدنِني من هَذِهِ؛ لأستَظِلَّ بظِلِّها، وأشرَبَ من مائِها، لا أسأَلُكَ غَيرَها.**

فيقولُ: **يا ابنَ آدَمَ، ألَمْ تُعاهِدني أن لا تَسأَلَني غَيرَها؟**

قال: **بَلى يا رَبِّ، هَذِهِ لا أسأَلُكَ غَيرَها، ورَبُّهُ يَعذِرُهُ؛ لأَنَّهُ يَرَى ما لا صَبرَ له عليه.**

فيُدنيهِ منها، فإذا أدناهُ منها، فيَسمَعُ أصواتَ أهلِ الجَنَّةِ، فيقولُ: أي رَبِّ، أدخِلنيها.

فيقولُ: **يا ابنَ آدَمَ، ما يَصريني مِنكَ؟[1] أيُرضيكَ أن أُعطيَكَ الدُّنيا، ومِثلَها مَعَها؟**

قال: **يا رَبِّ، أتَستَهزِئُ مِنِّي، وأنتَ رَبُّ العالَمينَ؟».**

فَضَحِكَ ابنُ مَسعودٍ، فقال: ألا تَسألوني مِمَّ أضحَكُ؟

فقالوا: مِمَّ تَضحَكُ؟

قال: هَكَذا ضَحِكَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: مِمَّ تَضحَكُ يا رسولَ اللهِ؟

قال: «**مِن ضَحِكِ رَبِّ العالَمينَ، حينَ قال: أتَستَهزِئُ مِنِّي، وأنتَ رَبُّ العالَمينَ؟ فيقولُ: إنِّي لا أستَهزِئُ مِنكَ، ولكني على ما أشاءُ قادِرٌ**»[2].

---

(١) معناه: ما يقطع مسألتك منِّي؟ قال أهل اللُّغة: الصري: هو القطع، والمعنى: أيُّ شيء يرضيك، ويقطع السُّؤال بيني وبينك؟

الفتح (١/ ١٤٤)، شرح النووي على مسلم (٣/ ٤٣).

(٢) رواه مسلم (١٨٧).

ضَحِكَ رسولُ اللهِ؛ استِعجابًا وسُرورًا بما رأى من كَمالِ رحمةِ اللهِ، وأمَّا ضَحِكُ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فكان اقتداءً برسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لقَولِهِ: «هَكَذا ضَحِكَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتبَسَّمُ، إذا رَأى ما يَسُرُّهُ:

*** فَقَد تبَسَّمَ لعبدِاللهِ بنِ الزبيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَمَّا جاءَ يُبايِعُهُ، وعُمُرُهُ سَبعُ سِنينَ:**

عن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنّها خرجَت حينَ هاجَرَت، وهي حُبلى بعبدِاللهِ بنِ الزبيرِ، فقَدِمَت قُباء، فنُفِسَت بعبدِاللهِ بقُباء.

ثم خرجَت حينَ نُفِسَت إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ليُحَنِّكَهُ.

فَأخَذَهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منها، فوَضَعَهُ في حَجرِهِ، ثم دَعا بتَمرَةٍ.

قالت عائشةُ: فمَكَثنا ساعَةً، نَلتَمِسُها قبلَ أن نَجِدَها، فمَضَغَها، ثم بَصَقَها في فيه، فإنَّ أوَّلَ شيءٍ دَخَلَ بَطنَهُ لَريقُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم قالت أسماءُ: ثم مَسَحَهُ، وصَلَّى عليه[1]، وسَمَّاهُ عبدَاللهِ.

ثم جاءَ وهو ابنُ سَبعِ سِنينَ أو ثَمانٍ؛ ليُبايِعَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمَرَهُ بذلك الزبيرُ، فتبَسَّمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَ رَآهُ مُقبِلًا إليه، ثم بايَعَهُ[2].

*** وضَحِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حال أُمِّ سُلَيمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لَمَّا أخذَت من عَرَقِهِ:**

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اضطَجَعَ على نِطعٍ[3]، فعَرِقَ، فقامَت أُمُّ سُلَيمٍ إلى عَرَقِهِ فنَشَّفَتهُ، فجَعَلَتهُ في قارورَةٍ، فرَآها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**ما هذا الذي تَصنَعينَ يا أُمَّ سُلَيمٍ؟**».

---

(١) فيه: استحباب الدُّعاء للمولود، عند تحنيكه.

(٢) رواه البخاري (٣٩٠٩)، ومسلم (٢١٤٦).

(٣) جلدٌ يؤكل عليه، كالسُّفرة ونحوها.

قالت: أجعَلُ عَرَقَكَ في طيبي.

فَضَحِكَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ[١].

قال النووي رَحِمَهُٱللَّهُ، **عن أُمِّ سُلَيم** رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: «اتَّفَقَ العُلَماءُ على أنَّها كانت مَحرَمًا له صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، واختَلَفوا في كَيفيَّة ذلك، فقال ابنُ عبدِالبَرِّ وغَيرُهُ: كانت إحدَى خالاتِه مِنَ الرضاعَةِ، وقال آخَرونَ: بل كانت خالَةً لأبيهِ، أو لجَدِّهِ؛ لأنَّ عبد المُطَّلِبِ كانت أُمُّهُ من بَني النَّجَّارِ»[٢].

* وضَحِكَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، من فهمِ عَديِّ بنِ حاتِمٍ، لآيةِ الصَّومِ:

قال عَديُّ بنُ حاتِمٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «لَمَّا نَزَلَت هَذِهِ الآيةُ: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧] أخَذتُ عِقالًا[٣] أبيَضَ، وعِقالاً أسوَدَ، فوَضَعتُهما تحتَ وِسادَتي، فنَظَرتُ فلَم أتبَيَّن، فذَكَرتُ ذلك لرسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فضَحِكَ فقال: **«إنَّ وِسادَكَ لَعَريضٌ طَويلٌ**[٤]**، إنما هو اللَّيلُ والنَّهارُ»**[٥].

وكان صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ **ربَّما ضحكَ؛ إقرارًا وتصديقًا لما يَسمَعُ، أو يَرَى:**

* فضَحِكَ؛ إقرارًا لعمرِو بنِ العاصِ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، عِندَما صَلَّى بأصحابِهِ وهو جُنُبٌ مُتَيَمِّمًا؛ خَشيَةً على نَفسِهِ:

فعن عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: احتَلَمتُ في لَيلَةٍ بارِدَةٍ، في غَزوَةِ ذاتِ السَّلاسِلِ[٦]، فأشفَقتُ إنِ اغتَسَلتُ أن أهلِكَ، فتيَمَّمتُ، ثم صَلَّيتُ بأصحابي الصُّبحَ.

---

(١) رواه البخاري (٦٢٨١)، ومسلم (٢٣٣١)، والنسائي (٥٣٧١)، واللفظ له.

(٢) شرح صحيح مسلم (١٣/ ٧٥).

(٣) حبلاً.

(٤) أي: إن نومك إذًا لطويل، كنَّى بالوساد عن النُّوم. التُّوضيح لشرح الجامع الصحيح (١٣/ ١٢٢).

(٥) رواه البخاري (١٩١٦)، ومسلم (١٠٩٠)، وأبوداود (٢٣٤٩)، واللفظ له.

(٦) السلاسل: جمع سلسلةٍ: والمراد بها هنا: ماءٌ بأرض جذامٍ، سمِّيت به غزوة ذات السَّلاسل. قال العينيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: «وهي وراء وادي القرى، بينها وبين المدينة عشرةُ أيَّامٍ، وكانت تلك الغزوة في جمادى الأولى سنة ثمانٍ من الهجرة» عمدة القاري (٤/ ٣٤).

فَذَكَروا ذلك للنَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال: «**يا عَمرو: صَلَّيتَ بأصحابِكَ وأنتَ جُنُبٌ؟**».

فَأخبَرتُهُ بالذي مَنَعَني مِنَ الاغتِسال[١]، وقُلتُ: إنِّي سمعتُ اللهَ يقولُ: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا**﴾ [النساء: ٢٩].

فَضَحِكَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يَقُل شَيئًا[٢].

فَأقرَّهُ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك، ولم يَأمُرهُ بالإعادَةِ.

فَصلَواتُ اللهِ وسَلامُهُ على مَن أرسَلَهُ رَحمَةً للعالَمينَ، حتى جَعَلَ في ضَحِكِهِ وسُكوتِهِ، ما تَحصُلُ بِهِ الرُّخصَةُ، وتَقَعُ بِهِ الرحمَةُ.

* وضَحِكَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إقرارًا لقولِ أبي بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

عن أبي قَتادَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: خرجنا مع النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عامَ حُنَينٍ[٣]، فلمَّا التَقَينا، كانت للمُسلِمينَ جَولَةٌ، فرَأيتُ رَجُلًا مِنَ المُشرِكينَ قَد عَلا رَجُلًا مِنَ المسلمينَ، فضَرَبتُهُ من ورائِهِ على حَبلِ عاتِقِهِ[٤] بالسَّيفِ، فقَطَعتُ الدِّرعَ[٥]، وأقبَلَ عَلَيَّ، فضَمَّني ضَمَّةً وجَدتُ منها ريحَ الموتِ، ثم أدرَكَهُ الموتُ، فأرسَلَني.

فَلَحِقتُ عمرَ بنَ الخَطَّابِ، فقُلتُ: ما بالُ الناسِ؟ قال: أمرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

ثم رَجَعوا، وجَلَسَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**مَن قَتَلَ قَتيلًا، له عليه بَيِّنَةٌ، فلَهُ سَلَبُهُ**»[٦]

فَقُلتُ: مَن يَشهَدُ لي؟ فلَم أرَ أحَدًا يَشهَدُ لي، ثم جَلَستُ.

---

(١) وهو: شدَّة البرد.

(٢) رواه أبوداود (٣٣٤)، وأحمد (١٧٨١٢)، وصححه محققو المسند.

(٣) وقد جاءت هوازن يوم حنين بالصِّبيان، والنِّساء، والإبل، والنَّعم، فجعلوهم صفوفًا.

(٤) حبل العاتق: عصبه، والعاتق: موضع الرِّداء من المنكب.

(٥) أي: التي كان لابسها، وخلصت الضرَّبة إلى يده، فقطعتها.

(٦) السَّلب: ما يكون على المقاتل، ومعه، من سلاحٍ، وثيابٍ، ودابةٍ، ونحو ذلك.

ثم قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثلَهُ، فقُمتُ، فقُلتُ: مَن يَشهَدُ لي؟ ثم جَلَستُ.

ثم قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثلَهُ، فقُمتُ.

فقال: «**ما لَكَ يا أبا قَتادَةَ؟**».

فَأخبَرتُهُ، فقال رَجُلٌ: صَدَقَ، وسَلَبُهُ عندي، فأرضِهِ مِنِّي.

فقال أبو بكرٍ: «لاها اللهِ إذًا[١]، لا يَعمِدُ إلى أسَدٍ من أُسدِ اللهِ، يُقاتِلُ عن اللهِ ورسولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيُعطيكَ سَلَبَهُ».

فقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَدَقَ، فأعطِهِ**».

فَأعطانيهِ[٢].

ورَواهُ أحمدُ مِن حديثِ أنسٍ، وفيه: فقال عمرُ: لا واللهِ لا يُفيئُها اللهُ على أسَدٍ من أُسدِهِ، ويُعطيكَها، فضَحِكَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «**صَدَقَ عمر**»[٣].

* وضَحِكَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ تصديقًا لقَولِ أحَدِ الأحبارِ:

فعن عبدِاللهِ بن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: جاءَ حَبرٌ من الأحبارِ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا أبا القاسِمِ: إنَّا نَجِدُ أنَّ اللهَ يَجعَلُ السَّمَواتِ على إصبَعٍ، والأَرَضينَ على إصبَعٍ، والشَّجَرَ على إصبَعٍ، والماءَ والثَّرَى[٤] على إصبَعٍ، وسائِرَ الخَلائِقِ على إصبَعٍ.

فيقولُ: أنا الملِكُ.

فَضَحِكَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **حتى بَدَت نَواجِذُهُ**؛ تَصديقًا لقولِ الحَبرِ، ثم قَرَأ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]»[٥].

---

(١) ها: للتَّنبيه، والتقدير: لا والله حينئذٍ.

(٢) رواه البخاري (٣١٤٢، ٤٣٢١)، ومسلم (١٧٥١).

(٣) رواه أحمد (١٢٩٧٧)، وقال محققو المسند: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

(٤) التُّراب.

(٥) رواه البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦).

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تكونُ الأرضُ يومَ القيامَةِ خُبزَةً واحِدَةً، يتكَفَّؤُها**(١) **الجَبَّارُ بيَدِهِ، كما يكفأُ أحَدُكُم خُبزَتَهُ في السَّفَر**(٢)**؛ نُزُلًا لأهلِ الجَنَّةِ**(٣)».

فَأتَى رَجُلٌ من اليَهودِ فقال: بارَكَ الرحمَنُ عليكَ يا أبا القاسِمِ، ألا أُخبِرُكَ بنُزُلِ أهلِ الجَنَّةِ يومَ القيامَةِ؟ قال: «**بلى**».

قال: تكونُ الأرضُ خُبزَةً واحِدَةً، كما قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَنظَرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَينا، ثم ضَحِكَ، حتى بَدَت نَواجِذُهُ.

ثم قال: ألا أُخبِرُكَ بإدامِهِم(٤)؟

قال: إدامُهم: بالامٌ ونونٌ(٥).

قالوا: وما هَذا؟ قال: ثَورٌ ونونٌ، يَأكُلُ من زائِدَةِ كَبِدِهِما سَبعونَ ألفًا(٦).

و**معنى الحديثِ**: أنَّ اللهَ تعالى يَجعَلُ الأرضَ كالرغيفِ العَظيمِ، ويكونُ ذلك طعامًا؛ نُزُلًا لأهلِ الجَنَّةِ، واللهُ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ(٧).

فضَحِكَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فرَحًا للمُطابَقَةِ والموافَقَةِ(٨).

* وضَحِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إقرارًا لصَنيعِ أبي سَعيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حينَ رَقَى اللَّديغَ:

فعن أبي سَعيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: انطَلَقَ نَفَرٌ من أصحابِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سَفرَةٍ سافَروها، حتى نَزَلوا على حَيٍّ من أحياءِ العَرَبِ، فاستَضافوهم، فأبَوا أن يُضَيِّفوهم.

---

(١) يتكفَّؤها: يقلَّبها، ويميلها من يدٍ إلى يدٍ.

(٢) أراد: أنها كخبزة المسافر، التي يجعلها في الرماد الحارِّ، يقلِّبها من يدٍ إلى يدٍ، حتى تستوي؛ لأنها ليست منبسطةً كالرُّقاقة ونحوها.

(٣) النزل: ما يعد للضَّيف عند نزوله.

(٤) أي: ما يؤكل به الخبز.

(٥) بالامٌ: لفظة عبرانيَّة معناها: ثورٌ، والنُّون: الحوت.

(٦) رواه البخاري (٦٥٢٠)، ومسلم (٢٧٩٢)، وزائدة الكبد: القطعة المنفردة المتعلِّقة في الكبد، وهي أطيبها.

(٧) شرح مسلم للنوويِّ (١٧/ ١٣٥).

(٨) مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٥١٢).

فَلُدِغَ سَيِّدُ ذلك الحَيِّ، فسَعَوا له بكُلِّ شيءٍ، فلَم يَنفَعهُ شيءٌ[١].

فقال بعضُهم: لَو أتَيتُم هَؤُلاءِ الرهطَ الذينَ نَزَلوا، لَعَلَّهُ أن يكونَ عندَ بعضِهِم شيءٌ.

فَأتَوهم، فقالوا: يا أيُّها الرهطُ، إنَّ سَيِّدَنا لُدِغَ، وسَعَينا له بكُلِّ شيءٍ، فهَل عندَ أحَدٍ مِنكُم من شيءٍ؟

فقال بعضُهم: نعم، واللهِ إنِّي لَأرقي[٢]، ولكن -واللهِ- لَقَد استَضَفناكُم، فلَم تُضَيِّفونا، فما أنا براقٍ لَكُم حتى تَجعَلوا لَنا جُعلًا.

فَصالَحوهم على قَطيعٍ من الغَنَمِ[٣]، فانطَلَقَ يَتفُلُ عليه، ويَقرَأُ: الحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ[٤].

فَكَأنَّما نُشِطَ من عِقال[٥]، فانطَلَقَ يَمشي، وما بهِ قَلَبَةٌ[٦].

قال: فأوفَوهم جُعلَهم الذي صالَحوهم عليه.

فقال بعضُهم: اقسِموا.

فقال الذي رَقَى: لا تَفعَلوا حتى نَأتيَ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنَذكُرَ له الذي كان، فنَنظُرَ ما يَأمُرُنا.

فقَدِموا على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذَكَروا لَهُ.

فَضَحِكَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «**وَما يُدريكَ أنَّها رُقيَةٌ؟**».

ثم قال: «**قَد أصَبتُم، اقسِموا، واضرِبوا لي مَعَكُم سَهمًا**»[٧].

فأقَرَّهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على صَنيعِهِم بضَحِكِهِ، وطَيَّبَ خاطِرَهم بقَولِهِ: «**واضرِبوا لي**

---

(١) أي: ممَّا جرت به العادة أن يتداوى به من لدغة العقرب.

(٢) في روايةٍ: أن الذي قال ذلك هو أبو سعيد، راوي الخبر.

(٣) القطيع: هو الطَّائفة من الغنم، وفي رواية: «فقالوا: إنا نعطيكم ثلاثين شاةً».

(٤) التفل: نفخٌ معه قليل بزاقٍ، وقال ابن أبي جمرة: «محلُّ التَّفل في الرُّقية يكون بعد القراءة؛ لتحصيل بركة القراءة في الجوارح التي يمر عليها الرِّيق، فتحصل البركة في الرِّيق الذي يتفله». فتح الباري (٤/ ٤٥٦).

(٥) الحبل الذي يشد به ذراع البهيمة.

(٦) أي: علَّةٌ.

(٧) رواه البخاري (٢٢٧٦، ٥٧٣٦، ٥٧٤٩)، ومسلم (٢٢٠١).

مَعَكُم سَهمًا»؛ لأنَّهم أخَّروا تَقسيمَ الجُعلِ، حتى يَسألوا النبيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا من حُسنِ إسلامِهم، وتَمامِ دينِهم.

*** وضَحِكَ في وجهِ زَيدِ بنِ أرقَمَ، فقال: «ما كان يَسُرُّني أنَّ لي بها الخُلدَ في الدُّنيا»:**

فعن زَيدِ بنِ أرقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: غَزَونا مع رسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان معنا أُناسٌ من الأعرابِ، فكُنَّا نَبتَدِرُ الماءَ[١]، وكان الأعرابُ يَسبِقونَنا إليه، فسَبَقَ أعرابيٌّ أصحابَهُ يَملأُ الحَوضَ، ويَجعَلُ حَولَهُ حِجارَةً، وجعَلَ النِّطعَ[٢] عليه، حتى يَجيءَ أصحابُهُ.

قال: فأتَى رَجُلٌ من الأنصارِ أعرابيًّا، فأرخَى زِمامَ ناقَتِهِ؛ لتَشرَبَ، فأبَى أن يَدَعَهُ، فانتَزَعَ قِباضَ الماءِ[٣]، فرَفَعَ الأعرابيُّ خَشَبَتَهُ، فضَرَبَ بها رَأسَ الأنصاريِّ، فشَجَّهُ[٤].

فَأتَى[٥] عبدَاللهِ بنَ أُبَيٍّ، رَأسَ المُنافِقِينَ، فأخبَرَهُ، وكان من أصحابِهِ، فغَضِبَ عبدُاللهِ بنُ أُبَيٍّ، ثم قال: لا تُنفِقوا على مَن عندَ رسولِ اللهِ حتى يَنفَضُّوا من حَولِهِ -يعني: الأعرابَ-، وكانوا يَحضُرونَ رسولَ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندَ الطَّعامِ.

فقال عبدُاللهِ: إذا انفَضُّوا من عندِ محمدٍ، فأتوا محمدًا بالطَّعامِ؛ فليَأكُل هو ومَن عندَهُ.

ثم قال لأصحابِهِ: لَئِن رَجَعنا إلى المدينَةِ، لَيُخرِجَنَّ الأعَزُّ منها الأذَلَّ.

قال زَيدٌ: وأنا رِدفُ[٦] رسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسمعتُ عبدَاللهِ بنَ أُبَيٍّ[٧]، فأخبَرتُ عَمِّي.

فانطَلَقَ، فأخبَرَ رسولَ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأرسَلَ إليه رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحَلَفَ، وجَحَدَ، قال: فصَدَّقَهُ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكَذَّبَني.

---

(١) نسارع إليه.

(٢) بساطٌ من الجلد.

(٣) ما يمسك الماء ويقبضه من حجارةٍ وغيرها.

(٤) الشَّجُّ: ضرب الرأس خاصةً، وجرحها، وشقُّها.

(٥) أي: الأنصاريُّ المشجوج.

(٦) الردف: الراكب خلف الراكب.

(٧) أي: سمعت مقالته المذكورة.

قال: فجاءَ عَمِّي إليَّ، فقال: ما أَردتَ إلا أن مَقَتَكَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكَذَّبَكَ، هو والمسلمونَ.

قال: فوَقَعَ عَلَيَّ من الهَمِّ ما لم يَقَع على أحَدٍ.

قال: فبينما أنا أسيرُ مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سَفَرٍ، قَد خَفَقتُ برَأسي من الهَمِّ، إذ أتاني رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعَرَكَ أُذُني(١)، وضَحِكَ في وجهي، فما كان يَسرُّني أنَّ لي بها الخُلدَ في الدُّنيا.

ثم إنَّ أبا بكرٍ لَحِقَني، فقال: ما قال لَكَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

قُلتُ: ما قال لي شَيئًا، إلا أنَّهُ عَرَكَ أُذُني، وضَحِكَ في وجهي، فقال: أبشِر.

ثم لَحِقَني عمرُ، فقُلتُ له مِثلَ قولي لأبي بكرٍ.

فلمَّا أصبَحنا، قَرَأ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سورَةَ المُنافِقينَ(٢).

فكان ضَحِكُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وجهِ أصحابِهِ في وقتِ الكربِ والهَمِّ، لا تَعدِلُهُ الدُّنيا، لَو وُزِنَت بهِ.

❋ وضَحِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عندَما رأى ما سَيَؤولُ إليهِ أمرُ أُمَّتِهِ، مِن بَعدِهِ:

فعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدخُلُ على أُمِّ حَرامٍ بنتِ مِلحانَ فتُطعِمُهُ، وكانت أُمُّ حَرامٍ تحتَ عُبادَةَ بنِ الصَّامِتِ.

فَدَخَلَ عليها رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأطعَمَتهُ، فنامَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم استَيقَظَ، وهو يَضحَكُ.

قالت: فقُلتُ: وما يُضحِكُكَ يا رسولَ اللهِ؟

---

(١) أي: دلكها.

(٢) رواه الترمذي (٣٣١٣)، وقال: «هذا حديث حسنٌ»، وقال الألباني: «صحيح الإسناد».

قال: «**ناسٌ من أُمَّتي، عُرِضوا عَلَيَّ، غُزاةً في سَبيلِ اللهِ، يَركَبونَ ثَبَجَ هذا البَحرِ**[١]، **مُلوكًا على الأسِرَّةِ**»، أو: «**مِثلَ المُلوكِ على الأسِرَّةِ**»[٢].

فَقُلتُ يا رسولَ اللهِ: ادعُ اللهَ أن يَجعَلَني منهم.

فَدَعا لها رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم وضَعَ رَأسَهُ، ثم استَيقَظَ، وهو يَضحَكُ.

فَقُلتُ: وما يُضحِكُكَ يا رسولَ اللهِ؟

قال: «**ناسٌ من أُمَّتي، عُرِضوا عَلَيَّ، غُزاةً في سَبيلِ اللهِ**» كَما قال في الأولِ.

فَقُلتُ يا رسولَ اللهِ: ادعُ اللهَ أن يَجعَلَني منهم.

قال: «**أنتِ من الأولينَ**».

فَخرجَت مع زَوجِها عُبادَةَ بنِ الصَّامِتِ غازيًا أوَّلَ ما رَكِبَ المسلمونَ البَحرَ مع مُعاويَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]، فلمَّا انصَرفوا من غَزوِهِم قافِلِينَ، فنَزَلوا الشَّأمَ، فقُرِّبَت إلَيها دابَّةٌ؛ لتَركَبَها، فصَرَعَتها، فماتَت[٤].

وأمُّ حَرامٍ -هذِهِ- هي: أُختُ أُمِّ سُلَيمٍ، وهما من مَحارِمِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما سَبَقَ.

وهذا الضَّحِكُ منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فرَحًا وسرورًا بكَونِ أُمَّتِهِ تبقَى بعدَهُ، مُتظاهِرَةً بأُمورِ الإسلامِ، قائِمَةً بالجِهادِ، حتى في البَحرِ[٥].

وفي الحديثِ:

جَوازُ الفَرَحِ بما يَحدُثُ مِنَ النِّعَمِ، والضَّحِك عندَ حُصولِ السُّرورِ؛ لضَحِكِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إعجابًا بما رَأى مِنِ امتِثال أُمَّتِهِ أمرَهُ لهم بجِهادِ العَدوِّ، وما أثابَهم اللهُ تعالى على ذلك[٦].

---

(١) ظهره، والمراد: أنهم يركبون السُّفن التي تجري على ظهره.

(٢) أي: يركبون مراكب الملوك؛ لسعة حالهم، واستقامة أمرهم، وكثرة عددهم.

(٣) كان ذلك في سنة ثمانٍ وعشرين، في خلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) رواه البخاري (٢٧٨٨)، ومسلم (١٩١٢).

(٥) شرح النووي على مسلم (١٣/ ٥٨).

(٦) فتح الباري (١١/ ٧٧).

* وضَحِكَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تَعَجُّبًا مِنَ الذي أوصَى بحَرقِ نَفسِهِ؛ خَوفًا مِنَ اللهِ:

عن أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: أصبَحَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاتَ يومٍ، فصَلَّى الغَداةَ، ثم جَلَسَ، حتى إذا كان من الضُّحَى، ضَحِكَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم جَلَسَ مَكانَهُ، حتى صَلَّى الأولى[١] والعَصرَ والمغرِبَ، كُلُّ ذلك لا يَتكَلَّمُ، حتى صَلَّى العِشاءَ الآخِرَةَ، ثم قامَ إلى أهلِهِ.

فقال الناسُ لأبي بكرٍ: ألا تَسألُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما شَأْنُهُ؟ صَنَعَ اليومَ شَيئًا، لم يَصنَعهُ قَطُّ!

قال: فسَأَلَهُ.

فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نَعَم، عُرِضَ عَلَيَّ ما هو كائِنٌ من أمرِ الدُّنيا، وأمرِ الآخِرَةِ، فجُمِعَ الأولونَ والآخِرونَ، بصَعيدٍ واحِدٍ، ففَظِعَ الناسُ بذلك**[٢]... »، وذَكَرَ الحديثَ، وفيه:

«**يقولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أنا أرحَمُ الراحِمينَ، أدخِلوا جَنَّتي مَن كان لا يُشرِكُ بي شَيئًا.**

قال: فيَدخُلونَ الجَنَّةَ.

قال: ثم يقولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: انظُروا في النارِ، هَل تَلقَونَ من أحَدٍ عَمِلَ خَيرًا قَطُّ؟

قال: فيَجِدونَ في النارِ رَجُلًا، فيقولُ لَهُ: هَل عَمِلتَ خَيرًا قَطُّ؟

فيقولُ: لا، غَيرَ أنِّي كنتُ أُسامِحُ الناسَ، في البَيعِ والشِّراءِ.

فيقولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أسمِحوا[٣] **لعبدي، كَإسماحِهِ إلى عَبيدي.**

ثم يُخرِجونَ من النارِ رَجُلًا، فيقولُ لَهُ: هَل عَمِلتَ خَيرًا قَطُّ؟

فيقولُ: لا، غَيرَ أنِّي قَد أمَرتُ ولَدي: إذا مِتُّ، فأحرِقوني بالنارِ، ثم اطحَنوني، حتى إذا

---

(١) يعني: الظُّهر.

(٢) أي: اشتدَّ عليهم وهابوه.

(٣) الإسماح: لغةٌ في السَّماح. يقال سمح وأسمح: إذا جاد وأعطى، عن كرم وسخاء. النهاية (٢/ ٣٩٨)

كنتُ مِثلَ الكُحلِ، فاذهَبوا بي إلى البَحرِ فاذروني[١] في الرِّيحِ، فواللهِ لا يَقدِرُ عَليَّ رَبُّ العالَمِين أبَدًا[٢].

فقال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: لِمَ فعَلتَ ذلك؟

قال: من مَخافَتِك.

قال: فيقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: انظُر إلى مُلكِ أعظَمِ مَلِكٍ؛ فإنَّ لَكَ مِثلَهُ، وعَشرَةَ أمثالِهِ.

قال فيقولُ: لِمَ تَسخَرُ بي[٣]، وأنتَ المِلكُ؟».

قال: «**وَذاكَ الذي ضَحِكتُ منه، مِنَ الضُّحَى**»[٤].

* وضَحِكَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أُناسٍ؛ تَأَلُّفًا لَهم:

قالت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: استَأذَنَ رَجُلٌ على النبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلَمَّا رَآهُ، قال: «**بِئسَ أخو العَشيرَةِ، وبِئسَ ابنُ العَشيرَةِ**».

فلَمَّا جَلَسَ: تَطَلَّقَ النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وجهِهِ، وانبَسَطَ إليه.

فلَمَّا انطَلَقَ الرجُلُ: قالت له عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا رسولَ اللهِ، حينَ رَأيتَ الرجُلَ قُلتَ له كَذا وكذا، ثم تَطَلَّقتَ في وجهِهِ، وانبَسَطتَ إليه؟!

وفي رواية: قالت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فلَم أنشَب أن سمعتُ ضَحِكَ رسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُ.

فلَمَّا خرجَ الرجُلُ قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، قُلتَ فيه ما قُلتَ، ثم لم تَنشَب أن ضَحِكتَ مَعَهُ؟!

---

(١) فرِّقوني، وانثروني.

(٢) لم يقل ذلك؛ تكذيبًا لقدرة الله تعالى، بل لأنه قد لحقه من شدَّة الحال ما غيرَّ عقله، وصيرَّه كالمجنون المبهوت ، فلم يدر ماذا يقول وماذا يفعل.

(٣) يقول ذلك؛ لعدم رؤية نفسه أهلاً لذلك.

(٤) رواه أحمد (١٥)، وابن حبان في صحيحه (٦٤٧٦)، وقال الهيثميُّ في المجمع (١٠/ ٣٧٥): «رجاله ثقاتٌ»، وصححه أحمد شاكر في تحقيقه للمسند، وحسنه الألباني في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (٣٦٤١)، وكذا حسنه محققو المسند، وضعَّفه الدارقطنيُّ في العلل (١/ ١٨٩).

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا عائشةُ، مَتَى عَهِدتِني فحَّاشًا؟ إنَّ شَرَّ الناسِ عندَ اللهِ مَنزِلَةً يومَ القيامَةِ: مَن تَرَكَهُ الناسُ؛ اتِّقاءَ شَرِّهِ**»[١].

وقد ضَحِكَ مَعَهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ على سَبيلِ الاستِئلافِ لَهُ، ودَفعِ مَضَرَّتِهِ[٢].

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «وإنما ألانَ له القولَ؛ تَأَلُّفًا لَهُ ولأمثالِهِ على الإسلامِ، وفي هذا الحديثِ: مُداراةُ مَن يُتَّقَى فُحشُهُ، وجَوازُ غيبَةِ الفاسِقِ، المُعلِنِ فِسقَهُ، ومَن يَحتاجُ الناسُ إلى التَّحذيرِ منه، ولم يَمدَحهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا أثنَى عليه في وجهِهِ، ولا في قَفاهُ، إنما تَأَلَّفهُ بشيءٍ مِنَ الدُّنيا، مع لينِ الكلامِ»[٣].

والمُداري: هو المُجامِلُ، فلا يُضمِرُ الشَّرَّ لأحَدٍ، ولا يَسعَى في إيذاءِ أحَدٍ، في ظاهِرٍ، ولا في باطِنٍ، ولكنهُ قَد يُظهِرُ المحَبَّةَ، والموَدَّةَ، والبِشرَ، وحُسنَ المُعامَلَةِ؛ ليَتَأَلَّفَ قلبَ صاحِبِ الخُلُقِ السَّيِّئِ، أو ليدفَعَ أذاهُ عن نفسِهِ، وعن غَيرِهِ مِنَ الناسِ، ولكن دونَ أن يوافِقَهُ على باطِلِهِ، أو يُعاوِنَهُ عليه بالقولِ، أو بالفِعلِ.

وقد بَوَّبَ البخاري رَحِمَهُ اللهُ: «بابُ المُداراةِ مع الناسِ»، ثم قال: «ويُذكَرُ عن أبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إنَّا لنُكَشِّرُ في وُجوهِ أقوامٍ، وإنَّ قُلوبَنا لَتَلعَنُهم»[٤].

قال ابنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللهُ: «المُداراةُ من أخلاقِ المُؤمِنينَ، وهي خَفضُ الجَناحِ للنَّاسِ، ولينُ الكلِمَةِ، وتَركُ الإغلاظِ لهم في القولِ، وذلك من أقوَى أسبابِ الأُلفَةِ»[٥].

أمَّا المُداهَنَةُ: فمُحَرَّمَةٌ، قال الحافِظُ ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وَظَنَّ بعضُهم أنَّ المُداراةَ هيَ المُداهَنَةُ، فغَلِطَ؛ لأنَّ المُداراةَ مَندوبٌ إلَيها، والمُداهَنَة مُحَرَّمَةٌ.

---

(١) رواه البخاري (٦٠٣٢)، ومسلم (٢٥٩١)، والرواية الثانية رواها الإمام مالك في الموطأ (١٦٠٥)، بسندٍ منقطعٍ.

(٢) المنتقى (٧/ ٢١٢).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٤٤).

(٤) صحيح البخاري (٨/ ٣١)، والكشر: ظهور الأسنان، وأكثر ما يكون عند الضَّحك، وهو المراد هنا.

(٥) شرح صحيح البخاري (٩/ ٣٠٥).

والفَرقُ: أنَّ المُداهَنَةَ مِنَ الدِّهانِ، وهو الذي يَظهَرُ على الشَّيءِ، ويَستُرُ باطِنَهُ، وفَسَّرَها العُلَماءُ بأنَّها: مُعاشَرَةُ الفاسِقِ، وإظهارُ الرِّضا بما هو فيه، من غَيرِ إنكارٍ عليه.

والمُداراةُ، هي: الرِّفقُ بالجاهِلِ في التَّعليمِ، وبِالفاسِقِ في النَّهيِ عن فِعلِهِ، وتَركُ الإغلاظِ عليه، حيث لا يَظهَرُ ما هو فيه، والإنكارُ عليه بلُطفِ القولِ والفِعلِ، ولا سيَّما إذا احتيجَ إلى تَألُّفِه، ونَحو ذلك»[١].

* ورُبّما تبسّمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تَبَسُّمَ المُغضَبِ، عِندَ المُعاتَبَةِ:

فعن عبدِاللهِ بنِ كَعبٍ قال: سمعتُ كَعبَ بنَ مالكٍ يُحَدِّثُ حديثَهُ حينَ تَخَلَّفَ عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غَزوَةِ تَبوكَ ... وساقَ الحديثَ، وفيه: «وَصَبَّحَ[٢] رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قادِمًا، وكان إذا قَدِمَ من سَفَرٍ بَدَأَ بالمسجِدِ، فرَكَعَ فيه رَكعَتَينِ، ثم جَلَسَ للنَّاسِ، فلَمَّا فعَلَ ذلك جاءَهُ المُخَلَّفونَ، فطَفِقوا[٣] يَعتَذِرونَ إليه، ويَحلِفونَ لَهُ، وكانوا بضعًا وثَمانِينَ رَجُلاً، فقَبِلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلانيَتَهم، وبايَعَهم، واستَغفَرَ لَهم، ووَكَلَ سَرائِرَهم إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

حَتَّى جِئتُ، فلَمَّا سَلَّمتُ: تَبَسَّمَ، تَبَسُّمَ المُغضَبِ.

ثم قال: «**تَعالَ**».

فَجِئتُ، حتى جَلَستُ بين يَدَيهِ، فقال لي: «**ما خَلَّفَكَ؟ ألَم تَكُن ابتَعتَ ظَهرَكَ؟**»[٤]

وذَكَرَ الحديثَ[٥].

فالنبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَبَسَّمَ لكَعبِ بنِ مالكٍ تبسّمَ المُغضَبِ، المُعاتِبِ لصاحِبِهِ، المُؤَنِّبِ لصَديقِهِ، ولم يفعل ذلك مع أحدٍ مِن أولئكَ النفَرِ منَ المنافقينَ.

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٥٢٨).

(٢) نزل صباحًا.

(٣) بدؤوا، وشرعوا.

(٤) ابتعت ظهرك، أي: اشتريت مركبك.

(٥) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

وعندَ **ابنِ عائِذٍ في المغازي**: فأعرَضَ عَنهُ، فقال: «يا نَبيَّ اللهِ، لِمَ تُعرِضُ عَنِّي؟ فواللهِ ما نافَقتُ، ولا ارتَبتُ، ولا بَدَّلتُ»(١).

وهذا من حُسنِ تَربيَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابِهِ، بمُؤاخذتِهم، بالإعراضِ عَنهم، وإظهارِ الغَضَبِ لما فعلوهُ، مِمَّا استَوجَبَ العَتبَ عليهم.

* وتَبَسَّمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إيناسًا لأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قال: واللهِ الذي لا إلَهَ إلا هوَ إن كنتُ لَأعتَمِدُ بكَبِدي على الأرضِ مِنَ الجوعِ، وإن كنتُ لَأشُدُّ الحجرَ على بَطني مِنَ الجوعِ(٢).

وذكرَ الحديثَ، وفيه: فمَشَيتُ غَيرَ بَعيدٍ، فخَرَرتُ لوَجهي من الجَهدِ والجوعِ، فإذا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائِمٌ على رَأسي، فتبَسَّمَ حينَ رَآني، فأخَذَ بيَدي، فأقامَني، وعَرَفَ ما في نَفسي وما في وجهي.

ثم قال: «**يا أبا هِرٍّ**».

قُلتُ: لَبَّيكَ يا رسولَ اللهِ.

قال: «**الحَق**».

ومَضَى، فتَبِعتُهُ، فدَخَلَ مَنزِلَهُ، فاستَأذَنتُ، فأذِنَ لي، فوَجَدَ قَدَحًا من لَبَنٍ، فقال: من أينَ هذا اللَّبَنُ؟

قالوا: أهداهُ لَكَ فُلانٌ، أو فُلانَةُ.

قال: «**أبا هِرٍّ**».

---

(١) فتح الباري (٨/ ١١٩).

(٢) قال العلماء: فائدة شدِّ الحجر: المساعدة على الاعتدال والانتصاب، أو المنع من كثرة التَّحلُّل من الغذاء الذي في البطن؛ لكون الحجر بقدر البطن، فيكون الضَّعف أقلَّ، أو لتقليل حرارة الجوع، ببرد الحجر. الفتح (١١/ ٢٨٤).

قُلتُ: لَبَّيكَ يا رسولَ اللهِ.

قال: «**الحَق إلى أهلِ الصُّفَّةِ، فادعُهم لي**»[١].

إلى أن قال:

فَأخَذَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القَدَحَ، فوَضَعَهُ على يَدِهِ، فنَظَرَ إلَيَّ، فتبَسَّمَ فقال: «**أبا هِرٍّ**».

قُلتُ: لَبَّيكَ يا رسولَ اللهِ.

قال: «**بَقيتُ أنا وأنتَ**».

قُلتُ: صَدَقتَ يا رسولَ اللهِ

قال: «**اقعُد، فاشرَب**».

فَقَعَدتُ، فشَرِبتُ.

فقال: «**اشرَب**».

فَشَرِبتُ، فما زالَ يقولُ: «**اشرَب**» حتى قُلتُ: لا والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ، ما أجِدُ له مَسلَكًا.

قال: «**فَأرِني**».

فَأعطَيتُهُ القَدَحَ، فحَمِدَ اللهَ، وسَمَّى، وشَرِبَ الفَضلَةَ[٢].

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «استَدَلَّ أبو هريرةَ بتَبَسُّمِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، على أنَّهُ عَرَفَ ما بِهِ؛ لأنَّ التَّبَسُّم -تارَةً- يكونُ لما يُعجِبُ، وتارَةً يكونُ لإيناسِ مَن تَبَسَّمَ إليه، ولم تَكُن تِلكَ الحالُ مُعجِبَةً، فقَوِيَ الحَملُ على الثاني»[٣].

---

(١) الصُّفَّة: مكانٌ في مؤخَّر المسجد النبويِّ، مظلَّلٌ، أعدَّ لنزول الغرباء فيه، ممَّن لا مأوى له، ولا أهل، وكانوا يكثرون فيه، ويقلُّون، بحسب من يتزوَّج منهم، أو يموت، أو يسافر.

(٢) رواه البخاري (٥٣٧٥)، (٦٤٥٢)، والترمذي (٢٤٧٧).

(٣) فتح الباري (١١/ ٢٨٥).

❋ وكان ﷺ يَضحَكُ؛ مُداعَبَةً للصِّغارِ، ورِفقًا بهِم:

فعن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه، قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ من أحسَنِ الناسِ خُلُقًا، فأرسَلَني يومًا لحاجةٍ، فقُلتُ: واللهِ لا أذهَبُ، وفي نَفسي أن أذهَبَ لما أمَرَني بهِ نَبيُّ اللهِ ﷺ، قال: فخرجتُ، حتى أمُرَّ على صِبيانٍ وهم يَلعَبونَ في السُّوقِ[١].

فإذا رسولُ اللهِ ﷺ قَد قَبَضَ بقَفايَ[٢] مِن ورائي.

قال: فنَظَرتُ إليه وهو يَضحَكُ.

فقال: «**يا أُنَيسُ، أذَهَبتَ حيث أمَرتُكَ؟**».

قُلتُ: نعم، أنا أذهَبُ يا رسولَ اللهِ.

قال أنسٌ: واللهِ لَقَد خَدَمتُهُ تِسعَ سِنينَ، ما عَلِمتُهُ قال لشيءٍ صَنَعتُهُ: لِمَ فعَلتَ كَذا وكذا؟ أو لشيءٍ تَرَكتُهُ: هَلَّا فعَلتَ كَذا وكذا؟[٣].

ويُحمَلُ قولُهُ لرسولِ اللهِ ﷺ: «واللهِ لا أذهَبُ» وأمثالُهُ، على أنَّهُ كان صَبيًّا غيرَ مُكَلَّفٍ.

قال الجَزريُّ رحمه الله: «وَلِذا، ما أدَّبَهُ، بل داعَبَهُ، وأخَذَ بقَفاهُ، وهو يَضحَكُ؛ رِفقًا بهِ»[٤].

❋ وتَبَسَّمَ ﷺ؛ تَعَجُّبًا، عندَما خرجَت هَوازِنُ بظَعنِهِم، ونَعَمِهِم، وشائِهِم:

فعن سَهلِ ابنِ الحَنظَلِيَّةِ رضي الله عنه: أنَّهم ساروا مع رسولِ اللهِ ﷺ يومَ حُنَينٍ، فأطنَبوا السَّيرَ[٥]، حتى كانت عَشيَّةً، فحَضَرَتُ الصَّلاةَ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ، فجاءَ رَجُلٌ

---

(١) والظَّاهر: أنه وقف عندهم إمَّا للَّعب، أو للتَّفرُّج.
(٢) القفا: مؤخَّر العنق.
(٣) رواه مسلم (٢٣١٠).
(٤) مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٧١٠).
(٥) أي: بالغوا فيه، وتبع بعض الإبل بعضًا.

فارِسٌ، فقال: يا رسولَ اللهِ: إنِّي انطَلَقتُ بين أيديكُم، حتى طَلَعتُ جَبَلَ كَذا وكذا، فإذا أنا بهَوازِنَ على بكرَةِ آبائِهم[1]، بظُعُنِهم، ونَعَمِهِم[2]، وشائِهِم ، اجتَمَعوا إلى حُنَين.

فتَبَسَّمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «**تِلكَ غَنيمَةُ المسلمينَ غَدًا إن شاءَ اللهُ**».

وساقَ الحديثَ[3].

فتَبَسَّمَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ مُتَعَجِّبًا من فضلِ اللهِ عليه، وحُسنِ صَنيعِهِ، وتَفاءَلَ بما سَيُعطَى المسلمونَ من هذه الغَنائِمِ، التي خرجَت بها هَوازِنُ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «إنّ اللهَ سبحانه لمَّا مَنَعَ الجَيشَ غنائِمَ مَكّةَ، فلَم يَغنَموا منها ذَهَبًا، ولا فِضّةً، ولا مَتاعًا، ولا سَبيًا، ولا أرضًا، كَما روى أبوداود، عن وهبِ بنِ مُنَبِّهٍ، قال: سَألتُ جابِرًا: هَل غَنِموا يومَ الفَتحِ شيئًا؟ قال: لا[4].

وكانوا قَد فتَحوها، بإيجافِ الخَيلِ والرّكابِ، وهم عَشَرَةُ آلافٍ، وفيهم حاجَةٌ إلى ما يَحتاجُ إليه الجَيشُ، من أسبابِ القوَّةِ، فحَرّكَ -سبحانه- قُلوبَ المُشرِكينَ لغَزوِهِم، وقَذَفَ في قُلوبِهِم إخراجَ أموالِهِم، ونَعَمِهِم، وشائِهِم وسَبيِهِم، مَعَهم؛ نُزُلًا، وضيافَةً، وكَرامَةً، لِحزبِهِ، وجُندِهِ، وتَمَّمَ تَقديرَهُ -سبحانه- بأن أطمَعَهم في الظَّفَرِ، وألاحَ لهم مَبادِئَ النّصرِ؛ ليَقضيَ اللهُ أمرًا كان مَفعولًا»[5].

* وتَبَسَّمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فرَحًا وسُرورًا، لَمَّا نَزَلَت عليه سورَةُ الكوثَرِ:

فعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: بَينا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاتَ يومٍ بين أظهُرِنا في المسجِدِ، إذ أغفَى إغفاءَةً، ثم رَفَعَ رَأسَهُ مُتَبَسِّمًا.

---

(١) أي: أنهم جاؤوا جميعًا، لم يتخلَّف أحدٌ منهم.

(٢) الظُّعن: النِّساء، والنَّعم: الإبل، والشاء، أو هو خاصٌ بالإبل.

(٣) رواه أبوداود (٢٥٠١)، وصححه الألباني.

(٤) رواه أبوداود (٣٠٢٣)، وصححه الألباني.

(٥) زاد المعاد (٣/ ٤١٩).

فَقُلنا: ما أضحَكَكَ يا رسولَ اللهِ؟

قال: «**أُنزِلَت عليَّ آنِفًا سورةٌ**»، فقرَأ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١-٣].

ثم قال: «**أتدرونَ ما الكوثرُ؟**» فقلنا: اللهُ ورسولُهُ أعلَمُ.

قال: «**فإنَّهُ نَهرٌ، وعَدَنيه رَبِّي** عَزَّوَجَلَّ، **عليه خَيرٌ كَثيرٌ، عليه حَوضٌ، تَرِدُ عليه أُمَّتي يومَ القيامَةِ، آنيتُهُ عَدَدُ النُّجومِ، فيُختلَجُ العبدُ منهم، فأقولُ: رَبِّ، إنَّهُ من أُمَّتي! فيقولُ: إنَّكَ لا تَدري ما أحدَثَ بعدَكَ**»(١).

فالنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندَما أعطاهُ اللهُ هذهِ العَطيَّةَ العَظيمَةَ، ومَنَحَهُ هذه الكرامَةَ؛ فرِحَ، وسُرَّ؛ مِصداقًا لقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨].

* وضَحِكَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تأنيسًا لعمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فعن عمرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّهُ قال: لَمَّا ماتَ عبدُاللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ، دُعيَ له رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ليُصلِّيَ عليه، فلمَّا قامَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وثَبتُ إليه، فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أتُصَلِّي على ابنِ أُبَيٍّ، وقد قال يومَ كَذا وكذا: كَذا وكذا؟ أُعَدِّدُ عليه قولَهُ، فتبَسَّمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «**أخِّر عَنِّي يا عمرُ**» فلمَّا أكثَرتُ عليه، قال: «**إنِّي خُيِّرتُ فاختَرتُ، لَو أعلَمُ أنِّي إن زِدتُ على السَّبعينَ يُغفَرُ لَهُ، لَزِدتُ عليها**».

قال: فصَلَّى عليه رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم انصَرفَ، فلَم يَمكُث إلا يَسيرًا حتى نَزَلَتِ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤] قال: فعَجِبتُ -بَعدُ- من جُرأتي على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَئِذٍ، واللهُ ورسولُهُ أعلَمُ(٢).

«واستَشكَلَ الدَّاوُديُّ تَبَسُّمَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تِلكَ الحالَةِ، مع ما ثَبَتَ أنَّ ضَحِكَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان تَبَسُّمًا، ولَم يَكُن عندَ شُهودِ الجَنائِزِ يستَعمِلُ ذلك.

---

(١) رواه مسلم (٤٠٠).

(٢) رواه البخاري (١٣٦٦)، (٤٦٧٠)، ومسلم (٢٤٠٠).

وجَوابُهُ: أنَّهُ عَبَّر عن طَلاقةِ وجهِهِ بذلك؛ تأنيسًا لعمرَ، وتَطييبًا لقَلبِهِ، كالمُعتَذِرِ عن تَركِ قَبولِ كَلامِهِ، ومَشورَتِهِ»[١].

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإنما لم يَأخُذِ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقولِ عمرَ، وصَلَّى عليه؛ إجراءً له على ظاهِرِ حُكمِ الإسلامِ، واستِصحابًا لظاهِرِ الحُكمِ، ولِما فيه من إكرامِ ولَدِه الذي تحَقَّقَت صَلاحيَتُهُ، ومَصلَحَة الاستِئلافِ لقَومِهِ، ودَفع المفسَدَةِ»[٢].

*** وتَبَسَّمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ليُهَوِّنَ على الذي فارَقَ زَوجَهُ، بسبَبِ الرضاعَةِ:**

عن عُقبَةَ بنِ الحارِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّهُ تَزَوَّجَ ابنَةً لأبي إهابِ بنِ عَزيزٍ، فأتَتهُ امرَأةٌ، فقالت: إنِّي قَد أرضَعتُ عُقبَةَ، والتي تَزَوَّجَ.

فقال لها عُقبَةُ: ما أعلَمُ أنَّكِ أرضَعتِني، ولا أخبَرتِني.

فَأرسَلَ إلى آلِ أبي إهابٍ يَسألُهم.

فقالوا: ما عَلِمنا أنَّها أرضَعَت صاحِبَتَنا.

فَرَكِبَ[٣] إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينَةِ، فسَألَهُ، فقال: تَزَوَّجتُ فُلانَةَ بنتَ فُلانٍ، فجاءَتنا امرَأةٌ سَوداءُ، فقالت لي: إنِّي قَد أرضَعتُكما، وهي كاذِبَةٌ.

فَأعرَضَ عَنِّي.

قال: فأتَيتُهُ من قِبَلِ وجهِهِ، فقُلتُ: إنَّها كاذِبَةٌ.

فتبَسَّمَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «**كَيفَ وقد قيل؟ دَعها عَنكَ**».

وفي رواية: «**وَكَيفَ وقد زَعَمَت أن قَد أرضَعَتكُما؟**»، فنَهاهُ عَنها، ففارَقَها عُقبَةُ، ونَكَحَت زَوجًا غَيرَهُ[٤].

---

(١) فتح الباري (٨/ ٣٣٧).

(٢) المصدر السابق (٨/ ٣٣٦).

(٣) أي: من مكَّة؛ لأنها كانت دار إقامته.

(٤) رواه البخاري (٨٨، ٢٠٥٢، ٢٦٥٩، ٢٦٦٠).

وتَبَسُّمُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُنا؛ ليُهَوِّنَ عليه الأمرَ في فِراقِها(١).

* وضحِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فرَحًا بفَضلِ اللهِ، ومَغفِرَتِهِ:

فعن عثمانَ بنِ عفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّهُ دَعا بماءٍ، فتَوَضَّأ ومَضمَضَ واستَنشَقَ، ثم غَسَلَ وجهَهُ ثَلاثًا، وذِراعَيهِ ثَلاثًا ثَلاثًا، ومَسَحَ برَأسِهِ، وغَسلَ قَدَمَيهِ، ثم ضَحِكَ.

فقال لأصحابِهِ: ألا تَسألوني عَمَّا أضحَكَني؟

فقالوا: مِمَّ ضَحِكتَ يا أميرَ المُؤمنينَ؟

قال: رَأيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعا بماءٍ قَريبًا من هَذِهِ البُقعَةِ، فتَوَضَّأ كَما تَوَضَّأتُ، ثم ضَحِكَ.

فقال: «**ألا تَسألوني ما أضحَكَني؟**».

فقالوا: ما أضحَكَكَ يا رسولَ اللهِ؟

فقال: «**إنَّ العبدَ إذا دَعا بوَضوءٍ، فغَسَلَ وجهَهُ، حَطَّ اللهُ عنه كُلَّ خَطيئَةٍ أصابَها بوَجهِهِ، فإذا غَسَلَ ذِراعَيهِ، كان كَذلك، وإن مَسَحَ برَأسِهِ، كان كَذلك، وإذا طَهَّرَ قَدَمَيهِ، كان كَذلك**»(٢).

فهذا الفَضلُ الذي مَنَّ اللهُ به على عِبادِهِ عندَما يَتَوَضَّؤونَ، أفرَحَ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجَعَلَهُ يَضحَكُ؛ سُرورًا بهذا الفَضلِ العَظيمِ.

* وضَحِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قَولِ الأعرابيِّ عندَ اشتدادِ المطَرِ، من بَعدِ قُحوطِهِ:

عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رَجُلًا جاءَ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ الجمعةِ وهو يَخطُبُ بالمدينَةِ، فقال: قَحَطَ المطَرُ، فاستَسقِ رَبَّكَ.

---

(١) ينظر: عمدة القاري (٣/ ١٤١)، فتح الباري (٤/ ٢٩٣).

(٢) رواه أحمد (٤١٥)، وصححه محققو المسند لغيره.

فَنَظَرَ إلى السَّماءِ، وما نَرَى من سَحابٍ، فاستَسقَى، فنَشَأَ السَّحابُ بعضُهُ إلى بعضٍ، ثم مُطِروا، حتى سالَت مَثاعِبُ المدينَةِ(١).

فَما زالَت إلى الجُمُعَةِ المُقبِلَةِ ما تُقلِعُ، ثم قامَ ذلك الرجُلُ أو غَيرُهُ، والنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخطُبُ فقال: غَرِقنا، فادعُ رَبَّكَ يَحبِسها عَنَّا.

فَضَحِكَ أو تَبَسَّمَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم قال: «**اللهمَّ حَوالَينا، ولا عَلَينا**» مَرَّتَينِ، أو ثَلاثًا.

فَجَعَلَ السَّحابُ يَتَصَدَّعُ عن المدينَةِ يَمينًا وشِمالًا، يُمطَرُ ما حَوالَينا، ولا يُمطِرُ منها شيءٌ؛ يُريهِم اللهُ كَرامَةَ نَبيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإجابَةَ دَعوَتِهِ(٢).

وفي رواية: فلَمَّا كانتِ الجُمُعَةُ التي تَليها، قالوا: يا رسولَ اللهِ، تَهَدَّمَتِ البُيوتُ، واحتبَسَ الرُّكبانُ، قال: فتَبَسَّمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لسُرعَةِ مَلالَةِ ابنِ آدَمَ، وقال بيَدَيهِ: «**اللهمَّ حَوالَينا ولا عَلَينا**» فتَكَشَّطَت عن المدينَةِ(٣).

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَفيه جَوازُ تَبَسُّمِ الخَطيبِ على المِنبَرِ؛ تَعَجُّبًا من أحوالِ الناسِ»(٤).

* وضَحِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من خَوفِ أُمِّ سُلَيمٍ على يَتيمَتِها:

فعن أنسِ بنِ مالكٍ قال: كانت عندَ أُمِّ سُلَيمٍ يَتيمَةٌ، وهي أُمُّ أنسٍ، فرَأى رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اليَتيمَةَ فقال: «**آنتِ هيَه؟، لَقَد كَبِرتِ، لا كَبِرَ سِنُّكِ**»(٥).

فَرَجَعَتِ اليَتيمَةُ إلى أُمِّ سُلَيمٍ تَبكي.

فقالت أُمُّ سُلَيمٍ: ما لَكِ يا بُنَيَّةُ؟

قالت الجارِيَةُ: دَعا عَلَيَّ نَبيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن لا يَكبَرَ سِنِّي، فالآنَ لا يَكبَرُ سِنِّي أبدًا، -أو قالت: قَرني-.

---

(١) مجاري ومسالك المياه.

(٢) رواه البخاري (٦٠٩٣).

(٣) رواه النسائي (١٥٢٧)، وصححه الألباني.

(٤) فتح الباري (٢/ ٥٠٧).

(٥) لم يرد به حقيقة الدُّعاء، وإنما هو جارٍ على عادة العرب.

فَخرجَت أُمُّ سُلَيمٍ مُستَعجِلَةً، تَلوثُ خِمارَها[١]، حتى لَقيَت رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال لها رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما لَكِ يا أُمَّ سُلَيمٍ؟**».

فقالت: يا نَبيَّ اللهِ، أدَعَوتَ على يَتيمَتي؟

قال: «**وَما ذاكِ يا أُمَّ سُلَيمٍ؟**».

قالت: زَعَمَت أنَّكَ دَعَوتَ أن لا يَكبَرَ سِنُّها، ولا يَكبَرَ قَرنُها.

فَضَحِكَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال:

«**يا أُمَّ سُلَيم، أما تَعلَمينَ أنَّ شَرطي على رَبِّي، أنِّي اشتَرَطتُ على رَبِّي، فقُلتُ: إنما أنا بَشَرٌ، أرضَى كما يَرضَى البَشَرُ، وأغضَبُ كما يَغضَبُ البَشَرُ، فأيُّما أحَدٍ دَعَوتُ عليه من أُمَّتي بدَعوَةٍ، ليس لها بأهلٍ، أن يجعَلَها له طَهورًا، وزَكاةً، وقُربَةً، يُقَرِّبُهُ بها منه يومَ القيامَةِ؟**»[٢].

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «إنما يكونُ دُعاؤُهُ عليه، رَحمَةً، وكَفَّارَةً، وزَكاةً، ونَحوَ ذلك: إذا لم يَكُن أهلًا للدُّعاءِ عليه، والسَّبِّ، واللَّعنِ، ونَحوِهِ، وكان مُسلِمًا، وإلَّا: فقَد دَعا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الكُفَّارِ، والمُنافِقينَ، ولم يَكُن ذلك لهم رَحمَةً»[٣].

وإنما ضَحِكَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ من حال أُمِّ سُلَيمٍ، وخَوفِها على يَتيمتِها من دُعائِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنَّ دُعاءَهُ مُستَجابٌ، فيَقَعُ على اليَتيمَةِ؛ فتَتَضَرَّرُ بهِ.

* وضَحِكَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من قولِ سَلَمَةَ بنِ الأكوَعِ، الدَّالِّ على شَجاعَتِهِ:

عن سَلَمَةَ بنِ الأكوَعِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: بَعَثَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بظَهرِهِ[٤] مع رَباحٍ، غُلامِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنا مَعَهُ.

(١) تديره على رأسها.
(٢) رواه مسلم (٢٦٠٣).
(٣) شرح النووي (٨/ ٤١٤).
(٤) الظَّهر: ما يركب عليه من الإبل.

ثمّ ذَكَرَ الحديثَ في تَتبّعِه أثَرَ المشركينَ ، ورميِهم بالنبلِ، واستنقاذِه ظَهرَ رسولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ منهم، إلى أن قال:

ثم أتَيتُ رسولَ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وهو على الماءِ الذي حَلَّأتُهم عَنهُ[١]، فإذا رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قَد أخَذَ تِلكَ الإبِلَ، وكُلَّ شيءٍ استَنقَذتُهُ مِنَ المُشرِكينَ، وكُلَّ رُمحٍ وبُردَةٍ.

وإذا بلالٌ نَحَرَ ناقَةً مِنَ الإبِلِ التي استَنقَذتُ مِنَ القَومِ، وإذا هو يَشوي لرسولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من كَبِدِها، وسَنامِها.

قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ القَومَ عِطاشٌ، وإنِّي أعجَلتُهم أن يَشرَبوا سَقيَهم، خَلِّني فأنتَخِبَ مِنَ القَومِ مِائَةَ رَجُلٍ، فأتَّبِعَ القَومَ، فلا يَبقَى منهم مُخبِرٌ، إلا قَتَلتُهُ.

فَضَحِكَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، حتى بَدَت نَواجِذُهُ في ضَوءِ النارِ.

فقال: «**يا سَلَمَةُ، أتُراكَ كُنتَ فاعِلًا؟**».

قُلتُ: نعم، والذي أكرَمَكَ.

فقال: «**يا ابنَ الأكوَعِ، مَلَكتَ فأسجِح[٢]، إنهَّم الآنَ لَيُقرَونَ في أرضِ غَطَفانَ**»[٣].

فَجاءَ رَجُلٌ من غَطَفانَ، فقال: نَحَرَ لهم فُلانٌ جَزورًا، فلَمَّا كَشَفوا جِلدَها رَأوا غُبارًا، فقالوا: أتاكُم القَومُ، فخرجوا هارِبينَ.

فلَمَّا أصبَحنا، قال رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**كان خَيرَ فُرسانِنا اليومَ: أبو قَتادَةَ، وخَيرَ رَجَّالَتِنا: سَلَمَةُ**»[٤].

---

(١) أبعدتهم عنه.

(٢) والمعنى: قدرت فاعف، والسَّجاحة: السُّهولة.

(٣) يقرون: من القرى، وهي الضِّيافة، والمراد: أنهم فاتوا، وأنهم وصلوا إلى بلاد قومهم، ونزلوا عليهم، فهم -الآن- يذبحون لهم، ويطعمونهم. فتح الباري (٧/ ٤٦٣).

(٤) فيه استحباب الثَّناء على الشُّجعان، وسائر أهل الفضائل، لا سيَّما عند صنيعهم الجميل؛ لما فيه من التَّرغيب لهم ولغيرهم في الإكثار من ذلك الجميل، وهذا كله عند أمن الفتنة، بإعجابٍ ونحوه. شرح مسلم (١٢/ ١٨٢).

ثم أعطاني رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَهمَينِ: سَهمَ الفارِسِ، وسَهمَ الراجِلِ، فجَمَعَهما لي جَميعًا[١].

ثم أردَفَني رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وراءَهُ على العَضباءِ، راجِعينَ إلى المدينَةِ[٢].

* وضَحِكَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من تَوَهُّمِ أبي ذَرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الهَلَكَةَ؛ بسببِ الجَنابَةِ:

عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: اجتَوَيتُ المدينَةَ[٣]، فأمَرَ لي رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذَودٍ من إبِلٍ، وغَنَمٍ، فكنتُ أكونُ فيها، فكنتُ أعزُبُ[٤] عن الماءِ، ومَعي أهلي، فتُصيبُني الجَنابَةُ، فوَقَعَ في نَفسي أنِّي قَد هَلَكتُ.

فَقَعَدتُ على بَعيرٍ منها، فانتَهَيتُ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِصفَ النَّهارِ، وهو جالسٌ في ظِلِّ المسجِدِ في نَفَرٍ من أصحابِهِ، فنَزَلتُ عن البَعيرِ، وقُلتُ: يا رسولَ اللهِ: هَلَكتُ.

قال: «**وَما أهلَكَكَ؟**».

فَحَدَّثتُهُ.

فَضَحِكَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدَعا إنسانًا من أهلِهِ، فجاءَت جاريَةٌ سَوداءُ بعُسٍّ[٥] فيه ماءٌ، ما هو بمَلآنَ، إنَّهُ لَيَتَخَضخَضُ[٦]، فاستَتَرَتُ بالبَعيرِ، فأمَرَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلاً مِنَ القَومِ، فسَتَرَني، فاغتَسَلتُ، ثم أتَيتُهُ.

فقال: «**إنَّ الصَّعيدَ الطَّيِّبَ طَهورٌ، ما لم تَجِدِ الماءَ، ولو إلى عَشرِ حِجَجٍ، فإذا وجَدتَ الماءَ فأمِسَّ بَشَرَتَكَ**»[٧].

---

(١) قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح مسلم (١٢/ ١٨٢): «هذا محمولٌ على أن الزَّائد على سهم الراجل كان نفلاً، وهو حقيقٌ باستحقاق النَّفل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ لبديع صنعه في هذه الغزوة».

(٢) رواه مسلم (١٨٠٧)، ورواه البخاري (٣٠٤١)، مختصرًا.

(٣) اجتويت البلد: إذا كرهت المقام فيه، وإن كنت في نعمةٍ، وقيل: مرض بها؛ لكراهته المقام بها.

(٤) أغيب.

(٥) العس: القدح الكبير.

(٦) يتحرَّك، ويضطرب.

(٧) رواه أبوداود (٣٣٣)، وأحمد (٢١٣٠٤)، وصححه محققو المسند لغيره.

* وضَحِكَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من قولِ أُمِّ سُلَيمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وشَجاعَتِها:

فعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ أُمَّ سُلَيمٍ اتَّخَذَت يومَ حُنَينٍ خِنجرًا، فكان مَعَها، فرَآها أبو طَلحَةَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، هَذِهِ أُمُّ سُلَيمٍ مَعَها خِنجَرٌ.

فقال لها رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما هذا الخِنجَرُ؟**».

قالت: اتَّخَذتُهُ، إن دَنا مِنِّي أحَدٌ مِنَ المُشرِكينَ بَقَرتُ بِهِ بَطنَهُ.

فَجَعَلَ رسولُ اللهِ ﷺ يَضحَكُ.

قالت: يا رسولَ اللهِ، اقتُل مَن بعدَنا[1] مِنَ الطُّلَقاءِ[2]؛ انهَزَموا بكَ[3].

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**يا أُمَّ سُلَيمٍ، إنَّ اللهَ قَد كَفَى وأحسَنَ**»[4].

فشَجاعَةُ أُمِّ سُلَيمٍ، وحَملُها الخِنجَرَ، ورَدُّها على النبيِّ ﷺ، بأنَّها سَتَقتُلُ مَن يَدنو منها مِنَ المُشرِكينَ: جَعَلَهُ يَضحَكُ ﷺ.

* وضَحِكَ ﷺ حتى بَدَت نَواجِذُهُ؛ غِبطَةً وفَرَحًا ببرَكَتِهِ:

عن عبدِالرحمَنِ بنِ أبي عَمرَةَ الأنصاريِّ، حَدَّثَني أبي قال: كُنَّا مع رسولِ اللهِ ﷺ في غَزاةٍ، فأصابَ الناسَ مَخمَصَةٌ، فاستَأذَنَ الناسُ رسولَ اللهِ ﷺ في نَحرِ بعضِ ظُهورِهِم، وقالوا: يُبَلِّغُنا اللهُ بِهِ، فلمَّا رَأى عمرُ بنُ الخَطَّابِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَد هَمَّ أن يَأذَنَ لهم في نَحرِ بعضِ ظَهرِهِم، قال: يا رسولَ اللهِ، كَيفَ بنا إذا نَحنُ لَقينا القَومَ غَدًا، جياعًا، رِجالًا؟ ولكن إن رَأيتَ يا رسولَ اللهِ أن تَدعوَ لَنا ببَقايا أزوادِهِم، فتَجمَعَها، ثم

---

(١) من سوانا.

(٢) الذين أسلموا من أهل مكَّة عند الفتح، سمُّوا بذلك؛ لأن النبيَّ ﷺ منَّ عليهم، وأطلقهم، وكان في إسلامهم ضعفٌ، فاعتقدت أم سليمٍ أنهم منافقون، وأنهم استحقُّوا القتل؛ بانهزامهم وغيره. شرح النووي على مسلم (١٢/ ١٨٨).

(٣) أي: انهزموا عنك.

(٤) رواه مسلم (١٨٠٩).

تَدعوَ اللهَ فيها بالبَرَكَةِ، فإنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سَيُبَلِّغُنا بدَعوَتِكَ -أو قال: سَيُبارِكُ لَنا في دَعوَتِكَ- فدَعا النبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببَقايا أزوادِهِم، فجَعَلَ الناسُ يجيئونَ بالحَثيَةِ مِنَ الطَّعامِ، وفَوقَ ذلك، وكان أعلاهم مَن جاءَ بصاعٍ من تَمرٍ، فجَمَعَها رسولُ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قامَ، فدَعا ما شاءَ اللهُ أن يَدعوَ، ثم دَعا الجَيشَ بأوعيَتِهم، فأمَرَهم أن يَحتَثوا، فما بَقيَ في الجَيشِ وِعاءٌ إلا مَلَئوهُ، وبَقيَ مِثلُهُ، فضَحِكَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى بَدَت نَواجِذُهُ، فقال: «**أشهَدُ أن لا إلَهَ إلا اللهُ، وأشهَدُ أنِّي رسولُ اللهِ، لا يَلقَى اللهَ عبدٌ مُؤمِنٌ بها، إلا حُجِبَت عنه النارُ يومَ القيامَةِ**»(١).

*** وضَحِكَ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ سُرورًا ببَرَكَتِهِ، عندَما دَعا لتَمرِ جابِرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:**

عن جابِرِ بنِ عبدِاللهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: تُوُفِّيَ أبي، وعليه دَينٌ، فعَرَضتُ على غُرَمائِهِ أن يَأخُذوا التَّمرَ بما عليه، فأبَوا، ولم يَرَوا أنَّ فيه وفاءً، فأتَيتُ النبيَّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذَكَرتُ ذلك لَهُ، فقال: «**إذا جَدَدتَهُ، فوَضَعتَهُ في المِربَدِ، آذَنتَ رسولَ اللهِ** صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

فَجاءَ، ومَعَهُ أبو بكرٍ، وعمرُ، فجَلَسَ عليه، ودَعا بالبَرَكَةِ، ثم قال: «**ادعُ غُرَماءَكَ، فأوفِهِم**».

فَما تَرَكتُ أحَدًا له على أبي دَينٌ إلا قَضَيتُهُ، وفَضَلَ ثَلاثَةَ عَشَرَ وسقًا، سَبعَةٌ عَجوَةٌ، وسِتَّةٌ لَونٌ -أو سِتَّةٌ عَجوَةٌ، وسَبعَةٌ لَونٌ- فوافيتُ مع رسولِ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المغرِبَ، فذَكَرتُ ذلك لَهُ، فضَحِكَ، فقال: «**ائتِ أبا بكرٍ وعمرَ، فأخبِرهما**».

فقالا: لَقَد عَلِمنا إذ صَنَعَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما صَنَعَ، أن سَيكونُ ذلك(٢).

*** وضَحِكَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، عندَما قَصَّ عليه رَجُلٌ رُؤيا رآها في مَنامِهِ:**

فعن جابِرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: جاءَ رَجُلٌ إلى النبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، رَأيتُ في المنامِ كَأنَّ رَأسي قُطِعَ، قال: فضَحِكَ النبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «**إذا لَعِبَ الشَّيطانُ بأحَدِكُم في مَنامِهِ، فلا يُحَدِّث بِهِ الناسَ**».

---

(١) رواه أحمد (١٥٤٤٩)، وقال محققو المسند «إسناده قويٌّ»، وهو في البخاري (٢٤٨٤)، بمعناه، من حديث سلمة، وفي مسلم (٢٧)، بمعناه، من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري (٢٧٠٩).

وفي لَفظٍ: إنِّي حَلَمتُ أنَّ رَأسي قُطِعَ فأنا أتَّبِعُهُ، فزَجَرَهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «**لا تُخبِرْ بتَلَعُّبِ الشَّيطانِ بكَ في المنامِ**»(١).

وضَحِكُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فمِن صورةِ الحالِ؛ فإنَّ تَصوُّرَ رَجُلٍ رَأسُهُ مَقطوعٌ، وهو يَتبَعُهُ، مَدعاةٌ للضَّحِكِ.

وزَجرُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فلأنَّ ما ذَكَرَهُ الرّجلُ، وإن كان مَدعاةً للضَّحِكِ، إلا أنَّه من تَلاعُبِ الشَّيطانِ بِهِ، فلا يَنبَغي له أن يَحكيَهُ للنَّاسِ.

*** وتبسّمَ، عندَما أمَرَ امرَأةَ أبي حُذَيفَةَ أن تُرضِعَ سالمًا، فقالت: وكَيفَ أُرضِعُهُ، وهو رَجُلٌ كَبيرٌ؟**

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: جاءَت سَهلَةُ بنتُ سُهَيلٍ، إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: يا رسولَ اللهِ، إنِّي أرَى في وجهِ أبي حُذَيفَةَ من دُخولِ سالمٍ وهو حَليفُهُ، فقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أرضِعيه**»، قالت: وكَيفَ أُرضِعُهُ وهو رَجُلٌ كَبيرٌ؟ فتبَسَّمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «**قَد عَلِمتُ أنَّهُ رَجُلٌ كَبيرٌ**»(٢).

وتبسّمُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الموضِعِ دَليلٌ على أنَّهُ تَلَطَّفَ بهذا الرضاعِ، لما أرادَ مِنَ الائتِلافِ، ونفيِ الوَحشَةِ(٣).

*** وقد تَبَسَّمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من قَولِ المُغيرَةِ بنِ شُعبَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وفِعلِهِ بعُروَةَ بنِ مَسعودٍ:**

فعنِ المِسوَرِ بنِ مَخرَمَةَ ومَروانَ بنِ الحَكَمِ، قالا: خرجَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عامَ الحُدَيبيةِ يُريدُ زيارَةَ البَيتِ، لا يُريدُ قِتالًا ... الحديث، وفيه:

فَبَعَثَت قُرَيشٌ عُروَةَ بنَ مَسعودٍ الثَّقفيَّ، فخرجَ حتى أتَى رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجَلَسَ بين يَدَيهِ.

---

(١) رواه مسلم (٢٢٦٨).

(٢) رواه مسلم (١٤٥٣)، وكان أبو حذيفة قد تبنَّى سالمًا، قبل أن ينزل تحريم التبنِّي، وذهب جمهور العلماء إلى أن هذا الحكم كان خاصًا بسالمٍ مولى أبي حذيفة، أو أنه منسوخٌ.

(٣) تأويل مختلف الحديث (١/ ٣٠٩).

فقال: يا محمدُ: جَمَعتَ أوباشَ الناسِ، ثم جِئتَ بِهِم لبَيضَتِكَ؛ لتَفُضَّها! إنَّها قُرَيشٌ قَد خرجَت مَعَها العوذُ المطافيلُ[١]، قَد لَبِسوا جُلودَ النُّمورِ، يُعاهِدونَ اللهَ أن لا تَدخُلَها عليهم عَنوَةً [٢] أبَدًا، وايمُ اللهِ لَكَأنِّي بِهؤُلاءِ قَد انكَشَفوا عَنكَ غَدًا.

قال: وأبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خَلفَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاعِدٌ، فقال: امصُص بَظرَ اللَّاتِ، أنَحنُ نَنكَشِفُ عنه؟

قال: مَن هذا يا محمدُ؟ قال: «**هَذا ابنُ أبي قُحافَةَ**».

قال: واللهِ لَولا يَدٌ كانت لَكَ عندي لَكافَأتُكَ بها، ولكن هَذِهِ بِها.

ثم تَناوَلَ لحيَةَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمُغيرَةُ بنُ شُعبَةَ واقِفٌ على رَأسِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحَديدِ، يَقرَعُ يَدَهُ[٣].

ثم قال: أمسِك يَدَكَ عن لحيَةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبلَ -واللهِ- لا تَصِلُ إلَيكَ.

قال: ويحَكَ! ما أفَظَّكَ، وأغلَظَكَ!

فَتبَسَّمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: مَن هذا يا محمدُ؟

قال: «**هَذا ابنُ أخيكَ، المُغيرَةُ بنُ شُعبَةَ**».

قال: أغُدَرُ: هَل غَسَلتَ سَوأتَكَ، إلا بالأمسِ[٤]؟

---

(١) العوذ: جمع عائذٍ، وهي الناقة ذات اللَّبن، والمطافيل: الأمَّهات اللاتي معهنَّ أطفالهنَّ، يريد أنهم خرجوا ومعهم ذوات الألبان من الإبل؛ ليتزوَّدوا بألبانها، ولا يرجعوا حتى يمنعوه، أو كنَّى بذلك عن النساء معهنَّ الأطفال، والمراد: أنهم خرجوا ومعهم نساؤهم وأولادهم؛ لإرادة طول المقام، وليكون أدعى إلى عدم الفرار. فتح الباري (٥/ ٣٣٨).

(٢) قهرًا، لا صلحًا.

(٣) في مغازي عروة بن الزبير، رواية أبي الأسود عنه: أن المغيرة لَمَّا رأى عروة بن مسعودٍ مقبلاً لبس لأمته، وجعل على رأسه المغفر؛ ليستخفي من عروة عمِّه. انظر: فتح الباري (٥/ ٣٤١).

(٤) رواه البخاري (٢٧٣١)، وأحمد (١٨٩١٠)، واللفظ له.

فلمَّا أخذَ عُروَةُ بنُ مسعودٍ يَتكَلَّمُ، كان يَتَناوَلُ لحيَةَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمُغيرَةُ بنُ شُعبَةَ قائِمٌ على رأسِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخَذَ يَقرَعُ يَدَه بنَعلِ السَّيفِ، ويأمُرُهُ أن يُبعِدَ يَدَهُ عن لحيَةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكانت عادَةُ العَرَبِ أن يَتَناوَلَ الرجُلُ لحيَةَ مَن يُكَلِّمُهُ، ولا سيَّما عندَ المُلاطَفَةِ، وفي الغالبِ إنما يَصنَعُ ذلك النَّظيرُ بالنَّظيرِ، لكن كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُغضي لعُروَةَ عن ذلك؛ استِمالَةً لَهُ، وتَأليفًا، والمُغيرَةُ يَمنَعُهُ؛ إجلالًا للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتَعظيمًا[١].

* وضَحِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حيَلِ اليَهودِ:

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: رَأيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالسًا عندَ الرُّكنِ، فرَفَعَ بَصَرَهُ إلى السَّماءِ، فضَحِكَ، فقال: «**لَعَنَ اللهُ اليَهودَ -ثَلاثًا-؛ إنَّ اللهَ حَرَّمَ عليهم الشُّحومَ، فباعوها، وأكَلوا أثمانَها، وإنَّ اللهَ إذا حَرَّمَ على قَومٍ أكلَ شيءٍ، حَرَّمَ عليهم ثَمنه**»[٢].

قال الخَطَّابيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**مَعناهُ**: أذابوها حتى تَصيرَ ودَكًا، فيَزولَ عَنها اسمُ الشَّحمِ، وفي هذا إبطالُ كُلِّ حيلَةٍ يُتوَصَّلُ بها إلى مُحَرَّمٍ، وأنَّهُ لا يَتَغَيَّرُ حُكمُهُ بتَغييرِ هَيئَتِهِ، وتَبديلِ اسمِهِ»[٣].

فقَد ضَحِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حال اليَهودِ، وأساليبِهِم في تَحليلِ ما حَرَّمَ اللهُ تعالى، فلَمَّا حَرَّمَ اللهُ عليهِمُ الشُّحومَ: جَمَّلوها، فباعوها، وأكلوا ثَمنها.

* وضَحِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من فِعلِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بزوجِهِ:

عن جابِرِ بنِ عبدِاللهِ قال: دَخَلَ أبو بكرٍ يَستَأذِنُ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوَجَدَ الناسَ جُلوسًا ببابِهِ، لم يُؤذَن لأحَدٍ منهم.

قال: فأُذِنَ لأبي بكرٍ، فدَخَلَ، ثم أقبَلَ عمرُ، فاستَأذَنَ، فأُذِنَ لَهُ.

---

(١) الفتح (٥/ ٣٤١).

(٢) رواه أبوداود (٣٤٨٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٢٥).

(٣) معالم السُّنن (٣/ ١٣٣)، باختصارٍ يسيرٍ.

فَوَجَدَ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالسًا، حَولَهُ نِساؤُهُ، واجِمًا(١)، ساكِتًا.

فقال: لَأقولَنَّ شَيئًا أُضحِكُ بِهِ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢).

فقال: يا رسولَ اللهِ، لَو رَأيتَ بنتَ خارِجَةَ، سَألَتني النَّفَقَةَ، فقُمتُ إلَيها، فوَجَأتُ(٣) عُنُقَها.

فَضَحِكَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «**هُنَّ حَولي -كَما تَرَى- يَسألنَني النَّفَقَةَ**».

فَقامَ أبو بكرٍ إلى عائشةَ يَجَأُ عُنُقَها، وقامَ عمرُ إلى حَفصَةَ يَجَأُ عُنُقَها، وكِلاهما يقولُ: تَسألنَ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما ليس عندَهُ؟

فَنَهاهما رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٤).

فقُلنَ: واللهِ لا نَسألُ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيئًا أبدًا ليس عندَهُ.

ثم نَزَلَت عليه هَذِهِ الآيةُ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ**﴾ حتى بَلَغَ ﴿**لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٢٨-٢٩](٥).

* وضَحِكَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من سَبقِهِ عائشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا:

عن عائشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: خرجتُ مع النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعضِ أسفارِهِ، وأنا جاريَةٌ، لم أحمِلِ اللَّحمَ، ولم أبدُن.

فقال للنَّاسِ: «**تَقَدَّموا**»، فتَقَدَّموا.

---

(١) قال أهل اللغة: هو الذي اشتدَّ حزنه، حتى أمسك عن الكلام.

(٢) فيه استحباب مثل هذا، وأن الإنسان إذا رأى صاحبه مهمومًا حزينًا، فيستحبُّ له أن يحدِّثه بما يضحكه، أو يشغله، ويطيِّب نفسه.

(٣) وجأ يجأ: إذا طعن.

(٤) زيادة في مسند أحمد (١٤٥١٥)، وإسنادها صحيح.

(٥) رواه مسلم (١٤٧٨).

ثم قال لي: «**تَعالَي؛ حتى أُسابِقَكِ**»[١].

فَسابَقتُهُ، فسَبَقتُهُ[٢].

فَسَكَتَ عَنِّي، حتى إذا حَمَلتُ اللَّحمَ، وبَدُنتُ، ونَسيتُ، خرجتُ مَعَهُ في بعضِ أسفارِهِ.

فقال للنَّاسِ: «**تَقَدَّموا**». فتَقَدَّموا.

ثم قال: «**تَعالَي؛ حتى أُسابِقَكِ**».

فَسابَقتُهُ، فسَبَقَني، فجَعَلَ يَضحَكُ وهو يقولُ: «**هَذِهِ بتِلكَ**»[٣].

والمعنى: تَقَدُّمي عليكِ في هَذِهِ النَّوبَةِ: في مُقابَلَةِ تَقَدُّمِكِ في النَّوبَةِ الأولى.

وهذا من حُسنِ عِشرَتِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

* وضَحِكَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ من قولِ أُمِّ رافِعٍ لزَوجِها:

عن عائشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: أتَت سَلمَى مَولاةُ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أوِ امرَأةُ أبي رافِعٍ مَولى رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلى رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تَستَأذِنُهُ على أبي رافِعٍ، قَد ضَرَبَها.

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي رافِعٍ: «**ما لَكَ ولَها يا أبا رافِعٍ؟**».

قال: تُؤذيني يا رسولَ اللهِ.

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بِمَ آذَيتِهِ يا سَلمَى؟**».

قالت: يا رسولَ اللهِ، ما آذَيتُهُ بشيءٍ، ولكنهُ أحدَثَ وهو يُصَلِّي، فقُلتُ لَهُ: يا أبا رافِعٍ، إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَد أمَرَ المسلمينَ إذا خرجَ من أحَدِهِمُ الرِّيحُ أن يَتَوَضَّأ، فقامَ فضَرَبَني.

فَجَعَلَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَضحَكُ، ويقولُ: «**يا أبا رافِعٍ، إنَّها لم تَأمُركَ إلا بخَيرٍ**»[٤].

---

(١) أي: في العدو، والجري.

(٢) أي: غلبته، وتقدَّمت عليه.

(٣) رواه أحمد (٢٦٢٧٧)، وقال محققو المسند: «إسناده جيدٌ».

(٤) رواه أحمد (٢٦٣٣٩)، وحسنه محققو المسند.

* وضَحِكَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تعَجُّبًا من قولِ المرأةِ الحَبَشيَّةِ:

فعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: لَمَّا رَجَعَت إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُهاجِرَةُ البَحرِ، قال: «**ألا تُحَدِّثونَني بأعاجيبِ ما رَأيتُم بأرضِ الحَبَشَةِ؟**».

قال فِتيَةٌ منهم: بَلى يا رسولَ اللهِ، بَينا نَحنُ جُلوسٌ، مَرَّت بنا عَجوزٌ من عَجائِزِ رَهابينِهِم، تَحمِلُ على رَأسِها قُلَّةً من ماءٍ[1]، فمَرَّت بفَتًى منهم، فجَعَلَ إحدَى يَدَيهِ بين كَتِفيها، ثم دَفَعَها، فخَرَّت على رُكبَتَيها، فانكَسَرَت قُلَّتُها.

فلَمَّا ارتَفَعَت، التَفَتَت إليه، فقالت: سَوفَ تَعلَمُ يا غُدَرُ، إذا وضَعَ اللهُ الكُرسيَّ، وجَمَعَ الأولينَ والآخِرينَ، وتَكَلَّمَتِ الأيدي والأرجُلُ بما كانوا يَكسِبونَ، فسَوفَ تعلَمُ كَيفَ أمري وأمرُكَ عندَهُ غَدًا.

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَدَقَت، صَدَقَت، كَيفَ يُقَدِّسُ اللهُ أُمَّةً لا يُؤخَذُ لضَعيفِهِم من شَديدِهِم؟**»[2].

ورَواهُ البَيهقيُّ في سُنَنِهِ[3]، من حديثِ بُريدَةَ، وفيه:

فَضَحِكَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى بَدَت نَواجِذُهُ، فقال: «**كَيفَ تُقَدَّسُ أُمَّةٌ لا تَأخُذُ لضَعيفِها من شَديدِها حَقَّهُ، وهو غَيرُ مُتَعتَعٍ؟**»[4].

* وتَبَسَّمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ من كَرامَةِ روحِ الأعرابيِّ على اللهِ:

عنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بخِباءِ أعرابيٍّ، وهو في أصحابِهِ، يُريدونَ الغَزوَ.

فَرَفَعَ الأعرابيُّ ناحيَةً مِنَ الخِباءِ، فقال: مَنِ القَومُ؟

---

(١) جرَّة عظيمة.

(٢) رواه ابن ماجه (٤٠١٠)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه.

(٣) سنن البيهقي (١١٥١٤).

(٤) أي: من غير أن يصيبه أذى يقلقله ويزعجه.

فَقيل لَهُ: رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابُهُ، يُريدونَ الغزوَ.

فقال: هَل من عَرَضِ الدُّنيا يُصيبونَ؟

قيل لَهُ: نعم، يُصيبونَ الغَنائِمَ، ثم تُقَسَّمُ بين المسلمينَ.

فَعَمَدَ إلى بكرٍ لَهُ، فاعتَقَلَهُ، وسارَ مَعَهم.

فَجَعَلَ بكرُهُ يَدنو إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجَعَلَ أصحابُهُ يَذودونَ بكرَهُ عَنهُ.

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَعوا لِيَ النَّجديَّ، فوالذي نَفسي بيَدِهِ، إنَّهُ لَمِن مُلوكِ الجَنَّةِ**»، فلَقَوُا العَدوَّ، فاستُشهِدَ.

فَأُخبِرَ بذلك النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأتاهُ، فقَعَدَ عندَ رَأسِهِ مُستَبشِرًا -أو قال: مَسرورًا- يَضحَكُ، ثم أعرَضَ عَنهُ.

فَقُلنا: يا رَسولَ اللهِ، رأيناكَ مُستَبشِرًا تَضحَكُ، ثم أعرَضتَ عَنهُ.

فقال: «**أَمَّا ما رَأيتُم مِنَ استبشاري**، -أو قال: سُروري-: **فلِما رَأيتُ من كَرامَةِ روحِهِ على اللهِ تعالى، وأمَّا إعراضي عنهُ: فإنَّ زَوجتَهُ مِنَ الحورِ العينِ -الآنَ- عندَ رَأسِهِ**»[1].

* وضَحِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تَعَجُّبًا من حِرصِ المرأةِ الأنصاريَّةِ على الحَجِّ:

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ نَبيَّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرادَ الحَجَّ.

فقالتِ امرَأةٌ لزَوجِها: حُجَّ بي مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: ما عندي ما أُحِجُّكِ عليه.

قالت: أَحِجَّني على جَمَلِكَ فُلانٍ.

قال: ذاكَ حَبيسٌ في سَبيلِ اللهِ.

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٠٠٨) وحسنه المنذريُّ في الترغيب والترهيب (٢/ ٢١٤).

قالت: فحُجَّ بي على ناضِحِكَ[1].

قال: ذاكَ نَعتَقِبُهُ، أنا وابنُكِ.

قالت: فبِع ثَمَرَتَكَ.

قال: ذاكَ قوتي، وقوتُكِ.

فلمَّا قَدِمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2]، أرسَلَت زَوجَها إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت: أقرِئهُ السَّلامَ ورَحمَةَ اللهِ، وسَلهُ: ما يَعدِلُ حَجَّةً مَعَكَ؟

فَأتَى زَوجُها النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، امرَأتي تُقرِؤُكَ السَّلامَ ورَحمَةَ اللهِ، وإنَّها سَألَتني أُحِجُّها.

فَقُلتُ: ما عندي ما أُحِجُّكِ عليه.

فقالت: أحِجَّني على جَمَلِكَ فُلانٍ.

قُلتُ: ذلك حَبيسٌ في سَبيلِ اللهِ.

فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَو كُنتَ أحجَجتَها عليه كان في سَبيلِ اللهِ**».

قالت: فأحِجَّني على ناضِحِكَ.

فَقُلتُ: ذاكَ نَعتَقِبُهُ، أنا وابنُكِ.

قالت: فبِع ثَمَرَتَكَ.

فَضَحِكَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ من حِرصِها على الحَجِّ.

قال: فإنَّها أمَرَتني أن أسألَكَ: ما يَعدِلُ حَجَّةً مَعَكَ؟

---

(١) الناضح: البعير، أو الثَّور، أو الحمار، الذي يستقى عليه، لكنَّ المراد به هنا: البعير؛ لتصريحه في رواية أبي داود، بكونه جملًا.

(٢) أي: من الحجِّ.

قال: «أقرِئها السَّلامَ ورَحمةَ اللهِ، وأخبِرها أنَّ ما يَعدِلُ حَجَّةً مَعي: عُمرَةٌ في رَمَضانَ»(١).

فأعلَمَها أنَّ العُمرَةَ في رَمَضانَ، تَعدِلُ الحَجَّةَ في الثَّوابِ، لا أنَّها تَقومُ مَقامَها في إسقاطِ الفَرضِ، للإجماعِ على أنَّ الاعتِمارَ لا يُجزِئُ عن حَجِّ الفَرضِ.

* وتَبَسَّمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ من صَنيعِ عبدِاللهِ بنِ مُغَفَّلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

عن عبدِاللهِ بنِ مُغَفَّلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: أَصَبتُ جِرابًا(٢) من شَحمٍ يومَ خَيبَرَ(٣)، فالتَزَمتُهُ، فقُلتُ: لا أُعطي اليومَ أحَدًا من هذا شَيئًا.

فالتَفَتُّ، فإذا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَبَسِّمًا، فاستَحيَيتُ منه(٤).

قال الطِّيبيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «في قولِهِ: «اليومَ» إشعارٌ بأنَّهُ كان مُضطَرًا إليه، وبَلَغَ الاضطِرارُ إلى أن يَستَأثِرَ نَفسَهُ على الغَيرِ، ولم يَكُن مِمَّن قيل فيه: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] ومِن ثَم تَبَسَّمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(٥).

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وفي قوله: «فاستَحيَيتُ» إشارَةٌ إلى ما كانوا عليه من تَوقيرِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومِن مُعاناةِ التَّنَزُّهِ عن خَوارِمِ المُروءَةِ»(٦).

* وتَبَسَّمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لَمَّا ألقَى نَظرَةً أخيرَةً على أصحابِهِ، وهم صُفوفٌ لصَلاةِ الفَجرِ؛ فرَحًا ورِضًا بصَنيعِهِم:

فعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَّ أبا بكرٍ كان يُصَلِّي لَهم، في وجَعِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي تُوُفِّيَ فيه، حتى إذا كان يومُ الاثنَينِ، وهم صُفوفٌ في الصَّلاةِ، كَشَفَ رسولُ اللهِ

---

(١) رواه أبوداود (١٩٩٠)، وابن خزيمة في صحيحه (٣٠٧٧)، وصححه الألباني في الإرواء (٦/ ٣٢)، وأصله في الصحيحين.

(٢) الجراب: وعاءٌ من جلدٍ.

(٣) وعند البخاري (٣١٥٣)، (٥٥٠٨): «كنَّا محاصرين قصر خيبر، فرمى إنسانٌ بجرابٍ فيه شحمٌ».

(٤) رواه البخاري (٣١٥٣)، ومسلم (١٧٧٢).

(٥) مرقاة المفاتيح (٦/ ٢٥٨٤).

(٦) الفتح (٦/ ٢٥٦).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِترَ الحُجرَةِ، فنَظَرَ إلَينا، وهو قائِمٌ، كَأنَّ وجهَهُ ورَقَةُ مُصحَفٍ(١)، ثم تَبَسَّمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضاحِكًا.

فَبُهِتنا، ونَحنُ في الصَّلاةِ؛ من فرَحٍ بخُروجِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ونَكَصَ أبو بكرٍ على عَقِبَيهِ(٢) ليَصِلَ الصَّفَّ.

وظَنَّ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خارِجٌ للصَّلاةِ، فأشارَ إليهم رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَدِهِ: «**أن أتِمُّوا صَلاتَكُم**».

ثم دَخَلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأرخَى السِّترَ.

فَتوُفِّيَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من يومِهِ ذلك(٣).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «سببُ تَبَسُّمِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فرَحُهُ بما رَأى مِنَ اجتِماعِهِم على الصَّلاةِ، واتِّباعِهِم لإمامِهِم، وإقامَتِهِم شَريعَتَهم، واتِّفاقِ كَلِمَتِهِم، واجتِماعِ قُلوبِهِم؛ ولهذا استَنارَ وجهُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عادَتِهِ: إذا رَأى أو سَمِعَ ما يَسُرُّهُ، يَستَنيرُ وجهُهُ.

وفيه مَعنًى آخَرُ: وهو تَأنيسُهم، وإعلامُهم بتَماثُلِ حالهِ في مَرَضِهِ»(٤).

وقد تَبَيَّنَ مما سبقَ:

أنّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان من أطيَبِ الناسِ نَفسًا.

وكان الغالبُ من أحوالهِ: التَّبَسُّمَ، وربّما ضحكَ، حتى تبدوَ نواجذُه.

وأنَّ ضَحِكَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان مُشتَمِلًا على كُلِّ المعاني الجَميلَةِ، والمقاصِدِ النبيلَةِ، فصارَ من شَمائِلِهِ الحَسَنَةِ، وصِفاتِهِ الكريمةِ.

---

(١) كناية عن الجمال البارع، وحسن البشرة، وصفاء الوجه، واستنارته، مع زيادة كونه محبوبًا معظَّماً في الصُّدور، وإلا لما كان لخصوص الورقة بالمصحف وجهٌ. حاشية السِّنديِّ على سنن ابن ماجه (١/ ٤٩٥).

(٢) أي رجع القهقرى، إلى ورائه.

(٣) رواه البخاري (٦٨٠)، ومسلم (٤١٩).

(٤) شرح النووي على مسلم (٤/ ١٤٢).

وكان ضَحِكُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَربيَةً وتَوجيهًا، ودَعوَةً، ومُداعَبَةً، ومواساةً، وتأليفًا.

ورُبَّما كان في بعضِ أصحابِهِ أُناسٌ مِنَ الظُّرَفاءِ، الذينَ في طَبعِهِم مِزاحٌ وظَرفٌ، فكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَضحَكُ مِمَّا يَحصُلُ من ظَرفِهِم.

عن عمرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَّ رَجُلًا على عَهدِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان اسمُهُ عبدَاللهِ، وكان يُلَقَّبُ حِمارًا، وكان يُضحِكُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَد جَلَدَهُ في الشَّرابِ.

فَأُتِيَ بِهِ يومًا، فأمَرَ بِهِ، فجُلِدَ، فقال رَجُلٌ من القَومِ: اللهمَّ الْعَنْهُ، ما أكثَرَ ما يُؤتَى بِهِ.

فقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تَلعَنوهُ؛ فواللهِ -ما عَلِمتُ- إنَّهُ يُحِبُّ اللهَ ورسولَهُ**»(١).

وقوله: «وكان يُضحِكُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»: أي: يقولُ بحَضرَتِهِ، أو يَفعَلُ، ما يَضحَكُ منه.

وعندَ أبي يَعلى: وكان يُهدي لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، العُكَّةَ مِنَ السَّمنِ، والعُكَّةَ مِنَ العَسَلِ(٢)، فإذا جاءَ صاحِبُها يَتَقاضاهُ، جاءَ بِهِ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيقولُ: يا رسولَ اللهِ، أعطِ هذا ثَمَنَ مَتاعِهِ.

فَما يَزيدُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أن يَبتَسِمَ، ويَأمُرَ بِهِ، فيُعطَى(٣).

(١) رواه البخاري (٦٧٨٠).

(٢) هي: وعاء من جلود مستدير، يختصُّ بهما، وهو بالسَّمن أخص. النهاية (٣/ ٢٨٤).

(٣) رواه أبو يعلى في مسنده (١٧٦)، وصححه البوصيري في إتحاف الخيرة (٣/ ٣٩٨).

بُكاؤُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

البُكاءُ نعمةٌ عَظيمَةٌ، امتنَّ اللهُ بها على عِبادِهِ، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣].

فَبِهِ تَحصُلُ المواساةُ للمَحزونِ، والتَّسليَةُ للمُصابِ، وهو المُتَنَفَّسُ من هُمومِ الحَياةِ، ومَتاعِبِها.

وبُكاءُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يَكُن سببُهُ الحُزنَ والألَمَ فحَسبُ، ولكن له دَوافِعُ أُخرى، كالرحمَةِ، والشَّفَقَةِ على الآخرينَ، وفَوقَ ذلك كُلِّهِ: الخَوفُ والخَشيَةُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وَأَمَّا بُكاؤُهُ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فكان من جِنسِ ضَحِكِهِ، لم يَكُن بشَهيقٍ، ورَفعِ صَوتٍ، كَما لم يَكُن ضَحِكُهُ بقَهقَهَةٍ، ولكن كانت تَدمَعُ عَيناهُ، ويُسمَعُ لصَدرِهِ أزيزٌ.

وكان بُكاؤُهُ تارَةً رَحمَةً للمَيِّتِ، وتارَةً خَوفًا على أُمَّتِهِ، وشَفَقَةً عليها، وتارَةً من خَشيَةِ اللهِ، وتارَةً عندَ سَماعِ القُرآنِ، وهو بُكاءُ اشتياقٍ، ومَحبَّةٍ، وإجلالٍ، مُصاحِبٌ للخَوفِ، والخَشيَةِ»[١].

وبُكاؤُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وكذا ضَحِكُهُ، وغَضَبُهُ، ورِضاهُ، ونَحوُ ذلك- دَليلُ بَشَرِيَّتِهِ، كَما قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠]، ولكنهُ فارَقَهم، بقولِهِ تعالى عَنهُ: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣][٢].

---

(١) زاد المعاد (١/ ١٧٦).

(٢) وقد تقدم الكلام في ذلك.

فعن مَحمودِ بنِ لَبيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: انكَسَفَتِ الشَّمسُ يومَ ماتَ إبراهيمُ ابنُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال الناسُ: انكَسَفَتِ الشَّمسُ لِمَوتِ إبراهيمَ، فخرجَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَ سَمِعَ ذلك، فحَمِدَ اللهَ، وأثنَى عليه، ثم قال: «**أمَّا بعدُ، أيُّها الناسُ! إنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ آيتانِ من آياتِ اللهِ، لا يَنكَسِفانِ لِمَوتِ أحَدٍ، ولا لِحَياةِ أحَدٍ، فإذا رَأيتُم ذلك فافزَعوا إلى المساجِدِ**». ودَمَعَت عَيناهُ.

- فقالوا: يا رسولَ اللهِ، تَبكي وأنتَ رسولُ اللهِ؟

- قال: «إنما أنا بَشَرٌ، تَدمَعُ العَينُ، ويَخشَعُ القَلبُ، ولا نقولُ ما يُسخِطُ الربَّ، واللهِ يا إبراهيمُ إنَّا بكَ لَمَحزونونَ»[١].

وهذا المزجُ بين البَشَرِيَّةِ والرِّسالَةِ في شَخصِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جَعَلَت صِفاته البَشَرِيَّةَ أسمَى مِثالٍ للقُدوَةِ؛ ولِذلك كان خُلُقهُ القُرآن.

فَعَلَينا أن نَتَوَسَّمَ مَعالِمَ الهُدَى في هَديِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن نَسموَ بأخلاقِنا، وصِفاتِنا، إلى مَنزِلَةِ الاقتِداءِ بهِ في كُلِّ شيءٍ، بحسبِ ما نَقدِرُ عليه.

والبُكاءُ، قال الجوهَريُّ: «يُمَدُّ ويُقصَرُ، فإذا مَدَدتَ: أرَدتَ الصَوتَ الذي يكونُ مع البُكاءِ، وإذا قَصَرتَ: أرَدتَ الدُّموعَ، وخُروجَها، قال الشَّاعِرُ:

بَكَت عَيني وحقَّ لها بُكاها وما يُغني البُكاءُ ولا العَويلُ[٢]

وقال يَزيدُ بنُ مَيسَرَةَ: «البُكاءُ من سَبعَةِ أشياءَ: مِنَ الفَرَحِ، والحُزنِ، والجَزَعِ، والرِّياءِ، والوَجَعِ، والشُّكرِ، والبُكاءِ من خَشيَةِ اللهِ، فذاكَ الذي تُطفِئُ الدَّمعَةُ منه مِثلَ أمثال البُحورِ مِنَ النارِ»[٣].

ولنَستَعرِض بعضًا من أحوالِهِ الكريمَةِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في بُكائِهِ، فمن جُملَةِ ذلك:

---

(١) رواه ابن سعدٍ في الطَّبقات (١/ ١٤٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٤٠).
(٢) الصحاح (٦/ ٢٢٨٤).
(٣) الزُّهد لأبي داود (٢/ ٤٠)، حلية الأولياء (٥/ ٢٣٥).

* أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا صَلَّى، رُبَّما سُمِعَ صَوتُ بُكائِهِ من خَشيةِ اللهِ:

فعن مُطَرِّف بنِ عبدِاللهِ، عن أبيهِ، قال: «أتيتُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يُصَلِّي، ولِجَوفِهِ أزيزٌ، كَأزيزِ المِرجَلِ»، يعني: يَبكي[١].

وفي رواية: «رَأيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي وفي صَدرِهِ أزيزٌ، كَأزيزِ الرحَى من البُكاءِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[٢].

المِرجَلُ هوَ: الإناءُ الذي يَغلي فيه الماءُ، سَواء كان من حَديدٍ، أو صُفرٍ، أو حِجارَةٍ، أو خَزَفٍ.

قال الطِّيبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أزيزُ المِرجَلِ: صَوتُ غَلَيانِهِ، ومنه الأزُّ، وهو الإزعاجُ»[٣].

وهذا يَدُلُّ على كَمالِ خَوفِهِ، وخُضوعِهِ لرَبِّهِ، وقد قال أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خَطَبَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُطبَةً، ما سمعتُ مِثلَها قَطُّ، قال: «**لَو تَعلَمونَ ما أعلَمُ، لَضَحِكتُم قَليلًا، ولَبَكَيتُم كَثيرًا**»، قال: فغَطَّى أصحابُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وُجوهَهم، ولَهم خَنينٌ[٤].

ويَدُلُّ الحديثُ -كَذلك- على أنَّ القُرآنَ، إذا وجَدَ قَلبًا خاشِعًا، فإنَّهُ يُؤَثِّرُ فيه.

وعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبيتُ، فيُناديهِ بلالٌ بالأذانِ، فيَقومُ فيَغتَسِلُ، فإنِّي لَأرَى الماءَ يَنحَدِرُ على جِلدِهِ وشَعرِهِ، ثم يَخرُجُ فيُصَلِّي، فأسمَعُ بُكاءَهُ، ثم يَظَلُّ صائِمًا»[٥].

* وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقومُ اللَّيلَ، فيَبكي من خَشيَةِ اللهِ:

قال عُبَيد بنُ عُمَيرٍ لعائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أخبِرينا بأعجَبِ شيءٍ رَأيتِهِ من رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) رواه النسائي (١٢١٤)، وصححه الألباني.

(٢) رواه أبوداود (٩٠٤)، وصححه الألباني.

(٣) مرقاة المفاتيح (٢/ ٧٩١).

(٤) رواه البخاري (٤٦٢١)، ومسلم (٢٣٥٩).

(٥) رواه أبو يعلى الموصليُّ (٤٧٠٩)، وإسناده صحيح.

- فسَكَتَت، ثم قالت: لمَّا كان لَيلَةٌ مِنَ اللَّيالي، قال: يا عائشةُ ذَريني أتَعَبَّدُ اللَّيلَةَ لرَبِّي.

- قُلتُ: واللهِ إنِّي لأُحِبُّ قُربَكَ، وأُحِبُّ ما سَرَّكَ.

- قالت: فقامَ فتطَهَّرَ، ثم قامَ يُصَلِّي.

- قالت: فلَم يَزَل يَبكي، حتى بَلَّ حِجرَهُ.

- قالت: ثم بَكَى، فلَم يَزَل يَبكي، حتى بَلَّ لحيَتَهُ.

- قالت: ثم بَكَى، فلَم يَزَل يَبكي، حتى بَلَّ الأرضَ.

فَجاءَ بلالٌ يُؤذِنُهُ بالصَّلاةِ، فلمَّا رَآهُ يَبكي قال: يا رسولَ اللهِ، لِمَ تَبكي وقد غفَرَ اللهُ لَكَ ما تَقَدَّمَ وما تَأَخَّرَ؟

- قال: «أفَلا أكونُ عبدًا شَكورًا؟ لَقَد نَزَلَت عَلَيَّ اللَّيلَةَ آيةٌ، ويلٌ لمَن قَرَأها ولم يَتَفَكَّر فيها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]»[١].

*** وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبكي إذا سَمِعَ القُرآنَ، ولو لم يَكُن في صَلاةٍ:**

فعن عبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال لِيَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقرأ عَلَيَّ**».

- قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، آقرأُ عليكَ، وعليكَ أُنزِلَ؟

- قال: نعم.

فَقَرَأتُ سورَةَ النِّساءِ، حتى أتَيتُ إلى هَذِهِ الآيةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

- قال: «**حَسبُكَ الآنَ**»

فالتَفَتُّ إليه، فإذا عَيناهُ تَذرِفانِ[٢].

---

(١) رواه ابن حبَّان (٦٢٠)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٤٦٨).

(٢) رواه البخاري (٥٠٥٠)، ومسلم (٨٠٠).

قال العَينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي بُكاءِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وُجوهٌ:

الأولُ: بُكاؤُه عندَ هَذِهِ الآيةِ الكريمَةِ؛ لأنَّهُ لا بُدَّ من أداءِ الشَّهادَةِ، والحُكمُ على المشهودِ عليه إنما يكونُ بقولِ الشَّاهِدِ، فلمَّا كان هو الشَّاهِدَ، وهو الشَّافِعَ، بَكَى على المُفَرِّطينَ منهم.

الثاني: أنَّهُ بَكَى؛ لعِظَمِ ما تَضَمَّنَتهُ هَذِهِ الآيةُ الكريمَةُ من هَولِ المطلَعِ، وشِدَّةِ الأمرِ؛ إذ يُؤتَى بالأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، شُهَداءَ على أُمَمِهِم، بالتَّصديقِ والتَّكذيبِ.

الثالثُ: أنَّهُ بَكَى فرَحًا؛ لقَبولِ شَهادَةِ أُمَّتِهِ يومَ القيامَةِ، وقَبولِ تَزكيَتِهِ لهم في ذلك اليومِ العَظيمِ»[١].

وقال الحافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «والذي يَظهَرُ: أنَّهُ بَكَى رَحمَةً لأُمَّتِهِ؛ لأنَّهُ عَلِمَ أنَّهُ لا بُدَّ أن يَشهَدَ عليهم بعَمَلِهِم، وعَمَلُهم قَد لا يكونُ مُستَقيمًا، فقَد يُفضي إلى تَعذيبِهِم»[٢].

* وبَكَى عندَما جَلَسَ على شَفيرِ قَبرٍ، حتى بَلَّ الثَّرَى:

فعنِ البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كُنَّا مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جِنازَةٍ، فجَلَسَ على شَفيرِ القَبرِ[٣] فبَكَى، حتى بَلَّ الثَّرَى[٤]، ثم قال: «**يا إخواني! لِمثلِ هَذا فأعِدُّوا**»[٥].

أي: لِمثلِ يومِ نُزولِ أحدِكُم قَبرَهُ فليُعِدَّ الزَّادَ، أي: فليَتَّخِذ عُدَّةً، تَنفَعُهُ في بَيتِ الظُّلمَةِ والوَحشَةِ.

* وبَكَى النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ رَحمَةً بأُمَّتِهِ، وخَوفًا عليهم:

فعن عبدِاللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَلا قولَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في إبراهيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

---

(١) عمدة القاري (١٨/ ١٧٤).

(٢) فتح الباري (٩/ ٩٩).

(٣) أي: طرفه.

(٤) التُّراب.

(٥) رواه ابن ماجه (٤١٩٥)، وحسنه المنذريُّ في الترغيب والترهيب (٤/ ١٢٠).

وقال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

فَرَفَعَ يَدَيهِ، وقال: «**اللهمَّ أُمَّتي أُمَّتي**»، وبَكَى.

فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «**يا جبريلُ اذهَب إلى محمدٍ -ورَبُّكَ أعلَمُ- فسَلهُ ما يُبكيكَ؟**».

فَأتاهُ جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فسَألَهُ، فأخبَرَهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما قال، وهو أعلَمُ.

فقال اللهُ: «**يا جبريلُ اذهَب إلى محمدٍ فقُل: إنَّا سَنُرضيكَ في أُمَّتِكَ، ولا نَسوءُكَ**»[١].

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «هَذا الحديثُ مُشتَمِلٌ على أنواعٍ مِنَ الفَوائِدِ:

منها: بَيانُ كَمالِ شَفَقَةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أُمَّتِهِ، واعتِنائِهِ بمَصالِحِهم، واهتِمامِهِ بأمرِهِم.

ومنها: البِشارَةُ العَظيمَةُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ -زادَها اللهُ تعالى شَرَفًا- بما وعَدَها اللهُ تعالى بقولِهِ: «سَنُرضيك في أُمَّتك، ولا نَسوءُك»، وهذا من أرجَى الأحاديثِ لِهَذِهِ الأُمَّةِ، أو أرجاها.

ومنها: بَيانُ عِظَمِ مَنزِلَةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند اللهِ تعالى، وعَظيمِ لُطفِهِ سبحانه بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأمَّا قولُهُ تعالى: «وَلا نَسوءُكَ»: فهو تَأكيدٌ للمعنى، أي: لا نُحزِنُكَ؛ لأنَّ الإرضاءَ قَد يَحصُلُ في حَقِّ البعضِ بالعَفوِ عَنهم، ويَدخُلُ الباقي النارَ، فقال تعالى: نُرضيكَ، ولا نُدخِلُ عليكَ حُزنًا، بل نُنَجِّي الجَميعَ. والله أعلَم»[٢].

* وبَكَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ شَفَقَةً على أُمَّتِهِ مِنَ العَذابِ:

فعن عبدِاللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: «انكَسَفَتِ الشَّمسُ -يومًا- على عَهدِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقامَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي، حتى لم يَكَد أن يَركَع[٣]، ثم رَكَعَ، فلَم يَكَد يَرفَعُ رَأسَهُ[٤] ... ثم سَجَدَ، فلَم يَكَد أن يَرفَعَ رَأسَهُ، فجَعَلَ يَنفُخُ، ويَبكي، ويقولُ: «رَبِّ

---

(١) رواه مسلم (٢٠٢).

(٢) شرح النووي على مسلم (٣/ ٧٨، ٧٩).

(٣) وهو كنايةٌ عن طول القيام والقراءة، فإنه صحَّ عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أنه قرأ قدر سورة البقرة في الركعة الأولى.

(٤) أي: أطال الرُّكوع.

أَلَم تَعِدني أن لا تُعَذِّبَهم وأنا فيهم؟ رَبِّ أَلَم تَعِدني أن لا تُعَذِّبَهم وهم يَستَغفِرونَ؟ ونَحنُ نَستَغفِرُكَ» ... الحديث(١).

قال السّنديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**قولُهُ: «يَنفُخ»**: أي: تَأَسُّفًا على حال الأُمَّةِ؛ لما رَأى في ذلك الموقِفِ مِنَ الأُمورِ العِظامِ، حتى النار، فخافَ عليهم»(٢).

وقال ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «خَشيَ أن يكونَ إدناؤُها منه -يَعني النارَ- عَذابًا أُرسِلَ على الأُمَّةِ، فاستَفهَمَ عن ذلك، وقال: «أَتُعَذِّبُهم، وأنا مَعهم؟»»(٣).

وهذا كُلُّهُ من رَأفَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأُمَّتِهِ، وخَوفِهِ عليهم، فقَد كان كما وصَفهُ رَبُّهُ تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

* وبَكَى النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ بَدرٍ، حتى أصبَحَ:

فعن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «ما كان فينا فارِسٌ يومَ بَدرٍ غَيرُ المِقدادِ، ولَقَد رَأيتُنا وما فينا إلا نائِمٌ، إلا رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحتَ شَجَرَةٍ، يُصَلِّي، ويَبكي، حتى أصبَحَ»(٤).

وفي الحديثِ: أنَّ من أسبابِ تَنَزُّلِ نَصرِ اللهِ على أوليائِهِ: استِشعارَهم أنَّ النَّصرَ لا يكونُ إلا من عندِ اللهِ، وأنَّ طَلَبَ الحاجةِ مِنَ اللهِ بالضَّعفِ، والإلحاحِ، وإظهارِ المسكَنَةِ، أدعَى إلى تَحصيلِها، وخاصَّةً في المُدلَهِمّاتِ.

وقد روى النَّسائيُّ، عن مُصعَبِ بنِ سَعدٍ عن أبيهِ، أنَّهُ ظَنَّ أنَّ له فضلًا على مَن دونَهُ من أصحابِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال نَبيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما يَنصُرُ اللهُ هَذِهِ الأُمَّةَ بضَعيفِها: بدَعوَتِهم، وصَلاتِهم، وإخلاصِهم**»(٥).

---

(١) رواه أبوداود (١١٩٤)، والنسائي (١٤٨٢)، وابن خزيمة (١٣٩٢)، وصححه الألباني.

(٢) حاشية السِّنديِّ على النسائي (٣/ ١٤٩).

(٣) فتح الباري، لابن رجب (٦/ ٤٣٥).

(٤) رواه أحمد (١٠٢٣)، وابن حبَّان (٢٢٥٧)، وصححه محققو المسند.

(٥) رواه النسائي (٣١٧٨)، وصححه الألباني، وأصله في البخاري (٢٨٩٦).

* **وبَكَى** صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **عندَما عاتَبَهُ رَبُّهُ في أسرَى بَدرٍ:**

فإنّه لَمَّا نَصَرَ اللهُ المُسلمينَ يَومَ بدرٍ، وأسروا مِنَ الكُفَّارِ سَبعينَ رَجُلًا، استشارَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيهم أبا بكرٍ وعمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فقال: «**ما تَرَونَ في هَؤُلاءِ الأُسارَى؟**».

فقال أبو بكرٍ: يا نَبيَّ اللهِ، هم بَنو العَمِّ والعَشيرَةِ، أرَى أن تَأخُذَ منهم فِديَةً، فتكون لَنا قوَّةً على الكُفَّارِ، فعَسَى اللهُ أن يَهديَهم للإسلامِ.

فقال رسولُ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما تَرَى يا ابنَ الخَطَّابِ؟**».

فقال عمرُ: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، ما أرَى الذي رَأى أبو بكرٍ، ولكني أرَى أن تُمَكِّنَّا، فنَضرِبَ أعناقَهم، فتُمكِّنَ عليًّا من عَقيلٍ، فيَضرِبَ عُنُقَهُ، وتُمَكِّنِّي من فُلانٍ -نَسيبًا لعمرَ-، فأضرِبَ عُنُقَهُ، فإنَّ هَؤُلاءِ أئِمَّةُ الكُفرِ، وصَناديدُها[1].

قال عمرُ: فهَويَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما قال أبو بكرٍ، ولم يَهوَ ما قُلتُ.

فلَمَّا كان مِنَ الغَدِ جِئتُ، فإذا رسولُ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكرٍ، قاعِدَينِ يَبكيانِ.

قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أخبرني من أيِّ شيءٍ تَبكي أنتَ وصاحِبُكَ، فإن وجَدتُ بُكاءً بَكَيتُ، وإن لم أجِد بُكاءً تَباكَيتُ؛ لبُكائِكُما؟

فقال رسولُ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أبكي للَّذي عَرَضَ عَلَيَّ أصحابُكَ من أخذِهِمُ الفِداءَ، لَقَد عُرِضَ عَلَيَّ عَذابُهم أدنَى من هَذِهِ الشَّجَرَةِ**» -شَجَرَةٍ قَريبَةٍ من نَبيِّ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأنزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٩]، فأحَلَّ اللهُ الغَنيمَةَ لَهم[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قالوا: وأمَّا بُكاءُ النبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فإنما كان رَحمَةً؛ لنُزولِ العَذابِ

---

(١) يعني: أشرافها، الواحد: صنديدٌ.

(٢) رواه مسلم (١٧٦٣).

لَمَن أرادَ بذلك عَرَضَ الدُّنيا، ولم يُرِد ذلك رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا أبو بكرٍ، وإن أرادَهُ بعضُ الصَّحابَةِ، فالفِتنَةُ كانت تَعُمُّ، ولا تُصيبُ مَن أرادَ ذلك خاصَّةً، كَما هُزِمَ العَسكَرُ يومَ حُنَينٍ بقولِ أحَدِهِم: «لَن نُغلَبَ اليومَ مِن قِلَّةٍ»، وبإعجابِ كَثرَتِهِم لَمن أعجَبَتهُ منهم، فهُزِمَ الجَيشُ بذلك؛ فِتنَةً ومِحنَةً، ثم استَقَرَّ الأمرُ على النَّصرِ والظَّفرِ»[١].

*** وبَكَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حُزنًا على ولَدِهِ إبراهيمَ، بُكاءَ رَحمَةٍ:**

فَعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: دَخَلنا مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أبي سَيفٍ القَينِ[٢]، وكان ظِئرًا لإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[٣].

فَأخَذَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إبراهيمَ، فقَبَّلَهُ، وشَمَّهُ، ثم دَخَلنا عليه بعدَ ذلك، وإبراهيمُ يَجودُ بنَفسِهِ، فجَعَلَت عَينا رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَذرِفانِ.

- فقال له عبدُالرحمَنِ بنُ عَوفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وأنتَ يا رسولَ اللهِ؟

- فقال: «يا ابنَ عَوفٍ! إنَّها رَحمَةٌ»، ثم أتبَعَها بأُخرَى[٤].

- فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ العَينَ تَدمَعُ، والقَلبَ يَحزَنُ، ولا نقولُ إلا ما يَرضَى رَبُّنا، وإنَّا بفِراقِكَ يا إبراهيمُ لَمَحزونونَ**»[٥].

قال ابنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللهُ: «هَذا البُكاءُ تَفسيرُ البُكاءِ المُباحِ، والحُزنِ الجائِزِ، وذلك ما كان بدَمعِ العَينِ، ورِقَّةِ النَّفسِ، ولم يَكُن تَسَخُّطًا لأمرِ اللهِ؛ إذِ الفِطَرُ مَجبولَةٌ على الحُزنِ، وقد قال الحَسَنُ البَصريُّ: «العَينُ لا يَملِكُها أحَدٌ»[٦].

---

(١) زاد المعاد (٣/ ١٠١).

(٢) الحدَّاد.

(٣) أي: مرضعًا، وأطلق عليه ذلك؛ لأنه كان زوج المرضعة.

(٤) أي: أتبع الدَّمعة الأولى بأخرى.

(٥) رواه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥).

(٦) شرح صحيح البخاري (٣/ ٢٨٧).

* وبَكَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا ماتَتِ ابنَتُهُ أُمُّ كُلثومٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا:

فعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: شَهِدنا بنتًا لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)]، ورسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالسٌ على القَبرِ، فرأيتُ عَينَيه تدمَعانِ.

- فقال: «**هَل مِنكُم رَجُلٌ، لم يُقارِفِ اللَّيلَةَ؟**»[(٢)].

- فقال أبو طَلحَةَ: أنا.

- قال: «**فانزِل**».

- قال: فنَزَلَ في قَبرِها[(٣)].

* وبَكَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا رَأى ابنَةَ بنتِهِ زَينَبَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تُحتَضَرُ:

فعن أُسامَةَ بنِ زَيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: أُتِيَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأُمَيمَةَ ابنَةِ زَينَبَ، ونَفسُها تَقَعقَعُ[(٤)] كَأنهَّا في شَنٍّ[(٥)]، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**للهِ ما أخَذَ، وللهِ ما أعطَى، وكُلٌّ إلى أجَلٍ مُسَمًّى**».

فَدَمَعَت عَيناهُ، فقال له سَعدُ بنُ عُبادَةَ: يا رسولَ اللهِ، أتَبكي؟ أوَلَم تَنهَ عن البُكاءِ؟ فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما هيَ رَحمَةٌ، جَعَلَها اللهُ في قُلوبِ عِبادِهِ، وإنما يَرحَمُ اللهُ من عِبادِهِ الرُّحَماءَ**»[(٦)].

فظَنَّ سعدٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ جَميعَ أنواعِ البُكاءِ حَرامٌ، وأنَّ دَمعَ العَينِ حَرامٌ، وظَنَّ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَسيَ، فذَكَّرَهُ، فأعلَمَهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ مُجَرَّدَ البُكاءِ ودَمعٍ بعَينٍ ليس بحَرامٍ،

---

(١) هي: أمُّ كلثومٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٢) أي: لم يجامع.

(٣) رواه البخاري (١٢٨٥).

(٤) تتحرَّك، وتضطرب بصوتٍ.

(٥) القربة القديمة، ومعناه: لها صوتٌ وحشرجةٌ كصوت الماء إذا ألقي في القربة البالية. انظر: الفتح (١٠/ ٧٧).

(٦) رواه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣)، وأحمد (٢١٧٧٩)، واللفظ له.

ولا مَكروهٍ، بل هو رَحمَةٌ، وفَضيلَةٌ، وإنما المُحَرَّمُ: النَّوحُ، والنَّدبُ، والبُكاءُ المقرونُ بهما، أو بأحَدِهما(١).

* وبَكَى النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمَّا زارَ قَبرَ أُمِّهِ:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: زارَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبرَ أُمِّهِ، فبَكَى، وأبكَى مَن حَولَهُ، فقال: «**استَأذَنتُ رَبِّي في أن أستَغفِرَ لها، فلَم يُؤذَن لي، واستَأذَنتُهُ في أن أزورَ قَبرَها، فأُذِنَ لي، فزوروا القُبورَ؛ فإنَّها تُذَكِّرُ الموتَ**»(٢).

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «قال القاضي: بُكاؤُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، على ما فاتَها من إدراكِ أيَّامِهِ، والإيمانِ بهِ»(٣).

وأُمُّهُ اسمُها: آمِنَةُ بنتُ وهبٍ، ماتَت وعُمُرُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِتُّ سَنَواتٍ، وقَبرُها في مِنطَقَةٍ تُسَمَّى الأبواء، بين مَكَّةَ والمدينَةِ، وهي أقرَبُ إلى المدينَةِ.

وكانت هَذِهِ الزِّيارَةُ عندَما مَرَّ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عُمرَةِ الحُدَيبيَةِ بالأبواءِ(٤).

* ومِمَّا يُؤثَرُ من أحوالِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بُكائِهِ: أنَّهُ عندَما زارَ سَعدَ بنَ عُبادَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهو مَريضٌ، بَكَى إشفاقًا عليه:

فعن عبدِاللهِ بنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: اشتكَى سَعدُ بنُ عُبادَةَ شَكوَى لَهُ، فأتاهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَعودُهُ مع عبدِالرحمَنِ بنِ عَوفٍ، وسَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ، وعبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

فلَمَّا دَخَلَ عليه، فوَجَدَهُ في غاشيَةِ أهلِهِ(٥).

فقال: «**قَد قَضَى؟**».

---

(١) شرح النووي على مسلم (٦/ ٢٢٥).
(٢) رواه مسلم (٩٧٦).
(٣) شرح النووي على مسلم (٧/ ٤٦).
(٤) الوفا بتعريف فضائل المصطفى (ص٧٠).
(٥) أي: الذين يغشونه، للخدمة وغيرها.

قالوا: لا يا رسولَ اللهِ، فبَكَى النبيُّ ﷺ.

فلمَّا رَأى القَومُ بُكاءَ النبيِّ ﷺ، بَكَوا.

فقال: «**ألا تَسمَعونَ: إنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ بدَمعِ العَينِ، ولا بحُزنِ القَلبِ، ولكن يُعَذِّبُ بهذا** -وَأشارَ إلى لسانِهِ- **أو يَرحَمُ، وإنَّ الميِّتَ يُعَذَّبُ ببُكاءِ أهلِهِ عليه**»[١].

قال المُهَلَّبُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فيه**: جَوازُ البُكاءِ عندَ المريضِ، وليس ذلك مِنَ الجَفاءِ عليه، والتَّقريعِ لَهُ، وإنما هو إشفاقٌ عليه، ورِقَّةٌ، وحُرقَةٌ لحالِهِ، وقد بَيَّنَ في هذا الحديثِ أنَّهُ لا يُعَذِّبُ بدَمعِ العَينِ، وحُزنِ القَلبِ، وإنما يُعَذِّبُ بالقولِ السَّيِّءِ، ودَعوَى الجاهِلِيَّةِ»[٢].

وقال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «بَكَى النبيُّ ﷺ رَحمَةً عليه، وتَذَكُّرًا لما صَدَرَ له مِنَ الخِدمَةِ بين يَدَيهِ، فلمَّا رَأى القَومُ بُكاءَ النبيِّ ﷺ، بَكَوا»[٣].

* بُكاؤُهُ ﷺ على شُهَداءِ مُؤتَةَ:

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: خَطَبَ النبيُّ ﷺ، فقال: «**أخَذَ الرايَةَ زَيدٌ فأُصيبَ، ثم أخَذَها جَعفَرٌ فأُصيبَ، ثم أخَذَها عبدُاللهِ بنُ رَواحَةَ فأُصيبَ، ثم أخَذَها خالدُ بنُ الوَليدِ -عن غَيرِ إمرَةٍ-، ففُتِحَ لَهُ**»[٤].

وقال: «**ما يَسُرُّنا أنَّهم عندَنا**» -أو قال-: «**ما يَسُرُّهم أنَّهم عندَنا**[٥]»، وعَيناهُ تَذرِفانِ[٦].

وفي رواية: «أنَّ النبيَّ ﷺ نَعَى جعفَرًا وزَيدًا قبلَ أن يَجيءَ خَبَرُهم، وعَيناهُ تَذرِفانِ»[٧].

---

(١) رواه البخاري (١٣٠٤)، ومسلم (٩٢٤).

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطَّالٍ (٣/ ٢٨٩).

(٣) مرقاة المفاتيح (٣/ ١٢٣٣)، بتصرف.

(٤) وفي رواية للبخاريِّ: حتى أخذ الراية سيفٌ من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم.

(٥) أي: لما رأوا من الكرامة بالشَّهادة، فلا يعجبهم أن يعودوا إلى الدُّنيا.

(٦) رواه البخاري (٢٧٩٨)

(٧) رواه البخاري (٣٦٣٠).

وعن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لَمَّا قُتِلَ زَيدُ بنُ حارِثَةَ، أبطَأَ أُسامَةُ عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلَم يَأتِهِ، ثم جاءَهُ بعدَ ذلك، فقامَ بين يَدَيِّ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدَمِعَت عَيناهُ، فبَكَى رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلَمَّا نَزَفَت عَبرَتُهُ، قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لِمَ أبطَأتَ عَنَّا، ثم جِئتَ تُحزِنُنا؟**».

قال: فلَمَّا كان الغَدُ جاءَهُ، فلَمَّا رَآهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُقبِلًا، قال: «**إنِّي لَلاقٍ مِنكَ اليومَ، ما لقيتُ مِنكَ أمس**»، فلَمَّا دَنا دَمِعَت عَينُهُ، فبَكَى رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

* وبَكَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عثمانَ بنِ مَظعونٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَمَّا مات:

فعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «رَأيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَبِّلُ عثمانَ بنَ مَظعونٍ وهو مَيِّتٌ، حتى رَأيتُ الدُّموعَ تَسيلُ»[2].

عثمانُ بنُ مَظعونٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هوَ أخٌ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الرضاعَةِ، هاجَرَ الهِجرَتَينِ، وشَهِدَ بَدرًا، وكان حَرَّمَ الخَمرَ في الجاهِلِيَّةِ، وكان عابِدًا مُجتَهِدًا من فُضَلاءِ الصَّحابَةِ، وهو أوَّلُ مَن ماتَ مِنَ المُهاجِرينَ بالمدينَةِ، في شَعبانَ، على رَأسِ ثَلاثينَ شَهرًا مِنَ الهِجرَةِ[3].

* وبَكَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عَمِّهِ حَمزَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فَعنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِنساءِ عبدِالأشهَلِ، يَبكينَ هَلكاهُنَّ يومَ أُحُدٍ.

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لكنَّ حَمزَةَ لا بَواكيَ لَهُ**».

فَجاءَ نِساءُ الأنصارِ يَبكينَ حَمزَةَ.

فاستَيقَظَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**وَيحَهُنَّ! ما انقَلَبنَ بعدُ**[4]**؟ مُروهُنَّ فليَنقَلِبنَ، ولا يَبكينَ على هالكٍ بعدَ اليومِ**»[5].

---

(١) رواه عبدالرزَّاق في مصنفه (٦٦٩٨)، وقال الوادعيُّ في الصحيح المسند (٨٤٢): «صحيح، رجاله رجال الصحيح»، وأعلَّ بالإرسال.

(٢) رواه أبوداود (٣١٦٣)، وصححه الألباني.

(٣) الطبقات الكبرى (٣/ ٣٠٠)، سير أعلام النُّبلاء (٣/ ١٠١).

(٤) ما انصرفن بعد.

(٥) رواه ابن ماجه (١٥٩١)، وصححه الألباني.

*** ورَقَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رِقَّةً شَديدَةً، عندَما رَأى قِلادَةَ خديجةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، حتى دَمَعَت عَيناهُ:**

فعن عائشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: لَمَّا بَعَثَ أهلُ مَكَّةَ في فِداءِ أسراهم، بَعَثَت زَينَبُ في فِداءِ أبي العاصِ بمالٍ، وبَعَثَت فيه بِقِلادَةٍ لها، كانت عندَ خديجةَ، أدخَلَتها بها على أبي العاصِ.

- قالت: فلمَّا رَآها رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَقَّ لها رِقَّةً شَديدَةً.

- وقال: «**إن رَأيتُم أن تُطلِقوا لها أسيرَها، وتَرُدُّوا عليها الذي لها**».

- فقالوا: نعم.

وكان رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخَذَ عليه، أو وعَدَهُ، أن يُخَلِّيَ سَبيلَ زَينَبَ إليه، وبَعَثَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَيدَ بنَ حارِثَةَ، ورَجُلًا من الأنصارِ، فقال: «**كونا ببَطنِ يَأجِجَ**[١]، **حتى تَمُرَّ بكُما زَينَبُ، فتَصحَباها، حتى تَأتيا بها**»[٢].

وفي رواية عندَ الطّحاويِّ: «فلمَّا رَأى رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القِلادَةَ، رَقَّ لها رِقَّةً شَديدَةً، حتى دَمَعَت عَيناهُ»[٣].

فلمَّا رَأى النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القِلادَةَ، التي أهدَتها زَوجَتُهُ خديجةُ زَينَبَ يومَ زَواجِها، **دَمَعَت** عَيناهُ، وتَحَرَّكَ قَلبُهُ؛ لأنَّهُ تَذَكَّرَ أيّامَ خديجةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

وقد أثنَى النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أبي العاصِ بنِ الربيعِ في مُصاهَرَتِهِ خَيرًا، وقال: «**حَدَّثَني، فصَدَقَني، ووَعَدَني، فوَفَى لي**»[٤]، وكان قَد وعَدَ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يَرجِعَ إلى مَكَّةَ، بعدَ وقعَةِ بَدرٍ، فيَبعَثَ إليه بزَينَبَ ابنَتِهِ، فوَفَى بوَعدِهِ، وفارَقَها، مع شِدَّةِ حُبِّهِ لها.

قال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أبو العاصِ بنُ الربيعِ بنِ عبدِالعُزَّى بنِ عبدِ شَمسِ بنِ عبدِ مَنافٍ، زَوجُ أكبَرِ بَناتِ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَينَبَ، وكان مُحسِنًا إلَيها، ومُحِبًّا لها، ولَمَّا أمَرَهُ المُشرِكونَ

(١) مكانٌ على ثلاثة أميال من مكَّة. النهاية (٥/ ٢٩١).
(٢) رواه أبوداود (٢٦٩٢)، وحسنه الألباني.
(٣) شرح مشكل الآثار (١٢/ ١٣٦).
(٤) رواه البخاري (٣١١٠)، ومسلم (٢٤٤٩).

بطَلاقِها -حينَ بُعِثَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَبى عليهم ذلك، وكان ابنَ أُختِ خديجةَ بنتِ خوَيلِدٍ، واسمُ أُمِّهِ: هالَةُ، ويُقال: هِندُ بنت خويلد.

وقد شَهِدَ بَدرًا من ناحيَةِ الكُفَّارِ، فأُسِرَ، فجاءَ أخوهُ عَمرو بنُ الربيعِ ليُفاديَهُ، وأحضَرَ مَعَهُ في الفِداءِ قِلادَةً، كانت خديجةُ أخرَجَتها مع ابنَتِها زَينَبَ، حينَ تَزَوَّجَ أبو العاصِ بها، فلمَّا رَآها رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَقَّ لها رِقَّةً شَديدَةً، وأطلَقَهُ بسببِها، واشتَرَطَ عليه أن يَبعَثَ له زَينَبَ إلى المدينَةِ، فوَفَى له بذلك، واستَمَرَّ أبو العاصِ على كُفرِهِ بمَكَّةَ، إلى قُبَيلِ الفَتحِ بقَليلٍ، فخرجَ في تِجارَةٍ لقُرَيشٍ، فاعتَرَضَهُ زَيدُ بنُ حارِثَةَ في سَرِيَّةٍ، فقَتَلوا جَماعَةً من أصحابِهِ، وغَنِموا العيرَ، وفَرَّ أبو العاصِ هارِبًا إلى المدينَةِ، فاستَجارَ بزَينَبَ، فأجارَتهُ، فأجازَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِوارَها، ورَدَّ عليه ما كان مَعَهُ من أموال قُرَيشٍ، فرَجَعَ بها أبو العاصِ إليهم، ورَدَّ كُلَّ مالٍ إلى صاحِبِهِ، ثم تَشَهَّدَ شَهادَةَ الحَقِّ، وهاجَرَ إلى المدينَةِ، ورَدَّ عليه رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَينَبَ بالنِّكاحِ الأولِ، وكان بين فِراقِها لَهُ، وبين اجتِماعِهِما: سِتُّ سِنينَ»[١].

(١) البداية والنهاية (٩/ ٥٣٩).

غَضَبُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

صِفَةُ الغَضَبِ مِنَ الصِّفاتِ التي فُطِرَ عليها الإنسانُ، وليست مِنَ الصِّفاتِ المذمومَةِ مُطلَقًا، ولا مِنَ الصِّفاتِ المحمودَةِ مُطلَقًا، بل تُحمَدُ في مَوطِنِها المطلوبِ، ووَقتِها المُناسِبِ، وتُذَمُّ في مَوطِنِ الذَّمِّ.

والنبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يَغضَبُ حتى يَحمَرَّ وجهُهُ، ولكن هذا الغَضَبَ لم يَكُن من أجلِ دُنيا فانيَةٍ، ولا لأمرٍ يَخُصُّ نَفسَهُ، وإنما يكونُ غَضَبُهُ لله.

قالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «ما انتقَمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنَفسِهِ، إلا أن تُنتَهَكَ حُرمَةُ اللهِ، فينتَقِمَ للهِ بها»[١].

قال القاري رَحِمَهُ اللهُ: «كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يَغضَبُ لنَفسِهِ، وإنما كان يَغضَبُ للهِ، فيَشتَدُّ بِهِ ذلك الغضَبُ، حتى يُرَى أثَرُهُ من حُمرَةِ اللَّونِ ونَحوِها، في وجهِهِ الكريمِ»[٢].

وعن أبي مَسعودٍ الأنصاريِّ، قال: قال رَجُلٌ: يا رسولَ اللهِ، لا أكادُ أُدرِكُ الصَّلاةَ، مِمَّا يُطَوِّلُ بنا فُلانٌ، فما رَأيتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مَوعِظَةٍ أشَدَّ غَضَبًا من يومِئِذٍ، فقال: «**أيُّها الناسُ، إنَّكُم مُنَفِّرونَ، فمَن صَلَّى بالناسِ فليُخَفِّف، فإنَّ فيهِمُ المريضَ، والضَّعيفَ، وذا الحاجَةِ**»[٣].

---

(١) رواه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧).

(٢) مرقاة المفاتيح (١/ ٢٣٨).

(٣) رواه البخاري (٩٠).

قال القاري رَحِمَهُ اللهُ: «**التَّقييدُ بقولِهِ:** «في مَوعِظَةٍ» مُشعِرٌ بأنَّهُ لم يَكُن يَغضَبُ لنَفسِهِ»[1].

فالغَضَبُ عندَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَضَبٌ للهِ، لا اعتِداءَ فيه، ولا غُلوَّ، ولا حَظَّ فيه للنَّفسِ، ولا للشَّيطانِ.

عن عبدِاللهِ بنِ عَمرٍو، قال: كنتُ أكتُبُ كُلَّ شيءٍ أسمَعُهُ من رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُريدُ حِفظَهُ، فنَهَتني قُرَيشٌ، وقالوا: أتكتُبُ كُلَّ شيءٍ تَسمَعُهُ، ورسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَرٌ، يَتكَلَّمُ في الغَضَبِ والرِّضا؟ فأمسَكتُ عن الكِتابِ، فذَكَرتُ ذلك لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأومَأ بأُصبُعِهِ إلى فيه، فقال: «**اكتُب؛ فوالذي نَفسي بيَدِهِ ما يَخرُجُ منه إلا حَقٌّ**»[2].

وهُناكَ مَواقِفُ مُتَعَدِّدَةٌ، غَضِبَ فيها النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، منها:

* غَضَبُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على كُفَّارِ قُرَيشٍ وقادَةِ المُشرِكينَ الذينَ آذَوهُ:

فعن عُروَةَ، قال: قُلتُ لعبدِاللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ: ما أكثَرَ ما رَأيتَ قُرَيشًا أصابَت من رسولِ اللهِ، فيما كانت تُظهِرُ من عَداوَتِهِ؟

- قال: حَضَرتُهم، وقد اجتَمَعَ أشرافُهم يومًا في الحِجرِ، فذَكَروا رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- فقالوا: ما رَأينا مِثلَ ما صَبَرنا عليه من هذا الرجُلِ قَطُّ، سَفَّهَ أحلامَنا، وشَتَمَ آباءَنا، وعابَ دينَنا، وفَرَّقَ جَماعَتَنا، وسَبَّ آلِهَتَنا، لَقَد صَبَرنا منه على أمرٍ عَظيمٍ.

فَبينَما هم كَذلك، إذ طَلَعَ عليهم رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأقبَلَ يَمشي، حتى استَلَمَ الرُّكنَ، ثم مَرَّ بِهِم، طائِفًا بالبَيتِ.

فلَمَّا أن مَرَّ بِهِم غَمَزوهُ ببعضِ ما يقولُ[3].

- قال: فعَرَفتُ ذلك في وجهِهِ، ثم مَضَى، فلَمَّا مَرَّ بِهِمُ الثانيَةَ، غَمَزوهُ بمِثلِها، فعَرَفتُ ذلك في وجهِهِ، ثم مَضَى.

---

(١) مرقاة المفاتيح (٣/ ٨٧٢).

(٢) رواه أبوداود (٣٦٤٦)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٣) نالوا منه بألسنتهم.

ثم مَرَّ بهِمُ الثالثَةَ، فغَمَزوهُ بمِثلِها، فقال: «**تَسمَعونَ يا مَعشَرَ قُرَيشٍ، أما والذي نَفسُ محمدٍ بيَدِهِ، لَقَد جِئتُكُم بالذَّبحِ**».

فَأخَذَتِ القَومَ كَلِمَتُهُ، حتى ما منهم رَجُلٌ إلا كَأنَّما على رَأسِهِ طائِرٌ واقِعٌ، حتى إنَّ أشَدَّهم فيه وصاةً قبلَ ذلك لَيَرفَؤُهُ بأحسَنِ ما يَجِدُ من القولِ، حتى إنَّهُ لَيقولُ: انصَرِف يا أبا القاسِمِ، انصَرِف راشِدًا، فواللهِ ما كُنتَ جَهولًا!

فانصَرَفَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى إذا كان الغَدُ اجتَمَعوا في الحِجرِ وأنا مَعَهم، فقال بعضُهم لبعضٍ: ذَكَرتُم ما بَلَغَ مِنكُم، وما بَلَغَكُم عَنهُ، حتى إذا بادَأكُم بما تَكرَهونَ، تَرَكتُموهُ.

فَبينما هم في ذلك، إذ طَلَعَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوَثَبوا إليه وثبَةَ رَجُلٍ واحِدٍ، فأحاطوا بهِ، يقولونَ لَهُ: أنتَ الذي تقولُ كَذا وكذا؟ لما كان يَبلُغُهم عَنهُ، من عَيبِ آلِهَتِهِم، ودينِهِم.

فيقولُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نَعَم أنا الذي أقولُ ذلك**».

– قال: فلَقَد رَأيتُ رَجُلًا منهم، أخَذَ بمَجمَعِ رِدائِهِ، وقامَ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضيَ اللهُ تعالى عنه دونَهُ يقولُ –وَهوَ يَبكي–: «**أتَقتُلونَ رَجُلًا أن يقولَ رَبِّيَ اللهُ؟**»، ثم انصَرَفوا عَنهُ.

فإنَّ ذلك لَأشَدُّ ما رَأيتُ قُرَيشًا بَلَغَت منه قَطُّ[1].

والنبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يَتَهَدَّدهم إلا بعدَ أن أغضَبوهُ؛ وذلك لكَونِهِم غَمَزوهُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ، ونالوا من حَقِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعن عبدِاللهِ بن مَسعودٍ قال: بينما رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائِمٌ يُصَلِّي عندَ الكعبَةِ، وجَمعُ قُرَيشٍ في مَجالسِهِم، إذ قال قائِلٌ منهم[2]: ألا تَنظُرونَ إلى هذا المُرائي، أيُّكُم يَقومُ إلى جَزورِ

---

(١) رواه أحمد (٧٠٣٦)، وابن حبان في صحيحه (٦٥٦٧)، وحسنه محققو المسند، وأصله في البخاري (٣٦٧٨).

(٢) هو: أبو جهلٍ.

آلِ فُلانٍ[١]، فيَعمِدُ إلى فرثِها، ودَمِها، وسَلاها[٢]، فيَجيءُ بِهِ، ثم يُمهِلُهُ حتى إذا سَجَدَ وضَعَهُ بين كَتِفيه؟

فانبَعَثَ أشقَى القَوم[٣]، فجاءَ بِهِ، فنَظَرَ حتى سَجَدَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وضَعَهُ على ظَهرِهِ بين كَتِفيه، وأنا أنظُرُ لا أُغني شَيئًا، لَو كان لي مَنَعَةٌ، طَرَحتُهُ عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٤].

فَجَعَلوا يَضحَكونَ، ويُحيلُ بعضُهم على بعضٍ، ورسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساجِدٌ، لا يَرفَعُ رَأسَهُ.

فانطَلَقَ مُنطَلِقٌ إلى فاطمةَ، وهي جوَيريَةٌ، فأقبَلَت تَسعَى، وثَبَتَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساجِدًا، حتى ألقَتهُ عن ظَهرِهِ، وأقبَلَت عليهم تَسُبُّهم.

فلمَّا قَضَى رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلاةَ، رَفَعَ رَأسَهُ، ثم قال: «**اللهمَّ عليكَ بقُرَيشٍ، اللهمَّ عليكَ بقُرَيشٍ، اللهمَّ عليكَ بقُرَيشٍ**».

فَشَقَّ عليهم، إذ دَعا عليهم، وكانوا يَرَونَ أنَّ الدَّعوَةَ في ذلك البَلَدِ مُستَجابَةٌ.

ثم سَمَّى: «**اللهمَّ عليكَ الملَأَ من قُرَيشٍ، اللهمَّ عليكَ بأبي جَهلٍ، وعليكَ بعُتبَةَ بنِ رَبيعَةَ، وشَيبَةَ بنِ رَبيعَةَ، والوَليدِ بنِ عُتبَةَ، وأُمَيَّةَ بنِ خَلَفٍ، وعُقبَةَ بنِ أبي مُعَيطٍ، وعُمارَةَ بنِ الوَليدِ**».

قال عبدُاللهِ: فوالذي نَفسي بيَدِهِ، لَقَد رَأيتُ الذينَ عَدَّ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَرعَى في القَليبِ، قَليبِ بَدرٍ[٥]، غَيرَ أُمَيَّةَ، فإنَّهُ كان رَجُلاً ضَخماً، فلماَّ جَرُّوهُ تَقَطَّعَت أوصالُهُ[٦]، قبلَ أن يُلقَى في البِئرِ[٧].

---

(١) الجزور: ما يصلح لأن يذبح من الإبل، سمِّي بذلك؛ للجزر، وهو القطع. كشف المشكل (١/ ٢٨٠)، المعجم الوسيط (١/ ١٢٠).

(٢) السَّلا: هو اللِّفافة التي يكون فيها الولد في بطن الناقة، وسائر الحيوان، وهي من الآدميَّة: المشيمة.

(٣) هو: عقبة بن أبي معيطٍ.

(٤) وإنما قال ذلك؛ لأنه لم يكن له بمكَّة عشيرةٌ؛ لكونه هذليًا حليفًا، وكان حلفاؤه -إذ ذاك- كفَّارًا.

(٥) القليب: هي البئر التي لم تطو، وإنما وضعوا في القليب؛ تحقيرًا لهم، ولئلاَّ يتأذَّى الناس برائحتهم، والظَّاهر: أن البئر لم يكن فيها ماءٌ معينٌ.

(٦) الأوصال: المفاصل، والأعضاء.

(٧) رواه البخاري (٥٢٠) (٣١٨٥)، ومسلم (١٧٩٤).

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «واستَشكَلَ بعضُهم عَدَّ عُمارَةَ بنِ الوَليدِ في المذكورينَ؛ لأنَّهُ لم يُقتل ببَدرٍ، بل ذَكَرَ أصحابُ المغازي أنَّهُ ماتَ بأرضِ الحَبَشَةِ، ولَهُ قِصَّةٌ مع النَّجاشيِّ، إذ تَعَرَّضَ لامرَأتِهِ، فأمَرَ النَّجاشيُّ ساحِرًا فنَفَخَ في إحليل عُمارَةَ من سِحرِهِ؛ عُقوبَةً لَهُ، فتَوَحَّشَ وصارَ مع البَهائِمِ، إلى أن ماتَ في خِلافَةِ عمرَ، وقِصَّتُهُ مَشهورَةٌ.

والجَوابُ: أنَّ كَلامَ ابنِ مَسعودٍ في أنَّهُ رَآهم صَرعَى في القَليبِ، محمولٌ على الأكثَرِ، ويَدُلُّ عليه: أنَّ عُقبَةَ بنَ أبي مُعَيط لم يُطرَح في القَليبِ، وإنما قُتِلَ صَبرًا، بعدَ أن رَحَلوا عن بَدر ...»(١).

وفيه: حِلمُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمَّن آذاهُ، ففي رِوايَةِ الطَّيالسيِّ، عن ابنِ مَسعودٍ، قال: «فما رَأيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعا عليهم إلا يومَئِذٍ»(٢).

وما دَعا عليهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إلا لأنَّهم قَد آذَوهُ أشَدَّ الإيذاءِ، وأغضَبوهُ؛ بشَناعَةِ الفِعلِ الذي ارتكَبوهُ في حَقِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وَإنما استَحَقُّوا الدُّعاءَ حينَئِذٍ؛ لما أقدَموا عليه مِنَ الاستِخفافِ بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حالَ عِبادَةِ رَبِّهِ»(٣).

وفيه: قوَّةُ نَفسِ فاطمةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا من صِغَرِها؛ لشَرَفِها في قَومِها، ونَفسِها؛ لكَونِها صَرَخَت بشَتمِهِم، وهم رُءوسُ قُرَيشٍ، فلَم يَرُدُّوا عليها.

* وغَضِبَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تَنازُعِ الصَّحابَةِ، واختِلافِهم في القُرآنِ:

فعن عبدِاللهِ بن عَمرٍو، قال: لَقَد جَلَستُ أنا وأخي مجلِسًا، ما أُحِبُّ أنَّ لي بِهِ حُمرَ النَّعَمِ، أقبلتُ أنا وأخي، وإذا مَشيَخَةٌ من صَحابَةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جُلوسٌ عندَ بابٍ من أبوابِهِ.

---

(١) فتح الباري (١/ ٣٥١).

(٢) مسند الطَّيالسيِّ (٣٢٣).

(٣) فتح الباري (١/ ٣٥٢).

فكَرِهنا أن نُفَرِّقَ بينهم، فجَلَسنا حَجرَةً[١]، إذ ذَكَروا آيةً من القُرآنِ، فتَمارَوا فيها، حتى ارتَفَعَت أصواتُهم.

فَخرجَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُغضَبًا، قَد احمَرَّ وجهُهُ، يَرميهِم بالتُّرابِ، ويقولُ: «**مَهلًا يا قَومُ، بهذا أُهلِكَتِ الأُمَمُ من قبلِكُم، باختِلافِهِم على أنبيائِهِم، وضَربِهِمُ الكُتُبَ بعضَها ببعضٍ، إنَّ القُرآنَ لم يَنزِل يُكَذِّبُ بعضُهُ بعضًا، بل يُصَدِّقُ بعضُهُ بعضًا، فما عَرَفتُم منه، فاعمَلوا بهِ، وما جَهِلتُم منه، فرُدُّوهُ إلى عالِمِهِ**»[٢].

«فَتَكذيبُ القُرآنِ بالقُرآنِ، ودَفعُ بعضِهِ ببعضٍ، يكونُ سببًا للقَدحِ، والطَّعنِ فيه، ومِن هُنا: كان من حَقِّ الناظِرِ في القُرآنِ أن يَجتَهِدَ في التَّوفيقِ بين الآياتِ، والجَمعِ بين المُختَلِفاتِ، ما أمكَنَهُ.

فإنَّ القُرآنَ يُصَدِّقُ بعضُهُ بعضًا، فإن أُشكِلَ عليه شيءٌ من ذلك، ولم يَتيَسَّر له التَّوفيقُ، فليَعتَقِد أنَّهُ من سوءِ فهمِهِ، وليَكِلهُ إلى عالِمِهِ، وهو اللهُ ورسولُهُ»[٣].

وعن عبدِاللهِ بنِ عَمرٍو، قال: هَجَّرتُ[٤] إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومًا، فسَمِعَ أصواتَ رَجُلَينِ اختَلَفا في آيةٍ، فخرجَ عَلَينا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُعرَفُ في وجهِهِ الغَضَبُ، فقال: «**إنما هَلَكَ مَن كان قبلَكُم، باختِلافِهِم في الكِتابِ**»[٥].

«**إنما هَلَكَ مَن كان قبلَكُم**»:

أي: مِنَ اليَهودِ والنَّصارَى، باختِلافِهِم في الكِتابِ المُنَزَّلِ على نَبيِّهِم، بأن قال كُلُّ واحِدٍ منهم ما شاءَ من تِلقاءِ نَفسِهِ[٦].

---

(١) أي: منفردين.

(٢) رواه أحمد (٦٧٠٢)، وصححه محققو المسند.

(٣) فيض القدير (٦/ ٢٦٥) بتصرُّفٍ.

(٤) أتيته وقت الهاجرة، وهو نصف النَّهار، عند اشتداد الحرِّ.

(٥) مسلم (٢٦٦٦).

(٦) مرقاة المفاتيح (١/ ٢٣٨).

فَحَذَّرَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مِثلِ فِعلِهم[١].

وعن جُندَبٍ، قال: قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقرَءوا القُرآنَ ما ائتَلَفت عليه قُلوبُكُم، فإذا اختَلَفتُم، فقوموا عَنهُ**»[٢].

أي: إذا اختَلَفتُم في فهمِ مَعانيهِ، فقوموا، وتَفرَّقوا؛ لئَلَّا يَتَمادَى بكُمُ الاختِلافُ إلى الشَّرِّ.

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «والأمرُ بالقيامِ عندَ الاختِلاف في القُرآنِ محمولٌ عند العُلَماءِ على اختِلافٍ لا يجوزُ، أوِ اختِلافٍ يوقِعُ فيما لا يجوزُ، كاختِلافٍ في نَفسِ القُرآنِ، أو في مَعنًى منه لا يسوغُ فيه الاجتِهادُ، أوِ اختِلافٍ يوقِعُ في شَكٍّ، أو شُبهَةٍ، أو فِتنَةٍ، وخُصومَةٍ، أو شِجارٍ، ونَحوِ ذلك.

وأمَّا الاختِلافُ في استِنباطِ فُروعِ الدِّينِ منه، ومُناظَرَةُ أهلِ العِلمِ في ذلك، على سَبيلِ الفائِدَةِ، وإظهارِ الحَقِّ، واختِلافهم في ذلك: فليس منهيًّا عَنهُ، بل هو مَأمورٌ بهِ، وفَضيلَةٌ ظاهِرَةٌ، وقد أجمَعَ المسلمونَ على هَذا، من عَهدِ الصَّحابَةِ إلى الآنَ»[٣].

وقال القاضي عياضٌ رَحِمَهُ اللهُ: «وَيحتَمِلُ أن يكونَ المعنى: اقرَءوا والزَموا الائتِلافَ، على ما دَلَّ عليه، وقادَ إليه، فإذا وقَعَ الاختِلافُ، أو عَرَضَ عارِضُ شُبهَةٍ، يَقتَضِي المُنازَعَةَ الدَّاعيَةَ إلى الافتِراقِ: فاترُكوا القِراءَةَ، وتَمَسَّكوا بالمُحكَمِ الموجِبِ للأُلفَةِ، وأعرِضوا عن المُتَشابِهِ المُؤَدِّي إلى الفُرقَةِ»[٤].

*** وكَذلك غَضِبَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ التَّفَرُّقِ، الذي يكونُ نَتيجَةَ الاختِلافِ، في كَيفيَّةِ الأداءِ:**

فعنِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: سمعتُ رَجُلًا قَرَأ آيةً، وسمعتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقرَأُ خِلافَها، فجِئتُ بهِ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبَرتُهُ، فعَرَفتُ في وجهِهِ الكراهيَةَ.

---

(١) شرح النووي (١٦/ ٢١٨).

(٢) رواه البخاري (٥٠٦١)، ومسلم (٢٦٦٧).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٦/ ٢١٨).

(٤) فتح الباري (٩/ ١٠١).

وقال: «**كِلاكُما مُحسِنٌ، ولا تَختَلِفوا؛ فإنَّ مَن كان قبلَكُم اختَلَفوا؛ فهَلَكوا**»[١].

وفي هذا الحديثِ: الحَضُّ على الجَماعَةِ، والأُلفَةِ، والتَّحذيرُ مِنَ الفُرقَةِ، والاختِلافِ، والنَّهيُ عن المِراءِ في القُرآنِ بغَيرِ حَقٍّ، ومِن شَرِّ ذلك: أن تَظهَرَ دَلالَةُ الآيةِ على شيءٍ يُخالفُ الرأيَ، فيُتَوَسَّلُ بالنَّظَرِ وتَدقيقِهِ، إلى تَأويلِها، وحَملِها على ذلك الرأيِ، ويَقَعُ اللِّجاجُ في ذلك، والمُناضَلَةُ عليه[٢].

* وغَضِبَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنَ التَّنازُعِ في القَدَرِ:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرجَ عَلَينا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونَحنُ نَتَنازَعُ في القَدَرِ[٣]، فغَضِبَ، حتى احمَرَّ وجهُهُ، حتى كَأَنَّما فُقِئَ في وجنَتَيهِ الرُّمَّانُ[٤]، فقال:

«**أبهذا أُمِرتُم؟ أم بهذا أُرسِلتُ إلَيكُم؟ إنما هَلَكَ مَن كان قبلَكُم حينَ تَنازَعوا في هذا الأمرِ، عَزَمتُ عليكم ألَّا تَتَنازَعوا فيه**»[٥]

وإنما غَضِبَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّ القَدَرَ سِرٌّ من أسرارِ اللهِ تعالى، وطَلَبُ سِرِّ اللهِ منهيٌّ عَنهُ؛ ولأنَّ من يَبحَثُ فيه لا يَأمَنُ من أن يَصيرَ قَدَريًّا، أو جَبريًّا، والعِبادُ مَأمورونَ بقَبولِ ما أمَرَهمُ الشَّرعُ، من غَيرِ أن يَطلُبوا سِرَّ ما لا يَجوزُ طَلَبُ سِرِّهِ[٦].

والخَوضُ في القَدَرِ معضلَةُ أفهامٍ، ومَزَلَّةُ أقدامٍ؛ ولهذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إذا ذُكِرَ القَدَرُ فأمسِكوا**»[٧].

ولهذا لَمَّا سَأَلَ بلالُ بنُ أبي بُردَةَ محمدَ بنَ واسِعٍ: ما تقولُ في القَضاءِ والقَدَرِ؟

---

(١) رواه البخاري (٢٤١٠)، (٣٤٧٦).

(٢) فتح الباري (٩/ ١٠٣).

(٣) نتباحث في القدر، بالإثبات والنَّفي، وكأن كلاً منهم كان يستدلُّ بها يناسب مطلوبه من الآيات.

(٤) والمعنى: أنه من شدَّة حمرته، صار يشبه فقأ حبِّ الرُّمَّان في خدَّيه، من حيث الاحمرار، فهو كنايةٌ عن مزيد حمرة وجهه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المنبئة عن مزيد غضبه.

(٥) رواه الترمذي (٢١٣٣)، وحسنه الألباني.

(٦) مرقاة المصابيح (١/ ١٧٥).

(٧) رواه الطبراني في الكبير (١٤٢٧)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٤).

قال: «أيُّها الأميرُ، إنَّ اللهَ لا يَسألُ عِبادَهُ يومَ القيامَةِ عن قَضائِهِ وقَدَرِهِ، وإنما يَسألُهم عن أعمالِهم»[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكان التَّنازُعُ والاختِلافُ أشَدَّ شيءٍ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان إذا رَأى مِنَ الصَّحابَةِ اختِلافًا يَسيرًا في فهمِ النُّصوصِ، يَظهَرُ في وجهِهِ، حتى كأنَّما فُقِئَ فيه حَبُّ الرُّمَّانِ، ويقولُ: «أبهذا أُمِرتُم؟»»[٢].

* وغَضبَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المُعتَرِضينَ على حُكمِهِ:

فعن عبدِاللهِ بنِ الزبيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ رَجُلًا مِنَ الأنصارِ خاصَمَ الزبيرَ عندَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في شِراجِ الحَرَّةِ[٣]، كانا يَسقيانِ بهِ كِلاهما.

فاختَصَما عندَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٤].

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للزُّبَيرِ: «**اسقِ يا زُبَيرُ، ثم أرسِلِ الماءَ إلى جارِكَ**».

فَغَضِبَ الأنصاريُّ، فقال: أن كان ابنَ عَمَّتِكَ[٥].

فَتَلَوَّنَ وجهُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال: «**اسقِ يا زُبَيرُ، ثم احبِسِ الماءَ حتى يَبلُغَ الجَدرَ، ثم أرسِلِ الماءَ إلى جارِكَ**»[٦].

فاستَوعَى رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -حينَئِذٍ- حَقَّهُ، للزُّبَيرِ[٧].

---

(١) الاستذكار (٨/ ٢٥٩).

(٢) إعلام الموقِّعين (١/ ٢٥٩).

(٣) أي: مسيل الماء، الذي في الحرَّة.

(٤) لأن الماء كان يمرُّ بأرض الزبير قبل أرض الأنصاريِّ، فيحبسه لإكمال سقي أرضه، ثمَّ يرسله إلى أرض جاره، فالتمس منه الأنصاريُّ تعجيل ذلك، فامتنع.

(٥) كأنه قال: حكمت له بالتَّقديم؛ لأجل أنه ابن عمَّتك، وكانت أمُّ الزبير صفيَّة بنت عبد المطَّلب.

(٦) الجدر: هو ما وضع بين شربات النَّخل كالجدار، والشرَّبات: هي الحفر التي تحفر في أصول النَّخل، وقيل: المراد: الحواجز التي تحبس الماء.

(٧) استوفى له الحقَّ، وهو مأخوذٌ من الوعاء، كأنه جمعه في وعائه.

وكان رسولُ اللهِ ﷺ -قبلَ ذلك- أشارَ على الزبيرِ برأيٍ، فيه سَعَةٌ لَهُ وللأنصاريِّ، فلمَّا أحفَظَ الأنصاريُّ رسولَ اللهِ ﷺ[١]، استوعَى للزُّبَيرِ حَقَّهُ في صَرِيحِ الحُكمِ.

قال الزبيرُ: واللهِ ما أحسِبُ هَذِهِ الآيةَ نَزَلَت إلا في ذلك: ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ** ﴾ [النساء: ٦٥] الآيةَ[٢].

قولُهُ: «**رَجُلًا مِنَ الأنصارِ**»:

لَم يَقع تَسميةُ هذا الرجُلِ في شيءٍ من طُرُقِ الحديثِ، ولَعَلَّ الزبيرَ وبَقيَّةَ الرُّواةِ أرادوا سَترَهُ؛ لما وقَعَ منه، و**قيل**: إنَّ هذا الرجُلَ كان مُنافِقًا، ولكن أنكرَ كَثيرٌ مِنَ العُلَماءِ وصفهُ بالنِّفاقِ؛ لكَونِهِ شَهِدَ بَدرًا، كَما في رِوايَةٍ للبُخاريِّ: «أنَّ الزبيرَ خاصَمَ رَجُلًا مِنَ الأنصارِ، قَد شَهِدَ بَدرًا».

وجَزَمَ بعضُهم بأنَّهُ كان مُنافِقًا، ولكن وقَعَ منه ذلك قبلَ شُهودِهِ غَزوَةَ بَدرٍ؛ لانتِفاءِ النِّفاقِ عَمَّن شَهِدَها.

وأحسَنُ ما يُقال في هَذا: قولُ التُّورِبِشتيِّ: «قَد اجتَرَأ جَمعٌ بِنِسبَةِ هذا الرجُلِ إلى النِّفاقِ، وهو باطِلٌ؛ إذ كَونُهُ أنصاريًّا وصفُ مَدحٍ، ولم تَجرِ عادةُ السَّلَفِ بوَصفِ المُنافِقينَ بصِفَةِ النُّصرَةِ، التي هيَ المدحُ، ولو شارَكَهم في النَّسَبِ، بل هيَ زَلَّةٌ مِنَ الشَّيطانِ تَمَكَّنَ بهِ منه عندَ الغَضَبِ، وليس ذلك بمُستَنكَرٍ من غَيرِ المعصومِ في تِلكَ الحالَة»[٣].

ومعنى الحديثِ:

أنَّ النبيَّ ﷺ أمَرَهُ أن يَسقيَ، ويَأخُذَ بأيسَرِ ما يَكفيه مِنَ الماءِ، ثم يُرسِلَهُ إلى جارِهِ، فأبَى ذلك جارُهُ، واتَّهَمَ النبيَّ ﷺ، وأساءَ الظَّنَّ به.

فَغَضِبَ النبيُّ ﷺ، فأمَرَ الزبيرَ أن يَسقيَ، ويُمسِكَ الماءَ، حتى يَبلُغَ إلى مُنتَهَى حاجَتِهِ، واستوعَى للزُّبَيرِ حَقَّهُ.

---

(١) أي: أغضبه.

(٢) رواه البخاري (٢٣٥٩)، (٢٧٠٨)، ومسلم (٢٣٥٧).

(٣) فتح الباري (٥/ ٣٦)، عمدة القاري (١٢/ ٢٠٠).

ولَم يَحمِلهُ غَضَبُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أكثَر من أنِ استوعَى له حَقَّهُ، ونَزَلَ القُرآنُ بتَصديقِه[١].

وقال أبوعبيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان بالمدينَةِ واديانِ يَسيلانِ بماءِ المطَرِ، فيَتَنافَسُ الناسُ فيه، فقَضَى رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأعلى، فالأعلى»[٢].

وقال ابنُ عبدِالبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمعنى هذا الحديثِ: أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان قَد أشارَ على الزبيرِ بما فيه السَّعَةُ للأنصاريِّ، فلمّا كان منه ما كان مِنَ الجَفاءِ، استوعَبَ للزُّبَيرِ حَقَّهُ في صَريحِ الحُكمِ»[٣].

وقال المُهَلَّبُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَفي الحديثِ مِنَ الفِقهِ: الإشارَةُ بالصُّلحِ، والأمرُ بِهِ، وفيه: أنَّ للحاكِمِ أن يَستَوعيَ لكُلِّ واحِدٍ مِنَ المُتخاصِمَينِ حَقَّهُ، إذا لم يَرَ منهما قَبولاً للصُلحِ، ولا رِضًا بما أشارَ بهِ، كَما فعَلَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيه: تَوبيخُ مَن جَفا على الإمامِ والحاكِمِ، ومُعاقَبَتُهُ؛ لأنَّ النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عاقَبَهُ على قولِهِ: «أن كان ابنَ عَمَّتِكَ» بأن استوفَى للزُّبَيرِ حَقَّهُ»[٤].

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإنما لم يُعاقِبِ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صاحِبَ القِصَّةِ[٥]؛ لما كان عليه من تَأليفِ الناسِ، قال القرطبي: «فَلَو صَدَرَ مِثلُ هذا من أحَدٍ في حَقِّ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو في حَقِّ شَريعَتِهِ، لَقُتِلَ قِتلَةَ زِنديقٍ»[٦].

«**وَفيه مِنَ الفِقهِ**: أنَّهُ يَنبَغي الاقتِداءُ بالنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غَضَبِهِ، ورِضاهُ، وجَميعِ أحوالِهِ، وأن يَكظِمَ المُؤمِنُ غَيظَهُ، ويَملِكَ نَفسَهُ عندَ غَضَبِهِ، ولا يَحمِلَها على التَّعَدِّي والجَورِ، بل يَعفو، ويَصفَحُ»[٧].

(١) شرح ابن بطَّالٍ (٨/ ١٠٠).
(٢) فتح الباري (٥/ ٣٦).
(٣) التَّمهيد (١٧/ ٤٠٩).
(٤) شرح ابن بطَّالٍ (٦/ ٥٠١).
(٥) أي: بالقتل.
(٦) فتح الباري (٥/ ٤٠).
(٧) شرح ابن بطَّالٍ (٨/ ١٠٠).

وفيه: أنَّ مَن سَبَقَ إلى شيءٍ من مياهِ الأوديَةِ والسُّيولِ، التي لا تُملَكُ، فهو أحَقُّ بهِ، لكن ليس له -إذا استَغنَى- أن يَحبِسَ الماءَ عن الذي يَليهِ.

نَهَى النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن القَضاءِ في حال الغَضَبِ[١]، فلِماذا قَضَى على الأنصاريِّ في حال غَضَبِهِ؟

قال الخَطَّابيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَإنما حكَمَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الأنصاريِّ في حال غَضَبِهِ -مَعَ نَهيِهِ أن يَحكُمَ الحاكِمُ وهو غَضبانُ-؛ لأنَّ النَّهيَ مُعَلَّلٌ بما يُخافُ على الحاكِمِ مِنَ الخَطَأِ، والغَلَطِ، والنبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَأمونٌ لِعِصمَتِهِ من ذلك حالَ السَّخَطِ»[٢].

*** وغَضِبَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المُعتَرِضينَ على قِسمَتِهِ:**

فعَن عبدِالله بنِ مَسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قَسَمَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَسمًا، كَبعضِ ما كان يَقسِمُ، فقال رَجُلٌ من الأنصارِ: واللهِ إنَّها لَقِسمَةٌ ما أُريدَ بها وجهُ اللهِ!.

قُلتُ: أمَّا أنا: لَأقولَنَّ للنَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأتَيتُهُ وهو في أصحابِهِ، فسارَرتُهُ[٣]، فشَقَّ ذلك على النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتَغيَّرَ وجهُهُ، وغَضِبَ، حتى ودِدتُ أنِّي لم أكُن أخبَرتُهُ، ثم قال: «**فَمَن يَعدِلُ إذا لم يَعدِلِ اللهُ ورسولُهُ؟ يَرحَمُ اللهَ موسَى، قَد أوذيَ بأكثَرَ من هَذا، فصَبَرَ**»[٤].

ولا شَكَّ أنّ ما قالهُ هذا الرجُلُ يَستوجِبُ القَتلَ، ولم يُذكَر في الحديثِ أنّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاقَبَهُ أصلًا.

فيقال: كان في تَركِ قَتلِ أمثال هَؤلاءِ ومُعاقَبَتِهِم في حَياةِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَصلَحَةٌ، تَتَضَمَّنُ تَأليفَ القُلوبِ على رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجَمعَ كَلِمَةِ الناسِ عليه، فروعيت تِلكَ المصلَحَةُ.

---

(١) روى مسلم (١٧١٧) عن أبي بكرة، قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لا يحكم أحدٌ بين اثنين وهو غضبان».

(٢) فتح الباري (٥/ ٣٨-٣٩).

(٣) أي: قلت له سًرا.

(٤) رواه البخاري (٣٤٠٥)، (٦١٠٠)، مسلم (١٠٦٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن قيل: فالنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يَقتُلْ عبدَاللهِ بنَ أُبَيٍّ، وقد قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ».

وَلَم يَقتُل ذا الخوَيصِرَةِ التَّميميَّ، وقد قال لَهُ: اعدِل، فإنَّكَ لم تَعدِل.

ولَم يَقتُلِ القائِلَ لَهُ: إنَّ هَذِهِ القِسمَةَ ما أُريدَ بها وجهُ اللهِ.

ولَم يَقتُل مَن قال له لَّما حَكَمَ للزُّبَيرِ بتَقديمِهِ في السَّقيِ: أن كان ابنَ عَمَّتِكَ.

وغَيرَ هَؤُلاءِ مِمَّن كان يَبلُغُهُ عنهم أذًى له وتَنَقُّصٌ.

قيل: الحَقُّ كان لَهُ، فلَهُ أن يَستوفيَهُ، ولَهُ أن يُسقِطَهُ، وليس لَمن بعدَهُ أن يُسقِطَ حَقَّهُ، كَما أنَّ الربَّ تعالى له أن يَستَوفيَ حَقَّهُ، ولَهُ أن يُسقِطَهُ، وليس لأحَدٍ أن يُسقِطَ حَقَّهُ تعالى بعدَ وُجوبِهِ.

كَيفَ، وقد كان في تَركِ قَتلِ مَن ذُكِرَ وغَيرِهِم مَصالحُ عَظيمَةٌ في حَياتِهِ، زالَت بعدَ مَوتِهِ، من تَأليفِ الناسِ، وعَدَمِ تَنفيرِهِم عَنهُ؟

فإنَّهُ لَو بَلَغَهم أَنَّهُ يَقتُلُ أصحابَهُ لَنَفِروا، وقد أشارَ إلى هذا بعَينِهِ، وقال لعمرَ -لَّما أشارَ عليه بقَتلِ عبدِاللهِ بنِ أُبَيٍّ-: «**لا يَبلُغُ الناسَ أنَّ محمدًا يَقتُلُ أصحابَهُ**»[1].

ولا رَيبَ أنَّ مَصلَحَةَ هذا التَّأليفِ، وجَمعِ القُلوبِ عليه، كانت أعظَمَ عندَهُ، وأحَبَّ إليه، مِنَ المصلَحَةِ الحاصِلَةِ بقَتلِ مَن سَبَّهُ وآذاهُ.

ولهذا لَّما ظَهَرَت مَصلَحَةُ القَتلِ، وتَرَجَّحَت جِدًّا: قَتَلَ السَّابَّ، كَما فعلَ بكَعبِ بنِ الأشرَفِ؛ فإنَّهُ جاهَرَ بالعَداوَةِ، والسَّبِّ، فكان قَتلُهُ أرجَحَ من إبقائِهِ، وكذلكَ قتلُ ابنِ خَطلٍ، ومقيس، والجاريَتينِ، وأُمِّ وَلَدِ الأعمى.

فَقَتَلَ للمَصلَحَةِ الراجِحَةِ، وكَفَّ للمَصلَحَةِ الراجِحَةِ، فإذا صارَ الأمرُ إلى نوَّابِهِ وخُلَفائِه، لم يَكُن لهم أن يُسقِطوا حَقَّهُ»[2].

---

(١) هو في الصحيحين بلفظ: «دعه، لا يتحدَّث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»، وفي حديث آخر، عند أحمد (١٤٨٢٠)، قال: «معاذ الله أن تتسامع الأمم، أن محمدًا يقتل أصحابه»، وحسنه محققو المسند.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٣٨٧).

ومِن فوائِدِ الحديثِ:

- جَوازُ المسارَّةِ بالحاجَةِ في حَضرَةِ الجَماعَةِ، وإنما المنهيُّ: أن يتَناجَى اثنانِ دونَ الثالثِ.
- جَوازُ إخبارِ الإمامِ وأهلِ الفَضلِ بما يُقال فيهم، مِمَّا لا يَليقُ بِهِم؛ ليَحذَروا القائِلَ.
- بَيانُ ما يُباحُ مِنَ الغيبَةِ والنَّميمَةِ؛ لأنَّ صورَتَهما مَوجودَةٌ في صَنيعِ ابنِ مَسعودٍ هَذا، ولم يُنكِرهُ النبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وذلك أنَّ قَصدَ ابنِ مسعودٍ كان نُصحَ النبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وإعلامَهُ بمَن يَطعَنُ فيه، مِمَّن يُظهِرُ الإسلامَ ويُبطِنُ النِّفاقَ؛ ليَحذَرَ منه، وهذا جائِزٌ، كَما يَجوزُ التَّجَسُّسُ على الكُفَّارِ؛ ليُؤمَنَ من كَيدِهِم.
- وفيه: أنَّ أهلَ الفَضلِ قَد يُغضِبُهم ما يُقال فيهم، مِمَّا ليس فيهم، ومَعَ ذلك: فإنَّهم يَتَلَقَّونَ ذلك بالصَّبرِ، والحِلمِ، كَما صَنَعَ النبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ اقتِداءً بموسَى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ[1].

وقال ابنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي تَمَعُّرِ وجهِ النبيِّ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حينَ أُخبِرَ بقولَةِ الأنصاريِّ مِنَ الفِقهِ: أنَّ أهلَ الفَضلِ والخَيرِ، قَد يَعِزُّ عليهم ما يُقال فيهم مِنَ الباطِلِ، ويَكبُرُ عليهم، فإنَّ ذلك جِبِلَّةٌ في البَشَرِ، فطَرَهمُ اللهُ عليها، إلا أنَّ أهلَ الفَضلِ يَتَلَقَّونَ ذلك بالصَّبرِ الجَميلِ؛ اقتِداءً بمَن تَقَدَّمَهم مِنَ المُؤمِنينَ، ألا تَرَى أنَّ الرسولَ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قَدِ اقتَدَى في ذلك بصَبرِ موسَى؟»[2].

(١) فتح الباري (١٠/ ٥١٢)، مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٧٨٤).
(٢) شرح ابن بطَّالٍ (٩/ ٢٥٢).

ملاطَفاتُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ألطفَ الناسِ، وأفضَلَهم خُلُقًا، وأحسَنَهم عِشرَةً، وألينَهم جانِبًا، مع أهلِ بيتِهِ، وأصحابِهِ، ومَعَ الأطفال، ومَعَ عُمومِ الناسِ، وخُصوصِهِم،** قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

معنى المُلاطَفَةِ، والفَرقُ بينها وبين المُزاحِ:

اللُّطفُ في كَلامِ العَرَبِ، مَعناهُ: البِرُّ، والتَّكرُمَةُ، والمُلاطَفَةُ: المُبارَّةُ، يُقال: «فُلانٌ لَطيفٌ بهذا الأمرِ» أي: رَفيقٌ[(١)].

والمُزاحُ: المُداعَبَةُ، وهو نَقيضُ الجِدِّ، يُقال: مَزَحَ يَمزَحُ مَزحًا ومِزاحًا ومُزاحًا ومُزاحَةً، والاسمُ: المُزاحُ، والمُزاحَةُ[(٢)].

والمُزاحُ من جُملَةِ المُلاطَفَةِ، والمُداعَبَةِ، لكنَّ المُلاطَفَةَ أخَفُّ، وهو أدَبٌ يَتَميَّزُ بِهِ المُلاطِفُ ذو الوُدِّ، ولِذلك يكونُ أثَرُها -غالبًا- حَميدًا، أمَّا المُزاحُ: فإذا لم يَنضَبِط، فرُبَّما دَعا إلى الاختِلافِ، بل إلى المُقاتَلَةِ.

والمُلاطَفَةُ، والمُداعَبَةُ، والمُمازَحَةُ، كُلُّها مُتَقارِبَةٌ، بابُها: الإيناسُ، والتَّرويحُ.

---

(١) الصِّحاح (٤/ ١٤٢٧)، تهذيب اللغة (١٣/ ٢٣٥)، لسان العرب (٩/ ٣١٦).

(٢) لسان العرب (٢/ ٥٩٣).

* مُلاطَفَتُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لزَوجاتِهِ:

لَقَد أمَرَ اللهُ تعالى بإحسانِ عِشرَةِ الزَّوجاتِ، وحُسنِ مُعامَلَتِهِنَّ بالمعروفِ؛ فقال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ۝﴾ [النساء: ١٩]، ومُلاطَفَةُ الزَّوجَةِ من حُسنِ العِشرَةِ.

وحَثَّ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأزواجَ على مُلاطفةِ زوجاتِهِم؛ لأنَّها تَجلِبُ المسَرَّةَ للقُلوبِ، وتُحَبِّبُ الطَّرفينِ إلى بعضِهِما.

فقال لجابِرِ بنِ عبدِالله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا -لَمَّا تَزَوَّجَ-: «**هَلَّا جاريَةً تُلاعِبُها، وتُلاعِبُكَ، وتُضاحِكُها، وتُضاحِكُكَ؟**»(١).

وقال: «**كُلُّ شيءٍ ليس من ذِكرِ اللهِ** عَزَّ وَجَلَّ **فهو لَهوٌ، إلا أربَعَ خِصالٍ: مَشيُ الرجُلِ بين الغَرَضَينِ**(٢)**، وتَأديبُهُ فرَسَهُ، ومُلاعَبَةُ أهلِهِ، وتَعَلُّمُ السِّباحَةِ**»(٣).

فالمُلاعَبَةُ والمُضاحَكَةُ بين الزَّوجَينِ، تَملَأُ القُلوبَ مَسَرَّةً، والبَيتَ أُنسًا ومَحَبَّةً؛ فتقوى الرابِطَةُ الزَّوجيَّةُ، وتَتَعَمَّقُ الأُلفَةُ والمَودَّةُ والمحبَّةُ بين الزَّوجَينِ.

ولَنا الأُسوَةُ الحَسَنَةُ في رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كانت سيرَتُهُ مع أزواجِهِ: حُسنَ المُعاشَرَةِ، وحُسنَ الخُلُقِ، وكان يُرسِلُ إلى عائشةَ بَناتِ الأنصارِ يَلعَبنَ مَعَها، وكان إذا هَوِيَت شَيئًا لا مَحذورَ فيه تابَعَها عليه، وكانت إذا شَرِبَت مِنَ الإناءِ أخَذَهُ، فوَضَعَ فمَهُ في مَوضِعِ فمِها، وشَرِبَ، وكان إذا تَعَرَّقَت عَرقًا(٤) أخَذَهُ، فوَضَعَ فمَهُ مَوضِعَ فمِها، وكان من لُطفِهِ وحُسنِ خُلُقِهِ مع أهلِهِ: أنَّهُ يُمَكِّنُها مِنَ اللَّعِبِ، ويُريها الحَبَشَةَ وهم يَلعَبونَ في مَسجِدِهِ، وهي مُتَّكِئَةٌ على مَنكِبَيهِ تَنظُرُ، وسابَقَها في السَّفَرِ على الأقدامِ مَرَّتَينِ، وتَدافَعا في خُروجِهِما مِنَ المنزِلِ مَرَّةً»(٥).

---

(١) رواه البخاري (٥٣٦٧)، ومسلم (٧١٥).

(٢) الغرض: هو ما يقصده الرُّماة بالإصابة.

(٣) رواه النسائي في الكبرى (٨٨٨٩)، والطبراني في الكبير (١٧٨٥)، والأوسط (٨١٤٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣١٥).

(٤) وهو العظم الذي عليه لحمٌ.

(٥) زاد المعاد (١/ ١٤٦) بتصرُّفٍ يسيرٍ.

* مُلاطَفَتُه لعائشةَ، في لُعَبٍ كانت تَلعَبُ بها:

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: قَدِمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غَزوَةِ تبوكَ، أو خَيبَرَ، وفي سَهوَتِها[1] سِترٌ، فهَبَّت ريحٌ، فكَشَفَت ناحيَةَ السِّترِ عن بَناتٍ لعائشةَ، لُعَبٍ.

- فقال: «**ما هذا يا عائشةُ؟**».

- قالت: بَناتي.

ورَأى بينهُنَّ فرَسًا، له جَناحانِ من رِقاعٍ[2].

- فقال: «**ما هذا الذي أرَى وسطَهُنَّ؟**».

- قالت: فرَسٌ.

- قال: «**وَما هذا الذي عليه؟**».

- قالت: جَناحانِ.

- قال: «**فَرَسٌ له جَناحانِ؟!**».

- قالت: أما سمعتَ أنَّ لسُلَيمانَ خَيلًا لها أجنِحَةٌ؟ فضَحِكَ حتى رَأيتُ نَواجِذَهُ[3].

* وأدخَلَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأطفالَ على عائشةَ؛ ليَلعَبنَ مَعَها:

فعنها -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-، قالت: كنتُ ألعَبُ بالبَناتِ عندَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان لي صَواحِبُ يَلعَبنَ مَعي، فكان رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا دَخَلَ يَتَقَمَّعنَ[4] منه، فيُسرِّبُهُنَّ[5] إلَيَّ، فيَلعَبنَ مَعي»[6].

---

(١) ما يشبه الرقَّ أو الطَّاق، الذي يوضع فيه الشيَّء.

(٢) خرقٍ.

(٣) رواه أبوداود (٤٩٣٢)، وصححه الألباني.

(٤) يستترن.

(٥) يرسلهنَّ واحدةً بعد الأخرى.

(٦) رواه البخاري (٦١٣٠)، ومسلم (٢٤٤٠).

وهذا الحديثُ بَوَّبَ عليه البخاري في صَحيحِهِ: «بابُ الانبِساطِ إلى الناسِ، والدُّعابَةِ مع الأهلِ»[١].

وقال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فيه**: حُسنُ الْمُعاشَرَةِ مع الأهلِ»[٢].

* وسابَقَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عائشةَ:

فعنها -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا-، قالت: خرجتُ مع النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعضِ أسفارِهِ، وأنا جاريَةٌ لم أحمِلِ اللَّحمَ، ولم أبدُن، فقال للنَّاسِ: «**تَقَدَّموا**»، فتَقَدَّموا، ثم قال لي: «**تَعالَي؛ حتى أُسابِقَكِ**»، فسابَقتُهُ، فسَبَقتُهُ، فسَكَتَ عَنِّي، حتى إذا حَمَلتُ اللَّحمَ، وبَدُنتُ، ونَسيتُ، خرجتُ مَعَهُ في بعضِ أسفارِهِ، فقال للنَّاسِ: «**تَقَدَّموا**»، فتَقَدَّموا، ثم قال: «**تَعالَي؛ حتى أُسابِقَكِ**»، فسابَقتُهُ، فسَبَقَني، فجَعَلَ يَضحَكُ، وهو يقولُ: «**هَذِهِ بتِلكَ**»[٣].

ورَواهُ النَّسائيُّ في الكُبرَى (٨٨٩٦)، وفيه: فقُلتُ: كَيفَ أُسابِقُكَ يا رسولَ اللهِ، وأنا على هَذِهِ الحال؟ فقال: «**لَتَفعَلِنَّ**» فسابَقتُهُ، فسَبَقَني، فقال: «**هَذِهِ، بتِلكَ السَّبقَةِ**».

قال أبو حامِدٍ الغَزاليُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عَلى الزَّوجِ أن يَزيدَ على احتِمال الأذَى مِنَ الزَّوجَةِ، بالْمُداعَبَةِ، والمزحِ، والْمُلاعَبَةِ، فهيَ التي تُطَيِّبُ قُلوبَ النِّساءِ، وقد كان رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمزَحُ مَعَهُنَّ، ويَنزِلُ إلى دَرَجاتِ عُقولِهِنَّ في الأعمال، والأخلاقِ، حتى إنَّهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُسابِقُ عائشةَ في العَدوِ، فسَبَقَتهُ يومًا، وسَبَقَها في بعضِ الأيَّامِ، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «هذه بتلك»[٤].

وذَكَرَهُ ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في بابِ**: «**ذِكرُ مُزاحِهِ ومُداعَبَتِهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» من كِتابِهِ: «صِفَةِ الصَّفوَةِ»[٥].

---

(١) صحيح البخاري (٨/ ٣٠).

(٢) مرقاة المفاتيح (٥/ ٢١١٩).

(٣) رواه أبوداود (٢٥٧٨)، وابن ماجه (١٩٧٩)، والإمام أحمد (٢٦٢٧٧) والسِّياق له، وصححه الألباني في الصحيحة (١٣١).

(٤) إحياء علوم الدِّين (٢/ ٤٤).

(٥) صفة الصفوة (١/ ٦٩).

* وكان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُلاطفُ زَوجتَهُ عِندَ النّداءِ، بالتَّرخيمِ، والتَّصغيرِ:

ومعنى التَّرخيمِ: حَذفُ آخِرِ الاسمِ تخفيفًا، خاصَّةً في النِّداءِ، أو لضَرورَةٍ شِعريَّةٍ، مِثلُ: «يا صاحِ» أي: «يا صاحِبي»، «يا فاطِمَ» أي: «يا فاطمةُ»، وهَكَذا.

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومًا: «**يا عائش، هذا جبريلُ يُقرِئُكِ السَّلامَ**»، فقُلتُ: وعَلَيْهِ السَّلَامُ ورَحمَةُ اللهِ وبَرَكاتُهُ، تَرَى ما لا أرَى- تُريدُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-(١).

قال ابنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللهُ: «قولُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**ياعائش**»، «**يا أنجَش**»، من بابِ النِّداءِ المُرَخَّمِ، والتَّرخيمُ: نُقصانُ أواخِرِ الأسماءِ، تَفعَلُ ذلك العَرَبُ على وجهِ التَّخفيفِ»(٢).

وعَنها -أيضًا- رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: دَخَلَ الحَبَشَةُ المسجِدَ يَلعَبونَ، فقال لي رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا حُمَيراءُ، أتُحِبِّينَ أن تَنظُري إليهم؟**» فقُلتُ: نعم(٣).

وقال القاضي عياضٌ رَحِمَهُ اللهُ: «قولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعائشةَ: «**يا حُمَيراءُ**»، تَصغيرُ إشفاقٍ، ورَحمَةٍ، ومَحبَّةٍ»(٤).

وقال الكفَويُّ رَحِمَهُ اللهُ: «التَّصغيرُ يَجيءُ لمَعانٍ، منها: التَّكريمُ، والتَّلطيفُ: كـ(أُخَيّ)، و(بُنَيّ)، وكَقولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في عائشةَ: «**حُمَيراءُ**»(٥).

* مُلاطَفتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، ودِفاعُهُ عَنها:

عنِ النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: جاءَ أبو بكرٍ يَستَأذِنُ على النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسَمِعَ

---

(١) رواه البخاري (٣٧٦٨)، ومسلم (٢٤٤٧).

(٢) شرح صحيح البخاري (٩/ ٣٥٠).

(٣) رواه النسائي في الكبرى (٨٩٠٢)، وصححه الحافظ في الفتح (٢/ ٤٤٤)، والألباني في الصحيحة (٣٢٧٧)، وقال ابن الأثير في النهاية (١/ ٤٣٨): «الحميراء: تصغير الحمراء، يريد البيضاء».

(٤) المشارق (١/ ٣٥٨).

(٥) الكلِّيَّات (ص٣٠٢-٣٠٣).

عائشةَ، وهي رافِعَةٌ صَوتَها على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأذِنَ لَهُ، فدَخَلَ، فقال: يا ابنَةَ أُمِّ رومانَ! -وَتَناوَلَها-، أترفَعينَ صَوتَكِ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: فحالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينهُ وبينها، قال: فلمَّا خرجَ أبو بكرٍ جَعَلَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ لها -يَتَرَضَّاها-: **«ألا تَرينَ أنِّي قَد حُلتُ بينَ الرجُلِ وبينكِ؟»**، وفي رواية: **«كَيفَ رَأيتِني أنقَذتُكِ مِنَ الرجُلِ؟»**.

قال: ثم جاءَ أبو بكرٍ، فاستَأذَنَ عليه، فوَجَدَهُ يُضاحِكُها، قال: فأذِنَ لَهُ، فدَخَلَ، فقال له أبو بكرٍ: يا رسولَ اللهِ، أشرِكاني في سِلمِكُما، كَما أشرَكتُماني في حَربِكُما![1].

قال في عَونِ المعبودِ: «قولُهُ: «أنقَذتُكِ مِنَ الرجُلِ» ولم يَقُل: «من أبيكِ»، وإبعادُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكرٍ عن عائشةَ؛ تَطييبًا، ومُمازَحَةً، كُلُّ ذلك داخِلٌ في المُزاحِ؛ ولِذا أورَدَهُ المُؤَلِّفُ في بابِ المُزاحِ»[2].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: رَجَعَ إلَيَّ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاتَ يومٍ من جِنازَةٍ بالبَقيعِ، وأنا أجِدُ صُداعًا في رَأسي، وأنا أقولُ: وارَأساه! قال: **«بل أنا وارَأساه!»** قال: **«ما ضَرَّكِ لَو مِتِّ قبلي، فغَسَّلتُكِ، وكَفَّنتُكِ، ثم صَلَّيتُ عليكِ، ودَفَنتُكِ؟»**.

قُلتُ: لَكَأنِّي بكَ -واللهِ- لَو فعَلتَ ذلك، لَقَد رَجَعتَ إلى بَيتي، فأعرَستَ[3] فيه ببعضِ نِسائِكَ! فتبَسَّمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم بُدِئَ بوَجَعِهِ الذي ماتَ فيه[4].

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وفي الحديثِ**: ما طُبِعَت عليه المرأةُ مِنَ الغَيرَةِ، **وفيه**: مُداعَبَةُ الرجُلِ أهلَهُ، والإفضاءُ إليهم بما يَستُرُهُ عن غَيرِهِم، **وفيه**: أنَّ ذِكرَ الوَجَعِ ليس بشِكايَةٍ؛ فكَم من ساكِتٍ وهو ساخِطٌ، وكَم من شاكٍ وهو راضٍ، فالمُعَوَّل في ذلك على عَمَلِ القَلبِ، لا على نُطقِ اللِّسانِ»[5].

---

(١) رواه أبوداود (٤٩٩٩)، والإمام أحمد (١٨٣٩٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٩٠١).

(٢) عون المعبود (١٣/ ٢٣٤).

(٣) بنيت.

(٤) رواه أحمد (٢٥٩٠٨)، وابن ماجه (١٤٦٥)، وحسنه محققو المسند، وأصله في البخاري (٥٦٦٦).

(٥) فتح الباري (١٠/ ١٢٥).

* مُلاطَفَتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأطفال:

الأطفالُ: هم ثَمَرَةُ الفُؤادِ، وبَهجَةُ الحَياةِ؛ كَما قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

وقد كان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُلاطِفُ الأطفالَ، ويُلاعِبُهم، ويُراعي سِنَّهم، وعُقولَهم، ومَيلَهم إلى اللَّعِبِ، والمَرَحِ.

* ومِن مُلاطَفَتِهِ لهم: مَسحُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُؤوسَهم، وضمُّهم إليهِ:

قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «مَسَحَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأسي، ودَعا لي بالحِكمَةِ»(١).

وعندَ البخاري: ضَمَّني النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى صَدرِهِ، وقال: «**اللهمَّ عَلِّمهُ الحِكمَةَ**»(٢).

وعن جابِرِ بنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «صَلَّيتُ مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلاةَ الأولى(٣)، ثم خرجَ إلى أهلِهِ، وخرجتُ مَعَهُ، فاستَقبَلَهُ وِلدانٌ، فجَعَلَ يَمسَحُ خَدَّي أحَدِهِم، واحِدًا، واحِدًا، قال: وأمَّا أنا: فمَسَحَ خَدِّي، قال: فوَجَدتُ لِيَدِهِ بَردًا، -أو ريحًا- كَأنَّما أخرَجَها من جُؤنَةِ عَطَّارٍ»(٤).

فَمَسحُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصِّبيانَ؛ مُلاطَفَةٌ لَهم.

* ومِن ذلك: مُناداتُهُ أحدَهم: يا بُنَيَّ.

عن أنسِ بنِ مالكٍ، قال: قال لي رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا بُنَيَّ**»(٥).

قال القاضي عياضٌ رَحِمَهُ اللهُ: «**فيه**: جَوازُ قولِ الرجُلِ للصَّبيِّ والشَّابِّ: يا ابني، ويا

---

(١) رواه الإمام أحمد (١٨٤٠)، وصحَّح إسناده محققو المسند على شرط البخاري.

(٢) صحيح البخاري (٣٧٥٦).

(٣) هي صلاة الظهر.

(٤) رواه مسلم (٢٣٢٩)، وجؤنة العطَّار: ما يعد فيها الطِّيب، ويحفظ.

(٥) رواه مسلم (٢١٥١).

ولَدي، وجَوازُ تَصغيرِ ذلك كَما هُنا. وتَحقيقُهُ: أنَّكَ في السِّنِّ بمَنزِلَةِ ولَدي، أو في الحَنانِ، والمحَبَّةِ»[١].

وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وفي الحديثِ**: جَوازُ قولِ الإنسانِ لغَيرِ ابنِهِ، **ممَّن** هو أصغَرُ سِنًّا منه: يا ابني، ويا بُنَيَّ -مُصَغَّرًا-، ويا ولَدي، ومَعناهُ: تَلَطُّف، وإنَّكَ عندي بمَنزِلَةِ ولَدي في الشَّفَقَةِ، وكذا يُقال لَهُ، ولِمَن هو في مِثلِ سِنِّ المُتكَلِّمِ: يا أخي؛ للمعنى الذي ذَكَرناهُ، وإذا قَصَدَ التَّلَطُّفَ كان مُستَحَبًّا، كَما فعَلَهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[٢].

ورُبَّما كَنَّى بعضَهم:

ومِن أشهَرِ ما ثَبَتَ في السُّنَّةِ في بابِ مُمازَحَةِ الصِّبيانِ، ومُلاطَفَتِهِم: حديثُ أبي عُمَيرٍ.

عن أنسٍ، قال: كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسَنَ الناسِ خُلُقًا، وكان لي أخٌ، يُقال لَهُ: أبو عُمَيرٍ -قال: أحسِبُهُ فطيمًا-، وكان إذا جاءَ قال: «**يا أبا عُمَيرٍ، ما فعَلَ النُّغَيرُ؟**» نُغَرٌ كان يَلعَبُ بهِ[٣].

وفي رواية للبُخاريِّ: إن كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيُخالطُنا، حتى يقولَ لأخٍ لي صَغيرٍ: «**يا أبا عُمَيرٍ، ما فعَلَ النُّغَيرُ؟**»[٤].

«**يُخالطُنا**»: أي: يُلاطِفُنا، بطَلاقَةِ الوَجهِ، والمزحِ[٥].

وعندَ أحمَدَ: كان لأبي طَلحَةَ ابنٌ، يُقال لَهُ: أبو عُمَيرٍ، فكان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُضاحِكُهُ، قال: فرَآهُ حَزينًا، فقال: «**يا أبا عُمَيرٍ، ما فعَلَ النُّغَيرُ؟**»[٦].

وأبو عُمَيرٍ -هَذا-: هو ابنُ أبي طَلحَةَ، صاحِبُ القِصَّةِ المشهورَةِ:

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٧/ ٢٧).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٢٩).

(٣) رواه البخاري (٦٢٠٣)، ومسلم (٢١٥٠)، والنُّغر: طيْرٌ صغيْرٌ، كالعصفور.

(٤) صحيح البخاري (٦١٢٩).

(٥) عمدة القاري (٢٢/ ١٧٠).

(٦) المسند (١٢١٣٧).

فعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: اشتكَى ابنٌ لأبي طَلحَةَ، قال: فماتَ، وأبو طَلحَةَ خارِجٌ، فلمَّا رَأتِ امرَأتُهُ أنَّهُ قَد ماتَ، هَيَّأت شَيئًا، ونَحَّتهُ في جانِبِ البَيتِ، فلمَّا جاءَ أبو طَلحَةَ، قال: كَيفَ الغُلامُ؟ قالت: قَد هَدَأت نَفسُهُ، وأرجو أن يكونَ قَدِ استَراحَ، وظَنَّ أبو طَلحَةَ أنَّها صادِقَةٌ، قال: فباتَ، فلمَّا أصبَحَ اغتَسَلَ، فلمَّا أرادَ أن يَخرُجَ أعلَمَتهُ أنَّهُ قَد ماتَ، فصَلَّى مع النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم أخبَرَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما كان منهما، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَعَلَّ اللهَ أن يُبارِكَ لَكُما في لَيلَتِكُما**».

قال سُفيانُ[1]: فقال رَجُلٌ مِنَ الأنصارِ: فرَأيتُ لهما تِسعَةَ أولادٍ، كُلُّهم قَد قَرَأ القُرآنَ[2].

قال الحافِظُ رَحِمَهُ اللهُ: «**قولُهُ:** «اشتكَى ابنٌ لأبي طَلحَةَ»: الابنُ المذكورُ هو أبو عُمَيرٍ، الذي كان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُمازِحُهُ، ويقولُ لَهُ: «**يا أبا عُمَيرٍ، ما فعَلَ النُّغَيرُ؟**»»[3].

وقال في الإصابَةِ: «قيل: اسمُهُ حَفصٌ، وماتَ في حَياةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[4].

* مِن فوائِدِ حديثِ أبي عُمَيرٍ، وما فيه مِنَ الفِقهِ والعِلمِ:

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «**في هذا الحديثِ فوائِدُ كَثيرَةٌ جِدًّا، منها:** ... مُلاطَفَةُ الصِّبيانِ، وتَأنيسُهم، وبَيانُ ما كان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه من حُسنِ الخُلُقِ، وكَرَمِ الشَّمائِلِ، والتَّواضُعِ»[5].

وفيه: جَوازُ التَّكنيَةِ للصَّغيرِ، ولا يكونُ كَذَّابًا، واستِعمالُ السَّجعِ في بعضِ الأحايينِ.

وفيه: جَوازُ المُزاحِ والدُّعابَةِ، فيما ليس فيه إثمٌ.

وفيه: جَوازُ تَصغيرِ بعضِ الأسماءِ والمخلوقاتِ.

---

(١) ابن عيينة، راوي الحديث.

(٢) رواه البخاري (١٣٠١) -واللفظ له-، ومسلم (٢١٤٤).

(٣) الفتح (٣/ ١٧٠).

(٤) الإصابة (٧/ ٢٤٧).

(٥) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٢٩).

وفيه: جَوازُ لَعِبِ الصَّبيِّ بالطَّيرِ الصَّغيرِ، ومعنى هذا اللَّعِبِ عندَ العُلَماءِ: إمساكُهُ لَهُ، وتَلهيَتُهُ بحَبسِهِ، لا بتَعذيبِهِ، والعَبَثِ بِهِ.

وفيه: ما كان عليه -عَلَيْهِ السَّلَامُ- مِنَ الخُلُقِ الحَسَنِ، والعِشرَةِ الطَّيِّبَةِ مع الصَّغيرِ، والكبيرِ، والانبِساطِ إلى الناسِ[1].

وقد روى هذا الحديثَ أبو العبَّاسِ الطَّبَرِيُّ، المعروفُ بابنِ القاصِّ، في جُزءٍ له أسماهُ: «فَوائِدُ حديثِ أبي عُمَيرٍ»، ثم قال: «وَفيها روِّينا من قِصَّةِ أبي عُمَيرٍ سِتُّونَ وجهًا مِنَ الفِقهِ، والسُّنَّةِ، وفُنونِ الفائِدَةِ، والحِكمَةِ»

ثُمّ سَرَدَها كُلَّها.

* **ومِن مُلاطفتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للصّبيانِ: مُلاطَفَتُهُ لأنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:**

فعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لَهُ: «**يا ذا الأُذُنَينِ**»[2].

وهذا الحديثُ بَوَّبَ عليه أبوداود، والتِّرمِذيُّ، في سُنَنِهما: «بابُ ما جاءَ في المُزاحِ».

فَقولُهُ لَهُ: «**يا ذا الأُذُنَينِ**»، هوَ: من جُملَةِ مُداعَباتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولَطيفِ أخلاقِهِ، قالهُ لَهُ، على سَبيلِ الانبِساطِ إليه، والمُزاحِ مَعَهُ.

قال الخطابيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان مَزحُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَزحًا لا يَدخُلُهُ الكذِبُ، والتَّزَيُّدُ، وكُلُّ إنسانٍ له أُذُنانِ؛ فهو صادِقٌ في وصفِهِ إيَّاهُ بذلك»[3].

وقيل: مَعناهُ: الحَضُّ والتَّنبيهُ على حُسنِ الاستِماعِ لما يُقال لَهُ؛ لأنَّ السَّمعَ بحاسَّةِ الأُذُنِ، ومَن خَلَقَ اللهُ له الأُذُنَينِ، وغَفَلَ، ولم يُحسِنِ الوَعيَ، لم يُعذَر.

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٧/ ٢٦).

(٢) رواه أبوداود (٥٠٠٢)، والترمذي (١٩٩٢)، وهو في صحيح الجامع (٣٠٠٣).

(٣) معالم السُّنن (٤/ ١٣٥).

وقيل: إنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَمِدَهُ على ذَكائِهِ، وفِطنَتِهِ، وحُسنِ استِماعِهِ[١].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أحسَنِ الناسِ خُلُقًا، فأرسَلَني يومًا لحاجَةٍ، فقُلتُ: واللهِ لا أذهَبُ، وفي نَفسي أن أذهَبَ لما أمَرَني بهِ نَبيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَخرجتُ، حتى أمُرَّ على صِبيانٍ، وهم يَلعَبونَ في السُّوقِ[٢]، فإذا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَد قَبَضَ بقَفايَ من ورائي، قال: فنَظَرتُ إليه، وهو يَضحَكُ، فقال: «**يا أُنَيسُ، أذَهَبتَ حيث أمَرتُكَ؟**»، قُلتُ: نعم، أنا أذهَبُ يا رسولَ اللهِ.

قال أنسٌ: «واللهِ لَقَد خَدَمتُهُ تِسعَ سِنينَ، ما عَلِمتُهُ قال لشيءٍ صَنَعتُهُ: لمَ فعَلتَ كَذا وكذا؟ أو لشيءٍ تَرَكتُهُ: هَلَّا فعَلتَ كَذا وكذا؟»[٣].

وقولُ أنسٍ لرسولِ اللهِ: «واللهِ لا أذهَبُ» وأمثالُهُ، يُحمَلُ على أنَّهُ كان صَبيًّا، غَيرَ مُكَلَّفٍ؛ ولِذا ما أدَّبَهُ؛ بل داعَبَهُ، وأخَذَ بقَفاهُ، وهو يَضحَكُ؛ رِفقًا بهِ[٤].

وفي الحديثِ: مُلاطَفَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للخَدَمِ، ويتبيَّنُ ذلك مِن:

- قبضِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقَفاه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
- ضَحِكِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهُ، مع أنّهُ لم يذهب لحاجتِهِ، التي أمَرَهُ بها.
- نِدائِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له بالتَّصغيرِ؛ لإدخال السُّرورِ عليه، ولِضَمانِ عَدَمِ ترويعِهِ؛ فقال لَهُ: «**يا أُنَيسُ**».

هَذا، مع عَدَمِ تَوجيهِ أيّ كَلِمَةِ عِتابٍ أو تَوبيخٍ أو تَنبيهٍ لهُ على ما فعَلَ.

* ومن مُلاطَفَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للصّبيانِ: التّأنيسُ بتَعريكِ الأُذُنِ:

فعنِ ابنِ عبَّاسٍ: «أنَّهُ باتَ عندَ مَيمونَةَ، وهي خالَتُهُ، قال: فاضطَجَعتُ في عَرضِ

---

(١) النهاية (١/ ٣٤)، مرقاة المفاتيح (٧/ ٣٠٦٣).

(٢) والظَّاهر: أنه وقف عندهم، إمَّا للَّعب، أو المشاهدة.

(٣) رواه مسلم (٢٣١٠).

(٤) مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٧١٠).

وِسادَةٍ، واضطَجَعَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأهلُهُ في طولِها، فنامَ حتى انتَصَفَ اللَّيلُ -أو قَريبًا منه- فاستَيقَظَ يَمسَحُ النَّومَ عن وجهِهِ، ثم قَرَأَ عَشرَ آياتٍ من آلِ عِمرانَ، ثم قامَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى شَنٍّ مُعلَّقَةٍ، فتَوَضَّأ، فأحسَنَ الوُضوءَ، ثم قامَ يُصَلِّي، فصَنَعتُ مِثلَهُ، فقُمتُ إلى جَنبِهِ، فوَضَعَ يَدَهُ اليُمنى على رَأسي، وأخَذَ بأُذُني يَفتِلُها، ثم صَلَّى رَكعَتَينِ، ثم رَكعَتَينِ، ثم رَكعَتَينِ، ثم رَكعَتَينِ، ثم رَكعَتَينِ، ثم رَكعَتَينِ، ثم أوتَرَ، ثم اضطَجَعَ حتى جاءَهُ المُؤَذِّنُ، فقامَ فصَلَّى رَكعَتَينِ ثم خرجَ، فصَلَّى الصُّبحَ»[١].

قولُهُ: «وَأخَذَ بأُذُني يَفتِلُها»: أي: يدلُكُها، ويعرِكُها، وفي رواية لُمسلِمٍ: «فَجَعَلتُ إذا أغفيتُ يَأخُذُ بشَحمَةِ أُذُني»، قال الحافِظُ: «زادَ محمدُ بنُ الوَليدِ في رِوايَتِهِ: «فَعَرَفتُ أنَّهُ إنما صَنَعَ ذلك؛ ليُؤنِسَني بيَدِهِ في ظُلمَةِ اللَّيلِ»[٢].

قال الحافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخَذَ بأُذُنِهِ -أوَّلًا-؛ لإدارَتِهِ مِنَ الجانِبِ الأيسَرِ إلى الجانِبِ الأيمَنِ، وذلك من مَصلَحَةِ الصَّلاةِ، ثم أخَذَ بها -أيضًا-؛ لتَأنيسِهِ؛ لكَونِ ذلك لَيلًا»[٣].

وقال الباجيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَحتَمِلُ أن يَفعَلَ ذلك؛ تَأنيسًا لَهُ، ويَحتَمِلُ أن يَفعَلَهُ؛ إيقاظًا لَهُ»[٤].

ويَحتَمِلُ الأمرَينِ جَميعًا.

وقال أبو الحَسَنِ المُبارَكفوريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحَقُّ: أنَّهُ أخَذَ بأُذُنِهِ -أوَّلاً-؛ لإدارَتِهِ مِنَ اليَسارِ إلى اليَمينِ، ثم أخَذَ بها -أيضًا-؛ لتَأنيسِهِ؛ لكَونِ ذلك في ظُلمَةِ اللَّيلِ، أو لإيقاظِهِ، أو لإظهارِ مَحبَّتِهِ؛ لأنَّ حالَهُ كانت تَقتَضي ذلك؛ لصِغَرِ سِنِّهِ»[٥].

---

(١) رواه البخاري (٩٩٢)، ومسلم (٧٦٣).

(٢) فتح الباري (٢/ ٤٨٣).

(٣) المصدر السابق (٣/ ٧٢).

(٤) المنتقى (١/ ٢١٩).

(٥) مرعاة المفاتيح (٤/ ١٧٤).

* مُلاطَفَتُهُ ﷺ للحسنِ والحُسَينِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

عن أبي هريرة، قال: «كان رسولُ اللهِ ﷺ يُدلِعُ لسانَهُ للحَسَنِ بنِ عليٍّ، فيَرَى الصَّبيُّ حُمرَةَ لسانِهِ، فيَبهَشُ إليه»[١].

ويُقال للإنسانِ إذا نَظَرَ إلى الشَّيءِ، فأعجَبَهُ، واشتهاه، وأسرَعَ نَحوَهُ: قَد بَهَشَ إليه[٢].

وعن سَعيدِ بنِ أبي راشِدٍ، أنَّ يَعلى بنَ مُرَّةَ حَدَّثَهم: أنَّهم خرجوا مع النبيِّ ﷺ إلى طعامٍ دُعوا لَهُ، فإذا حُسَينٌ يَلعَبُ في السِّكَّةِ، فتَقَدَّمَ النبيُّ ﷺ أمامَ القَومِ، وبَسَطَ يَدَيهِ، فجَعَلَ الغُلامُ يَفِرُّ هاهُنا، وهاهُنا، ويُضاحِكُهُ النبيُّ ﷺ، حتى أَخَذَهُ، فجَعَلَ إحدَى يَدَيهِ تحتَ ذَقنِهِ، والأُخرَى في فأسِ رَأسِهِ[٣] فقَبَّلَهُ، وقال: «**حُسَيْنٌ مِنِّي، وأنا من حُسَينٍ، أَحَبَّ اللهُ مَن أَحَبَّ حُسَينًا، حُسَينٌ سِبطٌ مِنَ الأسباطِ**»[٤].

وقولُهُ: «**حُسَينٌ مِنِّي، وأنا من حُسَينٍ**»:

أي: بيننا مِنَ الاتِّحادِ، والاتِّصال، ما يَصِحُّ أن يُقال مَعهُ: كُلٌّ منهما مِنَ الآخَرِ.

«**حُسَينٌ سِبطٌ مِنَ الأسباطِ**»: **أي:** أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ في الخَيرِ.

والأسباطُ في أولادِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ الخَليلِ، بمَنزِلَةِ القَبائِلِ في وِلَدِ إسماعيلَ.

ويُحتَمَلُ أن يكونَ المُرادُ: أنَّهُ يَتَشَعَّبُ منه قَبيلَةٌ، ويكونُ من نَسلِهِ خَلقٌ كَثيرٌ، فيكونُ إشارَةً إلى أنَّ نَسلَهُ يكونُ أكثَرَ وأبقَى، وكان الأمرُ كَذلك[٥].

وعن عبدِاللهِ بنِ شَدَّادٍ، عن أبيهِ، قال: خرجَ عَلَينا رسولُ اللهِ ﷺ في إحدَى

---

(١) رواه أبو الشَّيخ في أخلاق النبي (١٨٤)، وابن حبان في صحيحه (٥٥٩٦)، إلا أنه ذكر في روايته أنه الحسين، لا الحسن، وحسنه الألباني في الصحيحة (٧٠).

(٢) النهاية (١/ ١٦٦).

(٣) وهو: طرف مؤخِّرة الرأس، على القفا.

(٤) رواه ابن ماجه (١٤٤)، والترمذي (٣٧٧٥) مختصرًا، وحسنه، وأحمد (١٧٥٦١)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٢٢٧)، وضعفه محققو المسند.

(٥) تحفة الأحوذي (١٠/ ١٧٨)، حاشية السِّنديِّ على سنن ابن ماجه (١/ ٦٥).

صَلاتَي العِشاءِ، وهو حامِلٌ حَسَنًا- أو: حُسَينًا-، فتَقَدَّمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوَضَعَهُ، ثم كَبَّرَ للصَّلاةِ، فصَلَّى، فسَجَدَ بين ظَهرانَي صَلاتِهِ سَجدَةً أطالَها، قال شدَّاد: فرَفَعتُ رَأسي، وإذا الصَّبيُّ على ظَهرِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو ساجِدٌ، فرَجَعتُ إلى سُجودي، فلمَّا قَضى رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلاةَ، قال الناسُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّكَ سَجَدتَ بين ظَهرانَي صَلاتِكَ سَجدَةً أطَلتَها، حتى ظَنَنَّا أنَّهُ قد حَدَثَ أمرٌ، أو أنَّهُ يوحَى إلَيكَ، قال: «**كُلُّ ذلك لم يَكُن، ولكن ابني ارتَحَلَني، فكَرِهتُ أن أُعَجِّلَهُ حتى يَقضيَ حاجَتَهُ**»(١).

* مَجُّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الماءَ في وجهِ مَحمودِ بنِ الربيعِ:

عن مَحمودِ بنِ الربيعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «**عَقَلتُ مِنَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَجَّةً مَجَّها(٢) في وجهي، وأنا ابنُ خَمسِ سِنينَ، من دَلوٍ**»(٣).

وفي رواية للبُخاريِّ: «أنَّهُ عَقَلَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعَقَلَ مَجَّةً مَجَّها في وجهِهِ، من بئرٍ كانت في دارِهِم».

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وفي هَذا**: مُلاطَفَةُ الصِّبيانِ، وتَأنيسُهم، وإكرامُ آبائِهِم بذلك، وجَوازُ المزاحِ، قال بعضُهم: ولَعَلَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرادَ بذلك: أن يَحفَظَهُ مَحمودٌ، فيَنقُلَهُ كَما وقَعَ، فتَحصُلَ له فضيلَةُ نَقلِ هذا الحديثِ، وصِحَّةُ صُحبَتِهِ»(٤).

* مُلاطَفَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأُمِّ خالدٍ:

عن أُمِّ خالدٍ بنتِ خالدِ بنِ سَعيدٍ، قالت: أتَيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أبي، وعَلَيَّ قَميصٌ أصفَرُ، قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سَنَه، سَنَه**».

- قال عبدُاللهِ -يعني ابنَ المبارَكِ-: وهي بالحَبَشيَّةِ: حَسَنَةٌ.

- قالت: فذَهَبتُ ألعَبُ بخاتَمِ النُّبوَّةِ، فزَبَرَني(٥) أبي.

(١) رواه النسائي (١١٤١)، وأحمد (١٦٠٣٣)، وصححه محققو المسند.

(٢) طرحها من فمه.

(٣) رواه البخاري (٧٧)، ومسلم (٣٣).

(٤) شرح النووي على مسلم (٥/ ١٦٢)

(٥) نهرني.

- قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَعها**».

- ثم قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أبلي وأخلِقي**[١]**، ثم أبلي وأخلِقي، ثم أبلي وأخلِقي**»[٢].

مُلاطَفَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لأصحابِهِ، فمن ذلك:**

* مُلاطَفَتُهُ عليَّ بنَ أبي طالبٍ، حينَ غاضَبَ فاطمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

فعن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جاءَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيتَ فاطمةَ، فلَم يَجِد عليًّا في البَيتِ، فقال: «**أينَ ابنُ عَمِّكِ؟**»، قالت: كان بَيني وبينهُ شيءٌ، فغاضَبَني، فخرجَ، فلَم يَقِل عندي، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لإنسانٍ: «**انظُر أينَ هوَ؟**»، فجاءَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، هو في المسجِدِ راقِدٌ، فجاءَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مُضطَجِعٌ، قَد سَقَطَ رِداؤُهُ عن شِقِّهِ، وأصابَهُ تُرابٌ، فجَعَلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمسَحُهُ عَنهُ، ويقولُ: «**قُم أبا تُرابٍ، قُم أبا تُرابٍ**»[٣].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فيه**: استِحبابُ مُلاطَفَةِ الغَضبانِ، ومُمازَحَتِهِ، والمشيِ إليه؛ لاستِرضائِهِ»[٤].

ومِمَّا يُشبِهُ هذا الحديثَ -أيضًا- من وجهٍ:

ما رَواهُ مُسلِمٌ من حديثِ حُذَيفَةَ، لَمَّا بَعَثَهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ليَأتيَهُ بخَبَرِ القَومِ لَيلَةَ الأحزابِ، فأتاهُ بخَبَرِهِم ورَجَعَ، قال: فرَجَعتُ وأنا أمشي في مِثلِ الحَمَّامِ[٥] فلما أتيتُهُ، فأخبرتُهُ بخَبَرِ القَومِ، وفَرَغتُ قُرِرتُ[٦]، فألبَسَني رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من فضلِ عَباءَةٍ، كانت عليه، يُصَلِّي فيها، فلَم أزَل نائِمًا، حتى أصبَحتُ، فلمَّا أصبَحتُ، قال: «**قُم يا نَومانُ**»[٧].

---

(١) عيشي، وخرِّقي ثوبك.

(٢) رواه البخاري (٣٠٧١).

(٣) رواه البخاري (٤٤١)، ومسلم (٢٤٠٩).

(٤) شرح مسلم (١٥/ ١٨٢).

(٥) يعني: أنه لم يجد البرد الذي يجده الناس.

(٦) شعرت بالبرد.

(٧) صحيح مسلم (١٧٨٨).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «العَرَبُ إذا قَصَدَت مُلاطَفَةَ المُخاطَبِ، وتَركَ المُعاتَبةِ، سَمَّوهُ باسمٍ مُشتَقٍّ من حالَتِهِ، التي هو عليها، كَقولِ النبيِّ ﷺ لعليٍّ حينَ غاضَبَ فاطمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فأتاهُ وهو نائِمٌ، وقد لَصِقَ بجَنبِهِ التُّرابُ فقال لَهُ: «**قُم يا أبا تُرابٍ**»؛ إشعارًا له أنَّهُ غَيرُ عاتِبٍ عليه، ومُلاطَفَةً لَهُ.

وكَذلك قولُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لحُذَيفَةَ: «**قُم يا نَومانُ**»، وكان نائِمًا؛ مُلاطَفَةً لَهُ، وإشعارًا لتَركِ العَتبِ، والتَّأنيبِ .

فَقولُ اللهِ تعالى، لمحمدٍ ﷺ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ**﴾ [المزمل: ١-٢] فيه تَأنيسٌ، ومُلاطَفَةٌ؛ ليَستَشعِرَ أنَّهُ غَيرُ عاتِبٍ عليه»[١].

وعن أنسٍ، أنَّ رَجُلًا من أهلِ الباديَةِ كان اسمُهُ زاهِرًا، وكان يُهدي إلى رسولِ اللهِ ﷺ الهَديَّةَ مِنَ الباديَةِ، فيُجَهِّزُهُ رسولُ اللهِ ﷺ إذا أرادَ أن يَخرُجَ، فقال النبيُّ ﷺ: «**إنَّ زاهِرًا باديَتُنا، ونَحنُ حاضِروهُ**».

وكان النبيُّ ﷺ يُحِبُّهُ، وكان رَجُلًا دَميمًا، فأتاهُ النبيُّ ﷺ -يومًا- وهو يَبيعُ مَتاعَهُ، فاحتَضَنَهُ من خَلفِهِ، ولا يُبصِرُهُ الرجُلُ، فقال: أرسِلني! مَن هَذا؟ فالتَفَتَ فعَرَفَ النبيَّ ﷺ، فجَعَلَ لا يَألو ما ألصَقَ ظَهرَهُ بصَدرِ النبيِّ ﷺ، حينَ عَرَفَهُ.

وجَعَلَ النبيُّ ﷺ يقولُ: «**مَن يَشتَري العبدَ؟**»، فقال: يا رسولَ اللهِ، إذًا واللهِ تَجِدُني كاسِدًا، فقال النبيُّ ﷺ: «**لكن عندَ اللهِ لَستَ بكاسِدٍ**»، أو قال: «**لكن عندَ اللهِ أنتَ غالٍ**»[٢].

وهذا من أجمَلِ المُلاطَفَةِ النبويَّةِ، يُمازِحُهُ، ويُلاطِفُهُ، ويُخبِرُ هو عن نَفسِهِ أنَّهُ كاسِدٌ في الناسِ؛ لدَمامَتِهِ، فيُخبِرُهُ النبيُّ ﷺ أنَّهُ عندَ اللهِ غالٍ.

وهذا الصَّحابيُّ الجَليلُ اسمُهُ: زاهِرُ بنُ حَرامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣].

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/ ٣٣).

(٢) رواه أحمد (١٢٦٤٨)، وقال محققو المسند: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(٣) كما في رواية ابن حبَّان (٥٧٩٠)، ويقال: زاهر بن حزام، كما في الإصابة (٢/ ٤٥٣).

* وكان يُلاطِفُ مَن بهِ جَفاءٌ بالهَديَّةِ؛ ليُعالِجَ شِدّةَ خُلُقِهِ:

فَعنِ المِسوَرِ بنِ مَخرَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُهديَت له أقبيَةٌ[١] من ديباجٍ[٢]، مُزَرَّرَةٌ بالذَّهَبِ، فقَسَمَها في ناسٍ من أصحابِهِ، وعَزَلَ منها واحِدًا لمَخرَمَةَ بنِ نَوفَلٍ، فجاءَ ومَعَهُ ابنُهُ المِسوَرُ بنُ مَخرَمَةَ، فقامَ على الباب، فقال: ادعُهُ لي، فسَمِعَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَوتَهُ، فأخَذَ قَباءً، فتَلَقَّاهُ بهِ، واستَقبَلَهُ بأزرارِهِ، فقال: «**يا أبا المِسوَرِ، خَبَّأتُ هذا لكَ، يا أبا المِسوَرِ خَبَّأتُ هذا لكَ**»، وكان في خُلُقِ أبي المِسوَرِ شِدَّةٌ[٣].

قال الحافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَكَذا دَعاهُ: أبا المِسوَرِ، وكَأنَّهُ على سَبيلِ التَّأنيسِ لَهُ، بذِكرِ ولَدِهِ، الذي جاءَ صُحبَتَهُ، وإلَّا، فكُنيَتُهُ في الأصلِ: أبو صَفوانَ، وهو أكبَرُ أولادِهِ.

قال ابنُ بَطَّالٍ: يُستَفادُ منه: استِئلافُ أهلِ اللَّسَنِ، ومَن في مَعناهم، بالعَطيَّةِ، والكلامِ الطَّيِّبِ»[٤].

وقال المُبارَكفوريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وَمِن فوائِدِ الحديثِ**: الاستِئلافُ للقُلوبِ، والمُداراةُ مع الناسِ»[٥].

وبَوَّبَ له ابنُ حِبَّان في صَحيحِهِ: «ذِكرُ ما يُستَحَبُّ للإمامِ استِمالَةُ قُلوبِ رَعيَّتِهِ، عندَ القِسمَةِ بينهم غَنائِمَهم، أو خُمُسًا خَمَّسَهُ، إذا أحَبَّ ذلك»[٦].

---

(١) ثيابٌ مفتوحةٌ من الخلف؛ لأجل سهولة الحركة.

(٢) نوعٌ من الحرير.

(٣) رواه البخاري (٣١٢٧)، ومسلم (١٠٥٨).

(٤) فتح الباري (١٠/ ٢٧٠).

(٥) تحفة الأحوذي (٨/ ٨٥).

(٦) صحيح ابن حبَّان (١١/ ١٤٦).

معاتَبات النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ

كان صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لا يَغضَبُ لنَفسِهِ، ولكن يَعفو ويَصفَحُ، ويُقابِلُ السَّيِّئَةَ بالحَسَنَةِ، ويَصبِرُ على أذَى الناسِ، وجَفاءِ الأعرابِ، فإذا انتُهِكَت حُرُماتُ اللهِ: غَضِبَ لها.

وكان صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إذا رأى ما يَكرهُ: فرُبَّما عاقَبَ عليه، ورُبَّما عاتَبَ، ورُبَّما رُؤيَتِ الكراهَةُ في وجهِهِ، ورُبَّما أعرَضَ، ورُبَّما احمَرَّ وجهُهُ؛ كُلُّ ذلك كَراهَةً منه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لخِلافِ ما شَرَعَ اللهُ ورسولُهُ، ونُفورًا عَنهُ وإعراضًا، وذَمًّا لَهُ، واستِقباحًا، وتَربيَةً لأصحابِهِ، وللأُمَّةِ من بعدِهِم.

فكان لا يُعاقِبُ ولا يعاتِبُ مَحَبَّةً في الانتِقامِ؛ ولكن تَربيَةً للنَّفسِ، وتَطهيرًا للقُلوبِ، ومَحوًا للآثامِ والعُيوبِ، وهذا كُلُّهُ تَصديقٌ لقولِهِ تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فَأرسَلَ اللهُ تعالى رسولَهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ رَحمَةً للنَّاسِ؛ فكان رَحمَةً في شَأنِهِ كُلِّهِ: رَحمَةً في رِضاهُ، وغَضَبِهِ، في ثَنائِهِ، وعِتابِهِ، في عَفوِهِ، وعِقابِهِ، في إقبالِهِ، وإعراضِهِ.

ونَستَعرِضُ في هذا الفصلِ، بعضَ مُعاتَباتِ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لأصحابِهِ:

كَيفَ كانت صِفَةُ عِتابِهِ؟ كَيفَ كان عِتابُهُ تَربيَةً، وتَعليمًا، وتَأديبًا؟

معنى العِتابِ:

العِتابُ والمُعاتَبَةُ، من آكَدِ ما يُبقي على المَوَدَّةِ، ويُشعِرُ بالرحمَةِ، والقُربِ، والأُلفَةِ، فأُسلوبُ العِتابِ أُسلوبٌ لَطيفٌ؛ لتَقويمِ الأخطاءِ، والتَّنبيهِ على الأصَحِّ والأفضَلِ.

والتَّعَتُّبُ والمُعاتَبَةُ والعِتابُ: مُخاطَبَةُ الإدلال، وكَلامُ المُدِلِّينَ أخِلَّاءَهم، طالبينَ حُسنَ مُراجَعَتِهِم، ومُذاكَرَةَ بعضِهِم بعضًا، ما كَرِهوه مِمَّا كَسَبَهم الموجِدَةَ(١).

وقيل: «العِتابُ: ما يكونُ على صُدورِ المكروهِ مِنَ الحَبيبِ تَأديبًا؛ ليَستَغفِرَ عَنهُ، ويَصيرَ مَورِدَ المراحِمِ»(٢).

بِخِلافِ العِقابِ: فإنَّهُ ما يكونُ على صُدورِ المكروهِ مِنَ العَدوِّ تَفضيحًا، وتَأليمًا، كالعَذابِ على الكُفَّارِ، وخُلودِهِم في النارِ، في تِلكَ الدَّارِ.

وبِعِبارَةٍ **أُخرَى:** «العِتابُ: تَأديبُ الشَّفَقَة»(٢).

فالأصلُ في العِتابِ: أنَّهُ مُخاطَبَةُ الإدلال، فتَصحَبُهُ روحُ الصَّداقَةِ، ومَعالمُ المحَبَّةِ، ورَغبَةُ الوِفاقِ.

قال الشَّاعِرُ:

أُعاتِبُ ذا المَوَدَّةِ من صَديقٍ ... إذا ما رابَني منه اجتِنابُ
إذا ذَهَبَ العتابُ، فليس وُدٌّ ... ويبقَى الوُدُّ ما بقيَ العتابُ

والعِتابُ رُبَّما دَلَّ على مِقدارِ الوُدِّ بين المُتَخالِلَينِ، **كما قال الشَّاعِرُ:**

وَلا تُنكِرَن عَتبي عليكَ فإنَّهُ ... جَميلٌ وشَرُّ الناسِ مَن لا تُعاتِبُه
أُعاتِبُ مَن يَحلو لَدَيَّ عِتابُهُ ... وَأترُكُ مَن لا أشتَهي وأُجانِبُه
أُعاتِبُ مَن أهوَى على قَدرِ وُدِّهِ ... وَلا وُدَّ عندي للَّذي لا أُعاتِبُه

---

(١) لسان العرب (١/ ٥٧٧).

(٢) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون (٢/ ٢١٧).

فالعِتابُ هوَ: الخِطابُ على تَضييعِ حُقوقِ المَودَّةِ والصَّداقَةِ، كالإخلال بالزِّيارَةِ، وتَركِ المعونَةِ، ونَحوِ ذلك، ولا يكونُ العِتابُ إلا بين الأحِبَّةِ.

مَواقِفُ عوتِبَ فيها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لَقَد تَأدَّبَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأدَبِ العِتابِ القُرآنيِّ، وما عَتَبَ اللهُ بِهِ على الأنبياءِ قبلَهُ؛ فقَد كان خُلُقُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القُرآنَ.

فهُناكَ مَواقِفُ عاتَبَ فيها رَبُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَبيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتَعَلَّمَ منها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واعتبَرَ بها، فمنها:

* عِتابُ اللهِ لنَبيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شَأنِ الأعمَى:

قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: ١-١٠].

عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: أُنزِلَ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابنِ أُمِّ مَكتومٍ الأعمَى، أتَى رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجَعَلَ يقولُ: يا رسولَ اللهِ أرشِدني، وعندَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ من عُظَماءِ المُشرِكينَ، فجَعَلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعرِضُ عَنهُ، ويُقبِلُ على الآخَرِ، ويقولُ[1]: «**أتَرَى بما أقولُ بَأسًا؟**»، فيقولُ: لا، ففي هذا أُنزِلَ[2].

واشتُهِرَ على ألسِنَةِ الناسِ: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يَقومُ لعبدِالله بنِ أُمِّ مَكتومٍ، ويَفرِشُ له رِداءَهُ؛ ليَجلِسَ عليه، ويقولُ: «**أهلًا بالذي عاتَبَني رَبِّي من أجلِهِ**».

قال الشَّيخُ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا أعلَمُ لهذا الحديثِ أصلًا، يُمكِنُ الاعتِمادُ عليه، وغايَةُ ما

---

(١) يعني: للمشرك.

(٢) رواه الترمذي (٣٣٣١)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

رويَ في بعضِ الرِّواياتِ في «الدُّرِّ المنثورِ»: أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُكرِمُ ابنَ أُمِّ مَكتومٍ إذا دَخَلَ عليه»[١].

* ومُعاتَبةُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شَأنِ أسرَى بَدرٍ:

عن عبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: لَمَّا أَسَروا الأُسارَى -يعني: ببَدرٍ-، قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكرٍ وعمرَ: «**ما تَرَونَ في هَؤُلاءِ الأُسارَى؟**».

فقال أبو بكرٍ: يا نَبيَّ اللهِ، هم بَنو العَمِّ والعَشيرَةِ، أرَى أن تَأخُذَ منهم فِديَةً، فتكونَ لَنا قوَّةً على الكُفَّارِ، فعَسَى اللهُ أن يَهديَهم للإسلامِ.

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما تَرَى يا ابنَ الخَطَّابِ؟**».

قُلتُ: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، ما أرَى الذي رَأى أبو بكرٍ، ولكني أرَى أن تُمَكِّنَّا فنَضرِبَ أعناقَهم، فتُمَكِّنَ عليًّا من عَقيلٍ فيَضرِبَ عُنُقَهُ، وتُمَكِّنِّي من فُلانٍ، نَسيبًا لعمرَ، فأضرِبَ عُنُقَهُ؛ فإنَّ هَؤُلاءِ أئِمَّةُ الكُفرِ، وصَناديدُها[٢].

يقولُ عمرُ: فهَويَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما قال أبو بكرٍ، ولم يَهوَ ما قُلتُ، فلَمَّا كان مِنَ الغَدِ جِئتُ، فإذا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكرٍ قاعِدَينِ، يَبكيانِ.

قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أخبِرني من أيِّ شيءٍ تَبكي أنتَ وصاحِبُكَ؟ فإن وجَدتُ بُكاءً: بَكَيتُ، وإن لم أجِد بُكاءً: تَباكَيتُ لبُكائِكُما.

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أبكي للَّذي عَرَضَ عَلَيَّ أصحابُكَ من أخذِهِمُ الفِداءَ، لَقَد عُرِضَ عَلَيَّ عَذابُهم أدنَى من هَذِهِ الشَّجَرَةِ**»- شَجَرَةٍ قَريبَةٍ من نَبيِّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وَأنزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٩][٣].

---

(١) سلسلة الأحاديث الضَّعيفة والموضوعة (٣/ ٦٣٥).

(٢) أشرافها.

(٣) رواه مسلم (١٧٦٣).

ومعنى **قولِ اللهِ تعالى**: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: «ما يَنبَغي، ولا يَليقُ بِهِ، إذا قاتَلَ الكُفَّارَ -الذينَ يُريدونَ أن يُطفِئوا نورَ اللهِ، ويَسعَونَ لإخمادِ دينِهِ، وأن لا يَبقَى على وجهِ الأرضِ مَن يَعبُدُ اللهَ- أن يَتَسَرَّعَ إلى أسرِهِم، وإبقائِهِم؛ لأجلِ الفِداءِ الذي يَحصُلُ منهم، وهو عَرَضٌ قَليلٌ بالنِّسبَةِ إلى المصلَحَةِ المُقتَضيَةِ لإبادَتِهِم، وإبطال شَرِّهِم.

فَما دامَ لهم شَرٌّ، وصَولةٌ، فالأوفَقُ أن لا يُؤسَروا، فإذا أُثخِنوا، وبَطَلَ شَرُّهم، واضمَحَلَّ أمرُهم؛ فحينَئِذٍ لا بَأسَ بأخذِ الأسرَى منهم، وإبقائِهِم»(١).

«**والإثخانُ**: الشِّدَّةُ والغِلظَةُ في الأذَى، يُقال: أثخَنَتهُ الجِراحَةُ، وأثخَنَهُ المَرَضُ: إذا ثَقُلَ عليه، وقد شاعَ إطلاقُهُ على شِدَّةِ الجِراحَةِ على الجَريحِ.

وقد حَمَلَهُ بعضُ المُفَسِّرينَ في هَذِهِ الآيَةِ على معنى الشِّدَّةِ، والقوَّةِ، فالمعنى: حتى يَتَمَكَّنَ في الأرضِ، أي: يَتَمَكَّنَ سُلطانُهُ وأمرُهُ»(٢).

*** ومنها: ما كان بشَأنِ إذنِهِ للمُخَلَّفينَ عن التَّخَلُّفِ عن الجِهادِ مَعَهُ:**

قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]، فعَتَبَ اللهُ عليه في شَأنِ المُنافِقينَ.

*** ومنها: ما كان بشَأنِ تَحريمِهِ على نَفسِهِ سُرِّيَّتَهُ ماريَةَ، أو شُربَ العَسَلِ؛ مُراعاةً لخاطِرِ بعضِ زَوجاتِهِ رَضِيَ اللهُ عَنهُنَّ:**

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم: ١].

فَعَتَبَ اللهُ عليه في تَحريمِ ما أحَلَّ اللهُ لَهُ.

---

(١) تفسير السعدي (ص٣٢٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٧٥).

*** ومنها: ما كان بسببِ قولِهِ لزَيدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾:**

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

فَعَتَبَ عليه: أن أخفَى في نَفسِهِ ما اللهُ مُبديهِ.

*** ومِمَّا عَتَبَ اللهُ تعالى بِهِ على الأنبياءِ قبلَهُ:**

ما ثَبَتَ في حديثِ أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**نَزَلَ نَبيٌّ مِنَ الأنبياءِ تحتَ شَجَرَةٍ، فلَدَغَتهُ نَملَةٌ، فأمَرَ بجَهازِهِ فأُخرِجَ من تحتِها ثم أمَرَ ببَيتِها، فأُحرِقَ بالنارِ، فأوحَى اللهُ إليه: فهَلَّا نَملَةً واحِدَةً**»[1].

فَعاتَبَهُ اللهُ تعالى على إحراقِ بَيتِ النَّملِ كُلِّهِ، بهذا اللَّفظِ اللَّيِّنِ: «**فهَلَّا نَملَةً واحِدَةً**».

فَتَعَلَّمَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أدَبَ العِتابِ، وفِقهَهُ، من عِتابِ اللهِ لَهُ، وللأنبياءِ قبلَهُ.

ومِن هَديِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في العِتابِ:

*** أنَّهُ لم يَكُن يَستَعمِلُ الألفاظَ المُستَقبَحَةَ، لا في العِتابِ، ولا في غَيرِهِ:**

قال أنسُ بنُ مالكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لم يَكُنِ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبَّابًا، ولا فحَّاشًا، ولا لَعَّانًا، كان يقولُ لأحَدِنا عندَ المعتِبَةِ: «**ما لَهُ! تَرِبَ جَبينُهُ**»[2].

وقولُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَرِبَ جَبينُهُ**»: كَلِمَةٌ تقولُها العَرَبُ، جَرَت على ألسِنَتِهِم، وهي مِنَ التُّرابِ، أي: سَقَطَ جَبينُهُ للأرضِ، وهو كَقولِهِم: «رَغِمَ أنفُهُ»، ولكن لا يُرادُ معنى قولِهِ: «**تَرِبَ جَبينُهُ**»، بل هو نَظيرُ قولِهِ: «**تَرِبَت يَمينُكَ**»، أي: إنَّها كَلِمَةٌ تجري على اللِّسانِ، ولا يُرادُ حَقيقَتُها[3].

---

(١) رواه البخاري (٣٣١٩)، ومسلم (٢٢٤١).

(٢) رواه البخاري (٦٠٣١).

(٣) فتح الباري (١٠/ ٤٥٣).

*** ولَم يَكُن صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يُكثِرُ مِنَ العِتابِ واللَّومِ:**

فإنَّ كَثرَةَ العِتابِ قَد تَأتي بنَتيجَةٍ عَكسيَّةٍ، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ**﴾ [التحريم: ٣].

«فإعراضُ الرسولِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن تَعريفِ زَوجِهِ ببعضِ الحديثِ الذي أفشَتهُ من كَرَمِ خُلُقِهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في مُعاتَبةِ المُفشيَةِ، وتَأديبِها؛ إذ يَحصُلُ المقصودُ بأن يُعلِمَ بعضَ ما أفشَتهُ؛ فتوقِنَ أنَّ اللهَ يَغارُ عليه»[(١)].

وقال سُفيانُ بنُ عُيَينَةَ رَحِمَهُاللَّهُ: «ما استَقصَى كَريمٌ قَطُّ؛ ألَم تَسمَع إلى قولِ اللهِ تعالى: ﴿**عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ**﴾»[(٢)].

وفي حديثِ أُمِّ زَرعٍ: قالت بعضُ النِّسوةِ، في وصفِ زَوجِها: «إن دَخَلَ فهِدَ، وإن خرجَ أسِدَ، ولا يَسألُ عَمَّا عَهِدَ».

فشَبَّهَتهُ في لينِهِ وغَفلَتِهِ بالفهدِ، قالت: «وَإن خرجَ أسِدَ»، أي: في الجُرأةِ، والإقدامِ، والمهابَةِ، كالأسَدِ، «وَلا يَسألُ عَمَّا عَهِدَ»، أي: شَديدُ الكرَمِ، كَثيرُ التَّغاضي، لا يَتَفَقَّدُ ما ذَهَبَ من مالِهِ، وإذا جاءَ بشيءٍ لبَيتِهِ لا يَسألُ عنه بعدَ ذلك، أو لا يَلتَفِتُ إلى ما يَرَى في البَيتِ مِنَ المعايِبِ، بل يُسامِحُ ويُغضي[(٣)].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَاللَّهُعَنْهُ قال: قَدِمَ رسولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المدينَةَ، ليس له خادِمٌ، فأخَذَ أبو طَلحَةَ بيَدي، فانطَلَقَ بي إلى رسولِ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ أنسًا غُلامٌ كَيِّسٌ؛ فليَخدُمكَ.

قال أنسٌ: «فَخَدَمتُهُ في السَّفَرِ والحَضَرِ، ما قال لي لشيءٍ صَنَعتُهُ: لِمَ صَنَعتَ هذا هَكَذا؟ ولا لشيءٍ لم أصنَعهُ: لِمَ لم تَصنَع هذا هَكَذا؟»[(٤)].

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (٢٨/ ٣٥٣).

(٢) الآداب الشرعية (٣/ ٣١٢).

(٣) فتح الباري (٩/ ٢٦٢) باختصارٍ.

(٤) رواه البخاري (٢٧٦٨)، ومسلم (٢٣٠٩).

وفيه: تَركُ العِتابِ على ما فاتَ؛ لأنَّ هُناكَ مَندوحَةً عَنهُ، باستِئنافِ الأمرِ بهِ، إذا احتيجَ إليه.

وفيه: استِئلافُ خاطِرِ الخادِمِ بتَركِ مُعاتَبتِهِ، وكُلُّ ذلك في الأُمورِ التي تَتَعَلَّقُ بحَظِّ الإنسانِ، وأمَّا الأُمورُ اللَّازِمَةُ شَرعًا: فلا يُتَسامَحُ فيها؛ لأنَّها من بابِ الأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المُنكَرِ[١].

* **ومِمَّا يَنبَغي مُراعاتُهُ في العِتابِ: التَّوَسُّطُ والاعتِدالُ، في شَأنِ المُعاتَبةِ:**

فإنَّ كَثرَةَ العِتابِ سببٌ للقَطيعَةِ، وتَركَ جَميعِ العِتابِ دَليلٌ على قِلَّةِ الاكتِراثِ بأمرِ الصَّديقِ، وقد قيل: «عِلَّةُ المُعاداةِ: قِلَّةُ المُبالاةِ».

بل تُتَوَسَّطُ حالَتا تَركِهِ وعِتابِهِ؛ فيُسامَحُ بالمُتارَكَةِ، ويُستَصلَحُ بالمُعاتَبةِ؛ فإنَّ المُسامَحَةَ والاستِصلاحَ إذا اجتَمَعا لم يَلبَث مَعَهما نُفورٌ، ولم يَبقَ مَعَهما وجدٌ.

وقد قال بعضُ الحُكَماءِ: «لا تُكثِرَنَّ مُعاتَبَةَ إخوانِكَ، فيَهون عليهم سَخَطُكَ».

وقال الشاعر:

إذا كنتَ في كلِّ الأمورِ مُعاتِبًا
صديقَكَ لم تلقَ الذي لا تُعاتبُه

وإن أنتَ لم تشرب مِرارًا على القَذَى
ظمِئتَ وأيُّ الناسِ تصفو مشاربُه

فعِش واحدًا أو صِل أخاكَ فإنَّهُ
مُقارِفُ ذنبٍ مرَّةً ومجانبُه[٢]

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ٧١)، فتح الباري (١٠/ ٤٦٠).

(٢) أدب الدنيا والدين (ص١٧٨)، بتصرف.

مَواقِفُ من معاتَباتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

المواقِفُ التي عاتَبَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها مَن حَولَهُ مِنَ الزَّوجاتِ، والأقارِبِ، والأصحابِ، كَثيرَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ، يَنبَغي أن نَقِفَ عندَها، ونَدرُسَها؛ لنَأخُذَ منها العِبَرَ والعِظاتِ.

فَليس هذا العِتابُ هو مُجَرَّدَ إدلالٍ في المُخاطَبَةِ، ولينٍ في المُحاسَبَةِ؛ وإنما هو -أيضًا- تَشريعٌ، وتَأديبٌ؛ ولِذلك: فلا بُدَّ مِنَ النَّظَرِ إلى أسبابِ عِتابِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلى عَواقِبِهِ، وما يَتَرَتَّبُ عليه من أحكامٍ.

* فَمِن ذلك: مُعاتَبَةُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَوجاتِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ:

كان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعاتِبُ نِساءَهُ في بعضِ المواقِفِ التي تحتاجُ إلى عِتابٍ، **فمِنْ ذلك**:

ما رَواهُ أنسُ بنُ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال عمرُ: وافَقتُ اللهَ في ثَلاثٍ -أو: وافَقَني رَبِّي في ثَلاثٍ-: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، لَوِ اتَّخَذتَ مَقامَ إبراهيمَ مُصَلًّى؟ وقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، يَدخُلُ عليكَ البَرُّ، والفاجِرُ، فلَو أمَرتَ أُمَّهاتِ المُؤمِنينَ بالحِجابِ؟ فأنزَلَ اللهُ آيةَ الحِجابِ.

قال: وبَلَغَني مُعاتَبَةُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعضَ نِسائِهِ، فدَخَلتُ عليهِنَّ، قُلتُ: إنِ انتَهَيتُنَّ أو لَيُبدِلَنَّ اللهُ رسولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيرًا مِنكُنَّ، حتى أتَيتُ إحدَى نِسائِهِ[١]، قالت: يا عمرُ، أما في رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يَعِظُ نِساءَهُ، حتى تَعِظَهُنَّ أنتَ؟ فأنزَلَ اللهُ: ﴿**عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا**﴾ [التحريم: ٥][٢].

* مُعاتبَتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ لرَدِّها على اليَهوديِّ بعُنفٍ:

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أنَّ اليَهودَ أتَوُا النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: السَّامُ[٣] عليكَ، قال:

---

(١) هي أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٢) رواه البخاري (٤٤٨٣).

(٣) الموت.

«**وَعليكم**»، فقالت عائشةُ: السَّامُ عليكم، ولَعَنَكُمُ اللهُ، وغَضِبَ عليكم، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَهلًا يا عائشةُ! عليكِ بالرِّفقِ، وإيَّاكِ والعُنفَ، أوِ الفُحشَ**»، قالت: أوَلَم تَسمَع ما قالوا؟ قال: «**أوَلَم تسمَعي ما قُلتُ؟ رَدَدتُ عليهم، فيُستَجابُ لي فيهم، ولا يُستَجابُ لهم فيَّ**»[١].

وفي رواية:

بَينا أنا عندَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ استَأذَنَ رَجُلٌ مِنَ اليَهودِ، فأذِنَ لَهُ، فقال: السَّامُ عليكَ، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَعليكَ**» قالت: فهَمَمتُ أن أتَكَلَّمَ، قالت: ثم دَخَلَ الثانيَةَ، فقال مِثلَ ذلك، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَعليكَ**» قالت: ثم دَخَلَ الثالثَةَ، فقال: السَّامُ عليكَ، قالت: فقُلتُ: بَلِ السَّامُ عليكم، وغَضَبُ اللهِ، إخوانَ القِرَدَةِ والخَنازيرِ، أتُحَيُّونَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما لم يُحَيِّهِ بِهِ اللهُ؟ قالت: فنَظَرَ إلَيَّ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**مَه! إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفُحشَ، ولا التَّفَحُّشَ، قالوا قولًا، فرَدَدناهُ عليهم، فلَم يَضُرَّنا شيءٌ، ولَزِمَهم إلى يومِ القيامَةِ**»[٢].

قال الخَطَّابيُّ -ما مُلَخَّصُهُ-: «إنَّ الدَّاعيَ إذا دَعا بشيءٍ -ظُلمًا- فإنَّ اللهَ لا يَستَجيبُ لَهُ، ولا يَجِدُ دُعاؤُهُ مَحَلًّا في المدعوِّ عليه»[٣].

فإذا كان لا يُستَجابُ لهم فينا، ويُستَجابُ لنا فيهم، ولا يَضُرُّنا ما قالوا، وإنَّما يَضُرُّهم عِندَ رَبِّهم: فلا مَعنَى للغَضَبِ، والثَّورةِ، والردِّ عليهم بعُنفٍ، ومِن ثَمَّ: تَوجَّهَ العَتبُ على عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فيما رَدَّت بهِ عليهم.

مُعاتَبَةُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعضَ أصحابِهِ:

كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربَّما عاتبَ أصحابَهُ في بعضِ الأمورِ؛ تَعليمًا لَهم، وتَوجيهًا، فمِن ذلك:

---

(١) رواه البخاري (٦٤٠١)، ومسلم (٢١٦٤).

(٢) رواه أحمد (٢٥٠٢٩)، وصححه محققو المسند.

(٣) فتح الباري (١١/ ٤٥).

* مُعاتَبتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَعبَ بنَ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ لتَخَلُّفِهِ عن غَزوَةِ تَبوكَ:

فَقَد خرجَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأصحابِهِ إلى تَبوكَ، وتَخَلَّفَ مَن تَخَلَّفَ، فلمَّا رَجَعَ، وكان إذا قَدِمَ من سَفَرٍ بَدَأَ بالمسجِدِ، فيَركَعُ فيه رَكعَتَينِ، ثم جَلَسَ للنَّاسِ، فلمَّا فعَلَ ذلك جاءَهُ المُخَلَّفونَ، فطَفِقوا يَعتَذِرونَ إليه، ويَحلِفونَ لَهُ، وكانوا بضعَةً وثَمانينَ رَجُلًا، فقَبِلَ منهم رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلانيَتَهم، وبايَعَهم، واستَغفَرَ لَهم، ووَكَلَ سَرائِرَهم إلى اللهِ.

يقولُ كَعبٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فجِئتُهُ، فلمَّا سَلَّمتُ عليه، تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المُغضَبِ، ثم قال: «**تَعالَ**»، فجِئتُ أمشي، حتى جَلَستُ بين يَدَيهِ، فقال لي: «**ما خَلَّفَكَ؟! أَلَمْ تَكُن قَد ابتَعتَ ظَهرَكَ؟!**»، قال: بَلى... الحديثَ[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ –في جُملَةِ ما ذَكَرَهُ مِن فوائِدِ هَذِهِ الغَزوَةِ–:

«**وَمنها**: أنَّ التَّبَسُّمَ قَد يكونُ عن الغَضَبِ، كَما يكونُ عن التَّعَجُّبِ، والسُّرورِ؛ فإنَّ كُلًّا منهما يوجِبُ انبِساطَ دَمِ القَلبِ، وثَورانَهُ؛ ولهذا تَظهَرُ حُمرَةُ الوَجهِ؛ لسُرعَةِ ثَورانِ الدَّمِ فيه، فيَنشَأُ عن ذلك السُّرورُ.

والغَضَبُ: تَعَجُّبٌ، يَتبَعُهُ ضَحِكٌ وتَبَسُّمٌ، فلا يَغتَرَّ المُغتَرُّ بضَحِكِ القادِرِ عليه في وجهِهِ، ولا سيَّما عندَ المعتَبَةِ، كَما قيل:

إذا رَأيتَ نُيوبَ اللَّيثِ بارِزَةً
فلا تَظُنَّنَّ أنَّ اللَّيثَ يبتَسِمُ

ومنها: مُعاتَبَةُ الإمامِ والمُطاعِ أصحابَهُ، ومَن يَعِزُّ عليه ويَكرُمُ عليه؛ فإنَّه عاتَبَ الثَّلاثَةَ، دونَ سائِرِ مَن تَخَلَّفَ عَنهُ.

وقد أكثَرَ الناسُ من مَدحِ عِتابِ الأحِبَّةِ، واستِلذاذِهِ، والسُّرورِ بِهِ، فكَيفَ بعِتابِ أحَبِّ الخَلقِ على الإطلاقِ إلى المعتوبِ عليه؟! وللهِ ما كان أحلى ذلك العِتاب، وما أعظَمَ

---

(١) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

ثَمَرَتَه، وأجَلَّ فائِدَتَه! ولله ما نالَ بِهِ الثَّلاثَةُ من أنواعِ المَسَرَّاتِ، وحَلاوَةِ الرِّضا، وخِلَعِ القَبولِ»[1].

❊ مُعاتَبتُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربيعَةَ، في شَأنِ أبي بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا:

عن رَبيعَةَ الأسلَميِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعطاني أرضًا، وأعطَى أبا بكرٍ أرضًا، وجاءَتِ الدُّنيا، فاختَلَفنا في عِذقِ نَخلَةٍ، فقُلتُ أنا: هيَ في حَدِّي، وقال أبو بكرٍ: هيَ في حَدِّي، فكان بَيني وبين أبي بكرٍ كَلامٌ، فقال أبو بكرٍ كَلِمَةً، كَرِهَها ونَدِمَ.

- فقال لي: يا رَبيعَةُ، رُدَّ عَلَيَّ مِثلَها؛ حتى تكونَ قِصاصًا.

- قُلتُ: لا أفعَلُ.

- فقال أبو بكرٍ: لَتقولَنَّ، أو لَأستَعدِيَنَّ عليكَ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- فقُلتُ: ما أنا بفاعِلٍ.

ورَفَضَ الأرضَ، وانطَلَقَ أبو بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، إلى النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وانطَلَقتُ أتلوهُ، فجاءَ ناسٌ من أسلَمَ، فقالوا لي: رَحِمَ اللهُ أبا بكرٍ! في أيِّ شيءٍ يَستَعدي عليكَ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو قال لَكَ ما قال؟!

- فقُلتُ: أتَدرونَ ما هَذا؟ هذا أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ، هذا ثانيَ اثنَينِ، وهذا ذو شَيبَةِ المسلمينَ[2]، إيَّاكُم، لا يَلتَفِتُ فيرَاكُم تَنصرُوني عليه، فيَغضَبَ، فيأتي رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فيَغضَبَ لغَضَبِهِ، فيَغضَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لغَضَبِهِما، فيُهلِكَ رَبيعَةَ!

- قالوا: ما تَأمُرُنا؟

- قال: ارجِعوا.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٥٠٤).

(٢) ذو رياستهم.

فانطَلَقَ أبو بكرٍ رضي الله عنه إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فتَبِعتُهُ وحدي، حتى أتَى النبيَّ ﷺ، فحَدَّثَهُ الحديثَ كما كان، فرَفَعَ إليَّ رَأسَهُ، فقال: «**يا رَبيعَةُ، ما لَكَ وللصِّدِّيقِ؟!**».

- قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، كان كَذا، كان كَذا، قال لي كَلِمَةً كَرِهَها، فقال لي: قُل كَما قُلتُ، حتى يكونَ قِصاصًا، فأبَيتُ.

- فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أجَل، فلا تَرُدَّ عليه، ولكن قُل: غَفَرَ اللهُ لَكَ يا أبا بكرٍ**».

- فقُلتُ: غَفَرَ اللهُ لَكَ يا أبا بكرٍ.

فَوَلَّى أبو بكرٍ رضي الله عنه، وهو يَبكي[1].

فَعَتَبَ عليه أن أغضَبَهُ، فقال: «**ما لَكَ، وللصِّدِّيقِ؟**»، فلمَّا قَصَّ عليه، قال: «**أجَل، فلا تَرُدَّ عليه**» وأمَرَهُ أن يَستَغفِرَ لَهُ.

فَما كان أكرَمَ ما كانوا عليه مِن خُلُقٍ كَريمٍ: يَختلِفُ أحدُهما مع صاحِبِهِ، ثُمّ لا يَلبَثا أن يَصطَلِحا، وإذا طَلَبَ المُخطِئُ من صاحِبِهِ أن يَقتَصَّ منه، بادرَهُ صاحِبُهُ بالاستغفارِ لَهُ.

*** مُعاتَبَةُ النبيِّ ﷺ أصحابَهُ، في عَدَمِ إعلامِهِ بمَن ماتَ منهم؛ ليُصلِّيَ عليه:**

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ امرَأةً سَوداءَ كانت تَقُمُّ[2] المسجِدَ، ففَقَدَها رسولُ اللهِ ﷺ، فسَأَلَ عَنها.

- فقالوا: ماتَت.

- قال: «**أفَلا كنتُم آذَنتُموني**[3]**؟!**».

- قال: فكَأنَّهم صَغَّروا أمرَها.

---

(١) رواه الإمام أحمد (١٦٥٧٧)، وقال محققو المسند: «إسناده ضعيفٌ جدًا، على نكارةٍ فيه»، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣١٤٥).

(٢) تكنس.

(٣) أعلمتموني.

- فقال: «**دُلُّوني على قَبرِها**».

فَدَلُّوهُ، فصَلَّى عليها، ثم قال: «**إنَّ هَذِهِ القُبورَ مَملوءَةٌ ظُلمَةً على أهلِها، وإنَّ اللهَ** عَزَّوَجَلَّ **يُنَوِّرُها لهم بصَلاتي عليهم**»(١).

وعن يَزيدَ بنِ ثابِتٍ، قال: خرجنا مع النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلمَّا ورَدَ البَقيعَ فإذا هو بقَبرٍ جَديدٍ، فسَأَلَ عَنهُ، فقالوا: فُلانَةُ، قال: فعَرَفها، وقال «**ألا آذَنتُموني بها؟**» قالوا: كُنتَ قائِلًا(٢) صائِماً، فكَرِهنا أن نُؤذيَكَ، قال: «**فَلا تَفعَلوا، لا أعرِفَنَّ ما ماتَ مِنكُم مَيِّتٌ، ما كنتُ بين أظهُرِكُم، إلا آذَنتُموني بهِ؛ فإنَّ صَلاتي عليه له رَحمَةٌ**».

ثم أتَى القَبرَ، فصَفَفنا خَلفهُ، فكَبَّرَ عليه أربَعًا(٣).

فَعَتَبَ عليهم في عَدَمِ إعلامِهِ بمَن ماتَ منهم؛ ليَدعوَ لَهُ، ويُصلِّيَ عليه، وهذا من تَمامِ رَأفَتِهِ ورَحمَتِهِ بأُمَّتِهِ، مِصداقًا لقولِهِ تعالى: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨].

* مُعاتَبتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الأنصارَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، يومَ حُنَينٍ:

فعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لَمَّا أعطَى رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أعطَى من تِلكَ العَطايا في قُرَيشٍ، وقَبائِلِ العَرَبِ، ولم يَكُن في الأنصارِ منها شيءٌ؛ وجَدَ هذا الحَيُّ مِنَ الأنصارِ في أنفُسِهِم، حتى كَثُرَت فيهمُ القالَةُ، حتى قال قائِلُهم: لَقيَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَومَهُ! فدَخَلَ عليه سَعدُ بنُ عُبادَةَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ هذا الحَيَّ قَد وجَدوا عليكَ في أنفُسِهِم؛ لما صَنَعتَ في هذا الفيءِ الذي أصَبتَ: قَسَمتَ في قَومِكَ، وأعطَيتَ عَطايا عِظامًا في قَبائِلِ العَرَبِ، ولم يَكُن في هذا الحَيِّ مِنَ الأنصارِ شيءٌ.

- قال: «**فَأينَ أنتَ من ذلك يا سَعدُ؟**».

- قال: يا رسولَ اللهِ، ما أنا إلا امرُؤٌ من قَومي، وما أنا؟!

---

(١) رواه البخاري مختصرا (٤٦٠)، ومسلم (٩٥٦) بتمامه.

(٢) من القيلولة.

(٣) رواه ابن ماجه (١٥٢٨)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

- قال: «**فاجمَع لي قَومَكَ في هَذِهِ الحَظيرَةِ**[١]».

- قال: فخرجَ سَعدٌ، فجَمَعَ الناسَ في تِلكَ الحَظيرَةِ.

- قال: فجاءَ رِجالٌ مِنَ المُهاجِرينَ، فتَرَكَهم، فدَخَلوا، وجاءَ آخَرونَ، فرَدَّهم.

فلمَّا اجتَمَعوا أتاهُ سَعدٌ، فقال: قَدِ اجتَمَعَ لَكَ هذا الحَيُّ مِنَ الأنصارِ.

- قال: فأتاهم رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحَمِدَ اللهَ، وأثنَى عليه بالذي هو له أهلٌ، ثم قال: «**يا مَعشَرَ الأنصارِ، ما قالةٌ بَلَغَتني عَنكُم، وجِدَةٌ وجَدتُموها في أنفُسِكُم؟ ألَم آتِكُم ضُلَّالًا فهَداكُمُ اللهُ، وعالَةً فأغناكُمُ اللهُ، وأعداءً فألَّفَ اللهُ بين قُلوبِكُم؟**».

- قالوا: بَلِ اللهُ ورسولُهُ أمَنُّ وأفضَلُ.

- قال: «**ألا تُجيبونَني يا مَعشَرَ الأنصارِ؟**».

- قالوا: وبِماذا نُجيبُكَ يا رسولَ اللهِ، وللهِ ولِرسولِهِ المَنُّ والفَضلُ؟

- قال: «**أما واللهِ لَو شِئتُم لَقُلتُم، فلَصَدقتُم وصُدِّقتُم: أتَيتَنا مُكَذَّبًا فصَدَّقناكَ، ومَخذولًا فنَصَرناكَ، وطَريدًا فآوَيناكَ، وعائِلًا فأغنَيناكَ.**

أوَجَدتُم في أنفُسِكُم يا مَعشَرَ الأنصارِ في لُعاعَةٍ مِنَ الدُّنيا، تَألَّفتُ بها قَومًا لِيُسلِموا، ووَكَلتُكُم إلى إسلامِكُم؟

أفَلا تَرضَونَ يا مَعشَرَ الأنصارِ أن يَذهَبَ الناسُ بالشَّاةِ، والبَعيرِ، وتَرجِعونَ برسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **في رِحالِكُم؟ فوالذي نَفسُ محمدٍ بيَدِهِ لَولا الهِجرَةُ لَكنتُ امرَأً مِنَ الأنصارِ، ولو سَلَكَ الناسُ شِعبًا، وسَلَكَتِ الأنصارُ شِعبًا لَسَلَكتُ شِعبَ الأنصارِ.**

اللهمَّ ارحَمِ الأنصارَ، وأبناءَ الأنصارِ، وأبناءَ أبناءِ الأنصارِ».

- قال: فبَكَى القَومُ حتى أخضَلوا لحاهم، وقالوا: رَضينا برسولِ اللهِ قسمًا، وحَظًّا.

ثم انصَرَفَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتَفَرَّقنا[٢].

---

(١) الخيمة.

(٢) رواه الإمام أحمد (١١٧٣٠)، وحسَّن إسناده محققو المسند، وأصله في الصحيحين: البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١) من حديث عبدالله بن زيدٍ.

مِن فوائِدِ الحديثِ:

فيه: حُسنُ أدَبِ الأنصارِ في تَركِهِمُ المُماراةَ، والمُبالَغَةُ في الحَياءِ، وبَيانُ أنَّ الذي نُقِلَ عنهم إنما كان عن شُبَّانِهِم، لا عن شُيوخِهِم، وكُهولِهِم[١].

وأنَّ الكبيرَ يُنَبِّهُ الصَّغيرَ على ما يَغفُلُ عَنهُ، ويوَضِّحُ له وجهَ الشُّبهَةِ؛ ليَرجِعَ إلى الحَقِّ.

وفيه: المُعاتَبَةُ، واستِعطافُ المُعاتِبِ، وإعتابُهُ عن عَتبِهِ، بإقامَةِ حُجَّةِ مَن عَتَبَ عليه، والاعتِذار والاعتِراف.

وفيه: أنَّ مَن طَلَبَ حَقَّهُ مِنَ الدُّنيا، لا عَتبَ عليه في ذلك.

وفيه: تَسليَةُ مَن فاتَهُ شيءٌ مِنَ الدُّنيا، بما حَصَلَ له من ثَوابِ الآخِرَةِ، والحَضُّ على طَلَبِ الهِدايَةِ، والأُلفَةِ، والغِنَى.

وأنَّ المِنَّةَ للهِ ورسولِهِ على الإطلاقِ، وتَقديمُ جانبِ الآخِرَةِ على الدُّنيا، والصَّبرُ عَمَّا فاتَ منها؛ ليُدَّخرَ ذلك لصاحِبِهِ في الآخِرَةِ، والآخِرَةُ خَيرٌ وأبقَى[٢].

* مُعاتَبَةُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابَه، في شَأنِ ماعِزٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

عن يَزيدَ بنِ نُعَيم بنِ هَزَّالٍ، عن أبيهِ: أنَّ ماعِزَ بنَ مالكٍ أتَى النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: أقِم عَلَيَّ كِتابَ اللهِ، فأعرَضَ عَنهُ، أربَعَ مَرَّاتٍ، ثم أمَرَ برَجمِهِ، فلَمَّا مَسَّتهُ الحِجارَةُ، جَزِعَ، فخرجَ يَشتَدُّ، وخرجَ عبدُاللهِ بنُ أُنَيسٍ مِن ناديهِ، فرَماهُ بوَظيفِ حِمارٍ، فصَرَعَهُ، فأتَى النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحَدَّثَهُ بأمرِهِ، فقال: «**هَلَّا تَرَكتُموهُ، لَعَلَّهُ أن يَتوبَ، فيَتوبَ اللهُ عليه؟**» ثم قال: «**يا هَزَّالُ، لَو سَتَرتَهُ بثَوبِكَ، كان خَيرًا لَكَ**»[٣].

---

(١) ففي الصحيحين: قال لهُ فقهاؤُهم: أمَّا ذوُو آرائنا يا رسولَ الله، فلم يقولوا شيئًا، وأما أناسٌ منا حديثةٌ أسنانُهُم، فقالوا: يغفرُ اللهُ لِرَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يعطي قريشًا، ويتركُ الأنصارَ، وسيوفنا تقطرُ من دمائهم.

(٢) فتح الباري (٨/ ٥٢).

(٣) رواه أحمد (٢١٨٩٢)، وحسنه محققو المسند، وكان ماعز بن مالك في حجر هزَّال، فأصاب جاريةً من الحيِّ، فقال له هزَّال: ائت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخبره بما صنعت، لعلَّه يستغفر لك، وإنما يريد بذلك رجاء أن يكون له مخرجٌ.

مِن فوائِدِ الحديثِ:

فيه: دَليلٌ على سُقوطِ إثمِ المعاصي الكبائِرِ بالتوبةِ.

وفيه: أنَّهُ يُستَحَبُّ لمَن وقَعَ في مَعصيةٍ أن يُبادِرَ إلى التوبةِ منها، ولا يُخبِر بها أحَدًا، ويَستَتِر بسِترِ اللهِ، وإنِ اتَّفَقَ أنَّهُ أخبرَ أحَدًا، فيُستَحَبُّ أن يَأمُرَهُ بالتوبةِ، وسَترِ ذلك عن الناسِ.

وفيه: أنَّهُ يُستَحَبُّ لمَنِ اطَّلَعَ على مِثلِ ذلك، أن يَستُرَ على الفاعِلِ، ولا يَفضَحَهُ، ولا يَرفَعَهُ إلى الإمامِ، إلا إذا كان مُجاهِرًا بالمعصيةِ، والفِسقِ(١).

*** مُعاتَبتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، في مُخالَفَةِ إشارَتِهِ، بإمامَةِ الناسِ:**

وهذا عِتابٌ من نَوعٍ آخَرَ، فليس هو من جِنسِ العِتابِ الذي يكونُ بين الناسِ على خَطَأٍ؛ بل هو عِتابُ تَعظيمٍ، وتَشريفٍ.

فعن سَهلِ بنِ سَعدٍ السَّاعِديِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَهَبَ إلى بَني عَمرِو بنِ عَوفٍ؛ ليُصلِحَ بينهم، فحانَتِ الصَّلاةُ، فجاءَ المُؤَذِّنُ إلى أبي بكرٍ، فقال: أتُصَلِّي للنَّاسِ؛ فأُقيمَ؟ قال: نعم، فصَلَّى أبو بكرٍ، فجاءَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والناسُ في الصَّلاةِ، فتَخَلَّصَ حتى وقَفَ في الصَّفِّ، فصَفَّقَ الناسُ، وكان أبو بكرٍ لا يَلتَفِتُ في صَلاتِهِ، فلمَّا أكثَرَ الناسُ التَّصفيقَ التفَتَ، فرَأى رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأشارَ إليه رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنِ امكُثْ مَكانَكَ**»، فرَفَعَ أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَدَيهِ، فحَمِدَ اللهَ على ما أمَرَهُ بِهِ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك.

ثم استَأخَرَ أبو بكرٍ، حتى استَوَى في الصَّفِّ، وتَقَدَّمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فصَلَّى، فلمَّا انصَرَفَ قال: «**يا أبا بكرٍ، ما مَنَعَكَ أن تَثبُتَ إذ أمَرتُكَ؟**»، فقال أبو بكرٍ: ما كان لابنِ أبي قُحافَةَ أن يُصَلِّيَ بين يَدَي رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢).

قال الحافِظُ ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «**فيه:** جَوازُ الالتِفاتِ للحاجَةِ، وأنَّ مُخاطَبَةَ المُصَلِّي بالإشارَةِ

---

(١) ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ٢٠١)، فتح الباري (١٢/ ١٢٦).

(٢) رواه البخاري (٦٨٤)، ومسلم (٤٢١).

أولى من مُخاطَبَتِهِ بالعِبارَةِ، وأنَّها تَقومُ مَقامَ النُّطقِ؛ لمُعاتَبَةِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكرٍ على مُخالَفَةِ إشارَتِهِ»[١].

فهذا عِتابٌ للصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، على تَركِهِ إمامَةَ الصَّلاةِ، وقد أذِنَ له رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتَرَكَ ذلك تَوقيرًا لرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتَبجيلًا.

* مُعاتَبتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُسامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لقَتلِهِ مَن قال: لا إلَهَ إلا اللهُ:

قال أُسامَةُ بنُ زَيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: بَعَثَنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الحُرَقَةِ[٢]، فصَبَّحنا القَومَ، فهَزَمناهم، ولَحِقتُ أنا ورَجُلٌ مِنَ الأنصارِ رَجُلًا منهم، فلَمَّا غَشيناهُ[٣] قال: لا إلَهَ إلا اللهُ، فكَفَّ الأنصاريُّ، فطَعَنتُهُ برُمحي حتى قَتَلتُهُ! فلَمَّا قَدِمنا، بَلَغَ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: **«يا أُسامَةُ، أقَتَلتَهُ بعدَ ما قال: لا إلَهَ إلا اللهُ؟! فكَيفَ تَصنَعُ بـ«لا إلَهَ إلا اللهُ» إذا أتَتكَ يومَ القيامَةِ؟»**، قُلتُ: كان مُتَعَوِّذًا[٤]، قال: **«أفَلا شَقَقتَ عن قَلبِهِ؛ حتى تَعلَمَ أقالَها أم لا؟»**.

فَما زالَ يُكَرِّرُها، حتى تَمَنَّيتُ أنِّي لم أكُن أسلَمتُ قبلَ ذلك اليومِ[٥].

قولُهُ: «حَتَّى تَمَنَّيتُ أنِّي لم أكُن أسلَمتُ قبلَ ذلكَ اليومِ»:

مَعناهُ: لم يَكُن تَقَدَّمَ إسلامي، بَلِ ابتَدَأتُ -الآنَ- الإسلامَ؛ ليَمحوَ عَنِّي ما تَقَدَّمَ، وقال هذا الكلامَ من عِظَمِ ما وقَعَ فيه[٦].

وفي هذا اللَّومِ منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَعليمٌ وإبلاغٌ في الموعِظَةِ؛ حتى لا يُقدِمَ أحَدٌ على قَتلِ مَن تَلَفَّظَ بالتَّوحيدِ»[٧].

---

(١) فتح الباري (٢/ ١٦٩).

(٢) بطنٌ من جهينة، سمُّوا بذلك؛ لوقعةٍ كانت بينهم وبين بني مرَّة بن ذبيان، فأحرقوهم بالسِّهام؛ لكثرة من قتلوا منهم. الفتح (١٢/ ١٩٥).

(٣) لحقنا به.

(٤) قالها خوفًا من السِّلاح.

(٥) رواه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦).

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ١٠٧).

(٧) فتح الباري (١٢/ ١٩٥).

وقد انتفَعَ أُسامَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **بذلك، فآلى ألَّا يُقاتِلَ مُسلِمًا**، ولِذلك تَرَكَ القِتالَ في الفِتنَةِ التي هاجَت بين الصَّحابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

فعن حَرمَلَةَ مَولى أُسامَةَ، قال: أرسَلَني أُسامَةُ إلى عليٍّ، وقال: إنَّهُ سَيَسألُكَ -الآنَ- فيقولُ: ما خَلَّفَ صاحِبَكَ؟ فقُل لَهُ: يقولُ لَكَ: «لَو كُنتَ في شِدقِ الأسَدِ(١) لأَحبَبتُ أن أكونَ مَعَكَ فيه، ولكن هذا أمرٌ لم أرَهُ»(٢).

فَأرسَلَ أُسامَةُ إلى عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، يَعتَذِرُ له عن تَخَلُّفِهِ عنه في حُروبِهِ، بأنَّهُ لا يَرى قِتالَ المسلمِ.

يقولُ ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ اللهُ: «وإنما تَوَرَّعَ أُسامَةُ؛ لكَونِهِ رَأى أنَّهُ قِتالُ المسلمينَ، وكان السَّبَبُ في تَوَرُّعِهِ أنَّهُ قَتَلَ مَن قال: لا إلَهَ إلا اللهُ، فعاتَبَهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك، فامتَنَعَ من قِتالِ المسلمينَ»(٣).

* مُعاتَبتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابَهُ في أكلِ الثُّومِ والكرّاثِ، وحُضورِ المسجِدِ بالرائِحَةِ الكريهَةِ، بالرغمِ من سَبقِ نَهيِهِ عن ذلك:

فعن جابِرِ بنِ عبدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنَّ نَفَرًا أتَوُا النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوَجَدَ منهم ريحَ الكُرَّاثِ، فقال: **«ألَم أكُن نَهَيتُكُم عن أكلِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ؟ إنَّ الملائِكَةَ تَتَأذَّى مِمَّا يَتَأذَّى منه الإنسانُ»**(٤).

وهذا **النَّهيُ للتَّنزيهِ، وليس للتَّحريمِ**؛ لحديثِ أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: لم نَعدُ أن فُتِحَت خَيبَرُ، فوَقَعنا أصحابَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تِلكَ البَقلَةِ: الثُّومِ، والناسُ جياعٌ، فأكَلنا منها أكلاً شَديدًا، ثم رُحنا إلى المسجِدِ، فوَجَدَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرِّيحَ؛ فقال: **«مَن أكَلَ من هَذِهِ الشَّجَرَةِ الخَبيثَةِ شَيئًا، فلا يَقرَبَنَّا في المسجِدِ»**، فقال الناسُ: حُرِّمَت،

---

(١) جانب فمه من الدَّاخل، وهذا كنايةٌ عن الموافقة حتى في حالة الموت، أي: لو كنت في موضعٍ لا يوصل إليك فيه -عادةً-، لأحببت أن أصل إليك.

(٢) رواه البخاري (٧١١٠).

(٣) كشف المشكل من حديث الصحيحين (٤/ ٢١).

(٤) رواه مسلم (٥٦٤)، وابن ماجه (٣٣٦٥)، واللفظ له.

حُرِّمَت، فبَلَغَ ذاكَ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقال: «**أيُّها الناسُ، إنَّهُ ليس بي تَحريمُ ما أحَلَّ اللهُ لي، ولكنها شَجَرَةٌ أكرَهُ ريحَها**»[١].

وعن جابرٍ، قال: نَهى رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عن أكلِ البَصَلِ والكُرَّاثِ، فغَلَبَتنا الحاجَةُ، فأكَلنا منها، فقال: «**مَن أكَلَ من هَذِهِ الشَّجَرَةِ المُنتِنَةِ، فلا يَقرَبَنَّ مَسجِدَنا؛ فإنَّ الملائِكَةَ تَأذَّى، مِمَّا يَتَأذَّى منه الإنسُ**»[٢].

قال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «النَّهيُ -يعني عن أكلِ هذه البُقولِ- مَحمولٌ على التَّنزيهِ»[٣].

وقال عُلماءُ اللجنَةِ الدَّائِمَةِ:

«أكلُ البَصَلِ النَّيِّءِ مَكروهٌ؛ لرائِحَتِهِ الكريهَةِ، مع تَوَقُّعِ حُضورِهِ المساجِدَ، والمجامِعَ العامّةَ، ومُخالطتِهِ الناسَ، أمَّا إذا كان مَطبوخًا: فلا بَأسَ بأكلِهِ؛ لزوالِ رائِحتِهِ.

ومَن أكَلَ ثومًا، أو بَصلًا، وأزالَ الرائِحَةَ، بأيِّ مُزيلٍ: فلا إثمَ عليه في اختِلاطِهِ بالناسِ، في المساجِدِ، ومَجالسِ الخَيرِ»[٤].

❊ مُعاتَبتُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلاً، أطالَ الصَّلاةَ بالناسِ:

عن أبي مَسعودٍ الأنصاريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رَجُلًا قال: واللهِ يا رسولَ اللهِ إنِّي لَأتَأخَّرُ عن صَلاةِ الغَداةِ من أجلِ فُلانٍ، مِمَّا يُطيلُ بنا!

يقولُ: فما رَأيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مَوعِظَةٍ أشَدَّ غَضَبًا منه يومَئِذٍ، ثم قال: «**إنَّ مِنكُم مُنَفِّرينَ! فأيُّكُم ما صَلَّى بالناسِ فليَتَجَوَّز؛ فإنَّ فيهِمُ الضَّعيفَ، والكبيرَ، وذا الحاجَةِ**»[٥].

قال العَينيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن قُلتَ: كان المُقتَضى أن يُخاطِبَ المُطَوِّلَ، قُلتُ: إنما خاطَبَ الكُلَّ،

---

(١) رواه مسلم (٥٦٥).

(٢) رواه مسلم (٥٦٣).

(٣) مرقاة المفاتيح (٧/ ٢٧٢٥).

(٤) فتاوى اللَّجنة الدَّائمة (٢٢/ ٢٥٨).

(٥) رواه البخاري (٧٠٢) ومسلم (٤٦٦).

ولم يُعَيِّنِ المُطَوِّلَ؛ كَرَمًا ولُطفًا عليه، وكانت هَذِهِ عادَتَه؛ حيث ما كان يُخَصِّصُ العِتابَ والتَّأديبَ بمَن يَستَحِقُّهُ؛ حتى لا يَحصُلَ له الخَجَلُ ونَحوُهُ على رُؤوسِ الأشهادِ»[1].

وهُناكَ نَوعٌ آخَرُ مِنَ العِتابِ: وهو عِتابُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهلَ العِلمِ والفَضلِ، في أبوابٍ مِنَ العِلمِ؛ تَفهيمًا وتَعليمًا، أو حَثًّا على التَّقَدُّمِ والصَّدارَةِ:

*** فَمِن ذلك: مُعاتبتُهُ أبا بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، على عَدَمِ فهمِ آيةٍ على وجهِها:**

فعن أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: يا رسولَ اللهِ، كَيفَ الصَّلاحُ بعدَ هَذِهِ الآيةِ؟ ﴿**مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ**﴾ [النساء: ١٢٣]، فكُلُّ سوءٍ عَمِلنا، جُزينا بِهِ؟ فقال: «**غَفَرَ اللهُ لَكَ يا أبا بكرٍ!** -ثَلاثَ مَرَّاتٍ- **أَلَستَ تَمرَضُ؟ أَلَستَ تَنصَبُ؟ أَلَستَ تَحزَنُ؟ أَلَستَ تُصيبُكَ اللَّأواءُ؟**»، قال: بَلى، قال: «**فهو ما تُجزَونَ بِهِ**»[2].

*** ومِن ذلك: مُعاتبتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيادَ بنَ لَبيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، على استِشكالِهِ رَفعَ العِلمِ، وكِتابُ اللهِ بين الناسِ:**

فعن عَوفِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قال: بينما نَحنُ جُلوسٌ عندَ رسولِ اللهِ ذاتَ يومٍ، فنَظَرَ في السَّماءِ، ثم قال: «**هَذا أوانُ العِلمِ أن يُرفَعَ**»، فقال له رَجُلٌ مِنَ الأنصارِ، يُقالُ لَهُ: زيادُ بنُ لَبيدٍ: أَيُرفَعُ العِلمُ يا رسولَ اللهِ، وفينا كِتابُ اللهِ، وقد عَلَّمناهُ أبناءَنا، ونِساءَنا؟!

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن كنتُ لَأَظُنُّكَ من أفقَهِ أهلِ المدينَةِ**».

ثم ذَكَرَ ضَلالَةَ أهلِ الكِتابَينِ، وعندَهما ما عندَهما من كِتابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ[3].

وعن زيادِ بنِ لَبيدٍ، قال: ذَكَرَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيئًا، فقال: «**وَذاكَ عندَ أوانِ ذَهابِ العِلمِ**» قال: قُلنا: يا رسولَ اللهِ، وكَيفَ يَذهَبُ العِلمُ، ونَحنُ نَقرَأُ القُرآنَ، ونُقرِئُهُ أبناءَنا، ويُقرِئُهُ أبناؤُنا أبناءَهم، إلى يومِ القيامَةِ؟ قال: «**ثَكِلَتكَ أُمُّكَ يا ابنَ أُمِّ لَبيدٍ، إن كنتُ لَأَراكَ من**

---

(١) عمدة القاري (٢/ ١٠٦).

(٢) رواه الإمام أحمد (٦٨)، وابن حبَّان (٢٩١٠)، وصححه محققو المسند.

(٣) رواه الإمام أحمد (٢٣٩٩٠)، وصححه محققو المسند.

أفقَهِ رَجُلٍ بالمدينَةِ، أو ليس هَذِهِ اليَهودُ والنَّصارَى، يَقرَءونَ التَّوراةَ والإنجيلَ، لا يَنتَفِعونَ مِمَّا فيهما بشيءٍ؟»[(١)].

وفي هذا وأمثالِهِ: تَحريضٌ على طَلَبِ المزيدِ مِنَ العِلمِ؛ فإنَّ الطَّالبَ المُجِدَّ، إذا عوتِبَ على تَقصيرِهِ في العِلمِ، حَضَّهُ ذلك على مَزيدِ الطَّلَبِ.

ومِمَّا يُذكَرُ في هذا البابِ: أنَّ إسماعيلَ المُزَنيَّ، عَتَبَ على أبي جَعفَرٍ الطَّحاويِّ- وكان ابنَ أُختِهِ-، في بَعضِ العِلمِ، وذلك أنّه كان يَقرَأُ عليه، فمَرّت مَسأَلَةٌ دَقيقةٌ، فلم يَفهمها أبو جَعفَرٍ، فبالَغَ المُزَنيُّ في تَقريبِها لَهُ، فلَم يَتّفِق ذلك، فغَضِبَ المُزَنيُّ، فقال -مُتَضَجِّرًا-: «واللهِ لا جاءَ مِنكَ شيءٌ»، فغَضِبَ أبو جَعفَرٍ من ذلك، وانتَقَلَ إلى ابنِ أبي عِمرانَ، واجتَهَدَ، وصَنّفَ، وحَرّرَ، فلمّا صَنّف مُختَصَره، قال: «رَحِمَ اللهُ أبا إبراهيم، لَو كان حَيًّا لكفَّرَ عن يَمينِهِ».

فَأثارَت كَلِمَةُ شَيخِهِ حَفيظَتَهُ، فجَدَّ في الطَّلَبِ، حتى سَبَقَ أقرانَهُ، وانتهَت إليه رِئاسَةُ أصحابِ أبي حَنيفَةَ بمِصرَ، وصَنّفَ المُصنّفاتِ النافِعَةَ[(٢)].

(١) رواه الإمام أحمد (١٧٤٧٣)، وابن ماجه (٤٠٤٨)، وصححه محققو المسند.

(٢) ينظر: سير أعلام النُّبلاء (١٥/ ٢٩)، لسان الميزان (١/ ٢٧٥)، وفيات الأعيان (١/ ٧١).

افتِتاحاتُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالبَلاغِ المُبينِ، فقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤، العنكبوت: ١٨]، وقد قامَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك أكمَلَ القيامِ، فقَد كان أفصَحَ الناسِ لسانًا، وأحسَنَهم بَيانًا، بألفاظٍ موجَزَةٍ قَليلَةٍ، تَدُلُّ على المعاني الكثيرَةِ، مع الوُضوحِ، وعَدَمِ الغُموضِ، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بُعِثتُ بجَوامِعِ الكلِمِ**»، وفي رواية: «**أوتيتُ جَوامِعَ الكلِمِ**»[1].

وعن أبي موسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «**كان رسولُ اللهِ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَد أُعطيَ جَوامِعَ الكلِمِ، بخَواتِمِهِ**»[2].

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «**قَد أُعطيَ جَوامِعَ الكلِمِ**»: أي: إيجازَ اللَّفظِ، مع تَناوُلِهِ المعانيَ الكثيرَةَ جِدًّا.

وقوله: «**بِخَواتِمِهِ**»: أي: كأنَّهُ يَختِمُ على المعاني الكثيرَةِ، التي تَضَمنها اللَّفظُ اليَسيرُ، فلا يَخرُجُ منها شيءٌ عن طالبِهِ، ومُستَنبِطِهِ؛ لعُذوبَةِ لَفظِهِ، وجَزالَتِهِ»[3].

وقال المُناويُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أي: خَواتِمِ الكلامِ، يعني: حُسنَ الوَقفِ، ورِعايَةَ الفَواصِلِ،

(١) رواه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣).
(٢) رواه مسلم (٢٠٠١).
(٣) شرح النووي على مسلم (١٣/ ١٧٠).

فكان يَبدَأُ كَلامَهُ بأعذَبِ لَفظٍ، وأجزَلِهِ، وأفصَحِهِ، وأوضَحِهِ، يَختِمُهُ بما يُشَوِّقُ السَّامِعَ إلى الإقبال على الاستماع لِمثلِهِ، والحِرصِ عليه[1].

وقال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «بَلَغَني أنَّ جَوامِعَ الكلِمِ: أنَّ اللهَ يَجمَعُ الأُمورَ الكثيرَةَ، التي كانت تُكتَبُ في الكُتُبِ قبلَهُ، في الأمرِ الواحِدِ، والأمرَينِ، أو نَحوَ ذلك»[2].

وهذا عَينُ البَلاغَةِ، قال بعضُ البُلَغاءِ: «أبلَغُ الكلامِ: ما حَسُنَ إيجازُهُ، وقَلَّ مجازُهُ، وكَثُرَ إعجازُهُ، وناسَبَت صُدورُهُ أعجازَهُ، والبَليغُ: مَن يَجتَني مِنَ الألفاظِ أنوارَها، ويَجتني مِنَ المعاني ثِمارَها»[3].

وكان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفتَتِحُ كَلامَهُ بافتِتاحاتٍ حَكيمةٍ، تُهَيِّئُ السَّامِعَ لحُسنِ الاستماعِ، وتُمَهِّدُ للمَوضوعِ، فمَن أرادَ اللهُ بِهِ الخَيرَ: أصغَى بأُذُنٍ واعيَةٍ، وقَلبٍ عَقولٍ.

*** ومِن ذلك: أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يَفتَتِحُ كَلامَهُ وخُطَبَهُ بخُطبَةِ الحاجَةِ:**

وهيَ خُطبةٌ حَكيمةٌ، تَتَضمَّنُ حَمدَ اللهِ تعالى، واستغفارَهُ، والاستعانَةَ بِهِ على فِعلِ الخُيورِ، والاستعاذَةَ بِهِ من حُصولِ الشُّرورِ، وحُسنَ الثّناءِ عليه، وهذا إذا كَمُلَ للعبدِ: فقَد تمّت سَعادَتُهُ.

فعن عبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: عَلَّمَنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُطبَةَ الحاجَةِ: «**إنَّ الحَمدَ للهِ، نَستَعينُهُ، ونَستَغفِرُهُ، ونَعوذُ بِهِ من شُرورِ أنفُسِنا، مَن يَهدِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَن يُضلل فلا هاديَ لَهُ، وأشهَدُ أن لا إلَهَ إلا اللهُ، وأشهَدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ**».

ثم قَرَأ ثَلاثَ آياتٍ من كِتابِ اللهِ: ﴿**ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿**وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾ [النساء: ١]، ﴿**ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا**﴾ [الأحزاب: ٧٠] إلى آخِرِ الآيةِ[4].

---

(١) فيض القدير (١/ ٥٦٥).

(٢) صحيح البخاري (٩/ ٣٦).

(٣) التَّمثيل والمحاضرة للثَّعالبيِّ (ص١٥٨).

(٤) رواه أبوداود (٢١١٨)، والترمذي (١١٠٥)، والنسائي (١٤٠٤)، وابن ماجه (١٨٩٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

وعن جابرِ بنِ عبدِالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقومُ فيَخطُبُ، فيَحمَدُ اللهَ، ويُثني عليه بما هو أهلُهُ، ويقولُ: «**مَن يَهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَن يُضلل فلا هاديَ لَهُ، إنَّ خَيرَ الحديثِ كِتابُ اللهِ، وخَيرَ الهَدي هَديُ محمدٍ، وشَرَّ الأُمورِ مُحدَثاتُها، وكُلَّ مُحدَثَةٍ بدعَةٌ**».

وكان إذا ذَكَرَ السَّاعَةَ احمَرَّت وجنَتاهُ، وعَلا صَوتُهُ، واشتَدَّ غَضَبُهُ، كَأَنَّهُ مُنذِرُ جَيشٍ، يقول: «**صَبَّحَكُم ومَسَّاكُم**»[1].

* **وقد كانت هَذِهِ الخُطبَةُ البَليغَةُ، سببًا في إسلامِ ضِمادِ بنِ ثَعلَبَةَ:**

فَعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ ضِمادًا قَدِمَ مَكَّةَ، وكان من أزدِ شَنوءَةَ[2]، وكان يَرقي من هَذِهِ الرِّيحِ[3]، فسَمِعَ سُفهاءَ من أهلِ مَكَّةَ يقولونَ: إنَّ محمدًا مجنونٌ.

- فقال: لَو أنِّي رَأيتُ هذا الرجُلَ، لَعَلَّ اللهَ يَشفيه على يَدَيَّ.

- قال: فلَقيَهُ.

- فقال: يا محمدُ، إنِّي أرقي من هَذِهِ الرِّيحِ، وإنَّ اللهَ يَشفي على يَدي مَن شاءَ، فهَل لَكَ؟

- فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ الحَمدَ للهِ، نَحمَدُهُ، ونَستَعينُهُ، مَن يَهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَن يُضلل فلا هاديَ لَهُ، وأشهَدُ أن لا إلَهَ إلا اللهُ، وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، أمَّا بعدُ**».

- فقال: أعِد عَلَيَّ كَلِماتِكَ هَؤُلاءِ.

- فأعادَهُنَّ عليه رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ.

---

(١) رواه مسلم (٨٦٧)، والإمام أحمد (١٤٩٨٤)، واللفظ له.

(٢) قبيلةٌ كبيرةٌ من اليمن، والأزد قبيلةٌ منها.

(٣) الجنون ومس الجنِّ.

- فقال: لَقَد سمعتُ قولَ الكهَنَةِ، وقولَ السَّحَرَةِ، وقولَ الشُّعَراءِ، فما سمعتُ مِثلَ كَلِماتِكَ هَؤُلاءِ، ولَقَد بَلَغنَ قاموسَ[١] البَحرِ[٢].

- فقال: هاتِ يَدَكَ أُبايِعكَ على الإسلامِ، فبايَعَهُ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وعلى قَومِكَ**»، قال: وعلى قَومي[٣].

فلمَّا كان ضِمادٌ عالمًا بأصنافِ الكلامِ البَليغِ، ووجدَ عندَهُ ما حَصَلَ له مِنَ العِلمِ بذلك، قَطَعَ بأنَّهُ لا يَصدُرُ مِثلُ ذلك إلا من نَبيٍّ، وأنَّهُ مُحِقٌّ في قولِهِ، فأسلم، وحَسُنَ إسلامُهُ، وضَمِنَ عن قَومِهِ الإسلامَ، حتى قَدِمَ عليهم فأسلموا، فلَم يَحتَجِ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدَ خُطبَتِهِ لإنشاءِ كَلامٍ، يكونُ جَوابًا لقولِهِ: «**أمَّا بعدُ**»[٤].

* وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَستَعمِلُ في افتِتاحِ كَلامِهِ جُملَةَ: «أمَّا بعدُ»؛ لفَصلِ الكلامِ:

وقولُ: «أمَّا بعدُ» مِنَ الأساليبِ البَلاغيَّةِ الراقيَةِ؛ حيث تَفصِلُ هَذِهِ الكلِمَةُ مُقَدِّمَةَ الكلامِ عن مَوضوعِهِ، فصلًا حسَنًا؛ ولِذا فُسِّرَ بها «فَصلَ الخِطابِ»، المذكور في قولِهِ تعالى -في الثَّناءِ على نَبيِّهِ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠].

قال مُجاهِدٌ: «هوَ الفَصلُ في الكلامِ، وفي الحُكمِ»[٥].

وعن أبي موسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «أوَّلُ مَن قال: «أمَّا بعدُ»: داودُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو فصلُ الخِطابِ»[٦].

---

(١) قعر.

(٢) يعني: أن هذه الكلمات بلغت غاية الفصاحة، ونهاية البلاغة، وقيل: إنه لو كان في قعر البحر أحدٌ، لبلغت ووصلت إليه.

(٣) رواه مسلم (٨٦٨).

(٤) المفهم للقرطبيِّ (١٢/ ١١٥).

(٥) تفسير ابن كثير (٧/ ٥٩).

(٦) تفسير ابن أبي حاتمٍ (١٨٣٣٩)، الأوائل لابن أبي عاصمٍ (١٩١).
وانظر الفصل التالي: «كلامه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

- **ومِن استِعمالاتِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهَذِهِ الكلِمَةِ:**

فَبعدَ أنِ انصَرفَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صَلاةِ الكُسوفِ خَطَبَ الناسَ، فحَمِدَ اللهَ، وأثنى عليه، ثم قال: «**أمَّا بعدُ، ما من شيءٍ لم أكُن رَأيتُهُ، إلا قَد رَأيتُهُ في مَقامي هَذا، حتى الجَنَّةَ والنارَ، وإنَّهُ قَد أوحيَ إلَيَّ أنَّكُم تُفتَنونَ في القُبورِ قَريبًا -أو: مِثلَ- فِتنَةِ المسيحِ الدَّجَّال، فيُؤتَى أحَدُكُم، فيُقال: ما عِلمُكَ بهذا الرجُلِ؟ فأمَّا المُؤمِنُ أوِ الموقِنُ فيقولُ: هو محمدٌ هو رسولُ اللهِ، جاءَنا بالبَيِّناتِ والهُدَى، فأجَبنا، وأطَعنا، -ثَلاثَ مِرارٍ-، فيُقال لَهُ: نَم، قَد كُنَّا نَعلَمُ إنَّكَ لَتُؤمِنُ بِهِ، فنَم صالحًا. وأمَّا المُنافِقُ أوِ المُرتابُ، فيقولُ: لا أدري، سمعتُ الناسَ يقولونَ شَيئًا، فقُلتُه**»[1].

وفي حديثِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لَمَّا صَلَّى النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالناسِ القيامَ في رَمَضانَ، وكَثُرَ أهلُ المسجِدِ، فلمَّا كانتِ اللَّيلَةُ الرابعَةُ عَجَزَ المسجِدُ عن أهلِهِ، حتى خرجَ لصَلاةِ الصُّبحِ، فلمَّا قَضى الفَجرَ أقبَلَ على الناسِ، فتَشَهَّدَ، ثم قال: «**أمَّا بعدُ، فإنَّهُ لم يَخفَ عَلَيَّ مَكانُكُم، لكنِّي خَشيتُ أن تُفرَضَ عليكم، فتَعجِزوا عَنها**»[2].

❊ ومِن ذلك: لَمَّا خَطَبَ في الناسِ بشأنِ بَريرةَ، ولِمَن يَكونُ ولاؤها:

فلمَّا اشتَرَطَ أهلُ بَريرَةَ أن يكونَ الوَلاءُ لَهم؛ خَطَبَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشيَّةً، فحَمِدَ اللهَ، وأثنَى عليه بما هو أهلُهُ، ثم قال: «**أمَّا بعدُ، فما بالُ أقوامٍ يَشتَرِطونَ شُروطًا ليست في كِتابِ اللهِ، ما كان من شَرطٍ ليس في كِتابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فهو باطِلٌ، وإن كان مِائَةَ شَرطٍ، كِتابُ اللهِ أحَقُّ، وشَرطُ اللهِ أوثَقُ، ما بالُ رِجالٍ مِنكُم يقولُ أحَدُهم: أعتِق فُلانًا، والوَلاءُ لي، إنما الوَلاءُ لَمن أعتَقَ**»[3].

---

(١) رواه البخاري (٨٦)، ومسلم (٩٠٥).

(٢) رواه البخاري (٩٢٤)، ومسلم (٧٦١).

(٣) رواه البخاري (٢٥٦٣)، ومسلم (١٥٠٤).

*** وكان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كَثيرًا- ما يَفتَتِحُ كَلامَهُ بالقَسَمِ؛ تَأكيدًا للخَبَرِ:**

ومِن أشهَرِ ألفاظِ القَسَمِ التي كان يَستَعمِلُها: قولُهُ: «**والذي نَفسُ محمدٍ بيَدِهِ**».

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والذي نَفسُ محمدٍ بيَدِهِ، لا يَسمَعُ بي أحَدٌ من هَذِهِ الأُمَّةِ، يَهوديٌّ، ولا نَصرانيٌّ، ثم يَموتُ ولم يُؤمِن بالذي أُرسِلتُ بهِ؛ إلا كان من أصحابِ النارِ**»(١).

*** وأقسَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على نُزولِ عيسَى ابنِ مَريَمَ آخِرَ الزَّمانِ:**

فقال: «**والذي نَفسي بيَدِهِ، لَيوشِكَنَّ أن يَنزِلَ فيكُمُ ابنُ مَريَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَكَمًا، مُقسِطًا، فيَكسِرَ الصَّليبَ، ويَقتُلَ الخِنزيرَ، ويَضَعَ الجِزيَةَ، ويَفيضَ المالُ، حتى لا يَقبَلَهُ أحَدٌ**»(٢).

وقال: «**والذي نَفسُ محمدٍ بيَدِهِ، لَو رَأيتُم ما رَأيتُ، لَضَحِكتُم قَليلًا، ولَبَكَيتُم كَثيرًا**»، قالوا: وما رَأيتَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**رَأيتُ الجَنَّةَ، والنارَ**»(٣).

وقال: «**والذي نَفسي بيَدِهِ، ما من رَجُلٍ تكونُ له إبِلٌ، أو بَقَرٌ، أو غَنَمٌ، لا يُؤَدِّي حَقَّها، إلا أُتِيَ بها يومَ القيامَةِ، أعظَمَ ما تكونُ وأسمنه، تَطَؤُهُ بأخفافِها، وتَنطَحُهُ بقُرونِها، كُلَّما جازَت أُخراها رُدَّت عليه أولاها، حتى يُقضَى بين الناسِ**»(٤).

وقال: «**والذي نَفسي بيَدِهِ، لا تَدخُلونَ الجَنَّةَ حتى تُؤمِنوا، ولا تُؤمِنوا حتى تَحابُّوا، أوَلا أدُلُّكُم على شيءٍ إذا فعَلتُموهُ تَحابَبتُم؟ أفشوا السَّلامَ بينكُم**»(٥).

*** ورُبَّما أقسَمَ بلَفظِ الجَلالَةِ:**

فقال: «**واللهِ، إنِّي لَأستَغفِرُ اللهَ، وأتوبُ إليه في اليومِ أكثَرَ من سَبعينَ مَرَّةً**»(٦).

---

(١) رواه مسلم (١٥٣).

(٢) رواه البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥).

(٣) رواه مسلم (٤٢٦).

(٤) رواه البخاري (١٤٦٠)، ومسلم (٢٢٦٣).

(٥) رواه مسلم (٥٤).

(٦) رواه البخاري (٦٣٠٧).

وقال: «**واللهِ لا يُؤمِنُ، واللهِ لا يُؤمِنُ، واللهِ لا يُؤمِنُ**»، قيل: ومَن يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**الذي لا يَأمَنُ جارُهُ بَوائِقَهُ**[١]»[٢].

❊ وكان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربّما افتَتحَ كَلامَهُ بالسُّؤال؛ تَشويقًا للسّامِعِ، واستِدعاءً لانتِباهِهِ:

ومِن ذلك: لمَّا سَألَهم عن حَقيقَةِ المُفلِسِ:

فقال: «**أتَدرونَ ما المُفلِسُ؟**»، قالوا: المُفلِسُ فينا مَن لا دِرهَمَ لَهُ، ولا مَتاعَ، فقال: «**إنَّ المُفلِسَ من أُمَّتي مَن يَأتي يومَ القيامَةِ بصَلاةٍ، وصيامٍ، وزَكاةٍ، ويَأتي قَد شَتَمَ هَذا، وقَذَفَ هَذا، وأكَلَ مالَ هَذا، وسَفَكَ دَمَ هَذا، وضَرَبَ هَذا، فيُعطَى هذا من حَسَناتِهِ، وهذا من حَسَناتِهِ، فإن فنيَت حَسَناتُهُ قبلَ أن يُقضَى ما عليه، أُخِذَ من خَطاياهم، فطُرِحَت عليه، ثم طُرِحَ في النارِ**»[٣].

فَلَم يُعَرِّفِ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المُفلِسَ مُباشَرَةً، بل قَدَّمَ له بسُؤالٍ، يُنَشِّطُ بهِ ذِهنَ السَّامِعِ، ويَجعَلُهُ يَستَحضِرُ صورَةَ المُفلِسِ عِندَهُ، وما يُعانيهِ من ضيقٍ، وكَربٍ.

فإذا استَحضَرَت نُفوسُهم تِلكَ الصُّورَةَ الكئيبَةَ المُحزِنَةَ، انتَقَلَ بهم إلى التَّعريفِ بحَقيقَةِ المُفلِسِ حَقًّا.

ومِن ذلك -أيضًا-:

عن عبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما تَعُدُّونَ الرقوبَ فيكُم؟**»، قُلنا: الذي لا يولَدُ لَهُ، قال: «**ليس ذاكَ بالرقوبِ، ولكنهُ الرجُلُ الذي لم يُقدِّم من ولَدِهِ شَيئًا**[٤]».

قال: «**فَما تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فيكُم؟**»، قُلنا: الذي لا يَصرَعُهُ الرِّجالُ، قال: «**ليس بذلك، ولكنهُ الذي يَملِكُ نَفسَهُ عندَ الغَضَبِ**»[٥].

---

(١) شروره.

(٢) رواه البخاري (٦٠١٦)، وأحمد (١٦٣٧٢).

(٣) رواه مسلم (٢٥٨١).

(٤) أي: لم يمت له أولادٌ في حياته.

(٥) رواه مسلم (٢٦٠٨).

ومعنى الحديثِ: أَنَّكُم تَعتَقِدونَ أنَّ الرقوبَ هو المُصابُ بمَوتِ أولادِهِ، وليس هو كَذلك شَرعًا، بل هو مَن لم يَمُت أحَدٌ من أولادِهِ في حَياتِهِ، فيَحتَسِبهُ، يُكتَبُ له ثَوابُ مُصيبَتِهِ بِهِ، وثَوابُ صَبرِهِ عليه، ويكونُ له فرَطًا، وسَلَفًا.

وكَذلك تَعتَقِدونَ أنَّ الصُّرَعَةَ هو القَويُّ الذي لا يَصرَعُهُ الرِّجالُ، بل يَصرَعُهم، وليس هو كَذلك شَرعًا، بل هو مَن يَملِكُ نَفسَهُ عندَ الغَضَبِ[1].

* **ورُبَّما استَفتَحَ كَلامَهُ بالاستِفهامِ:**

فمِن ذلك قولُه ﷺ: «**ألا أُنَبِّئُكُم بأكبَرِ الكبائِرِ؟**» -ثَلاثًا- **قالوا: بَلى يا رسولَ اللهِ، قال**: «**الإشراكُ باللهِ، وعُقوقُ الوالدَينِ**»، وجَلَسَ -وكان مُتَّكِئًا- فقال: «**ألا وقولُ الزُّورِ**».

قال أبو بكرَةَ رضي الله عنه: فما زالَ يُكَرِّرُها حتى قُلنا: لَيتَهُ سَكَتَ[2].

وعن حارِثَةَ بنِ وهبٍ الخُزاعيِّ رضي الله عنه، قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقولُ: «**ألا أُخبِرُكُم بأهلِ الجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعيفٍ مُتَضَعَّفٍ**[3]**، لَو أقسَمَ على اللهِ لأَبَرَّهُ، ألا أُخبِرُكم بأهلِ النارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ**[4]**، جَوَّاظٍ**[5]**، مُستكبِرٍ**»[6].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**ألا أَدُلُّكُم على ما يَمحو اللهُ بِهِ الخَطايا، ويَرفَعُ بِهِ الدَّرَجاتِ؟**» قالوا بَلى يا رسولَ اللهِ، قال: «**إسباغُ الوُضوءِ على المكارِهِ، وكَثرَةُ الخُطا إلى المساجِدِ، وانتِظارُ الصَّلاةِ بعدَ الصَّلاةِ، فذلكمُ الرِّباطُ**»[7].

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٦٢).

(٢) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

(٣) يستضعفه الناس، ويحتقرونه، ويتجبرَّون عليه.

(٤) العتل: الجافي، الفظُّ، الغليظ.

(٥) هو: الجموع، المنوع.

(٦) رواه البخاري (٤٩١٨)، ومسلم (٢٨٥٣).

(٧) رواه مسلم (٢٥١).

*** وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -أحيانًا- يَفتَتِحُ كَلامَهُ بكلامٍ مُبهَمٍ، أو مُجمَلٍ، أو مُشكِلٍ؛ ليَطلُبَ السَّامِعونَ التَّوضيحَ؛ فتَستَقِرَّ الفائِدَةُ في أذهانِهِم، فمِن ذلك:**

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**سَبَقَ المُفَرِّدونَ**»، قالوا: وما المُفَرِّدونَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**الذَّاكِرونَ اللهَ كَثيرًا، والذَّاكِراتُ**»(١).

فالمقصودُ بـ«المُفَرِّدونَ» في الحديثِ: الذَّاكِرونَ اللهَ كَثيرًا، والذَّاكِراتُ؛ كَما فسَّرَهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم المولَعونَ بالذِّكرِ، المُتفَرِّغونَ لَهُ، يُقال: فرَدَ برَأيِهِ، وأفرَدَ، وفَرَّدَ، بمعنى: انفَرَدَ بهِ(٢).

وعن أبي قَتادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرَّ عليه بجِنازَةٍ، فقال: «**مُستَريحٌ، ومُستَراحٌ منه**»، قالوا: يا رسولَ اللهِ، ما المُستَريحُ، والمُستَراحُ منه؟ قال: «**العبدُ المُؤمِنُ يَستَريحُ من نَصَبِ(٣) الدُّنيا، وأذاها، إلى رَحمَةِ اللهِ، والعبدُ الفاجِرُ يَستَريحُ منه العِبادُ، والبِلادُ، والشَّجَرُ، والدَّوابُّ**»(٤).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**معنى الحديثِ**: أنَّ الموتَى قِسمانِ: مُستَريحٌ، ومُستَراحٌ منه، وأمَّا استِراحَةُ العِبادِ مِنَ الفاجِرِ، مَعناهُ: اندِفاعُ أذاهُ عَنهم، وأذاهُ يكونُ من وُجوهٍ، منها: ظُلمُهُ لَهم، ومنها: ارتِكابُهُ للمُنكَراتِ، فإن أنكَروها قاسَوا مَشَقَّةً من ذلك، ورُبَّما نالَهم ضَرَرُهُ، وإن سَكَتوا عنه أثِموا، واستِراحَةُ الدَّوابِّ منه كَذلك؛ لأنَّهُ كان يُؤذيها، ويَضرِبُها، ويُحَمِّلُها ما لا تُطيقُهُ، ويُجيعُها في بعضِ الأوقاتِ، وغَيرِ ذلك، واستِراحَةُ البِلادِ، والشَّجَرِ، فقيل: لأنَّها تُمنَعُ القَطرَ بمَعصيَتِهِ»(٥).

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٦).

(٢) النهاية (٣/ ٤٢٥).

(٣) أي: تعب.

(٤) رواه البخاري (٦٠٣١)، ومسلم (١٥٧٩).

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم (٧/ ٢٠).

* **ورُبَّما استَفتَحَ كَلامَهُ بما يُستَغرَبُ؛ تحفيزًا للمُستَمِعِ، وإثارَةً لَهُ:**

فقال: «**انصُر أخاكَ ظالمًا، أو مَظلومًا**»، فقال رَجُلٌ: يا رسولَ اللهِ، أنصُرُهُ إذا كان مَظلومًا، أفَرَأيتَ إذا كان ظالمًا، كَيفَ أنصُرُهُ؟ قال: «**تحجُزُهُ، -أو تَمنَعُهُ- مِنَ الظُّلمِ؛ فإنَّ ذلك نَصرُهُ**»[١].

وعن جابِرٍ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ليَنصُرِ الرجُلُ أخاهُ ظالمًا، أو مَظلومًا، إن كان ظالمًا: فليَنهَهُ؛ فإنَّهُ له نَصرٌ، وإن كان مَظلومًا: فليَنصُرهُ**»[٢].

فَقَولُهُ: «**انصُر أخاكَ ظالمًا**»، يُهيِّجُ على السّؤالِ عن ذلك؛ إذ كَيفَ يَنصُرُهُ، وهو ظالمٌ؟! وهذا مِمَّا يَستدعي مَزيدَ الانتِباهِ للجَوابِ، الذي قَد لا يَكونُ يَخطُرُ بالبالِ.

وعن أبي هريرة قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سَبَقَ دِرهَمٌ، مِائَةَ ألفِ دِرهَمٍ**» قالوا: يا رسولَ اللهِ كَيفَ يَسبِقُ دِرهَمٌ، مِائَةَ ألفٍ؟ قال: «**رَجُلٌ كان له دِرهَمانِ، فأخَذَ أحَدَهما، فتَصَدَّقَ بهِ، وآخَرُ له مالٌ كَثيرٌ، فأخَذَ من عُرضِهِ مِائَةَ ألفٍ، فتَصَدَّقَ بها**»[٣].

قال السّنديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «**ظاهرُ الأحاديثِ**: أنّ الأجرَ على قَدرِ حالِ المُعطي، لا على قَدرِ المالِ المُعطَى، فصاحبُ الدّرهمينِ -حَيثُ أعطَى نَصفَ ماله، في حالٍ لا يُعطي فيها، إلا الأقوياءُ- يَكونُ أجرُهُ على قَدرِ هِمّتِه، بخِلافِ الغَنيِّ، فإنَّهُ ما أعطَى نِصفَ مالِهِ، ولا في حالٍ لا يُعطَى فيها، عادَةً»[٤].

* **وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -أحيانًا- يُمَهِّدُ لسامِعيهِ بتَمهيدٍ لَطيفٍ، إذا أرادَ أن يُخاطِبَهم بما قَد يُستَحيا مِنَ التَّصريحِ بِهِ:**

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما أنا لَكُم مِثلُ الوالِدِ لوَلَدِهِ، أُعَلِّمُكُم: إذا أتَيتُم الغائِطَ فلا تَستَقبِلوا القِبلَةَ، ولا تَستَدبِروها**»[٥].

---

(١) رواه البخاري (٦٩٥٢).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٤).

(٣) رواه النسائي (٢٥٢٨)، وأحمد (٨٩٢٩)، وابن خزيمة (٢٤٤٣)، وقال محققو المسند: «إسناده قوي».

(٤) حاشية السِّنديِّ على سنن النسائي (٥/ ٥٩).

(٥) رواه النسائي (٤٠)، وابن ماجه (٣١٣)، وحسنه الألباني في التعليقات الحسان (١٤٢٨).

فَقولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما أنا لَكُم مِثلُ الوالِدِ لوَلَدِهِ**» تَمهيدٌ لما سيُبَيِّنُهُ لهم من آدابِ الخَلاءِ؛ إذِ الإنسانُ -كَثيرًا- ما يَستَحي من ذِكرِها، لا سيَّما في مَجلِسِ العُظَماءِ[1].

وقَدَّمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ المُقدِّمَةَ أمامَ المقصود:

- إعلامًا بأنَّهُ يَجِبُ عليه تَعليمُهم أمرَ دينِهِم، كَما يَلزَمُ الوالدَ تَعليمُ ولَدِهِ ما يَحتاجُ إليه مُطلَقًا، ولا يُبالي بما يُستَحيا من ذِكرِهِ.
- وإيناسًا منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمُخاطَبينَ؛ لِئَلَّا يَحتَشِموا عن السُّؤال عَمَّا يَعرِضُ لَهم، مِمَّا يُستَحيا منه[2].

* وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -أحيانًا- يَفتَتِحُ كلامَه، بالنِّداءِ العامِّ:

فعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أنَّ قُريشًا أهَمَّتهمُ المرأةُ المخزوميَّةُ التي سَرَقَت، فقالوا: مَن يُكَلِّمُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومَن يَجتَرِئُ عليه إلا أُسامَةُ بنُ زَيدٍ، حِبُّ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فكَلَّمَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**أتَشفَعُ في حَدٍّ من حُدودِ اللهِ؟!**»، ثم قامَ، فخَطَبَ قال: «**يا أيُّها الناسُ، إنما ضَلَّ مَن قبلَكُم: أنَّهم كانوا إذا سَرَقَ الشَّريفُ تَركوهُ، وإذا سَرَقَ الضَّعيفُ فيهم أقاموا عليه الحَدَّ، وايمُ اللهِ، لَو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرَقَت؛ لَقَطَعَ محمدٌ يَدَها**»[3].

وعن أبي مَسعودٍ الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: جاءَ رَجُلٌ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: إنِّي لَأَتَأخَّرُ عن صَلاةِ الصُّبحِ من أجلِ فُلانٍ؛ مِمَّا يُطيلُ بنا، فما رَأيتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَضِبَ في مَوعِظَةٍ قَطُّ، أشَدَّ مِمَّا غَضِبَ يومَئِذٍ، فقال: «**يا أيُّها الناسُ، إنَّ مِنكُم مُنَفِّرينَ، فأيُّكُم أمَّ الناسَ فليوجِز؛ فإنَّ من ورائِهِ الكبيرَ، والضَّعيفَ، وذا الحاجَةِ**»[4].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: قامَ فينا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطيبًا بمَوعِظَةٍ، فقال: «**يا أيُّها**

---

(١) حاشية السِّنديِّ على النسائي (١/ ٣٨).

(٢) فيض القدير (٢/ ٧٢٣).

(٣) رواه البخاري (٦٧٨٨)، ومسلم (١٦٨٨).

(٤) رواه البخاري (٩٠)، ومسلم (٧١٣).

الناسُ، إنَّكُم تُحشَرونَ إلى اللهِ حُفاةً عُراةً غُرلًا[١]، ثم قَرَأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ألا وإنَّ أوَّلَ الخَلائِقِ يُكسَى يومَ القيامَةِ: إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ...» الحديثَ[٢].

* وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفتَتِحُ كَلامَهُ -أحيانًا- بالتَّشويقِ؛ لشَدِّ الانتباهِ، لما يَأتي بعدَهُ:

فمِن ذلك: قولُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَدَ حَلاوَةَ الإيمانِ: أن يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحَبَّ إليه مِمَّا سِواهما، وأن يُحِبَّ المرءَ، لا يُحِبُّهُ إلا للهِ، وأن يَكرَهَ أن يَعودَ في الكُفرِ، كَما يَكرَهُ أن يُقذَفَ في النارِ»[٣].

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: معنى حَلاوَةِ الإيمانِ: استِلذاذُ الطَّاعاتِ، وتَحَمُّلُ المَشَقَّاتِ في رِضا اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ورسولِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإيثارُ ذلك على عَرَضِ الدُّنيا، ومَحَبَّةُ العبدِ رَبَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بفِعلِ طاعَتِهِ، وتَركِ مُخالَفَتِهِ، وكَذلك مَحَبَّةُ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[٤].

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلاثَةٌ يُؤتَونَ أجرَهم مَرَّتَينِ: الرجُلُ تكونُ له الأمَةُ، فيُعَلِّمُها، فيُحسِنُ تَعليمَها، ويُؤَدِّبُها، فيُحسِنُ أدَبَها، ثم يُعتِقُها، فيَتَزَوَّجُها، فلَهُ أجرانِ، ومُؤمِنُ أهلِ الكِتابِ، الذي كان مُؤمِنًا، ثم آمَنَ بالنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلَهُ أجرانِ، والعبدُ الذي يُؤَدِّي حَقَّ اللهِ، ويَنصَحُ لسَيِّدِهِ»[٥].

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلاثَةٌ كُلُّهم ضامِنٌ على اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: رَجُلٌ خرجَ غازِيًا في سَبيلِ اللهِ، فهو ضامِنٌ على اللهِ حتى يَتَوَفَّاهُ، فيُدخِلَهُ الجَنَّةَ، أو يَرُدَّهُ بما نالَ من أجرٍ، وغَنيمَةٍ، ورَجُلٌ راحَ إلى المسجِدِ، فهو ضامِنٌ على اللهِ حتى يَتَوَفَّاهُ، فيُدخِلَهُ الجَنَّةَ، أو يَرُدَّهُ بما نالَ من أجرٍ، وغَنيمَةٍ، ورَجُلٌ دَخَلَ بَيتَهُ بسَلامٍ، فهو ضامِنٌ على اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»[٦].

---

(١) غير مختونين.
(٢) رواه البخاري (٤٦٢٥)، ومسلم (٢٨٦٠).
(٣) رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).
(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ١٣).
(٥) رواه البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤).
(٦) رواه أبوداود (٢٤٩٤)، والبيهقي (١٨٥٣٨)، والحاكم (٢٤٠٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٥٣).

* ورُبّما افتتَحَ كَلامَهُ بالتَّبشيرِ؛ ليُسَرَّ أصحابُهُ:

فعن عبدِاللهِ بنِ عَمرٍو، قال: صَلَّينا مع رسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المغرِبَ، فرَجعَ مَن رَجعَ، وعَقَّبَ مَن عَقَّبَ، فجاءَ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مُسرِعًا، قَد حَفَزَهُ النَّفَسُ، وقد حَسَرَ عن رُكبَتَيهِ، فقال: «**أبشِروا، هذا رَبُّكُم قَد فتَحَ بابًا من أبوابِ السَّماءِ، يُباهي بكُمُ الملائِكَةَ، يقولُ: انظُروا إلى عِبادي قَد قَضَوا فريضَةً، وهم يَنتَظِرونَ أُخرَى**»(١).

فَبَشَّرَهم أعظَمَ بشارَةٍ، وهي مُباهاةُ الرّبِّ تعالى بِهِم مَلائِكَتَهُ؛ بما فعَلوهُ مِن عَملٍ صالحٍ، من أداءِ فريضَةٍ، وانتِظارِ فريضَةٍ، وفي هَذِهِ البِشارَةِ أعظَمُ حافِزٍ لَهم ولِغيرِهِم، على المُحافظَةِ على الصّلواتِ المكتوباتِ.

وعن أُمِّ العَلاءِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، قالت: عادَني رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأنا مَريضَةٌ، فقال: «**أبشِري يا أُمَّ العَلاءِ؛ فإنَّ مَرَضَ المسلمِ يُذهِبُ اللهُ بِهِ خَطاياهُ، كَما تُذهِبُ النارُ خَبَثَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ**»(٢).

* وكان صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -أحيانًا- يَفتَتِحُ كلامَهُ بما يَستَدعي الخَوفَ، والحَذَرَ؛ لشَدِّ الانتِباهِ، لما يَأتي بعدَهُ:

فعن أبي ذَرٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهم اللهُ يومَ القيامَةِ، ولا يَنظُرُ إليهم، ولا يُزَكِّيهِم، ولَهم عَذابٌ أليمٌ**»، قال: فقَرَأها رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ثَلاثَ مِرارٍ، قال أبو ذَرٍّ: خابوا، وخَسِروا، مَن هم يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**المُسبِلُ، والمنَّانُ، والمُنَفِّقُ سِلعَتَهُ بالحَلِفِ الكاذِبِ**»(٣).

وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهم اللهُ يومَ القيامَةِ، ولا يُزَكِّيهِم، ولا يَنظُرُ إليهم، ولَهم عَذابٌ أليمٌ: شَيخٌ زانٍ، ومَلِكٌ كَذّابٌ، وعائِلٌ(٤) مُستكبِرٌ**»(٥).

---

(١) رواه ابن ماجه (٨٠١)، وصححه الألباني.

(٢) رواه أبوداود (٣٠٩٢)، وصححه الألباني.

(٣) رواه مسلم (١٠٦).

(٤) فقيرٌ.

(٥) رواه مسلم (١٠٧).

وسببُهُ: أنَّ كُلَّ واحِدٍ منهمُ التزَمَ المعصيَةَ المذكورَةَ مع ضَعفِ دَواعيها عندَهُ؛ فأشبَهَ إقدامُهم عليها المُعانَدَةَ والاستِخفافَ بحَقِّ اللهِ تعالى، فإنَّ الشَّيخَ -لِكَمال عَقلِهِ، وضَعفِ أسبابِ الجِماعِ، والشَّهوَةِ عندَه- لا عُذرَ له في الزِّنا.

وكَذلك الإمامُ: لا يَخشَى من أحَدٍ من رَعيَّتِهِ، ولا يَحتاجُ إلى مُداهَنَتِهِ، فهو غَنيٌّ عن الكذِبِ مُطلَقًا.

وكَذلك الفَقيرُ: فإنما سببُ الخُيَلاءِ والتَّكَبُّرِ، الثَّروَةُ في الدُّنيا، فإذا لم يَكُن عندَهُ أسبابُها، فلِماذا يَستكبِرُ ويَحتَقِرُ غَيرَهُ؟»[١].

ومِن ذلك: ابتداؤهُ الكلامَ -أحيانًا- بقَولِهِ: «إيَّاكُم وكذا»:

والمعنى: أُحذِّرُكُم هذا الفِعلَ، فاتّقوهُ.

* فابتَدَأ بقولِهِ: «إيَّاكُم»؛ للتَّحذيرِ مِنَ الدُّخولِ على النِّساءِ:

فعن عُقبَةَ بنِ عامِرٍ: أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إيَّاكُم والدُّخولَ على النِّساءِ**»، فقال رَجُلٌ مِنَ الأنصارِ: يا رسولَ اللهِ، أفَرأيتَ الحَموَ؟ قال: «**الحَموُ الموتُ**»[٢].

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُهُ: «**إيَّاكُم والدُّخولَ**»: بالنَّصبِ على التَّحذيرِ، وهو تَنبيهُ المُخاطَبِ على مَحذورٍ؛ ليَحتَرِزَ عَنهُ، كَما قيل: إيَّاكَ والأسَدَ.

وقولُهُ: «**إيَّاكُم**»: مَفعولٌ بفِعلٍ مُضمَرٍ، تَقديرُهُ: اتَّقوا، وتَقديرُ الكلامِ: اتَّقوا أنفُسَكُم، أن تَدخُلوا على النِّساءِ، والنِّساءَ أن يَدخُلنَ عليكم»[٣].

* وابتَدَأ بهِ؛ للتّحذيرِ مِنَ الغُلوِّ في الدِّينِ:

فعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إيَّاكُم والغُلوَّ في الدِّينِ؛ فإنما أهلَكَ مَن كان قبلَكُمُ الغُلوُّ في الدِّينِ**»[٤].

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ١١٧).

(٢) رواه البخاري (٥٢٣٢)، ومسلم (٢١٧٢).

(٣) فتح الباري (٩/ ٣٣١).

(٤) رواه النسائي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، وصححه الألباني.

قال شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «**قَولُه**: «**إيَّاكُم والغُلوَّ في الدِّينِ**» عامٌّ في جَميعِ أنواعِ الغَلوِّ، في الاعتقادِ والأعمال.

والغُلوُّ: مُجاوزَةُ الحَدِّ، وقد نَهَى اللهُ عن الغُلوِّ في القُرآنِ، في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١].

ثُمّ عَلّلَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك: بأنّ ما أهلَكَ مَن قَبلَنا إلا الغُلوُّ في الدِّينِ، كما تَراهُ في النّصارَى، وذلك يَقتَضي أنَّ مُجانَبَةَ هَديِهِم -مُطلَقًا- أبعدُ عن الوُقوعِ فيما بِهِ هَلَكوا، وأنَّ المُشارِكَ لهم في بعضِ هَديِهِم، يُخافُ عليه أن يَكونَ هالكًا»[1].

* **وابتَدَأ بِهِ؛ للتّحذيرِ مِنَ الشُّحِّ:**

فعن عبدِاللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: خَطَبَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**إيَّاكُم والشُّحَّ؛ فإنما هَلَكَ مَن كان قبلَكُم بالشُّحِّ، أمَرَهم بالبُخلِ فبَخِلوا، وأمَرَهم بالقَطيعَةِ فقَطَعوا، وأمَرَهم بالفُجورِ ففَجَروا**»[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «**والفَرقُ بين الشُّحِّ والبُخلِ**: أنَّ الشُّحَّ هو: شِدّةُ الحِرصِ على الشّيءِ، والإحفاءُ في طَلَبِهِ، والاستقصاءُ في تَحصيلِهِ، وجَشَعُ النّفسِ عليه، والبُخلَ: مَنعُ إنفاقِهِ بَعدَ حُصولِهِ، وحُبُّهُ وإمساكُهُ، فهو شَحيحٌ قَبلَ حُصولِهِ، بَخيلٌ بَعدَ حُصولِهِ، فالبُخلُ ثَمرةُ الشُّحِّ، والشُّحُّ يَدعو إلى البُخلِ، والشُّحُّ كامِنٌ في النّفسِ، فمَن بَخِلَ فقد أطاعَ شُحَّهُ، ومَن لم يَبخَل فقَد عَصَي شُحَّهُ، ووُقيَ شَرَّهُ، وذلك هو المُفلِحُ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]»[3].

* **ومِن ذلك -أيضًا-: ابتداؤهُ الكلامَ -أحيانًا- بذِكرِ الوَيلِ:**

والوَيلُ: كلمةٌ للدُّعاء بالهلاكِ والعَذابِ، على مَن وقَعَ في هَلَكَةٍ يَستحقُّها، بقَصدِ

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٣٢٨).

(٢) رواه أبوداود (١٦٩٨)، وصححه الألباني.

(٣) الوابل الصيب (ص٣٣).

التّهديدِ، والتّحذيرِ، **قال القاضي عياضٌ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال سيبَوَيه: ويح: زجرٌ لمن أشرَفَ على هَلَكَةٍ، وويلٌ: لِمَن وقعَ فيها، وقيل: الوَيلُ: كَلمةُ رَدعٍ، وقد تكونُ بمعنى الإغراءِ بما امتُنِعَ من فِعلِه، وقيل: الوَيلُ: الحُزنُ، وقيل: الوَيلُ: المَشَقَّة مِنَ العَذابِ.

وقال الفَرَّاءُ: الأصلُ: وي، أي: حُزنٌ، وي لفُلانٍ: أي: حُزنٌ لَهُ، فوَصلَتهُ العَرَبُ باللَّامِ، وقَدّروها منه، فأعرَبوها، وقال الخَليلُ: وي: كَلمةُ تَعجُّبٍ»[١].

وقال ابنُ عَلَّانَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**الويلُ**: كلمةٌ تُقال عندَ العذابِ، أو: خَوفِهِ»[٢].

* ومِنَ الافتتاحاتِ النبويّةِ، بهذه الكلِمَةِ:

عن بَهزِ بنِ حَكيمٍ قال: حَدَّثَني أبي، عن جَدِّي، قال: سمعتُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**وَيلٌ للَّذي يُحَدِّثُ بالحديثِ؛ ليُضحِكَ بِهِ القَومَ فيَكذِبُ، ويلٌ لَهُ، ويلٌ لَهُ**»[٣].

فافتَتَحَ بها الكلامَ، وخَتَمَهُ بها، مُكرّرًا إيَّاها؛ للتّحذيرِ الشّديدِ مِن حال هذا الكاذِبِ، **قال المُناويُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَرَّرَ ذِكرَ الويلِ؛ إيذانًا بشدَّةِ هَلَكتِهِ؛ وذلك لأنّ الكذِب -وَحدَه- رَأسُ كلِّ مَذمومٍ، وجِماعُ كلِّ شَرٍّ»[٤].

وقال الصّنعانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الكذبُ مُحرمٌ، والإضحاكُ بِهِ يَزيدُهُ تَحريمًا؛ ولِذا كَرَّرَ الوَيلَ»[٥].

وعن عبدِاللهِ بنِ عَمرٍو، قال: رَجَعنا مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من مَكَّةَ إلى المدينَةِ، حتى إذا كُنَّا بماءٍ بالطَّريقِ، تَعَجَّلَ قَومٌ عندَ العَصرِ، فتَوَضَّئوا وهم عِجالٌ، فانتَهَينا إليهم، وأعقابُهم تَلوحُ، لم يَمَسَّها الماءُ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَيلٌ للأعقابِ مِنَ النارِ، أسبِغوا الوُضوءَ**»[٦].

---

(١) مشارق الأنوار (٢/ ٢٩٧).

(٢) دليل الفالحين (٦/ ٤٢٢).

(٣) رواه أبوداود (٤٩٩٠)، والترمذي (٢٣١٥)، وحسنه، وأحمد (٢٠٠٢١)، وحسنه محققو المسند.

(٤) التيسير (٢/ ٤٨٤).

(٥) التنوير (١١/ ٤٨).

(٦) رواه البخاري (٦٠)، ومسلم (٢٤١)، واللفظ له.

قال البَغويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَمعنى قولِهِ: «وَيلٌ للأعقابِ مِنَ النارِ» أي: ويلٌ لأصحابِ الأعقابِ، المُقَصِّرينَ في غَسلِها، وقيل: أرادَ أنَّ العَقِبَ يُخَصُّ بالعَذابِ، إذا قُصِّرَ في غَسلِها، والعَقِبُ: ما أصابَ الأرضَ من مُؤَخَّرِ الرِّجلِ، إلى مَوضِعِ الشِّراكِ»[1].

فَتوعَّدَ بالوَيلِ على التّهاوُنِ في الوُضوءِ، ثُمّ أمَرَ بإسباغِهِ.

وبِالجُملةِ:

فَقد تَنوّعتِ افتتاحاتُ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرُبّما افتتَحَ كَلامَهُ بالقسَمِ؛ تَأكيدًا، أو بالسُّؤال؛ تَشويقًا، أو بالنّداءِ العامِّ؛ تَعميمًا، أو بالتّبشيرِ؛ تكريمًا، أو بالتحذيرِ؛ تَخويفًا، أو بذكرِ الوَيلِ؛ إرهابًا.

أو بغيرِ ذلك مِنَ الأساليبِ.

(١) شرح السنة (١/ ٤٢٩).

كلامُهُ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

الكلامُ نعمةٌ مِنَ النِّعَمِ التي امتَنَّ اللهُ بها على الإنسانِ، وفَضَّلَهُ بها على سائِرِ المخلوقاتِ، فقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣-٤]، وقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: ٨-٩].

فالنُّطقُ من أشرَفِ ما خُصَّ بِهِ الإنسانُ؛ لأَنَّهُ صورَتُهُ المعقولَةُ، التي بايَنَ بها سائِرَ الحَيَواناتِ.

«فالكلامُ: تَرجُمانٌ يُعَبِّرُ عن مُستَودَعاتِ الضَّمائِرِ، ويُخبِرُ بمَكنوناتِ السَّرائِرِ»[1].

وقال ابنُ قُدامةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اللِّسانُ فيه جَمالٌ، ومَنفَعَةٌ، فأمَّا الجَمالُ: فقَد قيل: «جَمالُ الرجُلِ في لسانِهِ»، وقيل: «المرءُ بأصغَرَيهِ: قَلبِهِ، ولِسانِهِ»، ويُقال: «ما الإنسانُ -لَولا اللِّسانُ- إلا صورَةٌ مُمَثَّلَةٌ، أو بَهيمَةٌ مُهمَلَةٌ».

وأمَّا النَّفعُ: فإنَّ بِهِ تُبَلَّغُ الأغراضُ، وتُستَخلَصُ الحُقوقُ، وتُدفَعُ الآفاتُ، وتُقضَى بِهِ الحاجاتُ، وتَتِمُّ العِباداتُ: في القِراءَةِ، والذِّكرِ، والشُّكرِ، والأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المُنكَرِ، والتَّعليمِ، والدَّلالَةِ على الحَقِّ المُبينِ، والصِّراطِ المُستَقيمِ، وبِهِ يَذوقُ الطَّعامَ، ويَستَعينُ في مَضغِهِ، وتَقليبِهِ، وتَنقيَةِ الفَمِ، وتَنظيفِهِ، فهو أعظَمُ الأعضاءِ نَفعًا، وأتَمُّها جَمالًا»[2].

---

(١) أدب الدُّنيا والدِّين (ص٣٤٠).

(٢) المغني (٨/ ٤٤٧).

وكَلامُ الإنسانِ ومَنطِقُهُ، يَدُلُّ على مِقدارِ عَقلِهِ، كَما قيل: «لِسانُ المرءِ، قِطعَةٌ من عَقلِهِ»(١).

وقال عَديُّ بنُ حاتِمٍ: «لِسانُ المرءِ، تُرجُمانُ عَقلِهِ»(٢).

وقال الشَّاعِرُ:

أَلَم تَـرَ مِفتـاحَ الفُـؤادِ لِسـانَهُ
إذا هـو أبـدَى مـا يقـولُ مِـنَ الفَـمِ
وكائِن تَرَى من صاحبٍ لَكَ مُعجبٍ
زيادَتُـهُ أو نَقصُـهُ في التَّكَلُّـمِ
لِسـانُ الفَتَـى نِصـفٌ ونِصفٌ فُـؤادُهُ
فَلَـم يَبـقَ إلا صورَةُ اللَّحـمِ والدَّمِ(٣)

وقال آخَرُ:

لِسـانُ المـرءِ يُنبِـئُ عـن حِجـاهُ
وَعـيُّ المـرءِ يَسـتُرُهُ السُّـكوتُ(٤)

وكان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أطيَبَ الناسِ قولًا وفِعلًا، وكان له سَمتُهُ المُمَيِّزُ لَهُ، ودَلُّهُ الخاصُّ بِهِ، في كُلِّ مَوطِنٍ من مَواطِنِ الكلامِ، فكان الغايَةَ في السُّموِّ، وإليه المُنتَهَى في المقاماتِ البَلاغيَّةِ، فلا يَتكَلَّمُ إلا بما دَعَت إليه الضَّرورَةُ والحاجَةُ، فيَختارُ أنسَبَ الألفاظِ، وأحسَنَها، وأعدَلَها، وأيسَرَها.

---

(١) الفاضل للمبرِّد (ص٦).
(٢) المجالسة وجواهر العلم (٤/ ٤٨٩).
(٣) بهجة المجالس (ص٧).
(٤) أدب الخواص (ص٧٤).

❋ فكان كَلامُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أطيبَ الكلامِ، يَدخُلُ قَلبَ السَّامِعِ، فيُؤَثِّرُ فيه.

وكَم من مُغَرَّرٍ بهِ، حَمَلَتهُ افتِراءاتُ المُشرِكينَ على كُرهِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بغَيرِ لقاءٍ، فما هو إلا أن يُقابِلَ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويَسمَعَ كَلامَهُ، حتى يُسلِمَ من فورِهِ؛ تَأثُّرًا بطيبِ قولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَمِن هَؤُلاءِ: «ضِمادُ بنُ ثَعلَبَةَ الأزديُّ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي خَدَعَهُ المُشرِكونَ، وأفهَموهُ أنَّ الذي بالنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الجُنونُ، عياذًا باللهِ.

كَما في الحديثِ عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أنَّ ضِمادًا قَدِمَ مَكَّةَ، وكان من أزدِ شَنوءَةَ[1]، وكان يَرقي من هَذِهِ الرِّيحِ[2]، فسَمِعَ سُفهاءَ من أهلِ مَكَّةَ، يقولونَ: إنَّ محمدًا مجنونٌ.

- فقال: لَو أنِّي رَأيتُ هذا الرجُلَ، لَعَلَّ اللهَ يَشفيه على يَدَيَّ.

- قال: فلَقيَهُ.

- فقال: يا محمدُ، إنِّي أرقي من هَذِهِ الرِّيحِ، وإنَّ اللهَ يَشفي على يَدَيَّ مَن شاءَ، فهَل لَكَ؟

- فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ الحَمدَ للهِ، نَحمَدُهُ، ونَستَعينُهُ، مَن يَهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَن يُضلل فلا هاديَ لَهُ، وأشهَدُ أن لا إلَهَ إلا اللهُ، وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، أمَّا بعدُ**».

- فقال: أعِد عَلَيَّ كَلِماتِكَ هَؤُلاءِ.

فَأعادَهُنَّ عليه رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ.

- فقال: لَقَد سمعتُ قولَ الكهَنَةِ، وقولَ السَّحَرَةِ، وقولَ الشُّعَراءِ، فما سمعتُ مِثلَ كَلِماتِكَ هَؤُلاءِ، ولَقَد بَلَغنَ قاموسَ البَحرِ[3].

---

(١) قبيلةٌ كبيرةٌ من اليمن.

(٢) المراد بالرِّيح هنا: الجنون، ومسُّ الجنِّ، وسمِّي الجنُّ بذلك؛ لأن الناس لا يبصرونهم، فهم كالرُّوح، والرِّيح.

(٣) قعره.

- فقال: هاتِ يَدَكَ أُبايِعكَ على الإسلامِ، فبايَعَهُ.
- فقال رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**وعلى قَومِكَ**».
- قال: وعلى قَومي.
- قال: فبَعَثَ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ سَرِيَّةً، فمَرُّوا بقَومِهِ.
- فقال صاحِبُ السَّرِيَّةِ للجَيشِ: هَل أَصَبتُم من هَؤُلاءِ شَيئًا؟
- فقال رَجُلٌ من القَومِ: أَصَبتُ منهم مِطهَرَةً.
- فقال: رُدُّوها، فإِنَّ هَؤُلاءِ قَومُ ضِمادٍ[1].

لَقَدِ استَقبَلَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ اتِّهامَهُ بالجُنونِ بالهُدوءِ في الحديثِ، وعَدَمِ الانفِعال، أوِ الغَضَبِ، فلَم يَنفِ التُّهمَةَ عن نَفسِهِ، ولم يُجادِلِ الرجُلَ، بل عَرَضَ عليه كَلامَهُ عَرضًا مُباشِرًا، فكانتِ الثَّمَرَةُ أن أسلَمَ الرجُلُ مَكانهُ.

قال القرطبي رَحِمَهُٱللَّهُ: «ثم إنَّ ضِمادًا لَمَّا كان عالمًا بأصنافِ الكلامِ البَليغِ، ووَجَدَ عندَهُ ما حَصَلَ له مِنَ العِلمِ بذلك، قَطَعَ بأَنَّهُ لا يَصدُرُ مِثلُ ذلك إلا من نَبيٍّ، وأَنَّهُ مُحِقٌّ في قولِهِ، فأسلم، وحَسُنَ إسلامُهُ، وضَمِنَ عن قَومِهِ الإسلامَ، حتى قَدِمَ عليهم، فأسلموا، فلَم يَحتَجِ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بعدَ خُطبَتِهِ لإنشاءِ كَلامٍ، يكونُ جَوابًا لقولِهِ: «**أَمَّا بعد**»»[2].

و**أوضَحُ ما في الحديثِ**: ظُهورُ أَثَرِ الكلامِ الطَّيِّبِ، على سامِعِهِ.

وفي القِصَّةِ: بَيانُ أَهَمِّيَةِ التَّثَبُّتِ، فكَم من مَظلَمَةٍ وقَعَ فيها الإنسانُ، بسببِ عَدَمِ تَثَبُّتِهِ مِمَّا سَمِعَ، وكَم من خَيرٍ حُرِمَ منه الإنسانُ، بسببِ عَدَمِ تَثَبُّتِهِ مِمَّا سَمِعَ.

---

(١) رواه مسلم (٨٦٨).

(٢) المفهم (١٢/ ١١٥).

ومِثلُ هذا الموقِفِ، حَدَثَ مع الطُّفيلِ بنِ عَمرٍو الدَّوسيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

قال ابنُ إسحاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكان الطُّفيلُ بنُ عَمرٍو الدُّوسيُّ يُحدِّثُ: أنَّهُ قَدِمَ مَكَّةَ، ورسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها.

فَمَشَى إليه رِجالٌ من قُرَيشٍ -وكان الطُّفيلُ رَجُلًا شَريفًا، شاعِرًا، لَبيبًا-، فقالوا لَهُ: يا طُفيلُ، إنَّكَ قَدِمتَ بلادَنا، وهذا الرجُلُ الذي بين أظهُرِنا، قَد أعضَلَ بنا[1]، وقد فرَّقَ جَماعَتَنا، وشَتَّتَ أمرَنا، وإنما قولُهُ كالسِّحرِ، يُفرِّقُ بين الرجُلِ وبين أبيهِ، وبين الرجُلِ وبين أخيهِ، وبين الرجُلِ وبين زَوجَتِهِ، وإنَّا نَخشَى عليكَ، وعلى قَومِكَ، ما قَد دَخَلَ عَلَينا، فلا تُكَلِّمنه، ولا تَسمَعَنَّ منه شَيئًا.

قال: فواللهِ ما زالوا بي، حتى أجمَعتُ أن لا أسمَعَ منه شَيئًا، ولا أُكَلِّمَهُ، حتى حَشَوتُ في أُذُني -حينَ غَدَوتُ إلى المسجِدِ- كُرسُفًا[2]؛ فرَقًا من أن يَبلُغَني شيءٌ من قولِهِ، وأنا لا أُريدُ أن أسمَعَهُ.

قال: فغَدَوتُ إلى المسجِدِ، فإذا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائِمٌ، يُصَلِّي عندَ الكعبَةِ، فقُمتُ منه قَريبًا.

فَأَبَى اللهُ إلا أن يُسمِعَني بعضَ قولِهِ.

فَسمعتُ كَلامًا حَسَنًا، فقُلتُ في نَفسي: واثُكلَ أُمِّي! واللهِ إنِّي لَرَجُلٌ لَبيبٌ، شاعِرٌ، ما يَخفَى عَلَيَّ الحَسَنُ من القَبيحِ، فما يَمنَعُني أن أسمَعَ من هذا الرجُلِ ما يقولُ؟ فإن كان الذي يَأتي بِهِ حَسَنًا قِبلتُهُ، وإن كان قَبيحًا تَرَكتُهُ.

فَمَكَثتُ، حتى انصَرَفَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بَيتِهِ، فاتَّبَعتُهُ، حتى إذا دَخَلَ بَيتَهُ، دَخَلتُ عليه.

فَقُلتُ: يا محمدُ، إنَّ قَومَكَ قالوا لي كَذا وكذا، فواللهِ ما بَرِحوا يُخَوِّفونَني أمرَكَ، حتى

(١) غلبنا، وأعجزنا أمره.

(٢) وهو القطن.

سَدَدتُ أُذُني بكُرسُفٍ؛ لئَلَّا أسمَعَ قولَكَ، ثُمّ أبى اللهُ إلا أن يُسمِعَني قولَك، فسمعتُهُ قولًا حَسَنًا، فاعرِض عَلَيَّ أمرَكَ.

فَعَرَضَ عَلَيَّ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإسلامَ، وتَلا عَلَيَّ القُرآنَ، فلا -واللهِ- ما سمعتُ قولًا قَطُّ أحسَنَ منه، ولا أمرًا أعدَلَ منه.

فأسلمتُ، وشَهِدتُ شَهادَةَ الحَقِّ»[1].

وفي هَذِهِ القِصَّةِ: أنَّ أهلَ الضَّلال عندَما يُريدونَ إضلالَ الناسِ، يَفتَتِحونَ كَلامَهم بدَعوى النَّصيحَةِ؛ كَما قالوا للطُّفيلِ: «وَإنَّا نَخشَى عليك، وعلى قومِك، ما قَد دَخَلَ عَلَينا».

وفيه: غَلَبَةُ القَدَرِ الإلَهِيِّ؛ فقَد جَهَدَ المُشرِكونَ جُهدَهم، وصَدَّقَهمُ الطُّفيلُ، وحَشا أُذُنَهُ قُطنًا، ومَعَ كُلِّ هَذا، أبى اللهُ إلا أن يُسمِعَ الطُّفيلَ، ويُسلِمَ، فوَقَعَ الذي خافَ منه المُشرِكونَ.

وصَدَقَ اللهُ إذ يقولُ: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

*** وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفتَتِحُ كَلامَهُ في الأُمورِ المُهِمَّةِ وفي الخُطَبِ، بالحَمد، والشَّهادَتين:**

كَما فعَلَ مع ضِمادٍ؛ إذِ افتَتَحَ كَلامَهُ بقولِهِ: «**إنَّ الحَمدَ للهِ، نَحمَدُهُ ونَستَعينُهُ، مَن يَهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَن يُضلِل فلا هاديَ لَهُ، وأشهَدُ أن لا إلَهَ إلا اللهُ، وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ...**».

وكما فعَلَ في حادِثَةِ الإفكِ: قالت عائشةُ: فتَشَهَّدَ، ثم قال: «**يا عائشةُ، فإنَّهُ بَلَغَني عَنكِ كَذا، وكذا**»[2].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرجَ ذاتَ لَيلَةٍ[3] من جَوفِ اللَّيلِ، فصَلَّى في المسجِدِ، فصَلَّى رِجالٌ بصَلاتِهِ، فأصبَحَ الناسُ فتَحَدَّثوا، فاجتَمَعَ أكثَرُ منهم، فصَلَّوا مَعَهُ،

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢)، دلائل النُّبوَّة، للبيهقي (٥/ ٣٦٠)، وقال ابن كثير: «هكذا ذكر محمد بن إسحاق قصَّة الطُّفيل بن عمرو مرسلةً، بلا إسنادٍ، ولخبره شاهدٌ في الحديث الصحيح» البداية والنهاية (٤/ ٢٤٦).

(٢) رواه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٣) من رمضان.

فأصبَحَ الناسُ فتَحَدَّثوا، فكَثُرَ أهلُ المسجِدِ مِنَ اللَّيلَةِ الثالثَةِ، فخرجَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصَلَّوا بصَلاتِهِ.

فلمَّا كانتِ اللَّيلَةُ الرابعَةُ عَجَزَ المسجِدُ عن أهلِهِ، حتى خرجَ لصَلاةِ الصُّبحِ، فلمَّا قَضى الفَجرَ أقبَلَ على الناسِ، فتَشَهَّدَ، ثم قال: «**أمَّا بعدُ: فإنَّهُ لم يَخفَ عَلَيَّ مَكانُكُم، لكنِّي خَشيتُ أن تُفرَضَ عليكم، فتَعجِزوا عَنها**»(١).

قال ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ: «دَلَّتِ الأحاديثُ على أنَّ الخُطَبَ كُلَّها، سَواء كانت للجُمُعَةِ، أو لغَيرِها، تُبتَدَأُ بحَمدِ اللهِ، والثَّناءِ عليه بما هو أهلُهُ، ثم يُذكَرُ بعدَ ذلك ما يُحتاجُ إلى ذِكرِهِ، من مَوعِظَةٍ، أو ذِكرِ حاجَةٍ، يُحتاجُ إلى ذِكرِها»(٢).

❋ وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفصِلُ بين الحَمدِ والثَّناءِ، وبين ما بعدَهُ، بقولِهِ: «أمَّا بعدُ»:

روى الرّهاويُّ في خُطبَةِ الأربَعينَ المُتَبايِنَةِ، عن المِسوَر بنِ مَخرَمَةَ، قال: كان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا خَطَبَ خُطبَةً، قال: «**أمَّا بعدُ**»(٣).

وعن هِشامِ بنِ عُروَةَ قال: رَأيتُ رَسائِلَ من رَسائِلِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كُلَّما انقَضَت قِصَّةٌ قال: «**أمَّا بعدُ**»(٤).

وعن جابِرِ بنِ عبدِاللهِ، قال: كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا خَطَبَ احمَرَّت عَيناهُ، وعَلا صَوتُهُ، واشتَدَّ غَضَبُهُ، حتى كَأنَّهُ مُنذِرُ جَيشٍ، يقولُ: «**صَبَّحَكُم، ومَسَّاكُم**»، ويقولُ: «**بُعِثتُ أنا والسَّاعَةُ كَهاتَينِ**»، ويَقرُنُ بين إصبعَيهِ: السَّبَّابَةِ، والوُسطَى، ويقولُ: «**أمَّا بعدُ، فإنَّ خَيرَ الحديثِ كِتابُ اللهِ، وخَيرَ الهُدَى هُدَى محمدٍ، وشَرَّ الأُمورِ مُحدَثاتُها، وكُلَّ بدعَةٍ ضَلالَةٌ**»(٥).

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «فيه: استِحبابُ قولِ: «**أمَّا بعدُ**»، في خُطَبِ الوَعظِ، والجُمعَةِ،

---

(١) رواه البخاري (٩٢٤)، ومسلم (٧٦١).

(٢) فتح الباري لابن رجبٍ (٨/ ٢٦٠).

(٣) ورجاله ثقاتٌ، كما قال الحافظ في الفتح (٢/ ٤٠٦)، وقال: «وظاهره: المواظبة على ذلك».

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد (١١٢١)، وصححه الألباني.

(٥) رواه مسلم (٨٦٧).

والعيدِ، وغَيرِها، وكذا في خُطَبِ الكُتُبِ المُصَنَّفَةِ، وقد عَقَدَ البخاري بابًا في استِحبابِهِ، وذَكَرَ فيه جُملَةً مِنَ الأحاديثِ»[١].

وقال ابنُ مُفلِحٍ رَحِمَهُ اللهُ: «هَذِهِ الكلِمَةُ يَأتي بها المُتَكَلِّمُ إذا كان في كَلامٍ، وأرادَ الانتِقال إلى غَيرِهِ، ولا يُؤتَى بها في أوَّلِ الكلامِ، وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأتي بها في خُطَبِهِ، وكُتُبِهِ، رَواهُ عنه اثنانِ وثَلاثونَ صَحابيًّا»[٢].

وقال ابنُ عثيمينَ رَحِمَهُ اللهُ: «أمَّا بعدُ»: هذه كلمةٌ يُؤتَى بها عندَ الدُّخولِ في الموضوعِ الذي يُقصَدُ، وأمَّا قولُ بعضِهِم: إنَّها كلمةٌ يُؤتَى بها للانتِقال من أسلوبٍ إلى آخرَ، فهذا غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّه ينتقلُ العلماءُ دائمًا من أسلوبٍ إلى آخرَ، ولا يأتونَ بـ: «أمَّا بعدُ».

وأمَّا إعرابُها، فنقولُ: «أمَّا» نائبةٌ عن شرطٍ، وفعلِ الشَّرط، والتَّقديرُ: مَهما يكُن من شيءٍ بعد ذلك، فهذا مُختصرٌ، فيكونُ «أمَّا» بمعنَى: مهما يكُن من شيءٍ، و«بعدُ»: ظرفٌ متعلِّقٌ بـ«يكُن» المحذوفةِ مع شرطِها، مبنيٌّ على الضمِّ في محلِّ نَصبٍ؛ لأنَّه حُذفَ المضافُ إلَيه، ونويَ معناهُ، وهذه الظُّروفُ: «بعدُ، وأخواتُها»، إذا حُذفَ المضافُ إليه، ونويَ معناهُ، بُنيَت على الضمِّ؛ كما في قولِه تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤][٣].

* **وكَثيرًا ما كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبدَأُ حديثَهُ بالتَّبشيرِ، وبِكَلِمَةِ «أبشِر»:**

وهيَ كَلِمَةٌ لها وقعٌ في النُّفوسِ؛ إذ يَنشَرِحُ لها الصَّدرُ، ويَبتَهِجُ لها القَلبُ، وتَقَرُّ بها العَينُ، وتكونُ النَّفسُ مُؤَهَّلَةً بعدَ ذلك لسَماعِ ما بعدَها.

فَمِن ذلك:

عن أبي موسَى، قال: كنتُ أنا وأصحابي الذينَ قَدِموا مَعي في السَّفينَةِ، نُزولًا في بَقيعِ بُطحانَ[٤]، والنبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينَةِ.

---

(١) شرح صحيح مسلم (٦/ ١٥٦).

(٢) المبدع شرح المقنع (١/ ١٧).

(٣) الشرح الممتع (١/ ١٤).

(٤) أحد أودية المدينة المشهورة، وهي ثلاثة: بطحان، والعقيق، وقناة.

فكان يَتناوَبُ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندَ صَلاةِ العِشاءِ كُلَّ لَيلَةٍ، نَفَرٌ منهم.

فَوافَقنا النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنا وأصحابي، ولَهُ بعضُ الشُّغلِ في بعضِ أمرِهِ، فأعتَمَ بالصَّلاةِ(١)، حتى ابهارَّ اللَّيلُ(٢).

ثم خرجَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصَلَّى بهِم، فلمَّا قَضَى صَلاتَهُ، قال لِمَن حَضَرَهُ: «**عَلى رِسلِكُم، أبشِروا، إنَّ من نعمةِ اللهِ عليكم، أنَّهُ ليس أحَدٌ مِنَ الناسِ يُصَلِّي هَذِهِ السَّاعَةَ غيرُكُم**».

قال أبو موسَى: فرَجَعنا، ففَرِحنا بما سَمِعنا من رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٣).

وعن عِمرانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: جاءَت بَنو تَميمٍ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**أبشِروا يا بَني تَميمٍ**» قالوا: أمَّا إذ بَشَّرتَنا: فأعطِنا، فتَغَيَّرَ وجهُ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجاءَ ناسٌ من أهلِ اليَمَنِ، فقال النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقبَلوا البُشرَى**(٤)، **إذ لم يَقبلها بَنو تَميمٍ**» قالوا: قَد قَبِلنا يا رسولَ اللهِ(٥).

ومِن **استِعمالِهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **للتَّبشيرِ في كَلامِهِ**: ما جاءَ في حديثِ عَمرِو بنِ عَوفٍ الأنصاريِّ: أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ أبا عُبَيدَةَ بنَ الجَرَّاحِ إلى البَحرَينِ، يَأتي بجِزيَتِها، وكان رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صالَحَ أهلَ البَحرَينِ، وأمَّرَ عليهم العَلاءَ بنَ الحَضرَميِّ، فقَدِمَ أبوعبيدةَ بمالٍ مِنَ البَحرَينِ، فسَمِعَتِ الأنصارُ بقُدومِ أبي عُبَيدَةَ، فوافَت صَلاةَ الصُّبحِ مع النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلمَّا صَلَّى بهِمُ الفَجرَ، انصَرَفَ، فتَعَرَّضوا لَهُ، فتبَسَّمَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَ رَآهم؛ وقال: أظُنُّكُم قَد سمعتُم أنَّ أبا عُبَيدَةَ قَد جاءَ بشيءٍ؟ قالوا: أجَل يا رسولَ اللهِ.

قال: «**فَأَبشِروا، وأمِّلوا ما يَسُرُّكُم، فواللهِ، لا الفَقرَ أخشَى عليكم، ولكن أخشَى عليكم**

---

(١) أخَّرها عن أول وقتها، حتى وقت العتمة، وهو الظلام.

(٢) انتصف، واشتدَّ ظلامه.

(٣) رواه البخاري (٥٦٧)، ومسلم (٦٤١).

(٤) أي: اقبلوا منِّي ما يقتضي أن تبشَّروا -إذا أخذتم به-، بالجنَّة، كالفقه في الدِّين، والعمل به. فتح الباري (٦/ ٢٨٨).

(٥) رواه البخاري (٤٣٨٦).

أن تُبسَطَ عليكم الدُّنيا، كما بُسِطَت على مَن كان قبلَكُم، فتَنافَسوها كما تَنافَسوها، وتُهلِكَكُم كما أهلَكَتهم».

وفي رواية: «**وَتُلهيَكُم كما ألهَتهم**»[١].

ومِن ذلك -أيضًا-: عن أبي موسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: كنتُ عندَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو نازِلٌ بالجِعرانَةِ، ومَعَهُ بلالٌ، فأتَى النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعرابيٌّ، فقال: ألا تُنجِزُ لي ما وعَدتَني![٢]، فقال لَهُ: «**أبشِر**»[٣]. فقال: قَد أكثَرتَ عَلَيَّ من أبشِرِ!!

فَأقبَلَ على أبي موسَى وبِلالٍ كَهَيئَةِ الغَضبانِ، فقال: «**رَدَّ البُشرَى، فاقبَلا أنتُما**»، قالا: قَبِلنا.

ثم دَعا بقَدَحٍ فيه ماءٌ، فغَسَلَ يَدَيهِ ووَجهَهُ فيه، ومَجَّ فيه، ثم قال: «**اشرَبا منه، وأفرِغا على وُجوهِكُما، ونُحورِكُما، وأبشِرا**».

فَأخَذا القَدَحَ ففَعَلا، فنادَت أُمُّ سَلَمَةَ من وراءِ السِّترِ: أن أفضِلا لأُمِّكُما، فأفضَلا لها منه طائِفَةً[٤].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «وقولُ الأعرابيِّ: «أكثَرتَ عَلَيَّ من أبشِر»، قولُ جاهِلٍ بحال النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبِقَدرِ البُشرَى التي بَشَّرَهُ بها -لَو قَبِلَها-، لكنَّها عُرِضَت عليه، فحُرِمَها، وقُضيَت لغَيرِه، فقَبِلَها.

والبُشرَى: خَبَرٌ بما يَسُرُّ، سُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها تُظهِرُ السُّرورَ في بَشرَةِ المُبَشَّرِ، وأصلُهُ في الخَيرِ، وقد يُقال في الشَّرِّ، تَوَسُّعًا.

---

(١) رواه البخاري (٣١٥٨)، (٦٤٢٥)، ومسلم (٢٩٦١).

(٢) يحتمل أن الوعد كان خاصًا به، ويحتمل أن يكون عامًا، وكان طلبه أن يعجِّل له نصيبه من الغنيمة، فإنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أمر أن تجمع غنائم حنينٍ بالجعرانة، وتوجَّه هو بالعساكر إلى الطائف، فلمَّا رجع منها قسم الغنائم حينئذٍ بالجعرانة، فلهذا وقع في كثيرٍ ممن كان حديث عهدٍ بالإسلام: استبطاء الغنيمة، واستنجاز قسمتها. فتح الباري (٨/ ٤٦).

(٣) أي: بقرب القسمة، أو بالثَّواب الجزيل على الصبر. فتح الباري (٨/ ٤٦).

(٤) رواه البخاري (٤٣٢٨)، ومسلم (٢٤٩٧).

وقولُ النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أبشِر**» لم يَذكُر له عَينَ ما بَشَّرَهُ بهِ؛ لأَنَّهُ قَصَدَ تَبشيرَهُ بالخَيرِ، على العُمومِ الذي يَصلُحُ لخَيرِ الدُّنيا والآخِرَةِ، ولمَّا جَهِلَ ذلك، رَدَّهُ لحِرمانِهِ، ولمَّا عُرِضَ ذلك على مَن عَرَفَ قَدرَهُ، بادَرَ إليه وقَبِلَهُ، فنالَ مِنَ البِشارَةِ الخَيرَ الأكبَرَ، والحَظَّ الأوفَرَ.

وكَونُهُ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ غَسَلَ وجهَهُ في الماءِ، وبَصَقَ فيه، وأمَرَهما بشُربِ ذلك، والتَّمَسُّحِ بهِ، مُبالَغَةً في إيصال الخَيرِ لَهما»[1].

*** وكان صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقدِّمُ بينَ يَدي حديثِه، ما يُمهِّد لَهُ:**

فعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا، قال: لَمَّا نَزَلَت هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] خرجَ رسولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، حتى صَعِدَ الصَّفا.

فهَتَفَ: «**يا صَباحاه!**».

- فقالوا: مَن هذا الذي يَهتِفُ؟
- قالوا: محمدٌ.

فاجتَمَعوا إليه.

- فقال: «**يا بَني فُلانٍ، يا بَني فُلانٍ، يا بَني فُلانٍ، يا بَني عبدِ مَنافٍ، يا بَني عبدِالمُطَّلِبِ**»، فاجتَمَعوا إليه، فقال: «**أرَأيتَكُم لَو أخبَرتُكُم أنَّ خَيلًا تَخرُجُ بسَفحِ هذا الجَبَلِ، تُريدُ أن تُغيرَ عليكم، أكنتُم مُصَدِّقيَّ؟**».
- قالوا: نعم، ما جَرَّبنا عليكَ كَذِبًا.
- قال: «**فإنِّي نَذيرٌ لَكُم، بين يَدَي عَذابٍ شَديدٍ**».
- فقال أبو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ! أما جَمَعتَنا إلا لهذا؟!

ثم قامَ، فنَزَلَت هَذِهِ السُّورَةُ: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١][2].

---

(١) المفهم (٦/ ٤٤٨).

(٢) رواه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨).

فالنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعلَمُ أنَّهُ يَدعوهم إلى شيءٍ لم يَألَفوهُ من قبلُ، فاختارَ مُقدّمَةً تُسَهِّلُ عليهم قَبولَ ما يَدعوهم إليه.

فذكَّرَهم أنَّهُ عاشَ بينهم أكثرَ من أربَعينَ سَنَةً، لم يُؤثَر عنه كَذِبٌ -قطُّ- خِلالَها، فيَلزمُهم -إذًا- تَصديقُهُ، فيما يَنقُلُهُ لهم من أخبارٍ.

كما أنَّ هُناكَ أوجُهَ شَبَهٍ مُتعَدِّدَةً، بينَ ما أقَرُّوا بِهِ، وما أنذَرَهم بِهِ، فمنها: الخَفاءُ عن العَينِ.

فكَما أنَّهم يُصَدِّقونَهُ في خَطَرِ الجَيشِ، مع عَدَمِ رُؤيَتِهِم لَهُ، فإنَّ ذلك يَلزمُهم به تَصديقُهُ في خَطَرِ النارِ -عياذًا باللهِ-، مع عَدَمِ رُؤيَتِهِم لها.

وإذا كان الجَيشُ فيه هَلاكُ دُنياهم، فصَدّقوهُ في خَبَرِهِ، فمِن بابِ أولى أن يُصَدِّقوهُ فيما يكونُ فيه هَلاكُ آخِرَتِهِم، إذا لم يَأخُذوا حِذرَهم منه.

وفي الحديثِ: بَيانُ أهَمِّيَّةِ السِّيرَةِ الذَّاتيَّةِ للدَّاعيَةِ، وأثَرِها على دَعوَتِهِ، وأنَّ الدَّاعيَةَ يَحتاجُ إلى سيرَةٍ ذاتيَّةٍ، عَمَليَّةٍ، حَسَنَةٍ بين الناسِ، قبلَ أن يَدعوَهم إلى اللهِ.

وفيه: بَيانُ أنَّ أهَمَّ صِفَةٍ يَجِبُ أن يَتَحَلَّى بها الدَّاعيَةُ، هي: صِفَةُ الصِّدقِ.

فالذي يَصدُقُ مع الناسِ لا يُمكِنُ أن يَكذِبَ على اللهِ تعالى، كَما في حديثِ هِرَقلَ الطَّويلِ.

وفيه: أنَّ أعدَى أعداءِ الرجُلِ، قَد يكونُ من أقرَبِ الناسِ إليه؛ إذ لم يَسمَعِ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَرًّا مِمَّا قالهُ له عَمُّهُ أبو لَهَبٍ.

وفيه: تَوكيدٌ على قاعِدَةٍ مُهِمَّةٍ، وهي: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وفيه: رَفعُ صَوتِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخُطَبِ، ونداؤُهُ على قَومِهِ بقولِهِ: «**يا صَباحاه!**»، وهي كَلِمَةٌ تُقال عندَ وُقوعِ أمرٍ عَظيمٍ، فيقولونَها؛ ليَجتَمِعوا، ويَتأهَّبوا لَهُ.

وعن قَبيصَةَ بنِ المُخارِقِ، وزُهَيرِ بنِ عَمرٍو، قالا: لَمَّا نَزَلَت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، انطَلَقَ نَبيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى رَضمَةٍ من جَبَلٍ[1]، فعَلا أعلاها حجرًا، ثم

(١) الرضمة: حجارةٌ مجتمعةٌ، ليست بثابتةٍ في الأرض، كأنها منثورةٌ.

نادَى «**يا بَني عبدِ مَنافاه إنِّي نَذيرٌ، إنما مَثَلي ومَثَلُكُم، كَمَثَلِ رَجُلٍ رَأى العَدوَّ، فانطَلَقَ يَربَأُ أهلَهُ**[١]**، فخَشيَ أن يَسبِقوهُ، فجَعَلَ يهتِفُ: يا صَباحاهُ**»[٢].

ومِن حُسنِ تَقديمِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للكَلامِ:

ما جاءَ في الصّحيحينِ عن عبدِاللهِ بنِ زَيدِ بنِ عاصِمٍ، قال: لَمَّا أفاءَ اللهُ على رسولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ حُنَينٍ، قَسَمَ في الناسِ في المُؤَلَّفَةِ قُلوبُهم، ولم يُعطِ الأنصارَ شَيئًا، فكَأنَّهم وجَدوا إذ لم يُصِبهم ما أصابَ الناسَ، فخَطَبَهم فقال: «**يا مَعشَرَ الأنصارِ، ألَم أجِدكُم ضُلَّالًا فهَداكُمُ اللهُ بي؟ وكنتُم مُتَفَرِّقينَ فألَّفَكُمُ اللهُ بي؟ وعالَةً فأغناكُمُ اللهُ بي؟**» كُلَّما قال شَيئًا، قالوا: اللهُ ورسولُهُ أمَنُّ، قال: «**ما يَمنَعُكُم أن تُجيبوا رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟**»، قال: كُلَّما قال شَيئًا، قالوا: اللهُ ورسولُهُ أمَنُّ، قال: «**لَو شِئتُم قُلتُم: جِئتَنا كَذا وكذا**[٣]**، أترضَونَ أن يَذهَبَ الناسُ بالشّاةِ والبَعيرِ، وتَذهَبونَ بالنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى رِحالِكُم؟ لَولا الهِجرَةُ لَكنتُ امرَأً مِنَ الأنصارِ، ولو سَلَكَ الناسُ واديًا وشِعبًا، لَسَلَكتُ واديَ الأنصارِ وشِعبَها، الأنصارُ شِعارٌ، والناسُ دِثارٌ، إنَّكُم سَتَلقَونَ بعدي أثَرَةً، فاصبِروا حتى تَلقَوني على الحَوضِ**»[٤].

فبَدَأ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلامَهُ، بذِكرِ مُقَدّمَتَينِ.

الأولى: تَذكيرُهم بما أنعَمَ اللهُ بِهِ عليهم مِنَ النِّعَمِ العَظيمَةِ، وما امتَنَّ بِهِ عليهم مِنَ المِنَنِ الجَسيمَةِ، ببَعثَةِ النبيِّ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثانيَةُ: تَذكيرُهم بما قَدَّموهُ للإسلامِ، وفي ذلك فضلانِ عَظيمانِ:

- **الفَضلُ الأولُ:** أنَّهُ يُخبِرُهم أنَّهُ ما نَسيَ جُهودَهم في خِدمَةِ الدِّينِ، ونُصرَةِ الإسلامِ، وأنَّهُ يَحفَظُ لهم ذلك، وما جَحَدَهُ قَطُّ، وهذا فيه طَمأنَةٌ لقُلوبِهِم.

---

(١) يحفظهم، ويتطلع لهم.

(٢) رواه مسلم (٢٠٧).

(٣) وعند أحمد (١١٧٣٠)، من حديث أبي سعيدٍ: «**أما واللهِ لو شئتم لقلتم، فلصدقتم، وصدِّقتم: أتيتنا مكذَّبًا فصدَّقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فآسيناك، أوجدتم في أنفسكم -يا معشر الأنصار- في لعاعةٍ من الدُّنيا، تألَّفت بها قومًا؛ ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟**»، وسنده حسنٌ.

(٤) رواه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

- **الفَضلُ الثاني**: أنَّهُ يُذكِّرُهم أنَّ مَن قَدَّمَ مِثلَ هَذِهِ التَّضحياتِ العَظيمَةِ، وبَذَلَ كُلَّ هَذِهِ الجُهودِ الجَليلَةِ، لا يَليقُ بِهِ أن يَلتَفِتَ لِمِثلِ هَذِهِ الأُمورِ التَّافِهَةِ الحَقيرَةِ، وأنَّ الدُّنيا لا تُكافِئُ عَظيمَ بَذلِهِم، وجَليلَ تَضحياتِهِم.

وهذا **فيه**: تَحفيزٌ لَهم، على مَزيدٍ مِنَ البَذلِ، وصَرفُهم عن الدُّنيا بما فيها.

ثم دَخَلَ بعدَ المُقَدِّمَتَينِ في الموضوعِ، وهو بيانُ عِلَّةِ تَخصيصِ قُرَيشٍ بهذه العَطايا، وأنَّ هَذِهِ العِلَّةَ لا عَلاقَةَ لها بقوَّةِ الحُبِّ، وعَظيمِ المكانةِ، وإنما العِلَّةُ: تَأليفُ قُلوبِهِم على الإسلامِ؛ لضَعفِ إيمانِهِم.

ثم خَتَمَ حديثَهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهم، بأمرِهِم بالصَّبرِ، حتى يَلقَوهُ، فإذا بِهِ نَصيبُهُم وحَظُّهُم، في الدُّنيا والآخِرَةِ، فما أكرَمَهُ من حَظٍّ، وما أوفاهُ من نَصيبٍ.

*** وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكَنِّي عَمَّا يُستَقبَحُ ذِكرُهُ مِنَ الكلامِ، بما يَدُلُّ على المقصودِ:**

فَمُقتَضَى الضَّرورَةِ قد تَحمِلُ الإنسانَ على الكلامِ عن بعضِ الأُمورِ الحَرِجَةِ، وحينَئِذٍ تَبرُزُ أخلاقيَّاتُ الناسِ في التَّعبيرِ عن هَذِهِ الأُمورِ؛ إذِ التَّعبيرُ عَنها يَعكِسُ أخلاقيَّاتِ المرءِ، وما تَرَبَّى عليه من فضائِلَ.

وللنَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّصيبُ الأعظَمُ مِنَ التَّعبيرِ الراقي عن مِثلِ تِلكَ الأُمورِ، فمِن ذلك:

عن أُسامَةَ بنِ زَيدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: «كَساني رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُبطيَّةً كَثيفَةً[1]، كانت مِمَّا أهداها دِحيَةُ الكلبيُّ، فكَسَوتُها امرَأتي.

- فقال لي رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما لَكَ لم تَلبَسِ القُبطيَّةَ؟**».

- قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، كَسَوتُها امرَأتي.

(١) القبطيَّة: الثَّوب من ثياب مصر، رقيقةٌ بيضاء، ولكنه نفى الرِّقَّة عنها هنا بقوله: «كثيفةٌ»، وهي منسوبةٌ إلى القبط أهل مصر.

- فقال لي رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مُرها، فلتَجعَل تحتَها غِلالَةً**[١]**، إنيِّ أخافُ أن تَصِفَ حَجمَ عِظامِها**»[٢].

«**حَجمَ عِظامِها**»: يعني: إذا لَصِقَ الثَّوبُ بالجَسَدِ، أبدَى عن خَلقِها[٣].

وقد ذَكَرَ الشَّريفُ الرضيُّ: أنَّ القُبطيَّةَ -بِرِقَّتِها- تَلصَقُ بالجِسمِ، فتُبَيِّنُ حَجمَ الثَّديَينِ، والرِّدفينِ، وما يَشتَدُّ من لَحمِ العَضُدَينِ والفَخِذَينِ، فيَعرِفُ الناظِرُ إلَيها مَقاديرَ هَذِهِ الأعضاءِ، فجَعَلَها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لِهَذِهِ المحالِّ، كالواصِفَةِ لما خَلفها، والمُخبِرَةِ عَمَّا استَتَرَ بها.

وهذه من أحسَنِ العِباراتِ عن هذا المعنى؛ ولهذا الغَرَضِ قال عمرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إيَّاكُم ولبسَ القَباطيِّ؛ فإنَّها إلا تَشِفَّ، تَصِف»[٤].

قال الأديبُ مصطفى صادق الرافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا كَلامٌ حَسَنٌ، ولكن في عِبارَةِ الحديثِ سِرًّا، هو من مُعجِزاتِ البَلاغَةِ النبويَّةِ، لم يَهتَدِ إليه الشَّريفُ، على أنَّهُ هو حَقيقَةُ الفَنِّ في هَذِهِ الكلِمَةِ بخاصَّتِها، ولا نَظُنُّ أنَّ بَليغًا من بُلَغاءِ العالَمِ يَتَأَتَّى لِمثلِهِ.

فإنَّهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يَقُل: «أخافُ أن تَصِفَ حَجمَ أعضائِها»، بل قال: «حَجمَ عِظامِها»، مع أنَّ المُرادَ لَحمُ الأعضاءِ في حَجمِهِ وتكوينِهِ.

وذلك مُنتَهَى السُّموِّ بالأدَبِ، إذ ذِكرُ «أعضاءِ» المرأةِ في هذا السِّياقِ وبهذا المعرِضِ هو في الأدَبِ الكامِلِ أشبَهُ بالرفَثِ.

ولَفظَةُ: «الأعضاءِ» تحتَ الثَّوبِ الرقيقِ الأبيَضِ تُنَبِّهُ إلى صوَرٍ ذِهنيَّةٍ، فتَنَزَّهَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن كُلِّ ذلك، وضَرَبَ الحِجابَ اللُّغَويَّ على هَذِهِ المعاني السَّافِرَةِ، وجاءَ بكَلِمَةِ «العِظامِ»؛ لأنَّها اللَّفظَةُ الطَّبيعيَّةُ المُبَرَّأَةُ من كُلِّ شُبهةٍ، ولا تُثيرُ مَعنًى، ولا تَحمِلُ غَرَضًا؛ إذ

---

(١) الثَّوب الذي يلبس تحت الثِّياب.

(٢) رواه الإمام أحمد (٢١٧٨٦)، وحسنه الألباني في الثَّمر المستطاب (ص٣١٨).

(٣) غريب الحديث لابن سلاَّم (٣/ ١٧٩).

(٤) رواه البيهقي (٣٢٦٣) بلفظ: «إن لم يكن يشفُّ، فإنه يصف». ينظر: المجازات النبويَّة، للشَّريف الرضيِّ (ص١٦٦).

تكونُ في الحَيِّ، والميِّتِ -بل هيَ بهذا أخَصُّ[(١)]- وفي الجَميلِ، والقَبيحِ -بل هيَ هُنا أليَقُ[(٢)]- وفي الشَّبابِ، والهَرَمِ -بل هيَ في هذا أوضَحُ-»[(٣)].

*** ومِنَ الكناياتِ النبويَّةِ التي كَثُرَ استِعمالُها: الكنايَةُ عن الجِماعِ، وما في مَعناهُ، بألفاظٍ أُخرَى، تَدُلُّ على المقصودِ:**

وقد جاءَتِ التَّكنيَةُ عن الجِماعِ في كَلامِ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بألفاظٍ كَثيرَةٍ، منها:

١. ذَوقُ العُسَيلَةِ:

فعن عائشةَ: أنَّ امرَأةَ رِفاعَةَ القُرَظيِّ، جاءَت إلى رسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقالت: يا رسولَ اللهِ، إنَّ رِفاعَةَ طَلَّقَني فبَتَّ طَلاقي، وإنِّي نَكَحتُ بعدَهُ عبدَالرحمَنِ بنَ الزَّبيرِ القُرَظيَّ، وإنما مَعَهُ مِثلُ الهُدبَةِ[(٤)]، قال رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَعَلَّكِ تُريدينَ أن تَرجِعي إلى رِفاعَةَ؟ لا، حتى يَذوقَ عُسَيلَتَكِ، وتَذوقي عُسَيلَتَهُ**[(٥)]»[(٦)].

فاستَخدَمَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تَعبيرَ العُسَيلَةِ، وكَنَّى بِهِ عن الجِماعِ.

٢. المُقارَفَةُ:

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: شَهِدنا بنتًا لرسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ[(٧)]، ورسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جالسٌ على القَبرِ.

- قال: فرَأيتُ عَينَيهِ تَدمَعانِ.
- فقال: «**هَل فيكُم من أحَدٍ، لم يُقارِفِ اللَّيلَةَ؟**».

---

(١) أي: بالميِّت.

(٢) أي: بالقبيح.

(٣) السُّموُّ الرُّوحيُّ الأعظم- لمصطفى صادق الرافعيِّ (صـ٦٧).

(٤) هو طرف الثَّوب الذي لم ينسج، وأرادت: أن ذكره يشبه الهدبة في الاسترخاء، وعدم الانتشار. فتح الباري (٩/ ٤٦٥).

(٥) تصغير عسلةٍ، وهي كنايةٌ عن الجماع، شبَّه لذَّته بلذَّة العسل وحلاوته.

(٦) رواه البخاري (٥٢٦٠)، ومسلم (١٤٣٣).

(٧) هي أمُّ كلثوم زوج عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

- فقال أبو طَلحَةَ: أنا.

- قال: «**فانزِل**».

- قال: فنزَلَ في قَبرِها، فقَبَرَها(١).

لَم يُقارِف: لم يُجامِع، وقارَفَ امرَأتَهُ: إذا جامَعَها(٢).

فلمَّا كان النُّزولُ في القَبرِ لمُعالجَةِ أمرِ النِّساءِ، لم يُرِد أن يكونَ النازِلُ فيه قَريبَ العَهدِ بمُخالَطَةِ النِّساءِ؛ لتكونَ نَفسُهُ مُطمَئِنَّةً، ساكِنَةً، كالناسيَةِ للشَّهوَةِ(٣).

٣. الإفضاءُ:

عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ من أشَرِّ الناسِ عندَ اللهِ مَنزِلَةً يومَ القيامَةِ: الرجُلَ يُفضي إلى امرَأتِهِ، وتُفضي إليه، ثم يَنشُرُ سِرَّها**»(٤).

فَعَبَّرَ عن الجِماعِ: بالإفضاءِ.

٤. الفِراشُ:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا دَعا الرجُلُ امرَأتَهُ إلى فِراشِهِ، فأبَت، فباتَ غَضبانَ عليها، لَعَنَتها الملائِكَةُ حتى تُصبِحَ**»(٥).

فالفِراشُ: كِنايَةٌ عن الجِماعِ.

٥. الإعراسُ:

كَما في قولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي طَلحَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**أعرَستُمُ اللَّيلَةَ؟**»(٦).

---

(١) رواه البخاري (١٣٤٢).

(٢) النهاية (٤/ ٤٥).

(٣) عمدة القاري (٨/ ٧٦).

(٤) رواه مسلم (١٤٣٧).

(٥) رواه البخاري (٣٢٣٧)، ومسلم (١٤٣٦).

(٦) رواه البخاري (٥٤٧٠)، ومسلم (٢١٤٤).

٦. الباءَةُ:

عن عبدِالله بنِ مسعودٍ رضي الله عنه، قال: كُنَّا مع النبيِّ ﷺ، فقال: «**مَنِ استَطاعَ الباءَةَ فليَتَزَوَّج؛ فإنَّهُ أغَضُّ للبَصَرِ، وأحصَنُ للفَرجِ، ومَن لم يَستَطِع: فعليه بالصَّومِ؛ فإنَّهُ له وِجاءٌ**»(١).

والباءَةُ: الجِماعُ.

فَقَد كَنَّى القُرآنُ والسُّنَّةُ عن العَلاقَةِ بين الرجُلِ والمرأةِ بألفاظٍ كَريمَةٍ، منها: المسُّ، والحَرثُ، والمُلامَسَةُ، والإفضاءُ، والدُّخولُ، والعُسَيلَةُ، والإتيانُ، والغَشَيانُ، وغَيرُها.

وقد عَقَدَ أهلُ العِلمِ أبوابًا في كُتُبِهِم، في هذا الأدَبِ، وذَكَروا فُصولًا في الكنايَةِ عَمَّا يُستَقبَحُ ذِكرُهُ، ويُستَحيا منه، وذَكَروا -بَدَلًا من ذلك- ألفاظًا مَقبولَةً، تُؤَدِّي المعنى، وتُفصِحُ عن المغزَى، ويُستَحسَنُ لَفظُها، وقد عَدَّ بعضُهم مِائَةَ اسمٍ للنِّكاحِ عندَ العَرَبِ.

ومِن استِعمالِ النبيِّ ﷺ للكنايَةِ عَمَّا يُستَحيا ذِكرُهُ:

ما جاءَ عن عائشَةَ رضي الله عنها: أنَّ امرَأَةً سَألَتِ النبيَّ ﷺ عن غُسلِها مِنَ المحيضِ، فأمَرَها كَيفَ تَغتَسِلُ؟

- قال: «**خُذي فِرصَةً(٢) من مِسكٍ، فتَطَهَّري بها**».
- قالت: كَيفَ أتَطَهَّرُ؟
- قال: «**تَطَهَّري بها !!**».
- قالت: كَيفَ؟
- قال: «**سُبحانَ اللهِ!! تَطَهَّري**».

---

(١) رواه البخاري (١٩٠٥)، ومسلم (١٤٠٠).

(٢) قطعة من صوفٍ أو قطنٍ، أو خرقة تمسح بها المرأة من الحيض.

قالت عائشةُ: فاجتَذَبتُها إلَيَّ، وعَرَفتُ ما أرادَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقُلتُ: تَتَبَّعي بها أثَرَ الدَّمِ[١].

وقد تأدَّبَ الصَّحابةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ بهذا الأدَبِ القُرآنيِّ، فكانوا يُكَنُّونَ عَمَّا يُستَحيا مِنَ التَّصريحِ بِهِ:

فعن عبدِاللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: «أنكَحَني أبي امرَأةً ذاتَ حَسَبٍ، فكان يَتَعاهَدُ كَنَّتَهُ[٢]، فيَسألُها عن بَعلِها، فتقولُ: نعم الرجُلُ من رَجُلٍ لم يَطَأ لَنا فِراشًا، ولم يُفَتِّش لَنا كَنَفًا، مُنذُ أتَيناهُ[٣]...» الحديث[٤].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: خرجنا مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أشهُرِ الحَجِّ، ولَيالي الحَجِّ، وحُرُمِ الحَجِّ، فنَزَلنا بسَرِفَ، فخرجَ إلى أصحابِهِ، فقال: «**مَن لم يَكُن مِنكُم مَعَهُ هَديٌ، فأحَبَّ أن يَجعَلَها عُمرَةً فليَفعَل، ومَن كان مَعَهُ الهَديُ: فلا**»، قالت: فالآخِذُ بها، والتَّارِكُ لها من أصحابِهِ، فأمَّا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورِجالٌ من أصحابِهِ: فكانوا أهلَ قوَّةٍ، وكان مَعَهم الهَديُ، فلَم يَقدِروا على العُمرَةِ، فدَخَلَ عَلَيَّ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنا أبكي، فقال: «**ما يُبكيكِ يا هَنتاهُ؟**[٥]».

- قُلتُ: سمعتُ قولَكَ لأصحابِكَ، فمُنِعتُ العُمرَةَ.
- قال: «**وَما شَأنُكِ؟**».
- قُلتُ: لا أُصَلِّي.
- قال: «**فَلا يَضيرُكِ؛ إنما أنتِ امرَأةٌ من بَناتِ آدَمَ ...**»[٦].

فَقولُها: «لا أُصَلِّي»: كِنايَةٌ عن الحَيضِ.

---

(١) رواه البخاري (٣١٤)، ومسلم (٣٣٢).

(٢) امرأة ابنه.

(٣) أرادت بذلك: الكناية عن عدم جماعه لها، وهذا من أدبها.

(٤) رواه البخاري (٥٠٥٢).

(٥) أي: يا هذه.

(٦) رواه البخاري (١٥٦٠) -واللفظ له-، ومسلم (١٢١١).

قال ابنُ حَجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَنَّت بذلك عن الحَيضِ، وهي من لَطيفِ الكناياتِ»(١).

وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فيه**: استِحبابُ الكنايَةِ عن الحَيضِ ونَحوِهِ، مِمَّا يُستَحَى منه، ويُستَشنَعُ لَفظُهُ، إلا إذا كانت حاجَةٌ، كَإزالَةِ وهمٍ، ونَحوِ ذلك»(٢).

*** وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَترَسَّلُ ويتَمَهَّلُ في كَلامِهِ، فلَم يَكُن يواصِلُ الكلامَ، ويَسرُدُهُ سَردًا؛ بل يَتَخَيَّرُ السَّكَتاتِ المُناسِبَةَ:**

عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُحَدِّثُ حديثًا، لَو عَدَّهُ العادُّ لَأحصاهُ، ولم يَكُن يَسرُدُ الحديثَ كَسَردِكُم»(٣).

«لَو عَدَّهُ العادُّ لَأحصاهُ»:

أي: لَو أرادَ المُستَمِعُ عَدَّ كَلِماتِهِ؛ أو حُروفِهِ، أمكَنَهُ بسُهولَةٍ(٤).

ويُقال: فُلانٌ يَسرُدُ الحديثَ، إذا تابَعَ الحديثَ بالحديثِ استِعجالًا، يعني: لم يَكُن حديثُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَتابِعًا، بحَيثُ يَأتي بعضُهُ إثرَ بعضٍ، فيَلتَبِس على المُستَمِعِ؛ بل كان يَفصِلُ كَلامَهُ، ولو أرادَ المُستَمِعُ عَدَّهُ أمكَنَهُ، فيَتَكَلَّمُ بكَلامٍ واضِحٍ مَفهومٍ، في غايَةِ الوُضوحِ والبَيانِ(٥).

وقال الحافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: لَو عَدَّ كَلِماتِهِ، أو مُفرَداتِهِ، أو حُروفَهُ، لَأطاقَ ذلك، وبَلَغَ آخِرَها، والمُرادُ بذلك: المُبالَغَةُ في التَّرتيلِ، والتَّفهيمِ»(٦).

وفيه: دَليلٌ على أنَّ المُحَدِّثَ والقارِئَ للقُرآنِ، لا يُحَدِّثُ ولا يَقرَأُ مُتَتابِعًا استِعجالًا،

---

(١) فتح الباري (٣/ ٦١٢).

(٢) شرح صحيح مسلم (٨/ ١٥١).

(٣) رواه البخاري (٣٥٦٧)، ومسلم (٢٤٩٣).

(٤) التيسير بشرح الجامع الصغير، للمناويِّ (٢/ ٥٣٢).

(٥) عون المعبود (١٠/ ٦٤).

(٦) فتح الباري (٦/ ٥٧٨).

بحَيثُ يَلتَبِسُ ويَشتَبِهُ على السَّامِعِ حديثُهُ وقِراءَتُهُ؛ بل يُحدِّثُ بكَلامٍ واضِحٍ مَفهومٍ؛ ليأخُذَ عنه المُستَمِعُ، ويَحفَظَ عَنهُ، وهَكَذا يَفعَلُ القارِئُ للقُرآنِ[١].

ومنه **أُخِذَ**: أنَّ على المُدَرِّسِ أن لا يَسرُدَ الكلامَ سَردًا، بل يُرَتِّلُهُ، ويُزَيِّنُهُ، ويَتَمَهَّلُ؛ ليَتَفَكَّرَ فيه، هو وسامِعُهُ، وإذا فرَغَ من مَسألَةٍ، أو فصلٍ، سَكَتَ قَليلًا؛ ليَتَكَلَّمَ مَن في نَفسِهِ شيءٌ[٢].

وقالت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -أيضًا-: «كان كَلامُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلامًا فصلًا، يَفهَمُهُ كُلُّ مَن سَمِعَهُ»[٣].

«كَلامًا فصلًا»:

أي: مَفصولًا بَين أجزائِهِ، وواضِحًا.

وقالت -أيضًا-: «كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا تَكَلَّمَ تَكَلَّمَ نَزرًا، وأنتُم تَنثُرونَ الكلامَ نَثرًا»[٤].

وقال جابِرُ بنُ عبدِاللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كان في كَلامِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرتيلٌ، أو تَرسيلٌ»[٥].

«تَرتيلٌ»:

أي: تَأَنٍّ، وتَمَهُّلٌ، مع تَبيينِ الحُروفِ، والحَرَكاتِ، بحَيثُ يَتَمَكَّنُ السَّامِعُ من عَدِّها.

«أو تَرسيلٌ»:

شَكٌّ مِنَ الراوي، ومعنى التَّرتيلِ والتَّرسيلِ واحِدٌ[٦].

---

(١) عون المعبود (١٠/ ٦٤).

(٢) فيض القدير (٥/ ٢١٠).

(٣) رواه أبوداود (٤٨٣٩)، وحسنه الألباني.

(٤) مسند إسحاق بن راهويه (١٦٧٩)، والنَّزر: القليل.

(٥) رواه أبوداود (٤٨٣٨)، وحسنه الألباني.

(٦) عون المعبود (١٣/ ١٢٦).

* **وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرفَعُ صَوتَهُ بالكلامِ، إذا احتاجَ الأمرُ إلى ذلك:**

فعن عبدِاللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «تَخَلَّفَ عَنَّا النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سَفرَةٍ سافَرناها، فأدرَكَنا -وقد أرهَقَتنا الصَّلاةُ[1]- ونَحنُ نَتَوَضَّأُ، فجَعَلنا نَمسَحُ على أرجُلِنا، فنادَى بأعلى صَوتِهِ: «**وَيلٌ للأعقابِ مِنَ النارِ**»، مَرَّتَينِ، أو ثَلاثًا[2].

قال ابنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَأَنَّ الصَّحابَةَ أخَّروا الصَّلاةَ في أوَّلِ الوَقتِ؛ طَمَعًا أن يَلحَقَهمُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيُصَلُّوا مَعَهُ، فلمَّا ضاقَ الوَقتُ، بادَروا إلى الوُضوءِ، ولِعَجَلَتِهم لم يُسبِغوهُ، فأدرَكَهم على ذلك، فأنكَرَ عليهم»[3].

وقد بَوَّبَ عليه البخاري، بقولِهِ: «بابُ: مَن رَفَعَ صَوتَهُ بالعِلمِ»، فيُستَحَبُّ رَفعُ الصَّوتِ بِهِ إذا وُجِدَت حاجَةٌ لذلك، كَبُعدِ المُستَمِعِ، أو كَثرَةِ الجَمعِ.

فَدَعَتهُ ضَرورَةُ سَماعِ الناسِ لهذا التَّحذيرِ أن يَرفَعَ صَوتَهُ؛ حتى لا يَفوتَ أحَدًا سَماعُهُ.

وعن البَراءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: رَأيتُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ الخَندَقِ، وهو يَنقُلُ التُّرابَ، حتى وارَى التُّرابُ شَعَرَ صَدرِهِ- وكان رَجُلًا كَثيرَ الشَّعَرِ- وهو يَرتَجِزُ بِرَجَزِ عبدِاللهِ بنِ رَواحَةَ:

اللهمَّ لَولا أنتَ ما اهتَدَينا ... ولا تَصَدَّقنا ولا صَلَّينا
فَأنزِلَن سَكينَةً عَلَينا ... وثَبِّتِ الأقدامَ إن لاقَينا
إنَّ الأعداءَ قَد بَغَوا عَلَينا ... إذا أرادوا فِتنَةً أبَينا

يَرفَعُ بها صَوتَهُ[4].

فَراعَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَبيعَةَ الرجَزِ ومُقتَضاهُ من رَفعِ الصَّوتِ، في مِثلِ هَذِه الحال.

---

(١) استأخرنا عنها.
(٢) رواه البخاري (٦٠)، ومسلم (٢٤١).
(٣) فتح الباري (١/ ٢٦٥).
(٤) رواه البخاري (٣٠٣٤)، ومسلم (١٨٠٣).

وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرفَعُ صَوتَهُ في الخُطَبِ:

فعن جابِرِ بنِ عبدِالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: «كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا خَطَبَ احمَرَّت عَيناهُ، وعَلا صَوتُهُ، واشتَدَّ غَضَبُهُ، حتى كَأَنَّهُ مُنذِرُ جَيشٍ، يقولُ: صَبَّحَكُم، ومَسَّاكُم...»[١].

ومَعلومٌ أنَّ هذا الانفِعالَ، ورَفعَ الصَّوتِ، لا يكونُ في كُلِّ الخُطبَةِ، ولا في كُلِّ الخُطَبِ، ولا في كُلِّ الموضوعاتِ، وإنما كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفعَلُ ذلك: إذا كان الموضوعُ يَحتاجُ إلى هذا الانفِعال والغَضَبِ، كَما لَو ذَكَرَ السَّاعَةَ.

ولهذا جاءَ في روايةِ النَّسائيِّ: «كان إذا ذَكَرَ السَّاعَةَ احمَرَّت وجنَتاهُ، وعَلا صَوتُهُ، واشتَدَّ غَضَبُهُ، كَأَنَّهُ نَذيرُ جَيشٍ، يقولُ: صَبَّحَكُم، مَسَّاكُم»[٢].

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «وَلَعَلَّ اشتِدادَ غَضَبِهِ كان عندَ إنذارِهِ أمرًا عَظيمًا، وتَحديدِهِ خَطبًا جَسيمًا»[٣].

*** وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبلَغَ الناطِقينَ، فمِن أبرَزِ سِماتِ كَلامِهِ: بَلاغَتُهُ، وإيجازُهُ:**

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**بُعِثتُ بجَوامِعِ الكلِمِ...**»[٤].

قال ابنُ شِهابٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وَبَلَغَني أنَّ جَوامِعَ الكلِمِ: أنَّ اللهَ يَجمَعُ الأمورَ الكثيرَةَ، الَّتي كانت تُكتَبُ في الكُتُبِ قبلَهُ، في الأمرِ الواحِدِ، والأمرَينِ، أو نَحو ذلك»[٥]. وهذا عَيْنُ البَلاغَةِ.

قال بعضُ البُلَغاءِ: «كَلامُ المرءِ بَيانُ فضلِهِ، وتَرجُمانُ عَقلِهِ، فاقصُرهُ على الجَميلِ، واقتَصِر منه على القَليلِ»[٦].

---

(١) رواه مسلم (٨٦٧).

(٢) رواه النسائي (١٥٧٨)، وصححه الألباني في صحيح النسائي.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ١٥٦).

(٤) رواه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣).

(٥) شعب الإيمان (١٣٧).

(٦) غرر الخصائص الواضحة (ص٢٣٣).

وقيل: «أبلَغُ الكلامِ: ما حَسُنَ إيجازُهُ، وقَلَّ مَجازُهُ، وكَثُرَ إعجازُهُ، وناسَبَت صُدورُهُ أعجازَهُ، والبَليغُ: مَن يَجتَني مِنَ الألفاظِ أنوارَها، ويَجتَني مِنَ المعاني ثِمارَها»[١].

وعن أبي موسَى الأشعَريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بَعَثَني رسولُ اللهِ ﷺ ومُعاذًا إلى اليَمَنِ، فقال: «**ادعوا الناسَ، وبَشِّرا، ولا تُنَفِّرا، ويَسِّرا، ولا تُعَسِّرا**».

فَقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أفتِنا في شَرابَينِ، كُنَّا نَصنَعُهما باليَمَنِ: البِتعُ، وهو مِنَ العَسَلِ، يُنبَذُ حتى يَشتَدَّ، والمِزرُ، وهو مِنَ الذُّرَةِ والشَّعيرِ، يُنبَذُ حتى يَشتَدَّ.

وكان رسولُ اللهِ ﷺ قَد أُعطيَ جَوامِعَ الكلِمِ بخَواتِمِهِ، فقال: «**أنهَى عن كُلِّ مُسكِرٍ، أسكَرَ عن الصَّلاةِ**»[٢].

فَقولُهُ: «وكان رسولُ اللهِ ﷺ قَد أُعطيَ جَوامِعَ الكلِمِ بخَواتِمِهِ»، أي: إيجازَ اللَّفظِ، مع تَناوُلِهِ المعاني الكثيرَة جِدًّا.

وقولُهُ: «**بِخَواتِمِهِ**»:

أي: كَأنَّهُ يَختِم على المعاني الكثيرَةِ، التي تَضَمنها اللَّفظُ اليَسيرُ، فلا يَخرُجُ منها شيءٌ عن طالبِهِ، ومُستَنبِطِهِ؛ لعُذوبَةِ لَفظِهِ، وجَزالَتِهِ[٣].

«**أنهَى عن كُلِّ مُسكِرٍ**»:

أَتى ﷺ بجَوابٍ عامٍّ شامِلٍ، مَفادُهُ: أنَّهُ لا عِبرَةَ باختِلافِ الأسماءِ، ما دامَ المعنى واحِدًا، والحَقيقَةُ واحِدَةً.

فَجَمَعَ رسولُ اللهِ ﷺ -بما أوتيَ من جَوامِعِ الكلِمِ- كُلَّ ما غَطَّى العَقلَ، وأسكَرَ، ولم يُفَرِّق بين نَوعٍ، ونَوعٍ، ولا تَأثيرَ لكَونِهِ مَأكولًا، أو مشروبًا.

---

(١) التَّمثيل والمحاضرة (ص١٥٨).

(٢) رواه مسلم (٢٠٠١).

(٣) شرح صحيح مسلم للنَّوويِّ (١٣/ ١٧٠).

وعن أبي موسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُعطيتُ فواتِحَ الكلِمِ، وخَواتِمَهُ، وجَوامِعَهُ**».

فَقُلنا: عَلِّمنا مِمَّا عَلَّمَك اللهُ، قال: فعَلَّمَنا التَّشَهُّدَ[1].

«أُعطيتُ فواتِحَ الكلِمِ»:

المُرادُ: أنَّهُ أُعطيَ البَلاغَةَ، والفَصاحَةَ، والتَّوَصُّلَ إلى غَوامِضِ المعاني، وبَدائِعِ الحِكَمِ، ومَحاسِنِ العِباراتِ والألفاظِ التي أُغلِقَت على غَيرِهِ، وتَعَذَّرَت.

«وَخَواتِمَهُ»:

أي: الكلِماتِ الخاتِمَةَ الحاويَةَ للمَعاني الكثيرَةِ، مع عُذوبَتِها، وجَزالَتِها، واستيفائِها.

«وَجَوامِعَهُ»:

وهوَ الإيجازُ في اللَّفظِ، وجَمعُ المعاني الكثيرَةِ، في الألفاظِ القَليلَةِ.

قال الحافِظُ ابنُ رَجَبٍ الحَنبَليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَجَوامِعُ الكلِمِ التي خُصَّ بها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَوعانِ:

أحَدُهما: ما هو في القُرآنِ، كَقولِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِ﴾ [النحل: ٩٠]، قال الحَسَنُ: «لَم تَترُك هَذِهِ الآيةُ خَيرًا إلا أمَرَت بِهِ، ولا شَرًّا إلا نَهَت عَنهُ».

والثاني: ما هو في كَلامِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو مَوجودٌ مُنتَشِرٌ في السُّنَنِ المأثورَةِ عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد جَمَعَ العُلَماءُ جُموعًا من كَلِماتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجامِعَةِ، فصَنَّفَ الحافِظُ أبو بكرِ بنُ السُّنِّيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ كِتابًا سَمَّاهُ: «الإيجازُ وجَوامِعُ الكلِمِ مِنَ السُّنَنِ المأثورَةِ»، وجَمَعَ القاضي أبو عبدِاللهِ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنَّفه (١/ ٢٦١)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٤٨٣)، وروى أحمد (٤١٦٠)، عن عبدالله بن مسعودٍ، أنه قال: إن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علِّم فواتح الخير، وجوامعه، وخواتمه، فقال: «إذا قعدتم في كلِّ ركعتين، فقولوا: التَّحيَّات لله ... »، الحديث، وصححه محققو المسند على شرط مسلم.

القضاعيُّ من جَوامِعِ الكلِمِ الوَجيزَةِ كِتابًا سَمَّاهُ: «الشِّهابُ في الحِكَمِ والآدابِ»، وصَنَّفَ على مِنوالِهِ قَومٌ آخَرونَ، فزادوا على ما ذَكَرَهُ، زيادَةً كَثيرَةً.

وأملى الإمامُ الحافِظُ أبو عَمرِو بنُ الصَّلاحِ رَحِمَهُ اللَّهُ مَجلِسًا سَمَّاهُ: «الأحاديثُ الكُلِّيَّةُ»، جَمَعَ فيه الأحاديثَ الجَوامِعَ، التي يُقال: إنَّ مَدارَ الدِّينِ عليها، وما كان في مَعناها مِنَ الكلِماتِ الجامِعَةِ الوَجيزَةِ، فاشتَمَلَ مَجلِسُهُ هذا على سِتَّةٍ وعِشرينَ حديثًا.

ثم إنَّ الفَقيهَ الإمامَ الزَّاهِدَ القُدوَةَ: أبا زَكَرِيَّا يَحيى النووي رَحِمَةُ اللهِ عليه، أخَذَ هَذِهِ الأحاديثَ التي أملاها ابنُ الصَّلاحِ، وزادَ عليها تَمامَ اثنَينِ وأربَعينَ حديثًا، وسَمَّى كِتابَهُ بـ«الأربَعينَ»، واشتهرَت هَذِهِ الأربَعونَ التي جَمَعَها، وكَثُرَ حِفظُها، ونَفَعَ اللهُ بها؛ ببَرَكَةِ نيَّةِ جامِعِها، وحُسنِ قَصدِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ»[1].

وقد زادَ ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ على الأربَعينَ النوويةِ ثَمانيَةَ أحاديثَ، فصارَت خَمسينَ حديثًا، وشَرَحَها في كِتابِهِ: «جامِعِ العُلومِ والحِكَمِ».

ومِن **أمثِلَةِ جَوامِعِ كَلِمِهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

- حديثُ: «**إنما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ، وإنما لكُلِّ امرِئٍ ما نَوَى**»[2].

فهذا الحديثُ أحَدُ الأحاديثِ التي يَدورُ الدِّينُ عليها، فروِيَ عن الإمام الشافعيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، أنَّهُ قال: «هَذا الحديثُ ثُلُثُ العِلمِ، ويَدخُلُ في سَبعينَ بابًا مِنَ الفِقهِ»[3].

وقال شَيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذا الحديثُ من أجمَعِ الكلِمِ الجَوامِعِ، التي بُعِثَ بها؛ فإنَّ كُلَّ عَمَلٍ يَعمَلُهُ عامِلٌ، من خَيرٍ وشَرٍّ، هو بحَسَبِ ما نَواهُ، فإن قَصَدَ بعَمَلِهِ مَقصودًا حَسَنًا، كان له ذلك المَقصودُ الحَسَنُ، وإن قَصَدَ بِهِ مَقصودًا سَيِّئًا، كان له ما نَواهُ»[4].

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٥١).

(٢) رواه البخاري (١) -واللفظ له-، ومسلم (١٩٠٧).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٥٦).

(٤) مجموع الفتاوى (١٨/ ٢٥٤).

• حديثُ: «**مَن أحدَثَ في أمرِنا هذا ما ليس فيه، فهو رَدٌّ**»[١].

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا الحديثُ قاعِدَةٌ عَظيمَةٌ من قَواعِدِ الإسلامِ، وهو من جَوامِعِ كَلِمِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنَّهُ صَريحٌ في رَدِّ كُلِّ البِدَعِ، والمُختَرَعاتِ»[٢].

• حديثُ: «**أَلحِقوا الفَرائِضَ بأهلِها، فما بَقيَ: فهو لأَولى رَجُلٍ ذَكَرٍ**»[٣].

فهذا الحديثُ جامِعٌ لقَواعِدِ الفَرائِضِ، التي هيَ نِصفُ العِلمِ.

• حديثُ: «**البَيِّنَةُ على المُدَّعي، واليَمينُ على مَن أنكَرَ**»[٤].

وهوَ حديثٌ جامِعٌ لأحكامِ القَضاءِ.

• حديثُ: «**لا ضَرَرَ، ولا ضِرارَ**»[٥].

وهوَ مِن أجمعِ الكلامِ، وأحسنِهِ، وأبينِه، وأحكمِه.

❋ وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربّما استَخدَمَ القَسَمَ في كَلامِهِ؛ للتَّوكيدِ، والتَّعظيم:

وكان أكثَر ما يَحلِفُ بِهِ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«والذي نَفسي بيَدِهِ»**.

قال الحافِظُ ابنُ حَجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «هوَ قَسَمٌ، كان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثيرًا ما يُقسِمُ بهِ، والمعنى: أنَّ أمرَ نُفوسِ العِبادِ بيَدِ اللهِ، أي: بتَقديرِهِ، وتَدبيره»[٦].

ومِنَ النُّصوصِ الوارِدَةِ في هَذا:

• «**والذي نَفسي بيَدِهِ، لَقَد هَمَمتُ أن آمُرَ بحَطَبٍ فيُحطَبَ، ثم آمُرَ بالصَّلاةِ، فيُؤَذَّنَ**

(١) رواه البخاري (٢٦٩٧) –واللفظ له–، ومسلم (١٧١٨).
(٢) شرح صحيح مسلم للنَّوويِّ (١٢/ ١٦).
(٣) رواه البخاري (٦٧٣٥)، ومسلم (١٦١٥).
(٤) رواه البيهقي (٢١٢٠١)، وهو حديث حسنٍ.
(٥) رواه ابن ماجه (٢٣٤٠)، وهو حديث ثابتٌ.
(٦) فتح الباري (٢/ ١٢٩).

لها، ثم آمُرَ رَجُلًا، فيَؤُمَّ الناسَ، ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَى رِجالٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنْهَا،، فأُحَرِّقَ عليهم بُيوتَهم، والذي نفسي بيَدِهِ، لَو يَعلَمُ أحَدُهم أَنَّهُ يَجِدُ عَرقًا سَمينًا، أو مِرماتَينِ[١] حَسَنَتَينِ، لَشَهِدَ العِشاءَ»[٢].

- «والذي نَفسي بيَدِهِ، لَأن يَأخُذَ أحَدُكُم حَبلَهُ، فيَحتَطِبَ على ظَهرِهِ، خَيرٌ له من أن يَأتيَ رَجُلًا فيَسأَلَهُ، أعطاهُ، أو مَنَعَهُ»[٣].
- «والذي نَفسي بيَدِهِ، لا يُكلَمُ[٤] أحَدٌ في سَبيلِ اللهِ، واللهُ أعلَمُ بمَن يُكلَمُ في سَبيلِهِ، إلا جاءَ يومَ القيامَةِ، واللَّونُ لَونُ الدَّمِ، والرِّيحُ ريحُ المِسكِ»[٥].
- «فَوالذي نَفسي بيَدِهِ، لا يُؤمِنُ أحَدُكُم، حتى أكونَ أحَبَّ إليه من والدِهِ، ووَلَدِهِ»[٦].
- «والذي نَفسي بيَدِهِ، لَخُلوفُ فمِ الصَّائِمِ، أطيَبُ عندَ اللهِ تعالى من ريحِ المِسكِ»[٧].

❊ ورُبَّما حَلَفَ بقولِهِ: «وايمُ اللهِ»:

«ايمُ اللهِ»:

بِفَتحِ الهَمزَةِ، وكَسرِها، والميمُ مَضمومَةٌ، أصلُهُ: أيمَنُ اللهِ، وهو اسمٌ وُضِعَ للقَسَمِ هَكَذا، ثم حُذِفَت منه النُّونُ تَخفيفًا، وهو مَرفوعٌ بالابتِداءِ، وخَبَرُهُ مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: أيمُ اللهِ قَسَمي[٨].

وهَمزَتُهُ هَمزَةُ وصلٍ عندَ الجُمهورِ، وقيل: يَجوزُ القَطعُ[٩].

---

(١) مثنَّى مرماةٍ، وهي اللَّحم الذي في ظفر الشَّاة.
(٢) رواه البخاري (٦٤٤)، ومسلم (٦٥١).
(٣) رواه البخاري (١٤٧٠)، ومسلم (١٠٤٢).
(٤) يجرح.
(٥) رواه البخاري (٢٨٠٣)، ومسلم (١٨٧٦).
(٦) رواه البخاري (١٤).
(٧) رواه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١).
(٨) فتح الباري (١/ ٤٥٣).
(٩) المصدر السابق (٦/ ٥٩٨).

ومِمَّا ورَدَ في ذلك: حديثُ المرأةِ المخزوميّةِ، وقولهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وايمُ اللهِ، لَو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمدٍ سَرَقَت، لَقَطَعتُ يَدَها**»(١)

وعن عبدِاللهِ بنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: بَعَثَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعثًا(٢)، وأمَّرَ عليهم أُسامَةَ بنَ زَيدٍ، فطَعَنَ بعضُ الناسِ في إمارَتِهِ، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن تَطعَنوا في إمارَتِهِ، فقَد طَعَنتُم في إمارَةِ أبيهِ من قبلُ، وايمُ اللهِ، إن كان لَخَليقًا للإمارَةِ، وإن كان من أحَبِّ الناسِ إليَّ، وإنَّ هذا لَمِن أحَبِّ الناسِ إليَّ بعدَهُ**»(٣).

* وكان يَحلِفُ كثيرًا بقولِه: «لا، ومُقَلِّبِ القُلوبِ»:

فعن عبدِاللهِ بنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كَثيرًا مِمَّا كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحلِفُ: «**لا، ومُقَلِّبِ القُلوبِ**»(٤).

وفي لفظٍ: أكثَرُ ما كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحلِفُ: «**لا ومُقَلِّبِ القُلوبِ**»(٥).

والمُرادُ بتَقليبِ القُلوبِ: تَقليبُ أعراضِها، وأحوالِها، لا تَقليبُ ذاتِ القَلبِ(٦).

وقال القاضي **أبو بكرِ بنُ العَرَبيِّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «في الحديثِ: جَوازُ الحَلِفِ بأفعالِ اللهِ، إذا وُصِفَ بها، ولم يُذكَرِ اسمُهُ»(٧).

* ويَحلِفُ بقولِهِ: «واللهِ»:

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**أقيموا الرُّكوعَ والسُّجودَ، فواللهِ إنِّي لَأَراكُم من بعدِ ظَهري إذا رَكَعتُم وسَجَدتُم**»(٨).

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨).

(٢) هو البعث الذي أمر بتجهيزه في مرض وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٣) رواه البخاري (٣٧٣٠)، (٢٤٢٦).

(٤) رواه البخاري (٦٦١٧).

(٥) رواه البخاري (٧٣٩١).

(٦) فتح الباري (١١/ ٥٢٧).

(٧) المصدر السابق (١١/ ٥٢٧).

(٨) رواه البخاري (٧٤٢)، ومسلم (٤٢٥).

*** ويَحلِفُ بقولِهِ: «وَرَبِّ الكعبَةِ»:**

عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: انتَهَيتُ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو جالسٌ في ظِلِّ الكعبَةِ، فلمَّا رآني قال: «**هم الأخسَرونَ ورَبِّ الكعبَةِ، هم الأخسَرونَ ورَبِّ الكعبَةِ**»، فجِئتُ حتى جَلَستُ، فلَم أتَقارَّ أن قُمتُ[١]، فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، فِداكَ أبي وأُمِّي: مَن هم؟ قال: «**همُ الأكثَرونَ أموالًا، إلا مَن قال هَكَذا، وهَكَذا، وهَكَذا**[٢]، من بين يَدَيهِ، ومِن خَلفِهِ، وعن يَمينِهِ، وعن شِمالِهِ، وقَليلٌ ما هم، ما من صاحِبِ إبِلٍ، ولا بَقَرٍ، ولا غَنَمٍ، لا يُؤَدِّي زَكاتَها، إلا جاءَت يومَ القيامَةِ أعظَمَ ما كانت، وأسمنه، تَنطَحُهُ بقُرونِها، وتَطَؤُهُ بأظلافِها، كُلَّما نَفِدَت أُخراها، عادَت عليه أولاها، حتى يُقضَى بين الناسِ**»[٣].

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «**فيه**: جَوازُ الحَلِفِ بغَيرِ تَحليفٍ، بل هو مُستَحَبٌّ إذا كان فيه مَصلَحَةٌ، كَتَوكيدِ أمرٍ، وتَحقيقِهِ، ونَفيِ المجازِ عَنهُ، وقد كَثُرَتِ الأحاديثُ الصَّحيحَةُ في حَلِفِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا النَّوعِ، لهذا المعنى»[٤].

*** ويَحلِفُ -أيضًا- بقولِهِ: «والذي لا إلَهَ غَيرُهُ»:**

فعن عبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قامَ فينا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**والذي لا إلَهَ غَيرُهُ، لا يَحِلُّ دَمُ رَجُلٍ مُسلِمٍ، يَشهَدُ أن لا إلَهَ إلا اللهُ، وأنِّي رسولُ اللهِ، إلا ثَلاثَةُ نَفَرٍ: التَّارِكُ الإسلامَ، المُفارِقُ للجَماعَةِ، والثَّيِّبُ الزَّاني، والنَّفسُ بالنَّفسِ**»[٥].

*** ومِن أدَبِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الكلامِ: أنَّهُ كان يُسنِدُ ما يُستَقبَحُ إضافَتُهُ للنَّفسِ، لِضَميرِ الغَيبَةِ:**

فعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا وُضِعَتِ الجِنازَةُ، واحتَمَلَها الرِّجالُ على أعناقِهِم، فإن كانت صالِحَةً، قالت: قَدِّموني، وإن كانت غَيرَ**

---

(١) أي: لم يمكنِّي القرار والثَّبات حتى قمت.

(٢) أي: تصدَّق في جميع جهات الخير.

(٣) رواه البخاري (٦٦٣٨)، ومسلم (٩٩٠)، واللفظ له.

(٤) شرح مسلم (٧/ ٧٤)

(٥) رواه مسلم (١٦٧٦).

صالحَةٍ، قالت: يا ويلَها! أينَ يَذهَبونَ بها؟ يَسمَعُ صَوتَها كُلُّ شيءٍ إلا الإنسانَ، ولو سَمِعَهُ: صَعِقَ»[١].

فمَن أرادَ الحِكايَةَ عن شيءٍ مُستَقبَحٍ، لا يَتكَلَّمُ بضَميرِ المُتكَلِّمِ، فقولُهُ: «يا ويلَها»: ويل الجِنازَةِ، وكان القياسُ أن يقولَ: «يا ويلي»، فعَدَلَ إلى إضافَةِ الوَيلِ إلى ضَميرِ الغائِبِ؛ حَملًا على المعنى، كَراهَةَ أن يُضيفَ الوَيلَ إلى نَفسِهِ[٢].

قال ابنُ عَلَّانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَفيه إيماءٌ إلى أنَّ الإنسانَ إذا حَكَى ما تُستَقبَحُ إضافَتُهُ للنَّفسِ، يَنبَغي أن يُسنِدَهُ لضَميرِ الغَيبَةِ»[٣].

ومِثلُهُ: ما في الصّحيحِ عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا قَرَأ ابنُ آدَمَ السَّجدَةَ فسَجَدَ، اعتزَلَ الشَّيطانُ يَبكي، يقولُ: يا ويلَهُ، أُمِرَ ابنُ آدَمَ بالسُّجودِ فسَجَدَ، فلَهُ الجَنَّةُ، وأُمِرتُ بالسُّجودِ فأبَيتُ، فلِيَ النارُ**»[٤].

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وقولُهُ**: «**يا ويله**»: هو من آدابِ الكلامِ، وهو أنَّهُ إذا عَرَضَ في الحِكايَةِ عن الغَيرِ ما فيه سوءٌ، واقتَضَتِ الحِكايَةُ رُجوعَ الضَّميرِ إلى المُتكَلِّمِ، صَرَفَ الحاكي الضَّميرَ عن نَفسِهِ؛ تَصاوُنًا عن صورَةِ إضافَةِ السُّوءِ إلى نَفسِهِ»[٥].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ نَبيَّ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**كان فيمَن كان قبلَكُم رَجُلٌ قَتَلَ تِسعَةً وتِسعينَ نَفسًا، فسَأَلَ عن أعلَمِ أهلِ الأرضِ، فدُلَّ على راهِبٍ، فأتاهُ، فقال: إنَّهُ قَتَلَ تِسعَةً وتِسعينَ نَفسًا، فهَل له من تَوبَةٍ ...**» الحديثُ[٦].

«فقال: إنَّهُ قَتَلَ»:

---

(١) رواه البخاري (١٣١٤).

(٢) مرقاة المفاتيح (٣/ ١١٩٣).

(٣) دليل الفالحين (٦/ ٤٢١).

(٤) رواه مسلم (٨١).

(٥) شرح صحيح مسلم (٢/ ٧١).

(٦) رواه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦) -واللفظ له-.

قال ابنُ عَلَّانَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «عَدَلَ إليه عن حِكايَةِ لَفظِهِ، وهوَ: «إنِّي» بضَميرِ المُتكلِّمِ؛ تَنبيهًا على الأدَبِ في حِكايَةِ مِثلِ ذلك، مِمَّا يُكرَهُ النُّطقُ بهِ، فيُؤتَى فيه بضَميرِ الغَيبَةِ»(١).

ومِن ذلك: ما جاءَ في حديثِ وفاةِ أبي طالبٍ: فعن سَعيدِ بنِ المُسَيَّبِ، عن أبيهِ، قال: «لَمَّا حَضَرَت أبا طالبٍ الوَفاةُ(٢)، جاءَهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوَجَدَ عندَهُ أبا جَهلٍ، وعبدَاللهِ بنَ أبي أُمَيَّةَ بنِ المُغيرَةِ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا عَمِّ، قُل: لا إلَهَ إلا اللهُ، كَلِمَةً أشهَدُ لَكَ بها عندَ اللهِ**»، فقال أبو جَهلٍ، وعبدُاللهِ بنُ أبي أُمَيَّةَ: يا أبا طالبٍ، أتَرغَبُ عن مِلَّةِ عبدِالمُطَّلِبِ؟

فَلَم يَزَل رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعرِضُها عليه، ويُعيدُ له تِلكَ المقالةَ، حتى قال أبو طالبٍ -آخِرَ ما كَلَّمَهم-: هو على مِلَّةِ عبدِالمُطَّلِبِ، وأبَى أن يقولَ: لا إلَهَ إلا اللهُ»(٣).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهذا من أحسَنِ الآدابِ والتَّصَرُّفاتِ، وهوَ: أنَّ مَن حَكَى قولَ غَيرِهِ القَبيحَ، أتَى بهِ بضَميرِ الغَيبَةِ؛ لقُبحِ صورَةِ لَفظِهِ الواقِعِ»(٤).

*** وكان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَستَخدِمُ في كَلامِهِ أُسلوبَ السُّؤالِ؛ تَشويقًا للمُستَمِعِ، وتَنبيهًا لَهُ:**

عن أبي عثمانَ، قال: كنتُ مع سَلمانَ الفارِسيِّ تحتَ شَجَرَةٍ، وأخَذَ منها غُصنًا يابِسًا، فهَزَّهُ، حتى تَحاتَّ ورَقُهُ، ثم قال: يا أبا عثمانَ، ألا تَسألُني لِمَ أفعَلُ هَذا؟ قُلتُ: ولِم تَفعَلُهُ؟ فقال: هَكَذا فعَلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنا مَعَهُ تحتَ شَجَرَةٍ، فأخَذَ منها غُصنًا يابِسًا، فهَزَّهُ، حتى تَحاتَّ ورَقُهُ، فقال: «**يا سَلمانُ، ألا تَسألُني لِمَ أفعَلُ هَذا؟**» فقُلتُ: ولِم تَفعَلُهُ؟ قال: «**إنَّ المسلمَ إذا تَوَضَّأَ، فأحسَنَ الوُضوءَ، ثم صَلَّى الصَّلَواتِ الخَمسَ، تَحاتَّت خَطاياهُ، كَما يَتَحاتّ هذا الوَرَقُ. وقال:** ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]»(٥).

---

(١) دليل الفالحين (١/ ١٠٨).

(٢) المراد: قربت وفاته، وحضرت دلائلها، وذلك قبل المعاينة والنَّزع، ولو كان في حال المعاينة والنَّزع، لما نفعه الإيمان.

(٣) رواه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤) -واللفظ له-.

(٤) شرح صحيح مسلم (١/ ٢١٤).

(٥) رواه الإمام أحمد (٢٣٧٠٧)، وحسنه محققو المسند لغيره.

فأرادَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُقدِّمَ بين يَدَيِ المعلومَةِ سُؤالًا، وقَدَّمَ قبلَ السُّؤال تَصويرًا تمثيليًّا، يصوّرُ بِهِ تَساقُطَ الخَطايا، حتى عَرَضَ المعلومَةَ بصورَةٍ تجعَلُها أقرَبَ ما تكونُ إلى الفهمِ، وأبعَدَ ما تكونُ عن النِّسيانِ.

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ السَّاعِديِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّهُ قال: مَرَّ رَجُلٌ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**ما تقولونَ في هَذا؟**»، قالوا: رَجُلٌ من أشرافِ الناسِ، هذا واللهِ حَريٌّ[١] إن خَطَبَ أن يُنكَحَ[٢]، وإن شَفَعَ أن يُشَفَّعَ[٣]، وإن قال أن يُستَمَعَ، ثم سَكَتَ، فمَرَّ رَجُلٌ من فُقَراءِ المسلمينَ، فقال: «**ما تقولونَ في هَذا؟**»، قالوا: هذا رَجُلٌ من فُقَراءِ المسلمينَ، هذا حَريٌّ، إن خَطَبَ أن لا يُنكَحَ، وإن شَفَعَ أن لا يُشَفَّعَ، وإن قال أن لا يُستَمَعَ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَذا خَيرٌ من مِلءِ الأرضِ مِثلَ هَذا**»[٤].

ومِن صوَرِ استِعمال النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للسُّؤال:

قولُهُ للصَّحابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: «**أتَدرونَ ما المُفلِسُ؟**»، قالوا: المُفلِسُ فينا مَن لا دِرهَمَ لَهُ، ولا مَتاعَ، فقال: «**إنَّ المُفلِسَ من أُمَّتي يَأتي يومَ القيامَةِ بصَلاةٍ، وصيامٍ، وزَكاةٍ، ويَأتي قَد شَتَمَ هَذا، وقَذَفَ هَذا، وأكَلَ مالَ هَذا، وسَفَكَ دَمَ هَذا، وضَرَبَ هَذا، فيُعطَى هذا من حَسَناتِهِ، وهذا من حَسَناتِهِ، فإن فنيَت حَسَناتُهُ قبلَ أن يُقضَى ما عليه: أُخِذَ من خَطاياهم، فطُرِحَت عليه، ثم طُرِحَ في النارِ**»[٥].

فَلَم يَفتَتِحِ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلامَهُ بذِكرِ المعلومَةِ مُباشَرَةً؛ بل قَدَّمَ لها بسُؤالٍ، يُنَشِّطُ بِهِ ذِهنَ السَّامِعِ، ويَجعَلُهُ يَستَحضِرُ صورَةَ المُفلِسِ، وما يُعانيهِ من ضيقٍ وكَربٍ.

فكَأنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَّبَ إليهمُ الصُّورَةَ الأُخرَويَّةَ غَيرَ المرئيَّةِ، من خِلال ذِكرِ الصُّورَةِ الدُّنيَويَّةِ المرئيَّةِ.

---

(١) أي: حقيقٌ، وجديرٌ.

(٢) أي: تجاب خطبته.

(٣) تقبل شفاعته.

(٤) رواه البخاري (٥٠٩١).

(٥) رواه مسلم (٢٥٨١).

* وربَّما استعمَلَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كَلامِهِ بعضَ الكلِماتِ، غيرِ العَرَبيَّةِ:

قال جابِرُ بنُ عبدِالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَمَّا حُفِرَ الخَندَقُ، رَأيتُ برسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَمَصًا[١]، فانكَفَأتُ إلى امرَأتي، فقُلتُ لها: هَل عندَكِ شيءٌ، فإنِّي رَأيتُ برسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَمَصًا شَديدًا، فأخرَجَت لي جِرابًا[٢]، فيه صاعٌ من شَعيرٍ، ولَنا بُهَيمَةٌ داجِنٌ[٣]، فذَبَحتُها، وطَحَنَت، ففَرَغَت إلى فراغي، وقَطَّعتُها في بُرمَتِها.

ثم ولَّيتُ إلى رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: لا تَفضَحني برسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومَن مَعَهُ، فجِئتُهُ فسارَرتُهُ، فقُلتُ: يا رسولَ الله، إنَّا قَد ذَبَحنا بُهَيمَةً لَنا، وطَحَنَت صاعًا من شَعيرٍ كان عندَنا، فتَعالَ أنتَ، في نَفَرٍ مَعَكَ[٤].

فَصاحَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «**يا أهلَ الخَندَقِ، إنَّ جابِرًا قَد صَنَعَ لَكُم سورًا، فحَيَّ هَلًا بكُم**».

وقال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تُنزِلُنَّ بُرمَتكُم، ولا تَخبِزُنَّ عَجينَتَكُم حتى أجيءَ**»، فجِئتُ، وجاءَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقدُمُ الناسَ، حتى جِئتُ امرَأتي، فقالت: بكَ، وبِكَ[٥]، فقُلتُ: قَد فعَلتُ الذي قُلتِ لي[٦]، فأخرَجتُ له عَجينَتَنا، فبَصَقَ فيها، وبارَكَ، ثم عَمَدَ إلى بُرمَتِنا، فبَصَقَ فيها، وبارَكَ، ثم قال: «**ادعي خابِزَةً فلتَخبِز مَعَكِ، واقدَحي**[٧] **من بُرمَتِكُم، ولا تُنزِلوها**»، وهم ألفٌ، فأُقسِمُ باللهِ: لَأكَلوا حتى تَرَكوهُ، وانحَرَفوا[٨]، وإنَّ بُرمَتَنا لَتَغِطُّ[٩] كَما هيَ، وإنَّ عَجينَنا لَيُخبَزُ كَما هوَ[١٠].

---

(١) أي: رأيته ضامر البطن من الجوع.

(٢) وهو وعاءٌ من جلدٍ.

(٣) الدَّاجن: ما ألف البيوت.

(٤) فيه: جواز المساررة بالحاجة بحضرة الجماعة، وإنما نهى أن يتناجى اثنان دون الثالث.

(٥) أي: ذمَّته، ودعت عليه.

(٦) معناه: أنى أخبرت النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما عندنا، فهو أعلم بالمصلحة.

(٧) أي: اغرفي، والقدح: المغرفة.

(٨) أي: شبعوا، وانصرفوا.

(٩) أي: تغلي، ويسمع غليانها.

(١٠) رواه البخاري (٤١٠٢)، ومسلم (٢٠٣٩).

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أمَّا السُّورُ: فبِضَمِّ السِّينِ، وإسكانِ الواوِ، غَيرِ مَهموزٍ، وهو الطَّعامُ الذي يُدعَى إليه، وقيل: الطَّعامُ مُطلَقًا، وهي لَفظَةٌ فارِسيَّةٌ، وقد تَظاهَرَت أحاديثُ صَحيحَةٌ بأنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَكَلَّمَ بألفاظٍ غَيرِ العَرَبيَّةِ، فيَدُلُّ على جَوازِهِ»[١].

وقد بَوَّبَ عليه البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ **بقولِهِ**: «بابُ مَن تَكَلَّمَ بالفارِسيَّةِ، والرطانَةِ».

ومِمَّا ورَدَ في استِعمالِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لكَلِماتٍ غَيرِ عَرَبيَّةٍ:**

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ الحَسَنَ بنَ عليٍّ، أخَذَ تَمرَةً من تَمرِ الصَّدَقَةِ، فجَعَلَها في فيه، فقال النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالفارِسيَّةِ: «**كِخ كِخ، أما تَعرِفُ أنَّا لا نَأكُلُ الصَّدَقَةَ؟**»[٢].

قولُهُ: «**كِخ كِخ**»: هيَ كَلِمَةُ زَجرٍ للصَّبيِّ، عَمَّا يُريدُ فِعلَهُ.

وعن أُمِّ خالدِ بنتِ خالدِ بنِ سَعيدِ بنِ العاصِ، قالت: أُتِيَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بثيابٍ فيها خَميصَةٌ سَوداءُ، فقال: «**مَن تَرَونَ نَكسوها هَذِهِ الخَميصَةَ؟**» فأُسكِتَ القَومُ، قال: «**ائتوني بأُمِّ خالدٍ**[٣]»، فأُتِيَ بي النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فألبَسَنيها بيَدِهِ، وقال: «**أبلي، وأخلِقي**[٤]»، مَرَّتَينِ.

فَجَعَلَ يَنظُرُ إلى عَلَمِ الخَميصَةِ، ويُشيرُ بيَدِهِ إلَيَّ، ويقولُ: «**يا أُمَّ خالدٍ، هذا سَنا، ويا أُمَّ خالدٍ، هذا سَنا**»، والسَّنا بلِسانِ الحَبَشيَّةِ: الحَسَنُ[٥].

قال الشَّوكانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَفيه: جَوازُ التَّكَلُّمِ باللُّغَةِ العَجَميَّةِ»[٦].

وقال شَيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالكلِمَةُ بعدَ الكلِمَةِ مِنَ العَجَميَّةِ، أمرُها قَريبٌ، وأكثَرُ ما يَفعَلونَ ذلك، إمَّا لكَونِ المُخاطَبِ أعجَميًّا، أو قَدِ اعتادَ العَجَميَّةَ، يُريدونَ تَقريبَ الأفهامِ عليه.

---

(١) شرح مسلم (١٣/ ٢١٦).

(٢) رواه البخاري (٣٠٧٢)- واللفظ له-، ومسلم (١٠٦٩).

(٣) ولدت بأرض الحبشة، وقدمت مع أبيها بعد خيبر، وهي تعقل.

(٤) «العرب تطلق ذلك، وتريد الدُّعاء بطول البقاء، للمخاطب بذلك، أي: أنها تطول حياتها، حتى يبلى الثوب، ويخلق. قال الخليل: أبل، وأخلق، معناه: عش، وخرِّق ثيابك، وارقعها». فتح الباري (١٠/ ٢٨٠).

(٥) رواه البخاري (٥٨٤٥)، وكانت أمُّ خالدٍ مع أهلها في هجرة الحبشة، فلذلك داعبها النبيُّ صليَّ الله عليه وسلَّم بلهجة أهل الحبشة، التي تفهمها.

(٦) نيل الأوطار (٢/ ١١٨).

وأمَّا اعتيادُ الخِطابِ بغَيرِ اللُّغَةِ العَرَبيَّةِ -التي هيَ شِعارُ الإسلامِ، ولُغَةُ القُرآنِ- حتى يَصيرَ ذلك عادَةً للمِصرِ وأهلِهِ، أو لأهلِ الدَّارِ، أو للرَّجُلِ مع صاحِبِهِ، أو لأهلِ السُّوقِ، أو للأُمَراءِ، أو لأهلِ الدِّيوانِ، أو لأهلِ الفِقهِ: فلا رَيبَ أنَّ هذا مَكروهٌ؛ فإنَّهُ مِنَ التَّشَبُّهِ بالأعاجِمِ، وهو مَكروهٌ؛ ولهذا كان المسلمونَ المُتَقَدِّمونَ لَمَّا سَكَنوا أرضَ الشَّامِ ومِصرَ، ولُغَةُ أهلِها روميَّةٌ، وأرضَ العِراقِ، وخُراسانَ، ولُغَةُ أهلِها فارِسيَّةٌ، وأهل المغرِبِ، ولُغَةُ أهلِها بَربَريَّةٌ، عَوَّدوا أهلَ هَذِهِ البِلادِ العَرَبيَّةَ، حتى غَلَبَت على أهلِ هَذِهِ الأمصارِ: مُسلِمِهِم، وكافِرِهِم»[١].

*** وكان ﷺ لا يَتكَلَّمُ في غَيرِ حاجَةٍ:**

قال الحَسَنُ بنُ عليٍّ: سَألتُ خالي هِندَ بنَ أبي هالَةَ -وكان وصَّافًا- فقُلتُ: صِف لي مَنطِقَهُ؟ قال: «كان رسولُ اللهِ ﷺ لا يَتكَلَّمُ في غَيرِ حاجَةٍ، ويَتكَلَّمُ بجَوامِعِ الكلِمِ، كَلامُهُ فصلٌ، لا فُضولَ، ولا تَقصيرَ»[٢].

«لا يَتكَلَّمُ في غَيرِ حاجَّةٍ»:

أي: من غَيرِ ضَرورَةٍ دينيَّةٍ، أو دُنيَويَّةٍ، فيَتَحَرَّزُ عن الكلامِ بلا فائِدَةٍ.

«لا فُضولَ، ولا تَقصيرَ»:

أي: لا زيادَةَ ولا نُقصانَ في كَلامِهِ ﷺ، فكَلامُهُ بقَدرِ الحاجَةِ، لا طَويلَ مُمِلٌّ، ولا قَصيرَ مُخِلٌّ، **قال القاري** رَحِمَهُ اللهُ: «أي: لا فُضولَ في كَلامِهِ، ولا تَقصيرَ في تَحصيلِ مَرامِهِ»[٣].

*** وكان النبيُّ ﷺ يُكَرِّرُ الكلامَ، إذا دَعَتِ الحاجَةُ لذلك:**

فعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: «أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا تَكَلَّمَ بكَلِمَةٍ، أعادَها ثَلاثًا؛ حتى تُفهَمَ عَنهُ، وإذا أتَى على قَومٍ فسَلَّمَ عليهم، سَلَّمَ عليهم ثَلاثًا»[٤].

---

(١) اقتضاء الصِّراط المستقيم (١/ ٥٢٥).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٤١٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٣٦٢)، وإسناده ضعيفٌ، إلا أن معناه صحيح.

(٣) جمع الوسائل (٢/ ١٢).

(٤) رواه البخاري (٩٥).

وفي رواية: «كان رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعيدُ الكلِمَةَ ثَلاثًا؛ لتُعقَلَ عَنهُ»[١].

«وَإنما كان يُكَرِّرُ الكلامَ ثَلاثًا، والسَّلامَ ثَلاثًا، إذا خَشيَ أن لا يُفهَمَ عَنهُ، أو لا يُسمَعَ سَلامُهُ، أو إذا أرادَ الإبلاغَ في التَّعليمِ، أوِ الزَّجرَ في الموعِظَةِ»[٢].

وقال أبو الحَسَنِ المُبارَكفوريّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمُرادُ: أنَّهُ كان يُكَرِّرُ الكلامَ ثَلاثًا، إذا اقتَضَى المقامُ ذلك؛ لصُعوبَةِ المعنى، أو غَرابَتِهِ، أو كَثرَةِ السَّامِعينَ، لا دائِمًا.

فإنَّ تَكريرَ الكلامِ من غَيرِ حاجَةٍ لتكريرِهِ، ليس مِنَ البَلاغَةِ، فيُحمَلُ الحديثُ على المواضِعِ المُحتاجَةِ إلى الإعادَةِ، لا على العادَةِ، وإلا لَمَّا كان لذِكرِ عَدَدِ الثَّلاثِ -في بعضِ المواضِعِ- كَثيرُ فائِدَةٍ»[٣].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان من هَديِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُسَلِّمَ ثَلاثًا، ولَعَلَّ هذا كان هَديَهُ في السَّلامِ على الجَمعِ الكثيرِ، الذينَ لا يَبلُغُهم سَلامٌ واحِدٌ، أو هَديَهُ في إسماعِ السَّلامِ الثاني، والثالثِ، إن ظَنَّ أنَّ الأولَ لم يَحصُل بهِ الإسماعُ، كما سَلَّمَ لَمَّا انتَهَى إلى مَنزِلِ سَعدِ بنِ عُبادَةَ -ثَلاثًا-، فلَمَّا لم يُجِبهُ أحَدٌ: رَجَعَ.

وإلَّا، فلَو كان هَديُهُ الدَّائِمُ التَّسليمَ ثَلاثًا، لَكان أصحابُهُ يُسَلِّمونَ عليه كَذلك، وكان يُسَلِّمُ على كُلِّ مَن لَقيَهُ ثَلاثًا، وإذا دَخَلَ بَيتَهُ ثَلاثًا، ومَن تَأمَّلَ هَديَهُ، عَلِمَ أنَّ الأمرَ ليس كَذلك، وأنَّ تَكرارَ السَّلامِ كان منه أمرًا عارِضًا، في بعضِ الأحيانِ، واللهُ أعلَمُ»[٤].

* وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رُبَّما كَرَّرَ القولَ؛ تَأكيدًا على أهَمِّيَّةِ ما يقولُهُ:

فعن زَيدِ بنِ أرقَمَ، قال: قامَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -يومًا- فينا خَطيبًا، بماءٍ يُدعَى خُمًّا، بين مَكَّةَ والمدينَةِ، فحَمِدَ اللهَ، وأثنَى عليه، ووَعَظَ، وذَكَّرَ، ثم قال: «**أمَّا بعدُ، ألا أيُّها الناسُ، فإنما أنا بَشَرٌ، يوشِكُ أن يَأتِيَ رسولُ رَبِّي فأُجيبَ، وأنا تارِكٌ فيكُم ثَقَلَينِ: أوَّلُهما: كِتابُ اللهِ،**

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٤٠)، وصححه الألباني.

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطَّالٍ (١/ ١٧٣).

(٣) مرعاة المفاتيح (١/ ٣١٢).

(٤) زاد المعاد (٢/ ٣٨٢).

فيه الهُدَى والنُّورُ، فخُذوا بكِتابِ اللهِ، واستَمسِكوا بهِ»، فحَثَّ على كِتابِ اللهِ، ورَغَّبَ فيه، ثم قال: «**وَأهلُ بَيتي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ في أهلِ بَيتي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ في أهلِ بَيتي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ في أهلِ بَيتي**»[١].

وفي هذا الحديثِ: بَدءُ الكلامِ بحَمدِ اللهِ، والثَّناءِ عليه، كَما هو أدَبُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخِطابِ دائِمًا.

وفيه: الفَصلُ بين الْمُقَدِّمَةِ، وأصلِ الموضوعِ، بقولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أمَّا بعدُ**».

وفيه: النِّداءُ قبلَ الموعِظَةِ، بقولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا أيُّها الناسُ**»، وتُفيدُ التَّنبيهَ، وجَذبَ الانتِباهِ. وقد تَقَدَّمَ الكلامُ على ذلك كُلِّه.

وفيه: وصفُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقُرآنِ بالثِّقَلِ، وقد وصَفَهُ اللهُ بذلك، كَما قال تعالى: ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**﴾ [المزمل: ٥]، والقُرآنُ ثَقيلٌ بما فيه من تَشريعٍ مُتَضَمِّنٍ للأمرِ، والنَّهيِ، والحُدودِ، وغَيرِ ذلك؛ ولِذلك يَحتاجُ إيمانًا قَويًّا، يُعينُ صاحِبَهُ على العَمَلِ بما فيه.

وقولُهُ: «**وَإنِّي تارِكٌ فيكُم ثَقَلَينِ**»:

يعني: كِتابَ اللهِ، وأهلَ بَيتِهِ.

«سَمَّاهما ثَقَلَينِ؛ لأنَّ الأخذَ بهما والعَمَلَ بهما ثَقيلٌ، والعَرَبُ تقولُ لكُلِّ شيءٍ خَطيرٍ نَفيسٍ: ثَقيلٌ؛ وذلك لِحُرمَةِ الشَّيءِ النَّفيسِ، وصُعوبَةِ رَومِ الوُصولِ إليه، فكَأنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما سَمَّى كِتابَ اللهِ، وأهلَ بَيتِهِ: «ثَقَلَينِ»؛ لنَفاسَتِهِما، وعِظَمِ حُرمَتِهِما، وصُعوبَةِ القيامِ بحَقِّهِما»[٢].

وفيه: بَيانُ مَنزِلَةِ أهلِ البَيتِ عندَ أهلِ السُّنَّةِ، وأنَّهم يُحِبُّونَهم، ويَنقُلونَ الأحاديثَ الصَّحيحَةَ في فضلِهِم، ولو كانوا يَكرَهونَهم -كَما يَزعُمُ الرافِضَةُ-، لَمَا امتَلَأت كُتُبُهم ببيانِ فضلِهِم.

ولَقَد كَرَّرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله: «**أُذَكِّرُكُمُ اللهَ في أهلِ بَيتي**»؛ لإفادَةِ التأكيدِ، والْمُبالَغَةِ[٣].

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠٨).

(٢) المفهم (٢٠/ ٥٠).

(٣) فيض القدير (٢/ ١٧٤)، مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٩٦٧).

*** وكان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رُبَّما كَرَّرَ بعضَ الكلامِ مِرارًا؛ وذلك لمُقتضَى الحال:**

فعن أُسامَةَ بنِ زَيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: بَعَثَنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الحُرَقَةِ، فصَبَّحنا القَومَ فهَزَمناهم، ولَحِقتُ أنا ورَجُلٌ مِنَ الأنصارِ رَجُلًا منهم، فلَمَّا غَشيناهُ، قال: لا إلَهَ إلا اللهُ، فكَفَّ الأنصاريُّ، فطَعَنتُهُ برُمحي، حتى قَتَلتُهُ، فلَمَّا قَدِمنا بَلَغَ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**يا أُسامَةُ، أقَتَلتَهُ بعدَ ما قال: لا إلَهَ إلا اللهُ؟!**» قُلتُ: كان مُتعَوِّذًا، فما زالَ يُكَرِّرُها، حتى تَمَنَّيتُ أنِّي لم أكُن أسلَمتُ قبلَ ذلك اليومِ[1].

أي: تمنيت أنَّ إسلامي كان ذلك اليومَ؛ لأنَّ الإسلامَ يَجُبُّ ما قبلَهُ، فتَمَنَّى أن يكونَ ذلك الوَقتُ أوَّلَ دُخولِهِ في الإسلامِ؛ ليَأمَنَ من جَريرَةِ تِلكَ الفَعلَةِ، ولم يُرِد أنَّهُ تَمَنَّى أن لا يكونَ مُسلِمًا قبلَ ذلك»[2].

وعن أبي بكرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا أُنَبِّئُكُم بأكبَرِ الكبائِرِ؟ ألا أُنَبِّئُكُم بأكبَرِ الكبائِرِ؟ ألا أُنَبِّئُكُم بأكبَرِ الكبائِرِ؟**».

- قالوا: بَلَى يا رسولَ اللهِ.

- قال: «**الإشراكُ باللهِ، وعُقوقُ الوالدَينِ** -وجَلَسَ، وكان مُتَّكِئًا، فقال:- **ألا وقولُ الزُّورِ**»، فما زالَ يُكَرِّرُها حتى قُلنا: لَيتَهُ سَكَتَ[3].

فَجُلوسُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لاهتِمامِهِ بهذا الأمر، وهو يُفيدُ تَأكيدَ تَحريمِهِ، وعِظَمَ قُبحِهِ، وأمَّا قولُهُم: «لَيتَهُ سَكَتَ»، فإنما قالوهُ، وتَمَنَّوهُ؛ شَفَقَةً على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكَراهَةً لما يُزعِجُهُ، ويُغضِبُهُ.

ولا يَخفَى ما للتَّكرارِ من أثَرٍ في تَرسيخِ الأفكارِ والقِيَمِ في النُّفوسِ.

وقد أثبَتَتِ الدِّراساتُ النَّفسيَّةُ الحديثَةُ، أهَمِّيَّةَ التَّكرارِ في إقناعِ الناسِ بالآراءِ والأفكارِ، كما أنَّ تكرارَ المعلوماتِ والحَقائِقِ، يَعمَلُ على تَثبيتِها في العُقولِ.

---

(١) رواه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦).

(٢) فتح الباري (١٢/ ١٩٦).

(٣) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

* **وكان النبيُّ ﷺ، رُبَّما كَرَّرَ الموعِظَةَ الواحِدَةَ، مَرَّاتٍ عَديدَةً:**

فعن عَمرِو بنِ عَبَسَةَ السُّلَميِّ رضي الله عنه، قال: قُلتُ: يا نَبيَّ اللهِ، أخبِرني عَمَّا عَلَّمَكَ اللهُ، وأجهَلُهُ، أخبِرني عن الصَّلاةِ.

وساقَ الحديثَ، في فضلِ الصّلاةِ، والوُضوءِ، إلى أن قال:

فَحَدَّثَ عَمرو بنُ عَبَسَةَ بهذا الحديثِ أبا أُمامَةَ صاحِبَ رسولِ الله ﷺ، فقال له أبو أُمامَةَ: يا عَمرو بنُ عَبَسَةَ، انظُر ما تقولُ: في مَقامٍ واحِدٍ يُعطَى هذا الرجُلُ؟!

فقال عَمرٌو: يا أبا أُمامَةَ، لَقَد كَبِرَت سِنِّي، ورَقَّ عَظمي، واقتَرَبَ أجَلي، وما بي حاجَةٌ أن أكذِبَ على اللهِ، ولا على رسولِ اللهِ.

لَو لم أسمَعهُ من رسولِ الله ﷺ، إلا مَرَّةً، أو مَرَّتَينِ، أو ثَلاثًا- حتى عَدَّ سَبعَ مَرَّاتٍ- ما حَدَّثتُ بِهِ أبَدًا، ولكِني سمعتُهُ أكثَرَ من ذلك[١].

فهذا صَحابيٌّ واحِدٌ، سَمِعَ مَوعِظَةً واحِدَةً مِنَ النبيِّ ﷺ، أكثَرَ من سَبعِ مَرَّاتٍ، وتَكرارُ الموعِظَةِ أمرٌ شَديدُ الأهَمِّيَّةِ، فمَن لم يَحضُرِ المرَّةَ الأولى يَحضُرِ الثانيَةَ، ومَن لم يَحضُرِ الثانيَةَ يَحضُرِ الثالثَةَ، وهَكَذا.

ومَن حَضَرَها أكثَرَ من مَرَّةٍ، فهو أدعَى إلى الثَّباتِ في الذِّهنِ، كَما أنَّ التَّكرارَ يُؤَكِّدُ على أهَمِّيَّةِ الأمرِ، وعِظَمِهِ.

* **وكان النبيُّ ﷺ، رُبَّما كَرَّرَ النّداءَ؛ تَشويقًا للسَّامِعِ، ولَفتًا لانتِباهِهِ:**

عن مُعاذِ بنِ جَبَلٍ رضي الله عنه، قال: كنتُ رَديفَ النبيِّ ﷺ، ليس بَيني وبينهُ، إلا مُؤخِرَةُ الرحلِ، فقال: «**يا مُعاذُ بنَ جَبَلٍ**».

قُلتُ: لَبَّيكَ رسولَ اللهِ، وسَعدَيكَ.

ثم سارَ ساعَةً، ثم قال: «**يا مُعاذُ بنَ جَبَلٍ**».

قُلتُ: لَبَّيكَ رسولَ اللهِ، وسَعدَيكَ.

---

(١) رواه مسلم (٨٣٢).

ثم سارَ ساعَةً، ثم قال: «**يا مُعاذُ بنَ جَبَلٍ**».

قُلتُ: لَبَّيكَ رسولَ الله، وسَعدَيكَ.

قال: «**هَل تَدري ما حَقُّ اللهِ على العِبادِ؟**».

قُلتُ: اللهُ ورسولُهُ أعلَمُ.

قال: «**فإنَّ حَقَّ اللهِ على العِبادِ أن يَعبُدوهُ، ولا يُشرِكوا بهِ شَيئًا**».

ثم سارَ ساعَةً فقال: «**يا مُعاذُ بنَ جَبَلٍ**».

قُلتُ: لَبَّيكَ رسولَ الله، وسَعدَيكَ.

قال: «**هَل تَدري ما حَقُّ العِبادِ على اللهِ إذا فعَلوا ذلك؟**».

قُلتُ: اللهُ ورسولُهُ أعلَمُ.

قال: «أن لا يُعَذِّبَهم»[١].

فكان يُكَرِّرُ النِّداءَ بـ «يا مُعاذُ بنَ جَبَلٍ»؛ تَشويقًا لَهُ، ومُبالَغَةً في التَّشويقِ كان يَجعَلُ بين كُلِّ نِداءٍ والآخَرِ، فترَةً مِنَ الزَّمَنِ، كَما في الحديثِ: «ثم سارَ ساعَةً».

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأمَّا تكريرُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِداءَ مُعاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فلِتأكيدِ الاهتِمامِ بما يُخبِرُهُ، وليَكمُلَ تَنَبُّهُ مُعاذٍ فيما يَسمَعُهُ»[٢].

* ومن أدَبِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كَلامِهِ: التَّسبيحُ عندَ التَّعَجُّبِ:

كَما في حديثِ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: استَيقَظَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاتَ لَيلَةٍ، فقال: «**سُبحانَ اللهِ! ماذا أُنزِلَ اللَّيلَةَ مِنَ الفِتَنِ؟! وماذا فُتِحَ مِنَ الخَزائِنِ؟! أيقِظوا صَواحِباتِ الحُجَرِ، فرُبَّ كاسيَةٍ في الدُّنيا، عاريَةٍ في الآخِرَةِ**»[٣].

---

(١) رواه البخاري (٦٢٦٧)، ومسلم (٣٠).

(٢) شرح صحيح مسلم (١/ ٢٣١).

(٣) رواه البخاري (١١٥).

وكما في تَعَجُّبِهِ من قولِ أبي هريرة رضي الله عنه: كَرِهتُ أن أُجالسَكَ، وأنا على غَيرِ طَهارَةٍ، فقال: «**سُبحانَ اللهِ ! إنَّ المسلمَ لا يَنجُسُ**»(١).

ولَمَّا قيل لَهُ: يا رسولَ اللهِ، ويُغني الدَّواءُ شَيئًا؟ فقال: «**سُبحانَ اللهِ! وهَل أنزَلَ اللهُ من داءٍ في الأرضِ، إلا جَعَلَ له شِفاءً**»(٢).

ولَمَّا سَمِعَ بَخَبَرِ المرأةِ الأسيرَةِ، التي هَرَبَت على العَضباءِ، ناقَةِ رسولِ اللهِ ﷺ، ونَذَرَت: إن نَجَّاها اللهُ عليها لَتَنحَرَنَّها، قال: «**سُبحانَ اللهِ! بئسَما جَزَتها؛ نَذَرَت للهِ إن نَجَّاها اللهُ عليها لَتنحَرَنَّها! لا وفاءَ لنَذرٍ في مَعصيَةٍ، ولا فيما لا يَملِكُ العبدُ**»(٣).

* وكان ربما كبر، عندَ سَماع أو رؤية ما يَسُرُّ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: شَهِدنا مع رسولِ اللهِ ﷺ، فقال لرَجُلٍ مِمَّن يَدَّعي الإسلامَ: «**هَذا من أهلِ النارِ**».

فلَمَّا حَضَرَ القِتالُ، قاتَلَ الرجُلُ قِتالًا شَديدًا، فأصابَتهُ جِراحَةٌ.

فَقيل: يا رسولَ اللهِ، الذي قُلتَ لَهُ: إنَّهُ من أهلِ النارِ، فإنَّهُ قَد قاتَلَ اليومَ قِتالًا شَديدًا، وقد ماتَ.

فقال النبيُّ ﷺ: «**إلى النارِ**».

فَكادَ بعضُ الناسِ أن يَرتابَ، فبينما هم على ذلك؛ إذ قيل: إنَّهُ لم يَمُت، ولكن بِهِ جِراحًا شَديدًا.

فلَمَّا كان مِنَ اللَّيلِ لم يَصبِر على الجِراحِ، فقَتَلَ نَفسَهُ، فأُخبِرَ النبيُّ ﷺ بذلك، فقال: «**اللهُ أكبَرُ، أشهَدُ أنِّي عبدُ اللهِ، ورسولُهُ**» ثم أمَرَ بلالًا، فنادَى بالناسِ: «**إنَّهُ لا يَدخُلُ الجَنَّةَ إلا نَفسٌ مُسلِمَةٌ، وإنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هذا الدِّينَ بالرجُلِ الفاجِرِ**»(٤).

---

(١) رواه البخاري (٢٨٣)، ومسلم (٣٧١).

(٢) رواه أحمد (٢٣١٥٦)، وصححه محققو المسند.

(٣) رواه مسلم (١٦٤١).

(٤) رواه البخاري (٣٠٦٢)، ومسلم (١١١).

ولَمَّا وصَلَ خَيبَرَ، ورَأى الناسَ يَخرُجونَ بمَساحيهِم: كَبَّرَ، قال أنسٌ: فلمَّا دَخَلَ القَريَةَ، قال: «**اللهُ أكبَرُ، اللهُ أكبَرُ، خَرِبَت خَيبَرُ، إنَّا إذا نَزَلنا بساحَةِ قَومٍ، فساءَ صَباحُ المُنذَرينَ**»(١).

* ومِن سَمتِهِ وأدَبِهِ ﷺ: خَفضُ الصَّوتِ، إذا اقتَضى الحالُ ذلك:

فكَما كان ﷺ يَرفَعُ صَوتَهُ مَتى اقتَضى الحالُ ذلك، كان -كَذلك- يَخفِضُ صَوتَهُ عندَما يَقتَضي الحالُ خَفضَ الصَّوتِ، كَما في حديثِ المِقدادِ، لَمَّا نَزَلَ ضَيفًا -هوَ، وصاحِباه- على النبيِّ ﷺ، قال المِقدادُ: «... فيَجيءُ مِنَ اللَّيلِ، فيُسَلِّمُ تَسليمًا، لا يوقِظُ نائِمًا، ويُسمِعُ اليَقظانَ»(٢).

قال ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هَذا من أحسَنِ الأدَبِ؛ لأنَّهُ يُسمِعُ المُنتَبِهَ، ولا يُزعِجُ النائِمَ»(٣).

* وكان النبيُّ ﷺ يَستَعينُ بالوَسائِلِ التَّوضيحيَّةِ؛ لبَيانِ المُرادِ من كَلامِهِ، كَما في استِعمالِهِ الرسمَ:

فعن عبدِاللهِ بن مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: خَطَّ النبيُّ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا، وخَطَّ خَطًّا في الوَسَطِ، خارِجًا منه، وخَطَّ خُطَطًا صِغارًا، إلى هذا الذي في الوَسَطِ، من جانِبِهِ الذي في الوَسَطِ، وقال:

«**هَذا الإنسانُ، وهذا أجَلُهُ مُحيطٌ بهِ**- أو: **قَد أحاطَ بهِ**- **وهذا الذي هو خارِجٌ: أمَلُهُ، وهذه الخُطَطُ الصِّغارُ: الأعراضُ، فإن أخطَأَهُ هذا نَهَشَهُ هَذا، وإن أخطَأَهُ هذا نَهَشَهُ هَذا**»(٤).

والمُرادُ بالأعراضِ: الآفاتُ العارِضَةُ لَهُ، فإن سَلِمَ من هَذا، لم يَسلَم من هَذا، وإن سَلِمَ مِنَ الجَميعِ، ولم تُصِبهُ آفَةٌ من مَرَضٍ، أو فقدِ مالٍ، أو غَيرِ ذلك: بَغتَهُ الأجَلُ.

وعن عبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: خَطَّ لَنا رسولُ اللهِ ﷺ خَطًّا، ثم قال:

---

(١) رواه البخاري (٦١٠)، ومسلم (١٣٦٥).

(٢) رواه مسلم (٢٠٥٥).

(٣) كشف المشكل (٤/ ٢٧).

(٤) رواه البخاري (٦٤١٧).

«هَذا سَبيلُ اللهِ»، ثم خَطَّ خُطوطًا عن يَمينِهِ، وعن شِمالِهِ، ثم قال: **«هَذِهِ سُبُلٌ مُتفَرِّقةٌ، على كُلِّ سَبيلٍ منها شَيطانٌ يَدعو إليه، ثم قَرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾** [الأنعام: ١٥٣]»[١].

* وكان يَستَعمِلُ في كَلامِهِ ضَربَ الأمثال كَثيرًا:

وذلك بهَدَفِ إبرازِ المعاني في صورَةٍ مُجَسَّمَةٍ؛ لتَوضيحِ الغامِضِ، وتَقريبِ البَعيدِ، وإظهارِ المعقولِ في صورَةِ المحسوسِ، فمِن ذلك:

- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّهُ سَمِعَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: **«إنما مَثَلي ومَثَلُ الناسِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ استَوقد نارًا، فلمَّا أضاءَت ما حَولَهُ، جَعَلَ الفَراشُ وهذه الدَّوابُّ التي تَقَعُ في النارِ يَقَعنَ فيها، فجَعَلَ يَنزِعُهُنَّ، ويَغلِبنَهُ فيَقتَحِمنَ فيها، فأنا آخُذُ بحُجَزِكُم عن النارِ، وهم يَقتَحِمونَ فيها»**[٢].
- وعن أبي موسَى الأشعَريِّ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَثَلُ القَلبِ مَثَلُ الرِّيشَةِ، تُقَلِّبُها الرِّياحُ بفَلاةٍ»**[٣].
- وعن أبي موسَى، عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: **«مَثَلُ البَيتِ الذي يُذكَرُ اللهُ فيه، والبَيتِ الذي لا يُذكَرُ اللهُ فيه، مَثَلُ الحَيِّ والميِّتِ»**[٤].

والأمثالُ النبويَّةُ كَثيرَةٌ جِدًّا، وقد أُلِّفَت فيها مُصَنَّفاتٌ كَثيرَةٌ.

* وكان يَستَخدِمُ التَّشبيهاتِ في كَلامِهِ:

فعن عبدِاللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إنَّ الإيمانَ لَيَخلَقُ في جَوفِ أحَدِكُم، كَما يَخلَقُ الثَّوبُ الخَلَقُ، فاسألوا اللهَ أن يُجَدِّدَ الإيمانَ في قُلوبِكُم»**[٥].

---

(١) رواه أحمد (٤١٤٢)، وحسنه محققو المسند.

(٢) رواه البخاري (٦٤٨٣)، ومسلم (٢٢٨٤).

(٣) رواه ابن ماجه (٨٨)، وصححه الألباني.

(٤) رواه مسلم (٧٧٩)، ورواه البخاري (٦٤٠٧)، ولفظه: «مثل الذي يذكر ربَّه، والذي لا يذكر ربَّه، مثل الحيِّ والميِّت».

(٥) رواه الحاكم (٥)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٥٨٥).

قال المُناويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «شبَّهَ الإيمانَ بالشِّيءِ الذي لا يَستَمرُّ على هَيئَتِهِ، والعَبدُ يَتكلَّمُ بكلِمَةِ الإيمانِ، ثُمّ يُدنِّسُها بسوءِ أفعالِهِ، فإذا عادَ واعتَذَرَ: فقَد جَدَّدَ ما أخلَقَ، وطَهَّرَ ما دَنَّسَ»(١).

وعن جُندُبِ بنِ عَبدِ اللهِ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَثَلُ العالِمِ الذي يُعَلِّمُ الناسَ الخَيرَ، ويَنسَى نَفسَهُ، كَمَثَلِ السِّراجِ: يُضيءُ للنَّاسِ، ويَحرِقُ نَفسَهُ**»(٢).

قال الصّنعانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**في الحديثِ**: الحَثُّ على العَمَلِ بالعِلمِ، ولا يَكونُ العالمُ مِنَ الذينَ يَقولونَ ما لا يَفعَلونَ، فقد مَقَتَ اللهُ أولَئِكَ أكبَرَ مَقتٍ، **وفيه**: إعلامٌ بأنَّ الجاهِلَ في ظُلمَةٍ، والعِلمَ نورٌ، يُضيءُ لصاحِبِهِ»(٣).

*** وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَستَعمِلُ الإشاراتِ؛ ليُمَثِّلَ الصُّورَةَ المُراد بَيانها في كَلامِهِ، وليُقَرِّبَها للنَّاسِ:**

- فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ المُؤمِنَ للمُؤمِنِ كالبُنيانِ، يَشُدُّ بعضُهُ بعضًا**»، وشَبَّكَ أصابِعَهُ(٤).
- وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بُعِثتُ أنا والسَّاعَةُ كَهاتَينِ**» وضَمَّ السَّبَّابَةَ، والوُسطَى(٥).
- وعن سُفيانَ بنِ عبدِاللهِ الثَّقَفيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قُلتُ يا رسولَ اللهِ، حَدِّثني بأمرٍ أعتَصِمُ بهِ، قال: «**قُل: رَبِّيَ اللهُ، ثم استَقِم**»، قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، ما أخوَفُ ما تَخافُ عَلَيَّ؟ فأخَذَ بلِسانِ نَفسِهِ، ثم قال: «**هَذا**»(٦).
- وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**التَّقوَى هاهُنا**»، ويُشيرُ إلى صَدرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ(٧).

هَذِهِ الإشاراتُ تُعينُ على الفهمِ، وتُثبِّتُ المعنَى، وتمنَعُ تَوَهُّمَ المجازِ في الكلامِ، وسَيأتي المزيدُ مِنَ الحديثِ عن ذلك إن شاءَ اللهُ.

---

(١) فيض القدير (٢/ ٣٢٤).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٦٨١)، وصححه الألباني، وأعل بالوقف.

(٣) التنوير (٩/ ٥٢٤).

(٤) رواه البخاري (٤٨١) -واللفظ له- ومسلم (٢٥٨٥).

(٥) رواه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١).

(٦) رواه مسلم (٣٨)، والترمذي (٢٤١٠)- واللفظ له- وصححه الألباني.

(٧) رواه مسلم (٢٥٦٤).

❊ وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَستَعمِلُ مع أصحابِهِ، أُسلوبَ الحِوارِ، والسُّؤال، والجَوابِ:

فعنِ ابنِ عمرَ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لا يَسقُطُ ورَقُها، وإنَّها مَثَلُ المُسلم، فحَدِّثوني ما هي؟**» فوقَعَ الناسُ في شَجَرِ البَوادي، قال عبدُاللهِ: ووَقَعَ في نَفسي أنَّها النَّخلَةُ، فاستَحيَيتُ، ثم قالوا: حَدِّثنا ما هيَ يا رسولَ اللهِ، قال: «**هيَ النَّخلَةُ**»[1].

ومِثلُ هذا الأُسلوبِ، يُنَشِّطُ الذِّهنَ، ويُفَتِّحُ مَدارِكَ العَقلِ، ويَستدعي مَزيدَ الانتِباهِ.

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إيَّاكُم والجُلوسَ على الطُّرُقاتِ**»، فقالوا: ما لَنا بُدٌّ، إنما هيَ مَجالسُنا، نَتَحَدَّثُ فيها، قال: «**فإذا أبَيتُم إلا المجالسَ، فأعطوا الطَّريقَ حَقَّها**»، قالوا: وما حَقُّ الطَّريقِ؟ قال: «**غَضُّ البَصَرِ، وكَفُّ الأذَى، ورَدُّ السَّلامِ، وأمرٌ بالمعروفِ، ونَهيٌ عن المُنكَرِ**»[2].

فهذا الحِوارُ كَشَفَ عن المقصودِ الشّرعيِّ مِنَ النّهيِ عن الجُلوسِ في الطُّرُقاتِ، وأنَّهُ ليس لُمجرّدِ الجُلوسِ، وإنما هو لتَجنُّبِ القَولِ المُنكَرِ، والفِعلِ السُّوءِ، ولِحفظِ عَوراتِ المُسلمينَ، وغَيرِ ذلك مِنَ المصالحِ.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذا الحديثُ كَثيرُ الفوائِدِ، وهو مِنَ الأحاديثِ الجامِعَةِ، وأحكامُهُ ظاهِرَةٌ، ويَنبَغي أن يُجتَنَبَ الجُلوسُ في الطُّرُقاتِ لهذا الحديثِ، ويَدخُلُ في كَفِّ الأذَى: اجتِنابُ الغيبَةِ، وظَنِّ السُّوءِ، وإحقارِ بعضِ المارِّينَ، وتَضييقِ الطَّريقِ، وكذا إذا كان القاعِدونَ مِمَّن يَهابُهُمُ المارُّونَ، أو يَخافونَ منهم، ويَمتَنِعونَ مِنَ المُرورِ في أشغالِهِم بسببِ ذلك؛ لكَونِهِم لا يَجدونَ طَريقًا، إلا ذلك الموضِعَ»[3].

❊ وكثيرًا ما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُصُّ على أصحابِهِ، مِنَ القَصَصِ النافِعِ:

وقد قَصَّ على أصحابِهِ العَديدَ من قَصَصِ السَّابِقينَ والماضينَ، كَقِصَّةِ جُرَيجٍ العابِدِ،

---

(١) رواه البخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١).

(٢) رواه البخاري (٢٤٦٥)، ومسلم (٢١٢١).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٠٢).

وقِصَّةِ أصحابِ الغارِ، وقِصَّةِ قاتِلِ المِائَةِ نَفسٍ، وقِصَّةِ مَن تكلَّمَ في المهدِ، وقِصَّةِ جَرَّةِ الذَّهَبِ، وقِصَّةِ الأبرَصِ، والأقرَعِ، والأعمَى... وغيرها كَثيرٌ.

*** وكان يَستَعمِلُ التَّورِيَةَ في كَلامِهِ، إذا احتاجَ إلى ذلك:**

والتَّورِيَةُ: أن يَتكَلَّمَ المُتكَلِّمُ، بلَفظٍ يَحتَمِلُ مَعنَيَينِ: أحَدُهما قَريبٌ، والآخَرُ بَعيدٌ، يُريدُ هو المعنى البَعيدَ، بينما السَّامِعُ يَظُنُّ أنَّهُ يُريدُ المعنى القَريبَ.

فكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رُبّما ورّى في كَلامِهِ؛ للمَصلَحَةِ، ولا يقولُ في تَورِيَتِهِ إلا حَقًّا.

ولَم تَكُنِ التَّورِيَةُ سِمَةً غالبَةً عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إنما كانت عارِضَةً لَهُ في الحُروبِ، وما شابَهَ ذلك، فعن كَعبِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «**لَم يَكُن رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُريدُ غَزوَةً، إلا ورَّى بغَيرِها**»(١).

«أي: سَتَرَها بغَيرِها، وأظهَرَ أنَّهُ يُريدُ غيرَها؛ لما فيه مِنَ الحَزمِ، وإغفال العَدوِّ، والأمنِ من جاسوسٍ يَطَّلِعُ على ذلك، فيُخبِرُ بِهِ العَدوَّ، وتَورِيَتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان تَعريضًا بأن يُريدَ -مَثَلًا- غزوَةَ مَكَّةَ، فيَسأل الناسَ عن حال خَيبَرَ، وكَيفيَّةِ طُرُقِها، لا تَصريحًا بأن يقولَ: إنِّي أُريدُ غَزوَةَ أهلِ الموضِعِ الفُلانيِّ، وهو يُريدُ غَيرَهم؛ لأنَّ هذا كَذِبٌ غَيرُ جائزٍ»(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يورِّي، ولا يقولُ في تَورِيَتِهِ إلا الحَقَّ، مِثلَ أن يُريدَ جِهَةً يَقصِدُها، فيَسأَلَ عن غَيرِها: كَيفَ طَريقُها؟ وكَيفَ مياهُها، ومَسلَكُها؟ أو نَحوَ ذلك»(٣).

*** ومِن أدَبِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الكلامِ: أنَّهُ كان إذا كَرِهَ شَيئًا، ذَكَرَ كَراهيَتَهُ، ولم يُعَيِّن فاعِلَهُ:**

قالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: كان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا بَلَغَهُ عن الرجُلِ الشَّيءَ، لم يَقُل: ما بالُ فُلانٍ يقولُ؟ ولكن يقولُ: «**ما بالُ أقوامٍ يقولونَ كَذا، وكذا؟**»(٤).

---

(١) رواه البخاري (٢٩٤٧)، ومسلم (٢٧٦٩).

(٢) مرقاة المفاتيح (٦/ ٢٥٣٥).

(٣) زاد المعاد (١/ ١٥٧).

(٤) رواه أبوداود (٤٧٨٨)، وصححه الألباني.

وقالت -أيضًا- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: صَنَعَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيئًا، فرَخَّصَ فيه، فتَنَزَّهَ عنه قَومٌ، فبَلَغَ ذلك النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخَطَبَ، فحَمِدَ اللهَ، ثم قال: «**ما بالُ أقوامٍ يَتَنَزَّهونَ عن الشَّيءِ أصنَعُهُ؟ فواللهِ إنِّي لَأعلَمُهم باللهِ، وأشَدُّهم له خَشيَةً**»[١].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -عن قَومِ بَريرَةَ-: «**ما بالُ أقوامٍ يَشتَرِطونَ شُروطًا، ليست في كِتابِ اللهِ؟ مَنِ اشتَرَطَ شَرطًا ليس في كِتابِ اللهِ فليس لَهُ، وإن اشتَرَطَ مِائَةَ مَرَّةٍ**»[٢].

وقال: «**ما بالُ أقوامٍ يَرفَعونَ أبصارَهم إلى السَّماءِ في صَلاتِهِم، لَيَنتَهُنَّ عن ذلك، أو لَتُخطَفَنَّ أبصارُهم**»[٣].

وقال: «**ما بالُ العامِلِ نَبعَثُهُ، فيَأتي يقولُ: هذا لَكَ، وهذا لي، فهَلَّا جَلَسَ في بَيتِ أبيهِ وأُمِّهِ، فيَنظُرُ: أيُهدَى لَهُ، أم لا؟**»[٤].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ **في هذا الصَّنيعِ منه** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هوَ موافِقٌ للمَعروفِ من خُطَبِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في مِثلِ هَذا: أنَّهُ إذا كَرِهَ شَيئًا فخَطَبَ لَهُ، ذَكَرَ كَراهيَتَهُ، ولا يُعَيِّنُ فاعِلَهُ، وهذا من عَظيمِ خُلُقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنَّ المقصودَ من ذلك: الشَّخصُ، وجَميعُ الحاضِرينَ، وغَيرُهم، مِمَّن يَبلُغُهُ ذلك، ولا يَحصُلُ تَوبيخُ صاحِبِهِ في المَلأِ»[٥].

* وربّما تَخَلَّلَ كَلامَهُ شيءٌ يَسيرٌ مِنَ المُزاحِ الطَّريفِ:

فَعنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنِّي لَأمزَحُ، ولا أقولُ إلا حَقًّا**»[٦].

---

(١) رواه البخاري (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦).

(٢) رواه البخاري (٤٥٦)، ومسلم (١٥٠٤).

(٣) رواه البخاري (٧٥٠).

(٤) رواه البخاري (٧١٧٤)، ومسلم (١٨٣٢).

(٥) شرح صحيح مسلم (٩/ ١٧٦).

(٦) رواه الطبراني في الكبير (١٣٤٤٣)، وقال الهيثميُّ في المجمع (٨/ ٨٩): «إسناده حسنٌ»، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٩٤).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يُمازِحُ**، ويقولُ في مُزاحِهِ الحَقَّ»(١).

ومِنَ الأمثِلَةِ على مُزاحِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

عنِ الحَسَنِ، قال: أتَت عَجوزٌ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: يا رسولَ اللهِ، ادعُ اللهَ أن يُدخِلَني الجَنَّةَ، فقال: «**يا أُمَّ فُلانٍ، إنَّ الجَنَّةَ لا تدخُلُها عَجوزٌ**»، قال: فوَلَّت تَبكي، فقال: «**أخبِروها أنَّها لا تَدخُلُها، وهي عَجوزٌ**؛ إنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿**إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا**﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٧]»(٢).

وعن أنسِ بنِ مالكٍ، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يَدخُلُ على أُمِّ سُلَيمٍ، ولَها ابنٌ من أبي طَلحَةَ، يُكنَى أبا عُمَيرٍ، وكان يُمازِحُهُ، فدَخَلَ عليه، فرَآهُ حَزينًا، فقال: «**مالي أرَى أبا عُمَيرٍ حَزينًا؟**» فقالوا: ماتَ نُغَرُهُ(٣) الذي كان يَلعَبُ بهِ، قال: فجَعَلَ يقولُ: «**أبا عُمَيرٍ، ما فعَلَ النُّغَيرُ؟**»(٤).

❋ وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رُبَّما سارَّ بكَلامِهِ بعضَ الناسِ دونَ بعضٍ:

فعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **دَعا فاطمةَ ابنَتَهُ، فسارَّها فبكَت، ثم سارَّها فضَحِكَت.**

فقالت عائشةُ: «فَقُلتُ لفاطمةَ: ما هذا الذي سارَّكِ بهِ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبكَيتِ، ثم سارَّكِ فضَحِكتِ؟

قالت: سارَّني فأخبَرَني بمَوتِهِ، فبكَيتُ، ثم سارَّني فأخبَرَني أنِّي أوَّلُ مَن يَتبَعُهُ من أهلِهِ، فضَحِكتُ»(٥).

---

(١) زاد المعاد (١/ ١٥٧).

(٢) رواه الترمذي في الشَّمائل (٢٤١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٩٨٧)، بشواهده.

(٣) طائرٌ صغيرٌ.

(٤) رواه البخاري (٦٢٠٣)، ومسلم (٢١٥٠)، وأحمد (١٢٩٥٧)، واللفظ له.

(٥) رواه البخاري (٣٦٢٥)، ومسلم (٢٤٥٠).

وعن عبدِالله بنِ عمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «أنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ، حينَ تأيَّمت حفصَةُ بنتُ عمرَ، من خُنَيسِ بنِ حُذافةَ السَّهميِّ، وكان من أصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قد شَهِدَ بَدرًا، توُفِّيَ بالمدينَةِ، قال عمرُ: فلَقيتُ عثمانَ بنَ عفَّانَ، فعَرَضتُ عليه حَفصَةَ، فقُلتُ: إن شِئتَ أنكَحتُكَ حَفصَةَ بنتَ عمرَ، قال: سَأنظُرُ في أمري، فلَبِثتُ لَياليَ، فقال: قَد بَدا لي أن لا أتزَوَّجَ يومي هَذا، قال عمرُ: فلَقيتُ أبا بكرٍ، فقُلتُ: إن شِئتَ أنكَحتُكَ حَفصَةَ بنتَ عمرَ، فصَمَتَ أبو بكرٍ، فلَم يَرجِع إلَيَّ شَيئًا، فكنتُ عليه أوجَدَ مِنِّي على عثمانَ، فلَبِثتُ لَياليَ ثم خَطَبَها رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأنكَحتُها إيَّاهُ، فلَقيَني أبو بكرٍ، فقال: لَعَلَّكَ وجَدتَ عَلَيَّ حينَ عَرَضتَ عَلَيَّ حَفصَةَ، فلَم أرجِع إلَيكَ، قُلتُ: نعم، قال: فإنَّهُ لم يَمنَعني أن أرجِعَ إلَيكَ فيما عَرَضتَ، إلا أنِّي قَد عَلِمتُ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَد ذَكَرَها، فلَم أكُن لأُفشيَ سِرَّ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو تَرَكَها، لَقَبِلتُها»[١].

وعن عبدِالله بنِ جعفرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «أردَفَني رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاتَ يومٍ خَلفهُ، فأسَرَّ إلَيَّ حديثًا، لا أُحَدِّثُ بِهِ أحَدًا مِنَ الناسِ»[٢].

وعن أنسٍ، قال: «أتى عَلَيَّ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنا ألعَبُ مع الغِلمانِ، قال: فسَلَّمَ عَلَينا، فبَعَثَني إلى حاجَةٍ، فأبطَأتُ على أُمِّي، فلَمَّا جِئتُ قالت: ما حَبَسَكَ؟ قُلتُ بَعَثَني رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحاجَةٍ، قالت: ما حاجَتُهُ؟ قُلتُ: إنَّها سِرٌّ، قالت: لا تُحَدِّثَنَّ بسِرِّ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحَدًا»[٣].

وبالجملة:

فقد كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبلَغَ الخَلقِ، وأعذَبَهم كَلامًا، وأسرَعَهم أداءً، وأحلاهم مَنطِقًا، حتى إنَّ كَلامَهُ لَيأخُذُ بمَجامِعِ القُلوبِ، ويَسبي الأرواحَ، وكان إذا تكَلَّمَ تكَلَّمَ بكَلامٍ مُفَصَّلٍ،

---

(١) رواه البخاري (٤٠٠٥).

(٢) رواه مسلم (٣٤٢).

(٣) رواه مسلم (٢٤٨٢).

مُبَيَّنٍ، يَعُدُّهُ العادُّ، ليس بهَذٍّ مُسرِعٍ، لا يُحفَظُ، ولا مُنقَطِعٍ، تَخَلَّلُهُ السَّكَتاتُ بين أفرادِ الكلامِ، بل هَديُهُ فيه أكمَلُ الهَديِ.

وكان كَثيرًا ما يُعيدُ الكلامَ ثَلاثًا؛ ليُعقَلَ عَنهُ، وكان طَويلَ السُّكوتِ، لا يَتكَلَّمُ في غَيرِ حاجَةٍ، وإذا تكلّم تكَلَّمُ بجَوامِعِ الكلامِ، وكان لا يَتكَلَّمُ فيما لا يعنيهِ، ولا يَتكَلَّمُ إلا فيما يَرجو ثَوابَهُ(١).

ولَم يَسمَعِ الناسُ بكَلامٍ -قَطُّ-، أعَمَّ نَفعًا، ولا أصدَقَ لَفظًا، ولا أعدَلَ وزنًا، ولا أجمَلَ مَذهَبًا، ولا أكرَمَ مَطلَبًا، ولا أحسَنَ مَوقِعًا، ولا أسهَلَ مَخرَجًا، ولا أفصَحَ عن مَعناهُ، ولا أبيَنَ عن فحواهُ، من كَلامِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) زاد المعاد (١/ ١٧٥).

إشاراتُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

أرسَلَ اللهُ تعالى نَبيَّنا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الناسِ كافَّةً، وأمَرَهُ أن يُبَلِّغَ الرِّسالَةَ، بَلاغًا واضِحًا، مَفهومًا، يكونُ حُجَّةً على العالَمينَ، قال تعالى: ﴿**وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ**﴾ [النور: ٥٤، العنكبوت: ١٨].

وقد قامَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتبليغِ خَيرَ قيامٍ، فبَيَّنَ، ووَضَّحَ، وفهَّمَ، وأقنَعَ، ونَصَحَ، وقد قال للناس في حَجَّةِ الوَداعِ: «**وأنتُم تُسألونَ عَنِّي، فما أنتم قائِلونَ؟**»، فقالوا: نَشهَدُ أنَّكَ قد بَلَّغتَ، وأدَّيتَ، ونَصَحتَ[1].

أرسَلَهُ اللهُ تعالى مُعلِّمًا، يُعلِّمُ الناسَ الكِتابَ والحِكمةَ؛ ليُخرِجَهم مِن سُبُلِ الضَّلال، إلى صِراطِ اللهِ المُستقيم، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ**﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ لم يَبعَثني مُعَنِّتًا، ولا مُتَعَنِّتًا، ولكن بَعَثَني مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا**»[2].

وقال مُعاويَةُ بنُ الحَكَمِ السُّلَميُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَبِأبي هو وأُمِّي، ما رَأيتُ مُعَلِّمًا -قَبلَهُ، ولا بعدَهُ- أحسَنَ تَعليمًا منه»[3].

---

(١) رواه مسلم (١٢١٨).

(٢) رواه مسلم (١٤٧٨). والمعنى: لم يبعثني معنِّتًا لغيري، ولا متعنِّتًا في خاصَّتي.

(٣) رواه مسلم (٥٣٧).

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «**فيه**: بَيانُ ما كان عليه رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عَظيمِ الخُلُقِ، الذي شَهِدَ اللهُ تعالى له بِه، ورِفقِهِ بالجاهِلِ، ورَأفَتِهِ بأُمَّتِهِ، وشَفَقَتِهِ عليهم، **وفيه**: التَّخَلُّقُ بخُلُقِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الرِّفقِ بالجاهِلِ، وحُسنِ تَعليمِهِ، واللُّطفِ بِه، وتَقريبِ الصَّوابِ إلى فهمِهِ»(١).

وقد نَوَّعَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أساليبِ الدَّعوَةِ، والتَّعليمِ؛ لإيصال المعنى المطلوبِ إلى الأذهانِ بسُهولَةٍ، ويُسرٍ.

فَعَلَّمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسِّيرَةِ الحَسَنَةِ، والخُلُقِ العَظيمِ، وعَلَّمَ بالحِوارِ، والمُناقَشَةِ، وعَلَّمَ بالإلغازِ، وطَرحِ الأسئِلَةِ؛ لتَنشيطِ أذهانِ السَّامِعينَ، وعَلَّمَ بالتَّشبيهِ، وضَربِ الأمثال، إلى غَيرِ ذلك من أساليبِ الدَّعوَةِ، والتَّعليمِ.

وكما اهتَمَّ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأساليبِ التَّعليمِ، اهتَمَّ بالوَسائِلِ التَّعليميَّةِ، كالرسمِ، والخَطِّ، والإشارَةِ بالكفِّ، والأصابعِ، ونَحوِ ذلك.

* ومِن وسائِلِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدَّعوَةِ، والتَّعليمِ:

الإشارَةُ باليَدِ؛ لتَعليمِ أمرٍ ما، لإفهامِ السَّامِعِ، أو للتَّأكيدِ على أمرٍ مُعَيَّنٍ، أو للتَّعبيرِ عن القَبولِ، أوِ الرفضِ.

وتُعتَبَرُ الإشارَةُ باليَدِ مِنَ الوَسائِلِ المُهِمَّةِ النافِعَةِ في تَدعيمِ الفِكرَةِ، وتَرسيخِ المعلومَةِ في الذِّهنِ.

ولا شَكَّ أنَّ استِعمالَ الإشارَةِ، عَقدًا باليَدِ للعَدِّ، أو إشارَةً إلى جِهَةٍ ما، أو تَعبيرًا عن قَبولٍ، أو غَيرِ ذلك، لا شَكَّ أنَّ هذا ممَّا يُعينُ على التَّعَلُّمِ، وتَفهُّمِ المُرادِ.

فالطَّالبُ يُتابعُ حَرَكَةَ مُعَلِّمِهِ، وسَكَناتِهِ، ويَتَأَثَّرُ بانفِعالاتِهِ مع المادَّةِ، أوِ المعلومَةِ المعروضَةِ؛ فيُؤَدِّي هذا إلى جَذبِ انتِباهِهِ، أو تَرسيخِ مَعنًى ما في الذِّهنِ، أو زيادَةِ تَوضيحٍ.

---

(١) شرح النووي على مسلم (٥/ ٢٠).

وقد جاءَ التَّعبيرُ بالإشارَةِ في القُرآنِ، في قَولِهِ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١].

والمقصودُ بالرمزِ -هُنا-، هوَ الإشارَةُ، قال الضَّحَّاكَ في قولِهِ: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾: «الرمزُ: أن يُشيرَ بيَدِهِ، أو رَأسِهِ، ولا يَتكَلَّم»[١].

وقال ابنُ جُزَيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿إِلَّا رَمْزًا﴾: إشارَة باليَدِ، أو بالرأسِ، أو غَيرِهِما»[٢].

ولُغَةُ الإشارَةِ: هيَ مَجموعَةٌ مِنَ الحَرَكاتِ المرئيَّةِ، اليَدَويَّةِ، ويَتِمُّ التَّعبيرُ عَنها من خِلال الربطِ بين الإشارَةِ، ومَدلولِها في اللُّغَةِ المنطوقَةِ.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧]، وعَضُّ اليَدِ -هُنا-: إشارَةٌ إلى الحَسرَةِ، والنَّدَمِ.

وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧]، ووَضعُ الإصبَعِ في الأُذُنِ، يَدُلُّ على عَدَمِ السَّماعِ، وتَجاهُلِ الشَّيءِ.

ولَمَّا كان للإشارَةِ تَأثيرٌ في إيضاحِ المعنى، اهتَمَّ الرسولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باستِخدامِها -كَثيرًا- في خُطَبِهِ، ومَواعِظِهِ؛ للتَّعبيرِ عن مَشاعِرِهِ، وعن مَعاني النُّصوصِ الشَّرعيَّةِ، كَما كان الصَّحابَةُ رِضوانُ اللهِ عليهم يَفهَمونَ إشاراتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويُدرِكونَ مَعانيَها.

*** ومِن تلكَ الإشاراتِ التي استخدمَها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنَّهُ كان يَعقِدُ بيَدِهِ للعَدِّ:**

فَعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قَدِمَ وفدُ عبدِالقيسِ على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، إنَّا من هذا الحَيِّ من رَبيعَةَ، قَد حالَت بيننا وبينكَ كُفَّارُ مُضَرَ، ولَسنا نَخلُصُ

(١) تفسير الطبري (٥/ ٣٨٩).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ١٥٢).

إِلَيكَ إلا في الشَّهرِ الحَرامِ، فمُرنا بشيءٍ نَأخُذُهُ عَنكَ، ونَدعو إليه مَن وراءَنا، قال: «**آمُرُكُم بأربَعٍ، وأنهاكُم عن أربَعٍ: الإيمانِ باللهِ،** -ثم فسَّرَها لَهم، فقال-: **شَهادَةِ أن لا إلَهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ،** وعَقَدَ بيَدِهِ هَكَذا[١]، **وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وأن تُؤَدُّوا خُمُسَ ما غَنِمتُم...**» الحديثَ[٢].

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يُشيرُ بيَدِهِ إلى جِهَةٍ ما؛ للتَّوضيحِ، والإفهامِ:**

* فَأشارَ مَرَّةً إلى قِبلَةِ المسجِدِ:

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: صَلَّى لَنا النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم رَقيَ المِنبَرَ، فأشارَ بيَدَيهِ قِبَلَ قِبلَةِ المسجِدِ، ثم قال: «**لَقَد رَأيتُ -الآنَ- مُنذُ صَلَّيتُ لَكُمُ الصَّلاةَ: الجَنَّةَ، والنارَ، مُمَثَّلَتَينِ في قِبلَةِ هذا الجِدارِ، فلَم أرَ كاليومِ في الخَيرِ، والشَّرِّ**»، ثَلاثًا[٣].

وفي حديثٍ آخَرَ، تَوضيحٌ أكثَرُ لهذا المشهَدِ:

فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -بَعدَ أن صَلَّى صَلاةَ الكُسوفِ-: «**لَقَد رَأيتُ في مَقامي هذا كُلَّ شيءٍ وُعِدتُهُ، حتى لَقَد رَأيتُني أُريدُ أن آخُذَ قِطفًا مِنَ الجَنَّةِ، حينَ رَأيتُموني جَعَلتُ أتَقَدَّمُ، ولَقَد رَأيتُ جَهَنَّمَ، يَحطِمُ بعضُها بعضًا، حينَ رَأيتُموني تَأخَّرتُ، ورَأيتُ فيها عَمرَو بنَ لُحَيٍّ، وهو الذي سَيَّبَ السَّوائِبَ**»[٤].

* وأشارَ مَرَّةً بيَدِهِ نَحوَ اليَمَنِ:

فعن أبي مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أشارَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَدِهِ نَحوَ اليَمَنِ، فقال: «**ألا إنَّ**

---

(١) أي: كما يعقد الذي يعدُّ واحدةً.

(٢) رواه البخاري (١٣٩٨)، ومسلم (١٧).

(٣) رواه البخاري (٧٤٩)، ومسلم (٢٣٥٩).

(٤) رواه البخاري (١٢١٢)، ومسلم (٩٠١)، و«سيَّب السَّوائب»: أي: أرسل النُّوق تذهب وتجيء، كيف شاءت، فلا تركب، ولا تصدُّ عن ماءٍ، ولا مرعى؛ تقرُّبًا بها لآلهتهم.

الإيمانَ هاهُنا، وإنَّ القَسوَةَ وغِلَظَ القُلوبِ في الفَدَّادينَ(١)**، عندَ أُصولِ أذنابِ الإبِلِ، حيث يَطلُعُ قَرنا الشَّيطانِ، في رَبيعَةَ، ومُضَرَ**»(٢).

وأمَّا سببُ غِلَظِ قُلوبِ الفَدَّادينَ؛ فقَد أوضَحَهُ الخَطَّابيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بقولِهِ: «إنما ذَمَّ هَؤُلاءِ؛ لاشتِغالِهم بمُعالجَةِ ما هم فيه عن أُمورِ دينِهم، وذلك يُفضي إلى قَساوَةِ القَلبِ»(٣).

* وأشارَ بيَدِهِ نَحوَ المشرِقِ؛ مُبَيِّنًا وقتَ فِطرِ الصَّائِمِ:

فعن عبدِالله بنِ أبي أوفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كُنَّا مع رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سَفَرٍ، فلمَّا غابَتِ الشَّمسُ، قال لرَجُلٍ: «**انزِل، فاجدَح لَنا**(٤)»، فقال: يا رسولَ الله، لَو أمسَيتَ، قال: «**انزِل، فاجدَح لَنا**»، قال: إنَّ عَلَينا نَهارًا، فنزَلَ، فجَدَحَ لَهُ، فشَرِبَ، ثم قالَ: «**إذا رَأيتُمُ اللَّيلَ قد أقبَلَ من هاهُنا**، -وَأشارَ بيَدِهِ نَحوَ المشرِقِ-؛ **فقَد أفطَرَ الصَّائِمُ**»(٥).

* وأشارَ بيَدِهِ نَحوَ المشرِقِ؛ مُحَذِّرًا مِنَ الفِتَنِ القادِمَةِ منه:

عن يُسَيرِ بنِ عَمرٍو قال: سَألتُ سَهلَ بنَ حُنَيفٍ: هَل سمعتَ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذكُرُ الخَوارِجَ؟ فقال: سمعتُهُ يقولُ -وَأشارَ بيَدِهِ نَحوَ المشرِقِ-(٦): «**قَومٌ يَقرَءونَ القُرآنَ بألسِنَتِهِم، لا يَعدو تَراقيَهم، يَمرُقونَ مِنَ الدِّينِ، كَما يَمرُقُ السَّهمُ مِنَ الرميَّةِ**»(٧).

وعن عبدِالله بنِ عمرَ، قال: سمعتُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**إنَّ الفِتنَةَ تَجيءُ من هاهُنا**، -وَأومَأ بيَدِهِ نَحوَ المشرِقِ-، **من حيث يَطلُعُ قَرنا الشَّيطانِ**(٨)»(٩).

---

(١) الذين تعلو أصواتهم، في الحروث والمواشي.

(٢) رواه البخاري (٣٣٠٢)، ومسلم (٥١).

(٣) فتح الباري (٦/ ٣٥٢).

(٤) حرِّك السَّويق بالماء، وخوِّضه، حتى يستوي.

(٥) رواه البخاري (٥٢٩٧)، ومسلم (١١٠١).

(٦) وعند البخاري: «وأهوى بيده قبل العراق».

(٧) رواه البخاري (٦٩٣٤)، ومسلم (١٠٦٨).

(٨) قيل: إن له قرنين على الحقيقة، وقيل: إن قرنيه ناحيتا رأسه، أو: هو مثل، أي: حينئذٍ يتحرَّك الشَّيطان، ويتسلَّط.

(٩) رواه البخاري (٣٢٧٩)، ومسلم (٢٩٠٥).

والمُرادُ: اختِصاصُ المشرِقِ بمَزيدٍ من تَسَلُّطِ الشَّيطانِ، ومِنَ الكُفرِ، كما في الحديثِ الآخَرِ: «**رَأسُ الكُفرِ نَحوَ المشرِقِ**»[١].

فَقَد كان أهلُهُ -يومَئِذٍ- أهلَ كُفرٍ، ومنه نَشَأتِ الفِتَنُ العَظيمَةُ، كَفِتنَةِ مُسَيلِمَةَ، ووَقعَتَيِ الجَمَلِ وصِفِّينَ، ثم ظُهور الخَوارِجِ في أرضِ نَجدٍ، والعِراقِ، ويَخرُجُ الدَّجَّالُ في آخِرِ الزَّمانِ من ناحيَةِ المشرِقِ[٢].

* ورُبَّما مَثَّلَ لقولِهِ، ببعضِ حَرَكاتِ يَدَيهِ:

فعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: كنتُ أمشي مع النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حَرَّةِ المدينَةِ، عِشاءً، ونَحنُ نَنظُرُ إلى أُحُدٍ، فقال لي رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا أبا ذَرٍّ**»، قُلتُ: لَبَّيكَ يا رسولَ اللهِ، قال: «**ما أُحِبُّ أنَّ أُحُدًا -ذاكَ- عندي ذَهَبٌ، أمسَى ثالثَةً عندي منه دينارٌ، إلا دينارًا أرصُدُهُ لدَينٍ، إلا أن أقولَ بهِ في عِبادِ اللهِ، هَكَذا** -حَثا بين يَدَيهِ-، **وهَكَذا** -عن يَمينِهِ-، **وهَكَذا** -عن شِمالِهِ-».

ثم مَشَينا فقال: «**يا أبا ذَرٍّ**»، قال قُلتُ: لَبَّيكَ يا رسولَ اللهِ، قال: «**إنَّ الأكثَرينَ همُ الأقَلُّونَ يومَ القيامَةِ، إلا مَن قال هَكَذا، وهَكَذا، وهَكَذا**» مِثلَ ما صَنَعَ في المرَّةِ الأولى[٣].

فَمَثَّلَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَدَيهِ؛ للدَّلالَةِ على الإنفاقِ يَمينًا، وشِمالًا، وبين يَدَيهِ.

ومِن ذلك -أيضًا-:

عن حَكيمِ بنِ مُعاويَةَ، عن أبيهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ رَجُلًا مِمَّن كان قبلَكُم رَغسَهُ اللهُ مالًا ووَلَدًا**[٤]، **حتى ذَهَبَ عَصْر، وجاءَ آخَرُ، فلمَّا احتُضِرَ قال لوَلَدِهِ: أيَّ أبٍ كنتُ لَكُم؟ قالوا: خَيرَ أبٍ، فقال: هَل أنتم مُطيعيَّ؟ وإلا أخَذتُ مالي**

---

(١) رواه البخاري (٣٣٠١)، ومسلم (٥٢).
(٢) شرح النووي على مسلم (٢/ ٣٤)، إرشاد السَّاريِّ، للقسطلاَّنيِّ (١٠/ ١٨٨).
(٣) رواه البخاري (٢٣٨٨)، ومسلم (٩٤).
(٤) أي: أعطاه، ووسَّع له، وبارك.

مِنكُم، انظُروا إذا أنا مُتُّ، أن تُحرِّقوني، حتى تَدَعوني حُمَمًا، ثم اهرُسوني بالمِهراسِ» -وَأدارَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيهِ حِذاءَ رُكبَتَيهِ- قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«فَفَعَلوا -واللهِ-»**، وقال نَبيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَدِهِ هَكَذا، **«ثم اذروني في يومٍ راحٍ[1]؛ لَعَلِّي أضِلُّ اللهَ! ففَعَلوا -واللهِ- ذاكَ، فإذا هو قائِمٌ في قَبضَةِ اللهِ، فقال: يا ابنَ آدَمَ، ما حَمَلَكَ على ما فعَلتَهُ؟ قال: من مَخافَتِكَ، فتَلافاهُ اللهُ بها[2]»**[3].

والمِهراسُ: الحجرُ الذي يُدَقُّ بهِ، ويَهرُسُ بعضَ الأشياءِ.

قال شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذا الرجُلُ اعتَقَدَ أنَّ اللهَ لا يَقدِرُ على جَمعِهِ إذا فعَلَ ذلك، أو شَكَّ، وأنَّهُ لا يَبعَثُهُ.

وكُلٌّ من هَذَينِ الاعتِقادَينِ كُفرٌ، يَكفُرُ مَن قامَت عليه الحُجَّةُ، لكنَّهُ كان يَجهَلُ ذلك، ولم يبلغه العِلمُ بما يَرُدُّهُ عن جَهلِهِ، وكان عندَهُ إيمانٌ باللهِ، وبِأمرِهِ، ونَهيِهِ، ووَعدِهِ، ووَعيدِهِ، فخافَ من عِقابِهِ، فغَفَرَ اللهُ لَهُ بخَشيَتِهِ.

فَمَن أخطَأَ في بعضِ مَسائِلِ الاعتِقادِ من أهلِ الإيمانِ باللهِ، وبِرسولِهِ، وبِاليومِ الآخِرِ، والعَمَلِ الصَّالحِ؛ لم يَكُن أسوَأَ حالًا مِنَ الرجُلِ، فيَغفِرُ اللهُ خَطَأَهُ، أو يُعَذِّبُهُ، إن كان منه تَفريطٌ في اتِّباعِ الحَقِّ، على قَدرِ دينِهِ، وأمَّا تَكفيرُ شَخصٍ عُلِمَ إيمانُهُ بمُجَرَّدِ الغَلَطِ في ذلك فعَظيمٌ»[4].

*** وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رُبَّما يَقبِضُ أصابِعَهُ ويَبسُطُها، كَأنَّهُ يَرمي شَيئًا؛ للتَّفهيمِ:**

فعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ألا أُخبِرُكُم بخَيرِ دورِ**

---

(١) أي: ذي ريحٍ.
(٢) تداركه بالرحمة والمغفرة.
(٣) رواه الإمام أحمد (٢٠٠٢٤)، وصححه محققو المسند، وأصله في البخاري (٣٤٨١)، ومسلم (٢٧٥٦) عن أبي هريرة، بنحوه.
(٤) الاستقامة (١/ ١٦٥).

الأنصارِ؟»، قالوا: بَلى يا رسولَ اللهِ، قال: «**بَنو النَّجّارِ، ثم الذينَ يَلونَهم بَنو عبدِالأشهَلِ، ثم الذينَ يَلونَهم بَنو الحارِثِ بنِ الخَزرَجِ، ثم الذينَ يَلونَهم بَنو ساعِدَةَ**»، ثم قال بيَدِهِ، فقَبَضَ أصابِعَهُ، ثم بَسَطَهُنَّ، كالرامي بيَدِهِ، ثم قال: «**وفي كُلِّ دورِ الأنصارِ خَيرٌ**»[١].

قال الحافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**قولُهُ:** «ثم قال بيَدِهِ، فقَبَضَ أصابِعَهُ، ثم بَسَطَهُنَّ، كالرامي بيَدِهِ» فيه: استِعمالُ الإشارَةِ المُفهِمَةِ، مَقرونَةً بالنُّطقِ، وقولُهُ: «كالرامي بيَدِهِ» أي: كالذي يكونُ بيَدِهِ الشَّيءُ قَد ضَمَّ أصابِعَهُ عليه، ثم رَماهُ، فانتَشَرَت»[٢].

* وكان رُبَّما أشارَ بيَدَيهِ مَعًا؛ لتَعليمِ أمرٍ ما:

فعن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: تَمارَوا في الغُسلِ عندَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال بعضُ القَومِ: إنِّي لَأغسِلُ كَذا وكذا، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أمَّا أنا: فأُفيضُ على رَأسي ثَلاثًا**»، وأشارَ بيَدَيهِ، كِلتَيهِما[٣].

وعندَ مُسلمٍ: «**أمَّا أنا: فإنِّي أُفيضُ على رَأسي ثَلاثَ أكُفٍّ**».

فَأفادَ السُّنَّةَ، بالقَولِ والإشارَةِ جَميعًا.

وأفادَت هَذِهِ الإشارَةُ: أنّ الإفاضَةَ تَكونُ بالكَفَّينِ كِلتَيهِما، وليست بكفٍّ واحدةٍ.

قال في عَونِ المعبودِ:

«**في هذا الحديثِ:** أنَّ الإفاضَةَ ثَلاثًا، باليَدَينِ على الرأسِ، وهو مُتَّفَقٌ عليه»[٤].

وقال العَينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَولُه: «**ثلاثًا**» أي: ثَلاثَ أكُفّ، وهكَذا في رِوايةِ مُسلمٍ، والمعنى: ثَلاثَ حَفَناتٍ، كُلُّ واحدةٍ منهنّ مِلءِ الكفينِ جَميعًا»[٥].

---

(١) رواه البخاري (٥٣٠٠).
(٢) فتح الباري (٩/ ٤٤١).
(٣) رواه البخاري (٢٥٤)، ومسلم (٣٢٧)، وأبوداود (٢٣٩)، والنسائي (٢٥٠)، وابن ماجه (٥٧٥).
(٤) عون المعبود (١/ ٢٨١).
(٥) شرح أبي داود (١/ ٥٣٧).

وكان يُشيرُ بيَدِهِ أحيانًا؛ تعبيرًا عن تَركِ أمرٍ ما:

*** فَأشارَ إلى زَوجِهِ مَيمونَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، بَرَدِّ الثَّوبِ الذي أحضَرَتهُ؛ للتَّنشيفِ بعدَ الغُسلِ:**

فعن مَيمونَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «وَضَعتُ للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غُسلًا[1]، فاغتَسَلَ مِنَ الجَنابَةِ، ثم أتَيتُهُ بثَوبٍ حينَ اغتَسَلَ، فقال بيَدِهِ هَكَذا» يعني: رَدَّهُ[2].

قال ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «واستَدَلَّ بعضُهم بَرَدِّ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الثَّوبَ على مَيمونَةَ على كَراهَةِ التَّنشيفِ، ولا دَلالَةَ فيه على الكراهَةِ؛ بل على أنَّ التَّنشيفَ ليس مُستَحبًّا، ولا أنَّ فِعلَهُ هو أولى، لا دَلالَةَ للحديثِ على أكثَرَ من ذلك، كَذا قالهُ الإمامُ أحمَدُ، وغَيرُهُ مِنَ العُلَماءِ.

وأكثَرُ العُلَماءِ على أنَّ التَّنشيفَ مِنَ الغُسلِ والوُضوءِ غَيرُ مَكروهٍ، وقد رويَ فِعلُهُ عن جَماعَةٍ مِنَ الصَّحابَةِ، منهم: عمرُ وعثمانُ وعليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ»[3].

*** وأشارَ إليهِم في مَرَضِهِ: «أن لا تَلُدُّوني»:**

فعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: لَدَدنا رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مَرَضِهِ، فأشارَ: «**أن لا تَلُدُّوني**»، فقُلنا: كَراهيَةَ المريضِ للدَّواءِ، فلَمّا أفاقَ قال: «**لا يَبقَى أحَدٌ مِنكُم إلا لُدَّ، غَيرُ العبَّاسِ؛ فإنَّهُ لم يَشهَدكُم**»[4].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**قال أهلُ اللُّغَةِ**: اللَّدودُ: هو الدَّواءُ الذي يُصَبُّ في أحَدِ جانِبَي فمِ المريض، ويَدخُلُ هُناكَ بأُصبُعٍ، وغَيرِها، ويُحَنَّكُ بِهِ، ويُقال منه: لَدَدتُهُ، ألُدُّهُ، والتَدَدتُ أنا.

وإنما أمَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلَدِّهِم؛ عُقوبَةً لَهم، حينَ خالَفوهُ في إشارَتِهِ إليهم: «**لا تَلُدُّوني**» **ففيه**: أنَّ الإشارَةَ المُفهِمَةَ، كَصَريحِ العِبارَةِ، في نَحوِ هَذِهِ المسألَةِ»[5].

---

(١) الماء الذي يغتسل به.

(٢) رواه البخاري (٢٦٦)، ومسلم (٣١٧)، وأحمد (٢٦٨٤٢)، واللفظ له، ولفظ البخاري: «فناولته خرقةً، فقال بيده هكذا، ولم يردها»، وفي رواية لأحمد (٢٦٨٥٦): «قالت: فناولته خرقةً، فقال هكذا -وأشار بيده-: أن لا أريدها».

(٣) فتح الباري لابن رجبٍ (١/ ٣٢٤).

(٤) رواه البخاري (٤٤٥٨)، ومسلم (٢٢١٣)، واللفظ له، ولفظ البخاري: فجعل يشير إلينا: «أن لا تلدُّوني».

(٥) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٩٩).

فائدة:

جاءَ في رِوايةٍ عِندَ أحمَدَ: «فرَأيتُهم يَلُدُّونَهم، رَجُلًا، رَجُلًا، فلُدَّ الرِّجالُ أجمَعونَ، وبَلَغَ اللَّدودُ أزواجَ النبيِّ ﷺ، فلُدِدنَ امرَأة، امرَأة، حتى بَلَغَ اللَّدودُ امرَأةً مِنَّا[١]، قالت: إنِّي -واللهِ- صائِمَةٌ، فقُلنا: بئسَما ظَنَنتِ أن نَترُكَكِ، وقد أقسَمَ رسولُ اللهِ ﷺ، فلَدَدناها -واللهِ-، وإنَّها لَصائِمَةٌ»[٢]

* وأشارَ إلى أصحابِهِ بإتمامِ الصَّلاةِ خَلفَ أبي بكرٍ، لَمَّا رَأوهُ ﷺ خرجَ إليهم، في مَرَضِهِ الذي ماتَ فيه:

فعن أنسِ بنِ مالكٍ، أنَّ أبا بكرٍ كان يُصَلِّي لَهم، في وجَعِ النبيِّ ﷺ الذي توُفِّيَ فيه، حتى إذا كان يومُ الاثنَينِ، وهم صُفوفٌ في الصَّلاةِ، فكَشَفَ النبيُّ ﷺ سِترَ الحُجرَةِ، يَنظُرُ إلَينا وهو قائِمٌ، كَأنَّ وجهَهُ ورَقَةُ مُصحَفٍ[٣]، ثم تَبَسَّمَ يَضحَكُ، فهَمَمنا أن نَفتَتِنَ مِنَ الفَرَحِ برُؤيَةِ النبيِّ ﷺ، فنكَصَ أبو بكرٍ على عَقِبَيهِ؛ ليَصِلَ الصَّفَّ، وظَنَّ أنَّ النبيَّ ﷺ خارِجٌ إلى الصَّلاةِ، فأشارَ إلَينا النبيُّ ﷺ: «**أن أتِمُّوا صَلاتَكُم**»، وأرخَى السِّترَ، فتوُفِّيَ من يومِهِ[٤].

* وأشارَ إلى أصحابِهِ بلُزومِ السَّكينَةِ عندَ النَّفيرِ من عَرَفَةَ، وتَركِ التَّزاحُمِ، والتَّدافُعِ:

فَفي حديثِ جابِرِ بنِ عبدِاللهِ رضي الله عنهما، في صِفَةِ حَجَّةِ النبيِّ ﷺ: «وَدَفَعَ رسولُ اللهِ ﷺ، وقد شَنَقَ للقَصواءِ الزِّمامَ، حتى إنَّ رَأسَها لَيُصيبُ مَورِكَ رَحلِهِ[٥]، ويقولُ بيَدِهِ

---

(١) قال ابن أبي الزِّناد -أحد الرُّواة-: «لا أعلمها، إلا ميمونة»، قال: «وقال بعض الناس: أمُّ سلمة».

(٢) رواه أحمد (٢٤٨٧٠)، والحاكم (٧٤٤٧)، وصححه، ووافقه الذهبي، وحسنه محققو المسند.

(٣) يعني: من الجمال، وحسن البشرة، وصفاء الوجه.

(٤) رواه البخاري (٦٨٠)، ومسلم (٤١٩).

(٥) المكان الذي يضع فيه الراكب رجله، ليستريح من وضعه في الرِّكاب.

اليُمنَى: «**أيُّها الناسُ، السَّكينةَ السَّكينةَ**»، كُلَّما أتَى حَبلًا مِنَ الحِبال[1] أرخَى لها قَليلاً حتى تَصعَدَ، حتى أتَى المُزدَلِفَةَ»[2].

❋ وأشارَ إلى أصحابِهِ بخَفضِ الصَّوتِ، في الذِّكرِ، والدُّعاءِ:

فعن أبي موسَى الأشعَريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: كُنَّا مع رسولِ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غَزاةٍ، فأسرَعنا الأوبَةَ، وأحسَنَّا الغَنيمَةَ، فلمَّا أشرَفنا على الرُّزداقِ[3] جَعَلَ الرجُلُ مِنَّا يُكَبِّرُ بأعلى صَوتِهِ.

فقال رسولُ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أيُّها الناسُ**»، وجَعَلَ يقولُ بيَدِهِ هَكَذا، -وَوَصَفَ الراوي كَأَنَّهُ يُشيرُ- فقال رسولُ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أيُّها الناسُ، إنَّكُم لا تُنادونَ أصَمَّ، ولا غائِبًا، إنَّ الذي تُنادونَ دونَ رُءوسِ رَواحِلِكُم**»[4].

وفي رواية الشَّيخَينِ -واللفظُ للبُخاريّ-: «**يا أيُّها الناسُ! اربَعوا[5] على أنفُسِكُم؛ فإنَّكُم لا تَدعونَ أصَمَّ، ولا غائِبًا، إنَّهُ مَعَكُم، إنَّهُ سَميعٌ قَريبٌ، تَبارَكَ اسمُهُ، وتعالى جَدُّهُ**».

❋ وكان صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُشيرُ بيَدِهِ، لِمَن يُسَلِّمُ عليه، وهو في الصَّلاةِ:

فعن زهيرِ بنِ مُعاويةَ، حَدَّثَني أبو الزبيرِ، عن جابرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: أرسَلَني رسولُ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو مُنطَلِقٌ إلى بَني المُصطَلِقِ، فأتَيتُهُ وهو يُصَلِّي على بَعيرِهِ، فكَلَّمتُهُ، فقال لي بيَدِهِ هَكَذا -وَأومَأَ زهيرٌ بيَدِهِ-، ثم كَلَّمتُهُ فقال لي هَكَذا -فَأومَأَ زُهَيرٌ -أيضًا- بيَدِهِ نَحوَ الأرضِ-، وأنا أسمَعُهُ يَقرَأُ، يومِئُ برَأسِهِ، فلمَّا فرَغَ قال: «**ما فعَلتَ في الذي أرسَلتُكَ لَهُ؟ فإنَّهُ لم يَمنَعني أن أُكَلِّمَكَ، إلا أنِّي كنتُ أُصَلِّي**».

قال زُهَيرٌ: وأبو الزبيرِ جالسٌ مُستَقبِلَ الكعبَةِ، فقال بيَدِهِ أبو الزبيرِ إلى بَني المُصطَلِقِ، فقال بيَدِهِ إلى غَيرِ الكعبَةِ[6].

---

(١) هو: المستطيل من الرمل.

(٢) رواه مسلم (١٢١٨).

(٣) الرُّزداق: كلُّ موضعٍ فيه مزدرعٌ، وقرى.

(٤) رواه الإمام أحمد (١٩٧٥٥)، وصححه محققو المسند، وأصله في البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤).

(٥) ارفقوا.

(٦) رواه مسلم (٥٤٠).

وعن عبدِالله بنِ عمرَ رضي الله عنهما قال: خرجَ رسولُ الله ﷺ إلى قُباءٍ يُصَلِّي فيه، قال: فجاءَتهُ الأنصارُ، فسَلَّموا عليه وهو يُصَلِّي، قال: فقُلتُ لبِلالٍ: كَيفَ رَأيتَ رسولَ الله ﷺ يَرُدُّ عليهم، حينَ كانوا يُسَلِّمونَ عليه وهو يُصَلِّي؟ قال: «يقولُ هَكَذا» وبَسَطَ كَفَّهُ، وبَسَطَ جَعفَرُ بنُ عَونٍ -أحدُ الرُّواةِ- كَفَّهُ، وجَعَلَ بَطنَهُ أسفَلَ، وجَعَلَ ظَهرَهُ إلى فوق[١].

وعن صُهَيبٍ رضي الله عنه، قال: «مَرَرتُ برسولِ الله ﷺ وهو يُصَلِّي، فسَلَّمتُ عليه، فرَدَّ إشارَةً»، قال: «ولا أعلَمُهُ إلا قال: إشارَةً بأُصبُعِهِ»[٢].

قال المُباركفوريُّ رحمه الله: «وأحاديثُ البابِ تَدُلُّ على جَوازِ رَدِّ السَّلامِ بالإشارَةِ في الصَّلاةِ، وهو مَذهَبُ الجُمهورِ، وهو الحَقُّ»[٣].

فائِدةٌ:

قال العِراقيُّ رحمه الله: «وأكثَرُ العُلَماءِ مِنَ السَّلَفِ والخَلَفِ، على جَوازِ الإشارَةِ في الصَّلاةِ، وأنَّها لا تَبطُلُ بها، ولو كانت مُفهِمَةً، وبهذا قال مالكٌ، والشافعيُّ، وأحمَدُ، وقد ورَدَ في الإشارَةِ في الصَّلاةِ أحاديثُ، تَكادُ أن تَبلُغَ حَدَّ التَّواتُرِ، والأصَحُّ عندَ أصحابِنا الشافعيَّةِ: أنَّهُ لا تَبطُلُ الصَّلاةُ بإشارَةِ الأخرَسِ المُفهِمَةِ، كالناطِقِ، ونَقَلَ ابنُ حَزمٍ من مُصَنَّفِ عبدِالرزَّاقِ، بأسانيدِهِ، عن عائشةَ رضي الله عنها: أنَّها كانت تَأمُرُ خادِمَتَها تَقسِمُ المَرَقَةَ، فتَمُرُّ بها وهي في الصَّلاةِ، فتُشيرُ إلَيها: أن زيدي، وتَأمُرُ بالشَّيءِ للمُسلِمينَ، تومِئُ بِهِ وهي في الصَّلاةِ، وعن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما: أنَّهُ أومَأ إلى رَجُلٍ في الصَّفِّ -ورَأى خَلَلًا-: أن تَقَدَّم، وعن عبدِالرحمَنِ بنِ أبي لَيلى: إنِّي لَأعُدُّها للرَّجُلِ عندي يَدًا: أن يَعدِلَني في الصَّلاةِ»[٤].

---

(١) رواه أبوداود (٩٢٧)، والترمذي (٣٦٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٨٥).

(٢) رواه أبوداود (٩٢٥)، والترمذي (٣٦٨)، وحسنه، وصححه الألباني.

(٣) تحفة الأحوذي (٢/ ٣٠٣).

(٤) طرح التثريب (٢/ ٢٥١).

*** وكان -أحيانًا- يُصَوِّبُ يَدَهُ، ويَرفعُها؛ للتَّمثيلِ:**

فعنِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يَمنَعَنَّ أحَدًا مِنكُم أذانُ بلالٍ** -أو قال: **نِداءُ بلالٍ**-، **من سُحورِهِ؛ فإنَّهُ يُؤَذِّنُ** -أو قال: **يُنادي**- **بلَيلٍ؛ ليَرجِعَ قائِمَكُم**[1]، **ويوقِظَ نائِمَكُم**».

وقال: «**ليس أن يقولَ هَكَذا وهَكَذا** -وَصَوَّبَ يَدَهُ، ورَفَعَها-، **حتى يقولَ هَكَذا**»، -وَفَرَّجَ بين إصبَعَيهِ-[2].

وفي رواية لِمُسلِمٍ: «**إنَّ الفَجرَ ليس الذي يقولُ هَكَذا** -وَجَمَعَ أصابِعَهُ، ثم نَكَسَها إلى الأرضِ-، **ولكن الذي يقولُ هَكَذا**» -وَوَضَعَ المُسَبِّحَةَ على المُسَبِّحَةِ، ومَدَّ يَدَيهِ-».

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تَحَصَّلَ مِنَ الرِّوايَتَينِ: أنَّهُ أشارَ إلى أنَّ الفَجرَ الأولَ يَطلُعُ في السَّماءِ، ثم يَرتَفِعُ طَرَفُهُ الأعلى، ويَنخَفِضُ طَرَفُهُ الأسفَلِ.

وأمَّا **الفَجرُ الصَّادِقُ**: فهو الذي يَطلُعُ مُعتَرِضًا، ثم يَعُمُّ الأُفُقَ، ذاهِبًا فيه عَرضًا، ويَستَطيرُ، أي: يَنتَشِرُ»[3].

ولَفظُ البخاري: «**وَليس أن يقولَ الفَجرُ -أوِ الصُّبحُ-**» وقال بأصابِعِهِ، ورَفَعَها إلى فوق، وطَأطَأَ إلى أسفَلَ، «**حَتَّى يقولَ هَكَذا**»، وقال زُهَيرٌ -أحَدُ الرُّواةِ-: «بِسَبَّابَتَيهِ، إحداهما فوقَ الأُخرَى، ثم مَدَّها عن يَمينِهِ، وشِمالِهِ».

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ -بَعدَ أن ساقَ رِواياتِ الحديثِ-: «**وَفيها** -أيضًا-: الإيضاحُ في البَيانِ، والإشارَةُ؛ لزيادَةِ البَيانِ في التَّعليمِ»[4].

---

(١) قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لفظة «قائمكم» منصوبةٌ، مفعول: «يرجع»، قال الله تعالى: (فإن رجعك الله)، ومعناه: أنه إنما يؤذِّن بليلٍ؛ ليعلمكم بأن الفجر ليس ببعيدٍ، فيردَّ القائم المتهجِّد إلى راحته؛ لينام غفوةً، ليصبح نشيطًا، أو يوتر -إن لم يكن أوتر- أو يتأهَّب للصُّبح -إن احتاج إلى طهارةٍ أخرى- أو نحو ذلك، من مصالحه، المترتِّبة على علمه بقرب الصُّبح». شرح النووي على مسلم (٧/ ٢٠٤).

(٢) رواه البخاري (٦٢١)، ومسلم (١٠٩٣).

(٣) المفهم (٩/ ١١٧)، باختصارٍ.

(٤) شرح النووي (٧/ ٢٠٥).

* إشارَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَدِهِ إلى بعضِ أعضاءِ الجِسمِ

كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُشيرُ -أحيانًا- إلى بعضِ أعضاءِ الجِسمِ؛ لتَوضيحِ المعنى، وتَقريرِهِ.

وهذه الوَسيلَةُ التَّعليميَّةُ مُفيدَةٌ للمُعَلِّمِ؛ لأنَّها مَعَهُ حيث كان، فهو يُشيرُ إلى عُضوٍ من أعضاءِ جِسمِهِ، بخِلافِ العَصا، أوِ اللَّوحَةِ التَّعليميَّةِ، أوِ الخَريطَةِ، أو غَيرِها؛ فهي قَد لا تَتَوَفَّرُ له في كُلِّ الأوقاتِ.

ومن **أمثلةِ هذه الإشاراتِ: التعليمُ بالإشارةِ إلى الأُذُنِ، والعَينِ:**

* فَقَد أشارَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أُذُنِهِ وعَينِهِ؛ تَحقيقًا لإثباتِ صِفَتَي السَّمعِ والبَصَرِ للهِ تعالى:

قال سُلَيمُ بنُ جُبَيرٍ مَولى أبي هريرة: سمعتُ أبا هريرةَ يَقرَأُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾، إلى قولِهِ تعالى: ﴿سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨]، قال: «**رَأيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَضَعُ إبهامَهُ على أُذُنِهِ، والتي تَليها على عَينِهِ**».

قال أبو هريرةَ: «رَأيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقرَؤُها، ويَضَعُ إصبَعَيهِ»

قال المُقرِئُ -أحَدُ الرُّواةِ-: «يعني: إنَّ اللهَ سَميعٌ بَصيرٌ، يعني: أنَّ للهِ سَمعًا وبَصَرًا»[١].

قال أبوداود رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا رَدٌّ على الجَهميَّةِ».

فالجَهميَّةُ: «لا يُثبِتونَ للهِ تعالى اسمًا ولا صِفَةً، مِمَّا سَمَّى ووَصَفَ نَفسَهُ تعالى بهِ، وأثبَتَهُ له رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَلا يُثبِتونَ أنَّ اللهَ هو السَّميعُ البَصيرُ، ولا أنَّهُ يَسمَعُ، ويَرَى، ويُبصِرُ؛ فِرارًا -بزَعمِهِم- مِنَ التَّشبيهِ بالمخلوقينَ؛ فنَزَّهوهُ عن صِفاتِ كَمالِهِ، التي وصَفَ بها نَفسَهُ، وهو أعلَمُ بنَفسِهِ، وبِغَيرِهِ»[٢].

---

(١) رواه أبوداود (٤٧٢٨)، وصححه الألباني في التعليقات الحسان (٢٦٥).

(٢) معارج القبول (١/ ٢٣٧).

وقال ابنُ عُثيمينَ رَحِمَهُ اللهُ: «أحيانًا يَذكُرُ الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، الصِّفةَ من صِفاتِ اللهِ، بالقولِ، ويُؤكِّدُها بالفِعلِ، وذلك حينَما تَلا قَولَهُ تعالى: ﴿**سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ فوَضَعُ إبهامَهُ على أُذُنِهِ، والتي تَليها على عَينِهِ، وهذا إثباتٌ للسّمعِ، والبَصرِ، بالقولِ، والفِعلِ»[١].

فَوَضعُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إصبعَيهِ، على أُذُنِهِ وعَينِهِ، عندَ قِراءَتِه: ﴿**سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ فيه: إثباتُ صِفَةِ السَّمعِ والبَصَرِ للهِ تعالى، وأنَّهُ سبحانه يَسمَعُ ويُبصِرُ.

*** وأشارَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عَينِهِ، عندَما حدّثهم بصِفَةِ الدَّجّال؛ تَدليلًا على كَذِبِهِ، في دَعواهُ الأُلوهيَّة، وأنَّ اللهَ تعالى مُنزّهٌ عن كُلِّ عَيبٍ:**

فعن عبدِاللهِ بنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: ذُكِرَ الدَّجَّالُ عندَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**إنَّ اللهَ لا يَخفي عليكم، إنَّ اللهَ ليس بأعوَرَ** -وَأشارَ بيَدِهِ إلى عَينِهِ-، **وإنَّ المسيحَ الدَّجَّالَ أعوَرُ العَينِ اليُمنَى، كأنَّ عَينَهُ عِنبَةٌ طافيَةٌ**[٢]»[٣].

وإشارَةُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عَينِهِ عندَ قولِهِ: «**إنَّ اللهَ ليس بأعوَرَ**»، مِنَ الأدِلَّةِ على إثباتِ تَثنيَةِ العَينِ للهِ تعالى، لتَحقيقِ الوَصفِ، يعني: أنَّ للهِ عَينَينِ سالمَتَينِ من كُلِّ عَيبٍ، كامِلَتَينِ، بخِلافِ الدَّجَّال، الفاقِدِ لإحدَى عَينَيهِ، وذلك من أعظَمِ الأدِلَّةِ على كَذِبِهِ.

وعن عُقبَةَ بنِ عامرٍ، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**رَبُّنا سَميعٌ بَصيرٌ**»، وأشارَ بيَدِهِ إلى عَينَيهِ[٤].

هَكَذا، بالتّثنيَةِ.

قال ابنُ عُثيمينَ رَحِمَهُ اللهُ: «وَبهذا تَبيّنَ وُجوبُ اعتقادِ أنّ للهِ تعالى عَينين؛ لأنّه مُقتَضَى النّصِّ، وهو المنقولُ عن أهلِ السّنّةِ، والحديثِ»[٥].

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٨/ ٦٦).

(٢) بارزةٌ، غير ممسوحةٍ.

(٣) رواه البخاري (٧٤٠٧)، ومسلم (١٦٩).

(٤) رواه الطبراني في الكبير (٧٧٥)، وحسنه الحافظ في الفتح (١٣/ ٣٧٣).

(٥) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (١/ ١٥١).

والدَّجَّالُ: «أعوَرُ العَينِ اليُمنَى، واليُسرَى؛ لأنَّ كُلَّ واحِدَةٍ منهما عَوراءُ؛ فإنَّ الأعوَرَ من كُلِّ شيءٍ: المعيبُ، لا سيَّما ما يَختَصُّ بالعَينِ، وكِلا عَينَيِ الدَّجَّال مَعيبَةٌ، عَوراءُ، إحداهما بذَهابِها، والأُخرَى بعَيبِها»[١].

* وأشارَ النبيُّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى أنفِهِ، عِندَما ذَكَرَ أعضاءَ السّجودِ السَّبعَةِ:

فعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا، قال: قال النبيُّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أُمِرتُ أن أسجُدَ على سَبعَةِ أعظُمٍ: على الجبهةِ** -وَأشارَ بيَدِهِ على أنفِهِ-، **واليَدَينِ، والرُّكبَتَينِ، وأطرافِ القَدَمَينِ، ولا نَكفِتَ الثِّيابَ، والشَّعَرَ**»[٢].

فإشارَتُهُ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بيَدِهِ على أنفِهِ، الغَرَضُ منها: بَيانُ أنَّ الجَبهَةَ والأنفَ عُضوٌ واحِدٌ، فدَلَّ على أنَّهُ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سَوَّى بين الجَبهَةِ والأنفِ[٣].

وقال الشَّيخُ ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُاللَّهُ: «لَو كان الأنفُ مِنَ الجَبهَةِ حُكمًا وحَقيقَةً، ما أشارَ إليه، ولو كان عُضوًا مُستَقِلًّا، لنَصَّ عليه، وجَعَلَهُ مُستَقِلًّا، فكانتِ الأعضاءُ ثَمانيَةً، إذًا: فهو تابعٌ، فهو مِنَ الجَبهَةِ حُكمًا، لا حَقيقَةً؛ ولهذا أشارَ إليه النبيُّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إشارَةً»[٤].

* وأشارَ النبيُّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى فمِهِ؛ تَذكيرًا لأصحابِهِ، بأهوالِ يومِ القيامَةِ:

فعن سُلَيمِ بنِ عامِرٍ، قال: حَدَّثَني المِقدادُ بنُ الأسوَدِ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقولُ: «**تُدنَى الشَّمسُ يومَ القيامَةِ مِنَ الخَلقِ، حتى تكونَ منهم كَمِقدارِ ميلٍ**».

قال سُلَيمُ بنُ عامِرٍ: فواللهِ ما أدري ما يعني بالميلِ؟ أمَسافَةَ الأرضِ، أمِ الميلَ الذي تُكتَحَلُ بِهِ العَينُ؟ قال: «**فيكونُ الناسُ على قَدرِ أعمالِهِم في العَرَقِ، فمنهم مَن يكونُ إلى**

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٢٣٥).
(٢) رواه البخاري (٨١٢)، ومسلم (٤٩٠).
(٣) عمدة القاري (٦/ ٩٢)، باختصارٍ.
(٤) الشرح الممتع (٣/ ١٠٩).

كَعبَيهِ، ومنهم مَن يكونُ إلى رُكبَتَيهِ، ومنهم مَن يكونُ إلى حَقوَيهِ، ومنهم مَن يُلجِمُهُ العَرَقُ إلجامًا»، -وَأشارَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَدِهِ إلى فيه-[١].

قال ابنُ عَلَّانَ رَحِمَهُ اللهُ: «**ومنهم: مَن يُلجِمُهُ العَرَقُ إلجامًا**»: أي يَصِلُ إلى فيه، وأُذُنيهِ، فيكونُ له بمنزلَةِ اللّجامِ مِنَ الحَيواناتِ، كَما قال الراوي: «وَأشارَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَدِهِ إلى فيه»[٢].

ومِن فوائِدِ الإشارَةِ في مِثلِ ذلك:

صَرفُ تَوَهُّمِ المجازِ، فلا يَصلُحُ أن يَقولَ قائِلٌ: المقصودُ بإلجامِ العَرَقِ الناسَ -يومَئِذٍ-: حُصولُ الكربِ العَظيمِ لَهم، لا إلجام العَرقِ حَقيقَةً.

*** وأشارَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى فمِهِ؛ تَأكيدًا على الثِّقَةِ فيما يقولُ، وأنَّهُ مَعصومٌ:**

فعن عبدِاللهِ بنِ عَمرٍو، قال: كنتُ أكتُبُ كُلَّ شيءٍ أسمَعُهُ من رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أُريدُ حِفظَهُ، فنَهَتني قُرَيشٌ، وقالوا: أتكتُبُ كُلَّ شيءٍ تَسمَعُهُ، ورسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَرٌ، يَتكَلَّمُ في الغَضَبِ والرِّضا؟ فأمسَكتُ عن الكِتابِ، فذَكَرتُ ذلك لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأومَأ بأُصبُعِهِ إلى فيه، فقال: «**اكتُب؛ فوالذي نَفسي بيَدِهِ ما يَخرُجُ منه إلا حَقٌّ**»[٣].

*** وأشارَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى لسانِهِ؛ تَحذيرًا من خَطَرِ الكلِمَةِ:**

فعن سُفيانَ بنِ عبدِاللهِ الثَّقَفيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، حَدِّثني بأمرٍ أعتَصِمُ بهِ، قال: «**قُل رَبِّيَ اللهُ، ثم استَقِم**»، قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، ما أخوَفُ ما تَخافُ عَلَيَّ؟ فأخَذَ بلِسانِ نَفسِهِ، ثم قال: «**هَذا**»[٤].

وفي حديثِ مُعاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: كنتُ مع النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سَفَرٍ، فأصبَحتُ

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٤).

(٢) دليل الفالحين (٤/ ٢٩٥).

(٣) رواه أبوداود (٣٦٤٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٣٢).

(٤) رواه الترمذي (٢٤١٠)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

يومًا قَريبًا منه، ونَحنُ نَسيرُ، فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أخبِرني بعَمَلٍ يُدخِلُني الجَنَّةَ، ويُباعِدُني عن النارِ، قال: «**لَقَد سَألتَني عن عَظيمٍ، وإنَّهُ لَيَسيرٌ على مَن يَسَّرَهُ اللهُ عليه: تَعبُدُ اللهَ ولا تُشرِكُ بِهِ شَيئًا، وتُقيمُ الصَّلاةَ، وتُؤتي الزَّكاةَ، وتَصومُ رَمَضانَ، وتَحُجُّ البَيتَ**»، ثم قال: «**ألا أدُلُّكَ على أبوابِ الخَيرِ: الصَّومُ جُنَّةٌ، والصَّدَقَةُ تُطفِئُ الخَطيئَةَ، كَما يُطفِئُ الماءُ النارَ، وصَلاةُ الرجُلِ من جَوفِ اللَّيلِ**»، ثم تَلا: ﴿**تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ**﴾ حتى بَلَغَ ﴿**يَعْمَلُونَ**﴾ [السجدة: ١٦-١٧].

- ثم قال: «**ألا أُخبِرُكَ بِرَأسِ الأمرِ كُلِّهِ، وعَمودِهِ، وذِروَةِ سَنامِهِ**[١]؟».

- قُلتُ: بَلى، يا رسولَ اللهِ.

- قال: «**رَأسُ الأمرِ: الإسلامُ، وعَمودُهُ: الصَّلاةُ، وذِروَةُ سَنامِهِ: الجِهادُ**».

- ثم قال: «**ألا أُخبِرُكَ بِمِلاكِ ذلك كُلِّهِ؟**».

- قُلتُ: بَلى، يا نَبيَّ اللهِ.

فَأخَذَ بِلِسانِهِ، قال: «**كُفَّ عليكَ هَذا**».

- فقُلتُ: يا نَبيَّ اللهِ، وإنَّا لَمُؤاخَذونَ بما نَتَكَلَّمُ بِهِ؟

- فقال: «**ثَكِلَتكَ أُمُّكَ يا مُعاذُ! وهَل يَكُبُّ الناسَ في النارِ على وُجوهِهِم، -أو: على مَناخِرِهِم-، إلا حَصائِدُ ألسِنَتِهِم؟**»[٢].

فَأخذُ النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بِلِسانِهِ أمامَ مُعاذٍ، فيه: تَوضيحٌ للفِكرَةِ المُرادِ إيصالها، وهيَ: التَّحذيرُ من خَطَرِ اللِّسانِ، وأنَّهُ من أكثَرِ ما يُدخِلُ الناسَ النارَ.

فَمِن مَعاصي اللِّسانِ: الشِّركُ، وهو أعظَمُ الذُّنوبِ عندَ اللهِ، والقولُ على اللهِ بغَيرِ عِلمٍ، وهو قَرينُ الشِّركِ، وشَهادَةُ الزُّورِ، والقَذفُ، والغيبَةُ، والنَّميمَةُ، والكذِبُ، والسَّبُّ، والشَّتمُ، وغَيرُها مِنَ الموبِقاتِ.

---

(١) أعلاه، والسِّنام: ما ارتفع من ظهر الجمل.

(٢) رواه الترمذي (٢٦١٦)، وصححه، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٢/ ١٣٨).

وقد سُئِلَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن أكثَرِ ما يُدخِلُ الناسَ الجَنَّةَ، فقال: «**تَقوَى اللهِ، وحُسنُ الخُلُقِ**».

وسُئِلَ عن أكثَرِ ما يُدخِلُ الناسَ النارَ، فقال: «**الفَمُ، والفَرجُ**»[١].

وروى الإمامُ مالكٌ، عن زَيدِ بنِ أسلَمَ، عن أبيهِ: أنَّ عمرَ بنَ الخَطَّابِ دَخَلَ على أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ، وهو يَجبِذُ لسانَهُ، فقال له عمرُ: مَه! غَفَرَ اللهُ لَكَ.

فقال أبو بكرٍ: «إنَّ هذا أورَدَني المواردَ»[٢].

*** وأشارَ النبيُّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى لسانِهِ -أيضًا-؛ ليبيّنَ أنَّ اللّسانَ من أسبابِ العَذابِ، ومِن أسبابِ الرحمةِ:**

فعن عبدِاللهِ بنِ عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أنَّهُ قال: كُنَّا جُلوسًا مع رسولِ اللهِ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، إذ جاءَهُ رَجُلٌ مِنَ الأنصارِ، فسَلَّمَ عليه، ثم أدبَرَ الأنصاريُّ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يا أخا الأنصارِ، كَيفَ أخي سَعدُ بنُ عُبادَةَ؟**»، فقال: صالحٌ[٣]، فقال رسولُ اللهِ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَن يَعودُهُ مِنكُم؟**»، فقامَ، وقُمنا مَعَهُ، ونَحنُ بضعَةَ عَشَرَ، ما عَلَينا نِعالٌ، ولا خِفافٌ، ولا قَلانِسُ، ولا قُمُصٌ، نَمشي في تِلكَ السِّباخِ[٤]، حتى جِئناهُ، فاستَأخَرَ قَومُهُ من حَولِهِ، حتى دَنا رسولُ اللهِ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأصحابُهُ الذينَ مَعَهُ، فقال صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَقَد قَضَى؟**»، قالوا: لا يا رسولَ اللهِ، فبَكَى النبيُّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلَمَّا رَأى القَومُ بُكاءَ النبيِّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بَكَوا، فقال: «**ألا تَسمَعونَ؟ إنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ بدَمعِ العَينِ، ولا بحُزنِ القَلبِ، ولكن يُعَذِّبُ بهذا** -وَأشارَ إلى لسانِهِ-، **أو يَرحَمُ**»[٥].

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٩٧٧).

(٢) الموطأ (٣٦٢١)، وإسناده صحيح، ورواه ابن وهبٍ في الجامع (٤١٢): وأخبرني زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر ابن الخطَّاب، أنه دخل على أبي بكرٍ الصِّدِّيق، وهو قابضٌ على لسانه، بطرف ثوبه، يحرِّكه في فيه ... فذكره، بنحوه.

(٣) أي: مريضٌ، وهو من باب التَّفاؤل، كتسميتهم اللَّديغ سليماً؛ تفاؤلاً بأن يسلم ممَّا أصابه.

(٤) الأرض التي يعلوها الملوحة، ولا تكاد تنبت.

(٥) رواه البخاري (١٣٠٤)، ومسلم (٩٢٤).

قال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ولكن يُعَذِّبُ بهذا**»: أي: إذا قال ما لا يُرضي الربَّ، بأن قال شَرًّا، مِنَ الجَزَعِ، والنِّياحَةِ.

«**أو يُرحَمُ**»: أي: بهذا، إن قال خيرًا، بأنِ استَرجَعَ -مَثَلًا-، أوِ استَغفَرَ، أو تَرَحَّمَ»[١].

*** وأشارَ ﷺ على رَأسِهِ، عِندَما قال: «إلا أن يَتَغَمَّدَني اللهُ بِرَحمَةٍ منه، وفَضلٍ»:**

يُفسِّرُ بهذه الإشارَةِ، مَعنَى قولِهِ: «**يَتَغَمَّدَني اللهُ**».

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبيُّ ﷺ: «**والذي نَفسي بيَدِهِ، إن مِنكُم من أحَدٍ يُدخِلُهُ عَمَلُهُ الجَنَّةَ**» قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**وَلا أنا، إلا أن يَتَغَمَّدَني اللهُ بِرَحمَةٍ منه، وفَضلٍ**» ووَضَعَ يَدَهُ على رَأسِهِ[٢].

ولفظُ مُسلمٍ: قال النبيُّ ﷺ: «**ليس أحَدٌ مِنكُم يُنجيهِ عَمَلُهُ**» قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**وَلا أنا، إلا أن يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ منه بمَغفِرَةٍ، ورَحمَةٍ**»، وقال ابنُ عَونٍ بيَدِهِ هَكَذا، وأشارَ على رَأسِهِ: «**وَلا أنا، إلا أن يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ منه بمَغفِرَةٍ، ورَحمَةٍ**».

فَبيَّنَ النبيُّ ﷺ لأصحابِهِ، أنَّهُ ما من أحَدٍ يَدخُلُ الجَنَّةَ، إلا بفَضلِ اللهِ، ورَحمَتِهِ، حتى هو ﷺ، فقال: «**إلا أن يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ منه بمَغفِرَةٍ، ورَحمَةٍ**».

ودَلَّلَ على هَذا، وزادَهُ تَوضيحًا، فوَضَعَ يَدَهُ على رَأسِهِ، وهذا هو معنى: «**يَتَغَمَّدَنِيَ**» أي: يَستُرُنِيَ، وهو مَـأخوذٌ من (غَمدِ السَّيفِ)؛ لأنَّكَ إذا أغمَدتَ السَّيفَ، فقَد ألبَستَهُ الغِمدَ، وسَتَرتَهُ بهِ[٣].

*** ووَضَعَ إصبَعَهُ في فمِهِ، وجَعَلَ يَمُصُّها، وهو يَحكي لهم قِصَّةَ أحدِ الذينَ تَكلَّموا في المهدِ:**

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**لَم يَتَكَلَّم في المهدِ إلا ثَلاثَةٌ: عيسَى**

(١) مرقاة المفاتيح (٣/ ١٢٣٣).
(٢) رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦)، وأحمد (٩٠٠٢)، واللفظ له.
(٣) فتح الباري (١١/ ٢٩٧).

ابنُ مَريَمَ، وصاحِبُ جُرَيجٍ ... وساقَ الحديثَ، إلى أن قال: «وَبَينا صَبيٌّ يَرضَعُ من أُمِّهِ، فمَرَّ رَجُلٌ، راكِبٌ على دابَّةٍ، فارِهَةٍ[١]، وشارَةٍ حَسَنَةٍ[٢]، فقالت أُمُّهُ: اللهمَّ اجعَلِ ابني مِثلَ هَذا، فتَرَكَ الثَّديَ، وأقبَلَ إليه، فنَظَرَ إليه، فقال: اللهمَّ لا تَجعَلني مِثلَهُ، ثم أقبَلَ على ثَديِهِ، فجَعَلَ يَرتَضِعُ».

قال أبو هريرة: فكَأنِّي أنظُرُ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو يَحكي ارتِضاعَهُ بإصبَعِهِ السَّبَّابَةِ، في فمِهِ، فجَعَلَ يَمُصُّها... إلى آخِرِ الحديثِ[٣].

* **وأشارَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى صَدرِهِ؛ بَيانًا لَمحلِّ التَّقوَى، وهو القَلبُ:**

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تَحاسَدوا، ولا تَناجَشوا، ولا تَباغَضوا، ولا تَدابَروا، ولا يَبع بعضُكُم على بَيعِ بعضٍ، وكونوا عِبادَ اللهِ إخوانًا، المسلمُ أخو المسلمِ، لا يَظلِمُهُ، ولا يَخذُلُهُ، ولا يَحقِرُهُ، التَّقوَى هاهُنا**، -وَيُشيرُ إلى صَدرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ-، **بحَسبِ امرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أن يَحقِرَ أخاهُ المسلمَ، كُلُّ المسلمِ على المسلمِ حَرامٌ: دَمُهُ، ومالُهُ، وعِرضُهُ**»[٤].

* **وأشارَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى صَدرِهِ؛ بَيانًا منه أنَّ اللهَ لا يَنظُرُ إلى الصُّوَرِ، والأجسادِ، وإنما يَنظُرُ إلى القُلوبِ، والأعمالِ:**

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ لا يَنظُرُ إلى أجسادِكُم، ولا إلى صوَرِكُم؛ ولكن يَنظُرُ إلى قُلوبِكُم، وأعمالِكُم**»، وأشارَ بأصابِعِهِ إلى صَدرِهِ[٥].

قال القاري رَحِمَهُ اللهُ: «**ولكن يَنظُرُ إلى قُلوبِكُم**»: أي: إلى ما فيها مِنَ اليَقينِ، والصِّدقِ، والإخلاصِ، وقَصدِ الرِّياءِ، والسُّمعَةِ، وسائِرِ الأخلاقِ الرضيَّةِ، والأحوال الرديَّةِ.

---

(١) نشيطةٍ، قويَّةٍ.

(٢) الشَّارة: الهيئة، واللِّباس.

(٣) رواه البخاري (٢٤٨٢)، ومسلم (٢٥٥٠).

(٤) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٥) رواه مسلم (٢٥٦٤).

«**وَأعمالِكُم**»: أي: من صَلاحِها، وفَسادِها، فيُجازيكُم على وفقِها»[١].

وهذا الحديثُ حُجَّةٌ على مَن يَترُكونَ العَمَلَ، بزعمِ سَلامَةِ القُلوبِ، وصَلاحِها؛ إذ لَو صَلَحَت قُلوبُهم، لَصَلحت أعمالُهم.

قال ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَتَى استقامَ القَلبُ على مَعرِفَةِ اللهِ، وعلى خَشيَتِهِ، وإجلالِهِ، ومَهابَتِهِ، ومَحَبَّتِهِ، وإرادَتِهِ، ورَجائِهِ، ودُعائِهِ، والتَّوَكُّلِ عليه، والإعراضِ عَمَّا سِواهُ، استَقامَتِ الجَوارِحُ كُلُّها على طاعَتِهِ؛ فإنَّ القَلبَ هو مَلِكُ الأعضاءِ، وهي جُنودُهُ، فإذا استَقامَ المِلكُ، استَقامَت جُنودُهُ، ورَعاياهُ»[٢].

*** وكان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَضَعُ يَدَهُ -أحيانًا- على رَأسِ بعضِ أصحابِهِ، أو يُشيرُ بها إلى صَدرِهِ؛ تَنبيهًا منه له على أمرٍ مُهِمٍّ، أو لَفتًا لانتِباهِهِ:**

*** فَوَضَعَ يَدَهُ على رَأسِ عبدِاللهِ بنِ حَوالَةَ:**

فعن عبدِاللهِ بنِ حَوالَةَ الأزديِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بَعَثَنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنَغنَمَ على أقدامِنا، فرَجَعنا، فلَم نَغنَم شَيئًا، وعَرَفَ الجَهدَ في وُجوهِنا، فقامَ فينا، فقال: «**اللهمَّ لا تَكِلهم إليَّ؛ فأضعُفَ عَنهم، ولا تَكِلهم إلى أنفُسِهم؛ فيَعجِزوا عَنها، ولا تَكِلهم إلى الناسِ؛ فيَستَأثِروا عليهم**»، ثم وضَعَ يَدَهُ على رَأسي، -أو قال: على هامَتي-، ثم قال: «**يا ابنَ حَوالَةَ، إذا رَأيتَ الخِلافَةَ قَد نَزَلَتِ الأرضَ المُقَدَّسَةَ، فقَد دَنَتِ الزَّلازِلُ، والبَلابِلُ**[٣]**، والأُمورُ العِظامُ، والسَّاعَةُ -يومَئِذٍ- أقرَبُ مِنَ الناسِ، من يَدي هَذِهِ، من رَأسِكَ**»[٤].

فَوَضعُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ الشَّريفَةَ على رَأسِ صاحِبِهِ، فيه جَذبٌ للانتِباهِ، وتَقريبٌ للفهمِ.

---

(١) مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٣٣١).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٦٠٩).

(٣) الهموم، والأحزان.

(٤) رواه أبوداود (٢٥٣٥)، والإمام أحمد (٢٢٤٨٧)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، وقال محققو المسند: «ضعيفٌ، وفي متنه نكارةٌ».

وقد وجَّهَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبدَاللهِ بنَ حَوالَةَ، لسُكنَى الشَّامِ، فقال: «**سَيَصيرُ الأمرُ إلى أن تكونوا جُنودًا مُجَنَّدَةً: جُندٌ بالشَّامِ، وجُندٌ باليَمَنِ، وجُندٌ بالعِراقِ**»، قال ابنُ حَوالَةَ: خِر لي يا رسولَ اللهِ، إن أدرَكتُ ذلك، فقال: «**عليكَ بالشَّامِ؛ فإنَّها خيرَةُ اللهِ من أرضِهِ، يَجتَبي إلَيها خيرَتَهُ من عِبادِهِ، فأمَّا إن أبَيتُم؛ فعليكم بيَمَنِكُم، واسقوا من غُدُرِكُم**[١]**؛ فإنَّ اللهَ تَوَكَّلَ لي بالشَّامِ، وأهلِهِ**»[٢].

* ونكَتَ بيدِهِ في صَدرِ صاحِبِهِ وابِصَةَ بنِ مَعبَدٍ:

فعن وابِصَةَ بنِ مَعبَدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: أتَيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنا أُريدُ أن لا أدَعَ شَيئًا مِنَ البِرِّ والإثمِ، إلا سَألتُهُ عَنهُ، وإذا عندَهُ جَمعٌ، فذَهَبتُ أتَخَطَّى الناسَ، فقالوا: إلَيكَ يا وابِصَةُ عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلَيكَ يا وابِصَةُ، فقُلتُ: أنا وابِصَةُ، دَعوني أدنو منه، فإنَّهُ من أحَبِّ الناسِ إلَيَّ أن أدنوَ منه، فقال لي: «**ادنُ يا وابِصَةُ، ادنُ يا وابِصَةُ**»، فدَنَوتُ منه، حتى مَسَّت رُكبَتي رُكبَتَهُ، فقال: «**يا وابِصَةُ، أُخبِرُكَ ما جِئتَ تَسألُني عَنهُ، أو تَسألُني؟**»، فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، فأخبِرني، قال: «**جِئتَ تَسألُني عن البِرِّ والإثمِ**»، قُلتُ: نعم، فجَمَعَ أصابِعَهُ الثَّلاثَ، فجَعَلَ يَنكُتُ بها في صَدري، ويقولُ: «**يا وابِصَةُ، استَفتِ نَفسَكَ، البِرُّ ما اطمَأنَّ إليه القَلبُ، واطمَأنَّت إليه النَّفسُ، والإثمُ ما حاكَ في القَلبِ، وتَرَدَّدَ في الصَّدرِ، وإن أفتاكَ الناسُ، وأفتوكَ**»[٣].

الإشارَةُ إلى العاتِقِ:

فَعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاءَ إلى السِّقايَةِ فاستَسقَى، فقال العبَّاسُ: يا فضلُ، اذهَب إلى أُمِّكَ، فأتِ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشَرابٍ من عندِها، فقال: «**اسقِني**»، قال: يا رسولَ اللهِ، إنَّهم يَجعَلونَ أيديَهم فيه، قال: «**اسقِني**»، فشَرِبَ منه، ثم أتَى زَمزَمَ وهم يَسقونَ، ويَعمَلونَ فيها، فقال: «**اعمَلوا؛ فإنَّكُم على عَمَلٍ صالحٍ**»، ثم قال: «**لَولا أن تُغلَبوا لَنَزَلتُ، حتى أضَعَ الحَبلَ على هَذِهِ**» يعني: عاتِقَهُ، وأشارَ إلى عاتِقِهِ[٤].

---

(١) الغدير: مستنقع ماء المطر، صغيرًا -كان- أو كبيرًا.

(٢) رواه أبوداود (٢١٢٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٦٥٩).

(٣) رواه الإمام أحمد (١٨٠٠١)، وحسنه المنذري في الترّغيب والترهيب (٢/ ٣٥١).

(٤) رواه البخاري (١٦٣٥).

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الذي يَظهَرُ أنَّ مَعناهُ: لَولا أن تَغلِبَكُم الناسُ على هذا العَمَلِ، إذا رَأوني قَد عَمِلتُهُ؛ لِرَغبَتِهِم في الاقتِداء بي، فيَغلِبوكُم بالمُكاثَرَةِ، لَفَعَلتُ. واستُدِلَّ بهذا على أنَّ سِقايَةَ الحاجِّ، خاصَّةٌ ببَني العبَّاسِ»(١).

وقد استَخدَمَ النبيُّ ﷺ أصابِعَهُ؛ لتَوضيحِ بعضِ الأُمورِ، أو تَقريرِها، أو لبيَانِ هَيئَةٍ، أو حالَةٍ، أو عَدَدٍ، أو نَحوِ ذلك.

* فَمِن ذلك: إشهادُ النبيِّ ﷺ رَبَّهُ على الناسِ، أنَّهُ بَلَّغَ الرِّسالَةَ:

ففي حديثِ جابرٍ الطَّويلِ، في صِفَةِ حَجَّةِ الوَداعِ، قال ﷺ في خُطبَةِ عَرَفاتٍ: «**وَأنتُم تُسألونَ عَنِّي، فما أنتم قائِلونَ؟**».

قالوا: نَشهَدُ أنَّكَ قَد بَلَّغتَ، وأدَّيتَ، ونَصَحتَ.

فقال(٢) بإصبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرفَعُها إلى السَّماءِ، ويَنكُتُها إلى الناسِ(٣): «**اللهمَّ اشهَد، اللهمَّ اشهَد**» ثَلاثَ مَرَّاتٍ(٤).

* وإذا ضَرَبَ لهم مَثَلًا، رُبَّما استَعانَ بأُصبُعِهِ؛ للتَّوضيحِ:

فعنِ المُستَورِدِ بنِ شَدَّادٍ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، قال: «**ما الدُّنيا في الآخِرَةِ، إلا كَمِثلِ ما يَجعَلُ أحَدُكُم إصبَعَهُ -هَذِهِ- في اليَمِّ، فليَنظُر: بما يَرجِعُ**» وأشارَ بالسَّبَّابَةِ(٥).

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وَمعنى الحديثِ**: ما الدُّنيا بالنِّسبَةِ إلى الآخِرَةِ، في قِصَرِ مُدَّتِها، وفَناءِ لَذَّاتِها، ودَوامِ الآخِرَةِ، ودَوامِ لَذَّاتِها ونَعيمِها، إلا كَنِسبَةِ الماءِ الذي يَعلَقُ بالأُصبُعِ، إلى باقي البَحرِ»(٦).

---

(١) فتح الباري (٣/ ٤٩٢).

(٢) أي: أشار.

(٣) أي: يشير بها إلى الناس، كالذي يضرب بها الأرض.

(٤) رواه مسلم (١٢١٨).

(٥) رواه مسلم (٢٨٥٨)، وأحمد (١٨٠٠٨)، واللفظ له، ورواه المروزي في زوائد الزهد (٩٩٢)، ولفظه: «والله، ما الدُّنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه السَّبَّاحة -أو السَّبَّابة- في اليمِّ، فلينظر: بما يرجع»، وإسناده صحيح.

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/ ١٩٣).

* وكَذلك مَثَّلَ بأصابِعِه، لقُربِ قيامِ السَّاعَةِ:

فعن سَهلِ بنِ سَعدٍ السَّاعِديِّ قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**بُعِثتُ أنا والسَّاعَةَ كَهَذِهِ من هَذِهِ**، -أو: **كَهاتَينِ**-»، وقَرَنَ بين السَّبَّابَةِ، والوُسطَى[١].

قولُهُ: «**وَقَرَنَ بين السَّبَّابَةِ، والوُسطَى**»: لبَيانِ قُربِ زَمانِهِ مِنَ السَّاعَةِ، كَقُربِ السَّبَّابَةِ، مِنَ الوُسطَى، وبِأنَّ زَمَنَ بَعثَتِهِ، تَعقُبُهُ السَّاعَةُ، من غَيرِ تَخَلُّلِ نَبيٍّ آخَرَ بينهُ وبين السَّاعَةِ، كَما قال في الحديثِ الصَّحيحِ: «**وَأنا الحاشِرُ، الذي يُحشَرُ الناسُ على قَدَمي، وأنا العاقِبُ**»[٢]

وفي إجماعِ العُقولِ على أنَّ العيانَ أقوَى مِنَ الخَبَرِ، دَليلٌ أنَّ الإشارَةَ قَد تكونُ في بعضِ المواضِعِ أقوَى مِنَ الكلامِ[٣].

* وكَذلك ضَمَّ أُصبُعَيهِ؛ للدَّلالَةِ على القُربِ:

عن أنسِ بنِ مالكٍ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**مَن عالَ جاريَتَينِ**[٤] **حتى تَبلُغا، جاءَ يومَ القيامَةِ، أنا وهوَ**» وضَمَّ أصابِعَهُ[٥].

* وكَذلك أشارَ بأُصبعَيهِ؛ للدَّلالَةِ على مَنزِلَةِ كافِلِ اليَتيمِ:

فقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**أنا وكافِلُ اليَتيمِ**[٦] **في الجَنَّةِ هَكَذا**» وقال بإصبَعَيهِ: السَّبَّابَةِ، والوُسطَى.

وفي رواية:

«وَأشارَ بالسَّبَّابَةِ، والوُسطَى، وفَرَّجَ بينهما شَيئًا»[٧].

---

(١) رواه البخاري (٥٣٠١)، ومسلم (٨٦٧).
(٢) رواه البخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤). وانظر: فتح الباري لابن رجبٍ (٤/ ٣٣٥).
(٣) شرح ابن بطَّالٍ (٧/ ٤٦٠).
(٤) قام عليهما بالمؤنة، والتَّربية، ونحوهما.
(٥) رواه مسلم (٢٦٣١).
(٦) كفالة اليتيم هي: القيام بما يصلحه، في دينه ودنياه.
(٧) رواه البخاري (٥٣٠٤)، (٦٠٠٥).

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال شَيخُنا[١] في شرَحِ الترِّمذيِّ: لَعَلَّ الحِكمَةَ في كَونِ كافِلِ اليَتيمِ يُشبِهُ في دُخولِ الجَنَّةِ، أو شُبِّهَت مَنزِلَتُهُ في الجَنَّةِ، بالقُربِ مِنَ النبيِّ، أو مَنزِلَةِ النبيِّ؛ لكَونِ النبيِّ شَأنُهُ أن يُبعَثَ إلى قَومٍ لا يَعقِلونَ أمرَ دينِهم ؛ فيكونُ كافِلًا لَهم، ومُعَلِّمًا، ومُرشِدًا، وكَذلك كافِلُ اليَتيمِ، يَقومُ بكَفالَةِ مَن لا يَعقِلُ أمرَ دينِهُ، بل ولا دُنياهُ، ويُرشِدُهُ، ويُعَلِّمُهُ، ويُحسِنُ أدَبَهُ، فظَهَرَت مُناسَبَةُ ذلك»[٢].

*** وشَبَّهَ بأصابِعِهِ حالَ الجِنِّ، حينَ استِراقِ السَّمعِ مِنَ السَّماءِ:**

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ نَبيَّ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا قَضَى اللهُ الأمرَ في السَّماءِ، ضَرَبَتِ الملائِكَةُ بأجنِحَتِها؛ خُضعانًا لقولِهِ، كَأَنَّهُ سِلسِلَةٌ على صَفوانٍ**[٣]**، فإذا فُزِّعَ عن قُلوبِهِم، قالوا: ماذا قال رَبُّكُم؟ قالوا للَّذي قال: الحَقَّ، وهو العليُّ الكبيرُ، فيَسمَعُها مُستَرِقُ السَّمعِ، ومُستَرِقُ السَّمعِ هَكَذا، بعضُهُ فوقَ بعضٍ** -ووَصَفَ سُفيانُ[٤] بكَفِّهِ، فحَرَفَها، وبَدَّدَ بين أصابِعِهِ- **فيَسمَعُ الكلِمَةَ، فيُلقيها إلى مَن تحتَهُ، ثم يُلقيها الآخَرُ إلى مَن تحتَهُ، حتى يُلقيَها على لسانِ السَّاحِرِ، أوِ الكاهِنِ، فرُبَّما أدرَكَ الشِّهابُ قبلَ أن يُلقيَها، ورُبَّما ألقاها قبلَ أن يُدرِكَهُ، فيَكذِبُ مَعَها مِائَةَ كَذبَةٍ. فيُقالُ: أليس قَد قال لَنا يومَ كَذا وكذا، كَذا وكذا؟ فيُصَدَّقُ بتِلكَ الكلِمَةِ التي سَمِعَ مِنَ السَّماءِ**»[٥].

وفي رواية: «وَوَصَفَ سُفيانُ بيَدِهِ، وفَرَّجَ بين أصابِعِ يَدِهِ اليُمنَى، نَصَبَها بعضَها فوقَ بعضٍ»[٦].

قال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ: «بعضُهُ فوقَ بعضٍ»: تَوضيحٌ، أو بَدَلٌ، وفيه معنى التَّشبيهِ، أي: مُستَرِقو السَّمعِ، بعضُهُ راكِبٌ بعضَهُ، مُردفينَ، كَرُكوبِ أصابِعي هَذِهِ، بعضِها فوقَ بعضٍ.

---

(١) أي: الحافظ العراقيُّ.

(٢) فتح الباري (١٠/ ٤٣٧) باختصارٍ، وتصرُّفٍ.

(٣) الصفوان: الحجر الأملس.

(٤) هو ابن عيينة، أحد الرُّواة.

(٥) رواه البخاري (٤٨٠٠).

(٦) رواه البخاري (٤٧٠١).

«وَوَصَفَ سُفيانُ بكَفِّهِ» أي: بأصابِعِهِ، «فَحَرفها» أي: ففَرَّجَ كَفَّهُ «وَبَدَّدَ»: أي: وفَرَّقَ «بين أصابِعِهِ» قال الطِّيبيُّ: أي بَيَّنَ كَيفيَّةَ رُكوبِ بعضِها فوقَ بعضٍ، بأصابِعِهِ»(١).

فالجِنُّ يَتَراكَبونَ واحِدًا فوقَ الآخَرِ، إلى أن يَصِلوا إلى السَّماءِ، فيَسمَعَ أعلى المُستَرِقينَ الكلِمَةَ، فيُلقيها إلى مَن تحتَهُ، ثم يُلقيها الآخَرُ إلى مَن تحتَهُ، حتى يُلقيَها آخِرُهمُ الذي في الأرضِ على لسانِ السَّاحِرِ، أوِ الكاهِنِ.

* ورُبَّما استَعانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باليَدِ، في العَدِّ:

عن أبي هريرة قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن يَأخُذُ عَنِّي هَؤُلاءِ الكلِماتِ فيَعمَلُ بهِنَّ، أو يُعَلِّمُ مَن يَعمَلُ بهِنَّ؟**»، فقال أبو هريرةَ: فقُلتُ: أنا يا رسولَ اللهِ، فأخَذَ بيَدي، فعَدَّ خَمسًا، وقال: «**اتَّقِ المحارِمَ تَكُن أعبَدَ الناسِ، وارضَ بما قَسَمَ اللهُ لَكَ؛ تَكُن أغنَى الناسِ، وأحسِن إلى جارِكَ تَكُن مُؤمِنًا، وأحِبَّ للنَّاسِ ما تُحِبُّ لنَفسِكَ تَكُن مُسلِمًا، ولا تُكثِرِ الضَّحِكَ؛ فإنَّ كَثرَةَ الضَّحِكِ تُميتُ القَلبَ**»(٢).

وأخذُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَدِ أبي هريرة؛ تَحقيقٌ للقَضيَّةِ، وتَقريبٌ للخُصوصيَّةِ(٣).

ومِن ذلك -أيضًا-:

عن أبي مَسعودٍ، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقولُ: «**نَزَلَ جبريلُ، فأمَّني، فصَلَّيتُ مَعَهُ، ثم صَلَّيتُ مَعَهُ، ثم صَلَّيتُ مَعَهُ، ثم صَلَّيتُ مَعَهُ**»، يَحسُبُ بأصابِعِهِ خَمسَ صَلَواتٍ(٤).

وعن طارِقِ بنِ أشيَمَ الأشجَعيِّ، أنَّهُ سَمِعَ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأتاهُ رَجُلٌ، فقال: يا رسولَ اللهِ، كَيفَ أقولُ حينَ أسألُ رَبِّي؟ قال: «**قُل: اللهمَّ اغفِر لي، وارحَمني، وعافِني، وارزُقني** -وَيَجمَعُ أصابِعَهُ، إلا الإبهامَ- **فإنَّ هَؤُلاءِ تَجمَعُ لَكَ دُنياكَ، وآخِرَتَكَ**»(٥).

---

(١) مرقاة المفاتيح (٧/ ٢٩٠٩).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٠٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٣٠).

(٣) مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٢٣٧).

(٤) رواه البخاري (٣٢٢١)، ومسلم (٦١٠).

(٥) رواه مسلم (٢٦٩٧).

ومنه -**أيضًا**-: عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما، يُحدِّثُ عن النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لا نكتُبُ، ولا نَحسُبُ، الشَّهرُ هَكَذا، وهَكَذا، وهَكَذا**»، وعَقَدَ الإبهامَ في الثالثَةِ[١]، «**والشَّهرُ هَكَذا، وهَكَذا، وهَكَذا**»، يعني: تَمامَ ثَلاثينَ[٢].

قال القاضي عياضٌ رحمه الله: «وَإشارَتُهُ بيَدِهِ إلى الثَّلاثينَ، والتِسعِ وعِشرينَ، حُجَّةُ الحُكمِ بالإشارَةِ، وأنَّها تَقومُ مَقامَ النُّطقِ في الطَّلاقِ، والبُيوعِ، والوَصايا، وغَيرِها، ويَدُلُّ على صِحَّةِ الاعتِدادِ بها.

وفي الحديثِ: حُجَّةٌ -أيضًا- لِصِحَّةِ طَلاقِ الأبكَمِ، وإقرارِه، وشَهادَتِهِ وحدَهُ، إذا فُهِمَ منه القَذفُ، وتَحَقّق ما أشارَ بهِ.

وفيه: تَقريبُ الأُمورِ بالتّمثيلِ، وهو مَقصدُه عليه السلام بذلك، لا لغيرِه، وليس مِن أجلِ وصفِهِ لهم بالأمِّيِّةِ، وأنّهم لا يَحسبونَ، ولا يَكتُبونَ؛ إذ كانوا لا يَجهلونَ ثَلاثينَ، ولا تِسعًا وعِشرينَ، ولَكان ذِكرُه لها عليه السلام أخفَّ عليه مِنَ الإشارَةِ، وتَكرارِها بيديهِ، ثَلاثَ مَرَّات، كَما قَدِ اختَصَرَ ذلك، وقاله بلفظِهِ في الحديثِ الآخَرِ، ولَم يَنفِ عنهم مَعرِفَةَ مِثلِ هذا الحِسابِ، وإنّما وصَفهم بذلك: طَرحًا للاعتدادِ بالمنازِلِ، وطُرُقِ الحِسابِ، التي تَقولُ عليه الأعاجِمُ في صَومِها، وفِطرِها، وفُصولِها»[٣].

* وبَيَّنَ ﷺ الأصنافَ التي لا تَجزِئُ في الأضاحي، وأشارَ بأصابِعِهِ:

فقال البَراءُ بنُ عازِبٍ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ -وَأشارَ بأصابِعِهِ-، وأصابِعي أقصَرُ من أصابعِ رسولِ اللهِ ﷺ، يُشيرُ بأُصبُعِهِ يقولُ-: «**لا يَجوزُ مِنَ الضَّحايا: العَوراءُ البَيِّنُ عَوَرُها، والعَرجاءُ البَيِّنُ عَرَجُها، والمريضَةُ البَيِّنُ مَرَضُها، والعَجفاءُ**[٤] **التي لا تُنقي**[٥]»[٦].

---

(١) أي: يكون تسعةً وعشرين.

(٢) رواه البخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠) واللفظ له.

(٣) إكمال المعلم (٤/ ١٥،١٤).

(٤) الهزيلة.

(٥) لا مخَّ لها.

(٦) رواه أبوداود (٢٨٠٢)، والترمذي (١٤٩٧)، والنسائي (٤٣٧١)، وابن ماجه (٣١٤٤)، وصححه الألباني في الإرواء (١١٤٨).

* ورُبَّما أشارَ بيَدِهِ للتَّقليلِ:

فعن أبي هريرة، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ يومَ الجُمُعَةِ، فقال: «**فيه ساعَةٌ لا يوافِقُها عبدٌ مُسلِمٌ وهو قائِمٌ يُصَلِّي، يَسألُ اللهَ تعالى شَيئًا، إلا أعطاهُ إيَّاهُ**» وأشارَ بيَدِهِ، يُقَلِّلُها(١).

ولِمُسلِمٍ: «**وَهيَ ساعَةٌ خَفيفَةٌ**».

وأقوى الأقوال في هَذِهِ السَّاعَةِ، قولانِ: آخِرُ ساعَةٍ من يومِ الجُمُعَةِ، أو: أنَّها ما بين أن يَجلِسَ الإمامُ، إلى أن تُقضَى الصَّلاةُ.

* ورُبَّما شَبَّكَ بين أصابِعِهِ؛ للدَّلالَةِ على بعضِ الأُمورِ:

عن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ، قال: لَمَّا كان يومُ خَيبَرَ، وضَعَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَهمَ ذي القُربَى في بَني هاشِمٍ، وبَني المُطَّلِبِ، وتَرَكَ بَني نَوفَلٍ، وبَني عبدِ شَمسٍ، فانطَلَقتُ أنا وعثمانُ بنُ عفَّانَ، حتى أتَينا النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقُلنا: يا رسولَ اللهِ، هَؤُلاءِ بَنو هاشِمٍ، لا نُنكِرُ فضلَهم للمَوضِعِ الذي وضَعَكَ اللهُ بِهِ منهم، فما بالُ إخوانِنا بَني المُطَّلِبِ: أعطَيتَهم، وتَرَكتَنا، وقَرابَتُنا واحِدَةٌ؟ فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّا وبَنو المُطَّلِبِ لا نَفتَرِقُ في جاهِلِيَّةٍ ولا إسلامٍ، وإنما نَحنُ وهم شيءٌ واحِدٌ**»، وشَبَّكَ بين أصابِعِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢).

أرادَ الحِلفَ الذي كان بين بَني هاشِمٍ وبَني المُطَّلِبِ في الجاهِلِيَّةِ؛ ولهذا لَمَّا كَتَبَت قُرَيشٌ الصَّحيفَةَ بينهم وبين بَني هاشِمٍ، وحَصَروهم في الشِّعبِ، دَخَلَ بَنو المُطَّلِبِ مع بَني هاشِمٍ، ولم تَدخُل بَنو نَوفَلٍ، وبَنو عبدِ شَمسٍ.

* وكَذلك شَبَّكَ بينها؛ للدَّلالَةِ على جَوازِ التَّمَتُّعِ في أشهُرِ الحَجِّ:

عن جابِرٍ، في حديثِ الحَجِّ الطَّويلِ، وفيه قولُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَو أنِّي استَقبلتُ من**

(١) رواه البخاري (٩٣٥)، ومسلم (٨٥٢)، وعند أحمد (٧٧٦٩): «وأشار بكفِّه، كأنه يقلِّلها»، وفي رواية له -أيضًا- (١٠٥٤٥): «وقبض أصابعه، يقلِّلها».

(٢) رواه أبوداود (٢٩٨٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢٣١٨)، وأصله في البخاري (٣٥٠٢).

أمري ما استَدبَرتُ لم أسُقِ الهَديَ، وجَعَلتُها عُمرَةً، فمَن كان مِنكُم ليس مَعَهُ هَديٌ فليَحِلَّ، وليَجعَلها عُمرَةً».

فَقامَ سُراقَةُ بنُ مالكِ بنِ جُعشُمٍ، فقال يا رسولَ اللهِ، ألِعامِنا هذا أم لأبَدٍ؟ فشَبَّكَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصابِعَهُ واحِدَةً في الأُخرى، وقال: «**دَخَلَتِ العُمرَةُ في الحَجِّ -مَرَّتَينِ- لا، بل لأبَدِ أبَدٍ**»(١).

* وحَثُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على وحدَةِ المسلمينَ؛ فشَبَّكَ أصابِعَهُ:

عن أبي موسَى، عن النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**إنَّ المُؤمِنَ للمُؤمِنِ كالبُنيانِ، يَشُدُّ بعضُهُ بعضًا**»، وشَبَّكَ أصابِعَهُ(٢).

وظاهِرُ الحديثِ الإخبارُ، ومَعناهُ الأمرُ، وفيه: التَّحريضُ على التَّعاوُنِ(٣).

وهذا الحديثُ وأشباهُهُ صَريحٌ في تَعظيمِ حُقوقِ المسلمينَ بعضِهِم على بعضٍ، وحَثِّهِم على التَّراحُمِ والمُلاطَفَةِ والتَّعاضُدِ، في غَيرِ إثمٍ ولا مَكروهٍ، وفيه: جَوازُ التَّشبيهِ، وضَرب الأمثال؛ لتَقريبِ المعاني إلى الأفهامِ(٤).

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَرَى المُؤمِنينَ في تَراحُمِهِم، وتَوادِّهِم، وتَعاطُفِهِم، كَمَثَلِ الجَسَدِ، إذا اشتكَى عُضوًا تَداعَى له سائِرُ جَسَدِهِ بالسَّهَرِ والحُمَّى**»(٥).

* حِسابُ الأعدادِ، بإشارَةِ الأصابِعِ:

مِنَ الطُّرُقِ العَرَبيَّةِ المهجورَةِ: حِسابُ الأعدادِ أو ذِكرُها، عن طَريقِ إشارَةِ الأصابِعِ.

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عَقدُ الحِسابِ اصطِلاحٌ للعَرَبِ، تَواضَعوهُ بينهم؛ لِيَستَغنُوا

---

(١) رواه مسلم (١٢١٨).

(٢) رواه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).

(٣) التَّوضيح لشرح الجامع الصحيح (٦/ ١٨)، كشف المشكل (١/ ٤٠٥).

(٤) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٣٩).

(٥) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

بِهِ عن التَّلَفُّظِ، وكان أكثرُ استعمالهم لهُ، عندَ المساومةِ في البيعِ؛ لقَصدِ سَترِ ذلك عَمَّن يَحضُرُهما.

ومِن ظَريفِ النَّظمِ في ذلك: قولُ بعضِ الأُدَباءِ:

رُبَّ بُرغوثٍ لَيلَةً بتُّ منه — وفُؤادي في قَبضَةِ التِّسعينَ

أسَرَتـهُ يَـدُ الثَّلاثـينَ حتـى — ذاقَ طَعمَ الحِمامِ في السَّبعينَ

وعَقدُ الثَّلاثينَ: أن يُضَمَّ طَرَفُ الإبهامِ، إلى طَرَفِ السَّبَّابَةِ، مِثلُ مَن يُمسِكُ شَيئًا لَطيفًا، كالإبرَةِ.

وعَقدُ السَّبعينَ: أن يَجعَلَ طَرَفَ ظُفُرِ الإبهامِ، بين عُقدَتَي السَّبَّابَةِ، من باطِنِها، ويَلويَ طَرَفَ السَّبَّابَةِ عليها، مِثلُ ناقِدِ الدِّينارِ، عندَ النَّقدِ»[١].

وأمَّا طَريقَةُ هذا الحِسابِ، ودَلالَةُ إشاراتِ الأصابعِ على الأعدادِ، فقَد وضَّحَها الصَّنعانيُّ بقولِهِ: «اعلَم أنَّ قولَهُ في حديثِ ابنِ عمرَ: «**وَعَقَدَ ثَلاثًا وخَمسينَ**»[٢] إشارَةٌ إلى طَريقَةٍ مَعروفَةٍ، تَواطَأت عليها العَرَبُ في عُقودِ الحِسابِ، وهي أنواعٌ مِنَ الآحادِ، والعَشراتِ، والمئين، والأُلوفِ.

أمَّا الآحادُ: **فللواحِدِ**: عَقدُ الخِنصَرِ إلى أقرَبِ ما يَليهِ من باطِنِ الكفِّ، **وللاثنَينِ**: عَقدُ البِنصِرِ مَعَها كَذلك، **وللثَّلاثَةِ**: عَقدُ الوُسطَى مَعَها كَذلك، **وللأربَعَةِ**: حَلُّ الخِنصَرِ، **وللخَمسَةِ**: حَلُّ البِنصِرِ مَعَها، دونَ الوُسطَى، **وللسِّتَّةِ**: عَقدُ البِنصِرِ، وحَلُّ جَميعِ الأنامِلِ، **وللسَّبعَةِ**: بَسطُ البِنصِرِ إلى أصلِ الإبهامِ مِمَّا يَلي الكفَّ، **وللثَّمانيَةِ**: بَسطُ البِنصِرِ فوقَها كَذلك، **وللتِّسعَةِ**: بَسطُ الوُسطَى فوقَها كَذلك.

وأمَّا العَشَراتُ: فلَها الإبهامُ، والسَّبَّابَةُ.

---

(١) فتح الباري (١٣/ ١٠٨).

(٢) عن ابن عمر: «أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا قعد في التَّشهُّد وضع يده اليسرى على ركبته اليسرى، ووضع يده اليمنى على ركبته اليمنى، وعقد ثلاثةً وخمسين، وأشار بالسَّبَّابة». رواه مسلم (٥٨٠).

فللعَشَرَةِ الأولى: عَقدُ رَأسِ الإبهامِ على طَرَفِ السَّبَّابَةِ، **وللعِشرينَ**: إدخالُ الإبهامِ بين السَّبَّابَةِ والوُسطَى، **وللثَّلاثينَ**: عَقدُ رَأسِ السَّبَّابَةِ على رَأسِ الإبهامِ، عَكسَ العَشَرَةِ، **وللأربَعينَ**: تَركيبُ الإبهامِ على العَقدِ الأوسَطِ مِنَ السَّبَّابَةِ، وعَطفُ الإبهامِ إلى أصلِها، **وللخَمسينَ**: عَطفُ الإبهامِ إلى أصلِها، **وللسِّتِّينَ**: تَركيبُ السَّبَّابَةِ على ظَهرِ الإبهامِ، عَكسَ الأربَعينَ، **وللسَّبعينَ**: إلقاءُ رَأسِ الإبهامِ على العَقدِ الأوسَطِ مِنَ السَّبَّابَةِ، ورَدُّ طَرَفِ السَّبَّابَةِ إلى الإبهامِ، **وللثَّمانينَ**: رَدُّ طَرَفِ السَّبَّابَةِ إلى أصلِها، وبَسطُ الإبهامِ على جَنبِ السَّبَّابَةِ، من ناحيَةِ الإبهامِ، **وللتِّسعينَ**: عَطفُ السَّبَّابَةِ إلى أصلِ الإبهامِ، وضَمُّها بالإبهامِ.

وأمَّا المئين: فكالآحادِ إلى تِسعِمائَةٍ، في اليَدِ اليُسرَى، والأُلوفُ كالعَشراتِ، في اليُسرَى[١].

وقد استَخدَمَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بعضَ هَذِهِ الإشاراتِ**؛ لتَبيينِ مِقدارِ شيءٍ، أو لبَيانِ هَيئَتِهِ، أو نَحوِ ذلك، وإن لم يَكُن مُرادُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العَدَدَ المُصطَلَحَ عليه، بالإشارَةِ المعهودَةِ.

فَمِن ذلك:

عن أبي موسَى، عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**مَن صامَ الدَّهرَ ضُيِّقَت عليه جَهَنَّمُ هَكَذا**»، **وقَبَضَ كَفَّهُ**[٢].

وفي رواية: «**وَعَقَدَ تِسعينَ**[٣]»[٤].

وعن أبي عثمانَ النَّهديِّ، قال: أتانا كِتابُ عمرَ، ونَحنُ مع عُتبَةَ بنِ فرقَدٍ بأذرَبيجانَ: أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**نَهَى عن الحَريرِ، إلا هَكَذا**» وأشارَ بإصبَعَيهِ اللَّتَينِ تَليانِ الإبهامَ[٥]، قال أبو عثمانَ: فيما عَلِمنا، أنَّهُ يعني الأعلامَ[٦].

---

(١) سبل السَّلام (١/ ٢٨٢،٢٨٣).

(٢) رواه أحمد (١٩٧١٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٢٠٢).

(٣) عقد التِّسعين: أن يجعل طرف السَّبَّابة اليمنى في أصلها، ويضمَّها ضماً محكماً، بحيث تنطوي عقدتاها، حتى تصير مثل الحيَّة المطوقة. فتح الباري (١٣/ ١٠٨).

(٤) رواه ابن حبَّان (٣٥٨٤)، وابن خزيمة (٢١٥٤).

(٥) وفي رواية مسلم: «ورفع لنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إصبعيه، الوسطى والسَّبَّابة، وضمَّهما».

(٦) وهو ما يكون في الثِّياب من تطريفٍ، وتطريزٍ، ونحوهما. والحديث رواه البخاري (٥٨٢٨)، ومسلم (٢٠٦٩).

وفي رواية: «نَهى عن لُبسِ الحَريرِ، إلا مَوضِعَ إصبَعٍ، أو إصبَعَينِ، أو ثَلاثٍ، أو أربَعٍ»، وأشارَ بكَفِّهِ، وعَقَدَ خَمسينَ[١].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وفي هَذِهِ الرِّوايَةِ**: إباحَةُ العَلَمِ مِنَ الحَريرِ في الثَّوبِ، إذا لم يَزِد على أربَعِ أصابِع، وهذا مَذهَبُنا، ومَذهَبُ الجُمهورِ»[٢].

وعن زَينَبَ بنتِ جَحشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عليها فزِعًا، يقولُ: «**لا إلَهَ إلا اللهُ، ويلٌ للعربِ من شرٍّ قدِ اقتَرَبَ**[٣]، **فُتِحَ اليومَ من رَدمِ يَأجوجَ ومَأجوجَ**[٤] **مِثلُ هَذِهِ**» وحَلَّقَ بإصبَعِهِ الإبهامِ، والتي تَليها.

قالت زَينَبُ بنتُ جَحشٍ: فقُلتُ يا رسولَ اللهِ: أنَهلِكُ وفينا الصَّالحونَ؟ قال: «**نَعَم، إذا كَثُرَ الخَبَثُ**»[٥].

قال العَينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعني: جَعلَ الأصبعَ السّبابَة في أصلِ الإبهامِ، وضَمّها، حتى لم يبق بَينهما إلا خَلَلٌ يَسيرٌ، وهو مِن تَواضُعاتِ الحِسابِ»[٦].

(١) رواه البيهقي (٤٢٠٩)، وهو في مسلم (٢٠٦٩)، دون قوله:« وأشار بكفِّه، وعقد خمسين»، وعقد الخمسين: عطف الإبهام إلى أصلها.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/ ٤٨).

(٣) والمراد بالشرِّ: ما وقع بعده من قتل عثمان، ثمَّ توالت الفتن، حتى صارت العرب بين الأمم، كالقصعة بين الأكلة. فتح الباري (١٣/ ١٠٧).

(٤) المراد بالردم: السَّدُّ الذي بناه ذو القرنين .

(٥) رواه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).

(٦) عمدة القاري (١٥/ ٢٣٨).

توضيحاته ﷺ

يَهتَمُّ التَّدريسُ والتَّعليمُ في زَمانِنا اهتِمامًا بالغًا بوَسائِلِ الإيضاحِ، كالرُّسومِ، والخَرائِطِ، والمُجَسَّماتِ، وغَيرِها، وهي وسائِلُ مُفيدَةٌ، ومُهِمَّةٌ للغايَةِ، في التَّوضيحِ، والتَّعليمِ، وقد استَخدَمَ النبيُّ ﷺ بعضَ هَذِهِ الوَسائِلِ والتَّوضيحاتِ التَّعليميَّةِ؛ فاستَخدَمَ وسائِلَ الإيضاحِ بشَكلٍ سَهلٍ، لا تَكَلُّفَ فيه، يحصلُ به الغَرَضُ، ويُؤَدِّي المقصودَ منه، **فمِن ذلك:**

* التَّوضيحُ بالرسمِ، والخَطِّ:

استَخدَمَ النبيُّ ﷺ الرسمَ والخَطَّ في الأرضِ، بيَدِهِ، أو بعَصًا، ورَسَمَ أشكالًا سَهلَةً، بَليغَةً، مُعَبِّرَةً عن المقصودِ.
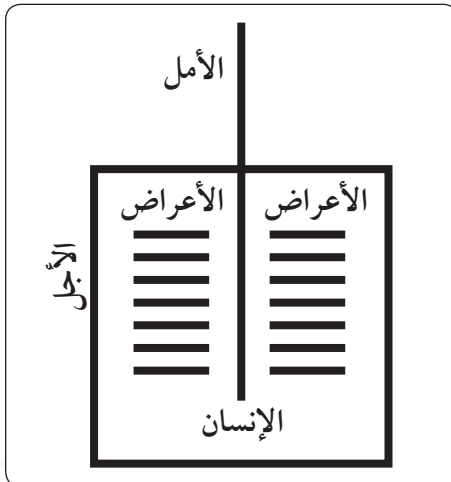
* فمِن ذلك: أنَّهُ رَسَمَ خُطوطًا؛ للتَّعبيرِ عن الإنسانِ، وأجَلِهِ، وأمَلِهِ، وما يَعرِضُ لَهُ:

فعن عبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رضي الله عنه، قال: خَطَّ النبيُّ ﷺ، خَطًّا مُرَبَّعًا، وخَطَّ خَطًّا في الوَسَطِ، خارِجًا منه، وخَطَّ خُطَطًا صِغارًا، إلى هذا الذي في الوَسَطِ، من جانِبِهِ

الذي في الوَسَطِ، وقال: «**هَذا الإنسانُ، وهذا أجَلُهُ مُحيطٌ بهِ** -أو: **قَد أحاطَ بهِ**-، **وهذا الذي هو خارِجٌ أمَلُهُ، وهذه الخُطَطُ الصِّغارُ الأعراضُ، فإن أخطَأهُ هذا نَهَشَهُ هَذا، وإن أخطَأهُ هذا نَهَشَهُ هَذا**»(١).

الأعراضُ: الآفاتُ العارِضَةُ لَهُ.

يعني: إن سَلِمَ من آفَةٍ لم يَسلَم من أُخرَى، وإن سَلِمَ مِنَ الجَميعِ، ولم تُصِبهُ آفَةٌ من مَرَضٍ، أو فقدِ مالٍ، بَغَتَهُ الأجَلُ(٢).

قال ابنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَثَّلَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمَلَ ابنِ آدَمَ وأجَلَهُ وأعراضَ الدُّنيا التي لا تُفارِقُهُ بالخُطوطِ، فجعَلَ أجَلَهُ الخَطَّ المُحيطَ، وجَعَلَ أمَلَهُ وأعراضَهُ خارِجَةً من ذلك الخَطِّ.

ومَعلومٌ في العُقولِ: أنَّ ذلك الخَطَّ المُحيطَ بهِ، الذي هو أجَلُهُ، أقرَبُ إليه مِنَ الخُطوطِ الخارِجَةِ منه»(٣).

وفي هذا الحديثِ مِنَ الفِقهِ:

حُسنُ التَّعليمِ، والتَّوَصُّلِ في تفهيمِ الحِكمَةِ لِمَن لا يَفهَمُها إلا بضَربِ المِثال، والتَّشكيلِ.

وهذا أصلٌ لغَيرِهِ مِنَ الصُّوَرِ، مِمَّا يَتَوَصَّلُ الإنسانُ في تَفهيمِ الناسِ له بضَربٍ مِنَ الأمثال، والأشكال(٤).

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: خَطَّ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُطوطًا، فقال: «**هَذا الأمَلُ، وهذا أجَلُهُ، فبينما هو كَذلك إذ جاءَهُ الخَطُّ الأقرَبُ**»(٥).

وفي رواية: أنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَّ خُطوطًا، وخَطَّ خَطًّا ناحيَةً، ثم قال: «**هَل تَدرونَ**

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٧).

(٢) فتح الباري (١١/ ٢٣٨).

(٣) شرح البخاري لابن بطَّالٍ (١٠/ ١٥٠).

(٤) الإفصاح عن معاني الصِّحاح، لابن هبيرة (٢/ ٩٣).

(٥) رواه البخاري (٦٤١٨).

ما هذا؟ هذا مَثَلُ ابنِ آدمَ، ومَثَلُ المُتَمَنِّي، وذلك الخَطُّ الأمَلُ، بينما هو يَأمُلُ، إذ جاءَهُ الموتُ»(١).

فَبَيَّنَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أنَّ الأجَلَ أقرَبُ إلى الإنسانِ مِمَّا يَتَمَنَّاهُ، فأشارَ بالخَطِّ المُحيطِ بهِ إلى الأجَلِ، ولا شَكَّ أنَّ الذي يُحيطُ بهِ، أقرَبُ إليه مِنَ الخارِجِ عَنهُ(٢).

قال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «**إذ جاءَهُ الخَطُّ الأقرَبُ**»: وهو الأجَلُ المُحيطُ بهِ من كُلِّ جانِبٍ، وأخطَأهُ الخَطُّ الأبعَدُ، الخارِجُ من دائِرَةِ الإحاطَةِ، وهو خَطُّهُ من قُصورِ الأمَلِ، وقال الطِّيبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُهُ: «**فَبينما هو كَذلك**»: أي: هو طالبٌ لأمَلِهِ البَعيدِ، فتُدرِكُهُ الآفاتُ التي هيَ أقرَبُ إليه، فتُؤَدِّيهِ إلى الأجَلِ المُحيطِ بهِ»(٣).

وفي رواية: أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**هَذا ابنُ آدَمَ، وهذا أجَلُهُ**» ووَضَعَ يَدَهُ عندَ قَفاهُ، ثم بَسَطَها فقال: «**وَثَمَّ أمَلُهُ، وثَمَّ أمَلُهُ**»(٤).

يعني: أنَّ أجَلَهُ أقرَبُ إليه من أمَلِهِ(٥).

وفي رواية: أنَّ رسولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمَعَ أصابِعَهُ، فوَضَعَها على الأرضِ، فقال: «**هَذا ابنُ آدَمَ**»، ثم رَفَعَها، فوَضَعَها خَلفَ ذلك قَليلًا، وقال: «**هَذا أجَلُهُ**»، ثم رَمَى بيَدِهِ أمامَهُ، قال: «**وَثَمَّ أمَلُهُ**»(٦).

فالأحاديثُ كُلُّها مُتَوافِقَةٌ، على أنَّ الأجَلَ، أقرَبُ مِنَ الأمَلِ(٧).

فالإنسانُ يَسعَى وراءَ الأمَلِ، والأجَلُ يَسعَى وراءَ الإنسانِ، لكنَّ الأمَلَ بَعيدٌ عن مُتَناوَلِ الإنسانِ، والأجَل أقربُ إليه منه.

---

(١) رواه البيهقي في الكبرى (٦٥٠٥)، وفي الشُّعب (٩٧٧٦)، وابن أبي الدُّنيا في قصر الأمل (٤٨).

(٢) ينظر: فتح الباري (١١/ ٢٣٨).

(٣) مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٢٩٨).

(٤) رواه الترمذي (٢٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٣٢)، وصححه الألباني.

(٥) فتح الباري (١١/ ٢٣٨).

(٦) رواه الإمام أحمد (١٢٢٣٨)، وصححه محققو المسند على شرط مسلم.

(٧) فتح الباري (١١/ ٢٣٨).

فالعاقِلُ يَنشغِلُ بقُربِ الأجَلِ، أعظَم مِنِ انشِغاله بالأمَلِ، ولا يَركَنُ إلى الدُّنيا، ولا يَطمَئِنُّ إلَيها، بل يكونُ كَما قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابنِ عمرَ: «**كُن في الدُّنيا كأنَّكَ غَريبٌ، أو عابِرُ سَبيلٍ**».

وكان ابنُ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يقولُ: «إذا أمسَيتَ فلا تَنتَظِرِ الصَّباحَ، وإذا أصبَحتَ فلا تَنتَظِرِ المساءَ، وخُذ من صِحَّتِكَ لمَرَضِكَ، ومِن حَياتِكَ لمَوتِكَ»[١].

قال ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ: «هَذا الحديثُ أصلٌ في قِصَرِ الأمَلِ في الدُّنيا، وأنَّ المُؤمِنَ لا يَنبَغي له أن يَتَّخِذَ الدُّنيا وطَنًا ومَسكَنًا، فيَطمَئِنَّ فيها، ولكن يَنبَغي أن يكونَ فيها كَأنَّهُ على جَناحِ سَفَرٍ، يُهَيِّئُ جهازَهُ للرَّحيلِ.

وقد اتَّفَقَت على ذلك وصايا الأنبياءِ، وأتباعِهِم»[٢].

وقال بعضُ الحُكَماءِ: «الجاهِلُ يَعتَمِدُ على أمَلِهِ، والعاقِلُ يَعتَمِدُ على عَمَلِهِ»[٣].

يا مَن بدُنياهُ اشتغل	**وغَرَّهُ طولُ الأمل**
الموتُ يأتي بغتةً	**والقبرُ صندوقُ العمل**

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وفي الأمَلِ سِرٌّ لَطيفٌ؛ لأنَّهُ لَولا الأمَلُ ما تَهَنَّى أحَدٌ بعَيشٍ، ولا طابَت نَفسُهُ أن يَشرَعَ في عَمَلٍ من أعمالِ الدُّنيا، وإنما المذمومُ منه: الاستِرسالُ فيه، وعَدَمُ الاستِعدادِ لأمرِ الآخِرَةِ، فمَن سَلِمَ من ذلك، لم يُكَلَّف بإزالَتِهِ»[٤].

* ورَسَمَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُطوطًا؛ للتَّعبيرِ عن الصِّراطِ المُستَقيمِ، وسُبُلِ الشَّيطانِ:

قال عبدُاللهِ بنُ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: خَطَّ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا بيَدِهِ، ثم قال: «**هَذا سَبيلُ اللهِ، مُستَقيمًا**»، قال: ثم خَطَّ عن يَمينِهِ، وشِمالِهِ، ثم قال: «**هَذِهِ السُّبُلُ، وليس منها سَبيلٌ، إلا**

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٦).

(٢) جامع العلوم والحكم (٣/ ١١٢٤).

(٣) أدب الدُّنيا والدِّين (ص١٠٢).

(٤) فتح الباري (١١/ ٢٣٧).

عليه شَيطانٌ يَدعو إليه»، ثم قَرَأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣][(١)].

وعن مُجاهِدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، قال: «البِدَعُ، والشُّبُهاتُ»[(٢)].

وصِراطُ اللهِ المُستَقيمُ، وسَبيلُهُ القَويمُ، هوَ الإسلامُ، لا غَيرُهُ، فالإشارَةُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ «هي إلى الشَّرعِ الذي جاءَ بهِ محمدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بجُملَتِهِ»[(٣)].

فيَدخُلُ فيه: «كُلُّ ما بَيَّنَهُ الرسولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من دينِ الإسلامِ، وهو المنهجُ القَويمُ، والصِّراطُ المُستَقيمُ؛ فاتَّبِعوا جُملَتَهُ، وتَفصيلَهُ، ولا تَعدِلوا عَنهُ، فتَقَعوا في الضَّلالاتِ»[(٤)].

ونُلاحِظُ في الآيةِ كَيفَ قال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾؛ فوَحَّدَ (سَبيلَهُ)، وجَمَعَ السُّبُلَ الأُخرَى، فقال: (السُّبُلَ)؛ لأنَّ الحَقَّ واحِدٌ، وباقي السُّبُلِ الأُخرَى مُتَفَرِّقَةٌ، ومُتَشَعِّبَةٌ؛ كَما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]؛ فجَمَعَ (الظُّلُماتِ)، ووَحَّدَ (النُّورَ)[(٥)]، فالصِّراطُ واحِدٌ، والسَّبيلُ المُوَصِّلُ له واحِدٌ، واللهُ هو المُعينُ للسَّالكينَ على سُلوكِهِ[(٦)].

وقال جابِرُ بنُ عبدِاللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنَّا عندَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخَطَّ خَطًّا، وخَطَّ خَطَّينِ عن يَمينِهِ، وخَطَّ خَطَّينِ عن يَسارِهِ، ثم وضَعَ يَدَهُ في الخَطِّ الأوسَطِ، فقال: «هَذا سَبيلُ اللهِ»، ثم تَلا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣][(٧)].

---

(١) رواه الإمام أحمد (٤١٣١)، وحسنه الألباني.

(٢) تفسير الطبري (٩/ ٦٧٠).

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/ ٣٦٣).

(٤) تفسير الرازيِّ (١٤/ ١٨٥).

(٥) تفسير ابن كثير (١/ ٦٨٥، ٣/ ٣٦٧).

(٦) تفسير السعدي (ص٢٨٠).

(٧) رواه ابن ماجه (١١)، وصححه الألباني.

وهذا الحديثُ، والذي قبلَهُ، أصلٌ عَظيمٌ في لُزومِ السُّنَّةِ والإسلامِ بَوَسَطيَّتِهِ، بلا إفراطٍ، ولا تَفريطٍ، واجتِنابِ البِدَعِ والأهواءِ.

قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «خَيرُ الناسِ: هذا النَّمَطُ الأوسَطُ، يَلحَقُ بِهِمُ التَّالي، ويَرجِعُ إليهمُ الغالي»(١).

وفي الحديثِ: «**ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِراطًا مُستَقيمًا، وعلى جَنبَتَيِ الصِّراطِ سورانِ، فيهما أبوابٌ مُفَتَّحَةٌ، وعلى الأبوابِ سُتورٌ مُرخاةٌ، وعلى بابِ الصِّراطِ داعٍ يقولُ: أيُّها الناسُ، ادخُلوا الصِّراطَ جَميعًا، ولا تَتَفَرَّجوا، وداعٍ يَدعو من جَوفِ الصِّراطِ، فإذا أرادَ يَفتَحُ شَيئًا من تِلكَ الأبوابِ، قال: ويحَكَ! لا تَفتَحهُ؛ فإنَّكَ إن تَفتَحهُ تَلِجهُ، والصِّراطُ: الإسلامُ، والسُّورانِ: حُدودُ اللهِ تعالى، والأبوابُ المُفَتَّحَةُ: مَحارِمُ اللهِ تعالى، وذلك الدَّاعي على رَأسِ الصِّراطِ: كِتابُ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ، **والدَّاعي فوقَ الصِّراطِ: واعِظُ اللهِ في قَلبِ كُلِّ مُسلِمٍ**»(٢).

* ورَسَمَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خُطوطًا أربَعَةً؛ تَعبيرًا عن أفضَلِ نِساءِ أهلِ الجَنَّةِ:

فَعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: خَطَّ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الأرضِ خُطوطًا أربَعَةً، قال: «**أتَدرونَ ما هَذا؟**»، قالوا: اللهُ ورسولُهُ أعلَمُ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أفضَلُ نِساءِ أهلِ الجَنَّةِ: خديجَةُ بنتُ خوَيلِدٍ، وفاطمةُ بنتُ محمدٍ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، **ومَريَمُ بنتُ عِمرانَ، وآسيَةُ بنتُ مُزاحِمٍ، امرَأةُ فِرعَونَ**»(٣).

فالنبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ استَعمَلَ الرسمَ بالخَطِّ هُنا، وبدَأ بالسّؤال؛ تَنبيهًا لأصحابِهِ، وتَشويقًا لَهم لما سَيَذكُرُهُ بعدَ هذا الرسمِ وهذا السّؤال، وهذا من أساليبِ التَّعليمِ المُفيدَةِ، التي تُرَسِّخُ المعلومَةَ في ذِهنِ المُتعَلِّمِ.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٤٤٩٨)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٢٦٧٩).

(٢) رواه الترمذي (٢٨٥٩)، والإمام أحمد (١٧٦٣٤)، وصححه محققو المسند.

(٣) رواه الإمام أحمد (٢٩٠١)، والنسائي الكبرى (٨٣٠٦)، وابن حبَّان (٧٠١٠)، وصححه محققو المسند.

* التَّعليمُ بالحَصَى:

مِن وسائِلِ النبيِّ ﷺ التَّعليميَّة: استِخدامُ الحَصَى في التَّعليمِ؛ للَفتِ الانتِباهِ، وتأكيدِ الأمرِ، **فمِن ذلك:**

* استِعمالُهُ ﷺ الحَصَى؛ للتَّعبيرِ عن أجَلِ الإنسانِ، وأمَلِهِ:

بَيَّنَ النبيُّ ﷺ قضيَّةَ أجَلِ الإنسانِ، وأمَلِهِ، وأنَّ أجَلَهُ أسبَقُ إليه من أمَلِهِ، بأكثَرَ من أُسلوبٍ، فبَيَّنَها بالرسمِ، والخَطِّ، وبالإشارَةِ باليَدِ -وقد تقدّم ذلك- وبَيَّنَها -أيضًا- بالحَصَى.

فعن أنسٍ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أخَذَ ثَلاثَ حَصَياتٍ، فوَضَعَ واحِدَةً، ثم وضَعَ أُخرَى بين يَدَيهِ، ورَمَى بالثالثَةِ، فقال: «**هَذا ابنُ آدَمَ، وهذا أجَلُهُ، وذاكَ أمَلُهُ**» التي رَمَى بها[1].

فَرَميُهُ ﷺ للحَصاةِ؛ تَعبيرًا عن الأمَلِ، دَلالَةٌ على أنَّ أجَلَ الإنسانِ أقرَبُ إليه من أمَلِهِ.

وفيه: تَقريبُ المعنى، بالشَّيءِ المحسوسِ.

* واستَعمَلَ ﷺ الحَصَى، ودَحرَجَهُ على رِجلِهِ؛ تَعبيرًا عن رَفعِ الأمانَةِ في آخِرِ الزَّمانِ:

فعن حُذَيفَةَ رضي الله عنه، قال: حَدَّثَنا رسولُ اللهِ ﷺ حديثَينِ، قَد رَأيتُ أحَدَهما، وأنا أنتَظِرُ الآخَرَ، حَدَّثَنا: «**أنَّ الأمانَةَ نَزَلَت في جَذرِ قُلوبِ الرِّجالِ، ثم نَزَلَ القُرآنُ، فعَلِموا مِنَ القُرآنِ، وعَلِموا مِنَ السُّنَّةِ**».

ثم حَدَّثَنا عن رَفعِ الأمانَةِ، قال: «**يَنامُ الرجُلُ النَّومَةَ، فتُقبَضُ الأمانَةُ من قَلبِهِ، فيَظَلُّ أثَرُها**

---

(١) رواه الإمام أحمد (١٣٧٩٥)، وصححه محققو المسند.

مِثلَ الوَكتِ[١]، ثم يَنامُ النَّومَةَ، فتُقبَضُ الأمانَةُ من قَلبِهِ، فيَظَلُّ أثَرُها مِثلَ المجلِ[٢]، كَجَمرٍ دَحرَجتَهُ على رِجلِكَ فنَفِطَ[٣]، فتَراهُ مُنتَبِرًا[٤] وليس فيه شيءٌ - ثم أخَذَ حَصًى، فدَحرَجَهُ على رِجلِهِ - **فيُصبِحُ الناسُ يَتَبايَعونَ، لا يَكادُ أحَدٌ يُؤَدِّي الأمانَةَ، حتى يُقال: إنَّ في بَني فُلانٍ رَجُلًا أمينًا، حتى يُقال للرَّجُلِ: ما أجلَدَهُ! ما أظرَفهُ! ما أعقَلَهُ! وما في قَلبِهِ مِثقال حَبَّةٍ من خَردَلٍ من إيمانٍ**»[٥].

فَوَضَّحَ النبيُّ ﷺ ذَهابَ الأمانَةِ من قُلوبِ الناسِ، وبَقاءَ أثَرِها الذي لا يُفيدُ شَيئًا، بالحَصَى الذي دَحرَجَهُ على رِجلِهِ الشَّريفِ؛ زيادَةً في البَيانِ، وإيضاحًا للمَعلومَةِ.

قال ابنُ المُلَقِّنِ، عن هذا الحديثِ:

«وَهوَ من أعلامِ نُبوَّتِهِ ﷺ؛ لأنَّ فيه الإخبارَ عن فسادِ أديانِ الناسِ وقِلَّةِ أمانَتِهِم في آخِرِ الزَّمانِ، ولا سَبيلَ إلى مَعرِفَةِ ذلك قبلَ كَونِهِ إلا من طَريقِ الوَحيِ، وهذا كَقولِهِ ﷺ: «**بَدَأ الإسلامُ غَريبًا، وسَيَعودُ كَما بَدَأ**»[٦]»[٧].

*** واستَعمَلَ ﷺ الحَصَى، وضَرَبَ بِهِ الأرضَ؛ تَنويهًا بشَأنِ مَسجِدِهِ النبويِّ الشَّريفِ:**

فعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه، قال: دَخَلتُ على رسولِ اللهِ ﷺ في بَيتِ بعضِ نِسائِهِ، فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أيُّ المسجِدَينِ[٨] الذي أُسِّسَ على التَّقوَى؟ قال: فأخَذَ كَفًّا من حَصباءَ[٩]، فضَرَبَ بِهِ الأرضَ، ثم قال: «**هوَ مَسجِدُكُم هَذا**»، لَمسجِدِ المدينَةِ[١٠].

---

(١) الأثر في الشيَّء، كالنُّقطة من غير لونٍ.

(٢) الأثر الذي فيه ما يشبه البثر.

(٣) أصابته قرحةٌ.

(٤) مرتفعًا في الجسم.

(٥) رواه البخاري (٦٤٩٧)، ومسلم (١٤٣).

(٦) رواه مسلم (١٤٥).

(٧) التَّوضيح لشرح الجامع الصحيح (٣٢/ ٣٤٥).

(٨) مسجد قباء، ومسجد المدينة.

(٩) الحصى الصِّغار.

(١٠) رواه مسلم (١٣٩٨).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أمَّا أخذُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحصباءَ، وضَربُهُ في الأرضِ؛ فالمُرادُ بِهِ: المُبالَغةُ في الإيضاحِ؛ لبَيانِ أنَّهُ مَسجِدُ المدينَةِ»[1].

تَنبيهٌ:

مِنَ المعروفِ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨] نَزَلَ في مَسجِدِ قُباءَ.

«ولا مُنافاةَ بين الآيةِ، وبين هَذا[2]؛ لأنَّهُ إذا كان مَسجِدُ قُباءٍ قَد أُسِّسَ على التَّقوَى من أوَّلِ يومٍ، فمَسجِدُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطَريقِ الأَولى والأَحرَى»[3].

وقال الحافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «والحَقُّ: أنَّ كُلًّا منهما أُسِّسَ على التَّقوَى، وقولُهُ تعالى في بَقيَّةِ الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ [التوبة: ١٠٨]، يؤيد كونَ المرادِ مسجدَ قُباءٍ... وعلى هَذا: فالسِّرُّ في جَوابِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنَّ المسجِدَ الذي أُسِّسَ على التَّقوَى مَسجِدُهُ: رَفعُ تَوَهُّمِ أنَّ ذلك خاصٌّ بمَسجِدِ قُباءٍ»[4].

* التَّعليمُ بالعَصا:

كان من عادَةِ العَرَبِ أخذُ المِخصَرَةِ[5]، والعَصا، والاعتِمادُ عليها عندَ الكلامِ، وفي المحافِلِ، والخُطَبِ.

والعَصا: مَأخوذةٌ مِن أصلٍ كَريمٍ، وقد جَمَعَ اللهُ تعالى لموسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ في عَصاهُ مِنَ البَراهينِ العِظامِ، ما آمَنَ بِهِ السَّحَرَةُ المُعانِدونَ.

---

(١) شرح النووي على مسلم (٩/ ١٦٩).

(٢) هذا الحديث.

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٢١٤).

(٤) فتح الباري (٧/ ٢٤٥).

(٥) ما يختصره الإنسان بيده فيمسكه، من عصًا، أو عكَّازةٍ، أو مقرعةٍ، ونحوها.

واتَّخَذَها سُلَيمانُ بنُ داودَ لخُطبَتِهِ، وطولِ صَلاتِهِ.

وكان ابنُ مَسعودٍ صاحِبَ عَصا رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعَنَزَتِه.

وكان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يَخطُبُ بالقَضيبِ، وكَفَى بذلك دَليلًا على شَرَفِ حال العَصا، وعلى ذلك الخُلَفاءُ، والخُطَباءُ[1].

وقد استَعمَلَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العَصا، أوِ العودَ، في التّفكيرِ والتّنبيهِ، فمِن ذلك:

*** أنَّهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نكَتَ بعودٍ، أو مِخصَرَةٍ، في الأرضِ؛ تَنبيهًا لأصحابِهِ، للتَّفكُّرِ في شيءٍ مُهِمٍّ:**

فعن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنَّهُ كان في جِنازَةٍ، فأخَذَ عودًا، يَنكُتُ في الأرضِ، فقال: «**ما مِنكُم من أحَدٍ، إلا وقد كُتِبَ مَقعَدُهُ مِنَ النارِ، أو مِنَ الجَنَّةِ**»، قالوا: يا رسولَ اللهِ، أفَلا نَتَّكِلُ؟ قال: «**اعمَلوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ**، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٥-٦]...الآيةَ»[2].

وفي رواية: «كُنَّا في جنازَةٍ، في بَقيعِ الغَرقَدِ، فأتانا النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقَعَدَ، وقَعَدنا حَولَهُ، ومَعَهُ مِخصَرَةٌ، فنكَّسَ، فجَعَلَ يَنكُتُ بِمِخصَرَتِهِ ...» الحديث[3].

قال الحافِظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**المِخصَرَةُ**: عَصًا أو قَضيبٌ، يُمسِكُهُ الرئيسُ؛ ليَتَوكَّأ عليه، ويَدفَعُ بِهِ عَنهُ، ويُشيرُ بهِ لما يُريدُ، وسُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها تُحمَلُ تحتَ الخِصرِ -غالبًا-؛ للاتِّكاءِ عليها»[4].

فَضَربُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العودَ، أوِ العَصا، في الأرضِ ليس هو مِنَ العَبَثِ المذمومِ، بل هذا يَقَعُ مِنَ العاقِلِ عندَ التَّفَكُّرِ في شيءٍ مُهِمٍّ، وفيه تَنبيهٌ لأصحابِهِ على ما سَيقولُهُ بعدَ ذلك.

قال الحافِظُ ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يُعَدُّ مِنَ العَبَثِ المذمومِ؛ لأنَّ ذلك إنما يَقَعُ مِنَ العاقِلِ

---

(١) انظر: التَّوضيح، لابن الملقن (٢٨/ ٦٤٧)، شرح صحيح البخاري، لابن بطَّال (٩/ ٣٦٢)، عمدة القاري (٢٢/ ٢٢٢).

(٢) رواه البخاري (٤٩٤٦)، ومسلم (٢٦٤٧).

(٣) رواه البخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧)

(٤) فتح الباري (١١/ ٤٩٦).

عندَ التَّفكُّرِ في الشَّيءِ، ثم لا يَستعمِلُهُ فيما يَضُرُّ تأثيرُهُ فيه، بخِلافِ مَن يَتَفَكَّرُ وفي يَدِهِ سِكِّينٌ، فيَستَعمِلُها في خَشَبَةٍ تكونُ في البِناءِ، فتُحدِثُ فيها فسادًا[١]، فذاك هو العَبَثُ المذمومُ»[٢].

* ونكَتَ بالعودِ في الأرضِ؛ مُتفكّرًا:

عنِ البَراءِ بنِ عازِبٍ، قال: خرجنا مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جَنازَةِ رَجُلٍ مِنَ الأنصارِ، فانتَهَينا إلى القَبرِ، ولَمَّا يُلحَد، فجَلَسَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجَلَسنا حَولَهُ كَأَنَّما على رُءوسِنا الطَّيرُ، وفي يَدِهِ عودٌ يَنكُتُ بِهِ في الأرضِ، فرَفَعَ رَأسَهُ، فقال: «**استَعيذوا باللهِ من عَذابِ القَبرِ**» ... وذَكَرَ الحديثَ[٣].

وفي صَمتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونكتِهِ بالعودِ في الأرضِ، تَوضيحٌ جَليٌّ لصورةِ الحالِ، ولِذلك جَلَسَ أصحابُهُ حَولَهُ، كَأَنَّما على رُءوسِهمُ الطَّيرُ، وليسَ حالٌ هو أدعَى للتّفكُّرِ والاعتبارِ، مِن مِثلِ هذِهِ الحالِ.

* واستَعمَلَ العَصا؛ للتَّمثيلِ:

فعن أنسِ بنِ مالكٍ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بشَجَرَةٍ يابِسَةِ الوَرَقِ، فضَرَبَها بعَصاهُ، فتَناثَرَ الوَرَقُ، فقال: «**إنَّ الحَمدُ[٤] للهِ، وسُبحانَ اللهِ، ولا إلَهَ إلا اللهُ، واللهُ أكبَرُ، لَتُساقِطُ من ذُنوبِ العبدِ، كَما تَساقَطَ ورَقُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ**»[٥].

والمعنى: أنَّ هَذِهِ الكلِماتِ، تُساقِطُ ذُنوبَ العبدِ، فتَتَساقَطُ، كَما تَساقَطَ ورَقُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ[٦].

---

(١) في الأصل: «الذي فيها فسادًا»، ولعل الصواب ما أثبتنا.

(٢) فتح الباري (١٠/ ٥٩٧).

(٣) رواه أبوداود (٤٧٥٣)، وأحمد (١٨٥٣٤)، وصححه محققو المسند.

(٤) قال القاري: «بالرفع؛ على الحكاية، أو على الابتدائيَّة، وفي نسخةٍ: بالنَّصب، وهو ضعيفٌ» مرقاة المفاتيح (٤/ ١٦٠٧)، وقال الطِّيبيُّ: «هذه الكلمات كلُّها بالنَّصب على اسم إن، وخبرها قوله: «لتساقط» بضمِّ التَّاء، من باب المفاعلة» تحفة الأحوذي (٩/ ٣٦١).

(٥) رواه الترمذي (٣٥٣٣)، وحسنه الألباني.

(٦) تحفة الأحوذي (٩/ ٣٦١).

* ومَثّلَ بتَحاتِّ ورَقِ غُصنِ الشّجرةِ اليابِسِ، عن تَحاتِّ خَطايا المُصلِّي عَنهُ:

فعن أبي عثمانَ قال: كنتُ مع سَلمانَ الفارِسيِّ تحتَ شَجَرَةٍ، وأخَذَ منها غُصنًا يابِسًا، فهَزَّهُ، حتى تَحاتَّ ورَقُهُ، ثم قال: يا أبا عثمانَ، ألا تَسألُني لِمَ أفعَلُ هَذا؟ قُلتُ: ولِمَ تَفعَلُهُ؟ فقال: هَكَذا فعَلَ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وأنا مَعَهُ تحتَ شَجَرَةٍ، فأخَذَ منها غُصنًا يابِسًا، فهَزَّهُ، حتى تَحاتَّ ورَقُهُ، فقال: «**يا سَلمانُ، ألا تَسألُني لِمَ أفعَلُ هَذا؟**» فقُلتُ: ولِمَ تَفعَلُهُ؟ قال: «**إنَّ المسلمَ إذا تَوَضَّأَ، فأحسَنَ الوُضوءَ، ثم صَلَّى الصَّلَواتِ الخَمسَ، تَحاتَّت**[1] **خَطاياهُ، كَما يَتَحاتّ هذا الوَرَقُ. وقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾** [هود: ١١٤]»[2].

* ورُبّما استعانَ في تَفسيرِ آيةٍ بمِثالٍ تَوضِحيٍّ:

فعن بُسرِ بنِ جَحَّاشٍ القُرَشيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: تَلا رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ٣٦ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ٣٧ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ٣٨ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٦-٣٩]، ثم بَزَقَ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على كَفِّهِ، فقال: «**يقولُ اللهُ: يا ابنَ آدَمَ، أنَّى تُعجِزُني وقد خَلَقتُكَ من مِثلِ هَذِهِ؟ حتى إذا سَوَّيتُكَ، وعَدَلتُكَ، مَشَيتَ بين بُردَتَينِ، وللأرضِ مِنكَ وئيدٌ، فجَمَعتَ، ومَنَعتَ، حتى إذا بَلَغَتِ التَّراقيَ، قُلتَ: أتَصدَّقُ، وأنَّى أوانُ الصَّدَقةِ؟**»[3].

وفي رواية: بَصَقَ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ -يومًا- في كَفِّهِ، ووَضَعَ عليها إصبَعَهُ السَّبَّابَةَ، وقال: ... فذَكَرَهُ[4].

وهذا من ألطَفِ ما تَقومُ بِهِ الحُجّةُ على الخَلقِ، ومِن أحسَنِ ما يُتَعَرّفُ بِهِ على قَدرِ النّفسِ، مِمّا يوجِبُ التُّواضُعَ، ويَمنَعُ التّرَفُّعَ.

---

(١) أي: تساقطت.

(٢) رواه الإمام أحمد (٢٣٧٠٧)، وحسنه محققو المسند، لغيره.

(٣) رواه الحاكم (٣٨٥٥)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٤) رواه ابن ماجه (٢٧٠٧)، وأحمد (١٧٨٤٢)، وصححه البوصيريُّ في الزُّوائد (٣/ ١٤٣).

* استِخدامُ الأشياءِ بعَينِها؛ لبَيانِ حُكمِها:

مِن وسائِلِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التَّعليميَّةِ: أنَّهُ كان يَأخُذُ -أحيانًا- الشَّيءَ الذي يُريدُ أن يُبيِّنَ حُكمَهُ، أو يَلفِتَ النَّظَرَ إليه، ويُشيرُ بِهِ للنَّاسِ، وهذا أبلَغُ من مُجَرَّدِ الإشارَةِ إليه.

* فَمِن ذلك: أخذُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحَريرَ والذَّهَبَ في يَدِهِ؛ ليبيّنَ حُكمَهما:

فعن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: إنَّ نَبيَّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخَذَ حَريرًا، فجَعَلَهُ في يَمينِهِ، وأخَذَ ذَهَبًا، فجَعَلَهُ في شِمالِهِ، ثم قال: «**إنَّ هَذَينِ حَرامٌ على ذُكورِ أُمَّتي، حِلٌّ لإناثِهِم**»(١).

قال السِّنديُّ: «المُرادُ(٢): استِعمالُهُما لُبسًا، وإلا فالاستِعمالُ: صرفًا، وإنفاقًا، وبيعًا، جائزٌ للكُلِّ، واستِعمالُ الذَّهَبِ باتِّخاذِ الأوانيِّ منه واستِعمالِها، حَرامٌ للكُلِّ»(٣).

* ومِن ذلك: أخذُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبَرَةً من جَنبِ بَعيرٍ؛ بَيانًا لهم عن عِفَّتِهِ عن أموال المسلمينَ، ليَحُثَّ على ذلك غَيرَهُ:

فعن عُبادَةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: أخَذَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ حُنَينٍ وبَرَةً من جَنبِ بَعيرٍ، فقال: «**يا أيُّها الناسُ، إنَّهُ لا يَحِلُّ لي مِمَّا أفاءَ اللهُ عليكم قَدرُ هَذِهِ، إلا الخُمُسُ، والخُمُسُ مَردودٌ عليكم**»(٤).

وفي رواية: قال عُبادَةُ بنُ الصَّامِتِ: صَلَّى بنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ حُنَينٍ، إلى جَنبِ بَعيرٍ مِنَ المقاسِمِ، ثم تَناوَلَ شَيئًا مِنَ البَعيرِ، فأخَذَ منه قَرَدَةً -يعني: وبَرَةً-، فجَعَلَ بين إصبَعَيهِ، ثم قال: «**يا أيُّها الناسُ، إنَّ هذا من غَنائِمِكُم، أدُّوا الخَيطَ، والمِخيَطَ**(٥)**، فما فوقَ ذلك، وما دونَ ذلك؛ فإنَّ الغُلولَ عارٌ على أهلِهِ يومَ القيامَةِ، وشَنارٌ، ونارٌ**»(٦).

---

(١) رواه أبوداود (٤٠٥٧)، والنسائي (٥١٤٤)، وابن ماجه (٣٥٩٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٧٤).

(٢) يعني: بالتَّحريم.

(٣) حاشية السِّنديِّ على سنن النسائي (٨/ ١٦٠).

(٤) رواه النسائي (٤١٣٨)، وابن ماجه (٢٨٥٠)، وصححه الألباني في التعليقات الحسان (٤٨٣٥).

(٥) الآلة التي يخاط بها.

(٦) رواه ابن ماجه (٢٨٥٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٨٥).

فأرادَ النبيُّ ﷺ أن يُبيِّنَ للمُسلِمينَ شَناعَةَ الغُلولِ مِنَ الغَنائِمِ، مَهما كان الشَّيءُ المغلولُ تافِهًا.

لكنَّهُ لم يَكتَفِ بالكلامِ وحدَهُ؛ بل استَخدَمَ الأشياءَ الحَقيقيَّةَ؛ لتَوضيحِ المقصودِ، فأخَذَ بين إصبَعَيهِ وبَرَةً من جِلدِ البَعيرِ، مُبَلِّغًا إيَّاهم أنَّ ذلك -رَغمَ تَفاهَتِهِ- مَعدودٌ مِنَ الغَنائِمِ، ولا شَكَّ أنَّ ذلك أشَدُّ تَوضيحًا، وأجلى بَلاغًا، مِنَ الكلامِ وحدَهُ.

إنصاتُهُ واستماعُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لا شكَّ أنّ السَّمعَ من نعم اللهِ عَزَّوَجَلَّ العَظيمَةِ، وقد امتنَّ اللهُ بنِعمَتِهِ تِلكَ على عِبادِهِ، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

ولأهمِّيَّةِ السَّمعِ والبَصرِ، كان من هَديِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **الذي عَلَّمَهُ لأصحابِهِ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، **أن يَسألوا اللهَ المُعافاةَ في السَّمعِ والبَصَرِ، صَباحًا ومَساءً:**

فعن عبدِالرحمَنِ بنِ أبَي بكرَةَ، أنَّهُ قال لأبيهِ: يا أبَتِ، إنِّي أسمَعُكَ تَدعو كُلَّ غَداةٍ: «اللهمَّ عافِني في بَدَني، اللهمَّ عافِني في سَمعي، اللهمَّ عافِني في بَصَري، لا إلَهَ إلا أنتَ» تُعيدُها ثَلاثًا حينَ تُصبِحُ، وثَلاثًا حينَ تُمسي، وتقولُ: «اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ مِنَ الكُفرِ والفَقرِ، اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ من عَذابِ القَبرِ، لا إلَهَ إلا أنتَ»، تُعيدُها حينَ تُصبِحُ ثَلاثًا، وثَلاثًا حينَ تُمسي، قال: نعم يا بُنَيَّ، إنِّي سمعتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدعو بهِنَّ، فأُحِبُّ أن أستَنَّ بسُنَّتِهِ[1].

وعن عبدِاللهِ بنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: قَلَّما كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقومُ من مَجلِسٍ، حتى يَدعوَ بهَؤُلاءِ الدَّعَواتِ لأصحابِهِ: «**اللهمَّ اقسِم لَنا من خَشيَتِكَ ما يَحولُ بينَنا وبينَ مَعاصيكَ، ومِن طاعَتِكَ ما تُبَلِّغُنا بِهِ جَنَّتَكَ، ومِنَ اليَقينِ ما تُهَوِّنُ بِهِ عَلَينا مُصيباتِ الدُّنيا،**

---

(١) رواه أبوداود (٥٠٩٠)، وأحمد (٢٠٤٣٠)، وحسنه الألباني.

ومَتِّعنا بأسماعِنا، وأبصارِنا، وقوَّتِنا، ما أحيَيْتَنا، واجعَلْهُ الوارِثَ مِنَّا، واجعَل ثأرَنا على مَن ظَلَمَنا، وانصُرنا على مَن عادانا، ولا تَجعَل مُصيبَتَنا في دينِنا، ولا تَجعَلِ الدُّنيا أكبَرَ هَمِّنا، ولا مَبلَغَ عِلمِنا، ولا تُسَلِّط عَلَينا مَن لا يَرحَمُنا»(١).

«**واجعَلْهُ الوارِثَ مِنَّا**»: أي: أبقِهِ مَعي، حتى أموتَ.

وقيل: يَجوزُ أن يكونَ أرادَ بَقاءَ السَّمعِ والبَصَرِ، بعدَ الكِبَرِ وانحِلال القوَى، فيكون السَّمعُ والبَصَرُ وارِثي سائِرِ القوَى، والباقينَ بعدَها، ورَدَّ الهاءَ إلى الإمتاعِ، فلِذلك وحَّدَهُ، فقال: «**واجعَلْهُ الوارِثَ مِنَّا**»(٢).

الفَرقُ بين الاستماعِ، والإنصاتِ:

هاتانِ الكلِمَتانِ تُستَعمَلانِ كَمُرادِفينِ، ولكن عندَ التَّدقيقِ في مَعناهما اللُّغَويِّ، نَجِدُ بينهما فرقًا، يَظهَرُ -مَثَلًا- في قولِهِ سبحانه: ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

قال السّعديُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: «الفَرقُ بين الاستماعِ والإنصاتِ: أنَّ الإنصاتَ في الظَّاهِرِ، بتركِ التّحدّثِ، أوِ الاشتِغال بما يَشغَلُ عن استماعِهِ.

وأمَّا الاستماعُ لَهُ: فهو أن يُلقيَ سَمعَه، ويُحضِرَ قَلبَه، ويتدبّرَ ما يَستمِعُ، فإنّ مَن لازمَ على هَذَينِ الأمرينِ حينَ يُتلى كِتابُ اللهِ، فإنّه يَنالُ خَيرًا كَثيرًا، وعِلمًا غزيرًا، وإيمانًا مُستمرًّا مُتجدِّدًا، وهُدًى مُتزايدًا، وبَصيرةً في دينِهِ؛ ولهذا رَتّبَ اللهُ حُصولَ الرّحمةِ عليهما، فدَلّ ذلك على أنَّ مَن تُليَ عليه الكِتابُ، فلَم يَستَمع لَهُ ويُنصت، أنّهُ مَحرومُ الحَظِّ مِنَ الرّحمةِ، قَد فاتَهُ خَيرٌ كَثيرٌ»(٣).

والرسولُ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يَجمَعُ بين الإنصاتِ والاستماعِ عندَ الوَحيِ، أو إذا حَدَّثَهُ مُحَدِّثٌ ما، كَما سَيتبيَّنُ لَنا إن شاءَ اللهُ تعالى.

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٠٢)، وحسنه الألباني.

(٢) شرح السنة، للبغوي (٥/ ١٧٥).

(٣) تفسير السعدي (ص٣١٤).

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

فكان من هؤلاءِ المُنافقينَ مَن يُؤذي النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ أي: يقبلُ كلَّ ما يُقال لهُ، لا يُميِّزُ بينَ صادقٍ، وكاذبٍ، وقَصدُهم -قَبَّحهمُ اللهُ- فيما بينهم: أنَّهم غيرُ مُكتَرِثينَ بذلك، ولا مُهتَمِّينَ به؛ لأنَّه إذا لم يَبلغهُ، فهذا مَطلوبُهم، وإن بَلَغَهُ، اكتفَوا بمُجرَّدِ الاعتذارِ الباطِلِ.

فأساءوا كلَّ الإساءَةِ مِن أوجُهٍ كثيرةٍ، أعظمُها: أذيَّةُ نبيِّهم، ثمَّ عَدَمُ اهتمامِهم بذلك، وقَدحُهم في عَقلِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنّه لا يُفرِّقُ بين الصَّادقِ، والكاذِبِ، وهو أكمَلُ الخَلقِ عَقلًا، وأتمُّهم إدراكًا، وأثقبُهم رأيًا، وبصيرةً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي: يَقبَلُ مَن قال له خيرًا، وصِدقًا.

وأما إعراضُه، وعَدمُ تعنيفِه لكثيرٍ مِنَ المُنافقينَ المُعتذِرينَ بالأعذارِ الكذِبِ: فلِسَعةِ خُلُقِه، وعدمِ اهتمامِه بشأنِهم، وأمَّا حقيقَةُ ما في قلبه ورأيه، فإنّه: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الصَّادقينَ المُصدِّقينَ، ويَعلمُ الصَّادقَ مِنَ الكاذِبِ، وإن كان كثيرًا ما يُعرِضُ عن الذينَ يَعرِفُ كَذِبَهم، وعدمَ صدقِهم[1].

فكان سماعُهُ منهم مِن حُسنِ خُلقِه، وكريمِ صِفاتِه، لا -كما يَزعُمونَ بالباطِلِ- مِن ضَعفِ العَقلِ، وعَدمِ الإدراكِ.

*** وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا نَزَلَ عليه الوَحيُ، يُحرِّكُ شَفتَيهِ بالآياتِ التي نَزَلَ بها الوَحيُ؛ ليَحفظَها، فأمَرَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالاستماعِ، والإنصاتِ:**

فعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: «كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعالجُ مِنَ التَّنزيلِ شِدَّةً، وكان مِمَّا يُحرِّكُ شَفتَيهِ[2]، فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾

---

(١) تفسير السعدي (ص٣٤١).

(٢) أي: كان كثيرًا ما يحرِّك شفتيه.

[القيامة: ١٦-١٧]، جَمعَهُ لَكَ في صَدرِكَ، وتَقرأهُ، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨]، قال: فاستَمِع لَهُ، وأنصِت، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٩] ثم إنَّ عَلَينا أن تقرأهُ.

فكان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدَ ذلك إذا أتاهُ جبريلُ استمَعَ، فإذا انطَلَقَ جبريلُ قَرَأهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قَرَأهُ»(١).

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعني: أنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان إذا جاءَهُ جبريلُ بالوَحيِ، كُلَّما قال جبريلُ آيةً قالها مَعَهُ؛ من شِدَّةِ حِرصِهِ على حِفظِ القُرآنِ، فأرشَدَهُ اللهُ تعالى إلى ما هو الأسهَلُ والأخَفُّ في حَقِّهِ؛ لئَلَّا يَشُقَّ عليه، فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦-١٧]، أي: أن نَجمَعَهُ في صَدرِكَ، ثم تَقرأهُ على الناسِ، من غيرِ أن تنسَى منه شَيئًا ﴿فَإِذَا قَرَأْنَهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨-١٩]، وقال في هَذِهِ الآيةِ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤]، أي: بل أنصِت، فإذا فرَغَ المَلَكُ من قِراءَتِهِ عليكَ، فاقرأهُ بعدَهُ»(٢).

وقال السَّعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَيُؤخَذُ من هَذِهِ الآيةِ الكريمَةِ: الأدَبُ في تَلَقِّي العِلمِ، وأنَّ المُستَمِعَ للعِلمِ يَنبَغي له أن يَتأنَّى، ويَصبِرَ، حتى يَفرُغَ المُملي والمُعَلِّمُ من كَلامِهِ المُتَّصِلِ بعضه ببعضٍ.

فإذا فرَغَ منه سَأَلَ إن كان عندَهُ سُؤالٌ، ولا يُبادِرُ بالسُّؤال وقَطعِ كَلامِ مُلقي العِلمِ؛ فإنَّهُ سببٌ للحِرمانِ، وكَذلك المسئولُ يَنبَغي له أن يَستَمليَ سُؤالَ السَّائِلِ، ويَعرِفَ المقصودَ منه قبلَ الجَوابِ؛ فإنَّ ذلك سببٌ لإصابَةِ الصَّوابِ»(٣).

* وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يلتذُّ بسَماعِ القُرآنِ، كَما يَلتذُّ بقِراءَتِهِ:

فعَن عبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال لي النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقرأ عَلَيَّ**»، قُلتُ: آقرَأُ عليكَ، وعليكَ أُنزِلَ؟ قال: «**فإنِّي أشتَهي أن أسمَعَهُ من غَيري**»، فقَرَأتُ عليه سورَةَ النِّساءِ،

---

(١) رواه البخاري (٥)، ومسلم (٤٤٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٣١٩).

(٣) تفسير السعدي (ص٥١٤).

حتى بَلَغتُ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]، قال: «**أمسِك**»، فإذا عيناهُ تَذرِفانِ(١).

قال ابنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يُحتَمَلُ أن يكونَ أحَبَّ أن يَسمَعَهُ من غيرِهِ؛ ليكونَ عَرضُ القُرآنِ سُنَّةً.

ويُحتَمَلُ أن يكونَ؛ لكَي يَتَدَبَّرَهُ، ويَتَفَهَّمَهُ؛ وذلك أنَّ المُستَمِعَ أقوَى على التَّدبُّرِ، ونَفسَهُ أخلى وأنشَطُ لذلك مِنَ القارِئِ؛ لاشتِغالِهِ بالقِراءَةِ، وأحكامِها.

وهذا بخِلافِ قِراءَتِهِ هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أُبَيِّ بنِ كَعبٍ، فإنَّهُ أرادَ أن يُعَلِّمَهُ كَيفيَّةَ أداءِ القِراءَةِ، ومَخارِجَ الحُروفِ، ونَحوَ ذلك»(٢).

وسَماعُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقُرآنِ ليس سَماعًا مع انشِغالٍ، لكنَّهُ سماعُ تَدَبُّرٍ.

فلمَّا وصَلَ الصَّحابيُّ إلى قولِهِ سبحانه: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]، وتَمَثَّلَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -لِشِدَّةِ إنصاتِهِ وتَدَبُّرِه- هذا الموقِفَ، بَكَى، وأمَرَهُ بالإمساكِ.

قال ابنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللهُ: «إنما بَكَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندَ تِلاوَتِهِ هَذِهِ الآيَةَ؛ لأنَّهُ مَثَّلَ لنَفسِهِ أهوالَ يومِ القيامَةِ، وشِدَّةَ الحال الدَّاعيَةِ له إلى شَهادَتِهِ لأُمَّتِهِ بالتَّصديقِ، وسُؤالِهِ الشَّفاعَةَ لأهلِ الموقِفِ، وهو أمرٌ يَحِقُّ له طولُ البُكاءِ».

وقال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «والذي يَظهَرُ: أنَّهُ بَكَى رَحمَةً لأُمَّتِهِ؛ لأنَّهُ عَلِمَ أنَّهُ لا بُدَّ أن يَشهَدَ عليهم بعَمَلِهِم، وعَمَلُهم قَد لا يكونُ مُستَقيمًا، فقَد يُفضي إلى تَعذيبِهِم، واللهُ أعلَمُ»(٣).

* وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يُنصِتُ لقِراءَتِهِم في الصَّلاةِ:

فعن عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَزالُ يَسمُرُ عندَ أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، اللَّيلَةَ كَذاكَ في الأمرِ من أمرِ المسلمينَ.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٨٢)، ومسلم (٨٠٠).

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطَّالٍ (١٠/ ٢٧٧)، فتح الباري (١٤/ ٢٧٣).

(٣) فتح الباري (٩/ ٩٩).

وإنَّهُ سَمَرَ عندَهُ ذاتَ لَيلَةٍ، وأنا مَعَهُ، فخرجَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخرجنا مَعَهُ، فإذا رَجُلٌ قائِمٌ يُصَلِّي في المسجِدِ، فقامَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَستَمِعُ قِراءَتَهُ، فلَمَّا كِدنا أن نَعرِفهُ، قال رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن سَرَّهُ أن يَقرَأَ القُرآنَ رَطبًا كَما أُنزِلَ، فليَقرَأْهُ على قِراءَةِ ابنِ أُمِّ عبدٍ**».

ثم جَلَسَ الرجُلُ يَدعو، فجَعَلَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ لَهُ: «**سَل تُعطَه، سَل تُعطَه**» قال عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قُلتُ: واللهِ لَأغدوَنَّ إليه، فلَأُبَشِّرَنَّهُ، فغَدَوتُ إليه لأُبَشِّرَهُ، فوَجَدتُ أبا بكرٍ قَد سَبَقَني إليه فبَشَّرَهُ، ولا واللهِ ما سَبَقتُهُ إلى خَيرٍ قَطُّ إلا وسَبَقَني إليه[١].

* وكان صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ أن يَسمَعَ القُرآنَ بالصَّوتِ الحَسَنِ:

فهذا يَحمِلُ النَّفسَ على مَزيدِ التَّدَبُّرِ والتَّفهُّمِ، ومُعايَشَةِ القُرآنِ الكريمِ.

عن أبي موسَى الأشعَريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي موسَى: «**لَو رَأيتَني وأنا أستَمِعُ لِقراءَتِكَ البارِحَةَ، لَقَد أوتيتَ مِزمارًا من مَزاميرِ آلِ داودَ**»[٢].

والمُرادُ بالمِزمارِ: الصَّوتُ الحَسَنُ، وأصلُهُ: الآلَةُ، أُطلِقَ اسمُهُ على الصَّوتِ؛ للمُشابَهَةِ[٣].

وفي رواية: مَرَّ النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأبي موسَى ذاتَ لَيلَةٍ، ومَعَهُ عائشةُ، وأبو موسَى يَقرَأُ، فقاما، فاستَمَعا لِقراءَتِهِ، ثم مَضيا.

فلَمَّا أصبَحَ أبو موسَى، وأتَى النبيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَرَرتُ بكَ يا أبا موسَى البارِحَةَ، وأنتَ تَقرَأُ، فاستَمَعنا لِقراءَتِكَ**».

فقال أبو موسَى: يا نَبيَّ اللهِ، لَو عَلِمتُ بمَكانِكَ لَحَبَّرتُ لَكَ تَحبيرًا[٤].

فَلِحُبِّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لسَماعِ القُرآنِ، ولِحَلاوَةِ صَوتِ القارِئِ، وقَفَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو وزَوجُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ ليَستَمِعا.

---

(١) رواه أحمد (١٧٥)، وصححه محققو المسند.

(٢) رواه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣).

(٣) فتح الباري (٩/ ٩٣).

(٤) رواه الحاكم (٥٩٦٦)، وصححه، ووافقه الذهبي.

❋ وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُقاطِعُ مُحَدِّثَهُ، ويَنتَظِرُهُ، حتى يَفرُغَ من كَلامِهِ:

قال عُتبَةُ بنُ رَبيعَةَ -يومًا- وهو جالسٌ في نادي قُرَيشٍ، والنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جالسٌ في المسجِدِ وحدَهُ: يا مَعشَرَ قُرَيشٍ، ألا أقومُ إلى محمدٍ، فأُكَلِّمهُ، وأعرِض عليه أُمورًا، لَعَلَّهُ يَقبَلُ بعضَها، فنعطيهِ أيَّها شاءَ، ويكُفُّ عنا؟ وذلك حينَ أسلَمَ حَمزَةُ، ورَأوا أصحابَ رسولِ اللهِ يَزيدونَ ويَكثُرونَ، فقالوا: بَلى يا أبا الوَليدِ، فقُم إليه فكَلِّمهُ.

فَقامَ إليه عُتبَةُ، حتى جَلَسَ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا ابنَ أخي، إنَّكَ مِنَّا حيث قَد عَلِمتَ، مِنَ السِّطَةِ في العَشيرَةِ، والمكانِ في النَّسَبِ، وإنَّكَ قَد أتَيتَ قَومَكَ بأمرٍ عَظيمٍ، فرَّقتَ بِهِ جَماعَتَهم، وسَفَّهتَ بِهِ أحلامَهم، وعِبتَ بِهِ آلِهَتَهم ودينَهم، وكَفَّرتَ بِهِ مَن مَضَى من آبائِهم، فاسمَع مِنِّي، أعرِض عليكَ أُمورًا، تَنظُرُ فيها؛ لَعَلَّكَ تَقبَلُ مِنَّا بعضَها.

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قُل يا أبا الوَليدِ، أسمَع**».

قال: يا ابنَ أخي، إن كُنتَ إنما تُريدُ بما جِئتَ بِهِ من هذا الأمرِ مالًا، جَمَعنا لَكَ من أموالنا، حتى تكونَ أكثَرَنا مالًا، وإن كُنتَ تُريدُ بِهِ شَرَفًا، سَوَّدناكَ عَلَينا، حتى لا نَقطَعَ أمرًا دونَكَ، وإن كُنتَ تُريدُ مُلكًا، مَلَّكناكَ عَلَينا، وإن كان هذا الذي يَأتيكَ رَئِيًّا[1] تَراهُ، لا تَستَطيعُ رَدَّهُ عن نَفسِكَ، طَلَبنا لَكَ الطِّبَّ، وبَذَلنا فيه أموالَنا، حتى نُبرِئَكَ منه، فإنَّهُ رُبَّما غَلَبَ التَّابعُ على الرجُلِ، حتى يُداوَى منه.

حَتَّى إذا فرَغَ عُتبَةُ، ورسولُ اللهِ يَستَمِعُ منه، قال: «**أقَد فرَغتَ يا أبا الوَليدِ؟**».

- قال: نعم.

- قال: «**فاسمَع مِنِّي**».

- قال: أفعَل.

---

(١) الرئيُّ: التَّابع من الجنِّ، يتراءى لمتبوعه.

- قال: «﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ١-٤]».

ثم مَضَى رسولُ اللهِ فيها، يَقرَؤُها عليه.

فلمَّا سَمِعَها عُتبَةُ منه أنصَتَ لها، وألقَى يَدَيهِ خَلفَ ظَهرِهِ مُعتَمِدًا عليهما، يَستَمِعُ منه، ثم انتَهى رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السَّجدَةِ منها، فسَجَدَ.

ثم قال: «**قَد سمعتَ يا أبا الوَليدِ ما سمعتَ، فأنتَ وذاكَ**»[(١)].

فَقَدِ استَمَعَ لعُتبَةَ، وقد جاءَ ليُثنِيَهُ عن الحَقِّ الذي يَدعو إليه، فأقبَلَ عليه، واستَمعَ إليهِ، ولم يُقاطِعهُ، حتى انتَهَى من كَلامِهِ.

وفي هَذا: تَعليمٌ لأدَبِ الإنصاتِ مع المُحاوِرِ، وهو حُسنُ استِماعِ المُحاوِرِ لمُحاوِرِه، حتى يَفرغَ من كَلامِهِ.

* وكان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُنصِتُ لمُحَدِّثِهِ، ويُقبِلُ عليه، بكُلِّيَّتِهِ:

حَتّى إنَّ مُحَدِّثَهُ، رُبَّما ظَنَّ أنَّهُ أفضَلُ الناسِ عندَهُ.

قال عَمرو بنُ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقبِلُ بوَجهِهِ وحديثِهِ على أشَرِّ القَومِ؛ يَتَألَّفُهم بذلك، فكان يُقبِلُ بوَجهِهِ وحديثِهِ عَلَيَّ، حتى ظَنَنتُ أنِّي خيرُ القَومِ.

- فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أنا خَيرٌ أو أبو بكرٍ؟

- قال: «**أبو بكرٍ**».

- فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أنا خَيرٌ أو عمرُ؟

- قال: «**عمرُ**».

- فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أنا خَيرٌ أو عثمانُ؟

---

(١) رواه ابن إسحاقٍ في السِّيرة (ص٢٠٧)، وهو حديث حسنٌ بشواهده، وانظر: تفسير ابن كثير (٧/ ١٦١).

- قال: «**عثمانُ**».

فلمَّا سَألتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فصَدَقَني، فلَوَدِدتُ أنِّي لم أكُن سَألتُهُ[1].

قال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «**يَتَألَّفُهم بذلك**»: أي: بما ذَكَرَ مِنَ الإقبال والكلام، والتَّألُّفُ، هوَ: المُداراةُ، والإيناسُ؛ ليَثبُتوا على الإسلامِ، كَما في النِّهايَةِ، والضَّميرُ في: «**يَتألَّفُهم**»: يَحتَمِلُ أن يَعودَ إلى أشَرِّ القَومِ؛ لأنَّهُ جُمِعَ مَعنًى، وأن يكونَ عائِدًا على القَومِ؛ لأنَّ التَّألُّفَ كان عامًّا، لكنَّهُ يَزيدُ في الأشرارِ، والمعنى: أنَّهُ كان يَتَألَّفُ القَومَ، إذ أربابُ الخَيرِ مائِلونَ إليه، فإذا تَألَّفَ الأشرارَ -أيضًا- تَألَّفَ القَومَ كُلَّهم، وهذا أظهَرُ؛ لئَلَّا يَحصُلَ الضَّرَرُ بالتَّنافُرِ الطَّبيعيِّ، وإنما كان يَقِلُّ التَّألُّفُ مع الأبرارِ، ويَكثُرُ مع الأشرارِ؛ لأنَّ الصُّلَحاءَ مُستَقيمونَ على الجادَّةِ، بخِلافِ غَيرِهِم»[2].

فانظُر كَيفَ أنَّ اهتِمامَهُ بمَن يُجالسُهُ، وإقبالَهُ عليه، مُستَمِعًا لَهُ، ومُحَدِّثًا، جَعَلَ مُجالسَهُ يَظُنُّ أنَّهُ خَيرُ القَومِ.

وفي هَذا: تَربيَةٌ للمُسلِمِ على الإقبال على مَن يُجالسُهم بالبِشرِ، وألَّا يَنشَغِلَ عَنهم، وأن يُنصِتَ إليهِم، ويُقبِلَ عليهم.

وأنّه على الدَّاعيَةِ أن يَتألّفَ القَومَ؛ فإنَّ ذلك يُعينُهُ على دَعوَتِهِ، ويَجمَعُ القُلوبَ عليه.

* **وكان** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **رُبَّما سَمَرَ مع أهلِهِ، واستَمَعَ منهم لبعضِ القَصَصِ:**

فَقَدِ استَمَعَ لأم المؤمنين عائشةَ، في حديثِها عن قِصَّةِ إحدَى عَشرَةَ امرَأةً، تَعاهَدنَ وتَعاقَدنَ أن لا يَكتُمنَ من أخبارِ أزواجِهِنَّ شَيئًا، كَما في حديثِ أُمِّ زَرعٍ المشهورِ.

وفي سياقِ عائشةَ هذا الحديثَ الطَويلَ، المُتَضَمِّنَ وصفَ إحدَى عَشرَةَ امرَأةً لأزواجِهِنَّ، ما يَدُلُّ على حُسنِ استِماعِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لها.

---

(١) رواه الترمذي في الشَّمائل (٣٢٧)، وحسنه الألباني في مختصر الشمائل (٢٩٥)، وأصله في الصحيحين.
(٢) جمع الوسائل (٢/ ١٥١).

ومِمَّا يَدُلُّ على حُسنِ إنصاتِهِ وإصغائِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لها، وحُسنِ تَفهُّمِهِ لحديثِها: أنَّهُ انتقَى خَيرَ الأزواجِ، فشَبَّهَ حالَهُ مَعَها بحال هذا الرجُلِ مع زوجَته، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لها: «**كنتُ لَكِ كَأبي زَرعٍ لأُمِّ زَرعٍ**»[١].

✽ واستَمعَ لأصحابِهِ يَومًا، وهم يَقصُّونَ عليه بَعضَ أعاجيبِ ما رأوا بالحَبَشَةِ:

فعن جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لَمَّا رَجَعَت إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُهاجِرَةُ البَحرِ، قال: «**ألا تُحَدِّثوني بأعاجيبِ ما رَأيتُم بأرضِ الحَبَشَةِ؟**».

قال فِتيَةٌ منهم: بَلى يا رسولَ اللهِ، بَينا نَحنُ جُلوسٌ، مَرَّت بنا عَجوزٌ من عَجائِزِ رَهابينِهِم، تَحمِلُ على رَأسِها قُلَّةً من ماءٍ، فمَرَّت بفَتًى منهم، فجَعَلَ إحدَى يَدَيهِ بين كَتِفيها، ثم دَفَعَها، فخَرَّت على رُكبَتَيها، فانكَسَرَت قُلَّتُها.

فلَمَّا ارتَفَعَت، التَفَتَت إليه، فقالت: سَوفَ تَعلَمُ يا غُدَرُ! إذا وضَعَ اللهُ الكُرسيَّ، وجَمَعَ الأولينَ والآخِرينَ، وتَكَلَّمَتِ الأيدي والأرجُلُ بما كانوا يَكسِبونَ، فسَوفَ تَعلَمُ كَيفَ أمري وأمرُكَ عندَهُ غَدًا.

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَدَقَت، صَدَقَت، كَيفَ يُقَدِّسُ اللهُ أُمَّةً لا يُؤخَذُ لضَعيفِهِم من شَديدِهِم؟**»[٢].

وهذا من جَميلِ عِشرَتِهِ، وكَريمِ صُحبَتِهِ، وحُسنِ مُجالَسَتِهِ، وفيه إيناسٌ لأصحابِهِ، وترويحٌ لنُفوسِهِم.

✽ وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَستَمِعُ إلى الشِّعرِ الحَسنِ، ويَستَحسِنُهُ:

وأثنَى على الشِّعرِ الحَسنِ، فقال: «**إنَّ مِنَ الشِّعرِ حِكمَةً**»[٣].

---

(١) أي: في الألفة والرفاء، لا في الفرقة والخلاء، والحديث رواه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٠١٠)، وحسنه الألباني.

(٣) رواه البخاري (٦١٤٥).

وقال: «**أصدَقُ كَلِمَةٍ قالها الشَّاعِرُ: كَلِمَةُ لَبيدٍ: ألا كُلُّ شيءٍ ما خَلا اللهَ باطِلُ، وكادَ أُمَيَّةُ ابنُ أبي الصَّلتِ أن يُسلِمَ**»[١].

وفي رواية لمُسلِمٍ: «**أشعَرُ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَت بها العَرَبُ: كَلِمَةُ لَبيدٍ: ألا كُلُّ شيءٍ ما خَلا اللهَ باطِلُ**».

ومِن استماعِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **للشِّعرِ**: ما جاءَ عن عَمرِو بنِ الشَّريدِ، عن أبيهِ، قال: رَدِفتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومًا، فقال: «**هَل مَعَكَ من شِعرِ أُمَيَّةَ بنِ أبي الصَّلتِ شيءٌ؟**».

- قُلتُ: نعم.

- قال: «**هيه**»[٢].

فَأنشَدتُهُ بَيتًا، فقال: «**هيه**»، ثم أنشَدتُهُ بيتًا، فقال: «**هيه**»، حتى أنشَدتُهُ مِائَةَ بَيتٍ[٣].

فَقَد حَمَلَهُ طيبُ شِعرِهِ على الإنصاتِ، وطَلَبِ الاستزادَةِ من إنشادِهِ؛ لما فيه مِنَ الإقرارِ بالوَحدانيَّةِ، والبَعثِ، ولهذا قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَلَقَد كادَ يُسلِمُ في شِعرِهِ**»[٤].

«**وأُمَيَّةُ -هَذا-**: رَجُلٌ كان يَتَطَلَّبُ الدِّينَ، فأخبَرَهُ عُلَماءُ الكِتابَينِ أنَّهُ سَيَظهَرُ نَبيٌّ في هذا الزَّمانِ، فما زالَ يَبحَثُ عن صِفَتِهِ، ويَرجو أن يكونَ هو المبعوثَ، فلمّا أخبروهُ بسِنِّهِ، قال: قَد عَبَرتُ هذا السِّنَّ، فلمَّا ظَهَرَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَفَرَ بهِ، وماتَ على الكُفرِ»[٥].

فَقَد سَمِعَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشِّعرَ، واستَنشَدَهُ، وأمَرَ بهِ حَسَّانَ بنَ ثابتٍ في هِجاءِ المُشرِكينَ، وأنشَدَهُ أصحابُهُ بحَضرَتِهِ في الأسفارِ، وغَيرِها[٦].

---

(١) رواه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) كلمةٌ تقال للاستزادة من الحديث.

(٣) رواه مسلم (٢٢٥٥).

(٤) رواه مسلم (٢٢٥٥).

(٥) كشف المشكل لابن الجوزيِّ (٤/ ١٨٢).

(٦) شرح النووي على مسلم (١٥/ ١٤).

واستَمَعَ إلى الشِّعرِ في المسجِدِ -أيضًا- إذا «كان في مَدحِ حَقٍّ، وأهلِهِ، وذَمِّ باطِلٍ، أو تَمهيدِ قَواعِدَ دينيَّةٍ، أو إرغامًا للمُخالفين»[١].

فعن سَعيدِ بنِ المُسَيَّبِ، قال: مَرَّ عمرُ في المسجِدِ، وحَسَّانُ يُنشِدُ، فقال: كنتُ أُنشِدُ فيه، وفيه مَن هو خَيرٌ مِنكَ، ثم التفَتَ إلى أبي هريرة، فقال: أنشُدُكَ باللهِ: أسمعتَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**أجِب عَنِّي، اللهمَّ أيِّدهُ بروحِ القُدُسِ**»؟ قال: نعم[٢].

وفي هذا الحديثِ: بَيانٌ لكَيفيَّةِ تَوجيهِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشِّعرَ لَمسارِهِ الصَّحيحِ، وتَوظيفِ الشُّعَراءِ في الدَّعوَةِ، وإعانَتهم على ذلك بالدُّعاءِ.

وعن سِماكِ بنِ حَربٍ، قال: قُلتُ لجابِرِ بنِ سَمُرَةَ: كُنتَ تُجالسُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

قال: نعم، «كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا صَلَّى الفَجرَ، جَلَسَ في مُصَلَّاهُ، حتى تَطلُعَ الشَّمسُ، فيَتَحَدَّثُ أصحابُهُ، يَذكُرونَ حديثَ الجاهِليَّةِ، ويُنشِدونَ الشِّعرَ، ويَضحَكونَ، ويَتَبَسَّمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[٣].

وفي هذا الحديثِ: ما يُبَيِّنُ كَيفَ كانت مُشارَكَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابِهِ في حديثِهِم، حتى إذا ذَكَروا حديثَ الجاهِليَّةِ، وأنشَدوا الشِّعرَ، سَمِعَهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم يَتَحَدَّثونَ، فيَضحَكونَ، ويَبتَسِمُ؛ مُلاطَفَةً لَهم.

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ مَكَّةَ في عُمرَةِ القَضاءِ، وعبدُاللهِ ابنُ رَواحَةَ يَمشي بين يَدَيهِ، وهو يقولُ:

خَلُّوا بَني الكُفَّارِ عن سَبيلِهِ ... اليومَ نَضرِبكُم على تَنزيلِهِ
ضَربًا يُزيلُ الهامَ عن مَقيلِهِ[٤] ... ويُذهِلُ الخَليلَ عن خَليلِهِ

(١) تحفة الأحوذي (٢/ ٢٣٠).
(٢) رواه البخاري (٤٥٣)، ومسلم (٢٤٨٥).
(٣) رواه مسلم (٦٧٠).
(٤) الهام: الرُّؤوس، مقيله: موضعه.

فقال له عمرُ: يا ابنَ رَواحَةَ، بين يَدَي رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي حَرَمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ تقولُ الشِّعرَ؟!

قال النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خَلِّ عَنهُ، فلَهوَ أسرَعُ فيهم من نَضحِ النبلِ**»(١).

وكان يَستَمِعُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **-كَذلك- إلى الحُداءِ:**

فكان من عادَةِ العَرَبِ: أنَّهم إذا أرادوا تَنشيطَ الإبِلِ في السَّيرِ، يَنزِلُ بعضُهم فيَسوقها، ويَحدو، وقد استَمَعَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للحُداءِ.

فعن سَلَمَةَ بنِ الأكوَعِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: خرجنا مع النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى خَيبَرَ، فسِرنا لَيلًا.

فقال رَجُلٌ مِنَ القَومِ لعامِرٍ: يا عامِرُ، ألا تُسمِعُنا من هُنَيهاتِكَ(٢)؟ وكان عامِرٌ رَجُلاً شاعِرًا، فنَزَلَ يَحدو بالقَومِ، يقولُ:

اللهمَّ لَولا أنتَ ما اهتَدَينا وَلا تَصَدَّقنا ولا صَلَّينا

فاغفِر فِداءً لَكَ ما أبقَينا وَثَبِّتِ الأقدامَ إن لاقَينا

وَألقِيَن سَكينَةً عَلَينا إنَّا إذا صيحَ بنا أبَينا

وَبِالصِّياحِ عَوَّلوا عَلَينا

- فقال رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن هذا السَّائِقُ؟**».

- قالوا: عامِرُ بنُ الأكوَعِ.

- فقال: «**يرحمه الله**» ... الحديث(٣).

وعن أنسٍ، قال: كان رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعضِ أسفارِهِ، وغُلامٌ أسوَدُ يُقال لَهُ أنجَشَةُ، يَحدو.

فقال له رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا أنجَشَةُ، رويدَكَ، سَوقًا بالقَواريرِ**»(٤).

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٤٧)، وقال: «هذا حديث حسنٌ صحيح غريبٌ من هذا الوجه»، والنسائي (٢٨٧٣)، وصححه الألباني.

(٢) أي: أراجيزك.

(٣) رواه البخاري (٤١٩٦)، ومسلم (١٨٠٢).

(٤) رواه البخاري (٦١٤٩)، ومسلم (٢٣٢٣).

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «**قال العُلَماء**: سُمِّيَ النِّساءُ قَواريرَ؛ لضَعفِ عَزائِمهنَّ، تَشبيهًا بقارورَةِ الزُّجاجِ؛ لضَعفِها، وإسراعِ الانكِسارِ إلَيها.

واختَلَفَ العُلَماءُ في المُرادِ بتَسميَتِهِنَّ قَواريرَ، على قولَينِ، **أصَحُّهما**: أنَّ مَعناهُ: أنَّ أنجَشَةَ كان حَسَنَ الصَّوتِ، وكان يَحدو بِهِنَّ، ويُنشِدُ شَيئًا مِنَ القَريضِ والرجَزِ، فلَم يَأمَن أن يَفتِنَهُنَّ، ويَقَعَ في قُلوبِهِنَّ حِداؤُهُ، فأمَرَهُ بالكفِّ عن ذلك.

والقولُ الثاني: أنَّ المُرادَ بِهِ: الرِّفقُ في السَّيرِ؛ لأنَّ الإبِلَ إذا سَمِعَتِ الحُداءَ أسرَعَت في المشيِ واستَلَذَّتهُ، فأزعَجَتِ الراكِبَ وأتعبَتهُ، فنَهاهُ عن ذلك؛ لأنَّ النِّساءَ يَضعُفنَ عند شِدَّةِ الحَرَكَةِ، ويُخافُ ضَرَرُهُنَّ، وسُقوطُهُنَّ»[(١)].

مَنِ استَمَعَ إلى حديثِ قَومٍ وهم له كارِهونَ:

عنِ ابنِ عبَّاسٍ، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**مَنِ استَمَعَ إلى حديثِ قَومٍ وهم له كارِهونَ، صُبَّ في أُذُنِهِ الآنُكُ يومَ القيامَةِ**»[(٢)].

وقد نَهَى اللهُ ورَسولُهُ عن التَّجَسُّسِ.

فهَل يُستثنَى مِن ذلك ما كان طَريقًا لتَحصيلِ مَصلَحَةٍ، أو دَفعِ مَفسدةٍ؟

الجَوابُ: نعم.

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وَيُستَثنَى مِنَ النَّهيِ عن التَّجَسُّسِ: ما لَو تَعَيَّنَ طَريقًا إلى إنقاذِ نَفسٍ مِنَ الهَلاكِ -مَثَلًا- كَأن يُخبِرَ ثِقَةٌ بأنَّ فُلانًا خَلا بشَخصٍ؛ لِيَقتُلَهُ ظُلمًا، أو بامرَأةٍ؛ لِيَزنيَ بها، فيُشرَعُ في هَذِهِ الصُّورَةِ التَّجَسُّسُ، والبَحثُ عن ذلك؛ حَذَرًا من فواتِ استِدراكِهِ، نَقَلَهُ النووي عن الأحكامِ السُّلطانيَّةِ للماوَرديِّ، واستَجادَهُ، وأنَّ كَلامَهُ: ليس للمُحتَسِبِ أن يَبحَثَ عَمَّا لم يَظهَر مِنَ المُحَرَّماتِ، ولو غَلَبَ على الظَّنِّ استِسرارُ أهلِها بها، إلا هَذِهِ الصُّورَةَ»[(٣)].

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ٨١).

(٢) رواه البخاري (٧٠٤٢). والآنك: الرصاص المذاب.

(٣) فتح الباري (١٠/ ٤٨٢).

* **وقد استَمعَ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ابنِ صَيَّادٍ، وهو يَكرهُ تَسَمُّعَهُ؛ لغَرَضٍ شَرعيٍّ:**

فعن عبدِالله بنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: انطَلَقَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأُبَيُّ بنُ كَعبٍ الأنصاريُّ، يَؤُمَّانِ النَّخلَ التي فيها ابنُ صَيَّادٍ، حتى إذا دَخَلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، طَفِقَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَّقي(١) بجُذوعِ النَّخلِ وهو يَختِلُ(٢) أن يَسمَعَ مِنِ ابنِ صَيَّادٍ شَيئًا قبلَ أن يَراهُ، وابنُ صَيَّادٍ مُضطَجِعٌ على فِراشِهِ في قَطيفَةٍ، له فيها رَمرَمَةٌ(٣)- أو: زَمزَمَةٌ-(٤).

فَرأت أُمُّ ابنِ صَيَّادٍ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو يَتَّقي بجُذوعِ النَّخلِ، فقالت لابنِ صَيَّادٍ: أي صافِ(٥)، هذا محمدٌ.

فَتَناهَى ابنُ صَيَّادٍ، قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَو تَرَكَتهُ بَيَّنَ**(٦)» (٧).

فابنُ صَيَّادٍ -ويُقال له أيضًا ابنُ صائِدٍ- «**قال العُلَماءُ**: قِصَّتُهُ مُشكلَةٌ، وأمرُهُ مُشتبَهٌ في أنَّهُ: هَل هو المسيحُ الدَّجَّالُ المشهورُ، أو غيرُهُ؟ ولا شَكَّ في أنَّهُ دَجَّالٌ مِنَ الدَّجاجِلَةِ.

قال العلماءُ: وظاهرُ الأحاديثِ: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يوحَ إليه بأنَّهُ المسيحُ الدَّجَّالُ، ولا غيرُهُ، وإنما أوحيَ إليه بصفاتِ الدَّجَّال، وكان في ابنِ صَيَّادٍ قَرائِنُ مُحتَمَلَةٌ؛ فلِذلك كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَقطَعُ بأنَّهُ الدَّجَّالُ، ولا غيرُهُ؛ ولهذا قال لعمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن يَكُن هوَ، فلَن تَستَطيعَ قَتلَهُ»(٨).

وقال المُهَلَّبُ: «وَفي حديثِ ابنِ صَيَّادٍ مِنَ الفِقهِ: جَوازُ التَّجَسُّسِ على مَن يُخشَى منه فسادُ الدِّينِ والدُّنيا، وهذا الحديثُ يُبيِّنُ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢] ليسَ على

---

(١) يستتر.

(٢) أي: يخدع ابن صيَّاد ويستغفله؛ ليسمع شيئًا من كلامه.

(٣) صوتٌ خفيٌّ.

(٤) الزَّمزمة: تحريك الشَّفتين بكلامٍ.

(٥) هذا اسمه.

(٦) أي: أظهر من حاله، ما نطَّلع به على حقيقته.

(٧) رواه البخاري (٢٦٣٨)، ومسلم (٢٩٣١).

(٨) شرح النووي على مسلم (١٨/ ٤٦).

العُمومِ، وإنما المُرادُ بهِ: النَّهيُ عن التَّجَسُّسِ على مَن لم يُخْشَ منه القَدحُ في الدِّينِ، ولم يُضمِرِ الغِلَّ للمُسلِمينَ، واستَتَرَ بقَبائِحِهِ، فهذا الذي حالُهُ التوبةُ والإنابَةُ.

وأمَّا مَن خُشيَ منه مِثلُ ما خُشيَ مِنِ ابنِ صَيَّادٍ، أو من كَعبِ بنِ الأشرَفِ، وأشباهِهِما، مِمَّن كان يُضمِرُ الفَتكَ بأهلِ الإسلامِ: فجائِزٌ التَّجَسُّسُ عليه، وإعمالُ الحيلَةِ في أمرِهِ، إذا خُشيَ منه.

وقد ترجمَ- يَعني: البخاري- لحديثِ ابنِ صَيَّادٍ في كتابِ الجهادِ: (بابُ ما يجوزُ منَ الاحتيالِ والحذرِ، مع من تُخشى مَعَرَّتُهُ)»[1].

(١) شرح ابن بطَّالٍ على صحيح البخاري (٣/ ٣٤٢).

مناظراتُه وحِواراتُه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

أُسلوبُ الحِوارِ والمُناقَشَةِ هو الأُسلوبُ الأمثلُ للتَّواصُلِ مع الآخَرينَ؛ لا سيَّما مع المُخالفينَ.

وعن طَريقِ الحِوارِ والمُناظَرَةِ، نَستَطيعُ إقناعَ الآخَرينَ بالدَّليلِ والبُرهانِ، وفي الوَقتِ نَفسِهِ: نَستَمِعُ لما عندَهم مِنِ اعتِراضاتٍ، أو شُبُهاتٍ؛ للجَوابِ عَنها، وتَبيينِ وجهِ الصَّوابِ.

❋ **فكان من أدَبِهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الشأنِ مع الناسِ: الإقبالُ على مُحَدِّثِهِ:**

عن أبي رِفاعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّهُ قال: انتَهَيتُ إلى النبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يَخطُبُ، فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، رَجُلٌ غريبٌ، جاءَ يَسأَلُ عن دينِهِ، لا يَدري ما دينُهُ؟ قال: «فَأقبَلَ عَلَيَّ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتَرَكَ خُطبَتَهُ، حتى انتَهَى إلَيَّ، فأُتِيَ بكُرسيٍّ، حَسِبتُ قَوائِمَهُ حَديدًا، فقَعَدَ عليه رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجَعَلَ يُعَلِّمُني مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ، ثم أتى خُطبَتَهُ، فأتَمَّ آخِرَها»[1].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وفيه**: المُبادَرَةُ إلى جَوابِ المُستَفتي، وتَقديم أهَمِّ الأُمورِ، فأهَمِّها، ولَعَلَّهُ كان سَأَلَ عن الإيمانِ، وقَواعِدِهِ المُهِمَّةِ.

وقد اتَّفَقَ العُلَماءُ على أنَّ مَن جاءَ يَسأَلُ عن الإيمانِ، وكَيفيَّةِ الدُّخولِ في الإسلامِ، وجَبَ إجابَتُهُ وتَعليمُهُ على الفَورِ.

---

(١) رواه مسلم (٨٧٦).

وقُعودُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الكُرسيِّ؛ ليَسمَعَ الباقونَ كَلامَهُ، ويَرَوا شَخصَهُ الكريمَ.

ويَحتَمِلُ أنَّ هَذِهِ الخُطبَةَ التي كان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها، خُطبَةُ أمرٍ غَيرِ الجُمُعَةِ؛ ولهذا قَطَعَها بهذا الفَصلِ الطَّويلِ، ويَحتَمِلُ أنَّها كانتِ الجُمُعَةَ، واستَأنَفها»[1].

وتقَدّمَ حديثُ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقبِلُ بوَجهِهِ وحديثِهِ على أشَرِّ القَومِ، يَتَألَّفُهم بذلك، فكان يُقبِلُ بوَجهِهِ وحديثِهِ عَلَيَّ، حتى ظَنَنتُ أنّي خَيرُ القَومِ... الحديث.

* وكان يُحسِنُ الإصغاءَ والاستماعَ، لما يقولُ مُحاوِرُهُ:

وقد تَقدّمَ حديثُ عُتبَةَ بنِ رَبيعَةَ، لما جَلَسَ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعَرَضَ عليه ما عَرَضَ، فأصغَى إليهِ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى فرغَ من حديثِهِ كُلِّهِ.

ويُؤخَذُ من هذا الحديثِ أُمورٌ:

أوَّلُها: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استَعمَلَ الإنصاتَ وسيلَةً من وسائِلِ الدَّعوَةِ، فقَدِ استَمَعَ لعُتبَةَ، وقد جاءَ ليَثنيَهُ عن الحَقِّ الذي يَدعو إليه، فأقبَلَ عليه، واستَمَعَ إليهِ، ولم يُقاطِعهُ، حتى انتَهَى من كَلامِهِ.

فَحَمَلَ هذا عُتبَةَ على أن يَستَمِعَ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى فرغَ مِن حديثِه.

وفي هَذا: تَعليمٌ للدُّعاةِ، كَيفَ يَجعَلونَ من إنصاتِهِم لغَيرِهِم، وسيلَةً لدَعوَتِهِم للإنصاتِ إليهم.

ثانيها: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنصَتَ لحديثِ عُتبَةَ، وتابَعَهُ باعتِناءٍ، دونَ شُرودِ ذِهنٍ، ودونَ انشِغالٍ، وهذا كان من أدَبِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندَ الإنصاتِ.

وفي هَذا: إرشادٌ للدُّعاةِ: أنَّهم يَنبَغي عليهم أن يَستَمِعوا لما يُعرَضُ عليهم دونَ مُقاطَعَةٍ؛ ففي إنصاتِهِم هذا إظهارٌ لأدَبِ الإسلامِ في التَّحاوُرِ.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ١٦٦).

وفيه: عَونٌ لهم على فهمِ ما يَدورُ في أذهانِ مُحاوِريهم، وبِالتَّالي: على حُسنِ الردِّ عليهم، وقد قيل: «رَأسُ الأدَبِ كُلِّهِ: حُسنُ الفهمِ والتَّفهُّمِ، والإصغاء للمُتَكَلِّمِ».

وقال الأصمَعيُّ: «مِن عَلامَةِ الأحمَقِ: الإجابَةُ قبلَ استِقصاءِ الاستماعِ»[١].

ثالثُها: أنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَغمَ أنَّهُ يَعلَمُ بُطلانَ ما جاءَ بهِ عُتبَةُ، إلا أنَّهُ سَمِعَهُ، ولم يُعَجِّل بمُقاطَعَتِهِ، حتى انتَهى من كَلامِهِ، فسَألَهُ: «**أقَد فرَغتَ يا أبا الوَليدِ؟**».

وفي قولِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَرَغتَ**»: إشارَةٌ إلى أنَّهُ يُريدُ منه أن يقولَ كُلَّ ما عندَهُ، حتى لا يَبقَى لَديهِ بَقيَّةُ كَلامٍ تَشغَلُهُ حينَما يَأتي دَورُهُ في الاستماعِ، فيَحول دَورانُها في خاطِرِهِ دونَ استِقبالِهِ ما يُتلى عليه تَمامَ الاستقبال.

وفي هذا -أيضًا-: أدَبٌ عَظيمٌ من آدابِ المُحاوَرَةِ والمُناظَرَةِ، حتى قال بعضُ الحُكَماءِ: «تَعَلَّم حُسنَ الاستماعِ، كَما تَتَعَلَّمُ حُسنَ الكلامِ»[٢].

ومِن حُسنِ الاستماعِ: إمهالُ المُحَدِّثِ حتى يَنقَضيَ حديثُهُ، وهذا أدَبٌ عامٌّ من آدابِ المُحاوَرَةِ والمُناظَرَةِ أيضًا، لَو طُبِّقَ لَكان الحِوارُ أجدَى وأنفَعَ، وأخصَرَ، وأدَقَّ، وأفيَدَ، وقد قيل: «لا تَحسُنُ المُحادَثَةُ، إلا بحُسنِ الفهمِ»[٣].

فَسُؤالُ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُتبَةَ قائِلًا: «**أفَرَغتَ يا أبا الوَليدِ؟**» هذا سُؤالُ الأذكياءِ في المُحاوَرَةِ؛ لكَي لا يُحاوِلَ المُحاوِرُ أوِ المُناظِرُ، أن يَتَحَدَّثَ ثانيَةً؛ بدَعوَى أنَّهُ لم يُكمِل كَلامَهُ الذي جاءَ بِهِ، وليَضمَنَ صَمتَ مُحاوِرِهِ، حتى يَنتَهيَ من حديثِهِ دونَ مُقاطَعَةٍ.

رابِعُها: أنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاطبَهُ بكُنيَتِهِ، وهذا -في الأصلِ- يَدُلُّ على أدَبٍ من آدابِ المُحاوَرَةِ، وقد كان من عادَةِ العَرَبِ: أنَّهم إذا أرادوا أن يُكرِموا المُخاطَبَ، ويُبَجِّلوهُ: خاطَبوهُ بكُنيَتِهِ.

---

(١) ربيع الأبرار (٢/ ٧٨).

(٢) الآداب الشرعية (٢/ ١٧١).

(٣) مروج الذهب (١/ ٤٦٧).

فإن قيل: هذا كافرٌ، فكيفَ يُخاطَبُ بالكُنيةِ؟

قيل: الذي مَنَعَ من ذلك من أهلِ العِلمِ، إنما مَنَعَ منه؛ إذا كان بقصدِ التّكبيرِ والتّبجيلِ، أمَّا إذا لم يَقصِد ذلك، وإنّما كَنَّاه؛ لشُهرَتِهِ بكُنيَتِهِ، أو طَمَعًا في إسلامه: فلا حَرَج.

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذي مَنَعَ من ذلك، إنما مَنَعَ منه؛ حيث يكونُ السِّياقُ يُشعِرُ بتَعظيمِهِ، بخِلافِ ما إذا كان ذلك لشُهرَتِهِ بها، دونَ غيرِها»[١].

وقال ابنُ عَبدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يجوزُ تكنيَةُ الكافِرِ، إذا كان وجهًا ذا شَرَفٍ، وطُمِعَ بإسلامِهِ، وقد يجوزُ ذلك وإن لم يُطمَع بإسلامِهِ؛ لأنَّ الطَّمَعَ ليس بحَقيقَةٍ توجِبُ عَمَلًا»[٢].

وهُناكَ مَواقِفُ كَثيرَةٌ حاوَرَ فيها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وناظَرَ الآخَرينَ، تَشتَمِلُ على التَّعليمِ، والإقناعِ بالحُجَّةِ، والدَّليلِ، والأُسلوبِ الراقي في الخِطابِ، ومِن ذلك:**

* حِوارُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لتَعليمِ الناسِ الدِّينَ:

عن عمرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بينما نَحنُ عندَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاتَ يومٍ، إذ طَلَعَ عَلَينا رَجُلٌ شَديدُ بَياضِ الثِّيابِ، شَديدُ سَوادِ الشَّعَرِ، لا يُرى عليه أَثَرُ السَّفَرِ، ولا يَعرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حتى جَلَسَ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأسنَدَ رُكبَتَيهِ إلى رُكبَتَيهِ، ووَضَعَ كَفَّيهِ على فخِذَيهِ، وقال: يا محمدُ، أخبِرني عن الإسلامِ.

- فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإسلامُ أن تَشهَدَ أن لا إلَهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وتُقيمَ الصَّلاةَ، وتُؤتيَ الزَّكاةَ، وتَصومَ رَمَضانَ، وتَحُجَّ البَيتَ إنِ استَطَعتَ إليه سَبيلًا**».

- قال: صَدَقتَ.

- قال: فعَجِبنا لَهُ، يَسأَلُهُ، ويُصَدِّقُهُ!

---

(١) فتح الباري (٨/ ٥٠٣).

(٢) التمهيد (١٢/ ٣٥).

- قال: فأخبِرني عن الإيمانِ.

- قال: «**أن تُؤمِنَ باللهِ، ومَلائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، واليومِ الآخِرِ، وتُؤمِنَ بالقَدَرِ خَيرِهِ، وشَرِّهِ**».

- قال: صَدَقتَ.

- قال: فأخبِرني عن الإحسانِ.

- قال: «**أن تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَراهُ، فإن لم تَكُن تَراهُ، فإنَّهُ يَراكَ**».

- قال: فأخبِرني عن السَّاعَةِ.

- قال: «**ما المسئولُ عَنها بأعلَمَ مِنَ السَّائِلِ**».

- قال: فأخبِرني عن أمارَتِها.

- قال: «**أن تَلِدَ الأمَةُ رَبَّتَها، وأن تَرَى الحُفاةَ العُراةَ العالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ، يَتَطاوَلونَ في البُنيانِ**».

- قال: ثم انطَلَقَ، فلَبِثتُ مَلِيًّا، ثم قال لي: «**يا عمرُ، أتَدري مَنِ السَّائِلُ؟**».

- قُلتُ: اللهُ ورسولُهُ أعلَمُ.

- قال: «**فإنَّهُ جبريلُ، أتاكُم يُعَلِّمُكُم دينَكُم**»[١].

مِن فوائِدِ الحديثِ: أنَّهُ يَنبَغي للعالِمِ أن يَرفُقَ بالسَّائِلِ، ويُدنيَهُ منه؛ ليَتَمَكَّنَ من سُؤالِهِ غَيرَ هائِبٍ، ولا مُنقَبِضٍ، وأنَّهُ يَنبَغي للسَّائِلِ أن يَرفُقَ في سُؤالِهِ.

وفيه: أنَّهُ يَنبَغي للعالِمِ والمُفتي وغَيرِهِما، إذا سُئِلَ عَمَّا لا يَعلَمُ، أن يقولَ: «لا أعلَمُ»، وأنَّ ذلك لا يَنقُصُهُ، بل يُستَدَلُّ بِهِ على ورَعِهِ، وتَقواهُ، ووُفورِ عِلمِهِ[٢].

---

(١) رواه مسلم (٨).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ١٦٠).

* حِوارُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الأعرابيِّ السَّائِلِ عن التَّوحيدِ:

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: نُهينا أن نَسألَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن شيءٍ[١]، فكان يُعجِبُنا أن يَجيءَ الرجُلُ من أهلِ الباديَةِ، العاقِلُ[٢]، فيَسألَهُ، ونَحنُ نَسمَعُ.

فبينما نَحنُ جُلوسٌ مع النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المسجِدِ، دَخَلَ رَجُلٌ من أهلِ الباديَةِ[٣]على جَمَلٍ، فأناخَهُ في المسجِدِ، ثم عَقَلَهُ[٤].

- ثم قال لَهم: أيُّكم محمدٌ؟[٥]، والنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَّكِئٌ بين ظَهرانَيهِم[٦].

- فقُلنا: هذا الرجُلُ الأبيَضُ[٧] المُتَّكِئُ.

- فقال له الرجُلُ: يا ابنَ عبدِالمُطَّلِبِ.

- فقال له النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَد أجَبتُكَ**»[٨].

- فقال الرجُلُ للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنِّي سائِلُكَ، فمُشَدِّدٌ عليكَ في المسألَةِ، فلا تَجِدْ عَليَّ في نَفسِكَ[٩].

---

(١) يعني: سؤال ما لا ضرورة إليه.

(٢) يعني: من لم يكن بلغه النَّهي عن السُّؤال، ولأن أهل البادية هم الأعراب، ويغلب فيهم الجهل، والجفاء، و«العاقل»: كونه أعرف بكيفيَّة السُّؤال، وآدابه، والمهمِّ منه، وحسن المراجعة؛ فإن هذه أسباب عظم الانتفاع بالجواب.

(٣) واسمه: ضِمام بن ثعلبة.

(٤) وفيه: جواز إدخال البعير في المسجد، وعقله فيه، وهو دليلٌ على طهارة أبوال الإبل، وأرواثها، إذ لا يؤمن ذلك في البعير مدَّة كونه في المسجد.

(٥) فيه: جواز تسمية الأدون للأعلى دون أن يكنِّيه، إلا أن ذلك منسوخٌ في الرسول؛ لقوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

(٦) فيه: جواز الاتِّكاء بين الناس في المجالس.

(٧) فيه: أنه يجوز أن يعرَّف الرجل بصفته من البياض، والحمرة، والطُّول، والقصر.

(٨) أي: سمعتك.

(٩) فيه من الفقه: أن يقدِّم الإنسان بين يدي حديثه مقدِّمةً، يعتذر فيها؛ ليحسن موقع حديثه عند المحدَّث، ويصبر له على ما يأتي منه، وهو من حسن التَّوصُّل.

– فقال: «**سَل عَمَّا بَدا لَكَ**»[١].

– فقال: يا محمدُ أتانا رسولُكَ، فزَعَمَ لَنا أَنَّكَ تَزعُمُ أنَّ اللهَ أرسَلَكَ؟

– قال: «**صَدَقَ**».

– قال: فمَن خَلَقَ السَّماءَ؟

– قال: «**اللهُ**».

– قال: فمَن خَلَقَ الأرضَ؟

– قال: «**اللهُ**».

– قال: فمَن نَصَبَ هَذِهِ الجِبالَ، وجَعَلَ فيها ما جَعَلَ؟

– قال: «**اللهُ**».

– قال: فبِالذي خَلَقَ السَّماءَ، وخَلَقَ الأرضَ، ونَصَبَ هَذِهِ الجِبالَ، آللهُ أرسَلَكَ؟

– قال: «**نَعَم**».

– قال: وزَعَمَ رسولُكَ أنَّ عَلَينا خَمسَ صَلَواتٍ، في يومِنا ولَيلَتِنا.

– قال: «**صَدَقَ**».

– قال: فبِالذي أرسَلَكَ، آللهُ أمَرَكَ بهذا؟

– قال: «**نَعَم**».

– قال: وزَعَمَ رسولُكَ أنَّ عَلَينا زَكاةً في أموالنا.

– قال: «**صَدَقَ**».

– قال: فبِالذي أرسَلَكَ، آللهُ أمَرَكَ بهذا؟

---

(١) فيه: تشجيعٌ للسَّائل على الاستمرار في توجيه أسئلته من غير حرجٍ، وعلى الطَّريقة التي يريدها، فلن ينهره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولن يجد عليه.

- قال: «**نَعَم**».

- قال: وزَعَمَ رسولُكَ أنَّ عَلَينا صَومَ شَهرِ رَمَضانَ في سَنَتِنا.

- قال: «**صَدَقَ**».

- قال: فبِالذي أرسَلَكَ، آللهُ أمَرَكَ بهذا؟

- قال: «**نَعَم**».

- قال: وزَعَمَ رسولُكَ أنَّ عَلَينا حَجَّ البَيتِ مَنِ استَطاعَ إليه سَبيلًا.

- قال: «**صَدَقَ**».

ثم ولَّى، وقال: والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ لا أزيدُ عليهنَّ، ولا أنقُصُ منهنَّ.

- فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَئِن صَدَقَ لَيَدخُلَنَّ الجَنَّةَ**»(١).

وعندَ أحمَدَ، مِن حديثِ ابنِ عباسٍ: ثم انصَرَفَ راجِعًا إلى بَعيرِهِ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَ ولَّى: «**إن يَصدُق ذو العَقيصَتَينِ**(٢) **يدخُلِ الجَنَّةَ**».

- قال: فأتَى إلى بَعيرِهِ، فأطلَقَ عِقالَهُ، ثم خرجَ حتى قَدِمَ على قَومِهِ، فاجتَمَعوا إليه، فكان أوَّلَ ما تكَلَّمَ بهِ، أن قال: بئسَتِ اللَّاتُ والعُزَّى.

- قالوا: مَه يا ضِمامُ! اتَّقِ البَرَصَ، والجُذامَ، اتَّقِ الجُنونَ.

- قال: ويلَكُم، إنَّهما -واللهِ- لا يَضُرَّانِ، ولا يَنفَعانِ، إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قد بَعَثَ رسولًا، وأنزَلَ عليه كِتابًا، استَنقَذَكُم بهِ مِمَّا كنتُم فيه، وإنِّي أشهَدُ أن لا إلَهَ إلا اللهُ، وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، إنِّي قَد جِئتُكُم من عندِهِ، بما أمَرَكُم بهِ، ونَهاكُم عَنهُ.

- قال: فواللهِ ما أمسَى من ذلك اليومِ وفي حاضِرِهِ(٣) رَجُلٌ، ولا امرَأةٌ، إلا مُسلِماً.

---

(١) رواه البخاري (٦٣)، ومسلم (١٢).

(٢) العقيصتان: الضَّفيرتان من الشَّعر.

(٣) الحاضر: الحيُّ.

قال ابنُ عبَّاسٍ: «فَما سَمِعنا بوافِدِ قَومٍ كان أفضَلَ من ضِمامِ بنِ ثَعلَبَةَ»[١].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذا من حُسنِ سُؤال هذا الرجُلِ، ومَلاحَةِ سياقَتِهِ، وتَرتيبِهِ، فإنَّهُ سَأَلَ -أوَّلًا- عن صانِعِ المخلوقاتِ مَن هوَ؟ ثم أقسَمَ عليه بِهِ أن يَصدُقَهُ في كَونِهِ رسولًا للصَّانِعِ، ثم لَمَّا وقَفَ على رِسالَتِهِ، وعَلِمَها، أقسَمَ عليه بحَقِّ مُرسِلِهِ، وهذا تَرتيبٌ يَفتَقِرُ إلى عَقلٍ رَصينٍ، ثم إنَّ هَذِهِ الأيمانَ جَرَت للتَّأكيدِ، وتَقريرِ الأمرِ، لا لافتِقارِهِ إلَيها»[٢].

وفيه من أدَبِ الحِوارِ: الجَوابُ على قَدرِ السُّؤال؛ حيث كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقتَصِرُ على قولِهِ: «**نَعَم**»، أو: «**صدق**».

وممَّا يُستَفادُ مِنَ الحديثِ: جُلوسُ الرسولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أصحابِهِ كَواحِدٍ منهم، حتى يَحتاجَ الدَّاخِلُ إلى السُّؤال عَنهُ؛ لعَدَمِ تَمَيُّزِهِ عنهم بالهَيئَةِ، أوِ الموضِعِ، هَذِهِ المُخالَطَةُ أدعَى إلى تَوريثِ المحَبَّةِ في القُلوبِ، وزيادَةِ التَّلاحُمِ بين الأتباعِ والمتبوعِ، والتَّمَكُّنِ مِنَ التَّعليمِ، بالأُسوَةِ والقُدوَةِ.

* حِوارُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع الشَّابِّ الذي كان يُريدُ الزِّنا:

عن أبي أُمامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: إنَّ فتًى شابًّا أتَى النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، ائذَن لي بالزِّنا! فأقبَلَ القَومُ عليه، فزَجَروهُ، قالوا: مَه! مَه!

- فقال: «**ادنُه**»، فدَنا منه قَريبًا، فجَلَسَ.
- قال: «**أتُحِبُّهُ لأُمِّكَ؟**».
- قال: لا واللهِ، جَعَلَني اللهُ فِداءَكَ.
- قال: «**وَلا الناسُ يُحِبُّونَهُ لأُمَّهاتِهِم**».
- قال: «**أفَتُحِبُّهُ لابنَتِكَ؟**».

---

(١) رواه أحمد (٢٣٨٠)، وحسنه محققو المسند.

(٢) شرح النووي على مسلم (١/ ١٧١).

- قال: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، جَعَلَني اللهُ فِداءَكَ.

- قال: «**وَلا الناسُ يُحِبُّونَهُ لبَناتِهِم**».

- قال: «**أفَتُحِبُّهُ لأُختِكَ؟**».

- قال: لا واللهِ، جَعَلَني اللهُ فِداءَكَ.

- قال: «**وَلا الناسُ يُحِبُّونَهُ لأخَواتِهِم**».

- قال: «**أفَتُحِبُّهُ لعَمَّتِكَ؟**».

- قال: لا واللهِ، جَعَلَني اللهُ فِداءَكَ.

- قال: «**وَلا الناسُ يُحِبُّونَهُ لعَمَّاتِهِم**».

- قال: «**أفَتُحِبُّهُ لخالَتِكَ؟**».

- قال: لا واللهِ، جَعَلَني اللهُ فِداءَكَ.

- قال: «**وَلا الناسُ يُحِبُّونَهُ لخالاتِهِم**».

- قال: فوَضَعَ يَدَهُ عليه، وقال: «**اللهمَّ اغفِر ذَنبَهُ، وطَهِّر قَلبَهُ، وحَصِّن فرجَهُ**».

فَلَم يَكُن بعدُ ذلك الفَتى يَلتَفِتُ إلى شيءٍ[١].

فَتعامَلَ مَعَهُ الرسولُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأسُلوبٍ حَكيمٍ: فكَما أنَّ لَكَ مَحارِمَ، فللنَّاسِ مَحارِمُ، والتي تُريدُ أن تَزنيَ بها، هي -ولا بُدَّ- أُمٌّ غَيرِكَ، أو بنتُهُ، أو أُختُه، أو عَمَّتُهُ، أو خالَتُهُ، فإن كُنتَ تَرضاهُ لنَفسِكَ فهَذِهِ نَقيصَةٌ، وإن كُنتَ لا تَرضاهُ لنَفسِكَ، فكَيفَ تَرضاهُ للنَّاسِ؟

وهَكَذا استَدَلَّ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقُبحِ الزِّنا في أعيُنِ الناسِ؛ فإنَّهم لا يَرضَونَهُ لأُمَّهاتِهِم، ولا لبَناتِهِم، ولا لَمحارِمِهِم، فعامِلِ الناسَ بما تُحِبُّ أن يُعامِلوكَ بهِ، وما تَكرَهُهُ لنَفسِكَ فاكرَهْهُ للنَّاسِ.

---

(١) رواه أحمد (٢٢٢١١)، وصححه محققو المسند.

إنَّ الإقناعَ العَقليَّ، إذا انضافَ إلى خَشيَةِ الله، كان أبلغَ في الزّجرِ.

فكَفَّ الشَّابُّ عن نَزوَتِهِ المُحَرَّمَةِ، وأبغَضَ الزِّنا عن قَناعَةٍ.

لَقَد تَعامَلَ مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكُلِّ رِفقٍ، ورَحمَةٍ، كَيفَ لا؟ وقد أخبَرَ اللهُ عنه بقولِهِ: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وهذه شَهادَةٌ مِنَ اللهِ تعالى لنَبيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برَحمَتِهِ بالناسِ كافَّةً، ذَكَرِهِم وأُنثاهم، وصَغيرِهِم، وكَبيرِهِم، وبَرِّهِم، وفاجِرِهِم، ومُؤمنِهِم، وكافِرِهِم.

قال ابنُ كَثيرٍ، في قولِهِ تعالى: ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا**﴾: «أي: لَو كُنتَ سَيِّئَ الكلامِ، قاسيَ القَلبِ عليهم؛ لانفَضُّوا عَنكَ وتَركوكَ، ولكن اللهَ جَمَعَهم عليكَ، وألانَ جانِبَكَ لَهم؛ تأليفًا لقُلوبِهم، كَما قال عبدُالله بنُ عَمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّهُ رَأى صِفَةَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ: «أنَّهُ ليس بفَظٍّ، ولا غَليظٍ، ولا سَخَّابٍ في الأسواقِ، ولا يَجزي بالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، ولكن يَعفو، ويَصفَحُ»[(١)]. [(٢)]

فانظُر كَيفَ استَأصَلَ من نَفسِ الفَتى تَعَلُّقَهُ بالزِّنا، عن طَريقِ المُحادَثَةِ، والمُحاكَمَةِ النَّفسيَّةِ، والموازَنَةِ العَقليَّةِ، بالحِكمَةِ، والرّحمَةِ، دونَ أن يَذكُرَ له الآياتِ الوارِدَةَ في تَحريمِ الزِّنا، والوَعيدِ للزَّاني والزَّانيَةِ؛ لأنَّ الشَّابَّ يَعرِفُ أنَّهُ حَرامٌ، ويَعلَمُ النُّصوصَ في ذلك، وإلا لَما جاءَ يَستَأذِنُهُ، فكان جَوابُهُ أقلَعَ للباطِلِ من قَلبِهِ.

وقد كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسَنَ الناسِ أُسلوبًا في مُناظَراتِهِ، ومُحاوَراتِهِ، وكان أعقَلَ المُناظِرينَ، وأبيَنَهم دَليلًا، وأحسَنَهم جَدَلًا:

فَما جادَلَ أحَدًا إلا خَصَمَهُ، وقَطَعَهُ، وما استَطالَ على مُخالِفٍ في جِدالٍ، فقَد كان يَترُكُهُ

---

(١) رواه البخاري (٤٨٣٨)، ولفظه: عن عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن هذه الآية التي في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥]، قال في التَّوراة: «يا أيُّها النبيُّ إنا أرسلناك شاهدًا ومبشِّرًا وحرزًا للأمِّيِّين، أنت عبدي ورسولي، سمَّيتك المتوكِّل، ليس بفظٍ ولا غليظٍ، ولا سخَّابٍ بالأسواق، ولا يدفع السَّيِّئة بالسَّيِّئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملَّة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا».

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٨).

يُدلي بقولِهِ حتى يَفرُغَ منه، فإذا فرَغَ منه قامَ عليه بالحُجَّةِ، فأظهَرَهُ اللهُ عليه بما آتاهُ مِنَ الكِتابِ والحِكمَةِ.

ولَم يُلجِئهُ -يومًا- جَدَلٌ، أو مُناظَرَةٌ، إلى الخُروجِ عن سَكينَتِهِ، ووَقارِهِ، إلى ما يَصيرُ إليه -في العادَةِ- حالُ المُتَناظِرينَ مِنَ الغَضَبِ، واللَّجاجِ، والشَّتمِ، والطَّعنِ، والتَّقاذُفِ بالسِّبابِ، واللِّعانِ، وسوءِ الظَّنِّ، ونَحوِ ذلك مِمَّا هو مَعروفٌ في الناسِ.

وإنما كان -دائمًا- على هَيئَتِهِ مِنَ السَّكينَةِ، والأدَبِ الجَمِّ، من أوَّلِ المُناظَرَةِ إلى آخِرِها، لا يُخرِجُهُ قولُ سَفيهٍ عن ذلك.

* **ومِن أشهَرِ مُناظَراتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مُناظَرَتُهُ لنَصارَى وفدِ نَجرانَ.**

فعن حُذَيفَةَ، قال: جاءَ العاقِبُ والسَّيِّدُ، صاحِبا نَجرانَ، إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُريدانِ أن يُلاعِناهُ، قال: فقال أحَدُهما لصاحِبِهِ: لا تَفعَل؛ فواللهِ لَئِن كان نَبيًّا فلاعَنَّا لا نُفلِحُ نَحنُ، ولا عَقِبُنا من بعدِنا، قالا: إنَّا نُعطيكَ ما سَألتَنا، وابعَث معنا رَجُلًا أمينًا، ولا تَبعَث معنا إلا أمينًا.

فقال: «**لَأبعَثَنَّ مَعَكُم رَجُلًا أمينًا، حَقَّ أمينٍ**»، فاستَشرَفَ له أصحابُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**قُم يا أبا عُبَيدَةَ بنَ الجَرَّاحِ**»، فلَمَّا قامَ، قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَذا أمينُ هَذِهِ الأُمَّةِ**»(١).

وقد سَرَدَ أهلُ السِّيَرِ تَفصيلَ هَذِهِ المُناظَرَةِ، فقال ابنُ إسحاقَ في سيرَتِهِ المشهورَةِ، -وَغَيرُهُ-: «قَدِمَ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفدُ نَصارَى نَجرانَ، سِتُّونَ راكِبًا، فيهم أربَعَةَ عَشَرَ رَجُلًا من أشرافِهِم، يَؤولُ أمرُهم إليهم... وأمرُ هَؤُلاءِ يَؤولُ إلى ثَلاثَةٍ منهم، وهُمْ: العاقِبُ، وكان أميرَ القَومِ، وذا رَأيِهِم، وصاحِبَ مَشورَتِهِم، والذي لا يَصدُرونَ إلا عن رَأيِهِ، والسَّيِّدُ، وكان عالِمَهم، وصاحِبَ رَحلِهِم، ومُجتَمَعِهِم، وأبو حارِثَةَ بنُ عَلقَمَةَ، وكان أُسقُفَّهم، وحَبرَهم، وإمامَهم، وصاحِبَ مَدارِسِهِم، وكان رَجُلًا مِنَ العَرَبِ من بَني بكرِ

---

(١) رواه البخاري (٤٣٨٠)، ومسلم (٢٤٢٠).

بنِ وائِلٍ، ولكنهُ تَنَصَّرَ، فعَظَّمَتهُ الرُّومُ ومُلوكُها، وشَرَّفوهُ، وبَنَوا له الكنائِسَ، وأخدَموهُ؛ لما يَعلَمونَهُ من صَلابَتِهِ في دينِهِم، وقد كان يَعرِفُ أمرَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصِفَتَهُ، وشَأنَهُ، مِمَّا عَلِمَهُ مِنَ الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ، ولكن حَمَلَهُ جَهلُهُ على الاستِمرارِ في النَّصرانيَّةِ؛ لما يَرَى من تَعظيمِهِ فيها، وجاهِهِ عندَ أهلِها[1].

فَكَلَّمَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم: أبو حارِثَةَ بنُ عَلقَمَةَ، والعاقِبُ عبدُ المسيحِ، والسَّيِّدُ الأيهَمُ، وهم مِنَ النَّصرانيَّةِ على دينِ المَلِكِ، مع اختِلافٍ من أمرِهِم، يقولونَ: هو اللهُ، ويقولونَ: هو ولَدُ اللهِ، ويقولونَ: هو ثالثُ ثَلاثَةٍ، تعالى اللهُ عن قولِهِم عُلوًّا كَبيرًا، وكَذلك قولُ النَّصرانيَّةِ.

فهم يَحتَجُّونَ في قولِهِم: هو اللهُ، بأنَّهُ كان يُحيي الموتَى، ويُبرِئُ الأكمَهَ، والأبرَصَ، والأسقامَ، ويُخبِرُ بالغُيوبِ، ويَخلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيئَةِ الطَّيرِ، فيَنفُخُ فيه فيكونُ طَيرًا، وذلك كُلُّهُ بأمرِ اللهِ، وليَجعَلَهُ اللهُ آيةً للنَّاسِ.

ويَحتَجُّونَ على قولِهِم بأنَّهُ ابنُ اللهِ، يقولونَ: لم يَكُن له أبٌ يُعلَمُ، وقد تَكَلَّمَ في المَهدِ بشيءٍ لم يَسمَعهُ أحَدٌ من بَني آدَمَ قبلَهُ.

ويَحتَجُّونَ على قولِهِم بأنَّهُ ثالثُ ثَلاثَةٍ، بقولِ اللهِ تعالى: فعَلنا، وأمَرنا، وخَلَقنا، وقَضَينا، فيقولونَ: لَو كان واحِدًا ما قال إلا فعَلتُ، وأمَرتُ، وقَضَيتُ، وخَلَقتُ، ولكنهُ هو وعيسَى ومَريَمُ، تعالى اللهُ وتَقَدَّسَ وتَنَزَّهَ عَمَّا يقولُ الظَّالمونَ والجاحِدونَ عُلوًّا كَبيرًا.

فَفي كُلِّ ذلك من قولِهِم قَد نَزَلَ القُرآنُ، فلمَّا كَلَّمَهُ الحَبرانِ، قال لَهما رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **«أسلِما»**.

---

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «لقد ناظرنا بعض علماء النَّصارى معظم يومٍ، فلماَّ تبينَّ له الحقُّ بهت، فقلت له -وأنا وهو خاليان-: ما يمنعك -الآن- من اتِّباع الحقِّ؟ فقال لي: إذا قدمت على هؤلاء الحمير -هكذا لفظه- فرشوا الشِّقاق تحت حوافر دابَّتي، وحكَّموني في أموالهم ونسائهم، ولم يعصوني فيما آمرهم به، وأنا لا أعرف صنعةً، ولا أحفظ قرآنًا، ولا نحوًا، ولا فقهًا، فلو أسلمت، لدرت في الأسواق، أتكفَّف الناس، فمن الذي يطيب نفسًا بهذا؟» هداية الحيارى (٢/ ٤٣٩).

- قالا: قَد أسلَمنا.

- قال: «**إنَّكُما لم تُسلِما، فأسلِما**».

- قالا: بَلى، قَد أسلَمنا قبلَكَ.

- قال: «**كَذَبتُما، يَمنَعُكُما مِنَ الإسلامِ: ادِّعاؤُكُما للهِ ولَدًا، وعِبادَتُكُما الصَّليبَ، وأكلُكُما الخِنزيرَ**».

- قالا: فمَن أبوهُ يا محمدُ؟

فَصَمَتَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَنهما فلَم يُجِبهما، فأنزَلَ اللهُ في ذلك من قولِهِم، واختِلافِ أمرِهِم، صَدرَ سورَةِ آلِ عِمرانَ، إلى بضعٍ وثَمانينَ آيةً منها.

فلَمَّا أتَى رسولَ اللهِ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الخَبَرُ مِنَ اللهِ، والفَصلُ مِنَ القَضاءِ بينهُ وبينهم، وأُمِرَ بما أُمِرَ بهِ من مُلاعَنَتِهِم، إن رَدُّوا ذلك عليه، كَما في قولِهِ تعالى: ﴿**فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ**﴾ [آل عمران: ٦١].

فَدَعاهم إلى ذلك، فقالوا: يا أبا القاسِمِ، دَعنا نَنظُر في أمرِنا، ثم نَأتيكَ بما نُريدُ أن نَفعَلَ فيما دَعَوتَنا إليه.

ثم انصَرَفوا عَنهُ، ثم خَلَوا بالعاقِبِ، وكان ذا رَأيِهِم، فقالوا: يا عبدَ المسيحِ ماذا تَرَى؟

فقال: واللهِ يا مَعشَرَ النَّصارَى لَقَد عَرَفتُم أنَّ محمدًا لَنَبيٌّ مُرسَلٌ، ولَقَد جاءَكُم بالفَصلِ من خَبَرِ صاحِبِكُم، ولَقَد عَلِمتُم أنَّهُ ما لاعَنَ قَومٌ نَبيًّا -قَطُّ-، فبَقيَ كَبيرُهم، ولا نَبَتَ صَغيرُهم، وإنَّهُ الاستئصالُ مِنكُم -إن فعَلتُم-، فإن كنتُم أبيتُم إلا إلفَ دينِكُم، والإقامَةَ على ما أنتم عليه مِنَ القولِ في صاحِبِكُم، فوادِعوا الرجُلَ، وانصَرِفوا إلى بلادِكُم.

فَأتَوُا النبيَّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقالوا: يا أبا القاسِمِ، قَد رَأينا أن لا نُلاعِنَكَ، وأن نَترُكَكَ على دينِكَ، ونَرجِعَ على دينِنا، ولكن ابعَث معنا رَجُلًا من أصحابِكَ، تَرضاهُ لَنا، يَحكُم بيننا في أشياءَ اختَلَفنا فيها في أموالنا، فإنَّكُم عندَنا رِضًا.

فَبَعَثَ مَعَهم أبا عُبَيدَةَ بنَ الجَرَّاحِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)].

وروى ابنُ إسحاقَ عن ابنِ عبَّاسٍ، قال: «اجتَمَعَت نَصارَى نَجرانَ، وأحبارُ يَهودَ عندَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتنازَعوا عندَهُ، فقالتِ الأحبارُ: ما كان إبراهيمُ إلا يَهوديًّا، وقالتِ النَّصارَى: ما كان إلا نَصرانيًّا، فأنزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فيهم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦٦ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٨].

فقال رَجُلٌ مِنَ الأحبارِ: أتُريدُ مِنَّا -يا محمدُ- أن نَعبُدَكَ كَما تَعبُدُ النَّصارَى عيسَى ابنَ مَريَمَ؟ وقال رَجُلٌ من نَصارَى نَجرانَ: أوَذلك تُريدُ يا محمدُ، وإليه تَدعونا؟ فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَعاذَ اللهِ أن أعبُدَ غيرَ اللهِ، أو آمُرَ بعِبادَةِ غَيرِهِ، ما بذلك بَعَثَني ولا أمَرَني**»، فأنزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في ذلك: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ۝٧٩ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠].

ثم ذَكَرَ ما أُخِذَ عليهم وعلى آبائِهم مِنَ الميثاقِ بتَصديقِهِ، وإقرارِهِم بهِ على أنفُسِهِم، فقال: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال ابنُ إسحاقَ: وحَدَّثَني محمدُ بنُ سَهلِ بنِ أبي أُمامَةَ، قال: «لَمَّا قَدِمَ وفدُ نَجرانَ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسألونَهُ عن عيسَى ابنِ مَريَمَ، نَزَلَ فيهم فاتِحَةُ آلِ عِمرانَ إلى رَأسِ الثَّمانينَ منها»[(٢)].

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٥٨-١٦٦)، تفسير ابن كثير (٢/ ٥٠-٥١).

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (٥/ ٣٨٤)، سيرة ابن هشام (٢/ ١٤٥).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «**مِن فِقهِ هَذِهِ القِصَّةِ:**

- **أنَّ إقرارَ الكاهِنِ الكِتابيِّ لرسولِ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بأَنَّهُ نَبيٌّ، لا يُدخِلُهُ في الإسلامِ،** ما لم يَلتَزِم طاعَتَهُ ومُتابَعَتَهُ، فإذا تَمَسَّكَ بدينِهِ بعدَ هذا الإقرارِ، لا يكونُ رِدَّةً منه، **ونَظيرُ هَذا:** قولُ الحَبرَينِ لَهُ، وقد سَألاهُ عن ثَلاثِ مَسائِلَ، فلمَّا أجابَهما قالا: نَشهَدُ أنَّكَ نَبيٌّ، قال: «فَما يَمنَعُكُما مِنَ اتِّباعي؟»، قالا: نَخافُ أن تَقتُلَنا اليَهودُ، ولم يُلزِمهما بذلك الإسلامَ.

ونَظيرُ ذلك: شَهادَةُ عَمِّهِ أبي طالبٍ له بأَنَّهُ صادِقٌ، وأنَّ دينَهُ من خَيرِ أديانِ البَرِيَّةِ دينًا، ولم تُدخِلهُ هَذِهِ الشَّهادَةُ في الإسلامِ.

ومَن تَأَمَّلَ ما في السِّيَرِ، والأخبارِ الثابِتَةِ، من شَهادَةِ كَثيرٍ من أهلِ الكِتابِ والمُشرِكينَ له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرِّسالَةِ، وأنَّهُ صادِقٌ، فلَم تُدخِلهم هَذِهِ الشَّهادَةُ في الإسلامِ، عَلِمَ أنَّ الإسلامَ أمرٌ وراءَ ذلك، وأنَّهُ ليس هو المعرِفَةَ فقَط، ولا المعرِفَةَ، والإقرارَ فقَط، بَلِ المعرِفَةُ، والإقرارُ، والانقيادُ، والتِزامُ طاعَتِهِ ودينِهِ، ظاهِرًا وباطِنًا.

- **ومنها: جَوازُ مُجادَلَةِ أهلِ الكِتابِ، ومُناظَرَتِهم، بَلِ استِحبابُ ذلك،** بل وُجوبُهُ، إذا ظَهَرَت مَصلَحَتُهُ من إسلامِ مَن يُرجَى إسلامُهُ منهم، وإقامَةِ الحُجَّةِ عليهم، ولا يَهرُبُ من مُجادَلَتِهم إلا عاجِزٌ عن إقامَةِ الحُجَّةِ، فليوَلِّ ذلك إلى أهلِهِ، وليُخَلِّ بين المطيِّ، وحاديها، والقَوسِ، وباريها.

والمقصودُ: أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يَزَل في جِدالِ الكُفَّارِ على اختِلافِ مِلَلِهِم ونِحَلِهِم، إلى أن تُوُفِّيَ، وكَذلك أصحابُهُ من بعدِهِ، وقد أمَرَهُ اللهُ سبحانه بجِدالِهِم بالتي هيَ أحسَنُ، في السُّورَةِ المكِّيَّةِ والمدَنيَّةِ، وأمَرَهُ أن يَدعوَهم -بَعدَ ظُهورِ الحُجَّةِ- إلى المُباهَلَةِ، وبهذا قامَ الدِّينُ، وإنما جُعِلَ السَّيفُ ناصِرًا للحُجَّةِ، وأعدَلُ السُّيوفِ: سَيفٌ يَنصُرُ حُجَجَ اللهِ، وبَيِّناتِهِ، وهو سَيفُ رسولِهِ، وأُمَّتِهِ» انتَهى مُلَخَّصًا[1].

- **ويُستَفادُ من هَذِهِ القِصَّةِ -أيضًا-: أنَّ المُناظَرَةَ لا بُدَّ أن يُحشَدَ لها مَن يَقومُ بنُصرَةِ الحَقِّ**

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٥٥٧-٥٦١).

وتَأييدِهِ من أهلِ العِلمِ، والفِقهِ، والعَقلِ الصَّحيحِ، فإذا كان هَؤُلاءِ النَّصارَى، وهم على دينِ الباطِلِ، قَد حَشَدوا لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُؤَساءَهم؛ ليُناظِروهُ، ويُجادِلوهُ، فأصحابُ الحَقِّ أولى بهذا الحَشدِ؛ لنُصرَةِ الحَقِّ، واستِعلائِهِ.

فَلا بُدَّ أن يَنتَصِبَ للمُناظَرَةِ ذو الحُجَّةِ القَويُّ، لا العَييُّ الضَّعيفُ، والفَقيهُ العالمُ، لا المُتَعالمُ الجاهِلُ، وذو العَقلِ والحِكمَةِ، لا المُتَرَدِّدُ المهزولُ؛ لأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِلِسانِ الحَقِّ، ويَدفَعُ عنه شُبَهَ الباطِلِ، فلا بُدَّ أن يكونَ بالمحَلِّ الرضيِّ، ولو احتاجَ الأمرُ إلى حَشدٍ من ذَوي العِلمِ، والرأيِ، والعَقلِ، والحِكمَةِ، فلا حَرَجَ في ذلك، فإنَّ نُصرَةَ الحَقِّ بالحُجَّةِ، واللِّسانِ، كَنُصرَتِهِ بالسَّيفِ، والسِّنانِ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ**﴾ [الأنفال: ٦٠].

وإنما لم يَنتَصِب لهم إلا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فلأَنَّهُ كافٍ -قَطعًا- في رَدِّ باطِلِهِم، ونُصرَةِ الحَقِّ، ولا يَحتاجُ في ذلك إلى مَن يُؤَيِّدُهُ، ويُناصِرُهُ، ويَقومُ بالحُجَّةِ مَعَهُ.

وفي زَمانِنا هَذا: قَد يَحتاجُ أهلُ الحَقِّ في المُناظَرَةِ إلى جَمعٍ منهم، من أهلِ العِلمِ، والحِكمَةِ، مُتَمَرِّسينَ على المُناظَرَةِ في الأبوابِ؛ لأَنَّ أهلَ الباطِلِ كَذلك يَجمَعونَ من شَتاتِهِم، ومِن شَتاتِ أفكارِهِمُ المُنحَرِفَةِ، ونِحَلِهِمُ الباطِلَةِ، ما يَحتاجُ الأمرُ مَعَهُ إلى تَنَوُّعٍ في المُقابِلِ؛ ليُقابِلَ هذا الشَّتاتَ الذي يَرِدُ عليهم من كُلِّ بابٍ.

* ومِن مُناظَراتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مُناظَرَتُهُ لعَديِّ بنِ حاتِمٍ، قبلَ أن يُسلِمَ.

فعن عَديِّ بنِ حاتِمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: أَتيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو جالسٌ في المسجِدِ، فقال القَومُ: هذا عَديُّ بنُ حاتِمٍ، وجِئتُ بغَيرِ أمانٍ، ولا كِتابٍ.

فلمَّا دُفِعتُ إليه أَخَذَ بيَدي، وقد كان قال قبلَ ذلك: «**إنِّي لأَرجو أن يَجعَلَ اللهُ يَدَهُ في يَدي**»، قال: فقامَ، فلَقِيَتهُ امرَأةٌ، وصَبيٌّ مَعَها، فقالا: إنَّ لَنا إلَيكَ حاجَةً، فقامَ مَعَهما، حتى

قَضَى حاجَتَها، ثم أَخَذَ بيَدي، حتى أَتَى بي دارَهُ، فألقَت له الوَليدَةُ[(١)] وِسادَةً، فجَلَسَ عليها، وجَلَستُ بين يَدَيهِ، فحَمِدَ اللهَ، وأثنَى عليه، ثم قال: «**ما يُفِرُّكَ[(٢)] أن تقولَ لا إلَهَ إلا اللهُ؟ فهَل تَعلَمُ من إلَهٍ سِوَى اللهِ؟**»، قُلتُ: لا، ثم تَكَلَّمَ ساعَةً، ثم قال: «**إنما تَفِرُّ أن تقولَ اللهُ أكبَرُ، وتَعلَمُ شَيئًا أكبَرَ مِنَ اللهِ؟**»، قُلتُ: لا، قال: «**فإنَّ اليَهودَ مَغضوبٌ عليهم، وإنَّ النَّصارَى ضُلَّالٌ**»، قُلتُ: فإنِّي ضَيفٌ مُسلِمٌ، قال: فرَأيتُ وجهَهُ تَبَسَّطَ فرَحًا، ثم أمَرَ بي فأُنزِلتُ عندَ رَجُلٍ مِنَ الأنصارِ، جَعَلتُ أغشاهُ، آتيهِ طَرَفَي النَّهارِ.

فَبَينا أنا عندَهُ عَشيَّةً، إذ جاءَهُ قَومٌ في ثيابٍ مِنَ الصُّوفِ، من هَذِهِ النِّمارِ، قال: فصَلَّى، وقامَ، فحَثَّ عليهم، ثم قال: «**وَلَو صاعٌ، ولو بنِصفِ صاعٍ، ولو قَبضَةٌ، ولو ببعضِ قَبضَةٍ، يَقي أحَدُكُم وجهَهُ حَرَّ جَهَنَّمَ، ولو بتَمرَةٍ، ولو بشِقِّ تَمرَةٍ، فإنَّ أحَدَكُم لاقي اللهَ، وقائِلٌ له ما أقولُ لَكُم: ألَمَ أجعَل لَكَ سَمعًا وبَصَرًا؟ فيقولُ: بَلى، فيقولُ: ألَمَ أجعَل لَكَ مالًا ووَلَدًا؟ فيقولُ: بَلى، فيقولُ: أينَ ما قَدَّمتَ لنَفسِكَ؟ فيَنظُرُ قُدَّامَهُ، وبَعدَهُ، وعن يَمينِهِ، وعن شِمالِهِ، ثم لا يَجِدُ شَيئًا يَقي بهِ وجهَهُ حَرَّ جَهَنَّمَ، ليَقِ أحَدُكُم وجهَهُ النارَ، ولو بشِقِّ تَمرَةٍ، فإن لم يَجِد، فبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ، فإنِّي لا أخافُ عليكمُ الفاقَةَ، فإنَّ اللهَ ناصِرُكُم ومُعطيكُم، حتى تَسيرَ الظَّعينَةُ فيما بين يَثرِبَ والحيرَةِ أو أكثَرَ، ما يُخافُ على مَطيَّتِها السَّرَقُ**»، قال: فجَعَلتُ أقولُ في نَفسي: فأينَ لُصوصُ طَيِّئٍ[(٣)].

وعَنه- رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-، قال: لَمَّا بَلَغَني خُروجُ رسولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فكَرِهتُ خُروجَهُ كَراهَةً شَديدَةً، خرجتُ حتى وقَعتُ ناحيَةَ الرُّومِ، حتى قَدِمتُ على قَيصَرَ، قال: فكَرِهتُ مَكاني ذلك أشَدَّ من كَراهيَتي لخُروجِهِ، فقُلتُ: واللهِ لَولا أتيتُ هذا الرجُلَ، فإن كان كاذِبًا لم يَضُرَّني، وإن كان صادِقًا عَلِمتُ، فقَدِمتُ فأتَيتُهُ، فلَمَّا قَدِمتُ قال الناسُ: عَديُّ بنُ حاتِمٍ، عَديُّ بنُ حاتِمٍ.

---

(١) الجارية.

(٢) أي: ما يحملك على الفرار.

(٣) رواه الترمذي (٢٩٥٣)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي، وهو في البخاري (٣٥٩٥)، بنحوه.

فَدَخلتُ على رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال لي: «**يا عَديَّ بنَ حاتِمٍ، أسلِم تَسلَم**» ثَلاثًا.

– قال: قُلتُ: إنِّي على دينٍ.

– قال: «**أنا أعلَمُ بدينِكَ مِنكَ**».

– فقُلتُ: أنتَ أعلَمُ بديني مِنِّي؟

– قال: «**نَعَم، ألَستَ مِنَ الركوسيَّةِ، وأنتَ تَأكُلُ مِرباعَ قَومِكَ؟**»(١).

– قُلتُ: بَلى.

– قال: «**فإنَّ هذا لا يَحِلُّ لَكَ في دينِكَ**».

– قال: فلَم يَعدُ أن قالها، فتَواضَعتُ لها.

– فقال: «**أما إنِّي أعلَمُ ما الذي يَمنَعُكَ مِنَ الإسلامِ، تقولُ: إنما اتَّبَعَهُ ضَعَفَةُ الناسِ، ومَن لا قوَّةَ لَهُ، وقد رَمَتهمُ العَرَبُ، أتَعرِفُ الحيرَةَ؟**».

– قُلتُ: لم أرَها، وقد سمعتُ بها.

– قال: «**فَوالذي نَفسي بيَدِهِ، لَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمرَ، حتى تَخرُجَ الظَّعينَةُ مِنَ الحيرَةِ، حتى تَطوفَ بالبَيتِ في غَيرِ جِوارِ أحَدٍ، ولَتُفتَحَنَّ كُنوزُ كِسرَى بنِ هُرمُزَ**».

– قُلتُ: كِسرَى بنُ هُرمُزَ؟

– قال: «**نَعَم، كِسرَى بنُ هُرمُزَ، ولَيُبذَلَنَّ المالُ، حتى لا يَقبَلَهُ أحَدٌ**».

– قال عَديُّ بنُ حاتِمٍ: «فهَذِهِ الظَّعينَةُ تَخرُجُ مِنَ الحيرَةِ، فتَطوفُ بالبَيتِ في غَيرِ جِوارٍ، ولَقَد كنتُ فيمَن فتَحَ كُنوزَ كِسرَى بنِ هُرمُزَ، والذي نَفسي بيَدِهِ لَتكونَنَّ الثالثَةُ؛ لأنَّ **رسولَ اللهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَد قالها**»(٢).

---

(١) الركوسيَّة: دينٌ بين النَّصارى والصابئين، والمرباع: ربع الغنيمة، كان الملك أو الرئيس يأخذ الرُّبع من الغنيمة في الجاهليَّة، دون أصحابه، فكان يسمَّى ذلك الرُّبع: المرباع. ينظر: النهاية (٢/ ١٨٦)، (٢/ ٢٥٩).

(٢) رواه الإمام أحمد (١٨٢٦٠)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٦٦٠٦)، والطبراني في الأوسط (٦٦١٤)، والبيهقي في دلائل النُّبوَّة (٥/ ٣٤٢)، وحسنه محققو المسند.

ومِن فِقهِ هذا الحديثِ:

ضَرورَةُ إحاطَةِ المُناظِرِ المُحِقِّ، بما عليه مُخالفُهُ مِنَ الباطِلِ.

وفيه: ما كان عليه أهلُ المِلَلِ والنِّحَلِ، المُخالفَةِ للحَنيفيَّةِ السَّمحَةِ، مِنَ الخَلطِ، والتَّبديلِ، فهَؤُلاءِ نَصارَى، وهَؤُلاءِ صابِئَةٌ، وهَؤُلاءِ لم يَرُق لهم هَذا، ولا ذاكَ، فاختَرَعوا دينًا لَهم، هو خَليطٌ من دينِ النَّصرانيَّةِ، والصَّابِئَةِ، ثم شَرَعوا لأنفُسِهِمُ الشَّرائِعَ، ثم خالَفوها، وتِلكَ ظُلُماتٌ، بعضُها فوقَ بعضٍ.

وفيه: ما كان عليه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ العِلمِ، والعَقلِ، والحِكمَةِ، وكَيفَ كان يُناظِرُ الناسَ، كُلٌّ بحَسَبِ ما يُناسِبُهُ، ثم يَهدي اللهُ -مِن بعدِ ذلك- مَن يَشاءُ من عِبادِهِ، فكان لرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هِدايَةُ البَيانِ، أمَّا هِدايَةُ التَّوفيقِ: فإلى اللهِ تعالى وحدَهُ، يَهدي مَن يَشاءُ، ويُضِلُّ مَن يَشاءُ.

وفيه: ما كان عليه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ التَّبَسُّطِ للمُخالفِ، والرِّفقِ بهِ؛ رَجاءَ إسلامِهِ، ومُحادَثَتِهِ بالتي هيَ أحسَنُ، وإقناعِهِ بالأُسلوبِ اللَّطيفِ، والتَّوجيهِ الحَسَنِ، فتَأمَّل قولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعَديٍّ -بَعدَ أن حَمِدَ اللهَ، وأثنَى عليه-: «**ما يُفِرُّكَ أن تقولَ لا إلَهَ إلا اللهُ؟ فهَل تَعلَمُ من إلَهٍ سِوَى اللهِ؟**». قال: لا، ثم قال: «**إنما تَفِرُّ أن تقولَ اللهُ أكبَرُ، وتَعلَمُ شَيئًا أكبَرَ مِنَ اللهِ؟**»، قال: لا.

وفي هذا -أيضًا-: تَوجيهُ المُناظِرِ إلى استِثمارِ الإيجابيَّاتِ التي عندَ المُخالفِ، والاحتِجاجِ بها عليه.

* ومِن منهجِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المُناظَرَةِ: تَوصيلُ المعاني الجَليلَةِ، بالألفاظِ السَّهلَةِ الواضِحَةِ الموجَزَةِ:

فكان رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُحبُّ تَشقيقَ الكلامِ، ولا سَجعَ الكُهَّانِ، ولا أُغلوطاتِ المسائِلِ، فقَد كان سَهلًا سَمحًا: في خُلُقِه، وفي تَعامُلِه، وفي كَلامِهِ، وفي شَأنِهِ كُلِّهِ.

وكان يُقيمُ الحُجّةَ، ويُظهِرُ البُرهانَ، ويَضرِبُ المثَلَ، ويُجيبُ السَّائلينَ، بكلامٍ سَهلٍ، لا تَشقيقَ فيه، ولا تَعقيدَ.

فعن أَبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: جاءَ رَجُلٌ إلى رسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، أَرَأيتَ إن جاءَ رَجُلٌ يُريدُ أخذَ مالي؟

- قال: «**فَلا تُعطِهِ مالَكَ**».

- قال: أرَأيتَ إن قاتَلَني؟

- قال: «**قاتِلهُ**».

- قال: أرَأيتَ إن قَتَلَني؟

- قال: «**فَأنتَ شَهيدٌ**».

- قال: أرَأيتَ إن قَتَلتُهُ؟

- قال: «**هوَ في النارِ**»[1].

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جاءَهُ أعرابيٌّ، فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ امرَأتي ولَدَت غُلامًا أسوَدَ[2]، وإنِّي أنكَرتُهُ[3].

- فقال: «**هَل لَكَ من إبِلٍ؟**».

- قال: نعم.

- قال: «**ما ألوانُها؟**».

- قال: حُمرٌ.

- قال: «**هَل فيها من أورَقَ[4]؟**».

- قال: نعم.

---

(١) رواه مسلم (١٤٠).

(٢) أي: على خلاف لوني.

(٣) أي: استغربت بقلبي أن يكون منِّي.

(٤) الأورق: هو الذي فيه سوادٌ ليس بحالكٍ، بل يميل إلى الغبرة، ومنه قيل للحمامة: ورقاء.

- قال: «**فَأَنَّى كان ذلك**[١]**؟**».

- قال: لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرقٌ[٢].

- قال: «**فَلَعَلَّ ابنَكَ هذا نَزَعَهُ عِرقٌ**»[٣].

وفي هذا الحديثِ: أنَّ الوَلَدَ يَلحَقُ الزَّوجَ إن خالَفَ لَونُهُ لَونَهُ، حتى لَو كان الأبُ أبيَضَ، والوَلَدُ أسوَدَ، أو عَكسهُ، لَحِقَهُ، ولا يَحِلُّ له نَفيُهُ بِمُجَرَّدِ المُخالَفَةِ في اللَّونِ، وكذا: لَو كان الزَّوجانِ أبيَضَينِ، فجاءَ الوَلَدُ أسوَدَ، أو عَكسهُ؛ لاحتِمال أَنَّهُ نَزَعَهُ عِرقٌ من أسلافِهِ.

وفي الحديثِ: ضَربُ المَثَلِ، وتَشبيهُ المجهولِ بالمعلومِ؛ تَقريبًا لفهمِ السَّائِلِ.

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذا الرجُلُ لم يُرِد قَذفًا، بل جاءَ سائِلًا مُستَفتيًا عن الحُكمِ؛ لما وقَعَ له مِنَ الرِّيبَةِ، فلَمَّا ضُرِبَ له المَثَلُ: أذعَنَ»[٤].

❋ استِعمالُ الحُجَجِ العَقليَّةِ؛ لإقناعِ المُحاوِرِ:

عن قَتادَةَ، حَدَّثَنا أنسُ بنُ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رَجُلًا قال: يا نَبيَّ اللهِ كَيفَ يُحشَرُ الكافِرُ على وجهِهِ؟ قال: «**أليس الذي أمشاهُ على الرِّجلَينِ في الدُّنيا، قادِرًا على أن يُمشيَهُ على وجهِهِ يومَ القيامَةِ؟**» قال قَتادَةُ: بَلى، وعِزَّةِ رَبِّنا[٥].

قال الحافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «والحِكمَةُ في حَشرِ الكافِرِ على وجهِهِ: أَنَّهُ عوقِبَ على عَدَمِ السُّجودِ للهِ في الدُّنيا، بأن يُسحَبَ على وجهِهِ في القيامَةِ؛ إظهارًا لهَوانِهِ، بحَيثُ صارَ وجهُهُ مَكانَ يَدِهِ ورِجلِه، في التَّوَقِّي عن المُؤذياتِ»[٦].

---

(١) أي: من أين أتاها اللَّون الذي خالفها؟ هل هو بسبب فحلٍ من غير لونها، طرأ عليها؟ أو لأمرٍ آخر؟

(٢) أي: لعلَّه أن يكون في أصولها ما هو باللَّون المذكور، فاجتذبه إليه، فجاء على لونه، والمراد بالعرق هنا: الأصل من النَّسب، ومعنى «نزعه» أشبهه، واجتذبه إليه، وأظهر لونه عليه.

(٣) رواه البخاري (٥٣٠٥)، ومسلم (١٥٠٠).

(٤) فتح الباري (٩/ ٤٤٤).

(٥) رواه البخاري (٦٥٢٣)، ومسلم (٢٨٠٦).

(٦) فتح الباري (١١/ ٣٨٢).

* الإقناعُ بالحِوارِ، عن طَريقِ إظهارِ عِلَّةِ الحُكم:

إذا اطَّلَعَ الإنسانُ على عِلَّةِ الحُكمِ وحِكمَتِهِ، ارتاحَت نَفسُهُ، وازدادَ قَبولًا لَهُ، ورِضًا بهِ.

وقد كان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كَثيرٍ مِنَ الأحيانِ يقرنُ الحُكمَ بعِلَّتِهِ؛ لزيادَةِ طَمأنَةِ القُلوبِ، وإقناعِ المُخاطَبِ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «مَن تَأمَّلَ فتاوَى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي قولُهُ حُجَّةٌ بنَفسِهِ، رَآها مُشتَمِلَةً على التَّنبيهِ على حِكمَةِ الحُكمِ، ونَظيرِهِ، ووَجهِ مشروعيَّتِهِ»[١].

عن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسألُ عن اشتِراءِ التَّمرِ بالرُّطَبِ، فقال لَمن حَولَهُ: «**أينقُصُ الرُّطَبُ إذا يَبِسَ؟**»، قالوا: نعم، فنَهاهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك[٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «مِنَ المعلومِ أنَّهُ كان يَعلَمُ نُقصانَهُ بالجَفافِ، ولكن نَبَّهَهم على عِلَّةِ التَّحريمِ، وسببِهِ»[٣].

وقال الباجيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «لا يَخفَى على أحَدٍ أنَّ الرُّطَبَ يَنقُصُ إذا يَبِسَ، ولكنهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرادَ أن يُنبِّهَهم بذلك على عِلَّةِ التَّحريمِ، وهو التَّفاضُلُ... فأرادَ تَعليمَهم وتَقريرَهم، على أنَّ عِلَّةَ المنعِ مَوجودَةٌ، مُسَلَّمَةٌ باتِّفاقٍ»[٤].

وعن عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **قال**: هَشِشتُ[٥] يومًا، فقَبَّلتُ وأنا صائِمٌ، فأتيتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقُلتُ: صَنَعتُ اليومَ أمرًا عَظيمًا، فقَبَّلتُ وأنا صائِمٌ.

- فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أرَأيتَ لَو تَمَضمَضتَ بماءٍ وأنتَ صائِمٌ؟**».

---

(١) إعلام الموقِّعين (٤/ ١٢٣).

(٢) رواه أبوداود (٣٣٥٩)، وصححه الألباني.

(٣) إعلام الموقِّعين (٤/ ١٢٣).

(٤) المنتقى شرح الموطَّإ (٤/ ٢٤٣).

(٥) هشَّ للأمر: إذا فرح به، واستبشر، وارتاح له، وخفَّ إليه، والمراد: نظرت إلى امرأتي، أو جاريتي، فقلَّ إمساكي للنفس.

- قُلتُ: لا بَأسَ بذلك.

- فقال رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**فَفيمَ؟**»[١].

يعني: أرَأيتَ لَو تمَضمَضتَ، ثم مجَجتَهُ، أكان يَضُرُّ شَيئًا؟ قال: لا.

قال المازِريُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: «فَأشارَ إلى فِقهٍ بَديعٍ؛ وذلك أنَّ المضمَضَةَ لا تَنقُضُ الصَّومَ، وهي أوَّلُ الشُّربِ، ومِفتاحُهُ، كَما أنَّ القُبلَةَ من دَواعي الجِماعِ، ومِفتاحُهُ.

والشُّربُ يُفسِدُ الصَّومَ، كَما يُفسِدهُ الجِماعُ، وكما ثَبَتَ عندهم أنَّ أوائِلَ الشُّربِ لا يُفسِدُ الصِّيامَ، فكَذلك أوائِلُ الجِماعِ»[٢].

وقال النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: «القُبلَةُ في الصَّومِ ليست مُحَرَّمَةً على مَن لم تُحرِّك شَهوَتَهُ، لكنَّ الأولى له تَركُها، وأمَّا مَن حَرَّكَت شَهوَتَهُ: فهيَ حَرامٌ في حَقِّهِ على الأصَحِّ، وقيل: مَكروهَةٌ، ولا خِلافَ أنَّها لا تُبطِلُ الصَّومَ، إلا إن أنزَلَ بها»[٣].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أنَّ امرَأةً أتَت رسولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقالت: إنَّ أُمِّي ماتَت، وعليها صَومُ شَهرٍ؟

- فقال: «**أرَأيتِ لَو كان عليها دَينٌ، أكُنتِ تَقضينَهُ؟**».

- قالت: نعم.

- قال: «**فَدَينُ اللهِ أحَقُّ بالقَضاءِ**»[٤].

وعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أنَّ أُمَّهُ عَمرَةَ بنتَ رَواحَةَ[٥]، سَألَت أباهُ بعضَ الموهِبَةِ من مالِهِ لابنِها، فالتَوَى بها سَنَةً، ثم بَدا لَهُ، فقالت: لا أرضَى حتى تُشهِدَ رسولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

---

(١) رواه أبوداود (٢٣٨٥)، وأحمد (١٣٨)، وصححه الألباني.

(٢) فتح الباري (٤/ ١٥٢).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٧/ ٢١٥).

(٤) رواه البخاري (١٩٥٣)، ومسلم (١١٤٨).

(٥) أخت عبدالله بن رواحة، الصحابيِّ المشهور.

على ما وهَبتَ لابني، فأخَذَ أبي بيَدي، وأنا يومَئِذٍ غُلامٌ، فأتَى رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ أُمَّ هذا بنتَ رَواحَةَ أعجَبَها أن أُشهِدَكَ على الذي وهَبتُ لابنِها، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا بَشيرُ، أَلَكَ ولَدٌ سِوَى هَذا؟**».

قال: نعم.

فقال: «**أكُلَّهم وهَبتَ له مِثلَ هَذا؟**».

قال: لا.

قال: «**فَلا تُشهِدني إذًا؛ فإنِّي لا أشهَدُ على جَورٍ**»[١].

وفي رواية لمُسلِمٍ: قال: «أكُلَّ بَنيكَ قَد نَحَلتَ مِثلَ ما نَحَلتَ النُّعمانَ؟».

قال: لا.

قال: «**فَأَشهِد على هذا غَيري**»، ثم قال: «**أيَسُرُّكَ أن يكونوا إلَيكَ في البِرِّ سَواءً؟**».

قال: بَلى.

قال: «**فَلا، إذًا**».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ذَكَرَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عِلَلَ الأحكامِ، والأوصافَ المُؤَثِّرَةَ فيها؛ ليَدُلَّ على ارتِباطِها بها، وتَعديها، بتَعَدِّي أوصافِها، وعِلَلِها، كَقولِهِ: «**إنما جُعِلَ الاستِئذانُ؛ من أجلِ البَصَرِ**»[٢]، وقولِهِ في الهِرَّةِ: «**ليست بنَجَسٍ، إنهَّا من الطَّوَّافِيَن عليكم، والطَّوَّافاتِ**»[٣]، ونَهيِهِ عن تَغطيَةِ رَأسِ المُحرِمِ، الذي وقَصَتهُ ناقَتُهُ، وتَقريبِهِ الطِّيبَ، وقولِهِ: «**فإنَّهُ يُبعَثُ يومَ القيامَةِ مُلَبِّيًا**»[٤]، وقولِهِ: «**لا يَتَناجَى اثنانِ دونَ الثالثِ؛ فإنَّ ذلك يحُزِنُهُ**»[٥].

---

(١) رواه البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٣).

(٢) رواه البخاري (٦٢٤١)

(٣) رواه أبوداود (٧٥)، وهو حديث صحيح.

(٤) رواه البخاري (١٢٦٥)، ومسلم (١٢٠٦).

(٥) رواه البخاري (٦٢٩٠)، ومسلم (٢١٨٤).

وقد قَرَّبَ النبيُّ ﷺ الأحكامَ إلى أُمَّتِهِ، بذِكرِ نَظائِرِها، وأسبابِها، وضَرَبَ لها الأمثالَ، فقال له عمرُ: صَنَعتُ اليومَ -يا رسولَ اللهِ- أمرًا عَظيمًا: قَبَّلتُ وأنا صائِمٌ، فقال له رسولُ اللهِ ﷺ: «**أرَأيتَ لَو تمَضمَضتَ بماءٍ وأنتَ صائِمٌ؟**» فقُلتُ: لا بَأسَ بذلك، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**فَمَه؟**»(١).

ولَولا أنَّ حُكمَ المِثلِ حُكمُ مِثلِهِ، وأنَّ المعانيَ والعِلَلَ مُؤَثِّرَةٌ في الأحكامِ، نَفيًا وإثباتًا، لم يَكُن لذِكرِ هذا التَّشبيهِ مَعنًى، فذَكَرَهُ؛ ليَدُلَّ بهِ على أنَّ حُكمَ النَّظيرِ حُكمُ مِثلِهِ، وأنَّ نِسبَةَ القُبلَةِ، التي هيَ وسيلَةٌ إلى الوَطءِ، كَنِسبَةِ وضعِ الماءِ في الفَمِ، الذي هو وسيلَةٌ إلى شُربِهِ، فكَما أنَّ هذا الأمرَ لا يَضُرُّ، فكَذلك الآخَرُ.

وقد قال ﷺ، للرَّجُلِ الذي سَألَهُ، فقال: إنَّ أبي أدرَكَهُ الإسلامُ، وهو شَيخٌ كَبيرٌ، لا يَستَطيعُ رُكوبَ الرحلِ، والحَجُّ مَكتوبٌ عليه، أفَأحُجُّ عَنهُ؟ قال: «**أرَأيتَ لَو كان على أبيكَ دَينٌ، فقَضَيتَهُ عَنهُ، أكان يُجزِئُ عَنهُ؟**» قال: نعم، قال: «**فَحُجَّ عَنهُ**»(٢).

فَقَرَّبَ الحُكمَ مِنَ الحُكمِ، وجَعَلَ دَينَ اللهِ سبحانه في وُجوبِ القَضاءِ، أو في قَبولِهِ، بمَنزِلَةِ دَينِ الآدَميِّ، وألحَقَ النَّظيرَ بالنَّظيرِ، وأكَّدَ هذا المعنى، بضَربٍ مِنَ الأولى، وهو قولُهُ: «**اقضوا اللهَ؛ فاللهُ أحَقُّ بالقَضاءِ**»(٣).

ومنه: **الحديثُ الصَّحيحُ**: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**وفي بُضعِ أحَدِكُم صَدَقَةٌ**»، قالوا: يا رسولَ اللهِ، يَأتي أحَدُنا شَهوَتَهُ، ويكونُ له فيها أجرٌ؟ قال: «**أرَأيتُم لَو وضَعَها في حَرامٍ، أكان يكونُ عليه وِزرٌ؟**»، قالوا: نعم، قال: «**فَكَذلك إذا وضَعَها في الحَلالِ، يكونُ له أجرٌ**»(٤).

وهذا من قياسِ العَكسِ، الجَليِّ البيِّنِ، وهو إثباتُ نَقيضِ حُكمِ الأصلِ في الفَرعِ؛ لثُبوتِ ضِدِّ عِلَّتِهِ فيه»(٥).

---

(١) رواه أبوداود (٢٣٨٥)، وصححه الألباني، وقد تقدم آنفًا.

(٢) رواه أحمد (١٦١٢٥)، وصححه محققو المسند.

(٣) رواه البخاري (١٨٥٢).

(٤) رواه مسلم (١٠٠٦).

(٥) إعلام الموقعين (١/ ١٥٢-١٥٣)، باختصار.

* الاحتِجاجُ بالتّأسِّي بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في المُحاورةِ؛ لإقامةِ الحُجّةِ:

وهذا أصلٌ عَظيمٌ، فمَحبّةُ التّأسِّي بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَركوزَةٌ في نَفسِ كُلِّ مُسلِمٍ، فيُقال لكُلِّ مُخالفٍ: ألستَ تُحِبُّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ ألَستَ تُحِبُّ التّأسِّيَ بِهِ في سُنَّتِهِ؟ فهَذِهِ سُنَّتُهُ.

عن عُروَةَ، قال دَخلَتِ امرَأةُ عثمانَ بنِ مَظعونٍ على عائشةَ، وهي باذَّةُ الهَيئَةِ[١]، فسَألتها ما شَأنُكِ؟ فقالت: زَوجي يَقومُ اللَّيلَ، ويَصومُ النَّهارَ، فدَخلَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذَكَرَت عائشةُ ذلك لَهُ، فلَقيَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عثمانَ فقال: «**يا عثمانُ، إنَّ الرهبانيّةَ لم تُكتَب عَلَينا، أفَما لَكَ فيَّ أُسوَةٌ؟ فواللهِ إنِّي أخشاكُم للهِ، وأحفَظُكُم لِحُدودِهِ**»[٢].

وعن أنسٍ، أنَّ نَفَرًا من أصحابِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَألوا أزواجَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عَمَلِهِ في السِّرِّ؟ فقال بعضُهم: لا أتزَوَّجُ النِّساءَ، وقال بعضُهم: لا آكُلُ اللَّحمَ، وقال بعضُهم: لا أنامُ على فِراشٍ، فحَمِدَ اللهَ، وأثنَى عليه، فقال: «**ما بالُ أقوامٍ قالوا كَذا وكذا؟ لكنِّي أُصَلِّي وأنامُ، وأصومُ وأُفطِرُ، وأتزَوَّجُ النِّساءَ، فمَن رَغِبَ عن سُنَّتي، فليس مِنِّي**»[٣].

وعن عُبَيدَةَ بنِ خَلَفٍ، قال: قَدِمتُ المدينةَ وأنا شابٌّ، مُتأزِّرٌ ببُردَةٍ لي مَلحاءَ، أجُرُّها، فأدرَكَني رَجُلٌ، فغَمَزَني بمِخصَرَةٍ مَعَهُ، ثم قال: «**أما لَو رَفَعتَ ثَوبَكَ، كان أبقَى وأنقَى**»، فالتَفَتُّ، فإذا هو رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنما هيَ بُردَةٌ مَلحاءُ، قال: «**وَإن كانت بُردَةً مَلحاءَ، أما لَكَ فيَّ أُسوَةٌ؟**»، فنَظَرتُ إلى إزارِهِ، فإذا فوقَ الكعبَينِ، وتَحتَ العَضَلَةِ[٤].

* المُرونَةُ في الحِوارِ، بما لا يُخالفُ الحَقَّ:

قد يَحتاجُ المُحاوِرُ إلى مِقدارٍ مِنَ المُرونَةِ مع مُحاوِرِهِ، وقد يوافِقُهُ على بعضِ الأُمورِ، أو يُقَدِّمُ له بعضَ التَّنازُلاتِ الشَّكليَّةِ؛ لتَحصيلِ المصلَحَةِ الراجِحَةِ، ولكن بشَرطِ ألَّا يُخالفَ الحَقَّ، وألَّا يَتَنازَلَ عن شيءٍ منه.

---

(١) رديئة الهيئة.

(٢) رواه أحمد (٢٥٨٩٣)، وصححه محققو المسند.

(٣) رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)

(٤) رواه أحمد (٢٣٠٨٧)، وصححه الألباني في مختصر الشمائل (٩٧).

هَذا بخِلافِ الذي يَتَنازَلُ عن الحَقِّ، ويُداهِنُ في الدِّينِ؛ ليُرضيَ خُصومَهُ، فهذا مَرفوضٌ قَطعًا، قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

في صُلحِ الحُدَيبيَةِ، جاءَ سُهَيلُ بنُ عَمرٍو مُفاوِضًا عن قُرَيشٍ، فقال للنَّبيِّ ﷺ: هاتِ اكتُب بيننا وبينكُم كِتابًا، فدَعا النبيُّ ﷺ الكاتِبَ، فقال النبيُّ ﷺ: «**بِسمِ اللهِ الرحمَنِ الرحيمِ**».

- قال سُهَيلٌ: أمَّا الرحمَنُ: فواللهِ ما أدري ما هوَ؟ ولكن اكتُب: «بِاسمِكَ اللهمَّ» كَما كُنتَ تَكتُبُ.

- فقال المسلمونَ: واللهِ لا نَكتُبُها إلا «بِسمِ اللهِ الرحمَنِ الرحيمِ»، فقال النبيُّ ﷺ: «**اكتُب: باسمِكَ اللهمَّ**».

ثم قال: «**هَذا ما قاضَى عليه محمدٌ رسولُ اللهِ**»، فقال سُهَيلٌ: واللهِ لَو كُنَّا نَعلَمُ أنَّكَ رسولُ اللهِ، ما صَدَدناكَ عن البَيتِ، ولا قاتَلناكَ، ولكن اكتُب: محمدُ بنُ عبدِاللهِ، فقال النبيُّ ﷺ: «**واللهِ إنِّي لَرسولُ اللهِ، وإن كَذَّبتُموني، اكتُب: محمدُ بنُ عبدِاللهِ**» - قال الزُّهريُّ: وذلك لقولِهِ: «**لا يَسألوني خُطَّةً يُعَظِّمونَ فيها حُرُماتِ اللهِ، إلا أعطَيتُهم إيَّاها**».

- ثم قال لعليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه: «**امحُ رسولَ اللهِ**».

- قال عليٌّ: لا واللهِ لا أمحوكَ أبدًا.

فَأخَذَ رسولُ اللهِ ﷺ الكِتابَ، وليس يُحسِنُ يَكتُبُ، فكَتَبَ:[١]«**هَذا ما قاضَى عليه محمدُ بنُ عبدِاللهِ ...**» الحديثَ[٢].

* التَّشبيهُ وضَربُ الأمثالِ؛ للإقناعِ وتَقريبِ المعنى:

التَّشبيهُ وضَربُ الأمثالِ، يُقَرِّبُ المعنى للعَقلِ، وهو طَريقَةٌ من طُرُقِ الإقناعِ؛ ولِذا أكثَرَ

(١) أي: أمر بالكتابة، كقوله: كتب إلى قيصر. فتح الباري (٧/ ٥٠٤).

(٢) رواه البخاري (٢٧٣١)، (٤٢٥١)، ومسلم (١٧٨٣).

اللهُ تعالى من ضَربِ الأمثال في القُرآنِ الكريمِ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَّ أُناسًا في زَمَنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالوا: يا رسولَ اللهِ، هَل نَرى رَبَّنا يومَ القيامَةِ؟

- قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نَعَم، هَل تُضارُّونَ في رُؤيَةِ الشَّمسِ بالظَّهيرَةِ، ضَوءٌ ليس فيها سَحابٌ؟**».

- قالوا: لا.

- قال: «**وَهَل تُضارُّونَ في رُؤيَةِ القَمَرِ لَيلَةَ البَدرِ، ضَوءٌ ليس فيها سَحابٌ؟**».

- قالوا: لا.

- قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما تُضارُّونَ في رُؤيَةِ اللهِ** عَزَّ وَجَلَّ **يومَ القيامَةِ، إلا كَما تُضارُّونَ في رُؤيَةِ أحَدِهِما**» الحديثَ[١].

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «اعلَم أنَّ مَذهَبَ أهلِ السُّنَّةِ بأجمَعِهِم: أنَّ رُؤيَةَ اللهِ تعالى مُمكِنَةٌ، غَيرُ مُستَحيلَةٍ عَقلًا، وأجمَعوا -أيضًا- على وُقوعِها في الآخِرَةِ، وقد تَظاهَرَت أدِلَّةُ الكِتابِ، والسُّنَّةِ، وإجماعِ الصَّحابَةِ، فمَن بعدَهم من سَلَفِ الأُمَّةِ، على إثباتِ رُؤيَةِ اللهِ تعالى في الآخِرَةِ للمُؤمِنينِ»[٢].

وقال شَيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ اللهُ: «شَبَّهَ الرُّؤيَةَ بالرُّؤيَةِ، ولم يُشَبِّهِ المرئيَّ بالمرئيِّ؛ فإنَّ الكافَ -حَرفَ التَّشبيهِ- دَخَلَ على الرُّؤيَةِ، وفي لَفظٍ للبُخاريِّ: «يَرونَهُ عيانًا»[٣]، ومَعلومٌ أنَّا نَرى الشَّمسَ والقَمَرَ عيانًا، مواجَهَةً، فيَجِبُ أن نَراهُ كَذلك»[٤].

---

(١) رواه البخاري (٤٥٨١) ومسلم (١٨٣).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٣/ ١٥) باختصارٍ.

(٣) روى البخاري (٧٤٣٥) عن جرير بن عبدالله، قال: قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنكم سترون ربَّكم عيانًا».

(٤) مجموع الفتاوى (١٦/ ٨٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**أرَأيتُم لَو أنَّ نَهرًا ببابِ أحَدِكُم، يَغتَسِلُ منه كُلَّ يومٍ خَمسَ مَرَّاتٍ، هَل يَبقَى من دَرَنِهِ شيءٌ؟**»، قالوا: لا يَبقَى من دَرَنِهِ شيءٌ، قال: «**فَذلك مَثَلُ الصَّلَواتِ الخَمسِ، يَمحو اللهُ بهِنَّ الخَطايا**»(١).

وعن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، قال: «**وفي بُضعِ أحَدِكُم صَدَقَةٌ**»، قالوا: يا رسولَ اللهِ، أيَأتي أحَدُنا شَهوَتَهُ، ويكونُ له فيها أجرٌ؟ قال: «**أرَأيتُم لَو وضَعَها في حَرامٍ، أكان عليه فيها وِزرٌ؟ فكَذلك إذا وضَعَها في الحَلال، كان له أجرٌ**»(٢).

«فالجِماعُ يكونُ عِبادَةً، إذا نَوى بِهِ قَضاءَ حَقِّ الزَّوجَةِ، ومُعاشَرَتَها بالمعروفِ الذي أمَرَ اللهُ تعالى بِهِ، أو طَلَبَ ولَدٍ صالحٍ، أو إعفافَ نَفسِهِ، أو إعفافَ الزَّوجَةِ، ومَنعَهما جَميعًا مِنَ النَّظَرِ إلى حَرامٍ، أوِ الهَمِّ بِهِ، أو غَيرَ ذلك مِنَ المَقاصِدِ الصَّالحَةِ»(٣).

* السُّكوتُ عندَ عَدَمِ العِلمِ:

المقصودُ بالحِوارِ: الوُصولُ إلى الحَقِّ، وليس الجَدَلَ والسَّفسَطَةَ؛ لذا يَنبَغي للمُحاوِرِ أن يَسكُتَ إذا لَم يَكُن له عِلمٌ بالمسألَةِ التي هيَ مَحَلُّ النِّقاشِ، ولو سَكَتَ مَن لا يَعلَمُ، لَسَقَطَ أكثَرُ الخِلافِ.

عن عبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رضي الله عنه، قال: بينما أنا أمشي مع النبيِّ ﷺ في حَرثٍ، وهو مُتَّكِئٌ على عَسيبٍ، إذ مَرَّ بنَفَرٍ من اليَهودِ، فقال بعضُهم لبعضٍ: سَلوهُ عن الرُّوحِ، فقالوا: ما رابَكُم إليه؟ لا يَستَقبِلُكُم بشيءٍ تَكرَهونَهُ.

- فقالوا سَلوهُ، فقامَ إليه بعضُهم، فسَأَلَهُ عن الرُّوحِ.

- قال: فسكَتَ النبيُّ ﷺ، فلَم يَرُدَّ عليه شَيئًا، فعَلِمتُ أنَّهُ يوحَى إليه.

- قال: فقُمتُ مَكاني، فلَمَّا نَزَلَ الوَحيُ، قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥](٤).

---

(١) رواه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

(٢) رواه مسلم (١٠٠٦).

(٣) شرح النووي على مسلم (٧/ ٩٢).

(٤) رواه البخاري (١٢٥)، ومسلم (٢٧٩٤).

قال المُهَلَّبُ رَحِمَهُ اللهُ: «هَذا يَدُلُّ على أنَّ مِنَ العِلمِ أشياءَ، لم يُطلِعِ اللهُ عليها نبيًّا، ولا غيرَهُ، أرادَ اللهُ تعالى أن يَختبِرَ بها خَلقَهُ، فيوقِفهم على العَجزِ عن عِلمِ ما لا يُدرِكونَ، حتى يَضطرَّهم إلى رَدِّ العِلمِ إليه، ألا تَسمَعُ قولَهُ تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؟ فعِلمُ الرُّوحِ مِمَّا لم يَشَأ تعالى أن يُطلِعَ عليه أحَدًا من خَلقِهِ»[١].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «الحِكمَةُ في ذلك: إظهارُ عَجزِ المرءِ؛ لأنَّهُ إذا لم يَعلَم حَقيقَةَ نَفسِهِ، مع القَطعِ بوُجودِهِ، كان عَجزُهُ عن إدراكِ حَقيقَةِ الحَقِّ، من بابِ الأولى»[٢].

وعن صَفوانَ بنِ يَعلى، عن أبيهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: كُنَّا مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأتاهُ رَجُلٌ، وهو بالجِعرانَةِ، وعليه جُبَّةٌ، وعليه أثَرُ الخَلوقِ[٣]، فقال: يا رسولَ اللهِ، إنِّي أحرَمتُ بعُمرَةٍ، فكَيفَ تَأمُرُني أن أصنَعَ في عُمرَتي؟

فَسَكَتَ عَنهُ، فلَم يَرجِع إليه، فأنزَلَ اللهُ على النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان عمرُ يَستُرُهُ إذا أُنزِلَ عليه الوَحيُ، يُظِلُّهُ.

وكان يَعلى يقولُ: وَدِدتُ أنِّي أرى النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد نَزَلَ عليه الوَحيُ، فقال عمرُ: تَعالَ، أيَسُرُّكَ أن تَنظُرَ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد أنزَلَ اللهُ عليه الوَحيَ، قُلتُ: نعم. فرَفَعَ طَرَفَ الثَّوبِ، فنَظَرتُ إليه، له غَطيطٌ، كَغَطيطِ البكرِ[٤].

فلَمَّا سُرِّيَ عَنهُ، قال: **«أينَ السَّائِلُ عن العُمرَةِ؟ انزِع عَنكَ جُبَّتَكَ، واغسِل أثَرَ الخَلوقِ الذي بكَ، واصنَع في عُمرَتِكَ، كَما تَصنَعُ في حَجِّكَ»**[٥].

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطَّال (١/ ٢٠٤).

(٢) فتح الباري (٨/ ٤٠٣).

(٣) هو طيبٌ معروفٌ مركب، يتَّخذ من الزَّعفران وغيره من أنواع الطِّيب، وتغلب عليه الحمرة والصُّفرة. النهاية (٢/ ٧١).

(٤) الغطيط: هو كصوت النائم الذي يردِّده مع نفسه، والبكر: هو الفتيُّ من الإبل.

(٥) رواه البخاري (١٧٨٩)، ومسلم (١١٨٠).

* إحراجُ الخَصمِ المُعانِدِ، وكشفُ أمرِه، عن طَريقِ الحِوارِ:

يَنبَغي تَعريَةُ الكُفَّارِ، والمُعانِدينَ، وكَشفُهم للنَّاسِ؛ للتَّحذيرِ منهم، كَما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

ولَمَّا هاجَرَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينَةِ، جاءَهُ عبدُاللهِ بنُ سَلامٍ، فقال: أشهَدُ أنَّكَ رسولُ اللهِ، وأنَّكَ جِئتَ بحَقٍّ، وقد عَلِمَت يَهودُ أنِّي سَيِّدُهم، وابنُ سَيِّدِهم، وأعلَمُهم، وابنُ أعلَمِهِم، فادعُهم فاسألهم عَنِّي، قبلَ أن يَعلَموا أنِّي قَد أسلَمتُ، فإنَّهم إن يَعلَموا أنِّي قَد أسلَمتُ، قالوا فِيَّ ما ليس فِيَّ.

فَأرسَلَ نَبيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأقبَلوا فدَخَلوا عليه، فقال لهم رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا مَعشَرَ اليَهودِ ويلَكُم! اتَّقوا اللهَ، فواللهِ الذي لا إلَهَ إلا هوَ، إنَّكُم لتَعلَمونَ أنِّي رسولُ اللهِ حَقًّا، وأنِّي جِئتُكُم بحَقٍّ؛ فأسلموا**».

- قالوا: ما نَعلَمُهُ، قالوا للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالها ثَلاثَ مِرارٍ.

- قال: «**فَأيُّ رَجُلٍ فيكُم عبدُاللهِ بنُ سَلامٍ؟**».

- قالوا: ذاكَ سَيِّدُنا، وابنُ سَيِّدِنا، وأعلَمُنا، وابنُ أعلَمِنا.

- قال: «**أفرَأيتُم إن أسلَمَ؟**».

- قالوا: حاشَى للهِ، ما كان ليُسلِمَ.

- قال: «**أفرَأيتُم إن أسلَمَ؟**».

- قالوا: حاشَى للهِ، ما كان ليُسلِمَ.

- قال: «**أفرَأيتُم إن أسلَمَ؟**».

- قالوا: حاشَى للهِ ما كان ليُسلِمَ.

- قال: «**يا ابنَ سَلامٍ، اخرُج عليهم**».

فَخرجَ، فقال: يا مَعشَرَ اليَهودِ، اتَّقوا اللهَ؛ فواللهِ الذي لا إلَهَ إلا هوَ إنَّكُم لَتعلَمونَ أنَّهُ رسولُ اللهِ، وأنَّهُ جاءَ بحَقٍّ.

- فقالوا: كَذَبتَ.

فَأخرَجَهم رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١).

وعن ابنِ عمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ اليَهودَ أتَوُا النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برَجُلٍ وامرَأةٍ منهم، قَد زَنَيا، فقال: «**ما تَجِدونَ في كِتابِكُم؟**».

- فقالوا: نُسَخِّمُ وُجوهَهما، ويُخزَيانِ.

- فقال: «**كَذَبتُم، إنَّ فيها الرجمَ، فأتوا بالتَّوراةِ فاتلوها إن كنتُم صادِقينَ**».

فَجاءوا بالتَّوراةِ، وجاءوا بقارِئٍ لهم أعوَرَ، يُقال لَهُ: ابنُ صوريا، فقَرَأ حتى إذا انتَهى إلى مَوضِعٍ منها، وضَعَ يَدَهُ عليه، فقيل لَهُ: ارفَع يَدَكَ، فرَفَعَ يَدَهُ، فإذا هيَ تَلوحُ، فقال- أو قالوا-: يا محمدُ، إنَّ فيها الرجمَ، ولكنا كُنَّا نَتكاتَمُهُ بيننا، فأمَرَ بهما رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرُجِما، قال: فلَقَد رَأيتُهُ يُجانِئُ عليها(٢) يَقيها الحِجارَةَ بنَفسِهِ(٣).

ويَدخُلُ في جِنسِ مُناظَراتِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **-أيضًا-: حديثُ المُجادِلَةِ**، التي جاءَت تُجادِلُهُ في زَوجِها، قال تعالى: ﴿**قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ**﴾ [المجادلة: ١].

فعن خوَيلَةَ بنتِ مالكِ بنِ ثَعلَبَةَ، قالت: ظاهَرَ مِنِّي زَوجي أوسُ بنُ الصَّامِتِ، فجِئتُ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشكو إليه، ورسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجادِلُني فيه، ويقولُ: «**اتَّقي اللهَ؛ فإنَّهُ ابنُ عَمِّكِ**»، فما بَرِحتُ حتى نَزَلَ القُرآنُ: ﴿**قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا**﴾ [المجادلة: ١]، فقال: «**يُعتِقُ رَقَبَةً**»، قالت: لا يَجِدُ، قال: «**فيَصومُ شَهرَينِ مُتَتابِعَينِ**»، قالت: يا

(١) رواه البخاري (٣٩١١).

(٢) أي: يكبُّ ويميل عليها؛ ليقيها الحجارة. النهاية (١/ ٣٠٢).

(٣) رواه البخاري (٤٥٥٦)، (٧٥٤٣)، ومسلم (١٦٩٩)، وأحمد (٤٤٩٨)، واللفظ له.

رسولَ اللهِ، إنَّهُ شَيخٌ كَبيرٌ ما بِهِ من صيامٍ، قال: «**فَلْيُطعِمْ سِتِّينَ مِسكينًا**»، قالت: ما عندَهُ من شيءٍ يَتَصَدَّقُ بِهِ، قالت: فأُتِيَ -ساعَتَئِذٍ- بعَرَقٍ من تَمرٍ، قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، فإنِّي أُعينُهُ بعَرَقٍ آخَرَ، قال: «**قَد أحسَنتِ، اذهَبي فأطعِمي بها عنه سِتِّينَ مِسكينًا، وارجِعي إلى ابنِ عَمِّكِ**»[1].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «كانت خَولَةُ بنتُ ثَعلَبَةَ، تحتَ أوسِ بنِ الصَّامِتِ، فقال لها: أنتِ عَلَيَّ كَظَهرِ أُمِّي، فأتَت رسولَ اللهِ، فسَألَتهُ عن ذلك، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حَرُمتِ عليه**»، فقالت: يا رسولَ اللهِ، والذي أنزَلَ عليكَ الكِتابَ، ما ذَكَرَ الطَّلاقَ، وإنَّهُ أبو ولَدي، وأحَبُّ الناسِ إلَيَّ، فقال: «**حَرُمتِ عليه**»، فقالت: أشكو إلى اللهِ فاقَتي، ووَحدَتي، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما أراكِ إلا قَد حَرُمتِ عليه، ولم أومَر في شَأنِكِ بشيءٍ**»، فجَعَلَت تُراجِعُ رسولَ اللهِ، وإذا قال لها: «**حَرُمتِ عليه**»، هَتَفَت وقالت: أشكو إلى اللهِ فاقَتي، وشِدَّةَ حالي، وإنَّ لي صِبيَةً صِغارًا، إن ضَمَمتُهم إليه ضاعوا، وإن ضَمَمتُهم إلَيَّ جاعوا، وجَعَلَت تَرفَعُ رَأسَها إلى السَّماءِ وتقولُ: اللهمَّ إنِّي أشكو إليكَ.

وكان هذا أوَّلَ ظِهارٍ في الإسلامِ، فنزَلَ الوَحيُ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[2].

*** ومِنَ المُناظَراتِ النبويَّةِ -أيضًا-: ما كان يُلقَى عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنَ المسائِلِ التي يَختَبِرونَهُ بها، فيُجيبُهم:**

فعن أنسٍ: أنَّ عبدَاللهِ بنَ سَلامٍ، بَلَغَهُ مَقدَمُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينَةَ، فأتاهُ يَسأَلُهُ عن أشياءَ، فقال:

- إنِّي سائِلُكَ عن ثَلاثٍ، لا يَعلَمُهُنَّ إلا نَبيٌّ: ما أوَّلُ أشراطِ السَّاعَةِ؟ وما أوَّلُ طعامٍ يَأكُلُهُ أهلُ الجَنَّةِ؟ وما بالُ الوَلَدِ يَنزِعُ إلى أبيهِ، أو إلى أُمِّهِ؟

- قال: «**أخبَرَني بِهِ جبريلُ آنِفًا**».

- قال ابنُ سَلامٍ: ذاكَ عَدوُّ اليَهودِ مِنَ الملائِكَةِ.

---

(١) رواه أبوداود (٢٢١٤)، وحسنه الألباني.

(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٣).

- قال: «**أمَّا أوَّلُ أشراطِ السَّاعَةِ: فنارٌ تَحشُرُهم مِنَ المشرِقِ إلى المغرِبِ، وأمَّا أوَّلُ طعامٍ يَأكُلُهُ أهلُ الجَنَّةِ: فزيادَةُ كَبِدِ الحوتِ، وأمَّا الوَلَدُ: فإذا سَبَقَ ماءُ الرجُلِ ماءَ المرأةِ نَزَعَ الوَلَدَ، وإذا سَبَقَ ماءُ المرأةِ ماءَ الرجُلِ نَزَعَتِ الوَلَدَ**».

- قال أشهَدُ أنَّ لا إلَهَ إلا اللهُ، وأنَّكَ رسولُ اللهِ.

قال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ اليَهودَ قَومٌ بُهُتٌ[1]، فاسأَلهم عَنِّي، قبلَ أن يَعلَموا بإسلامي ... وذَكَرَ الحديثَ[2].

* حِوارُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع اليَهوديِّ، حَولَ بعضِ دَلائِلِ النُّبوَّةِ:

عن ثَوبانَ مَولى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: كنتُ قائِمًا عندَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجاءَ حَبرٌ من أحبارِ اليَهودِ، فقال: السَّلامُ عليكَ يا محمدُ، فدَفَعتُهُ دَفعَةً، كادَ يُصرَعُ منها.

- فقال: لِمَ تَدفَعُني؟

- فقُلتُ: ألا تقولُ: يا رسولَ اللهِ!

- فقال اليَهوديُّ: إنما نَدعوهُ باسمِهِ، الذي سَمَّاهُ بِهِ أهلُهُ.

- فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اسمي محمدٌ، الذي سَمَّاني بِهِ أهلي**».

- فقال اليَهوديُّ: جِئتُ أسألُكَ.

- فقال له رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أينفَعُكَ شيءٌ إن حَدَّثتُكَ؟**».

- قال: أسمَعُ بأُذُنَيَّ.

فَنَكَتَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعودٍ مَعَهُ[3]، فقال: «**سَل**».

- فقال اليَهوديُّ: أينَ يكونُ الناسُ يومَ تُبَدَّلُ الأرضُ غَيرَ الأرضِ والسَّمَواتُ؟

---

(١) بضم أوله وثانيه، وقد يسكَّن، من البهتان، وهو قول الباطل. الفتح (١/ ٩٠).

(٢) رواه البخاري (٣٩٣٨).

(٣) معناه: يخطُّ بالعود في الأرض، ويؤثِّر به فيها، وهذا يفعله المفكِّر. شرح النووي (٣/ ٢٢٦).

- فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هم في الظُّلمَةِ، دونَ الجِسرِ**[1]».

- قال: فمَن أوَّلُ الناسِ إجازَةً؟

- قال: «**فُقَراءُ المُهاجِرينَ**».

- قال اليَهوديُّ: فما تُحفَتُهم[2] حينَ يَدخُلونَ الجَنَّةَ؟

- قال: «**زيادَةُ كَبِدِ النُّونِ**»[3].

- قال: فما غِذاؤُهم على إثرِها؟

- قال: «**يُنحَرُ لهم ثَورُ الجَنَّةِ، الذي كان يَأكُلُ من أطرافِها**».

- قال: فما شَرابُهم عليه؟

- قال: «**مِن عَينٍ فيها تُسَمَّى سَلسَبيلًا**».

- قال اليَهوديُّ: لَقَد صَدَقتَ، وإنَّكَ لَنَبيٌّ.

ثم انصَرَفَ فذَهَبَ.

- فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَقَد سَألَني هذا عن الذي سَألَني عَنهُ، وما لي عِلمٌ بشيءٍ منه، حتى أتانيَ اللهُ بِهِ**»[4].

وعن صَفوانَ بنِ عَسَّالٍ، قال: قال يَهوديٌّ لصاحِبِهِ: اذهَب بنا إلى هذا النبيِّ، فقال صاحِبُهُ: لا تَقُل نَبيٌّ، إنَّهُ لَو سَمِعَكَ كان له أربَعَةُ أعيُنٍ، فأتَيا رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسَألاهُ عن تِسعِ آياتٍ بَيِّناتٍ، فقال لَهما: «**لا تُشرِكوا باللهِ شَيئًا، ولا تَسرِقوا، ولا تَزنوا، ولا تَقتُلوا النَّفسَ التي حَرَّمَ اللهُ إلا بالحَقِّ، ولا تَمشوا ببَريءٍ إلى ذي سُلطانٍ؛ ليَقتُلَهُ، ولا تَسحَروا، ولا تَأكُلوا الرِّبا، ولا تَقذِفوا مُحصَنَةً، ولا تَوَلُّوا الفِرارَ يومَ الزَّحفِ، وعليكم -خاصَّةً اليَهودَ- أن**

(١) المراد به -هنا-: الصِّراط.

(٢) ما يهدى إلى الرجل، ويخصُّ به، ويلاطف.

(٣) وهو الحوت، وجمعه: نينان.

(٤) رواه مسلم (٣١٥).

لا تعتَدوا في السَّبتِ»، قال: فقبَّلا يَدَيهِ، ورِجلَيهِ، وقالا: نَشهَدُ أنَّكَ نَبيٌّ، قال: «**فَما يَمنَعُكُما أن تُسلِما؟**»، قالا: إنَّ داودَ دَعا رَبَّهُ: أن لا يَزالَ من ذُرِّيَّتِهِ نَبيٌّ، وإنَّا نَخافُ -إن أسلَمنا- أن تَقتُلَنا اليَهودُ[1].

وهذا من **أعظَمِ ما تَقومُ بِهِ الحُجَّةُ على الكافِرينَ**: أن يُجيبَ النبيُّ الأُمِّيُّ، الذي لم يَكُن يَعلَمُ شَيئًا قبلَ النُّبوَّةِ، عن سُؤالِ السَّائِلينَ، مَهما كان وجهُهُ، ومَهما كان غَرَضُ السَّائِلِ بهِ، فيُجيب في الحالِ، ثم إذا ظَهَرَتِ الحُجَّةُ سَألَهم عَمَّا يَمنَعُهم من مُتابَعَتِهِ والإيمانِ بِهِ، فلا يَجِدُ الواحِدُ منهم ما يقولُهُ، إلا ما يُبَرهِنُ بِهِ على عِنادِهِ وشِقاقِهِ، وخِلافِهِ للبَيِّنَةِ، وهذا من تَمامِ قيامِ الحُجَّةِ البالغَةِ للهِ على عِبادِهِ.

وهذا النَوعُ مِنَ السُّؤال إنما أدخَلناهُ في بابِ المُناظَرَةِ، لا الفَتوى؛ لأنَّ مَقصودَ هَؤُلاءِ: التَّعَنُّتُ، وإلقاءُ المسائِلِ المُشكِلَةِ والقَضايا المُعضِلَةِ عليه؛ رَجاءَ إعجازِهِ، وقَطعِهِ -بِزَعمِهِم-.

هَذا بخِلافِ ما كان عليه الصَّحابَةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، من أدَبِ السُّؤال، والاستفتاءِ.

* المُحاوَرَةُ بِهَدَفِ الدَّعوَةِ:

عن مُعاوِيَةَ بنِ الحَكَمِ السُّلَميِّ، قال: بَينا أنا أُصَلِّي مع رسولِ اللهِ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، **إذ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ القَومِ**.

- فقُلتُ: يَرحَمُكَ اللهُ، فرَماني القَومُ بأبصارِهِم.

- فقُلتُ: واثُكلَ أُمِّياهُ![2] ما شَأنُكُم تَنظُرونَ إليَّ؟ فجَعَلوا يَضرِبونَ بأيديهِم، على أفخاذِهِم[3]، فلماَّ رَأيتُهم يُصَمِّتونَني، لكنِّي سَكَتُّ[4]، فلمَّا صَلَّى رسولُ اللهِ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فبِأبي

(١) رواه الترمذي (٢٧٣٣)، وقال عقبه: «هذا حديث حسنٌ صحيح»، والحاكم (٢٠)، وصححه، ووافقه الذهبي، وضعَّفه الألباني.

(٢) الثُّكل -بضمٍ، وسكونٍ، وبفتحهما-: فقدان المرأة ولدها، والمعنى: وافقدها لي؛ فإنيِّ هلكت. مرقاة المفاتيح (٢/ ٧٧٥).

(٣) فعلوا هذا؛ ليسكتوه، وهذا قبل أن يشرع التَّسبيح، لمن نابه شيءٌ في صلاته.

(٤) أي: سكتُّ، ولم أعمل بمقتضى الغضب، قاله الطِّيبيُّ، أو سكتُّ؛ امتثالاً؛ لأنهم أعلم منِّي، ولم أعمل بمقتضى غضبي، ولم أسأل عن السَّبب. مرقاة المفاتيح (٢/ ٧٧٥).

هوَ وأُمِّي، ما رَأيتُ مُعَلِّمًا قبلَهُ ولا بعدَهُ أحسَنَ تَعليمًا منه، فواللهِ ما كَهَرَني[١]، ولا ضَرَبَني، ولا شَتَمَني.

– قال: «**إنَّ هَذِهِ الصَّلاةَ لا يَصلُحُ فيها شيءٌ من كَلامِ الناسِ، إنما هو التَّسبيحُ، والتَّكبيرُ، وقِراءَةُ القُرآنِ**».

– قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنِّي حديثُ عَهدٍ بجاهِليَّةٍ، وقد جاءَ اللهُ بالإسلامِ، وإنَّ مِنَّا رِجالًا يَأتونَ الكُهَّانَ.

– قال: «**فَلا تَأتِهِم**».

– قال: ومِنَّا رِجالٌ يَتَطَيَّرونَ.

– قال: «**ذاكَ شيءٌ يَجِدونَهُ في صُدورِهِم، فلا يَصُدَّنَّهم**»[٢].

– قُلتُ: ومِنَّا رِجالٌ يَخُطُّونَ.

– قال: «**كان نَبيٌّ مِنَ الأنبياءِ يَخُطُّ، فمَن وافَقَ خَطَّهُ: فذاكَ**»[٣].

– قال مُعاوِيَةُ: وكانت لي جاريَةٌ، تَرعَى غَنَمًا لي، قِبَلَ أُحُدٍ والجَوَّانيَّةِ[٤]، فاطَّلَعتُ ذاتَ يوم، فإذا الذيبُ قَد ذَهَبَ بشاةٍ من غَنَمِها، وأنا رَجُلٌ من بَني آدَمَ، آسَفُ[٥] كَما يَأسَفونَ، لكنِّي صَكَكتُها[٦] صَكَّةً.

---

(١) أي: ما انتهرني.

(٢) معناه: أن الطِّيرة شيءٌ تجدونه في نفوسكم ضرورةً، ولا عتب عليكم في ذلك، فإنه غير مكتسبٍ لكم، فلا تكليف به، ولكن لا تمتنعوا بسببه من التَّصرُّف في أموركم، فهذا هو الذي تقدرون عليه، وهو مكتسبٌ لكم، فيقع به التَّكليف، فنهاهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن العمل بالطِّيرة، والامتناع من تصرُّفاتهم بسببها. شرح النووي على صحيح مسلم (٥/ ٢٣).

(٣) الصحيح أن معناه: من وافقه خطُّه فهو مباحٌ له، ولكن لا طريق لنا إلى العلم اليقينيِّ بالموافقة، فلا يباح، والمقصود أنه حرامٌ؛ لأنه لا يباح إلا بيقين الموافقة، وليس لنا يقينٌ بها. شرح النووي على صحيح مسلم (٥/ ٢٣).

(٤) موضعٌ في شمالي المدينة.

(٥) أي: أغضب.

(٦) أي: لطمتها.

فَأَتَيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعَظَّمَ ذلك عَلَيَّ.

- قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أفَلا أُعتِقُها؟

- قال: «**ائتِني بها**»، فأتَيتُهُ بها.

- فقال لها: «**أينَ اللهُ؟**».

- قالت: في السَّماءِ.

- قال: «**مَن أنا؟**».

- قالت: أنتَ رسولُ اللهِ.

- قال: «**أعتِقها؛ فإنَّها مُؤمِنَةٌ**»[1].

* ومِن مَقاصِدِ حِواراتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَصحيحُ المفاهيمِ، وحُسنُ التَّعريفِ:

بالحِوارِ الصَّحيحِ الهادِفِ، تَخرجُ المفاهيمُ الخاطِئَةُ من أذهانِ أصحابِها، وتَرسُخُ مَكانَها المفاهيمُ الصَّحيحَةُ، وتَستَنيرُ الأذهانُ بالمعاني الحَقيقيّةِ والكامِلَةِ، لكَثيرٍ مِنَ الأسماءِ والمُصطلحاتِ، وتَقومُ الحُجّةُ البالغةُ على الخلقِ، وقد أكثَرَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الحِواراتِ؛ لتَحقيقِ تِلكَ الغاياتِ:

* المِسكينُ الحَقيقيُّ:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**ليس المِسكينُ الذي يَطوفُ على الناسِ، تَرُدُّهُ اللُّقمَةُ واللُّقمَتانِ، والتَّمرَةُ والتَّمرَتانِ**».

- قالوا: فما المِسكينُ يا رسولَ اللهِ؟

---

(١) رواه مسلم (٥٣٧).

- قال: «**الذي لا يَجِدُ غِنًى يُغنيه، ولا يُفطَنُ لَهُ فيُتَصَدَّقَ عليه، ولا يَقومُ فيَسألُ الناسَ**»(١).

«**ليس المِسكينُ الذي يَطوفُ على الناسِ ..**»:

مَعناهُ: المِسكينُ الكامِلُ المسكَنَةِ الذي هو أحَقُّ بالصَّدَقَةِ، وأحوَجُ إلَيها، ليس هو هذا الطَّوَّاف، بل هو الذي لا يَجِدُ غِنًى يُغنيهِ، ولا يُفطَنُ لَهُ، ولا يَسألُ الناسَ، وليس مَعناهُ نَفيَ أصلِ المسكَنَةِ عن الطَّوَّافِ، بل مَعناهُ نَفيُ كَمالِ المسكَنَةِ(٢).

* المُفلِسُ الحَقيقيُّ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، قال: «**أتَدرونَ ما المُفلِسُ؟**»، قالوا: المُفلِسُ فينا مَن لا دِرهَمَ لَهُ ولا مَتاعَ، فقال: «**إنَّ المُفلِسَ من أُمَّتي مَن يَأتي يومَ القيامَةِ، بصَلاةٍ، وصيامٍ، وزَكاةٍ، ويَأتي قَد شَتَمَ هَذا، وقَذَفَ هَذا، وأكَلَ مالَ هَذا، وسَفَكَ دَمَ هَذا، وضَرَبَ هَذا، فيُعطَى هذا من حَسَناتِهِ، وهذا من حَسَناتِهِ، فإن فنيَت حَسَناتُهُ قبلَ أن يُقضَى ما عليه أُخِذَ من خَطاياهم، فطُرِحَت عليه، ثم طُرِحَ في النارِ**»(٣).

* العَقيمُ الحَقيقيُّ:

عن عبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما تَعُدُّونَ الرقوبَ فيكُم؟**».

- قُلنا: الذي لا يولَدُ لَهُ.

- قال: «**ليس ذاكَ بالرقوبِ، ولكنهُ الرجُلُ الذي لم يُقَدِّم من ولَدِهِ شَيئًا**».

- قال: «**فَما تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فيكُم؟**».

- قُلنا: الذي لا يَصرَعُهُ الرِّجالُ.

---

(١) رواه البخاري (١٤٧٦)، ومسلم (١٠٣٩).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٧/ ١٢٩).

(٣) رواه مسلم (٢٥٨١).

- قال: «**ليس بذلك، ولكنهُ الذي يَملِكُ نَفسَهُ عندَ الغَضَبِ**»[١].

ومعنى الحديثِ: أنَّكُم تَعتَقِدونَ أنَّ الرقوبَ المحزونَ هو المُصابُ بمَوتِ أولادِهِ، وليس هو كَذلك شَرعًا، بل هو مَن لم يَمُت أحَدٌ من أولادِهِ في حَياتِه فيَحتَسِبهُ، فيُكتَب له ثَوابُ مُصيبَتِهِ بهِ، وثَوابُ صَبرِهِ عليه، ويكون له فرَطًا وسَلَفًا.

وكَذلك تَعتَقِدونَ أنَّ الصُّرَعَةَ الممدوحَ القَويَّ الفاضِلَ هو القَويُّ الذي لا يَصرَعُهُ الرِّجالُ، بل يَصرَعُهم، وليس هو كَذلك شَرعًا، بل هو مَن يَملِكُ نَفسَهُ عندَ الغَضَبِ، فهذا هو الفاضِلُ الممدوحُ الذي قَلَّ مَن يَقدِرُ على التَّخَلُّقِ بخُلُقِهِ، ومُشارَكَتِهِ في فضيلَتِهِ، بخِلافِ الأولِ[٢].

* إقامَةُ الحُجَّةِ:

مِن مَقاصِدِ الحِوارِ: إقامَةُ الحُجَّةِ، والسَّيرُ بطُرُقِ الاستدلال الصَّحيحِ؛ للوُصولِ إلى الحَقِّ، وقد أقامَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحُجَّةَ على الناسِ بأيسَرِ أُسلوبٍ، وأحكَمِ بُرهانٍ، ومِن ذلك:

عن عبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: لَمَّا نَزَلَت: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ**﴾ [الشعراء: ٢١٤]، صَعِدَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصَّفا، فجَعَلَ يُنادي: «**يا بَني فِهرٍ، يا بَني عَديٍّ**» لبُطونِ قُرَيشٍ، حتى اجتَمَعوا، فجَعَلَ الرجُلُ، إذا لم يَستَطِع أن يَخرُجَ، أرسَلَ رسولًا؛ ليَنظُرَ ما هوَ، فجاءَ أبو لَهَبٍ وقُرَيشٌ، فقال: «**أرَأيتَكُم لَو أخبَرتُكُم أنَّ خَيلًا بالوادي تُريدُ أن تُغيرَ عليكم، أكنتُم مُصَدِّقيَّ؟**». قالوا: نعم، ما جَرَّبنا عليكَ إلا صِدقًا، قال: «**فإنِّي نَذيرٌ لَكُم بين يَدَي عَذابٍ شَديدٍ**»[٣].

إنَّ العاقِلَ يَعلَمُ أنَّ الذي مَكَثَ في قَومِهِ أربَعينَ سَنَةً، لم يُجَرِّبوا عليه كَذِبًا قَطُّ، وهم يَعلَمونَ كُلَّ شيءٍ عَنهُ، حَريٌّ أن يُصدَّقَ في كُلِّ ما يَقولُ، كَما قال تعالى: ﴿ **قُل لَّوْ شَآءَ**

---

(١) رواه مسلم (٢٦٠٨).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ١٦٢).

(٣) رواه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨).

ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦].

قال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «(قُل لَو شاءَ اللهُ ما تَلَوتُهُ عليكم ولا أدراكُم بِهِ) أي: هَذا، إنما جِئتُكُم بِهِ عن إذْنِ اللهِ لي في ذلك، ومَشيئَتِهِ، وإرادَتِهِ، والدَّليلُ على أنِّي لَستُ أتَقَوَّلُهُ من عندي ولا افترَيتُهُ: أنَّكُم عاجِزونَ عن مُعارَضَتِهِ، وأنَّكُم تعلَمونَ صِدقي وأمانَتي، مُنذُ نَشَأتُ بينكم، إلى حينِ بَعَثَني اللهُ عَزَّوَجَلَّ، لا تنتَقِدونَ عَلَيَّ شَيئًا تَغمصوني بهِ؛ ولهذا قال: (فَقَد لَبِثتُ فيكُم عُمُرًا من قبلِهِ أفَلا تَعقِلونَ) أي: أفَليس لَكُم عُقولٌ، تَعرِفونَ بها الحَقَّ مِنَ الباطِلِ؟»(١).

وفي حديثِ هِرَقلَ مع أبي سُفيانَ، قال هِرَقلُ: «وَسَألتُكَ: هَل كنتُم تَتَّهِمونَهُ بالكَذِبِ، قبلَ أن يقولَ ما قال؟ فزَعَمتَ أن لا، فعَرَفتُ أنَّهُ لم يَكُن لِيَدَعَ الكَذِبَ على الناسِ، ويَكذِبَ على اللهِ»(٢).

* كَشفُ الشُّبُهاتِ، وتَوضيحُ الغَوامِضِ والمُشكِلاتِ:

قَد يكونُ عندَ المُخالفِ شُبهَةٌ يَتَعَلَّقُ بها، وقد يكونُ عندَ الموافِقِ غُموضٌ في مَسألَةٍ، أوِ اشتِباهٌ، فعن طَريقِ الحِوارِ الهادِفِ، تُزالُ الشُّبهَةُ، ويوَضَّحُ الإشكالُ.

* حِوارُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الأعرابيِّ، حَولَ تأثيرِ العَدوَى بذاتِها:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا عَدوَى، ولا صَفَرَ، ولا هامَةَ».

فقال أعرابيٌّ: يا رسولَ اللهِ، فما بالُ إبِلي تكونُ في الرملِ كَأنَّها الظِّباءُ، فيَأتي البَعيرُ الأجرَبُ، فيَدخُلُ بينها فيُجرِبُها؟ فقال: «**فَمَن أعدَى الأولَ؟**»(٣).

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَمَّا أورَدَ الأعرابيُّ الشُّبهَةَ، رَدَّ عليه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقولِهِ: «**فَمَن أعدَى الأولَ؟**»، وهو جَوابٌ في غايَةِ البَلاغَةِ، والرشاقَةِ، وحاصِلُهُ: من أينَ

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٥٣).

(٢) رواه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

(٣) رواه البخاري (٥٧١٧)، ومسلم (٢٢٢٠).

الجَرَبُ للَّذي أعدَى -بزَعمِهِم-؟ فإن أُجيبَ: من بَعيرٍ آخَرَ، لَزِمَ التَّسَلسُلُ، أو سببٌ آخَر، فليُفصِح بهِ.

وإن أُجيبَ: بأنَّ الذي فعَلَهُ في الأولِ، هو الذي فعَلَهُ في الثاني، ثَبَتَ المُدَّعَى، وهو أنَّ الذي فعَلَ بالجَميعِ ذلك، هو الخالقُ القادِرُ على كُلِّ شيءٍ، وهو اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ»(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ- ضِمنَ الأوجُهِ التي ذُكِرَت، في الجَمعِ بين أحاديثِ إثباتِ العَدوَى، ونَفيِها-: «**المُرادُ بنَفيِ العَدوَى**: أنَّ شَيئًا لا يُعدي بطَبعِهِ؛ نَفيًا لما كانتِ الجاهِليَّةُ تَعتَقِدُهُ: أنَّ الأمراضَ تُعدي بطَبعِها، من غَيرِ إضافَةٍ إلى اللهِ، فأبطَلَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعتِقادَهم ذلك، وأكَلَ مع المجذومِ؛ ليُبَيِّنَ لَهم أنَّ اللهَ هو الذي يُمرِضُ، ويَشفي، ونَهاهم عن الدُّنوِّ منه؛ ليُبَيِّنَ لَهم أنَّ هذا مِنَ الأسبابِ التي أجرَى اللهُ العادَةَ، بأنَّها تُفضي إلى مُسَبَّباتِها.

فَفي نَهيِهِ: إثباتُ الأسبابِ، **وفي فِعلِهِ**: إشارَةٌ إلى أنَّها لا تَستَقِلُّ، بَلِ اللهُ هو الذي: إن شاءَ سَلَبَها قواها فلا تُؤَثِّرُ شَيئًا، وإن شاءَ أبقاها فأثَّرَت»(٢).

وعن ابنِ أبي مُلَيكَةَ: أنَّ عائشةَ كانت لا تَسمَعُ شَيئًا لا تَعرِفُهُ إلا راجَعَت فيه حتى تَعرِفهُ، وأنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَن حوسِبَ عُذِّبَ**»، قالت عائشةُ: فقُلتُ: أوَليس يقولُ اللهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]، فقال: «**إنما ذلك العَرضُ، ولكن مَن نوقِشَ الحِسابَ يَهلِك**»(٣).

وعن المُغيرَةِ بنِ شُعبَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: لَمَّا قَدِمتُ نَجرانَ سَألوني، فقالوا لي: ألَستُم تَقرَءون ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨]، وقد كان بين عيسَى وموسَى ما كان؟(٤)، فلَم أدرِ ما أُجيبُهم.

فلَمَّا قَدِمتُ على رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَألتُهُ عن ذلك، فقال: «**ألا أخبَرتَهم أنَّهم كانوا يُسَمُّونَ بأنبيائِهِم، والصَّالحينَ قبلَهم؟**»(٥).

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٢٤٢).

(٢) فتح الباري (١٠/ ١٦٠، ١٦١).

(٣) رواه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦).

(٤) أي: من طول الزَّمان، ما لا يمكن معه أن تكون مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ أختًا لهارون أخي موسى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ.

(٥) رواه مسلم (٢١٣٥).

يعني: أنَّ هارونَ المذكورَ في قولِهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأُخۡتَ هَـٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨] ليس هو هارونَ النبيَّ أخا موسَى عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، بَلِ المُرادُ بهارونَ هَذا: رَجُلٌ آخَرُ، مُسَمَّى بهارونَ؛ لأنَّهم كانوا يُسَمُّونَ أولادَهم بأسماءِ الأنبياءِ، والصَّالحينَ قبلَهم[1].

* فَضحُ كَذِبِ المُفتَرينَ:

مِنَ المُهِمِّ: فضحُ الكذَّابينَ، وكَشفُهم أمامَ الناسِ؛ حتى لا يَغتَرَّ بهِم غيرُهم، كَما قال تعالى: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: لَمَّا فُتِحَت خَيبَرُ، أُهدِيَت للنَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاةٌ فيها سُمٌّ.

– فقال النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اجمَعوا لي مَن كان هاهُنا من يَهودَ**»، فجُمِعوا لَهُ.

– فقال: «**إنِّي سائِلُكُم عن شيءٍ، فهَل أنتم صادِقيَّ عَنهُ؟**».

– فقالوا: نعم.

– قال لهم النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن أبوكُم؟**».

– قالوا: فُلانٌ.

– فقال: «**كَذَبتُم، بل أبوكُم فُلانٌ**».

– قالوا: صَدَقتَ.

– قال: «**فهَل أنتم صادِقيَّ عن شيءٍ، إن سَألتُ عَنهُ؟**».

– فقالوا: نعم يا أبا القاسِمِ، وإن كَذَبنا عَرَفتَ كَذِبَنا، كَما عَرَفتَهُ في أبينا.

– فقال لَهم: «**مَن أهلُ النارِ؟**».

– قالوا: نكونُ فيها يَسيرًا، ثم تَخلُفونا فيها.

– فقال النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اخسَئوا فيها، واللهِ لا نَخلُفُكُم فيها أبَدًا**».

---

(١) تحفة الأحوذي (٨/ ٤٧٧).

- ثم قال: «**هَل أنتم صادِقيَّ عن شيءٍ، إن سَألتُكُم عَنهُ؟**».

- فقالوا: نعم يا أبا القاسِمِ.

- قال: «**هَل جَعَلتُم في هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟**».

- قالوا: نعم.

- قال: «**ما حَمَلَكُم على ذلك؟**».

- قالوا: أرَدنا: إن كُنتَ كاذِبًا نَستَريحُ، وإن كُنتَ نَبيًّا لم يَضُرَّكَ(١).

فيا سُبحانَ اللهِ! ما أجهَلَهم حينَ كَذَبوا، وما أجهَلَهم حينَ صَدَقوا.

وبِمِثلِ هذا -حَقًّا- تَستَبينُ سَبيلُ المُجرِمينَ، فما أبعَدَ الخاسِرينَ عن الإيمانِ؛ إذ لم يُمكنهم أن يَسلُكوا سَبيلًا يَتَعرّفونَ بهِ على صِدقِ النبيِّ، إلا بمُحاوَلَةِ قَتلِهِ، فإن نَجا فهو نَبيٌّ! دونَ أن يَنظُروا في كُتُبِهِم وما جاءَت بهِ الآياتُ من وصفِ النبيِّ، والتّعريفِ بهِ.

* حَقُّ اللهِ على العِبادِ، وحَقُّ العِبادِ على اللهِ:

عن مُعاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: كنتُ رِدفَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حِمارٍ، يُقال له عُفيرٌ، فقال: «**يا مُعاذُ، هَل تَدري ما حَقُّ اللهِ على عِبادِهِ، وما حَقُّ العِبادِ على اللهِ؟**».

قُلتُ: اللهُ ورسولُهُ أعلَمُ.

قال: «**فإنَّ حَقَّ اللهِ على العِبادِ: أن يَعبُدوهُ، ولا يُشرِكوا بهِ شَيئًا، وحَقَّ العِبادِ على اللهِ: أن لا يُعَذِّبَ مَن لا يُشرِكُ بهِ شَيئًا**».

فَقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أفَلا أُبَشِّرُ بهِ الناسَ؟

قال: «**لا تُبَشِّرهم؛ فيَتَّكِلوا**»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٣١٦٩).

(٢) رواه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

فَما أكمَلَ هذا الأُسلوبَ النبويَّ الكريمَ، الذي جَمَعَ في خِلالِهِ الدِّينَ كُلَّهُ، فدَع عَنكَ العَنَتَ والمشاقَّ كُلَّها، وأقبِل على عِبادَةِ اللهِ وحدَهُ، تَنجُ من عَذابِهِ، وتَفُز بجَنَّتِهِ، كَما في صَحيحِ البخاري عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**كُلُّ أُمَّتي يَدخُلونَ الجَنَّةَ، إلا مَن أَبَى**»، قالوا: يا رسولَ اللهِ، ومَن يَأبَى؟ قال: «**مَن أطاعَني دَخَلَ الجَنَّةَ، ومَن عَصاني فقَد أبَى**»(١).

* استِكشافُهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لأحوالِ ابنِ صَيَّادٍ، من خِلالِ مُحاوَرَتِهِ:

عنِ ابنِ عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، أنَّ عمرَ انطَلَقَ مع النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في رَهطٍ قِبَلَ ابنِ صَيَّادٍ، حتى وجَدوهُ يَلعَبُ مع الصِّبيانِ، عندَ أُطُمِ بَني مَغالَةَ، وقد قارَبَ ابنُ صَيَّادٍ الحُلُمَ، فلَم يَشعُر حتى ضَرَبَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بيَدِهِ، ثم قال لابنِ صَيَّادٍ: «**تَشهَدُ أنِّي رسولُ اللهِ؟**».

فَنظَرَ إليه ابنُ صَيَّادٍ، فقال: أشهَدُ أنَّكَ رسولُ الأُمِّيِّينَ.

- فقال ابنُ صَيَّادٍ للنَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: أتَشهَدُ أنِّي رسولُ اللهِ؟

فَرَفَضَهُ، وقال: «**آمَنتُ باللهِ، وبِرُسُلِهِ**».

- فقال لَهُ: «**ماذا تَرَى؟**».
- قال ابنُ صَيَّادٍ: يَأتيني صادِقٌ، وكاذِبٌ.
- فقال النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**خُلِّطَ عليكَ الأمرُ**».
- ثم قال له النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إنِّي قد خَبَأتُ لَكَ خَبيئًا**».
- فقال ابنُ صَيَّادٍ: هو الدُّخُّ.
- فقال: «**اخسَأ؛ فلَن تَعدوَ قَدرَكَ**».
- فقال عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: دَعني يا رسولَ اللهِ أضرِب عُنُقَهُ.

---

(١) رواه البخاري (٧٢٨٠)، وقال الحافظ رَحِمَهُٱللَّهُ: «فبينَّ لهم أن إسناد الامتناع إليهم عن الدُّخول، مجازٌ عن الامتناع عن سنَّته، وهو عصيان الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ». فتح الباري (١٣/ ٢٥٤).

- فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن يَكُنهُ فلَن تُسَلَّطَ عليه، وإن لم يَكُنهُ فلا خَيرَ لَكَ في قَتلِهِ**».

- وقال سالِمٌ: سمعتُ ابنَ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقولُ: انطَلَقَ -بَعدَ ذلك- رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأُبَيُّ بنُ كَعبٍ، إلى النَّخلِ التي فيها ابنُ صَيَّادٍ، وهو يَختِلُ أن يَسمَعَ مِن ابنِ صَيَّادٍ شَيئًا، قبلَ أن يَراهُ ابنُ صَيَّادٍ، فرَآهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مُضطَجِعٌ، فرَأت أمُّ ابنِ صَيَّادٍ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو يَتَّقي بجُذوعِ النَّخلِ، فقالت لابنِ صَيَّادٍ: يا صافِ -وَهوَ اسمُ ابنِ صَيَّادٍ- هذا محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فثارَ ابنُ صَيَّادٍ.

- فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَو تَرَكَتهُ: بَيَّنَ**»(١).

قال العُلَماءُ: وظاهِرُ الأحاديثِ: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يوحَ إليه بأنَّهُ المسيحُ الدَّجَّالُ، ولا غَيرُهُ، وإنما أوحيَ إليه بصِفاتِ الدَّجَّال، وكان في ابنِ صَيَّادٍ قَرائِنُ مُحتَمَلَةٌ؛ فلِذلك كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَقطَعُ بأنَّهُ الدَّجَّالُ، ولا غَيرُهُ؛ ولهذا قال لعمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إن يَكُن هوَ: فلَن تَستَطيعَ قَتلَهُ**»(٢).

وكان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحاوِرُهُ ليستكشِفَ أمرَهُ؛ لئَلَّا يَلتَبِسَ حالُهُ على أحَدٍ، وليتَبيّنَ لعُمومِ الناسِ ما عليه هَؤلاءِ الدّجالونَ المُمَوِّهونَ؛ لئَلَّا يَغتَرَ أحَدٌ مِنَ الناسِ بأحَدٍ من هَؤلاءِ.

قال الحافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**قال العُلَماءُ**: استكشَفَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرَهُ ليُبيِّنَ لأصحابِهِ تَمويهَهُ؛ لئَلَّا يَلتَبِسَ حالُهُ على ضَعيفٍ، لم يَتَمَكَّن في الإسلامِ، ومُحَصَّلُ ما أجابَ بِهِ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنَّهُ قال له -عَلى طَريقِ الفَرضِ والتَّنَزُّلِ-: إن كُنتَ صادِقًا في دَعواكَ الرِّسالَةَ، ولم يَختَلِط عليكَ الأمرُ: آمَنتُ بكَ، وإن كُنتَ كاذِبًا، وخُلِّطَ عليكَ الأمرُ: فلا، وقد ظَهَرَ كَذِبُكَ، والتِباسُ الأمرِ عليكَ، فلا تَعدو قَدرَكَ»(٣).

---

(١) رواه البخاري (١٣٥٥)، ومسلم (٢٩٣٠)، (٢٩٣١).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٨/ ٤٦).

(٣) فتح الباري (٦/ ١٧٤).

* حِوارُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الأعرابيِّ، الذي حاوَلَ اغتيالَهُ:

عن جابرِ بنِ عبدِاللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ غَزا مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبَلَ نَجدٍ[١]، فلمَّا قَفَلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَفَلَ مَعَهُ، فأدرَكَتهم القائِلَةُ[٢] في وادٍ كَثيرِ العِضاه[٣]، فنَزَلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتَفَرَّقَ الناسُ في العِضاهِ يَستَظِلُّونَ بالشَّجَرِ، ونَزَلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحتَ سَمُرَةٍ[٤]، فعَلَّقَ بها سَيفَهُ.

– قال جابِرٌ: فنِمنا نَومَةً، ثم إذا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدعونا فجِئناهُ، فإذا عندَهُ أعرابيٌّ جالسٌ[٥].

– فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ هذا اختَرَطَ سَيفي وأنا نائِمٌ، فاستَيقَظتُ وهو في يَدِهِ صَلتًا**[٦].

– **فقال لي: مَن يَمنَعُكَ مِنِّي؟**[٧]

– **قُلتُ: اللهُ، فشامَ السَّيفُ**[٨]، **فها هو ذا جالسٌ**[٩]».

ثم لم يُعاقِبهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١٠].

وفي رواية: فَسَقَطَ السَّيفُ من يَدِهِ، فأخَذَهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «**مَن يَمنَعُكَ؟**».

---

(١) أي: ناحيتها.
(٢) أي: وسط النَّهار، وشدَّة الحرِّ.
(٣) العضاه: كلُّ شجرٍ عظيمٍ، له شوكٌ. النهاية (٣/ ٢٥٥).
(٤) أي: شجرةٍ كثيرة الورق.
(٥) هو: غورث بن الحارث، كما عند أحمد (١٤٩٢٩)، وغيره.
(٦) أي: مسلولاً.
(٧) أي: لا يمنعك منِّي أحدٌ؛ لأن الأعرابيَّ كان قائماً، والسَّيف في يده، والنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالسٌ، لا سيف معه.
(٨) المراد: أغمده، وهذه الكلمة من الأضداد، يقال: شامه إذا استلَّه، وشامه إذا أغمده. لسان العرب (١٢/ ٣٣٠).
(٩) وكأن الأعرابيَّ، لَمَّا شاهد ذلك الثَّبات العظيم، وعرف أنه حيل بينه وبينه؛ تحقَّق صدقه، وعلم أنه لا يصل إليه، فألقى السِّلاح، وأمكن من نفسه. فتح الباري (٧/ ٤٢٧).
(١٠) رواه البخاري (٢٩١٠)، (٤١٣٤)، ومسلم (٨٤٣).

- قال: كُن خَيرَ آخِذٍ[١].

- قال: «**تَشهَدُ أن لا إلَهَ إلا اللهُ، وأنِّي رسولُ اللهِ؟**».

- قال: أُعاهِدُكَ على أن لا أُقاتِلَكَ، ولا أكونَ مع قَومٍ يُقاتِلونَكَ.

- فخَلَّى رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبيلَهُ، فجاءَ إلى قَومِهِ، فقال: جِئتُكُم من عندِ خَيرِ الناسِ[٢].

وهذه مِنَ الحِواراتِ الكامِلَةِ، التي أثمَرت ظُهورَ بُرهانِ النُّبوّةِ، وصِدقِ الرّسالَةِ، وأبانَت عن حُسنِ خُلُقِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعَفوِهِ عن الناسِ، وشَهادَةِ الموافِقِ له والمُخالفِ، بخَيريّتِهِ السَّاميَةِ، وخُلُقِهِ الكريمِ.

* حِوارُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع السَّائِلِ عن أسبابِ دُخولِ الجَنَّةِ:

عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أيُّ الأعمال أفضَلُ؟

- قال: «**الإيمانُ باللهِ، والجِهادُ في سَبيلِهِ**».

- قال: قُلتُ: أيُّ الرِّقابِ أفضَلُ؟

- قال: «**أنفَسُها عندَ أهلِها، وأكثَرُها ثَمَنًا**».

- قال: قُلتُ: فإن لم أفعَل؟

- قال: «**تُعينُ صانِعًا، أو تَصنَعُ لأخرَقَ**»[٣].

- قال: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أرَأيتَ إن ضَعُفتُ عن بعضِ العَمَلِ؟

---

(١) هذه عبارة الضعيف المستسلم، الذي يرجو العفو.

(٢) رواه الحاكم (٤٣٢٢)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في التعليقات الحسان (٢٨٧٢).

(٣) أي: جاهلٍ بما يجب أن يعمله، ولم يكن في يديه صنعةٌ يكتسب بها. النهاية (٢/ ٢٦).

- قال: «**تَكُفُّ شَرَّكَ عن الناسِ؛ فإنَّها صَدَقَةٌ مِنكَ على نَفسِكَ**»[١].

وفي رواية:

عن أبي كَثيرٍ السُّحَيميِّ، عن أبيهِ، قال: سَألتُ أبا ذَرٍّ، قُلتُ: **دُلَّني على عَمَلٍ، إذا عَمِلَ العبدُ بهِ، دَخَلَ الجَنَّةَ.**

- قال: سَألتُ عن ذلك رسولَ اللهِ صَلَّي اللهُ عليه وسَلَّمَ.

- فقال: «**يُؤمِنُ باللهِ**».

- قال: فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ مع الإيمانِ عَمَلًا.

- قال: «**يَرضَخُ**[٢] **ممَّا رَزَقَهُ اللهُ**».

- قُلتُ: وإن كان مُعدَمًا، لا شيءَ لَهُ؟

- قال: «**يقولُ مَعروفًا بلِسانِهِ**».

- قال: قُلتُ: فإن كان عَييًّا[٣]، لا يُبلِغُ عنه لسانُهُ؟

- قال: «**فيُعينُ مَغلوبًا**».

- قُلتُ: فإن كان ضَعيفًا، لا قُدرَةَ لَهُ؟

- قال: «**فَليَصنَع لأخرَقَ**».

- قُلتُ: وإن كان أخرَقَ؟

- قال: فالتَفَتَ إلَيَّ، وقال: «**ما تُريدُ أن تَدَعَ في صاحِبِكَ شَيئًا مِنَ الخَيرِ؟ فليَدَعِ الناسَ من أذاهُ**».

- فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ هَذِهِ كَلِمَةُ تَيسيرٍ، فقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**والذي نَفسي بيَدِهِ، ما**

(١) رواه البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٨٤).

(٢) أي: يتصدَّق.

(٣) أي: عاجزًا.

من عبدٍ يَعمَلُ بخَصلَةٍ منها، يُريدُ بها ما عندَ اللهِ، إلا أخَذَت بيَدِهِ يومَ القيامَةِ، حتى تُدخِلَهُ الجَنَّةَ»(١).

وعن أبي أيُّوبَ الأنصاريِّ رضي الله عنه: أنَّ أعرابيًّا عَرَضَ لرسولِ اللهِ ﷺ وهو في سَفَرٍ، فأخَذَ بخِطامِ ناقَتِهِ أو بزِمامِها، ثم قال: يا رسولَ اللهِ، أو يا محمدُ، أخبِرني بما يُقَرِّبُني مِنَ الجَنَّةِ، وما يُباعِدُني مِنَ النارِ.

قال: فكَفَّ النبيُّ ﷺ، ثم نَظَرَ في أصحابِهِ، ثم قال: «**لَقَد وُفِّقَ**» -أو: «**لَقَد هُدِيَ**»-، قال: «**كَيفَ قُلتَ؟**» قال: فأعادَ، فقال النبيُّ ﷺ: «**تَعبُدُ اللهَ، لا تُشرِكُ بهِ شَيئًا، وتُقيمُ الصَّلاةَ، وتُؤتي الزَّكاةَ، وتَصِلُ الرحِمَ، دَعِ الناقَةَ**»(٢).

* حِوارُ النبيِّ ﷺ مع الأنصارِ، حَولَ الغَنائِمِ:

عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ، قال: لَمَّا أعطَى رسولُ اللهِ ﷺ ما أعطَى من تِلكَ العَطايا في قُرَيشٍ وقَبائِلِ العَرَبِ، ولم يَكُن في الأنصارِ منها شيءٌ، وجَدَ هذا الحَيُّ مِنَ الأنصارِ في أنفُسِهِم، حتى كَثُرَت فيهِمُ القالَةُ، حتى قال قائِلُهم: لَقيَ رسولُ اللهِ ﷺ قَومَهُ، فدَخَلَ عليه سَعدُ بنُ عُبادَةَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ هذا الحَيَّ قَد وجَدوا عليكَ في أنفُسِهِم؛ لما صَنَعتَ في هذا الفيءِ الذي أصَبتَ: قَسَمتَ في قَومِكَ، وأعطَيتَ عَطايا عِظامًا في قَبائِلِ العَرَبِ، ولم يَكُ في هذا الحَيِّ مِنَ الأنصارِ شيءٌ.

قال: «**فَأينَ أنتَ من ذلك يا سَعدُ؟**»

قال: يا رسولَ اللهِ، ما أنا إلا امرُؤٌ من قَومي، وما أنا؟

قال: «**فاجمَع لي قَومَكَ في هَذِهِ الحَظيرَةِ**».

قال: فخرجَ سَعدٌ، فجَمَعَ الأنصارَ في تِلكَ الحَظيرَةِ، قال: فجاءَ رِجالٌ مِنَ المُهاجِرينَ، فتَرَكَهم، فدَخَلوا وجاءَ آخَرونَ فرَدَّهم، فلَمَّا اجتَمَعوا أتاهُ سَعدٌ فقال: قَدِ اجتَمَعَ لَكَ هذا

---

(١) رواه ابن حبَّان (٣٧٣)، وقال الألباني في صحيح الترَّغيب والترَّهيب (٢٣١٨): «حسنٌ لغيره».
(٢) رواه البخاري (١٣٩٦)، ومسلم (١٣).

الحَيُّ مِنَ الأنصارِ، قال: فأتاهم رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحَمِدَ اللهَ، وأثنَى عليه بالذي هو له أهلٌ، ثم قال:

«يا مَعشَرَ الأنصارِ، ما قالةٌ بَلَغَتني عَنكُم، وجِدَةٌ وجَدتُموها في أنفُسِكُم؟ ألَمْ آتِكُم ضُلَّالًا فهَداكُمُ اللهُ؟ وعالَةً فأغناكُمُ اللهُ؟ وأعداءً فألَّفَ اللهُ بين قُلوبِكُم؟».

قالوا: بَلِ اللهُ ورسولُهُ أمَنُّ وأفضَلُ.

قال: **«ألا تُجيبونَني يا مَعشَرَ الأنصارِ؟»**

قالوا: وبِماذا نُجيبُكَ يا رسولَ اللهِ، وللهِ ولِرسولِهِ المنُّ والفَضلُ؟

قال: **«أما واللهِ لَو شِئتُم لَقُلتُم، فلَصَدَقتُم وصُدِّقتُم:**

أَتيتَنا مُكَذَّبًا فصَدَّقناكَ.

ومَخذولًا فنَصَرناكَ.

وطَريدًا فآوَيناكَ.

وعائِلًا فآسَيناكَ .

أوَجَدتُم في أنفُسِكُم يا مَعشَرَ الأنصارِ في لُعاعَةٍ مِنَ الدُّنيا، تَألَّفتُ بها قَومًا لِيُسلِموا، ووَكَلتُكُم إلى إسلامِكُم؟ أفَلا تَرضَونَ يا مَعشَرَ الأنصارِ أن يَذهَبَ الناسُ بالشَّاةِ والبَعيرِ، وتَرجِعونَ برسولِ اللهِ في رِحالِكُم؟ فوالذي نَفسُ محمدٍ بيَدِهِ، لَولا الهِجرَةُ لَكنتُ امرَأً مِنَ الأنصارِ، ولو سَلَكَ الناسُ شِعبًا، وسَلَكَتِ الأنصارُ شِعبًا، لَسَلَكتُ شِعبَ الأنصارِ، اللهمَّ ارحَمِ الأنصارَ، وأبناءَ الأنصارِ، وأبناءَ أبناءِ الأنصارِ»

قال: فبَكَى القَومُ حتى أخضَلوا لحاهم، وقالوا: رَضينا برسولِ اللهِ قَسمًا وحَظًّا، ثم انصَرَفَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتَفَرَّقوا[1].

فلَمَّا شَرَحَ لهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما خَفيَ عليهم مِنَ الحِكمَةِ فيما صَنَعَ، رَجَعوا مُذعِنينَ، ورَأوا

---

(١) رواه أحمد (١١٧٣٠)، وحسنه محققو المسند، وقد تقدم.

أنَّ الغَنيمَةَ العُظمَى: ما حَصَلَ لَهم من عَودِ رسولِ اللهِ إلى بلادِهِم، فسَلَوا عن الشَّاةِ والبَعير، بما حازوهُ من الفَوزِ العَظيمِ، ومُجاوِرَةِ النبيِّ الكريمِ لَهم، حَيًّا ومَيِّتًا، وهذا دَأبُ الحَكيمِ: يُعطي كُلَّ أحَدٍ ما يُناسِبُهُ(١).

* مُحاوَرَةُ السَّائِلِ عن السَّاعَةِ:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: بينما النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مَجلِسٍ يُحَدِّثُ القَومَ، جاءَهُ أعرابيٌّ، فقال: مَتَى السَّاعَةُ؟ فمَضَى رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ(٢).

- فقال بعضُ القَومِ: سَمِعَ ما قال، فكَرِهَ ما قال.

- وقال بعضُهم: بل لم يَسمَع، حتى إذا قَضَى حديثَهُ، قال:

«**أينَ** -أُراهُ- **السَّائِلُ عن السَّاعَةِ؟**».

- قال: ها أنا يا رسولَ اللهِ.

- قال: «**فإذا ضُيِّعَتِ الأمانَةُ فانتَظِرِ السَّاعَةَ**».

- قال: كَيفَ إضاعَتُها؟ .

- قال: «**إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غَيرِ أهلِهِ فانتَظِرِ السَّاعَةَ**»(٣).

وقد بَوَّبَ البخاري في صَحيحِهِ على الحديثِ بقولِهِ: «بابُ مَن سُئِلَ عِلمًا وهو مُشتَغِلٌ في حديثِهِ، فأتَمَّ الحديثَ ثم أجابَ السَّائِلِ»(٤).

* مُحاوَرَةٌ حَولَ حَقِّ الزَّوجِ:

عن جابِرِ بنِ عبدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: شَهِدتُ مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلاةَ يومَ العيدِ،

---

(١) فتح الباري (٨/ ٤٩).
(٢) أي: استمرَّ يحدِّث القوم، الحديث الذي كان فيه.
(٣) رواه البخاري (٥٩).
(٤) صحيح البخاري (١/ ٢١).

فبَدَأ بالصَّلاةِ قبلَ الخُطبَةِ بغَيرِ أذانٍ ولا إقامَةٍ، ثم قامَ مُتَوَكِّئًا على بلالٍ، فأمَرَ بتَقوَى اللهِ، وحَثَّ على طاعَتِهِ، ووَعَظَ الناسَ وذَكَّرَهم، ثم مَضَى حتى أتَى النِّساءَ، فوَعَظَهُنَّ وذَكَّرَهُنَّ، فقال: «**تَصَدَّقنَ؛ فإنَّ أكثَرَكُنَّ حطَبُ جَهَنَّمَ**»، فقامَتِ امرَأةٌ من سِطَةِ النِّساءِ[١]، سَفعاءُ الخَدَّينِ[٢]، فقالت: لَمَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**لأَنَّكُنَّ تُكثِرنَ الشَّكاةَ**[٣]، **وتَكفُرنَ العَشيرَ**»[٤]، قال: فجَعَلنَ يَتَصَدَّقنَ من حُليِّهِنَّ، يُلقينَ في ثَوبِ بلالٍ من أقرِطَتِهِنَّ، وخَواتِمِهِنَّ[٥].

وفي حديثٍ آخَرَ: «لَو أحسَنتَ إلى إحداهُنَّ الدَّهرَ، ثم رَأت مِنكَ شَيئًا، قالت: ما رَأيتُ مِنكَ خَيرًا قَطُّ»[٦].

مُحاورةُ سعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: عادَني النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عامَ حَجَّةِ الوَداعِ، من مَرَضٍ أشفيتُ منه على الموتِ.

- فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ بَلَغَ بي مِنَ الوَجَعِ ما تَرَى، وأنا ذو مالٍ، ولا يَرِثُني إلا ابنَةٌ لي واحِدَةٌ، أفَأتَصَدَّقُ بثُلُثَي مالي؟

- قال: «**لا**».

- قُلتُ: فأتَصَدَّقُ بشَطرِهِ؟

- قال: «**لا**».

- قُلتُ: الثُّلُثُ؟

- قال: «**الثُّلُثُ يا سَعدُ، والثُّلُثُ كَثيرٌ، إنَّكَ أن تَذَرَ ذُرِّيَّتَكَ أغنياءَ، خَيرٌ من أن تَذَرَهم**

---

(١) أي: جالسةٌ في وسطهنَّ.

(٢) أي: فيها تغيُّرٌ، وسوادٌ.

(٣) أي: الشَّكوى.

(٤) وهو الزَّوج، أي: يجحدن حقوق الأزواج، وإحسانهم، ويكتمن الإحسان، ويظهرن التَّشكِّي كثيرًا.

(٥) رواه مسلم (٨٨٥). أقرطتهنَّ: جمع قرطٍ، وهو كلُّ ما علِّق من شحمة الأذن، سواءٌ كان من ذهبٍ، أو خرزٍ.

(٦) رواه البخاري (٢٩)، ومسلم (٩٠٧) عن عبدالله بن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

عالَةً، يَتكَفَّفونَ الناسَ، ولَستَ بنافِقٍ نَفَقَةً تَبتَغي بها وجهَ اللهِ، إلا آجَرَكَ اللهُ بها، حتى اللُّقمَةَ تَجعَلُها في في امرَأتِكَ»[١].

- قُلتُ: يا رسولَ اللهِ أُخَلَّفُ بعدَ أصحابي؟[٢].

- قال: «**إنَّكَ لَن تُخَلَّفَ فتعمَلَ عَمَلًا تَبتَغيَ به وجهَ اللهِ، إلا ازدَدتَ بِهِ دَرَجَةً، ورِفعَةً، ولَعَلَّكَ تُخَلَّفُ، حتى يَنتَفِعَ بكَ أقوامٌ، ويُضَرَّ بكَ آخَرونَ**[٣]، **اللهمَّ أمضِ لأصحابي هِجرَتَهم، ولا تَرُدَّهم على أعقابِهِم**[٤]، **لكن البائِسُ سَعدُ بنُ خَولَةَ**»[٥].

قال الزُّهريُّ: يَرثي له رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن تُوُفِّيَ بمَكَّةَ[٦].

حِوارُ بَيعَةِ العَقَبَةِ:

عنِ ابنِ إسحاقَ قال: حَدَّثَني مَعبَدُ بنُ كَعبِ بنِ مالكٍ، أنَّ أخاهُ عُبَيدَ اللهِ بنَ كَعبٍ، وكان من أعلَمِ الأنصارِ، حَدَّثَهُ أنَّ أباهُ كَعبَ بنَ مالكٍ، وكان كَعبٌ مِمَّن شَهِدَ العَقَبَةَ، وبايَعَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها، قال:

خرجنا في حُجَّاجِ قَومِنا مِنَ المُشرِكينَ، وقد صَلَّينا، وفَقِهنا ... وساقَ الحديثَ، إلى أن قال:

---

(١) أي: في فمها.

(٢) معناه: أخلَّف بمكَّة بعد أصحابي؟ قاله: إمَّا إشفاقًا من موته بمكَّة؛ لكونه هاجر منها، وتركها لله تعالى، فخشي أن يقدح ذلك في هجرته، أو في ثوابه عليها، أو خشي بقاءه بمكَّة، بعد انصراف النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه إلى المدينة، وتخلُّفه عنهم بسبب المرض، وكانوا يكرهون الرُّجوع فيما تركوه لله تعالى. شرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ٧٨).

(٣) أي: ينتفع بك المسلمون بالغنائم، ممَّا سيفتح الله على يديك من بلاد الشرِّك، ويضر بك المشركون الذين يهلكون على يديك.

(٤) فيه: إشارةٌ إلى الدُّعاء لسعدٍ بالعافية؛ ليرجع إلى دار هجرته، وهي المدينة، ولا يستمرَّ مقيماً بسبب الوجع بالبلد التي هاجر منها، وهي مكَّة. فتح الباري (١١/ ١٨٠).

(٥) البائس: هو الذي عليه أثر البؤس، وهو الفقر والقلَّة.

(٦) رواه البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨).

وخرجنا إلى الحَجِّ، فواعَدنا رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العَقَبَةَ من أوسَطِ أيَّامِ التَّشريقِ، فلمَّا فرَغنا مِنَ الحَجِّ، وكانتِ اللَّيلَةُ التي وعَدنا رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومعنا عبدُاللهِ بنُ عَمرِو ابن حَرامٍ، أبو جابرٍ، سَيِّدٌ من سادَتِنا، وكُنَّا نكتُمُ مَن معنا من قَومِنا مِنَ المُشرِكينَ أمرَنا.

فكَلَّمناهُ، وقُلنا لَهُ: يا أبا جابرٍ، إنَّكَ سَيِّدٌ من سادَتِنا، وشَريفٌ من أشرافِنا، وإنَّا نَرغَبُ بكَ عَمَّا أنتَ فيه، أن تكونَ حَطَبًا للنَّارِ غَدًا.

ثم دَعَوتُهُ إلى الإسلامِ، وأخبَرتُهُ بميعادِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأسلم، وشَهِدَ معنا العَقَبَةَ، وكان نَقيبًا.

- قال: فنِمنا تِلكَ اللَّيلَةَ مع قَومِنا في رِحالنا، حتى إذا مَضَى ثُلُثُ اللَّيلِ، خرجنا من رِحالنا لميعادِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَتَسَلَّلُ مُستَخفينَ تَسَلُّلَ القَطا، حتى اجتَمَعنا في الشِّعبِ عندَ العَقَبَةِ، ونَحنُ سَبعونَ رَجُلًا، ومعنا امرَأتانِ من نِسائِهِم: نَسيبَةُ بنتُ كَعبٍ أُمُّ عُمارَةَ، إحدَى نِساءِ بَني مازِنِ بنِ النَّجَّارِ، وأسماءُ بنتُ عَمرِو بنِ عَديِّ بنِ ثابتٍ، إحدَى نِساءِ بَني سَلِمَةَ، وهي أُمُّ مَنيعٍ.

فاجتَمَعنا بالشِّعبِ نَنتَظِرُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى جاءَنا، ومَعَهُ -يومَئِذٍ- عَمُّهُ العبَّاسُ بنُ عبدِالمُطَّلِبِ، وهو -يومَئِذٍ- على دينِ قَومِهِ، إلا أنَّهُ أحَبَّ أن يَحضُرَ أمرَ ابنِ أخيهِ، ويَتَوَثَّقَ لَهُ.

فلمَّا جَلَسنا، كان العبَّاسُ بنُ عبدِالمُطَّلِبِ أوَّلَ مُتكَلِّمٍ، فقال: يا مَعشَرَ الخَزرَجِ -وكانتِ العَرَبُ مِمَّا يُسَمُّونَ هذا الحَيَّ مِنَ الأنصارِ: الخَزرَجَ، أوسَها، وخَزرَجَها-، إنَّ محمدًا مِنَّا حيث قَد عَلِمتُم، وقد مَنَعناهُ من قَومِنا، مِمَّن هو على مِثلِ رَأيِنا فيه، وهو في عِزٍّ من قَومِهِ، ومَنَعَةٍ في بَلَدِهِ.

فَقُلنا: قَد سَمِعنا ما قُلتَ، فتكَلَّم يا رسولَ اللهِ، فخُذ لنَفسِكَ ولِرَبِّكَ ما أحبَبتَ.

فتَكَلَّمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتَلا، ودَعا إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ورَغَّبَ في الإسلامِ، قال: «**أُبايِعُكُم على أن تَمنَعوني مِمَّا تَمنَعونَ منه نِساءَكُم وأبناءَكُم**».

فَأَخَذَ البَراءُ بنُ مَعرورٍ بيَدِهِ، ثم قال: نعم، والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ، لَنمنعَنَّكَ مِمَّا نمنَعُ منه أُزُرَنا، فبايِعنا يا رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنَحنُ أهلُ الحُروبِ، وأهلُ الحَلقَةِ، ورِثناها كابِرًا عن كابِرٍ.

فاعتَرَضَ القولَ -والبَراءُ يُكَلِّمُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أبو الهَيثَمِ بنُ التيهانِ، حَليفُ بَني عبدِالأشهَلِ، فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ بيننا وبين الرِّجال(١) حِبالًا(٢)، وإنَّا قاطِعوها، فهَل عَسَيتَ -إن نَحنُ فعَلنا ذلك، ثم أظهَرَكَ اللهُ-، أن تَرجِعَ إلى قَومِكَ وتَدَعَنا؟

فتَبَسَّمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال: «**بَلِ الدَّمَ الدَّمَ، والهَدمَ الهَدمَ(٣)، أنا مِنكُم وأنتُم مِنِّي، أُحارِبُ مَن حارَبتُم، وأُسالِمُ مَن سالَمتُم**».

وقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أخرِجوا إلَيَّ مِنكُم اثنَي عَشَرَ نَقيبًا، يكونونَ على قَومِهِم**»، فأخرَجوا منهم اثنَي عَشَرَ نَقيبًا، منهم تِسعَةٌ مِنَ الخَزرَجِ، وثَلاثَةٌ مِنَ الأوسِ.

وكان أوَّلَ مَن ضَرَبَ على يَدِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: البَراءُ بنُ مَعرورٍ، ثم تَتابَعَ القَومُ.

فلَمَّا بايَعنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صَرَخَ الشَّيطانُ من رَأسِ العَقَبَةِ، بأبعَدِ صَوتٍ سمعتُهُ قَطُّ: يا أهلَ الجُباجِبِ(٤) هَل لَكُم في مُذَمَّمٍ، والصُّباةُ مَعَهُ؟ قَد أجمَعوا على حَربِكُم.

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَذا أزَبُّ العَقَبَةِ(٥)، هذا ابنُ أزيَبَ، اسمَع أي عَدوَّ اللهِ، أما واللهِ لَأفرُغَنَّ لَكَ**»، ثم قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ارفَعوا إلى رِحالكُم**».

فقال له العبَّاسُ بنُ عُبادَةَ بنِ نَضلَةَ: والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ، لَئِن شِئتَ لَنميلَنَّ على أهلِ مِنًى -غَدًا- بأسيافِنا، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَم أومَر بذلك**».

---

(١) يقصد اليهود.

(٢) أي: أحلافًا، وعهودًا.

(٣) الدَّم الدَّم: تطلب بدمي، وأطلب بدمك، والهدم الهدم: يعني: الحرمة، أي: ذمَّتي ذمَّتكم، وحرمتي حرمتكم.

(٤) الجباجب: جمع جبجب، وهو المستوي من الأرض، ليس بحزن، وهي -هاهنا- أسماء منازل بمنًى، سمِّيت به، قيل: لأن كروش الأضاحي تلقى فيها أيَّام الحجِّ، والجبجبة: الكرش، يجعل فيها اللَّحم، يتزود في الأسفار. النهاية (١/ ٢٣٤).

(٥) اسم شيطانٍ كان بالعقبة.

فَرَجَعنا، فنِمنا حتى أصبَحنا، فلمَّا أصبَحنا، غَدَت عَلَينا جُلَّةُ قُرَيشٍ، حتى جاءونا في مَنازِلِنا، فقالوا: يا مَعشَرَ الخَزرَجِ، إنَّهُ قَد بَلَغَنا أنَّكُم قَد جِئتُم إلى صاحِبِنا هَذا، تَستَخرِجونَهُ من بَينِ أظهُرِنا، وتُبايِعونَهُ على حَربِنا، واللهِ إنَّهُ ما مِنَ العَرَبِ أحَدٌ أبغَضَ إلَينا أن تَنشَبَ الحَربُ بيننا وبينَهُ مِنكُم.

قال: فانبَعَثَ مَن هُنالكَ من مُشرِكي قَومِنا، يَحلِفونَ لهم باللهِ ما كان من هذا شيءٌ، وما عَلِمناهُ، وقد صَدَقوا، لم يَعلَموا ما كان مِنَّا، فبعضُنا يَنظُرُ إلى بعضٍ.

وقامَ القَومُ، وفيهِمُ الحارِثُ بنُ هِشامِ بنِ المُغيرَةِ المخزوميُّ، وعليه نَعلانِ جَديدانِ، فقُلتُ كَلِمَةً، كَأنِّي أُريدُ أن أُشرِكَ القَومَ بها فيما قالوا: ما تَستَطيعُ يا أبا جابِرٍ، وأنتَ سَيِّدٌ من سادَتِنا، أن تَتَّخِذَ نَعلَينِ مِثلَ نَعلَي هذا الفَتَى من قُرَيشٍ، فسَمِعَها الحارِثُ، فخَلَعَهما، ثم رَمَى بهما إلَيَّ، فقال: واللهِ لَتَنتَعِلَنَّهما، قال أبو جابِرٍ: أحفَظتَ[(١)] -واللهِ- الفَتَى، فاردُد عليه نَعليه، فقُلتُ: واللهِ لا أرُدُّهما، فألٌ -واللهِ- صالحٌ، واللهِ -لَئِن صَدَقَ الفَألُ- لَأسلُبَنَّهُ[(٢)].

* السِّماتُ العامَّةُ للمُناظَراتِ، والمُحاوراتِ:

بِالنَّظَرِ إلى مُناظَراتِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحِواراتِهِ، يُمكِنُنا استِخلاصُ بَعضِ السِّماتِ العامَّةِ، التي يَنبَغي أن نَتَحلَّى بها، في مُناظراتِنا، ومُحاوراتِنا، **فمِن أهَمِّ هَذِهِ السِّماتِ:**

- التَّوَكُّلُ على اللهِ والاستعانَةُ بِهِ، في نُصرَةِ الحَقِّ وأهلِهِ.
- البَداءَةُ بالحَمدِ والثَّناءِ على اللهِ تعالى.
- إعطاءُ الفُرصَةِ للمُخالفِ يَتكَلَّمُ بحُجَّتِهِ، ويفيضُ بقولِهِ، حتى يَفرُغَ من ذلك.
- استِثمارُ المواطِنِ الإيجابيَّةِ لَدَي المُخالفِ، والاعتِدادُ بها في الحُجَّةِ، إذا كانت توافِقُ الحَقَّ.

---

(١) أغضبت.

(٢) رواه أحمد (١٥٧٩٨)، وقال الهيثميُّ: «رواه أحمد، والطبراني، بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح، غير ابن إسحاق، وقد صرَّح بالسَّماع» مجمع الزَّوائد (٦/ ٤٥)، وحسنه محققو المسند.

- استِثمارُ الأخلاقِ الحَسَنَةِ والفِطَرِ السَّليمَةِ، التي يَتَّصِفُ بها المُخالفُ.
- الاتِّصافُ بالهُدوءِ والأدَبِ طولَ المُناظَرَةِ.
- عَدَمُ الخُروجِ عن مَوضوعِ المُناظَرَةِ، إلا للمصلَحَةِ الراجِحَةِ.
- عَدَمُ الاعتِدادِ باستِثارَةِ المُخالفِ، مِمَّا يكونُ من شَأنِهِ: الحَيَدَةُ عن مَوضوعِ المُناظَرَةِ، والخُروجُ عَنهُ.
- التَّحَلِّي بالصَّبرِ والأخلاقِ الكريمَةِ، وعَدَمُ الغَضَبِ للنَّفسِ، مع لينِ الجانِبِ، وحُسنِ الخِطابِ.
- مَقصودُ المُناظَرَةِ: إحقاقُ الحَقِّ، وإبطالُ الباطِلِ، دونَ أن يكونَ مُجَرَّدَ المُغالَبَةِ، وحُبِّ الخِلافِ، والاستطالَةِ.
- الاختِصارُ في البَيانِ، وعَدَمُ الإطالَةِ في الكلامِ.
- الاحتِجاجُ بالكِتابِ والسّنّةِ.
- إظهارُ جَمالِ الحَقِّ وحُسنِهِ، وفَسادِ الباطِلِ وزَيفِهِ وقُبحِهِ.
- التَّوَقُّفُ عن المُناظَرَةِ إذا كان مَقصودُ الخَصمِ: اللَّجاجَ في الخُصومَةِ، وعَدَمَ ابتِغاءِ الوُصولِ إلى الحَقِّ.

تَفَكُّرُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

القَلبُ المملوءُ بنورِ اللهِ، العامِرُ بالتَّقوى والإيمانِ، يُصيبُ من رائِقِ الفِكرِ، وإبداعِ النَّظَرِ والرُّؤيَةِ، ما لا يُصيبُهُ غَيرُهُ، فكَيفَ إذا كُنَّا نَتكَلَّمُ عن نَبيِّنا محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

والتَّفكُّرُ والتَّدَبُّرُ، واشتِغالُ القَلبِ، بما فيه صَلاحُ الدِّينِ والدُّنيا، مِنَ العِباداتِ العَظيمَةِ، التي أمَرَت بها الشَّريعَةُ، وحَثَّت عليها؛ إذ لا يَزالُ القَلبُ -بِذلك- عامِرًا بالإيمانِ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فالقَلبُ لا يَخلو مِنَ الفِكرِ: إمَّا في واجِبِ آخِرَتِهِ، ومَصالِحِها، وإمَّا في مَصالحِ دُنياهُ، ومَعاشِهِ، وإمَّا في الوَساوُسِ، والأمانيِّ الباطِلَةِ، والمُقَدَّراتِ المفروضَةِ.

وقد تَقَدَّمَ أنَّ النَّفسَ مَثَلُها كَمَثَلِ رَحًى، تَدورُ بما يُلقى فيها، فإن ألقَيتَ فيها حَبًّا دارَت بِهِ، وإن ألقَيتَ فيها زُجاجًا، وحَصًا، وبَعرًا، دارَت بهِ.

فَقَيِّمُ الرحى إذا تَخَلَّى عَنها، وعن إصلاحِها، وإلقاءِ الحَبِّ النافِعِ فيها، وجَدَ العَدوُّ السَّبيلَ إلى إفسادِها وإرادَتِها بما مَعَهُ»[1].

وقد ورَدَ ذِكرُ التَّفكُّرِ، ومَدحُهُ، والأمرُ بِهِ، في القُرآنِ كَثيرًا، فمِن ذلك: قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ

(١) الفوائد (ص١٧٦-١٧٧)، باختصار.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩، ٢٦٦]، ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١، الزمر: ٤٢، الجاثية: ١٣].

وسَنَذكُرُ في هذا الفَصلِ صوَرًا مِنَ التَّفكُّرِ، والتَّدبُّرِ، واشتِغالِ القَلبِ، واهتِمامِ النَّفسِ، في حَياتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لنَعلَمَ كيفَ كانت همومُهُ، ومَشاغِلُهُ، وليَكونَ لَنا في ذلك الأُسوَةُ الحَسَنَةُ.

* تَفكُّرُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتَأمُّلُهُ في آياتِ اللهِ الكونيَّةِ:

كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبلَ البَعثَةِ يَتَحَنَّثُ في غارِ حِراءٍ، خاليًا بنَفسِهِ، مُتَفَكِّرًا في آياتِ اللهِ.

فعن عائشةَ أم المؤمنين، أنَّها قالت: «أَوَّلُ ما بُدِئَ بِهِ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الوَحيِ: الرُّؤيا الصَّالِحَةُ في النَّومِ، فكان لا يَرى رُؤيا، إلا جاءَت مِثلَ فلَقِ الصُّبحِ، ثم حُبِّبَ إليه الخَلاءُ، وكان يَخلو بغارِ حِراءٍ، فيَتَحَنَّثُ فيه -وَهوَ التَّعَبُّدُ- اللَّيالِيَ ذَواتِ العَدَدِ، قبلَ أن يَنزِعَ إلى أهلِهِ، ويَتَزَوَّدُ لذلك، ثم يَرجِعُ إلى خديجَةَ فيَتَزَوَّدُ لِمثلِها، حتى جاءَهُ الحَقُّ وهو في غارِ حِراءٍ»[1].

قال أبو سُلَيمانَ الخَطَّابيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «حُبِّبَتِ العُزلَةُ إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّ مَعَها فراغَ القَلبِ، وهي مُعينةٌ على التَّفكُّرِ، وبِها يَنقَطِعُ عن مَألوفاتِ البَشَرِ، ويَتَخَشَّعُ قَلبُهُ»[2].

* وكان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقومُ مِنَ اللَّيلِ، يَنظُرُ في السَّماءِ مُتَفَكِّرًا:

فعن عبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أنَّهُ باتَ عندَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاتَ لَيلَةٍ، فقامَ نَبيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من آخِرِ اللَّيلِ، فخرجَ فنَظَرَ في السَّماءِ، ثم تَلا هَذِهِ الآيَةَ في آلِ عِمرانَ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ حتى بلَغَ: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

---

(١) رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٢) شرح النووي على مسلم (٢/ ١٩٨).

ثم رَجَعَ إلى البَيتِ، فتَسَوَّكَ، وتَوَضَّأ، ثم قامَ فصَلَّى، ثم اضطَجَعَ، ثم قامَ فخرجَ، فنَظَرَ إلى السَّماءِ، فتَلا هَذِهِ الآيةَ، ثم رَجَعَ، فتَسَوَّكَ، وتَوَضَّأ، ثم قامَ فصَلَّى»[١].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فيه**: أنَّهُ يُستَحَبُّ قِراءَتُها عندَ الاستيقاظِ في اللَّيلِ مع النَّظَرِ إلى السَّماءِ؛ لما في ذلك من عَظيمِ التَّدبُّرِ، وإذا تَكَرَّرَ نَومُهُ واستيقاظُهُ وخُروجُهُ، استُحِبَّ تكريرُهُ قِراءَةَ هَذِهِ الآياتِ، كَما ذُكِرَ في الحديثِ»[٢].

وصحَّ عن أبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «تَفَكُّرُ ساعَةٍ، خَيرٌ من قيامِ لَيلَةٍ»[٣].

* وحَثَّ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، على التَّفَكُّرِ في آياتِ اللهِ:

فعن عَطاءٍ، قال: دَخَلتُ أنا وعُبَيدُ بنُ عُمَيرٍ على عائشةَ، فقالت لعُبَيدِ بنِ عُمَيرٍ: قَد آنَ لَكَ أن تَزورَنا.

- فقال: أقولُ يا أُمَّه كَما قال الأولُ: «زُر غِبًّا تَزدَد حُبًّا»[٤].

- قال: فقالت: دَعونا من رَطانَتِكُم هَذِهِ.

- قال ابنُ عُمَيرٍ: أخبِرينا بأعجَبِ شيءٍ رَأيتِهِ من رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- قال: فسَكَتَت، ثم قالت: لَمَّا كان لَيلَةٌ مِنَ اللَّيالي، قال: «**يا عائشةُ، ذَريني أتَعَبَّدُ اللَّيلَةَ لرَبِّي**».

- قُلتُ: واللهِ إنِّي لَأُحبُّ قُربَكَ، وأُحبُّ ما سَرَّكَ.

- قالت: فقامَ، فتَطَهَّرَ، ثم قامَ يُصَلِّي.

- قالت: فلَم يَزَل يَبكي، حتى بَلَّ حِجرَهُ.

---

(١) رواه البخاري (٦٢١٥)، ومسلم (٢٥٦)، واللفظ له.
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٣/ ١٤٦).
(٣) رواه البيهقي في الشُّعب (١١٧).
(٤) الغبُّ: فعل الأمر والقيام به، حيناً بعد حينٍ.

- قالت: ثم بَكَى فلَم يَزَل يَبكي، حتى بَلَّ لحيَتَهُ.

- قالت: ثم بَكَى فلَم يَزَل يَبكي، حتى بَلَّ الأرضَ.

فَجاءَ بلالٌ يُؤذِنُهُ بالصَّلاةِ، فلمَّا رَآهُ يَبكي قال: يا رسولَ اللهِ، لِمَ تَبكي وقد غَفَرَ اللهُ لَكَ ما تَقَدَّمَ وما تَأخَّرَ؟

- قال: «**أفَلا أكونُ عبدًا شَكورًا؟ لَقَد نَزَلَت عَلَيَّ اللَّيلَةَ آيَةٌ، ويلٌ لِمَن قَرَأها ولم يَتَفَكَّر فيها:** ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]»[١].

قال عُبَيدُ بنُ السَّائِبِ: قيل للأوزاعيِّ: ما غايَةُ التَّفكّرِ فيهنَّ؟ قال: «يَقرَؤُهُنَّ، وهو يَعقِلُهُنَّ»[٢].

* وكان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُلاحِظُ الآياتِ الكونيَّةَ، ويَتَفاعَلُ مَعَها:

الرِّياحُ والسَّحابُ:

عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا رَأى غَيمًا أو ريحًا، عُرِفَ في وجهِهِ، قالت: يا رسولَ اللهِ، إنَّ الناسَ إذا رَأَوُا الغَيمَ فرِحوا؛ رَجاءَ أن يكونَ فيه المطَرُ، وأراكَ إذا رَأيتَهُ عُرِفَ في وجهِكَ الكراهيَةُ، فقال: «**يا عائشةُ، ما يُؤمِنِّي أن يكونَ فيه عَذابٌ؟ عُذِّبَ قَومٌ بالرِّيحِ، وقد رَأى قَومٌ العَذابَ، فقالوا:** ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]»[٣].

وفي رواية مُسلِمٍ: قالت: كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا عَصَفَتِ الرِّيحُ، قال: «**اللهمَّ إنِّي أسأَلُكَ خيرَها، وخَيرَ ما فيها، وخَيرَ ما أُرسِلَت بِهِ، وأعوذُ بكَ من شَرِّها، وشَرِّ ما فيها، وشَرِّ ما أُرسِلَت بِهِ**».

---

(١) رواه ابن حبَّان (٦٢٠)، وجوَّد إسناده الألباني في الصحيحة (٦٨)، وقال شعيب الأرنؤوط في تحقيق صحيح ابن حبَّان: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٩٠).

(٣) رواه البخاري (٤٨٢٩)، ومسلم (٨٩٩).

قالت: وإذا تَخَيَّلَتِ السَّماءُ[١] تَغَيَّرَ لَونُهُ، وخرجَ ودَخَلَ، وأقبَلَ وأدبَرَ، فإذا مَطَرَت سُرِّيَ عَنهُ، فعَرَفتُ ذلك في وجهِهِ.

قالت عائشةُ: فسَألتُهُ، فقال: «**لعَلَّهُ -يا عائشةُ- كَما قال قَومُ عادٍ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾** [الأحقاف: ٢٤]».

الشَّمسُ، والقَمَرُ:

عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: خَسَفَتِ الشَّمسُ في عَهدِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فصَلَّى رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالناسِ... فخَطَبَ الناسَ، فحَمِدَ اللهَ وأثنَى عليه، ثم قال: «**إنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ آيتانِ من آياتِ اللهِ، وإنَّهما لا يَنخَسِفانِ لَموتِ أحَدٍ، ولا لَحياتِهِ، فإذا رَأيتُموهما فكَبِّروا، وادعوا اللهَ، وصَلُّوا وتَصَدَّقوا**»[٢].

الهِلالُ:

عن طَلحَةَ بنِ عُبَيدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا رَأى الهِلالَ، قال: «**اللهمَّ أهِلَّهُ عَلَينا باليُمنِ، والإيمانِ، والسَّلامَةِ، والإسلامِ، رَبِّي ورَبُّكَ اللهُ**»[٣].

المطَرُ:

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أصابَنا -ونَحنُ مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَطَرٌ، فحَسَرَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَوبَهُ، حتى أصابَهُ مِنَ المطَرِ، فقُلنا: يا رسولَ اللهِ، لِمَ صَنَعتَ هَذا؟ قال: «**لأنَّهُ حديثُ عَهدٍ برَبِّهِ تعالى**»[٤].

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**قال العُلَماءُ**: مَعناهُ: قَريبُ العَهدِ بتكوينِ رَبِّهِ»[٥].

---

(١) أي: تغيَّمت، وتهيَّأت للمطر.

(٢) رواه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١).

(٣) رواه الترمذي (٣٤٥١)، وأحمد (١٣٩٧)، وحسنه محققو المسند.

(٤) رواه مسلم (٨٩٨).

(٥) فتح الباري (٢/ ٥٢٠).

* تَفكُّرُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتَأمُّلُهُ، في آياتِ اللهِ الشَّرعيَّةِ:

إنَّ التَّفكُّرَ والتَّدبُّرَ في آياتِ اللهِ المتلوَّةِ (القُرآنِ الكريمِ) من أجلِّ العِباداتِ، وأعظَمِها، وقد أمَرَ اللهُ بِهِ وحَثَّ عليه في كِتابِهِ الكريمِ؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

والآياتُ في هذا البابِ كَثيرَةٌ جِدًّا، وهي دالَّةٌ دَلالَةً واضِحَةً على وُجوبِ التَّفكُّرِ، والتَّدبُّرِ، في آياتِ اللهِ المتلوَّةِ، حتى يَعلَمَ العبدُ عَظَمَةَ رَبِّهِ جَلَّ وعَلا؛ فيَعبُدَهُ حَقَّ عِبادَتِهِ.

وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا قَرَأ القُرآنَ، تَدبَّرَ في ألفاظِهِ، وتَفكَّرَ في مَعانيهِ، ثم يكونُ منه ما يَدُلُّ على أثَرِ هذا التَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ، في قَلبِهِ، ولِسانِهِ، وجَوارِحِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

* وكان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَدَبَّرُ ويَتَفكَّرُ في كُلِّ آيةٍ يَقرَؤُها:

عن حُذَيفَةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: صَلَّيتُ مع النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاتَ لَيلَةٍ، فافتَتَحَ البقرةَ، فقُلتُ: يَركَعُ عندَ المائةِ، ثم مَضى، فقُلتُ: يُصَلِّي بها في رَكعَةٍ[1]، فمَضى، فقُلتُ: يَركَعُ بها، ثم افتَتَحَ النِّساءَ، فقَرَأها، ثم افتَتَحَ آلَ عِمرانَ، فقَرَأها، يَقرَأُ مُتَرَسِّلًا، إذا مَرَّ بآيةٍ فيها تَسبيحٌ سَبَّحَ، وإذا مَرَّ بسُؤالٍ سَألَ، وإذا مَرَّ بتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ .. الحديثُ[2].

وهذا لا يَكونُ منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا بالتفكُّرِ في كلِّ آيةٍ، واستحضارِ مَعانيها، وهذا مِن كَمالِ الإيمانِ، وحُسنِ الصَّلاةِ.

---

(١) أراد بالركعة: الصلاة بكمالها، وهي ركعتان، وأنه يقسم السُّورة على هاتين الركعتين.

(٢) رواه مسلم (٧٧٢) .

* ورُبَّما قامَ اللَّيلَ بآيةٍ، يتفكّرُ فيها:

فعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: صَلَّى رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيلَةً، فقَرَأ بآيةٍ حتى أصبَحَ، يَركَعُ بها، ويَسجُدُ بها: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨][1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فَلَو علِم الناسُ ما في قِراءَة القُرآن بالتّدبّرِ لاشتَغلوا بها عن كلّ ما سواها، فإذا قَرأهُ بتفكّرٍ حتى مرّ بآية وهو مُحتاجٌ إلَيها في شِفاء قلبِه كرّرها -وَلو مائَة مرّة، ولو لَيلَة- فقِراءةُ آيةٍ بتفكّرٍ وتفهُّمٍ خيرٌ مِن قِراءَة خَتمةٍ بغَيرِ تدبّرٍ وتفهُّمٍ، وأنفعُ للقلبِ، وأدعَى إلى حُصولِ الإيمانِ، وذَوقِ حَلاوةِ القُرآنِ، وهذه كانت عادَةُ السَّلَفِ يُرَدِّدُ أحَدُهمُ الآيةَ إلى الصَّباحِ».

* ورُبَّما بَكَى عندَ تَفَكُّرِهِ في مَعاني بعضِ الآياتِ:

عن عبدِالله بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال لِيَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقرَأ عَلَيَّ**»، قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، آقرَأُ عليكَ، وعليكَ أُنزِلَ؟ قال: «**نَعَم**»، فقَرَأتُ سورَةَ النِّساءِ، حتى أَتَيتُ إلى هَذِهِ الآيةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال: «**حَسبُكَ الآنَ**»، فالتَفَتُّ إليه، فإذا عَيناهُ تَذرِفانِ[2].

قال ابنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللهُ: «إنما بَكَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندَ تِلاوَتِهِ هَذِهِ الآيَةَ؛ لأَنَّهُ مَثَّلَ لنَفسِهِ أهوالَ يومِ القيامَةِ، وشِدَّةَ الحال الدَّاعيَةِ له إلى شَهادَتِهِ لأُمَّتِهِ بالتَّصديقِ، وسُؤالِهِ الشَّفاعَةَ لأهلِ الموقِفِ، وهو أمرٌ يَحِقُّ له طولُ البُكاءِ»[3].

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «والذي يَظهَرُ: أَنَّهُ بَكَى رَحمَةً لأُمَّتِهِ؛ لأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ لا بُدَّ أن يَشهَدَ عليهم بعَمَلِهِم، وعَمَلُهم قَد لا يكونُ مُستَقيمًا، فقَد يُفضي إلى تَعذيبِهِم، واللهُ أعلَمُ»[4].

---

(١) رواه النسائي (١٠١٠)، وأحمد (٢١٣٢٨)، وحسنه محققو المسند.

(٢) رواه البخاري (٥٠٥٠)، ومسلم (٨٠٠).

(٣) شرح ابن بطَّالٍ على صحيح البخاري (١٠/ ٢٨١).

(٤) فتح الباري (٩/ ٩٩).

* وشابَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ من شدَّةِ تفكُّرِهِ في آياتِ اللهِ:

عنِ ابنِ عبَّاسٍ، قال: قال أبو بكرٍ: يا رسولَ اللهِ قَد شِبتَ، قال: «**شَيَّبَتني هودٌ، والواقِعَةُ، والمُرسَلاتُ، وعَمَّ يَتَساءَلونَ، وإذا الشَّمسُ كوِّرَت**»[١].

قال الطِّيبيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: «قولُهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**شَيَّبَتني**»: مِنَ التَّشييبِ؛ وذلك لما في هَذِهِ السُّوَرِ من أهوال يومِ القيامَةِ، والمَثُلاتِ النَّوازِلِ بالأُمَمِ الماضيَةِ»[٢].

«**وَأَخَواتُها**»:

أي: وأشباهُهُا مِنَ السُّوَرِ، التي فيها ذِكرُ أهوال القيامَةِ، والعَذابِ، والهموم، يعني: أنَّ اهتمامي بما فيها من أحوال القيامَةِ، والحَوادِثِ النازِلَةِ بالأُمَمِ الماضيَةِ، أَخَذَ مِنِّي مَأخَذَهُ، حتى شِبتُ قبلَ أوانِ الشَّيبِ؛ خَوفًا على أُمَّتي، والأحزانُ إذا تَقاحَمَت على الإنسانِ أسرَعَ إليه الشَّيبُ في غَيرِ أوانٍ.

قال المتنبي:

والهمُّ يخترمُ الجسيمَ نحافةً ... ويُشيبُ ناصيةَ الصبيِّ ويهرمُ[٣]

* ومن ذلك: تَفَكُّرُهُ في هَولِ الموتِ والقَبرِ:

عن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: كُنَّا مع رسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في جِنازَةٍ، فجَلَسَ على شَفيرِ القَبرِ[٤]، فبَكَى حتى بَلَّ الثَّرَى[٥]، ثم قال: «**يا إخواني! لِمثلِ هَذا فأعِدُّوا**»[٦].

وعن عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: كُنَّا في جِنازَةٍ في بَقيعِ الغَرقَدِ، فأتانا النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقَعَدَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩٧)، وابن سعدٍ في الطَّبقات (١/ ٤٣٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٥٥).

(٢) تحفة الأحوذي (٩/ ١٣١).

(٣) فيض القدير (٤/ ١٦٨).

(٤) أي: طرفه.

(٥) الترُّاب.

(٦) رواه ابن ماجه (٤١٩٥)، وحسنه الألباني.

وقَعَدنا حَولَهُ، ومَعَهُ مِخْصَرَةٌ(١)، فنكَّسَ، فجَعَلَ يَنكُتُ بمِخصَرَتِهِ ثم قال: «**ما مِنكُم من أحَدٍ، ما من نَفسٍ مَنفوسَةٍ إلا كُتِبَ مَكانُها مِنَ الجَنَّةِ والنارِ، وإلا قَد كُتِبَ شَقيَّةً أو سَعيدَةً**».

فقال رَجُلٌ: يا رسولَ اللهِ، أفَلا نَتَّكِلُ على كِتابِنا، ونَدَعُ العَمَلَ، فمَن كان مِنَّا من أهلِ السَّعادَةِ، فسَيَصيرُ إلى عَمَلِ أهلِ السَّعادَةِ، وأمَّا مَن كان مِنَّا من أهلِ الشَّقاوَةِ، فسَيَصيرُ إلى عَمَلِ أهلِ الشَّقاوَةِ؟

فقال: «**أمَّا أهلُ السَّعادَةِ: فيُيَسَّرونَ لعَمَلِ السَّعادَةِ، وأمَّا أهلُ الشَّقاوَةِ: فيُيَسَّرونَ لعَمَلِ الشَّقاوَةِ، ثم قَرَأ:** ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٥-٦] **الآيةَ**»(٢).

قولُهُ: «فنكَّسَ»:

أي: طَأطَأَ رَأسَهُ، وذلك يكونُ عندَ التَّفكُّرِ، والتَّدَبُّرِ.

«فجَعَلَ يَنكُتُ بمِخصَرَتِهِ»:

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «ذلك لا يُعَدُّ مِنَ العَبَثِ المذمومِ؛ لأنَّ ذلك إنما يَقَعُ مِنَ العاقِلِ، عندَ التَّفكُّرِ في الشَّيءِ»(٣).

وعن البَراءِ بنِ عازِبٍ، قال: خرجنا مع النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جِنازَةِ رَجُلٍ مِنَ الأنصارِ، فانتَهَينا إلى القَبرِ ولَمَّا يُلحَد، فجَلَسَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجَلَسنا حَولَهُ، كَأنَّ على رُءوسِنا الطَّيرَ، وفي يَدِهِ عودٌ يَنكُتُ بِهِ في الأرضِ، فرَفَعَ رَأسَهُ فقال: «**استَعيذوا باللهِ من عَذابِ القَبرِ**»، مَرَّتَينِ، أو ثَلاثًا ... وساقَ الحديثَ(٤).

---

(١) كعصًا ونحوها، وقد سبق تعريف المخصرة.

(٢) رواه البخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧).

(٣) فتح الباري (١٠/ ٥٩٧).

(٤) رواه أبوداود (٤٧٥٣)، وأحمد (١٨٥٣٤)، وصححه محققو المسند.

صَمتُه وسُكوتُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

إنّ قِلّةَ الكلامِ وطولَ الصَّمتِ إلا من خَيرٍ، لَمِن خِصال العَقلِ، وأماراتِ الحِكمَةِ، فالمُؤمنُ إذا لم يَغنَم بالكلامِ، سَلِمَ بالصَّمتِ.

عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن كان يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فليَقُل خَيرًا، أو ليَصمُت**»[1].

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا من جَوامِعِ الكلِمِ؛ لأنَّ القولَ كُلَّهُ: إمَّا خَيرٌ، وإمَّا شَرٌّ، وإمَّا آيِلٌ إلى أحَدِهما، فدَخَلَ في الخَيرِ: كُلُّ مَطلوبٍ مِنَ الأقوال، فرضِها، ونَدبِها، فأذِنَ فيه على اختِلافِ أنواعِهِ، ودَخَلَ فيه ما يَؤولُ إليه، وما عَدا ذلك مِمَّا هو شَرٌّ، أو يَؤولُ إلى الشَّرِّ، فأمَرَ عندَ إرادَةِ الخَوضِ فيه بالصَّمتِ»[2].

فَمِن أنواعِ الأدَبِ الذي يَنبَغي أن يَتَّصِفَ بِهِ المُؤمِنُ: أدَبُ الصَّمتِ، فلا يَنبَغي له أن يَتكَلَّمَ في كُلِّ وقتٍ، وفي كُلِّ مَسألَةٍ، وإنما الحِكمَةُ في التَّرَوِّي في الكلامِ، فلَرُبَّما ضَرَّهُ التّعجُّلُ فيه.

إن كان يُعجِبُكَ السُّكوتَ فإنَّهُ ... قد كان يُعجِبُ قبلك الأخيارا

ولَئِن ندمتَ على سكوتٍ مرَّةً ... فلقد ندمتَ على الكلام مِرارا

---

(١) رواه البخاري (٦٤٧٥)، ومسلم (٤٧).

(٢) فتح الباري (١٠/ ٤٤٦).

وقد كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القُدوَةَ في ذلك:

فعن سِماكِ بنِ حَربٍ، قال: قُلتُ لجابِرِ بنِ سَمُرَةَ: أكُنتَ تُجالسُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: «**نَعَم، فكان طَويلَ الصَّمتِ، قَليلَ الضَّحِكِ**»(١).

«**كان طَويلَ الصَّمتِ**»: أي: كَثيرَ السُّكوتِ، والمعنى: أنَّهُ لا يَتكَلَّمُ إلا لحاجَةٍ(٢).

وكَثرةُ السُّكوتِ مِن أقوَى أسبابِ التَّوقيرِ، وهو مِنَ الحِكمَةِ، وداعيَةُ السّلامَةِ مِنَ اللفظِ، ولهذا قيل: «مَن قَلّ كَلامُهُ قَلّ لَغَطُهُ»، وهو أجمعُ للفِكرِ(٣).

وعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُحَدِّثُ حديثًا، لَو عَدَّهُ العادُّ لَأحصاهُ»(٤).

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: لَو عَدَّ كَلِماتِهِ أو مُفرَداتِهِ أو حُروفهُ، لَأطاقَ ذلك، وبَلَغَ آخِرَها، والمُرادُ بذلك: المُبالَغَةُ في التَّرتيلِ والتَّفهيمِ»(٥).

وقال الطِّيبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَم يَكُن حديثُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَتابِعًا، بحَيثُ يَأتي بعضُهُ إثرَ بعضٍ، فيَلتَبِسُ على المُستَمِعِ، بل كان يَفصِلُ كَلامَهُ، لَو أرادَ المُستَمِعُ عدّهُ أمكَنَهُ، فيَتَكَلَّمُ بكَلامٍ واضِحٍ مَفهومٍ، في غايَةِ الوُضوحِ والبَيانِ»(٦).

وفي كَثيرٍ مِنَ الأحيانِ يكونُ السُّكوتُ أبلَغَ مِنَ الكلامِ:

ولِذلك كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرَبِّي أصحابَهُ بسُكوتِهِ، كَما يُرَبِّيهِم بكَلامِهِ.

وقد تَعَدَّدَتِ المواقِفُ التي سَكَتَ فيها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فقَد يَسكُتُ انتِظارًا للوَحيِ، أو إقرارًا لما رَأى، أو سَمِعَ، أو إنكارًا، أو دَرءًا لفِتنَةٍ، وحَذَرًا من مَفسَدَةٍ، أو تَشويقًا، إلى غيرِ ذلك مِنَ المقاصِدِ الحَسَنَةِ.

---

(١) رواه أحمد (٢٠٨١٠)، وحسنه محققو المسند.

(٢) مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٧١٩).

(٣) فيض القدير (٥/ ١٧٢)

(٤) رواه البخاري (٣٥٦٧)، ومسلم (٢٤٩٣).

(٥) فتح الباري (٦/ ٥٧٨).

(٦) مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٧١٥).

ولَقَد حَرَصَ الصَّحابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ على جَمعِ كُلِّ تَفاصيلِ حَياةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حتى نَقتَديَ بِهِ فيها.

فهم -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- لم يَكتَفوا بحِفظِ كَلامِهِ، بل حَفِظوا سُكوتَهُ -أيضًا-، وهذا يَدُلُّ على عِظَمِ حُبِّهِم لَهُ، وحِرصِهِم على الاقتِداءِ بِهِ.

ومِنَ المواقِفِ التي كان يَسكُتُ فيها النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

* إذا طُلِبَ منه ما لم يُرِدهُ، أو سُئِلَ عَمَّا لا يُريدُ الإجابَةَ عنه:

عن مُصعَبِ بنِ سَعدٍ، عن أبيهِ، قال: لَمَّا كان يومُ فتحِ مَكَّةَ، أَمَّنَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناسَ، إلا أربَعَةَ نَفَرٍ، وامرَأتَينِ.

وقال: «**اقتُلوهم، وإن وَجَدتُموهم مُتَعَلِّقينَ بأستارِ الكعبَةِ**»: عِكرِمَةُ بنُ أبي جَهلٍ، وعبدُاللهِ بنُ خَطَلٍ، ومَقيسُ بنُ صُبابَةَ، وعبدُاللهِ بنُ سَعدِ بنِ أبي السَّرحِ.

فأمَّا **عبدُاللهِ بنُ خَطَلٍ**: فأُدرِكَ وهو مُتَعَلِّقٌ بأستارِ الكعبَةِ، فاستَبَقَ إليه سَعيدُ بنُ حُرَيثٍ، وعَمَّارُ بنُ ياسِرٍ، فسَبَقَ سَعيدٌ عَمَّارًا، وكان أشَبَّ الرجُلَينِ، فقَتَلَهُ.

وأمَّا **مَقيسُ بنُ صُبابَةَ**: فأدرَكَهُ الناسُ في السُّوقِ، فقَتَلوهُ.

وأمَّا **عِكرِمَةُ**: فرَكِبَ البَحرَ، فأصابَتهم عاصِفٌ، فقال أصحابُ السَّفينَةِ: أخلِصوا؛ فإنَّ آلِهَتَكُم لا تُغني عَنكُم شَيئًا هاهُنا، فقال عِكرِمَةُ: واللهِ لَئِن لم يُنَجِّني مِنَ البَحرِ إلا الإخلاصُ، لا يُنَجِّيني في البَرِّ غَيرُهُ، اللهمَّ إنَّ لَكَ عَلَيَّ عَهدًا، إن أنتَ عافيتَني مِمَّا أنا فيه، أن آتيَ محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى أضَعَ يَدي في يَدِهِ، فلَأَجِدَنَّهُ عَفوًّا كَريمًا، فجاءَ فأسلم.

وأمَّا **عبدُاللهِ بنُ سَعدِ بنِ أبي السَّرحِ**: فإنَّهُ اختَبَأ عندَ عثمانَ بنِ عفَّانَ، فلَمَّا دَعا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناسَ إلى البيعَةِ، جاءَ بِهِ حتى أوقَفَهُ على النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: يا رسولَ اللهِ، بايع عبدَاللهِ.

فَرَفَعَ رَأسَهُ، فنَظَرَ إليه ثَلاثًا، كُلَّ ذلك يَأبى، فبايَعَهُ بعدَ ثَلاثٍ، ثم أقبَلَ على أصحابِهِ،

فقال: «**أما كان فيكُم رَجُلٌ رَشيدٌ، يَقومُ إلى هَذا، حيث رَآني كَفَفتُ يَدي عن بَيعَتِهِ، فيَقتُلُهُ؟**».

فقالوا: وما يُدرينا يا رسولَ اللهِ ما في نَفسِكَ، هَلَّا أومَأتَ إلَينا بعَينِكَ؟

قال: «**إنَّهُ لا يَنبَغي لنَبيٍّ أن يكونَ له خائِنَةُ أعيُنٍ**»[1].

قَولُهُ: «أن يكونَ له خائِنَةُ أعيُنٍ»:

قال الخَطَّابيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هوَ أن يُضمِرَ في قَلبِهِ غَيرَ ما يُظهِرُهُ للنَّاسِ، فإذا كَفَّ لسانَهُ، وأومَأ بعَينِهِ إلى ذلك، فقَد خانَ، وقد كان ظُهورُ تِلكَ الخيانَةِ من قَبيلِ عَينِهِ، فسُمِّيَت: خائِنَةَ الأعيُنِ»[2].

بَلَغَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرفَعَ مَقاماتِ الأدَبِ، وأسمَى دَرَجاتِ حُسنِ الخُلُقِ، فإذا كان من حُسنِ الأدَبِ: سكوتُ اللسان عَمَّا يَكرَهُ الإنسان، فإنَّ الأرقَى من ذلك: أن يَسكُتَ بكُلِّ جَوارِحِهِ، لا بِلسانِهِ فقَط، فلا يومِئ بعَينِهِ، ولا يُشير بيَدَيه.

وقد كان من حَياءِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنَّهُ ربَّما سَكَتَ إذا كَرِهَ شَيئًا، ولم يُصَرِّحُ بذلك، خُصوصًا إذا كان هذا الذي يَكرَهُهُ، هو رَغبَةَ أحَدِ أحَبِّ أصحابِهِ إليه، وهو عثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي كان أشَدَّ هَذِهِ الأُمَّةِ حَياءً؛ فلا جَرَمَ استَحيا منه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَم يَأمُرِ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقَتلِهِ -يعني: ابن أبي السَّرحِ-؛ حَياءً من عثمانَ، ولم يُبايِعهُ ليَقومَ إليه بعضُ أصحابِهِ فيَقتُلَهُ، فهابوا رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُقدِموا على قَتلِهِ بغَيرِ إذنِهِ، واستَحيا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عثمانَ، وساعَدَ القَدَرُ السَّابِقُ، لما يُريدُ اللهُ سبحانه بعبدِاللهِ، مِمَّا ظَهَرَ منه بعدَ ذلك مِنَ الفُتوحِ، فبايَعَهُ، وكان مِمَّن استَثنَى اللهُ بقولِهِ: ﴿**كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [آل عمران: ٨٦-٨٩].

---

(١) رواه النسائي (٤٠٦٧)، وصححه الألباني.

(٢) حاشية السِّنديِّ على سنن النسائي (٧/ ١٠٦).

وقولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما يَنبَغي لنَبيٍّ أن تكونَ له خائِنَةُ الأعيُنِ**»، أي: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يُخالِفُ ظاهِرُهُ باطِنَهُ، ولا سِرُّهُ عَلانيَتَهُ، وإذا نَفَذَ حُكمُ اللهِ وأمرُهُ لم يومِ بهِ، بل صَرَّحَ بهِ، وأعلَنَهُ، وأظهَرَهُ»[(١)].

* ومِن سُكوتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندَما يُطلَبُ منه ما يَكرَهُ:

ما جاءَ عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ هَوازِنَ جاءَت يومَ حُنَينٍ بالصِّبيانِ والنِّساءِ والإبلِ والنَّعَمِ، فجَعَلوهم صُفوفًا؛ يُكَثِّرونَ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلمَّا التَقَوا ولَّى المسلمونَ مُدبِرينَ، كَما قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا عِبادَ اللهِ، أنا عبدُاللهِ ورسولُهُ، يا مَعشَرَ الأنصارِ، أنا عبدُ اللهِ ورسولُهُ**»، فهَزَمَ اللهُ المُشرِكينَ، وقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَئِذٍ: «**مَن قَتَلَ كافِرًا فلَهُ سَلَبُهُ**»، فقَتَلَ أبو طَلحَةَ -يومَئِذٍ- عِشرينَ رَجُلًا، وأخَذَ أسلابَهم، قال: وقال أبو قَتادَةَ: يا رسولَ اللهِ، ضَرَبتُ رَجُلًا على حَبلِ العاتِقِ، وعليه دِرعٌ، فأُجهِضتُ عَنهُ، فانظُر مَن أخَذَها، فقامَ رَجُلٌ، فقال: أنا أخَذتُها، فأرضِهِ منها، وأعطِنيها، قال: وكان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يُسألُ شَيئًا إلا أعطاهُ، أو سَكَتَ، فسَكَتَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال عمرُ: لا واللهِ، لا يُفيئُها اللهُ على أسَدٍ من أُسدِهِ، ويُعطيكَها، فضَحِكَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «**صَدَقَ عمرُ**»[(٢)].

فالنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يَقُل للرجل: «لا»، بل سَكتَ، وهذا من كَمالِ أخلاقِهِ؛ فعن جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «**ما سُئِلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيئًا قَطُّ فقال: لا**»[(٣)].

«أي: ما طُلِبَ من رسولِ اللهِ شَيءٌ قَطُّ فقال: «لا»، أي: لا أُعطيهِ، بل إمَّا أعطَى، أوِ اعتَذَرَ ودَعا، أو وعَدَ له فيما تَمَنَّى؛ عَمَلًا بقولِهِ تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨]»[(٤)].

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٤٠٨).

(٢) رواه أحمد (١٢٩٧٧)، وقال محققو المسند: «إسناده صحيح على شرط مسلم»، وهو في الصحيحين بنحوه من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه: منقبةٌ ظاهرةٌ لأبي قتادة؛ فإنه سمَّاه أسدًا من أسد الله تعالى، وصدَّقه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٣) رواه البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١).

(٤) مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٧١٢).

*** ومِن سُكوتِهِ على ما لم يُرِدهُ: سُكوتُهُ حينَ لم يُرِد مُقابَلَةَ عمرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حينَ استَأذَنَ عليه، فصَمَتَ، ولم يُصَرِّح بذلك:**

فإنه لَمَّا بَلَغَ عمرَ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَلَّقَ نِساءَهُ، قال: «فَخرجتُ فجِئتُ إلى المِنبَرِ، فإذا حَولَهُ رَهطٌ يَبكي بعضُهم، فجَلَستُ مَعَهم قَليلًا، ثم غَلَبَني ما أجِدُ، فجِئتُ المَشرُبَةَ التي فيها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقُلتُ لغُلامٍ له أسوَدَ: استَأذِن لعمرَ.

فَدَخَلَ الغُلامُ، فكَلَّمَ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم رَجَعَ فقال: كَلَّمتُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذَكَرتُك لَهُ فصَمَتَ.

فانصَرَفتُ حتى جَلَستُ مع الرهطِ الذينَ عندَ المِنبَرِ، ثم غَلَبَني ما أجِدُ، فجِئتُ فقُلتُ للغُلامِ: استَأذِن لعمرَ.

فَدَخَلَ، ثم رَجَعَ فقال: قَد ذَكَرتُكَ لَهُ فصَمَتَ، فرَجَعتُ، فجَلَستُ مع الرهطِ الذينَ عندَ المِنبَرِ، ثم غَلَبَني ما أجِدُ، فجِئتُ الغُلامَ، فقُلتُ: استَأذِن لعمرَ، فدَخَلَ، ثم رَجَعَ إليَّ فقال: قَد ذَكَرتُكَ له فصَمَتَ، فلَمَّا ولَّيتُ مُنصَرِفًا، إذا الغُلامُ يَدعوني، فقال: قَد أذِنَ لَكَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...»[١].

ولَعَلَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَد صَمَتَ؛ لأَنَّهُ ظَنَّ أنَّ عمرَ سَيُكَلِّمُهُ في شَأنِ حَفصَةَ ابنَتِهِ، وهو لا يُريدُ الكلامَ في هذا الشَّأنِ؛ لشِدَّةِ مَوجِدَتِهِ على زَوجاتِهِ.

وهذا ما لاحَظَهُ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من سُكوتِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ففي رِوايَةٍ لمُسلِمٍ:

«... فنادَيتُ: يا رَباحُ، استَأذِن لي عندَكَ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنَظَرَ رَباحٌ إلى الغُرفَةِ، ثم نَظَرَ إليَّ، فلَم يَقُل شَيئًا، ثم قُلتُ: يا رَباحُ، استَأذِن لي عندَكَ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنَظَرَ رَباحٌ إلى الغُرفَةِ، ثم نَظَرَ إليَّ، فلَم يَقُل شَيئًا، ثم رَفَعتُ صَوتي، فقُلتُ: يا رَباحُ، استَأذِن لي عندَكَ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنِّي أظُنُّ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظَنَّ أنِّي جِئتُ من أجلِ حَفصَةَ، واللهِ لَئِن أمَرَني رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بضَربِ عُنُقِها لأَضرِبَنَّ عُنُقَها، ورَفَعتُ صَوتي، فأومَأ إليَّ أنِ ارقَه، فدَخَلتُ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...».

---

(١) رواه البخاري (٥١٩١)، ومسلم (١٤٧٩).

*** ومِنَ المواقِفِ التي سَكَتَ فيها النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا كَرِهَ شَيئًا: سُكوتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَ كَرِهَ الزَّواجَ مِنَ المرأةِ التي وهَبَت نَفسَها لهُ:**

فعن سَهلِ بنِ سَعدٍ السَّاعِديِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: إنِّي لَفي القَومِ عندَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقامَتِ امرَأةٌ فقالت: يا رسولَ اللهِ، إنَّها قَد وهَبَت نَفسَها لَكَ، فرَأْ فيها رَأيَكَ، فسَكَتَ، فلَم يُجِبها النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشيءٍ، ثم قامَت، فقالت: يا رسولَ اللهِ، إنَّها قَد وهَبَت نَفسَها لَكَ، فرَأْ فيها رَأيَكَ، فقامَ رَجُلٌ، فقال: زَوِّجنيها يا رسولَ اللهِ، قال: «**هَل مَعَكَ شيءٌ؟**» قال: لا، قال: «**اذهَب فاطلُب، ولو خاتَمًا من حَديدٍ**»، فذَهَبَ فطَلَبَ، ثم جاءَ فقال: لم أجِد شَيئًا، ولا خاتَمًا من حَديدٍ، قال: «**هَل مَعَكَ مِنَ القُرآنِ شيءٌ؟**» قال: نعم، مَعي سورَةُ كَذا، وسورَةُ كَذا، قال: «**قَد أنكَحتُكَها على ما مَعَكَ مِنَ القُرآنِ**»[١].

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وَسُكوتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إمَّا حَياءً من مواجَهَتِها بالرَّدِّ، وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَديدَ الحَياءِ جِدًّا، كَما تَقَدَّمَ في صِفَتِهِ: أنَّهُ كان أشَدَّ حَياءً مِنَ العَذراءِ في خِدرِها، وإمَّا تَفَكُّرًا في جَوابٍ يُناسِبُ المقامَ»[٢].

وقال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «**وَفيه**: أنَّهُ يُستَحَبُّ لَمَن طُلِبَت منه حاجَةٌ لا يُمكِنُهُ قَضاؤُها، أن يَسكُتَ سُكوتًا، يَفهَمُ السَّائِلُ منه ذلك، ولا يُخجِلهُ بالمنعِ، إلا إذا لم يَحصُلِ الفهمُ إلا بصَريحِ المنعِ، فيُصَرِّحُ»[٣].

وقال ابنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللهُ: «**وَفيه**: جَوازُ سُكوتِ العالِمِ، ومَن سُئِلَ حاجَةً، إذا لم يُرِدِ الإسعافَ، ولا الإجابَةَ في المسألَةِ، وأنَّ ذلك ألْيَنُ في صَرفِ السَّائِلِ»[٤].

---

(١) رواه البخاري (٥١٤٩)، ومسلم (١٤٢٥)، والنسائي (٣٢٨٠)، واللفظ له، ولفظ البخاري: إنيِّ لفي القوم، عند رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ قامت امرأةٌ، فقالت: يا رسول الله، إنها قد وهبت نفسها لك، فر فيها رأيك، فلم يجبها شيئًا، ثمَّ قامت، فقالت: يا رسول الله، إنها قد وهبت نفسها لك، فر فيها رأيك، فلم يجبها شيئًا، ثمَّ قامت الثالثة، فقالت: إنها قد وهبت نفسها لك، فر فيها رأيك، فقام رجلٌ فقال: يا رسول الله أنكحنيها.

(٢) فتح الباري (٩/ ٢٠٦).

(٣) شرح صحيح مسلم (٩/ ٢١٢).

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطَّالٍ (٧/ ٢٢٧).

❊ **ومِن سُكوتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا كَرِهَ شَيئًا: سُكوتُهُ عن الطَّعامِ الذي لا يَشتَهيه:**

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «ما رَأيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عابَ طعامًا قَطُّ، كان إذا اشتَهاهُ أكَلَهُ، وإن لم يَشتَهِهِ سَكَتَ»(١).

«وهذا من آدابِ الطَّعامِ المُتأكَّدَةِ، وعَيبُ الطَّعامِ كَقولِهِ: مالحٌ، قَليلُ المِلحِ، حامِضٌ، رَقيقٌ، غَليظٌ، غَيرُ ناضِجٍ، ونَحوُ ذلك»(٢).

وقال ابنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا من حُسنِ الأدبِ على اللهِ تعالى؛ لأنَّهُ إذا عابَ المرءُ ما كَرِهَهُ مِنَ الطَّعامِ؛ فقد رَدَّ على اللهِ رِزقَهُ، وقد يَكرَهُ بعضُ الناسِ مِنَ الطَّعامِ، ما لا يَكرَهُهُ غَيرُهُ.

ونِعَمُ اللهِ تعالى لا تُعابُ، وإنما يَجِبُ الشُّكرُ عليها، والحَمدُ للهِ لأجلِها؛ لأنَّهُ لا يَجِبُ لنا عليه شيءٌ منها، بل هو مُتفضِّلٌ في إعطائِهِ، عادِلٌ في مَنعِهِ»(٣).

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذا من أحسَنِ آدابِ الأكلِ وأهَمِّها، وذلك: أنَّ الأطعِمَةَ كُلَّها نعم اللهِ تعالى، وعَيبُ شيءٍ من نعم اللهِ تعالى مُخالفٌ للشُّكرِ الذي أمَرَ اللهُ تعالى بهِ عليها، وعلى هَذا: فمَنِ استَطابَ طعامًا فليَأكُل، ويَشكُرِ اللهَ تعالى؛ إذ مَكَّنَهُ منه، وأوصَلَ مَنفَعَتَهُ إليه، وإن كَرِهَهُ فليَترُكهُ، ويَشكُرِ اللهَ تعالى إذ مَكَّنَهُ منه، وأعفاهُ عَنهُ، ثم قد يَستَطيبُهُ، أو يَحتاجُ إليه في وقتٍ آخَرَ فيأكُلُهُ، فتَتِمُّ عليه النِّعمَةُ، ويَسلَمُ مِمَّا يُناقِضُ الشُّكرَ»(٤).

❊ **ومِن ذلك -أيضًا-: سُكوتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا سَألَهُ سائِلٌ عَمَّا لا فائِدَةَ فيه، أو سَألَهُ سُؤالَ مُتعَنِّتٍ:**

وقد تَكَرَّرَ هذا كَثيرًا، فمِن ذلك: سُكوتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا سُئِلَ عن الحَجِّ، هَل هو واجِبٌ في كُلِّ عامٍ؟

---

(١) رواه البخاري (٣٥٦٣)، ومسلم (٢٠٦٤)، واللفظ له.
(٢) شرح النووي على مسلم (١٤/ ٢٦).
(٣) شرح صحيح البخاري (٩/ ٤٧٨)، وانظر: فتح الباري (٩/ ٥٤٨).
(٤) المفهم (١٧/ ٥٠).

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: خَطَبَنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**أيُّها الناسُ، قَد فَرَضَ اللهُ عليكمُ الحَجَّ، فحُجُّوا**».

فقال رَجُلٌ: أكُلَّ عامٍ يا رسولَ اللهِ؟

فَسَكَتَ، حتى قالها ثَلاثًا.

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَو قُلتُ نعم لَوَجَبَت، ولَمَا استَطَعتُم**»، ثم قال: «**ذَروني ما تَرَكتُكُم، فإنما هَلَكَ مَن كان قبلَكُم بكَثرَةِ سُؤالِهم، واختِلافِهم على أنبيائِهم، فإذا أمَرتُكُم بشيءٍ فأتوا منه ما استَطَعتُم، وإذا نَهَيتُكُم عن شيءٍ فدَعوهُ**»[١].

فَقولُهُ: «قَد فرَضَ اللهُ عليكمُ الحَجَّ»:

يَكفي في امتِثال هذا حَجَّةٌ واحِدَةٌ، فالسُّؤالُ: هَل هو كُلَّ عامٍ؟ تَكَلُّفٌ وتَعَمُّقٌ.

ومِثلُ هذا جَرَى لبَني إسرائيلَ، حينَ قال لهم نبيُّهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾، فلَوِ اعتَرَضوا بَقَرَةً فذَبَحوها، كانوا قَد عَمِلوا بمُقتَضَى الخِطابِ، ولكنهم شَدَّدوا، فشُدِّدَ عليهم[٢].

قال مُلَّا علي القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنما سَكَتَ؛ زَجرًا له عن السُّؤال الذي كان السُّكوتُ عنه أولى، ثم لَمَّا رَآهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَنزَجِرُ، ولا يَقنَعُ إلا بالجَوابِ الصَّريحِ، صَرَّحَ بِهِ»[٣].

* ومِن ذلك: سُكوتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ جَوابًا لِمَن سَألَهُ عن العَفوِ عن الخادِمِ:

فعن عبدِاللهِ بنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: جاءَ رَجُلٌ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، كَم أعفو عن الخادِمِ؟ فصَمَتَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال: يا رسولَ اللهِ، كَم أعفو عن الخادِمِ؟ فقال: «**كُلَّ يومٍ سَبعينَ مَرَّةً**»[٤].

---

(١) رواه مسلم (١٣٣٧)، والبخاري، مختصرا (٧٢٨٨).

(٢) كشف المشكل (٣/ ٥٠٩).

(٣) مرقاة المفاتيح (٥/ ١٧٤٠).

(٤) رواه الترمذي (١٩٤٩)، وصححه الألباني.

قولُهُ: «**فَصَمَتَ عنه النبيُّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»:

أي: سَكَتَ، ولم يُجِبهُ، ولَعَلَّ السُّكوتَ؛ لكَراهَةِ السُّؤال، فإنَّ العَفوَ مَندوبٌ إليه مُطلَقًا دائِمًا، لا حاجَةَ فيه إلى تَعيينِ عَدَدٍ مَخصوصٍ.

وقَولُهُ: «**كُلَّ يومٍ سَبعينَ مَرَّةً**»:

المُرادُ بِهِ: الكثرَةُ، دونَ التَّحديدِ[1].

❊ وقد سَكَتَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ غَضَبًا من سُؤالٍ وُجِّهَ إليه، عن كَيفيَّةِ صَومِهِ:

فعن أبي قَتادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أتَى رَجُلٌ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: كَيفَ تَصومُ؟ فغَضِبَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2]، فلماَّ رَأى عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غَضَبَهُ، قال: رَضينا باللهِ رَبًّا، وبِالإسلامِ دينًا، وبِمحمدٍ نَبيًّا، نَعوذُ باللهِ من غَضَبِ اللهِ، وغَضَبِ رسولِهِ، فجَعَلَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُرَدِّدُ هذا الكلامَ، حتى سَكَنَ غَضَبُهُ.

- فقال عمرُ: يا رسولَ اللهِ، كَيفَ بمَن يَصومُ الدَّهرَ كُلَّهُ؟
- قال: «**لا صامَ، ولا أفطَرَ**»[3].
- قال: كَيفَ مَن يَصومُ يومَينِ، ويُفطِرُ يومًا؟
- قال: «**وَيُطيقُ ذلك أحَدٌ؟**».
- قال: كَيفَ مَن يَصومُ يومًا، ويُفطِرُ يومًا؟
- قال: «**ذاكَ صَومُ داودَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ».
- قال: كَيفَ مَن يَصومُ يومًا، ويُفطِرُ يومَينِ؟

---

(١) تحفة الأحوذي (٦/ ٦٩).

(٢) وعند البيهقي (٨٤٧٦): «فسكت عنه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم يردَّ عليه شيئًا».

(٣) قيل: معناه: الدُّعاء، وقيل: معناه الإخبار، والمعنى: أنه لا صام فحصل أجر الصِّيام؛ لأن صيامه لم يكن بأمر الشَّرع، ولا أفطر حيث إنه لم يأكل ولم يشرب، كفعل المفطرين.

- قال: «**وَدِدتُ أنِّي طوِّقتُ ذلك**».

ثم قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثلاثٌ من كُلِّ شَهرٍ، ورَمَضانُ إلى رَمَضانَ، فهذا صيامُ الدَّهرِ كُلِّهِ، صيامُ يومِ عَرَفَةَ، أحتَسِبُ على اللهِ أن يُكَفِّرَ السَّنَةَ التي قبلَهُ، والسَّنَةَ التي بعدَهُ، وصيامُ يومِ عاشوراءَ، أحتَسِبُ على اللهِ أن يُكَفِّرَ السَّنَةَ التي قبلَهُ**»(١).

«سببُ غَضَبِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنَّهُ كَرِهَ مَسألَتَهُ؛ لأنَّهُ يَحتاجُ إلى أن يُجيبَهُ، ويَخشَى من جَوابِهِ مَفسَدَةً، وهيَ: أنَّهُ رُبَّما اعتَقَدَ السَّائِلُ وُجوبَهُ، أوِ استَقَلَّهُ، أوِ اقتَصَرَ عليه، وكان يَقتَضي حالُهُ أكثَرَ منه.

وكان حَقُّ السَّائِلِ أن يقولَ: كَم أصومُ؟ أو كَيفَ أصومُ؟ فيَخُصُّ السُّؤالَ بنَفسِهِ؛ ليُجيبَهُ بما تَقتَضيهِ حالُهُ، كَما أجابَ غَيرَهُ بمُقتَضَى أحوالِهِم»(٢).

*** ورُبَّما سَكَتَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كَراهيَةً للسُّؤالِ عَمَّا لم يَقَع:**

فعن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ، قال: سُئِلتُ عن المُتَلاعِنَينِ في إمرَةِ مُصعَبٍ: أيُفَرَّقُ بينهما؟

- قال: فما دَرَيتُ ما أقولُ، فمَضَيتُ إلى مَنزِلِ ابنِ عمرَ بمَكَّةَ، فقُلتُ للغُلامِ: استَأذِن لي، قال: إنَّهُ قائِلٌ(٣) فسَمِعَ صَوتي.

- قال: ابنُ جُبَيرٍ؟

- قُلتُ: نعم.

- قال: ادخُل؛ فواللهِ ما جاءَ بكَ هَذِهِ السَّاعَةَ إلا حاجَةٌ.

- فَدَخَلتُ فإذا هو مُفتَرِشٌ بَرذَعَةً(٤)، مُتَوَسِّدٌ وِسادَةً حَشوُها ليفٌ.

- قُلتُ: أبا عبدِالرحمنِ، المُتَلاعِنانِ أيُفَرَّقُ بينهما؟

---

(١) رواه مسلم (١١٦٢).
(٢) شرح النووي على مسلم (٨/ ٥٠).
(٣) من القيلولة، وهي النَّوم نصف النَّهار.
(٤) ما يوضع على الحمار أو البغل، بمنزلة السَّرج.

- قال: سُبحانَ اللهِ! نعم، إنَّ أوَّلَ مَن سَألَ عن ذلك فُلانُ بنُ فُلانٍ، قال: يا رسولَ اللهِ، أرَأيتَ أن لَو وجَدَ أحَدُنا امرَأتَهُ على فاحِشَةٍ، كَيفَ يَصنَعُ؟ إن تَكَلَّمَ تَكَلَّمَ بأمرٍ عَظيمٍ، وإن سَكَتَ سَكَتَ على مِثلِ ذلك؟

- قال: فسَكَتَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلَم يُجِبهُ.

فلَمَّا كان بعدَ ذلك أتاهُ، فقال: إنَّ الذي سَألتُكَ عنه قَدِ ابتُليتُ بِه، فأنزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ هَؤُلاءِ الآياتِ في سورَةِ النُّورِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [النور: ٦]»[١].

«وإنما سَكَتَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلَم يُجِبهُ؛ كَراهَةً لسُؤالٍ قبلَ أوانِهِ؛ ولأنَّهُ مِن تَعَجُّلِ الشَّرِّ، والاستفتاحِ بهِ، بالإضافَةِ إلى أنَّ الرسولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يَنزِل عليه في ذلك شيءٌ»[٢].

قال ابنُ رجبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَمَّا سُئِلَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن اللِّعانِ، كَرِهَ المسائِلَ وعابَها، حتى ابتُلِيَ السَّائِلُ عنه قبلَ وُقوعِهِ بذلك في أهلِهِ»[٣].

* وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربَّما سكتَ؛ حتى يَتهيَّأ الحالُ، لبَيانِ الحُكمِ:

فعن سَهلِ بنِ سَعدٍ السَّاعِديِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّهُ قال: مَرَّ رَجُلٌ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال لرَجُلٍ عندَهُ جالسٍ: «**ما رَأيُكَ في هَذا؟**»، فقال: رَجُلٌ من أشرافِ الناسِ، هذا -واللهِ- حَريٌّ إن خَطَبَ أن يُنكَحَ، وإن شَفَعَ أن يُشَفَّعَ، فسَكَتَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ، فقال له رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما رَأيُكَ في هَذا؟**»، فقال: يا رسولَ اللهِ، هذا رَجُلٌ من فُقَراءِ المسلمينَ، هذا حَريٌّ إن خَطَبَ أن لا يُنكَحَ، وإن شَفَعَ أن لا يُشَفَّعَ، وإن قال أن لا يُسمَعَ لقولِهِ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَذا خَيرٌ من مِلءِ الأرضِ مِثلَ هَذا**»[٤].

(١) رواه مسلم (١٤٩٣).
(٢) تيسير العلاَّم (٢/ ٧٧).
(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٥٤).
(٤) رواه البخاري (٦٤٤٧).

*** ورُبَّما سَكَتَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تَحقيرًا لشَأنِ أعدائِه، واستِهانَةً بِهِم، وإعراضًا عَنهم:**

وكما قال بعضُ الحُكَماءِ: «السُّكوتُ عن السَّفيه جَوابٌ، والإعراضُ عنه عِقابٌ».

وقال الشَّاعرُ:

إذا نَطَقَ السَّفيهُ فلا تُجِبهُ ... فخَيرٌ من إجابَتِهِ السُّكوتُ
فإن جاوَبتَهُ فَرَّجتَ عنه ... وإن خَلَّيتَهُ كَمَدًا يَموتُ[1]

وبَعدَ مَعرَكَةِ أُحُدٍ، أشرَفَ أبو سُفيانَ، فقال: أفي القَومِ محمدٌ؟

- فقال: «**لا تُجيبوهُ**».
- فقال: أفي القَومِ ابنُ أبي قُحافَةَ؟
- قال: «**لا تُجيبوهُ**».
- فقال: أفي القَومِ ابنُ الخَطَّابِ؟
- فقال: إنَّ هَؤُلاءِ قُتِلوا، فلَو كانوا أحياءً لأَجابوا.

فَلَم يَملِك عمرُ نَفسَهُ، فقال: كَذَبتَ يا عَدوَّ اللهِ، أبقَى اللهُ عليكَ ما يُخزيكَ.

- قال أبو سُفيانَ: اعلُ هُبَلُ.
- فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أجيبوهُ**».
- قالوا: ما نقولُ؟
- قال: «**قولوا: اللهُ أعلى وأجَلُّ**».
- قال أبو سُفيانَ: لَنا العُزَّى ولا عُزَّى لَكُم.
- فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أجيبوهُ**».
- قالوا: ما نقولُ؟
- قال: «**قولوا: اللهُ مَولانا ولا مَولى لَكُم**».

---

(١) غرر الخصائص الواضحة (ص: ١٣٧).

- قال أبو سُفيانَ: يومٌ بيومِ بَدرٍ، والحَربُ سِجالٌ، وتجِدونَ مُثلَةً، لم آمُر بها ولم تَسُؤني[1].

فَأمَرَهم بالردِّ حينَ تَعلَّقَ الأمرُ بالعَقيدَةِ، أمَّا حينَ يَتعَلَّقُ الأمرُ بالأشخاصِ: فليس مِمَّا يَدخُلُ في أولَويَّاتِ العُقلاءِ الانشِغالُ بالردِّ على السُّفهاءِ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأمَرَهم بجَوابِهِ، عندَ افتِخارِهِ بآلِهَتِهِ، وبِشِركِهِ؛ تَعظيمًا للتَّوحيدِ، وإعلامًا بعِزَّةِ مَن عَبَدَهُ المسلمونَ، وقوَّةِ جانِبِهِ، وأنَّهُ لا يُغلَبُ، ونَحنُ حِزبُهُ، وجُندُهُ.

ولَم يَأمُرهم بإجابَتِهِ، حينَ قال: أفيكُم محمدٌ؟ أفيكُمُ ابنُ أبي قُحافَةَ؟ أفيكُم عمرُ؟ بل قَد رويَ أنَّهُ نَهاهم عن إجابَتِهِ، وقال: «**لا تُجيبوهُ**»، ... فإنَّ في تَركِ إجابَتِهِ حينَ سَألَ عَنهم؛ إهانَةً لَهُ، وتَصغيرًا لشَأنِهِ، فلمَّا مَنَّتهُ نَفسُهُ مَوتَهم، وظَنَّ أنَّهم قَد قُتِلوا، وحَصَلَ له بذلك مِنَ الكِبرِ، والأشَرِ، ما حَصَلَ، كان في جَوابِهِ: إهانَةٌ لَهُ، وتَحقيرٌ، وإذلالٌ، ولم يَكُن هذا مُخالفًا، لقولِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تُجيبوهُ**»، فإنَّهُ إنما نَهى عن إجابَتِهِ حينَ سَألَ: أفيكُم محمدٌ؟ أفيكُم فُلانٌ؟ أفيكُم فُلانٌ؟ ولم يَنهَ عن إجابَتِهِ، حينَ قال: أمَّا هَؤُلاءِ: فقَد قُتِلوا.

وبِكُلِّ حالٍ: فلا أحسَنَ من تَركِ إجابَتِهِ أوَّلًا، ولا أحسَنَ من إجابَتِهِ ثانيًا»[2].

وقال ابنُ بطَّالٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَنَهيُ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن جَوابِ أبي سُفيانَ؛ تَصاوُنٌ عن الخَوضِ فيما لا فائِدَةَ فيه»[3].

* وكَذلك كان يَسكُتُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ انتِظارًا للوَحيِ:

فكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا سُئِلَ عَمَّا لا يَعلَمُ سَكَتَ، ولم يَرُدَّ، حتى يَأتيَهِ الوَحيُ، ومِن ذلك:

- **سُكوتُهُ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لَمَّا سُئِلَ عن الرُّوحِ:**

فعن عبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: بَينا أنا أمشي مع النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خِرَبِ المدينَةِ[4]،

---

(١) رواه البخاري (٤٠٤٣).

(٢) زاد المعاد (٣/ ١٨١).

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطَّالٍ (٥/ ١٩٦).

(٤) جمع خربةٍ، والخرب: ضدُّ العامر.

وهو يَتَوَكَّأُ على عَسيبٍ[(١)] مَعَهُ، فمَرَّ بنَفَرٍ مِنَ اليَهودِ، فقال بعضُهم لبعضٍ: سَلوهُ عن الرُّوحِ، وقال بعضُهم: لا تَسألوهُ؛ لا يَجيءُ فيه بشيءٍ تكرَهونَهُ، فقال بعضُهم: لَنسألَنَّهُ، فقامَ رَجُلٌ منهم، فقال: يا أبا القاسِمِ، ما الرُّوحُ؟ فسَكَتَ، فقُلتُ: إنَّهُ يوحَى إليه، فقُمتُ[(٢)]، فلمّا انجَلى عَنهُ[(٣)]، قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥][(٤)].

وهذا الجَوابُ «مُتَضَمِّنٌ لِرَدعِ مَن يَسأَلُ المسائِلَ، التي لا يُقصَدُ بها إلا التَّعَنُّتُ، والتَّعجيزُ، ويَدَعُ السُّؤالَ عن المُهِمِّ، فيَسألونَ عن الرُّوحِ، التي هيَ مِنَ الأُمورِ الخَفيَّةِ، التي لا يُتقِنُ وصفها وكَيفيَّتَها كُلُّ أحَدٍ، وهم قاصِرونَ في العِلمِ الذي يَحتاجُ إليه العِبادُ.

ولهذا: أمَرَ اللهُ رسولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُجيبَ سُؤالَهم، بقولِهِ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾، أي: من جُملَةِ مَخلوقاتِهِ، التي أمَرَها أن تكونَ فكانت، فليس في السُّؤال عَنها كَبيرُ فائِدَةٍ، مع عَدَمِ عِلمِكُم بغَيرِها.

وفي هَذِهِ الآيَةِ: دَليلٌ على أنَّ المسؤولَ إذا سُئِلَ عن أمرٍ، الأولى بالسَّائِلِ غَيرُه، أن يُعرِضَ عن جَوابِهِ، ويَدُلَّهُ على ما يَحتاجُ إليه، ويُرشِدَهُ إلى ما يَنفَعُهُ»[(٥)].

- **سُكوتُهُ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **عندَما سُئِلَ: هَل يَأتي الخَيرُ بالشَّرِّ؟**

فعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَلَسَ ذاتَ يومٍ على المِنبَرِ، وجَلَسنا حَولَهُ، فقال: «**إنَّ مِمَّا أخافُ عليكم من بعدي: ما يُفتَحُ عليكم من زَهرَةِ الدُّنيا، وزينَتِها**»[(٦)].

– فقال رَجُلٌ: يا رسولَ اللهِ، أو يَأتي الخَيرُ بالشَّرِّ؟[(٧)].

فَسَكَتَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) عصًا من جريد النَّخل.

(٢) أي: حتى لا أكون مشوِّشًا عليه، أو فقمت قائماً، حائلاً بينه وبينهم.

(٣) أي: الكرب الذي كان يغشاه حال الوحي.

(٤) رواه البخاري (١٢٥)، ومسلم (٢٧٩٤).

(٥) تفسير السعدي (ص٤٦٦).

(٦) فيه: التَّحذير من الاغترار بالدُّنيا، والنَّظر إليها، والمفاخرة بها.

(٧) أي: المال خيرٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، فكيف يترتَّب عليه الشرَّ، حتى يخاف منه؟

- فَقيل لَهُ: ما شَأنُكَ؟ تُكَلِّمُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يُكَلِّمُكَ؟

فَرَأينا أنَّهُ يُنزلُ عليه، وسَكَتَ الناسُ كأنَّ على رُؤوسِهِمُ الطَّيرَ فأفاقَ، يَمسَحُ عنه الرُّحَضاءَ[١].

- فقال: «**أينَ السَّائِلُ؟**»، وكَأنَّهُ حَمِدَهُ.

- ثم قال: «**كَيفَ قُلتَ؟**».

- قال: قُلتُ يا رسولَ اللهِ، أيَأتي الخَيرُ بالشَّرِّ؟

- فقال له رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّهُ لا يَأتي الخَيرُ بالشَّرِّ، وإنَّ مِمَّا يُنبِتُ الربيعُ، ما يَقتُلُ -حَبَطًا- أو يُلِمُّ، إلا آكِلَةَ الخَضراءِ، أكَلَتْ حتى إذا امتَدَّت خاصِرَتاها، استَقبَلَت عَينَ الشَّمسِ، فثَلَطَت**[٢]**، وبالَت، ورَتَعَت، وإنَّ هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلوَةٌ، فنِعمَ صاحِبُ المسلمِ، ما أعطَى منه المِسكينَ، واليَتيمَ، وابنَ السَّبيلِ، وإنَّهُ مَن يَأخُذُهُ بغَيرِ حَقِّهِ، كالذي يَأكُلُ ولا يَشبَعُ، ويكونُ شَهيدًا عليه يومَ القيامَةِ**»[٣].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وَمَعناهُ:** أنَّ نَباتَ الربيعِ وخَضِرَهُ، يَقتُلُ حَبَطًا بالتُّخَمَةِ؛ لكَثرَةِ الأكلِ، أو يُقارِبُ القَتلَ، إلا إذا اقتُصِرَ منه على اليَسيرِ، الذي تَدعو إليه الحاجَةُ، وتَحصُلُ بهِ الكِفايَةُ المُقتَصَدَةُ، فإنَّهُ لا يَضُرُّ، وهَكَذا المالُ: هو كَنَباتِ الربيعِ، مُستَحسَنٌ تَطلُبُهُ النُّفوسُ، وتَميلُ إليه، فمنهم مَن يَستَكثِرُ منه، ويَستَغرِقُ فيه، غَيرَ صارِفٍ له في وُجوهِهِ، فهذا يُهلِكُهُ، أو يُقارِبُ إهلاكَهُ، ومنهم مَن يَقتَصِدُ فيه فلا يَأخُذُ إلا يَسيرًا، وإن أخَذَ كَثيرًا فرَّقَهُ في وُجوهِهِ، كَما تَثلِطُهُ الدَّابَّةُ، فهذا لا يَضُرُّهُ، هذا مُختَصَرُ معنى الحديثِ.

وقال القاضي عياضٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ضَرَبَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم مَثَلًا بحالَتي المُقتَصِدِ، والمُكثِرِ، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنتم تقولونَ: إنَّ نَباتَ الربيعِ خَيرٌ، وبِهِ قِوامُ الحَيَوانِ، وليس هو كَذلك مُطلَقًا، بل منه ما يَقتُلُ، أو يُقارِبُ القَتلَ، فحالَةُ المبطونِ المتخومِ كَحالَةِ مَن يَجمَعُ المالَ، ولا يَصرِفُهُ في وُجوهِهِ، فأشارَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أنَّ الاعتِدالَ والتَّوسُّطَ في الجَمعِ أحسَنُ.

---

(١) العرق الكثير.

(٢) أي: ألقت ما في بطنها رقيقًا.

(٣) رواه البخاري (١٤٦٥)، (٢٨٤٢)، ومسلم (١٠٥٢).

ثم ضَرَبَ مَثَلًا لِمَن يَنفَعُهُ إكثارُهُ، وهو التَّشبيهُ بآكِلَةِ الخَضِرِ، وهذا التَّشبيهُ لِمَن صَرَفهُ في وُجوهِهِ الشَّرعيَّةِ، ووَجهُ الشَّبَهِ: أنَّ هَذِهِ الدَّابَّةَ تأكُلُ مِنَ الخَضِرِ، حتى تَمتَلِئَ خاصِرَتُها، ثم تَثلِطُ، وهَكَذا مَن يَجمَعُهُ، ثم يَصرِفُهُ، واللهُ أعلَمُ»[١].

والحاصِلُ: أنَّ ما يُنبِتُهُ الربيعُ خَيرٌ، لكن مع ذلك يَضُرُّ إذا لم يُستَعمل على وجهِهِ، وإذا استُعملَ على وجهِهِ لا يَضُرُّ، فكَذا المالُ[٢].

وفي الحديثِ: أنَّ للعالِمِ إذا سُئِلَ أن يَمطلَ بالجَوابِ حتى يَتيَقَّنَ، أو يَستَطلِعَ المسألَةَ عندَ مَن فوقَهُ مِنَ العُلَماءِ، كَما فعَلَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سُكوتِهِ عَنهُ، حتى استَطلَعَها من قِبَلِ الوَحيِ[٣].

وفيه: أنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يَنتَظِرُ الوَحيَ عندَ إرادَةِ الجَوابِ عَمَّا يُسأَلُ عَنهُ، وهذا على ما ظَنَّهُ الصَّحابَةُ، ويَجوزُ أن يكونَ سُكوتُهُ؛ ليَأتيَ بالعِبارَةِ الوَجيزَةِ الجامِعَةِ المُفهِمَةِ[٤].

• **وكَذلك سَكَتَ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ **انتِظارًا للوَحيِ، عندَما سَأَلَهُ رَجُلٌ عن التِّجارَةِ في الحَجِّ**:

فعن أبي أُمامَةَ التيميِّ، قال: كنتُ رَجُلًا أكري في هذا الوَجهِ[٥]، وكان ناسٌ يقولونَ لي: إنَّهُ ليس لَكَ حَجٌّ[٦]، فلَقيتُ ابنَ عمرَ، فقُلتُ: يا أبا عبدِالرحمَنِ، إنِّي رَجُلٌ أكري في هذا الوَجهِ، وإنَّ ناسًا يقولونَ لي: إنَّهُ ليس لَكَ حَجٌّ؟

فقال ابنُ عمرَ: أليس تُحرِمُ، وتُلَبِّي، وتَطوفُ بالبَيتِ، وتُفيضُ من عَرَفاتٍ، وتَرمي الجِمارَ؟ قُلتُ: بَلى، قال: فإنَّ لَكَ حَجًّا، جاءَ رَجُلٌ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسَأَلَهُ عن مِثلِ ما سَألتَني عَنهُ، فسَكَتَ عنه رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلَم يُجِبهُ، حتى نَزَلَت هَذِهِ الآيَةُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، فأرسَلَ إليه رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقَرَأَ عليه هَذِهِ الآيَةَ، وقال: «**لَكَ حَجٌّ**»[٧].

---

(١) شرح صحيح مسلم (٧/ ١٤٣).
(٢) حاشية السِّنديِّ على سنن ابن ماجه (٢/ ٤٨١).
(٣) شرح ابن بطَّالٍ (٣/ ٤٩٠).
(٤) فتح الباري (١١/ ٢٤٨).
(٥) الكراء: التَّأجير، والمراد هنا: سفر الحجِّ.
(٦) أي: لا يصحُّ حجُّك مع الكراء.
(٧) رواه أبو داوود (١٧٣٣)، وصححه الألباني.

• **وسَكَتَ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **لَمَّا سُئِلَ عن كَفَّارَةِ بعضِ الذُّنوبِ:**

فعن عبدِاللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جاءَ رَجُلٌ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: إنِّي عالَجتُ امرَأةً من أقصَى المدينَةِ، وإنِّي أصَبتُ منها ما دونَ أن أمَسَّها(١)، فأنا هَذا، فاقضِ فيَّ ما شِئتَ.

فقال عمرُ: قَد سَتَرَ اللهُ عليكَ، لَو سَتَرتَ على نَفسِكَ(٢).

فَلَم يَرُدَّ عليه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيئًا، فانطَلَقَ الرجُلُ، فأتبعَهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا، فدَعاهُ فتَلا عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

فقال رَجُلٌ مِنَ القَومِ: يا رسولَ اللهِ، ألَهُ خاصَّةً، أم للنَّاسِ كافَّةً؟ فقال: «**بل للنَّاسِ كافَّةً**»(٣).

قال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فَلَم يَرُدَّ عليه**»: أي: على الرجُلِ، أو على عمرَ.

«**شَيئًا**»: مِنَ الكلامِ؛ انتِظارًا لقَضاءِ اللهِ فيه، رَجاءَ أن يُخَفِّفَ من عُقوبَتِهِ»(٤).

• **ومِن سُكوتِهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ **انتِظارًا للوَحيِ: سُكوتُهُ عن تَقسيمِ الميراثِ:**

فعن جابِرِ بنِ عبدِاللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: جاءَت امرَأةُ سَعدِ بنِ الربيعِ بابنَتَي سَعدٍ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: يا رسولَ اللهِ، هاتانِ ابنَتا سَعدٍ، قُتِلَ مَعَكَ يومَ أُحُدٍ، وإنَّ عَمَّهما أخَذَ جَميعَ ما تَرَكَ أبوهما، وإنَّ المرأةَ لا تُنكَحُ إلا على مالها.

فَسَكَتَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى أُنزِلَت آيةُ الميراثِ، فدَعا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخا سَعدِ بنِ الربيعِ، فقال: «**أعطِ ابنَتَي سَعدٍ ثُلُثَي مالِهِ، وأعطِ امرَأتَهُ الثُّمُنَ، وخُذ أنتَ ما بَقيَ**»(٥).

فالنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَكَتَ عن إجابَةِ تِلكَ المرأةِ، حتى نَزلت آيةُ الميراثِ، فقَضَى فيما سَألَتهُ عنه بحُكمِ اللهِ.

---

(١) ومعناه: استمتعت بها بالقبلة، والمعانقة، وغيرهما من جميع أنواع الاستمتاع، إلا الجماع.

(٢) أي: لكان حسنًا.

(٣) رواه البخاري (٥٢٦)، ومسلم (٢٧٦٣).

(٤) مرقاة المفاتيح (٢/ ٥١٣).

(٥) رواه ابن ماجه (٢٧٢٠)، وحسنه الألباني.

وفي هذا وأمثالِهِ: تَوجيهٌ حَكيمٌ لكُلِّ مَن سُئِلَ عن شيءٍ لا يَعلمُ حُكمَهُ، أن يَسكُتَ عن الجَوابِ حتى يَعلَمَ.

- **وسَكَتَ ﷺ؛ انتِظارًا للوَحيِ، عندَما ذَكَرَ له رَجُلٌ حُبَّهُ إيَّاهُ، وخَشيتَهُ -إن دَخَلَ الجَنَّةَ- أن لا يَراهُ:**

فعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: جاءَ رَجُلٌ إلى النبيِّ ﷺ، فقال: يا رسولَ اللهِ، واللهِ إنَّكَ لأَحَبُّ إليَّ من نَفسي، وإنَّكَ لأَحَبُّ إليَّ من أهلي، ومالي، وأَحَبُّ إليَّ من ولَدي، وإنِّي لأكونُ في البَيتِ فأذكُرُكَ، فما أصبِرُ حتى آتيكَ، فأنظُرَ إليكَ، وإذا ذَكَرتُ مَوتي ومَوتَكَ، عَرَفتُ أنَّكَ إذا دَخَلتَ الجَنَّةَ رُفِعتَ مع النبيِّينَ، وإنِّي إذا دَخَلتُ الجَنَّةَ خَشيتُ أن لا أراكَ.

فَلَم يَرُدَّ عليه النبيُّ ﷺ شَيئًا، حتى نَزَلَ جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الآيةِ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩][(١)].

- **وسَكَتَ ﷺ، عندَما سَألَهُ بَشيرُ بنُ سِعدٍ: كَيفَ نُصَلِّي عليكَ:**

فعن أبي مَسعودٍ الأنصاريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أتانا رسولُ اللهِ ﷺ ونَحنُ في مَجلِسِ سَعدِ بنِ عُبادَةَ، فقال له بَشيرُ بنُ سَعدٍ: أمَرَنا اللهُ تعالى أنَّ نُصَلِّيَ عليكَ يا رسولَ اللهِ، فكَيفَ نُصَلِّي عليكَ؟

قال: فسَكَتَ رسولُ اللهِ ﷺ، حتى تَمَنَّينا أنَّهُ لم يَسألهُ، ثم قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**قولوا: اللهمَّ صَلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ، كما صَلَّيتَ على آلِ إبراهيمَ، وبارِك على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ، كما بارَكتَ على آلِ إبراهيمَ، في العالَمينَ، إنَّكَ حَميدٌ مَجيدٌ، والسَّلامُ كما قَد عَلِمتُم**»[(٢)]

وسُكوتُ النبيِّ ﷺ: يَحتَمِلُ أن يكونَ لأنَّهُ لم يَكُن عندَهُ في ذلك نَصٌّ، فأوحيَ

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٤٧٧)، والصغير (٥٢)، وقال الهيثميُّ في المجمع (٧/ ٧): «ورجاله رجال الصحيح، غير عبدالله بن عمران العابديِّ، وهو ثقةٌ»، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٩٣٣).

(٢) رواه مسلم (٤٠٥).

إليه بذلك عندَ السُّؤال، فكان سُكوتُهُ لأجلِ الوَحيِ إليه، ويَحتَمِلُ أن يكونَ ذلك مَصروفًا إليه، فسَكَتَ -مُختارًا-، وإنما تمَنَّوا أنَّهُ لم يكُن سَألَهُ؛ لَمَّا خافوا أن يكونَ سُكوتُهُ لأنَّهُ لم يَرضَ السُّؤالَ(١).

- **وسَكَتَ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **عندَما سُئِلَ عن أفضَلِ الجِهادِ:**

فعن أبي أُمامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: عَرَضَ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ عندَ الجَمرَةِ الأولى، فقال: يا رسولَ اللهِ، أيُّ الجِهادِ أفضَلُ؟ فسَكَتَ عَنهُ، فلمّا رَمَى الجَمرَةَ الثانيَةَ سَألَهُ، فسَكَتَ عَنهُ، فلمّا رَمَى جَمرَةَ العَقَبَةِ، وضَعَ رِجلَهُ في الغَرزِ ليَركَبَ.

- قال: «**أينَ السَّائِلُ؟**».

- قال: أنا يا رسولَ اللهِ.

- قال: «**كَلِمَةُ حَقٍّ عندَ ذي سُلطانٍ جائِرٍ**»(٢).

قال الخَطَّابيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإنما صارَ ذلك أفضَلَ الجِهادِ؛ لأنَّ مَن جاهَدَ العَدوَّ، وكان مُتَرَدِّدًا بين الرجاءِ والخَوفِ، لا يَدري: هَل يَغلِبُ، أو يُغلَبُ، وصاحِب السُّلطانِ مَقهورٌ في يَدِهِ، فهو إذا قال الحَقَّ وأمَرَهُ بالمعروفِ، فقَد تَعَرَّضَ للتَّلَفِ، فصارَ ذلك أفضَلَ أنواعِ الجِهادِ؛ من أجلِ غَلَبَةِ الخَوفِ»(٣).

وقال المُظهِرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإنما كان أفضَلَ؛ لأنَّ ظُلمَ السُّلطانِ يَسري في جَميعِ مَن تحتَ سياسَتِهِ، وهو جَمٌّ غَفيرٌ، فإذا نَهاهُ عن الظُّلمِ، فقَد أوصَلَ النَّفعَ إلى خَلقٍ كَثيرٍ، بخِلافِ قَتلِ كافِرٍ»(٤).

---

(١) المنتقى شرح الموطأ (١/ ٢٩٦).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٠١٢)، وصححه الألباني، وروى النسائي (٤٢٠٩)، وأحمد (١٨٨٣٠)، عن طارق بن شهابٍ نحوه، وصححه محققو المسند.

(٣) معالم السنن (٤/ ٣٥٠).

(٤) مرقاة المفاتيح (٦/ ٢٤١٢).

* وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسكُتُ في بعضِ الأحيانِ إقرارًا:

- **كما في سُكوتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عن قَضاءِ نافِلَةِ الصُّبحِ بعدَ الصَّلاةِ:**

فعن قَيسِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: رَأى رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا يُصَلِّي بعدَ صَلاةِ الصُّبحِ رَكعَتَينِ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَلاةُ الصُّبحِ رَكعَتانِ**».

فقال الرجُلُ: إنِّي لم أكُن صَلَّيتُ الركعَتَينِ اللَّتَينِ قبلَهما، فصَلَّيتُهما الآنَ.

فَسَكَتَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١].

قال الخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فيه بَيانُ أنَّ لَمن فاتَتهُ الركعَتانِ قبلَ الفَريضَةِ، أن يُصَلِّيَهما بعدَها قبلَ طُلوعِ الشَّمسِ، وأنَّ النَّهيَ عن الصَّلاةِ بعدَ الصُّبحِ حتى تَطلُعَ الشَّمسُ، إنما هو فيما يَتطَوَّعُ بهِ الإنسانُ إنشاءً وابتِداءً، دونَ ما كان له تَعَلُّقٌ بسببٍ»[٢].

- **ومِن إقرارِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسُّكوتِ: إقرارُهُ مُعاذَ بنَ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على حُسنِ ظَنِّهِ بإخوانِهِ، ورَدِّهِ لغيبَتِهِم:**

فَفي قِصَّةِ كَعبِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، حينَ تَخلَّفَ عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال كَعبٌ: ولم يَذكُرني رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى بَلَغَ تَبوكَ، فقال -وَهوَ جالسٌ في القَومِ بتَبوكَ-: «**ما فعَلَ كَعبٌ؟**» فقال رَجُلٌ من بَني سَلِمَةَ: يا رسولَ اللهِ، حَبَسَهُ بُرداهُ، ونَظَرُهُ في عِطفِهِ، فقال مُعاذُ بنُ جَبَلٍ: بئسَ ما قُلتَ، واللهِ يا رسولَ اللهِ ما عَلِمنا عليه إلا خَيرًا، فسَكَتَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٣].

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «هَذا دَليلٌ لرَدِّ غيبَةِ المسلمِ الذي ليس بمُتَهَتِّكٍ في الباطِلِ، وهو من مُهِمَّاتِ الآدابِ، وحُقوقِ الإسلامِ»[٤].

---

(١) رواه الترمذي (٤٢٢)، وأبوداود (١٢٦٧) -واللفظ له-، وابن ماجه (١١٤٥)، وصححه الألباني.

(٢) معالم السنن (١/ ٢٧٥).

(٣) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

(٤) شرح النووي على مسلم (١٧/ ٨٩).

- **وربّما سَكتَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إقرارًا لرأيِ بعضِ أصحابِهِ:**

فعن أبي موسَى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: أتيتُ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومَعي نَفَرٌ من قَومي، فقال: «**أبشِروا، وبَشِّروا مَن وراءَكُم: أنَّهُ مَن شَهِدَ أن لا إلَهَ إلا اللهُ صادِقًا بها، دَخَلَ الجَنَّةَ**».

فَخرجنا من عندِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُبَشِّرُ الناسَ، فاستَقبَلَنا عمرُ بنُ الخَطَّابِ، فرَجَعَ بنا إلى رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال عمرُ: يا رسولَ اللهِ، إذًا يَتَّكِلُ الناسُ، قال: فسَكَتَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١).

وإنما سَكَتَ؛ إقرارًا لرأيِ عمرَ في كَونِهِم سَوفَ يَتَّكِلونَ، ومِمَّا يَدُلُّ على ذلك: ما جاءَ في حديثٍ آخَرَ: قال عمرُ: فلا تَفعَل؛ فإنِّي أخشَى أن يَتَّكِلَ الناسُ عليها، فخَلِّهِم يَعمَلونَ، قال رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَخَلِّهِم**»(٢).

قال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنَّ العَوامَّ إذا بُشِّروا يَترُكونَ العَمَلَ، بخِلافِ الخَواصِّ(٣)، فإنهَّم إذا بُشِّروا يَزيدونَ في العَمَلِ»(٤).

- **ومِن سُكوتِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -إقرارًا-: سُكوتُهُ لَمَّا سَمعَ إنشادَ الشِّعرِ في المسجِدِ:**

فعن جابِرِ بنِ سَمُرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: «جالَستُ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثَرَ من مِائَةِ مَرَّةٍ، فكان أصحابُهُ يَتَناشَدونَ الشِّعرَ، ويَتَذاكَرونَ أشياءَ من أمرِ الجاهِلِيَّةِ، وهو ساكِتٌ، فرُبَّما تَبَسَّمَ مَعَهم»(٥).

والحديثُ يَدُلُّ على جَوازِ إنشادِ الشِّعرِ في المسجِدِ(٦).

- **ومِن ذلك: إقرارُهُ سَعدًا على الوَصيَّةِ بثُلُثِ مالهِ:**

---

(١) رواه أحمد (١٩٥٩٧)، وصححه محققو المسند.

(٢) رواه مسلم (٣١).

(٣) يقصد: أهل العلم، والصلاح.

(٤) مرقاة المفاتيح (١/ ١١٤).

(٥) رواه الترمذي (٢٨٥٠)، وصححه، وصححه الألباني، وأصله في مسلم (٦٧٠).

(٦) نيل الأوطار (٢/ ١٦٩).

فعن مُصعَبِ بنِ سَعدٍ، عن أبيهِ، قال: مَرِضتُ فأرسَلتُ إلى النبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقُلتُ: دَعني أقسِم مالي حيث شِئتُ، فأبَى.

- قُلتُ: فالنِّصفُ، فأبَى.

- قُلتُ: فالثُّلُثُ.

فَسَكَتَ بعدَ الثُّلُثِ، فكان بعدُ الثُّلُثُ جائزًا[1].

*** وقد يَسكُتُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -أحيانًا-؛ تَعظيمًا لشَأنِ شيءٍ، أو جَذبًا لانتِباهِ مُستَمِعيهِ إليه:**

وهذا مِنَ اللَّفَتاتِ التَّربَويَّةِ المُؤَثِّرَةِ: يَسكُتُ هُنَيهَةً قبلَ الكلامِ الذي يُريدُ جَذبَ الانتِباهِ إلَيه، ثم يقولُه وقد اشتاقَتِ الآذانُ إلى سماعِهِ.

- **كما فعَلَ في حَجَّةِ الوَداعِ، لمَّا أرادَ أن يُبَيِّنَ لهم حُرمَةَ الدِّماءِ والأموال:**

فعن أبي بكرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**إنَّ الزَّمانَ قَدِ استَدارَ كَهَيئَتِهِ يومَ خَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ، السَّنَةُ اثنا عَشَرَ شَهرًا، منها أربَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلاثَةٌ مُتَوالياتٌ: ذو القَعدَةِ، وذو الحِجَّةِ، والمُحَرَّمُ، ورَجَبُ مُضَرَ، الذي بين جُمادَى وشَعبانَ، أيُّ شَهرٍ هَذا؟**».

قُلنا: اللهُ ورسولُهُ أعلَمُ.

فَسَكَتَ، حتى ظَنَنَّا أنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بغَيرِ اسمِهِ.

- قال: «**أليس ذو الحِجَّةِ؟**».

- قُلنا: بَلَى.

قال: «**فَأيُّ بَلَدٍ هَذا؟**».

- قُلنا: اللهُ ورسولُهُ أعلَمُ.

فَسَكَتَ، حتى ظَنَنَّا أنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بغَيرِ اسمِهِ.

---

(١) رواه مسلم (١٦٢٨).

- قال: «**أليس البلدَةُ الحَرامُ؟**».

- قُلنا: بَلى.

- قال: «**فَأيُّ يومٍ هَذا؟**».

- قُلنا: اللهُ ورسولُهُ أعلَمُ.

فَسَكَتَ، حتى ظَنَنَّا أنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بغَيرِ اسمِهِ.

- قال: «**أليس يوم النَّحرِ؟**».

- قُلنا: بَلى.

- قال: «**فإنَّ دِماءَكُم وأموالَكُم وأعراضَكُم عليكم حَرامٌ، كَحُرمَةِ يومِكُم هَذا، في بَلَدِكُم هَذا، في شَهرِكُم هَذا**»(١).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «سُؤالُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الثَّلاثَةِ، وسُكوتُهُ بعدَ كُلِّ سُؤالٍ منها؛ كان لاستِحضارِ فُهومِهِم، وليُقبِلوا عليه بكُلِّيَّتِهِم، وليَستَشعِروا عَظَمَةَ ما يُخبِرُهم عَنهُ، ولِذلك قال بعدَ هَذا: «**فإنَّ دِماءَكُم** ...» إلَخ؛ مُبالَغَةً في بَيانِ تَحريمِ هَذِهِ الأشياءِ»(٢).

وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذا السُّؤالُ، والسُّكوتُ، والتَّفسيرُ، أرادَ بهِ التَّفخيمَ، والتَّقريرَ، والتَّنبيهَ، على عِظَمِ مَرتَبَةِ هذا الشَّهرِ، والبَلَدِ، واليومِ»(٣).

- **ومِن سُكوتِهِ للتَّشويقِ:**

ما جاءَ عن عُقبَةَ بنِ عامرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: مَشَيتُ مع النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال لي: «**قُل يا عُقبَةُ**».

- فَقُلتُ: أيَّ شيءٍ أقولُ؟

---

(١) رواه البخاري (٤٤٠٦)، ومسلم (١٦٧٩).

(٢) فتح الباري (١/ ١٥٩).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ١٦٩).

فَسَكَتَ عَنِّي، ثم قال: «**يا عُقبَةُ قُل**».

- فَقُلتُ: أيَّ شيءٍ أقولُ؟

- قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] فقَرَأتُها حتى جِئتُ على آخِرِها.

- فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندَ ذلك: «**ما سَأَلَ سائِلٌ ولا استَعاذَ مُستَعيذٌ بمِثلِها**»(١).

وكَأنَّ سُكوتَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدَ قَولِهِ: «**قُل**»؛ لكَي يَشُدَّ انتِباهَ سامِعِهِ، لما سَيقولُهُ لَهُ، حتى يكونَ أوعَى لَهُ، وأحرَصَ على أخذِهِ.

*** ورُبَّما سَكَتَ عن الجَوابِ إرجاءً لهُ؛ حتى يَشهدَه السَّائِلُ عيانًا:**

فعن أبي موسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتاهُ سائِلٌ، فسألَهُ عن مَواقيتِ الصَّلاةِ، فلَم يَرُدَّ عليه شَيئًا.

وأمَرَ بلالًا فأقامَ الفَجرَ حينَ انشَقَّ الفَجرُ، والناسُ لا يَكادُ يَعرِفُ بعضُهم بعضًا، ثم أمَرَهُ فأقامَ الظُّهرَ حينَ زالَتِ الشَّمسُ، والقائِلُ يقولُ: قَدِ انتَصَفَ النَّهارُ، ثم أمَرَهُ فأقامَ العَصرَ، والشَّمسُ مُرتَفِعَةٌ، ثم أمَرَهُ فأقامَ المغرِبَ حينَ وقَعَتِ الشَّمسُ، ثم أمَرَهُ فأقامَ العِشاءَ حينَ غابَ الشَّفَقُ.

ثم أخَّرَ الفَجرَ مِنَ الغَدِ، حتى انصَرَفَ منها والقائِلُ يقولُ: قَد طَلَعَتِ الشَّمسُ، أو كادَت، ثم أخَّرَ الظُّهرَ، حتى كان قَريبًا من وقتِ العَصرِ بالأمسِ، ثم أخَّرَ العَصرَ، حتى انصَرَفَ منها والقائِلُ يقولُ: قَدِ احمَرَّتِ الشَّمسُ، ثم أخَّرَ المغرِبَ، حتى كان عندَ سُقوطِ الشَّفَقِ، ثم أخَّرَ العِشاءَ، حتى كان ثُلُثُ اللَّيلِ الأولِ.

ثم أصبَحَ، فدَعا السَّائِلَ، فقال: «**الوَقتُ بين هَذَينِ**»(٢).

---

(١) رواه أبوداود (١٤٦٣)، والدَّارميُّ (٣٤٨٣) -واللفظ له-، وصححه الألباني.

(٢) رواه مسلم (٦١٤).

* ورُبَّما سَكَتَ؛ اعتِمادًا على فهمِ السَّائِلِ المُرادَ من سُكوتِهِ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنِّي رَجُلٌ شابٌّ، وأنا أخافُ على نَفسي العَنَتَ(١)، ولا أجِدُ ما أتزَوَّجُ بِهِ النِّساءَ، [أفأختَصي؟]

فَسَكَتَ عَنِّي.

- ثم قُلتُ مِثلَ ذلك.

فَسَكَتَ عَنِّي.

- ثم قُلتُ مِثلَ ذلك.

فَسَكَتَ عَنِّي.

- ثم قُلتُ مِثلَ ذلك.

- فقال النبيُّ ﷺ: «**يا أبا هريرةَ، جَفَّ القَلَمُ بما أنتَ لاقٍ، فاخْتَصِ على ذلك أو ذَرْ**»(٢).

فاستأذنَ أبو هريرةَ رضي الله عنه مِنَ النبيِّ ﷺ في الاختِصاءِ، فسَكَتَ عَنهُ؛ لَعَلَّهُ يَفهَمُ من سُكوتِهِ عَدَمَ الإذنِ بذلك.

قال ابنُ حجرٍ رحمه الله: «**وَفيه**: جَوازُ تَكرارِ الشَّكوَى إلى ثَلاثٍ، والجَوابُ لِمَن لا يَقنَعُ بالسُّكوتِ، وجَوازُ السُّكوتِ عن الجَوابِ، لِمَن يُظَنُّ بِهِ أنَّهُ يَفهَمُ المُرادَ من مُجَرَّدِ السُّكوتِ»(٣).

وقولُهُ: «**جَفَّ القَلَمُ بما أنتَ لاقٍ**»:

قال الحافظُ: «أي: نَفَذَ المقدورُ بما كُتِبَ في اللَّوحِ المحفوظِ، فبَقِيَ القَلَمُ الذي كُتِبَ بِهِ جافًّا، لا مِدادَ فيه؛ لفَراغِ ما كُتِبَ بِهِ، قال عياضٌ: كِتابَةُ اللهِ، ولَوحُهُ، وقَلَمُهُ، من غَيبِ عِلمِهِ، الذي نُؤمِنُ بِهِ، ونَكِلُ عِلمَهُ إليه»(٤).

(١) هو الزِّنا هنا.
(٢) رواه البخاري (٥٠٧٦)، وما بين المعقوفتين زيادةٌ عند النسائي (٣٢١٥).
(٣) فتح الباري (٩/ ١٢٠).
(٤) فتح الباري (٩/ ١١٩).

«فاخْتَصِ على ذلك أو ذَرْ»:

ليس الأمرُ فيه لطَلَبِ الفِعلِ، بل هو للتَّهديدِ، وهو كَقولِهِ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

والمعنى: إن فعلَتَ، أو لم تَفعَل، فلا بُدَّ من نُفوذِ القَدَرِ، فجَميعُ الأُمورِ بتَقديرِ اللهِ في الأزَلِ، فالخِصاءُ وتَركُهُ سَواءٌ، فإنَّ الذي قُدِّرَ لا بُدَّ أن يَقَعَ.

وهذا ليس إذنًا في الخِصاءِ، بل فيه إشارَةٌ إلى النَّهيِ عن ذلك، كَأنَّهُ قال: إذا عَلِمتَ أنَّ كُلَّ شيءٍ بقَضاءِ اللهِ، فلا فائِدَةَ في الاختِصاءِ[١].

* ورُبَّما سَكَتَ؛ لانشِغالِهِ بأمرٍ ما:

عن عمرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كُنَّا مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعضِ أسفارِهِ، فكَلَّمتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسَكَتَ، ثم كَلَّمتُهُ فسَكَتَ، ثم كَلَّمتُهُ فسَكَتَ، فحَرَّكتُ راحِلَتي، فتَنَحَّيتُ[٢] وقُلتُ: ثَكِلَتكَ أُمُّكَ يا ابنَ الخَطَّابِ، نَزَرتَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٣] ثَلاثَ مَرَّاتٍ، كُلُّ ذلك لا يُكَلِّمُكَ، ما أخلَقَكَ[٤] بأن يَنزِلَ فيكَ قُرآنٌ!

قال: فما نَشِبتُ[٥] أن سمعتُ صارِخًا يَصرُخُ بي، قال: فجِئتُ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال يا ابنَ الخَطَّابِ: **«لَقَد أُنزِلَ عَلَيَّ هَذِهِ اللَّيلَةَ سورَةٌ، ما أُحِبُّ أنَّ لي منها ما طَلَعَت عليه الشَّمسُ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾** [الفتح: ١]»[٦].

قال ابنُ حَجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**يُستَفادُ منه**: أنَّهُ ليس لكُلِّ كَلامٍ جَوابٌ، بَلِ السُّكوتُ قَد يكونُ

---

(١) فتح الباري (٩/ ١٢٠).

(٢) أي: تبعَّدت.

(٣) ألححت عليه.

(٤) ما أجدرك.

(٥) ما لبثت.

(٦) رواه البخاري (٤١٧٧)، والترمذي (٣٢٦٢)، واللفظ له.

جَوابًا لبعضِ الكلامِ، وتَكريرُ عمرَ السُّؤالَ: إمَّا لكَونِهِ خَشيَ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يَسمَعهُ، أو لأنَّ الأمرَ الذي كان يَسألُ عَنهُ كان مُهِمًّا عندَهُ.

ولَعَلَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجابَهُ بعدَ ذلك، وإنما تَرَكَ إجابَتَهُ أوَّلًا؛ لشُغلِهِ بما كان فيه من نُزولِ الوَحيِ»[١].

*** وربّما سكتَ؛ إذ عَرَضوا عليه ما يُريدُ غيرَهُ:**

عن قَيسِ بنِ أبي حازِمٍ، عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مَرَضِهِ: «**وَدِدتُ أنَّ عندي بعضَ أصحابي**».

- قُلنا يا رسولَ اللهِ، ألا نَدعو لَكَ أبا بكرٍ؟ فسَكَتَ.

- قُلنا: ألا نَدعو لَكَ عمرَ؟ فسَكَتَ.

- قُلنا: ألا نَدعو لَكَ عثمانَ؟

- قال: «**نَعَم**».

فَجاءَ، فخَلا بِهِ، فجَعَلَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكَلِّمُهُ، ووَجهُ عثمانَ يَتَغَيَّرُ.

- قال قَيسٌ: فحَدَّثَني أبو سَهلَةَ مَولى عثمانَ، أنَّ عثمانَ بنَ عفَّانَ قال يومَ الدَّارِ: إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَهِدَ إلَيَّ عَهدًا، فأنا صابِرٌ عليه.

- قال قَيسٌ: فكانوا يُرَونَهُ ذلك اليومَ[٢].

فَسَكتَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عندَما ذَكَروا له أبا بكرٍ وعمرَ؛ لأنّه إنّما كان يُريدُ -إذ ذاكَ- عُثمانَ، فلمَّا ذُكِرَ له قال: «**نَعَم**» فكان مِن تَمامِ وكَمالِ حُسنِ صُحبتِهِ لصاحبَيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنّه لم يَقُل -إذ ذُكِرا له-: «لا»، وإنّما سَكَتَ.

---

(١) فتح الباري (٨/ ٥٨٣).

(٢) رواه ابن ماجه (١١٣)، وصححه الألباني.

* ورُبَّما سَكَتَ؛ تمهيدًا لذِكرِ الجَوابِ المُناسِبِ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لا يُعدي شيءٌ شَيئًا، لا يُعدي شيءٌ شَيئًا، لا يُعدي شيءٌ شَيئًا**».

فَقامَ أعرابيٌّ، فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ النُّقبَةَ تكونُ بمِشفَرِ البَعيرِ أو بعَجبِهِ، فتَشمَلُ الإبِلَ جَرَبًا؟(١)

فَسَكَتَ ساعَةً، فقال: «**ما أعدَى الأولَ؟ لا عَدوَى، ولا صَفَرَ، ولا هامَةَ، خَلَقَ اللهُ كُلَّ نَفسٍ، فكَتَبَ حَياتَها، ومَوتَها، ومُصيباتِها، ورِزقَها**»(٢).

والمعنى: إن كان جَرَبُها حَصَلَ بالإعداءِ، فمَن أجرَبَ البَعيرَ الأولَ؟ بَلِ الكُلُّ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِهِ، في أوَّلِ الأمرِ، وآخِرِهِ.

والمُرادُ: نَفيُ ما كانتِ الجاهِليَّةُ تَزعُمُهُ وتَعتَقِدُهُ: أنَّ المَرَضَ والعاهَةَ تُعدي بطَبعِها، لا بِفعلِ اللهِ تعالى.

فَما أحكَمَ هذا الجَوابَ بَعدَ هَذِهِ السّكتَةِ اللطيفَةِ، المُشعِرَةِ بتَمامِ العِلمِ، والحِكمَةِ، والعَقلِ، وصَفاءِ الذّهنِ، ورُسوِّ المَلَكَةِ، فصلّى اللهُ على نَبيّنا مُحمّدٍ النبيِّ الأمِّيِّ، وسَلّمَ تَسليمًا.

---

(١) النُّقبة: أوَّل شيءٍ يظهر من الجرب؛ لأنها تنقب الجلد: أي: تخرقه، والمشفر: هو للبعير كالشفة للإنسان، والعجب: أصل الذَّنب.

(٢) رواه أحمد (٨٣٤٣)، وصححه محققو المسند، وأصله في الصحيحين.

فِطنَتُه صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ

الفِطنةُ: هيَ التّنبّهُ على المعنى، وضدُّها الغَفلَةُ، ويجوزُ أن يُقال: إنّ الفِطنةَ ابتِداءُ المعرفَةِ مِن وجهٍ غامِضٍ، فكُلُّ فِطنَةٍ عِلمٌ، وليس كُلُّ عِلمٍ فِطنةً[١]

وقيل: هي جودَةُ استِعدادِ الذِّهنِ لإدراكِ ما يَرِدُ عليه مِن الغَيرِ[٢].

ومَن تأمَّلَ تَدبيرَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ لأمرِ أُمَّتِه، وسياسَتَه الخاصَّةَ والعامَّةَ، دونَ تَعَلُّمٍ سَبَقَ، ولا مُمارَسَةٍ تَقدَّمَت، ولا مُطالَعَةٍ للكُتُبِ، لم يَمترِ في رُجحانِ عَقلِه، وثُقوبِ فهمِهِ.

وممَّا يَتَفَرَّعُ عن العَقلِ: ثُقوبُ الرأيِ، وجَودَةُ الفِطنَةِ، والإصابَةُ، وصِدقُ الظَّنِّ، والنَّظَرُ للعَواقِبِ، وقد بَلَغَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ من ذلك الغايَةَ التي لم يَبلُغها بَشَرٌ سِواهُ.

* ومِن فِطنَتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ قبلَ البَعثةِ: حلُّه لمُشكِلةِ وضعِ الحجرِ الأسودِ في مكانِه:

فَقبلَ مَبعَثِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ بخَمسِ سِنينَ، جاءَ سَيلٌ فهَدَمَ الكعبَةَ، فتَعاوَنَت قُرَيشٌ في بنائِهِ، حتى بَقيَ وضعُ الحجرِ الأسوَدِ في مَكانِهِ مِنَ الكعبَةِ، فتَنازَعَتِ القَبائِلُ حتى كادوا يَقتَتِلونَ، ثم تَراضَوا أن يُحَكِّموا أوَّلَ داخِلٍ عليهم، من بابِ بَني شَيبَةَ.

قال ابنُ إسحاقَ رَحِمَهُ اللهُ: «ثم إنَّ القَبائِلَ من قُرَيشٍ جَمَعَتِ الحِجارَةَ لبِنائِها، كُلُّ قَبيلَةٍ تَجمَعُ

(١) الفروق اللغوية، للعسكريِّ (ص٨٥).
(٢) تاج العروس (٣٥/ ٥١٠).

على حِدَةٍ، ثم بَنَوها، حتى بَلَغَ البُنيانُ مَوضِعَ الرُّكنِ، فاختَصَموا فيه، كُلُّ قَبيلَةٍ تُريدُ أن تَرفَعَهُ إلى مَوضِعِهِ دونَ الأُخرَى، حتى تَحاوَروا، وتَحالَفوا، وأعَدُّوا للقِتال.

فَقَرَّبَت بَنو عبدِالدَّارِ جَفنَةً مَملوءَةً دَمًا، ثم تَعاقَدوا هم وبَنو عَديٍّ بنِ كَعبِ بنِ لُؤَيٍّ على الموتِ، وأدخَلوا أيديَهم في ذلك الدَّمِ في تِلكَ الجَفنَةِ، فمَكَثَت قُرَيشٌ على ذلك أربَعَ لَيالٍ أو خَمسًا، ثم إنَّهُمُ اجتَمَعوا في المسجِدِ، وتَشاوَروا، وتَناصَفوا، فزَعَمَ بعضُ أهلِ الرِّوايَةِ: أنَّ أبا أُمَيَّةَ بنَ المُغيرَةِ -وكان عامَئِذٍ أسَنَّ قُرَيشٍ كُلِّها- قال: يا مَعشَرَ قُرَيشٍ، اجعَلوا بينكُم -فيما تَختَلِفونَ فيه- أوَّلَ مَن يَدخُلُ من بابِ هذا المسجِدِ، يَقضي بينكُم فيه، ففَعَلوا.

فكان أوَّلَ داخِلٍ عليهم: رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلمَّا رَأوهُ قالوا: هذا الأمينُ، رَضينا، هذا محمدٌ.

فلمَّا انتَهَى إليهم وأخبَروهُ الخَبَرَ، قال صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَلُمَّ إلَيَّ ثَوبًا**»، فأُتِيَ بِهِ، فأخَذَ الرُّكنَ، فوَضَعَهُ فيه بيَدِهِ، ثم قال: «**لِتَأخُذ كُلُّ قَبيلَةٍ بناحيَةٍ مِنَ الثَّوبِ، ثم ارفَعوهُ جَميعًا**»، ففَعَلوا: حتى إذا بَلَغوا بِهِ مَوضِعَهُ، وضَعَهُ هو بيَدِهِ، ثم بَنَى عليه[1].

وبهذه الطَّريقَةِ الحَكيمَةِ قَضَى صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على النِّزاعِ والخِلافِ بين قَبائِلِ قُرَيشٍ، وقد كادَ أن يَنشبَ فيما بينهمُ قِتالٌ.

* ومِن فِطنَتِهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَعرِفَتُهُ عَدَدَ كُفَّارِ قُرَيشٍ في غَزوَةِ بَدرٍ:

قال عُروَةُ بنُ الزبيرِ: بَعَثَ النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ، والزبيرَ بنَ العَوَّامِ، وسَعدَ بنَ أبي وقَّاصٍ، في نَفَرٍ من أصحابِهِ، إلى ماءِ بَدرٍ، يَلتَمِسونَ الخَبَرَ لَهُ.

فَأصابوا راويَةً[2] لقُرَيشٍ، فيها: أسلَمُ، غُلامُ بَني الحَجَّاجِ، وعَريضٌ أبو يَسارٍ، غُلامُ بَني العاصِ بنِ سَعيدٍ، فأتَوا بهما، فسَألوهما، ورسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائِمٌ يُصَلِّي، فقالوا: نَحنُ سُقاةُ قُرَيشٍ، بَعَثونا نَسقيهِم مِنَ الماءِ، فكَرِهَ القَومُ خَبَرَهما، ورَجَوا أن يكونا لأبي سُفيانَ،

(١) ينظر: سيرة ابن هشام (١/ ١٨٢).
(٢) الراوية: الإبل التي يسقى الماء عليها.

فضَرَبوهما، فلمَّا أذلَقوهما، قالا: نَحنُ لأبي سُفيانَ، فتَرَكوهما، ورَكَعَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، وسَجَدَ سَجدَتَيهِ، وسَلَّمَ، وقال: «**إذا صَدَقاكُم ضَرَبتُموهما، وإذا كَذَباكُم تَرَكتُموهما! صَدَقا -واللهِ- إنَّهما لقُرَيشٍ، أخبِراني عن قُرَيشٍ؟**».

- قالا: هم -واللهِ- وراءَ هذا الكثيبِ الذي تَرَى، بالعُدوَةِ القُصوَى.
- فقال لَهما رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «**كَمِ القَومُ؟**».
- قالا: كَثيرٌ.
- قال: «**ما عِدَّتُهم؟**».
- قالا: لا نَدري.
- قال: «**كَم يَنحَرونَ كُلَّ يومٍ؟**».
- قالا: يومًا تِسعًا، ويومًا عَشرًا.
- فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «**القَومُ ما بين التِّسعِمائَةِ، إلى الألفِ**»[1].

فاستَنبَطَ من نَحرِهِم كُلَّ يومٍ ما بين تِسعَةٍ إلى عَشرَةٍ مِنَ الإبِلِ، أنَّهم ما بين التِّسعِمائَةِ، والألفِ؛ لأنَّ الجَمَلَ يَكفي مائَةً تَقريبًا.

* ومِن حُسنِ تَفكيرِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ وفِطنَتِهِ: اهتِداؤُهُ لطَريقَةٍ يَعرِفُ بها قاتِلَ أبي جَهلٍ:

فعن عبدِالرحمَنِ بنِ عَوفٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، قال: بَينا أنا واقِفٌ في الصَّفِّ يومَ بَدرٍ، فنَظَرتُ عن يَميني وعن شِمالي، فإذا أنا بغُلامَينِ مِنَ الأنصارِ، حديثَةٌ أسنانُهما، تَمَنَّيتُ أن أكونَ بين أضلَعَ منهما، فغَمَزَني أحَدُهما، فقال: يا عَمِّ، هَل تَعرِفُ أبا جَهلٍ؟ قُلتُ: نعم، ما حاجَتُكَ إليه يا ابنَ أخي؟ قال: أُخبِرتُ أنَّهُ يَسُبُّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، والذي نَفسي بيَدِهِ، لَئِن رَأيتُهُ لا يُفارِقُ سَوادي سَوادَهُ، حتى يَموتَ الأعجَلُ مِنَّا، فتَعَجَّبتُ لذلك، فغَمَزَني الآخَرُ، فقال لي مِثلَها، فلَم أنشَب أن نَظَرتُ إلى أبي جَهلٍ يَجولُ في الناسِ، قُلتُ: ألا إنَّ هذا صاحِبُكُما

(١) سيرة ابن هشامٍ (٢/ ١٨٩)، تفسير الطبري (٦/ ٢٣٦)، من حديث عروة بن الزبير، مرسلاً.

الذي سَألتُماني، فابتَدَراهُ بسَيفيهِما، فضَرَباهُ حتى قَتَلاهُ، ثم انصَرَفا إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخبَراهُ، فقال: «**أيُّكُما قتَلَهُ؟**»، قال كُلُّ واحِدٍ منهما: أنا قتَلتُهُ، فقال: «**هَل مَسَحتُما سيفيكُما؟**» قالا: لا، فنَظَرَ في السَّيفينِ، فقال: «**كِلاكُما قتَلَهُ، سَلَبُهُ لمُعاذِ بنِ عَمرِو بنِ الجَموحِ**»، وكانا: مُعاذَ بنَ عَفراءَ، ومُعاذَ بنَ عَمرِو بنِ الجَموحِ[١].

قال المُهلَّبُ رَحِمَهُ اللهُ: «وَنَظَرُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى سَيفيهما، واستِدلالُهُ منهما على أيِّهما قتَلَهُ، دَليلُ أنَّهُ لم يُعطِ السَّلَبَ إلا لمَن أثخَنَهُ، ولَهُ مَزيَّةٌ في قَتلِهِ، ومَوضِعُ الاستدلال منه: أنَّهُ رَأى في سَيفيهما مَبلَغَ الدَّمِ من جانِبَيِ السَّيفينِ، ومِقدارَ عُمقِ دُخولِهما في جِسمِ أبي جَهلٍ؛ ولِذلك سَألَهما: هَل مَسَحاهما؟ لأنَّهُ لَو مَسَحاهما، لَتَغيَّرَ مِقدارُ وُلوجِهما في جِسمِهِ»[٢].

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «اشتَرَكَ هَذانِ الرجُلانِ في جِراحَتِهِ، لكنَّ مُعاذَ بنَ عَمرِو بنِ الجَموحِ ثَخِنَهُ أوَّلًا، فاستَحَقَّ السَّلَبَ، وإنما قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كِلاكُما قتَلَهُ**»؛ تَطييبًا لقَلبِ الآخَرِ، من حيث إنَّ له مُشارَكَةً في قَتلِهِ، وإلَّا: فالقَتلُ الشَّرعيُّ الذي يَتَعَلَّقُ بِهِ استِحقاقُ السَّلَبِ هو الإثخانُ، وإخراجُهُ عن كَونِهِ مُتَمَنِّعًا، إنما وُجِدَ من مُعاذِ بنِ عَمرِو بنِ الجَموحِ؛ فلهذا قَضَى له بالسَّلَبِ.

قالوا: وإنما أخَذَ السَّيفينِ؛ ليَستَدِلَّ بهما على حَقيقَةِ كَيفيَّةِ قَتلِهِما، فعَلِمَ أنَّ ابنَ الجَموحِ أثخَنَهُ، ثم شارَكَهُ الثاني بعدَ ذلك، وبَعدَ استِحقاقِهِ السَّلَبَ، فلَم يَكُن له حَقٌّ في السَّلَبِ»[٣].

*** ومِن فِطنَتِهِ: اهتِداؤُهُ لطَريقَةٍ سَكَّنَ بها فِتنَةً، كادَت أن تَنشَبَ بين المُهاجِرينَ والأنصارِ:**

فعن جابِرِ بنِ عبدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: كُنَّا في غَزاةٍ[٤] فكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ المُهاجِرينَ رَجُلاً مِنَ الأنصارِ[٥].

(١) رواه البخاري (٣١٤١)، ومسلم (١٧٥٢).
(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطَّالٍ (٥/ ٣١٢).
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/ ٦٣).
(٤) هي: غزوة بني المصطلق.
(٥) الكسع: ضرب الدُّبر باليد، أو بالرِّجل.

- فقال الأنصاريُّ: يا لَلأنصارِ[1].

- وقال المُهاجِريُّ: يا لَلمُهاجِرينَ.

فَسَمِعَ ذلك رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**ما بالُ دَعوَى الجاهِليَّةِ؟**».

- قالوا: يا رسولَ اللهِ كَسَعَ رَجُلٌ من المُهاجِرينَ رَجُلًا مِنَ الأنصارِ.

- فقال: «**دَعوها؛ فإنَّها مُنتِنَةٌ**»[2].

فَسَمِعَ بذلك عبدُاللهِ بنُ أُبَيٍّ؛ فقال: فعَلوها؟![3]، أما واللهِ لَئِن رَجَعنا إلى المدينَةِ، لَيُخرِجَنَّ الأعَزُّ منها الأذَلَّ!

فَبَلَغَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، فقامَ عمرُ فقال: يا رسولَ اللهِ دَعني أضرِب عُنُقَ هذا المُنافِقِ، فقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «**دَعهُ؛ لا يَتَحَدَّثُ الناسُ أنَّ محمدًا يَقتُلُ أصحابَهُ**»[4].

زادَ ابنُ إسحاقَ رَحِمَهُ اللهُ: فقال: «**لا، ولكن، أذِّن بالرحيلِ**» وذلك في ساعَةٍ ما كان يَرحَلُ فيها، ثم مَشَى رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ بالناسِ يومَهم ذلك حتى أمسَى، ولَيلَتَهم حتى أصبَحَ، وصَدرَ يومِهِم ذلك حتى آذَتهمُ الشَّمسُ، ثم نَزَلَ بالناسِ، فلَم يَلبَثوا أن وجَدوا مَسَّ الأرضِ، فوَقَعوا نيامًا.

وإنما فعَلَ ذلك رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ؛ ليَشغَلَ الناسَ عن الحديثِ الذي كان بالأمسِ، من حديثِ عبدِاللهِ بنِ أُبَيٍّ[5].

والحِكمَةُ ظاهِرَةٌ من أمرِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ بالرحيلِ في وقتٍ غَيرِ مُعتادٍ، وهيَ: أنَّ تَركَ مِثلِ هذا الخَبَرِ يَنتَشِرُ في الجَيشِ، يُسَبِّبُ بلبَلَةً في الأفكارِ، ويُثيرُ القيل والقال، فكانت مَسيرَةُ

---

(١) بفتح اللاَّم، وهي للاستغاثة، أي: أغيثوني.

(٢) أي: دعوى الجاهليَّة، قبيحةٌ، خبيثةٌ.

(٣) هو استفهامٌ بحذف الأداة، أي: أفعلوها؟

(٤) رواه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤).

(٥) سيرة ابن هشامٍ (٢/ ٢٩١)، البداية والنهاية (٦/ ١٨٦).

الجَيشِ المُتَّصِلَةُ، لَيلًا ونَهارًا، مِمَّا أجهَدَهم، حتى وقَعوا نيامًا، فمَسَحَ النَّومُ العَميقُ بعدَ النَّصَبِ الشَّديدِ آثارَ الفِتنَةِ، وهذا من فِطنَتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

* **ومِن فِطنَتِهِ: إرشادُهُ مَن أحدَثَ في الصَّلاةِ إلى حيلَةٍ، تَمنَعُ عنه الحَرَجَ:**

فعن عائشةَ قالت: قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أحدَثَ أحَدُكُم في صَلاتِهِ فليَأخُذ بأنفِهِ، ثم ليَنصَرِف**»(١).

قال الخَطَّابيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «إنما أمَرَهُ أن يَأخُذَ بأنفِهِ؛ ليوهِمَ القَومَ أنَّ بهِ رُعافًا، وفي هذا بابٌ مِنَ الأخذِ بالأدَبِ، في سَترِ العَورَةِ، وإخفاءِ القَبيحِ مِنَ الأمرِ، والتَّوريَةِ بما هو أحسَنُ منه، وليس يَدخُلُ هذا في بابِ الرِّياءِ والكَذِبِ، وإنما هو من بابِ التَّجَمُّلِ، واستِعمالِ الحَياءِ، وطَلَبِ السَّلامَةِ مِنَ الناسِ»(٢).

قال أبو بكرٍ الشافعيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «كُلُّ مَن أفتَى من أئِمَّةِ المسلمينَ مِنَ الحِيَلِ، إنما أخَذَهُ من هذا الحديثِ»(٣).

والمقصودُ بها: الحِيَلُ الشَّرعيَّةُ، وهي أن يَتَحَيَّلَ الإنسانُ بفِعلٍ مُباحٍ، على تَخَلُّصِهِ من ظُلمِ غَيرِهِ وأذاهُ ونحوِ ذلك، لا الاحتيال على إسقاطِ فرائِضِ اللهِ، واستِباحَةِ مَحارِمِهِ(٤).

* **ومِن تلكَ الحِيَلِ الشَّرعيَّةِ، الدَّالَّةِ على الفِطنَةِ النبويَّةِ:**

عن أبي هريرة، قال: جاءَ رَجُلٌ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَشكو جارَهُ، فقال: «**اذهَب فاصبِر**»، فأتاهُ -مَرَّتَينِ أو ثَلاثًا-، فقال: «**اذهَب، فاطرَح مَتاعَكَ في الطَّريقِ**»، فطَرَحَ مَتاعَهُ في الطَّريقِ، فجَعَلَ الناسُ يَسألونَهُ، فيُخبِرُهم خَبَرَهُ، فجَعَلَ الناسُ يَلعَنونَهُ: فعَلَ اللهُ بهِ، وفَعَلَ وفَعَلَ.

---

(١) رواه أبوداود (١١١٤)، وصححه الألباني، وقد أعلَّ بالإرسال.
(٢) معالم السُّنن (١/ ٢٤٩).
(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ٢٩٤).
(٤) الطُّرق الحكميَّة (ص: ٣٣).

فَجاءَ إليه جارُهُ، فقال لَهُ: ارجِع، لا تَرَى مِنِّي شَيئًا تَكرَهُهُ[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهذا من أحسَنِ المعاريضِ الفِعليَّةِ، وألطَفِ الحيَلِ التي يُتَوَصَّلُ بها إلى دَفعِ ظُلمِ الظَّالِمِ»[٢].

*** ومِن فِطنَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَعوَةُ المسلمينَ للهَروَلَةِ والرمَلِ في الطَّوافِ؛ لإظهارِ القوَّةِ للمُشرِكينَ:**

فَقَد كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَريصًا على إظهارِ القوَّةِ للمُشرِكينَ، ولو كان في المسلمينَ ضَعفٌ، أو مَرَضٌ.

عن عبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «قَدِمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابُهُ مَكَّةَ، وقد وهَنَتهم حُمَّى يَثرِبَ.

قال المُشرِكونَ: إنَّهُ يَقدُمُ عليكم -غدًا- قومٌ، قَد وهَنَتهمُ الحُمَّى، ولَقوا منها شِدَّةً، فجَلَسوا مِمَّا يَلي الحِجرَ.

وأمَرَهمُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يَرمُلوا ثَلاثَةَ أشواطٍ، ويَمشوا ما بين الرُّكنَينِ؛ ليَرَى المُشرِكونَ جَلَدَهم.

فقال المُشرِكونَ: هَؤُلاءِ الذينَ زَعَمتُم أنَّ الحُمَّى قَد وهَنَتهم؟! هَؤُلاءِ أجلَدُ من كَذا وكذا».

قال ابنُ عبَّاسٍ: «ولَم يَمنَعهُ أن يَأمُرَهم أن يَرمُلوا الأشواطَ كُلَّها، إلا الإبقاءُ عليهم»[٣].

وفي رواية: «أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اضطَبَعَ، فاستَلَمَ وكَبَّرَ ثم رَمَلَ ثَلاثَةَ أطوافٍ، وكانوا إذا بَلَغوا الرُّكنَ اليَمانِيَ وتَغَيَّبوا من قُرَيشٍ مَشَوا، ثم يَطلُعونَ عليهم يَرمُلونَ، تقولُ قُرَيشٌ: كَأنَّهُمُ الغِزلانُ»، قال ابنُ عبَّاسٍ: «فكانت سُنَّةً»[٤].

---

(١) رواه أبوداود (٥١٥٣)، وصححه الألباني.

(٢) إعلام الموقِّعين (٣/ ١٨٧).

(٣) رواه البخاري (١٦٠٢)، ومسلم (١٢٦٦).

(٤) رواه أبوداود (١٨٨٩)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

قال القاري رَحِمَهُٱللَّهُ: «واستَمَرَّ شَرعُهُ، بدَليلِ فِعلِهِ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ له في حَجَّةِ الوَداعِ، مع زَوال سببِهِ من إظهارِ القوَّةِ للكُفَّارِ؛ ليَستَحضِرَ فاعِلُهُ سببَهُ، وهو ظُهورُ الكُفَّارِ، لا سيَّما بذلك المحَلِّ الأشرَفِ، ثم انطِفاءَهُ كَأن لم يكُن؛ فيَزيدُ شُكرَهُ لَربِّهِ على إعزازِ دينِهِ، وليَتَذَكَّرَ أحوالَ الصَّحابَةِ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، وما قاسوا عليه مِنَ الشِّدَّةِ.

وصَحَّ عن عمرَ أنَّهُ قال: «فيمَ الرمَلُ وكَشفُ المناكِبِ في الاضطِباعِ، وقد أظهَرَ اللهُ الإسلامَ، ونَفَى الكُفرَ وأهلَهُ؟ ومَعَ ذلك: لا نَترُكُ شَيئًا كُنَّا نَصنَعُهُ مع رسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ(١)»(٢).

* ومِن حُسنِ تَفكيرِهِ وفِطنَتِهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ -أيضًا-: نُزولُهُ بأصحابِهِ المنزِلَ الأيسَرَ لهم في تَحَرُّكِهِم:

عن عائشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا، قالت: «نُزولُ الأبطَحِ ليس بسُنَّةٍ، إنما نَزَلَهُ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ لأَنَّهُ كان أسمَحَ لخُروجِهِ إذا خرجَ»(٣).

«**أسمَح لخُروجِهِ**»: أي: أسهَلَ لخُروجِهِ، راجِعًا إلى المدينَة(٤).

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُٱللَّهُ: «قولُهُ: «**أسمَحَ**»، أي: أسهَلَ لتَوَجُّهِهِ إلى المدينَةِ؛ ليَستَويَ في ذلك البَطيءُ والمُعتَدِلُ، ويكونَ مَبيتُهم وقيامُهم في السَّحَرِ ورَحيلُهم بأجمَعِهِم إلى المدينَةِ»(٥).

* ومِن فِطنَتِهِ، وحُسنِ تَفكيرِهِ: تَعميَتُهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على العَدوِّ في الغَزَواتِ:

عن كَعبِ بنِ مالكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: «لَم يَكُن رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يُريدُ غَزوَةً، إلا ورَّى بغَيرِها»(٦).

---

(١) رواه أبوداود (١٨٨٧)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٢) مرقاة المفاتيح (٥/ ١٧٨٥).

(٣) رواه البخاري (١٧٦٥)، ومسلم (١٣١١).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ٥٩).

(٥) فتح الباري (٣/ ٥٩١).

(٦) رواه البخاري (٢٩٤٧)، ومسلم (٢٧٦٩).

ومعنى «وَرَّى»: سَتَرَ، وتُستعمَلُ في إظهارِ شيءٍ مع إرادةِ غيرِه، كأن يُريدَ أن يَغزوَ وِجهةَ الشَّرقِ، فيَسألَ عن أمرٍ في جِهةِ الغَربِ، ويَتجهَّزَ للسَّفرِ، فيَظُنّ مَن يَراهُ ويَسمَعُهُ أنَّهُ يُريدُ جِهةَ الغَربِ[1].

وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَنبَغي لأميرِ الجَيشِ، إذا أرادَ غَزوَةً، أن يورِّيَ بغَيرِها؛ لئَلَّا يَسبِقَهُ الجَواسيسُ ونَحوُهم بالتَّحذيرِ، إلا إذا كانت سفرَةً بَعيدَةً، فيُستَحبُّ أن يُعرِّفهمُ البُعدَ؛ ليَتأهَّبوا»[2].

وقال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «وتَوريَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت تَعريضًا بأن يُريدَ -مَثَلًا- غزوةَ مَكَّةَ، فيَسألَ النَّاسَ عن حالِ خَيبَرَ، وكَيفيَّةِ طُرُقِها، لا تَصريحًا، بأن يقولَ: إنِّي أُريدُ غَزوَةَ أهلِ الموضِعِ الفُلانيِّ، وهو يُريدُ غيرَهم؛ لأنَّ هذا كَذِبٌ غيرُ جائِزٍ»[3].

وهذا مِن حُسنِ سياسَةِ الحُروبِ، وتَمامِ إعدادِ العُدّةِ، وكَمالِ الحَزمِ، وإغفالِ العَدوِّ، مع عِفّةِ اللّسانِ عن الكذِبِ.

فِطنَتُهُ وبَديعُ فِكرِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ضَربِ الأمثِلَةِ

ضَربُ المثَلِ، والتَّفَنُّنُ فيه، وحُسنُ إصابَةِ مَوضِعِ المُماثَلَةِ، هو من أدَلِّ الشَّواهِدِ على نَصاعَةِ الفِكرِ، وإبداعِ الرُّؤيَةِ، وقد كان للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّصيبُ الأوفَى مِن ذلك.

* ومِنَ الأمثلَةِ النبويّةِ البَديعَةِ:

- عن جابِرِ بنِ عبدِاللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَثَلي ومَثَلُ الأنبياءِ: كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دارًا فأتَمَّها، وأكمَلَها، إلا مَوضِعَ لَبِنَةٍ، فجَعَلَ الناسُ يَدخُلونَها، ويَتَعَجَّبونَ منها، ويقولونَ: لَولا مَوضِعُ اللَّبِنَةِ**».

---

(١) فتح الباري (٦/ ١١٣،١٥٩) باختصار.

(٢) شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٠٠).

(٣) مرقاة المفاتيح (٦/ ٢٥٣٥).

قال رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَأنا مَوضِعُ اللَّبِنَةِ، جِئتُ فخَتَمتُ الأنبياءَ**»[١].

قال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وفي الحديثِ**: ضَربُ الأمثال؛ للتَّقريبِ للأفهام، وفَضلُ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سائرِ النبيِّينَ، وأنَّ اللهَ خَتَمَ بهِ المُرسلينَ، وأكمَلَ بهِ شرائعَ الدِّينِ»[٢].

- وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **أنَّهُ** سَمِعَ رسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يقولُ**: «**إنما مَثَلي ومَثَلُ الناسِ: كَمَثَلِ رَجُلٍ استَوقد نارًا، فلمَّا أضاءَت ما حَولَهُ، جَعَلَ الفَراشُ وهذه الدَّوابُّ التي تَقَعُ في النارِ، يَقَعنَ فيها، فجَعَلَ يَنزِعُهُنَّ، ويَغلِبنَهُ فيَقتَحِمنَ فيها، فأنا آخُذُ بحُجَزِكُم**[٣] **عن النارِ، وهم يَقتَحِمونَ فيها**»[٤].

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَمَقصودُ الحديثِ: **أنَّهُ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **شَبَّهَ** تَساقُطَ الجاهِلينَ، والمُخالفينَ بمَعاصيهِم وشَهَواتِهِم، في نارِ الآخرةِ، وحِرصَهم على الوُقوعِ في ذلك، مع مَنعِهِ إيَّاهم، وقَبضِهِ على مَواضِعِ المنعِ منهم، بتَساقُطِ الفَراشِ في نارِ الدُّنيا؛ لهَواهُ، وضَعفِ تمييزِهِ، وكِلاهما حَريصٌ على هَلاكِ نَفسِهِ، ساعٍ في ذلك لجَهلِهِ»[٥].

وقال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال القاضي أبو بكرِ بنُ العَرَبيِّ: هذا مَثَلٌ كَثيرُ المعاني، والمقصودُ: أنَّ الخَلقَ لا يَأتونَ ما يَجُرُّهم إلى النارِ على قَصدِ الهَلَكَةِ، وإنما يَأتونَهُ على قَصدِ المنفَعَةِ، واتِّباعِ الشَّهوَةِ، كما أنَّ الفَراشَ يَقتَحِمُ النارَ، لا ليَهلِكَ فيها، بل لما يُعجِبُهُ مِنَ الضِّياءِ.

وقال الغَزاليُّ: التَّمثيلُ وقَعَ على صورَةِ الإكبابِ على الشَّهَواتِ مِنَ الإنسانِ، بإكبابِ الفَراشِ على التَّهافُتِ في النارِ، ولكن جَهلَ الآدَميِّ أشَدُّ من جَهلِ الفَراشِ؛ لأنَّها -باغتِرارِها بظَواهِرِ الضَّوءِ- إذا احتَرَقَتِ، انتَهَى عَذابُها في الحال، والآدَميُّ يَبقَى في النارِ مُدَّةً طَويلَةً، أو أبدًا، واللهُ المُستَعانُ»[٦].

---

(١) رواه البخاري (٣٥٣٤)، ومسلم (٢٢٨٧).

(٢) فتح الباري (٦/ ٥٥٩).

(٣) الحجزة: موضع عقد الإزار، ثم قيل للإزار: حجزة؛ للمجاورة.

(٤) رواه البخاري (٦٤٨٣)، ومسلم (٢٢٨٤).

(٥) شرح النووي على مسلم (١٥/ ٥٠).

(٦) فتح الباري (٦/ ٤٦٤).

- وعن أبي موسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَثَلي ومَثَلُ ما بَعَثَني اللهُ: كَمَثَلِ رَجُلٍ أتَى قَومًا، فقال: رَأيتُ الجَيشَ بعَينَيَّ، وإنِّي أنا النَّذيرُ العُريانُ، فالنَّجاءَ! النَّجاءَ! فأطاعَتهُ طائِفَةٌ، فأدلَجوا[١] على مَهلِهِم، فنَجَوا، وكَذَّبَتهُ طائِفَةٌ، فصَبَّحَهمُ الجَيشُ، فاجتاحَهم**»[٢].

قال الطِّيبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «شَبَّهَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَفسَهُ بالرجُلِ، وإنذارَهُ بالعَذابِ القَريبِ بإنذارِ الرجُلِ قَومَهُ بالجَيشِ المُصَبِّحِ، وشَبَّهَ مَن أطاعَهُ من أُمَّتِهِ ومَن عَصاهُ، بمَن كَذَّبَ الرجُلَ في إنذارِهِ ومَن صَدَّقَهُ»[٣].

- وعن أبي موسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَثَلُ الذي يَذكُرُ رَبَّهُ والذي لا يَذكُرُ رَبَّهُ: مَثَلُ الحَيِّ والمَيِّتِ**»[٤].

قال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالحَيُّ: يُزَيِّنُ ظاهِرَهُ بنورِ الحَياةِ، والتَّصَرُّفِ التَّامِّ فيما يُريدُ، وباطِنَهُ بنورِ العِلمِ والإدراكِ، وكذا الذَّاكِرُ: مُزَيَّنٌ ظاهِرُهُ بنورِ الطَّاعَةِ، وباطِنُهُ بنورِ المعرِفَةِ، وغَيرُ الذَّاكِرِ: ظاهِرُهُ عاطِلٌ، وباطِنُهُ باطِلٌ.

و**قيل**: مَوقِعُ التَّشبيهِ: النَّفعُ لَمن يواليهِ، والضُّرُّ لَمن يُعاديهِ، وليس ذلك في المَيِّتِ.

و**يُمكِنُ أن يُقال**: في الحديثِ إيماءٌ إلى أنَّ مُداوَمَةَ ذِكرِ الحَيِّ الذي لا يَموتُ، تورِثُ الحَياةَ الحَقيقيَّةَ التي لا فناءَ لها»[٥].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا فرقَ بين الحَيِّ والمَيِّتِ إلا بالذِّكرِ، فمَثَلُ الذي يَذكُرُ رَبَّهُ، والذي لا يَذكُرُ رَبَّهُ: كمَثَلِ الحَيِّ، والمَيِّتِ»[٦].

---

(١) ساروا من أوَّل اللَّيل.

(٢) رواه البخاري (٦٤٨٢)، ومسلم (٢٢٨٣).

(٣) فتح الباري (١١/ ٣١٧).

(٤) رواه البخاري (٦٤٠٧)، واللفظ له، ومسلم (٧٧٩).

(٥) مرقاة المفاتيح (٤/ ١٥٤١).

(٦) الوابل الصِّيب (ص٤١).

* فِطنَتُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المُقارَنَة:

مِن مَسالكِ الإبداعِ الفِكريِّ: تَميِيزُ صِفاتِ الأشياءِ وحَقائِقِها، عن طَريقِ المُقارَنَةِ بينها، وبين أضدادِها ونَظائِرِها، فبِضِدِّها تَتَبَيَّنُ الأشياءُ.

ومِن أمثِلَةِ إبداعِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بَيانِ المُقارَناتِ:

- عنِ المُستَورِدِ بنِ شَدَّادٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**واللهِ ما الدُّنيا في الآخِرَةِ، إلا مِثلُ ما يَجعَلُ أحَدُكُم إصبعَهُ هَذِهِ** -وَأشارَ يَحيَى -أحَدُ الرواةِ- بالسَّبَّابَةِ- **في اليَمِّ، فليَنظُر: بِمَ تَرجِعُ؟**»[1].

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**معنى الحديثِ**: ما الدُّنيا بالنِّسبَةِ إلى الآخِرَةِ، في قِصَرِ مُدَّتِها، وفَناءِ لَذَّاتِها، ودَوامِ الآخِرةِ، ودَوامِ لَذَّاتِها ونَعيمِها، إلا كَنِسبةِ الماءِ الذي يَعلَقُ بالأُصبُعِ، إلى باقي البَحرِ»[2].

وقال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ: «**بِمَ يَرجِعُ**» أي: بأيِّ: شيءٍ يَرجِعُ أُصبُعُ أحَدِكُم، من ذلك الماءِ؟

قال الطِّيبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وُضِعَ مَوضِع قولِهِ: «فَلا يَرجِعُ بشيءٍ» كَأنَّهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَستَحضِرُ تِلكَ الحالَةَ في مُشاهَدَةِ السَّامِعِ، ثم يَأمُرُهُ بالتَّأمُّلِ والتَّفكُّرِ: هَل يَرجِعُ بشيءٍ، أم لا؟ وهذا تَمثيلٌ على سَبيلِ التَّقريبِ، وإلَّا: فأينَ المُناسَبَةُ بين المُتَناهي، وغَيرِ المُتَناهي؟»[3].

وقال السِّنديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والحاصِلُ: أنَّ الدُّنيا في القِلَّةِ، بالنَّظَرِ إلى الآخِرَةِ، كالذي على الإصبَعِ، بالنَّظَرِ إلى البَحرِ، وهذا الحديثُ شَرحٌ وتَفسيرٌ لقولِهِ تعالى: ﴿**فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾ [التوبة: ٣٨]»[4].

---

(١) رواه مسلم (٢٨٥٨).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٩٢).

(٣) مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٢٢٥).

(٤) حاشية السِّنديِّ على ابن ماجه (٢/ ٥٢٥).

- وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُؤتَى بأنعَمِ أهلِ الدُّنيا، من أهلِ النارِ، يومَ القيامَةِ، فيُصبَغُ في النارِ صَبغَةً، ثم يُقال: يا ابنَ آدَمَ، هَل رَأيتَ خَيرًا قَطُّ؟ هَل مَرَّ بكَ نَعيمٌ قَطُّ؟ فيقولُ: لا واللهِ يا رَبِّ.**

ويُؤتَى بأشَدِّ الناسِ بُؤسًا في الدُّنيا، من أهلِ الجَنَّةِ، فيُصبَغُ صَبغَةً في الجَنَّةِ، فيُقال لَهُ: يا ابنَ آدَمَ، هَل رَأيتَ بُؤسًا قَطُّ؟ هَل مَرَّ بكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيقولُ: لا واللهِ يا رَبِّ، ما مَرَّ بي بُؤسٌ قَطُّ، ولا رَأيتُ شِدَّةً قَطُّ»(١).

قال ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ اللهُ: «هَذا الحديثُ يَحُثُّ على مُراعاةِ العَواقِبِ؛ فإنّ التَّعَبَ إذا أعقَبَ الراحَةَ هانَ، والراحَةَ إذا أثمَرَتِ النَّصَبَ فليست راحَةً، فالعاقِلُ مَن نَظَرَ في المآلِ، لا في عاجِلِ الحالِ، وقد قالتِ الحُكَماءُ: لا تُنالُ الراحَةُ بالراحةِ»(٢).

* ومِن تَمامِ فِطنَتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الدَّالَّةِ على كَمالِ عَقلِهِ: أقيِسَتُهُ الحَكيمةُ:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رَجُلًا أتَى النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، وُلِدَ لي غُلامٌ أسوَدُ، فقال: «**هَل لَكَ من إبِلٍ؟**».

- قال: نعم.
- قال: «**ما ألوانُها؟**».
- قال: حُمرٌ.
- قال: «**هَل فيها من أورَقَ؟**»(٣).
- قال: نعم.
- قال: «**فَأنَّى ذلك؟**».
- قال: لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرقٌ.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٠٧).

(٢) كشف المشكل (٣/ ٣٠٩).

(٣) الأورق من الإبل: الذي في لونه بياضٌ، إلى سوادٍ.

- قال: «**فَلَعَلَّ ابنَكَ هذا نَزَعَهُ عِرقٌ**»(١).

أي: عَسَى أن يكونَ في أُصولِكَ، أو في أُصولِ امرَأتِكَ، مَن يكونُ في لَونِهِ سَوادٌ، فأشبَهَهُ واجتَذَبَهُ إليه، وأظهَرَ لَونَهُ عليه(٢).

والمُرادُ بالعِرقِ: الأصلُ مِنَ النَّسَبِ، شَبَّهَهُ بعِرقِ الشَّجَرَةِ، ومنه قولُهم: فُلانٌ عَريقٌ في الأصالَةِ أي أنَّ أصلَهُ مُتَناسِبٌ، وكذا: مُعرِقٌ في الكرمِ أوِ اللُّؤمِ، وأصلُ النَّزعِ: الجَذبُ.

قال الحافِظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وفي الحديثِ**: ضَربُ المثَلِ، وتَشبيهُ المجهولِ بالمعلومِ؛ تَقريبًا لفهمِ السَّائِلِ، واستُدِلَّ بِهِ لصِحَّةِ العَمَلِ بالقياسِ، قال الخَطَّابيُّ: هو أصلٌ في قياسِ الشَّبَه، وقال ابنُ العَرَبيِّ: فيه دَليلٌ على صِحَّةِ القياسِ، والاعتِبارُ بالنَّظيرِ»(٣).

وعن عمرَ بنِ الخَطَّابِ، قال: هَشَشتُ يومًا، فقَبَّلتُ وأنا صائِمٌ، فأتَيتُ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقُلتُ: صَنَعتُ اليومَ أمرًا عَظيمًا، قَبَّلتُ وأنا صائِمٌ.

- فقال رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أرَأيتَ لَو تَمَضمَضتَ بماءٍ وأنتَ صائِمٌ؟**».

- قُلتُ: لا بَأسَ بذلك.

- فقال رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فمَه؟**»(٤).

يعني: أرَأيتَ لَو تَمَضمَضتَ، ثم مجَجتَهُ، أكان يَضُرُّ شَيئًا؟ قال: لا.

قال الخَطَّابيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في هذا إثباتُ القياسِ، والجَمعُ بين الشَّيئَينِ في الحُكمِ الواحِدِ لاجتِماعِهِما في الشَّبَهِ؛ وذلك أنَّ المضمَضَةَ بالماءِ ذَريعَةٌ لنُزولِهِ الحَلقَ، ووُصولِهِ إلى الجَوفِ، فيكونُ فيه فسادُ الصَّومِ، كَما أنَّ القُبلَةَ ذَريعَةٌ إلى الجِماعِ المُفسِدِ لصَومِهِ، يقولُ: فإذا كان أحَدُ الأمرَينِ منهما غَيرَ مُفطرٍ للصَّائِمِ، فالآخَرُ بمَثابَتِهِ»(٥).

---

(١) رواه البخاري (٥٣٠٥)، ومسلم (١٥٠٠).

(٢) عون المعبود (٦/ ٢٥٠).

(٣) فتح الباري (٩/ ٤٤٤).

(٤) رواه أبوداود (٢٣٨٥)، وصححه الألباني.

(٥) معالم السُّنن (٢/ ١١٤).

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أنَّ امرَأةً من جُهَينَةَ جاءَت إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: إنَّ أُمِّي نَذَرَت أن تَحُجَّ، فلَم تَحُجَّ حتى ماتَت، أفَأحُجُّ عَنها؟ قال: «**نَعَم، حُجِّي عَنها، أرَأيتِ لَو كان على أُمِّكِ دَينٌ، أكُنتِ قاضيَةً؟ اقضوا اللهَ؛ فاللهُ أحَقُّ بالوَفاءِ**»[1].

قال المُهلَّبُ رَحِمَهُ اللهُ: «قَد عَلَّمَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمَّتَه كَيفيَّةَ القياسِ والاستنباطِ، في مسائِلَ لها أصولٌ ومَعانٍ في كِتابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ ليُرِيَهم كَيفَ يصنعونَ فيما عَدموا فيه النُّصوصَ والقياسَ، وهوَ: تَشبيهُ ما لا حُكمَ فيه، بما فيه حُكمٌ في المعنى، وقد شَبَّهَ الحُمُرَ بالخَيلِ، فقال: «**ما أنزَلَ اللهُ عَلَيَّ فيها، إلا هَذِهِ الآيةَ الفاذَّةَ الجامِعَةَ:** ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]»، وقال للَّتي أخبرتهُ أنّ أباها لم يَحُجَّ: «**أرَأيتِ لَو كان على أبيكِ دَينٌ، أكُنتِ قاضيَته؟ فاللهُ أحَقُّ بالقضاءِ**».

وهذا هو عينُ القياسِ عندَ العَرَبِ، وعندَ العلماءِ بمعاني الكلامِ»[2].

(١) رواه البخاري (١٨٥٢).

(٢) عمدة القاري (٢٥/ ٤٦).

همومُهُ واهتِماماتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لِكُلِّ إنسانٍ أمورٌ، هيَ مَحلُّ عِنايتِهِ واهتِمامِهِ، تَشغَلُ بالَه وفِكرَهُ، ولا شَكّ أنّ ما كان يَهتَمُّ له النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويَشغَلُ بالَه، هو هَمُّ الدِّينِ، والدّعوَةِ إلى اللهِ، وما اتّصَلَ بذلك، ولم تكُنِ الدّنيا هَمَّهُ، ولا أشغَلَت -يومًا- بالَهُ.

وعن أنسِ بنِ مالكٍ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن كانتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جعَلَ اللهُ غِناهُ في قَلبِهِ وجَمَعَ له شَملَهُ، وأتَتهُ الدُّنيا وهي راغِمَةٌ، ومَن كانتِ الدُّنيا هَمَّهُ جعَلَ اللهُ فقرَهُ بين عَينَيهِ، وفَرَّقَ عليه شَملَهُ، ولم يَأتِهِ مِنَ الدُّنيا إلا ما قُدِّرَ لَهُ**»[1].

* **إنَّ أكبرَ هَمٍّ كان يَحمِلُهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هوَ: هَمُّ إدخال الناسِ في دينِ الإسلامِ.**

حَتَّى قال اللهُ لَهُ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

قال السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «لَمَّا كان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَريصًا على هِدايَةِ الخَلقِ، ساعيًا في ذلك أعظَمَ السَّعيِ، فكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفرَحُ ويُسَرُّ بهدايَةِ المُهتَدينَ، ويَحزَنُ ويأسَفُ على المُكَذِّبينَ الضَّالِّينَ؛ شَفَقَةً منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليهم، ورَحمَةً بِهِم، أرشَدَهُ اللهُ أن لا يَشغَلَ نَفسَهُ بالأسَفِ على هَؤُلاءِ الذينَ لا يُؤمِنونَ بهذا القُرآنِ»[2].

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٥)، وصححه الألباني.

(٢) تفسير السعدي (ص٤٧٠).

و(لَعَلَّ) -هُنا- للإشفاقِ عليه ﷺ، أن يَبخَعَ نَفسَهُ لعَدَمِ إيمانِهِم، وقيل: إنَّ (لَعَلَّ) -هُنا- للنَهيِ، أي: لا تَبخَع نَفسَكَ لعَدَمِ إيمانِهِم، كَما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨][١].

وقولُهُ (باخِعٌ): مِنَ البَخعِ، والبَخعُ: هو القَتلُ والإهلاكُ في كَلامِ العَرَبِ[٢].

والمعنى: لا تُهلِك نَفسَكَ -أيُّها الرسولُ الكريمُ- هَمًّا، وغَمًّا، وحُزنًا، بسببِ عَدَمِ إيمانِ هَؤُلاءِ المُشرِكينَ، وبِسببِ إعراضِهِم عن دَعوَتِكَ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

والآياتُ في هذا المعنى كَثيرَةٌ، كَقولِهِ سبحانه: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨]، وقولِهِ جَلَّ وعَلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١].

وهذا يَدُلُّ على حِرصِ النبيِّ ﷺ على هِدايَةِ الناسِ، وشِدّةِ رَغبَتِهِ في إنقاذِهِم مِنَ النارِ.

* لِذا، لم يَزل مَهمومًا بشأنِ عَمِّه أبي طالبٍ، حَريصًا على دَعوتِه للإيمانِ:

عن سَعيدِ بنِ المُسَيَّبِ، عن أبيهِ، أَنَّهُ أخبَرَهُ: أنَّهُ لَمَّا حَضَرَت أبا طالبٍ الوَفاةُ، جاءَهُ رسولُ اللهِ ﷺ، فوَجَدَ عندَهُ أبا جَهلِ بنَ هِشامٍ، وعبدَاللهِ بنَ أبي أُمَيَّةَ بنِ المُغيرَةِ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ لأبي طالبٍ: «**يا عَمِّ، قُل لا إلَهَ إلا اللهُ، كَلِمَةً أشهَدُ لَكَ بها عندَ اللهِ**»، فقال أبو جَهلٍ، وعبدُاللهِ بنُ أبي أُمَيَّةَ: يا أبا طالبٍ، أتَرغَبُ عن مِلَّةِ عبدِالمُطَّلِبِ؟ فلَم يَزَل رسولُ اللهِ ﷺ يَعرِضُها عليه، ويَعودانِ بتِلكَ المَقالَةِ، حتى قال أبو طالبٍ آخِرَ ما كَلَّمَهم: هو على مِلَّةِ عبدِالمُطَّلِبِ، وأبى أن يقولَ: لا إلَهَ إلا اللهُ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أما واللهِ، لأستَغفِرَنَّ لَكَ، ما لم أُنهَ عَنكَ**»، فأنزَلَ اللهُ تعالى فيه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٢٠١).

(٢) تفسير الطبري (١٩/ ٣٢٦).

ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣][١].

* واهتمَّ بأمرِ اليهوديِّ الذي كان يَخدُمُهُ:

فعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: كان غُلامٌ يهوديٌّ يَخدُمُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمَرِضَ، فأتاهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعودُهُ، فقَعَدَ عندَ رَأسِهِ، فقال لَهُ: «**أسلِم**»، فنَظَرَ إلى أبيهِ وهو عندَهُ، فقال لَهُ: أطِعِ أبا القاسِمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأسلم، فخرجَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يقولُ: «**الحَمدُ للهِ الذي أنقَذَهُ من النارِ**»[٢].

* وكان يَهتَمُّ ويَغتَمُّ كَثيرًا، إذا لم يَلقَ استِجابَةً لدَعوَتِهِ:

عن عائشةَ زَوجِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنَّها قالت لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَل أَتَى عليكَ يومٌ كان أشَدَّ من يومِ أُحُدٍ؟ قال: «**لَقَد لَقيتُ من قَومِكِ ما لَقيتُ، وكان أشَدَّ ما لَقيتُ منهم يومَ العَقَبَةِ، إذ عَرَضتُ نَفسي على ابنِ عبدِ ياليلَ بنِ عبدِ كُلالٍ، فلَم يُجِبني إلى ما أَرَدتُّ، فانطَلَقتُ وأنا مَهمومٌ على وجهي**[٣]**، فلَم أستَفِق إلا وأنا بقَرنِ الثَّعالبِ، فرَفَعتُ رَأسي، فإذا أنا بسَحابَةٍ قَد أظَلَّتني، فنَظَرتُ، فإذا فيها جبريلُ، فناداني، فقال: إنَّ اللهَ قَد سَمِعَ قولَ قَومِكَ لَكَ، وما رَدُّوا عليكَ، وقد بَعَثَ إلَيكَ مَلَكَ الجِبالِ؛ لتَأمُرَهُ بما شِئتَ فيهم، فناداني مَلَكُ الجِبالِ، فسَلَّمَ عَلَيَّ، ثم قال: يا محمدُ، إنَّ اللهَ قَد سَمِعَ قولَ قَومِكَ لَكَ، وأنا مَلَكُ الجِبالِ، وقد بَعَثَني رَبُّكَ إلَيكَ؛ لتَأمُرَني بأمرِكَ بما شِئتَ، إن شِئتَ أن أُطبِقَ عليهم الأخشَبَينِ**»[٤].

فقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ من أصلابِهِم مَن يَعبُدُ اللهَ وحدَهُ، لا يُشرِكُ بِهِ شَيئًا**»[٥].

---

(١) رواه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

(٢) رواه البخاري (١٣٥٦).

(٣) أي: فانطلقت حيران هائماً، لا أدري أين أتوجَّه من شدَّة ذلك الغمِّ والهمِّ.

(٤) وهما جبلا مكَّة: أبو قبيس، والجبل الذي يقابله.

(٥) رواه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

وقولُهُ: «فَلَم أستَفِق إلا وأنا بقَرنِ الثَّعالبِ»: أي: لم أفطِن لنَفسي، وأتنبَّه لحالي، وللمَوضِعِ الذي أنا ذاهِبٌ إليه وفيه، إلا وأنا عندَ قَرنِ الثَّعالبِ؛ لكَثرَةِ هَمِّي الذي كنتُ فيه، وقَرنُ الثَّعالبِ هو قَرنُ المنازِلِ، وهو ميقاتُ أهل نَجدٍ[1].

* وكان يَحمِلُ هَمَّ أُمَّتِهِ، ومَصيرِها في الآخِرَةِ:

عن عبدِاللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ النبيَّ ﷺ تَلا قولَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في إبراهيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ [إبراهيم: ٣٦] الآيةَ، وقال عيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فرَفَعَ يَدَيهِ، وقال: **«اللهمَّ أُمَّتي أُمَّتي»**، وبَكَى.

فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: **«يا جبريلُ، اذهَب إلى محمدٍ -ورَبُّكَ أعلَمُ- فسَلهُ: ما يُبكيكَ؟»** فأتاهُ جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فسَألَهُ، فأخبَرَهُ رسولُ اللهِ ﷺ بما قال -وهوَ أعلَمُ-، فقال اللهُ: **«يا جبريلُ، اذهَب إلى محمدٍ فقُل: إنَّا سَنُرضيكَ في أُمَّتِكَ، ولا نَسوءُكَ»**[2].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذا الحديثُ مُشتَمِلٌ على أنواعٍ مِنَ الفَوائِدِ، **منها**: بَيانُ كَمالِ شَفَقَةِ النبيِّ ﷺ على أُمَّتِهِ، واعتِنائِهِ بمَصالحِهِم، واهتِمامِهِ بأمرِهِم.

ومنها: البِشارَةُ العَظيمَةُ لهَذِهِ الأُمَّةِ -زادَها اللهُ تعالى شَرَفًا- بما وعَدَها اللهُ تعالى بقولِهِ: «**سَنُرضيكَ في أُمَّتِكَ، ولا نَسوءُكَ**»، وهذا من أرجَى الأحاديثِ لهَذِهِ الأُمَّةِ، أو أرجاها»[3].

* ومِنَ الهمومِ التي حَمَلَها النبيُّ ﷺ: هَمُّ الصَّلاةِ، وجَمعِ الناسِ لها، وذلك أوّلَ ما شُرِعَ الأذانُ:

فعن أبي عُمَيرِ بنِ أنسٍ، عن عُمومَةٍ له مِنَ الأنصارِ، قال: اهتَمَّ النبيُّ ﷺ للصَّلاةِ، كَيفَ يَجمَعُ الناسَ لها؟ فقيل لَهُ: انصِب رايَةً عندَ حُضورِ الصَّلاةِ، فإذا رَأوها آذَنَ بعضُهم

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٢/ ١٥٥).

(٢) رواه مسلم (٢٠٢).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٣/ ٧٩) باختصارٍ.

بعضًا، فلَم يُعجِبهُ ذلك، قال: فذُكِرَ له القُنعُ، يعني: الشَّبُّورَ[١]، فلَم يُعجِبهُ ذلك، وقال: «**هوَ من أمرِ اليَهودِ**»، قال: فذُكِرَ له الناقوسُ، فقال: «**هوَ من أمرِ النَّصارَى**»، فانصَرَفَ عبدُاللهِ بنُ زَيدِ بنِ عبدِ رَبِّهِ، وهو مُهتَمٌّ لِهَمِّ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأُرِيَ الأذانَ في مَنامِهِ.

فَغَدا على رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخبَرَهُ، فقال لَهُ: يا رسولَ اللهِ إنِّي لَبَيْنَ نائِمٍ ويَقظانَ، إذ أتاني آتٍ، فأراني الأذانَ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا بلالُ، قُم فانظُر ما يَأمُرُكَ بِهِ عبدُاللهِ بنُ زَيدٍ، فافعَلهُ**»[٢].

*** وكان اهتِمامُهُ وانشِغالُ بالِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصَّلاةِ، حتى وهو في مَرَضِ مَوتِهِ:**

فعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: ثَقُلَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**أصَلَّى الناسُ؟**»، قُلنا: لا، هم يَنتَظِرونَكَ، قال: «**ضَعوا لي ماءً في المِخضَبِ**»، قالت: ففَعَلنا، فاغتَسَلَ، فذَهَبَ لِيَنوءَ، فأُغميَ عليه، ثم أفاقَ، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أصَلَّى الناسُ؟**» ... الحديثَ[٣].

وهيَ آخِرُ ما وصَّى بِهِ:

فعن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: كان آخِرُ كَلامِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الصَّلاةَ، الصَّلاةَ، اتَّقوا اللهَ فيما مَلَكَت أيمانُكُم**»[٤].

وعن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقولُ في مَرَضِهِ الذي تُوُفِّيَ فيه: «**الصَّلاةَ، الصَّلاةَ، وما مَلَكَت أيمانُكُم**» فما زالَ يقولُها، حتى ما يَفيضُ بها لسانُهُ[٥].

قولُهُ: «**الصَّلاةَ، الصَّلاةَ**»: أيِ الزَموها، واهتَمُّوا بشَأنِها، ولا تَغفُلوا عَنها.

وقولُهُ: «**حَتَّى ما يَفيضَ بها لسانُهُ**»: أي ما يَجري ولا يَسيلُ بهذه الكلِمَةِ لسانُهُ، مِن: فاضَ الماءُ، إذا سالَ وجَرَى، حتى لم يَقدِر على الإفصاحِ بهذه الكلِمَةِ[٦].

---

(١) وهو البوق.

(٢) رواه أبوداود في سننه (٤٩٨)، وصححه الحافظ في الفتح (٢/ ٨١)، وأصله في الصحيحين، من حديث أنسٍ، وغيره.

(٣) رواه البخاري (٦٨٧)، ومسلم (٤١٨).

(٤) رواه أبوداود (٥١٥٦)، وابن ماجه (٢٦٩٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٦١٦).

(٥) رواه ابن ماجه (١٦٢٥)، وأحمد (٢٦٦٥٧)، وصححه البوصيريُّ في الزُّوائد (٢/ ٥٦).

(٦) حاشية السِّنديِّ على ابن ماجه (١/ ٤٩٥).

* وكان يَشغَلُ اهتِمامَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حالُ أُمَّتِهِ من بعدِهِ:

عنِ العِرباضِ بنِ ساريَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: وعَظَنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -يومًا- بعدَ صَلاةِ الغَداةِ، مَوعِظَةً بَليغَةً، ذَرَفَت منها العُيونُ، ووَجِلَت منها القُلوبُ، فقال قائِلٌ: يا رسولَ اللهِ، كَأَنَّ هَذِهِ مَوعِظَةُ مودِّعٍ، فماذا تَعهَدُ إلَينا؟ فقال: «**أوصيكُم بتَقوَى اللهِ، والسَّمعِ والطَّاعَةِ، وإن عبدًا حَبَشيًّا؛ فإنَّهُ مَن يَعِش مِنكُم بعدي فسَيَرَى اختِلافًا كَثيرًا، فعليكم بسُنَّتي، وسُنَّةِ الخُلَفاءِ المهديِّينَ الراشِدينَ، تَمَسَّكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ، وإيَّاكُم ومُحدَثاتِ الأُمورِ؛ فإنَّ كُلَّ مُحدَثَةٍ بدعَةٌ، وكُلَّ بدعَةٍ ضَلالَةٌ**»[1].

وعن جَريرِ بنِ عبدِاللهِ البَجَليِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لَهُ في حَجَّةِ الوَداعِ: «استَنصِتِ الناسَ»، فقال: «**لا تَرجِعوا بعدي كُفَّارًا، يَضرِبُ بعضُكُم رِقابَ بعضٍ**»[2].

* وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَريصًا على بقاءِ هَذِهِ الأُمَّةِ على التَّوحيدِ، ومُهتمًّا ألَّا تَقَعَ فيما وقَعَت فيه الأُمَمُ السَّابِقَةُ، مِنَ الغُلوِّ:

فعن عائشةَ، وعبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قالا: لَمَّا نَزَلَ برسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، طَفِقَ يَطرَحُ خَميصَةً[3] له على وجهِهِ، فإذا اغتَمَّ بها كَشَفَها عن وجهِهِ، فقال -وَهوَ كَذلكَ-: «**لَعنَةُ اللهِ على اليَهودِ والنَّصارَى، اتَّخَذوا قُبورَ أنبيائِهِم مَساجِدَ**»، يُحَذِّرُ ما صَنَعوا[4].

* وخشيَ على أُمَّتِهِ من فِتنَةِ الدُّنيا:

فعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَلَسَ ذاتَ يومٍ على المِنبَرِ، وجَلَسنا حَولَهُ، فقال: «**إنّ مِمَّا أخافُ عليكم من بعدي: ما يُفتَحُ عليكم من زَهرَةِ الدُّنيا وزينَتِها**»[5].

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٧٦)، وصححه، وأبوداود (٤٦٠٧)، وابن ماجه (٤٢)، وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥).

(٣) هي ثوب مخطَّطٌ.

(٤) رواه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١).

(٥) رواه البخاري (١٤٦٥)، ومسلم (١٠٥٢).

وعن عَمرِو بنِ عَوفٍ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**واللهِ ما الفَقرَ أخشَى عليكم، ولكني أخشَى عليكم أن تُبسَطَ الدُّنيا عليكم، كَما بُسِطَت على مَن كان قبلَكُم، فتَنافَسوها كَما تَنافَسوها، وتُهلِكَكُم كَما أهلَكَتهم**»(١).

* خوفُهُ ﷺ على أُمَّتِهِ، من فِتنَةِ الأئِمَّةِ المُضِلِّينَ:

عن ثَوبانَ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ من أخوَفِ ما أخافُ على أُمَّتي: الأئِمَّةَ المُضِلِّينَ**»(٢).

«**الأئِمَّةَ المُضلِّين**»: المائِلينَ عن الحَقِّ، المُميلينَ عَنهُ، والأئِمَّةُ: جَمعُ إمامٍ، وهو مُقتَدَى القَومِ، ورَئيسُهم، ومَن يَدعوهم إلى قولٍ، أو فِعلٍ، أوِ اعتِقادٍ.

يحتَملُ أنَّهُ يُريدُ أنَّهُ يَخافُ على عَوامِّ أُمَّتِهِ جَورَ جَميعِ أئِمَّةِ الضَّلال: من أئِمَّةِ العِلمِ، والسُّلطانِ.

فالسُّلطانُ إذا ضَلَّ عن العَدلِ وبايَنَ الحَقَّ، تَبِعَهُ كافَّةُ العَوامِّ؛ خَوفًا من سُلطانِهِ، وطَمَعًا في جاهِهِ.

والإمامُ في العِلمِ قَد يَقَعُ في شُبهَةٍ، ويَعتَريهِ زَلَّةٌ، فيَضِلُّ بِهَوًى، أو بدعَةٍ، فيَتبَعُهُ عَوامُّ المسلمينَ تَقليدًا، ويَتَسامَحُ بمُتابَعَةِ هَوًى، أو يَتَهافَتُ على حُطامِ الدُّنيا من أموالِ السُّلطانِ، أو يَرتَكِبُ مَعصيَةً، فيَغتَرّ بِهِ العَوامُّ.

و**فائِدَةُ الحديثِ**: تَحذيرُ الإمامِ مِنَ الإمامَةِ على ضَلالَةٍ، وتَخويفُ الرعيَّةِ من مُتابَعَتِهِ على الاغتِرارِ بإمامَتِهِ(٣).

* واهتَمَّ بشأنِ دَنانيرَ كانت عِندَهُ، لم يَكن قد فرّقَها:

عن أبي أُمامَةَ بنِ سَهلٍ، قال: دَخَلتُ أنا وعُروَةُ بنُ الزبيرِ يومًا على عائشةَ، فقالت: لَو

---

(١) رواه البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١).

(٢) رواه أبوداود (٤٢٥٢)، وابن حبّان (٦٧١٤)، واللفظ له، وصححه الألباني.

(٣) فيض القدير (٢/ ٥٦٣).

رَأيتُها نَبيَّ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاتَ يومٍ في مَرَضٍ مَرِضَهُ، قالت: وكان له عندي سِتَّةُ دَنانيرَ، -أو سَبعَةٌ-[١].

- قالت: فأمَرَني نَبيُّ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أُفرِّقَها.

- قالت: فشَغَلَني وجَعُ نَبيِّ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى عافاهُ اللهُ.

- قالت: ثم سَألَني عَنها، فقال: «**ما فعَلَتِ السِّتَّةُ؟**» -قال: «**أوِ السَّبعَةُ؟**»-.

- قُلتُ: لا واللهِ، لَقَد كان شَغَلَني وجَعُكَ.

- قالت: فدَعا بها، ثم صَفَّها في كَفِّهِ، فقال: «**ما ظَنُّ نَبيِّ اللهِ، لَو لَقيَ اللهَ** عَزَّ وَجَلَّ، **وهذه عندَهُ؟**»[٢].

* كما اهتَمَّ بشأنِ تِبرٍ[٣] كان لديهِ، ولم يكُن قد قَسَمَهُ:

فعن عُقبَةَ بنِ الحارِثِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: صَلَّيتُ مع النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العَصرَ، فلَمَّا سَلَّمَ قامَ سَريعًا، ودَخَلَ على بعضِ نِسائِهِ ثم خرجَ، ورَأى ما في وُجوهِ القَومِ من تَعَجُّبِهِم لسُرعَتِهِ، فقال: «**ذَكَرتُ -وَأنا في الصَّلاةِ- تِبرًا عندَنا، فكَرِهتُ أن يُمسيَ -أو يَبيتَ- عندَنا، فأمَرتُ بِقِسمَتِهِ**»[٤].

* وكان مِمَّا يهتمّ لهُ، ويَشغَلُ بالَهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أمرُ أصحابِهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ:

عن جابِرِ بنِ سَمُرَةَ، قال: خَطَبَنا عمرُ بنُ الخَطَّابِ بالجابيَةِ، فقال: إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قامَ فينا مِثلَ مُقامي فيكُم، فقال: «**احفَظوني في أصحابي، ثم الذينَ يَلونَهم، ثم الذينَ يَلونَهم، ثم يَفشو الكذِبُ، حتى يَشهَدَ الرجُلُ وما يُستَشهَدُ، ويَحلِفَ وما يُستَحلَفُ**»[٥].

---

(١) الشَّكُّ من الراوي.

(٢) رواه أحمد (٢٤٧٣٣)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٠١٤).

(٣) التِّبر: هو قطع الذَّهب قبل أن يضرب.

(٤) رواه البخاري (١٢٢١).

(٥) رواه ابن ماجه (٢٣٦٣)، وصححه الألباني.

وعن زَيدِ بنِ ثابتٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: بَعَثَني رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ أُحُدٍ؛ لطَلَبِ سَعدِ بنِ الربيعِ، وقال لي: «**إن رَأيتَهُ، فأقرِئهُ مِنِّي السَّلامَ، وقُل لَهُ: يقولُ لَكَ رسولُ اللهِ: كَيفَ تَجِدُكَ؟**»، قال: فجَعَلتُ أطوفُ بين القَتلى، فأصَبتُهُ وهو في آخِرِ رَمَقٍ، وبِهِ سَبعونَ ضَربَةً، ما بين طَعنَةٍ برُمحٍ، وضَربَةٍ بسَيفٍ، ورَميَةٍ بسَهمٍ، فقُلتُ لَهُ: يا سَعدُ، إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقرَأُ عليكَ السَّلامَ، ويقولُ لَكُ: «**خَبِّرني، كَيفَ تَجِدُكَ؟**»، قال: على رسولِ اللهِ السَّلامُ، وعليكَ السَّلامُ، قُل لَهُ: يا رسولَ اللهِ، أجِدُني أجِدُ ريحَ الجَنَّةِ، وقُل لقَوميَ الأنصارِ: لا عُذرَ لَكُم عندَ اللهِ، أن يُخلَصَ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيكُم شُفرٌ يَطرِفُ[١]، قال: وفاضَت نَفسُهُ، رَحِمَهُ اللهُ[٢].

* وكان يهتمّ بفُقَرائِهِم:

عن جَريرِ بنِ عبدِاللهِ البَجَليِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: كُنَّا عندَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صَدرِ النَّهارِ، فجاءَهُ قَومٌ حُفاةٌ عُراةٌ مُجتابي النِّمارِ أوِ العَباءِ، مُتَقَلِّدي السُّيوفِ، عامَّتُهم من مُضَرَ، بل كُلُّهم من مُضَرَ، فتَمَعَّرَ وجهُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لما رَأى بِهِم مِنَ الفاقَةِ، فدَخَلَ ثم خرجَ، فأمَرَ بلالًا، فأذَّنَ وأقامَ فصَلَّى، ثم خَطَبَ، فقال: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ**﴾ [النساء: ١] إلى آخِرِ الآيةِ، والآيةَ التي في الحَشرِ: ﴿**ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٌ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ**﴾ [الحشر: ١٨] ثمّ قال: «**تَصَدَّقَ رَجُلٌ من دينارِهِ، من دِرهَمِهِ، من ثَوبِهِ، من صاعِ بُرِّهِ، من صاعِ تَمرِهِ** -حتى قال- **ولو بشِقِّ تَمرَةٍ**».

فَجاءَ رَجُلٌ مِنَ الأنصارِ بصُرَّةٍ، كادَت كَفُّهُ تعجِزُ عَنها، بل قَد عَجَزَت، ثم تَتابَعَ النَّاسُ، حتى رَأيتُ كَومَينِ من طعامٍ وثيابٍ، حتى رَأيتُ وجهَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَهَلَّلُ، كَأنَّهُ مُذهَبَةٌ[٣].

---

(١) الشُّفر -بالضَّمِّ، وقد يفتح-: حرف جفن العين، الذي ينبت عليه الشعر. النهاية (٢/ ٤٨٤).

(٢) رواه الحاكم (٤٩٠٦)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) رواه مسلم (١٠١٧)، والمذهبة: من الشيَّء المذهب، وهو المموَّه بالذَّهب.

*** وقد اهتَمَّ واغتَمَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَن قُتِلَ من أصحابِهِ، في بئرِ مَعونَةَ:**

قال أنسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ما رَأيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجَدَ على سَرِيَّةٍ، ما وجَدَ على السَّبعينَ، الذينَ أُصيبوا يومَ بئرِ مَعونَةَ، كانوا يُدعَونَ القُرَّاءَ، فمَكَثَ شَهرًا يَدعو على قَتَلَتِهِم»(١).

*** وكان يهمُّهُ ويَشغَلُ بالَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أمرُ أزواجِهِ من بعدِهِ:**

عن أبي سَلَمَةَ بنِ عبدِالرحمَنِ بنِ عَوفٍ، عن عائشةَ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقولُ: «**إنَّ أمرَكُنَّ لَمِمَّا يُهِمُّني بعدي، ولَن يَصبِرَ عليكُنَّ إلا الصَّابِرونَ**».

قال: ثم تقولُ عائشةُ: «فَسَقَى اللهُ أباكَ من سَلسَبيلِ الجَنَّةِ»، تُريدُ عبدَالرحمَنِ بنَ عَوفٍ، وقد كان وصَلَ أزواجَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمالٍ، يُقال: بيعَ بأربَعينَ ألفًا(٢).

وقَولُهُ: «**مِمَّا يُهِمُّني**»: أي: مِمَّا يوقِعُني في الهَمِّ.

«**بَعدي**»: أي: بعد وفاتي، حيث لم يَترُك لَهُنَّ ميراثًا، وهُنَّ قد آثَرنَ الحَياةَ الآخِرَةَ على الدُّنيا، حينَ خُيِّرنَ(٣).

*** وكان يَسألُ اللهَ تعالى له ولأصحابِهِ أن لا تكونَ الدُّنيا أكبَرَ هَمِّهِم:**

عنِ ابنِ عمرَ قال: قَلَّما كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقومُ من مَجلِسٍ، حتى يَدعوَ بهَؤُلاءِ الدَّعَواتِ لأصحابِهِ: «**اللهمَّ اقسِم لَنا من خَشيَتِكَ ما يَحولُ بيننا وبين مَعاصيكَ، ومِن طاعَتِكَ ما تُبَلِّغُنا بِهِ جَنَّتَكَ، ومِن اليَقينِ ما تُهَوِّنُ بِهِ عَلَينا مُصيباتِ الدُّنيا، ومَتِّعنا بأسماعِنا وأبصارِنا وقوَّتِنا ما أحيَيتَنا، واجعَلهُ الوارِثَ مِنَّا، واجعَل ثَأرَنا على مَن ظَلَمَنا، وانصُرنا على مَن عادانا، ولا تَجعَل مُصيبَتَنا في دينِنا، ولا تَجعَلِ الدُّنيا أكبَرَ هَمِّنا، ولا مَبلَغَ عِلمِنا، ولا تُسَلِّط عَلَينا مَن لا يَرحَمُنا**»(٤).

---

(١) رواه مسلم (٦٧٧).

(٢) رواه الترمذي (٣٧٤٩)، وابن حبَّان (٦٩٩٥)، والحاكم (٥٣٦٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٩٤).

(٣) مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٩٥٩).

(٤) رواه الترمذي (٣٥٠٢)، وحسنه الألباني.

«وَلا تَجعَلِ الدُّنيا أكبَرَ هَمِّنا»:

أي: لا تَجعَل طَلَبَ المالِ، والجاهِ، أكبَرَ قَصدِنا، أو حُزنِنا، بَلِ اجعَل أكبَرَ قَصدِنا، أو حُزنِنا، مَصروفًا في عَمَلِ الآخِرَةِ.

وفيه: أنَّ قَليلًا مِنَ الهَمِّ، فيما لا بُدَ منه في أمرِ المعاشِ، مُرَخَّصٌ فيه(١).

وقال الشُّوكانيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «لَمَّا كانتِ الدُّنيا حَقيرةً، يَسيرَةً، والبَقاءُ فيها ذاهِبًا، وطويلُها كالقَصيرِ، وباقيها كَذاهِبِها، قال: «**وَلا تَجعَلِ الدُّنيا أكبَرَ هَمِّنا**»؛ فإنَّها لَيست بحَقيقَةٍ بذلك، وإنما قال: «**أكبَرَ هَمِّنا**»؛ لأنَّ يَسيرَ الهَمِّ لا بُدَّ منه في دارِ الأكدارِ، ولو لم يَكن إلا بتحصيلِ ما تَمَسُّ إليه الحاجةُ، مِن قوامِ العَيشِ، وسَدادِ الفاقَةِ»(٢).

(١) مرقاة المفاتيح (٥/ ١٧٢٨).
(٢) تحفة الذَّاكرين (ص: ٤٥٣).

نِسيانُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

النِّسيانُ: ضِدُّ الذِّكرِ، والحِفظِ، **قال أبو حَيَّان الأندَلُسيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «النِّسيانُ: ضِدُّ الذِّكرِ، وهو السَّهوُ الحادِثُ بعدَ حُصولِ العِلمِ»[١].

وقال ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «النِّسيانُ: عَدَمُ خُطورِ المعلومِ السَّابِقِ في حافِظَةِ الإنسانِ، بُرهَةً، أو زَمانًا طَويلًا»[٢].

وقد نَزَّهَ الربُّ تعالى نَفسَهُ عن النِّسيانِ، فقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، وقال موسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

وخَلَقَ خَلقَهُ مِنَ البَشَرِ، وجَعَلَ في طَبعِهِمُ النِّسيانَ، فصَحَّ عن ابنِ عبَّاسٍ، قال: «إنما سُمِّيَ الإنسانُ إنسانًا؛ لأنَّهُ عُهِدَ إليه فنَسيَ»[٣].

والنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعتَريهِ ما يَعتَري البَشَرَ، مِنَ النِّسيانِ، وعَدمِ التَّذكُّرِ، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما أنا بَشَرٌ مِثلُكُم، أنسَى كما تَنسَونَ**»[٤].

ورَفَعَ اللهُ الإثمَ عن الناسي، فقال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾

---

(١) البحر المحيط (١/ ٢٩٤).

(٢) التَّحرير والتَّنوير (٣٠/ ٢٨٠).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الصغير (٩٢٥)، والطبريُّ في التفسير (١٧/ ٩٦).

(٤) رواه البخاري (٤٠١)، ومسلم (٥٧٢).

[البقرة: ٢٨٦]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ قد تجاوَزَ عن أُمَّتي: الخَطَأ، والنِّسيانَ، وما استُكرِهوا عليه**»(١).

وقال ابنُ عبدِالبَرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «النِّسيانُ لا يُعصَمُ منه أحَدٌ، نَبيًّا كان أو غيرَ نَبيٍّ»(٢).

وقال الحافِظُ ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَزَعَمَ بعضُ الأُصوليِّينَ، وبعضُ الصُّوفيَّة، أنَّهُ لا يَقَعُ منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسيانٌ أصلًا، وإنما يَقَعُ منه صورَتُهُ ليَسُنَّ... وهو قولٌ ضَعيفٌ»(٣).

واعتَمَدَ مَن يقولُ بهذا القولِ على حديثٍ لا يَصِحُّ، ذَكَرَهُ الإمامُ مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المَوَطَّأِ (٤٨٩)، أنَّهُ بَلَغَهُ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنِّي لأنسَى** -أو: **أُنَسَّى**-؛ **لأسُنَّ**».

قال الحافِظُ ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حديثُ: «**إنِّي لا أنسَى...**» لا أصلَ لَهُ، فإنَّهُ من بَلاغاتِ مالكٍ، التي لم توجَد مَوصولَةً بعدَ البَحثِ الشَّديدِ»(٤).

وقال الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «باطِلٌ، لا أصلَ لَهُ»(٥).

ومَعَ **نِسيانِهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **الجِبلِّيِّ، إلا أنَّهُ محفوظٌ مِنَ النِّسيانِ فيما يَتَعَلَّقُ بالوَحيِ**، فلا يَنسَى منه شَيئًا، إلا بمُقتَضَى أمرِ اللهِ، وحِكمَتِهِ.

فإذا تَعَلَّقَ الأمرُ بأحوال الدُّنيا جازَ عليه النِّسيانُ؛ لأنَّهُ بَشَرٌ مِنَ البَشَرِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإذا تَعَلَّقَ الأمرُ بالوَحيِ عُصِمَ مِنَ النِّسيانِ، إلا ما شاءَ اللهُ بحِكمَتِهِ وعِلمِهِ.

قال ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «النِّسيانُ مِنَ الأعراضِ البَشَريَّةِ، الجائِزَةِ على الأنبياءِ، في غَيرِ تَبليغِ ما أُمِروا بتَبليغِهِ، عندَ جُمهورِ عُلَماءِ السُّنَّةِ»(٦).

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٠٤٣)، وحسنه النووي في الأربعين (ص١١٠).

(٢) التَّمهيد (١/ ٣٤١).

(٣) فتح الباري (٩/ ٨٦).

(٤) المصدر السابق (٣/ ١٠١).

(٥) الضَّعيفة (١٠١).

(٦) التَّحرير والتَّنوير (٧/ ٢٩٠).

قال تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعلى: ٦-٧]، وهذا إخبارٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ووَعدٌ منه لَهُ، بأنَّهُ سَيُقرِئُهُ قِراءَةً لا يَنساها، إلا ما شاءَ اللهُ[١].

وقال الألوسيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «والذي وقَفتُ عليه في مُعتَبَراتِ كُتُبِهِم: أنَّهم لا يُجَوِّزونَ النِّسيانَ، وكذا السَّهوَ، على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وكذا على سائِرِ الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- فيما يُؤَدِّيهِ عن اللهِ تعالى مِنَ القُرآنِ، والوَحيِ، وأمَّا ما سِوَى ذلك: فيُجَوِّزونَ عليه أن يَنساهُ، ما لم يُؤَدِّ إلى إخلال الدِّينِ»[٢].

وفي السُّنَّةِ النبويَّةِ شَواهِدُ مِنَ الأحداثِ، والمواقِفِ، والأحوال، التي نَسيَ فيها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

* فَمِنَ النِّسيانِ الذي وقَعَ منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نِسيانُهُ لبعضِ آياتٍ مِنَ القُرآنِ:

عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: سَمِعَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا[٣] يَقرَأُ من اللَّيلِ في المسجِدِ، فقال: «**يَرحمُهُ اللهُ، لَقَد أذكَرَني كَذا وكذا آيَةً، كنتُ أُنسيتُها من سورَةِ كَذا وكذا**»[٤].

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي الحديثِ حُجَّةٌ لِمَن أجازَ النِّسيانَ على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيما ليس طَريقُهُ البَلاغَ مُطلَقًا، وكذا فيما طَريقُهُ البَلاغُ، لكن بشَرطَينِ: أحَدُهما: أنَّهُ بعدَما يَقَعُ منه تَبليغُهُ، والآخَرُ: أنَّهُ لا يَستَمِرُّ على نِسيانِهِ، بل يَحصُلُ له تَذَكُّرُهُ: إمَّا بنَفسِهِ، وإمَّا بغَيرِهِ»[٥].

وقال ابنُ حَزم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا سَبيلَ إلى أن يَنسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ شَيئًا مِنَ القُرآنِ قبلَ أن يُبَلِّغَهُ، فإذا بَلَّغَهُ، وحَفِظَهُ للنَّاسِ، فلَسنا نُنكِرُ أن يَنساهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّهُ محفوظٌ، مُثبَتٌ»[٦].

وفي هذا الحديثِ: أنَّ مَن نَسيَ شَيئًا مِنَ القُرآنِ، يقولُ: أُنسيتُ كَذا وكذا، ولا يقولُ: نَسيتُ.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٣٧٩).

(٢) تفسير الألوسيِّ (٥/ ٣٧٠).

(٣) هو عبَّاد بن بشر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) رواه البخاري (٥٠٣٨) ومسلم (٧٨٨).

(٥) فتح الباري (٩/ ٨٦).

(٦) الإحكام لابن حزم (٤/ ٧٩).

وعن ابنِ مَسعودٍ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ، يقولُ: «**بِئسَ ما لأحَدِهِم أن يقولَ: نَسيتُ آيةَ كَيتَ وكَيتَ، بل نُسِّيَ، واستَذكِروا القُرآنَ؛ فإنَّهُ أشَدُّ تَفَصِّيًا من صُدورِ الرِّجال، مِنَ النَّعَمِ بعُقُلِها**»[(١)].

وفي لَفظٍ لُمسلِمٍ: «**لا يَقُل أحَدُكُم: نَسيتُ آيةَ كَيتَ وكَيتَ، بل هو نُسِّيَ**».

قال النووي رحمه الله: «فيه كَراهَةُ قولِ: نَسيتُ آيةَ كَذا، وهي كَراهَةُ تَنزيهٍ، وأنَّهُ لا يُكرَهُ قولُ: أُنسيتُها، وإنما نُهيَ عن نَسيتُها؛ لأنَّهُ يَتَضَمَّنُ التَّساهُلَ فيها، والتَّغافُلَ عَنهُ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ [طه: ١٢٦]»[(٢)].

قال ابنُ كَثيرٍ رحمه الله: «في هذا الحديثِ دَليلٌ على أنَّ حُصولَ النِّسيانِ للشَّخصِ ليس بنَقصٍ لَهُ، إذا كان بعدَ الاجتِهادِ، والحِرصِ، وفي حديثِ ابنِ مَسعودٍ أدَبٌ في التَّعبيرِ عن حُصولِ ذلك، فلا يقولُ: نَسيتُ آيةَ كَذا؛ فإنَّ النِّسيانَ ليس من فِعلِ العبدِ، وقد يَصدُرُ عنه أسبابُهُ مِنَ التَّناسي، والتَّغافُلِ، والتَّهاوُنِ، المُفضي إلى ذلك، فأمَّا النِّسيانُ نَفسُهُ: فليس بفِعلِهِ؛ ولهذا قال: «**بل هو نُسِّيَ**»، مَبنيٌّ لما لم يُسَمَّ فاعِلُهُ»[(٣)].

وقال الإسماعيليُّ رحمه الله: «النِّسيانُ مِنَ النبيِّ ﷺ لشيءٍ مِنَ القُرآنِ، يكونُ على قِسمَينِ:

أحَدِهما: نِسيانُهُ الذي يَتَذَكَّرُهُ عن قُربٍ، وذلك قائِمٌ بالطِّباعِ البَشَرِيَّةِ.

والثاني: أن يَرفَعَهُ اللهُ عن قَلبِهِ، على إرادَةِ نَسخِ تِلاوَتِهِ، وهو المُشارُ إليه بالاستِثناءِ في قولِهِ تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦-٧].

فأمَّا القِسمُ الأولُ: فعارِضٌ سَريعُ الزَّوال؛ لظاهِرِ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

---

(١) رواه البخاري (٥٠٣٢)، ومسلم (٧٩٠).

(٢) شرح مسلم (٦/ ٧٦).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٧٥).

وأمَّا الثاني: فداخِلٌ في قولِهِ تعالى: ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا**﴾ [البقرة: ١٠٦] على قِراءَة مَن قَرَأ بضَمِّ أوَّلِهِ من غَيرِ هَمزَة»(١).

فإنَّ اللهَ تعالى يُنسي نَبيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعضَ الآياتِ إذا أرادَ نَسخَها؛ كَما قال تعالى: ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [البقرة: ١٠٦].

قال قَتادَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان اللهُ تعالى يُنسي نَبيَّهُ ما يَشاءُ، ويَنسَخُ ما يَشاءُ»(٢).

وقال شَيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذِهِ الآيةُ فيها قِراءَتانِ مَشهورَتانِ: قِراءَةُ الأكثَرينَ: ﴿**أَوْ نُنسِهَا**﴾ مِن: أنساهُ يُنسيهِ، وقَرَأ ابنُ كَثيرٍ، وأبو عَمرٍو: **(أو نَنسَأها)** بالهَمزِ، مِن: نَسَأهُ يَنسَأهُ. فالأولُ: مِنَ النِّسيانِ، والثاني: مِن: نَسَأ، إذا أخَّرَ.

وقد كان بعضُ القُرآنِ يُنسَخُ، وبعضُهُ يُنسَى -كَما جاءَتِ الآثارُ بذلك- وما أنساهُ سبحانه هو مِمَّا نَسَخَ حُكمَهُ، وتِلاوَتَهُ»(٣).

* وقد نَسيَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعضَ آياتٍ مِنَ القُرآنِ، وهو في الصَّلاةِ:

فعن عبدِاللهِ بنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صَلَّى صَلاةً، فقَرَأ فيها، فلُبِسَ عليه(٤)، فلَمَّا انصَرَفَ قال لأُبَيٍّ: «**أصَلَّيتَ معنا؟**».

- قال: نعم.

- قال: «**فَما مَنَعَكَ أن تَفتَحَ عَلَيَّ؟**»(٥).

والحديثُ يَدُلُّ على مشروعيَّةِ الفَتحِ على الإمامِ، فعند نِسيانِ الإمامِ الآيَةَ، يكونُ الفَتحُ

---

(١) فتح الباري (٩/ ٨٦).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٧٧).

(٣) مجموع الفتاوى (١٧/ ١٨٣ -١٨٤).

(٤) أي: التبس، واختلط عليه.

(٥) رواه أبوداود (٩٠٧)، والبيهقي (٥٧٨٣)، وصححه الألباني.

عليه بتَذكيرِهِ تِلكَ الآيَةَ، وعند نِسيانِهِ لغَيرِها مِنَ الأركانِ، يكونُ الفَتحُ بالتَّسبيحِ للرِّجال، والتَّصفيقِ للنِّساءِ[1].

وعن المُسَوَّرِ بنِ يَزيدَ المالكيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: شَهِدتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقرَأُ في الصَّلاةِ، فتَرَكَ شَيئًا لم يَقرَأْهُ.

- فقال له رَجُلٌ: يا رسولَ اللهِ، تَرَكتَ آيةَ كَذا وكذا.

- فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَلَّا أذكَرتَنيها**».

- فقال الرجُلُ: كنتُ أُراها نُسِخَت[2].

وعندَ ابنِ حِبَّان: «فهَلَّا أذكَرتَنيها؟».

- قال: ظَنَنتُ أنَّها قَد نُسِخَت.

- قال: «فإنَّها لم تُنسَخ».

* ومِن نِسيانِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نِسيانُهُ وسَهوُهُ في الصَّلاةِ:

فَقَد وقَعَ منه النِّسيانُ في الصَّلاةِ، بزيادَةٍ أحيانًا، وبِنَقصٍ أحيانًا أُخرَى، ولَم يَقَع منه السَّهوُ بالشَّكِّ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأمَّا الشَّكُّ: فلَم يَعرِض له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[3].

* فَصَلَّى -مَرَّةً- الظُّهرَ، خَمسَ رَكعاتٍ:

عن إبراهيمَ بنِ سوَيدٍ، قال: صَلَّى بنا عَلقَمَةُ الظُّهرَ خَمسًا، فلَمَّا سَلَّمَ، قال القَومُ: يا أبا شِبلٍ، قَد صَلَّيتَ خَمسًا.

---

(١) عون المعبود (٣/ ١٢٤).

(٢) رواه أبوداود (٩٠٧)، وابن حبَّان (٢٢٤١)، وحسنه الألباني.

(٣) زاد المعاد (١/ ٢٨٢).

- قال: كَلَّا، ما فعَلتُ.

- قالوا: بَلى.

وكنتُ في ناحيَةِ القَومِ وأنا غُلامٌ، فقُلتُ: بَلى، قَد صَلَّيتَ خَمسًا.

- فقال لي: وأنتَ -أيضًا- يا أعوَرُ[١]، تقولُ ذاكَ؟

- قُلتُ: نعم.

فانفَتَلَ، فسَجَدَ سَجدَتَينِ، ثم سَلَّمَ، ثم قال: قال عبدُاللهِ بنُ مَسعودٍ: صَلَّى بنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَمسًا، فلمَّا انفتَلَ، تَوَشوَشَ القَومُ بينهم[٢].

- فقال: «**ما شَأنُكُم؟**».

- قالوا: يا رسولَ اللهِ، هَل زيدَ في الصَّلاةِ؟

- قال: «**لا**».

- قالوا: فإنَّكَ قَد صَلَّيتَ خَمسًا.

فانفَتَلَ، ثم سَجَدَ سَجدَتَينِ، ثم سَلَّمَ.

ثم قال: «**إنما أنا بَشَرٌ مِثلُكُم، أنسَى كَما تَنسَونَ، فإذا نَسيَ أحَدُكُم، فليَسجُد سَجدَتَينِ**»[٣].

فيه: أنَّ مَن زادَ في صَلاتِهِ رَكعَةً -ناسيًا- لم تَبطُل صَلاتُهُ، بل إن عَلِمَ بعدَ السَّلامِ، فقَد مَضَت صَلاتُهُ صَحيحَةً، ويَسجُدُ للسَّهوِ بعدَ السَّلامِ.

وإن ذَكَرَ قبلَ السَّلامِ، عادَ إلى القعودِ، سَواء كان في قيامٍ، أو رُكوعٍ، أو سُجودٍ، أو غَيرِها، ويَتَشَهَّدُ، ويُسَلِّمُ، ويَسجُدُ للسَّهوِ[٤].

---

(١) فيه دليلٌ على جواز قول مثل هذا الكلام، لقرابته، وتلميذه، وتابعه، إذا لم يتأذَّ به.

(٢) الوشوشة: صوتٌ فيه اختلاطٍ.

(٣) رواه البخاري (٤٠١)، ومسلم (٥٧٢)، واللفظ له.

(٤) شرح النووي على مسلم (٥/ ٦٤).

وظاهِرُ الحديثِ: أنَّهم تابَعوهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الزِّيادَةِ، ففيه دَليلٌ على أنَّ مُتابَعَةَ المُؤتَمِّ للإمامِ، فيما ظَنَّهُ واجِبًا، لا يُفسِدُ صَلاتَهُ، فإنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يَأمُرهم بالإعادَةِ.

وهذا في حَقِّ أصحابِهِ في مِثلِ هَذِهِ الصُّورَةِ؛ لتَجويزِهِم التَّغييرَ في عَصرِ النُّبوَّةِ.

فأمَّا لَو اتَّفَقَ -الآنَ- قيامُ الإمامِ إلى الخامِسَةِ، سَبَّحَ له مَن خَلفهُ، فإن لم يَعُد، انتظَروهُ قُعودًا، حتى يَتَشَهَّدوا بتَشَهُّدِهِ، ويُسَلِّموا بتَسليمِهِ[١].

* وكَذلك نَسيَ في صَلاةِ العَصرِ، وسَلَّمَ من رَكعَتَينِ:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: صَلَّى بنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إحدَى صَلاتَيِ العَشيِّ، إمَّا الظُّهرَ، وإمَّا العَصرَ[٢]، فصَلىَّ بنا رَكعَتَينِ، ثم سَلَّمَ، ثم أتَى جِذعًا في قِبلَةِ المسجِدِ، فاتَّكَأ عليها، كَأنَّهُ غَضبانُ، ووَضَعَ يَدَهُ اليُمنَى على اليُسرَى، وشَبَّكَ بين أصابِعِهِ، ووَضَعَ خَدَّهُ الأيمَنَ على ظَهرِ كَفِّهِ اليُسرَى.

وخرجَتِ السَّرَعانُ[٣] من أبوابِ المسجِدِ، فقالوا: قَصُرَتِ الصَّلاةُ.

وفي القَومِ أبو بكرٍ وعمرُ، فهابا أن يُكَلِّماهُ، وفي القَومِ رَجُلٌ في يَدَيهِ طولٌ، يُقال لَهُ: ذو اليَدَينِ[٤].

- قال: يا رسولَ اللهِ، أقَصُرَتِ الصَّلاةُ، أم نَسيتَ؟

- قال: «**لَم أنسَ، ولم تُقصَر**».

- فقال: قَد كان بعضُ ذلك يا رسولَ اللهِ.

فَنظَرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمينًا وشِمالًا، فقال: «**ما يقولُ ذو اليَدَينِ؟**».

---

(١) سبل السَّلام (٢/ ٢٢١).

(٢) العشيُّ عند العرب: ما بين زوال الشَّمس وغروبها، وأكثر الرِّوايات أنها العصر.

(٣) السَّرَعان: أوائل الناس الذين يتسارعون إلى الشيِّء، ويقبلون عليه بسرعةٍ، ويجوز تسكين الراء.

(٤) اسمه: الخرباق بن عمرٍو، ولقبه: ذو اليدين؛ لطولٍ كان في يديه.

- قالوا: صَدَقَ، لم تُصَلِّ إلا رَكعَتَينِ.

فَتَقَدَّمَ، فصَلَّى ما تَرَكَ، ثم سَلَّمَ، ثم كَبَّرَ، وسَجَدَ مِثلَ سُجودِهِ أو أطوَلَ، ثم رَفَعَ رَأسَهُ، وكَبَّرَ، ثم كَبَّرَ، وسَجَدَ مِثلَ سُجودِهِ أو أطوَلَ، ثم رَفَعَ رَأسَهُ، وكَبَّرَ.

فَرُبَّما سَألوهُ[1]: ثم سَلَّمَ؟

فيقولُ: نُبِّئتُ أنَّ عِمرانَ بنَ حُصَينٍ قال: ثم سَلَّمَ[2].

وفي الحديثِ مِنَ الفَوائِدِ:

- أنَّ سُجودَ السَّهوِ يكونُ في آخِرِ الصَّلاةِ، والحِكمَةُ في ذلك: أنَّهُ شُرِعَ جابِرًا لما يَقَعُ فيها من خَلَلٍ، فكان آخِرًا؛ لجَبرِ جَميعِ ما تَقَدَّمَ.
- وأنَّ سُجودَ السَّهوِ بعدَ السَّلامِ عندَ الزِّيادَةِ[3].
- وأنَّهُ إذا سَجَدَ بعدَ السَّلامِ، يُسَلِّمُ بعدَ سُجودِ السَّهوِ.
- وأنَّ الكلام -سَهوًا- لا يَقطَعُ الصَّلاةَ.
- وأنَّ مَن تَحَوَّلَ عن القِبلَةِ -سَهوًا- لا إعادَةَ عليه.
- واستُدِلَّ بِهِ على أنَّ تَعَمُّدَ الكلامِ لَمصلَحَةِ الصَّلاةِ، لا يُبطِلُها.

* ونَسيَ في صَلاةِ المغرِبِ فسَلَّمَ من رَكعَتَينِ:

فعن مُعاويَةَ بنِ حُدَيجٍ: أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى يومًا فسَلَّمَ، وقد بَقيَت مِنَ الصَّلاةِ رَكعَةٌ[4].

فَأدرَكَهُ رَجُلٌ، فقال: نَسيتَ مِنَ الصَّلاةِ رَكعَةً.

---

(١) أي: محمد بن سيرين، الراوي عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) رواه البخاري (٤٨٢)، ومسلم (٥٧٣).

(٣) فقد زاد السَّلام في وسط الصلاة.

(٤) عند ابن حبَّان (٢٦٧٤): «صليت مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المغرب، فسها، فسلَّم في الركعتين، ثمَّ انصرف».

فَدَخَلَ المسجِدَ، وأمَرَ بلالًا، فأقامَ الصَّلاةَ، فصَلَّى للنَّاسِ رَكعَةً، فأخبَرتُ بذلك الناسَ، فقالوا لي: أتَعرِفُ الرجُلَ؟

- قُلتُ: لا، إلا أن أراهُ، فمَرَّ بي.

- فقُلتُ: هذا هوَ.

- قالوا: هذا طَلحَةُ بنُ عُبَيدِ اللهِ[1].

* وكَذلك نَسيَ التَّشَهُّدَ الأولَ من صَلاةِ الظُّهرِ:

فعن عبدِاللهِ بنِ مالكٍ ابنِ بُحَينَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى بهِمُ الظَّهرَ، فقامَ في الركعَتَينِ الأولَيَينِ، لم يَجلِس، فقامَ الناسُ مَعَهُ، حتى إذا قَضى الصَّلاةَ، وانتَظَرَ الناسُ تَسليمَهُ، كَبَّرَ وهو جالسٌ، فسَجَدَ سَجدَتَينِ قبلَ أن يُسَلِّمَ، ثم سَلَّمَ»[2].

ورَواهُ النّسائيُّ، ولفظُهُ: «أنَّ النبيَّ اللهُ عليه وسَلَّمَ صَلَّى، فقامَ في الركعَتَينِ، فسَبَّحوا، فمَضَى، فلمَّا فرَغَ من صَلاتِهِ، سَجَدَ سَجدَتَينِ، ثم سَلَّمَ»[3].

وعندَ ابنِ خُزَيمَةَ: «فَسَبَّحنا بهِ، فلمَّا اعتَدَلَ مَضَى، ولم يَرجِع»[4].

وفي الحديثِ:

- أنَّ سُجودَ السَّهوِ قبلَ السَّلامِ في حال النَّقصِ، وكَذلك إذا كان سببُهُ شَكًّا، تَساوَى طَرَفاهُ، ولم يَتَرَجَّح أحَدُهما على الآخرِ، ويكونُ بعدَ السَّلامِ في مَوضِعَينِ: إذا زادَ في صَلاتِهِ، وإذا شَكَّ شَكًّا، تَرَجَّحَ عندَهُ فيه أحَدُ الطَّرَفينِ.
- أنَّ تَركَ التَّشَهُّدِ الأولِ -نِسيانًا-، يُجبَرُ بسُجودِ السَّهوِ.
- أنَّهُ يُشرَعُ التَّكبيرُ لسُجودِ السَّهوِ، وهذا مُجمَعٌ عليه.

---

(١) رواه أبوداود (١٠٢٣)، والنسائي (٦٦٤)، وأحمد (٢٧٢٥٤)، وصححه محققو المسند.

(٢) رواه البخاري (٨٢٩)، ومسلم (٥٧٠).

(٣) سنن النسائي (١١٧٨).

(٤) صحيح ابن خزيمة (١٠٣١).

- واختَلَفوا فيها إذا فعَلَها بعدَ السَّلام: هَل يَتَشَهَّدُ ويُسَلِّمُ أم لا؟ والصَّحيحُ: أنَّهُ يُسَلِّمُ، ولا يَتَشَهَّدُ، فلَم يَثبُت في التَّشَهُّدِ حديثٌ.
- واستُدِلَّ بِهِ -أيضًا- على أنَّ المَأمومَ يَسجُدُ مع الإمامِ، إذا سَها الإمامُ، وإن لم يَسهُ المأمومُ، ونَقَلَ ابنُ حَزمٍ فيه الإجماعَ.
- أنَّ مَن تَرَكَ التَّشَهُّدَ الأولَ، وقامَ حتى شَرَعَ في القِراءَةِ، فإنَّهُ لا يَرجِعُ إليه عندَ عامَّةِ العُلَماءِ، وكَذلك لا يَرجِعُ إذا استَتَمَّ قائِمًا عندَ جُمهورِ العُلَماءِ، ويَدُلُّ لذلك رِوايَةُ ابنِ خُزَيمَةَ المتقدّمَةُ: «فَسَبَّحنا بِهِ، فلَمَّا اعتَدَلَ مَضَى، ولم يَرجِع»[1].

* ومِن صوَرِ نِسيانِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نِسيانُهُ الاغتِسالَ مِنَ الجَنابَةِ، ثمّ تَذَكَّرَ قبلَ الدُّخولِ في الصَّلاةِ:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: أُقيمَتِ الصَّلاةُ، فقُمنا، فعَدَّلنا الصُّفوفَ قبلَ أن يَخرُجَ إلَينا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأتَى رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى إذا قامَ في مُصَلَّاهُ، قبلَ أن يُكَبِّرَ، ذَكَرَ أنَّهُ جُنُبٌ، فقال لَنا: «**مَكانكُم**».

وفي رواية لمسلمٍ: «فَأومَأَ إليهم بيَدِهِ، أن: مَكانكُم».

ثم رَجَعَ فاغتَسَلَ، فلَم نَزَل قيامًا نَنتَظِرُهُ، حتى خرجَ إلَينا، وقد اغتَسَلَ، يَنطُفُ[2] رَأسُهُ ماءً، فكَبَّرَ، فصَلَّى بنا[3].

وفي الحديثِ فوائِدُ، منها:

- تَعديلُ الصُّفوفِ، وفي قولِهِ: «قُمنا، فعَدَّلنا الصُّفوف»، إشارَةٌ إلى أنَّ هَذِهِ سُنَّةٌ مَعهودَةٌ عندَهم، وقد أجمَعَ العُلَماءُ على استِحبابِ تَعديلِ الصُّفوفِ، والتَّراصِّ فيها.

---

(١) رواه ابن خزيمة في صحيحه (١٠٣١)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، كما في الصحيحة (٥/ ٥٨٥).

(٢) ينطف: أي: يقطر.

(٣) رواه البخاري (٢٧٥)، ومسلم (٦٠٥)، ورواه أبو داود (٢٣٤)، وفيه: «إنما أنا بشَر، وإنِّي كنت جنبًا»، وصححه الألباني، وعند أحمد (٩٧٨٦): «إنِّي كنت جنبًا، فنسيت أن أغتسل»، وصححه محققو المسند، وعند ابن ماجه (١٢٢٠): «إنِّي خرجت إليكم جنبًا، وإنِّي نسيت حتى قمت في الصلاة»، وصححه الألباني.

- ظاهِرُ الحديثِ: أنَّهُ لَمَّا اغتَسَلَ وخرجَ، لم يُجَدِّدوا إقامَةَ الصَّلاةِ، وهذا مَحمولٌ على قُربِ الزَّمانِ، فإن طالَ: أعادوا الإقامَةَ[١].
- جاءَ في بعضِ الرِّواياتِ: أنَّ التَّذَكُّرَ والانصِرافَ كان بعدَ أن كَبَّرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودَخَلَ في الصَّلاةِ، وأكثرُ الرِّواياتِ وأصَحُّها: أنَّهُ كان قبلَ التَّكبيرِ، كما في الصَّحيحَينِ.

فَمِنَ العُلَماءِ مَن صَحَّحَ الرِّوايَتَينِ، وجَمَعَ بينهما، على أنَّهما واقِعَتانِ مُختَلِفَتانِ، كما جزَمَ بِهِ ابنُ حِبَّان، وتَبِعَهُ النووي[٢].

ومنهم: مَن رَجَّحَ رِوايَةَ الانصِرافِ قبلَ التَّكبيرِ، كالإمامِ أحمَدَ، واختارَهُ ابنُ رَجَبٍ[٣].

وقال الحافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَيُمكِنُ الجَمعُ بينهما: بحَملِ قولِهِ: «كَبَّرَ» عَلى: أرادَ أن يُكَبِّرَ، أو: بأنَّهما واقِعَتانِ»[٤].

* ومِن صورِ نِسيانِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نِسيانُهُ -مَرَّةً- سُنَّةَ الظُّهرِ:

عن كُرَيبٍ: أنَّ ابنَ عبَّاسٍ، والمِسوَرَ بنَ مَخرَمَةَ، وعبدَالرحمَنِ بنَ أزهَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أرسَلوهُ إلى عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقالوا: اقرَأ عليها السَّلامَ مِنَّا جَميعًا، وسَلها عن الركعَتَينِ بعدَ صَلاةِ العَصرِ، وقُل لها: إنَّا أُخبِرنا عَنكِ أنَّكِ تُصَلِّينَهما، وقد بَلَغَنا أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهى عَنها.

- فقال كُرَيبٌ: فدَخَلتُ على عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فبَلَّغتُها ما أرسَلوني.

- فقالت: سَل أُمَّ سَلَمَةَ.

فَخرجتُ إليهم، فأخبَرتُهم بقولِها، فرَدُّوني إلى أُمِّ سَلَمَةَ، بمِثلِ ما أرسَلوني بِهِ إلى عائشةَ.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٥/ ١٠٣).
(٢) انظر: فتح الباري (٢/ ١٢٢).
(٣) ينظر: فتح الباري لابن رجبٍ (٥/ ٤٣٠).
(٤) فتح الباري (٢/ ١٢٢).

- فقالت أُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: سمعتُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنهَى عَنهما، ثم رَأيتُهُ يُصَلِّيهما حينَ صَلَّى العَصرَ، أمَّا حينَ صَلَّاهما: فإنَّهُ صَلَّى العَصرَ، ثم دَخَلَ -وَعندي نِسوَةٌ من بَني حَرام مِنَ الأنصارِ-، فصَلَّاهما، فأرسَلتُ إليه الجاريَةَ، فقُلتُ: قومي بجَنبِهِ، فقولي لَهُ: تقولُ لَكَ أُمُّ سَلَمَةَ: يا رسولَ اللهِ، سمعتُكَ تَنهَى عن هاتَينِ، وأراكَ تُصَلِّيهما، فإن أشارَ بيَدِهِ فاستَأخِري عَنهُ.

فَفَعَلَتِ الجاريَةُ.

فَأشارَ بيَدِهِ، فاستَأخَرَت عَنهُ.

فلمَّا انصَرَفَ قال: «**يا بنتَ أبي أُمَيَّةَ، سَألتِ عن الركعَتَينِ بعدَ العَصرِ، وإنَّهُ أتاني ناسٌ من عبدِالقَيسِ، فشَغَلوني عن الركعَتَينِ اللَّتَينِ بعدَ الظُّهرِ، فهما هاتانِ**»(١).

وللطَّحاويِّ من طريقٍ أُخرَى: قالت أمّ سلمةَ: فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، ما سَجدَتانِ رَأيتُكَ صَلَّيتَهما بعدَ العَصرِ، ما صَلَّيتَهما قبلُ، ولا بعدُ؟ فقال: «**هما سَجدَتانِ كنتُ أُصَلِّيهما بعدَ الظُّهرِ، فقَدِمَ عَلَيَّ قَلائِصُ مِنَ الصَّدَقَةِ، فنَسيتُهما حتى صَلَّيتُ العَصرَ، ثم ذَكَرتُهما**»(٢).

* نِسيانُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيلَةَ القَدرِ:

عن أبي سَلَمَةَ، قال: تَذاكَرنا لَيلَةَ القَدرِ، فأتَيتُ أبا سَعيدٍ الخُدريَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان لي صَديقًا.

- فقُلتُ ألا تَخرُجُ بنا إلى النَّخلِ نَتَحَدَّثُ، فخرجَ.

- قُلتُ: حَدِّثني ما سمعتَ مِنَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في لَيلَةِ القَدرِ.

- قال: اعتكَفَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العَشرَ الأوَلَ من رَمَضانَ، واعتكَفنا مَعَهُ، فأتاهُ جبريلُ، فقال: إنَّ الذي تَطلُبُ أمامَكَ.

فاعتكَفَ العَشرَ الأوسَطَ، فاعتكَفنا مَعَهُ، فأتاهُ جبريلُ، فقال: إنَّ الذي تَطلُبُ أمامَكَ.

---

(١) رواه البخاري (١٢٣٣)، ومسلم (٨٣٤).

(٢) شرح معاني الآثار (١٨٠٦)، و«قلائص»: جمع قلوصٍ، وهو الفتيُّ من الإبل.

فَقامَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ خَطيبًا، صَبيحَةَ عِشرينَ من رَمَضانَ، فقال: «**مَن كان اعتكَفَ مع النبيِّ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ **فليَرجِع؛ فإنِّي أُريتُ لَيلَةَ القَدرِ، وإنِّي نُسِّيتُها، وإنَّها في العَشرِ الأواخِرِ في وِترٍ، وإنِّي رَأيتُ كأنِّي أسجُدُ صَبيحَتَها في طينٍ وماءٍ**».

وكان سَقفُ المسجِدِ جَريدَ النَّخلِ، وما نَرى في السَّماءِ شَيئًا، فجاءَت قَزَعَةٌ[١]، فأُمطِرنا، حتى سالَ سَقفُ المسجِدِ، فصَلَّى بنا النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، حتى رَأيتُ أثَرَ الطِّينِ والماءِ، على جَبهَةِ رسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وأرنَبَتِهِ؛ تَصديقَ رُؤياهُ[٢].

وفي رواية لمُسلِمٍ: اعتكَفَ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ العَشرَ الأوسَطَ من رَمَضانَ، يَلتَمِسُ لَيلَةَ القَدرِ قبلَ أن تُبانَ لَهُ، فلَمَّا انقَضَينَ أمَرَ بالبِناءِ فقوِّضَ، ثم أُبينَت لَهُ، أنَّها في العَشرِ الأواخِرِ، فأمَرَ بالبِناءِ فأُعيدَ، ثم خرجَ على الناسِ، فقال: «**يا أيُّها الناسُ، إنَّها كانت أُبينَت لي لَيلَةُ القَدرِ، وإنِّي خرجتُ لأُخبِرَكُم بها، فجاءَ رَجُلانِ يَحتَقَّانِ**[٣]**، مَعَهما الشَّيطانُ، فنُسِّيتُها، فالتَمِسوها في العَشرِ الأواخِرِ من رَمَضانَ، التَمِسوها في التَّاسِعَةِ والسَّابِعَةِ والخامِسَةِ**»[٤].

قَولُهُ: «ثم أُنسيتها»:

المُرادُ: أنَّهُ أُنسيَ عِلمَ تَعيينِها في تِلكَ السَّنَةِ[٥].

قال القَفَّالُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس مَعناهُ: أنَّهُ رَأى الملائِكَةَ، والأنوارَ، عيانًا، ثم نَسيَ في أيِّ لَيلَةٍ رَأى ذلك؛ لأنَّ مِثلَ هذا قَلَّ أن يُنسَى، وإنما مَعناهُ: أنَّهُ قيل له لَيلَة القَدرِ: لَيلَة كَذا وكذا، فنَسيَ كَيفَ قيل لَهُ»[٦].

---

(١) أي: قطعة سحابٍ.

(٢) رواه البخاري (٨١٣)، ومسلم (١١٦٧).

(٣) أي: يطلب كلُّ واحدٍ منهما حقَّه، ويدَّعي أنه المحقُّ، وفيه: أن المخاصمة والمنازعة مذمومةٌ، وأنها سببٌ للعقوبة المعنويَّة. شرح النووي على مسلم (٨/ ٦٣).

(٤) رواه مسلم (١١٦٧).

(٥) فتح الباري (٤/ ٢٥٨).

(٦) تنوير الحوالك (١/ ٢٣٤).

وفي هذا الحديثِ:

«أنَّ النِّسيانَ جائِزٌ على النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا نَقصَ عليه في ذلك، لا سيَّما فيما لم يُؤذَن له في تَبليغِهِ، وقد يكونُ في ذلك مَصلَحَةٌ تَتَعَلَّقُ بالتَّشريعِ، كَما في السَّهوِ في الصَّلاةِ، أو بالاجتِهادِ في العِبادَةِ، كَما في هَذِهِ القِصَّةِ؛ لأنَّ لَيلَةَ القَدرِ لَو عُيِّنَت في لَيلَةٍ بعَينِها حَصَلَ الاقتِصارُ عليها، ففاتَتِ العِبادَةُ في غَيرِها، وكان هذا هو المُرادَ بقولِهِ: «**عَسَى أن يكونَ خَيرًا لَكُم**»[1]»[2].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أُريتُ لَيلَةَ القَدرِ، ثم أيقَظَني بعضُ أهلي، فنُسِّيتُها، فالتَمِسوها في العَشرِ الغَوابِرِ**»[3].

وعن عُبادَةَ بنِ الصَّامِتِ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرجَ يُخبِرُ بلَيلَةِ القَدرِ، فتَلاحَى رَجُلانِ مِنَ المسلمينَ فقال: «**إنِّي خرجتُ؛ لأُخبِرَكُم بلَيلَةِ القَدرِ، وإنَّهُ تَلاحَى فُلانٌ وفُلانٌ، فرُفِعَت، وعَسَى أن يكونَ خَيرًا لَكُم، التَمِسوها في السَّبعِ، والتِّسعِ، والخَمسِ**»[4].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ اللهُ **-في الجمعِ بينَ هذِهِ الأحاديثِ-**: «إمَّا أن يُحمَلَ على التَّعَدُّدِ، بأن تكونَ الرُّؤيا في حديثِ أبي هريرة مَنامًا، فيكونَ سببُ النِّسيانِ: الإيقاظَ، وأن تكونَ الرُّؤيَةُ في حديثِ غَيرِهِ في اليَقظَةِ، فيكونَ سببُ النِّسيانِ: ما ذُكِرَ مِنَ المُخاصَمَةِ، أو يُحمَلَ على اتِّحادِ القِصَّةِ، ويكونَ النِّسيانُ وقَعَ مَرَّتَينِ، عن سببَينِ، ويَحتَمِلُ أن يكونَ المعنى: أيقَظَني بعضُ أهلي، فسمعتُ تَلاحيَ الرجُلَينِ، فقُمتُ لأَحجِزَ بينهما، فنُسِّيتُها؛ للاشتِغالِ بهِما»[5].

---

(١) رواه البخاري (٤٩).

(٢) فتح الباري (٤/ ٢٥٩).

(٣) رواه مسلم (١١٦٦).

(٤) رواه البخاري (٤٩).

(٥) فتح الباري (٤/ ٢٦٨).

*** ونَسيَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساعَةَ الجُمُعَةِ، كَذلك:**

فعن أبي سَعيدٍ الخُدريّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: سَألتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنها -أي: ساعَة الجُمعةِ-، فقال: «**إنِّي كنتُ قَد أُعلِمتُها، ثم أُنسيتُها، كَما أُنسيتُ لَيلَةَ القَدرِ**»(١).

قال العِراقيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَلَعَلَّ ذلك يكونُ خَيرًا للأُمَّةِ؛ ليَجتَهِدوا في سائِرِ اليومِ، كَما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في لَيلَةِ القَدرِ حينَ أُنسيها: «**وَعَسَى أن يكونَ خَيرًا لَكُم**»»(٢).

*** ونَسيَ شَيئًا مِنَ الصَّدَقَةِ لم يكُن أخرَجَهُ فتَذَكَّره، وهو في الصَّلاةِ:**

عن عُقبَةَ بنِ الحارِثِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: صَلَّيتُ وراءَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينَةِ العَصرَ، فسَلَّمَ، ثم قامَ مُسرِعًا، فتَخَطَّى رِقابَ الناسِ، إلى بعضِ حُجَرِ نِسائِهِ.

فَفَزِعَ الناسُ من سُرعَتِهِ، فخرجَ عليهم، فرَأى أنَّهم عَجِبوا من سُرعَتِهِ.

فقال: «**ذَكَرتُ شَيئًا من تِبرٍ**(٣) **عندَنا، فكَرِهتُ أن يَحبِسَني، فأمَرتُ بِقسمَتِهِ**»(٤).

وفي لَفظٍ: «**كنتُ خَلَّفتُ في البَيتِ تِبرًا مِنَ الصَّدَقَةِ، فكَرِهتُ أن أُبَيِّتَهُ، فقَسَمتُهُ**»(٥).

وقولُهُ: «**يَحبِسَني**»: أي: يَشغَلَني التَّفَكُّرُ فيه، عن التَّوَجُّهِ والإقبال على اللهِ تعالى.

قال ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ: «هَذا الذي وقَعَ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من جِنسِ ما كان يَقَعُ لعمرَ؛ فإنَّ مالَ الصَّدَقَةِ تُشرَعُ المُبادَرَةُ بِقسمَتِهِ بين أهلِهِ، ومُستَحِقِّيهِ، فكان من شِدَّةِ اهتِمامِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، يَتَذَكَّرُهُ في صَلاتِهِ، فيَقومُ عَقِبَ ذلك مُسرِعًا، حتى يَقسِمَهُ بين أهلِهِ، وهذا كُلُّهُ مِنَ اجتِماعِ العِباداتِ، وتَداخُلِها، وليس هو من بابِ حديثِ النَّفسِ المذمومِ»(٦).

---

(١) رواه أحمد (١١٦٢٤)، وصححه العراقيُّ في طرح التَّثريب (٣/ ٢١٤)، وضعَّفه الألباني في الضَّعيفة (١١٧٧).

(٢) طرح التَّثريب (٣/ ٢١٤).

(٣) التِّبر: هو قطع الذَّهب قبل أن يضرب.

(٤) رواه البخاري (٨٥١).

(٥) رواه البخاري (١٤٣٠).

(٦) فتح الباري لابن رجبٍ (٩/ ٣٧٨).

* ونَسيَ شَيئًا من وصفِ بَيتِ المقدِسِ، لَمَّا سألتهُ قُريشٌ عنهُ، فرَفَعَهُ اللهُ لهُ:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَقَد رَأيتُني في الحِجرِ، وقُرَيشٌ تَسألُني عن مَسرايَ، فسَألَتني عن أشياءَ من بَيتِ المقدِسِ لم أُثبِتها، فكُرِبتُ كُربَةً ما كُرِبتُ مِثلَهُ قَطُّ، فرَفَعَهُ اللهُ لي أنظُرُ إليه، ما يَسألوني عن شيءٍ، إلا أنبَأتُهم بهِ**»[١].

قال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «**لَم أُثبِتها**»: أي: لم أحفَظها، ولم أضبِطها؛ لاشتِغالي بأُمورٍ أهَمّ منها»[٢].

* ونَسيَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يَأمُرَ بتَخميرِ القَرنَينِ، اللَّذَينِ في الكعبَةِ:

عن صَفيَّةَ بنتِ شَيبَةَ، قالت: سمعتُ الأسلَميَّةَ[٣] تقولُ: قُلتُ لعثمانَ بنِ طَلحَةَ: ما قال لَكَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَ دَعاكَ؟ قال: «**إنِّي نَسيتُ أن آمُرَكَ أن تُخَمِّرَ القَرنَينِ؛ فإنَّهُ ليس يَنبَغي أن يكونَ في البَيتِ شيءٌ، يَشغَلُ المُصَلِّيَ**»[٤].

وفي رواية: «**إنِّي كنتُ رَأيتُ قَرنَي الكبشِ حينَ دَخَلتُ البَيتَ، فنَسيتُ أن آمُرَكَ أن تُخَمِّرَهما، فخَمِّرهما؛ فإنَّهُ لا يَنبَغي أن يكونَ في البَيتِ شيءٌ يَشغَلُ المُصَلِّيَ**»[٥].

قال ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «المُرادُ بالقَرنَينِ: قَرنا الكبشِ الذي فُديَ بِهِ إسماعيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإنَّهما كانا في الكعبَةِ، إلى أن أُحرِقا، عندَ حَريقِ البَيتِ.

وقد نَصَّ أحمَدُ على كَراهَةِ أن يكونَ في القِبلَةِ شيءٌ مُعَلَّقٌ، من مُصحَفٍ، أو غَيرِهِ.

ورويَ عن النَّخَعيِّ، قال: «كانوا يَكرَهونَ ذلك».

وعن مُجاهِدٍ، قال: «لَم يَكُن ابنُ عمرَ يَدَعُ شَيئًا بينهُ وبين القِبلَةِ إلا نَزَعَهُ، سَيفًا، ولا مُصحَفًا».

ونَصَّ أحمَدُ على كَراهَةِ الكِتابَةِ في القِبلَةِ لهذا المعنى، وكذا مَذهَبُ مالكٍ»[٦].

---

(١) رواه مسلم (١٧٢).

(٢) مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٧٧٣).

(٣) وهي صحابيَّةٌ، اسمها: أمُّ عثمان ابنة سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) رواه أبوداود (٢٠٣٠)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٥) رواه أحمد (١٦٦٣٧)، وصححه محققو المسند.

(٦) فتح الباري لابن رجبٍ (٢/ ٤٢٨).

❊ وانشَغَلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لمَّا أَتَى أبو أُسَيدٍ، بابنِهِ المُنذِرِ حينَ وُلِدَ، فلَهَا عنهُ، ولم يَذكُرهُ، حتى رَدُّوهُ إلى بَيتِهِ:

عن سَهلِ بنِ سَعدٍ، قال: أُتيَ بالمُنذِرِ بنِ أبي أُسَيدٍ، إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَ وُلِدَ، فوَضَعَهُ على فخِذِهِ[١]، وأبو أُسَيدٍ جالسٌ.

فَلَها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشيءٍ بين يَدَيهِ[٢]، فأمَرَ أبو أُسَيدٍ بابنِهِ، فاحتُمِلَ من فخِذِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاستَفاقَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٣].

- فقال: «**أينَ الصَّبيُّ؟**».
- فقال أبو أُسَيدٍ: قَلَبناهُ يا رسولَ اللهِ[٤].
- قال: «**ما اسمُهُ؟**».
- قال: فُلانٌ[٥].
- قال: «**لا، ولكن اسمُهُ المُنذِرُ**»، فسَمَّاهُ -يومَئِذٍ- المُنذِرَ[٦].

أي: ليس هذا الاسمُ الذي سَمَّيتُهُ بِهِ الذي يَليقُ بِهِ، بل هو المُنذِرُ.

وكان الصَّحابَةُ إذا وُلِدَ لأحَدِهِمُ الوَلَدُ، أتَى بِهِ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ليُحَنِّكَهُ، ويُبارِكَ عليه[٧].

وسببُ تَسميَةِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا المولود: «المُنذِر»؛ لأنَّ ابنَ عَمِّ أبيهِ: المُنذِرَ بنَ عَمرٍو، كان قَدِ استُشهِدَ ببِئرِ مَعونَةَ، وكان أميرَهم[٨].

---

(١) يعني: إكرامًا له.
(٢) أي: انشغل به.
(٣) أي: انقضى ما كان منشغلاً به، فأفاق من ذلك، فلم ير الصبيَّ.
(٤) أي: رددناه، وصرفناه إلى منزله.
(٥) فكأنه كان سمَّاه اسماً ليس مستحسنًا، فسكت عن تعيينه، أو سمَّاه، فنسيه بعض الرُّواة.
(٦) رواه البخاري (٦١٩١)، ومسلم (٢١٤٩).
(٧) فتح الباري (١٠/ ٥٧٦).
(٨) شرح صحيح مسلم للنَّووي (١٤/ ١٢٨).

تَعَجُّبُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

مِن مَواضِعِ الاقتِداءِ برسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الاتِّزانُ النَّفسيُّ عندَ الدَّهَشِ، أوِ التَّعَجُّبِ، فمَهما تَعَجَّبَ من أمرٍ، لم يَخرُج حالُهُ عن الاتِّزانِ.

وقد كان هذا حالَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع كُلِّ أمرٍ ذي بالٍ، أنَّهُ يَتعامَلُ مَعَهُ بحالَةٍ مِنَ الاتِّزانِ، ووُفورِ الحِكمَةِ، وذلك مِمَّا خَصَّهُ بهِ رَبُّهُ، وفَضَّلَهُ فيه على العالَمينَ.

وكان أقصَى ما كان يُعَبِّرُ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن دَهشَتِهِ، أن يقولَ: سُبحانَ اللهِ، أو أن يَتَساءَلَ مُتَعَجِّبًا، أو يَتبَسَّمَ.

وقد أثنَى اللهُ تعالى عليه بهذا الأدَبِ الجَمِّ، أنَّهُ مَهما تَعَرَّضَ لمُثيراتِ الدَّهشَةِ، فإنَّ ذلك لا يُزيغُ بَصَرَهُ، ولا يُطغي قَلبَهُ؛ فقال تعالى: ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٦-١٧].

فَبِرَغمِ أنَّ سِدرَةَ المُنتَهَى قَد غَشيَها مِنَ الألوانِ العَجيبَةِ، ما يَعجَزُ عنه الوَصفُ، إلا أنَّ ذلك لم يَذهب بعَقلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما زاغَ بَصَرُهُ؛ مُتَتَبِّعًا هَذِهِ العَجائِبَ، وما طَغَى؛ مُتطَلِّعًا أن يَرَى ما لم يُسمَح له برُؤيَتِهِ.

قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ﴾: ما ذَهَبَ يَمينًا، ولا شِمالًا، ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾: ما جاوَزَ ما أُمِرَ بِهِ».

قال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذه صِفَةٌ عَظيمَةٌ في الثَّباتِ والطَّاعَةِ، فإنَّهُ ما فعَلَ إلا ما أُمِرَ بهِ، ولا سَأَلَ فوقَ ما أُعطيَ، وما أحسَنَ ما قال الناظِمُ:

رأى جَنةَ المأوى وما فوقها ولو رأى غـيرُهُ مـا قـد رآهُ لَتاهـا»[١]

فـ« قولُهُ تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم: ١٧]، بَيانٌ لما كان عليه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ثَباتٍ، واطمِئنانٍ، عندَ رُؤيَتِهِ لما أذِنَ اللهُ تعالى له في رُؤيَتِهِ»[٢].

والمقصودُ: أنَّهُ إذا كان تَعريفُ الدَّهشَةِ أنَّها: «ذَهابُ العَقلِ مِنَ الذَّهَلِ والوَلَهِ، وقيل: مِنَ الفَزَعِ ونَحوِهِ»[٣]، والعَجَبِ أنَّهُ: «رَوعَةٌ تعتري الإنسانَ، عندَ استِعظامِ الشيَّءِ»[٤].

فإنَّ ذلك يَتفاوَتُ بحَسَبِ حال الإنسانِ، ومَحَلِ الحَدَثِ من نَفسِهِ، وقد كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك في أكمَلِ الأحوال، وأعدَلِها.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَتَعَجَّبُ من زُخرُفِ الدُّنيا، ومَظاهِرِها الخادِعَةِ، وكان يُرَبِّي أصحابَهُ على ذلك.

فَعنِ البَراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أُهديَت للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُلَّةُ حَريرٍ، فجَعَلَ أصحابُهُ يَمَسُّونَها، ويَعجَبونَ من لينِها، فقال: «**أتَعجَبونَ من لينِ هَذِهِ؟! لَمَناديلُ سَعدِ بنِ مُعاذٍ، خَيرٌ منها، أو ألينُ**»[٥].

وهذا هو السَّبيلُ لتَحقيقِ الاتِّزانِ، والثَّباتِ، والاطمِئنانِ، أمامَ زُخرُفِ الحَياةِ الدُّنيا: أن يَذكُرَ العبدُ ما عندَ اللهِ تعالى، فيَشغَلَهُ السّعيُ إليه، والرّغبَةُ فيه، عن التّعلُّقِ بمتاعِ الدُّنيا، ولو بمُجرّدِ الفِكرِ والتّعَجّبِ؛ ولِذلك لم يَكُنِ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَلتَفِتُ إلى زُخرُفِها.

وقد تَرَبّى على ذلك أصحابُهُ: فهذا رِبعيُّ بنُ عامرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حينَ دَخَلَ على رُستُمَ قائِدِ

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٤٥٤).

(٢) التفسير الوسيط (١٤/ ٦٥).

(٣) لسان العرب (٦/ ٣٠٣).

(٤) عمدة القاري (١٨/ ٣٠٦).

(٥) رواه البخاري (٣٨٠٢)، ومسلم (٢٤٦٨).

الفُرسِ، وقد زَيَّنوا مَجلِسَهُ بالنَّمارِقِ المُذَهَّبَةِ، والزَّرابيِّ الحَريرِ، وأظهَرِ اليَواقيتِ، واللآلِئِ الثَّمينَةِ، والزِّينَةِ العَظيمَةِ، وعليه تاجُهُ، وغَير ذلك مِنَ الأمتِعَةِ الثَّمينَةِ، وجَلَسَ على سَريرٍ من ذَهَبٍ؛ ليُدهِشَهُ بزُخرُفِ الدُّنيا.

ودَخَلَ رِبعيٌّ بثيابٍ صَفيقَةٍ وسَيفٍ وتُرسٍ، وفَرَسٍ قَصيرَةٍ، ولم يَزَل راكِبَها حتى داسَ بها على طَرَفِ البِساطِ، ثم نَزَلَ ورَبَطَها ببعضِ تِلكَ الوَسائِدِ، وأقبَلَ يَتَوَكَّأُ على رُمحِهِ فوقَ النَّمارِقِ، فخَرَّقَ عامَّتَها[١].

وقد وجَّهَ اللهُ تعالى نَبيَّهُ الكريمَ، أن لا تَأخُذَهُ الدَّهشَةُ مِنَ المُعجِزاتِ، والكراماتِ العَجيبَةِ، التي يُؤَيِّدُ اللهُ بها أنبياءَهُ، وأولياءَهُ؛ لأنَّ مَن عَلِمَ أنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ، لم يَندَهِش لحَدَثٍ مِنَ الأحداثِ، وإن كان على غَيرِ العادَةِ.

والبعضُ تَأخُذُهُ الدَّهشَةُ من هَذِهِ القَصَصِ العَجيبَةِ، فيَغفُلُ عن مَوضِعِ العِبرَةِ منها، كَما يَغفُلُ عَمَّا هو أشَدُّ منها عَجَبًا؛ ولذلك قال اللهُ تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ﴾ [الكهف: ٩].

«وهذا الاستفهامُ بمعنى النَّفيِ، والنَّهيِ، أي: لا تَظُنَّ أنَّ قِصَّةَ أصحابِ الكهفِ وما جَرَى لَهم، غَريبَةٌ على آياتِ اللهِ، وبَديعَةٌ في حِكمَتِهِ، وأنَّهُ لا نَظيرَ لها، ولا مُجانِسَ لها، بل للهِ تعالى مِنَ الآياتِ العَجيبَةِ الغَريبَةِ ما هو كَثيرٌ، من جِنسِ آياتِهِ في أصحابِ الكهفِ، وأعظَم منها، فلَم يَزَلِ اللهُ يُري عِبادَهُ مِنَ الآياتِ في الآفاقِ، وفي أنفُسِهِم، ما يَتَبَيَّنُ بهِ الحَقُّ مِنَ الباطِلِ، والهُدَى مِنَ الضَّلالِ.

وليس المُرادُ بهذا النَّفيِ: أن تكونَ قِصَّةُ أصحابِ الكهفِ مِنَ العَجائِبِ، بل هيَ من آياتِ اللهِ العَجيبَةِ، وإنما المُرادُ: أنَّ جِنسَها كَثيرٌ جِدًّا، فالوُقوفُ مَعَها وحدَها، في مَقامِ العَجَبِ، والاستغرابِ، نَقصٌ في العِلمِ والعَقلِ، بل وظيفَةُ المُؤمِنِ: التَّفَكُّرُ بجَميعِ آياتِ اللهِ، التي دَعا اللهُ العِبادَ إلى التَّفكيرِ فيها؛ فإنَّها مِفتاحُ الإيمانِ، وطَريقُ العِلمِ والإيقانِ»[٢].

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٤٦).

(٢) تفسير السعدي (ص٤٧١).

فالذي آتاكَ اللهُ مِنَ العِلمِ، والسُّنَّةِ، والكِتابِ، وما أظهَرَ من حُجَجِه على العِبادِ، وما خَلَق مِنَ السَّمَواتِ والأرضِ، وما فيهنَّ مِنَ العَجائِبِ، أعَجَبُ من شَأنِ أصحابِ الكهفِ، والرقيمِ[١].

وفي الصّحيحَينِ، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: صَلَّى رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلاةَ الصُّبحِ، ثم أقبَلَ على الناسِ، فقال: **«بَينا رَجُلٌ يَسوقُ بَقَرَةً، إذ رَكِبَها فضَرَبَها، فقالت: إنَّا لم نُخلَق لهذا، إنما خُلِقنا للحَرثِ»**.

- فقال الناسُ: سُبحانَ اللهِ بَقَرَةٌ تَكَلَّمُ!

- فقال: **«فإنِّي أومِنُ بهذا، أنا، وأبو بكرٍ، وعمرُ»**، وما هما ثَمَّ[٢].

«وَبينما رَجُلٌ في غَنَمِهِ، إذ عَدا الذِّئبُ، فذَهَبَ منها بشاةٍ، فطَلَبَ حتى كأنَّهُ استَنقَذَها منه، فقال له الذِّئبُ: يا هَذا، استَنقَذتَها مِنِّي، فمَن لها يومَ السَّبُعِ، يومَ لا راعيَ لها غَيري[٣]».

- فقال الناسُ: سُبحانَ اللهِ ذِئبٌ يَتَكَلَّمُ!

- قال: **«فإنِّي أومِنُ بهذا، أنا، وأبو بكرٍ، وعمرُ»**، وما هما ثَمَّ[٤].

فَفي هذا الحديثِ: التَّصريحُ بنُطقِ البقرةِ ونُطقِ الذِّئبِ، بكَلامٍ مَعقولٍ على غَيرِ العادَةِ، مِمَّا تعَجَّبَ له الناسُ، وسَبَّحوا اللهَ؛ إعظامًا لما سَمِعوا.

فقال النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **«فإنِّي أومِنُ بهذا، أنا، وأبو بكرٍ، وعمرُ»**. ولم يَكونا -يومَئِذٍ- في القَومِ.

---

(١) تفسير الطَّبريِّ (١٧/ ٦٠١)، تفسير ابن كثير (٥/ ١٣٨).

(٢) أي: ليسا حاضرين.

(٣) معناه: من لها يوم يطرقها الأسد، فتفرُّ أنت منه، فيأخذ منها حاجته، وأتخلَّف أنا، لا راعي لها حينئذٍ غيري، أرعى ما يفضل لي منها، وقيل: إنما يكون ذلك عند الاشتغال بالفتن، فتصير الغنم هملًا، فتنهبها السِّباع، فيصير الذِّئب كالراعي لها؛ لانفراده بها. فتح الباري (٧/ ٢٧).

(٤) رواه البخاري (٣٤٧١)، ومسلم (٢٣٨٨).

«أي: فإن كان الناسُ يَستَغرِبونَهُ، ويَتَعَجَّبونَ منه، فإنِّي لا أستَغرِبُهُ، وأومِنُ بهِ، أنا، وأبو بكرٍ، وعمرُ»(١).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**قال العُلَماءُ**: إنما قال ذلك: ثِقَةً بهما؛ لعِلمِهِ بصِدقِ إيمانهما، وقوَّةِ يَقينِهما، وكَمال مَعرِفَتِهما لعَظيمِ سُلطانِ اللهِ، وكَمال قُدرَتِهِ»(٢).

قال الحافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي الحديثِ: جَوازُ التَّعَجُّبِ من خَوارِقِ العاداتِ، وتَفاوُتُ الناسِ في المعارِفِ»(٣).

فَمَن كَمُلَ إيمانُهُ، وقَوِيَ إيقانُهُ، لم يَعجَب مِما يَحصُلُ في مَلَكوتِ اللهِ، وإنما يَزدادُ إيمانًا مع إيمانِهِ، وهو يَعلَمُ أنَّ كُلَّ خَلقٍ عَظيمٍ، وكُلَّ حَدَثٍ جَليلٍ، وكُلَّ خارِقٍ للعادَةِ، إنما تَكَوَّنَ بقولِ اللهِ لَهُ: «كُن» فيكونُ، كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ**﴾ [النحل: ٤٠].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: عَدا الذِّئبُ على شاةٍ فأخَذَها، فطَلَبَهُ الراعي، فانتزَعَها منه، فأقعَى الذِّئبُ على ذَنَبِهِ، فقال: ألا تَتَّقي اللهَ؟ تَنزِعُ مِنِّي رِزقًا ساقَهُ اللهُ إلَيَّ!

- فقال: يا عَجَبي! ذِئبٌ مُقعٍ على ذَنَبِهِ، يُكَلِّمُني كَلامَ الإنسِ؟!

- فقال الذِّئبُ: ألا أُخبِرُكَ بأعجَبَ من ذلك؟ محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَثرِبَ، يُخبِرُ الناسَ بأنباءِ ما قَد سَبَقَ ... الحديث(٤).

فَنَبَّهَ الذِّئبُ الرجُلَ إلى أعجَبَ مِمَّا رَأى؛ ليَلتَفِتَ إليه، ولا يَنشَغِلَ بما رَأى مِنَ العَجَبِ، عَمَّا لم يَرَ مِنَ الأعجَبِ.

فَمِثلُ هَذِهِ الأُمورِ ليست بعَجَبٍ في قُدرَةِ اللهِ، وإنما الذي يُثيرُ الدَّهشَةَ، ويُتَعَجَّبُ له حَقًّا: أن يَعلَمَ العبدُ أنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ، وما فيهنَّ مِنَ الأكوانِ، ثم يَتعجَّبُ

---

(١) مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٩١٠).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ١٥٦).

(٣) فتح الباري (٧/ ٢٨).

(٤) رواه الإمام أحمد (١١٧٩٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٢٢).

-بَعدئِذٍ- من قُدرةِ اللهِ على البَعثِ بعدَ الموتِ، ولا يُؤمِنُ بيومِ الحِسابِ، ويقولُ: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: ٧٨]؛ ولِذلك قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

فإنَّ الذي تُوَضَّحُ له الآياتُ، ويَرَى مِنَ الأدِلَّةِ القاطِعَةِ على البَعثِ ما لا يَقبَلُ الشَّكَّ والريبَ، ثم يُنكِرُ ذلك: فإنَّ قولَهُ هو العَجَبُ حَقًّا.

أمَّا عَجائِبُ الأحداثِ، وخَوارِقُ العاداتِ، وعَظائِمُ الأُمورِ، إذا عَلِمنا أنَّها بتَقديرِ الحَكيمِ الخَبيرِ، وتَسييرِ العليمِ القَديرِ: فأيُّ غَرابَةٍ في هَذا؟ وأيُّ عَجَبٍ؟

هَذا: وقد تَعجَّبَ النبيُّ ﷺ، من بَعضِ الأُمورِ، وفي بعضِ المواقِفِ والأحوال، وحَريٌّ بنا أن نَتَوَقَّفَ عندَ تِلكَ الأمورِ والأحوال، لنَنظُرَ مِمَّ كان يَعجَبُ ﷺ؟ وكَيفَ كان عَجَبُهُ؟ وكَيفَ يَنتَفِعُ العاقِلُ من هَذِهِ الأحوال النبويَّةِ، التي قَد تَبدو لغَيرِ المُمعِنِ خارِجَةً عن مَرتَبَةِ التَّأسِّي؟

* سُؤالُهُ ﷺ عن الأُمورِ العَجيبَةِ:

لا شَكَّ أنَّ العَجائِبَ لها وقعٌ في النَّفسِ؛ ولِذلك كان ﷺ يَطلُبُها -أحيانًا-؛ طَلَبًا لمُؤانَسَةِ أصحابِهِ، والتِماسًا للحِكمَةِ، يَستَنبِطُها لَهم.

فعن جابرٍ رضي الله عنه، قال: لَمَّا رَجَعَت إلى رسولِ اللهِ ﷺ مُهاجِرَةُ البَحرِ، قال: «**ألا تُحَدِّثوني بِأعاجيبَ ما رَأيتُم بأرضِ الحَبَشَةِ؟**».

قال فِتيَةٌ منهم: بَلى يا رسولَ اللهِ، بَينا نَحنُ جُلوسٌ، مَرَّت بنا عَجوزٌ من عَجائِزِ رَهابينِهِم، تَحمِلُ على رَأسِها قُلَّةً من ماءٍ، فمَرَّت بفَتًى منهم، فجَعَلَ إحدَى يَدَيهِ بين كَتِفيها، ثم دَفَعَها، فخَرَّت على رُكبَتَيها، فانكَسَرَت قُلَّتُها.

فلَمَّا ارتَفَعَت، التَفَتَت إليه، فقالت: سَوفَ تَعلَمُ يا غُدَرُ، إذا وضَعَ اللهُ الكُرسيَّ، وجَمَعَ الأولينَ والآخِرينَ، وتَكَلَّمَتِ الأيدي والأرجُلُ بما كانوا يَكسِبونَ، فسَوفَ تَعلَمُ كَيفَ أمري وأمرُكَ عندَهُ غَدًا.

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَدَقَت، صَدَقَت، كَيفَ يُقَدِّسُ اللهُ أُمَّةً، لا يُؤخَذُ لضَعيفِهِم، من شَديدِهِم**»(١).

* وكان يَحُثُّ أصحابَهُ على التَّحديثِ عن بَني إسرائيلَ، فيما كان يَحدُثُ لهم مِنَ الأُمورِ العَجيبَةِ:

فعن جابِرِ بنِ عبدِالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حَدِّثوا عن بَني إسرائيلَ ولا حَرَجَ؛ فإنَّهُ كانت فيهمُ الأعاجيبُ**»(٢).

وكان ذلك للاتِّعاظُ بِهِم، وبِما حَصَلَ لَهم.

وقد أخبَرَنا اللهُ تعالى في كِتابِهِ الكريمِ: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَد تَعَجَّبَ، فقال: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢].

وخُلاصَةُ أقوال المُفَسِّرينَ: أنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعَجَّبَ من تَكذيبِ المُشرِكينَ بالقُرآنِ، مع عَظَمَتِهِ، وبَيانِهِ، ومِن تَكذيبِهِم بالبَعثِ، مع وُضوحِ قُدرَةِ اللهِ تعالى على كُلِّ شيءٍ، ومِن عَظيمِ قُدرَتِهِ تعالى، التي تَجَلَّت في مَخلوقاتِهِ، وعَظيمِ فضلِهِ.

* ومِن صور تَعَجُّبِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَعَجُّبُهُ من رَحمَةِ اللهِ بِهِ، وفَضلِهِ عليه، ودِفاعِهِ عَنهُ:

فاللهُ تعالى هو اللَّطيفُ، الذي يوصِلُ الرحمَةَ إلى عِبادِهِ من طُرُقٍ خَفيَّةٍ، تَدعو إلى العَجَبِ، وقد تَعَجَّبَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا تَعجَبونَ كَيفَ يَصرِفُ اللهُ عَنِّي شَتمَ قُرَيشٍ، ولَعنَهم؟! يَشتِمونَ مُذَمَّمًا، ويَلعَنونَ مُذَمَّمًا، وأنا محمدٌ**»(٣).

قال الحافِظُ رَحِمَهُ اللهُ: «كان الكُفَّارُ من قُرَيشٍ، من شِدَّةِ كَراهَتِهِم في النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠١٠)، وحسنه الألباني.

(٢) رواه أحمد في الزُّهد (٨٨)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٩٢٦).

(٣) رواه البخاري (٣٥٣٣).

يُسَمُّونَهُ باسمِهِ الدَّالِّ على المدحِ، فيَعدِلونَ إلى ضِدِّهِ، فيقولونَ: مُذَمَّمٌ، وإذا ذَكَروهُ بسوءٍ، قالوا: فعَلَ اللهُ بمُذَمَّمٍ، ومُذَمَّمٌ ليس هو اسمَهُ، ولا يُعرَفُ بهِ، فكان الذي يَقَعُ منهم في ذلك مَصروفًا إلى غيره»(١).

لَقَد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحدُثُ له عَجائِبُ من حِفظِ اللهِ لَهُ، وعِنايَتِهِ بهِ، حتى قبلَ البَعثَةِ، فحَفِظَهُ اللهُ مِنَ السُّجودِ للصَّنَمِ، وعِبادَةِ الوَثَنِ، ومُعاقَرَةِ الخَمرِ، ومُصاحَبَةِ السُّفهاءِ.

و**بَعدَ البَعثَةِ**: حَدَثَ كَثيرٌ مِنَ الأمورِ العَجيبَةِ، التي حَفِظَهُ اللهُ بها، كَما رَأى أبو جَهلٍ -حينَما هَمَّ بِهِ- رَأى بينهُ وبينهُ خَندَقًا، ونارًا، وأجنِحَةً، وأعمَى اللهُ تعالى نَظَرَ أُمِّ جَميلٍ عَنهُ، وعَصَمَهُ اللهُ مِنَ الناسِ، فكَم كادوا لَهُ؛ ليَقتُلوهُ، أو يَصرِفوهُ عن دينِهِ، فعَصَمَهُ اللهُ منهم، وثَبَّتَهُ، وفي أشَدِّ مِحنَتِهِ بالناسِ وفِتنَتِهِم، كان أكثَرَ مَن تَبِعَهُ على دينِهِ الضُّعَفاءُ، والمغلوبونَ، فنَصرَهُمُ اللهُ، وأعَزَّهم، وأذَلَّ وأخزَى أعداءَهم.

وكُلُّ هذا ظاهِرٌ في حُصولِ التَّعَجُّبِ، وهذا من أكبَرِ البَراهينِ الربَّانيَّةِ على صِدقِ رِسالَتِهِ، وسُموِّ دَعوَتِهِ، وأنَّ التَّدبيرَ له سَماويٌّ، وحِفظَهُ إلَهيٌّ.

*** ومِن تَعَجُّبِهِ من أفعالِ اللهِ: تَعَجُّبُهُ من دِقَّةِ الحِسابِ، وكَمالِ العَدلِ يومَ القيامَةِ:**

فاللهُ تعالى سَريعُ الحِسابِ، ولَئِن كان حِسابُ المُكَلَّفينَ مِنَ الإنسِ والجِنِّ -علَى كَثرَتِهِم- من أعظَمِ البَراهينِ على قُدرَةِ اللهِ تعالى، فإنَّ مُحاسَبَةَ غيرِ المُكَلَّفينَ مِنَ البَهائِمِ من أعظَمِ الدَّلائِلِ على ذلك.

فعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان جالسًا، وشاتانِ تَقتَرِنانِ، فنَطَحَت إحداهما الأُخرَى، فأجهَضَتها.

فَضَحِكَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقيل لَهُ: ما يُضحِكُكَ يا رسولَ اللهِ؟

قال: «**عَجِبتُ لها! والذي نَفسي بيَدِهِ، لَيُقادَنَّ لها يومَ القيامَةِ**»(٢).

---

(١) فتح الباري (٦/ ٥٥٨).

(٢) رواه أحمد (٢١٥١١) وحسنه محققو المسند.

وهذا دَليلٌ على عَدلِ اللهِ تعالى، فإذا كان اللهُ تعالى سَيَقتَصُّ من غَيرِ المُكَلَّفينَ لبعضِهِمُ البعض، فكَيفَ بالمُكَلَّفينَ؟! وهذا مِمَّا يَدعو للتَّعَجُّبِ، الدَّاعي للإشفاقِ والخَوفِ، وأخذِ الحَيطَةِ والحَذَرِ.

* **ومِن تَعَجُّبِهِ من أفعال اللهِ: تَعَجُّبُهُ من أحوال العالَمِ الآخَرِ، حينَ رَأى الجَنَّةَ والنارَ:**

فعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى لَنا يومًا الصَّلاةَ، ثم رَقيَ المِنبَرَ، فأشارَ بيَدِهِ قِبَلَ قِبلَةِ المسجِدِ، فقال: «**قَد أُريتُ -الآنَ- مُنذُ صَلَّيتُ لَكُم الصَّلاةَ- الجَنَّةَ والنارَ، مُمَثَّلَتَينِ في قُبُلِ هذا الجِدارِ، فلَم أرَ كاليومِ في الخَيرِ والشَّرِّ، فلَم أرَ كاليومِ في الخَيرِ والشَّرِّ، ولو تَعلَمونَ ما أعلَمُ، لَضَحِكتُم قَليلًا، ولَبَكَيتُم كَثيرًا**».

فَما أتَى على أصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومٌ أشَدُّ منه، غَطَّوا رُءوسَهم، ولَهم خَنينٌ[1].

«**فَلَم أرَ كاليومِ في الخَيرِ والشَّرِّ**»:

أي: لم أرَ خَيرًا أكثَرَ مِمَّا رَأيتُهُ اليومَ في الجَنَّةِ، ولا شَرًّا أكثَرَ مِمَّا رَأيتُهُ اليومَ في النارِ، ولو رَأيتُم ما رَأيتُ، وعَلِمتُم ما عَلِمتُ، مِمَّا رَأيتُهُ اليومَ وقَبلَ اليومِ، لَأشفَقتُم إشفاقًا بَليغًا، ولَقَلَّ ضَحِكُكُم، وكَثُرَ بُكاؤُكُم[2].

وإذا كانتِ الجَنَّةُ والنارُ بهذا العَجَبِ، فإنَّ أعجَبَ منهما: مَن آمَنَ بوُجودِهِما، وعَلِمَ وصفَهما، ثم لم يَعمَل ليومٍ يَقِفُ فيه بينهما، ولا يَدري إلى أيَّتِهِما يَصيرُ؟

* **ولِذلك تَعَجَّبَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من حال ذلك الغافِلِ:**

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما رَأيتُ مِثلَ النارِ، نامَ هارِبُها، ولا مِثلَ الجَنَّةِ، نامَ طالِبُها**»[3].

---

(١) رواه البخاري (٧٤٩)، (٦٤٦٨)، ومسلم (٢٣٥٩).
والخنين: صوت البكاء، وهو نوعٌ من البكاء، دون الانتحاب.
(٢) شرح صحيح مسلم للنووي (١٥/ ١١٢).
(٣) رواه الترمذي (٢٦٠١)، وحسنه الألباني، وضعفه ابن الجوزي وغيره.

قال المُناويُّ: «وَفيه معنى التَّعَجُّبِ، أي: ما أعجَبَ حالَ النارِ الموصوفَةِ بشِدَّةِ الأهوال، وحالَ الهارِبِ منها، مع نَومِهِ، وشِدَّةِ غَفلَتِهِ، والاسترسال في سَكرَتِهِ، وما أعجَبَ حالَ الجَنَّةِ الموصوفَةِ بهذه الصِّفاتِ، وحالَ طالِبِها، الغافِلِ عَنها»[1].

*** وتَعَجّبَ مِنَ اليَهوديِّ، كَيفَ أخبَرَ عن كِتابِهِم، بمِثلِ ما أخبَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟!**

فعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**تكونُ الأرضُ يومَ القيامَةِ خُبزَةً واحِدَةً، يَكفَؤُها الجَبَّارُ بيَدِهِ، كَما يَكفَأُ أحَدُكُم خُبزَتَهُ في السَّفَرِ؛ نُزُلًا لأهلِ الجَنَّةِ**».

فَأتَى رَجُلٌ من اليَهودِ، فقال: بارَكَ الرحمَنُ عليكَ أبا القاسِمِ، ألا أُخبِرُكَ بنُزُلِ أهلِ الجَنَّةِ، يومَ القيامَةِ؟

- قال: «**بَلى**».

- قال: تكونُ الأرضُ خُبزَةً واحِدَةً، كَما قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- قال: فنَظَرَ إلَينا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم ضَحِكَ حتى بَدَت نَواجِذُهُ.

- قال: ألا أُخبِرُكَ بإدامِهِم؟

- قال: «**بَلى**».

- قال: إدامُهم: بالامُ ونونٌ.

- قالوا: وما هَذا؟

- قال: ثَورٌ، ونونٌ، يَأكُلُ من زائِدَةِ كَبِدِهِما سَبعونَ ألفًا[2].

---

(١) فيض القدير (٥/ ٤٤٦).

(٢) رواه البخاري (٦٥٢٠)، ومسلم (٢٧٩٢).

قال بَدرُ الدِّينِ العَينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**قولُهُ**: «**ثم ضَحِكَ**»، يعني: تَعَجُّبًا مِنَ اليَهوديِّ، كَيفَ أخبَرَ عن كِتابِهِم، نَظيرَ ما أخبَرَ بِهِ من جِهَةِ الوَحيِ؟»[١].

وقال مُلَّا عليّ القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَنظَرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَينا»، أي: نَظَرَ التِفاتٍ، وتَعَجُّبٍ، وتَنبيهٍ، ثم ضَحِكَ، أي: فرَحًا للمُطابَقَةِ، والموافَقَةِ»[٢].

وعن ابن مَسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال جاءَ حَبرٌ من اليَهودِ، فقال: إنَّهُ إذا كان يومُ القيامَةِ، جَعَلَ اللهُ السَّمَواتِ على إصبَعٍ، والأرَضينَ على إصبَعٍ، والماءَ والثَّرَى على إصبَعٍ، والخَلائِقَ على إصبَعٍ، ثم يَهُزُّهُنَّ، ثم يقولُ: أنا الملِكُ، أنا الملِكُ.

فَلَقَد رَأيتُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يَضحَكُ** حتى بَدَت نَواجِذُهُ؛ تَعَجُّبًا وتَصديقًا لقولِهِ، ثم قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ إلى قولِهِ: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧][٣].

قال الحافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَضَحِكَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تَصديقًا لَهُ، وتَعَجُّبًا من كَونِهِ يستَعظِمُ ذلك في قُدرَةِ اللهِ تعالى، وأنَّ ذلك ليس في جَنبِ ما يَقدِرُ عليه بعَظيمٍ؛ ولِذلك قَرَأ قولَهُ تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] الآية، أي: ليس قَدرُهُ في القُدرَةِ على ما يَخلُقُ، على الحَدِّ الذي يَنتَهي إليه الوَهمُ، ويُحيطُ بِهِ الحَصرُ؛ لأنَّهُ -تعالى- يَقدِرُ على إمساكِ مَخلوقاتِهِ، على غَيرِ شيءٍ، كَما هيَ اليومَ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]، وقال: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]»[٤].

*** ومِن تَعَجُّبِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أُمورِ الآخِرَةِ: تَعَجُّبُهُ من مُجادلَةِ العَبدِ ربَّه يومَ القيامَةِ:**

فعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كُنَّا عندَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضَحِكَ، فقال: «**هَل تَدرونَ مِمَّ أضحَكُ؟**».

---

(١) عمدة القاري (٣٣/ ٣٢١).

(٢) مرقاة المفاتيح (١٦/ ٩٢).

(٣) رواه البخاري (٧٥١٣)، ومسلم (٢٧٨٦).

(٤) الفتح (١٣/ ٣٩٨).

- قُلنا: اللهُ ورسولُهُ أعلَمُ.

- قال: «**مِن مُخاطَبَةِ العبدِ رَبَّهُ، يقولُ: يا رَبِّ، أَلَمْ تُجِرني مِنَ الظُّلمِ؟**

- **يقولُ: بَلى.**

- **فيقولُ: فإنِّي لا أُجيزُ على نَفسي، إلا شاهِدًا مِنِّي.**

- **فيقولُ: كَفَى بنَفسِكَ اليومَ عليكَ شَهيدًا، وبِالكِرامِ الكاتِبينَ شُهودًا.**

فيُختَمُ على فيه، فيُقال لأركانِهِ: انطِقي، فتَنطِقُ بأعمالِهِ، ثم يُخَلَّى بينهُ وبين الكلامِ، فيقولُ: بُعدًا لَكُنَّ وسُحقًا؛ فعنكُنَّ كنتُ أُناضِلُ»[1].

وفي رواية: ضَحِكَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاتَ يومٍ، أو تَبَسَّمَ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا تسألوني من أيِّ شيءٍ ضَحِكتُ؟**» فقال: «**عَجِبتُ من مُجادَلَةِ العبدِ رَبَّهُ يومَ القيامَةِ...**»[2].

قال مُلَّا عليّ القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**«هَل تَدرونَ مِمَّ أضحَكُ؟»، فيه إيماءٌ إلى أَنَّهُ لا يَنبَغي** الضَّحِكُ إلا لأمرٍ غَريبٍ، وحُكمٍ عَجيبٍ»[3].

فَمِمَّا لا يَنقَضي منه العَجَبُ: حالُ الكافِرِ، واستِمرارُهُ على حالهِ مِنَ العِنادِ، حتى بعدَ مُعايَنَتِهِ للغَيبِ، ومُطالَعَتِهِ أهوالَ اليومِ الآخِرِ؛ ولِذلك ضَحِكَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَعَجِّبًا من حال هذا الذي ما زالَ جاهِلًا باللهِ، يُجادِلُه بالباطِلِ، وهو واقِفٌ بين يَدَيهِ في مَوقِفِ الحِسابِ.

وروى الطَّبَريُّ، بسَنَدٍ صَحيحٍ، عن أبي موسَى الأشعَريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: «يُدعَى الكافِرُ والمُنافِقُ للحِسابِ، فيَعرِضُ عليه رَبُّهُ عَمَلَهُ، فيَجحَدُهُ، ويقولُ: أي رَبِّ، وعِزَّتِكَ لَقَد كَتَبَ عَلَيَّ هذا المَلَكُ ما لم أعمَل.

- فيقولُ له المَلَكُ: أما عَمِلتَ كَذا، في يومِ كَذا، في مَكانِ كَذا؟

---

(١) مسلم (٢٩٦٩).

(٢) رواه الحاكم (٨٧٧٨).

(٣) مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٥٢٧).

- فيقولُ: لا وعِزَّتِكَ أي رَبِّ، ما عَمِلتُهُ، فإذا فعَلَ ذلك خُتِمَ على فيه».

قال أبو موسَى الأشعَريُّ: «فإنِّي أحسَبُ أوَّلَ ما يَنطِقُ منه لَفَخِذُهُ اليُمنَى»، ثم تَلا: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥][1].

فيَجحَدُ كِتابَ الأعمال، ويُكَذِّبُ الملَكَ، ويُنكِرُ فِعلَهُ، ويُبَرِّئُ نَفسَهُ، ويَحلِفُ باللهِ على ذلك!

فما أعجَبَ حاله يومَئِذٍ! وهو بُرهانٌ جَليٌّ على عَجيبِ أمرِهِ في الدُّنيا، حتى تَمادَى بهِ إلى يومِ الحِسابِ.

وقد ذَكَرَ اللهُ تعالى حالَهمُ العَجيبَ -هَذا- يومَ الدِّينِ، فقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [المجادلة: ١٨]، وقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٤].

فَفي قولِهِ تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ دَعوَةٌ إلى التَّعَجُّبِ من حالِهم، وفرطِ أمرِهم.

*** ومِن تَعَجُّبِهِ من أفعالِ اللهِ: تَعَجُّبُهُ مِمَّا يُعَجِّلُهُ اللهُ تعالى لعبادِهِ، مِنَ المثوبَةِ والعُقوبَةِ في الدُّنيا:**

فعن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: استيقَظَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذاتَ لَيلَةٍ، فقال: «**سُبحانَ اللهِ! ماذا أُنزِلَ اللَّيلَةَ مِنَ الفِتَنِ؟ وماذا فُتِحَ مِنَ الخَزائِنِ؟ أيقِظوا صَواحِباتِ الحُجَرِ**[2]؛ **فرُبَّ كاسيَةٍ في الدُّنيا، عاريَةٍ في الآخِرَةِ**»[3].

(١) تفسير الطَّبري (٢٠/ ٥٤٤).

(٢) يريد: أزواجه؛ لكي يصلِّين، وأراد بقوله: «أيقظوا»: بعض خدمه.

(٣) رواه البخاري (١١٥).

وفي رواية: استيَقَظَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لَيلَةً فزِعًا، يقولُ: «**سُبحانَ اللهِ ... الحديثَ**»(١).

قال ابنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُٱللَّهُ: «**في هذا الحديثِ:** أنَّ الفُتوحَ في الخَزائِنِ، تَنشَأُ عنه فِتنَةُ المالِ، بأن يُتَنافَسَ فيه فيَقَعَ القِتالُ بسببِهِ، وأن يُبخَلَ بِهِ فيُمنَعَ الحَقُّ، أو يبطرَ صاحِبُهُ فيُسرِفَ، فأرادَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ تَحذيرَ أزواجِهِ من ذلك كُلِّهِ، وكذا غَيرهنَّ، مِمَّن بَلَغَهُ ذلك»(٢).

فلمَّا اطَّلَعَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على ما فتَحَهُ اللهُ تعالى في تلكَ الليلةِ من الخَزائِنِ، وما أنزَلَهُ مِنَ الفِتَنِ، قامَ من نَومِهِ، فزِعًا من دَهشَتِهِ؛ لكَثرَةِ الخَيرِ والشَّرِّ، ثم يُظهِرُ العَجَبَ من أمرٍ آخَرَ، وهو غَفلَةُ البَشَرِ عَمَّا يَحدُثُ حَولَهم، من فتحِ خَزائِنِ الخَيرِ، وفَتحِ أبوابِ الفِتَنِ، مِمَّا يَدعو إلى الرغبَةِ، والرهبَةِ، والجِدِّ في العِبادَةِ.

*** وعَجِبَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مِن التَّشديدِ الذي نُزِّلَ في أمرِ الدِّينِ:**

فعن محمدِ بنِ جَحشٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: كُنَّا جُلوسًا عندَ رسولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فرَفَعَ رَأسَهُ إلى السَّماءِ، ثم وضَعَ راحَتَهُ على جَبهَتِهِ، ثم قال: «**سُبحانَ اللهِ! سُبحانَ اللهِ! ماذا نُزِّلَ مِنَ التَّشديدِ؟!**» فسَكَتنا، وفَزِعنا، فلمَّا كان مِنَ الغَدِ، سَأَلتُهُ: يا رسولَ اللهِ، ما هذا التَّشديدُ الذي نُزِّلَ؟ فقال: «**والذي نَفسي بيَدِهِ، لَو أنَّ رَجُلًا قُتِلَ في سَبيلِ اللهِ، ثم أُحييَ، ثم قُتِلَ، ثم أُحييَ، ثم قُتِلَ، وعليه دَينٌ، ما دَخَلَ الجَنَّةَ حتى يُقضَى عنه دَينُهُ**»(٣).

قال القاري رَحِمَهُٱللَّهُ: «**ثم قال: سُبحانَ اللهِ!**»: أي: تعَجُّبًا، «**سُبحانَ اللهِ**»: تَأكيدًا، «**ماذا نُزِّلَ مِنَ التَّشديدِ؟!**»: أي: التَّهديدِ، والوَعيدِ»(٤).

---

(١) رواه البخاري (٧٠٦٩).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٢٣).

(٣) رواه النسائي (٤٦٨٤)، وأحمد (٢٢٤٩٣)، وحسنه الألباني، وضعفه محققو المسند بهذا السِّياق.

(٤) مرقاة المفاتيح (٥/ ١٩٦٤).

تَعَجُّبُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أفعال المخلوقينَ

كان يُعرَفُ تَعَجُّبُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتَسبيحِهِ، أو قولِهِ: «عَجِبتُ لكذا»، أو بسُؤالٍ يَسألُهُ على وجهِ الإنكارِ والتَّعَجُّبِ، أو بعَلاماتٍ تَظهَرُ على وجهِهِ، ونَحوِ ذلك.

وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُظهِرُ التَّعَجُّبَ من بعضِ المُباحاتِ على وجهِ الإيناسِ وحُسنِ العِشرَةِ لأهلِهِ وأصحابِهِ.

*** فَقَد تَعَجَّبَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من لُعبَةِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا:**

فعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: قَدِمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غَزوَةِ تَبوكَ، أو خَيبَرَ[1]، وفي سَهوَتِها سِترٌ، فهَبَّت ريحٌ، فكَشَفَت ناحيَةَ السِّترِ عن بَناتٍ لعائشةَ، لُعَبٍ.

- فقال: «**ما هذا يا عائشةُ؟**».

- قالت: بَناتي.

ورَأى بينهُنَّ فَرَسًا له جَناحانِ من رِقاعٍ، فقال:

- «**ما هذا الذي أرَى وسطَهُنَّ؟**».

- قالت: فَرَسٌ.

- قال: «**وَما هذا الذي عليه؟**».

- قالت: جَناحانِ.

- قال: «**فَرَسٌ له جَناحانِ!**».

- قالت: أما سمعتَ أنَّ لسُلَيمانَ خَيلًا لها أجنِحَةٌ؟

(١) رجَّح الحافظ أنها في خيبر، وعائشة -وقتها- بنت أربع عشرة سنةً. ينظر: الفتح (١٠/ ٥٢٧).

- قالت: فضَحِكَ، حتى رَأيتُ نَواجِذَهُ[١].

فتَعَجَّبَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من وُجودِ فرَسٍ له جَناحانِ بين لُعبِها.

وهوَ تَعَجُّبُ مُفاكَهةٍ، ومُلاطفَةٍ، وإيناسٍ.

وقال الحافِظُ ابنُ حَجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واستُدِلَّ بهذا الحديثِ على جَوازِ اتِّخاذِ صوَرِ البَناتِ، واللُّعَبِ، من أجلِ لَعِبِ البَناتِ بهِنَّ، وخُصَّ ذلك من عُمومِ النَّهيِ عن اتِّخاذِ الصُّوَرِ، وبِهِ جَزَمَ عياضٌ، ونَقَلَهُ عن الجُمهورِ، وأنَّهم أجازوا بَيعَ اللُّعَبِ للبَناتِ؛ لتَدريبِهِنَّ من صِغَرِهِنَّ على أمرِ بُيوتِهِنَّ، وأولادِهِنَّ»[٢].

❋ وتَعَجَّبَ -كَذلك- من فِعلِ وليدٍ مِنَ الأنصارِ، وحُبّه التّمرَ:

فعن أنسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: ماتَ ابنٌ لأبي طَلحَةَ من أُمِّ سُلَيمٍ... فوَلَدَت غُلامًا، فقالت لي أُمِّي: يا أنسُ، لا يُرضِعُهُ أحَدٌ حتى تَغدوَ بهِ على رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلَمَّا أصبَحَ احتَمَلتُهُ، فانطَلَقتُ بهِ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: فصادَفتُهُ ومَعَهُ ميسَمٌ[٣].

فلَمَّا رَآني قال: لَعَلَّ أُمَّ سُلَيمٍ ولَدَت.

- قُلتُ: نعم.

فَوَضَعَ الميسَمَ، قال: وجِئتُ بهِ، فوَضَعتُهُ في حِجرِهِ، ودَعا رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعَجوَةٍ من عَجوَةِ المدينَةِ، فلاكَها في فيه حتى ذابَت، ثم قَذَفها في في الصَّبيِّ، فجَعَلَ الصَّبيُّ يَتَلَمَّظُها[٤].

- فقال رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**انظُروا إلى حُبِّ الأنصارِ التَّمرَ!**».

---

(١) رواه أبوداود (٤٩٣٢)، وصححه الألباني.

(٢) فتح الباري (١٠/ ٥٢٧).

(٣) الحديدة التي يوسم بها، أي: يعلّم بها.

(٤) أي: يحرِّك لسانه في فمه، ليتتبَّع ما فيه من آثار التَّمر.

- قال: فمَسَحَ وجهَهُ، وسَمَّاهُ عبدَاللهِ[(١)].

فَعَجِبَ مِمَّا ورِثَهُ الطفلُ -وهو في مَهدِه- عن آبائِه، مِن حُبِّ التَّمرِ.

* وتَعَجَّبَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من حال المُستَحاضَةِ، التي تَركَتِ الصّلاةَ:

عن أسماءَ بنتِ عُمَيسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ فاطمةَ بنتَ أبي حُبَيشٍ استُحيضَت مُنذُ كَذا وكذا، فلَم تُصَلِّ؟

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سُبحانَ اللهِ! إنَّ هذا مِنَ الشَّيطانِ، لتَجلِس في مِركَنٍ**[(٢)]**، فإذا رَأت صُفرَةً فوقَ الماءِ، فلتَغتَسِل للظُّهرِ والعَصرِ غُسلًا واحِدًا، وتَغتَسِل للمَغرِبِ والعِشاءِ غُسلًا واحِدًا، وتَغتَسِل للفَجرِ غُسلًا واحِدًا، وتَتَوَضَّأ فيما بين ذلك**»[(٣)].

قال بَدرُ الدِّينِ العَينيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قولُهُ: «**سُبحانَ اللهِ**»: إنما ذَكَرَهُ تَعَجُّبًا.

قولُهُ: «**هَذا مِنَ الشَّيطانِ**»: له مَعنَيانِ:

الأولُ: مَجازيٌّ، وهو أنَّهُ أنساها أيَّامَ حَيضِها، حتى حَصَلَ لها تَلَبُّسٌ في أمرِ دينِها، ووَقتِ طُهرِها، وصَلاتِها.

والثاني: حَقيقيٌّ، بمعنى: أنَّهُ ضَرَبَها، حتى فتَقَ منها عِرقَ الاستحاضَةِ»[(٤)].

وقال القاري رَحِمَهُ اللهُ: ««فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **سُبحانَ اللهِ**»: **تَعَجُّبًا** من تَركِها الصَّلاةَ بمُجَرَّدِ ظَنِّها المذكورِ، من غَيرِ أن تُراجِعَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في ذلك، أو أحَدًا مِنَ الصَّحابَةِ المعروفينَ بالإفتاءِ في زَمنِه»[(٥)].

---

(١) رواه مسلم (٢١٤٤).

(٢) إناءٌ كبيرٌ.

(٣) رواه أبوداود (٢٩٦)، وصححه الألباني.

(٤) شرح أبي داود للعينيِّ (٢/ ٨٣).

(٥) مرقاة المفاتيح (٢/ ٥٠٥).

فَفي هذا الحديثِ: تَعَجَّبَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من فاطمةَ حينَ تَركَتِ الصَّلاةَ؛ لظَنِّها أنَّ الاستحاضَةَ تَمنَعُ مِنَ الصَّلاةِ كالحَيضِ، فعَمِلَت بظَنِّها، ولم تُراجِعهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا أحَدًا مِن أصحابِهِ.

وأرشَدَها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن تَأتيَ إلى إناءٍ كَبيرٍ، فتَملأهُ بالماءِ، وتَجلِسَ فيه، «وَفائِدَةُ القُعودِ في المِركَنِ: لأن يَعلوَ الدَّمُ الماءَ، فيَظهَرَ بِهِ تَمييزُ دَمِ الاستِحاضَةِ من غَيرِهِ؛ فإنَّهُ إذا عَلا الدَّمُ الأصفَرُ فوقَ الماءِ: فهيَ مُستَحاضَةٌ، أو غَيرُهُ: فهو حَيضٌ، فهَذِهِ هيَ النُّكتَةُ في الجُلوسِ في المِركَنِ، وأمَّا الغُسلُ: فخارِجَ المِركَنِ، لا فيه»[١].

*** ومِنَ العَجَبِ أن تَطلُبَ المرأةُ من زَوجِها أن يَتزَوَّجَ عليها، وقد تَعَجَّبَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك:**

فعن أُمِّ حَبيبَةَ زَوجِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالت: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ انكِحِ أُختي بنتَ أبي سُفيانَ.

- قال: «**أوَتُحِبِّينَ ذلك؟!**».
- قُلتُ: نعم، لَستُ لَكَ بمُخليَةٍ، وأحَبُّ مَن شارَكَني في الخَيرِ: أُختي.
- فقال: «**إنَّ ذلك لا يَحِلُّ لي**[٢]» ... الحديث[٣].

قال الحافِظُ: «قولُهُ: «**أوَ تُحِبِّينَ ذلك؟!**»: هو استِفهامُ تَعَجُّبٍ، من كَونِها تَطلُبُ أن يَتزَوَّجَ غَيرَها، مع ما طُبِعَ عليه النِّساءُ مِنَ الغَيرَةِ.

«**لَستُ لَكَ بمُخليَةٍ**»: أي: لَستُ بمُنفَرِدَةٍ بك، ولا خاليَةٍ من ضَرَّةٍ»[٤].

---

(١) عون المعبود (١/ ٣٣٥).

(٢) لأن الجمع بين الأختين حرامٌ.

(٣) رواه البخاري (٥١٠١)، ومسلم (١٤٤٩).

(٤) فتح الباري (٩/ ١٤٣).

*** وتَعَجَّبَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بُغضِ بَريرةَ زَوجَها، مع شدّة حبّه لها:**

فَعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أنَّ زَوجَ بَريرَةَ كان عبدًا يُقال لَهُ: مُغيثٌ، كَأنِّي أنظُرُ إليه، يَطوفُ خَلفها يَبكي، ودُموعُهُ تَسيلُ على لحيَتِهِ[١].

– فقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبَّاسٍ: «**يا عبَّاسُ، ألا تَعجَبُ من حُبِّ مُغيثٍ بَريرَةَ، ومِن بُغضِ بَريرَةَ مُغيثًا؟!**».

– فقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَو راجَعتِهِ**».

– قالت: يا رسولَ اللهِ، تَأمُرُني؟

– قال: «**إنما أنا أشفَعُ**»[٢].

– قالت: لا حاجَةَ لي فيه[٣].

أي: فإذا لم تُلزِمني بذلك، لا أختارُ العَودَ إليه، وفي رواية: «لَو أعطاني كَذا وكذا، ما بتُّ عندَهُ»[٤].

وعند أبي داود[٥]: أنَّ مُغيثًا كان عبدًا، فقال: يا رسولَ اللهِ: اشفَع لي إلَيها، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا بَريرَةُ، اتَّقي اللهَ، فإنَّهُ زَوجُكِ وأبو ولَدِكِ**»... الحديث.

فتَعَجَّبَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حُبِّ مُغيثٍ بَريرَةَ، وعاطِفَتِهِ نَحوها، ومِن شِدّة نُفرتِها منه، وهو أبو ولدِها.

---

(١) وفي رواية عند البخاري (٥٢٨١): «يتبعها في سكك المدينة، يبكي عليها».

(٢) أي: أقول ذلك على سبيل الشَّفاعة له، لا على سبيل الحتم عليك.

(٣) رواه البخاري (٥٢٨٣).

(٤) رواه البخاري (٦٧٥٨).

قال ابن بطَّالٍ في شرح البخاري (٧/ ٤٢٨): «أجمع العلماء: أن الأمة إذا عتقت تحت عبدٍ، فإن لها الخيار في البقاء معه، أو مفارقته».

(٥) سنن أبي داود (٢٢٣١)، وسنده صحيح.

*** وتَعَجَّبَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الرجُلِ الذي يوصَفُ بكَمال العَقلِ، كَيفَ تَغلِبُهُ المرأةُ الضَّعيفَةُ؟!**

فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما رَأيتُ من ناقِصاتِ عَقلٍ ودينٍ، أذهَبَ للُبِّ الرجُلِ الحازِمِ، من إحداكُنَّ**»(١).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «وَليس نُقصانُ ذلك في حَقِّهِنَّ ذَمًّا لَهُنَّ؛ وإنما ذَكَرَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك من أحوالِهِنَّ، على معنى التَّعَجُّبِ مِنَ الرِّجال، حيث يَغلِبُهم مَن نَقَصَ عن دَرَجَتِهِم، ولم يَبلُغ كَمالَهم»(٢).

وقال ابنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللهُ: «فإذا كُنَّ يَغلِبنَ الحازِمَ، فما الظَّنُّ بغَيرِهِ؟»(٣).

وقال القاري رَحِمَهُ اللهُ: «**اللُّبُّ**: العَقلُ الخالصُ من شَوبِ الهَوَى «**الحازِم**»: صِفَةُ الرجُلِ، أي الضَّابِطُ أمرَهُ، وفي ذِكرِهِ مع ذِكرِ اللُّبِّ، إشعارٌ بأنَّ فِتنَتَهُنَّ عَظيمَةٌ، تَذهَبُ بعُقولِ الحازِمينَ، فما ظَنُّكَ بغَيرِهِم؟

وما أحسَن قول جَريرٍ:

يصرَعنَ ذا اللُّبِّ حتى لا حراكَ بِهِ ... وهُنَّ أضعفُ خلقِ اللهِ أركانا(٤)

ولا شَكّ أنّ مِثلَ هَذِهِ الحال، تَدعو إلى التّعجُّبِ.

وقد يكونُ تَعَجُّبُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **من بَعضِ الأخطاءِ التي يَقَعُ فيها بَعضُ الناسِ، ومِن ذلك:**

*** تَعَجُّبُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ المُغالاةِ في المُهورِ، وخاصّةً مع الحاجَةِ والفَقرِ:**

عن أبي هريرة قال: جاءَ رَجُلٌ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: إنِّي تَزَوَّجتُ امرَأةً من الأنصارِ.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٨٠).
(٢) المفهم (٢/ ٣٤).
(٣) شرح صحيح البخاري (١/ ٤٢٠).
(٤) مرقاة المفاتيح (١/ ٩٣).

- فقال له النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَل نَظَرتَ إلَيها؟ فإنَّ في عُيونِ الأنصارِ شَيئًا**»[١].

- قال: قَد نَظَرتُ إلَيها.

- قال: «**عَلى كَم تَزَوَّجتَها؟**».

- قال: على أربَعِ أواقٍ.

- فقال له النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عَلى أربَعِ أواقٍ؟! كَأنَّما تنحِتونَ الفِضَّةَ من عُرضِ هذا الجَبَلِ!**[٢]، **ما عندَنا ما نُعطيكَ، ولكن عَسَى أن نَبعَثَكَ في بَعثٍ، تُصيبُ منه**».

- قال: فبَعَثَ بَعثًا إلى بَني عَبسٍ، بَعَثَ ذلك الرجُلَ فيهم[٣].

فالمهرُ شُرِعَ لإتمامِ الزَّواجِ، وليس لتَعطيلِهِ، وكَم تَعَطَّلَ الزَّواجُ؛ للتَّعَنُّتِ في المهرِ، والتَّغالي فيه، ولَقَد تَعَجَّبَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حال هَؤُلاءِ الذينَ يُغالونَ في المُهورِ، وخاصَّةً إذا كانوا مِنَ الفُقَراءِ.

قال أبو العبَّاسِ القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذا الإنكارُ منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، على هذا الرجُلِ المُتَزَوِّجِ على أربَعَةِ أواقٍ، ليس إنكارًا لأجلِ المُغالاةِ، والإكثارِ في المهرِ[٤]؛ فإنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَد أصدَقَ نِساءَهُ خَمسمائَةِ دِرهَمٍ، وأربَعَةُ أواقٍ: مِئَةٌ وسِتُّونَ دِرهَمًا.

وإنما أنكَرَ ذلك بالنِّسبَةِ إلى حال الرجُلِ؛ فإنَّهُ كان فقيرًا في تِلكَ الحال، فأدخَلَ نَفسَهُ في مَشَقَّةٍ، تَعَرَّضَ للسُّؤال بسببِها؛ ولِذلك قال لَهُ: «**ما عندَنا ما نُعطيكَ**».

ثم إنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بكَرَمِ أخلاقِهِ، ورَأفَتِهِ، ورَحمَتِه، جَبَرَ مُنكَسرَ قَلبِهِ، بقولِهِ: «**ولكن، عَسَى أن نَبعَثَكَ في بَعثٍ، فتُصيب منه**»؛ يعني بِهِ: سَرِيَّةً في الغَزوِ، فبَعَثَهُ فأصابَ حاجَتَهُ؛ ببَرَكَةِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[٥].

---

(١) يعني: بعض ما لا يستحبُّ من زرقةٍ، أو صغرٍ، أو نحو ذلك.

(٢) العرض: هو الجانب، والناحية.

(٣) رواه مسلم (١٤٢٤).

(٤) يعني: من جهة العموم.

(٥) المفهم (١٢/ ١٥٠).

* ومِن تَعَجُّبِهِ ﷺ مِنَ الأخطاءِ: تَعَجُّبُهُ مِنَ الحِرصِ على المال:

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أُتِيَ النبيُّ ﷺ بمالٍ من البَحرَينِ[١].

– فقال: «**انثُروهُ في المسجِدِ**»، وكان أكثَرَ مالٍ أُتِيَ بهِ رسولُ اللهِ ﷺ.

فَخرجَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى الصَّلاةِ، ولم يَلتَفِت إليه[٢]، فلماَّ قَضىَ الصَّلاةَ، جاءَ، فجلَسَ إليه، فما كان يَرَى أحَدًا إلا أعطاهُ، إذ جاءَهُ العبَّاسُ، فقال: يا رسولَ اللهِ أعطِني؛ فإنِّي فادَيتُ نَفسي، وفادَيتُ عَقيلًا[٣].

– فقال له رسولُ اللهِ ﷺ: «**خُذ**».

فَحَثا في ثَوبِهِ، ثم ذَهَبَ يُقِلُّهُ[٤]، فلَم يَستَطِع.

– فقال: يا رسولَ اللهِ، اؤمُر بعضَهم يَرفَعهُ إلَيَّ.

– قال: «**لا**».

– قال: فارفَعهُ أنتَ عَلَيَّ.

– قال: «**لا**».

فَنَثَرَ منه، ثم ذَهَبَ يُقِلُّهُ، فقال: يا رسولَ اللهِ، اؤمُر بعضَهم يَرفَعهُ عَلَيَّ.

– قال: «**لا**».

– قال: فارفَعهُ أنتَ عَلَيَّ.

– قال: «**لا**».

---

(١) وهذا المال أرسل به العلاء بن الحضرميِّ، جزية أهل البحرين، وهم مجوس هجر، وكان قد قدم به أبوعبيدة ابن الجرَّاح.

(٢) فيه: بيان احتقار النبيِّ ﷺ للدُّنيا وإن كثرت؛ فإنه مرَّ بالمال، ولم يلتفت إليه.

(٣) وكان أسر مع عمِّه العبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في غزوة بدرٍ.

(٤) من الإقلال، وهو الرفع والحمل.

فَنَثَرَ منه، ثم احتَمَلَهُ فألقاهُ على كاهِلِهِ[١]، ثم انطَلَقَ، فما زالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُتبِعُهُ بَصَرَهُ، حتى خَفِيَ عَلَينا؛ عَجَبًا من حِرصِهِ.

فَما قامَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وثَمَّ منها دِرهَمٌ[٢].

قال ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وَفيه**: التَّعَجُّبُ من حِرصِ الحَريصِ على المال، والمُستكثِرِ منه، ويُصَدِّقُ هذا قولُهُ: «**لَو كان لابنِ آدَمَ وادِيانِ من مالٍ، لابتَغَى ثالثًا، ولا يَملأُ جَوفَ ابنِ آدَمَ إلا التُّرابُ**»[٣]»[٤].

وقد كان العبَّاسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَظيمًا، جَسيمًا، شَديدَ القوَّةِ، فالظَّاهِرُ أنَّهُ حَمَلَ مالًا كثيرًا، والعبَّاسُ كان من أغنَى قُرَيشٍ وأكثَرِهِم مالًا، ولكنهُ غَرِمَ بسببِ مُفاداةِ نَفسِهِ، ومُفاداةِ عَقيلٍ ابنِ أخيهِ، مِنَ الأسرِ.

قال ابنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإنما لم يَأمُر برَفعِ المال على عُنُقِ العبَّاسِ -واللهُ أعلَمُ-؛ ليَزجُرَهُ ذلك عن الاستكثارِ في المال الذي ظَهَرَ منه، وألَّا يَأخُذَ مِنَ الدُّنيا فوقَ حاجَتِهِ، ويَقتَصِرَ على ما يَبلُغُ منها المحَلَّ، كَما كان يَفعَلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولهذا لم يَرفَعهُ على عُنُقِهِ؛ لئَلَّا يُعينَهُ على ما لا يَرضاهُ»[٥].

* وتَعَجَّبَ مِن هَيبَةِ النِّساءِ، مِن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: استَأذَنَ عمرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعندَهُ نِسوَةٌ من قُرَيشٍ، يَسألنَهُ، ويَستكثِرنَهُ[٦]، عاليَةً أصواتُهُنَّ على صَوتِهِ.

---

(١) الكاهل: ما بين الكتفين.

(٢) رواه البخاري (٤٢١) معلقا، ووصله البيهقي في سننه (١٣٠٢٨).

(٣) رواه البخاري (٦٤٣٦)، ومسلم (١٠٤٩).

(٤) فتح الباري، لابن رجبٍ (٣/ ١٥٩).

(٥) شرح ابن بطَّالٍ (٢/ ٧٤).

(٦) يطلبن كثيرًا من كلامه وجوابه، بحوائجهنَّ، وفتاويهنَّ.

فلمَّا استأذَنَ عمرُ، تَبادَرنَ الحِجابَ[١].

فَأذِنَ له النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدَخَلَ، والنبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَضحَكُ.

- فقال: أضحَكَ اللهُ سِنَّكَ يا رسولَ اللهِ، بأبي أنتَ وأُمِّي.

- فقال: «**عَجِبتُ من هَؤُلاءِ اللَّاتي كُنَّ عندي، لَمَّا سَمِعنَ صَوتَكَ، تَبادَرنَ الحِجابَ**».

- فقال: أنتَ أحَقُّ أن يَهَبنَ يا رسولَ اللهِ.

ثم أقبَلَ عليهنَّ، فقال: يا عَدوَّاتِ أنفُسِهِنَّ! أتَهَبنَني، ولم تَهَبنَ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!

- فقُلنَ: إنَّكَ أفَظُّ وأغلَظُ من رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٢].

- قال رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إيهًا يا ابنَ الخَطَّابِ، والذي نَفسي بيَدِهِ، ما لَقِيَكَ الشَّيطانُ سالكًا فجًّا، إلا سَلَكَ فجًّا غيرَ فجِّكَ**»[٣].

يعني: فإذا كان الشَّيطانُ يَهابُكَ، فكَيفَ لا يَهَبنَكَ هَؤُلاءِ النِّسوَةُ؟

فَتَعَجَّبَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شِدَّةِ هَيبَتِهِنَّ من عمرَ.

* وتَعَجَّبَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من فِعلِ المرأةِ التي نَذَرَت أن تَذبَحَ ناقَتَهُ، وقد نَجَّاها اللهُ عليها:

عن عِمرانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال:... أُسِرَت امرَأةٌ مِنَ الأنصارِ[٤]، وأُصيبَتِ العَضباءُ، فكانت المرأةُ في الوَثاقِ، وكان القَومُ يُريحونَ نعمهم بين يَدَي بُيوتِهم، فانفَلَتَت ذاتَ لَيلَةٍ مِنَ الوَثاقِ، فأتَتِ الإبِلَ، فجَعَلَت إذا دَنَت مِنَ البَعيرِ رَغا[٥]، فتَترُكُهُ، حتى تَنتَهيَ إلى العَضباءِ،

(١) أي: اختبأن وراء السِّتار عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) قال العلماء: ليست «أفعل» هنا؛ للمفاضلة، بل هي بمعنى: فظ، غليظ.

(٣) رواه البخاري (٣٦٨٣)، ومسلم (٢٣٩٦).

(٤) هي امرأة أبي ذرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٥) الرُّغاء: صوت الإبل.

فلَم تَرغُ، وهي ناقةٌ مُنوَّقةٌ[١]، فقعَدَت في عَجُزِها، ثم زَجَرَتها، فانطَلَقَت، ونَذِروا بها[٢]، فطَلَبوها، فأعجَزَتهم.

ونَذَرَت للهِ: إن نَجّاها اللهُ عليها لَتَنحَرَنَّها!

فلمّا قَدِمَتِ المدينَةَ، رَآها الناسُ فقالوا: العَضباءُ ناقَةُ رسولِ اللهِ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقالت: إنَّها نَذَرَت: إن نَجّاها اللهُ عليها لَتَنحَرَنَّها.

فَأتَوا رسولَ اللهِ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فذَكَروا ذلك له فقال: «**سُبحانَ اللهِ! بئسَما جزَتها؛ نَذَرَت للهِ إن نَجّاها اللهُ عليها، لَتَنحَرَنَّها! لا وفاءَ لنَذرٍ في مَعصيَةٍ، ولا فيما لا يَملِكُ العبدُ**»[٣].

فتَعَجَّبَ النبيُّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من فِعلِ المرأةِ؛ إذ كَيفَ يكونُ النَّحرُ جَزاءَ الناقَةِ التي كانت سببَ نَجاتِها، وليست -بعدُ- ناقتَها؟!.

* وتَعَجَّبَ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، من خَفاءِ بعضِ الأُمورِ الظّاهِرَةِ في الاغتِسال مِن الحَيضِ، على بعضِ النّساءِ:

فعن عائشةَ رَضِيَاللَّهُعَنْهَا، أنَّ امرَأةً سَألَتِ النبيَّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن غُسلِها مِنَ المحيضِ؟ فأمَرَها كَيفَ تَغتَسِلُ، قال: «**خُذي فِرصَةً من مِسكٍ، فتَطَهَّري بها**»[٤].

- قالت: كَيفَ أتطَهَّرُ؟

- قال: «**تَطَهَّري بها**».

- قالت: كَيفَ؟

- قال: «**سُبحانَ اللهِ! تَطَهَّري بها!**»، واستَتَرَ[٥]، فاجتَذَبتُها إليَّ، وعَرَفتُ ما أرادَ النبيُّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقُلتُ: تَتَبَّعي بها أثَرَ الدَّمِ[٦].

---

(١) أي: مذلَّلةٌ.

(٢) أحسُّوا بهربها.

(٣) رواه مسلم (١٦٤١).

(٤) فرصةً: قطعةً من صوفٍ، أو قطنٍ، أو جلدة عليها صوفٌ.

(٥) وأشار سفيان بن عيينة بيده على وجهه.

(٦) رواه البخاري (٣١٤)، ومسلم (٣٣٢).

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وفي هذا الحديثِ مِنَ الفَوائِدِ**: التَّسبيحُ عندَ التَّعَجُّبِ، ومَعناهُ -هُنا-: كَيف يَخفَى هذا الظَّاهِرُ، الذي لا يَحتاجُ في فهمِهِ إلى فِكرٍ؟

وفيه: استِحبابُ الكناياتِ، فيما يَتَعَلَّقُ بالعَوراتِ.

وفيه: سُؤالُ المرأةِ العالِمَ عن أحوالها، التي يُحتَشَمُ منها؛ ولهذا كانت عائشةُ تقولُ في نِساءِ الأنصارِ: «لَم يَمنَعهُنَّ الحَياءُ أن يَتفَقَّهنَ في الدِّينِ».

وفيه: الاكتِفاءُ بالتَّعريضِ، والإشارَة، في الأُمورِ المُستَهجَنَةِ، وتَكريرُ الجَوابِ؛ لإفهامِ السَّائِلِ، وإنما كَرَّرَهُ -مَعَ كَونِها لم تَفهَمهُ أوَّلًا-؛ لأنَّ الجَوابَ بهِ يُؤخَذُ من إعراضِهِ بوَجهِهِ، عندَ قولِهِ: «**تَطَهَّري**»، أي: في المحَلِّ الذي يَستَحيي من مواجَهَةِ المرأةِ بالتَّصريحِ بهِ، فاكتَفَى بلِسانِ الحالِ، عن لسانِ المقالِ، وفهِمَت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ذلك عَنهُ، فتَوَلَّت تَعليمَها»[1].

*** وكَذلك تَعَجَّبَ من ظَنِّ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ الجُنُبَ يَنجُسُ بالحَدَثِ:**

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لَقِيَني رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعضِ طَريقِ المدينَةِ، وأنا جُنُبٌ، فأخَذَ بيَدي، فمَشَيتُ مَعَهُ حتى قَعَدَ، فانسَلَلتُ[2]، فأتَيتُ الرحلَ[3] فاغتَسَلتُ، ثم جِئتُ وهو قاعِدٌ.

- فقال: «**أينَ كُنتَ يا أبا هِرٍّ؟**».

- فقُلتُ لَهُ: كنتُ جُنُبًا؛ فكَرِهتُ أن أُجالسَكَ وأنا على غَيرِ طَهارَةٍ.

- فقال: «**سُبحانَ اللهِ يا أبا هِرٍّ! إنَّ المسلمَ لا يَنجُسُ**»[4].

قال الحافِظُ ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان سببُ ذَهابِ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان

---

(١) فتح الباري (١/ ٤١٦).

(٢) أي: ذهبت في خفيةٍ.

(٣) المكان الذي يأوي فيه.

(٤) رواه البخاري (٢٨٣)، ومسلم (٣٧١).

إذا لَقِيَ أحَدًا من أصحابِهِ، ماسَحَهُ، ودَعا له -هَكَذا رَواهُ النَّسائيُّ، وابنُ حِبَّان، من حديثِ حُذَيفَةَ- فلمَّا ظَنَّ أبو هريرةَ، أنَّ الجُنُبَ يَنجُسُ بالحَدَثِ، خَشيَ أن يُماسِحَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَعادَتِهِ، فبادَرَ إلى الاغتِسال.

وقولُهُ: «**سُبحانَ اللهِ**»: تَعَجَّبَ مِنِ اعتِقادِ أبي هريرة التَّنَجُّسَ بالجَنابَةِ، أي: كَيفَ يَخفَى عليه هذا الظَّاهِرُ؟»[١].

وقولُهُ: «**إنَّ المسلم لا يَنجُسُ**»: أي: بالحَدَثِ، سَواء كان أصغَرَ، أو أكبَرَ.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذا الحديثُ أصلٌ عَظيمٌ في طَهارَةِ المسلمِ حَيًّا ومَيِّتًا... وذَكَرَ البخاري في صَحيحِهِ، عن ابنِ عبَّاسٍ -تَعليقًا-: «المسلمُ لا يَنجُسُ، حَيًّا ولا مَيِّتًا[٢]»[٣].

* **وتَعَجَّبَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا سَيقعُ من جُرأةِ بعضِ هَذِهِ الأُمَّةِ، على انتِهاكِ حُرمَةِ البَيتِ الحَرامِ:**

فعن عبدِاللهِ بنِ الزبيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: عَبَثَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مَنامِهِ[٤].

- فقُلنا: يا رسولَ اللهِ، صَنَعتَ شَيئًا في مَنامِكَ، لم تكُن تَفعَلُهُ؟

- فقال: «**العَجَبُ، إنَّ ناسًا من أُمَّتي يَؤُمُّونَ بالبَيتِ، برَجُلٍ من قُرَيشٍ، قَد لجَأَ بالبَيتِ، حتى إذا كانوا بالبَيداءِ: خُسِفَ بِهِم**».

- فقُلنا: يا رسولَ اللهِ، إنَّ الطَّريقَ قَد يَجمَعُ الناسَ؟!

- قال: «**نَعَم، فيهم المُستَبصِرُ، والمجبورُ، وابنُ السَّبيلِ، يَهلِكونَ مَهلكًا واحِدًا، ويَصدُرونَ مَصادِرَ شَتَّى، يَبعَثُهم اللهُ على نيَّاتِهم**»[٥].

---

(١) فتح الباري (١/ ٣٩١).
(٢) صحيح البخاري (٢/ ٧٣).
(٣) شرح مسلم (٤/ ٦٦).
(٤) معناه: اضطرب بجسمه، وقيل: حرَّك أطرافه، كمن يأخذ شيئًا، أو يدفعه.
(٥) رواه مسلم (٢٨٨٤).

وفي هذا الحديثِ مِنَ الفِقهِ: التَّباعُدُ من أهلِ الظُّلمِ، والتَّحذيرُ من مُجالَسَتِهِم، ومُجالَسَةِ البُغاةِ ونَحوِهم مِنَ المُبطِلينَ؛ لئَلَّا يَنالُهُ ما يُعاقَبونَ بِهِ.

وفيه: أنَّ مَن كَثَّرَ سَوادَ قَومٍ، جَرَى عليه حُكمُهم في ظاهِرِ عُقوباتِ الدُّنيا[1].

* وتَعَجَّبَ من دُعاءِ بعضِ أصحابِهِ على نَفسِهِ:

فعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عادَ رَجُلًا مِنَ المسلمينَ قَد خَفَتَ[2]، فصارَ مِثلَ الفَرخِ[3].

- فقال له رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَل كُنتَ تَدعو بشيءٍ، أو تَسألُهُ إيَّاهُ؟**».

- قال: نعم، كنتُ أقولُ: اللهمَّ ما كُنتَ مُعاقِبي بهِ في الآخِرَةِ، فعَجِّلهُ لي في الدُّنيا.

- فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سُبحانَ اللهِ! لا تُطيقُهُ** -أو: **لا تَستَطيعُهُ**-، **أفَلا قُلتَ: اللهمَّ آتِنا في الدُّنيا حَسَنَةً، وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وقِنا عَذابَ النارِ؟**».

- قال: فدَعا اللهَ لَهُ، فشَفاهُ[4].

قال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سُبحانَ اللهِ!**»: تَنزيهٌ له تعالى عن الظُّلمِ، وعنِ العَجزِ، أو: تَعَجُّبٌ مِنَ الدَّاعي في هذا المطلَبِ، وهو أقرَبُ»[5].

وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأظهَرُ الأقوال في تَفسيرِ الحَسَنَةِ في الدُّنيا: أنَّها العِبادَةُ، والعافيَةُ، وفي الآخِرَةِ: الجَنَّةُ، والمغفِرَةُ، وقيل: الحَسَنَةُ تَعُمُّ الدُّنيا والآخِرَةِ»[6].

---

(١) شرح صحيح مسلم (١٨/ ٧).

(٢) ضعف.

(٣) الفرخ: هو ولد الطَّير عند خروجه من البيضة، يعني: أضعفه المرض، حتى صار ضعيفًا مثل الفرخ لضعفه، وكثرة نحافته.

(٤) رواه مسلم (٢٦٨٨).

(٥) مرقاة المفاتيح (٥/ ١٧٣٩).

(٦) شرح صحيح مسلم (١٧/ ١٤).

فالعَجَبُ مِن العَبدِ: كَيفَ يَسأَلُ رَبَّه أن يُعجِّلَ له العُقوبةَ في الدّنيا، ويترُكُ سُؤالَ اللهِ العافيةَ في الدّنيا والآخرةِ، واللهُ عَفوٌّ غفورٌ، وهو على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ؟

*** وتَعَجَّبَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من سُرعَةِ تَغيُّرِ رَأيِ أصحابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:**

فعن عبدِاللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: حاصَرَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهلَ الطَّائِفِ، فلَم يَنَل منهم شَيئًا، فقال: «**إنَّا قافِلونَ إن شاءَ اللهُ**».

- قال أصحابُهُ: نَرجِعُ ولم نَفتَتِحهُ؟

- فقال لهم رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اغدوا على القِتال**».

فَغَدَوا عليه، فأصابَهم جِراحٌ.

- فقال لهم رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّا قافِلونَ غَدًا إن شاءَ اللهُ**».

- قال: فأعجَبَهم ذلك، فضَحِكَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**معنى الحديثِ:** أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَصدَ الشَّفَقَةَ على أصحابِهِ والرِّفقَ بهِم بالرحيلِ عن الطَّائِفِ؛ لصُعوبَةِ أمرِهِ، وشِدَّةِ الكُفَّار الذينَ فيه، وتَقويَتِهِم، مع أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِمَ أو رَجا أنَّهُ سَيَفتَحُهُ بعدَ هَذا، بلا مَشَقَّةٍ كَما جَرى.

فلَمَّا رَأى حِرصَ أصحابِهِ على المُقامِ والجِهادِ أقامَ، وجَدَّ في القِتال، فلَمَّا أصابَتهمُ الجِراحُ، رَجَعَ إلى ما كان قَصدَهُ -أوَّلًا- مِنَ الرِّفقِ بهِم، ففَرِحوا بذلك؛ لما رَأوا مِنَ المَشَقَّةِ الظَّاهِرَةِ.

ولَعَلَّهم نَظَروا، فعَلِموا أنَّ رَأيَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبَركُ، وأنفَعُ، وأحمَدُ عاقِبَةً، وأصوَبُ من رَأيِهِم، فوافَقوا على الرحيلِ وفَرِحوا، فضَحِكَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تَعَجُّبًا من سُرعَةِ تَغيُّرِ رَأيِهِم، واللهُ أعلَمُ»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٤٣٢٥)، ومسلم (١٧٧٨).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٢/ ١٢٤).

وقال القاضي عياضٌ رَحِمَهُٱللَّهُ: «تَعَجَّبَ مِنِ اختِلافِ قولِهم، بين أمسِ واليومِ، للحالين المُختَلِفين، ورُجوعِهم إلى الرأيِ السَّديدِ»(١).

*** ومِن تَعَجُّبِهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: تَعَجُّبُهُ من أحوالٍ، غابَ فيها سَدادُ الرأيِ عن أصحابِها:**

فعن عِمرانَ بنِ حُصينٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: أنَّ رَجُلًا عَضَّ يَدَ رَجُلٍ، فنزَعَ يَدَهُ من فمِهِ، فوَقَعَت ثَنِيَّتاهُ، فاختَصَموا إلى النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقال: «**يَعَضُّ أحَدُكُم أخاهُ، كما يَعَضُّ الفَحلُ؟ لا دِيَةَ لَكَ**»

وفي رواية: «**ما تَأمُرُني؟ تَأمُرُني أن آمُرَهُ أن يَدَعَ يَدَهُ في فيكَ، تَقضَمُها كما يَقضَمُ الفَحلُ؟!**»(٢).

فمِمَّا يُثيرُ العَجَبَ: أن يَعضَ المُسلمُ يَدَ أخيهِ، فينتزِعَها مِن فيه، فتسقُطَ أسنانُ العاضِّ، فيُطالبَه بالضَّمانِ، فمثلُ هذا لا ضَمانَ لَهُ.

قال النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: «وهذا الحديثُ دَلالَةٌ لمَن قال: إنَّهُ إذا عَضَّ رَجُلٌ يَدَ غَيرِهِ، فنَزَعَ المعضوضُ يَدَهُ، فسَقَطَت أسنانُ العاضِّ، أنّه لا ضَمان عليه»(٣).

«فإنَّ العاضَّ لَمّا صالَ على المعضوضِ، جازَ له أن يَرُدَّ صيالَهُ عَنهُ، بانتِزاعِ يَدِهِ من فمِهِ، فإذا أدَّى ذلك إلى إسقاطِ ثَناياهُ، كان سُقوطُها بفِعلٍ مَأذونٍ فيه مِنَ الشّارِعِ، فلا يُقابَلُ بالدِّيَةِ»(٤).

*** وتَعَجَّبَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من خَفاءِ نَفعِ الدُّواءِ على بعضِ أصحابِهِ:**

فَروى ذَكوانُ عن رَجُلٍ من الأنصارِ، قال: عادَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ رَجُلًا بِهِ جُرحٌ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**ادعوا له طَبيبَ بَني فُلانٍ**».

---

(١) إكمال المعلم (٦/ ١٣٥).

(٢) رواه البخاري (٦٨٩٢)، ومسلم (١٦٧٣)، والفحل: الذَّكر من الإبل، ويطلق على غيره من ذكور الدَّوابِّ، والقضم: الأكل بأطراف الأسنان، والخضم: الأكل بأقصاها.

(٣) شرح صحيح مسلم (١١/ ١٦٠).

(٤) إعلام الموقِّعين (٤/ ١٢٤).

- قال: فدَعَوهُ، فجاءَ.

- فقالوا: يا رسولَ اللهِ،وَيُغني الدَّواءُ شَيئًا؟

- فقال: «**سُبحانَ اللهِ! وهَل أنزَلَ اللهُ من داءٍ في الأرضِ، إلا جعَلَ له شِفاءً**»(١).

فتَعَجَّبَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خَفاءِ فائِدَةِ التَّداوي على بعضِ أصحابِهِ، وبَيَّنَ لَهم: أنَّ اللهَ ما أنزَلَ من داءٍ، إلا وجعَلَ له شِفاءً، فجَميعُ الأدواءِ قَد جعَلَ لها أدويَةً تُبرِئُها، ولكن قَد يَعلَمُها بعضُ الناسِ، وقد تَخفَى على البعضِ؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما أنزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ داءً، إلا أنزَلَ له دَواءً، عَلِمَهُ مَن عَلِمَهُ، وجَهِلَهُ مَن جَهِلَهُ**»(٢).

*** وتَعَجَّبَ من مَقولَةِ عليٍّ، لَمَّا أمَرَهُ وفاطِمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بقيامِ اللَّيلِ:**

فعن عليِّ بنِ أبي طالبٍ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَرَقَهُ وفاطمةَ بنتَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيلَةً.

- فقال لَهما: «**ألا تُصَلِّيانِ؟**».

- قال عليٌّ: فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنما أنفُسُنا بيَدِ اللهِ، فإذا شاءَ أن يَبعَثَنا بَعَثَنا(٣).

فانصَرَفَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَ قُلتُ ذلك، ولَم يَرجِع إلَيَّ شَيئًا، ثم سمعتُهُ وهو مُدبِرٌ، يَضرِبُ فخِذَهُ، ويقولُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤](٤).

قال أبو الحَسَنِ السّنديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ضَرَبَ فخِذَهُ؛ تَعَجُّبًا من سُرعَةِ جَوابِهِ، وعَدَمِ موافَقَتِهِ له على الاعتِذارِ بما اعتَذَرَ بِهِ.

وذلك لأنَّهُ تَمَسَّكَ بالتَّقديرِ والمشيئَةِ، في مُقابَلَةِ التَّكليفِ، وهو مَردودٌ، ولا يَتَأَتَّى إلا عن

(١) رواه أحمد (٢٣١٥٦)، وصححه محققو المسند.

(٢) رواه أحمد (٣٩٢٢)، وصححه محققو المسند.

(٣) أي: لو شاء الله أن يوقظنا أيقظنا.

(٤) رواه البخاري (١١٢٧)، ومسلم (٧٧٥).

كَثْرَةِ جَدَلِهِ، نعم، التَّكليفُ -هاهُنا- نَدبيٌّ، لا وُجوبيٌّ، فلِذلك انصَرَفَ عَنهم وقال ذلك، ولو كان وُجوبيًّا، لَمَا تَرَكَهم على حالِهم، والله تعالى أعلَمُ»[١].

وقال **شَيخُ الإسلامِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هَذا الحديثُ نَصٌّ في ذَمِّ مَن عارَضَ الأمرَ بالقَدَرِ؛ فإنَّ قولَهُ: «إنما أنفُسُنا بيَدِ اللهِ...» إلى آخِرِهِ، استِنادٌ إلى القَدَرِ في تَركِ امتِثال الأمرِ، وهي -في نَفسِها- كَلِمَةُ حَقٍّ، لكن لا تَصلُحُ لِمُعارَضَةِ الأمرِ، بل مُعارَضَةُ الأمرِ فيها من بابِ الجَدَلِ المذمومِ، الذي قال اللهُ فيه: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٤]»[٢].

* وتَعَجَّبَ من مَقولَةِ أنسِ بنِ النَّضرِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وتَحَقُّقِها:

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: كَسَرَتِ الرُّبَيِّعُ أُختُ أنسِ بنِ النَّضرِ[٣] ثَنيَّةَ امرَأةٍ[٤]، فأتَوُا النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقَضَى بكِتابِ اللهِ القِصاصَ، فقال أنسُ بنُ النَّضرِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ، لا تُكسَرُ ثَنيَّتُها اليومَ، قال: «**يا أنسُ، كِتابُ اللهِ: القِصاصُ**»[٥]، فرَضوا بأرشٍ[٦] أخَذوهُ.

فَعَجِبَ نَبيُّ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وقال: «**إنَّ من عِبادِ اللهِ مَن لَو أقسَمَ على اللهِ لَأبَرَّهُ**»[٧].

وقولُهُ: «**والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ، لا تُكسَرُ ثَنيَّتُها**»: **قال النووي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ليس مَعناهُ**: رَدَّ حُكمِ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإنما حَلَفَ؛ ثِقَةً بفَضلِ اللهِ، ولُطفِهِ، ألَّا يُحنِثَهُ، بل يُلهِمهمُ العَفوَ»[٨].

---

(١) حاشية السِّنديِّ على سنن النسائي (٣/ ٢٥٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٤٤).

(٣) أنس بن النَّضر، عمُّ أنس بن مالك.

(٤) الثَّنية: مقدم الأسنان.

(٥) أي: حكم كتاب الله: وجوب القصاص في السِّنِّ، وهو قوله: ﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ [المائدة: ٤٥].

(٦) المال الواجب في إتلاف النَّفس يقال له: الدِّية، أمَّا المال الواجب في إتلاف ما دون النَّفس، كالجراحات، ونحوها، فهو: الأرش.

(٧) رواه أبوداود (٤٥٩٥)، وهو في الصحيحين، دون لفظ التَّعجُّب، ولفظ مسلم (١٦٧٥): «سبحان الله يا أمَّ الربيع! القصاص كتاب الله».

(٨) شرح النووي على مسلم (١١/ ١٦٣).

ولِذلك قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ من عِبادِ اللهِ مَن لَو أقسَمَ على اللهِ لَأبَرَّهُ**»، أي: جعَلَهُ بارًّا في يَمينِهِ، لا حانِثًا؛ لكَرامَتِهِ عليه.

وقد تَعَجَّبَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ثِقَةِ أنسٍ باللهِ، في استِجابَةِ طَلَبِهِ، وإقسامِهِ على ذلك.

قال الحافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ووَجهُ تَعَجُّبِهِ**: أنَّ أنسَ بنَ النَّضرِ، أقسَمَ على نَفيِ فِعلِ غَيرِهِ، مع إصرارِ ذلك الغَيرِ على إيقاعِ ذلك الفِعلِ، فكان قَضيَّةُ ذلك في العادَةِ: أن يَحنَثَ في يَمينِهِ، فألهَمَ اللهُ الغَيرَ العَفوَ، فبَرَّ قَسَمُ أنسٍ.

وأشارَ بقولِهِ: «**إنَّ من عِبادِ اللهِ**»، إلى أنَّ هذا الاتِّفاقَ إنما وقَعَ إكرامًا مِنَ اللهِ لأنسٍ؛ ليُبِرَّ يَمينَهُ، وأنَّهُ من جُملَةِ عِبادِ اللهِ، الذينَ يُجيبُ دُعاءَهم، ويُعطيهِم أرَبَهم»[١].

*** وكَذلك تَعَجَّبَ من تَمَنِّي عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَدَمَ الحَجِّ:**

فعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنَّها قالت: لَبَّينا بالحَجِّ، حتى إذا كُنَّا بسَرِفَ[٢] حِضتُ، فدَخَلَ عَلَيَّ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنا أبكي.

- فقال: «**ما يُبكيكِ يا عائشةُ؟**».

- فقُلتُ: حِضتُ، لَيتَني لم أكُن حَجَجتُ[٣].

- فقال: «**سُبحانَ اللهِ! إنما ذلك شيءٌ، كَتَبَهُ اللهُ على بَناتِ آدَمَ، انسُكي المناسِكَ كُلَّها، غَيرَ أن لا تَطوفي بالبَيتِ، حتى تَطهُري**»[٤].

فتَعَجَّبَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تَمَنِّي عائشةَ عَدَمَ الحَجِّ، وخَفَّفَ عَنها مُصابَها بقولِهِ: «**إنما ذلك شيءٌ، كَتَبَهُ اللهُ على بَناتِ آدَمَ**»، ففي هذا تَسليَةٌ لها، وتَخفيفٌ لهَمِّها، ومَعناهُ: أنَّكِ لَستِ مُختَصَّةً بِهِ، بل كُلُّ بَناتِ آدَمَ يكونُ منهنَّ هَذا.

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٢٢٤).

(٢) مكانٌ معروفٌ خارج مكَّة.

(٣) عند البخاري (٣٠٥): «لوددت -والله- أنيِّ لم أحجَّ العام».

(٤) رواه أبوداود (١٧٨٢)، وصححه الألباني، وهو في الصحيحين بدون ذكر التسبيح.

*** وتَعَجَّبَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قَولِ بَعضِ أصحابِه، حديثي العَهدِ بالإسلامِ: «اجعَل لَنا ذاتَ أنواطٍ، كما لهم ذاتُ أنواطٍ»:**

عن أبي واقِدٍ اللَّيثيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: خرجنا مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى حُنَينٍ، ونَحنُ حُدَثاءُ عَهدٍ بكُفرٍ، وللمُشرِكينَ سِدرَةٌ يَعكُفونَ عندَها، ويَنوطونَ بها أسلِحَتَهم، يُقال لها: ذاتُ أنواطٍ[١]، فمَرَرنا بالسِّدرَةِ، فقُلنا: يا رسولَ اللهِ، اجعَل لَنا ذاتَ أنواطٍ، كما لهم ذاتُ أنواطٍ، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سُبحانَ اللهِ! هذا كما قال قَومُ موسَى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾** [الأعراف: ١٣٨]، **والذي نَفسي بيَدِهِ، لَتَركَبُنَّ سُنَّةَ مَن كان قبلَكُم**»[٢].

فَسَبَّحَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تَعَجُّبًا من صَنيعِهِم هَذا، الذي شابَهَ صَنيعَ قَومِ موسَى في الظَّاهِرِ.

ولكن عُذرَ هَؤُلاءِ -مِمَّن كان حديثَ عَهدٍ بجاهِلِيَّةٍ-: أنَّهم ظَنُّوا أنَّ هذا أمرٌ محبوبٌ عندَ اللهِ، فقَصَدوا التَّقَرُّبَ إلى اللهِ بذلك.

وكذلك: فهم «قَد طَلَبوا -فَقَط-، ولم يَفعَلوا؛ فكان ما حَصَلَ منهم مُخالفًا للشَّرعِ، وقد أنكَرَهُ عليهِمُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلَم يَفعَلوهُ»[٣].

«وَهم إنما أرادوا أن يَتَبَرَّكوا بهذه الشَّجَرَةِ، لا أن يَعبُدوها، فدَلَّ ذلك على أنَّ التَّبَرُّكَ بالأشجارِ ممنوعٌ، وأنَّ هذا من سُنَنِ الضَّالينَ السَّابِقينَ مِنَ الأُمَمِ»[٤].

قال شَيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَأنكَرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **مُجَرَّدَ** مُشابَهَتِهِمُ الكُفَّارَ في اتِّخاذِ شَجَرَةٍ، يَعكُفونَ عليها، مُعَلِّقينَ عليها سِلاحَهم، فكَيفَ بما هو أعظَمُ من ذلك، من مُشابَهَتِهِمُ المُشرِكينَ، أو هو الشِّركُ بعَينِهِ؟»[٥].

---

(١) هي شجرة معروفة، تسمى: ذات أنواطٍ، كان يعظِّمها الكفَّار، ويعكفون حولها، ويعلِّقون بها أسلحتهم؛ طلبًا لبركتها.

(٢) رواه الترمذي (٢١٨٠)، وقال: «هذا حديث حسنٌ صحيح»، وأحمد (٢١٨٩٧)، وصححه محقق المسند على شرط الشيخين.

(٣) فتاوى اللجنة الدَّائمة (١/ ١٣٦).

(٤) القول المفيد على كتاب التَّوحيد (١/ ٢٠٣).

(٥) اقتضاء الصِّراط (٢/ ١٥٧).

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَعَجَّبُ من بعضِ الطَّاعاتِ التي تَصدُرُ من بعضِ أصحابِهِ:

وتَعَجُّبُهُ في هذا المقامِ مِمَّا يَحُثُّ على المُبادَرَةِ إلى فِعلِ الخَيراتِ، والمُسارَعَةِ إلى تَحصيلِ الفَضائِلِ؛ فالتَّعَجُّبُ في هذا المقامِ مِنَ الثَّناءِ الحَسَنِ، ومَعلومٌ أثَرُهُ الطَّيِّبُ في النُّفوسِ، إذا سَلِمَت مِنَ العِلَلِ.

* فتَعَجَّبَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قِتال أصحابِهِ في البَحرِ:

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: حَدَّثَتني أُمُّ حَرامٍ، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال يومًا في بَيتِها[1]، فاستَيقَظَ وهو يَضحَكُ.

- قالت: يا رسولَ اللهِ، ما يُضحِكُكَ؟

- قال: «**عَجِبتُ من قَومٍ من أُمَّتي يَركَبونَ البَحرَ، كالمُلوكِ على الأسِرَّةِ**»[2].

- فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، ادعُ اللهَ أن يَجعَلَني منهم.

- فقال: «**أنتِ منهم**».

ثم نامَ، فاستَيقَظَ وهو يَضحَكُ.

- فقُلتُ: وما يُضحِكُكَ يا رسولَ اللهِ؟

- قال: «**ناسٌ من أُمَّتي، عُرِضوا عَلَيَّ غُزاةً في سَبيلِ اللهِ، يَركَبونَ البَحرَ كالمُلوكِ على الأسِرَّةِ**».

- فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، ادعُ اللهَ أن يَجعَلَني منهم.

- قال: «**أنتِ مِنَ الأولينَ**»[3].

---

(١) قال: من القيلولة.

(٢) أي: يركبون مراكب الملوك لسعة حالهم، واستقامة أمرهم، وكثرة عددهم. شرح النووي على مسلم (١٣/ ٥٨).

(٣) رؤياه الثانية غير رؤياه الأولى، ففي كلِّ نومةٍ عرضت عليه طائفةٌ من الغزاة، وسألته أمُّ حرامٍ أن يدعو لها؛ لتكون مع الثانية؛ ليتضاعف لها الأجر. انظر: الفتح (١١/ ٧٥).

فَتَزَوَّجَ بها عُبادَةُ بنُ الصَّامِتِ، فخرجَ بها إلى الغَزوِ، فلمَّا رَجعَت، قُرِّبَت دابَّةٌ لتَركَبَها، فوَقَعَت، فاندَقَّت عُنُقُها[١].

وكان ذلك في خِلافَةِ عثمانَ بنِ عفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وفيها رَكِبَت أُمُّ حَرامٍ وزَوجُها إلى قُبرُصَ، فصُرِعَت عن دابَّتها هُناكَ، فتوُفِّيَت، ودُفِنَت هُناكَ.

ومُعاويَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أوَّلُ مَن رَكِبَ البَحرَ للغزوِ، وذلك في خِلافَةِ عثمانَ، وكان عمرُ يَنهَى عن رُكوبِ البَحرِ، فلمَّا وليَ عثمانُ استَأذَنَهُ مُعاويَةُ في الغَزوِ في البَحرِ، فأذِنَ لَهُ[٢].

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «**وفي الحديث مِنَ الفَوائِدِ:**... جَوازُ الفَرَحِ بما يَحدُثُ من النِّعَمِ، والضَّحِكِ عند حُصولِ السُّرورِ؛ لضَحِكِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إعجابًا بما رَأى مِن امتِثال أُمَّتِهِ أمرَهُ لهم بجِهادِ العَدوِّ، وما أثابَهم اللهُ تعالى على ذلك، وما ورَدَ في بعضِ طُرُقِهِ بلَفظِ التَّعَجُّبِ، محَمولٌ على ذلك»[٣].

*** وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ربَّما عجِبَ مِن الأمرِ؛ إظهارًا لحُسنِهِ، وتَنبيهًا على فضلِهِ، فمَن عَلِمَ ذلك انتبَهَ لَهُ، وحَرِصَ عليه، وبادَرَ إليه، وسارَعَ فيه:**

فَعنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: بينما نَحنُ نُصَلِّي مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ قال رَجُلٌ من القَومِ: اللهُ أكبَرُ كَبيرًا، والحَمدُ للهِ كَثيرًا، وسُبحانَ اللهِ بُكرَةً وأصيلًا.

- فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنِ القائِلُ كَلِمَةَ كَذا وكذا؟**».

- قال رَجُلٌ من القَومِ: أنا يا رسولَ اللهِ.

- قال: «**عَجِبتُ لها، فُتِحَت لها أبوابُ السَّماءِ**».

- قال ابنُ عمرَ: فما تَركتُهُنَّ مُنذُ سمعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ ذلك[٤].

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩٤)، ومسلم (١٩١٢).
(٢) فتح الباري (١/ ٢٨٩)، (٦/ ٨٨)، (١١/ ٧٥).
(٣) الفتح (١١/ ٧٧).
(٤) رواه مسلم (٦٠١).

* وعَجِبَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أقوامٍ يُساقونَ إلى الجَنَّةِ في السَّلاسِلِ:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**عَجِبَ اللهُ من قومٍ يَدخُلونَ الجَنَّةَ في السَّلاسِلِ**»(١).

وعن أبي أُمامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: استَضحَكَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال: «**عَجِبتُ لأقوامٍ يُساقونَ إلى الجَنَّةِ في السَّلاسِلِ وهم كارِهونَ**»(٢).

«**والمعنى**: أنَّهم يُؤخَذونَ أُسارَى قَهرًا وكَرها في السَّلاسِل والقُيودِ، فيَدخُلونَ في دارِ الإسلامِ، ثم يَرزُقُهمُ اللهُ الإيمانَ، فيَدخُلونَ بِهِ الجَنَّةَ»(٣).

قال ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**مَعناهُ**: أنَّهم أُسِروا، وقُيِّدوا، فلَمَّا عَرَفوا صِحَّةَ الإسلامِ، دَخَلوا طَوعًا، فدَخَلوا الجَنَّةَ، فكان الإكراهُ على الأسرِ، والتَّقييد، هو السَّبَبَ الأولَ، وكَأَنَّهُ أطلَقَ على الإكراهِ التَّسَلسُلَ، ولَمَّا كان هو السَّبَبَ في دُخولِ الجَنَّةِ، أقامَ المُسَبَّبَ، مَقامَ السَّبَبِ».

وقال الكرمانيُّ وغَيرُهُ: «لَعَلَّهمُ المسلمونَ الذينَ هم أُسارَى في أيدي الكُفَّارِ، فيَموتونَ أو يُقتَلونَ على هَذِهِ الحالَةِ، فيُحشَرونَ عليها، ويَدخُلونَ الجَنَّةَ كَذلك»(٤).

والمعنى الأولُ هو الأقرَبُ، ويَدُلُّ على ذلك: ما في صَحيحِ البخاري، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١١٠] قال: «خَيرُ الناسِ للنَّاسِ، تَأتونَ بِهِم في السَّلاسِلِ في أعناقِهِم، حتى يَدخُلوا في الإسلامِ»(٥).

وعن أبي الطُّفيلِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: ضَحِكَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى استَغرَبَ ضَحِكًا، ثم قال: «**ألا تَسألوني مِمَّ ضَحِكتُ؟**».

---

(١) رواه البخاري (٣٠١٠).

(٢) رواه أحمد (٢٢١٤٨)، والطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢٨٣) -واللفظ له-، وحسنه الألباني في الصحيحة (٦/ ٨٧٨).

(٣) مرقاة المفاتيح (٦/ ٢٥٤٦).

(٤) عون المعبود (٧/ ٢٤٢).

(٥) صحيح البخاري (٤٥٥٧).

- قُلنا: يا رسولَ اللهِ، مِمَّ ضَحِكتَ؟

- قال: «**رَأيتُ ناسًا من أُمَّتي يُساقونَ إلى الجَنَّةِ في السَّلاسِلِ، ما أكرَهها إليهم**».

- قُلنا: مَن هم؟

- قال: «**قومٌ مِنَ العَجَمِ، يسبيهِمُ المُهاجِرونَ، فيُدخِلونَهم في الإسلامِ**»[1].

* وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعجَبُ من مَعرِفَةِ العبدِ لرَبِّهِ:

يَعلمُ العَبدُ أنّهُ لا يَغفرُ الذّنوبَ إلا اللهُ، وأنّه لَو حوسِبَ بها عُذِّبَ عليها، فيلجأُ إلى ربّه مُستغفرًا، مُضطرًّا إليهِ بفقرِهِ، فيعجَبُ الرّبُّ تعالى مِن حال عَبدِهِ، وشِدّةِ حاجتِهِ إلى مَغفرَةِ ذَنبِهِ، ويعجَبُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعَجَبِ رَبِّهِ.

عن عليِّ بنِ رَبيعَةَ، أنَّهُ كان رِدفًا لعليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلمَّا وضعَ رِجلَهُ في الرِّكابِ، قال: «**بِسمِ اللهِ**».

فلمَّا استوَى على ظَهرِ الدَّابَّةِ، قال: «**الحَمدُ للهِ** -ثَلاثًا-، **واللهُ أكبَرُ** -ثَلاثًا-، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣] الآية[2].

ثم قال: «**لا إلَهَ إلا أنتَ سُبحانَكَ، إنِّي قَد ظَلَمتُ نَفسي، فاغفِر لي ذُنوبي، إنَّهُ لا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلا أنتَ**».

ثم مالَ إلى أحَدِ شِقَّيهِ، فضَحِكَ.

- فقُلتُ: يا أميرَ المُؤمنينَ، ما يُضحِكُكَ؟

- قال: إنِّي كنتُ رِدفَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فصَنعَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما صَنَعتُ، فسَألتُهُ كَما سَألتَني.

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ لَيَعجَبُ إلى العبدِ إذا قال: لا إلَهَ إلا أنتَ، إنِّي قد**

---

(١) رواه البزَّار (٢٧٨٠)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (٢/ ٢٦٨)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٨٧٤).

(٢) مقرنين: مطيقين: أي: ما كنَّا نطيق قهره، واستعماله، لولا تسخير الله تعالى إيَّاه لنا.

ظَلَمتُ نَفسي، فاغفِر لي ذُنوبي، إنَّهُ لا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلا أنتَ، قال: عبدي عَرَفَ أنَّ له رَبًّا يَغفِرُ، ويُعاقِبُ»[1].

فالرسولُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَضحَكُ تَعَجُّبًا من مَعرِفَةِ هذا العبدِ لرَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والتَّوَجُّهِ إليه بالدُّعاءِ؛ ليَغفِرَ ذُنوبَهُ وخَطاياهُ، يعلمُ أنّه لا يغفرُ الذنوبَ إلا هو.

*** وتَعَجَّبَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من بعضِ المسلمينَ؛ إذ تَكَشّفوا:**

عن عبدِاللهِ بنِ الحارثِ بنِ جَزءٍ الزبيديِّ، أنَّهُ مَرَّ وصاحِبٌ لَهُ بأيمَنَ وفِئَةٍ من قُرَيشٍ، قَد حَلُّوا أُزُرَهم، فجَعَلوها مَخاريقَ يَجتَلِدونَ بها وهم عُراةٌ[2].

- قال عبدُاللهِ: فلمَّا مَرَرنا بهِم، قالوا: إنَّ هَؤُلاءِ قِسِّيسونَ، فدَعوهم[3].

ثم إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرجَ عليهم، فلمَّا أبصَروهُ، تَبَدَّدوا[4].

فَرَجَعَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُغضَبًا، حتى دَخَلَ، وكنتُ أنا وراءَ الحُجرَةِ، فسمعتُهُ يقولُ: «**سُبحانَ اللهِ! لا من اللهِ استَحيَوا، ولا من رسولِهِ استَتَروا**».

وأُمُّ أيمَنَ عندَهُ تقولُ: استَغفِر لهم يا رسولَ اللهِ.

- قال عبدُاللهِ: فبِلَأيٍ[5] ما استَغفَرَ لَهم[6].

فتَعَجَّبَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هَؤُلاءِ الفِتيَةِ، الذينَ كَشَفوا عَوراتِهم أمامَ الناسِ، فلَم يَستَحيوا مِنَ اللهِ، ولم يَستَتِروا من رسولِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واشتَدَّ غَضَبُهُ عليهم، حتى إنَّهُ لم يَستَغفِر لَهم، إلا بعدَ مُراجَعَةٍ، وإلحاحٍ.

---

(١) رواه الحاكم (٢٤٨٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٦٥٣).

(٢) المخراق: ثوبٌ يلفُّ، ويضرب به الصِّبيان بعضهم بعضًا، و«يجتلدون بها»: يتضاربون بها، والمعنى: أنهم حلُّوا أزرهم، وجعلوها كالمخاريق، وبدأوا يتضاربون بها، وهم عراةٌ.

(٣) القسِّيس: العالم العابد من رؤوس النَّصارى، فكأنهم يعنون أنهم متعبِّدون، متشدِّدون.

(٤) تفرَّقوا.

(٥) أي: بعد مشقَّةٍ، وجهدٍ، وإبطاءٍ.

(٦) رواه أحمد (١٧٧١١)، وصححه محققو المسند.

* وتَعَجَّبَ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، مِمَّن كَوَى دابَّةً على وجهِها:

عن جابرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أنَّهُ مُرَّ عليه بحِمارٍ قَد كويَ على وجهِهِ، أو وُسِمَ، فلَعَنَ النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مَن فعَلَ ذلك، ثم قال: «**سُبحانَ اللهِ! لا تَضرِبوها على وُجوهِها**»(١).

قال أهلُ اللُّغَةِ: الوَسمُ: أثَرُ الكيِّ، يُقال: بَعيرٌ مَوسومٌ، وقد وسَمَهُ يَسِمُهُ وسمًا وسِمَةً، والميسَمُ: المِكواةُ، وأصلُهُ كُلُّهُ مِنَ السِّمَةِ، وهي العَلامَةُ(٢).

فتَعَجَّبَ النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مِمَّن يَسِمُ الدَّابَّةَ على وجهِها؛ لقُبحِ هذا الأمرِ، ولما فيه مِنَ التَّعذيبِ الشَّديدِ.

* وتَعَجَّبَ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، من تَحَقُّقِ ما تَنَبأ به حَسَّانُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

عنِ ابنِ عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: لَمَّا دَخَلَ رسولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عامَ الفَتحِ، رَأى النِّساءَ يَلطِمنَ وُجوهَ الخَيلِ بالخُمُرِ، فتبَسَّمَ إلى أبي بكرٍ، فقال: يا أبا بكرٍ، كَيفَ قال حَسَّانُ؟!

فأنشَدَهُ أبو بكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

عَدِمتُ بُنَيَّتي إن لم تَروها ... تُثيرُ النَّقعَ من كَتِفي كَداءِ(٣)

يُنازِعنَ الأعِنَّةَ مُسرِعاتٍ ... يُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُرِ النِّساءُ

فقال رسولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ادخُلوا من حيث قال حَسَّانُ**»(٤).

فدَخَلَ النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مَكَّةَ يومَ الفَتحِ من كَداءٍ، وقد تَصَدَّت نِساءُ قُرَيشٍ لخُيولِ

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٥٦٢٠)، وقال شعيب الأرنؤوط: «حديث صحيح».

(٢) شرح النووي على مسلم (١٤/ ٩٧)، القاموس المحيط (ص: ١١٦٦).

(٣) على هذه الرِّواية -وهي المشهورة-: في هذا البيت إقواءٌ، مخالفٌ لباقيها، وفي بعض الرِّوايات: «غايتها كداء» وفي بعضها: «موعدها كداء»، وحينئذٍ: فلا إقواء، وانظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤٢٢)، السُّنن الكبرى، للبيهقي (١٠/ ٤٠٣)، الروض الأنف (٧/ ٢٥٣)، شرح النووي على مسلم (١٦/ ٥٠)، فتح الباري (٨/ ١٠)، زاد المعاد (٣/ ٣٦٧)، البداية والنهاية (٤/ ٣١٠).

(٤) رواه الحاكم (٤٤٤٢)، والبيهقي في الدَّلائل (٥/ ٦٦)، وحسنه الحافظ في الفتح (٨/ ١٠).

المسلمينَ، يَلطِمنها بخُمُرِهِنَّ؛ لرَدِّها عن مُطارَدَةِ فُلولِ الشِّركِ المنهزِمَةِ؛ فتَعَجَّبَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذا المشهَدِ؛ لموافقَتِهِ ما ذَكرَهُ حَسَّانُ بنُ ثابِتٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في شِعرِهِ.

* وعَجِبَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمرِ المُؤمنِ، كَيفَ يَقَعُ بخَيرٍ، على كُلِّ حالٍ:

فعن صُهَيبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: بَينا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاعِدٌ مع أصحابِهِ، إذ ضَحِكَ، فقال: «**ألا تَسألوني مِمَّ أضحَكُ؟**».

- قالوا: يا رسولَ اللهِ، ومِمَّ تَضحَكُ؟

- قال: «**عَجِبتُ لأمرِ المُؤمِنِ، إنَّ أمرَهُ كُلَّهُ خَيرٌ، إن أصابَهُ ما يُحِبُّ حَمِدَ اللهَ، وكان له خَيرٌ، وإن أصابَهُ ما يَكرَهُ فصَبَرَ، كان له خَيرٌ، وليس كُلُّ أحَدٍ أمرُهُ كُلُّهُ له خَيرٌ، إلا المُؤمِنُ**»[(١)].

فَبَيَّنَ لهم أنَّ ضَحِكَهُ كان تَعَجُّبًا من حال المُؤمِنِ، الذي تِجارَتُهُ دائِمًا رابِحَةٌ، فكُلُّ أمرِهِ خَيرٌ، حيث يشكُرُ في السَّرَّاءِ، ويَصبرُ في الضَّرَّاءِ.

والخُلاصَةُ: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في تَعَجُّبِهِ في حالَةٍ مِنَ الاتِّزانِ، يَمتَنِعُ مَعَها إصابَتُهُ بالدَّهَشِ والحَيرَةِ، اللَّذَينِ يُخرِجانِ صاحِبَهما عن مَقامِ الحِكمَةِ في ردَّةِ الفِعلِ.

وكان يُعرَفُ تَعَجُّبُهُ: بتَسبيحِهِ، أو قولِهِ: عَجِبتُ لكَذا، أو بسُؤالٍ يَسأَلُهُ على وجهِ الإنكارِ والتَّعَجُّبِ، أو بعَلاماتٍ تَظهَرُ على وجهِهِ، ونَحوِ ذلك.

---

(١) رواه أحمد (٢٣٩٣٠)، وصححه محققو المسند على شرط مسلم، وهو في مسلم (٢٩٩٩)، بلفظٍ قريبٍ منه.

تَحفيزُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

التَّحفيزُ: من الحَفزِ، وهو الحَثُّ، والدَّفعُ، قال ابنُ فارسٍ رَحِمَهُ اللهُ: «الحاءُ والفاءُ والزَّاءُ[1]، كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، تَدُلُّ على الحَثِّ، وما قَرُبَ منه، فالحَفزُ: حَثُّكَ الشَّيءَ من خَلفِهِ، والرجُلُ يَحتَفِزُ في جُلوسِهِ إذا أرادَ القيامَ، كَأَنَّ حاثًّا حَثَّهُ، ودافِعًا دَفَعَهُ، يُقال: اللَّيلُ يَسوقُ النَّهارَ، ويَحفِزُهُ»[2].

ويُعَدُّ التَّحفيزُ مِنَ الأساليبِ التَّربَويَّةِ الناجِحَةِ، فهو يَعمَلُ على تَحقيقِ الأهدافِ التَّربَويَّةِ المرغوبَةِ، ويُعَمِّقُ التَّفاعُلَ بين المُربِّي، ومَن يَقومُ على تَربيتِهِ.

ومَن تَتَبَّعَ آياتِ القُرآنِ الكريمِ، وجَدَهُ يَزخرُ بأُسلوبِ التَّحفيزِ على طاعَةِ اللهِ، وعلى تَقواهُ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وكقولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وقد اتَّبَعَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسلوبَ التَّحفيزِ؛ لحَثِّ الناسِ على طاعةِ ربِّهِم، وذلك بالمُحَفِّزاتِ الأُخرَويَّةِ، والدُّنيويّةِ.

فمِمَّا كان يُحَفِّزُ به مِنَ المُحَفِّزاتِ الأُخرَويَّةِ:

---

(١) الزَّاي والزَّاء: لغتان.

(٢) مقاييس اللُّغة (٢/ ٨٥).

* الوَعدُ بالجَنَّةِ.

كَما في الحديثِ، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ أعرابيًّا أتَى النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: دُلَّني على عَمَلٍ إذا عَمِلتُهُ دَخَلتُ الجَنَّةَ، قال: «**تَعبُدُ اللهَ لا تُشرِكُ بِهِ شَيئًا، وتُقيمُ الصَّلاةَ المكتوبَةَ، وتُؤَدِّي الزَّكاةَ المفروضَةَ، وتَصومُ رَمَضانَ**».

قال: والذي نَفسي بيَدِهِ لا أزيدُ على هَذا.

فلمَّا ولَّى، قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن سَرَّهُ أن يَنظُرَ إلى رَجُلٍ من أهلِ الجَنَّةِ، فليَنظُرْ إلى هَذا**»[1].

فَحَفَّزَ الناسَ على التَّمَسُّكِ بأركانِ الإسلامِ، من خِلال ذِكرِ عاقِبَةِ ذلك، وهي الجَنَّةُ.

وعن عَطاءِ بنِ أبي رَباحٍ، قال: قال لي ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ألا أُريكَ امرَأةً من أهلِ الجَنَّةِ؟ قُلتُ: بَلى، قال: هَذِهِ المرأةُ، أتَتِ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: إنِّي أُصرَعُ، وإنِّي أتَكَشَّفُ، فادعُ اللهَ لي، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن شِئتِ صَبَرتِ ولَكِ الجَنَّةُ، وإن شِئتِ دَعَوتُ اللهَ أن يُعافيَكِ**». فقالت: أصبِرُ. ثم قالت: إنِّي أتَكَشَّفُ، فادعُ اللهَ لي أن لا أتَكَشَّفَ، فدَعا لها[2].

فَحَفَّزَها على الصَّبرِ، بالوَعدِ بالجَنَّةِ، إن هي صَبَرَت على البَلاءِ.

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسَلَ إلى الأنصارِ فجَمَعَهم في قُبَّةٍ، وقال لَهم: «**اصبِروا حتى تَلقَوا اللهَ ورسولَهُ، فإنِّي على الحَوضِ**»[3].

فحَفَّزَهمُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصَّبرِ، بوَعدِهِ لهم بدُخولِ الجَنَّةِ مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عندَما يُقابِلونَهُ عندَ الحَوضِ يومَ القيامَةِ.

---

(١) رواه البخاري (١٣٩٧)، ومسلم (١٤).
(٢) رواه البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦).
(٣) رواه البخاري (٧٤٤١)، ومسلم (١٠٥٩).

* ومِنَ التَّحفيزِ بالجَنَّةِ -أيضًا-: تكفُّلُه بها، لمن يتَّعَفُّفُ عن سُؤال الناسِ:

فعن ثَوبانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن يَكفُلُ لي أن لا يَسألَ الناسَ شَيئًا، وأتكَفَّلُ له بالجَنَّةِ؟**»، فقال ثَوبانُ: أنا.

فكان لا يَسألُ أحَدًا شَيئًا[1].

* وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَفِّزُهم بالجَنَّةِ، على الجِهادِ:

فَفي غزوَةِ بَدرٍ قال لهم النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قوموا إلى جَنَّةٍ عَرضُها السَّمَواتُ والأرضُ**»، فقال عُمَيرُ بنُ الحُمامِ الأنصاريُّ: يا رسولَ اللهِ، جَنَّةٌ عَرضُها السَّمَواتُ والأرضُ؟! قال: «**نَعَم**»، قال: بَخٍ، بَخٍ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما يَحمِلُكَ على قولِكَ: بَخٍ، بَخٍ؟**»، قال: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، إلا رَجاءَةَ أن أكونَ من أهلِها، قال: «**فإنَّكَ من أهلِها**».

فَأخرَجَ تَمَراتٍ من قَرَنِهِ[2]، فجَعَلَ يَأكُلُ منهنَّ ثم قال: لَئِن أنا حَيِيتُ حتى آكُلَ تَمَراتي هَذِهِ، إنَّها لَحَياةٌ طَويلَةٌ، فرَمَى بما كان مَعَهُ من التَّمرِ، ثم قاتَلَهم حتى قُتِلَ[3].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن يَنطَلِقُ بصَحيفَتي هَذِهِ إلى قَيصَرَ، ولَهُ الجَنَّةُ؟**»، فقال رَجُلٌ مِنَ القَومِ: وإن لم أُقتَل؟ قال: «**وَإن لم تُقتَل**»، فانطَلَقَ الرجُلُ بهِ، فوافَقَ قَيصَرَ وهو يَأتي بَيتَ المَقدِسِ، قَد جُعِلَ له بساطٌ، لا يَمشي عليه غَيرُهُ، فرَمَى بالكِتابِ على البِساطِ وتَنَحَّى، فلَمَّا انتَهَى قَيصَرُ إلى الكِتابِ، أخَذَهُ، ثم دَعا رَأسَ الجاثَليقِ[4]، فأقرَأهُ، فقال: ما عِلمي في هذا الكِتابِ إلا كَعِلمِكَ، فنادَى قَيصَرُ: مَن صاحِبُ الكِتابِ؟ فهو آمَنٌ، فجاءَ الرجُلُ، فقال: إذا أنا قَدِمتُ فأتِني، فلَمَّا قَدِمَ أتاهُ، فأمَرَ قَيصَرُ بأبوابِ قَصرِهِ فغُلِّقَت، ثم أمَرَ مُناديًا يُنادي: ألا إنَّ قَيصَرَ قَدِ اتَّبَعَ محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتَرَكَ النَّصرانيَّةَ، فأقبَلَ جُندُهُ، وقد تَسَلَّحوا، حتى أطافوا بقَصرِهِ، فقال لرسولِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَد تَرَى أنِّي

---

(١) رواه أحمد (٢٢٣٧٤)، وأبوداود (١٦٤٣) وصححه محققو المسند.

(٢) القرن: جعبة النشاب.

(٣) رواه مسلم (١٩٠١).

(٤) هو مقدَّم الأساقفة عند النَّصارى.

خائِفٌ على مَملَكَتي، ثم أمَرَ مُناديًا فنادَى: ألا إنَّ قَيصَرَ قَد رَضيَ عَنكُم، وإنما خَبَرَكُم؛ لِيَنظُرُ كَيفَ صَبرُكُم على دينِكُم، فارجِعوا، فانصَرَفوا.

وكَتَبَ قَيصَرُ إلى رسولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنِّي مُسلِمٌ، وبَعَثَ إليه بدَنانيرَ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -حينَ قَرَأَ الكِتابَ-: «**كَذَبَ عَدوُّ اللهِ، ليس بمُسلِمٍ، وهو على النَّصرانيَةِ**»، وقَسَمَ الدَّنانيرَ[1].

* وقد يكونُ التَّحفيزُ، بالوَعدِ بمُرافَقَةِ النبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجَنَّةِ:

فعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُفرِدَ يومَ أُحُدٍ، في سَبعَةٍ من الأنصارِ، ورَجُلَينِ من قُرَيشٍ، فلَمَّا رَهِقوهُ[2] قال: «**مَن يَرُدُّهم عَنَّا، ولَهُ الجَنَّةُ؟**» -أو: «**هوَ رَفيقي في الجَنَّةِ؟**»-، فتَقَدَّمَ رَجُلٌ من الأنصارِ، فقاتَلَ حتى قُتِلَ، ثم رَهِقوهُ -أيضًا-، فقال: «**مَن يَرُدُّهم عَنَّا، ولَهُ الجَنَّةُ؟**» -أو: «**هوَ رَفيقي في الجَنَّةِ؟**»-، فتَقَدَّمَ رَجُلٌ من الأنصارِ، فقاتَلَ حتى قُتِلَ، فلَم يَزَل كَذلك، حتى قُتِلَ السَّبعَةُ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لصاحِبَيهِ: «**ما أنصَفنا أصحابَنا**»[3].

فكانت نَتيجَةُ تَحفيزِهِ لَهم، بِرِفقَتِهِ في الجَنَّةِ: أن تَقَدَّمَ الأنصارُ، واحِدًا بعدَ الآخَرِ، فقاتَلوا دونَهُ، حتى قُتلوا جَميعًا.

وقولُهُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما أنصَفنا أصحابَنا**»: **مَعناهُ:** ما أنصَفَت قُرَيشٌ الأنصارَ؛ لكَونِ القُرَشيَّينِ لم يَخرُجا للقِتال؛ بل خرجَتِ الأنصارُ، واحِدًا بعدَ واحِدٍ.

وذَكَرَ **القاضي عياضٌ وغَيرُهُ**: أنَّ بعضَهم رَواهُ: «**ما أنصَفَنا أصحابُنا**»: والمُرادُ -عَلى هذا اللَّفظِ-: الذينَ فرُّوا مِنَ القِتال، فإنَّهم لم يُنصِفوا؛ لِفرارِهِم[4].

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٤٥٠٤)، وصححه شعيب الأرناؤوط، وأعل بالإرسال، انظر: الأموال لأبي عبيد (٦٢٨).

(٢) اقتربوا منه، يعني: المشركين.

(٣) رواه مسلم (١٧٨٩).

(٤) شرح النووي على مسلم (١٢/ ١٤٧).

ومِن ذلك -أيضًا-: ما حَصَلَ في غَزوَةِ الأحزابِ، عندَما قال: «**ألا رَجُلٌ يَأتيني بخَبَرِ القَومِ، جَعَلَهُ اللهُ مَعي يومَ القيامَةِ؟**»[١].

* التَّحفيزُ بالوَعدِ بمَغفِرَةِ اللهِ:

عنِ الأحنَفِ بنِ قَيسٍ قال: خرجنا حُجَّاجًا، فقَدِمنا المدينَةَ، ونَحنُ نُريدُ الحَجَّ، فبَينا نَحنُ في مَنازِلِنا، نَضَعُ رِحالَنا، إذ أتانا آتٍ، فقال: إنَّ الناسَ قَد اجتَمَعوا في المسجِدِ، وفَزِعوا، فانطَلَقنا، فإذا الناسُ مُجتَمِعونَ على نَفَرٍ في وسَطِ المسجِدِ، وفيهم: عليٌّ، والزبيرُ، وطَلحَةُ، وسَعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ، فإنَّا لَكَذلك، إذ جاءَ عثمانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عليه مُلاءَةٌ صَفراءُ، قَد قَنَّعَ بها رَأسَهُ، فقال: أهاهُنا طَلحَةُ؟ أهاهُنا الزبيرُ؟ أهاهُنا سَعدٌ؟ قالوا: نعم. قال: فإنِّي أنشُدُكُم باللهِ الذي لا إلَهَ إلا هوَ، أتَعلَمونَ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَن يَبتاعُ مِربَدَ**[٢] **بَني فُلانٍ، غَفَرَ اللهُ لَهُ**»، فابتَعتُهُ بعِشرينَ ألفًا، أو بخَمسَةٍ وعِشرينَ ألفًا، فأتَيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبَرتُهُ، فقال: «**اجعَلهُ في مَسجِدِنا، وأجرُهُ لَكَ**»؟ قالوا: اللهمَّ نعم.

قال: أنشُدُكُم باللهِ الذي لا إلَهَ إلا هوَ، أتعلَمونَ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَن ابتاعَ بئرَ رومَةَ**[٣]**، غَفَرَ اللهُ لَهُ**»، فابتَعتُها بكَذا وكذا، فأتَيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقُلتُ: قَد ابتَعتُها بكَذا وكذا، قال: «**اجعَلها سِقايَةً لِلمُسلِمينَ، وأجرُها لَكَ**»؟ قالوا: اللهمَّ نعم.

قال: أنشُدُكُم باللهِ الذي لا إلَهَ إلا هوَ، أتَعلَمونَ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَظَرَ في وُجوهِ القَومِ، فقال: «**مَن يُجَهِّزُ هَؤُلاءِ، غَفَرَ اللهُ لَهُ**» -يعني: جَيشَ العُسرَة- فجَهَّزتُهم، حتى لم يَفقِدوا عِقالًا، ولا خِطامًا؟ فقالوا: اللهمَّ نعم.

قال: «**اللهمَّ اشهَد، اللهمَّ اشهَد**»، ثم انصَرَفَ[٤].

---

(١) رواه مسلم (١٧٨٨).

(٢) المربد: موضعٌ يحمل فيه التَّمر؛ لينشف.

(٣) بئر رومة: اسم بئرٍ بالمدينة، لم يكن يشرب منها أحدٌ إلا بثمنٍ، فابتاعها عثمان، فجعلها للغنيِّ، والفقير، وابن السَّبيل.

(٤) رواه النسائي (٣١٨٢)، وأحمد (٥١١)، وصححه الشيخ أحمد شاكر.

وكان ﷺ يُحَفِّزُ -أيضًا- بالأشياءِ المادِّيَّةِ، الدُّنيَوِيَّةِ:

* كالتَّحفيزِ بطولِ العُمُرِ، وسَعَةِ الرِّزقِ:

فعن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**مَن سَرَّهُ أن يُبسَطَ له في رِزقِهِ، أو يُنسَأ له في أَثَرِه، فليَصِل رَحِمَهُ**»[1].

ومَعنَى الحديثِ: مَن أحَبَّ أن يُبسَطَ له في رِزقِهِ؛ فيكثُر، ويوسَّعَ عليه ويُبارَكَ له فيه، أو أحَبَّ أن يُؤخَّرَ له في عُمُرِهِ؛ فيَطولَ: فليَصِل رَحِمَهُ.

فَتكونُ صِلَةُ الرّحِمِ، سببًا شَرعيًّا لبسطِ الرّزقِ وسَعَتِهِ، وطولِ العُمُرِ وزيادَتِهِ، والتي لَولاها، لَما كان هذا رِزقَهُ، ولا كان هذا عُمُرَهُ -بتَقديرِ اللهِ تعالى وحِكمَتِهِ-.

* وحَفَّزَ المُجاهِدَ على أن له سَلَبَ مَن يَقتُلُهُ:

فعن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ -يعني يومَ حُنَينٍ-: «**مَن قَتَلَ كافِرًا فلَهُ سَلَبُهُ**»، فقتَلَ أبو طَلحَةَ يومَئِذٍ عِشرينَ رَجُلًا، وأخَذَ أسلابَهم[2].

وفي هذا التّحفيزِ: حَثٌّ على القِتال، وتَحريضٌ عليه، **قال القاري** رحمه الله: «يُستَحَبُّ للإمامِ التَّحريضُ على القِتال بالتَّنفيلِ، فيقولُ: مَن قتَلَ قتيلًا فلَهُ سَلَبُهُ، أو يقولُ للسَّرِيَّةِ: قَد جَعَلتُ لَكُمُ النِّصفَ، أوِ الرُّبُعَ، بعدِ الخُمُسِ»[3].

* وكان يُحَفِّزُ بالأشياءِ المعنَويَّةِ، ومِنَ التَّحفيزِ المعنَويِّ: التَّحفيزُ بالثَّناءِ:

فعَن سالمٍ، عن ابنِ عمرَ، قال: كان الرجُلُ في حَياةِ رسولِ اللهِ ﷺ إذا رَأى رُؤيا، قَصَّها على رسولِ اللهِ ﷺ، فتَمَنَّيتُ أن أرَى رُؤيا، أقُصُّها على النبيِّ ﷺ.

---

(١) رواه البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧).

(٢) رواه أبوداود (٢٧١٨)، وأحمد (١٢٢٣٦)، وصححه محققو المسند، على شرط مسلم.

(٣) مرقاة المفاتيح (٦/ ٢٥٤٦).

قال: وكنتُ غُلامًا شابًّا عَزَبًا[١]، وكنتُ أنامُ في المسجِدِ على عَهدِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرَأيتُ في النَّومِ، كَأنَّ مَلَكَينِ أخَذاني، فذَهَبا بي إلى النارِ، فإذا هيَ مَطويَّةٌ كَطَيِّ البِئرِ[٢]، وإذا لها قَرنانِ كَقَرنَيِ البِئرِ[٣]، وإذا فيها ناسٌ قَد عَرَفتُهم، فجَعَلتُ أقولُ: أعوذُ باللهِ مِنَ النارِ، أعوذُ باللهِ مِنَ النارِ، أعوذُ باللهِ مِنَ النارِ، قال: فلَقيَهما مَلَكٌ، فقال لي: لم تُرَع[٤].

فَقَصَصتُها على حَفصَةَ، فقَصَّتها حَفصَةُ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نِعمَ الرجُلُ عبدُاللهِ، لَو كان يُصَلِّي مِنَ اللَّيلِ**».

قال سالمٌ: فكان عبدُاللهِ، بعدَ ذلك، لا يَنامُ مِنَ اللَّيلِ إلا قَليلًا[٥].

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**مُقتَضاهُ**: أنَّ مَن كان يُصَلِّي مِنَ اللَّيلِ، يوصَفُ بكَونِهِ نعم الرجُلُ، وفي رواية نافِعٍ عن ابن عمرَ: «**إنَّ عبدَاللهِ رَجُلٌ صالحٌ، لَو كان يُصَلِّي مِنَ اللَّيلِ**»، وهو أبيَنُ في المقصودِ»[٦].

* ومِنَ التَّحفيزِ بالثَّناءِ:

عن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان رَجُلٌ مِنَ المُشرِكينَ قَد أحرَقَ المسلمينَ[٧]، فنَثَلَ لي النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِنانَتَهُ[٨]، وقال: «**ارمِ، فِداكَ أبي وأُمِّي**»، قال: فنَزَعتُ له بسَهمٍ ليس فيه نَصلٌ، فأصَبتُ جَنبَهُ فسَقَطَ، فانكَشَفَت عَورَتُهُ، فضَحِكَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى نَظَرتُ إلى نَواجِذِهِ[٩].

---

(١) غير متزوِّج.

(٢) البئر المطويَّة: مبنيَّة الجوانب.

(٣) خشبتان تنصبان على البئر بالطُّول، ثمَّ توضع عليهما خشبةٌ بالعرض، ثمَّ توضع بكرةٌ على الخشبة، يربط فيها الدَّلو.

(٤) لا خوف عليك، ولا ضرر.

(٥) رواه البخاري (١١٢١)، ومسلم (٢٤٧٩).

(٦) فتح الباري (٣/ ٦).

(٧) أي: أكثر القتل فيهم.

(٨) استخرج ما فيها من النبل.

(٩) رواه البخاري (٤٠٥٥)، ومسلم (٢٤١٢).

فَفَدَّاهُ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأبيهِ وأُمِّهِ؛ تَحفيزًا له على قَتلِ هذا الكافِرِ، شَديدِ البَأسِ، الذي أكثَرَ القَتلَ في المسلمينَ.

وعن عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: ما رَأيتُ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يُفَدِّي رَجُلًا بعدَ سَعدٍ، سمعتُهُ يقولُ: «ارمِ، فِداكَ أبي وأُمِّي»**[1].

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيه جَوازُ التَّفديَةِ بالأبَوينِ، وبِهِ قال جَماهيرُ العُلَماءِ، وكَرِهَهُ عمرُ بنُ الخَطَّابِ، والحَسَنُ البَصريُّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وكَرِهَهُ بعضُهم في التَّفديَةِ بالمسلمِ من أبَوَيهِ، **والصَّحيحُ**: الجَوازُ مُطلَقًا؛ لأنَّهُ ليس فيه حَقيقَةُ فِداءٍ، وإنما هو كَلامٌ، وإلطافٌ، وإعلامٌ بمَحَبَّتِهِ لَهُ، ومَنزِلَتِهِ، وقد ورَدَتِ الأحاديثُ الصَّحيحَةُ بالتَّفديَةِ مُطلَقًا، وأمَّا قولُهُ: «ما جَمَعَ أبَوَيهِ لغَيرِ سَعدٍ» وذَكَرَ -بعدُ- أنَّهُ جَمَعَهما للزُّبَيرِ، وقد جاءَ جَمعُهما لغَيرِهِما أيضًا: فيُحمَلُ قولُ عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، على نَفيِ عِلمِ نَفسِهِ، أي: لا أعلَمُهُ جَمَعَهما، إلا لسَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ»[2].

* وقد يكونُ التَّحفيزُ المعنَويُّ، بإثارَةِ الحَفيظَةِ:

كَما في قولِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن لكَعبِ بنِ الأشرَفِ؛ فإنَّهُ قَد آذَى اللهَ ورسولَهُ؟**»، فقال محمدُ بنُ مَسلَمَةَ: يا رسولَ اللهِ، أتُحِبُّ أن أقتُلَهُ؟ قال: «**نَعَم**» قال: فأذَن لي أن أقولَ شَيئًا، قال: «**قُل**»[3].

فَأثارَ حَفيظَةَ الصَّحابَةِ على كَعبٍ، بقولِهِ: «**فإنَّهُ قَد آذَى اللهَ ورسولَهُ؟**»، فانتَصَبوا لَهُ، فأعانَهُمُ اللهُ عليه، فقَتلوهُ.

«وكان كَعبٌ هذا قَد لَهَجَ بسَبِّ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهِجائِهِ، فاستَحَقَّ القَتلَ مع كُفرِهِ بسَبِّهِ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[4].

---

(١) رواه البخاري (٢٩٠٥)، ومسلم (٢٤١١).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ١٨٤).
(٣) رواه البخاري (٤٠٣٧)، ومسلم (١٨٠١).
(٤) معالم السُّنن (٢/ ٣٣٧).

* وقد يكونُ التَّحفيزُ المعنَويُّ، باستِدعاءِ البَسالَةِ، والإقدامِ:

فعن أنسٍ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخَذَ سَيفًا يومَ أُحُدٍ، فقال: «**مَن يَأخُذُ مِنِّي هَذا؟**»، فبَسَطوا أيديَهم، كُلُّ إنسانٍ منهم يقولُ: أنا، أنا، قال: «**فَمَن يَأخُذُهُ بحَقِّهِ؟**»، فأحجَمَ القَومُ، فقال سِماكُ بنُ خَرَشَةَ أبو دُجانَةَ: أنا آخُذُهُ بحَقِّهِ، فأخَذَهُ، ففَلَقَ بهِ هامَ المُشرِكينَ[١].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «**قَولُهُ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن يَأخُذُ هذا بحَقِّهِ؟**» يَعني بالحَقِّ هُنا: أنّه يُقاتِلُ بذلك السَّيفِ، إلى أن يَفتَحَ اللهُ تعالى على المُسلِمينَ، أو يَموتَ، فلمَّا سَمعوا هَذا أحجَموا، أي: تَأخّروا، فأخَذَهُ أبو دُجانَةَ، فقامَ بشرطِهِ، ووَفَّى بحقِّهِ»[٢].

وعن الزبيرِ بنِ العَوَّامِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: عَرَضَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَيفًا يومَ أُحُدٍ، فقال: «**مَن يَأخُذُ هذا السَّيفَ بحَقِّهِ؟**»، فقُمتُ، فقُلتُ: أنا يا رسولَ اللهِ، فأعرَضَ عَنِّي، ثم قال: «**مَن يَأخُذُ هذا السَّيفَ بحَقِّهِ؟**»، فقُلتُ: أنا يا رسولَ اللهِ، فأعرَضَ عَنِّي، ثم قال: «**مَن يَأخُذُ هذا السَّيفَ بحَقِّهِ؟**»، فقامَ أبو دُجانَةَ سِماكُ بنُ خَرَشَةَ، فقال: أنا آخُذُهُ يا رسولَ اللهِ بحَقِّهِ، فما حَقُّهُ؟ قال: «**أن لا تَقتُلَ بِهِ مُسلِمًا، ولا تَفِرَّ بِهِ عن كافِرٍ**»، قال: فدَفَعَهُ إليه، وكان إذا أرادَ القِتالَ، أعلَمَ بعِصابَةٍ، قال: قُلتُ: لَأنظُرَنَّ إليه اليومَ، كَيفَ يَصنَعُ، قال: فجَعَلَ لا يَرتَفِعُ له شيءٌ إلا هَتَكَهُ، وأفراهُ، حتى انتَهَى إلى نِسوَةٍ في سَفحِ الجَبَلِ، مَعَهُنَّ دُفوفٌ لَهُنَّ، فيهنَّ امرَأةٌ، وهي تقولُ:

نَحنُ بَناتُ طارِق[٣] ... نَمشي على النَّمارِق[٤]

إن تُقبِلوا نُعانِق ... ونَبسُطِ النَّمارِق

أو تُدبِروا نُفارِق ... فِراقَ غَيرِ وامِق[٥]

---

(١) رواه مسلم (٢٤٧٠).

(٢) المفهم (٢٠/ ١١٧).

(٣) الطَّارق: النَّجم، أي: آباؤنا -في الشرَّف، والعلو- كالنَّجم.

(٤) النَّمارق: الوسائد.

(٥) أي فراق غير محبٍ؛ لأن غير المحبِّ لا يرجع إذا غضب، بخلاف المحبِّ.

قال: فأهوَى بالسَّيفِ إلى امرَأةٍ؛ ليَضرِبَها، ثم كَفَّ عَنها، فلمَّا انكَشَفَ له القِتالُ، قُلتُ لَهُ: كُلّ عَمَلِكَ قَد رَأيتُ، ما خَلا رَفعَكَ السَّيفَ على المرأةِ، لم تَضرِبها، قال: إنِّي -واللهِ- أكرَمتُ سَيفَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن أقتُلَ بِهِ امرَأةً[1].

* وقد يكونُ بذِكرِ مَنقَبَةٍ عَظيمَةٍ، لمَن يَقومُ بالعَمَلِ:

كَما في قولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ خَيبَرَ: «**لَأُعطيَنَّ الرايَةَ غَدًا رَجُلًا يُفتَحُ على يَدَيهِ، يُحِبُّ اللهَ ورسولَهُ، ويُحِبُّهُ اللهُ ورسولُهُ**»، فباتَ الناسُ لَيلَتَهم: أيُّهم يُعطَى؟ فغَدَوا كُلُّهم يَرجوهُ[2].

فَقَد حَفَّزَهمُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحفيزًا مَعنَويًّا، دَفَعَهم إلى أن يرجوَ كُلٌّ منهم أن يكونَ صاحِبَ الرايَةِ؛ ليَفوزَ بمَحَبَّةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ومَحبةِ رسولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

* وقد يكونُ التَّحفيزُ باستِغفارِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لمَن يَقومُ بالعَمَلِ:

فَمِن ذلك: ما رواهُ مسلمٌ، عن سَلَمَةَ بنِ الأكوَعِ قال: قَدِمنا الحُدَيبِيَةَ مع رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونَحنُ أربَعَ عَشرَةَ مِائَةً ... الحديث بطولِهِ، وفيه:

قال: ثم خرجنا راجِعينَ إلى المدينَةِ، فنَزَلنا مَنزِلًا، بيننا وبين بَني لَحيانَ جَبَلٌ، وهمُ المُشرِكونَ، فاستَغفَرَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَن رَقيَ هذا الجَبَلَ اللَّيلَةَ، كَأنَّهُ طَليعَةٌ للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابِهِ، قال سَلَمَةُ: «فَرَقيتُ تِلكَ اللَّيلَةَ مَرَّتَينِ، أو ثَلاثًا»[3].

ومِنَ **التَّحفيزِ**: ما جاءَ في الصَّحيحَينِ، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إنَّكُم تقولونَ إنَّ أبا هريرةَ يُكثِرُ الحديثَ عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتقولونَ: ما بالُ المُهاجِرينَ والأنصارِ لا يُحَدِّثونَ عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بمِثلِ حديثِ أبي هريرة، وإنَّ إخوَتي من المُهاجِرينَ كان يَشغَلُهم صَفقٌ بالأسواقِ، وكنتُ ألزَمُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مِلءِ بَطني، فأشهَدُ إذا غابوا، وأحفَظُ إذا نَسوا، وكان يَشغَلُ إخوَتي من الأنصارِ عَمَلُ أموالِهم، وكنتُ امرَأً

---

(١) رواه الحاكم (٥٠١٩)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٧).

(٣) رواه مسلم (١٨٠٧).

مِسكينًا، من مَساكينِ الصُّفَّةِ، أعي حينَ يَنسَونَ، وقد قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديثٍ يُحَدِّثُهُ: «**إنَّهُ لَن يَبسُطَ أحَدٌ ثَوبَهُ، حتى أقضيَ مَقالتي هَذِهِ، ثم يَجمَعَ إليه ثَوبَهُ، إلا وعَى ما أقولُ**»، فبَسَطتُ نَمِرَةً عَلَيَّ، حتى إذا قَضَى رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقالتَهُ، جَمَعتُها إلى صَدري، فما نَسيتُ من مَقالةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِلكَ من شيءٍ[١].

فَآثَرَ أبو هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُجالَسَةَ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسَماعَ حديثِهِ، على الصّفقِ بالأسواقِ، وجَمعِ المالِ؛ لما رَأى مِنَ الفَضلِ، وأصابَ مِنَ العِلمِ.

قال الذَّهَبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكان حِفظُ أبي هريرة الخارِقُ من مُعجِزاتِ النُّبوَّةِ»[٢].

---

(١) رواه البخاري (٢٠٤٧)، ومسلم (٢٤٩٢).

(٢) سير أعلام النُّبلاء (٢/ ٥٩٤).

تَعزيرُهُ وتَأديبُهُ ﷺ

التَّعزيرُ: هو التَّأديبُ على ذُنوبٍ لم يُشرَع فيها حَدٌّ، ولا كَفَّارَةٌ، وهو عُقوبَةٌ غَيرُ مُقَدَّرَةٍ، تَختَلِفُ باختِلافِ الجِنايَةِ، وأحوالِ الناسِ، فتُقَدَّرُ بقَدرِ الجِنايَةِ، ومِقدارِ ما يَنزَجِرُ بهِ الجاني، ومِنَ الناسِ مَن يَنزَجِرُ باليَسيرِ، ومنهم مَن لا يَنزَجِرُ إلا بالكثيرِ[1].

فتَتَنَوَّعُ العُقوبَةُ بالتَّعزيرِ على قَدرِ المصلَحَةِ؛ إذِ المقصودُ بالتَّعزيرِ: التَّأديبُ، والردعُ، «فَمنه: ما يكونُ بالتَّوبيخِ، وبِالزَّجرِ، وبِالكلامِ، ومنه: ما يكونُ بالحَبسِ، ومنه: ما يكونُ بالنَّفيِ، ومنه: ما يكونُ بالضَّربِ ...»[2].

وتَعزيراتُ النبيِّ ﷺ كانت مُتَنَوِّعَةً ومُختَلِفَةً، بحَسَبِ الجِنايَةِ، وأحوالِ الناسِ.

*** فَمِن تعزيرِهِ ﷺ: نَزعُهُ الخاتَمَ[3] مِن يَدِ صاحِبِهِ، وطرحُهُ:**

فعن عبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، رَأى خاتمًا من ذَهَبٍ في يَدِ رَجُلٍ، فنَزَعَهُ، فطَرَحَهُ، وقال: «**يَعمِدُ أحَدُكُم إلى جَمرَةٍ من نارٍ، فيَجعَلُها في يَدِهِ؟!**»، فقيل للرَّجُلِ -بَعدَ ما ذَهَبَ رسولُ اللهِ ﷺ-: خُذ خاتَمَكَ، انتَفِع بهِ، قال: لا واللهِ، لا آخُذُهُ أبدًا وقد طَرَحَهُ رسولُ اللهِ ﷺ[4].

---

(١) الموسوعة الفقهية (٤/ ١٩٣).

(٢) الطُّرق الحكميَّة (ص٢٢٣).

(٣) بفتح التَّاء، وكسرها.

(٤) رواه مسلم (٢٠٩٠).

وفي الحديثِ: استِعمالُ الحِكمَةِ في تَغييرِ المُنكَرِ، فهذا الرجُلُ استَعمَلَ مَعَهُ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شَيئًا مِنَ الشِّدَّةِ، لكنَّ الأعرابيَّ الذي بالَ في المسجِدِ، لم يَستَعمِل مَعَهُ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الشِّدَّةَ.

ولَعَلَّ ذلك؛ لأنَّ هذا الذي لَبِسَ خاتمَ الذَّهبِ، عَلِمَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّهُ كان عالمًا بالحُكمِ والتَّحريمِ؛ ولكنهُ تَساهَلَ، بخِلافِ الأعرابيِّ، فإنَّهُ كان جاهِلًا، لا يَعرِف[١].

* ومِن تَعزيرِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإزالَةِ المُنكَرِ باليَدِ، وإتلافِهِ:

ما جاءَ عن عائشةَ، قالت: خرجَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غَزاتِهِ، فأخَذتُ نَمطًا[٢] فسَترتُهُ على البابِ، فلمَّا قَدِمَ فرأى النَّمطَ، عَرَفتُ الكراهيَةَ في وجهِهِ، فجَذَبَهُ حتى هَتَكَهُ -أو قَطَعَهُ-، وقال: «**إنَّ اللهَ لم يَأمُرنا أن نَكسوَ الحِجارَةَ والطِّينَ**»، قالت: فقَطَعنا منه وِسادَتَينِ، وحَشَوتُهما ليفًا، فلَم يَعِب ذلك عَلَيَّ[٣].

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «وقد صَرَّحَت في الرِّواياتِ المذكوراتِ بعدَ هَذِهِ، بأنَّ هذا النَّمَطَ، كان فيه صوَرُ الخَيلِ ذَواتِ الأجنِحَةِ، وأنَّهُ كان فيه صورَةٌ، فيُستَدلُّ بِهِ لتَغييرِ المُنكَرِ باليَدِ، وهَتكِ الصُّوَرِ المُحَرَّمَةِ، والغَضَبِ عندَ رُؤيَةِ المُنكَرِ»[٤].

وقولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ لم يَأمُرنا أن نَكسوَ الحِجارَةَ والطِّينَ**»:

فيه: بَيانُ كَراهَةِ الإسرافِ فيما لا حاجَةَ إليهِ، مِن تَزويقِ البُيوتِ، وتَنجيدِها بالثِّيابِ.

ومِن تَعزيرِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بإتلافِ المُنكَرِ**: ما جاءَ عن عبدِاللهِ بنِ عَمرٍو، قال: رَأى النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ ثَوبَينِ مُعَصفَرَينِ، فقال: «**أأُمُّكَ أمَرَتكَ بهذا؟!**»، قُلتُ: أغسِلُهما؟ قال: «**بل أحرِقهما**».

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٤٨).
(٢) بساطٌ، له خملٌ رقيقٌ.
(٣) رواه مسلم (٢١٠٧)
(٤) شرح النووي على مسلم (١٤/ ٨٦).

وفي روايةٍ: «**إنَّ هَذِهِ من ثيابِ الكُفَّارِ، فلا تَلبَسها**»(١).

والعُصفرُ: نَباتٌ يُستَخرَجُ منه صبغٌ أحمرُ، يُصبَغُ بِهِ(٢).

وفي الحديثِ: دَلالَةٌ على تحريمِ لُبسِ الثَّوبِ المُعصفرِ(٣).

وقولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أأُمُّكَ أمَرَتكَ بهذا؟!**»، **معناهُ**: أنَّ هذا من لباسِ النِّساءِ، وزيِّهِنَّ، وأخلاقِهِنَّ.

وأمَّا **الأمرُ بإحراقِها**: فقيل: هو عُقوبَةٌ وتَغليظٌ لزَجرِهِ وزَجرِ غَيرِهِ عن مِثلِ هذا الفِعلِ(٤).

* ومِن تَعزيرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: التَّعزيرُ بالهَجرِ والإعراضِ:

ومِن ذلك: ما كان في قِصَّةِ كَعبِ بنِ مالكٍ وصاحِبَيهِ، عندَما تخَلَّفوا بغَيرِ عُذرٍ عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في غَزوَةِ تَبوك.

قال كَعبُ بنُ مالكٍ في حديثِهِ: وأصبَحَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قادِمًا- يَعني: مِن تَبوك-، وكان إذا قَدِمَ من سَفَرٍ بَدَأ بالمسجِدِ، فيَركَعُ فيه رَكعَتَينِ، ثم جَلَسَ للنَّاسِ، فلَمَّا فعَلَ ذلك جاءَهُ المُخَلَّفونَ، فطَفِقوا يَعتذِرونَ إليه، ويَحلِفونَ لَهُ، وكانوا بضعَةً وثَمانينَ رَجُلًا، فقَبِلَ منهم رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علانيَتَهم، وبايَعَهم، واستَغفَرَ لَهم، ووَكَلَ سَرائِرَهم إلى اللهِ.

فَجِئتُهُ، فلَمَّا سَلَّمتُ عليه، تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المُغضَبِ، ثم قال: «**تَعالَ**»، فجِئتُ أمشي، حتى جَلَستُ بين يَدَيهِ، فقال لي: «**ما خَلَّفَكَ، ألَم تَكُن قَد ابتَعتَ ظَهرَكَ؟**»، فقُلتُ: بَلى، إنِّي واللهِ لَو جَلَستُ عندَ غَيرِكَ من أهلِ الدُّنيا، لَرَأيتُ أن سَأخرُجُ من سَخَطِهِ بعُذرٍ، ولَقَد أُعطيتُ جَدَلًا(٥)؛ ولكني -واللهِ- لَقَد عَلِمتُ: لَئِن حَدَّثتُكَ اليومَ حديثَ كَذِبٍ، تَرضَى بِهِ عَنِّي،

---

(١) رواه مسلم (٢٠٧٧).

(٢) المعجم الوسيط (٢/ ٦٠٥).

(٣) وهو مذهب الظَّاهريَّة، واختيار ابن القيم، ورجَّحه ابن عثيمين.

(٤) شرح النووي على مسلم (١٤/ ٥٥).

(٥) أي: فصاحةً، وقوَّة كلامٍ، بحيث أخرج عن عهدة ما ينسب إليَّ، بما يقبل ولا يردُّ.

لَيوشِكَنَّ اللهُ أن يُسخِطَكَ عَلَيَّ، ولَئِن حَدَّثتُكَ حديثَ صِدقٍ، تَجِدُّ عَلَيَّ فيه، إنِّي لأَرجو فيه عَفوَ اللهِ، لا -واللهِ- ما كان لي من عُذرٍ، واللهِ ما كنتُ -قَطُّ- أقوَى ولا أيسَرَ مِنِّي، حينَ تَخَلَّفتُ عَنكَ.

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أمَّا هَذا: فقَد صَدَقَ، فقُم حتى يَقضيَ اللهُ فيكَ**»، فقُمتُ، وثارَ رِجالٌ من بَني سَلِمَةَ، فاتَّبَعوني، فقالوا لي: واللهِ ما عَلِمناكَ كُنتَ أذنَبتَ ذَنبًا قبلَ هَذا، ولَقَد عَجَزتَ أن لا تكونَ اعتَذَرتَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، بما اعتَذَرَ إليه المُتَخَلِّفونَ، قَد كان كافيَكَ ذَنبَكَ استِغفارُ رسولِ اللهِ ﷺ لَكَ، فواللهِ ما زالوا يُؤَنِّبوني، حتى أرَدتُ أن أرجِعَ، فأُكَذِّبَ نَفسي، ثم قُلتُ لَهم: هَل لَقيَ هذا مَعي أحَدٌ؟ قالوا: نعم، رَجُلانِ، قالا مِثلَ ما قُلتَ، فقيل لَهما مِثل ما قيل لَكَ، فقُلتُ مَن هما؟ قالوا: مُرارَةُ بنُ الربيعِ، وهِلالُ بنُ أُمَيَّةَ، فذَكَروا لي رَجُلَينِ صالحَينِ، قَد شَهِدا بَدرًا، فيهما أُسوَةٌ، فمَضَيتُ حينَ ذَكَروهما لي.

ونَهَى رسولُ اللهِ ﷺ المسلمينَ عن كَلامِنا -أيُّها الثَّلاثَةُ- من بَينِ مَن تَخَلَّفَ عَنهُ، فاجتَنَبَنا الناسُ، وتَغَيَّروا لَنا، حتى تَنَكَّرَت في نَفسي الأرضُ، فما هيَ التي أعرِفُ، فلَبِثنا على ذلك خَمسينَ لَيلَةً، فأمَّا صاحِبايَ: فاستَكانا، وقَعَدا في بُيوتِهما يَبكيانِ، وأمَّا أنا: فكنتُ أَشَبَّ القَومِ وأجلَدَهم، فكنتُ أخرُجُ، فأشهَدُ الصَّلاةَ مع المسلمينَ، وأطوفُ في الأسواقِ، ولا يُكَلِّمُني أحَدٌ، وآتي رسولَ اللهِ ﷺ، فأسلم عليه وهو في مَجلِسِهِ بعدَ الصَّلاةِ، فأقولُ في نَفسي: هَل حَرَّكَ شَفَتَيهِ برَدِّ السَّلامِ عَلَيَّ، أم لا؟ ثم أُصَلِّي قَريبًا منه، فأُسارِقُهُ النَّظَرَ(١)، فإذا أقبلتُ على صَلاتي، أقبَلَ إلَيَّ، وإذا التَفَتُّ نَحوَهُ، أعرَضَ عَنِّي.

حَتَّى إذا طالَ عَلَيَّ ذلك من جَفوَةِ الناسِ، مَشَيتُ، حتى تَسَوَّرتُ(٢) جِدارَ حائِطِ أبي قَتادَةَ، وهو ابنُ عَمِّي، وأحَبُّ الناسِ إلَيَّ، فسَلَّمتُ عليه، فواللهِ ما رَدَّ عَلَيَّ السَّلامَ، فقُلتُ: يا أبا قَتادَةَ، أنشُدُكَ باللهِ: هَل تَعلَمُني أُحِبُّ اللهَ ورسولَهُ؟ فسَكَتَ، فعُدتُ لَهُ، فنَشَدتُهُ،

---

(١) أي: أنظر إليه في خفيةٍ.

(٢) تسورت: علوت.

فسَكَتَ، فعُدتُ لَهُ، فنَشَدتُهُ، فقال: اللهُ ورسولُهُ أعلَمُ، ففاضَت عَينايَ، وتَوَلَّيتُ، حتى تَسَوَّرتُ الجِدارَ.

وذَكرَ بَقيّةَ الحديثِ(١).

فَقولُ كَعبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ونَهَى رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسلمينَ عن كَلامِنا -أيُّها الثَّلاثَةُ- من بَينِ مَن تَخَلَّفَ عَنهُ، فاجتَنَبَنا الناسُ، وتَغَيَّروا لَنا»:

فيه: أنَّ التَّعزيرَ يكونُ -أيضًا- بالهَجرِ، إذا حَصَلَت بِهِ المصلَحَةُ.

* ومِن تَعزيرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالهَجرِ:

ما كان من هِجرانِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لبعضِ نِسائِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ.

فعن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَلَفَ لا يَدخُلُ على بعضِ أهلِهِ شَهرًا(٢).

وفيه: جَوازُ تَعزيرِ المرأةِ بالهَجرِ، إذا وقَعَت منها مُخالَفَةٌ تَقتَضي ذلك، وكان في هَجرِها مَصلحةٌ راجِحةٌ.

* ومِن تَعزيرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: التَّعزيرُ بالنَّفيِ:

ومِن ذلك: ما جاءَ عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كان يَدخُلُ على أزواجِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُخَنَّثٌ، فكانوا يَعُدُّونَهُ من غَيرِ أولي الإربَةِ، فدَخَلَ عَلَيَّ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسَمِعَهُ يقولُ لعبدِاللهِ بنِ أبي أُمَيَّةَ(٣): يا عبدَاللهِ، أرَأيتَ إن فتَحَ اللهُ عليكم الطَّائِفَ غَدًا، فعليكَ بابنَةِ غَيلانَ؛ فإنَّها تُقبِلُ بأربَعٍ، وتُدبِرُ بثَمانٍ، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا أرَى هذا يَعرِفُ ما هاهُنا، لا يَدخُلَنَّ عليكُنَّ**»، قالت: فحَجَبوهُ(٤).

---

(١) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

(٢) رواه البخاري (٥٢٠٢)، ومسلم (١٠٨٥).

(٣) أخو أمِّ سلمة.

(٤) رواه البخاري (٤٣٢٤)، ومسلم (٢١٨١).

وفي رواية: «وَأخرَجَهُ، فكان بالبَيداءِ، يَدخُلُ كُلَّ جُمُعَةٍ، يَستَطعِمُ».

وفي أُخرَى: «فَقيل: يا رسولَ اللهِ، إنَّهُ -إذَن- يَموتُ مِنَ الجوعِ، فأذِنَ له أن يَدخُلَ في كُلِّ جُمُعَةٍ مَرَّتَينِ، فيَسأَلُ، ثم يَرجِعُ»[١]

«المُخَنَّثُ»:

هوَ الذي يُشبِهُ النِّساءَ في أخلاقِهِ، وكَلامِهِ، وحَرَكاتِهِ، وتارَةً يكونُ هذا خُلُقَهُ مِنَ الأصلِ، وتارَةً بتكَلُّفٍ، فإن كان من أصلِ الخِلقَةِ لم يَكُن عليه لَومٌ، وعليه أن يَتكَلَّفَ إزالَةَ ذلك، وإن كان بقَصدٍ منه، وتَكَلُّفٍ لَهُ، فهو المذمومُ.

قال العِراقيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَد بَيَّنَ في الحديثِ سببَ دُخولِهِ على أُمَّهاتِ المُؤمِنينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ، وهو أنَّهم كانوا يَعتَقِدونَهُ من غَيرِ أولي الإربَةِ، أي: الحاجَةِ إلى النِّساءِ، وأنَّهُ لا يَنظُرُ في أوصافِهِنَّ، ولا يُمَيِّزُ بين الحَسَنَةِ والقَبيحَةِ منهنَّ، ولا شَهوَةَ له أصلًا.

ومِثلُ هَذا: لا يَجِبُ الاحتِجابُ منه، بنَصِّ الكِتابِ العَزيزِ، فلمَّا فُهِمَ من كَلامِهِ هَذا أنَّهُ على خِلافِ ذلك حُجِبَ، ومُنِعَ من الدُّخولِ عليهنَّ، كَغَيرِهِ من الرِّجال.

فَفيه: أنَّ التَّخَنُّثَ -وَلَو كان أصليًّا- لا يَقتَضي الدُّخولَ على النِّساءِ، وأنَّهُ كان المُقتَضي لدُخولِهِ اعتِقاد كَونِهِ من غَيرِ أولي الإربَةِ، لا كَونِهِ مُخَنَّثًا»[٢].

وفي الحديثِ: التَّعزيرُ بالنَّفيِ، لِمَن غَلَبَ الظَّنُّ عليه، أنَّهُ يُسَبِّبُ فسادًا بين الناسِ.

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وفي الحديثِ** -أيضًا-: تَعزيرُ مَن يَتَشَبَّهُ بالنِّساءِ، بالإخراجِ مِنَ البُيوتِ، والنَّفيِ، إذا تَعَيَّنَ ذلك طَريقًا لرَدعِهِ»[٣].

---

(١) رواهما أبوداود (٤١٠٩-٤١١٠)، وصححه الألباني. والبيداء: هي الأرض الملساء التي دون ذي الحليفة، في طريق مكَّة.

(٢) طرح التَّثريب (٨/ ١١٥).

(٣) فتح الباري (٩/ ٣٣٦).

وقال العِراقيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فيه**: جَوازُ العُقوبَةِ بالنَّفيِ عن الوَطَنِ، لِمَن يُخافُ منه الفَسادُ، والفِسقُ»(١).

❊ ومِن تَعزيرِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: التَّعزيرُ بعَدَمِ رَدِّ السَّلامِ:

فعن عَمَّارِ بنِ ياسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قَدِمتُ على أهلي -لَيلًا-، وقد تَشَقَّقَت يَدايَ، فخَلَّقوني بزَعفرانٍ، فغَدَوتُ على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسَلَّمتُ عليه، فلَم يَرُدَّ عَلَيَّ، ولم يُرَحِّب بي، وقال: «**اذهَب، فاغسِل هذا عَنكَ**»، فذَهَبتُ فغَسَلتُهُ ثم جِئتُ، وقد بَقيَ عَلَيَّ منه رَدعٌ، فسَلَّمتُ فلَم يَرُدَّ عَلَيَّ، ولم يُرَحِّب بي، وقال: «**اذهَب، فاغسِل هذا عَنكَ**»، فذَهَبتُ فغَسَلتُهُ ثم جِئتُ، فسَلَّمتُ عليه، فرَدَّ عَلَيَّ، ورَحَّبَ بي(٢).

قولُهُ: «**وقد تَشَقَّقَت يَدايَ**»:

أي: من إصابَةِ الرِّياحِ، واستِعمالِ الماءِ، كما يكونُ في الشِّتاءِ.

وقولُهُ: «**فخَلَّقوني**»:

بِتَشديدِ اللَّامِ، أي: جَعَلوا الخَلوقَ في شُقوقِ يَدَيَّ؛ للمُداواةِ(٣).

وفي الحديثِ: التَّعزيرُ بعَدَمِ رَدِّ السَّلامِ، وعَدَمِ التَّرحيبِ، لِمَنِ ارتَكَبَ مُخالَفَةً شَرعيَّةً؛ تَنبيهًا له على خَطَئِهِ، وقد ورَدَ النَّهيُ عن الزَّعفرانِ للرِّجال.

وقَولُهُ: «**فلَم يَرُدَّ عَلَيَّ، ولم يُرَحِّب بي**»: فيه إشارَةٌ إلى ما كان عليه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن كَرَمِ الصُّحبَةِ، وحُسنِ المُؤاخاةِ؛ إذ كان يُرَحِّبُ بأصحابِهِ، إذا قَدِموا عليه في مَجلِسِهِ، إلا أنّ ذلك لا يَمنعُ من قَطعِ لُطفِهِ؛ للتَّأديبِ، والتَّربيَةِ، إذا بَدَرَ مِن أحدِهِم ما يَكرَهُهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويُعابُ عليه صاحِبُهُ.

---

(١) طرح التَّثريب (٨/ ١١٧).

(٢) رواه أبوداود (٤١٧٦)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود.

(٣) عون المعبود (١١/ ١٥٥).

* التَّعزيرُ والتَّأديبُ بعَدَمِ الصَّلاةِ على أصحابِ بعضِ المعاصي:

فعن جابِرِ بنِ سَمُرَةَ، قال: «**أُتِيَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برَجُلٍ قَتَلَ نفسَهُ بمَشاقِصَ**[١]**، فلَم يُصَلِّ عليه**»[٢].

قال الخَطَّابيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَتَركُ الصَّلاةِ عليه مَعناهُ: العُقوبَةُ لَهُ، والردعُ لغَيرِهِ، عن مِثلِ فِعلِهِ»[٣].

وقال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «**وفي هذا الحديثِ**: دَليلٌ لمَن يقولُ: لا يُصَلَّى على قاتِلِ نَفسِهِ؛ لعِصيانِهِ، وهذا مَذهَبُ عمرَ بنِ عبدِالعَزيزِ، والأوزاعيِّ.

وقال مالكٌ، وأبو حَنيفَةَ، والشافعيُّ، وجَماهيرُ العُلَماءِ: يُصَلَّى عليه، وأجابوا عن هذا الحديثِ: بأنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُصَلِّ عليه بنَفسِهِ؛ زَجرًا للنَّاسِ عن مِثلِ فِعلِهِ، وصَلَّت عليه الصَّحابَةُ.

وهذا كَما تَرَكَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلاةَ -في أوَّلِ الأمرِ- على مَن عليه دَينٌ؛ زَجرًا لهم عن التَّساهُلِ في الاستِدانَةِ، وعن إهمالِ وفائِهِ، وأمَرَ أصحابَهُ بالصَّلاةِ عليه، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَلُّوا على صاحِبِكُم**».

قال القاضي رَحِمَهُ اللهُ: مَذهَبُ العُلَماءِ كافَّةً: الصَّلاةُ على كُلِّ مُسلِمٍ، ومَحدودٍ، ومَرجومٍ، وقاتِلِ نَفسِهِ، ووَلَدِ الزِّنا، وعن مالكٍ، وغَيرِهِ: أنَّ الإمامَ يَجتَنِبُ الصَّلاةَ على مَقتولٍ في حَدٍّ، وأنَّ أهلَ الفَضلِ لا يُصَلُّونَ على الفُسَّاقِ؛ زَجرًا لَهم»[٤].

---

(١) المشاقص: سهامٌ عراضٌ، واحدها: مشقصٌ.

(٢) رواه مسلم (٩٧٨).

(٣) معالم السُّنن (١/ ٣٠٩).

(٤) شرح النووي على مسلم (٧/ ٤٧).

* التَّعزيرُ بالدُّعاءِ على أصحابِ بعضِ المُخالَفاتِ:

عن سَلَمَةَ بنِ الأكوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رَجُلًا أكَلَ عندَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشِمالِه، فقال: «**كُل بيَمينِكَ**»، قال: لا أستَطيعُ -ما مَنَعَهُ إلا الكِبرُ-، قال: «**لا استَطَعتَ**»، قال: فما رَفَعَها إلى فيه[١].

وفي هذا الحديثِ: جَوازُ الدُّعاءِ على مَن خالَفَ الحُكمَ الشَّرعيَّ بلا عُذرٍ[٢]، وفي هذا تَعزيرٌ له، وزجرٌ لغيرِه، عن مِثلِ فِعلِه.

* ومِن تَعزيرِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: التَّعزيرُ بتَغليظِ القولِ:

فعنِ المعرورِ بنِ سوَيدٍ، قال: مَرَرنا بأبي ذَرٍّ بالربَذَةِ[٣]، وعليه بُردٌ، وعلى غُلامِهِ مِثلُهُ، فقُلنا: يا أبا ذَرٍّ، لَو جَمَعتَ بينهما كانت حُلَّةً، فقال: إنَّهُ كان بَيني وبين رَجُلٍ من إخواني كَلامٌ، وكانت أُمُّهُ أعجَميَّةً، فعَيَّرتُهُ بأُمِّهِ، فشَكاني إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلَقيتُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**يا أبا ذَرٍّ، إنَّكَ امرُؤٌ فيكَ جاهِليَّةٌ**»، قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، مَن سَبَّ الرِّجالَ، سَبُّوا أباهُ، وأُمَّهُ، قال: «**يا أبا ذَرٍّ، إنَّكَ امرُؤٌ فيكَ جاهِليَّةٌ، هم إخوانُكُم، جَعَلَهُمُ اللهُ تحتَ أيديكُم، فأطعِموهم مِمَّا تَأكُلونَ، وألبِسوهم مِمَّا تَلبَسونَ، ولا تُكَلِّفوهم ما يَغلِبُهم، فإن كَلَّفتُموهم: فأعينوهم**»[٤]

وفي روايةٍ:

كان بَيني وبين رَجُلٍ كَلامٌ، وكانت أُمُّهُ أعجَميَّةً، فنِلتُ منها، فذَكَرَني إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال لي: «**أسابَبتَ فُلانًا؟**»، قُلتُ: نعم، قال: «**أفَنِلتَ من أُمِّهِ؟**»، قُلتُ: نعم، قال: «**إنَّكَ امرُؤٌ فيكَ جاهِليَّةٌ**»، قُلتُ: على حينِ ساعَتي هَذِهِ من كِبَرِ السِّنِّ؟ قال: «**نَعَم**» ... الحديث[٥].

---

(١) رواه مسلم (٢٠٢١).

(٢) ينظر: الأذكار للنَّووي (ص: ٣٠٦).

(٣) موضعٌ بالبادية، بينه وبين المدينة ثلاث مراحلٍ.

(٤) رواه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١).

(٥) رواه البخاري (٦٠٥٠).

ويَظهَرُ أنَّ: ما حصَلَ من أبي ذَرٍّ، كان قبلَ أن يَعرِفَ تَحريمَهُ، فكانت تِلكَ الخَصلَةُ من خِصالِ الجاهِليَّةِ باقيَةً عندَهُ، فلهذا قال: «**عَلى حينِ ساعَتي هَذِهِ من كِبَرِ السِّنِّ؟**»، كَأَنَّهُ تَعَجَّبَ من خَفاءِ ذلك عليه، مع كِبَرِ سِنِّهِ، فبَيَّنَ له النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كونَ هَذِهِ الخَصلَةِ، مَذمومَةً شَرعًا.

فَلهذا: كان -بَعدَ ذلك- يُساوي غُلامَهُ في الملبوسِ، وغَيرِهِ؛ أخذًا بالأحوَطِ، وإن كان لَفظُ الحديثِ يَقتَضي اشتِراطَ المواساةِ، لا المُساواةَ[١].

* ومِن تَعزيرِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتَغليظِ القولِ:

ما رَواهُ جابِرُ بنُ عبدِالله: أنَّ مُعاذَ بنَ جَبَلٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، كان يُصَلِّي مع النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم يَأتي قَومَهُ، فيُصَلِّي بِهِم الصَّلاةَ، فقَرَأ بِهِمُ البقرةَ، قال: فتَجَوَّزَ رَجُلٌ، فصَلَّى صَلاةً خَفيفَةً، فبَلَغَ ذلك مُعاذًا، فقال: إنَّهُ مُنافِقٌ، فبَلَغَ ذلك الرجُلَ، فأتَى النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّا قَومٌ نعملُ بأيدينا، ونَسقي بنَواضِحِنا، وإنَّ مُعاذًا صَلَّى بنا البارِحَةَ، فقَرَأَ البقرةَ، فتَجَوَّزتُ، فزَعَمَ أنِّي مُنافِقٌ! فقال النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا مُعاذُ، أفَتَّانٌ أنتَ؟!** -ثَلاثًا- **اقرَأ**: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١]، و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى: ١]، **ونَحوَها**»[٢].

ومعنى الفِتنَةِ -هاهُنا-: أنَّ التَّطويلَ يكونُ سببًا لخُروجِهِم مِنَ الصَّلاةِ، وللتَّكَرُّهِ للصَّلاةِ في الجَماعَةِ.

وروى البَيهَقيُّ في الشُّعَبِ[٣] بإسنادٍ صَحيحٍ عن عمرَ، قال: «أيهُّا الناسُ، لا تُبَغِّضوا اللهَ إلى عِبادِهِ، يكونُ أحَدُكُم إمامًا، فيُطَوِّلُ على القَومِ الصَّلاةَ، حتى يُبَغِّضَ إليهم ما هم فيه»[٤].

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وفي الحديثِ**: جَوازُ الاكتِفاءِ في التَّعزيرِ بالكلامِ، **وفيه**: الأمرُ بتَخفيفِ الصَّلاةِ، والتَّعزيرُ على إطالَتِها إذا لم يَرضَ المأمومونَ»[٥].

---

(١) فتح الباري (١/ ٨٧).

(٢) رواه البخاري (٦١٠٦)، ومسلم (٤٦٥).

(٣) شعب الإيمان (٧٧٨٨).

(٤) فتح الباري (٢/ ١٩٥).

(٥) شرح النووي على مسلم (٤/ ١٨٣).

* ومِن هَديِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التَّأديبِ: التَّأديبُ باللَّومِ والتَّوبيخِ:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأى رَجُلًا يَسوقُ بَدَنَةً مُقَلَّدَةً[١]، فقال: «**اركَبها**»، فقال: إنَّها بَدَنَةٌ، فقال: «**اركَبها**»، قال: إنَّها بَدَنَةٌ، قال: «**اركَبها، ويلَكَ!**» في الثالثَةِ، أو في الثانيَةِ[٢].

وفي رواية لُمسلِمٍ: «وَيلَكَ! اركَبها، ويلَكَ! اركَبها».

قولُهُ: «وَيلَكَ»: قال القرطبي: «قالها لَهُ؛ تَأديبًا، لأجلِ مُراجَعَتِهِ لَهُ، مع عَدَمِ خَفاءِ الحالِ عليه.

ويُحتَمَلُ أن يكونَ فهِمَ عَنهُ: أَنَّهُ يَترُكُ رُكوبَها، على عادَةِ الجاهِليَّةِ في السَّائِبَةِ، وغَيرِها، فزَجَرَهُ عن ذلك».

قال الحافظُ: «والذي يَظهَرُ: أَنَّهُ ما تَرَكَ الامتِثالَ عِنادًا، ويُحتَمَلُ أن يكونَ ظَنَّ أَنَّهُ يَلزَمُهُ غُرمٌ برُكوبِها، أو إثمٌ، وأنَّ الإذنَ الصَّادِرَ له برُكوبِها، إنما هو للشَّفَقَةِ عليه، فتوَقَّفَ، فلمَّا أغلَظَ إليه، بادَرَ إلى الامتِثال.

وفي الحديثِ: تكريرُ الفَتوَى، والنَّدبُ إلى المُبادَرَةِ إلى امتِثال الأمرِ، وزَجرُ مَن لم يُبادِر إلى ذلك، وتَوبيخُهُ»[٣].

* ومِن تَأديبِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باللَّومِ والتَّوبيخِ:

* لومُهُ أُسامةَ بنَ زَيدٍ، على أن شَفعَ في حَدٍّ مِن حُدودِ اللهِ:

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أنَّ قُرَيشًا أهَمَّهم شَأنُ المرأةِ المخزوميَّةِ التي سَرَقَت، فقالوا: ومَن

---

(١) زاد النسائي من حديث أنسٍ (٢٨٠١)، بسندٍ صحيح: «وقد جهده المشي»، والبدنة: هي التي تهدى إلى بيت الله عزَّ وجل من الإبل، سمِّيت بدنةً؛ لأنهم يستسمنونها، يقال: رجلٌ بادنٌ، وبدينٌ: إذا عظم جسمه. كشف المشكل (٣/ ٤٢٠).

(٢) رواه البخاري (١٦٨٩)، ومسلم (١٣٢٢).

(٣) الفتح (٣/ ٥٣٨).

يُكَلِّمُ فيها رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقالوا: ومَن يَجتَرِئُ عليه إلا أُسامَةُ بنُ زَيدٍ، حِبُّ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكَلَّمَهُ أُسامَةُ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أتَشفَعُ في حَدٍّ من حُدودِ اللهِ؟!**».

ثم قامَ فاختَطَبَ، ثم قال: «**إنما أهلَكَ الذينَ قبلَكُم: أنَّهم كانوا إذا سَرَقَ فيهمُ الشَّريفُ تَركوهُ، وإذا سَرَقَ فيهمُ الضَّعيفُ أقاموا عليه الحَدَّ، وايمُ اللهِ، لَو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمدٍ سَرَقَت، لَقَطَعتُ يَدَها**»[1].

وعندَ **النَّسائيِّ**: «**فَكَلَّمَهُ، فزَبَرَهُ**»[2]، أي: أغلَظَ له في النَّهي.

وفي رواية لِمُسلِمٍ: فكَلَّمَهُ فيها أُسامَةُ بنُ زَيدٍ، فتَلَوَّنَ وجهُ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**أتَشفَعُ في حَدٍّ من حُدودِ اللهِ؟**»، فقال له أُسامَةُ: استَغفِر لي يا رسولَ اللهِ.

قولُهُ: «**أتَشفَعُ في حَدٍّ من حُدودِ اللهِ؟**»:

بِهَمزَةِ الاستِفهامِ الإنكاريِّ؛ لأنَّهُ كان سَبَقَ له مَنعُ الشَّفاعَةِ في الحَدِّ قبل ذلك[3].

* لومُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُسامَةَ بنَ زَيدٍ، لَمَّا تَسَرَّعَ في قَتلِ الرّجلِ، بعدَ أن قال: «لا إلَهَ إلا اللهُ».

عن أُسامَةَ بنِ زَيدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: بَعَثَنا رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سَرِيَّةٍ، فأدرَكتُ رَجُلًا، فقال: «لا إلَهَ إلا اللهُ»، فطَعَنتُهُ، فوَقَعَ في نَفسي من ذلك، فذَكَرتُهُ للنَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أقال: لا إلَهَ إلا اللهُ، وقَتَلتَهُ؟**»، قال: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنما قالها خَوفًا مِنَ السِّلاحِ. قال: «**أفَلا شَقَقتَ عن قَلبِهِ، حتى تَعلَمَ أقالها، أم لا؟**».

فَما زالَ يُكَرِّرُها عَلَيَّ، حتى تَمَنَّيتُ أنِّي أسلَمتُ يومَئِذٍ[4].

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨).

(٢) سنن النسائي (٤٩٠٠)، وصححه الألباني.

(٣) الفتح (١٢/ ٩٤).

(٤) رواه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦).

وفي رواية:

قال له النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فكَيفَ تَصنَعُ بلا إلَهَ إلا اللهُ، إذا جاءَت يومَ القيامَةِ؟**»، قال: يا رسولَ اللهِ، استَغفِر لي، قال: «**وكَيفَ تَصنَعُ بلا إلَهَ إلا اللهُ، إذا جاءَت يومَ القيامَةِ؟**»، قال: فجَعَلَ لا يَزيدُهُ على أن يقولَ: «**كَيفَ تَصنَعُ بلا إلَهَ إلا اللهُ، إذا جاءَت يومَ القيامَةِ؟**»[١].

قال ابنُ التينِ رَحِمَهُ اللهُ: «في هذا اللَّومِ تَعليمٌ، وإبلاغٌ في الموعِظَةِ، حتى لا يُقدِمَ أحَدٌ على قَتلِ مَن تَلَفَّظَ بالتَّوحيدِ»[٢].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «في تَكريرِهِ ذلك، والإعراضِ عن قَبولِ العُذرِ: زَجرٌ شَديدٌ عن الإقدامِ على مِثلِ ذلك»[٣].

* التَّعزيرُ والتَّأديبُ، بمَنعِ مَن بَصَقَ في القِبلَةِ مِنَ الإمامَةِ:

فعن أبي سَهلَةَ السَّائِبِ بنِ خَلَّادٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رَجُلًا أمَّ قَومًا، فبَصَقَ في القِبلَةِ[٤]، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يُصَلِّي لَكُم**».

فَأرادَ بعدَ ذلك أن يُصَلِّيَ لَهم، فمَنَعوهُ، وأخبَروهُ بقولِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذَكَرَ ذلك لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**نَعَم، إنَّكَ آذَيتَ اللهَ ورسولَهُ**»[٥].

والمعنى: أنَّك فعَلتَ فِعلًا، لا يُرضي اللهَ ورسولَهُ، وفيه تَشديدٌ عَظيمٌ، كَقولِ اللهِ تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا**﴾ [الأحزاب: ٥٧][٦].

---

(١) رواه مسلم (٩٧).

(٢) فتح الباري (١٢/ ١٥٩).

(٣) المفهم (٢/ ٥٩)، فتح الباري (١٢/ ١٦٠).

(٤) أي: في جهتها.

(٥) رواه أبوداود (٤٨١)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود.

(٦) عون المعبود (٢/ ١٠٦).

* **ومِن هَديِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التَّأديبِ: التَّعزيرُ بعَدَمِ قَبولِ الهَديَّةِ:**

فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ أعرابيًّا أهدَى لرسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكرَةً[١]، فعَوَّضَهُ منها سِتَّ بَكَراتٍ، فتَسَخَّطَهُ[٢]، فبَلَغَ ذلك النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحَمِدَ اللهَ، وأثنَى عليه، ثم قال: «**إنَّ فُلانًا أهدَى إلَيَّ ناقَةً، فعَوَّضتُهُ منها سِتَّ بَكَراتٍ، فظَلَّ ساخِطًا، ولَقَد هَمَمتُ أن لا أقبَلَ هَديَّةً، إلا من قُرَشيٍّ، أو أنصاريٍّ، أو ثَقَفيٍّ، أو دَوسيٍّ**»[٣].

أي: إلا من قَومٍ، في طَبائِعِهِمُ الكرَمُ.

فكَرِهَ قَبولَ الهَديَّةِ مِمَّن كان الباعِثُ له عليها: طَلَبَ الاستِكثارِ، وإنما خَصَّ المذكورينَ فيه بهذه الفَضيلَةِ؛ لما عَرَفَ فيهم من سَخاوَةِ النَّفسِ، وعُلوِّ الهِمَّةِ، وقَطعِ النَّظَرِ عن الأعواضِ[٤].

* **ومِن هَديِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التَّأديبِ: التَّعزيرُ باستيفاءِ الحَقِّ، وعَدَمِ المُعامَلَةِ بالفَضلِ:**

فعن عبدِالله بنِ الزبيرِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ رَجُلًا مِنَ الأنصارِ، خاصَمَ الزبيرَ عندَ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شِراجِ الحَرَّةِ[٥]، كانا يَسقيانِ بِهِ كِلاهما، فاختَصَما عندَ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للزُّبَيرِ: «**اسقِ يا زُبَيرُ، ثم أرسِلِ الماءَ إلى جارِكَ**»، فغَضِبَ الأنصاريُّ، فقال: أن كان ابنَ عَمَّتِكَ[٦].

فتَلَوَّنَ وجهُ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال: «**اسقِ يا زُبَيرُ، ثم احبِسِ الماءَ، حتى يَبلُغَ الجَدرَ**[٧]**، ثم أرسِلِ الماءَ إلى جارِكَ**».

---

(١) البكر: الفتيُّ من الإبل بمنزلة الغلام من الناس، والأنثى بكرةٌ.
(٢) وإنما تسخَّط الأعرابيُّ؛ لأن طمعه في الجزاء كان أكثر.
(٣) رواه أبوداود (٣٥٣٧)، والترمذي (٣٩٤٥)، والنسائي (٣٧٥٩)، وصححه الألباني.
(٤) تحفة الأحوذي (١٠/ ٣٠٨).
(٥) أي: مسيل الماء، الذي في الحرَّة.
(٦) كأنه قال: حكمت له بالتَّقديم؛ لأجل أنه ابن عمَّتك، وكانت أمُّ الزبير صفيَّة بنت عبدالمطَّلب.
(٧) الجدر: هو ما وضع بين شربات النَّخل كالجدار، والشرَّبات: هي الحفر التي تحفر في أصول النَّخل، وقيل: المراد: الحواجز التي تحبس الماء.

فاستوعَى رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَئِذٍ حَقَّهُ للزُّبَيرِ(١)، وكان رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبلَ ذلك أشارَ على الزبيرِ برأيٍ، فيه سَعَةٌ لَهُ وللأنصاريِّ، فلمَّا أحفَظَ الأنصاريُّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢)، استوعَى للزُّبَيرِ حَقَّهُ في صَرِيحِ الحُكمِ.

قال الزبيرُ: واللهِ ما أحسِبُ هَذِهِ الآيةَ نَزَلَت إلا في ذلك: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا**﴾ [النساء: ٦٥] الآيةَ(٣).

قال ابنُ عبدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللهُ: «**وَمعنى هذا الحديثِ**: أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان قَد أشارَ على الزبيرِ بما فيه السَّعَةُ للأنصاريِّ، فلمَّا كان منه ما كان مِنَ الجَفاءِ، استوعَبَ للزُّبَيرِ حَقَّهُ في صَرِيحِ الحُكمِ»(٤).

*** ومِن ذلك: مواصلتُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصُّومَ ببَعضِ الصَّحابَةِ، كالمُنكِّلِ بهِم:**

وذلك حينَ نَهاهم عن الوِصال، فأبَوا أن يَنتَهوا عَنهُ.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: نَهَى رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الوِصال، فقال له رِجالٌ مِنَ المسلمينَ: فإنَّكَ يا رسولَ اللهِ تواصِلُ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَيُّكُم مِثلي؟! إنِّي أبيتُ، يُطعِمُني رَبِّي، ويَسقيني**».

فلمَّا أبَوا أن يَنتَهوا عن الوِصال، واصَلَ بهِم يومًا، ثم يومًا، ثم رَأَوُا الهِلالَ، فقال: «**لَو تأخَّرَ لَزِدتُكُم**»، كالمُنكِّلِ بهِم حينَ أبَوا(٥).

قال الحافِظُ ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «قال المُهَلَّبُ: فيه أنَّ التَّعزيرَ مَوكولٌ إلى رَأيِ الإمامِ؛ لقولِهِ: «**لَو امتَدَّ الشَّهرُ لَزِدتُ**»، فدَلَّ على أنَّ للإمامِ أن يَزيدَ في التَّعزيرِ ما يَراهُ.

---

(١) استوفى له الحقَّ.

(٢) أي: أغضبه.

(٣) رواه البخاري (٢٧٠٨)، ومسلم (٢٣٥٧).

(٤) التَّمهيد (١٧/ ٤٠٩).

(٥) رواه البخاري (٦٨٥١)، ومسلم (١١٠٣).

ويُستَفادُ منه: أنَّ المُرادَ مِنَ التَّعزيرِ: ما يَحصُلُ بهِ الردعُ.

ويُستَفادُ منه: جَوازُ التَّعزيرِ بالتَّجويعِ، ونَحوِهِ مِنَ الأُمورِ المعنَويَّةِ»[١].

* ومِن هَديِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التَّأديبِ: اللَّكزُ باليَدِ:

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: لَمَّا كانت لَيلَتي التي كان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها عندي، انقلَبَ فوَضَعَ رِداءَهُ، وخَلَعَ نَعليه، فوَضَعَهما عندَ رِجلَيهِ، وبَسَطَ طَرَفَ إزارِهِ على فِراشِهِ، فاضطَجَعَ، فلَم يَلبَث إلا رَيثَما ظَنَّ أن قَد رَقَدتُ، فأخَذَ رِداءَهُ روَيدًا، وانتَعَلَ روَيدًا، وفتَحَ البابَ فخرجَ، ثم أجافَهُ[٢] روَيدًا.

فَجَعَلتُ دِرعي في رَأسي، واختَمَرتُ، وتَقَنَّعتُ إزاري، ثم انطَلَقتُ على إثرِهِ، حتى جاءَ البَقيعَ، فقامَ، فأطالَ القيامَ، ثم رَفَعَ يَدَيهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثم انحَرَفَ فانحَرَفتُ، فأسرَعَ فأسرَعتُ، فهَروَلَ فهَروَلتُ، فأحضَرَ[٣] فأحضرَتُ، فسَبَقتُهُ، فدَخَلتُ، فليس إلا أنِ اضطَجَعتُ، فدَخَلَ، فقال: «**ما لَكِ يا عائِشُ، حَشيا رابيَةً؟**»[٤]، قُلتُ: لا شيءَ، قال: «**لَتُخبِرِيني، أو لَيُخبِرَنِّي اللَّطيفُ الخَبيرُ**»، قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، بأبي أنتَ وأُمِّي، فأخبَرتُهُ، قال: «**فَأنتِ السَّوادُ الذي رَأيتُ أمامي؟**»، قُلتُ: نعم، فلَهَدَني في صَدري لَهدَةً أوجَعَتني، ثم قال: «**أظَنَنتِ أن يَحيفَ اللهُ عليكِ ورسولُهُ؟**»... الحديث[٥].

قال السّنديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «**(فَلَهَدَني)**: مِنَ اللهدِ، وهو الدَّفعُ الشَّديدُ في الصَّدرِ، وهذا كان تَأديبًا لها من سوءِ الظَّنِّ»[٦].

---

(١) فتح الباري (١٢/ ١٧٩) باختصارٍ.
(٢) أي: أغلقه.
(٣) الإحضار: العدو.
(٤) أي: متهيِّجة النَّفس، مرتفعة البطن.
(٥) رواه مسلم (٩٧٤).
(٦) حاشية السِّنديِّ على سنن النسائي (٧/ ٧٤).

* حِرمانُ مَن تَطاوَلَ على الأميرِ مِنَ السَّلَبِ:

عن عَوفِ بنِ مالكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قَتَلَ رَجُلٌ من حِمْيَرَ رَجُلًا مِنَ العَدوِّ، فأرادَ سَلَبَهُ، فمَنَعَهُ خالدُ بنُ الوَليدِ -وكان واليًا عليهم- فأتَى رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَوفُ بنُ مالكٍ، فأخبَرَهُ، فقال لخالدٍ: «**ما مَنَعَكَ أن تُعطيَهُ سَلَبَهُ؟**»، قال: استكثَرتُهُ يا رسولَ اللهِ، قال: «**ادفَعهُ إليه**»، فمَرَّ خالدٌ بعَوفٍ، فجَرَّ بردائِهِ[١]، ثم قال: هَل أنجَزتُ لَكَ ما ذَكَرتُ لَكَ من رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟[٢]، فسَمِعَهُ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاستُغضِبَ، فقال: «**لا تُعطِهِ يا خالدُ، لا تُعطِهِ يا خالدُ، هَل أنتم تارِكونَ لي أُمَرائي؟ إنما مَثَلُكُم ومَثَلُهم: كَمَثَلِ رَجُلٍ استُرعيَ إبِلًا أو غَنَمًا، فرَعاها، ثم تَحَيَّنَ سَقيَها، فأورَدَها حَوضًا، فشَرَعَت فيه، فشَرِبَت صَفوَهُ، وتَرَكَت كَدرَهُ، فصَفوُهُ لَكُم، وكَدرُهُ عليهم**»[٣].

وفي الحديثِ: أنَّ للإمامِ مَنعَ القاتِلِ مِنَ السَّلَبِ، على حَسَبِ ما يَرَى، وبَوَّبَ أبوداود للحديثِ بقولِهِ: «بابٌ في الإمامِ يَمنَعُ القاتِلَ السَّلَبَ، إن رَأى»[٤].

وقال الخَطَّابيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما مَنَعَهُ أن يَرُدَّ على عَوفٍ سَلَبَهُ؛ زَجرًا لعَوفٍ؛ لئَلَّا يَتَجَرَّأَ الناسُ على الأئِمَّةِ، وخالدٌ كان مُجتَهِدًا، فأمضاهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، واليَسيرُ مِنَ الضَّرَرِ يُتَحَمَّلُ للكَثيرِ مِنَ النَّفعِ».

قال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا غَلَطٌ، وذلك لأنَّ السَّلَبَ لم يَكُن للَّذي تَجَرَّأ، وهو عَوفٌ، وإنما كان للمَدَديِّ، فلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزرَ أُخرَى، وغَضَبُ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لذلك، كان أشَدَّ على عَوفٍ من مَنعِ السَّلَبِ، وأزجَرَ له منه، **فالوَجهُ**: أنَّهُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أحَبَّ -أوَّلًا- أن يُمضيَ شَفاعَتَهُ للمَدَديِّ في التَّنفيلِ، فلمَّا غَضِبَ منه رَدَّ شَفاعَتَهُ، وذلك بمَنعِ السَّلَبِ، لا أنَّهُ لغَضَبِهِ وسياسَتِهِ يَزجُرُ بمَنعِ حَقِّ آخَرَ، لم يَقَع له جِنايَةٌ»[٥].

---

(١) أي: جذب عوفٌ رداء خالدٍ.

(٢) فإنه كان قد توعَّد خالدا، بالشَّكوى إلى رسول الله.

(٣) رواه مسلم (١٧٥٣).

(٤) سنن أبي داود (٣/ ٧١).

(٥) مرقاة المفاتيح (٦/ ٢٥٦٩).

وقال الشَّوكانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ: «لا تُعطِهِ يا خالدُ»: فيه دَليلٌ على أنَّ للإمامِ أن يُعطيَ السَّلَبَ غيرَ القاتِلِ؛ لأمرٍ يَعرِضُ فيه مَصلَحَةٌ، من تَأديبٍ، أو غيرِهِ.

قولُهُ: «هَل أنتم تارِكونَ لي أُمَرائي»: فيه الزَّجرُ عن مُعارَضَةِ الأُمَراءِ، ومُغاضَبَتِهِم، والشَّماتَةِ بِهِم؛ لما تَقَدَّمَ من الأدِلَّةِ الدَّالَّةِ على وُجوبِ طاعَتِهِم، في غَيرِ مَعصيَةِ اللهِ»[١].

* تَعزيرُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاعِنَةَ الناقَةِ، بإخلاءِ سَبيلِ الناقَةِ:

عن عِمرانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: بينما رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعضِ أسفارِهِ، وامرَأةٌ مِنَ الأنصارِ على ناقَةٍ، فضَجِرَت، فلَعَنَتها، فسَمِعَ ذلك رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «خُذوا ما عليها ودَعوها؛ فإنَّها مَلعونَةٌ»، قال عِمرانُ: فكَأنِّي أراها -الآنَ- تَمشي في الناسِ، ما يَعرِضُ لها أحَدٌ[٢].

وفي رواية: «لا تُصاحِبنا ناقَةٌ عليها لَعنَةٌ»[٣].

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما قال هَذا؛ زَجرًا لها ولِغَيرِها، وكان قَد سَبَقَ نَهيُها ونَهيُ غَيرِها عن اللَّعنِ، فعوقِبَت بإرسال الناقَة.

والمُرادُ: النَّهيُ عن مُصاحَبَتِهِ لِتِلكَ الناقَةِ في الطَّريقِ، وأمَّا بَيعُها، وذَبحُها، ورُكوبُها، في غَيرِ مُصاحَبَتِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وغَيرُ ذلك مِنَ التَّصَرُّفاتِ التي كانت جائِزَةً قبلَ هَذا: فهيَ باقيَةٌ على الجَوازِ؛ لأنَّ الشَّرعَ إنما ورَدَ بالنَّهيِ عن المُصاحَبَةِ، فبَقيَ الباقي كَما كان»[٤].

وفي الحديثِ: حُرمَةُ لَعنِ مَن لا يَستَحِقُّ اللَّعنَ.

قال ابنُ عُثَيمينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هَذا من بابِ التَّعزيرِ، تَعزيرِ هَذِهِ المرأةِ، أن تَلعَنَ دابَّةً لا تَستَحِقُّ اللَّعنَ؛ ولهذا قال: «لا تَصحَبنا دابَّةٌ مَلعونَةٌ»؛ لأنَّ هَذِهِ المرأةَ لَعَنَتها، والملعونُ لا يَنبَغي أن

(١) نيل الأوطار (٧/ ٣١٤).
(٢) رواه مسلم (٢٥٩٥).
(٣) رواه مسلم (٢٥٩٦) من حديث أبي برزة الأسلميِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ١٤٧).

يُستعمَلَ؛ فلِذلك نَهى النبيُّ ﷺ عنها، وترَكَها، فيكونُ هذا تَعزيرًا للمَرأةِ التي لَعَنَت هَذِهِ الدَّابَةَ، وهي لا تَستَحِقُّ»[1].

* التَّأديبُ بالتَّهديدِ:

قَد يَتقدَّمُ التَّهديدُ على العُقوبَةِ؛ دَفعًا للمفسَدَةِ بالأَخفِّ، واكتِفاءً بالأهوَنِ، إذا حَصَلَ بِهِ المقصودُ.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**والذي نَفسي بيَدِهِ لَقَد هَمَمتُ أن آمُرَ بحَطَبٍ فيُحطَبَ، ثم آمُرَ بالصَّلاةِ، فيُؤَذَّنَ لها، ثم آمُرَ رَجُلًا فيَؤُمَّ الناسَ، ثم أُخالفَ إلى رِجالٍ، فأُحَرِّقَ عليهم بُيوتَهم، والذي نَفسي بيَدِهِ، لَو يَعلَمُ أحَدُهم أنَّهُ يَجِدُ عَرقًا[2] سَمينًا، أو مِرماتَينِ[3] حَسَنَتَينِ، لَشَهِدَ العِشاءَ**»[4].

قال الحافِظُ ابنُ حجرٍ رحمه الله: «**وفي الحديثِ مِنَ الفَوائِدِ**: تَقديمُ الوَعيدِ والتَّهديدِ على العُقوبَةِ، وسِرُّهُ: أنَّ المفسَدَةَ إذا ارتَفَعَت بالأهوَنِ مِنَ الزَّجرِ، اكتُفِيَ بِهِ عن الأعلى مِنَ العُقوبَةِ»[5].

* التَّأديبُ بالإعراضِ:

عن عُروَةَ بنِ الزبيرِ، قال: كان الناسُ يَتَحَرَّونَ بهَداياهم يومَ عائشةَ، قالت عائشةُ: فاجتَمَعَ صَواحِبي إلى أُمِّ سَلَمَةَ، فقُلنَ: يا أُمَّ سَلَمَةَ، واللهِ إنَّ الناسَ يَتَحَرَّونَ بهَداياهم يومَ عائشةَ، وإنَّا نُريدُ الخَيرَ كَما تُريدُهُ عائشةُ، فمُري رسولَ اللهِ ﷺ أن يَأمُرَ الناسَ أن يُهدوا إليه حيث ما كان، أو حيث ما دارَ.

---

(١) شرح رياض الصالحين (٦/ ٢٠٢).

(٢) العرق: عظمٌ عليه لحمٌ.

(٣) المرماة: ما بين ظلفي الشَّاة من اللَّحم.

(٤) رواه البخاري (٦٤٤)، ومسلم (٦٥١).

(٥) الفتح (٢/ ١٣٠).

قالت: فذَكَرت ذلك أُمُّ سَلَمَةَ للنَّبيِّ ﷺ، قالت: فأعرَضَ عَنِّي، فلمَّا عادَ إلَيَّ ذَكَرتُ له ذاكَ، فأعرَضَ عَنِّي، فلمَّا كان في الثالثةِ ذَكَرتُ لَهُ، فقال: «**يا أُمَّ سَلَمَةَ، لا تُؤذيني في عائشةَ؛ فإنَّهُ -واللهِ- ما نَزَلَ عَلَيَّ الوَحيُ، وأنا في لحافِ امرَأةٍ مِنكُنَّ، غيرِها**»[١].

* ومِن هَديِهِ في التَّأديبِ: المُعاقَبَةُ بالمِثلِ:

عن عائشةَ قالت: لَدَدنا[٢] رسولَ اللهِ ﷺ في مَرَضِهِ، فجَعَلَ يُشيرُ إلَينا: «**أن لا تَلُدُّوني**»، فقُلنا: كَراهيَةَ المريضِ للدَّواءِ، فلمَّا أفاقَ، قال: «**أَلَمْ أنهَكُم أن تَلُدُّوني؟!**» قُلنا: كَراهيَةَ المريضِ للدَّواءِ، فقال: «**لا يَبقَى أحَدٌ في البَيتِ إلا لُدَّ وأنا أنظُرُ، إلا العبَّاسَ؛ فإنَّهُ لم يَشهَدكُم**»[٣].

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وَإنما فعَلَ بهِم ذلك؛ عُقوبَةً لَهم، لتَركِهِمُ امتِثالَ نَهيِهِ عن ذلك، أمَّا مَن باشَرَهُ: فظاهِرٌ، وأمَّا مَن لم يُباشِرهُ: فلِكَونِهِم تَرَكوا نَهيَهم عَمَّا نَهاهم هو عَنهُ.

والذي يَظهَرُ: أنَّهُ أرادَ بذلك تَأديبَهم؛ لئَلَّا يَعودوا، فكان ذلك تَأديبًا، لا قِصاصًا، ولا انتِقامًا.

وإنما أنكَرَ التَّداوي؛ لأنَّهُ كان غَيرَ مُلائِمٍ لدائِهِ؛ لأنَّهم ظَنُّوا أنَّ بِهِ ذاتَ الجَنبِ، فداوَوهُ بما يُلائِمُها، ولم يَكُن بِهِ ذلك»[٤].

وقال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «**وَفيه**: تَعزيرُ المُتَعَدِّي بنَحوٍ من فِعلِهِ الذي تَعَدَّى بهِ، إلا أن يكونَ فِعلًا مُحَرَّمًا»[٥].

---

(١) رواه البخاري (٣٧٧٥)، ومسلم (٢٤٤١).

(٢) اللَّدود: هو الدَّواء الذي يصبُّ في أحد جانبي فم المريض ويسقاه، أو يدخل هناك بأصبعٍ وغيرها، ويحنَّك به، فأمَّا ما يصبُّ في الحلق فيقال له: الوجور.

(٣) رواه البخاري (٤٤٥٨)، ومسلم (٢٢١٣).

(٤) فتح الباري (٨/ ١٤٧).

(٥) شرح مسلم (١٤/ ١٩٩).

* إحراقُ مَسجِدِ الضِّرارِ:

كان بالمدينَةِ -قبلَ مَقدَمِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَيها- رَجُلٌ مِنَ الخَزرَجِ، يُقال لَهُ: «أبو عامرٍ الراهِبُ»، وكان قد تَنَصَّرَ في الجاهِليَّةِ، وقَرَأ عِلمَ أهلِ الكِتابِ، وكان فيه عِبادَةٌ في الجاهِليَّةِ، ولَهُ شَرَفٌ في الخَزرَجِ كَبيرٌ.

فلمَّا قَدِمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُهاجِرًا إلى المدينَةِ، واجتَمَعَ المسلمونَ عليه، شَرِقَ أبو عامرٍ بريقِهِ، وبارَزَ بالعَداوَةِ، وظاهَرَ بها، وخرجَ فارًّا إلى كُفَّارِ مَكَّةَ من مُشرِكي قُرَيشٍ، فألَّبَهم على حَربِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولَمَّا رَأى أمرَ الرسولِ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُهُ عليه في ارتِفاعٍ وظُهورٍ، ذَهَبَ إلى هِرَقلَ، مِلِكِ الرُّومِ، يَستَنصِرُهُ على النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوَعَدَهُ، ومَنَّاهُ، وأقامَ عندَهُ.

وكَتَبَ إلى جَماعَةٍ من قَومِهِ مِنَ الأنصارِ، من أهلِ النِّفاقِ والريبِ -يَعِدُهم، ويُمَنِّيهم-: أنَّهُ سَيَقدُمُ بجَيشٍ، يُقاتِلُ بِهِ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويَغلِبُهُ، ويَرُدُّهُ عَمَّا هو فيه.

وأمَرَهم أن يَتَّخِذوا له مَعقِلًا، يَقدُمُ عليهم فيه مَن يَقدُمُ من عندِهِ؛ لأداءِ كُتُبِهِ، ويكونَ مَرصَدًا لهُ إذا قَدِمَ عليهم بعدَ ذلك.

فَشَرَعوا في بناءِ مَسجِدٍ مُجاوِرٍ لَمسجِدِ قُباءٍ، فبَنَوهُ، وأحكَموهُ، وفَرَغوا منه قبلَ خُروجِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى تَبوكَ.

وجاءوا فسَألوا رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يَأتيَ إليهم، فيُصَلِّيَ في مَسجِدِهِم؛ ليَحتَجُّوا بصَلاتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فيه، على تَقريرِهِ، وإثباتِهِ.

وذَكَروا أنَّهم إنما بَنَوهُ للضُّعَفاءِ منهم، وأهلِ العِلَّةِ، في اللَّيلَةِ الشَّاتيَةِ، فعَصَمَهُ اللهُ مِنَ الصَّلاةِ فيه، فقال: «**إنَّا على سَفَرٍ، ولكن إذا رَجَعنا إن شاءَ اللهُ**».

فَلَمَّا قَفَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، راجِعًا إلى المدينَةِ من تبوكَ، ولم يَبقَ بينهُ وبينها إلا يومٌ، أو بعضُ يومٍ،

نَزَلَ عليه الوَحيُ بخَبَرِ مَسجِدِ الضِّرارِ، وما اعتَمَدَهُ بانوهُ مِنَ الكُفرِ، والتَّفريقِ بين جَماعَةِ المؤمِنينَ،في مَسجِدِهِم، مَسجِدِ قُباء، الذي أُسِّسَ -مِن أوَّلِ يومٍ- على التَّقوى.

فَبَعَثَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ذلك المسجِدِ مَن هَدَمه، قبلَ مَقدَمِهِ المدينَةَ[١].

وعن طَلقِ بنِ حَبيبٍ، قال: سمعتُ جابرَ بنَ عبدِاللهِ الأنصاريَّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يقولُ: «رَأيتُ الدُّخانَ من مَسجِدِ الضِّرارِ، حينَ انهارَ»[٢].

وهذا من جِنسِ العُقوباتِ التّعزيريّةِ؛ ليعلَمَ الذينَ نافَقوا أنّ أمرَهم إلى خُسرٍ وزَوالٍ، وأنّ كَيدَهم في مَحقٍ وضَلالٍ، ولِيَنكَفَّ كُلُّ مَن تُسوِّلُ له نَفسُهُ، عن السّعيِ في الأرضِ بالفسادِ.

هَذا:

وإنَّ مَقامَ التّعزيرِ، مَقامُ تَربيَةٍ وتأديبٍ، أكثَر منه مَقام زَجرٍ وتأنيبٍ، ويتحَقّقُ بالعُقوباتِ الشّرعيَّةِ، من حُسنِ الرّعايَةِ، وتربيَةِ النُّفوسِ، أكثَرُ مِمَّا يَتَحقّقُ بها مِنَ التّخويفِ، والتّرهيبِ.

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢١٠- ٢١١).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٨٧٦٣)، وصححه، ووافقه الذهبي.

تَطَبُّبُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

مِنَ المواقِفِ والأحوال التي يُقتَدَى بالنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها: تَطَبُّبُه، وتَطبيبُهُ لغَيرِه.

يقولُ ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فكان من هَديِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فِعلُ التَّداوي في نَفسِهِ، والأمرُ بهِ لِمَن أصابَهُ مَرَضٌ من أهلِهِ وأصحابِهِ»[١].

فالنبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَطَبَّبَ، واستَعمَلَ الطِّبَّ والدَّواءَ، وطَبَّبَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيرَهُ بنَفسِهِ.

* ودَلَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأُمَّةَ على التَّطَبُّبِ والتَّداوي:

فعن أُسامَةَ بنِ شَريكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: كنتُ عندَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجاءَتِ الأعرابُ، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، أنَتَداوَى؟ فقال: «**نَعَم، يا عِبادَ اللهِ، تَداوَوا؛ فإنَّ اللهَ** عَزَّ وَجَلَّ **لم يَضَع داءً، إلا وضَعَ له شِفاءً، غَيرَ داءٍ واحِدٍ**»، قالوا: ما هوَ؟ قال: «**الهَرَمُ**»[٢].

قال ابنُ مُفلِحٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا من حِكمَةِ اللهِ، أنَّهُ سبحانه إذا ابتَلى أعانَ، فابتَلى بالدَّاءِ، وأعانَ بالدَّواءِ، وابتَلى بالذَّنبِ، وأعانَ بالتوبةِ، وابتَلى بالأرواحِ الخَبيثَةِ الشَّياطينِ، وأعانَ بالأرواحِ الطَّيِّبَةِ الملائكَةِ، وابتَلى بالمُحَرَّماتِ، وأعانَ بإباحَةِ نَظيرِها»[٣].

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٩).

(٢) رواه أبوداود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، وصححه، وابن ماجه (٣٤٣٦)، وصححه الألباني.

(٣) الآداب الشرعية (٢/ ٣٥١).

والدَّواءُ: يَشمَلُ الأدويَةَ الحِسِّيَّةَ، كالعَسَلِ، والحَبَّةِ السَّوداءِ، ونَحوِها، والأدويَةِ المعنَويَّةِ، كالرُّقى بالدُّعاءِ، والقُرآنِ.

والتَّداوي مشروعٌ من حيث الجُملَةُ، ولم يُخالف في جَوازِهِ، إلا بعضُ غُلاةِ الصُّوفيَّةِ، مِمَّن أنكَروا التَّداوي، ولا عِبرَةَ بقولِهِم؛ لُمخالَفَتِهِ السُّنَّةَ الصَّحيحَةَ.

قال شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنَّ الناسَ قَد تَنازَعوا في التَّداوي: هَل هو مُباحٌ، أو مُستَحَبٌّ، أو واجِبٌ؟

والتَّحقيقُ: أنَّ منه: ما هو مُحَرَّمٌ، ومنه: ما هو مَكروهٌ، ومنه: ما هو مُباحٌ، ومنه: ما هو مُستَحَبٌّ، وقد يكونُ منه: ما هو واجِبٌ، وهو ما يُعلَمُ أنَّهُ يَحصُلُ بِهِ بَقاءُ النَّفسِ، لا بغَيرِهِ»[١].

*** وبَشَّر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المرضَى، بوُجودِ الدَّواءِ، مَهما كان المَرَضُ مُستَعصيًا:**

فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لِكُلِّ داءٍ دَواءٌ، فإذا أُصيبَ دَواءُ الدَّاءِ، بَرَأَ بإذنِ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ»[٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وفي قولِهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لِكُلِّ داءٍ دَواءٌ**»: تَقويَةٌ لنَفسِ المريضِ، والطَّبيبِ، وحَثٌّ على طَلَبِ ذلك الدَّواءِ، والتَّفتيش عليه؛ فإنَّ المريضَ إذا استَشعَرَت نَفسُهُ أنَّ لدائِهِ دَواءً يُزيلُهُ؛ تَعَلَّقَ قَلبُهُ بروحِ الرّجاءِ، وبَرَدَت عندَهُ حَرارَةُ اليَأسِ، وانفَتَحَ له بابُ الرجاءِ، ومَتَى قَويَت نَفسُهُ؛ انبَعَثَت حَرارَتُهُ الغَريزيَّةُ، وكان ذلك سببًا لقوَّةِ الأرواحِ الحَيَوانيَّةِ، والنَّفسانيَّةِ، والطَّبيعيَّةِ، ومَتَى قَويَت هَذِهِ الأرواحُ، قَويَتِ القوَى التي هيَ حامِلَةٌ لها، فقَهَرَتِ المَرَضَ، ودَفَعَتهُ. وكَذلك الطَّبيبُ: إذا عَلِمَ أنَّ لهذا الدَّاءِ دَواءً، أمكَنَهُ طَلَبُهُ، والتَّفتيشُ عليه»[٣].

فإن قيل: إنَّهُ يوجَدُ كَثيرٌ مِنَ المرضَى يُداوَونَ، فلا يَبرَؤونَ، ويوجَدُ كَثيرٌ مِنَ الأمراضِ لا يُعلَمُ لها دَواءٌ حتى الآنَ.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٢).

(٢) رواه مسلم (٢٢٠٤).

(٣) زاد المعاد (٤/ ١٥).

فالجَوابُ: أنَّ السَّبَبَ في ذلك: جَهلُ الناسِ بالدَّواءِ، أو بطَريقَةِ استِعمالِهِ، وليس مَرجِعُهُ إلى عَدَمِ وُجودِ دَواءٍ؛ دَلَّ على ذلك قولُ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما أنزَلَ اللهُ داءً، إلا قَد أنزَلَ له شِفاءً، عَلِمَهُ مَن عَلِمَهُ، وجَهِلَهُ مَن جَهِلَهُ**»[1].

قال المازِريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نَبَّهَ بِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما قَد يُعارَضُ بِهِ قولُهُ: «**لِكُلِّ داءٍ دَواءٌ**»، وهو أنَّهُ يوجَدُ كَثيرٌ مِنَ المرضى يُداوَونَ فلا يَبرَؤونَ، فقال: إنما ذلك لفَقدِ العِلمِ بحَقيقَةِ المُداواةِ، لا لفَقدِ الدَّواءِ»[2].

*** وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَستَعينُ بالأحذَقِ مِنَ الأطِبَّاءِ:**

ففي موَطَّأِ الإمامِ مالكٍ، عن زَيدِ بنِ أسلَمَ، أنَّ رَجُلًا في زَمانِ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصابَهُ جُرحٌ، فاحتَقَنَ الجُرحُ الدَّمَ، وأنَّ الرجُلَ دَعا رَجُلَينِ من بَني أنمارٍ، فنَظَرا إليه، فزَعَما أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لَهما: «**أيُّكُما أطَبُّ؟**»، فقالا: أو في الطِّبِّ خَيرٌ يا رسولَ اللهِ؟ فزَعَمَ زَيدٌ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**أنزَلَ الدَّواءَ، الذي أنزَلَ الأدواءَ**»[3].

«**وفي هذا الحديثِ**: أنَّهُ يَنبَغي الاستعانَةُ في كُلِّ عِلمٍ وصِناعَةٍ بأحذَقِ مَن فيها، فالأحذَقِ، فإنَّهُ إلى الإصابَةِ أقرَبُ»[4].

وأمَّا جُهَّالُ الأطِبَّاء: فلا يُستَعانُ بِهِم.

قال ابنُ مُفلِحٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال ابنُ عَقيلٍ في الفُنونِ: «جُهَّالُ الأطِبَّاءِ هم الوَباءُ في العالِمِ، وتَسليمُ المرضَى إلى الطَّبيعَةِ، أحَبُّ إلَيَّ من تَسليمِهِم إلى جُهَّال الطِّبِّ».

وظاهِرُ كَلامِ الأصحابِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: أنَّهُ لا يَجوزُ أن يَستَطِبَّ مَن لا يُعرَفُ حِذقُهُ، وإذا لم تَحِلَّ له المُباشَرَةُ، لا يَحِلُّ تَمكينُهُ مِمَّا لا يَحِلُّ لَهُ»[5].

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣٥٧٨)، وصححه محققو المسند.

(٢) الدِّيباج على مسلم (٥/ ٢١٩).

(٣) موطَّأ مالك (١٤٨٢)، وهو حديث مرسلٌ.

(٤) زاد المعاد (٤/ ١٢١).

(٥) الآداب الشرعية (٣/ ٨٧).

تَطَبُّبُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنفسِهِ

* مِنْ تَطَبُّبِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: استِعمالُ فاطِمةَ ابنَتِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - حينَ جُرِحَ - ما يوقِفُ نَزيفَ الدَّمِ عَنه:

فعن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّهُ سُئِلَ عن جُرحِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ أُحُدٍ، فقال: «جُرِحَ وجهُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكُسِرَت رَباعيَتُهُ[١]، وهُشِمَتِ البَيضَةُ[٢] على رَأسِهِ، فكانت فاطمةُ بنتُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَغسِلُ الدَّمَ، وكان عليُّ بنُ أبي طالبٍ يَسكُبُ عليها بالمِجَنِّ[٣]، فلمَّا رَأت فاطمةُ أنَّ الماءَ لا يَزيدُ الدَّمَ إلا كَثرَةً؛ أخَذَت قِطعَةَ حَصيرٍ، فأحرَقَتهُ، حتى صارَ رَمادًا، ثم ألصَقَتهُ بالجُرحِ، فاستَمسَكَ الدَّمُ»[٤].

أي: أنَّها ظَلَّت تَغسِلُ الجُرحَ، وكُلَّما غَسَلَتهُ، زادَ نَزيفًا، فأتَت بِقِطعَةِ حَصيرٍ، ثم أحرَقَتها، حتى صارَت رَمادًا، فوَضَعَتها على الجُرحِ، فوَقَفَ الدَّمُ.

وقد أقَرّها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما فعَلَت.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فاستَمسَكَ الدَّمُ برَمادِ الحَصيرِ المعمولِ مِنَ البَرديِّ[٥]، ولَهُ فِعلٌ قَويٌّ في حَبسِ الدَّمِ؛ لأنَّ فيه تَجفيفًا قَويًّا، وقِلَّةَ لَذعٍ، فإنَّ الأدويَةَ القَويَّةَ التَّجفيفِ، إذا كان فيها لَذعٌ، هَيَّجَتِ الدَّمَ وجَلَبَتهُ، وهذا الرمادُ إذا نُفِخَ وحدَهُ، أو مع الخَلِّ، في أنفِ الراعِفِ، قُطِعَ رُعافُهُ»[٦].

* ومنه: استِعمالُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحِجامَةَ:

فعن حُمَيدٍ، قال: سُئِلَ أنسُ بنُ مالكٍ، عن كَسبِ الحَجَّامِ؟ فقال: احتَجَمَ رسولُ اللهِ

---

(١) السِّنُّ التي تلي الثَّنيَّة من كلِّ جانبٍ، وللإنسان أربع رباعياتٍ.

(٢) ما يلبس تحت المغفر على الرأس.

(٣) يصبُّ عليها بالترس.

(٤) رواه البخاري (٢٩١١)، ومسلم (١٧٩٠).

(٥) نباتٌ يعمل منه الحصر.

(٦) زاد المعاد (٤/ ٤٥).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَجَمَهُ أبو طَيبَةَ، فأمَرَ له بصاعَينِ من طعامٍ، وكَلَّمَ أهلَهُ، فوَضَعوا عنه من خَراجِهِ، وقال: «**إنَّ أفضَلَ ما تَداوَيتُم بِهِ الحِجامَةُ**»، أو: «**هوَ من أمثَلِ دَوائِكُم**»[١].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ احتَجَمَ وهو مُحرِمٌ، واحتَجَمَ وهو صائِمٌ»[٢].

*** وأحسَنُ الحِجامَةِ: ما كان في المواضِعِ التي احتَجَمَ فيها رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:**

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أنَّ النبيَّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **احتَجَمَ ثَلاثًا، في الأخدَعَينِ**[٣]**، والكاهِلِ**[٤]»[٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحِجامَةُ على الأخدَعَينِ تَنفَعُ من أمراضِ الرأسِ، وأجزائِهِ، كالوَجهِ، والأسنانِ، والأُذُنَينِ، والعَينَينِ، والأنفِ، والحَلقِ، إذا كان حُدوثُ ذلك عن كَثرَةِ الدَّمِ، أو فسادِهِ، أو عَنهما جَميعًا»[٦].

وعن جابِرِ بنِ عبدِاللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**أنَّ رسولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **احتَجَمَ على ورِكِهِ، من وثءٍ كان بِهِ**»[٧].

الوَرِكُ: ما فوقَ الفَخِذِ.

والوَثءُ: وجَعٌ يُصيبُ العُضوَ، من غَيرِ كَسرٍ، وثِئَتِ اليَدُ والرِّجلُ، أي: أصابَها وجَعٌ دونَ الكسرِ، فهيَ مَوثوءَةٌ.

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أنَّ رسولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **احتَجَمَ وهو مُحرِمٌ، على ظَهرِ القَدَمِ، من وجَعٍ كان بِهِ**»[٨].

---

(١) رواه البخاري (٥٦٩٦)، ومسلم (١٥٧٧).
(٢) رواه البخاري (١٩٣٨)، ومسلم (١٢٠٢).
(٣) الأخدعان: عرقان في جانبي العنق.
(٤) الكاهل: ما بين الكتفين.
(٥) رواه أبوداود (٣٨٦٠)، والترمذي (٢٠٥١)، وصححه الألباني.
(٦) زاد المعاد (٤/ ٥١).
(٧) رواه أبوداود (٣٨٦٣)، والنسائي (٢٨٤٨)، وابن ماجه (٣٤٨٥)، وصححه الألباني.
(٨) رواه أبوداود (١٨٣٧)، وصححه الألباني.

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «**احتَجَمَ النبيُّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **في رَأسِهِ وهو مُحرِمٌ، من وجَعٍ كان بهِ**»[١].

وعن ابنِ بُحَينَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**أنَّ النبيَّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **احتجَمَ بطَريقِ مَكَّةَ وهو مُحرِمٌ، وسَطَ رَأسِهِ**»[٢].

فهَذِهِ خَمسَةُ مَواضِعَ ثابِتَة في السُّنَّةِ: الرأسُ، والأخدَعانِ، والكاهِلُ، والوَرِكُ، وظَهرُ القَدَمِ.

ورَدَ في تَوقيتِ الحِجامَةِ أحاديثُ كَثيرَةٌ عن النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من قولِهِ، ومِن فِعلِهِ، وهي تَنقَسِمُ إلى قِسمَينِ:

- **القِسمُ الأولُ**: أحاديثُ تَنُصُّ على أيَّامِ الحِجامَةِ المُفَضَّلَةِ، وأنَّها أيَّامُ السَّابعَ عَشَرَ، والتَّاسِعَ عَشَرَ، والحادي والعِشرينَ، مِنَ الشَّهرِ القَمَريِّ، وأيَّامُ الاثنَينِ، والثُّلاثاءِ، والخَميسِ، من أيَّامِ الأُسبوعِ.

- **القِسمُ الثاني**: أحاديثُ تَنهَى عن الحِجامَةِ في أيَّامٍ مُعَيَّنَةٍ، من أيَّامِ الأُسبوعِ: وهي أيَّامُ السَّبتِ، والأحَدِ، والثُّلاثاءِ، والأربَعاءِ، والجُمُعَةِ.

وقد نَصَّ أكثَرُ الأئِمَّةِ على ضَعفِ أحاديثِ هَذَينِ القِسمَينِ كُلِّها، وأنَّهُ لم يَصِحَّ منها شيءٌ، عن النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

فَسُئِلَ الإمامُ مالكٌ عن الحِجامَةِ يومَ السَّبتِ، ويومَ الأربَعاءِ؛ فقال: «لا بَأسَ بذلك، وليس يومٌ إلا وقد احتَجَمتُ فيه، ولا أكرَهُ شَيئًا من هَذا»[٣].

وقال عبدُالرحمَنِ بنُ مَهديٍّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما صَحَّ عن النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها شيءٌ -يعني: في تَوقيتِها-، إلا أنَّهُ أمَرَ بها»[٤].

---

(١) رواه البخاري (٥٧٠٠).

(٢) رواه البخاري (١٨٣٦)، ومسلم (١٢٠٣).

(٣) المنتقى شرح الموطأ (٧/ ٢٢٥) نقله عن «العتبيَّة».

(٤) نقله ابن الجوزيِّ في الموضوعات (٣/ ٢١٥).

وقال البَرذَعيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «شَهِدتُّ أبا زَرعَةَ لا يُثبِتُ في كَراهَةِ الحِجامَةِ في يومٍ بعَينِهِ، ولا في استِحبابِهِ في يومٍ بعَينِهِ، حديثًا»[١].

وقال الحافِظُ ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «هَذِهِ الأحاديثُ لم يَصِحّ منها شيءٌ»[٢].

ولكن استَحَبَّ كَثيرٌ من أهلِ العِلمِ عَمَلَ الحِجامَةِ في أيَّامِ السَّابعَ عَشَرَ، والتَّاسِعَ عَشَرَ، والحادي والعِشرينَ، مِنَ الشَّهرِ القَمَريِّ؛ لوُرودِ ذلك عن الصَّحابَةِ رِضوانُ اللهُ عليهم.

قال أبو زُرعَة رَحِمَهُ اللهُ: «أجودُ شيءٍ فيه حديثُ أنسٍ: «كان أصحابُ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحتَجِمونَ لسبع عَشرَة، ولِتِسع عَشرةَ، وإحدَى وعِشرينَ»[٣]

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ -بَعدَ أن أورَدَ أحاديثَ الحِجامَةِ، في السَّابع عَشَرَ، والتَّاسِع عَشَرَ، والحادي والعِشرينَ-: «وهذه الأحاديثُ موافِقَةٌ لما أجمَعَ عليه الأطِبَّاءُ: أنَّ الحِجامَةَ في النِّصفِ الثاني، وما يَليهِ مِنَ الرُّبُعِ الثالثِ من أرباعِهِ، أنفَعُ من أوَّلِهِ وآخِرِهِ، وإذا استُعمِلَت عندَ الحاجَةِ إلَيها، نَفَعَت أيَّ وقتٍ كان، من أوَّلِ الشَّهرِ، وآخِرِهِ.

قال الخَلَّالُ: أخبَرَني عِصمَةُ بنُ عِصامٍ، قال: حَدَّثَنا حَنبَلُ، قال: كان أبو عبدِاللهِ أحمَدُ بنُ حَنبَلٍ يَحتَجِمُ أيَّ وقتٍ هاجَ بِهِ الدَّمُ، وأيَّ ساعَةٍ كانت»[٤].

* ومنه: تَطَبُّبُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ السِّحرِ:

فَقَد تَطَبَّبَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ السِّحرِ؛ كَما قالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا:

كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُحِرَ، حتى كان يَرَى أنَّهُ يأتي النِّساءَ، ولا يأتيهِنَّ، حتى إذا كان ذاتَ يومٍ، أو ذاتَ لَيلَةٍ، دَعا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم دَعا، ثم دَعا، ثم قال: «**يا عائشةُ،**

(١) سؤالات البرذعيِّ (٢/ ٧٥٧).
(٢) فتح الباري (١٠/ ١٥٠).
(٣) رواه الطَّبريُّ في تهذيب الآثار (٢٨٥٦) بإسنادٍ صحيح.
(٤) زاد المعاد (٤/ ٥٤).

أعَلِمتِ أنَّ اللهَ قَد أفتاني فيما استَفتَيتُهُ فيه؟ أتاني رَجُلانِ فقَعَدَ أحَدُهما عندَ رَأسي، والآخَرُ عندَ رِجلَيَّ[1]، فقال الذي عندَ رَأسي للآخَرِ: ما بالُ الرجُلِ؟ قال: مَطبوبٌ[2]، قال: ومَن طَبَّهُ؟ قال: لَبيدُ بنُ أعصَمَ، -رَجُلٌ من بَني زُرَيقٍ، حَليفٌ ليَهودَ، كان مُنافِقًا- **قال: وفيمَ؟ قال: في مُشطٍ ومُشاقَةٍ[3]، وجُفِّ طَلعَةٍ ذَكَرٍ[4]، قال: فأينَ هوَ؟ قال: في بئرِ ذي أروانَ[5]، تحتَ راعوفَةٍ[6]**».

فَأتاها رسولُ اللهِ ﷺ في أُناسٍ من أصحابِهِ حتى استَخرَجَهُ، ثم قال: «**يا عائشةُ، واللهِ لَكَأنَّ ماءَها نُقاعَةُ الحِنَّاءِ[7]، ولَكَأنَّ نَخلَها رُءوسُ الشَّياطينِ**»، فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أفَلا استَخرَجتَهُ؟ قال: «**لا، أمَّا أنا: فقَد عافاني اللهُ، وكَرِهتُ أن أُثيرَ على الناسِ شَرًّا، فأمَرتُ بها فدُفِنَت**»[8].

والاستِخراجُ المنفيُّ، غَيرُ الاستِخراجِ المُثبَتِ أوَّلًا، فالمُثبَتُ: هو استِخراجُ الجُفِّ، والمنفيُّ: استِخراجُهُ، وإظهارُهُ للنَّاسِ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقولُ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «هَلَّا استَخرَجتَهُ؟»: أي: هَلَّا أخرَجتَهُ للنَّاسِ؛ حتى يَرَوهُ ويُعايِنوهُ، فأخبَرَها بالمانِعِ له من ذلك، وهوَ: أنَّ المسلمينَ لم يكونوا لِيَسكُتوا عن ذلك، فيَقَع الإنكارُ، ويَغضب للسَّاحِرِ قَومُهُ، فيَحدُث الشَّرُّ، وقد حَصَلَ المقصودُ بالشِّفاءِ والمُعافاةِ، فأمَرَ بها فدُفِنَت، ولم يَستَخرِجها للنَّاسِ»[9].

---

(١) وهما جبريل وميكائيل، كما في بعض الرِّوايات.

(٢) مسحورٌ.

(٣) ما يسقط من الشَّعر.

(٤) الجفّ: هو وعاء طلع النَّخل، وهو الغشاء الذي يكون عليه، ويطلق على الذَّكر والأنثى، فلهذا قيَّده في الحديث بقوله: «طلعة ذكر»، وقيل: الجف: شيء ينقر من جذوع النَّخل.

(٥) بئرٌ بالمدينة، في بستان بني زريقٍ، وهو الذي بني فيه مسجد الضرِّار.

(٦) صخرةٌ تنزل في أسفل البئر إذا حفرت، يجلس عليها الذي ينظِّف البئر.

(٧) يعني: لونه أحمر.

(٨) رواه البخاري (٥٧٦٥)، ومسلم (٢١٨٩).

(٩) بدائع الفوائد (٢/ ٢٢٣).

فَأبلَغُ أنواعِ عِلاجِ السِّحرِ: «استِخراجُهُ، وإبطالُهُ، كَما صَحَّ عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنَّهُ سَألَ رَبَّهُ سبحانه في ذلك، فدُلَّ عليه، فاستَخرَجَهُ من بئرٍ، فكان في مُشطٍ ومُشاطَةٍ، وجُفِّ طَلعَةٍ ذَكَرٍ، فلَمَّا استَخرَجَهُ، ذَهَبَ ما بِهِ، حتى كَأنَّما أُنشِطَ من عِقال، فهذا من أبلَغِ ما يُعالَجُ بِهِ المطبوبُ، وهذا بِمَنزِلَةِ إزالَةِ المادَّةِ الخَبيثَةِ، وقَلعِها مِنَ الجَسَدِ، بالاستِفراغِ»[١].

* ومِن تَطَبُّبِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: العِلاجُ بالرُّقيَةِ:

فعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**أنَّ رسولَ اللهِ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كان إذا اشتكَى، نَفَثَ على نَفسِهِ بالمُعَوِّذاتِ، ومَسَحَ عنه بيَدِهِ**»، تقولُ: فلَمَّا اشتكَى وجَعَهُ الذي توُفِّيَ فيه، طَفِقتُ أنفِثُ على نَفسِهِ بالمُعَوِّذاتِ، التي كان يَنفِثُ، وأمسَحُ بيَدِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنهُ.

زادَ في رِوايَةٍ: رَجاءَ بَرَكَتِها[٢].

وفي رواية عَنها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: قالت: كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أوَى إلى فِراشِهِ، نَفَثَ في كَفَّيهِ بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] وبِالمُعَوِّذَتَينِ جَميعًا، ثم يَمسَحُ بِهِما وجهَهُ، وما بَلَغَت يَداهُ من جَسَدِهِ.

قالت عائشةُ: «فلَمَّا اشتكَى، كان يَأمُرُني أن أفعَلَ ذلك بِهِ»[٣].

* ورَقَى جبريلُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

فعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ جبريلَ أتَى النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**يا محمدُ، اشتكَيتَ؟**» فقال: «**نَعَم**»، قال: «**بِاسمِ اللهِ أرقيكَ، من كُلِّ شيءٍ يُؤذيكَ، من شَرِّ كُلِّ نفسٍ، أو عَينِ حاسِدٍ، اللهُ يَشفيكَ، باسمِ اللهِ أرقيكَ**»[٤].

---

(١) زاد المعاد (٤/ ١١٤).

(٢) رواه البخاري (٥٠١٦)، ومسلم (٢١٩٢).

(٣) رواه البخاري (٥٧٤٨).

(٤) رواه مسلم (٢١٨٦).

* ورَقى رسولُ اللهِ ﷺ أصحابَه، ودعا لهم:

فعن عائشةَ، قالت: كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا اشتكَى مِنَّا إنسانٌ، مَسَحَهُ بيَمينِهِ، ثم قال: «**أذهِبِ الباسَ، رَبَّ الناسِ، واشفِ أنتَ الشَّافي، لا شِفاءَ إلا شِفاؤُكَ، شِفاءً لا يُغادِرُ سَقَمًا**»(١).

وفي رواية لمُسلمٍ: كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا أتَى المريضَ يَدعو لَهُ، قال: «**أذهِبِ الباسَ، رَبَّ الناسِ، واشفِ أنتَ الشَّافي، لا شِفاءَ إلا شِفاؤُكَ، شِفاءً لا يُغادِرُ سَقَمًا**»

* ورَقى رسولُ اللهِ ﷺ مَن انصَبَّتِ المرَقةُ على يَدِهِ:

قال محمدُ بنُ حاطِبٍ رضي الله عنه: انصَبَّت على يَدي مَرَقَةٌ، فأحرَقَتها، فذَهَبَت بي أُمِّي إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فأتَيناهُ وهو في الرحبَةِ، فأحفَظُ أنَّهُ قال: «**أذهِبِ الباسَ، رَبَّ الناسِ**»، وأكثَرُ عِلمي أنَّهُ قال: «**أنتَ الشَّافي، لا شافيَ إلا أنتَ**»(٢).

* وكان ﷺ يَرقي الحَسَنَ والحُسَينَ رضي الله عنهما:

فَعنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: كان النبيُّ ﷺ يُعَوِّذُ الحَسَنَ والحُسَينَ، يقولُ: «**أُعيذُكُما بكَلِماتِ اللهِ التَّامَّةِ، من كُلِّ شَيطانٍ وهامَّةٍ، ومِن كُلِّ عَينٍ لامَّةٍ**».

ويقولُ: «**هَكَذا كان إبراهيمُ يُعَوِّذُ إسحاقَ وإسماعيلَ**»(٣).

«**بِكَلِماتِ اللهِ**»:

قيل: هيَ القُرآنُ، وقيل: أسماؤُهُ وصِفاتُهُ.

«**التَّامَّةِ**»:

---

(١) رواه البخاري (٥٧٥٠)، ومسلم (٢١٩١).

(٢) رواه ابن حبَّان (٢٩٧٦)، وصححه الألباني في التعليقات الحسان.

(٣) رواه البخاري (٣٣٧١)، والترمذي (٢٠٦٠)، واللفظ له.

إنما وصَفَ كَلامَ اللهِ بالتَّمامِ؛ لأنَّهُ لا يَجوزُ أن يكونَ في شيءٍ من كَلامِهِ نَقصٌ، أو عَيبٌ، كَما يكونُ في كَلامِ الناسِ.

وقيل: معنى التَّمامِ -هاهُنا-: أنَّها تَنفَعُ المُتَعَوِّذَ بها، وتَحفَظُهُ مِنَ الآفاتِ، وتَكفيه.

«**مِن كُلِّ شَيطانٍ**»:

يَدخُل تحتَهُ: شَياطينُ الإنسِ والجِنِّ.

والهامَّةُ: كُلُّ ذاتِ سُمٍّ يَقتُلُ، والجَمعُ: الهَوامُّ، فأمَّا ما يَسُمُّ ولا يَقتُلُ: فهو (السَّامَّةُ)، كالعَقرَبِ، والزُّنبورِ.

«**وَمِن كُلِّ عَينٍ لامَّة**»:

أي: من عَينٍ تُصيبُ بسوءٍ[١].

وقيل: «**المُرادُ بِهِ**: كُلُّ داءٍ وآفَةٍ تُلِمُّ بالإنسانِ، من جُنونٍ وخَبَلٍ»[٢].

* ومَسَحَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعضَ أعضاءِ جَسَدِ المريضِ، بيَدِهِ الشَّريفَةِ:

فعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: تَشَكَّيتُ بمَكَّةَ، شَكوًا شَديدًا، فجاءَني النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعودُني، فقُلتُ: يا نَبيَّ اللهِ، إنِّي أترُكُ مالًا، وإنِّي لم أترُك إلا ابنَةً واحِدَةً، فأوصي بثُلُثَي مالي، وأترُكُ الثُّلُثَ؟ فقال: «**لا**»، قُلتُ: فأوصي بالنِّصفِ، وأترُكُ النِّصفَ؟ قال: «**لا**»، قُلتُ: فأوصي بالثُّلُثِ، وأترُكُ لها الثُّلُثَينِ؟ قال: «**الثُّلُثُ، والثُّلُثُ كَثيرٌ**».

قال سَعدٌ: ثم وضَعَ يَدَهُ على جَبهَتي، ثم مَسَحَ يَدَهُ على وجهي، وبَطني، ثم قال: «**اللهمَّ اشفِ سَعدًا، وأتمِم له هِجرَتَهُ**»، فما زِلتُ أجِدُ بَردَهُ على كَبِدي -فيما يُخالُ إليَّ- حتى السَّاعَةِ[٣].

---

(١) تحفة الأحوذي (٦/ ١٨٤).

(٢) فتح الباري (٦/ ٤١٠).

(٣) رواه البخاري (٥٦٥٩)، ومسلم (١٦٢٨)، واللفظ للبخاري.

وعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان النبيُّ ﷺ **يُعَوِّذُ** بعضَهم، يَمسَحُهُ بيَمينِهِ: «**أذهِبِ الباسَ، رَبَّ الناسِ، واشفِ أنتَ الشَّافي، لا شِفاءَ إلا شِفاؤُكَ، شِفاءً لا يُغادِرُ سَقَمًا**»[١].

وبَوَّبَ **عليه البخاري**: «بابُ: مَسحِ الراقي الوَجَعَ بيَدِهِ اليُمنَى».

* وعالَجَ ﷺ الإغماءَ، بصَبِّ الماءِ:

فعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: لَمَّا ثَقُلَ رسولُ اللهِ ﷺ، واشتَدَّ وجَعُهُ، استَأذَنَ أزواجَهُ في أن يُمَرَّضَ في بَيتي، فأذِنَّ لَهُ، فخرجَ بين رَجُلَينِ، تَخُطُّ رِجلاهُ في الأرضِ.

قالت عائشةُ: فقال النبيُّ ﷺ -بَعدَ ما دَخَلَ بَيتَها، واشتَدَّ بِهِ وجَعُهُ-: «**هَريقوا عَلَيَّ من سَبعِ قِرَبٍ، لم تُحلَل أوكيَتُهُنَّ؛ لَعَلِّي أعهَدُ إلى الناسِ**»، قالت: فأجلَسناهُ في مِخضَبٍ لحَفصَةَ زَوجِ النبيِّ ﷺ، ثم طَفِقنا نَصُبُّ عليه من تِلكَ القِرَبِ، حتى جَعَلَ يُشيرُ إلَينا: «**أن قَد فعَلتُنَّ**»، قالت: وخرجَ إلى الناسِ، فصَلَّى لَهم، وخَطَبَهم[٢].

قال الحافِظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي رواية للطَّبَرانِيِّ[٣] في هذا الحديثِ: «**مِن آبارٍ شَتَّى**»، والظَّاهِرُ: أنَّ ذلك للتَّداوي؛ لقولِهِ في رِوايَةٍ أُخرَى في الصَّحيحِ[٤]: «**لَعَلِّي أستَرِيحُ فأعهَد**» أي: أوصي»[٥].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأمَّا خاصِّيَّةُ السَّبعِ: فإنَّها قَد وقَعَت قَدَرًا، وشَرعًا، فخَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّماواتِ سَبعًا، والأرَضينَ سَبعًا، والأيَّامَ سَبعًا، وشَرَعَ اللهُ سبحانه لعِبادِهِ الطَّوافَ سَبعًا، والسَّعيَ بين الصَّفا والمروَةِ سَبعًا، ورَميَ الجِمارِ سَبعًا، سَبعًا... فلا رَيبَ أنَّ لهذا العَدَدِ خاصِّيَّةً ليست لغَيرِهِ»[٦]

---

(١) رواه البخاري (٥٧٥٠)، ومسلم (٢١٩١).

(٢) رواه البخاري (٥٧١٤).

(٣) في الأوسط (٥٥٢٨).

(٤) بل هي في مسند أحمد (٢٥١٧٩)، والذي في الصحيح: «لعليِّ أعهد إلى الناس».

(٥) فتح الباري (١/ ٣٠٣).

(٦) زاد المعاد (٤/ ٩٠) باختصارٍ.

* وسَكَّنَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصُّداعَ، بعَصبِ الرأسِ:

فَعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: صَعِدَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المِنبَرَ، وكان آخِرَ مجلِسٍ جلَسَهُ، مُتَعَطِّفًا مِلحَفَةً على مَنكِبَيهِ، قد عَصَبَ رَأسَهُ بعِصابَةٍ دَسِمَةٍ[1]، فحَمِدَ اللهَ، وأثنَى عليه، ثم قال: «**أيُّها الناسُ! إليَّ**»، فثابوا إليه، ثم قال: «**أمَّا بعدُ: فإنَّ هذا الحَيَّ مِنَ الأنصارِ يَقِلُّونَ، ويَكثُرُ الناسُ، فمَن ولِيَ شَيئًا من أُمَّةِ محمدٍ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فاستَطاعَ أن يَضُرَّ فيه أحَدًا، أو يَنفَعَ فيه أحَدًا، فليَقبل من مُحسِنِهم، ويَتَجاوَز عن مُسيئِهم**»[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «سببُ صُداعِ الشَّقيقَةِ[3]: مادَّةٌ في شرَايينِ الرأسِ وحدَها، حاصِلَةٌ فيها، أو مُرتَقيَةٌ إلَيها، فيَقبَلُها الجانِبُ الأضعَفُ من جانِبَيهِ، وتِلكَ المادَّةُ: إمَّا بُخاريَّةٌ، وإمَّا أخلاطٌ حارَّةٌ، أو بارِدَةٌ، وعَلامَتُها الخاصَّةُ بها: ضَرَبان الشَّرايينِ، وخاصَّةً في الدَّمَويِّ، وإذا ضُبِطَت بالعَصائِبِ، ومُنِعَت مِنَ الضَّربانِ؛ سَكَنَ الوَجَعُ.

وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعصِبُ رَأسَهُ في مَرَضِهِ، وعَصبُ الرأسِ يَنفَعُ في وجَعِ الشَّقيقَةِ، وغَيرِها من أوجاعِ الرأس»[4].

* وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتَداوَى بالسَّعوطِ:

فَعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنَّهُ احتَجَمَ، وأعطَى الحَجَّامَ أجرَهُ، واستَعَطَ**»[5].

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «**قولُهُ**: «**واستَعَطَ**»، أي: استَعمَلَ السَّعوطَ، وهو أن يَستَلقيَ على ظَهرِهِ، ويَجعَلَ بين كَتِفيه ما يَرفَعُهما؛ ليَنحَدِرَ رَأسُهُ، ويُقطَرَ في أنفِهِ ماءٌ أو دُهنٌ، فيه دَواءٌ؛ ليَتَمَكَّنَ بذلك مِنَ الوُصولِ إلى دِماغِهِ؛ لاستِخراجِ ما فيه مِنَ الدَّاءِ بالعُطاسِ»[6].

---

(١) متغيِّرة اللَّون إلى السَّواد.

(٢) رواه البخاري (٩٢٧).

(٣) هو: الصُّداع النِّصفيُّ.

(٤) زاد المعاد (٤/ ٨٠) باختصارٍ.

(٥) رواه البخاري (٥٦٩١)، ومسلم (١٢٠٢).

(٦) فتح الباري (١٠/ ١٤٧).

❊ **ودَلَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على خَيرِ ما يُستَعَطُ بِهِ، وهو العودُ الهِنديُّ، والقُسطُ البَحريُّ:**

فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عليكم بهذا العودِ الهِنديِّ؛ فإنَّ فيه سَبعَةَ أشفيَةٍ: يُستَعَطُ بِهِ مِنَ العُذرَةِ، ويُلَدُّ بِهِ من ذاتِ الجَنبِ**»(١).

العُذرَةُ: وجَعٌ في الحَلقِ، يَهيجُ مِنَ الدَّمِ، مِثل التِهابِ اللُّوزِ، أوِ اللهاةِ، أوِ البُلعومِ.

وذاتُ الجَنبِ: كُلُّ ألَمٍ ووَجَعٍ في جَنبِ الإنسانِ، يُسَمَّى ذاتَ الجَنبِ، وقيل المُرادُ بِهِ: وجَعُ الكليَتَينِ، وقيل: مَرَضُ السِّلِّ.

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كَذا وقَعَ الاقتِصارُ في الحديثِ مِنَ السَّبعَةِ على اثنَينِ، فإمَّا أن يكونَ ذَكَرَ السَّبعَةَ، فاختَصَرَهُ الراوي، أوِ اقتَصَرَ على الاثنَينِ؛ لوُجودِهِما -حينَئِذٍ- دونَ غَيرِهِما»(٢).

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ أمثَلَ ما تَداوَيتُم بِهِ: الحِجامَةُ، والقُسطُ البَحريُّ**»(٣).

والعودُ الهِنديُّ: هو القُسطُ البَحريُّ، وهو نَباتٌ يَعيشُ في الهِندِ، وخاصَّةً في كَشميرَ، وفي الصِّينِ، وتُستَعمَلُ قُشورُ جُذورِهِ، التي قَد تكونُ بَيضاءَ أو سَوداءَ، وكان التُّجَّارُ العَرَبُ يَجلِبونَها إلى الجَزيرَةِ العَرَبيَّةِ عن طَريقِ البَحرِ؛ لذا سُمِّيَتِ القُسطَ البَحريَّ، كَما كان يُسَمَّى: بالقُسطِ الهِنديِّ، وهو غَيرُ العودِ الهِنديِّ الذي يُتَّخَذُ في البخورِ، ولَهُ نَفسُ الاسمِ، مع أنَّهما نَباتانِ مُختَلِفانِ(٤).

وكانوا قَديمًا يُعالِجونَ التِهاباتِ الحَلقِ، بغَمزِ الحَلقِ بالأصابعِ، أو بالخِرقَةِ، ونَحوِها، فيَطعَنونَ بها الموضِعَ، فيَتَفَجَّرُ منه دَمٌ أسوَدُ، ورُبَّما سَبَّبَ قرحَةً، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تُعَذِّبوا صِبيانَكُم بالغَمزِ مِنَ العُذرَةِ، وعليكم بالقُسطِ**»(٥).

---

(١) رواه البخاري (٥٦٩٢)، ومسلم (٢٢١٤).

(٢) فتح الباري (١٠/ ١٤٨).

(٣) رواه البخاري (٥٦٩٦)، ومسلم (١٥٧٧).

(٤) من كلام الدُّكتور محمد نزار الدقر، في موقع الإعجاز العلميِّ للقرآن والسُّنَّة.

(٥) رواه البخاري (٥٦٩٦)، ومسلم (١٥٧٧).

فَنَهاهمُ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذا الفِعلِ الخَطَأِ، وأرشَدَهم إلى العِلاجِ الصَّحيحِ، وهو استِعمالُ القُسطِ الهِنديِّ.

وقد ذَكَرَ الأطِبَّاءُ مَنافِعَ كَثيرَةً لهذا القُسطِ، ويُستَعمَلُ حديثًا في أورُبَّا لِعلاجِ أمراضِ الكبِدِ، وبعضِ الأمراضِ التَّناسُليَّةِ، وعِلاجِ الدَّمامِلِ، والإمساكِ المُزمِنِ، والربوِ، والتِهابِ القَصَباتِ الهَوائيَّةِ، وسَرَطانِ الفَمِ، والجُذامِ، والتِهابِ العَينِ، وغَيرِ ذلك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَأَمَّا نَفعُ السَّعوطِ منها بالقُسطِ المحكوكِ؛ فلأنَّ العُذرَةَ مادَّتُها دَمٌ يَغلِبُ عليه البلغَمُ، لكنَّ تَوَلُّدَهُ في أبدانِ الصِّبيانِ أكثَرُ، وفي القُسطِ تَجفيفٌ يَشُدُّ اللهاةَ، ويَرفَعُها إلى مَكانِها، وقد يكونُ نَفعُهُ في هذا الدَّاءِ بالخاصِّيَّةِ، وقد يَنفَعُ في الأدواءِ الحارَّةِ، والأدويَةِ الحارَّة، بالذَّاتِ تارَةً، وبِالعَرَضِ أُخرَى.

والقُسطُ البَحريُّ المذكورُ في الحديثِ: هو العودُ الهِنديُّ، وهو الأبيَضُ منه، وهو حُلوٌ، وفيه مَنافِعُ عَديدَةٌ، وكانوا يُعالِجونَ أولادَهم بغَمزِ اللهاةِ، وبِالعِلاقِ، وهو شيءٌ يُعَلِّقونَهُ على الصِّبيانِ، فنَهاهمُ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك، وأرشَدَهم إلى ما هو أنفَعُ للأطفال، وأسهَلُ عليهم»[(١)].

* وعالَجَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القَرحَةَ، بالحِنَّاءِ:

فعن سَلمَى أُمِّ رافِعٍ، مَولاةِ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالت: «**كان لا يُصيبُ النبيَّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَرحَةٌ، ولا شَوكَةٌ، إلا وضَعَ عليه الحِنَّاءَ**»[(٢)].

«لأَنَّهُ -بِبُرودَتِهِ- يُخَفِّفُ حَرارَةَ الجِراحَةِ، وألَمَ الدَّمِ»[(٣)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحِنَّاءُ من مَنافِعِهِ: أَنَّهُ مُحَلِّلٌ نافِعٌ من حَرقِ النارِ، وفيه قوَّةٌ موافِقَةٌ

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٨٧-٨٨).

(٢) رواه الترمذي (٢٠٥٤)، وابن ماجه (٣٥٠٢)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

قرحَةٌ: بفتح القاف، ويضمُّ، وهي: جراحةٌ من سكِّينٍ وسيفٍ ونحوه.

(٣) تحفة الأحوذي (٦/ ١٧٨).

للعَصَبِ، إذا ضُمِّدَ بِهِ، والضِّمادُ بِهِ يَنفَعُ مِنَ الأورامِ الحارَّةِ المُلهِبَةِ، ومِن خَواصِّهِ: أنَّهُ إذا بَدَأ الجُدَريُّ يَخرُجُ بصَبيٍّ، فخُضِبَت أسافِلُ رِجلَيهِ بحِنَّاء، فإنَّهُ يُؤمَنُ على عَينَيهِ أن يَخرُجَ فيها شيءٌ منه، وهذا صَحيحٌ مُجَرَّبٌ، لا شَكَّ فيه»[1].

* **ومنه: حِفظُهُ ﷺ صِحَّةَ العَينِ بالاكتِحال:**

فعن عِمرانَ بنِ أبي أنسٍ، قال: «**كان رسولُ اللهِ ﷺ يَكتَحِلُ بالإثمِدِ، ويَكحَلُ في عينِهِ اليُمنَى ثَلاثَ مَرَّاتٍ، واليُسرَى مَرَّتَينِ**»[2].

وقال ﷺ: «**عليكم بالإثمِدِ؛ فإنَّهُ يَجلو البَصَرَ، ويُنبِتُ الشَّعَرَ**»[3].

والإثمِدُ: نَوعٌ من أنواعِ الكُحلِ، وهو أجوَدُها، ويوجَدُ في الحِجازِ، والمغرِبِ، وأصبَهانَ، وغَيرِها مِنَ الدُّوَلِ، وهو في الأصلِ: حجرٌ أسوَدُ، يَميلُ إلى الحُمرَةِ، يُدَقُّ ويُصنَعُ منه كُحلٌ للعَينَينِ.

قال المُبارَكفوريُّ رَحِمَهُ اللهُ: «يكونُ في بلادِ الحِجازِ، وأجوَدُهُ يُؤتَى بِهِ من أصبَهانَ»[4].

ومعنى: «**يَجلو البَصَرَ**»: **أي**: يُحَسِّنُ النَّظَرَ، ويَزيدُ نورَ العَينِ.

«**وَيُنبِتُ الشَّعرَ**»: **المُرادُ بالشَّعرِ -هُنا-**: الهُدبُ، وهو الذي يَنبُتُ على أشفارِ العَينِ.

* **وعالَجَ ﷺ الحُمَّى، بصَبِّ الماءِ على الرأسِ:**

فَعنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُما، عن النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ شِدَّةَ الحُمَّى من فيحِ جَهَنَّمَ[5]؛ فأبرِدوها بالماءِ**»[6].

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٨٢).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنَّفه (٢٣٤٨٧)، وابن سعدٍ في الطبقات (١/ ٣٧٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (٦٣٣).

(٣) رواه ابن ماجه (٣٤٩٥)، وصححه الألباني.

(٤) تحفة الأحوذي (٥/ ٣٦٥).

(٥) الفيح: سطوع الحر، وفورانه.

(٦) رواه البخاري (٣٢٦٤)، ومسلم (٢٢٠٩).

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «والحُمَّى أنواعٌ ... واختُلِفَ في نِسبَتِها إلى جَهَنَّمَ، فقيل: حَقيقَةً، واللهَبُ الحاصِلُ في جِسمِ المحمومِ، قِطعَةٌ من جَهَنَّمَ، وقَدَّرَ اللهُ ظُهورَها بأسبابٍ تَقتَضيها؛ ليَعتَبِرَ العِبادُ بذلك.

وقيل: بَلِ الخَبَرُ ورَدَ مَورِدَ التَّشبيهِ، والمعنى: أنَّ حَرَّ الحُمَّى، شَبيهٌ بَحَرِّ جَهَنَّمَ؛ تَنبيهًا للنُّفوسِ على شِدَّةِ حَرِّ النارِ، وأنَّ هَذِهِ الحَرارَةَ الشَّديدَةَ، شَبيهَةٌ بفيحِها، وهو ما يُصيبُ مَن قَرُبَ منها من حَرِّها، كَما قيل بذلك في حديثِ الإبرادِ، والأولُ أولى، واللهُ أعلَمُ»[1].

*** وأمَرَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا اشتَدَّت عليه الحُمَّى في مَرَضِ مَوتِهِ، بصَبِّ الماءِ عليه، وقد تَقدّمَ الحديثُ في ذلك.**

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «لَمَّا كانتِ الحُمَّى يَتبَعُها حِميَةٌ عن الأغذيَةِ الرديئَةِ، وتَناوُلُ الأغذيَةِ والأدويَةِ النافِعَةِ، وفي ذلك إعانَةٌ على تَنقيَةِ البَدَنِ، ونَفيِ أخباثِهِ، وفُضولِهِ، وتَصفيَتِهِ من مَوادِّهِ الرديئَةِ، وتَفعَلُ فيه كَما تفعَلُ النارُ في الحَديدِ، في نَفيِ خَبَثِهِ، وتَصفيَةِ جوهَرِهِ؛ كانت أشبَهَ الأشياءِ بنارِ الكيرِ، التي تُصَفِّي جَوهَرَ الحَديدِ، وهذا القَدرُ هو المعلومُ عندَ أطِبَّاءِ الأبدانِ»[2].

وقد ثَبَتَ في الطِّبِّ الحديثِ: أنَّ هذا العِلاجَ النبويَّ، من أنفَعِ العِلاجاتِ للحُمَّى؛ «فَكَثيرٌ مِنَ الحالاتِ تَرتَفِعُ فيها حَرارَةُ المريضِ، ولا تَتَأَثَّرُ بالأدويَةِ الخافِضَةِ للحَرارَةِ، فيَلجَأُ الأطِبَّاءُ إلى استِعمالِ الماءِ البارِدِ؛ لتَخفيضِها، وإعادَتِها إلى وضعِها الطَّبيعيِّ؛ ولهذا يَنصَحُ أطِبَّاءُ الأطفالِ الأهلَ بتَجريدِ الطِّفلِ من ثيابِهِ فورًا عندَ ارتفاعِ حَرارَتِهِ، وتَعريضِهِ للماءِ البارِدِ، والكَمَّاداتِ»[3].

---

(١) فتح الباري (١٠/ ١٧٥)، باختصارٍ.

(٢) زاد المعاد (٤/ ٢٨).

(3) http://articles.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=33775.

* وعالَجَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الجَريحَ بالكيِّ:

والعِلاجُ بالكيِّ: من أنفَعِ العِلاجاتِ، فعن جابِرِ بنِ عبدِالله رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، قال: «رُميَ سَعدُ ابنُ مُعاذٍ في أكحَلِه، قال: فحَسَمَهُ النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بيَدِهِ بمِشقَصٍ(١)، ثم ورِمَت، فحَسَمَهُ الثانيَةَ»(٢).

وعَنهُ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: «رُميَ أُبَيٌّ يومَ الأحزابِ على أكحَلِهِ، فكَواهُ رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ»(٣).

وفي رواية:

«بعَثَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إلى أُبَيِّ بنِ كَعبٍ طَبيبًا، فقَطَعَ منه عِرقًا، ثم كَواهُ عليه»(٤).

لكن يَنبَغي أن يكونَ العِلاجُ بالكَيِّ آخِرَ العِلاجِ؛ لما فيه من شِدَّةِ إيلامِ المريضِ.

فعنِ ابنِ عبَّاسٍ، عن النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**الشِّفاءُ في ثَلاثَةٍ: في شَرطَةِ مِحجَمٍ، أو شَربَةِ عَسَلٍ، أو كَيَّةٍ بنارٍ، وأنا أنهَى أُمَّتي عن الكيِّ**»(٥).

وعن جابِرِ بنِ عبدِالله رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، قال: سمعتُ النبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقولُ: «**إن كان في شيءٍ من أدويَتِكُم خَيرٌ، ففي شَرطَةِ مِحجَمٍ، أو شَربَةِ عَسَلٍ، أو لَذعَةٍ بنارٍ توافِقُ الدَّاءَ، وما أُحِبُّ أن أكتَويَ**»(٦).

قال النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: «ذَكَرَ الكيَّ؛ لأنَّهُ يُستَعمَلُ عندَ عَدَمِ نَفعِ الأدويَةِ المشروبَةِ ونَحوِها، فآخِرُ الطِّبِّ: الكيُّ.

وقولُهُ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**ما أُحِبُّ أن أكتَويَ**»:

---

(١) نصل السَّهم إذا كان طويلاً، غير عريضٍ.

(٢) رواه مسلم (٢٢٠٨).

(٣) رواه مسلم (٢٢٠٧).

(٤) رواه مسلم (٢٢٠٧).

(٥) رواه البخاري (٥٦٨١).

(٦) رواه البخاري (٥٦٨٣)، ومسلم (٢٢٠٥).

إشارَةٌ إلى تَأخيرِ العِلاجِ بالكيِّ، حتى يُضطَرَّ إليه؛ لما فيه مِن استِعمال الألَمِ الشَّديدِ في دَفعِ ألَمٍ، قَد يكونُ أضعَفَ من ألَمِ الكيِّ»(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وَأمَّا الكيُّ**: فلأنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنَ الأمراضِ المادِّيَّةِ: إمَّا أن يكونَ حادًّا، فيكونَ سَريعَ الإفضاءِ لأحَدِ الطَّرَفينِ، فلا يُحتاجُ إليه فيه.

وإمَّا أن يكونَ مُزمِنًا، وأفضَلُ عِلاجِهِ بعدَ الاستِفراغِ: الكيُّ في الأعضاءِ التي يَجوزُ فيها الكيُّ؛ لأنَّهُ لا يكونُ مُزمِنًا إلا عن مادَّةٍ بارِدَةٍ غَليظَةٍ، قَد رَسَخَت في العُضوِ، وأفسَدَت مِزاجَهُ، وأحالَت جَميعَ ما يَصِلُ إليه إلى مُشابَهَةِ جوهَرِها، فيَشتَعِلُ في ذلك العُضوِ، فيُستَخرَجُ بالكَيِّ تلكَ المادَّةُ من ذلك المكانِ الذي هو فيه، بإفناءِ الجُزءِ الناريِّ الموجودِ بالكيِّ، لتِلكَ المادَّةِ»(٢).

ومِمَّا يَدُلُّ على كَراهَةِ الكيِّ: حديثُ عِمرانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «قَد كان يُسَلَّمُ عَلَيَّ، حتى اكتَوَيتُ، فتُرِكتُ، ثم تَرَكتُ الكيَّ فعادَ»(٣).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «معنى الحديثِ: أنَّ عِمرانَ بنَ الحُصَينِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كانت بهِ بَواسيرُ، فكان يَصبِرُ على المُهِمَّاتِ، وكانتِ الملائِكَةُ تُسَلِّمُ عليه، فاكتَوَى، فانقَطَعَ سَلامُهم عليه، ثم تَرَكَ الكيَّ، فعادَ سَلامُهم عليه»(٤).

وحديثُ ابنِ عبَّاسٍ في صِفاتِ السَّبعينَ ألفًا، الذينَ يَدخُلونَ الجَنَّةَ بلا حِسابٍ ولا عَذابٍ، وذَكَرَ منها: «**وَلا يَكتَوونَ**»(٥).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَقَد تَضَمَّنَت أحاديثُ الكَيِّ أربَعَةَ أنواعٍ:

أحَدُها: فِعلُهُ.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/ ١٩٣).

(٢) زاد المعاد (٤/ ٤٧).

(٣) رواه مسلم (١٢٢٦).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (٨/ ٢٠٦).

(٥) رواه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠).

والثاني: عَدَمُ محبَّتِهِ لَهُ.

والثالثُ: الثَّناءُ على مَن تَرَكَهُ.

والرابعُ: النَّهيُ عَنهُ.

ولا تَعارُضَ بينها بحَمدِ اللهِ تعالى؛ فإنَّ فِعلَهُ يَدُلُّ على جوازِهِ، وعَدَمُ محبَّتِهِ لهُ لا يَدُلُّ على المنعِ منه، وأمَّا الثَّناءُ على تارِكِهِ: فيَدُلُّ على أنَّ تَركَهُ أولى وأفضَلُ.

وأمَّا النَّهيُ عَنهُ: فعَلى سَبيلِ الاختيارِ، والكراهَةِ، أو عن النَّوعِ الذي لا يُحتاجُ إليه، بل يُفعَلُ خَوفًا من حُدوثِ الدَّاءِ، واللهُ أعلَمُ»[١].

* وعالَجَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القَرحَةَ، بالرِّيقِ المخلوطِ بالتُّرابِ:

فعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا اشتكَى الإنسانُ الشَّيءَ منه، أو كانت بهِ قَرحَةٌ أو جُرحٌ، قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإصبَعِهِ هَكَذا[٢] -وَوَضَعَ سُفيانُ سَبَّابَتَهُ بالأرضِ، ثم رَفَعَها-: «**بِاسمِ اللهِ، تُربَةُ أرضِنا، بريقَةِ بعضِنا، ليُشفَى بِهِ سَقيمُنا، بإذنِ رَبِّنا**»[٣].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**قال جُمهورُ العُلَماءِ: المُرادُ بـ «أرضِنا»** -هُنا-: جُملَةُ الأرضِ، وقيل: أرضُ المدينَةِ خاصَّةً؛ لبَرَكَتِها، والرِّيقَةُ: أقَلُّ مِنَ الرِّيقِ.

ومعنى الحديثِ: أنَّهُ يَأخُذُ من ريقِ نَفسِهِ على أُصبُعِهِ السَّبَّابَةِ، ثم يَضَعُها على التُّرابِ، فيَعلَقُ بها منه شيءٌ، فيَمسَحُ بِهِ على الموضِعِ الجَريحِ أوِ العليلِ، ويقولُ هذا الكلامَ في حال المسحِ، واللهُ أعلَمُ»[٤].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذا مِنَ العِلاجِ المُيَسَّرِ النافِعِ المُرَكَّبِ، وهي مُعالَجَةٌ لَطيفَةٌ، يُعالَجُ

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٦٠).

(٢) وفي رواية أبي داود (٣٨٩٥): «يقول بريقه، ثمَّ قال به في التُّراب».

(٣) رواه البخاري (٥٧٤٥)، ومسلم (٢١٩٤).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/ ١٨٤).

بها القُروحُ والجِراحاتُ الطَّرِيَّةُ، لا سيَّما عندَ عَدَمِ غَيرِها مِنَ الأدويَةِ؛ إذ كانت مَوجودَةً بكُلِّ أرضٍ.

وقد عُلِمَ أنَّ طَبيعَةَ التُّرابِ الخالصِ بارِدَةٌ يابِسَةٌ، مُجَفِّفَةٌ لرُطوباتِ القُروحِ والجِراحاتِ التي تَمنَعُ الطَّبيعَةُ من جَودَةِ فِعلِها، وسُرعَةِ اندِمالِها، لا سيَّما في البِلادِ الحارَّةِ، وأصحابِ الأمزِجَةِ الحارَّةِ.

والتُّرابُ مُجَفِّفٌ لها، مُزيلٌ لشِدَّةِ يُبسِهِ وتَجفيفِهِ للرُّطوبَةِ الرديئَةِ المانِعَةِ من بَرئِها، ويَحصُلُ بِهِ -مَعَ ذلك- تَعديلُ مِزاجِ العُضوِ العليلِ، ومَتَى اعتَدَلَ مِزاجُ العُضوِ قَوِيَت قواهُ، ودَفَعَت عنه الألَمَ بإذنِ اللهِ»[١]

وقال عُلماءُ اللجنةِ الدائمةِ: «هَذا الحديثُ على ظاهِرِه، وهو أن يَعمدَ الراقي إلى بَلِّ أُصبُعِه بريقِ نَفسِه، ثُمّ يَمسَّ بها التُّرابَ، ثُمّ يَمسحَ بأصبُعِه على مَحَلِّ الوَجَعِ، قائِلًا هذا الدّعاءَ.

وأكثرُ العُلماءِ على أنّ هذِه الصّفةَ عامّةٌ لكُلِّ راقٍ، ولكُلّ أرضٍ، وذَهبَ بَعضُهم إلى أنّ ذلك مَخصوصٌ برسولِ اللهِ، وبِأرضِ المدينةِ، والصّحيحُ هو الأوّلُ؛ لعدَمِ المُخَصِّصِ»[٢].

* وأمَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَن أُصيبَ بالإسهال، بشُربِ العَسَلِ:

فعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جاءَ رَجُلٌ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: إنَّ أخي استَطلَقَ بَطنُهُ[٣]، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اسقِهِ عَسَلًا**»، فسَقاهُ، ثم جاءَهُ، فقال: إنِّي سَقَيتُهُ عَسَلًا، فلَم يَزِدهُ إلا استِطلاقًا! فقال له ثَلاثَ مَرّاتٍ، ثم جاءَ الرابِعَةَ، فقال: «**اسقِهِ عَسَلًا**»، فقال: لَقَد سَقَيتُهُ، فلَم يَزِدهُ إلا استِطلاقًا! فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَدَقَ اللهُ، وكَذَبَ بَطنُ أخيكَ**»، فسَقاهُ فبَرَأ[٤].

---

(١) زاد المعاد (٤/ ١٧١).

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة (١/ ٧٧).

(٣) كثر خروج ما فيه، يريد الإسهال.

(٤) رواه البخاري (٥٦٨٤)، ومسلم (٢٢١٧).

قال الحافظ رَحِمَهُ اللهُ: «**وفي قولِهِ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَكَذَبَ بَطنُ أخيكَ**»، إشارةٌ إلى أنَّ هذا الدَّواءَ نافِعٌ، وأنَّ بَقاءَ الدَّاءِ ليس لقُصورِ الدَّواءِ في نَفسِهِ، ولكن لكَثرَةِ المادَّةِ الفاسِدَةِ، فمِن ثَمَّ: أمَرَهُ بمُعاوَدَةِ شُربِ العَسَلِ؛ لاستِفراغِها، فكان كَذلك، وبَرَأ بإذنِ اللهِ»[١].

ويقولُ ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وفي تكرارِ سَقيِهِ العَسَلَ مَعنًى طِبِّيٌّ بَديعٌ، وهوَ: أنَّ الدَّواءَ يَجِبُ أن يكونَ له مِقدارٌ وكمِّيَّةٌ، بحَسَبِ حال الدَّاءِ، إن قَصرَ عَنهُ لم يُزِلهُ بالكُلِّيَّةِ، وإن جاوَزَهُ أوهَى القوَى، فأحدَثَ ضَرَرًا آخَرَ، فلمَّا أمَرَهُ أن يَسقيَهُ العَسَلَ، سَقاهُ مِقدارًا لا يَفي بمُقاوَمَةِ الدَّاءِ، ولا يَبلُغُ الغَرَضَ.

فلمَّا أخبَرَهُ، عَلِمَ أنَّ الذي سَقاهُ لا يَبلُغُ مِقدارَ الحاجَةِ، فلمَّا تَكَرَّرَ تَردادُهُ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أكَّدَ عليه المُعاوَدَةَ؛ ليَصِلَ إلى المِقدارِ المُقاوِمِ للدَّاءِ، فلمَّا تَكَرَّرَتِ الشَّرباتُ بحَسَبِ مادَّةِ الدَّاءِ، بَرَأ بإذنِ اللهِ.

واعتِبارُ مَقاديرِ الأدويَةِ، وكَيفيَّاتِها، ومِقدارِ قوَّةِ المَرَضِ والمريضِ: من أكبَرِ قَواعِدِ الطِّبِّ»[٢].

* وأمَرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوَضعِ اليَدِ على مَوضِعِ الألَمِ، والتّعوّذِ باللهِ، وقُدرَتِه:

فعن عثمانَ بنِ أبي العاصِ الثَّقَفيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّهُ شَكا إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجَعًا يَجِدُهُ في جَسَدِهِ مُنذُ أسلَمَ، فقال له رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ضَع يَدَكَ على الذي تَألَّمَ من جَسَدِكَ، وقُل: باسمِ اللهِ -ثَلاثًا-، وقُل -سَبعَ مَرَّاتٍ-: أعوذُ باللهِ وقُدرَتِهِ من شَرِّ ما أجِدُ وأُحاذِرُ**»[٣].

قال الصّنعانيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «هَذِهِ مِنَ الأدويَةِ الإلَهيّةِ، التي هيَ من أسرعِ الأدويَةِ لَمن خَلَصَت نيّتُهُ، وظاهِرُهُ: أنّها لكُلِّ ألَمٍ مِنَ الآلامِ التي بالأعضاءِ»[٤].

---

(١) فتح الباري (١٠/ ١٧٠).

(٢) زاد المعاد (٤/ ٣٣).

(٣) رواه مسلم (٢٢٠٢).

(٤) التنوير (٧/ ١٠٦).

ورواه أبوداود[١]، والترمذي[٢]، وزادا: «فَلَم أَزَل آمُرُ بِهِ أَهلي، وغَيرَهم».

قال المُبارَكفوريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لأنَّهُ مِنَ الأدويَةِ الإلَهيَّةِ، والطِّبِّ النبويِّ؛ لما فيه من ذِكرِ اللهِ، والتَّفويضِ إليه، والاستِعاذَةِ بعِزَّتِهِ وقُدرَتِهِ، وتَكرارُهُ يكونُ أنجَحَ وأبلَغَ، كَتَكرارِ الدَّواءِ الطَّبيعيِّ، لاستِقصاءِ إخراجِ المادَّةِ، وفي السَّبعِ خاصِّيَّةٌ لا توجَدُ في غَيرِها»[٣].

*** ومَنَعَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَاقِهَ[٤]، من تَناوُلِ ما يَضرُّهُ، حتى يَتِمَّ شِفاؤُهُ:**

فعن أُمِّ المُنذِرِ بنتِ قَيسٍ الأنصاريَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: دَخَلَ عَلَيَّ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومَعَهُ عليٌّ، وعليٌّ ناقِهٌ، ولَنا دَوالي مُعَلَّقَةٌ[٥]، فقامَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأكُلُ منها، وقامَ عليٌّ ليَأكُلَ، فطَفِقَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ لعليٍّ: «**مَه! إنَّكَ ناقِهٌ**»، حتى كَفَّ عليٌّ، قالت: وصَنَعتُ شَعيرًا، وسِلقًا، فجِئتُ بِهِ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا عليُّ، أَصِب من هَذا؛ فهو أنفَعُ لَكَ**»[٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «**واعلَم أنَّ في** مَنعِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعليٍّ مِنَ الأكلِ مِنَ الدَّوالي وهو ناقِهٌ، أحسَنُ التَّدبيرِ؛ فإنَّ الدَّواليَ أقناءٌ مِنَ الرُّطَبِ، تُعَلَّقُ في البَيتِ للأكلِ، بمَنزِلَةِ عَناقيدِ العِنَبِ، والفاكِهَة تَضُرُّ بالناقِهِ مِنَ المَرَضِ؛ لسُرعَةِ استِحالَتِها، وضَعفِ الطَّبيعَةِ عن دَفعِها، فإنَّها لم تَتَمكَّن -بَعدُ- من قوَّتِها، وهي مَشغولَةٌ بدَفعِ آثارِ العِلَّةِ، وإزالَتِها مِنَ البَدَنِ.

وفي الرُّطَبِ -خاصَّةً- نَوعُ ثِقَلٍ على المِعدَةِ، فتَشتَغِلُ بمُعالَجَتِهِ وإصلاحِهِ، عَمَّا هيَ بصَدَدِهِ، من إزالَةِ بَقيَّةِ المَرَضِ وآثارِهِ، فإمَّا أن تَقِفَ تِلكَ البَقيَّةُ، وإمَّا أن تَتزايَدَ، فلَمَّا وُضِعَ بين يَدَيهِ السِّلقُ، والشَّعيرُ، أمَرَهُ أن يُصيبَ منه؛ فإنَّهُ من أنفَعِ الأغذيَةِ للنَّاقِهِ؛ فإنَّ في ماءِ

---

(١) سنن أبي داود (٣٨٩١)، وصححه الألباني.

(٢) سنن الترمذي (٢٠٨٠)، وصححه.

(٣) تحفة الأحوذي (٦/ ٢١٢).

(٤) الناقه: المريض قريب العهد بالمرض بعد إفاقته، وقبل رجوع كمال صحَّته إليه.

(٥) غصن البسر المعلَّق، حتى إذا أرطب أكل منه.

(٦) رواه أبوداود (٣٨٥٦)، والترمذي (٢٠٣٧)، وابن ماجه (٣٤٤٢)، وأحمد (٢٧٠٥١)، وحسنه العراقي في تخريج الإحياء (١/ ٦٦٠)، وكذا حسنه الألباني في الصحيحة (٥٩)، وضعفه محققو المسند.

الشَّعيرِ، مِنَ التَّبريدِ، والتَّغذيَةِ، والتَّلطيفِ، والتَّليينِ، وتَقويَةِ الطَّبيعَةِ، ما هو أصلَحُ للنَّاقِهِ، ولا سيَّما إذا طُبِخَ بأُصولِ السِّلقِ، فهذا من أوفَقِ الغِذاءِ، لمَن في مَعِدَتِهِ ضَعفٌ، ولا يَتَولَّدُ عنه مِنَ الأخلاطِ ما يُخافُ منه»(١).

* وأوصَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المهمومَ والمحزونَ بالعِلاجِ بالتَّلبينَةِ:

فعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنَّها كانت تَأمُرُ بالتَّلبينِ للمَريضِ، وللمَحزونِ على الهالكِ، وكانت تقولُ: إنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**إنَّ التَّلبينَةَ تُجِمُّ**(٢) **فُؤادَ المريضِ، وتَذهَبُ ببعضِ الحُزنِ**»(٣).

وعَنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أخَذَ أهلَهُ الوَعَكُ أمَرَ بالحَساءِ(٤) فصُنِعَ، ثم أمَرَهم فحَسَوا منه، وكان يقولُ: «**إنَّهُ لَيَرتو**(٥) **فُؤادَ الحَزينِ، ويَسرو عن فُؤادِ السَّقيمِ**(٦)**، كَما تَسرو إحداكُنَّ الوَسَخَ بالماءِ عن وجهِها**»(٧).

والتَّلبينَةُ: عِبارَةٌ عن حَساءٍ رَقيقٍ، مَصنوعٍ من دَقيقِ الشَّعيرِ، واللَّبَنِ.

والتَّلبينَةُ: مُلَيِّنٌ للأمعاءِ، مُهَدِّئٌ للقولونَ، مُضادٌّ لسَرَطانِ الأمعاءِ، يوصَفُ للمَرضَى كَغِذاءٍ لَطيفٍ، سَهلِ الهَضمِ، فالشَّعيرُ غَنيٌّ بالأليافِ المُنحَلَّةِ، وغَيرِ المُنحَلَّةِ، والأليافُ غَيرُ المُنحَلَّةِ تَمتَصُّ كَمِّيَّاتٍ كَبيرَةً مِنَ الماءِ، وتَحبِسُهُ داخِلَها، فتَزيدُ من كُتلَةِ الفَضَلاتِ، مع الحِفاظِ على ليونَتِها، مِمَّا يُسَهِّلُ ويُسَرِّعُ هَذِهِ الكُتلَةَ عَبرَ القولونِ، ويُنَشِّطُ الحَرَكَةَ الدُّوديَّةَ للأمعاءِ، مِمَّا يَدعَمُ عَمَليَّةَ التَّخلُّصِ مِنَ الفَضَلاتِ.

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٩٦).

(٢) تريح.

(٣) رواه البخاري (٥٦٨٩)، ومسلم (٢٢١٦).

(٤) طبيخٌ من دقيقٍ، وماءٍ، ودهنٍ.

(٥) يقوِّي.

(٦) يكشف عنه الألم، ويزيله.

(٧) رواه الترمذي (٢٠٣٩)، وصححه، وابن ماجه (٣٤٤٥)، وأحمد (٢٤٠٣٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٦٤٦)، وضعفه في ضعيف سنن الترمذي، وكذا ضعفه محققو المسند.

وهُناكَ أبحاثٌ طِبِّيَّةٌ، تُؤَكِّدُ على أهَمِّيَةِ الشَّعيرِ في التَّقليلِ مِنَ الإصابَةِ بسَرَطانِ القولونِ؛ حيث استَقَرَّ الرأيُ على أنَّ الشَّعيرَ يُقَلِّلُ من بَقاءِ الفَضَلاتِ في الأمعاءِ؛ مِمَّا يُقَلِّلُ من بَقاءِ الموادِّ المُسَرطِنَةِ في الأمعاءِ، مِمَّا يُقَلِّلُ مِنَ الإصابَةِ بالسَّرَطانِ.

وأثبَتَتِ الدِّراساتُ العِلميَّةُ فاعِليَّةَ حُبوبِ الشَّعيرِ الفائِقَةَ، في تَقليلِ مُستَوَى الكوليستُرولِ في الدَّمِ، مِمَّا يُؤَدِّي إلى خَفضِ ضَغطِ الدَّمِ، وتَنظيمِ نِسبَةِ السُّكَّرِ في الدَّمِ.

*** وأوصَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعِلاجِ بالحَبَّةِ السَّوداءِ (حَبَّةِ البَرَكَةِ):**

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّهُ سَمِعَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**في الحَبَّةِ السَّوداءِ شِفاءٌ من كُلِّ داءٍ، إلا السَّامَ**[1]»[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الحَبَّةُ السَّوداءُ هيَ الكمُّونُ الأسوَدُ، وتُسَمَّى الكمُّونَ الهِنديَّ، وهي كَثيرَةُ المنافِعِ جِدًّا، وقولُهُ: «**شِفاءٌ من كُلِّ داءٍ**» مِثلُ قولِهِ تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]؛ أي: كُلَّ شيءٍ يَقبَلُ التَّدميرَ، ونَظائِرَهُ.

وهيَ نافِعَةٌ من جَميعِ الأمراضِ البارِدَةِ، وتَدخُلُ في الأمراضِ الحارَّةِ اليابِسَةِ بالعَرَضِ، فتوَصِّلُ قوَى الأدويَةِ البارِدَةِ الرطبَةِ إلَيها، بسُرعَةِ تَنفيذِها إذا أُخِذَ يَسيرُها»[3].

وقد أثبَتَتِ الدِّراساتُ المُعاصِرَةُ: أنَّ حَبَّةَ البَرَكَةِ، أوِ الحَبَّةَ السَّوداءَ، تُنَشِّطُ جِهازَ المناعَةِ عندَ الإنسانِ، وهي مُضادَّةٌ لآلامِ المفاصِلِ، والرُّوماتيزمِ، ومُفيدَةٌ لأمراضِ الحَساسيَةِ، بل وتُبيدُ الخَلايا السَّرَطانيَّةَ[4].

---

(١) الموت.
(٢) رواه البخاري (٥٦٨٨)، ومسلم (٢٢١٥).
(٣) زاد المعاد (٤/ ٢٧٣).
(٤) الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسُّنَّة النبويَّة، لأحمد مصطفى متولي (ص١٠٦٦).

* ومِنَ العِلاجاتِ النبويَّةِ: العِلاجُ بالكمأةِ، لأمراضِ العُيونِ:

فعن سَعيدِ بنِ زَيدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**الكمأةُ مِنَ المنِّ**[١]**، وماؤُها شِفاءٌ للعَينِ**»[٢].

أمَّا الكمأةُ: فهيَ نَباتٌ، لا ورَقَ لَهُ، ولا ساقَ، ولا زَهرَ، ولا ثَمَرَ، وإنما هو كالفِطرِ، مُدَحرَجُ الشَّكلِ كالكُرَةِ، ومنه: صَغيرٌ، وكَبيرٌ، وأحمَرُ، وأبيَضُ، وأسوَدُ، وأنواعٌ كَثيرَةٌ، ومِن جُملَةِ أنواعِهِ: الفِطرُ، تُشبِهُ في شَكلِها البَطاطا، مع اختِلافِ اللَّونِ والرائِحَةِ.

«وَهيَ مِمَّا يوجَدُ في الربيعِ، ويُؤكَلُ نَيِّئًا، ومَطبوخًا، وتُسَمِّيها العَرَبُ: نَباتَ الرعدِ؛ لأنَّها تَكثُرُ بكَثرَتِهِ، وتَنفَطِرُ عَنها الأرضُ، وهي من أطعِمَةِ أهلِ البَوادي، وتَكثُرُ بأرضِ العَرَبِ، وأجوَدُها: ما كانت أرضُها رَمليَّةً، قَليلَةَ الماءِ»[٣].

وقولُهُ: «**الكمأة مِنَ المنِّ**»:

شَبَّهَها بالمنِّ الذي كان يَنزِلُ على بَني إسرائيلَ؛ لأَنَّهُ كان يَحصُلُ لهم بلا كُلفَةٍ، ولا عِلاجٍ، والكمأةُ تَحصُلُ بلا كُلفَةٍ، ولا عِلاجٍ، ولا زَرعٍ، ولا سَقيٍ، ولا غَيرِهِ.

وقيل: هيَ مِنَ المنِّ الذي أنزَلَ اللهُ تعالى على بَني إسرائيلَ حَقيقَةً؛ عَمَلًا بظاهِرِ اللَّفظِ.

«**وَماؤُها شِفاءٌ للعَينِ**»:

قيل: هو نَفسُ الماءِ مُجَرَّدًا، **وقيل**: مَعناهُ: أن يُخلَطَ ماؤُها بدَواءٍ، ويُعالَجُ بِهِ العَينُ.

والصَّحيحُ: أنَّ ماءَها -مُجَرَّدًا- شِفاءٌ للعَينِ -مُطلَقًا-، فيُعصَرُ ماؤُها، ويُجعَلُ في العَينِ منه.

قال النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: «وقد رَأيتُ -أنا، وغَيري- في زَمَنِنا، مَن كان عَميَ وذَهَبَ بَصَرُهُ حَقيقَةً، فكَحَّلَ عَينَهُ بماءِ الكمأةِ -مُجَرَّدًا-، فشُفيَ وعادَ إليه بَصَرُهُ، وهو الشَّيخُ العَدلُ الأيمَنُ

(١) أي: ممَّا يمتنُّ الله تعالى به على عباده دون تدخُّلٍ أو جهدٍ منهم.
(٢) رواه البخاري (٤٤٧٨)، ومسلم (٢٠٤٩).
(٣) زاد المعاد (٤/ ٣٣٠).

الكمالُ بنُ عبدِالله الدِّمَشقيُّ، صاحِبُ صَلاحٍ ورِوايَةٍ للحديثِ، وكان استِعمالُهُ لماءِ الكمأةِ؛ اعتِقادًا في الحديثِ، وتَبَرُّكًا بهِ، واللهُ أعلَمُ»[١].

وهيَ المعروفَةُ في المملَكَةِ السُّعوديَّةِ باسمِ: «الفَقعِ»، وفي بعضِ البِلادِ تُعرَفُ بـ«شَجَرَةِ الأرضِ»، أو: «بَيضَةِ الأرضِ»، أو: «بَيضَةِ النَّعامَةِ»، أوِ: «العَسقَلِ».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والكمأةُ تكونُ في الأرضِ من غَيرِ أن تُزرَعَ، وسُمِّيَت كَمأةً؛ لاستِتارِها، ومنه: «كَمَأ الشَّهادَةَ»: إذا سَتَرَها، وأخفاها، والكمأةُ مَخفيَّةٌ تحتَ الأرضِ، لا ورَقَ لها، ولا ساقَ»[٢].

وقال: «ماءُ الكمأةِ أصلَحُ الأدويَةِ للعَينِ، إذا عُجِنَ بهِ الإثمِدُ واكتُحِلَ بهِ، ويُقَوِّي أجفانَها، ويَزيدُ الرُّوحَ الباصِرَةَ قوَّةً، وحِدَّةً، ويَدفَعُ عَنها نُزولَ النَّوازِلِ»[٣].

وقد قامَ بعضُ الباحِثينَ المسلمينَ باختِباراتٍ حَولَ الكمأةِ ومائِها، وتَأثيرِ ذلك على العَينِ، فتبَيَّنَ أنَّ ماءَ الكمأةِ يُفيدُ العَينَ، فهو يَمنَعُ حُدوثَ التَّلَيُّفِ، ويَمنَعُ حُدوثَ الرمَدِ الحُبَيبيِّ.

*** وأرشَدَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرضَى الاستِسقاءِ، إلى التَّداوي بأبوالِ وألبانِ الإبِلِ:**

والاستِسقاءُ: مَرَضٌ يَنتُجُ عنه انتِفاخُ البَطنِ، نَتيجَةَ وُجودِ سائِلٍ داخِلَها، وأهَمُّ أسبابِهِ: تَلَيُّفُ الكبِدِ.

وفي الحديثِ، عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنَّ رَهطًا من عُكلٍ، ثَمانيَةً، قَدِموا على النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاجتَوَوُا[٤] المدينَةَ، فقالوا: يا رسولَ اللهِ ابغِنا رِسلاً[٥]، قال: «**ما أجِدُ**

---

(١) شرح صحيح مسلم.

(٢) زاد المعاد (٤/ ٣٣٠).

(٣) زاد المعاد (٤/ ٣٣٤).

(٤) أصابهم داء الجوى، وهو من أدواء الجوف، وهو الاستسقاء.

(٥) أي: اطلب لنا لبنًا.

لَكُم، إلا أن تَلحَقوا بالذَّودِ[1]»، فانطَلَقوا، فشَرِبوا من أبوالها وألبانِها، حتى صَحُّوا، وسَمِنوا...»[2].

وفي رواية: «قَدِمَ على النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ نَفَرٌ من عُكلٍ فأسلموا، فاجتَوَوُا المدينَةَ، فأمَرَهم أن يَأتوا إبِلَ الصَّدَقَةِ، فيَشرَبوا من أبوالها وألبانِها، ففَعَلوا، فصَحُّوا»[3].

وذكرَ ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ **عن أهلِ الطِّبّ:** «أنّ لَبَنَ النُّوقِ دَواءٌ نافِعٌ؛ لما فيه مِنَ الجلاءِ برِفقٍ، وما فيه من خاصيَّةٍ، وأنَّ هذا اللَّبَنَ شَديدُ المنفَعَةِ، فلَو أنَّ إنسانًا أقامَ عليه، بَدَلَ الماءِ والطَّعامِ، شُفي بهِ، وقد جُرِّبَ ذلك في قَومٍ، دُفِعوا إلى بلادِ العَرَبِ، فقادَتهمُ الضَّرورَةُ إلى ذلك، فعوفوا، وأنفَعُ الأبوال: بَولُ الجَمَلِ الأعرابيِّ، وهو النَّجيبُ»[4].

وقد أثبَتَتِ الدِّراساتُ الحديثَةُ: أنَّ لَبَنَ الإبِلِ يَمتازُ بميزاتٍ مَناعيَّةٍ فريدَةٍ، حيث إنَّهُ يَحتَوي على تَركيزاتٍ مُرتَفِعَةٍ للغايَةِ، من بعضِ المُركَّباتِ المُثَبِّطَةِ لِفعلِ بعضِ البِكتِريا المُمرِضَةِ، وبعضِ الفيروساتِ؛ فيُستَخدَمُ كَعِلاجٍ للاستِسقاءِ، واليَرَقانِ، ومَتاعِبِ الطِّحال، والسُّلِّ، والربوِ، والأنيميا، والبَواسيرِ، وفي عِلاجِ مَرَضِ الكبِدِ الوَبائيِّ المُزمِنِ، وتَحسينِ وظائِفِ الكبِدِ، وقد تَحَسَّنَت وظائِفُ الكبِدِ، في المرضَى المُصابينَ بالتِهابِ الكبِدِ، بعدَ أن عولِجوا بلَبَنِ الإبِلِ.

كَما أثبَتَتِ التَّجارِبُ العِلميَّةُ: أنَّ بَولَ الإبِلِ له تَأثيرٌ قاتِلٌ على الميكُروباتِ المُسَبِّبَةِ لكَثيرٍ مِنَ الأمراضِ، ويُساعِدُ في عِلاجِ بعضِ أمراضِ الجِهازِ الهَضميِّ، وأمراضِ الاستِسقاءِ، وأورامِ الكبِدِ.

❋ العِلاجُ بالسَّنا والسَّنُّوتِ:

فعن أبي أُبَيِّ بنِ أُمِّ حَرامٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقولُ: «**عليكم**

(١) الثَّلاث من الإبل، إلى العشرة.

(٢) رواه البخاري (٣٠١٨)، ومسلم (١٦٧١).

(٣) رواه البخاري (٦٨٠٢)، ومسلم (١٦٧١).

(٤) زاد المعاد (٤/ ٤٤).

بالسَّنَى والسَّنُّوتِ؛ فإنَّ فيهما شِفاءً من كُلِّ داءٍ، إلا السَّامَ»، قيل: يا رسولَ اللهِ، وما السَّامُ؟ قال: «**الموتُ**»[(١)].

السَّنَى: نَباتٌ، كَأَنَّهُ الحِنَّاءُ، زَهرُهُ إلى الزُّرقَةِ، وحَبُّهُ مُفرطَحٌ إلى الطُّولِ، وأجوَدُهُ الحِجازيُّ، ويُعرَفُ بالسَّنَى المكيِّ، وتُحَضَّرُ منه بعضُ الأدويَةِ الحديثَةِ، شَرابًا، وحُبوبًا.

والسَّنُّوتُ: العَسَلُ، **وقيل**: الكمُّونُ، **وقال آخَرونَ**: بل هو العَسَلُ الذي يكونُ في زِقاقِ السَّمنِ، وهذا هو الأقرَبُ.

قال بعضُ الأطِبَّاءِ: وهذا أجدَرُ بالمعنى، وأقرَبُ إلى الصَّوابِ، أي: يُخلَطُ السَّنا -مَدقوقًا- بالعَسَلِ المُخالطِ للسَّمنِ، ثم يُلعَقُ، فيكونُ أصلَحَ مِن استِعمالِهِ مُفرَدًا؛ لما في العَسَلِ والسَّمنِ من إصلاحِ السَّنا، وإعانَتِهِ له على الإسهالِ، واللهُ أعلَمُ[(٢)].

ورَجَّحَ **بعضُ الأطِبَّاءِ المُعاصِرينَ: أنَّ السَّنا والسَّنُّوتَ هما: بُذورُ الشَّمَرِ، وبُذورُ الشَّبَتِ**، ويُباعانِ عندَ العَطَّارينَ، وقد أجرَى بعضُ الأطِبَّاءِ عدّةَ أبحاثٍ على هَذِهِ البُذورِ، ووَجَدَها تنفَعُ في عِلاجِ أمراضٍ مُتعدّدةٍ[(٣)].

(١) رواه ابن ماجه (٣٤٥٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٠٦٧).

(٢) زاد المعاد (٤/ ٦٩)، باختصارٍ.

(3) http://consult.islamweb.net/consult/index.php?page=Details&id=2176672.

معامَلاتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الماليَّةُ والتجاريَّةُ

كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبيعُ، ويَشتَري، ويَستَقرِضُ، ويُشارِكُ، ويَستَأجِرُ، ويَرهَنُ، ويوكِلُ، ويَهَبُ، ويَقبَلُ الهَديَّةَ، وكان أحسَنَ الناسِ مُعامَلَةً في البَيعِ، والشِّراءِ، وأخذِ الحُقوقِ، وأدائِها.

* وقد حَثَّ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، على الصِّدقِ في المُعامَلاتِ الماليَّةِ:

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**البَيِّعانِ بالخيارِ ما لم يَتَفرَّقا، فإن صَدَقا وبَيَّنا؛ بورِكَ لهُما في بَيعِهِما، وإن كَتَما وكَذَبا؛ مُحِقَت بَرَكَةُ بَيعِهِما**»[١].

وعن إسماعيلَ بنِ عُبَيدِ بنِ رِفاعَةَ، عن أبيهِ، عن جَدِّهِ: أنَّهُ خرجَ مع النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المُصَلَّى، فرَأى الناسَ يَتَبايَعونَ، فقال: «**يا مَعشَرَ التُّجَّارِ!**»، فاستَجابوا لِرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورَفَعوا أعناقَهُم وأبصارَهُم إليه، فقال: «**إنَّ التُّجَّارَ يُبعَثونَ يومَ القيامَةِ فُجَّارًا، إلا مَنِ اتَّقَى اللهَ، وبَرَّ، وصَدَقَ**»[٢].

* وحَثَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على السَّماحَةِ واليُسرِ في البَيعِ والشِّراءِ:

فعن جابِرِ بنِ عبدِاللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**رَحِمَ اللهُ رَجُلًا سَمحًا إذا باعَ، وإذا اشتَرَى، وإذا اقتَضَى**»[٣].

---

(١) رواه البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢).

(٢) رواه الترمذي (١٢١٠)، وصححه، وابن ماجه (٢١٤٦)، وصححه الألباني لغيره، في صحيح الترَّغيب (١٧٨٥).

(٣) رواه البخاري (٢٠٧٦).

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فيهِ**: الحَضُّ على السَّماحَةِ في المُعامَلَةِ، واستِعمالِ مَعالي الأخلاقِ، وتَركِ المُشاحَّةِ، والحَضُّ على تَركِ التَّضييقِ على الناسِ في المُطالَبَةِ، وأخذِ العَفوِ منهم»(١).

* وحَثَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على إقالةِ النادِمِ، في البَيعِ والشِّراءِ:

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن أقال مُسلِمًا أقالهُ اللهُ عَثرَتَهُ يومَ القيامَةِ**»(٢).

وصورَةُ إقالةِ البَيعِ: أنَّهُ إذا اشتَرَى أحَدٌ شَيئًا من رَجُلٍ، ثُمَّ نَدِمَ على اشتِرائِهِ، إمَّا لِظُهورِ الغَبنِ فيه، أو لِزَوالِ حاجَتِهِ إليه، أو لِانعِدامِ الثَّمَنِ؛ فرَدَّ المبيعَ على البائِعِ، قَبِلَ البائِعُ رَدَّهُ، فمَن فعلَ ذلك أزالَ اللهُ مَشَقَّتَهُ وعَثرَتَهُ يومَ القيامَةِ؛ لأنَّهُ إحسانٌ منه على المُشتَري؛ لأنَّ البَيعَ كان قَد بتَّ، فلا يَستَطيعُ المُشتَري فسخَهُ(٣).

ولَم يَكُنِ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **مُنعَزِلًا عن حَياةِ الناسِ**، بل كان يُخالِطُهُم، ويُعامِلُهُم، ويَمشي في أسواقِهِم، قال تعالى: ﴿**وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ**﴾ [الفرقان: ٧].

وعن عَطاءِ بنِ يَسارٍ، قال: لَقيتُ عبدَاللهِ بنَ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قُلتُ: أخبِرني عن صِفَةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التَّوراةِ، قال: أجَل، واللهِ إنَّهُ لَمَوصوفٌ في التَّوراةِ ببَعضِ صِفَتِهِ في القُرآنِ: «يا أيُّها النبيُّ إنَّا أرسَلناكَ شاهِدًا، ومُبَشِّرًا، ونَذيرًا، وحِرزًا للأُمِّيِّينَ، أنتَ عبدي ورسولي، سَمَّيتُكَ المتَوَكِّلَ، ليس بفَظٍّ(٤)، ولا غَليظٍ، ولا سَخَّابٍ(٥) في الأسواقِ، ولا يَدفَعُ بالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، ولكن يَعفو ويَغفِرُ، ولَن يَقبِضَهُ اللهُ حتى يُقيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوجاءَ، بأن يقولوا: لا إلَهَ إلا اللهُ، ويَفتَحَ بها أعيُنًا عُميًا، وآذانًا صُمًّا، وقُلوبًا غُلفًا»(٦).

---

(١) فتح الباري (٤/ ٣٠٧).

(٢) رواه أبوداود (٣٤٦٠)، وابن ماجه (٢١٩٩)، وصححه الألباني.

(٣) عون المعبود (٩/ ٢٣٧).

(٤) سيِّء الخلق، خشن الجانب.

(٥) صيَّاح.

(٦) رواه البخاري (٢١٢٥).

وهوَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُدوةٌ لَنا في كُلِّ جَوانِبِ الحَياةِ، كَما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ومنها: جانِبُ المُعامَلاتِ الماليَّةِ، والتِّجاريَّةِ، وما في مَعناها.

ومِنَ المُغالَطاتِ البيِّنَةِ في هذا الزَّمانِ: زَعمُ الزَّاعِمينَ أنَّ المُعامَلاتِ الماليَّةَ، والتِّجاريَّةَ، والاقتِصاديَّةَ، لا عَلاقَةَ لها بالدِّينِ، وأنَّهُ لا يَنبَغي إدخالُ الدِّينِ فيها!

ودينُ اللهِ كامِلٌ، شامِلٌ لِكُلِّ نَواحي الحَياةِ، لا نَقصَ فيه ولا خَلَلَ؛ كَما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ومِن مَواقِفِهِ وأحوالِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المُعامَلاتِ الماليَّةِ والتِّجاريَّةِ، التي يَنبغي علينا مَعرفتُها، والتَّأسِّي بِهِ فيها:

* عَدلُهُ، وحَزمُهُ، ووُضوحُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في المُعامَلاتِ الماليَّةِ:

فكان رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عادِلًا، حازِمًا، في مُعامَلاتِهِ الماليَّةِ، يَحرِصُ على الوُضوحِ فيها؛ حَتَّى لا يَدَعَ مَجالًا لِسوءِ الظَّنِّ.

ومِن ذلك: ما جاءَ في حديثِ جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ، أنَّهُ بينما هو يَسيرُ مع رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومَعَهُ الناسُ، مَقفَلَهُ[1] من حُنَينٍ، فعَلِقَهُ الناسُ[2]، يَسألونَهُ، حتى اضطَرُّوهُ إلى سَمُرَةٍ[3]، فخَطِفَت رِداءَهُ، فوَقَفَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**أعطوني رِدائي، لَو كان لي عَدَدُ هَذِهِ العِضاهِ[4] نعمًا لَقَسَمتُهُ بينكُم، ثُمَّ لا تَجِدوني بَخيلاً، ولا كَذوبًا، ولا جَبانًا**»[5].

قال الحافِظُ ابنُ حجرٍ: «أشارَ بعَدَمِ الجُبنِ إلى كَمالِ القوَّةِ الغَضَبيَّةِ، وهي الشَّجاعَةُ، وبِعَدَمِ الكذِبِ إلى كَمالِ القوَّةِ العَقليَّةِ، وهي الحِكمَةُ، وبِعَدَمِ البُخلِ إلى كَمالِ القوَّةِ الشَّهوانيَّةِ، وهو الجودُ»[6].

---

(١) مرجعه.
(٢) تعلَّقوا به.
(٣) أي: شجرةٍ طويلةٍ قليلة الظِّلِّ.
(٤) كلّ شجرٍ عظيمٍ، له شوكٌ.
(٥) رواه البخاري (٢٨٢١).
(٦) فتح الباري (٦/ ٥٧١).

ولَمَّا طالَبَهُ ذو الخُوَيصِرَةِ التَّميميُّ بالعَدلِ غَضِبَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبَيَّنَ أنَّهُ ليس هُناكَ مَن هو أعدَلُ منه، فهو أمينُ مَن في السَّماءِ، فكَيفَ لا يكونُ عادِلًا؟!

فعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بينما نَحنُ عندَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يَقسِمُ قِسمًا، أتاهُ ذو الخُوَيصِرَةِ، وهو رَجُلٌ من بَني تَميمٍ، فقال: يا رسولَ اللهِ، اعدِل! فقال: «**وَيلَكَ! ومَن يَعدِلُ إذا لم أعدِل؟! قَد خِبتَ وخَسِرتَ، إن لم أكُن أعدِلُ**»، فقال عمرُ: يا رسولَ اللهِ، ائذَن لي فيه فأضرِبَ عُنُقَهُ، فقال: «**دَعهُ، فإنَّ له أصحابًا، يَحقِرُ أحَدُكُم صَلاتَهُ مع صَلاتِهِم، وصيامَهُ مع صيامِهِم، يَقرَءونَ القُرآنَ لا يُجاوِزُ تَراقيَهُم، يَمرُقونَ مِنَ الدِّينِ، كَما يَمرُقُ السَّهمُ مِنَ الرميَّةِ**»[(١)].

* بَيعُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشِراؤُهُ بنَفسِهِ:

كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبيعُ ويَشتَري، ويَفعَلُ ذلك أحيانًا بنَفسِهِ، ومِن ذلك:

* أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اشتَرى جَمَلَ جابِرٍ، ثُمَّ وهَبَهُ لَهُ:

فعن جابِرِ بنِ عبدِالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّهُ كان يَسيرُ على جَمَلٍ لَهُ قَد أعيا، فأرادَ أن يُسَيِّبَهُ[(٢)]، قال: فلَحِقَني النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدَعا لي، وضَرَبَهُ، فسارَ سَيرًا لم يَسِر مِثلَهُ، قال: «**بِعنيهِ بوُقيَّةٍ**»، قُلتُ: لا، ثُمَّ قال: «**بِعنيهِ**»، فبِعتُهُ بوُقيَّةٍ، واستَثنَيتُ عليه حُملانَهُ إلى أهلي[(٣)]، يقولُ: فلمَّا بَلَغتُ أتَيتُهُ بالجَمَلِ، فنَقَدَني ثَمنه، ثُمَّ رَجَعتُ، فأرسَلَ في أثَري، فقال: «**أتُراني ماكَستُكَ؛ لِآخُذَ جَمَلَكَ؟ خُذ جَمَلَكَ ودَراهِمَكَ، فهو لَكَ**»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).

(٢) أي: يطلقه، وليس المراد: أن يجعله سائبةً، لا يركبه أحدٌ، كما كانوا يفعلون في الجاهليَّة؛ لأنَّه لا يجوز في الإسلام. الفتح (٥/ ٣١٥).

(٣) أي: اشترطت أن يكون لي حقُّ الرُّكوب والحمل عليه إلى المدينة.

(٤) رواه البخاري (٢٧١٨)، ومسلم (٧١٥)، واللفظ له.

*** واشتَرَى ﷺ بَعيرَ عمرَ، ثُمَّ أهداهُ لِعبدِالله بنِ عمرَ:**

فَعنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: كُنَّا مع النبيِّ ﷺ في سَفَرٍ، فكنتُ على بكرٍ[1] صَعبٍ لِعمرَ، فكان يَغلِبُني، فيَتَقَدَّمُ أمامَ القَومِ، فيَزجُرُهُ عمرُ ويَرُدُّهُ، ثُمَّ يَتَقَدَّمُ، فيَزجُرُهُ عمرُ ويَرُدُّهُ، فقال النبيُّ ﷺ لِعمرَ: «**بِعنيهِ**»، قال: هو لَكَ يا رسولَ اللهِ، قال: «**بِعنيهِ**»، فباعَهُ من رسولِ اللهِ ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ: «**هوَ لَكَ يا عبدَاللهِ بنَ عمرَ، تَصنَعُ بِهِ ما شِئتَ**»[2].

*** واشتَرَى ﷺ الناقةَ من أبي بكرٍ، لَيلَةَ الهِجرَةِ:**

فَفي خَبَرِ الهِجرَةِ: قال النبيُّ ﷺ لأبي بكرٍ: «**أشَعرتَ أنَّهُ قَد أُذِنَ لي في الخُروجِ؟**»، قال: الصُّحبَةَ يا رسولَ اللهِ، قال: «**الصُّحبَةَ**»، قال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ عندي ناقَتَينِ أعدَدتُهُما للخُروجِ، فخُذ إحداهُما، قال: «**قَد أخَذتُها بالثَّمَنِ**»[3].

قال السُّهَيلِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «سُئِلَ بَعضُ أهلِ العِلمِ: لِمَ لم يَقبلها إلا بالثّمَنِ، وقد أنفَقَ أبو بكرٍ عليه من مالِهِ ما هو أكثَرُ من هَذا، فقَبِلَ؟

فقال المسئولُ: إنَّما ذلك؛ لِتكونَ هِجرَتُهُ إلى اللهِ بنَفسِهِ ومالِهِ؛ رَغبَةً منه -عَلَيْهِ السَّلَامُ- في استِكمالِ فضلِ الهِجرَةِ والجِهادِ على أتَمِّ أحوالِها، وهو قولٌ حَسَنٌ»[4].

*** وكان ﷺ يَبيعُ بالمُزايَدَةِ:**

فعن جابِرِ بنِ عبدِالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أنَّ رَجُلًا أعتَقَ غُلامًا لهُ عن دُبُرٍ[5]، فاحتاجَ، فأخَذَهُ النبيُّ ﷺ، فقال: «**مَن يَشتَريهِ مِنِّي؟**» فاشتَراهُ نُعَيمُ بنُ عبدِالله بثَمانِمائَةِ دِرهَمٍ، فجاءَ بها

---

(١) البكر: الفتيُّ من الإبل.

(٢) رواه البخاري (٢١١٥).

(٣) رواه البخاري (٢١٣٨).

(٤) الروض الأنف (٤/ ١٣٠).

(٥) أي: يصير حرًّا، بعد موت سيِّده.

رسولَ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدَفَعَها إليه، ثُمَّ قال: «**ابدَأ بنَفسِكَ، فتَصَدَّق عليها، فإن فضَلَ شيءٌ: فلأهلِكَ، فإن فضَلَ عن أهلِكَ شيءٌ: فلِذي قَرابَتِك، فإن فضَلَ عن قَرابَتِك شيءٌ: فهَكَذا، وهَكَذا**»، يقولُ: فبين يَدَيكَ، وعن يَمينِكَ، وعن شِمالِكَ[1].

وبَوَّبَ **عليه البخاري، بقولِهِ:** «بابُ بَيعِ المُزايَدَةِ».

لكن مع جَوازِ البَيعِ بالمُزايَدَةِ، يَحرُمُ النَّجشُ:

فَعنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «نَهَى النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن النَّجشِ»[2].

والنَّجش: «هو أن يَزيدَ في ثَمَنِ السِّلعَةِ، لا لِرَغبَةٍ فيها؛ بل لِيَخدَعَ غَيرَهُ ويَغُرَّهُ؛ لِيَزيدَ ويَشتَرِيَها، وهذا حَرامٌ بالإجماعِ»[3].

*** وكان صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبيعُ على النَّصيحَةِ والصِّدقِ:**

قال عبدُالمجيدِ بنُ وهبٍ: قال لي العَدَّاءُ بنُ خالِدِ بنِ هَوذَةَ: ألا نُقرِئُكَ كِتابًا، كَتَبَهُ لي رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: قُلتُ: بَلى، فأخرَجَ لي كِتابًا، فإذا فيهِ: «**هَذا ما اشتَرَى العَدَّاءُ بنُ خالِدِ بنِ هَوذَةَ، من محمدٍ رسولِ اللهِ** صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **اشتَرَى منه عبدًا- أو: أمَةً- لا داءَ**[4]**، ولا غائِلَةَ**[5]**، ولا خِبثَةَ**[6]**، بَيعَ المسلمِ، للمُسلِمِ**»[7].

*** وكان صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُساوِمُ في الشِّراءِ، ولا يَبخَسُ الناسَ حَقَّهُم:**

عن سوَيدِ بنِ قَيسٍ، قال: جَلَبتُ أنا ومَخرَفَةُ العبديُّ بَزًّا[8] من هَجَرَ، فأتَينا بِهِ مَكَّةَ،

---

(١) رواه البخاري (٢١٤١)، ومسلم (٩٩٧)، واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٢١٤٢)، ومسلم (١٥١٦).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٠/ ١٥٩).

(٤) يعني: ليس فيه داءٌ، لا يطَّلع عليه.

(٥) لا فجور، ولا خيانة.

(٦) المراد: الأخلاق الخبيثة، كالإباق.

(٧) رواه البخاري معلَّقًا بصيغة التَّمريض (٣/ ٥٨)، والترمذي (١٢١٦)، وابن ماجه (٢٢٥١)، وحسنه الألباني.

(٨) نوعٌ من الثِّياب.

فجاءَنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمشي، فساوَمَنا بسَراويلَ، فبِعناهُ، وثَمَّ رَجُلٌ يَزِنُ بالأجرِ، فقال له رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**زِنْ وأرجِحْ**»[١].

ومِن فوائِدِ الحديثِ:

فيهِ: جَوازُ المُساوَمَةِ في الشِّراءِ.

وفيهِ: بَيانُ خُلُقِهِ وكَرَمِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث زادَ عَلَى القيمَةِ.

وفيهِ: بَيانُ تَواضُعِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث جاءَ إليهم ماشيًا، لا راكِبًا.

وفيهِ: دَليلٌ على جَوازِ أخذِ الأُجرَةِ على الوَزنِ والكيلِ، وما في مَعناهُما.

وفيهِ: جَوازُ لُبسِ السَّراويلِ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «واشتَرَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَراويلَ، والظَّاهِرُ أنَّهُ إنَّما اشتَراها؛ ليَلبَسَها»[٢].

*** وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَشتَري بالنَّسيئَةِ، ولا يُكرِهُ البائِعَ، أو يُلِحُّ عليه في ذلك:**

فعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: كان على رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَوبانِ قِطريَّانِ غَليظانِ، فكان إذا قَعَدَ فعَرِقَ ثَقُلا عليه، فقَدِمَ بَزٌّ مِنَ الشَّامِ لِفُلانٍ اليَهوديِّ، فقُلتُ: لَو بَعَثتَ إليه، فاشتَرَيتَ منه ثَوبَينِ إلى الميسَرةِ، فأرسَلَ إليه، فقال: قَد عَلِمتُ ما يُريدُ محمدٌ، إنَّما يُريدُ أن يَذهَبَ بمالي! فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كَذَبَ، قَد عَلِمَ أنِّي من أتقاهُم للهِ، وآداهُم للأمانَةِ**»[٣].

وبَوَّبَ **عليه التِّرمذيُّ، بقولِهِ**: «بابُ ما جاءَ في الرُّخصَةِ في الشِّراءِ إلى أجَلٍ».

---

(١) رواه أبوداود (٣٣٣٦)، والترمذي (١٣٠٥)، وصححه، والنَّسائيّ (٤٥٩٢)، وابن ماجه (٢٢٢٠)، وصححه الألباني.

وقوله: «زن، وأرجح»: أي: زن الدَّراهم، وليس السَّراويل، كما قد يتوهَّم.

(٢) زاد المعاد (١/ ١٣٤)، وانظر: شرح المشكاة، للطِّيبيِّ (٧/ ٢١٨١).

(٣) رواه الترمذي (١٢١٣)، وصححه، والنَّسائيّ (٤٦٢٨)، وصححه الألباني.

قال الصَّنعانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فيه دَليلٌ** على بَيعِ النَّسيئَةِ، وصِحَّةِ التَّأجيلِ إلى مَيسَرَةٍ.

وفيهِ: ما كان عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حُسنِ مُعامَلَةِ العِبادِ، وعَدَمِ إكراهِهِم على الشَّيءِ، وعَدَمِ الإلحاحِ عليهم»[١].

* مُشارَكَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، غَيرَهُ في التِّجارَةِ:

ثَبَتَ عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ -كَما باعَ واشتَرَى- شارَكَ في التِّجارَةِ، ومِن ذلك:

عنِ السَّائِبِ بنِ أبي السَّائِبِ، قال: أتَيتُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجَعَلوا يُثنونَ عَلَيَّ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنا أعلَمُكُم به**»، قُلتُ: صَدَقتَ -بِأبي أنتَ وأُمِّي- كُنتَ شَريكي[٢] فنِعمَ الشَّريكُ، كُنتَ لا تُداري، ولا تُماري[٣].

معنى: «لا تُداري»:

لا تُخالِفُ ولا تُمانِعُ، يَصِفُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحُسنِ الخُلُقِ، والسُّهولَةِ في المُعامَلَةِ.

وقولُهُ: «لا تُماري»:

يُريدُ: المِراءَ والخُصومَةَ[٤].

فَفيهِ: بَيانُ ما كان عليه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حُسنِ المُعامَلَةِ والرِّفقِ قبلَ النُّبوَّةِ، وبَعدَها -من بابِ أولى-.

---

(١) سبل السَّلام (٥/ ١٢٨).
(٢) يعني: قبل الإسلام.
(٣) رواه أبوداود (٤٨٣٦)، وابن ماجه (٢٢٨٧)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.
(٤) معالم السُّنن للخطَّابيِّ (٤/ ١١٦) باختصارٍ.

مُدايَناتُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

* كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَستَدينُ مِنَ الناسِ.

وكان أوفَى الناسِ قَضاءً، فكان يَرُدُّ الدَّينَ في مَوعِدِه، ويَزيدُ لِصاحِبِ الدَّينِ، ويَدعو لَهُ، ويَصبِرُ على جَفوَتِهِ، وكان يَجتَهِدُ في قَضاءِ الدَّينِ الذي عليه، ولو أدَّى ذلك إلى الاِقتِراضِ مَرَّةً أُخرَي.

* فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَستَدينُ، ويوَثِّقُ الدَّينَ:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «واستَدانَ برَهنٍ، وبِغَيرِ رَهنٍ، واستَعارَ، واشتَرَى بالثَّمَنِ الحالِّ، والمُؤَجَّلِ»[1].

فعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اشتَرَى من يَهوديٍّ طعامًا إلى أجَلٍ مَعلومٍ، وارتَهَنَ منه دِرعًا من حَديدٍ»[2].

وفي هذا الحديثِ: جَوازُ شِراءِ الطَّعامِ بالنَّسيئَةِ، إذا لم يَكُنِ الثَّمَنُ طعامًا، أو كان الطَّعامُ المُشتَرَى نَقدًا.

وفيهِ: جَوازُ الرهنِ بالدُّيونِ.

وفيهِ: جَوازُ الرهنِ في الحَضَرِ، وإن كان ذلك جاءَ مُقَيَّدًا في القُرآنِ بالسَّفَرِ: ﴿**وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ**﴾ [البقرة: ٢٨٣]، لكنَّ السنةَ تُبينُ، وتُفَصِّلُ، وتُشَرِّعُ.

وفيهِ: مُعامَلَةُ اليَهودِ، وأهلِ الذِّمَّةِ، وسائِرِ الكُفَّارِ، وأنَّ الأصلَ فيها الإباحَةُ.

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَجوزُ مُعامَلَةُ الكُفَّارِ فيما لم يَتَحَقَّق تَحريمُ عَينِ المُتعامَلِ فيه، وعَدَمُ الاِعتِبارِ بفَسادِ مُعتَقَدِهِم ومُعامَلاتِهِم فيما بينَهُم»[3].

---

(١) زاد المعاد (١/ ١٥٦).

(٢) رواه البخاري (٢٢٥٢)، ومسلم (١٦٠٣).

(٣) فتح الباري (٥/ ١٤١) بتصرُّفٍ يسيرٍ.

وفيهِ: جَوازُ التِّجارَةِ مع سائِرِ الكُفَّارِ بالنَّقدِ، والنَّسيئَةِ؛ لأنَّها إذا جازَت بالنَّسيئَةِ، فهيَ بالنَّقدِ أجوَزُ.

وفيهِ: مُباشَرَةُ الشَّريفِ، والإمامِ، والعالِمِ، شِراءَ الحَوائِجِ بنَفسِهِ، وإن كان له مَن يَكفيهِ؛ إيثارًا للتَّواضُعِ، وخُروجًا عن أحوالِ المُتكَبِّرينَ.

وفيهِ: جَوازُ ادِّخارِ القوتِ[١].

وقال الحافظُ: «**قال العُلَماءُ**: الحِكمَةُ في عُدولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن مُعامَلَةِ مَياسيرِ الصَّحابَةِ، إلى مُعامَلَةِ اليَهودِ: إمَّا لِبَيانِ الجَوازِ، أو لأنَّهُم لم يَكُن عندَهُم -إذ ذاكَ- طعامٌ فاضل عن حاجَةِ غَيرِهِم، أو خَشيَ أنَّهُم لا يَأخُذونَ منه ثَمَنًا، أو عِوَضًا، فلَم يُرِدِ التَّضييقَ عليهم، فإنَّهُ لا يَبعُدُ أن يكونَ فيهِم -إذ ذاكَ- مَن يَقدِرُ على ذلك، وأكثَرَ منه، فلَعَلَّهُ لم يُطلِعهُم على ذلك، وإنَّما أطلَعَ عليه مَن لم يَكُن موسِرًا بِهِ، مِمَّن نَقَلَ ذلك»[٢].

*** وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسَنَ الناسِ قَضاءً للحُقوقِ، فكان يَرُدُّ الدَّينَ بأفضَلَ منه:**

فعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان لِرَجُلٍ على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِنٌّ مِنَ الإبِلِ[٣]، فجاءَهُ يَتَقاضاهُ، فقال: «**أعطوهُ**»، فطَلَبوا سِنَّهُ، فلَم يَجِدوا لهُ إلا سِنًّا فوقَها، فقال: «**أعطوهُ**»، فقال: أوفيتَني[٤]، أوفَى اللهُ بكَ، قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ خيارَكُم أحسَنُكُم قَضاءً**»[٥].

وفي رواية: أنَّ رَجُلًا أتَى النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَقاضاهُ، فأغلَظَ، فهَمَّ بِهِ أصحابُهُ[٦]، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَعوهُ؛ فإنَّ لِصاحِبِ الحَقِّ مَقالا**[٧]»، ثُمَّ قال: «**أعطوهُ سِنًّا مِثلَ**

---

(١) إكمال المعلم، للقاضي عياض (٥/ ٣٠٣)، التَّوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملقِّن (١٤/ ٢٠٥)، شرح السُّنَّة، للبغويِّ (٨/ ١٨٢)

(٢) فتح الباري (٥/ ١٤١).

(٣) أي: ذو سنٍّ معيَّنٍ منها

(٤) أعطيتني حقِّي وافيًا.

(٥) رواه البخاري (٢٣٠٥)، ومسلم (١٦٠١).

(٦) أي: قصدوه؛ ليؤذوه باللِّسان، أو باليد.

(٧) له قوَّة الحجَّة، والتَّوسُّع في الكلام بما لا يقدح.

سِنِّهِ»، قالوا: يا رسولَ اللهِ، إلا أمثَلَ من سِنِّهِ، فقال: «**أعطوهُ؛ فإنَّ من خَيرِكُم أحسَنَكُم قَضاءً**»(١).

وفي الحديثِ: حُسنُ خُلُقِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعِظَمُ حِلمِهِ، وتَواضُعِهِ، وإنصافِهِ.

وفيهِ: أنَّ مَن عليه دَينٌ، لا يَنبَغي له مُجافاةُ صاحِبِ الحَقِّ.

وفيهِ: جَوازُ المُطالَبَةِ بالدَّينِ إذا حَلَّ أجَلُهُ.

وفيهِ: أنَّ مَن أساءَ الأدَبَ على الإمامِ، كان عليه التَّعزيرُ بما يَقتَضيهِ الحالُ، إلا أن يَعفوَ صاحِبُ الحَقِّ.

وفيهِ: جَوازُ استِقراضِ الإبِلِ، ويَلتَحِقُ بها جَميعُ الحَيَواناتِ، وهو قولُ أكثَرِ أهلِ العِلمِ.

وفيهِ: أنَّ الاِقتِراضَ في البِرِّ والطَّاعَةِ- وكذا: الأُمور المُباحَة- لا يُعابُ.

وفيهِ: أنَّ للإمامِ أن يَقتَرِضَ على بَيتِ المالِ لِحاجَةِ بَعضِ المُحتاجينَ؛ ليوَفِّيَ ذلك من مالِ الصَّدَقاتِ.

وفيهِ: أنَّهُ يُحتَمَلُ من صاحِبِ الدَّينِ، الكلامُ المُعتادُ في المُطالَبَةِ.

وهذا الإغلاظُ المذكورُ، مَحمولٌ على تَشَدُّدٍ في المُطالَبَةِ ونَحوِ ذلك، من غَيرِ كَلامٍ فيه قَدحٌ أو غَيرُهُ، مِمَّا يَقتَضي الكُفرَ(٢).

وعن جابِرِ بنِ عبدِاللهِ، قال: أتَيتُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في المسجِدِ، فقال: «صَلِّ رَكعَتَينِ»، وكان لي عليه دَينٌ، فقَضاني، وزادَني(٣).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُستَحَبُّ لِمَن عليه دَينٌ، من قَرضٍ وغَيرِهِ، أن يَرُدَّ أجوَدَ مِنَ الذي عليه، وهذا مِنَ السُّنَّةِ، ومَكارِمِ الأخلاقِ.

---

(١) رواه البخاري (٢٣٠٦)، ومسلم (١٦٠١).

(٢) فتح الباري (٥/ ٥٧)، شرح النووي على مسلم (١١/ ٣٧).

(٣) رواه البخاري (٤٤٣)، ومسلم (٧١٥).

وليس هو مِن: «قَرضٍ جَرَّ مَنفَعَةً»؛ فإنَّهُ منهيٌّ عَنهُ؛ لأنَّ المنهيَّ عَنهُ ما كان مشروطًا في عَقدِ القَرضِ»[1].

* وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجتَهِدُ في قَضاءِ الدَّينِ الذي عليه، ولو أدَّى ذلك إلى الاقتِراضِ مرَّةً أخرى:

فعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: جاءَ أعرابيٌّ إلى النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَقاضاهُ دَينًا كان عليه، فاشتَدَّ عليه، حتى قال لَهُ: أُحَرِّجُ عليكَ إلا قَضَيتَني! فانتَهَرَهُ أصحابُهُ، وقالوا: ويحَكَ! تَدري مَن تُكَلِّمُ؟ قال: إنِّي أطلُبُ حَقِّي، فقال النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَلَّا مع صاحِبِ الحَقِّ كنتُم؟**»، ثُمَّ أرسَلَ إلى خَولَةَ بنتِ قَيسٍ، فقال لها: «**إن كان عندَكِ تَمرٌ، فأقرِضينا، حتى يَأتيَنا تَمرُنا، فنَقضيَكِ**»، فقالت: نعم، بأبي أنتَ يا رسولَ اللهِ، قال: فأقرَضَتهُ، فقَضَى الأعرابيَّ، وأطعَمَهُ، فقال: أوفيتَ، أوفَى اللهُ لَكَ، فقال: «**أولَئِكَ خيارُ الناسِ، إنَّهُ لا قُدِّسَت أُمَّةٌ، لا يَأخُذُ الضَّعيفُ فيها حَقَّهُ، غيرَ مُتعتَعٍ**[2]»[3].

والمعنى: «مِن أينَ تَستَحِقُّ التَّقديسَ أُمَّةٌ هذا شَأنُها: يُضطَهَدُ الضَّعيفُ، ولا يُنكَرُ ذلك؟

وفيهِ دَليلٌ أنَّ الأُمَّةَ تُعاقَبُ كُلُّها إن اهتُضِمَ فيها الضَّعيفُ، وتُرِكَ الإنكارُ على هَذا»[4].

* وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَشكُرُ صاحِبَ الدَّينِ، ويَدعو له بأحسَنِ الدُّعاءِ:

فعن عبدِاللهِ بنِ أبي رَبيعَةَ، قال: استَقرَضَ مِنِّي النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربَعينَ ألفًا، فجاءَهُ مالٌ، فدَفَعَهُ إلَيَّ، وقال: «**بارَكَ اللهُ لَكَ في أهلِكَ ومالِكَ، إنَّما جَزاءُ السَّلَفِ: الحَمدُ والأداءُ**»[5].

---

(١) شرح النووي على مسلم (١١/ ٣٧).

(٢) أي: من غير أن يصيبه أذًى يقلقه، ويزعجه.

(٣) رواه ابن ماجه (٢٤٢٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٢١).

(٤) التَّنوير شرح الجامع الصَّغير للصَّنعانيِّ (٨/ ٢٥٤) بتصرُّفٍ يسيرٍ.

(٥) رواه النَّسائيّ (٤٦٨٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٥٣).

* وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحرَصَ ما يَكونُ على وفاءِ الدَّينِ:

فعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: كنتُ أمشي مع النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حَرَّةِ المدينَةِ، فاستَقبَلَنا أُحُدٌ، فقال: «**يا أبا ذَرٍّ**»، قُلتُ: لَبَّيكَ يا رسولَ اللهِ، قال: «**ما يَسُرُّني أنَّ عندي مِثلَ أُحُدٍ هذا ذَهَبًا، تَمضي عَلَيَّ ثالِثَةٌ، وعندي منه دينارٌ، إلا شَيئًا أرصُدُهُ لِدَينٍ**[1]**، إلا أن أقولَ بهِ في عِبادِ اللهِ: هَكَذا، وهَكَذا، وهَكَذا**» **عن** يَمينِهِ، وعن شِمالِهِ، ومِن خَلفِهِ[2].

* وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَشفَعُ في تَخفيفِ الدَّينِ عن المدينِ:

عن جابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: أُصيبَ عبدُاللهِ[3]، وتَرَكَ عيالاً، ودَينًا، فطَلَبتُ إلى أصحابِ الدَّينِ أن يَضَعوا بَعضًا من دَينِهِ، فأبَوا، فأتَيتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاستَشفَعتُ بهِ عليهم، فأبَوا، فقال: «**صَنِّف تَمرَكَ**[4]**، كُلَّ شيءٍ منه على حِدَتِهِ: عِذقَ ابنِ زَيدٍ على حِدَةٍ، واللِّينَ على حِدَةٍ، والعَجوَةَ على حِدَةٍ، ثُمَّ أحضِرهُم، حتى آتيَكَ**»، ففَعَلتُ، ثُمَّ جاءَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقَعَدَ عليه، وكالَ لِكُلِّ رَجُلٍ حتى استَوفَى، وبَقيَ التَّمرُ كَما هوَ، كَأنَّهُ لم يُمَسَّ[5].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: سَمِعَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَوتَ خُصومٍ بالبابِ عاليَةٍ أصواتُهُما، وإذا أحَدُهُما يَستَوضِعُ الآخَرَ، ويَستَرفِقُهُ في شيءٍ، وهو يقولُ: واللهِ لا أفعَلُ، فخرجَ عليهما رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**أينَ المُتَأَلِّي على اللهِ، لا يَفعَلُ المعروفَ؟**»، فقال: أنا يا رسولَ اللهِ، ولَهُ أيُّ ذلك أحَبَّ[6].

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «**في هَذا:** كَراهَةُ الحَلِفِ على تَركِ الخَيرِ، وإنكارُ ذلك، وأنَّهُ يُستَحَبُّ

---

(١) أعدُّه، أو: أحفظه.

(٢) رواه البخاري (٦٤٤٤)، ومسلم (٩٩١).

(٣) يعني: أباه.

(٤) اجعل كلَّ صنفٍ منه على حدةٍ.

(٥) رواه البخاري (٢٤٠٥).

(٦) رواه البخاري (٢٧٠٥)، ومسلم (١٥٥٧).

لِمَن حَلَفَ: لا يَفعَلُ خَيرًا، أن يَحنَثَ، فيُكَفِّرَ عن يَمينِهِ، وفيهِ: الشَّفاعَةُ إلى أصحابِ الحُقوقِ، وقَبولُ الشَّفاعَةِ في الخَيرِ»[١].

وفيهِ: ما كان عليه الصّحابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، من تَعظيمِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وامتِثالِ أمرِهِ، وقَبولِ شَفاعَتِهِ.

أمَّا ما جاءَ في حديثِ جابرٍ السَّابِقِ، مِن قَولِهِ: «فاستَشفَعتُ بِهِ عليهم، فأبَوا»، فلعلّهُم كانوا ذَوي حاجَةٍ، أو كان الرفضُ لِعِلّةٍ صَحيحَةٍ، ويُؤيّدُهُ: ما جاءَ في رِوايَةِ أحمَدَ: ثُمَّ قال: «**ادعُ لي فُلانًا**» لِغَريمي، الذي اشتَدَّ عَلَيَّ في الطَّلَبِ، قال: فجاءَ فقال: «**أيسِر جابرَ بنَ عبدِاللهِ** -يعني: إلى الميسَرَةِ-، **طائِفَةً من دَينِكَ، الذي على أبيهِ، إلى هذا الصِّرامِ المُقبِلِ**»، قال: ما أنا بفاعِلٍ، واعتَلَّ، وقال: إنَّما هو مالُ يَتامَى[٢].

* **ومِن ذلك: أنّه كان يُراوِدُ الخَصمَينِ -الدَّائنَ، والمدينَ- على الصُّلحِ، ويَحُثُّ الدَّائِنَ على الوَضعِ من دَينِهِ:**

فعن كَعبِ بنِ مالِكٍ، أنَّهُ تَقاضَى ابنَ أبي حَدرَدٍ دَينًا كان له عليه في المسجِدِ، فارتَفَعَت أصواتُهُما، حتى سَمِعَها رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في بَيتِهِ، فخرجَ إليهِما، حتى كَشَفَ سِجفَ حُجرَتِهِ[٣]، فنادَى: «**يا كعبُ**»، قال: لَبَّيكَ يا رسولَ اللهِ، قال: «**ضَع من دَينِكَ هَذا**»، وأومَأ إليه: أيِ الشَّطرَ، قال: لَقَد فعَلتُ يا رسولَ اللهِ، قال: «**قُمْ فاقضِهِ**»[٤].

قال ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وهذا يَدُلُّ عَلى**: أن للحاكِمِ أن يُراوِد الخَصمَينِ على الصُّلحِ، إذا رَأى وجهَ المصلحَةِ، كما يَفصِلُ الحُكمَ بينهُما»[٥].

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٠/ ٢٢٠).
(٢) رواه أحمد (١٥٢٨١)، وصححه محققو المسند.
(٣) أي: سترها.
(٤) رواه البخاري (٤٥٧)، ومسلم (١٥٥٨).
(٥) كشف المشكل (٢/ ١٢١).

وقال ابنُ المُلقّنِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه دلالةٌ على إباحةِ رَفعِ الصُّوتِ في المسجِدِ، ما لَمْ يَتفاحَش؛ لِعَدمِ الإنكارِ منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن تَفاحَشَ: كان مَمنوعًا.

وفيه: الاعتِمادُ على الإشارَةِ؛ لِقولِهِ: «وَأومَأ إليه» أي الشّطر، وأنّها بمنزِلَةِ الكلامِ إذا فُهِمَت؛ لِدلالتِها عليه، فصَحَّ -عَلَى هَذا-: يَمينُ الأخرسِ، ولِعانُهُ، وعُقودُهُ، إذا فُهِمَ عنه ذلك.

وهذا الأمرُ منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على جِهةِ الإرشادِ إلى الصّلحِ، وهو صُلحٌ على الإقرارِ المُتّفَقِ عليه؛ لأنّ نِزاعَهُما لَمْ يَكن في الدَّينِ، إنّما كان في التّقاضي، وأمَّا الصُّلحُ على الإنكارِ: فأجازَهُ أبو حَنيفةَ، ومالِكٌ، وهو قَولُ الحَسَنِ، وأبطَلَهُ الشافعيُّ، وابنُ أبي لَيلى.

وفيه: الشّفاعَةُ إلى صاحِبِ الحَقِّ، والإصلاحُ بين الخُصومِ، وحُسنُ التَّوسُّطِ بينهُم، وقَبولُ الشّفاعَةِ في غَيرِ مَعصيَةٍ.

وقولُهُ: «**قُمْ فاقضِهِ**» أمرُ إيجابٍ؛ لأنّ رَبَّ الدَّينِ لَمَّا أطاعَ بوضعِ ما أُمِرَ بِهِ، تَعيَّنَ على المديونِ أن يَقومَ بما بَقيَ عليه؛ لِئَلَّا يَجتَمِعَ على رَبِّ الدِّينِ وضيعَةٌ ومَطلٌ، وهكذا يَنبغي أن يُبتَّ الأمرُ بين المُتصالِحَينِ، فلا يُترَكُ دَينُهُما عَلَقَةً -ما أمكَنَ-.

وفيه -أيضًا-: أنَّ الحاكِمَ إذا سَمِعَ قولَ الخَصمَينِ، أن يُشيرَ عليهما بالصُّلحِ، ويَأمُرَهُما بِهِ، وأنّهُ إذا ثَبَتَ عندَهُ عُسرُ المديونِ، يَأمُرُ بالوَضيعَةِ؛ لِقَطعِ الخُصومِ، وإصلاحِ ذاتِ البَينِ»[١].

❋ بل كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَضمَنُ -أحيانًا- دَينَ بَعضِ أصحابِهِ:

فَعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ رَجُلًا لَزِمَ غَريمًا لهُ بعَشَرَةِ دَنانيرَ، على عَهدِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: ما عندي شيءٌ أُعطيكَهُ، فقال: لا واللهِ، لا أُفارِقُكَ حتى تَقضيَني، أو تَأتيَني بحَميلٍ[٢]، فجَرَّهُ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كَم تَستَنظِرُهُ؟**»، فقال: شَهرًا، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَأنا أحمِلُ لَهُ**»[٣].

---

(١) التُّوضيح (٥/ ٥٧٧ -٥٧٨).

(٢) أي: كفيلٍ.

(٣) رواه أبوداود (٣٣٢٨)، وابن ماجه (٢٤٠٦)، واللفظ له، وصححه الألباني.

وعِندَ أبي داودَ: «فَتَحمَّلَ بها النبيُّ ﷺ»، أي: تَكفَّلَ.

وفي هذا الحديثِ: إثباتُ الحَمالَةِ (الكفالَةِ)، والضَّمانِ.

وفيهِ: إثباتُ مُلازَمَةِ الغَريمِ، ومَنعِهِ مِنَ التَّصرُّفُ، حتى يَخرُجَ مِنَ الحَقِّ الذي عليه.

* وتحمَّلَ ﷺ دُيونَ مَن ماتَ من أُمَّتِهِ، وعليه دَينٌ:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يُؤتَى بالرجُلِ المُتوفَّى عليه الدَّينُ، فيَسألُ: «**هَل تَرَكَ لِدَينِهِ من قَضاءٍ؟**»، فإن حُدِّثَ أنَّهُ تَرَكَ لِدَينِهِ وفاءً صَلَّى عليه، وإلَّا قال للمُسلِمينَ: «**صَلُّوا على صاحِبِكُم**»، فلمَّا فتَحَ اللهُ عليه الفُتوحَ، قال: «**أنا أولى بالمُؤمِنينَ من أنفُسِهِم، فمَن تُوُفِّيَ مِنَ المُؤمِنينَ فتَرَكَ دَينًا فعَلَيَّ قَضاؤُهُ، ومَن تَرَكَ مالًا فلِوَرَثَتِهِ**»[1].

قال ابنُ حجرٍ: «وَهَل كان ذلك من خَصائِصِهِ ﷺ، أو يَجِبُ على وُلاةِ الأمرِ بعدَهُ؟

والراجِحُ: الاِستِمرارُ، لكنَّ وُجوبَ الوَفاءِ، إنَّما هو من مالِ المصالِحِ»[2].

وقال النووي رحمه الله: «**معنى هذا الحديثِ**: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: أنا قائِمٌ بمَصالِحِكُم، في حَياةِ أحَدِكُم ومَوتِهِ، وأنا وليُّهُ في الحالَينِ، فإن كان عليه دَينٌ قَضَيتُهُ من عندي، إن لم يُخَلِّف وفاءً، وإن كان له مالٌ فهو لِوَرَثَتِهِ، لا آخُذُ منه شَيئًا، وإن خَلَّفَ عيالًا مُحتاجينَ ضائِعينَ فليَأتوا إلَيَّ، فعَلَيَّ نَفَقَتُهُم ومُؤنَتُهُم»[3].

إيجارُهُ واستئجارُهُ ﷺ

قال ابن القيم رحمه الله: «وَأجَّرَ، واستَأجَرَ، واستِئجارُهُ أكثَرُ من إيجارِهِ، وإنَّما يُحفَظُ عنه أنَّهُ آجرَ نَفسَهُ قبلَ النُّبوَّةِ في رِعايَةِ الغَنَمِ، وآجرَ نَفسَهُ من خديجَةَ، في سَفَرِهِ بمالِها إلى الشَّامِ، وإن كان العَقدُ مُضارَبَةً، فالمُضارِبُ أمينٌ، وأجيرٌ، ووَكيلٌ، وشَريكٌ.

---

(١) رواه البخاري (٢٢٩٨)، ومسلم (١٦١٩).

(٢) فتح الباري (١٢/ ١٠).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ٦١).

فأمينٌ إذا قَبَضَ المالَ، ووَكيلٌ إذا تَصَرَّفَ فيه، وأجيرٌ فيما يُباشِرُهُ بنَفسِهِ مِنَ العَمَلِ، وشَريكٌ إذا ظَهَرَ فيه الرِّبحُ»[١].

* عَمِلَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجيرًا في رعيِ الغَنَمِ قبلَ البَعثَةِ:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**ما بَعَثَ اللهُ نَبيًّا إلا رَعَى الغَنَمَ**»، فقال أصحابُهُ: وأنتَ؟ فقال: «**نَعَم، كنتُ أرعاها على قَراريطَ**[٢] **لأهلِ مَكَّةَ**»[٣].

قال الحافظ رَحِمَهُ اللهُ: «**قال العُلَماءُ**: الحِكمَةُ في إلهامِ الأنبياءِ من رَعيِ الغَنَمِ قبلَ النُّبوَّةِ: أن يَحصُلَ لهم التَّمرُّنُ برَعيِها على ما يُكَلَّفونَهُ مِنَ القيامِ بأمرِ أُمَّتِهِم، ولأنَّ في مُخالَطَتِها ما يُحَصِّلُ لهم الحِلمَ، والشَّفَقَةَ؛ لأنَّهُم إذا صَبَروا على رَعيِها، وجَمعِها بعدَ تَفرُّقِها في المرعَى، ونَقلِها من مَسرَحٍ إلى مَسرَحٍ، ودَفعِ عَدوِّها من سَبُعٍ وغَيرِهِ، كالسَّارِقِ، وعَلِموا اختِلافَ طِباعِها، وشِدَّةَ تَفَرُّقِها، مع ضَعفِها، واحتياجِها إلى المُعاهَدَةِ: أَلِفوا من ذلك الصَّبرَ على الأُمَّةِ، وعَرَفوا اختِلافَ طِباعِها، وتَفاوُتَ عُقولِها، فجَبَروا كَسرَها، ورَفَقوا بضَعيفِها، وأحسَنوا التَّعاهُدَ لها، فيكونُ تَحمُّلُهُم لِمَشَقَّةِ ذلك أسهَلَ مِمَّا لَو كُلِّفوا القيامَ بذلك من أوَّلِ وهلَةٍ؛ لِما يَحصُلُ لهم مِنَ التَّدريجِ على ذلك برَعيِ الغَنَمِ.

وخُصَّتِ الغَنَمُ بذلك؛ لِكَونِها أضعَفَ من غَيرِها، ولأنَّ تَفَرُّقَها أكثَرُ من تَفرُّقِ الإبلِ والبَقَرِ؛ لإمكانِ ضَبطِ الإبِلِ والبَقَرِ، بالربطِ دونَها في العادَةِ المألوفَةِ، ومَعَ أكثَريَّةِ تَفرُّقِها، فهيَ أسرَعُ انقيادًا من غَيرِها.

وفي ذِكرِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِذلك، بعدَ أن عَلِمَ كَونَهُ أكرَمَ الخَلقِ على اللهِ: ما كان عليه من عَظيمِ التَّواضُعِ لِرَبِّهِ، والتَّصريحِ بمِنَّتِهِ عليه وعلى إخوانِهِ مِنَ الأنبياء، صَلَواتُ اللهِ وسَلامُهُ عليه وعلى سائِرِ الأنبياءِ»[٤].

---

(١) زاد المعاد (١/ ١٥٤).

(٢) جزءٌ من النَّقد، وقيل: اسم موضعٍ بمكَّة.

(٣) رواه البخاري (٢٢٦٢).

(٤) فتح الباري (٤/ ٤٤١).

* وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَستأجِرُ، ويُعطي الأجيرَ أُجرَتَهُ:

فَقَد ثَبَتَ أنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استَأجَرَ هو وأبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في رِحلَةِ الهِجرَةِ «عبدَاللهِ بنَ أُرَيقِطٍ اللَّيثيَّ، وكان هاديًا ماهِرًا بالطَّريقِ، وكان على دينِ قَومِهِ من قُرَيشٍ، وأمِناهُ على ذلك، وسَلَّما إليه راحِلَتَيهِما، وواعَداهُ غارَ ثَورٍ بعدَ ثَلاثٍ، وجَدَّت قُرَيشٌ في طَلَبِهِما، وأخَذوا مَعَهُمُ القافَةَ، حتى انتَهَوا إلى بابِ الغارِ، فوَقَفوا عليه»[١].

فعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: «استَأجَرَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكرٍ رَجُلًا من بَني الدِّيلِ، ثُمَّ من بَني عبدِ بنِ عَديٍّ، هاديًا خِرِّيتًا، -الخِرِّيتُ: الماهِرُ بالهِدايَةِ- قَد غَمَسَ يَمينَ حِلفٍ في آلِ العاصِ بنِ وائِلٍ[٢]، وهو على دينِ كُفَّارِ قُرَيشٍ، فأمِناهُ، فدَفَعا إليه راحِلَتَيهِما، وواعَداهُ غارَ ثَورٍ بعدَ ثَلاثِ لَيالٍ، فأتاهُما براحِلَتَيهِما، صَبيحَةَ لَيالٍ ثَلاثٍ، فارتَحَلا، وانطَلَقَ مَعَهُما عامِرُ بنُ فُهَيرَةَ، والدَّليلُ الدِّيليُّ، فأخَذَ بِهِم أسفَلَ مَكَّةَ، وهو طَريقُ السَّاحِلِ»[٣].

وبَوَّبَ **عليه البخاري** رَحِمَهُ اللهُ: «بابُ استِئجارِ المُشرِكينَ عندَ الضَّرورَةِ، أو إذا لم يوجَد أهلُ الإسلامِ».

وبَوَّبَ **عليه في مَوضِعٍ آخَرَ**: «بابُ إذا استَأجَرَ أجيرًا ليَعمَلَ له بعدَ ثَلاثَةِ أيَّامٍ أو بعدَ شَهرٍ أو بعدَ سَنَةٍ جازَ، وهُما على شَرطِهِما الذي اشتَرَطاهُ، إذا جاءَ الأجَلُ»[٤].

* واحتَجَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأعطَى الحَجَّامَ أُجرَتَهُ:

فَعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: «حَجَمَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبدٌ لِبَني بَياضَةَ، فأعطاهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجرَهُ، وكَلَّمَ سَيِّدَهُ فخَفَّفَ عنه من ضَريبَتِهِ، ولو كان سُحتًا لم يُعطِهِ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[٥].

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٤٧).
(٢) يعني: دخل في جملتهم، وكانوا يغمسون أيديهم في الماء ونحوه عند التَّحالف.
(٣) رواه البخاري (٢٢٦٣).
(٤) صحيح البخاري (٣/ ٨٩).
(٥) رواه البخاري (٢٢٧٨)، ومسلم (١٢٠٢)، واللفظ له.

وسُئِلَ أنَسُ بنُ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن كَسبِ الحَجَّامِ، فقال: احتَجَمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَجَمَهُ أبو طَيبَةَ، فأمَرَ له بصاعَينِ من طعامٍ، وكَلَّمَ أهلَهُ فرَفَعوا عنه من خَراجِهِ، وقال: «**إنَّ أفضَلَ ما تَداوَيتُم بهِ الحِجامَةُ**»، أو: «**مِن أمثَلِ دَوائِكُم**»[١].

تَوكيلاتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وكَّلَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيرَهُ في كَثيرٍ مِنَ الأعمالِ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وَوكَّلَ، وتَوكَّلَ[٢]، وكان تَوكيلُهُ أكثَرَ من تَوكُّلِهِ»[٣].

والوَكالَةُ: **قال الحافظُ** رَحِمَهُ اللهُ: «**الوَكالَةُ** -بِفَتحِ الواوِ، وقد تُكسَرُ-: التَّفويضُ، والحِفظُ، تقولُ: وكَّلتُ فُلانًا: إذا استَحفَظتَهُ، ووَكَلت الأمرَ إليه -بالتَّخفيفِ-: إذا فوَّضتَهُ إليه، وهي في الشَّرعِ: إقامَةُ الشَّخصِ غَيرَهُ مَقامَ نَفسِهِ، مُطلَقًا، أو مُقَيَّدًا»[٤].

*** فَمِن تَوكُّلِهِ: أنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان وكيلًا لِخديجةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وسافَرَ بمالِها إلى الشَّامِ.**

*** ومِن تَوكيلاتِهِ: تَوكيلُهُ لِعُروَةَ البارِقيِّ، في شِراءِ شاةٍ:**

فعن شَبيبِ بنِ غَرقَدَةَ، قال: سَمِعتُ الحَيَّ[٥] يُحَدِّثونَ، عن عُروَةَ[٦]: «أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعطاهُ دينارًا، يَشتَري له بهِ شاةً، فاشتَرَى له بهِ شاتَينِ، فباعَ إحداهُما بدينارٍ، وجاءَهُ بدينارٍ وشاةٍ، فدَعا له بالبَرَكَةِ في بَيعِهِ، وكان لَوِ اشتَرَى التُّرابَ لَرَبِحَ فيهِ»[٧].

وفي روايةٍ: أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لَهُ: «**بارَكَ اللهُ لَكَ في صَفقَةِ يَمينِكَ**»، فكان

---

(١) رواه البخاري (٥٦٩٦)، ومسلم (١٥٧٧)، واللفظ له.

(٢) قبل الوكالة، فصار وكيلًا.

(٣) زاد المعاد (١/ ١٥٥).

(٤) فتح الباري (٤/ ٤٧٩).

(٥) أي: قبيلته.

(٦) البارقيِّ.

(٧) رواه البخاري (٣٦٤٢).

يَخرُجُ بعدَ ذلك إلى كُناسَةِ الكوفَةِ[١]، فيرَبَحُ الرِّبحَ العَظيمَ، فكان من أكثَرِ أهلِ الكوفَةِ مالًا[٢].

وفي رواية: أنَّهُ قال: «لَقَد رَأيتُني أقِفُ بكُناسَةِ الكوفَةِ، فأربَحُ أربَعينَ ألفًا، قبلَ أن أصِلَ إلى أهلي»[٣].

وفيهِ مُعجَزَةٌ ظاهِرَةٌ للنَّبيِّ ﷺ، **تَتَجَلَّى في استِجابَةِ دُعائِهِ** ﷺ **لهذا الصَّحابيِّ** الكريم، الذي بورِكَ له في التِّجارَةِ، بفَضلِ هذا الدُّعاءِ النبويِّ المُبارَكِ.

وفيهِ: بَيانُ مشروعيَّةِ وصِحَّةِ الوَكالَةِ، والإجماعُ مُستَقِرٌّ على هَذا.

وفيهِ: دَليلٌ على صِحَّةِ بَيعِ الفُضوليِّ، إن أجازَهُ صاحِبُ المالِ.

والفُضوليُّ: هو كُلُّ مَن يَتَصَرَّفُ بلا مِلكٍ، ولا وِلايَةٍ، ولا وكالَةٍ.

والحديثُ دَليلٌ على صِحَّةِ بَيعِ الفُضوليِّ؛ لأنَّ عُروَةَ كان وكيلًا في الشِّراءِ، لا في البَيعِ.

ووَجهُ الدَّلالَةِ مِنَ الحديثِ: أنَّ النبيَّ ﷺ أذِنَ لِعُروَةَ البارِقيِّ رضي الله عنه، أن يَشتَرِيَ شاةً، ولم يَأذَن له في أن يَبيعَ ما يَشتَرِيهِ، فيكونُ بَيعًا فُضوليًّا، ومَعَ ذلك: فإنَّ النبيَّ ﷺ لم يُبطِلِ العَقدَ، بَل أقَرَّهُ، فدَلَّ على أنَّ مِثلَ هذا التَّصَرُّفِ صَحيحٌ، يُنتِجُ آثارَهُ بالإقرارِ، أوِ الإجازَةِ[٤].

* ووَكَّلَ ﷺ عليًّا في نَحرِ هَديِهِ، والتَّصَدُّقِ بلُحومِها:

فعن عليِّ بنِ أبي طالِبٍ رضي الله عنه، قال: «أمَرَني رسولُ اللهِ ﷺ أن أقومَ على بُدنِهِ، وأن أتَصَدَّقَ بلَحمِها، وجُلودِها، وأجِلَّتِها، وأن لا أُعطيَ الجَزَّارَ منها»، قال: «**نَحنُ نُعطيهِ من عندِنا**»[٥].

---

(١) موضعٌ بالكوفة.

(٢) رواه الترمذي (١٢٥٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٣) رواه الإمام أحمد (١٩٣٦٢)، وحسنه محققو المسند.

(٤) الموسوعة الكويتيَّة (٣٠/ ٢٤٥).

(٥) رواه البخاري (١٧١٧)، ومسلم (١٣١٧)، واللفظ له.

قال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**في حديثِ عليٍّ مِنَ الفَوائِدِ**: سَوقُ الهَديِ، والوِكالَةُ في نَحرِ الهَديِ، والاِستِئجارُ عليه، والقيامُ عليه، وتَفرِقَتُهُ، والإشراكُ فيهِ»[١].

*** ووَكَّلَ ﷺ أبا هريرةَ، في حِفظِ زَكاةِ رَمَضانَ:**

فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «وَكَّلَني رسولُ اللهِ ﷺ بحِفظِ زَكاةِ رَمَضانَ، فأتاني آتٍ، فجَعَلَ يَحثو مِنَ الطَّعامِ، فأخَذتُهُ وقُلتُ: واللهِ لَأرفَعَنَّكَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ...»، فذَكَرَ الحديثَ المشهورَ في فضلِ آيةِ الكُرسيِّ[٢].

وبَوَّبَ عليه البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بابُ إذا وكَّلَ رَجُلًا، فتَرَكَ الوَكيلُ شَيئًا فأجازَهُ المُوَكِّلُ فهو جائِزٌ، وإن أقرَضَهُ إلى أجَلٍ مُسَمًّى جازَ».

*** ورَدَّ ﷺ تَصَرُّفَ وكيلِهِ؛ لِاشتِمالِهِ على الرِّبا:**

فعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: جاءَ بلالٌ إلى النبيِّ ﷺ بتَمرٍ بَرنيٍّ[٣]، فقال له النبيُّ ﷺ: «**مِن أينَ هَذا؟**»، قال بلالٌ: كان عندَنا تَمرٌ رَديٌّ، فبِعتُ منه صاعَينِ بصاعٍ؛ لِنُطعِمَ النبيَّ ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ عندَ ذلك: «**أوَّه، أوَّه**[٤]**! عَيْنُ الرِّبا! عَيْنُ الرِّبا! لا تَفعَل، ولكن إذا أرَدتَ أن تَشتَرِيَ، فبِعِ التَّمرَ ببَيعٍ آخَرَ**[٥]**، ثُمَّ اشتَرِهِ**[٦]»[٧].

وقد بَوَّبَ عليه البخاري، بقولِهِ: «بابٌ: إذا باعَ الوَكيلُ شَيئًا فاسِدًا، فبَيعُهُ مَردودٌ».

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ وأبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ استَعمَلَ رَجُلًا على

---

(١) فتح الباري (٣/ ٥٥٧).
(٢) رواه البخاري معلَّقًا بصيغة الجزم (٢٣١١)، ووصله النَّسائيّ في الكبرى (١٠٧٢٩).
(٣) نوع من التَّمر أصفر، من أجود أنواع التَّمر.
(٤) كلمةٌ تقال عند الشِّكاية، والحزن.
(٥) بعقدٍ آخر، بأن يكون بمقابلة دراهم -مثلاً-، ولا يكون مقابل التَّمر الجيِّد.
(٦) اشتر بالثَّمن، التَّمر الجيِّد.
(٧) رواه البخاري (٢٣١٢)، ومسلم (١٥٩٤).

خَيبَرَ، فجاءَهُ بتَمرٍ جَنيبٍ[١]، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أكُلُّ تمرِ خَيبَرَ هَكَذا؟**»، قال: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، إنَّا لنَأخُذُ الصَّاعَ من هذا بالصَّاعَينِ، والصَّاعَينِ بالثَّلاثَةِ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تَفعَل، بعِ الجَمعَ**[٢] **بالدَّراهِمِ، ثُمَّ ابتَع بالدَّراهِمِ جَنيبًا**»[٣].

* **ولم يسعِّر - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - للنَّاسِ؛ لِئلَّا يَلقَى اللهَ بمَظلِمَةٍ لأحَدٍ:**

فعن أنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: غَلا السِّعرُ على عَهدِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، سَعِّر لَنا، فقال: «**إنَّ اللهَ هو المُسَعِّرُ، القابِضُ، الباسِطُ، الرزَّاقُ، وإنِّي لَأرجو أن ألقَى رَبِّي، وليس أحَدٌ مِنكُم يَطلُبُني بمَظلِمَةٍ**[٤]**، في دَمٍ، ولا مالٍ**»[٥].

فَقولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ هو المُسَعِّرُ**»:

يعني: أنَّ اللهَ إذا أنزَلَ البَرَكَةَ، وكَثُرَ الصِّنفُ، وكثُرَتِ الأسواقُ؛ رَخُصَتِ السِّلَعُ، وإذا مُنِعَ المطَرُ، ومُنِعَتِ السِّلَعُ، وقَلَّت؛ غَلا السِّعرُ، فيكونُ المُسَعِّرُ -حَقيقَةً-، هو اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

«**القابِضُ، الباسِطُ**»:

يَقبِضُ الرِّزقَ عن عِبادِهِ، فتَقِلُّ السِّلَعُ، فيَغلو السِّعرُ، ويَبسُطُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ، فتَتَوَفَّرُ السِّلعَةُ.

والأصلُ: أنَّهُ لا يُحَدَّدُ سِعرٌ لِبَيعِ السِّلَعِ، وإنَّما يُحَدِّدُ ذلك السُّوقُ، حَسَبَ العَرضِ، والطَّلَبِ.

وقال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال القاضي: قولُهُ: «**إنِّي لَأرجو أن ألقَى رَبِّي، وليس أحَدٌ مِنكُم يَطلُبُني بمَظلِمَةٍ**» إشارَةٌ إلى أنَّ المانِعَ له مِنَ التَّسعيرِ: مَخافَةُ أن يَظلِمَهُم في أموالِهِم؛ فإنَّ التَّسعيرَ تَصَرُّفٌ فيها بغَيرِ إذنِ أهلِها، فيكونُ ظُلمًا»[٦].

---

(١) نوع جيِّد من أنواع التَّمر.

(٢) الرديء، أو الخليط من التَّمر.

(٣) رواه البخاري (٢٢٠٢)، ومسلم (١٥٩٣).

(٤) قال الحافظ: «المظلمة: بكسر اللاَّم- على المشهور- وحكى ابن قتيبة وابن التين والجوهريُّ فتحها، وأنكره ابن القوطيَّة، ورأيت بخطِّ مغلطاي: أنَّ القزَّاز حكى الضَّمَّ أيضًا». الفتح (٥/ ١٠١).

(٥) رواه أبوداود (٣٤٥١)، والترمذي (١٣١٤)، وصححه، وصححه الألباني.

(٦) مرقاة المفاتيح (٥/ ١٩٥١).

فَلَم يُسَعِّر لهم النبيُّ ﷺ، وأشارَ إلى أنَّ التَّسعيرَ ظُلمٌ، وإنَّما يكونُ التَّسعيرُ ظُلمًا؛ إذا كان الغَلاءُ ناتِجًا عن قِلَّةِ العَرضِ، وكَثرَةِ الطَّلَبِ، دونَ أن يكونَ للتُّجَّارِ دَخلٌ في ذلك، فالتَّسعيرُ هُنا حَرامٌ، ونَوعٌ مِنَ الظُّلمِ.

ويكونُ التَّسعيرُ مُباحًا، بل واجِبًا على وليِّ الأمرِ، إذا كان الغَلاءُ ناتِجًا عن جَشَعِ التُّجَّارِ، واستِغلالِهِم للنَّاسِ، كما لَو امتَنَعَ التُّجَّارُ مِنَ البَيعِ إلا بأثمانٍ مُرتَفِعَةٍ، فهُنا يَتَعَيَّنُ على وليِّ الأمرِ التَّدَخُّلُ، وتَحديدُ الأسعارِ؛ حِمايَةً للنَّاسِ من جَشَعِ التُّجَّارِ، واستِغلالِهِم.

قال ابنُ عُثيمينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التَّسعيرُ على قِسمينِ: إن كان سببُهُ إزالَةَ الظّلمِ، فلا بَأسَ بهِ، وإن كان ظُلمًا هو بنفسِهِ، بحيثُ يَكونُ الغلاءُ ليسَ من ظُلمِ الإنسانِ، فإنَّ التَّسعيرَ حينئذٍ يَكونُ ظُلمًا، ولا يَجوزُ»[١].

استعارتُهُ ﷺ

كان النبيُّ ﷺ يَستَعيرُ، ويَأمُرُ بأداءِ العاريَّةِ؛ فالعاريَّةُ أمانَةٌ مِنَ الأماناتِ، يَجِبُ أداؤُها.

فعن أبي أُمامَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: سَمِعتُ النبيَّ ﷺ يقولُ في الخُطبَةِ، عامَ حَجَّةِ الوَداعِ: «**العاريَةُ مُؤَدَّاةٌ، والزَّعيمُ غارِمٌ**[٢]**، والدَّينُ مَقضيٌّ**[٣]»[٤].

وقد استَعارَ ﷺ مِنَ الكافِرِ، ومِنَ المسلمِ:

*** فاستَعارَ ﷺ دُروعًا من صَفوانَ بنِ أُمَيَّةَ، قبلَ أن يُسلِمَ، ثُمَّ رَدَّها عليه بعدَ المعرَكَةِ:**

فَفي يومِ حُنَينٍ، قال رسولُ اللهِ ﷺ لِصَفوانَ بنِ أُمَيَّةَ: «**يا صَفوانُ، هَل عندَكَ من سِلاحٍ؟**»، قال: عَوَرًا[٥]، أم غَصبًا؟ قال: «**لا، بل عَوَرًا**»، فأعارَهُ ما بين الثَّلاثينَ إلى الأربَعينَ

(١) فتاوى نورٌ على الدّرب (١٦/ ٢) بترقيم الشَّاملة.
(٢) أي: الكفيل يلزم نفسه ما ضمنه.
(٣) يجب قضاؤه.
(٤) رواه أبوداود (٣٥٦٥)، والترمذي (١٢٦٥)، وحسنه، وابن ماجه (٢٣٩٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤١١٦).
(٥) أي: عاريَّةً.

دِرعًا، وغَزا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُنَينًا، فلمَّا هُزِمَ المُشرِكونَ، جُمِعَت دُروعُ صَفوانَ، ففَقَدَ منها أدراعًا، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِصَفوانَ: «**إنَّا قد فقَدنا من أدراعِكَ أدراعًا، فهَل نَغرَمُ لَكَ؟**»، قال: لا يا رسولَ اللهِ؛ لأنَّ في قَلبي اليومَ، ما لم يَكُن يومَئِذٍ.

وفي رواية: «أنا اليومَ يا رسولَ اللهِ في الإسلامِ أرغَبُ»[١].

قال أبوداود: «وكان أعارَهُ قبلَ أن يُسلِمَ، ثُمَّ أسلَمَ».

* واستَعارَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أبي طَلحَةَ فرَسَهُ:

قال أنَسُ بنُ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسَنَ الناسِ، وكان أجوَدَ الناسِ، وكان أشجَعَ الناسِ، ولَقَد فزِعَ أهلُ المدينَةِ ذاتَ لَيلَةٍ، فانطَلَقَ ناسٌ قِبَلَ الصَّوتِ، فتَلَقَّاهُم رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راجِعًا، وقد سَبَقَهُم إلى الصَّوتِ، وهو على فرَسٍ لأبي طَلحَةَ عُريٍ، في عُنُقِهِ السَّيفُ، وهو يقولُ: «**لَم تُراعوا، لم تُراعوا**»، قال: «**وَجَدناهُ بَحرًا**»، أو قال: «**إنَّهُ لَبَحرٌ**»، قال: وكان فرَسًا يُبَطَّأُ[٢][٣].

فيهِ: بَيانُ شَجاعَتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من شِدَّةِ عَجَلَتِهِ في الخُروجِ إلى العَدوِّ قبلَ الناسِ كُلِّهِم، بحَيثُ كَشَفَ الحالَ ورَجَعَ قبلَ وُصولِ الناسِ.

وفيهِ: بَيانُ عَظيمِ بَرَكَتِهِ، ومُعجِزَتِهِ، في انقِلابِ الفَرَسِ سَريعًا، بعدَ أن كان يُبَطَّأُ، وهو معنى قولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَجَدناهُ بَحرًا**»، أي: واسِعَ الجَري

وفيهِ: جَوازُ العاريَّةِ، وجَوازُ الغَزوِ على الفَرَسِ المُستَعارِ لِذلك.

وفيهِ: استِحبابُ تَبشيرِ الناسِ بعَدَمِ الخَوفِ، إذا ذَهَبَ[٤].

---

(١) رواه أبوداود (٣٥٦٣)، والإمام أحمد (٢٧٦٣٦)، وحسنه محققو المسند.
(٢) يعرف بالبطء، والعجز، وسوء السَّير.
(٣) رواه البخاري (٢٩٠٨)، ومسلم (٢٣٠٧).
(٤) شرح النووي على مسلم (١٥/ ٦٨).

مُعاملاتُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الماليَّةُ مع الكفار

الأصلُ في المُعامَلاتِ الماليَّةِ بين المسلمينَ، وغَيرِ المسلمينَ: الجَوازُ، طالَما كانت مُعامَلَةً مُباحَةً محكومَةً بالشَّرعِ: بَيعًا، وشِراءً، وقَرضًا، وإقراضًا، وإجارَةً، وغيرَها، ولا عَلاقَةَ لهذا بقَضيَّةِ الوَلاءِ، والبَراءِ؛ فقَد كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَعامَلُ مع المُشرِكينَ واليَهودِ، بَيعًا وشِراءً.

وثَبَتَ عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «توُفِّيَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودِرعُهُ مَرهونَةٌ عندَ يَهوديٍّ، بثَلاثينَ صاعًا من شَعيرٍ»[(١)].

قال الحافِظُ ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تجوزُ مُعامَلَةُ الكُفَّارِ، فيما لم يَتَحقَّق تحريمُ عَينِ المُتعامَلِ فيه، وعَدَمُ الِاعتِبارِ بفَسادِ مُعتَقَدِهِم ومُعامَلاتِهِم فيما بينهُم»[(٢)].

وقال ابنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مُعامَلَةُ الكُفَّارِ جائِزَةٌ، إلا بَيعَ ما يَستَعينُ بِهِ أهلُ الحَربِ على المسلمينَ»[(٣)].

وسُئِلَ **شَيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **عن مُعامَلَةِ التَّتارِ: هَل هيَ مُباحَةٌ لِمَن يُعامِلونَهُ؟ فأجابَ**: «أمَّا مُعامَلَةُ التَّتارِ: فيَجوزُ فيها ما يَجوزُ في أمثالِهِم، ويَحرُمُ فيها ما يَحرُمُ من مُعامَلَةِ أمثالِهِم، فيَجوزُ أن يَبتاعَ الرجُلُ من مَواشيهِم، وخَيلِهِم، ونَحوِ ذلك، كَما يَبتاع من مَواشي التُّركُمانِ، والأعرابِ، والأكرادِ، وخَيلِهِم.

ويَجوزُ أن يَبيعَهُم مِنَ الطَّعامِ، والثِّيابِ، ونَحوِ ذلك، ما يَبيعُهُ لأمثالِهِم، فأمَّا إن باعَهُم وباعَ غَيرَهُم، ما يُعينُهُم بِهِ على المُحَرَّماتِ، كالخَيلِ والسِّلاحِ لِمَن يُقاتِلُ بِهِ قِتالًا مُحَرَّمًا: فهذا لا يَجوزُ...»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٢٩١٦).

(٢) فتح الباري (٥/ ١٤١).

(٣) فتح الباري (٤/ ٤١٠).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٩/ ٢٧٥).

* **ومِن مُعامَلاتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الكُفَّارِ: بَيعُهُ وشِراؤُهُ مِنَ المُشرِكينَ:**

فعن عبدِالرحمَنِ بنِ أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كُنَّا مع النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلاثينَ ومِائَةً، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَل مع أحَدٍ مِنكُم طعامٌ؟**»، فإذا مع رَجُلٍ صاعٌ من طعامٍ، أو نَحوُهُ، فعُجِنَ، ثُمَّ جاءَ رَجُلٌ مُشرِكٌ، مُشعانٌّ[1]، طَويلٌ، بغَنَمٍ يَسوقُها، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أبيعٌ أم عَطيَّةٌ؟**»، أو قال: «**أم هِبَةٌ؟**»، فقال: لا، بل بَيعٌ، فاشتَرَى منه شاةً، فصُنِعَت، وأمَرَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسَوادِ البَطنِ أن يُشوَى، قال: وايمُ اللهِ، ما مِنَ الثَّلاثينَ ومِائَةٍ، إلا حَزَّ له رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُزَّةً حُزَّةً، من سَوادِ بَطنِها، إن كان شاهِدًا أعطاهُ، وإن كان غائبًا خَبَأَ لَهُ، قال: وجَعَلَ قَصعَتَينِ فأكَلنا منهما أجمَعونَ وشَبِعنا، وفَضَلَ في القَصعَتَينِ، فحَمَلتُهُ على البَعيرِ، أو كَما قال[2].

* **ومِن ذلك: استِئجارُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلاً كافِرًا في رِحلَةِ الهِجرَةِ:**

وهوَ عبدُاللهِ بنُ أُرَيقطٍ اللَّيثيُّ، كَما في حديثِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقد تقدَّمَ ذِكرُه.

* **ومِن ذلك -أيضًا-: مُعامَلَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَهودَ خَيبَرَ، بالمُزارَعَةِ:**

فَعنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عامَلَ أهلَ خَيبَرَ، بشَطرِ ما يَخرُجُ منها، من ثَمَرٍ، أو زَرعٍ»[3].

وفي رواية لمُسلِمٍ: «أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَفَعَ إلى يَهودِ خَيبَرَ، نَخلَ خَيبَرَ وأرضَها، على أن يَعتَمِلوها من أموالِهِم، ولِرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَطرُ ثَمَرِها».

---

(١) منتفشٌ، وثائر الرأس.
(٢) رواه البخاري (٢٦١٨)، ومسلم (٢٠٥٦).
(٣) رواه البخاري (٢٣٢٨)، ومسلم (١٥٥١).

هَدايَاهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

*** كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرَغِّبُ في الهَدِيَّةِ؛ لِنَشرِ المَحَبَّةِ والأُلفَةِ في المُجتَمَعِ المسلمِ.**

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَهادَوا؛ تَحابُّوا**»(١).

قال الصّنعانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وَذلك** لأنّ الهَديّةَ خُلُقٌ كَريمٌ، وسُنّةٌ حَثّت عليها الرُّسُلُ، واستَحسَنتها العُقولُ، تَتألَّفُ بها القُلوبُ، وتُذهِبُ شَحائِنَ الصُّدورِ»(٢).

*** وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقبَلُ الهَديَّةَ، ويُثيبُ عليها(٣).**

«**أي**: يُعطي الذي يُهدي له بَدَلَها»(٤).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أُتيَ بطعامٍ سَأَلَ عَنهُ: «**أهَدِيَّةٌ، أم صَدَقَةٌ؟**»، فإن قيلَ: صَدَقَةٌ، قال لأصحابِهِ: «**كُلوا**»، ولم يَأكُل، وإن قيلَ: هَديَّةٌ، ضَرَبَ بيَدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأكَلَ مَعَهُم(٥).

قال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وَفارَقَتِ الصَّدَقَةُ الهَدِيَّةَ**: حيث حَرُمَت عليه تِلكَ، وحَلَّت له هذه: بأنَّ القَصدَ مِنَ الصَّدَقَةِ ثَوابُ الآخِرَةِ، وذلك يُنبِئُ عن عِزِّ المُعطي، وذُلِّ الآخِذِ، في احتياجِهِ إلى التَّرَحُّمِ عليه، والرِّفقِ إليه، ومِنَ الهَديَّةِ التَّقَرُّبُ إلى المُهدَى إليه، وإكرامُهُ بعَرضِها عليه، ففيها غايَةُ العِزَّةِ والرِّفعَة لَدَيه.

وأيضًا: فمِن شَأنِ الهَدِيَّةِ: مُكافَأتُها في الدُّنيا، ولِذا كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأخُذُ الهَدِيَّةَ، ويُثيبُ عِوَضَها عنها، فلا مِنَّةَ -البَتَّةَ- فيها، بل لِمُجَرَّدِ المحَبَّةِ، كَما يَدُلُّ عليه حديثُ: «**تَهادَوا؛ تَحابُّوا**».

وأمّا جَزاءُ الصَّدَقَةِ: ففي العُقبَى، ولا يُجازيها إلا المولى»(٦).

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٩٤)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٤٦٣).
(٢) التّنوير (٥/ ١٠١).
(٣) رواه البخاري (٢٥٨٥).
(٤) فتح الباري (٥/ ٢١٠).
(٥) رواه البخاري (٢٥٧٦)، ومسلم (١٠٧٧).
(٦) مرقاة المفاتيح (٤/ ١٣٠٣).

* ويَقبلُ هِبةَ الواهِبِ، ويُثيبُهُ عليها، ويَزيدُهُ:

فَعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ أعرابيًّا وهَبَ للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هِبَةً، فأثابَهُ عليها، قال: «رَضيتَ؟»، قال: لا! فزادَهُ، قال: «رَضيتَ؟»، قال: لا! فزادَهُ، قال: «رَضيتَ؟»، قال: نعم.

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَقَد هَمَمتُ أن لا أتَّهِبَ هِبَةً، إلا من قُرَشيٍّ، أو أنصاريٍّ، أو ثَقَفيٍّ**»[1].

والمعنى: أن لا أقبَلَ الهِبَةَ، إلا من هَؤُلاءِ؛ لِقِلَّةِ طَمَعِهِم، ولأنَّهُم أصحابُ مُدُنٍ وقُرَى، وهُم أعرَفُ بمَكارِمِ الأخلاقِ، ولأنَّ في أخلاقِ الباديَةِ جَفاءً، وذَهابًا عن المُروءَةِ، وطَلَبًا للزِّيادَةِ[2].

* وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقبَلُ هَدايا الكُفَّارِ:

وقد بَوَّبَ البخاري في صَحيحِهِ: «بابُ قَبولِ الهَديَّةِ مِنَ المُشرِكينَ»، وقال أبو هريرةَ: عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هاجَرَ إبراهيمُ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **بسارَةَ، فدَخَلَ قَريَةً فيها مَلِكٌ، أو جَبَّارٌ، فقال: أعطوها آجَرَ**[3]»[4].

* وأُهديَت للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاةٌ، فيها سُمٌّ:

فعن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ يَهوديَّةً أَتَتِ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشاةٍ مَسمومَةٍ، فأكَلَ منها، فجيءَ بها فقيلَ: ألا نَقتُلُها؟ قال: «**لا**»، قال أَنَسٌ: فما زِلتُ أعرِفُها في لَهَواتِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[5].

وعن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ امرَأةً مِنَ اليَهودِ أهدَت لِرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاةً مَسمومَةً .. وذَكَرَ الحديثَ[6].

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢٦٨٧)، وابن حبَّان (٦٣٨٤)، وصححه محققو المسند على شرط الشيخين.

(٢) النهاية لابن الأثير (٥/ ٢٣١)، حاشية السِّنديِّ على المسند (٤/ ٤٢٥) طبعة الرسالة).

(٣) أي: هاجر.

(٤) رواه البخاري (٢٢١٧).

(٥) رواه البخاري (٢٦١٧)، ومسلم (٢١٩٠).

(٦) رواه أحمد (٢٧٨٤)، وصححه محققو المسند.

* وأهداهُ مَلِكُ أيلَةَ بَغلَةً بَيضاءَ، فقَبِلَ منه، وجازاهُ:

فعن أبي حُمَيدٍ السَّاعِديِّ، قال: «غَزَونا مع النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَزوَةَ تَبوكَ، وأهدَى مَلِكُ أيلَةَ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَغلَةً بَيضاءَ، فكَساهُ بُردًا، وكَتَبَ له ببَحرِهِم[1]»[2].

* ورُبَّما استَوهَبَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بَعضِ أصحابِهِ الشَّيءَ؛ لِحِكمَةٍ:

فَعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَّ ناسًا من أصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا في سَفَرٍ، فمَرُّوا بحَيٍّ من أحياءِ العربِ، فاستَضافوهُم، فلَم يُضيفوهُم، فقالوا لَهُم: هَل فيكُم راقٍ؛ فإنَّ سَيِّدَ الحَيِّ لَديغٌ، أو مُصابٌ؟ فقال رَجُلٌ منهم: نعم، فأتاهُ فرَقاهُ بفاتِحَةِ الكِتابِ، فبَرَأ الرجُلُ، فأُعطيَ قَطيعًا من غَنَمٍ، فأبَى أن يَقبَلَها وقال: حتى أذكُرَ ذلك للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأتَى النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذَكَرَ ذلك لَهُ، فقال: يا رسولَ اللهِ، واللهِ ما رَقَيتُ إلا بفاتِحَةِ الكِتابِ، فتبَسَّمَ، وقال: «**وَما أدراكَ أنَّها رُقيَةٌ؟**»، ثُمَّ قال: «**خُذوا منهم، واضرِبوا لي بسَهمٍ مَعَكُم**»[3].

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «**أمَّا قولُهُ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**واضرِبوا لي بسَهمٍ**»: فإنَّما قالَهُ تَطييبًا لِقُلوبِهِم، ومُبالَغَةً في تَعريفِهِم أنَّهُ حَلالٌ، لا شُبهَةَ فيه»[4].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ اللهُ: «**في الحديثِ**: الِاشتِراكُ في الموهوبِ إذا كان أصلُهُ مَعلومًا، وجَوازُ طَلَبِ الهَديَّةِ، مِمَّن يُعلَمُ رَغبَتُهُ في ذلك، وإجابَتُهُ إلَيه»[5].

وعن جابِرِ بنِ عبدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: بَعَثَنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمَّرَ عَلَينا أبا عُبَيدَةَ، نَتَلَقَّى عيرًا لِقُرَيشٍ، وزَوَّدَنا جِرابًا من تَمرٍ ... الحديث، وفيهِ: قال: وانطَلَقنا على ساحِلِ البَحرِ، فرُفِعَ لَنا على ساحِلِ البَحرِ كَهَيئَةِ الكثيبِ[6] الضَّخمِ، فأتَيناهُ فإذا هيَ دابَّةٌ تُدعَى

---

(1) أي: ببلدتهم، وأرضهم.
(2) رواه البخاري (1481)، ومسلم (1392).
(3) رواه البخاري (2276)، ومسلم (2201).
(4) شرح النووي على صحيح مسلم (14/ 188).
(5) فتح الباري (4/ 457).
(6) أي: الرمل المجتمع.

العَنبَرَ، فقال أبو عُبَيدَةَ: مَيتَةٌ! ثُمَّ قال: لا، بل نَحنُ رُسُلُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي سَبيلِ اللهِ، وقد اضطُرِرتُم فكُلوا، قال: فأقَمنا عليه شَهرًا، ونَحنُ ثَلاثُ مِائَةٍ، حتى سَمِنَّا، قال: ولَقَد رَأيتُنا نَغتَرِفُ من وقبِ عَينِهِ[1] بالقِلالِ[2] الدُّهنَ، ونَقتَطِعُ منه الفِدَرَ[3]، كالثَّورِ، أو كَقَدرِ الثَّورِ.

فَلَقَد أخَذَ مِنَّا أبو عُبَيدَةَ ثَلاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فأقعَدَهُم في وقبِ عَينِهِ، وأخَذَ ضِلَعًا من أضلاعِهِ، فأقامَها، ثُمَّ رَحَلَ أعظَم بَعيرٍ معنا، فمَرَّ من تحتِها، وتَزَوَّدنا من لَحمِهِ وشائِقَ[4].

فلَمَّا قَدِمنا المدينَةَ، أتَينا رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذَكَرنا ذلك لَهُ، فقال: «**هوَ رِزقٌ أخرَجَهُ اللهُ لَكُم، فهَل مَعَكُم من لَحمِهِ شيءٌ؛ فتُطعِمونا؟**»، قال: فأرسَلنا إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منه، فأكَلَهُ[5].

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «**وَأمَّا طَلَبُ النبيِّ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **من لَحمِهِ، وأكلُهُ ذلك:** فإنّما أرادَ بِهِ المُبالَغَةَ في تَطييبِ نُفوسِهِم في حِلِّهِ، وأنّه لا شَكَّ في إباحَتِهِ، وأنَّهُ يَرتَضيهِ لِنَفسِهِ، وفي هذا دَليلٌ على أنَّهُ لا بَأسَ بسُؤالِ الإنسانِ من مالِ صاحِبِهِ ومَتاعِهِ؛ إدلالًا عليه، وليس هو مِنَ السُّؤالِ المنهيِّ عنه، إنَّما ذلك في حَقِّ الأجانِبِ؛ للتَّموُّلِ ونحوِهِ، وأمَّا هَذِهِ: فللمُؤانَسَةِ، والمُلاطَفَةِ، والإدلالِ»[6].

---

(١) تجويفها.

(٢) جمع قلّة، وهي: الجرَّة الكبيرة.

(٣) القطع.

(٤) هي اللَّحم، يغلى قليلاً، ولا ينضج، ثمَّ يحمل في السَّفر.

(٥) رواه البخاري (٢٤٨٣)، ومسلم (١٩٣٥).

(٦) شرح النووي على مسلم (١٣/ ٨٦).

رُؤاهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

عَصمَ اللهُ تعالى نَبيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أحوالِهِ كُلِّها، فلا سُلطانَ للشَّيطانِ عليه، نائِمًا أو يَقظانَ، وقد يعبَثُ الشَّيطانُ بأحدِنا في مَنامِهِ، ويَتَلاعَبُ به، فيَرَى من تهاويلِ الشَّيطانِ، والأحلامِ المُختلِطَةِ ما يُزعِجُهُ، ويُؤَرِّقُهُ، لكنَّ نَبيَّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: حَفِظَ اللهُ عليه عَينَهُ، وقلبَهُ، وصانَهُ في نَومِهِ، وصَحوِه، وسِرِّهِ، وعَلَنِهِ.

والرُّؤيا: هيَ ما يَراهُ الشَّخصُ في مَنامِهِ، وهي بوَزنِ فُعلى[١].

والعرَبُ تَجعَلُ الرُّؤيَةَ لِما يُرى في اليَقَظَةِ، والرُّؤيا لِما يُرى في المنامِ[٢].

قال ابنُ جِنِّي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تُستعمَلُ الرُّؤيا إلا في النَّومِ»[٣].

وجمعُ الرُّؤيا: رُؤًى[٤].

والتَّعبيرُ: هو تَفسيرُ الرُّؤيا؛ لأنَّهُ يعبرُ بها من حالِ النَّومِ، إلى اليَقَظَةِ[٥].

وعَبَرتُ الرُّؤيا -بِالتَّخفيفِ-: إذا فسَّرتها، وعَبَّرتُها -بِالتَّشديدِ- للمُبالَغَةِ في ذلك[٦].

---

(١) الفتح: (١٢/ ٣٥٢).

(٢) درَّة الغوَّاص للحريري (ص١١٧).

(٣) المخصَّص لابن سيده (١/ ٤٩٦).

(٤) لسان العرب (١٤/ ٢٩١).

(٥) الفروق اللغويَّة لأبي هلالٍ العسكريِّ (ص٤٥٧).

(٦) فتح الباري (١٢/ ٣٥٢)

ورُؤيا الأنبياءِ: منها ما يَحتاجُ إلى تَعبيرٍ، ومنها ما يُحمَلُ على ظاهِرِه[١].

والتي تَحتاجُ إلى تَعبيرٍ: مِثلُ رُؤيا النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه يشربُ اللَّبَنَ، ثُمَّ يعطي ما فضَلَ عنه عمرَ بنَ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكذلك ما رآهُ من طَوافِ الدَّجَّالِ بالبيتِ، وهو واضِعٌ يَدَيهِ على مَنكِبَي رَجُلَينِ، فهذا وأمثالُهُ مِمَّا يَحتاجُ إلى تَعبيرٍ وتَأويلٍ.

أمَّا التي لا تَحتاجُ إلى تَعبيرٍ: فمِثلُ رُؤيا إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حينَ رَأى في المنامِ أنَّهُ يَذبَحُ ابنَهُ، فأصبَحَ يُريدُ أن يَذبَحَهُ فِعلًا، ورُؤيا النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَصرًا لِعمرَ في الجَنَّةِ.

ورُؤيا الأنبياءِ وحيٌ:

فرُؤيا الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ تَختَلِفُ عن رُؤيا غَيرِهم؛ لأنَّهُم مَعصومونَ في يَقَظَتِهم، ومَنامِهم، وهذه العِصمَةُ واجبَةٌ لِحفظِ الوَحيِ مِنَ الخَلطِ بغَيرِهِ، فالرُّؤى لَو لم تَكُن وحيًا، لقال بعضُهُم: وما يُدريهِ أنَّهُ يوحَى إليهِ مِنَ اللهِ ؟ فلَعَلَّه شيءٌ يَراهُ في مَنامِهِ، كما يَرى الواحِدُ مِنَّا في مَنامِه، أو لَعَلَّهُ اختَلَطَ عليه وحيُهُ، بما يَراهُ في مَنامِهِ.

عن عِمرانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا نامَ لم يوقَظ، حتى يكونَ هو يَستَيقِظُ؛ لأنَّا لا نَدري ما يَحدُثُ له في نَومِهِ»[٢].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**قال العُلَماءُ**: كانوا يَمتَنِعونَ من إيقاظِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِما كانوا يَتوَقَّعونَ من الإيحاءِ إليه في المنامِ»[٣].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «رُؤيا الأنبياءِ وحيٌ»[٤].

وقال عُبَيدُ بنُ عُمَيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رُؤيا الأنبياءِ وحيٌ»، ثُمَّ قَرَأ: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢][٥].

---

(١) الفتح (٧/ ٤٦).

(٢) رواه البخاري (٣٤٤)، ومسلم (٦٨٢).

(٣) شرح مسلم (٥/ ١٩٠).

(٤) رواه الحاكم (٣٦١٣) وصححه، وحسنه الألباني في ظلال الجنة (٤٦٣).

(٥) رواه البخاري (١٣٨).

قال الحافِظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وَجهُ الاستِدلالِ بما تَلاهُ:** من جِهَةِ أنَّ الرُّؤيا لَو لم تَكُن وحيًا: لَمَا جازَ لِإبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الإقدامُ على ذَبحِ ولَدِهِ»[1].

وحَكَى القاضي عياضٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الاتِّفاقَ، على أنَّ رُؤيا الأنبياءِ حَقٌّ، ووَحيٌ[2].

ومِمَّا يَدُلُّ عليه: ما رَواهُ البخاري، عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ، يُحَدِّثُ عن لَيلَةِ أُسريَ بالنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مَسجِدِ الكعبَةِ قال: «والنبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نائِمَةٌ عَيناهُ، ولا يَنامُ قَلبُهُ، وكَذلك الأنبياءُ، تَنامُ أعيُنُهُم، ولا تَنامُ قُلوبُهُم»[3].

قال الخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّما مُنِعَ النَّومُ مِنَ قَلبِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ليَعيَ الوَحيَ، إذا أوحيَ إليهِ في المنامِ»[4].

وقال الزُّرقانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَلَو سُلِّطَ النَّومُ على قلوبِهِم: كانت رُؤياهُم كرُؤيا مَن سِواهُم، ولِذا كان يَنامُ حتى يَنفُخَ، ويُسمَعَ غَطيطُهُ، ثُمَّ يُصلِّي، ولا يَتوَضَّأُ»[5].

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المنامُ: تارَةً يكونُ مِنَ اللهِ، وتارَةً يكونُ مِنَ النَّفسِ، وتارَةً يكونُ مِنَ الشَّيطانِ، وهَكَذا ما يُلقَى في اليَقَظَةِ، والأنبياءُ مَعصومونَ في اليَقَظَةِ والمنامِ، ولهذا كانت رُؤيا الأنبياءِ وحيًا، كَما قال ذلك ابنُ عبَّاسٍ، وعُبَيدُ بنُ عُمَيرٍ»[6].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ورُؤيا الأنبياءِ وحيٌ؛ فإنَّها مَعصومَةٌ مِنَ الشَّيطانِ، وهذا باتِّفاقِ الأمَّةِ، ولهذا أقدَمَ الخَليلُ على ذَبحِ ابنِهِ إسماعيلَ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ بالرُّؤيا، وأمَّا رُؤيا غَيرِهِم: فتُعرَضُ على الوَحيِ الصَّريحِ، فإن وافقَتهُ، وإلا لم يُعمَل بها»[7].

---

(١) الفتح (١/ ٢٣٩).

(٢) الشِّفا (١/ ١٨٧)

(٣) رواه البخاري (٣٥٧٠)

(٤) عمدة القاري: (٢/ ٢٥٧).

(٥) شرح الزرقاني على الموطأ: (١/ ٣٥٢).

(٦) مجموع الفتاوى: (١٧/ ٥٣٢).

(٧) مدارج السالكين: (١/ ٧٥).

والرُّؤيا الصَّالِحَةُ، هيَ أوَّلُ ما بُدِئَ به النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن الوَحيِ:

فعن عائشةَ أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: «**أوَّلُ ما بُدِئَ بِهِ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن الوَحيِ: الرُّؤيا الصَّالِحَةُ في النَّومِ، فكان لا يَرَى رُؤيا، إلا جاءَت مِثلَ فلَقِ الصُّبحِ**»[1].

وإنَّما ابتُدِئَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرُّؤيا؛ لِئَلَّا يَفجَأهُ الملَكُ ويَأتيَهُ صَريحُ النُّبوَّةِ بَغتَةً، فلا تحتَمِلُها قوَى البَشَريَّةِ، فبُدِئَ بأوَّلِ خِصالِ النُّبوَّةِ، وتَباشيرِ الكرامَةِ: من صِدقِ الرُّؤيا، ورُؤيَةِ الضَّوءِ، وسَماعِ الصَّوتِ، وسَلامِ الحجرِ والشَّجَرِ عليه بالنُّبوَّةِ[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «هَذا شأنُهُ سبحانه: أن يُقدِّمَ بين يَدَيِ الأُمورِ العَظيمَةِ، مُقدّماتٍ تكونُ كالمدخَلِ إلَيها، المُنبِّهَةِ عليها، كَما قدَّمَ بين يَدَيِ قِصَّةِ المسيحِ وخَلقِهِ من غَيرِ أبٍ، قِصَّةَ زَكَريَّا وخَلقِ الوَلَدِ لَهُ، مع كَونِهِ كَبيرًا، لا يولَدُ لِمثلِهِ.

وهكَذا ما قَدَّمَ بين يَدَيِ مَبعثِ رسولِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من قِصَّةِ الفيلِ، وبِشاراتِ الكُهَّانِ به، وغيرِ ذلك، وكذلك الرُّؤيا الصَّالِحَةُ لرَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كانت مُقدّمَةً بين يَدَيِ الوَحيِ في اليَقظَةِ، وكذلك الهِجرةُ، كانت مقدّمَةً بين يَدَيِ الأمرِ بالجِهادِ، ومَن تَأمَّلَ أسرارَ الشَّرعِ والقَدَرِ، رأى من ذلك ما تَبهَرُ حِكمتُهُ الألبابَ»[3].

وقد أخبرَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ الرُّؤيا الصَّالِحَةَ، جزءٌ من أجزاءِ النُّبوَّةِ:

فعن أنَسِ بنِ مالِكٍ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الرُّؤيا الحَسَنَةُ من الرجُلِ الصَّالِحِ، جُزءٌ من سِتَّةٍ وأربَعينَ جُزءًا من النُّبوَّةِ**»[4].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**رُؤيا المُؤمِنِ جُزءٌ من سِتَّةٍ وأربَعينَ جُزءًا مِنَ النُّبوَّةِ**»[5].

---

(١) رواه البخاري: (٣) ومسلم: (١٦٠)، وفلق الصُّبح: هو ضياؤه، وإنَّما يقال هذا في الشيَّء الواضح البيِّن.

(٢) شرح النووي على مسلم: (٢/ ١٩٨).

(٣) زاد المعاد (٣/ ٣٦٩)

(٤) رواه البخاري (٦٩٨٣).

(٥) رواه البخاري (٦٩٨٨)، ومسلم (٢٢٦٣).

ورؤاهُ ﷺ على أنواعٍ كثيرةٍ:

فَمنها: ما هو لتثبيتِه ﷺ، وبيانِ حقيقةِ دعوتِه، وفَضلِ أمّتِهِ.

ومنها: ما كان لبيانِ فضائِلِ أقوامٍ.

ومنها: ما كان لِبيانِ أشياءَ ستَقَعُ .

ومنها: بَشائِرُ لهذه الأُمَّةِ .

ومنها: إخبارٌ عَمّا سيقَعُ في آخرِ الزَّمانِ.

ومنها: أحوالٌ، وأحداثٌ، تكونُ يومَ القيامَةِ.

ومنها: غيرُ ذلك.

فَمِن رُؤاهُ ﷺ المُتَعَلِّقَةِ بدَعوتِهِ، وأُمَّتِهِ:

* رُؤيَتُهُ الملائكةَ، وهُم يَضرِبونَ المثَلَ به، وبِأُمَّتِهِ:

عن جابرِ بن عبدِاللهِ قال: «جاءَت مَلائِكَةٌ إلى النبيِّ ﷺ وهو نائِمٌ، فقال بَعضُهُم: إنَّهُ نائِمٌ، وقال بَعضُهُم: إنَّ العَينَ نائِمَةٌ، والقَلبَ يَقظانُ، فقالوا: إنَّ لِصاحِبِكُم هذا مَثَلًا، فاضرِبوا له مَثَلًا، فقال بَعضُهُم: إنَّهُ نائِمٌ، وقال بَعضُهُم: إنَّ العَينَ نائِمَةٌ، والقَلبَ يَقظانُ، فقالوا: مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دارًا، وجَعَلَ فيها مَأدُبَةً، وبَعَثَ داعيًا، فمَن أجابَ الدَّاعيَ دَخَلَ الدَّارَ، وأكَلَ مِنَ المأدُبَةِ، ومَن لم يُجِبِ الدَّاعيَ، لم يَدخُلِ الدَّارَ، ولم يَأكُل مِنَ المأدُبَةِ، فقالوا: أوِّلوها له يَفقَهها، فقال بَعضُهُم: إنَّهُ نائِمٌ، وقال بَعضُهُم: إنَّ العَينَ نائِمَةٌ، والقَلبَ يَقظانُ، فقالوا: فالدَّارُ الجَنَّةُ، والدَّاعي محمدٌ ﷺ، فمَن أطاعَ محمدًا ﷺ فقَد أطاعَ اللهَ، ومَن عَصَى محمدًا ﷺ فقَد عَصَى اللهَ، ومحمدٌ ﷺ فرقٌ بين الناسِ»[1].

---

(١) رواه البخاري (٧٢٨١).

فهذِهِ رُؤيا رآها النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تُبيِّنُ حقيقةَ دعوتِهِ، وحالَ أُمَّتِه معَها، وأنَّ مَثلَها كَمَثَلِ رَجُلٍ بنَى دارًا، وصنَعَ وليمَةً، ودَعا الناسَ إليها، فمَن أجابَ الدَّعوةَ دخَل الدَّارَ، ومَن لم يُجِب لم يَدخُلها، والدَّارُ: هي الجَنَّةُ.

وفي معناهُ: ما رَواهُ البخاري -أيضًا- عن أبي هريرة أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كُلُّ أُمَّتي يَدخُلونَ الجنَّةَ إلا مَن أبَى**».

قالوا: يا رسولَ اللهِ ومَن يَأبَى؟

قال: «**مَن أطاعَني دَخَلَ الجَنَّةَ، ومَن عَصاني فقَد أبَى**»[1].

* ورأى في مَنامِه الأممَ تُعرضُ عليه مع أنبيائِهم، فسُرَّ لحالِ أمّتِه:

عنِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: أكثَرنا الحديثَ عندَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاتَ لَيلَةٍ، ثُمَّ غدَونا إليه، فقال: «**عُرِضَت عَلَيَّ الأنبياءُ اللَّيلَةَ بأُمَمِها، فجَعَلَ النبيُّ يَمُرُّ ومَعَهُ الثَّلاثَةُ، والنبيُّ ومَعَهُ العِصابَةُ، والنبيُّ ومَعَهُ النَّفَرُ، والنبيُّ ليس مَعَهُ أحَدٌ، حتى مَرَّ عَلَيَّ موسَى، مَعَهُ كَبكَبَةٌ من بَني إسرائيلَ، فأعجَبوني فقُلتُ: مَن هَؤُلاءِ؟ فقيلَ لي: هذا أخوكَ موسَى، مَعَهُ بَنو إسرائيلَ**» قال: «**قُلتُ: فأينَ أُمَّتي؟ فقيلَ ليَ: انظُر عن يَمينِكَ، فنَظَرتُ فإذا الظِّرابُ**[2] **قَد سُدَّ بوُجوهِ الرِّجالِ، ثُمَّ قيلَ لي: انظُر عن يَسارِكَ، فنَظَرتُ فإذا الأُفُقُ قَد سُدَّ بوُجوهِ الرِّجالِ، فقيلَ لي: أرَضيتَ؟ فقُلتُ: رَضيتُ يا رَبِّ، رَضيتُ يا رَبِّ**»، قال: «**فقيلَ لي: إنَّ مع هَؤُلاءِ سَبعينَ ألفًا، يَدخُلونَ الجَنَّةَ بغَيرِ حِسابٍ**»، فقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فِدًا لَكُم أبي وأُمِّي، إنِ استَطَعتُم أن تكونوا مِنَ السَّبعينَ الألفِ فافعَلوا، فإن قَصَّرتُم، فكونوا من أهلِ الظِّرابِ، فإن قَصَّرتُم، فكونوا من أهلِ الأُفُقِ، فإنِّي قَد رَأيتُ -ثَمَّ- ناسًا يَتَهاوَشونَ**[3]».

---

(١) رواه البخاري (٧٢٨٠).

(٢) الجبال الصغار، المنبسطة على الأرض.

(٣) التَّهاوش: الاختلاط، أي: يدخل بعضهم في بعضٍ، ويخالط بعضهم بعضًا، ولا يستقرُّون.

فَقامَ عُكَّاشَةُ بنُ مِحصَنٍ، فقال: ادعُ اللهَ لي يا رسولَ اللهِ أن يَجعَلَني مِنَ السَّبعينَ، فدَعا لَهُ، فقامَ رَجُلٌ آخَرُ، فقال: ادعُ اللهَ يا رسولَ اللهِ أن يَجعَلَني منهم، فقال: «**قَد سَبَقَكَ بها عُكَّاشَةُ**».

قال: ثُمَّ تَحدَّثنا، فقُلنا: مَن تَرَونَ هَؤُلاءِ السَّبعونَ الألفُ؟ قَومٌ وُلِدوا في الإسلامِ، لم يُشرِكوا باللهِ شَيئًا حتى ماتوا؟ فبَلَغَ ذلك النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**هُمُ الذينَ لا يَكتَوونَ، ولا يَستَرقونَ، ولا يَتَطَيَّرونَ، وعلى رَبِّهِم يَتَوَكَّلونَ**»[1].

ومِن رُؤاهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي جاءَت لبيانِ فضائِلِ بعضِ أصحابِهِ:

* رؤياهُ في فضلِ عمرَ بنِ الخطَّابِ:

فعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَينا أنا نائِمٌ، رَأيتُ الناسَ يُعرَضونَ عَلَيَّ وعليهم قُمُصٌ، منها ما يَبلُغُ الثُّديَّ**[2]**، ومنها ما دونَ ذلك، وعُرِضَ عَلَيَّ عمرُ ابنُ الخَطَّابِ، وعليه قَميصٌ يَجُرُّهُ**».

قالوا: فما أوَّلتَ ذلك يا رسولَ اللهِ؟

قال: «**الدِّينَ**»[3].

ووَجه تَعبيرِ القَميصِ بالدِّينِ: أنَّ القَميصَ يَستُرُ العَورَةَ في الدُّنيا، والدِّينَ يَستُرُها في الآخِرَة، ويَحجُبها عن كُلِّ مَكروه، والأصلُ فيهِ قولُه تعالى: ﴿**وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ**﴾ [الأعراف: ٢٦] الآية.

والعربُ تُكنِّي عن الفَضلِ والعَفافِ بالقَميصِ، ومنه: قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعثمانَ: «**إنَّهُ لَعَلَّ اللهَ يُقَمِّصُكَ قَميصًا، فإن أرادوكَ على خَلعِهِ: فلا تَخلَعهُ لَهُم**»[4].

---

(١) رواه أحمد (٣٨٠٦)، وصححه محققو المسند، وله شاهدٌ في الصحيحين، عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.
(٢) جمع ثديٍ.
(٣) رواه البخاري (٢٣)، ومسلم (٢٣٩٠).
(٤) رواه الترمذي (٣٧٠٥)، وصححه الألباني.

واتَّفَقَ أهل التَّعبير على أنَّ القَميص يُعبَّر بالدِّينِ، وأنَّ طوله يَدُلّ على بَقاء آثار صاحِبه من بعدِه[١].

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القَميصُ في النَّوم معناهُ: الدِّين، وجَرُّهُ يَدُلُّ على بَقاءِ آثارِه الجَميلَةِ وسُنَنِه الحَسَنَةِ في المسلمينَ بعد وفاته؛ ليُقتَدَى بهِ»[٢].

وقال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**والمعنى**: يُقامُ الدِّينُ في أيَّامِ خِلافَتِهِ، مع طولِ زَمانِ إمارَتِهِ، وبَقاءِ أَثَرِ فُتوحاتِهِ، حالَ حَياتِهِ ومَماتِهِ، أو: لأنَّ الدِّينَ يُشيدُ الإنسانَ، ويَحفَظُهُ، ويَقيهِ المُخالَفاتِ، كَوِقايَةِ الثَّوبِ، وشُمولِهِ»[٣].

وعن عبدِالله بنِ عمرَ، قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بَينا أنا نائِمٌ، أُتيتُ بقَدَحِ لَبَنٍ فشَرِبتُ، حتى إنِّي لَأرَى الرِّيَّ يَخرُجُ في أظفاري، ثُمَّ أعطَيتُ فضلي عمرَ بنَ الخَطَّابِ**».

قالوا: فما أَوَّلتَهُ يا رسولَ اللهِ؟

قال: «**العِلمَ**»[٤].

قال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وَوَجهُ التَّعبيرِ بذلك**: من جِهَةِ اشتِراكِ اللَّبَنِ والعِلمِ في كَثرَةِ النَّفعِ، وكَونِهِما سببًا للصَّلاحِ، فاللَّبَنُ للغِذاءِ البَدَنيِّ، والعِلمُ للغِذاءِ المعنَويِّ.

والمُرادُ بالعِلمِ -هُنا-: العِلمُ بسياسَةِ الناسِ، بكِتابِ اللهِ، وسُنَّةِ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واختُصَّ عمرُ بذلك؛ لِطولِ مُدَّتِهِ بالنِّسبَةِ إلى أبي بكرٍ، وباتِّفاقِ الناسِ على طاعَتِهِ بالنِّسبَةِ إلى عثمانَ، فإنَّ مُدَّةَ أبي بكرٍ كانت قَصيرَةً، فلَم يَكثُر فيها الفُتوحُ التي هيَ أعظَمُ الأسبابِ في الاختِلافِ، ومَعَ ذلك: فساسَ عمرُ فيها -مَعَ طولِ مُدَّتِهِ- الناسَ، بحَيثُ لم يُخالِفهُ أحَدٌ، ثُمَّ ازدادَتِ اتِّساعًا في خِلافَةِ عثمانَ، فانتَشَرَتِ الأقوالُ، واختَلَفَتِ الآراءُ، ولم يَتَّفِق له ما

(١) فتح الباري (١٢/ ٣٩٦).

(٢) شرح صحيح مسلم (١٥/ ١٥٩).

(٣) مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٨٩٦).

(٤) رواه البخاري (٨٢)، ومسلم (٢٣٩١).

اتَّفَقَ لِعمرَ، من طَواعيَةِ الخَلقِ لَهُ، فنَشَأت -مِن ثَمَّ- الفِتَنُ، إلى أن أفضَى الأمرُ إلى قَتلِهِ، واستُخلِفَ عليٌّ، فما ازدادَ الأمرُ إلا اختِلافًا، والفتنُ إلا انتشارًا»[١].

وعن الأعمَشِ، عن أبي وائِلٍ، قال: قال عبدُالله: «لَو أنَّ عِلمَ عمرَ وُضِعَ في كِفَّةِ ميزانٍ، ووُضِعَ عَلمُ أهلِ الأرضِ في كِفَّةٍ، لَرَجَحَ عِلمُهُ بعِلمِهِم».

قال الأعمَشُ: فأنكَرتُ ذلك، فأتَيتُ إبراهيمَ فذَكَرتُهُ لَهُ، فقال: وما أنكَرتَ من ذلك؟ فواللهِ لَقَد قال عبدُالله أفضَلَ من ذلك، قال: «إنِّي لَأحسِبُ تِسعَةَ أعشارِ العِلمِ ذَهَبَ، يومَ ذَهَبَ عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ»[٢].

* وكذلك رَأى في مَنامِه قَصرًا لِعمرَ في الجنّةِ:

عن أبي هريرة قال: بينما نَحنُ عندَ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جُلوسٌ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بينما أنا نائِمٌ، رَأيتُني في الجَنَّةِ، فإذا امرَأةٌ تَتَوَضَّأُ إلى جانِبِ قَصرٍ من ذَهَبٍ، فقُلتُ: لِمَن هَذا؟**

قالوا: هذا لِعمرَ.

فَذَكَرتُ غَيرَتَكَ، فوَلَّيتُ مُدبِرًا».

فَبَكَى عمرُ، وهو في المجلِسِ، ثُمَّ قال: أوَعليكَ -يا رسولَ اللهِ- أغارُ؟[٣]

قال المُهلَّبُ رَحِمَهُ اللهُ: «هذه الرّؤيا بُشرَى لعمرَ بنِ الخطابِ بقصرٍ في الجنةِ، وهذه الرّؤيا ممَّا تُخَرَّجُ على حَسَبِ ما رُؤيت، بغيرِ رمزٍ ولا غُموضِ تَفسيرٍ، والجاريةُ كذلك، والوضوءُ إنّما يُؤخذُ منه اسمُهُ، مِن الوَضاءَةِ، لأنّه ليسَ في الجنةِ وُضوءٌ لِصلاةٍ، ولا عِبادَة.

وفيهِ: دليلٌ على الحكمِ لكلِّ رجلٍ بما يُعلمُ مِن خُلُقِهِ، ألا تَرى أنّ النبيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يَدخلِ

---

(١) فتح الباري (٧/ ٤٦).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٨٨٠٩)، وقال الهيثميُّ في المجمع (٩/ ٦٩): «رواه الطبراني بأسانيد، ورجال هذا رجال الصحيح، غير أسد بن موسى، وهو ثقةٌ».

(٣) رواه البخاري (٥٢٢٧).

القَصرَ حينَ ذَكَرَ غَيرةَ عُمرَ؟ وقد عَلِمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّه لا يُغارُ عليه، لكن أرادَ أن يَأتيَ ما يَعلمُ أنّه يوافقُ عُمرَ، أدَبًا منه»[1].

* **وممَّا رآه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في منامِه، ممَّا يدلُّ على فضائلِ أصحابِه: أنّه رأى أمَّ سُليمٍ الرُّميصاءَ في الجنّةِ:**

فعن جابِرِ بنِ عبدِالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رَأيتُني دَخلتُ الجَنَّةَ، فإذا أنا بالرُّمَيصاءِ، امرَأةِ أبي طَلحَةَ**»[2].

وعن أنَسٍ، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**دَخَلتُ الجَنَّةَ، فسَمِعتُ خشفَةً**[3]**، فقُلتُ: مَن هَذا؟ قالوا: هَذِهِ الغُمَيصاءُ بنتُ مِلحانَ، أُمُّ أنَسِ بنِ مالِكٍ**»[4].

وفي الحديثِ: مَنقَبَة ظاهِرَة لأُمِّ سُلَيمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

* **وكذلك رأى بلالَ بنَ رَباح، يَمشي أمامَه في الجنّة:**

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لِبلالٍ عندَ صَلاةِ الفَجرِ: «**يا بلالُ، حَدِّثني بأرجَى عَمَلٍ عَمِلتَهُ في الإسلامِ؛ فإنِّي سَمِعتُ دَفَّ نَعلَيكَ**[5] **بين يَدَيَّ في الجَنَّةِ**».

قال: ما عَمِلتُ عَمَلًا أرجَى عندي: أنِّي لم أتَطَهَّر طَهورًا، في ساعَةِ لَيلٍ أو نَهارٍ، إلا صَلَّيتُ بذلك الطُّهورِ، ما كُتِبَ لي أن أُصَلِّيَ[6].

وفي رواية مسلمٍ: «**فإنِّي سَمِعتُ -اللَّيلَةَ- خَشفَ نَعلَيكَ، بين يَدَيَّ في الجَنَّةِ**».

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطَّالٍ (٩/ ٥٤٣-٥٤٤).

(٢) رواه البخاري (٣٦٧٩) -واللفظ له- ومسلم (٢٤٥٧).

(٣) الخشفة: حركة المشي وصوته، ويقال -أيضًا- بفتح الشِّين .

(٤) رواه مسلم (٢٤٥٦).

(٥) صوت مشيتك.

(٦) رواه البخاري (١١٤٩)، ومسلم (٢٤٥٨).

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيهِ: إشارَةٌ إلى أنَّ ذلك وقَعَ في المنام»[١].

وعن بُرَيدَةَ قال: أصبَحَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدَعا بلالًا، فقال: «**يا بلالُ، بمَ سَبَقتَني إلى الجَنَّةِ؟ ما دَخَلتُ الجَنَّةَ -قَطُّ- إلا سَمِعتُ خَشخَشَتَكَ**[٢] **أمامي، دَخَلتُ -البارِحَةَ- الجَنَّةَ، فسَمِعتُ خَشخَشَتَكَ أمامي**».

فقال بلالٌ: يا رسولَ اللهِ، ما أذَّنتُ -قَطُّ- إلا صَلَّيتُ رَكعَتَينِ، وما أصابَني حَدَثٌ -قَطُّ- إلا تَوَضَّأتُ عندَها، ورَأيتُ أنَّ للهِ عَلَيَّ رَكعَتَينِ.

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بِهِما**»[٣].

قال الترمذيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمعنى هذا الحديثِ: أنِّي دَخَلتُ -البارِحَةَ- الجَنَّةَ، يعني: رَأيتُ في المنامِ، كَأنِّي دَخَلتُ الجَنَّةَ، هَكَذا رويَ في بَعضِ الحديثِ».

*** وقد يَرى النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في منامِه، ما يدلُّ ويرشدُ الأمةَ، إلى بعضِ الأحكامِ الشرعيّةِ:**

فعنِ ابنِ عمرَ، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أراني في المنامِ أتَسَوَّكُ بسِواكٍ، فجَذَبَني رَجُلانِ، أحَدُهُما أكبَرُ مِنَ الآخَرِ، فناوَلتُ السِّواكَ الأصغَرَ منهما، فقيلَ لي: كَبِّر، فدَفَعتُهُ إلى الأكبَرِ**»[٤].

قال ابن بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فيهِ**: تَقديم ذي السِّنِّ في السِّواكِ، ويَلتَحِقُ بهِ: الطَّعام والشَّراب والمشي والكلام».

وقال المُهَلَّب رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذا ما لم يَتَرَتَّبِ القَومُ في الجُلوسِ، فإذا تَرَتَّبوا فالسُّنَّة -حينَئِذٍ- تَقديمُ الأيمَن فالأيمن، مِن الرئيسِ أوِ العالِمِ»[٥].

---

(١) فتح الباري (٣/ ٣٤).

(٢) الخشخشة: حركةٌ لها صوتٌ.

(٣) رواه الترمذي (٣٦٨٩) وصححه، وصححه الألباني. وقوله: «بهما» أي بهما نلت ما نلت، أو: عليك بهما.

(٤) رواه البخاري (٢٤٦)، ومسلم (٢٢٧١) -واللفظ له-.

(٥) شرح صحيح البخاري لابن بطَّالٍ (١/ ٣٦٤).

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَهوَ صَحيح»[١].

وقال الشيخُ ابنُ عُثيمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا كان الناسُ أمامَك تبدأُ بالكبيرِ، لا تبدأ باليمينِ، أمَّا إذا كانوا جالسينَ عن اليمينِ وعن الشمالِ، فابدأ باليمينِ، وبهذا يُجمعُ بينَ الأدلةِ الدالةِ على اعتبارِ التكبيرِ، وعلى اعتبارِ الأيمنِ»[٢].

وفيهِ: أنَّ استعمالَ سِواك الغَيرِ ليس بمَكروه، إلا أنَّ المُستَحَبَّ أن يَغسِلَهُ، ثُمَّ يَستَعمِلَهُ، وفيهِ حديثٌ عن عائشة، قالت «**كان نَبيُّ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يَستاكُ، فيُعطيني السِّواكَ لأغسِلَهُ، فأبدَأُ بهِ فأستاكُ، ثُمَّ أغسِلُهُ، وأدفَعُهُ إليه**»[٣].

وهذا دالٌّ على عَظيمِ أدَبِها، وكَبير فِطنَتها؛ لأنَّها لم تَغسِلهُ ابتِداء؛ حتى لا يَفوتَها الِاستِشفاء بريقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ غَسَلَتهُ تَأدُّبًا وامتِثالًا[٤].

وفي الحديثِ: فضيلةُ السواكِ، وفيه أحاديثُ كثيرةٌ مشهورةٌ، ويكفي في بيانِ فضلِه: انشغالُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به في مرضِ موتِه، عند خُروجِ روحِه الطَّاهرةِ.

فعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يَسأَلُ في مَرَضِهِ الذي ماتَ فيه، يقولُ: «**أينَ أنا غَدًا؟ أينَ أنا غَدًا؟**»... الحديث، وفيهِ: قالت: دَخَلَ عبدُالرحمَنِ بنُ أبي بكرٍ ومَعَهُ سِواكٌ يَستَنُّ بِهِ، فنَظَرَ إليه رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقُلتُ لَهُ: أعطِني هذا السِّواكَ يا عبدَالرحمَنِ، فأعطانيهِ، فقَضِمتُهُ، ثُمَّ مَضَغتُهُ، فأعطَيتُهُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاستَنَّ بهِ، وهو مُستَنِدٌ إلى صَدري»[٥].

قال الحافظُ ابنُ رجبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**في الحديثِ:** دَليلٌ على أنّ الاستياكَ سُنّةٌ في جَميعِ الأوقاتِ،

---

(١) الفتح (١/ ٣٥٧).

(٢) شرح رياض الصَّالحين (٣/ ٢٣٩).

(٣) رواه أبوداود (٥٢)، وحسنه الألباني.

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطَّالٍ (١/ ٣٦٤)، فتح الباري (١/ ٣٥٧).

(٥) رواه البخاري (٤٤٥٠) -واللفظ له- ومسلم (٢٤٤٣).

عِندَ إرادَةِ الصّلاةِ وغيرِها؛ فإنّ استياكَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا السِّواكِ، كان في مَرَضِ مَوتِه، عِندَ خُروجِ نَفسِه، ولم يَكن قاصِدًا -حينَئذٍ- لِصَلاةٍ، ولا تِلاوَةٍ»[١].

* رُؤياهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للَيلَةِ القَدرِ:

عن عُبادَةَ بنِ الصَّامِتِ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرجَ يُخبِرُ بلَيلَةِ القَدرِ، فتَلاحَى رَجُلانِ من المسلمينَ، فقال: «**إنِّي خرجتُ؛ لأُخبِرَكُم بلَيلَةِ القَدرِ، وإنَّهُ تَلاحَى فُلانٌ وفُلانٌ**[٢]، **فرُفِعَت**[٣]**، وعَسَى أن يكونَ خَيرًا لَكُم، التَمِسوها في السَّبعِ، والتِّسعِ، والخَمسِ**»[٤].

وقال الإمامُ مالكٌ في موطّئه (٧٠٥): عن حُمَيدٍ الطَّويلِ، عن أنَسِ بنِ مالِكٍ، أنَّهُ قال: خرجَ عَلَينا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رَمَضانَ، فقال: «**إنِّي أُريتُ هَذِهِ اللَّيلَةَ في رَمَضانَ، حتى تَلاحَى رَجُلانِ، فرُفِعَت، فالتَمِسوها في التَّاسِعَةِ، والسَّابِعَةِ، والخامِسَةِ**».

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أُريتُ لَيلَةَ القَدرِ، ثُمَّ أيقَظَني بَعضُ أهلي، فنُسِّيتُها، فالتَمِسوها في العَشرِ الغَوابِرِ**»[٥].

وقد تقدّمَ الكلامُ على ذلك.

* ورَأى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه يَسجُدُ في صَبيحَتِها، في ماءٍ وطينٍ:

فعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ، قال: قامَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطيبًا، صَبيحَةَ عِشرينَ من رَمَضانَ، فقال: «**إنِّي أُريتُ لَيلَةَ القَدرِ، وإنِّي نُسِّيتُها، وإنَّها في العَشرِ الأواخِرِ في وِترٍ، وإنِّي رَأيتُ كَأنِّي أسجُدُ في طينٍ وماءٍ**».

---

(١) فتح الباري، لابن رجبٍ (٨/ ١٢٩).

(٢) أي: وقعت بينهما ملاحاةٌ، وهي المخاصمة، والمنازعة، والمشاتمة.

(٣) يعنى: رفع علمها عنه؛ بسبب تلاحي الرجلين، فحرموا به بركة ليلة القدر، وهذا يدلُّ على أنّ الملاحاة والخلاف، يصرف فضائل كثيرةً من الدِّين، ويحرم أجرًا عظيمًا. شرح صحيح البخاري، لابن بطَّالٍ (٤/ ١٥٧).

(٤) رواه البخاري (٤٩).

(٥) رواه مسلم (١١٦٦).

وكان سَقفُ المسجِدِ جَريدَ النَّخلِ، وما نَرى في السَّماءِ شَيئًا، فجاءَت قَزعَةٌ، فأُمطِرنا، فصَلَّى بنا النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى رَأيتُ أثَرَ الطِّينِ والماءِ على جَبهَةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأرنَبَتِهِ، تَصديقَ رُؤياهُ[١].

وهذه مِنَ الرُّؤيا التي وقَعَ تعبيرُها مُطابِقًا.

وقد اختلفَ أهلُ العلمِ في تعيينِ ليلةِ القَدرِ، على أكثَر من أربعينَ قولًا، أرجَحُها: أنَّها تَنتَقِلُ في العشرِ الأواخِرِ، وأرجَى ذلك: في الوترِ منها، وأرجَى ذلك: ليلةَ السَّابعِ والعِشرينَ.

والحِكمَةُ في إخفائِها: لِتحصُلَ الهِمَّةُ في طلبِها، وهكَذا الحالُ بالنِّسبةِ لساعَةِ الجُمُعةِ.

قال الحافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اختلَفَ العُلَماءُ في لَيلَةِ القَدرِ اختِلافًا كَثيرًا، وتَحَصَّلَ لَنا من مَذاهِبهم في ذلك، أكثَرُ من أربَعينَ قولًا، كَما وقَعَ لَنا نَظيرُ ذلك في ساعَة الجُمُعَة، وقد اشتَرَكَتا في إخفاء كُلٍّ منهما؛ ليَقع الجِدُّ في طَلَبهما»[٢].

*** ومِن رُؤاهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما كان بَيانًا لأحداثٍ ستَقَعُ في عَهدِه، كرُؤيتِهِ البَلدةَ التي سيُهاجِرُ إلَيها:**

فعن أبي موسَى، عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**رَأيتُ في المنامِ أنِّي أُهاجِرُ من مَكَّةَ إلى أرضٍ بها نَخلٌ، فذَهَبَ وهَلي[٣] إلى أنها اليَمامَةُ أو هَجَرُ، فإذا هيَ المدينَةُ يَثرِبُ**»[٤].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن رسول اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**قَد أُريتُ دارَ هِجرَتِكُم، رَأيتُ سَبخَةً ذاتَ نَخلٍ، بين لابَتَينِ**» وهُما الحَرَّتانِ، فهاجَرَ مَن هاجَرَ قِبَلَ المدينَةِ حينَ ذَكَرَ ذلك رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورَجَعَ إلى المدينَةِ بَعضُ مَن كان هاجَرَ إلى أرضِ الحَبَشَةِ[٥].

---

(١) رواه البخاري (٨١٣)، ومسلم (١١٦٧).

(٢) الفتح (٤/ ٢٦٢).

(٣) أي: ظنِّي.

(٤) رواه البخاري (٣٦٢٢)، ومسلم (٢٢٧٢).

(٥) رواه البخاري (٢٢٩٨).

* **وكذلك رُؤيتُهُ ما سيَقَعُ في أُحُدٍ، وما يتلو ذلك مِنَ النَّصرِ، والفَتحِ:**

عن أبي موسَى، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**رَأيتُ في رُؤيايَ أنِّي هَزَزتُ سَيفًا، فانقَطَعَ صَدرُهُ، فإذا هو ما أُصيبَ من المُؤمِنينَ يومَ أُحُدٍ.**

ثُمَّ هَزَزتُهُ بأُخرَى، فعادَ أحسَنَ ما كان، فإذا هو ما جاءَ اللهُ بِهِ من الفَتحِ، واجتِماعِ المُؤمِنينَ.

ورَأيتُ فيها بَقَرًا، واللهُ خَيرٌ، فإذا هُم المُؤمِنونَ يومَ أُحُدٍ، وإذا الخَيرُ ما جاءَ اللهُ بِهِ من الخَيرِ، وثَوابِ الصِّدقِ الذي آتانا اللهُ بعدَ يومِ بَدرٍ»[١].

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «وتَفسيره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الرُّؤيا بما ذَكَرَهُ؛ لأنَّ سَيفَ الرجُل أنصارُه الذينَ يَصولُ بِهِم، كَما يَصولُ بسَيفِهِ.

وقد يُفَسَّرُ السَّيفُ في غَيرِ هذا بالوَلَدِ، والوالِدِ، والعَمّ، أوِ الأخ، أوِ الزَّوجَة، وقد يَدُلّ على الوِلايَة، أوِ الوَديعَة، وعلى لِسانِ الرجُلِ، وحُجَّتِه، وقد يَدُلّ على سُلطانٍ جائِرٍ، وكُلّ ذلك بحَسَبِ قَرائِنَ تَنضَمُّ، تَشهَد لأحَدِ هَذِهِ المعاني، في الرائي، أو في الرُّؤيَة.

ونَحرُ البَقَر: هو قَتلُ الصَّحابَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، الذينَ قُتِلوا بأُحُدٍ.

وقولُه: «**واللهُ خَيرٌ**»: قال القاضي: قال أكثَرُ شُرَّاحِ الحديثِ: مَعناهُ: ثَوابُ اللهِ خَيرٌ، أي صُنعُ اللهِ بالمقتولينَ خَيرٌ لهم من بَقائِهِم في الدُّنيا، قال القاضي: والأولى قولُ مَن قال: «واللهُ خَيرٌ» من جُملَةِ الرُّؤيا، وهي كَلِمَة أُلقيَت إليه، وسَمعَها في الرّؤيا عِندَ رُؤياهُ البَقَر، بدَليلِ تَأويلِهِ لها بقولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإذا الخَيرُ ما جاءَ اللهُ به**» انتَهَى باختِصارٍ[٢].

وعن ابنِ عبَّاسٍ، قال: تَنَفَّلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَيفَهُ ذا الفَقارِ يومَ بَدرٍ، وهو الذي رَأى فيه الرُّؤيا يومَ أُحُدٍ، فقال: «**رَأيتُ في سَيفي ذي الفَقارِ فلًّا**[٣]، **فأوَّلتُهُ: فلاًّ يكونُ فيكُم،**

---

(١) رواه البخاري (٣٦٢٢)، ومسلم (٢٢٧٢).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٥/ ٣٢).

(٣) هو الكسر في حدِّ السَّيف.

ورَأيتُ أنِّي مُردِفٌ كَبشًا، فأوَّلتُهُ: كَبشَ الكتيبَةِ[١]، ورَأيتُ أنِّي في دِرعٍ حَصينَةٍ، فأوَّلتُها: المدينَةَ، ورَأيتُ بَقَرًا تُذبَحُ، فبَقَرٌ واللهِ خَيرٌ، فبَقَرٌ واللهِ خَيرٌ» فكان الذي قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٢].

* ومن رُؤاهُ لِما سيَقَعُ في عهدِهِ: رُؤيتُهُ زَواجهُ من عائشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

عن عائشةَ أنَّها قالت: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُريتُكِ في المنامِ مَرَّتَينِ، جاءَني بكِ الملَكُ في سَرَقَةٍ من حَريرٍ**[٣]، يقولُ: هَذِهِ امرَأتُكَ، **فأكشِفُ عن وجهِكِ، فإذا أنتِ هيَ، فأقولُ: إن يَكُ هذا من عندِ اللهِ، يُمضِهِ**»[٤].

«**إن يَكُ هذا من عندِ اللهِ، يُمضِهِ**»: المُراد: إن تَكُن الرُّؤيا على وجهِها وظاهِرِها لا تحتاجُ إلى تَعبيرٍ وتَفسيرٍ، فسَيُمضيهِ الله تعالى ويُنَجِّزُهُ.

فالشَّكُّ عائِدٌ إلى أنَّها رُؤيا على ظاهِرِها، أم تحتاجُ إلى تَعبيرٍ وصَرفٍ عن ظاهِرِها[٥].

وعن عائشةَ، أنَّ جبريلَ، جاءَ بصورَتِها في خِرقَةِ حَريرٍ خَضراءَ، إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**هَذِهِ زَوجَتُكَ في الدُّنيا والآخِرَةِ**»[٦].

* رُؤيا النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دُخولِه المسجدَ الحرامَ:

فَفي خبَرِ الحُدَيبيَةِ المُطَوَّل، عن المِسوَرِ بنِ مَخرَمَةَ، ومَروانَ بنِ الحَكَمِ: «... وقد كان أصحابُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرجوا، وهُم لا يَشُكُّونَ في الفَتحِ؛ لِرُؤيا رَآها رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلَمَّا رَأوا ما رَأوا مِنَ الصُّلحِ والرُّجوعِ، وما تَحَمَّلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على نَفسِهِ، دَخَلَ الناسَ من ذلك أمرٌ عَظيمٌ، حتى كادوا أن يَهلَكوا».

---

(١) كبش الكتيبة: سيّدهم، والكتيبة: القطعة العظيمة من الجيش.

(٢) رواه أحمد (٢٤٤٥)، وحسنه محققو المسند.

(٣) أي: قطعة حريرٍ جيِّدٍ.

(٤) رواه البخاري (٣٨٩٥)، ومسلم (٢٤٣٨).

(٥) شرح النووي على مسلم (١٥/ ٢٠٣).

(٦) رواه الترمذي (٣٨٨٠)، وقال: «هذا حديث حسنٌ غريبٌ»، وصححه الألباني.

قال: «حَتَّى إذا كان بين مَكَّةَ والمدينَةِ في وسَطِ الطَّريقِ، فنزَلَت سورَةُ الفَتحِ»[١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَد أُرِيَ في المنامِ أَنَّهُ دخَلَ مَكَّةَ، وطاف بالبيتِ، فأخبَرَ أصحابَهُ بذلك وهو بالمدينَةِ، فلمَّا ساروا عامَ الحُدَيبيَةِ، لم يَشُكَّ جماعَةٌ منهم، أنَّ هَذِهِ الرُّؤيا تتَفَسَّرُ هذا العامَ، فلمَّا وقَعَ ما وقَعَ من قَضيَّةِ الصُّلحِ، ورَجَعوا عامَهُم ذلك على أن يَعودوا من قابَلَ، وقَعَ في نُفوسِ بَعضِ الصَّحابَةِ من ذلك شيءٌ، حتى سَأَلَ عمرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في ذلك، فقال له -فيما قال-: أفَلَم تَكُن تُخبِرُنا أنَّا سَنَأتي البَيتَ ونَطوفُ بهِ؟ قال: «**بَلى، أفأَخبَرتُكَ أنَّكَ تَأتيهِ عامَكَ هَذا؟**» قال: لا، قال: «فإنَّكَ آتيهِ، ومُطَوِّفٌ بهِ».

وبهذا أجابَ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -أيضًا-، حَذو القُذَّة بالقُذَّة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ**﴾ [الفتح: ٢٧]، وهذا لِتَحقيقِ الخَبَرِ، وتَوكيدِهِ، وليس هذا مِنَ الِاستِثناءِ في شيءٍ»[٢].

* رُؤياهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السِّحرِ، الذي سَحَرَه بِهِ اليهوديُّ:

عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُحِرَ، حتى كان يَرى أَنَّهُ يأتي النِّساءَ، ولا يَأتيهِنَّ، فقال: «**يا عائشةُ، أعَلِمتِ أنَّ اللهَ قَد أفتاني فيما استَفتَيتُهُ فيهِ؟ أتاني رَجُلانِ، فقَعَدَ أحَدُهُما عندَ رَأسي، والآخَرُ عندَ رِجلَيَّ، فقال الذي عندَ رَأسي للآخَرِ**: ما **بالُ الرجُلِ؟ قال: مَطبوبٌ**[٣]، **قال: ومَن طَبَّهُ؟ قال: لَبيدُ بنُ أعصَمَ** -رَجُلٌ من بَني زُرَيقٍ، حَليفٌ لِيَهودَ، كان مُنافِقًا- **قال: وفيمَ؟ قال: في مُشطٍ، ومُشاقَةٍ**[٤]، **قال: وأينَ؟ قال: في جُفِّ**[٥] **طَلعَةٍ ذَكَرٍ، تحتَ راعوفَةٍ**[٦] **في بئرِ ذَروانَ**».

قالت: فأتَى النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البِئرَ حتى استَخرَجَهُ، فقال: «**هَذِهِ البِئرُ التي أُريتُها، وكَأَنَّ**

---

(١) رواه الإمام أحمد (١٨٩١٠)، وحسنه محققو المسند، وأصله في البخاري (٢٧٣١).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٥٦).

(٣) أي: مسحورٌ، كنَّوا عن السِّحر بالطِّبِّ تفاؤلاً، كما قالوا للديغ سليم.

(٤) مشط: آلة تسريح الشعر، ومشاقةٍ أو: «ومشاطةٍ»: ما يسقط من الشّعر.

(٥) جفٍّ: هو وعاء طلع النَّخل.

(٦) الراعوفة: هي صخرة تنزل في أسفل البئر إذا حفرت، يجلس عليها الذي ينظِّف البئر.

ماءَها نُقاعَةُ الحِنَّاءِ، وكأنَّ نَخلَها رُءوسُ الشَّياطينِ» قال: فاستُخرِجَ، قالت: فقُلتُ: أفَلا؟ -أي تَنَشَّرتَ- فقال: «**أمَّا اللهُ: فقَد شَفاني، وأكرَهُ أن أُثيرَ على أحَدٍ مِنَ الناسِ شَرًّا**»(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قَد أنكَرَ هذا طائِفَةٌ مِنَ الناسِ، وقالوا: لا يَجوزُ هذا عليه، وظَنُّوهُ نَقصًا وعَيبًا، وليس الأمرُ كما زَعَموا، بل هو من جِنسِ ما كان يَعتَريهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مِنَ الأسقامِ، والأوجاعِ، وهو مَرَضٌ مِنَ الأمراضِ، وإصابَتُهُ بِهِ كَإصابَتِهِ بالسُّمِّ، لا فرقَ بينهُما.

قال القاضي عياضٌ: والسِّحرُ مَرَضٌ مِنَ الأمراضِ، وعارِضٌ مِنَ العِلَلِ، يَجوزُ عليه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، كَأنواعِ الأمراضِ، مِمَّا لا يُنكَرُ، ولا يَقدَحُ في نُبوَّتِهِ، وأمَّا كَونُهُ يُخَيَّلُ إليه أنَّهُ فعَلَ الشَّيءَ ولم يَفعَلهُ، فليس في هذا ما يُدخِلُ عليه داخِلَةً في شيءٍ من صِدقِهِ، لِقيامِ الدَّليلِ والإجماعِ على عِصمَتِهِ من هَذا، وإنَّما هذا فيما يَجوزُ طُروُّهُ عليه في أمرِ دُنياهُ، التي لم يُبعَث لِسببِها، ولا فُضِّلَ من أجلِها، وهو فيها عُرضَةٌ للآفاتِ، كَسائِرِ البَشَرِ، فغَيرُ بَعيدٍ أنَّهُ يُخَيَّلَ إليه من أُمورِها ما لا حَقيقَةَ لَهُ، ثُمَّ يَنجَلي عنهُ كما كان»(٢).

*** ومِن رُؤاهُ: ما كان إخبارًا عن حوادِثَ وأحداثٍ، ستَقَعُ من بعدِهِ، كرؤيَتِه لخلافَةِ أبي بَكرٍ، وعمرَ:**

عن عبدِاللهِ بنِ عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أنَّ النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال: «**أُريتُ في المنامِ أنِّي أنزِعُ بدَلوِ بكرَةٍ على قَليبٍ، فجاءَ أبو بكرٍ، فنَزَعَ ذَنوبًا -أو: ذَنوبَينِ(٣)-، نَزعًا ضَعيفًا، واللهُ يَغفِرُ لَهُ، ثُمَّ جاءَ عمرُ بنُ الخَطَّابِ، فاستَحالَت غَربًا(٤)، فلَم أرَ عَبقَرِيًّا(٥) يَفري فريَّهُ(٦)، حتى رَويَ الناسُ، وضَرَبوا بعَطَنٍ(٧)**»(٨).

---

(١) رواه البخاري (٥٧٦٥) ومسلم (٢١٨٩).

(٢) زاد المعاد (٤/ ١١٣).

(٣) الذَّنوب: الدّلو الكبيرة إذا كان فيها الماء.

(٤) الغرب: الدَّلو العظيمة، أي: تحوّلت دلوًا كبيرة، وهي أكبر من الذَّنوب.

(٥) العبقريّ: هو السَّيِّد، فعبقريّ القوم: سيِّدهم وقيِّمهم وكبيرهم، ونقل أبو عبيد: أنَّ عبقر من أرض الجنّ، ثم صار مثلًا لكلِّ ما ينسب إلى شيء نفيس، فصاروا كلَّما رأوا شيئًا غريبًا، ممَّا يصعب عمله ويدقّ، أو شيئًا عظيمًا في نفسه، نسبوه إليها، فقالوا: عبقريّ، ثمَّ اتُّسع فيه، حتى سمِّي به السَّيِّد الكبير. النهاية (٣/ ١٧٣).

(٦) يعمل عمله البالغ، أو يعمل عملاً مصلحًا وجيِّدًا مثله، ويقوى قوَّته.

(٧) أي: أرووا إبلهم، ثمَّ آووها إلى عطنها، وهو الموضع الذي تساق إليه بعد السَّقي؛ لتستريح.

(٨) رواه البخاري (٣٦٨٢) ومسلم (٢٣٩٣).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**قال العُلَماءُ:** هذا المنامُ، مِثالٌ واضِحٌ، لِما جَرَى لأبي بكرٍ وعمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، في خِلافَتِهِما، وحُسنِ سيرَتِهِما، وظُهورِ آثارِهِما، وانتِفاعِ الناسِ بهما، وكُلُّ ذلك مَأخوذٌ مِنَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومِن بَرَكَتِهِ، وآثارِ صُحبَتِهِ، فكان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو صاحِبَ الأمرِ، فقامَ بِهِ أكمَلَ قيامٍ، وقَرَّرَ قَواعِدَ الإسلامِ، ومَهَّدَ أُمورَهُ، وأوضَحَ أُصولَهُ، وفُروعَهُ، ودَخَلَ الناسُ في دينِ اللهِ أفواجًا، وأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿**ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ**﴾ [المائدة: ٣]، ثُمَّ تُوُفِّيَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخَلَفَهُ أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سَنَتَينِ وأشهُرًا، وهو المُرادُ بقولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ذَنوبًا**»، أو: «**ذَنوبَينِ**»، وهذا شَكٌّ مِنَ الراوي، والمُرادُ: ذَنوبانِ، كَما صَرَّحَ بهِ في الرِّوايَةِ الأُخرَى، وحَصَلَ في خِلافَتِهِ قِتالُ أهلِ الرِّدَّةِ، وقَطعُ دابِرِهِم، واتِّساعُ الإسلامِ، ثُمَّ تُوُفِّيَ، فخَلَفَهُ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فاتَّسَعَ الإسلامُ في زمنه، وتقرّرِ لهم مِن أحكامِه ما لم يَقَع مِثلُهُ، فعَبَّرَ بالقَليبِ عن أمرِ المسلمينَ، لِما فيها مِنَ الماءِ، الذي بهِ حَياتُهُم وصَلاحُهُم، وشَبَّهَ أميرَهُم بالمُستَقي لَهُم، وسَقيُهُ هو قيامُهُ بمَصالِحِهِم، وتَدبيرِ أُمورِهِم.

وأمَّا قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وفي نَزعِهِ ضُعفٌ**» فليس فيه حَظٌّ من فضيلَةِ أبي بكرٍ، ولا إثباتُ فضيلَةٍ لِعمرَ عليه، وإنَّما هو إخبارٌ عن مُدَّةِ وِلايَتِهِما، وكَثرَةِ انتِفاعِ الناسِ في وِلايَةِ عمرَ؛ لِطولِها، ولِاتِّساعِ الإسلامِ، وبِلادِهِ، والأموالِ، وغَيرِها مِنَ الغَنائِمِ، والفُتوحاتِ، ومَصَّرَ الأمصارَ، ودَوَّنَ الدَّواوينَ»[1].

وقال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وفي الحديث:** إعلامٌ بخِلافَتِهِما، وصِحَّة وِلايَتِهِما، وكَثرَة الانتِفاع بِهِما، فكان كَما قال»[2].

* وكذلك رأى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يَدُلُّ على اتِّفاقِ الأُمَّةِ، على خلافَةِ أبي بَكرٍ وعمرَ وعُثمانَ:

عنِ ابنِ عمرَ قال: خرجَ عَلَينا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاتَ غَداةٍ، بعدَ طُلوعِ الشَّمسِ، فقال: «**رَأيتُ -قُبَيلَ الفَجرِ- كَأنِّي أُعطيتُ المقاليدَ والموازينَ، فأمَّا المقاليدُ: فهَذِهِ المفاتيحُ، وأمَّا الموازينُ: فهيَ التي تَزِنونَ بها، فوُضِعتُ في كِفَّةٍ، ووُضِعَت أُمَّتي في كِفَّةٍ، فوُزِنتُ بِهِم،**

(١) شرح النووي على مسلم (١٥/ ١٦١).

(٢) فتح الباري (١٢/ ٤١٣).

فرَجَحتُ.

ثُمَّ جيءَ بأبي بكرٍ، فوُزِنَ بهِم، فوَزَنَ.

ثُمَّ جيءَ بعمرَ، فوُزِنَ، فوَزَنَ.

ثُمَّ جيءَ بعثمانَ، فوُزِنَ بهِم.

ثُمَّ رُفِعَت»(١).

قوله: «أمَّا المقاليدُ: فهَذِهِ المفاتيحُ»: للتنبيهِ على أنَّ هذِه الأُمةَ يفتَحونَ بها خزائنَ الأرضِ.

وقوله: «وَأمَّا الموازينُ: فهيَ التي تَزِنونَ بها»: لعلَّه أُعطيها؛ ليأمُرَ أُمتَهُ بالعَدل فيها.

قال المُحبُّ الطبريُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: «في راجِحيَّة كلِّ واحدٍ منهم بجميعِ الأُمَّة: تنبيهٌ على اتِّفاقِ جميعِ الأُمَّةِ على خِلافَتِه، وفي رَفعِ الميزانِ: إشارَةٌ إلى الاختِلافِ»(٢).

* ورَأى ما يَدُلُّ على وجودِ التنازُعِ والاختِلافِ، في عَهدِ عثمانَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ:

عنِ الأسوَدِ بنِ هِلالٍ، عن رَجُلٍ من قَومِهِ، قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقولُ: **«رَأيتُ اللَّيلَةَ في المنامِ، كَأنَّهُ ثَلاثَةٌ من أصحابي وُزِنوا، فوُزِنَ أبو بكرٍ فوَزَنَ، ثُمَّ وُزِنَ عمرُ فوَزَنَ، ثُمَّ وُزِنَ عثمانُ فنَقَصَ صاحِبُنا(٣)، وهو صالِحٌ»(٤)**.

والوَزنُ الذي في الحديثِ الأوَّلِ: من حيث اتفاقُ الأُمةِ على خلافَتِهم.

وأمَّا الوزنُ في هذا الحديثِ: فمِن حيث موافقةُ الأُمةِ لهم في آرائِهم؛ ولهذا كان في وزنِ عثمانَ نقصٌ.

---

(١) رواه أحمد (٥٤٦٩)، وقال الهيثميُّ في المجمع (٩/ ٥٨): «رجاله ثقاتٌ»، وصححه أحمد شاكر، والألباني في تخريج السنة (١١٣٨)، وضعَّفه في الضعيفة (٦٤٨٦)، وقصّة الموازين -إلى ذكر عمر- صححها الألباني في تحقيق كتاب الإيمان لابن تيميَّة (ص١٢٧).

(٢) الرياض النضرة في مناقب العشرة (١/ ٦٢).

(٣) أي: في الوزن، ولكن ليس نقصانًا يخل في الصَّلاح، وإليه أشار بقوله: «وهو صالحٌ».

(٤) رواه أحمد (١٦٦٠٤)، وصححه محققو المسند.

فإنَّ أبا بكرٍ وعُمرَ لم يحدُث في خلافتِهما خِلافٌ مع رعيَّتِهم، فلَم يُخالِفوهم في رأي رَأوه، وإن حصَلَ خلافٌ في بادي النظرِ، رَجعوا عليه في ثانيهِ، مُستصوِبين رأيَه، معترِفينَ بأنَّ الحقَّ كان معَه، كما في قتالِ أهلِ الرِّدةِ، ونحوِ ذلك.

وهذا المعنَى فُقِدَ في عثمانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ فإنَّهم خالَفوا رأيَه في كثيرٍ من وقائِعِه، ولم يرجِعوا إليه، بل أصَرُّوا على إنكارِهم عليه، حتى قُتِلَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وكان -مَعَ ذلك- على الحقِّ، على ما شَهِدَت بهِ الأحاديثُ، وكان -مَعَ ذلك- رَجُلًا صالحًا، على ما شَهِدَ بهِ هذا الحديثُ.

فالنَّقصُ: إنَّما كان عمَّا ثبتَ للشَّيخَين قبلَه، بهذا الاعتِبارِ.

فيكونُ كلُّ واحدٍ مِنَ الشَّيخَين رَجحَ بالأمَّةِ ووَزَنَهم بالاعتبارَين المذكورَين: اتفاقُ الأُمَّةِ على خلافَتِه، وعدَمُ مخالَفتِهم لَه، وعثمانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَجحَ بهم بالاعتِبارِ الأوَّلِ فقَط[1].

وعن أبي بكرَةَ: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال ذاتَ يومٍ: «**مَن رَأى مِنكُم رُؤيا؟**».

فقال رَجُلٌ: أنا، رَأيتُ كَأنَّ ميزانًا نَزَلَ من السَّماءِ، فوُزِنتَ أنتَ وأبو بكرٍ، فرَجَحتَ أنتَ بأبي بكرٍ، ووُزِنَ عمرُ وأبو بكرٍ فرَجَحَ أبو بكرٍ، ووُزِنَ عمرُ، وعثمانُ، فرَجَحَ عمرُ، ثُمَّ رُفِعَ الميزانُ.

فَرَأينا الكراهيَةَ في وجهِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2].

قال القاري رَحِمَهُ اللهُ: «**فَأحزَنَ النبيَّ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ذلك**؛ وذلك لِما عَلِمَ من أنَّ تَأويلَ رَفعِ الميزانِ انحِطاطُ رُتبَةِ الأُمورِ، وظُهورُ الفِتَنِ بعدَ خِلافَةِ عمرَ، ومعنى رُجحانِ كُلٍّ مِنَ الآخَرِ في الميزانِ: أنَّ الراجِحَ أفضَلُ مِنَ المرجوحِ، وإنَّما لم يوزَن عثمانُ وعليٌّ؛ لأنَّ خِلافَةَ عليٍّ على اختِلافِ الصَّحابَةِ: فِرقَةٌ مَعَهُ، وفِرقَةٌ مع مُعاويَةَ، فلا تكونُ خِلافَةً مُستَقِرَّةً، مُتَّفَقًا عليها»[3].

---

(١) ينظر: الرياض النضرة في مناقب العشرة (١/ ٦٢).

(٢) رواه أبوداود (٤٦٣٤)، والترمذي (٢٢٨٧)، وحسنه، وصححه الألباني، وفي رواية لأبي داود (٤٦٣٥): قال: فاستاء لها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يعني: فساءه ذلك، فقال: «خلافة نبوَّةٍ، ثمَّ يؤتي الله الملك من يشاء»، وصححه الألباني.

(٣) مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٩١٥).

ففي الحديثِ: إثباتُ التفاضُلِ بينَ الخُلفاءِ الراشِدينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، مع تعيينِ الأفضَلِ، فالأفضَلِ، وفيهِ بيانُ فضلِهِم على الأُمَّةِ بأسرِها، وبيانُ أنَّه لا مُقارَنَةَ بين أحدٍ منهم، وبين أحدٍ من الأُمَّةِ، كائنًا ما كان فضلُهُ، وصلاحُه، وعلمُه؛ ولذلك رُفِعَ الميزانُ.

قال شَيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ: «أمَّا كَونُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راجِحًا بالأُمَّةِ: فظاهِرٌ؛ لأنَّ له مِثلَ أجرِ جَميعِ الأُمَّةِ، مُضافًا إلى أجرِهِ، وأمَّا أبو بكرٍ وعمرَ: فلأنَّ لَهُما مُعاوَنَةً، مع الإرادَةِ الجازِمَةِ في إيمانِ الأُمَّةِ كُلِّها، وأبو بكرٍ كان في ذلك سابِقًا لِعمرٍ، وأقوى إرادَةً منه؛ فإنَّهُما هُما اللَّذانِ كانا يُعاوِنانِ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على إيمانِ الأُمَّةِ، في دَقيقِ الأُمورِ وجَليلِها، في مَحياهُ وبَعدَ وفاتِهِ»(١).

* وكذلك رَأى في منامِهِ الكذَّابَين اللذَين يَخرُجانِ من بعدِهِ:

فَعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: قَدِمَ مُسَيلِمَةُ الكذَّابُ على عَهدِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجعَلَ يقولُ: إن جَعَلَ لي محمدٌ الأمرَ من بعدِهِ تَبِعتُهُ، وقدِمَها في بَشَرٍ كَثيرٍ من قَومِهِ، فأقبَلَ إليه رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومَعَهُ ثابتُ بنُ قَيسِ بنِ شَمَّاسٍ، وفي يَدِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِطعَةُ جَريدٍ، حتى وقَفَ على مُسَيلِمَةَ في أصحابِهِ، فقال: «**لَو سَألتَني هَذِهِ القِطعَةَ ما أعطَيتُكَها، ولَن تَعدوَ أمرَ اللهِ فيكَ، ولَئِن أدبَرتَ لَيَعقِرَنَّكَ اللهُ، وإنِّي لَأراكَ الذي أُريتُ فيه، ما رَأيتُ، وهذا ثابِتٌ يُجيبُكَ عَنِّي**»، ثُمَّ انصَرَفَ عَنهُ.

قال ابنُ عبَّاسٍ: فسَألتُ عن قولِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّكَ أُرَى الذي أُريتُ فيه ما أُريتُ**»، فأخبَرَني أبو هريرةَ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بَينا أنا نائِمٌ، رَأيتُ في يَدَيَّ سِوارَينِ من ذَهَبٍ، فأهَمَّني شَأنُهُما، فأوحيَ إلَيَّ في المنامِ: أنِ انفُخهُما، فنَفَختُهُما، فطارا، فأوَّلتُهُما كَذَّابَينِ يَخرُجانِ بعدي، أحَدُهُما: العَنسيُّ، والآخَرُ: مُسَيلِمَةُ**»(٢).

قوله: «**فَنَفَختهما**»: فيه إشارَةٌ إلى حَقارَةِ أمرِهما؛ لأنَّ شَأنَ الذي يُنفَخُ فيَذهَب بالنَّفخِ، أن

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٢٩).

(٢) رواه البخاري (٤٣٧٣)، ومسلم (٢٢٧٣).

يكون في غايَة الحَقارَة، ورَدَّهُ ابنُ العربيِّ، بأنَّ أمرَهما كان في غايَةِ الشِّدَّةِ، ولم يَنزِل بالمسلمينَ قبلَهُ مِثلُه.

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَهوَ كَذلك، لكنَّ الإشارَة إنَّما هيَ للحَقارَةِ المعنَويَّة، لا الحِسِّيَّةِ، وفي طَيَرانهما إشارَة إلى اضمِحلالِ أمرِهما»[1].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ووَجهُ مناسبَةِ هذا التأويلِ لهَذه الرُّؤيا: أنَّ أهلَ صنعاءَ وأهلَ اليمامَةِ، كانا قَد أسلَما، وكانا كالسَّاعِدَين للإسلامِ، فلمَّا ظهَرَ فيهِما هذانِ الكذَّابانِ، وتبهرَجا لَهُما بتُرَّهاتِهما، وزخرَفا أقوالَهُما، انخَدَعَ الفريقانِ بتلكَ البَهرجَةِ، فكان البَلدان للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمنزلةِ يَدَيه؛ لأنَّه كان يَعتَضِدُ بهما، والسِّوارانِ فيهِما هُما: مسيلمةُ، وصاحِبُ صنعاءَ، بما زخرَفا من أقوالِهما، ونَفخُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هو أنَّ اللهَ أهلَكَهُما على أيدي أهلِ دينِه»[2].

* ومِنَ الرُّؤَى النبويةِ: ما كان بَشائِرَ لهِذِه الأُمَّة، كرُؤيتِهِ لمفاتيحِ الأرضِ في يدِهِ:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بُعِثتُ بجَوامِعِ الكلِمِ، ونُصِرتُ بالرُّعبِ، وبينما أنا نائِمٌ -البارِحَةَ-، إذ أُتيتُ بمَفاتيحِ خَزائِنِ الأرضِ، حتى وُضِعَت في يَدي**».

قال أبو هريرةَ: وقد ذَهَبَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنتُم تَنتَثِلونَها[3].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذِه الرُّؤيا أوحَى اللهُ فيها لنبيِّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنَّ أُمَّتَه ستَملِكُ الأرضَ، ويتَّسِعُ سُلطانُها، ويَظهَرُ دينُها، ثمَّ إنَّه وقَعَ ذلك كذلك؛ فمَلَكَت أُمَّتُه مِنَ الأرضِ ما لم تملِكهُ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ، فيما عَلِمناه، فكان هذا الحديثُ من أدلَّةِ نُبوَّتِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[4].

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٤٢٤).

(٢) المفهم (١٨/ ١٤٨).

(٣) رواه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣). وقوله: «وأنتم تنتثلونها» يعني: تستخرجون ما فيها.

(٤) المفهم (٥/ ٤٨).

* ومِن رُؤَى البَشائِرِ: رُؤيتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للرُّطَبِ في مَنامِه:

فعن أَنَسِ بنِ مالِكٍ قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رَأيتُ ذاتَ لَيلَةٍ، فيما يَرَى النائِمُ، كَأَنَّا في دارِ عُقبَةَ بنِ رافِعٍ، فأُتينا برُطَبٍ من رُطَبِ ابنِ طابٍ**[1]**، فأوَّلتُ الرِّفعَةَ لَنا في الدُّنيا، والعاقِبَةَ في الآخِرَةِ، وأنَّ دينَنا قَد طابَ**»[2].

«وَأنَّ دينَنا قَد طابَ»: أي: كمُلَ، واستقرَّت أحكامُه، وتمهَّدَت قواعِدُه.

أخَذَ العاقِبَةَ من لَفظِ عُقبَةَ، والرِّفعَةَ من رافِعٍ، وطيبَ الدِّينِ من طابٍ.

قال ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ اللهُ: «هذا الحديثُ أصلٌ في تَعبيرِ الرُّؤيا، على الأسماءِ، والأحوالِ»[3].

* ومِن ذلك -أيضًا-: تبشيرُه بدُخولِ العَجمِ في الإسلامِ:

عنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رَأيتُ غَنَمًا كَثيرَةً سَوداءَ، دَخَلَت فيها غَنَمٌ كَثيرَةٌ بيضٌ**»، قالوا: فما أوَّلتَهُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**العَجَمُ، يشركونكُم في دينِكُم، وأنسابِكُم**» قالوا: العَجَمُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**لَو كان الإيمانُ مُعَلَّقًا بالثُّرَيَّا، لَنالَهُ رِجالٌ مِنَ العَجَمِ**»[4].

* رُؤيا النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المُسلِمينَ يَغزونَ البَحرَ:

عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: حَدَّثَتني أُمُّ حَرامٍ: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال يومًا في بَيتِها، فاستَيقَظَ وهو يَضحَكُ، قالت: يا رسولَ اللهِ ما يُضحِكُكَ؟ قال: «**عَجِبتُ من قَومٍ من أُمَّتي، يَركَبونَ البَحرَ كالمُلوكِ على الأسِرَّةِ**».

فَقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، ادعُ اللهَ أن يَجعَلَني منهم، فقال: «**أنتِ منهم**».

---

(١) هو نوع من الرُّطب معروفٌ، وهو مضاف إلى ابن طابٍ: رجلٍ من أهل المدينة.

(٢) رواه مسلم (٢٢٧٠).

(٣) كشف المشكل (٣/ ٣٠٧).

(٤) رواه الحاكم (٨١٩٤)، وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠١٨).

ثُمَّ نامَ فاستَيقَظَ وهو يَضحَكُ، فقال مِثلَ ذلك -مَرَّتَينِ أو ثَلاثًا- قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، ادعُ اللهَ أن يَجعَلَني منهم، فيقولُ: «**أنتِ مِنَ الأوَّلينَ**».

فَتَزَوَّجَ بها عُبادَةُ بنُ الصَّامِتِ، فخرجَ بها إلى الغَزوِ، فلَمَّا رَجَعَت قُرِّبَت دابَّةٌ لِتَركَبَها، فوَقَعَت، فاندَقَّت عُنُقُها[١].

وتقدَّمَ الكلامُ على ذلك.

* ومِن ذلك: رُؤياهُ انتِقال عَمودِ الكِتابِ إلى الشَّامِ:

عن عَمرِو بنِ العاصِ قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**بَينا أنا في مَنامي، أَتَتني الملائِكَةُ، فحَمَلَت عَمودَ الكِتابِ من تحتِ وِسادَتي، فعَمَدَت بهِ إلى الشَّامِ، ألا فالإيمانُ حيث تَقَعُ الفِتَنُ بالشَّامِ**»[٢].

وعن أبي الدَّرداءِ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَينا أنا نائِمٌ، إذ رَأيتُ عَمودَ الكِتابِ احتُمِلَ من تحتِ رَأسي، فظَنَنتُ أنَّهُ مَذهوبٌ بهِ، فأتبَعتُهُ بَصَري، فعُمِدَ بهِ إلى الشَّامِ، ألا وإنَّ الإيمانَ حينَ تَقَعُ الفِتَنُ بالشَّامِ**»[٣].

قال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَعَمودُ الكِتابِ والإسلامِ: ما يُعتَمَدُ عليه، وهُم حَمَلَتُهُ القائِمونَ به»[٤].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ **-بعدَ أن ذَكَر بعضَ الأحاديثِ في فضائِلِ الشَّامِ، ومنها هذا الحديثُ-:**

«وقد ظَهَرَ مِصداقُ هَذِهِ النُّصوصِ النبويَّةِ على أكمَلِ الوُجوهِ في جِهادِنا للتَّتارِ، وأظهَرَ اللهُ للمُسلِمينَ صِدقَ ما وعَدناهُم بهِ، وبَرَكَةَ ما أمَرناهُم بهِ، وكان ذلك فتحًا عَظيمًا، ما رَأى المسلمونَ مِثلَهُ، مُنذُ خرجَت مَملَكَةُ التَّتارِ التي أذَلَّت أهلَ الإسلامِ؛ فإنَّهُم لم يُهزَموا ويُغلَبوا

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩٤)، ومسلم (١٩١٢).

(٢) رواه أحمد (١٧٧٧٥) وصححه محققو المسند.

(٣) رواه أحمد (٢١٧٣٣)، والبيهقي في الدلائل (٦/ ٤٤٧)، وصححه.

(٤) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٤٢).

كَما غُلِبوا على بابِ دِمَشقَ، في الغَزوَةِ الكُبرَى، التي أنعَمَ اللهُ عَلَينا فيها مِنَ النِّعَمِ، بما لا نُحصيهِ، خُصوصًا وعُمومًا»(١).

* ومِمَّا رَآهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا سيقَعُ في آخرِ الزَّمانِ: رؤياهُ في الدَّجَّالِ:

عن عبد اللهِ بن عمرَ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أراني اللَّيلَةَ في المنامِ عندَ الكعبَةِ، فإذا رَجُلٌ آدَمُ، كَأحسَنِ ما تَرَى من أُدمِ الرِّجالِ، تَضرِبُ لِمَّتُهُ بين مَنكِبَيهِ، رَجِلُ الشَّعرِ، يَقطُرُ رَأسُهُ ماءً، واضِعًا يَدَيهِ على مَنكِبَي رَجُلَينِ، وهو بينهُما يَطوفُ بالبَيتِ، فقُلتُ: مَن هَذا؟ فقالوا المسيحُ ابنُ مَريَمَ، ورَأيتُ وراءَهُ رَجُلًا جَعدًا قَطَطًا، أعوَرَ عَينِ اليُمنَى، كَأشبَهِ مَن رَأيتُ مِنَ الناسِ بابنِ قَطَنٍ، واضِعًا يَدَيهِ على مَنكِبَي رَجُلَينِ(٢)، يَطوفُ بالبَيتِ، فقُلتُ: مَن هَذا؟ قالوا: هذا المسيحُ الدَّجَّالُ**»(٣).

وقد يَستَشكِلُ البعضُ رُؤيا النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للدجَّالِ في مكَّةَ، ورؤيا الأنبياءِ حقٌّ، مع أنَّ الدجَّالَ لا يَدخلُ مَكَّةَ والمدينَةَ.

قال العَينيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن قُلتَ: كيفَ هذا، ويَحرُمُ على الدجَّالِ دخولُ مكَّةَ؟

قلتُ: ذاكَ في زمنِ خُروجِه على الناسِ، **وأيضًا**: لفظُ الحديثِ أنَّه لا يدخُلُ مكَّةَ، وليسَ فيه نَفيُ الدُّخولِ في الماضي»(٤).

وقال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واستُشكِلَ كَونُ الدَّجَّالِ يَطوفُ بالبَيتِ، وكَونُهُ يَتلو عيسَى ابنَ مَريَمَ، وقد ثَبَتَ أنَّهُ إذا رَآهُ يَذوبُ، وأجابوا عن ذلك: بأنَّ الرُّؤيا المذكورَةَ كانت في المنامِ، ورُؤيا الأنبياءِ -وَإن كانت وحيًا- لكن فيها ما يَقبَلُ التَّعبيرَ، وقال القاضي عياضٌ: إنَّ مَنعَهُ من دُخولِها، إنَّما هو عندَ خُروجِهِ في آخِرِ الزَّمانِ»(٥).

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٥١٠).

(٢) الظَّاهر أنَّ المراد بهما: من يعاونه على باطله من أمرائه، كما أنَّ المراد بالرجلين الأوَّلين: من يساعدان المسيح على حقِّه.

(٣) رواه البخاري (٣٤٤٠) ومسلم (١٦٩) -واللفظ له-.

(٤) عمدة القاري (١٦/ ٣٥).

(٥) فتح الباري (١٣/ ٩٨).

* رُؤياهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عذابِ القبرِ، لبَعضِ عُصاةِ المُسلمينَ:

عن سَمُرَةَ بنِ جُندَبٍ، قال: كان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا صَلَّى صَلاةً، أقبَلَ عَلَينا بوَجهِهِ، فقال: «**مَن رَأى مِنكُمُ اللَّيلَةَ رُؤيا؟**» قال: فإن رَأى أحَدٌ قَصَّها، فيقولُ: ما شاءَ اللهُ، فسَألَنا يومًا فقال: «**هَل رَأى أحَدٌ مِنكُم رُؤيا؟**» قُلنا: لا، قال: «**لكنِّي رَأيتُ اللَّيلَةَ رَجُلَينِ أتَياني، فأخَذا بيَدي، فأخرَجاني إلى الأرضِ المُقَدَّسَةِ، فإذا رَجُلٌ جالِسٌ، ورَجُلٌ قائِمٌ، بيَدِهِ كَلُّوبٌ من حَديدٍ[1]، يُدخِلُ ذلك الكلُّوبَ في شِدقِهِ، حتى يَبلُغَ قَفاهُ، ثُمَّ يَفعَلُ بشِدقِهِ الآخَرِ مِثلَ ذلك، ويَلتَئِمُ شِدقُهُ هَذا، فيَعودُ، فيَصنَعُ مِثلَهُ، قُلتُ: ما هَذا؟ قالا: انطَلِق، فانطَلَقنا، حتى أتَينا على رَجُلٍ مُضطَجِعٍ على قَفاهُ، ورَجُلٌ قائِمٌ على رَأسِهِ بفِهرٍ -أو: صَخرَةٍ- فيَشدَخُ بِهِ رَأسَهُ[2]، فإذا ضَرَبَهُ تَدَهدَهَ الحجرُ[3]، فانطَلَقَ إليه ليَأخُذَهُ، فلا يَرجِعُ إلى هَذا، حتى يَلتَئِمَ رَأسُهُ، وعادَ رَأسُهُ كَما هوَ، فعادَ إليه، فضَرَبَهُ، قُلتُ: مَن هَذا؟ قالا: انطَلِق، فانطَلَقنا إلى ثَقبٍ مِثلِ التَّنُّورِ[4]، أعلاهُ ضَيِّقٌ، وأسفَلُهُ واسِعٌ، يَتَوقد تحتَهُ نارًا، فإذا اقتَرَبَ ارتَفَعوا، حتى كادَ أن يَخرُجوا، فإذا خَمَدَت رَجَعوا فيها، وفيها رِجالٌ ونِساءٌ عُراةٌ، فقُلتُ: مَن هَذا؟ قالا: انطَلِق، فانطَلَقنا، حتى أتَينا على نَهَرٍ من دَمٍ، فيه رَجُلٌ قائِمٌ على وسَطِ النَّهَرِ، وعلى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ، بين يَدَيهِ حِجارَةٌ، فأقبَلَ الرجُلُ الذي في النَّهَرِ، فإذا أرادَ أن يَخرُجَ رَمَى الرجُلُ بحجرٍ في فيه، فرَدَّهُ حيث كان، فجَعَلَ كُلَّما جاءَ ليَخرُجَ، رَمَى في فيه بحجرٍ، فيَرجِعُ كَما كان، فقُلتُ: ما هَذا؟ قالا: انطَلِق، فانطَلَقنا، حتى انتَهَينا إلى رَوضَةٍ خَضراءَ، فيها شَجَرَةٌ عَظيمَةٌ، وفي أصلِها شَيخٌ وصِبيانٌ، وإذا رَجُلٌ قَريبٌ مِنَ الشَّجَرَةِ، بين يَدَيهِ نارٌ يوقِدُها، فصَعِدا بي في الشَّجَرَةِ، وأدخَلاني دارًا، لم أرَ -قَطُّ- أحسَنَ منها، فيها رِجالٌ شُيوخٌ، وشَبابٌ، ونِساءٌ، وصِبيانٌ، ثُمَّ أخرَجاني منها، فصَعِدا بي الشَّجَرَةَ، فأدخَلاني دارًا، هيَ أحسَنُ وأفضَلُ، فيها شُيوخٌ، وشَبابٌ، قُلتُ: طَوَّفتُماني اللَّيلَةَ، فأخبِراني عَمَّا رَأيتُ، قالا: نعم.**

---

(١) حديدةٌ معوجة الرأس.

(٢) يكسر ويشجُّ.

(٣) تدحرج.

(٤) الفرن الذي يخبز فيه.

أَمَّا الذي رَأيتَهُ يُشَقُّ شِدقُهُ، فكَذَّابٌ يُحَدِّثُ بالكذبَةِ، فتُحمَلُ عَنهُ، حتى تَبلُغَ الآفاقَ، فيُصنَعُ بِهِ إلى يومِ القيامَةِ، والذي رَأيتَهُ يُشدَخُ رَأسُهُ، فرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ القُرآنَ، فنامَ عنه باللَّيلِ، ولم يَعمَل فيه بالنَّهارِ، يُفعَلُ بِهِ إلى يومِ القيامَةِ، والذي رَأيتَهُ في الثَّقبِ، فهُمُ الزُّناةُ، والزَّواني[1]، والذي رَأيتَهُ في النَّهَرِ، آكِلو الرِّبا، والشَّيخُ في أصلِ الشَّجَرَةِ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، والصِّبيانُ حَولَهُ، فأَولادُ الناسِ، والذي يوقد النارَ، مالِكٌ خازِنُ النارِ، والدَّارُ الأولى التي دَخَلتَ، دارُ عامَّةِ المُؤمِنينَ، وأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ، فدارُ الشُّهَداءِ، وأنا جبريلُ، وهذا ميكائيلُ، فارفَع رَأسَكَ، فرَفَعتُ رَأسي، فإذا فوقي مِثلُ السَّحابِ، قالا: ذاكَ مَنزِلُكَ، قُلتُ: دَعاني أدخُل مَنزِلي، قالا: إنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمُرٌ لم تَستكمِلهُ، فلَوِ استكمَلتَ أَتيتَ مَنزِلَكَ»[2].

فهَذِهِ صوَر مِن عَذابِ القَبرِ -أعاذَنا اللهُ منه، بمنه وكَرمِهِ-.

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وفي هذا الحديثِ مِنَ الفَوائِدِ: أنَّ بَعضَ العُصاةِ يُعَذَّبونَ في البَرزَخِ**»[3].

وعن أبي أُمامَةَ الباهِلِيِّ قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**بَينا أنا نائِمٌ، إذ أتاني رَجُلانِ، فأخَذا بضَبعَيَّ[4]، فأتَيا بي جَبَلاً وعرًا، فقالا: اصعَد، فقُلتُ: إنِّي لا أُطيقُهُ، فقالا: إنَّا سَنُسَهِّلُهُ لَكَ، فصَعِدتُ، حتى إذا كنتُ في سَواءِ الجَبَلِ، إذا بأصواتٍ شَديدَةٍ، قُلتُ: ما هَذِهِ الأصواتُ؟ قالوا: هذا عواءُ أهلِ النارِ، ثُمَّ انطُلِقَ بي، فإذا أنا بقَومٍ مُعَلَّقينَ بعَراقيبِهِم، مُشَقَّقَةٍ أشداقُهُم، تَسيلُ أشداقُهُم دَمًا، قُلتُ: مَن هَؤُلاءِ؟ قال: هَؤُلاءِ الذينَ يُفطِرونَ قبلَ تَحِلَّةِ صَومِهِم، ثُمَّ انطَلَقَ، فإذا بقَومٍ أشَدَّ شيءٍ انتِفاخًا، وأنتَنِهِ رِيحًا، وأسوَئِهِ مَنظَرًا، فقُلتُ: مَن هَؤُلاءِ؟ فقال: هَؤُلاءِ قَتلى الكُفَّارِ، ثُمَّ انطَلَقَ بي، فإذا بقَومٍ أشَدَّ شيءٍ انتِفاخًا، وأنتَنِهِ رِيحًا، كَأَنَّ رِيحَهُمُ المراحيضُ، قُلتُ: مَن هَؤُلاءِ؟ قال: هَؤُلاءِ الزَّانونَ، والزَّواني، ثُمَّ انطَلَقَ بي، فإذا أنا بِنساءٍ، تَنهَشُ ثُدِيَّهُنَّ الحَيَّاتُ، قُلتُ: ما بالُ هَؤُلاءِ؟ قال: هَؤُلاءِ يَمنَعنَ أولادَهُنَّ ألبانَهُنَّ،**

---

(١) مناسبة العري لهم؛ لاستحقاقهم أن يفضحوا؛ لأنَّ عادتهم أن يستتروا في الخلوة، فعوقبوا بالهتك، والحكمة في إتيان العذاب من تحتهم: كون جنايتهم من أعضائهم السُّفلى.

(٢) صحيح البخاري (٢/ ١٠٠)

(٣) فتح الباري (١٢/ ٤٤٥).

(٤) الضَّبع: العضد.

ثُمَّ انطَلَقَ بي، فإذا أنا بالغِلمانِ يَلعَبونَ بين نَهرَينِ، قُلتُ: مَن هَؤُلاءِ؟ قال: هَؤُلاءِ ذَراريُّ المُؤمِنينَ، ثُمَّ شَرَفَ شَرَفًا[1]، فإذا أنا بنَفَرٍ ثَلاثَةٍ، يَشربونَ من خَمرٍ لَهُم، قُلتُ: مَن هَؤُلاءِ؟ قال: هَؤُلاءِ جَعفَرٌ، وزيدٌ، وابنُ رَواحَةَ، ثُمَّ شَرَفَ بي شَرَفًا آخَرَ، فإذا أنا بنَفَرٍ ثَلاثَةٍ، قُلتُ: مَن هَؤُلاءِ؟ قال: هذا إبراهيمُ، وموسَى، وعيسَى، وهُم يَنتَظِرونَكَ»[2].

* ورَأى في المَنامِ مَلَكًا، يُخيِّره بينَ دُخولِ نِصفِ أُمَّتِه الجنَّة، أوِ الشفاعَةِ لَهُم:

فعن مُعاذِ بنِ جَبَلٍ، وعن أبي موسَى، قالا: كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذا نَزَلَ مَنزِلًا، كان الذي يَليهِ المُهاجرين، قال: فنَزَلنا مَنزِلًا، فقامَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونَحنُ حَولَهُ، قال: فتَعارَرتُ[3] مِنَ اللَّيلِ، أنا ومُعاذٌ، فنَظَرنا، فخرجنا نَطلُبُهُ، إذ سَمِعنا هَزيزًا كَهَزيزِ الأَرحاءِ[4]، إذ أقبَلَ، فلَمَّا أقبَلَ نَظَرَ، قال: **«ما شَأنُكُم؟»**، قالوا: انتبَهنا فلَم نَرَكَ حيث كُنتَ، خَشينا أن يكونَ أصابَكَ شيءٌ، جِئنا نَطلُبُكَ، قال: **«أتاني آتٍ في مَنامي، فخَيَّرَني بين أن يَدخُلَ الجَنَّةَ نِصفُ أُمَّتي، أوِ الشَّفاعَة، فاختَرتُ لهم الشَّفاعَةَ»**، ثم قال: **«إنِّي أجعَلُ شَفاعَتي، لِمَن ماتَ لا يُشرِكُ باللهِ شَيئًا»**[5].

* رُؤيا النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وباءَ الحُمَّى، على صورَةِ امرأةٍ سوداءَ، ثائرةِ الرأسِ:

عنِ ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **أنَّ النبيَّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال: «رَأيتُ كَأنَّ امرَأةً سَوداءَ، ثائِرَةَ الرأسِ، خرجَت مِنَ المدينةِ، حتى قامَت بمَهيَعَةَ -وَهيَ الجُحفَةُ- فأوَّلتُ: أنَّ وباءَ المدينةِ نُقِلَ إلَيها»**[6].

قال المُهَلَّبُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذِهِ الرُّؤيا، من قِسمِ الرُّؤيا المُعبَّرةِ، وهي مِمَّا ضُرِبَ بِهِ المَثَلُ، ووَجهُ

---

(١) الشرَّف: المكان المرتفع.

(٢) رواه ابن خزيمة في صحيحه (١٩٨٦)، وابن حبَّان (٧٤٩١)، والحاكم (٢٨٣٧)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٩٥١).

(٣) من التّعارّ: وهو السّهر، والتقلّب على الفراش ليلاً.

(٤) هزيز الرّحى: صوت دورانها، والأرحاء: جمع رحًى.

(٥) رواه الإمام أحمد (٢٢٠٢٥)، وصححه محققو المسند.

(٦) رواه البخاري (٧٠٣٨).

التَّمثيلِ: أنَّهُ شُقَّ مِنِ اسمِ السَّوداءِ: السُّوءُ، والدَّاءُ، فتَأوَّلَ خُروجَها، بما جَمَعَ اسمَها، وتَأوَّلَ من ثَورانِ شَعرِ رَأسِها، أنَّ الذي يَسوءُ ويُثيرُ الشَّرَّ، يَخرُجُ مِنَ المدينَةِ، وقيل: لأنَّ ثَورانَ الشَّعرِ مِنِ اقشِعرارِ الجَسَدِ، ومعنى الاِقشِعرارِ: الاِستيحاشُ؛ فلِذلك يَخرُجُ ما تَستَوحِشُ النُّفوسُ منه، كالحُمَّى»[١].

وقد كان النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمَّا هاجَرَ إلى المدينَةِ -وكانت ذاتَ وباءٍ- دعا بانتِقال الحُمَّى عنها إلى الجُحفَةِ؛ فعن عائشةَ، قالت: قَدِمنا المدينَةَ، وهي وبيئَةٌ، فاشتكَى أبو بكرٍ، واشتكَى بلالٌ، فلَمَّا رَأى رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَكوَى أصحابِهِ، قال: «**اللهُمَّ حَبِّب إلَينا المدينَةَ، كَما حَبَّبت مَكَّةَ أو أشَدَّ، وصَحِّحها، وبارِك لَنا في صاعِها، ومُدِّها، وحَوِّل حُمَّاها إلى الجُحفَةِ**»[٢].

* رُؤيتُه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الربَّ تعالى في المنامِ:

عنِ ابنِ عبَّاسٍ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أتاني -اللَّيلَةَ- رَبِّي** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **في أحسَنِ صورَةٍ، -قال: أحسَبُهُ في المنامِ- فقال: يا محمدُ، هَل تَدري فيمَ يَختَصِمُ الملَأُ الأعلى؟ قال: قُلتُ: لا، قال: فوَضَعَ يَدَهُ بين كَتِفيَّ، حتى وجَدتُ بَردَها بين ثَدييَّ، فعَلِمتُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ، قال: يا محمدُ، هَل تَدري فيمَ يَختَصِمُ الملَأُ الأعلى؟ قُلتُ: نعم، في الكفَّاراتِ، والكفَّاراتُ: المُكثُ في المساجِدِ بعدَ الصَّلاةِ، والمشيُ على الأقدامِ إلى الجَماعاتِ، وإسباغُ الوُضوءِ في المكارِهِ، ومَن فعَلَ ذلك، عاشَ بخَيرٍ، وماتَ بخَيرٍ، وكان من خَطيئَتِهِ، كَيومِ ولَدَتهُ أُمُّهُ، وقال: يا محمدُ، إذا صَلَّيتَ فقُل: اللهُمَّ إنِّي أسألُكَ فِعلَ الخَيراتِ، وتَركَ المُنكَراتِ، وحُبَّ المساكينِ، وإذا أرَدتَ بعِبادِكَ فِتنَةً فاقبِضني إلَيكَ غَيرَ مَفتونٍ، قال: والدَّرَجاتُ إفشاءُ السَّلامِ، وإطعامُ الطَّعامِ، والصَّلاةُ باللَّيلِ والناسُ نيامٌ**»[٣].

ويتلخَّصُ الكلامُ في رُؤيةِ الربِّ تعالى فيما يلي:

١- **رُؤيَةُ النبيِّ** صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ربَّه في المنامِ ثابتةٌ**، بهذا الحديثِ وغيرِه.

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٤٢٦).

(٢) رواه البخاري (٦٣٧٢)، ومسلم (١٣٧٦).

(٣) رواه الترمذي (٣٢٣٣)، وصححه الألباني.

٢- رُؤيةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ **يَقظةً، لا تَحصُلُ في الدّنيا لأحدٍ مِنَ الناسِ، حتى** الأنبياء عليهم الصّلاةُ والسّلامُ، وقد قال النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَن يَرَى أحَدٌ مِنكُم رَبَّهُ** عَزَّوَجَلَّ، **حتى يَموتَ**»[١].

٣- رؤيةُ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ربَّه ليلةَ المِعراجِ**: فالجُمهورُ على أنَّه لم يَرَهُ بعَينِه، وإنَّما رَأى نورَ الحِجابِ، فروى مسلمٌ عن أبي ذَرٍّ، قال: سَألتُ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَل رَأيتَ رَبَّكَ؟ قال: «**نورٌ، أنَّى أراهُ**»[٢].

وفي روايةٍ له: «**رَأيت نورًا**»، **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: حالَ بَيني وبين رُؤيَتِهِ النُّورُ»[٣].

٤- رؤيةُ الربِّ تعالى بالأبصارِ في الأرضِ غيرُ مُمكِنَةٍ، لا للنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا لِغَيرِه، باتِّفاقِ العلماءِ، وهذه غيرُ سابِقَتِها؛ فإنَّ الذينَ يقولونَ: رَأى محمدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربَّه، إنَّما يَعنونَ ليلةَ المِعراجِ في السَّماءِ، أمَّا على الأرضِ: فلا قائلَ به من علماءِ المُسلمينَ، في حقِّ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا في حقِّ غيرِهِ بطبيعَةِ الحالِ.

٥- رُؤيةُ المُؤمنينَ ربَّهُم في الجنَّةِ بالأبصارِ، حقٌّ ثابتٌ، باتِّفاقِ أهلِ السنَّةِ والجماعَةِ.

٦- رُؤيةُ الربِّ تعالى في المنامِ، بالنِّسبةِ للمُؤمنينَ: قال غيرُ واحدٍ من أهلِ العلمِ بأنَّها مُمكنَةٌ.

قال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «.. رؤيَةُ الربِّ تعالى في المنامِ، فإنَّه يُرَى في صورٍ مُختلفةٍ، يراه كلُّ عبدٍ على حسَبِ إيمانِهِ، ولمَّا كان النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظَمَ إيمانًا من غيرِهِ، رآهُ في أحسَنِ صورَةٍ، وهي رؤيةُ مَنامٍ»[٤].

وقال -أيضًا- رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإنسانُ قد يَرَى ربَّه في المنامِ، ويخاطِبُه، فهذا حقٌّ في الرُّؤيا، ولا يَجوزُ أن يَعتقدَ أنَّ اللهَ في نفسِهِ، مِثلَ ما رَأى في المنامِ؛ فإنَّ سائِرَ ما يَرَى في المنامِ، لا يَجِبُ أن يكونَ مُماثِلًا، ولكن لا بُدَّ أن تكونَ الصُّورةُ التي رآه فيها مُناسبَةً ومُشابِهَةً لاعتِقادِهِ في ربِّهِ.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٣١).

(٢) صحيح مسلم (١٧٨).

(٣) زاد المعاد (٣/ ٣٣).

(٤) منهاج السّنة النبوية (٥/ ٣٨٤)

وما زالَ الصَّالحونَ وغيرُهُم يَرَونَ ربَّهم في المنامِ، ويُخاطِبُهم، وما أظُنُّ عاقِلًا يُنكِرُ ذلك؛ فإنَّ وُجودَ هذا ممَّا لا يُمكِنُ دَفعُه؛ إذِ الرُّؤيا تقَعُ للإنسانِ بغيرِ اختيارِه، وليسَ في رؤيَةِ اللهِ في المنامِ نقصٌ ولا عَيبٌ يتعلَّق بهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإنَّما ذلك بحَسَبِ حالِ الرائي، وصحَّةِ إيمانِه، وفسادِهِ، واستقامَةِ حالِهِ، وانحِرافِه»[1].

وقال الشَّيخُ ابنُ بازٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد تَحصُلُ الرؤيَةُ في المنامِ للأنبياءِ وبعضِ الصَّالحينَ، على وجهٍ لا يُشبِهُ فيها سبحانه الخَلقَ»[2].

وهناكَ أحاديثُ أُخرَى تُروى في الرُّؤَى النبويّةِ، ولكن أسانيدَها لا تَخلو من ضَعفٍ، أو نَكارةٍ؛ ولذلك أعرَضنا عن ذِكرِها.

---

(١) بيان تلبيس الجهميَّة (١/ ٣٢٦ - ٣٢٧).

(٢) مجموع فتاوى ابن بازٍ (٦/ ٣٦٩).

ذِكرَياتُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لِكُلِّ إنسانٍ ذِكرَيات، تَخطرُ ببالِهِ بين الحينِ والآخَرِ، منها ما يَدعوهُ إلى سُرورِهِ وبَهجَتِهِ، ومنها ما يَدعوهُ إلى حُزنِهِ وكآبَتِهِ.

إلا أنَّ المُؤمِنَ يَتَميَّزُ عن غَيرِهِ، في كُلِّ شَأنٍ من شُؤونِهِ، حتى في ذِكرَياتِهِ، فبينما تكونُ الذِّكرَياتُ الأليمَةُ بالنِّسبَةِ لِغَيرِ المُؤمِنِ مَصدَرًا للألَمِ، والأمراضِ النَّفسيَّةِ، والعُزوفِ عن مواصَلَةِ المسيرِ، تكونُ للمُؤمِنِ مَصدَرًا لِتَحقيقِ أنواعٍ مِنَ العُبوديَّةِ التي يُؤجَرُ عليها، كالصَّبرِ، والرِّضا، ومُحاسَبَةِ النَّفسِ، وشُكرِ اللهِ.

ولِذلك يُذَكِّرُ اللهُ تعالى عِبادَهُ، بما كَشَفَ عنهم مِنَ الآلامِ، ورَفعَ عنهم مِنَ البَلاءِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦].

وقال تعالى للمُؤمنينَ: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

ومِن **أشَدِّ الذِّكرَياتِ ألمًا بالنِّسبَةِ للمُؤمِنِ**: ذِكرَياتُ الذُّنوبِ، ومَعَ ذلك فليست مَصدَرًا لليأسِ، بل تكونُ دافِعًا لِتجديدِ التوبةِ، واستِدراكِ ما فاتَ، بالحَسَناتِ الماحياتِ.

ومِنَ **الذِّكرَياتِ: ذِكرَياتٌ تَستَوجِبُ الشُّكرَ**، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

ومِنَ **الذِّكرَياتِ: ما يكونُ مَصدَرًا لِصِدقِ اللُّجوءِ إلى اللهِ تعالى**، كما كانت في حالِ يَعقوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حينَ تجَدَّدَت عليه ذِكرَى فقدِ يوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَمَّا فقَدَ ابنَيهِ بعدَهُ: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٤-٨٦].

والنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَرٌ كَسائِرِ البَشَرِ، له ذِكرَياتٌ مؤلِمَةٌ وسَعيدَةٌ مَرَّت به.

* **وقد ذَكَّرَ اللهُ تعالى رسولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبَعضِ حالِهِ التي كان عليها؛ ليَتَحَدَّثَ بنِعمَةِ اللهِ تعالى عليه: أن هداهُ، وأغناهُ، وليَستَخرِجَ أنواعًا مِنَ العُبوديَّةِ، فقال تعالى:** ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ٦-١١].

«أخبَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عن حالَتِهِ التي كان عليها قبلَ الوَحيِ، وذَكَّرَهُ نعمهُ»[(١)].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**سَألتُ رَبِّي مَسألَةً، ودِدتُ أنِّي لم أسألهُ، قُلتُ: يا رَبِّ كانت قبلي رُسُلٌ، منهم مَن سَخَّرتَ له الرِّياحَ، ومنهم مَن كان يُحيي**

(١) تفسير البغويِّ (٨/ ٤٥٥).

الموتَى، قال: أَلَمْ أَجِدكَ يَتيمًا فآوَيتُكَ؟ أَلَمْ أَجِدكَ ضالًّا فهَدَيتُكَ؟ أَلَمْ أَجِدكَ عائِلًا فأغنَيتُكَ؟ أَلَمْ أَشرَح لَكَ صَدرَكَ؟ ووَضَعتُ عَنكَ وِزرَكَ؟ قُلتُ: بَلى رَبِّ»[1].

*** وقد كان أصحابُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَذكُرونَ ذِكرَياتِهِم أَيَّامَ الجاهِليَّةِ وهو يَسمَعُ، فيَضحَكونَ، ويَتَبَسَّمُ:**

فعن سِماكِ بنِ حَربٍ، قال: قُلتُ لِجابِرِ بنِ سَمُرَةَ: أكُنتَ تُجالِسُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

قال: «نَعَم، كَثيرًا، كان لا يَقومُ من مُصَلَّاهُ الذي يُصَلّي فيه الصُّبحَ، حتى تَطلُعَ الشَّمسُ، فإذا طَلَعَت قامَ، وكانوا يَتَحَدَّثونَ، فيَأخُذونَ في أمرِ الجاهِليَّةِ، فيَضحَكونَ، ويَتَبَسَّمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[2].

وذَكَروا أنَّ من جُملَةِ ذلك: أنَّهُ قال واحِدٌ منهم: ما نَفَعَ أحدًا صَنَمُهُ مِثلَ ما نَفَعَني.

- قالوا: كَيفَ هَذا؟

- قال: صَنَعتُهُ مِنَ الحَيسِ[3]، فجاءَ القَحطُ، فكنتُ آكُلُهُ يومًا فيومًا.

وقال آخَرُ: رَأيتُ ثَعلَبَينِ جاءا، وصَعِدا فوقَ رَأسِ صَنَمٍ لي، وبالا عليه، فقُلتُ:

أرَبٌّ يبولُ الثَّعلَبانِ برَأسِهِ؟

فَجِئتُكَ يا رسولَ اللهِ، وأسلَمتُ[4].

وقد كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجالِسُ أصحابَهُ، ويُحَدِّثُهُم عن ذِكرَياتِهِ، ورُبَّما سَألوهُ عن بَعضِ ذلك فيُجيبُهُم، فحَدَّثَهُم عن ذِكرَياتِهِ، في طُفولَتِهِ، وشَبابِهِ، وما تَخَلَّلَ ذلك من مَواقِفَ وأحداثٍ.

---

(١) رواه الحاكم (٣٩٤٤)، والطبراني في الكبير (١٢٢٨٩)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٥٣٨).

(٢) رواه مسلم (٦٧٠).

(٣) الحيس: أخلاطٌ من تمرٍ وسمنٍ وسويقٍ وأقطٍ يجمع فيؤكل. معالم السُّنن (٤/ ١٤٢).

(٤) مرقاة المفاتيح (٧/ ٢٩٩٣).

❊ وكان مِمَّا حَدَّثَهُم بِهِ من ذِكرَياتِهِ: حادِثَةُ شَقِّ صَدرِهِ ﷺ، وهو صَغيرٌ.

عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أتاهُ جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو يَلعَبُ مع الغِلمانِ، فأَخَذَهُ فصَرَعَهُ[١]، فشَقَّ عن قَلبِهِ، فاستَخرَجَ القَلبَ، فاستَخرَجَ منه عَلَقَةً[٢]، فقال: هذا حَظُّ الشَّيطانِ مِنكَ.

ثُمَّ غَسَلَهُ في طَستٍ من ذَهَبٍ بماءِ زَمزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ[٣]، ثُمَّ أعادَهُ في مَكانِهِ، وجاءَ الغِلمانُ يَسعَونَ إلى أُمِّهِ، يعني: ظِئرَهُ[٤]، فقالوا: إنَّ محمدًا قَد قُتِلَ، فاستَقبَلوهُ، وهو مُنتَقِعُ اللَّونِ»[٥].

قال أَنَسٌ: «وقد كنتُ أرى أَثَرَ ذلك المِخيَطِ في صَدرِهِ»[٦].

هَذِهِ الحادِثَةُ حَصَلَت له ﷺ وهو صَغيرٌ، وبَعدَما بُعِثَ ﷺ، ذَكَرَ هَذِهِ القِصَّةَ لأصحابِهِ رِضوانُ اللهِ عليهم.

قال الحافِظُ ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكان هذا في زَمَنِ الطُّفوليَّةِ، فنَشَأ على أكمَلِ الأحوالِ مِنَ العِصمَةِ مِنَ الشَّيطان».

وروى ابنُ إسحاقَ عن خالِدِ بنِ مَعدانَ الكَلاعيِّ، أنَّ نَفَرًا من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، قالوا لَهُ: يا رسولَ اللهِ، أخبِرنا عن نَفسِكَ؟

قال: «**نَعَم، أنا دَعوَةُ أبي إبراهيمَ، وبُشرَى أخي عيسَى**[٧]**، ورَأَت أُمِّي حيَنَ حَمَلَت بي، أنَّهُ خرجَ منها نورٌ أضاءَ لها قُصورَ الشَّامِ.**

---

(١) أنامه على ظهره.

(٢) قطعة يسيرة من دم متجمد.

(٣) جمعه، وضمَّ بعضه إلى بعض.

(٤) مرضعته، ويقال -أيضًا- لزوج المرضعة: ظئرٌ.

(٥) متغير اللون، ومعناه: تغير من حزنٍ، أو فزعٍ.

(٦) رواه مسلم (١٦٢).

(٧) دعوة أبي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أي في قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة:١٢٩]، وبشرى أخي عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما في قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

واستُرضِعتُ في بَني سَعدِ بنِ بكرٍ، فبَينا أنا مع أخٍ لي خَلفَ بُيوتِنا، نَرعَى بَهمًا[١] لَنا، إذ أتاني رَجُلانِ، عليهما ثيابٌ بيضٌ، بطَستٍ من ذَهَبٍ مَملوءَةٍ ثَلجًا، ثُمّ أخَذاني فشَقَّا بَطني، واستَخرَجا قَلبي، فشَقَّاهُ فاستَخرَجا منه عَلَقَةً سَوداءَ، فطرَحاها، ثُمَّ غَسَلا قَلبي وبَطني بذلك الثَّلجِ، حتى أنقَياهُ.

ثُمَّ قال أحَدُهُما لِصاحِبِهِ: زِنهُ بعَشَرَةٍ من أُمَّتِهِ، فوَزَنَني بهِم، فوَزَنتُهُم.

ثُمّ قال: زِنهُ بمِئَةٍ من أُمَّتِهِ، فوَزَنَني بهِم، فوَزَنتُهُم.

ثُمّ قال: زَنهُ بألفٍ من أُمَّتِهِ، فوَزَنَني بهِم، فوَزَنتُهُم.

فقال: دَعهُ عَنك، فواللهِ لَو وزَنتَهُ بأُمَّتِهِ، لَوَزَنَها»[٢].

وعن عُتبَةَ بنِ عبدٍ السُّلَميِّ: أنَّ رَجُلًا سَأَلَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: كَيفَ كان أوَّلُ شَأنِكَ يا رسولَ اللهِ؟

قال: «**كانت حاضِنَتي من بَني سَعدِ بنِ بكرٍ، فانطَلَقتُ أنا وابنٌ لها، في بَهمٍ لَنا، ولم نَأخُذ معنا زادًا.**

فَقُلتُ: يا أخي، اذهَبْ فأتِنا بزادٍ من عندِ أُمِّنا.

فانطَلَقَ أخي، ومَكَثتُ عندَ البَهمِ، فأقبَلَ طَيرانِ أبيَضانِ، كأنَّهُما نَسرانِ.

فقال أحَدُهُما لِصاحِبِهِ: أهوَ هوَ؟

قال: نعم.

فَأقبَلا يَبتَدِراني، فأخَذاني، فبَطَحاني إلى القَفا، فشَقَّا بَطني، ثُمَّ استَخرَجا قَلبي، فشَقَّاهُ، فأخرَجا منه عَلَقَتَينِ سَوداوَينِ، فقال أحَدُهُما لِصاحِبِهِ: حُصهُ[٣]، واختَتِم عليه بخاتَمِ النُّبوَّةِ،

---

(١) جمع بهمةٍ، وهي الصَّغير من أولاد الغنم.

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ١٥٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٤٥).

(٣) أي: خطه، والحوص: الخياطة.

فقال أحَدُهُما لِصاحِبِهِ: اجعَلهُ في كِفَّةٍ، واجعَل ألفًا من أُمَّتِهِ في كِفَّةٍ، فإذا أنا أنظُرُ إلى الألفِ فوقي، أُشفِقُ أن يَخِرُّوا عَلَيَّ، فقالا: لَو أنَّ أُمَّتَهُ وُزِنَت بهِ لِمالَ بهِم، ثُمَّ انطَلَقا وتَرَكاني، وفَرِقتُ فرَقًا شَديدًا، ثُمَّ انطَلَقتُ إلى أُمِّي، فأخبَرتُها بالذي لَقيتُهُ، فأشفَقَت عَلَيَّ أن يكونَ أُلبِسَ بي.

قالت: أُعيذُكَ باللهِ.

فَرَحَلَت بَعيرًا لها، فجَعَلَتني على الرحلِ ورَكِبَت خَلفي، حتى بَلَغنا إلى أُمِّي.

فقالت: أو أدَّيتُ أمانَتي وذِمَّتي؟ وحَدَّثَتها بالذي لَقيتُ، فلَم يَرُعها ذلك، فقالت: إنِّي رَأيتُ خرجَ مِنِّي نورًا، أضاءَت منه قُصورُ الشَّامِ»[١].

هَذا: وقد تَكَرَّرَت حادِثَةُ شَقِّ الصَّدرِ مَرَّةً أُخرَى، لَيلَةَ الإسراءِ والمِعراجِ، وقيل: حَصَلَت ثَلاثَ مَرَّاتٍ، والثالِثَةُ: عندَ المبعَثِ.

قال الحافِظُ ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثُمَّ وقَعَ شَقُّ الصَّدرِ عند البَعثِ؛ زيادَةً في إكرامِهِ؛ ليَتَلَقَّى ما يوحَى إليه بقَلبٍ قَويٍّ، في أكمَلِ الأحوالِ مِنَ التَّطهيرِ، ثُمَّ وقَعَ شَقُّ الصَّدرِ عندَ إرادَةِ العُروجِ إلى السَّماءِ؛ ليَتَأَهَّبَ للمُناجاةِ.

وجَميعُ ما ورَدَ من شَقِّ الصَّدرِ، واستِخراجِ القَلبِ، وغَيرِ ذلك مِنَ الأُمورِ الخارِقَةِ للعادَةِ، مِمَّا يَجِبُ التَّسليمُ لَهُ، دونَ التَّعَرُّضِ لِصَرفِهِ عن حَقيقَتِهِ؛ لِصَلاحيةِ القُدرَةِ، فلا يَستَحيلُ شيءٌ من ذلك»[٢].

وسُئِلَ أبو الحَسَنِ السُّبكيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن العَلَقَةِ السَّوداءَ، التي أُخرِجَت من قَلبِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَ شُقَّ فُؤادُهُ، وقولِ الملَكِ: هذا حَظُّ الشَّيطانِ مِنكَ.

فَأجابَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بِأنَّ تِلكَ العَلَقَةَ، خَلَقَها اللهُ تعالى في قُلوبِ البَشَرِ، قابِلَةً لِما يُلقيهِ الشَّيطانُ فيها، فأُزيلَت من قَلبِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلَم يَبقَ فيه مَكانٌ لأن يُلقيَ الشَّيطانُ فيه شَيئًا.

هَذا معنى الحديثِ، ولم يَكُن للشَّيطانِ فيه حَظٌّ».

---

(١) رواه أحمد (١٧٦٤٨)، والحاكم (٤٢٣٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٧٣).

(٢) فتح الباري (٧/ ٢٠٥).

قيلَ لَهُ: فلِمَ خَلَقَ اللهُ تعالى هذا القابِلَ في هَذِهِ الذَّاتِ الشَّريفَةِ، وكان يُمكِنُ أن لا يَخلُقَهُ اللهُ تعالى فيها؟

فقال: «إنَّهُ من جُملَةِ الأجزاءِ الإنسانيَّةِ، فخَلقُهُ تَكمِلَةٌ لِخَلقِ الإنسانِ، ولا بُدَّ منه، ونَزعُهُ كَرامَةٌ رَبَّانيَّةٌ طَرَأت»[١].

* وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتذَكَّرُ حالَ شَبابِهِ، ورَعيِهِ للغَنَمِ:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**ما بَعَثَ اللهُ نَبيًّا إلا رَعَى الغَنَمَ**». فقال أصحابُهُ: وأنتَ؟ فقال: «**نعم، كنتُ أرعاها على قَراريطَ لأهلِ مَكَّةَ**»[٢].

وقد تَقدَّمَ ذلك.

* ومِن ذِكرَياتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شَبابِهِ قبلَ البَعثَةِ:

ما رَواهُ ابنُ حِبَّانَ في صَحيحِهِ، عن عليِّ بنِ أبي طالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقولُ: «**ما هَمَمتُ بقَبيحٍ مِمَّا يَهُمُّ بهِ أهلُ الجاهِليَّةِ، إلا مَرَّتَينِ مِنَ الدَّهرِ، كِلتاهُما عَصَمَني اللهُ منهما:**

قُلتُ لَيلَةً لِفَتًى كان مَعي من قُرَيشٍ بأعلى مَكَّةَ في غَنَمٍ لأهلِنا نَرعاها: أبصِر لي غَنَمي؛ حتى أسمُرَ هَذِهِ اللَّيلَةَ بمَكَّةَ، كَما يَسمُرُ الفِتيانُ.

قال: نعم.

فَخرجتُ، فلَمَّا جِئتُ أدنَى دارٍ من دورِ مَكَّةَ، سَمِعتُ غِناءً وصَوتَ دُفوفٍ ومَزاميرَ.

قُلتُ: ما هَذا؟

قالوا: فُلانٌ تَزَوَّجَ فُلانَةَ، لِرَجُلٍ من قُرَيشٍ تَزَوَّجَ امرَأةً من قُرَيشٍ، فلَهَوتُ بذلك الغِناءِ وبِذلك الصَّوتِ، حتى غَلَبَتني عَيني، فنِمتُ، فما أيقَظَني إلا مَسُّ الشَّمسِ.

---

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (٢/ ٦٥).

(٢) رواه البخاري (٢١٠٢).

فَرَجَعتُ إلى صاحِبي، فقال: ما فعَلتَ؟ فأخبَرتُهُ.

ثُمَّ فعَلتُ لَيلَةً أُخرَى مِثلَ ذلك، فخرجتُ، فسَمِعتُ مِثلَ ذلك، فقيلَ لي مِثلُ ما قيلَ لي، فسَمِعتُ كَما سَمِعتُ، حتى غَلَبَتني عَيني، فما أيقَظَني إلا مَسُّ الشَّمسِ.

ثُمَّ رَجَعتُ إلى صاحِبي، فقال لي: ما فعَلتَ؟

فَقُلتُ: ما فعَلتُ شَيئًا».

قال رسولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**فَواللهِ، ما هَمَمتُ بعدَهُما بسوءٍ مِمَّا يَعمَلُهُ أهلُ الجاهِليَّةِ، حتى أكرَمَني اللهُ بنُبُوَّتِهِ**»[1].

فهذا الحديثُ يوَضِّحُ لَنا حَقيقَتَينِ، كُلٌّ منهما على جانِبٍ كَبيرٍ مِنَ الأَهَمِّيَّةِ:

- أنَّ النبيَّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان مُتَمَتِّعًا بخَصائِصِ البَشَرِيَّةِ، وكان يَجِدُ في نَفسِهِ ما يجِدُ، من مُختَلَفِ المُيولِ الفِطريَّةِ، التي اقتَضَت حِكمَةُ اللهِ أن يُجبَلَ الناسُ عليها.
- أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قد عَصَمَهُ -مَعَ ذلك- من جَميعِ مَظاهِرِ الانحِرافِ، وعن كُلِّ ما لا يَتَّفِقُ مع مُقتَضَياتِ الدَّعوَةِ، التي هَيَّأَهُ اللهُ لها.

❋ ومِن ذِكرَياتِهِ التي كان يَذكُرُها صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ شُهودُهُ حَربَ الفِجارِ.

الفِجارُ، بمعنى: المُفاجَرَةِ، كالقِتالِ، والمُقاتَلَةِ، وذلك أنَّهُ كان قِتالًا في الشَّهرِ الحَرامِ، فسُمِّيَ الفِجارُ، وكانت للعربِ فِجاراتٌ أربَعٌ[2].

وحَضَرَ النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الأخيرَ منها، ويُسَمَّى: فِجارُ البَرَّاضِ بنِ قَيسٍ.

---

(١) رواه ابن حبَّان (٦٢٧٢)، وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه: «إسناده حسنٌ»، وقال الهيثميُّ في المجمع (٨/ ٤١٤): «رجاله ثقاتٌ»، وحسنه البوصيريُّ في إتحاف الخيرة (٧/ ٥٥)، وكذلك حسنه الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (١٧/ ٢٠٨)، وقال ابن كثيرٍ في البداية والنهاية (٣/ ٤٤٧): «حديث غريبٌ جدًّا»، وضعَّفه الألباني في دفاع عن الحديث النبويّ (ص١٤)، وهو الراجح، ولا بأس بذكره، والله أعلم.

(٢) الروض الأنف (٢/ ١٤٦).

قالوا: هاجَت حَربُ الفِجارِ، ورسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابنُ عِشرينَ سَنَةً[١]، وإنَّما سُمِّيَ يومَ الفِجارِ؛ بما استَحَلَّ هَذانِ الحَيَّانِ: كِنانَةُ، وقَيسُ عَيلانَ، فيه مِنَ المحارِمِ بينَهُم.

وشَهِدَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعضَ أيَّامِهِم، أخرَجَهُ أعمامُهُ مَعَهُم.

وقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كنتُ أُنَبِّلُ على أعمامي**».

أي: أردّ عنهم نَبلَ عدوِّهم، إذا رَمَوهُم بها[٢].

قال السُّهَيليُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَإنَّما لم يُقاتِل رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أعمامِهِ، وكان يُنَبِّلُ عليهم، وقد كان بَلَغَ سِنَّ القِتالِ؛ لأنّها كانت حَربَ فِجارٍ، وكانوا -أيضًا- كُلُّهُم كُفَّارًا، ولم يَأذَنِ اللهُ تعالى لِمُؤمِنٍ أن يُقاتِلَ، إلا لِتكونَ كَلِمَةُ اللهِ هيَ العُليا»[٣].

وكانت حَربُ الفِجارِ بالنِّسبَةِ لِقُرَيشٍ، دِفاعًا عن حُرمَةِ الأشهُرِ الحُرُمِ، ومَكانةِ الحَرَمِ، وهذه الشَّعائِرُ كانت بَقيَّةً مِمَّا كان يَحتَرِمُهُ العربُ من دينِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

*** ومِن ذِكرَياتِهِ التي كان يَذكُرُها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شُهودُهُ حِلفَ الفُضولِ مع عُمومَتِهِ.**

فعن عبدِالرحمَنِ بنِ عَوفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**شَهِدتُ حِلفَ المُطَيَّبينَ مع عُمومَتي وأنا غُلامٌ، فما أُحِبُّ أنَّ لي حُمرَ النَّعَمِ، وأنِّي أنكُثُهُ**»[٤].

قال ابنُ الأثيرِ رَحِمَهُ اللهُ: «اجتمَعَ بَنو هاشِمٍ، وبَنو زُهرَةَ، وتَيمٌ، في دارِ ابنِ جُدعانَ في الجاهِليَّةِ، وجَعَلوا طيبًا في جَفنَةٍ، وغَمَسوا أيديَهُم فيه، وتَحالَفوا على التَّناصُرِ، والأخذِ للمَظلومِ مِنَ الظَّالِمِ، فسُمُّوا المُطَيَّبينَ»[٥].

قال محمدُ بنُ نَصرٍ المِروَزيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قال بَعضُ أهلِ المعرِفَةِ بالسِّيَرِ، وأيَّامِ الناسِ: إنَّ قولَهُ

---

(١) وقيل: كان ابن أربع عشرة سنةً، أو خمس عشرة سنةً.

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ١٧٠).

(٣) الروض الأنف (٢/ ١٤٧).

(٤) رواه الإمام أحمد (١٦٥٥)، وصححه محققو المسند.

(٥) النهاية في غريب الأثر (٣/ ١٤٩).

في هذا الحديثِ: «حِلفَ المُطَيَّبينَ» غَلَطٌ، إنَّما هو حِلفُ الفُضولِ؛ وذلك أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُدرِكْ حِلفَ المُطَيَّبينَ؛ لأنَّ ذلك كان قَديمًا، قبلَ أن يولَدَ بزَمانٍ»(١).

قال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذا لا شَكَّ فيهِ؛ وذلك أنَّ قُرَيشًا تَحالَفوا بعدَ مَوتِ قُصَيٍّ، وتَنازَعوا في الذي كان جَعَلَهُ قُصَيٌّ لِابنِ عبدِالدَّارِ، مِنَ السِّقايَةِ، والرِّفادَةِ، واللِّواءِ، والنَّدوَةِ، والحِجابَةِ، ونازَعَهُم فيه بَنو عبدِ مَنافٍ.

وقامَت مع كُلِّ طائِفَةٍ قَبائِلُ من قُرَيشٍ، وتَحالَفوا على النُّصرَةِ لِحِزبِهِم، فأحضَرَ أصحابُ بَني عبدِ مَنافٍ جَفنَةً، فيها طيبٌ، فوَضَعوا أيدِيَهُم فيها، وتَحالَفوا، فلَمَّا قاموا مَسَحوا أيدِيَهُم بأركانِ البَيتِ، فسُمُّوا المُطَيَّبينَ، وكان هذا قَديمًا.

ولكن المُرادَ بِهذا الحِلفِ(٢): حِلفُ الفُضولِ، وكان في دارِ عبدِاللهِ بنِ جُدعانَ.

وكان حِلفُ الفُضولِ قبلَ المبعَثِ بعِشرينَ سَنَةً، في شَهرِ ذي القعدَةِ، وكان بعدَ حَربِ الفِجارِ بأربَعَةِ أشهُرٍ، وكان حِلفُ الفُضولِ أكرَمَ حِلفٍ سُمِعَ بِهِ، وأشرَفَهُ في العربِ»(٣).

والحاصِلُ: أنَّ الذي شَهِدَهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو حِلفُ الفُضولِ، لا حِلف المُطَيَّبينَ.

قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَقَد شَهِدتُ في دارِ عبدِاللهِ بنِ جُدعانَ حِلفًا، ما أُحِبُّ أن لِيَ بِهِ حُمرَ النَّعَمِ، ولو أُدعَى بِهِ في الإسلامِ لَأجَبتُ**»(٤).

وكان سببُ الحِلفِ: أنَّ قُرَيشًا كانت تَتَظالَمُ بالحَرَمِ، فقامَ عبدُاللهِ بنُ جُدعانَ، والزُّبَيرُ بنُ عبدِالمُطَّلِبِ، فدَعَوهُم إلى التَّحالُفِ على التَّناصُرِ، والأخذِ للمَظلومِ مِنَ الظَّالِمِ، فأجابَهُما بَنو هاشِمٍ، وبَعضُ القَبائِلِ من قُرَيشٍ.

---

(١) سنن البيهقي (٦/ ٥٩٦).

(٢) الذي شهده الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٣) البداية والنهاية (٣/ ٤٥٦).

(٤) رواه البيهقي (١٣٠٨٠)، وصححه ابن الملقّن في البدر المنير (٧/ ٣٢٥).

إنّ الفُضولَ تَحالَفوا وتَعاقَدوا ألا يقيمَ ببطنِ مكةَ ظالمُ
أمرٌ عليه تعاهَدوا وتواثَقوا فالجارُ والمُعتَرُّ فيهم سالمُ[١]

وسَمَّوا ذلك الحِلفَ: «حِلفَ الفُضولِ»؛ تَشبيهًا له بحِلفٍ كان بمَكَّةَ أيَّامَ جُرهُمَ، على التَّناصُفِ، والأخذِ للضَّعيفِ مِنَ القَويِّ، وللغَريبِ مِنَ القاطِنِ، قامَ بِهِ رِجالٌ من جُرهُمَ، يُقال لَهُم: الفَضلُ بنُ الحارِثِ، والفَضلُ بنُ وداعَةَ، والفَضلُ بنُ فُضالَةَ، فقيلَ: حِلفُ الفُضولِ؛ جَمعًا لأسماءِ هَؤُلاءِ.

وقيل: كانت أسماؤُهُم فضلًا، وفِضالًا، وفُضَيلًا، وفِضالَةً، والفُضولُ: جَمعُ فضلٍ، كما يُقال: سَعدٌ، وسُعودٌ، وزَيدٌ، وزُيودٌ[٢].

*** وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَذَكَّرُ حجرًا، كان يُسَلِّمُ عليه قبلَ البَعثَةِ:**

فعن جابِرِ بنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنِّي لَأعرِفُ حجرًا بمَكَّةَ، كان يُسَلِّمُ عَلَيَّ قبلَ أن أُبعَثَ، إنِّي لَأعرِفُهُ الآنَ**»[٣].

يعني: أنَّهُ كان يُسَلِّمُ عليه بالنُّبوَّةِ والرِّسالَةِ، قبلَ أن يُشافِهَهُ المَلَكُ بالرِّسالَةِ.

فكان من لُطفِ اللهِ بنَبيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن قَدَّمَ له مُقَدّماتٍ، وخَصَّهُ ببَشائِرَ وكَراماتٍ؛ لِتَدريجِهِ لِقَبولِ ما يُلقى إليه، ولِتَسهُلَ مُشافهَةُ المَلَكِ عليه، وكان هذا منها[٤].

فتَذَكَّرَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك الحجرَ، وأخبرَ أصحابَهُ بأمرِهِ.

*** ومِن ذِكرَياتِهِ التي كان يَذكُرُها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذِكرَياتُهُ مع زَيدِ بنِ عَمرِو بنِ نُفيلٍ:**

عن عبدِاللهِ بنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقيَ زَيدَ بنَ عَمرِو بنِ نُفيلٍ بأسفَلِ

(١) سنن البيهقي (٦/ ٥٩٦)، الروض الأنف (٢/ ٤٧). والمعترُّ: الزَّائر من غير البلاد.
(٢) سنن البيهقي (٦/ ٥٩٦).
(٣) رواه مسلم (٢٢٧٧).
(٤) المفهم (٨/ ١٧٨).

بلدَحٍ[١]، قبلَ أن ينزِلَ على النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوَحيُ، فقُدِّمَت إلى النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُفرةٌ، فأبَى أن يأكُلَ منها، ثُمَّ قال زَيدٌ: إنِّي لَستُ آكُلُ مِمَّا تَذبَحونَ على أنصابِكُم، ولا آكُلُ إلا ما ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه.

وأنَّ زَيدَ بنَ عَمرٍو كان يَعيبُ على قُرَيشٍ ذَبائِحَهُم، ويقولُ: الشَّاةُ خَلَقَها اللهُ، وأنزَلَ لها مِنَ السَّماءِ الماءَ، وأنبَتَ لها مِنَ الأرضِ، ثُمَّ تَذبَحونَها على غَيرِ اسمِ اللهِ! إنكارًا لِذلك، وإعظامًا لَهُ»[٢].

قال ابنُ بطَّالٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالسُّفرةُ إنَّما قدّمتها قُريشٌ للنَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأبى أن يَأكُلَ منها، فقَدَّمَها النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِزَيدِ بنِ عَمرٍو، فأبَى أن يَأكُلَ منها، ثُمّ قال لِقريشٍ الذينَ قَدّموها إلى النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنا لا آكُلُ مِمَّا تَذبَحونَ على أنصابِكُم».

ولَم يَكُن زَيدٌ في الجاهِليَةِ بأفضَلَ مِنَ النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحينَ امتنعَ زَيدٌ، فالنبيُّ الذي كان حَباهُ اللهُ لِوحيِهِ، واختارَهُ ليكونَ خاتمَ النبيينَ، وسيدَ المُرسلينَ، أولى بالامتِناعِ منها في الجاهليّةِ أيضًا»[٣].

* ومِن ذِكرَياتِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي حَدَّثَ أصحابَهُ بها: ذِكرَياتُهُ عن بَدءِ الوَحيِ:

قال جابِرٌ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: حَدَّثَنا رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**جاوَرتُ بحِراءَ، فلَمَّا قَضَيتُ جِواري، هَبَطتُ، فنوديتُ، فنَظَرتُ عن يَميني فلَم أرَ شَيئًا، ونَظَرتُ عن شِمالي فلَم أرَ شَيئًا، ونَظَرتُ أمامي فلَم أرَ شَيئًا، ونَظَرتُ خَلفي فلَم أرَ شَيئًا، فرَفَعتُ رَأسي فرَأيتُ شَيئًا، فأتَيتُ خديجَةَ، فقُلتُ: دَثِّروني، وصُبُّوا عَلَيَّ ماءً بارِدًا**».

قال: «**فَدَثَّروني، وصَبُّوا عَلَيَّ ماءً بارِدًا، فنَزَلَت:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ [المدثر: ١-٣]»[٤].

---

(١) هو مكانٌ في طريق التَّنعيم، ويقال: هو وادٍ.

(٢) رواه البخاري (٣٨٢٦)، ورواه أيضًا (٥٤٩٩) عن ابن عمر، يحدِّث عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنَّه لقي زيد ابن عمرو بن نفيلٍ بأسفل بلدحٍ ... الحديث، ممَّا يشعر أنّ ابن عمر، سمع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يحدث بذلك.

(٣) شرح صحيح البخاري (٥/ ٤٠٨).

(٤) رواه البخاري (٤٩٢٢)، ومسلم (١٦١).

وعَنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -أيضًا- قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وَهوَ يُحدِّثُ عن فترَةِ الوَحيِ- قال في حديثِه-: «**فَبينا أنا أمشي، سَمِعتُ صَوتًا مِنَ السَّماءِ، فرَفَعتُ رَأسي، فإذا المَلَكُ الذي جاءَني بحِراءَ، جالِسًا على كُرسيٍّ بين السَّماءِ والأرضِ**».

قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَجُئِثتُ**[1] **منه فرَقًا، فرَجَعتُ، فقُلتُ: زَمِّلوني زَمِّلوني فدَثِّروني، فأنزَلَ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ**﴾ [المدثر: ١-٥]» -وهي الأوثانُ- قال: «**ثُمَّ تَتابَعَ الوَحيُ**»[2].

* كما حَدَّثَهُم عن رِحلَةِ الإسراءِ والمِعراجِ:

فعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**فُرِجَ سَقفُ بَيتي وأنا بمَكَّةَ، فنَزَلَ جبريلُ، ففَرَجَ صَدري، ثُمَّ غَسَلَهُ بماءِ زَمزَمَ، ثُمَّ جاءَ بطَستٍ من ذَهَبٍ مُمتَلِئٍ حِكمَةً وإيمانًا، فأفرَغَها في صَدري، ثُمَّ أطبَقَهُ، ثُمَّ أخَذَ بيَدي، فعَرَجَ بي إلى السَّماءِ...**» وساقَ حديثَ الإسراءِ[3].

* وقَصَّ على أصحابِهِ خَبَرَ تكذيبِ قُرَيشٍ لَهُ، لَمَّا أخبَرَهُم بإسرائِهِ، ووَصفِهِ لهم بَيتَ المقدِسِ:

فعن جابرِ بنِ عبدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أنَّهُ سَمِعَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**لَمَّا كَذَّبَتني قُرَيشٌ**[4]**، قُمتُ في الحِجرِ، فجَلا اللهُ لِيَ بَيتَ المقدِسِ**[5]**، فطَفِقتُ أُخبِرُهُم عن آياتِهِ، وأنا أنظُرُ إليه**»[6].

وفي الحديثِ: ما يَدُلُّ على وُقوعِ مُعجِزَةٍ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حينَ وصَفَ -وهو بمَكَّةَ- أُمورًا ببَيتِ المقدِسِ، لم يَكُن رَآها، فقَد «سَألوهُ عن تَعريفاتِ جُزئيَّاتٍ من بَيتِ

---

(١) أي: ذعرت، وخفت.

(٢) رواه البخاري (٤٩٢٦)، ومسلم (١٦١).

(٣) رواه البخاري (٣٤٩)، ومسلم، (١٦٣)

(٤) أي: نسبوني إلى الكذب فيما ذكرت من قضيَّة الإسراء، وطلبوا منِّي علامات بيت المقدس.

(٥) أي: كشف الحجاب بيني وبينه، حتى رأيته.

(٦) رواه البخاري (٣٨٨٦)، ومسلم (١٧٠).

المقدِسِ، كانوا رَأوها، وعَلِموا أنَّهُ لم يَكُن رَآها قبلَ ذلك، فلمَّا أخبَرَهُم بها، حَصَلَ التَّحقيقُ بِصِدقِهِ فيما ذَكَرَ مِنَ الإسراءِ إلى بَيتِ المقدِسِ في لَيلَةٍ، وإذا صَحَّ خَبَرُهُ في ذلك، لَزِمَ تَصديقُهُ في بَقيَّةِ ما ذَكَرَهُ، فكان ذلك زيادَةً في إيمانِ المُؤمِنِ، وزيادَةً في شَقاءِ الجاحِدِ والمُعانِدِ»(١).

*** وكان النبيُّ ﷺ يُحَدِّثُ بما كان يُلاقيهِ مِنَ المُشرِكينَ مِنَ الأذَى:**

فعن عائشةَ رضي الله عنها، أنَّها قالت للنَّبيِّ ﷺ: هَل أتَى عليكَ يومٌ كان أشَدَّ من يومِ أُحُدٍ؟

قال: «**لَقَد لَقيتُ من قَومِكِ ما لَقيتُ، وكان أشَدَّ ما لَقيتُ منهم يومَ العَقَبَةِ، إذ عَرَضتُ نَفسي على ابنِ عبدِ ياليلَ بنِ عبدِ كُلالٍ، فلَم يُجِبني إلى ما أرَدتُ، فانطَلَقتُ وأنا مَهمومٌ على وجهي، فلَم أستَفِق إلا وأنا بقَرنِ الثَّعالِبِ، فرَفَعتُ رَأسي، فإذا أنا بسَحابَةٍ قَد أظَلَّتني، فنَظَرتُ فإذا فيها جبريلُ، فناداني، فقال: إنَّ اللهَ قَد سَمِعَ قولَ قَومِكَ لَكَ، وما رَدُّوا عليكَ، وقد بَعَثَ إلَيكَ مَلَكَ الجِبالِ؛ لِتَأمُرَهُ بما شِئتَ فيهِم.**

فَناداني مَلَكُ الجِبالِ، فسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قال: يا محمدُ، إنَّ اللهَ قَد سَمِعَ قولَ قَومِكَ لَكَ، وأنا مَلَكُ الجِبالِ، وقد بَعَثَني رَبُّكَ إلَيكَ لِتَأمُرَني بأمرِكَ بما شِئتَ، إن شِئتَ أن أُطبِقَ عليهِمُ الأخشَبَينِ»(٢).

فقال النبيُّ ﷺ: «**بل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ من أصلابِهِم مَن يَعبُدُ اللهَ وحدَهُ، لا يُشرِكُ بِهِ شَيئًا**»(٣).

فالنبيُّ ﷺ يَستَعيدُ ذِكرَياتِهِ، ويَقُصُّها على زَوجَتِهِ، بما فيها من قَسوَةِ الناسِ، وجَفوَتِهِم عليه، وكان أشَدّ ما يَتَذَكَّرُهُ عليه الصلاة والسلام من ذلك يومَ العَقَبَةِ، حينَ أخرَجَهُ أهلُ

---

(١) فتح الباري (٧/ ٢٠١).

(٢) وهما جبلا مكَّة: أبو قبيسٍ، والجبل الذي يقابله، والمراد بإطباقهما: أن يلتقيا على من بمكَّة، أو المراد: أنهَّما يصيران طبقًا واحدًا.

(٣) رواه البخاري (٣٢٣١)، مسلم (١٧٩٥).

الطَّائِفِ، رَميًا بالحِجارَةِ، فرَجَعَ مَهمومًا مَغمومًا، ولم يَدرِ بنَفسِهِ إلا وهو بقَرنِ الثَّعالِبِ، ومَعَ ذلك كُلِّهِ كان أحلَمَ الناسِ، إذ عَفَى حينَ قَدَرَ، راجيًا مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، أن يُخرِجَ من أصلابِهِم مَن يَعبُدُ اللهَ وحدَهُ، لا يُشرِكُ بهِ شَيئًا.

❋ وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَذَكَّرُ ما حَصَلَ له مِنَ الخَوفِ، والأذَى، والجوعِ:

فعن أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَقَد أُخِفتُ في اللهِ وما يُخافُ أحَدٌ، ولَقَد أوذيتُ في اللهِ وما يُؤذَى أحَدٌ، ولَقَد أتَت عَلَيَّ ثَلاثونَ، من بَينِ يومٍ ولَيلَةٍ، وما لي ولِبلالٍ طعامٌ يَأكُلُهُ ذو كَبِدٍ، إلا شيءٌ يواريهِ إبطُ بلالٍ**»[١].

قال الترمذيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «**وَمعنى هذا الحديثِ**: حينَ خرجَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هارِبًا من مَكَّةَ، ومَعَهُ بلالٌ، إنَّما كان مع بلالٍ مِنَ الطَّعامِ، ما يَحمِلُهُ تحتَ إبطِهِ».

❋ ووَقَفَ على قَليبِ بَدرٍ، مُتذكِّرًا ما كان من أهلِ القَليبِ، وقال:

«**يا فُلانُ بنَ فُلانٍ، ويا فُلانُ بنَ فُلانٍ، أيَسُرُّكُم أنَّكُم أطَعتُمُ اللهَ ورسولَهُ؟ فإنَّا قَد وجَدنا ما وعَدَنا رَبُّنا حَقًّا، فهَل وجَدتُم ما وعَدَ رَبُّكُم حَقًّا؟**»[٢].

فهَؤُلاءِ هُمُ الذينَ كَذَّبوهُ، وأخرَجوهُ، وآذَوهُ ومَن مَعَهُ، وألَّبوا عليه الناسَ.

هَؤُلاءِ هُمُ الذينَ كانوا يَسخَرونَ منه، ويَستَهزِئونَ بهِ.

ها هُمُ -اليومَ- جيَفٌ مُنتِنَةٌ، مُلقاةٌ بين يَدَيهِ، وقد كانوا -مِن قبلُ- سادَةً في قَومِهِم.

إنَّها -وَإن كانت ذِكرَياتٍ أليمَةً- لَقَدِ استَوجَبَت شُكرًا، ويَقينًا بمَوعودِ اللهِ.

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٧٢)، وصححه، وابن ماجه (١٥١)، وأحمد (١٢٢١٢)، وصححه محققو المسند، على شرط مسلم.

(٢) رواه البخاري (٣٩٧٦)، ومسلم (٢٨٧٤).

* ومِن ذِكرَياتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَذَكُّرُهُ لِحصارِ المُشرِكينَ لَهُ، في شِعبِ أبي طالِبٍ:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -مِنَ الغَدِ يومَ النَّحرِ- وهو بمِنًى: «**نَحنُ نازِلونَ غَدًا -إن شاءَ اللهُ- بخَيفِ بَني كِنانَةَ**[1]**، حيث تَقاسَموا على الكُفرِ**».

يعني بذلك: المُحَصَّبَ، وذلك أنَّ قُرَيشًا وكِنانَةَ تَحالَفَت على بَني هاشِمٍ وبَني المُطَّلِبِ: أن لا يُناكِحوهُم، ولا يُبايِعوهُم، حتى يُسلِموا إليهمُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2].

ومعنى: «**تَقاسَموا على الكُفرِ**»:

تَحالَفوا، وتَعاهَدوا عليه، وهو تَحالُفُهُم على إخراجِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبَني هاشِمٍ، وبَني المُطَّلِبِ، من مَكَّةَ إلى هذا الشِّعبِ، وهو خَيفُ بَني كِنانَةَ، وكَتَبوا بينهُمُ الصَّحيفَةَ المشهورَةَ، وكَتَبوا فيها أنواعًا مِنَ الباطِلِ، وقَطيعَة الرحِمِ، والكُفر، فأرسَلَ اللهُ تعالى عليها الأرَضَةَ، فأكَلَت كُلَّ ما فيها من كُفرٍ، وقَطيعَةِ رَحِمٍ، وباطِلٍ، وتَرَكَت ما فيها من ذِكرِ اللهِ تعالى، فأخبَرَ جبريلُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، فأخبَرَ بِهِ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمَّهُ أبا طالِبٍ، فجاءَ إليهم أبو طالِبٍ، فأخبَرَهُم عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، فوَجَدوهُ كما أخبَرَ، والقِصَّةُ مَشهورَةٌ.

قال بَعضُ العُلَماءِ: وكان نُزولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -هُنا-؛ شُكرًا للهِ تعالى، على الظُّهورِ بعدَ الِاختِفاءِ، وعلى إظهارِ دينِ اللهِ تعالى[3].

فنزَلَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخَيفِ بَني كِنانَةَ؛ ليَتَذَكَّرَ ما كانوا فيه مِنَ الضِّيقِ، والاضطِهادِ، فيَشكُرَ اللهَ على ما أنعَمَ بِهِ عليه مِنَ الفَتحِ العَظيمِ، ودُخولِهِم مَكَّةَ، التي أُخرِجوا منها، وليُؤَكِّدَ انتِصارَ الحَقِّ واستِعلاءَهُ، وتَمكينَ اللهِ لأهلِهِ الصَّابِرينَ.

---

(١) هو الوادي المعروف بالمحصَّب.
(٢) رواه البخاري (١٥٩٠)، ومسلم (١٣١٤).
(٣) شرح صحيح مسلم (٩/ ٦٢).

فائِدةٌ:

عن محمدِ بنِ سوقَةَ، قال: مَرَرتُ مع عَونِ بنِ عبدِالله بالكوفَةِ على قَصرِ الحَجَّاجِ، فقُلتُ: لَو رَأيت ما نَزَلَ بنا -هاهُنا- زَمَنَ الحَجَّاجِ؟ فقال: «مَرَرتَ كَأنَّكَ لم تَدعُ إلى ضُرٍّ مَسَّكَ! ارجِع، فاحمَدِ اللهَ، واشكُرهُ، ألَم تَسمَع إلى قولِ الله عَزَّ وَجَلَّ: (مَرَّ كَأن لم يَدعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ)؟»[١].

* **ومِن ذلك: تَذَكُّرُهُ ما فعَلَهُ عَدوُّ الله عُقبَةُ بنُ أبي مُعَيطٍ، بِهِ وبِالمسلمينَ؛ عَداوَةً لله ورسولِهِ:**

فَقَد كان عُقبَةُ شَديدًا على المسلمينَ، كَثيرَ الأذَى لِرسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٢].

وهوَ الذي جاءَ بسَلى الجَزورِ، فوَضَعَهُ على ظَهرِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو ساجِدٌ، فدَعا عليه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى أصحابِهِ الذينَ كانوا مَعَهُ[٣]، فلَم يَكُن بُدٌّ من هَلاكِهِ.

فلَمَّا أُسِرَ يومَ بَدرٍ، أمَرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقَتلِهِ، قال عبدُالله بنُ مَسعودٍ: لَمَّا أرادَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَتلَ عُقبَةَ بنِ أبي مُعَيطٍ قال: مَن للصِّبيَةِ؟ قال: «**النارُ**»[٤].

وعن الشَّعبيِّ قال: لَمَّا أمَرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقَتلِ عُقبَةَ، قال: أتَقتُلُني يا محمدُ من بَينِ قُرَيشٍ؟ قال: «**نَعَم، أتَدرونَ ما صَنَعَ هذا بي؟ جاءَ -وَأنا ساجِدٌ خَلفَ المقامِ- فوَضَعَ رِجلَهُ على عُنُقي وغَمَزَها، فما رَفَعَها حتى ظَنَنتُ أنَّ عَينَيّ سَتَندُرانِ، وجاءَ -مَرَّةً أُخرَى- بسَلا شاةٍ، فألقاهُ على رَأسي وأنا ساجِدٌ، فجاءَت فاطمةُ فغَسَلَتهُ عن رَأسي**»[٥].

---

(١) رواه ابن أبي الدُّنيا في «كتاب الشّكر» (٥٥)، وسنده صحيح.

(٢) الإصابة في تمييز الصَّحابة (٦/ ٤٨١).

(٣) رواه البخاري (٢٤٠)، ومسلم (١٧٩٤).

(٤) رواه أبوداود (٢٦٨٦)، وصححه الألباني.

(٥) البداية والنهاية (٥/ ١٨٩)، تاريخ الإسلام للذَّهبيِّ (٢/ ٦٥).

وروى عبدُالرزَّاقِ عن مِقسَمٍ مَولى ابنِ عبَّاسٍ، قال: لَمَّا كان يومُ بَدرٍ، أُسِرَ عُقبَةُ بنُ أبي مُعَيطٍ في الأُسارَى، فأمَرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليَّ بنَ أبي طالِبٍ أن يَقتُلَهُ، فقال عُقبَةُ: يا محمدُ، من بَينِ هَؤُلاءِ أُقتَلُ؟

- قال: «**نَعَم**».

- قال: لِمَ؟

- قال: «**بِكُفرِكَ، وفُجورِكَ، وعُتوِّكَ على اللهِ وعلى رسولِهِ**»[1].

وقال شَيخُ الإسلام ابنُ تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأذَى ابنِ أبي مُعيطٍ له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَشهورٌ، بلسانِهِ ويَدِهِ، حينَ خَنَقَهُ -بِأبي هو وأمِّي- بردائِهِ، خَنقًا شَديدًا، يُريدُ قَتلَهُ، وحينَ ألقَى السَّلا على ظَهرِهِ وهو ساجِدٌ، وغَير ذلك»[2].

فَلا شَكَّ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أمَرَ بقَتلِهِ -ولم يُقتَل سِواهُ مِنَ الأسرَى، والنَّضر بن الحارِثِ- كان مُتَذَكِّرًا سوءَ صَنيعِهِ، وشِدَّةَ عَداوَتِهِ للهِ ورسولِهِ، وما أجرَمَ بِهِ في حَقِّ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان هَذانِ الرجُلانِ من شَرِّ عِبادِ اللهِ، وأكثَرِهِم كُفرًا، وعِنادًا، وبَغيًا، وحَسَدًا، وهِجاءً للإسلامِ وأهلِهِ، لَعَنَهُما اللهُ، وقد فعَلَ»[3].

فَقَبِلَ مِنَ الأسرَى كُلِّهِمُ الفِديَةَ، إلا هَذَينِ، قَتَلَهُما وأراحَ منهما؛ لِما أسلَفا من سوءِ الصَّنيعِ.

*** وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَذَكَّرُ مَن صَنَعَ مَعَهُ مَعروفًا من كُفَّارِ قُرَيشٍ:**

فعن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في أُسارَى بَدرٍ: «**لَو كان المُطعِمُ بنُ عَديٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَني في هَؤُلاءِ النَّتنَى، لَتَرَكتُهُم لَهُ**»[4].

---

(١) المصنف (٩٧٣١).

(٢) الصارم المسلول (ص١٤٥).

(٣) البداية والنهاية (٥/ ١٨٩).

(٤) رواه البخاري (٣١٣٩).

والمُرادُ: لَو طَلَبَ مِنّي تركَهُم، وإطلاقَهُم مِنَ الأسرِ بغَيرِ فِداءٍ، لَفَعَلتُ ذلك؛ مُكافأةً لهُ على يَدٍ كانت له عندَ رسولِ اللهِ ﷺ.

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**المُرادُ باليَدِ المذكورَةِ**: ما وقَعَ منه حينَ رَجَعَ النبيُّ ﷺ من الطَّائِفِ، ودَخَلَ في جِوارِ المُطعِمِ بنِ عَدِيٍّ، وقد ذَكَرَ ابنُ إسحاقَ القِصَّةَ في ذلك مَبسوطَةً، وكَذلك أورَدَها الفاكِهيُّ، بإسنادٍ حَسَنٍ مُرسَلٍ، وفيهِ: أنَّ المُطعِمَ أمَرَ أربعَةً من أولادِهِ فلَبِسوا السِّلاحَ، وقامَ كُلُّ واحِدٍ منهم، عندَ رُكنٍ مِنَ الكعبَةِ، فبَلَغَ ذلك قُرَيشًا، فقالوا لَهُ: أنتَ الرجُلُ الذي لا تُخفَرُ ذِمَّتُكَ.

وقيل: المُرادُ باليَدِ المذكورَةِ: أنَّهُ كان من أشَدِّ مَن قامَ في نَقضِ الصَّحيفَةِ التي كَتَبَتها قُرَيشٌ على بَني هاشِمٍ ومَن مَعَهُم مِنَ المسلمينَ، حينَ حَصَروهُم في الشِّعبِ»[١].

*** وكان ﷺ يَتذَكَّرُ مَعروفَ صاحِبِهِ، الذي أيَّدَهُ ونَصَرَهُ، ويُحسِنُ الثَّناءَ عليه بين الناسِ:**

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما لأحَدٍ عندَنا يَدٌ، إلا وقد كافيناهُ، ما خَلا أبا بكرٍ، فإنَّ له عندَنا يَدًا يُكافِئُهُ اللهُ بها يومَ القيامَةِ، وما نَفَعَني مالُ أحَدٍ -قَطُّ- ما نَفَعَني مالُ أبي بكرٍ، ولو كنتُ مُتَّخِذًا خليلًا، لاتَّخَذتُ أبا بكرٍ خليلًا، ألا وإنَّ صاحِبَكُم خليلُ اللهِ**»[٢].

وعن أبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ بَعَثَني إلَيكُم، فقُلتُم: كَذَبتَ، وقال أبو بكرٍ: صَدَقَ، وواساني بنَفسِهِ، ومالِهِ**»[٣].

فكان النبيُّ ﷺ يَتذَكَّرُ تَصديقَهُ لَهُ، فيما كان يُخبِرُ بِهِ من خَبَرِ السَّماءِ، حينَ كَذَّبَهُ الناسُ، ويَتَذَكَّرُ نُصرَتَهُ له بنَفسِهِ ومالِهِ، ومُرافَقَتَه له في هِجرَتِهِ إلى المدينَةِ، ويُحسِنُ الثَّناءَ عليه بينَ الناسِ بذلك.

---

(١) فتح الباري (٧/ ٣٢٤).

(٢) رواه الترمذي (٣٦٦١)، وابن ماجه (٩٤)، وصححه الألباني.

(٣) رواه البخاري (٣٦٦١).

* وكان النبيُّ ﷺ يتذكَّرُ سالِفَ مَعروفِ الأنصارِ مَعَهُ:

كما حَصَلَ بعدَ حُنَينٍ، لمَّا أعطَى المُؤلَّفَةَ من قُرَيشٍ، ولم يُعطِ الأنصارَ شَيئًا، فوَجَدوا عليه، فجَمَعَهُم، وقال لهُم: «**يا مَعشَرَ الأنصارِ، ما قالةٌ بَلَغَتني عَنكُم؟ وجِدَةٌ وجَدتُموها في أنفُسِكُم؟ ألَمْ آتِكُم ضُلَّالًا فهَداكُمُ اللهُ؟ وعالَةً فأغناكُمُ اللهُ؟ وأعداءً فألَّفَ اللهُ بين قُلوبِكُم؟**».

- قالوا: بَلِ اللهُ ورسولُهُ أمَنُّ وأفضَلُ.

- قال: «**ألا تُجيبونَني يا مَعشَرَ الأنصارِ؟**».

- قالوا: وبِماذا نُجيبُكَ يا رسولَ اللهِ؟ وللهِ ولِرسولِهِ المَنُّ والفَضلُ؟

- فقال: «**أما -واللهِ- لَو شِئتُم، لَقُلتُم، فلَصَدَقتُم، وصُدِّقتُم: أتَيتَنا مُكَذَّبًا فصَدَّقناكَ، ومَخذولًا فنَصَرناكَ، وطَريدًا فآوَيناكَ، وعائِلًا فآسَيناكَ...**» الحديث[١].

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنَّما قال ﷺ ذلك؛ تَواضُعًا منه، وإنصافًا، وإلَّا ففي الحَقيقَةِ: الحُجَّةُ البالِغَةُ والمِنَّةُ الظَّاهِرَةُ في جَميعِ ذلك، له عليهم؛ فإنَّهُ لَولا هِجرَتُهُ إليهم، وسُكناهُ عندَهُم، لَما كان بينَهُم وبين غَيرِهِم فرقٌ»[٢].

* ومِن ذلك: تَذَكُّرُهُ وفاءَ أبي العاصِ بنِ الربيعِ، وصِدقَهُ مَعَهُ:

فَعنِ المِسوَرِ بنِ مَخرَمَةَ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ذَكَرَ صِهرًا لهُ من بَني عبدِ شَمسٍ، فأثنَى عليه في مُصاهَرَتِهِ إيَّاهُ، قال: «**حَدَّثَني فصَدَقَني، ووَعَدَني فوَفَى لي**»[٣]

وعندَ أحمَدَ: وذَكَرَ أبا العاصِ بنَ الربيعِ، فأكثَرَ عليه الثَّناءَ[٤].

وقد كان أبو العاصِ قَد أُسِرَ ببَدرٍ مع المُشرِكينَ، ففَدَتهُ زَينَبُ بنتُ رسولِ اللهِ ﷺ

(١) رواه أحمد (١١٧٣٠) بسندٍ حسنٍ، وتقدّم ذكره مطوَّلاً.
(٢) الفتح (٨/ ٥١).
(٣) رواه البخاري (٣١١٠)، ومسلم (٢٤٤٩).
(٤) المسند (١٨٩١١).

زَوجَتُهُ رَضِيَ اللهُ عَنها، فشَرَطَ عليه النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُرسِلَها إليه، فوَفَى له بذلك، فهذا معنى قولِهِ: «**حَدَّثَني فصَدَقَني، ووَعَدَني فوَفَى لي**»[1].

وقد كان هذا الثناءُ عليه بعدَ فتحِ مَكَّةَ، فذَكَرَ له حُسنَ صَنيعِهِ الذي كان منه بعدَ بدرٍ، وأثنَى به عليه بعدَ مُرورِ سَنَواتٍ من حُصولِهِ، مع أنَّ الفَضلَ لِرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولِابنَتِهِ زَينَبَ عليه.

* وتَذَكَّرَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حالَ امرَأةٍ مِنَ الأنصارِ:

فعن حُمَيدِ بنِ هِلالٍ، قال: كان رَجُلٌ مِنَ الطُّفاوَةِ[2] طَريقُهُ عَلَينا، فأتَى على الحَيِّ، فحَدَّثَهُم، قال: قَدِمتُ المدينَةَ في عيرٍ لَنا، فبِعنا بياعَتَنا[3]، ثُمَّ قُلتُ: لأَنطَلِقَنَّ إلى هذا الرجُلِ، فلَآتيَنَّ مَن بعدي بخَبَرِهِ.

فانتَهَيتُ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا هو يُريني بَيتًا، قال: «**إنَّ امرَأةً كانت فيه، فخرجَت في سَرِيَّةٍ مِنَ المسلمينَ، وتَرَكَت ثِنتَي عَشرَةَ عَنزًا لها، وصيصيَتَها كانت تَنسِجُ بها[4]، ففَقَدَت عَنزًا من غَنَمِها، وصيصيَتَها، فقالت: يا رَبِّ، إنَّكَ قَد ضَمِنتَ لِمَن خرجَ في سَبيلِكَ، أن تَحفَظَ عليه، وإنِّي قَد فقَدتُ عَنزًا من غَنَمي، وصيصيَتي، وإنِّي أنشُدُكَ عَنزي، وصيصيَتي**».

فَجَعَلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذكُرُ شِدَّةَ مُناشَدَتِها لِرَبِّها تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَأصبَحَت عَنزُها ومِثلُها، وصيصيَتُها ومِثلُها، وهاتيكَ فأتِها، فاسألها إن شِئتَ**»

قُلتُ: بل أُصَدِّقُكَ[5].

---

(١) الفتح (٧/ ٨٥).

(٢) حيٌّ من قيس عيلان.

(٣) البياعة: السِّلعة.

(٤) وهي الصِّنَّارة التي يغزل بها، وينسج.

(٥) رواه أحمد (٢٠٦٦٤)، وقال الهيثميُّ في مجمع الزَّوائد (٥/ ٢٧٧): «رجاله رجال الصحيح»، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٩٣٥).

*** ولِشِدَّةِ حُبِّهِ لِعَمِّهِ حَمزَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان يَتَذَكَّرُهُ، وطلَبَ من قاتِلِهِ أن يُغَيِّبَ وجهَهُ عَنهُ:**

فإنّ وحشيًّا قاتلَ حَمزةَ لَمَّا أسلَمَ، وقدِمَ على رسولِ اللهِ ﷺ، قال:

فلمَّا رَآني قال: «**آنتَ وحشيٌّ؟**».

- قُلتُ: نعم.

- قال: «**أنتَ قَتَلت حَمزَةَ؟**».

- قُلتُ: قَد كان مِنَ الأمرِ ما بَلَغَك.

- قال: «**فهَل تَستَطيعُ أن تُغيِّبَ وجهَكَ عَنِّي؟**».

وذكَرَ الحديثَ[١].

زادَ الطَّيالِسيُّ: «فكنتُ أتَّقي أن يَراني»، وفي رواية: «فما رآني حتى ماتَ»[٢].

وقولُه: «فهَل تَستَطيعُ أن تُغيِّبَ وجهَكَ عَنِّي؟»:

فهذا القولُ مِنَ النبيِّ ﷺ يبيّنُ أنَّ رُؤيَتَهُ قاتِلَ عَمِّهِ حَمزَةَ، تَجلِبُ عليه نَوعًا مِنَ الألَمِ النَّفسيِّ، فرُؤيَتُهُ تُذَكِّرُهُ بعَمِّهِ، وما حَصَلَ له مِنَ التمثيلِ، فتُجَدِّدُ عليه الأحزانَ.

فَأشارَ عليه ﷺ أن يُغَيِّبَ وجهَهُ عَنهُ؛ حتى يَفقِدَ مَصدَرَ التَّذكيرِ بِتِلكَ الحادِثَةِ، وتِلكَ المُصيبَةِ.

قال ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ اللهُ: «وكان النبيُّ ﷺ كُلَّما رَأى وحشيًّا تَذَكَّرَ فِعلَهُ، فتَغَيَّظَ عليه بالطَّبعِ، وهذا يَضُرُّ وحشيًّا في دينِهِ، فلَعَلَّهُ أرادَ اللُّطفَ في إبعادِهِ»[٣].

*** وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دائِمَ التَّذَكُّرِ لِزَوجَتِهِ خديجةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا:**

فعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: ما غِرتُ على أحَدٍ من نِساءِ النبيِّ ﷺ ما غِرتُ على

(١) رواه البخاري (٤٠٧٢).

(٢) فتح الباري (٧/ ٣٧٠).

(٣) كشف المشكل من حديث الصحيحين (٤/ ١٧٧).

خديجةَ، وما رَأيتُها، ولكن كان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكثِرُ ذِكرَها، ورُبَّما ذَبَحَ الشَّاةَ، ثُمَّ يُقطِّعُها أعضاءً، ثُمَّ يبعَثُها في صَدائِقِ خديجةَ، فرُبَّما قُلتُ لَهُ: كَأَنَّهُ لم يَكُن في الدُّنيا امرَأةٌ إلا خديجةُ، فيقولُ: «**إنَّها كانت، وكانت، وكان لي منها ولَدٌ**»(١).

وهذا يَدُلُّ على غايَةِ الوَفاءِ، فهو -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- لم يَكتَفِ بالإكثارِ مِن ذِكرِها، وحُسنِ الثَّناءِ عليها، بل كان يُكرِمُ صَديقاتِها، ويُتحِفُهُنَّ بالهَدِيَّةِ؛ إكرامًا لها، ورَدًّا لجَميلِها.

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: استَأذَنَت هالَةُ بنتُ خوَيلِدٍ أُختُ خديجةَ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعَرَفَ استِئذانَ خديجةَ(٢)، فارتاعَ لِذلك(٣)، فقال: «**اللهُمَّ هالَةَ**».

فَغِرتُ، فقُلتُ: ما تَذكُرُ من عَجوزٍ من عَجائِزِ قُرَيشٍ، حَمراءِ الشِّدقَينِ(٤)، هَلَكَت في الدَّهرِ، قَد أبدَلَكَ اللهُ خَيرًا منها(٥).

وفي روايةٍ: قال: «ما أبدَلَني اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيرًا منها، قَد آمَنَت بي إذ كَفَرَ بيَ الناسُ، وصَدَّقَتني إذ كَذَّبَني الناسُ، وواسَتني بمالِها إذ حَرَمَني الناسُ، ورَزَقَني اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ولَدَها، إذ حَرَمَني أولادَ النِّساءِ»(٦).

قولُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اللهُمَّ هالَةَ**»: **أي**: اللهُمَّ اجعَلها هالَةَ، **ويُؤخَذُ من هَذا**: تَذَكُّرِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خديجةَ، بمُجَرَّدِ سَماعِ الصَّوتِ الذي يُشبِهُ صَوتَها، وسُرورُهُ بمَجيءِ أختِها دَليلٌ على ما يَحمِلُهُ في قَلبِهِ لها مِنَ الحُبِّ، والإجلالِ، والوَفاءِ.

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «**وَفيهِ**: دَليلٌ على عِظَمِ قَدرِها عندَهُ، وعلى مَزيدِ فضلِها؛ لأنَّها أغنَتهُ عن غَيرِها، واختصَّت بِهِ بقَدرِ ما اشتَرَكَ فيه غَيرُها مَرَّتَينِ؛ لأنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاشَ بعدَ أن

---

(١) رواه البخاري (٣٨١٨)، ومسلم (٢٤٣٥).

(٢) أي: صفته؛ لشبه صوتها بصوت أختها، فتذكَّر خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بذلك.

(٣) أي: هشَّ لمجيئها، واهتزَّ لذلك سرورًا.

(٤) أي: سقطت أسنانها لكبرها، فلم يبق بشدقيها بياضٌ منها، إنَّما فيه حمرة اللِّثات.

(٥) رواه البخاري (٣٨٢١) -واللفظ له-، ومسلم (٢٤٣٧).

(٦) رواه أحمد في مسنده (٢٤٨٦٤)، وقال محققو المسند: «حديث صحيح، وهذا سندٌ حسنٌ في المتابعات». وكان جميع أولاد النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، إلا إبراهيم، فإنَّه كان من جاريته مارية رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

تَزَوَّجَها ثَمانيَةً وثَلاثينَ عامًا، انفَرَدَت خديجةُ منها بخَمسَةٍ وعِشرينَ عامًا، وهي نَحو الثُّلُثَينِ مِنَ المجموعِ، ومَعَ طولِ المُدَّةِ، فصانَ قَلبَها فيها مِنَ الغَيرَةِ، ومِن نَكَدِ الضَّرائِرِ، الذي رُبَّما حَصَلَ له هو منه ما يُشَوِّشُ عليه بذلك، وهي فضيلَةٌ لم يُشارِكها فيها غيرُها.

و**مِمَّا اختُصَّت بهِ**: سَبقُها نِساءَ هَذِهِ الأُمَّةِ إلى الإيمانِ، فسَنَّت ذلك لِكُلِّ مَن آمَنَت بعدَها، فيكونُ لها مِثلُ أجرِهِنَّ، وقد شارَكَها في ذلك أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ بالنِّسبَةِ إلى الرِّجالِ، ولا يَعرِفُ قَدرَ ما لِكُلٍّ منهما مِنَ الثَّوابِ بسببِ ذلك، إلا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»[١].

وقال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «في هَذا: دَليلٌ لِحُسنِ العَهدِ، وحِفظِ الوُدِّ، ورِعايَةِ حُرمَةِ الصَّاحِبِ والعَشيرِ، في حَياتِهِ ووَفاتِهِ، وإكرامِ أهلِ ذلك الصَّاحِبِ»[٢].

والكريمُ دائِمُ التَّذَكُّرِ لِفَضائِلِ غَيرِهِ، ولا يَنسَى الجَميلَ إذا قُدِّمَ لَهُ، وهذا حالُ نَبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي رواية: «**كان رسولُ اللهِ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **إذا ذَكَرَ خديجةَ، لم يَكُن يَسأمُ من ثَناءٍ عليها، والاستِغفارِ لها**»[٣].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: لَمَّا بَعَثَ أهلُ مَكَّةَ في فِداءِ أسراهُم، بَعَثَت زَينَبُ في فِداءِ أبي العاصِ بمالٍ، وبَعَثَت فيه بِقِلادَةٍ لها، كانت عندَ خديجةَ، أدخَلَتها بها على أبي العاصِ.

فلَمَّا رَآها رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَقَّ لها رِقَّةً شَديدَةً[٤].

وقال: «**إن رَأيتُم أن تُطلِقوا لها أسيرَها، وتَرُدُّوا عليها الذي لها**»، فقالوا: نعم[٥].

فَأثارَت هَذِهِ القِلادَةُ ذِكرَى طيِّبةً في نَفسِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، حيث كانت لِـخديجةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، ثمّ أهدَتها زَينَبَ ابنتَها، حينَ أدخَلَتها على أبي العاصِ، فلَمَّا رَآها النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تَذَكَّرَ خديجةَ، وما كان من شَأنِها، ورَقَّ قلبُهُ رِقَّةً شَديدَةً، حتى بَكَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) فتح الباري (٧/ ١٣٧).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ٢٠٢).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٨٥٥٥)، وحسنه الهيثميُّ في المجمع (٩/ ٢٢٤).

(٤) وعند الطَّحاويّ في مشكل الآثار (٤٧٠٨): «حتَّى دمعت عيناه».

(٥) رواه أبوداود (٢٦٩٢)، وحسنه الألباني.

* وتَذَكَّرَ أُمَّهُ آمنةَ بنتَ وهبٍ، وزارَ قَبرَها، وبَكى عندَهُ:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: زارَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبرَ أُمِّهِ، فبَكَى وأبكَى مَن حَولَهُ، فقال: «**استَأذَنتُ رَبِّي في أن أستَغفِرَ لها، فلَم يُؤذَن لي، واستَأذَنتُهُ في أن أزورَ قَبرَها، فأُذِنَ لي، فزوروا القُبورَ؛ فإنَّها تُذَكِّرُ الموتَ**»(١).

قال القاضي عياضٌ رَحِمَهُ اللهُ: «سببُ زيارَتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبرَها: أنَّهُ قَصَدَ قوَّةَ الموعِظَةِ والذِّكرَى بمُشاهَدَةِ قَبرِها، ويُؤَيِّدُهُ قولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخِرِ الحديثِ: «**فَزوروا القُبورَ، فإنَّها تُذَكِّرُ الموتَ**»(٢).

وفي الحديثِ ما يَدُلُّ على تَذَكُّرِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّه، إذ قَصَّ على أصحابِهِ خَبَرَ استِئذانِهِ من رَبِّهِ أن يَستَغفِرَ لها، فأذِنَ اللهُ له بزيارَةِ قَبرِها، دونَ الاستِغفارِ لها.

* وفي آخِرِ حَياتِهِ تَذَكَّرَ الصَّحبَ الكِرامَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وتَضحيَّاتِهم مَعَهُ، فزارَهُم في قُبورِهِم، في أُحُدٍ، والبَقيعِ، ودَعا لَهُم:

فعن عُقبَةَ بنِ عامِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: صَلَّى رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قَتلى أُحُدٍ، بعدَ ثَماني سِنينَ، كالمُوَدِّعِ للأحياءِ والأمواتِ، ثُمَّ طَلَعَ المِنبَرَ، فقال:

«**إنِّي بين أيديكُم فرَطٌ**(٣)، **وأنا عليكُم شَهيدٌ، وإنَّ مَوعِدَكُمُ الحَوضُ، وإنِّي لأَنظُرُ إليه من مَقامي هَذا، وإنِّي لَستُ أخشَى عليكُم أن تُشرِكوا، ولكني أخشَى عليكُمُ الدُّنيا أن تَنافَسوها**»(٤).

وعن أبي مُوَيهِبَةَ، مَولى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **قال**: بَعَثَني رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جَوفِ اللَّيلِ، فقال: «**يا أبا مُوَيهِبَةَ، إنِّي قَد أُمِرتُ أن أستَغفِرَ لأهلِ البَقيعِ، فانطَلِق مَعي**»، فانطَلَقتُ مَعَهُ، فلَمَّا وقَفَ بين أظهُرِهِم، قال:

---

(١) رواه مسلم (٩٧٦).

(٢) شرح صحيح مسلم (٧/ ٤٥).

(٣) الفرط: هو الذي يتقدَّم ويسبق القوم؛ ليرتاد لهم الماء، ويهيِّئ لهم الدِّلاء والأرشية.

(٤) رواه البخاري (٤٠٤٢)، ومسلم (٢٢٩٦).

«السَّلامُ عليكُم يا أهلَ المقابِرِ، ليَهنِ لَكُم ما أصبَحتُم فيه، مِمَّا أصبَحَ فيه الناسُ، لَو تَعلَمونَ ما نَجَّاكُمُ اللهُ منه، أقبلَتِ الفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيلِ المُظلِمِ، يَتبَعُ أوَّلُها آخِرَها، الآخِرَةُ شَرٌّ من الأولى».

ثُمَّ أقبَلَ عَلَيَّ، فقال: «**يا أبا موَيهِبَةَ، إنِّي قَد أوتيتُ مَفاتيحَ خَزائِنِ الدُّنيا والخُلدَ فيها، ثُمَّ الجَنَّةَ، وخُيِّرتُ بين ذلك، وبين لِقاءِ رَبِّي** عَزَّوَجَلَّ **والجَنَّةِ**».

- قُلتُ: بأبي وأُمِّي، فخُذ مَفاتيحَ الدُّنيا والخُلدَ فيها، ثُمَّ الجَنَّةَ.

- قال: «**لا -واللهِ- يا أبا موَيهِبَةَ، لَقَد اختَرتُ لِقاءَ رَبِّي** عَزَّوَجَلَّ **والجَنَّةَ**».

ثُمَّ استَغفَرَ لأهلِ البَقيعِ، ثُمَّ انصَرَفَ، فبُدِئَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وجَعِهِ الذي قَضاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فيه حينَ أصبَحَ[1].

فيَذكُرُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولَئِكَ الكِرامَ، وتِلكَ التَّضحيَّاتِ منهم، فيَذهَبُ إلى قُبورِهِم، ويَستَغفِرُ لَهُم، وكَأنَّها زيارَةُ مودِّعٍ.

وهَكَذا كان حديثُ الذِّكرَياتِ لَدَيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حديثَ إيمانٍ وتَسليمٍ، ومَعرِفَةٍ بنِعمَةِ اللهِ عليه وعلى أُمَّتِهِ، وشُكرٍ لِمَعروفِ أهلِ الفَضلِ، ومواساةٍ وتَأنيسٍ لأصحابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

أمَّا ذِكرَياتُنا نَحنُ: فلَعَلَّها -كُلَّها، أو أكثَرَها، على أحسَنِ أحوالِها- مِمَّا يَحمِلُ على المُسارَعَةِ إلى التوبةِ والإنابَةِ، وما أحسَنَ ما قال أبو الخَطَّابِ، الفقيهُ الحنبليّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

دع عنكَ تَذكارَ الخليطِ المنجِدِ ... والشَّوقَ نحوَ الآنساتِ الخُرَّدِ
والنَّوحَ في تَذكارِ سُعدى إنَّما ... تَذكارُ سُعدى شُغلُ مَن لم يَسعَدِ
واسمع معانيَ إن أردتَ تخلُّصًا ... يومَ الحِسابِ وخذ بقولي تهتدي

في قَصيدَةٍ لَهُ، يَذكُرُ فيها اعتِقادَهُ ومَذهَبَهُ[2].

---

(١) رواه أحمد (١٥٩٩٧)، وقال محققو المسند: «حديث صحيح في استغفاره لأهل البقيع، واختياره لقاء ربِّه».

(٢) البداية والنهاية (١٦/ ٢٣١). الخليط: المخالط، كالنَّديم المنادم، والجليس المجالس، والمنجد: المعين، والخرّد: جمع خريدة، وهي المرأة شديدة الحياء.

وَصاياهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ونَختِمُ الكِتابَ بذِكرِ بَعضِ وصاياهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي جُملةٌ مِنَ الوَصايا الجامِعَةِ الكامِلَةِ، فأكرِم بها من وصايا، وأنعِم بهِ من موصٍ.

وما كان أشَدَّ شَفَقَتَهُ ورَأفَتَهُ بأمَّتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حينَما قال: «**إنَّما أنا لَكُم بمَنزِلَةِ الوالِدِ، أُعَلِّمُكُم**»[1].

ولا شَكَّ أنّ الوالِدَ المُعلِّمَ الحَكيمَ، لا يوصي ولَدَهُ، إلا بما فيه الخَيرُ لَهُ، في دينِهِ، ودُنياهُ، وآخِرَتِهِ.

قال الصّنعانيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «**إنَّما أنا لَكُم بمَنزِلَةِ الوالِدِ**»: في الشّفقَةِ والحنوِّ، وهو الذي أخرَجَ اللهُ بهِ العِبادَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، وقدّمَ هذِهِ الجُملَةَ قبلَ الخِطابِ؛ لِتَقبَلَ قُلوبُهُم ما يُلقيهِ، وتَصغَى أسماعَهُم إلى ما يُمليه»[2].

* فَأوصَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأصحابِهِ خَيرًا:

فعنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: خَطَبَنا عمرُ بالجابيَةِ، فقال: يا أيُّها النّاسُ، إنِّي قُمتُ فيكُم كَمَقامِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فينا، فقال: «**أوصيكُم بأصحابي، ثُمَّ الذينَ يَلونَهُم، ثُمَّ الذينَ يَلونَهُم، ثُمَّ يَفشو الكذِبُ، حتى يَحلِفَ الرجُلُ، ولا يُستَحلَفُ، ويَشهَدَ الشّاهِدُ، ولا يُستَشهَدُ**»[3].

(1) رواه أبوداود (٨)، وحسنه الألباني.

(2) التّنوير (٤/ ١٨٧).

(3) رواه الترمذي (٢١٦٥)، وصححه، وصححه الألباني.

قال الصّنعانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**أوصيكُم بأصحابي**»: أي: بقَبولِ ما يَروونَه؛ بدليلِ ما بعدَه، أو: بإكرامِهم، وإعظامِهم، قال ابنُ العربيّ: الوَصيَّةُ بأصحابِه، وليس هُنالك غَيرُهم، فيكونُ موصيًا بِهم، فالمُرادُ: وُلاةُ أُمورِهم»[١].

وقال المُباركفوريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ثُمَّ الذينَ يَلونَهُم**»: أيِ: التابِعينَ.

«**ثُمَّ الذينَ يَلونَهُم**»: أي: أتباعٌ للتَّابعينَ.

«**ثُمَّ يَفشو الكذِبُ**»: أي: يَظهَرُ ويَنتَشِرُ بين الناسِ، بغَيرِ نكيرٍ.

«**حَتَّى يَحلِفَ الرجُلُ، ولا يُستَحلَفُ**»: أي: لا يُطلَبُ منه الحَلِفُ؛ لجُرأتِهِ على اللهِ.

«**وَيَشهَدُ الشَّاهِدُ، ولا يُستَشهَدُ**»: قال التِّرمِذيُّ: المُرادُ بِهِ: شَهادَةُ الزُّورِ»[٢].

وعن أَنَسِ بن مالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: مَرَّ أبو بكرٍ والعبَّاسُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، بمَجلِسٍ من مَجالِسِ الأنصارِ، وهُم يَبكونَ، فقال: ما يُبكيكُم؟ قالوا: ذَكَرنا مَجلِسَ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَّا، فدَخَلَ على النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخبَرَهُ بذلك، قال: فخرجَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد عَصَبَ على رَأسِهِ حاشيَةَ بُردٍ، قال: فصَعِدَ المِنبَرَ، ولم يَصعَدهُ بعدَ ذلك اليومِ، فحَمِدَ اللهَ، وأثنى عليه، ثُمَّ قال: «**أوصيكُم بالأنصارِ؛ فإنَّهُم كَرِشي، وعَيبَتي، وقد قَضَوُا الذي عليهم، وبَقِيَ الذي لَهُم، فاقبَلوا من مُحسِنِهِم، وتَجاوَزوا عن مُسيئِهِم**»[٣].

وفي رواية: «**استَوصوا بالأنصارِ خَيرًا** -أو قال: **مَعروفًا- اقبَلوا من مُحسِنِهِم، وتَجاوَزوا عن مُسيئِهِم**»[٤].

وقولُهُ: « **فإنَّهُم كَرِشي، وعَيبَتي**»:

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**قال العُلَماءُ**: مَعناهُ: جَماعَتي، وخاصَّتي الذينَ أثِقُ بِهِم، وأعتَمِدُهُم

---

(١) التَّنوير (٤/ ٣١٨).

(٢) تحفة الأحوذي (٦/ ٣٢٠).

(٣) رواه البخاري (٣٧٩٩)، واللفظ له، ومسلم (٢٥١٠).

(٤) رواه أحمد (١٣٥٢٨)، وصححه محققو المسند.

في أُموري، قال الخَطَّابيُّ: ضَرَبَ -مَثَلًا- بالكرِشِ؛ لأَنَّهُ مُستَقَرُّ غِذاءِ الحَيَوان، الذي يكونُ بهِ بَقاؤُهُ، والعَيبَةُ: وِعاءٌ مَعروفٌ، أكبَرُ مِنَ المِخلاةِ، يَحفَظُ الإنسانُ فيها ثيابَهُ، وفاخِرَ مَتاعِهِ، ويَصونُها، ضَرَبَها -مَثَلًا-؛ لأَنَّهُم أهلُ سِرِّهِ، وخَفيِّ أحوالِهِ»[١].

* وأوصَى ببعضِ أصحابِه على الخُصوصِ:

فعن عبدِاللهِ بنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال -وهوَ على المِنبَرِ-: «**إن تَطعَنوا في إمارَتِهِ** -يُريدُ أُسامَةَ بنَ زَيدٍ- **فقَد طَعَنتُم في إمارَةِ أبيهِ من قبلِهِ، وايمُ اللهِ، إن كان لَخليقًا لها، وايمُ اللهِ، إن كان لَأحَبَّ الناسِ إلَيَّ، وايمُ اللهِ، إنَّ هذا لها لَخَليقٌ** -يُريدُ أُسامَةَ بنَ زَيدٍ- **وايمُ اللهِ، إن كان لَأحَبَّهُم إلَيَّ من بعدِهِ، فأوصيكُم بهِ؛ فإنَّهُ من صالحِيكُم**»[٢].

وعن عبدِاللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنَّ زِنباعًا أبا رَوحٍ، جَدَعَ أنفَ غُلامٍ لهُ، فأتَى النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**مَن فعَلَ هذا بكَ؟**» قال: زِنباعٌ، فدَعاهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**ما حَمَلَكَ على هَذا؟**» فقال: كان من أمرِهِ كَذا، وكذا، فقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للعبدِ: «**اذهَب، فأنتَ حُرٌّ**»، فقال: يا رسولَ اللهِ، فمَولى مَن أنا؟ قال: «**مَولى اللهِ ورسولِهِ**»، فأوصَى بهِ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسلمينَ، قال: فلمَّا قُبِضَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جاءَ إلى أبي بكرٍ، فقال: وصيَّةُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: نعم، نُجري عليكَ النَّفَقَةَ، وعلى عيالِكَ، فأجراها عليه، حتى قُبِضَ أبو بكرٍ، فلمَّا استُخلِفَ عمرُ، جاءَهُ، فقال: وصيَّةُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: نعم، أينَ تُريدُ؟ قال: مِصرَ، فكَتَبَ عمرُ إلى صاحِبِ مِصرَ: أن يُعطيَهُ أرضًا، يَأكُلُها[٣].

* وأوصَى بأهلِ الصَّلاةِ خَيرًا:

فعن أبي أُمامَةَ قال: أقبَلَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَعَهُ غُلامانِ، فوَهَبَ أحَدُهُما لِعليٍّ، وقال: «**لا تَضرِبهُ؛ فإنِّي نُهيتُ عن ضَربِ أهلِ الصَّلاةِ، وإنِّي رَأيتُهُ يُصَلِّي، مُنذُ أقبلنا**»[٤].

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٦/ ٦٨).

(٢) رواه البخاري (٣٧٣٠)، ومسلم (٢٤٢٦)، واللفظ له.

(٣) رواه أحمد (٦٧١٠)، وحسنه محققو المسند لغيره.

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد (١٦٣)، وأحمد (٢٢١٥٤)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

قال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَعَلَّ مُرادَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّهُ لا يَحتاجُ إلى ضَربِ التَّأديبِ، حيث تَأدَّبَ مع ربِّهِ بالقيامِ بحَقِّ عُبوديَّتِهِ على ما يَنبَغي، والصَّلاةُ تَنهَى عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ.

وقال الطِّيبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَذلك لأنَّ المُصَلِّيَ -غالِبًا- لا يَأتي بما يَستَحِقُّ الضَّربَ؛ لأنَّ الصَّلاةَ تَنهَى عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ، فإذا كان اللهُ رَفَعَ عنه الضَّربَ في الدُّنيا، نَرجو -مِن كَرَمِهِ ولُطفِهِ- أن لا يُخزيَهُ في الآخِرَةِ بدُخولِ النارِ»[1].

وعن أبي هريرة، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأبي الهَيثَمِ: «**هَل لَكَ خادِمٌ؟**» قال: لا، قال: «**فإذا أتانا سَبيٌ، فأتِنا**» فأُتِيَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برَأسَينِ، ليس مَعَهُما ثالِثٌ، فأتاهُ أبو الهَيثَمِ، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اختَر منهما**»، فقال: يا نَبيَّ اللهِ، اختَر لي، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ المُستَشارَ مُؤتَمَنٌ، خُذ هَذا؛ فإنِّي رَأيتُهُ يُصَلِّي، واستَوصِ بهِ مَعروفًا**»، فانطَلَقَ أبو الهَيثَمِ إلى امرَأتِهِ، فأخبَرَها بقولِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت امرَأتُهُ: ما أنتَ ببالِغٍ ما قال فيه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلا أن تَعتِقَهُ، قال: فهو عَتيقٌ[2].

* وأوصَى بطَلَبَةِ العِلمِ من بَعدِه:

فعن أبي نَضرَةَ، عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ، أنَّهُ قال: «مَرحَبًا بوَصيَّةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوصينا بكُم»[3].

قال المُناويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان بَعضُ الصَّحبِ[4] إذا أتاهُ طالبٌ قال: مَرحَبًا بوَصيَّةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومنه أُخِذَ: أنّهُ يَنبغي أن يَكونَ الطَّالبُ -عِندَه- أعَزَّ الناسِ عليه، وأقرَبَ من أهلِهِ إليهِ، وأن يَتواضَعَ مع طَلَبَتِهِ، ويُرحبَ بهِم عِندَ إقبالِهم عليه، ويُكرمَهُم، ويُؤنِسَهم بسُؤالِهِ

---

(١) مرقاة المفاتيح (٦/ ٢٢٠٣).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٦٩)، وصححه، وصححه الألباني في صحيح الترمذي، وانظر: الصحيحة (٢٣٧٩)، صحيح الجامع (٦٧٨٥).

(٣) رواه الحاكم (٢٩٨)، وصححه، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٨٠).

(٤) يعني: من المشايخ، وأهل العلم.

عن أحوالِهم، ويُعاملَهُم بطَلاقَةِ وجهٍ، وظُهورِ بشرٍ، وحُسنِ وُدٍّ، ويزيدَ في ذلك لِمن يُرجَى فلاحُه، ويظهرُ صَلاحُهُ»[١].

وأوصَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو في الموتِ- بالصَّلاةِ، وما مَلَكَت أيمانُكُم:

فعن أنَسِ بنِ مالِكٍ قال: كانت عامَّةُ وصيَّةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حينَ حَضَرَهُ الموتُ: «**الصَّلاةَ، وما مَلَكَت أيمانُكُم، الصَّلاةَ، وما مَلَكَت أيمانُكُم**» حتى جَعَلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُغَرغِرُ بها صَدرُهُ، وما يَكادُ يُفيضُ بها لِسانُهُ[٢].

وعن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: كان آخِرُ كَلامِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «**الصَّلاةَ، الصَّلاةَ، اتَّقوا اللهَ فيما مَلَكَت أيمانُكُم**»[٣].

قال في عَونِ المعبود:

«**الصَّلاةَ، الصَّلاةَ**»: بالنَّصبِ، على تَقديرِ فِعلٍ، أيِ: الزَموا الصَّلاةَ، أو: أقيموا، أوِ: احفَظوا الصَّلاةَ، بالمواظَبَةِ عليها، والمُداوَمَةِ على حُقوقِها.

«**اتَّقوا اللهَ فيما مَلَكَت أيمانُكُم**»: **قال في النِّهايَةِ**: يُريدُ الإحسانَ إلى الرقيقِ، والتَّخفيفَ عَنهُم، وقيل: أرادَ حُقوقَ الزَّكاةِ، وإخراجَها مِنَ الأموالِ التي تَمَلِكُها الأيدي.

وقال التُّورِبِشتيُّ: الأظهَرُ: أنَّهُ أرادَ بها مَلَكَت أيمانُكُمُ: المماليكَ، وإنَّما قَرَنَهُ بالصَّلاةِ؛ ليُعلَمَ أنَّ القيامَ بمِقدارِ حاجَتِهِم، مِنَ الكِسوَةِ والطَّعامِ، واجِبٌ على مَن مَلَكَهُم، وُجوبَ الصَّلاةِ التي لا سَعَةَ في تَركِها، وقد ضَمَّ بَعضُ العُلَماءِ: البَهائِمَ المُستَملَكَةَ في هذا الحُكمِ، إلى المماليكِ»[٤].

وعن أبي أُمامَةَ، قال: أقبَلَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَعَهُ غُلامانِ، فوَهَبَ أحَدُهُما لِعليٍّ، وأعطَى

---

(١) فيض القدير (٢/ ٤٠٠).

(٢) رواه أحمد (١٢١٦٩)، وابن ماجه (٢٦٩٧)، وصححه محققو المسند.

(٣) رواه أبوداود (٥١٥٦)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٤) عون المعبود (١٤/ ٤٤).

أبا ذَرٍّ غُلامًا، وقال: «**استَوصِ بِهِ مَعروفًا**» فأعتَقَهُ، فقال: «**ما فعَلَ؟**» قال: أمَرتَني أن أستَوصي بِهِ خَيرًا، فأعتقتُهُ(١).

* وأوصَى مَن بَعدَه بكتابِ اللهِ تعالى، وبآلِ بَيتِهِ:

عن طَلحَةَ بنِ مُصَرِّفٍ، قال: سَألتُ عبدَاللهِ بنَ أبي أوفَى، هَل أوصَى رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقال: لا، قُلتُ: فلِمَ كُتِبَ على المسلمينَ الوَصيَّةُ؟ -أو: فلِمَ أُمِروا بالوَصيَّةِ؟- قال: «**أوصَى بكِتابِ اللهِ** عَزَّ وَجَلَّ»(٢).

قال السّنديّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَولُه: «هَل أوصَى؟»، أي: بالمالِ؛ فلِذا قال: لا، ثمَّ لَمَّا قال السَّائلُ: كيفَ يَتركُ الوَصيَّة، ويَأمُرُ غَيرَهُ بها؟ قال: إنَّه ما تَرَكَ، ولكنه أوصَى بما كان عِندَه مِنَ العِلم، والقُرآنِ، والدِّينِ»(٣).

وعن زَيدِ بنِ أرقَمَ، قال: قامَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -يومًا- فينا خَطيبًا، فحَمِدَ اللهَ، وأثنَى عليه، ووَعَظَ، وذَكَّرَ، ثُمَّ قال: «**أمَّا بعدُ، ألا أيُّها الناسُ، فإنَّما أنا بَشَرٌ، يوشِكُ أن يَأتيَ رسولُ رَبِّي، فأُجيبَ، وأنا تارِكٌ فيكُم ثَقَلَينِ: أوَّلُهما: كِتابُ اللهِ، فيه الهُدَى والنُّورُ، فخُذوا بكِتابِ اللهِ، واستَمسِكوا بِهِ**» فحَثَّ على كِتابِ اللهِ، ورَغَّبَ فيه، ثُمَّ قال: «**وَأهلُ بَيتي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ في أهلِ بَيتي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ في أهلِ بَيتي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ في أهلِ بَيتي**»(٤).

وفي رواية: «إنِّي تارِكٌ فيكُم، ما إن تَمَسَّكتُم بِهِ، لَن تَضِلُّوا بعدي، أحَدُهُما أعظَمُ مِنَ الآخَرِ: كِتابُ اللهِ، حَبلٌ مَمدودٌ مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ، وعِترَتي أهلُ بَيتي، ولَن يَتَفَرَّقا حتى يَرِدا عَلَيَّ الحَوضَ، فانظُروا كَيفَ تَخلُفوني فيهِما»(٥).

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (١٦٣)، وأحمد (٢٢١٥٤)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

(٢) رواه البخاري (٢٧٤٠)، ومسلم (١٦٣٤).

(٣) حاشية المسند، طبعة الرّسالة (٣١/ ٤٦٩).

(٤) رواه مسلم (٢٤٠٨).

(٥) رواه الترمذي (٣٧٨٨)، وصححه الألباني.

قال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «النَّظَرُ: بمعنى التَّأمُّلِ، والتَّفكُّرِ، أي: تَأمَّلوا، واستَعمِلوا الرويَّةَ في استِخلافي إيَّاكُم، هَل تكونونَ خَلفَ صِدقٍ، أو خَلفَ سوءٍ؟»[1].

«**وَعِترَتي أهلُ بَيتي**»: **قال التُّورِبِشتيُّ**:

«**عِترَةُ الرجُلِ**: أهلُ بَيتِهِ ورَهطُهُ الأدنَونَ».

والمُرادُ بالأخذِ بِهِمُ: التَّمَسُّكُ بمَحَبَّتِهِم، ومُحافَظَةُ حُرمَتِهِم، والعَمَلُ برِوايَتِهِم، والاعتِمادُ على مَقالَتِهِم، وهو لا يُنافي أخذَ السُّنَّةِ من غَيرِهِم.

وقال ابنُ المَلَكِ: «**التَّمَسُّكُ بالكِتابِ**: العَمَلُ بما فيه، وهو الائتِمارُ بأوامِرِ اللهِ، والانتِهاءُ بنَواهيهِ، ومعنى التَّمَسُّكِ بالعِترَةِ: مَحَبَّتُهُم، والاهتِداءُ بهَديِهِم وسيرَتِهِم، إذا لم يَكُن مُخالِفًا للدِّينِ».

وقال الطِّيبيُّ في قولِهِ: «**إنِّي تارِكٌ فيكُم**»: إشارَةٌ إلى أنَّهُما بمَنزِلَةِ التَّوأمَينِ، الخَلَفينِ، عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنَّهُ يوصي الأُمَّةَ بحُسنِ المُخالَفَةِ مَعَهُما، وإيثارِ حَقِّهِما على أنفُسِهِم، كَما يوصي الأبُ المُشفِقُ الناسَ في حَقِّ أولادِهِ، ويُعَضِّدُهُ: الحديثُ السَّابِقُ: «**أُذَكِّرُكُمُ اللهَ في أهلِ بَيتي**» كَما يقولُ الأبُ المُشفِقُ: اللهَ اللهَ في حَقِّ أولادي».

قال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «**الأظهَرُ هوَ**: أنَّ أهلَ البَيتِ -غالِبًا- يكونونَ أعرَفَ بصاحِبِ البَيتِ وأحوالِهِ، فالمُرادُ بِهِم: أهلُ العِلمِ منهمُ، المُطَّلِعونَ على سيرَتِهِ، الواقِفونَ على طَريقَتِهِ، العارِفونَ بحُكمِهِ، وحِكمَتِهِ؛ ولهذا يَصلُحُ أن يكونوا مُقابِلًا لِكِتابِ اللهِ سبحانه، كَما قال: ﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ**﴾ [البقرة: ١٢٩]»[2].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذِهِ الوَصيَّةُ، وهذا التَّأكيدُ العظيمُ، يقتَضي وُجوبَ احتِرامِ آلِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإبرارِهِم، وتَوقيرِهِم، ومَحَبَّتِهِم، وُجوبَ الفُروضِ المُؤكَّدةِ، التي لا عُذرَ لأحَدٍ في التَّخلُّفِ عَنها»[3].

---

(١) مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٩٧٥).

(٢) مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٩٧٤-٣٩٧٥).

(٣) المفهم (٢٠/ ٥١).

وفي خُطبَةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعَرَفَةَ: «... **وقد ترَكتُ فيكُم ما لَن تَضِلُّوا بعدَهُ، إنِ اعتَصَمتُم بِهِ: كِتابُ اللهِ**»(١).

قال القاري رَحِمَهُ اللهُ: «اقتَصَرَ على الكِتابِ؛ لأنَّهُ مُشتَمِلٌ على العَمَلِ بالسُّنَّةِ؛ لِقولِهِ تعالى: ﴿**أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ**﴾ [النساء: ٥٩]، وقولِهِ: ﴿**وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ**﴾ [الحشر: ٧]، فيَلزَمُ مِنَ العَمَلِ بالكِتابِ: العَمَلُ بالسُّنَّةِ»(٢).

* وأوصَى بإخراجِ المُشرِكينَ من جَزيرةِ العرب:

فعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: يومُ الخَميسِ، وما يومُ الخَميسِ؟ اشتَدَّ برسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجَعُهُ، فقال: «**ائتوني أكتُب لَكُم كِتابًا، لَن تَضِلُّوا بعدَهُ أبَدًا**».

وأوصاهُم بثَلاثٍ، قال: «**أخرِجوا المُشرِكينَ من جَزيرَةِ العربِ، وأجيزوا الوَفدَ بنَحوِ ما كنتُ أُجيزُهُم**» وسَكَتَ عن الثالِثَةِ، أو قال، فنَسيتُها(٣).

قال القاري رَحِمَهُ اللهُ: «**أخرِجوا المُشرِكينَ من جَزيرَةِ العربِ**»:

قال ابنُ الملَكِ: يُريدُ بِهِمُ: اليَهودَ، والنَّصارَى.

«**وأجيزوا**»: مِنَ الإجازَةِ: إعطاءُ الأميرِ.

«**الوَفدَ**»: هُمُ الذينَ يَقصِدونَ الأُمَراءَ؛ لِزيارَةٍ، أوِ استِرفادٍ، أو رِسالَةٍ، وغَيرِها، والمعنى: أعطوهُم -مُدَّةَ إقامَتِهِم- ما يَحتاجونَ إليه.

«**بِنَحوِ ما كنتُ أُجيزُهُم**»:

في التَّعبيرِ بالنَّحوِ: إيماءٌ إلى أنَّ مِقدارَ العَطاءِ مُفَوَّضٌ إلى رَأيِهِم، فتَجوزُ الزِّيادَةُ، والنُّقصانُ.

---

(١) رواه مسلم (١٢١٨).

(٢) مرقاة المفاتيح (٥/ ١٧٧٣).

(٣) رواه البخاري (٤٤٣١)، ومسلم (١٦٣٧).

قال التُّورِبِشتيُّ: «وَإنَّما أخرَجَ ذلك بالوَصيَّةِ عن عُمومِ المصالِحِ؛ لِما فيه مِنَ المصلَحَةِ العُظمَى؛ وذلك أنَّ الوافِدَ سَفيرُ قَومِهِ، وإذا لم يُكرَم رَجَعَ إليهم بما يُنَفِّرُ دونَهُم رَغبَةَ القَومِ في الطَّاعَةِ، والدُّخولِ في الإسلامِ؛ فإنَّهُ سَفيرُهُم، ففي تَرغيبِهِ تَرغيبُهُم، وبِالعَكسِ.

ثُمَّ إنَّ الوافِدَ إنَّما يَفِدُ على الإمامِ، فيَجِبُ رِعايَتُهُ من مالِ اللهِ، الذي أُقيمَ لِمَصالِحِ العِبادِ، وإضاعَتُهُ تُفضي إلى الدَّناءَةِ، التي أجارَ اللهُ عَنها أهلَ الإسلامِ»(١).

وعن جابِرِ بن عبدِاللهِ، قال: أخبَرَني عمرُ بنُ الخَطَّابِ، أنَّهُ سَمِعَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**لَأُخرِجَنَّ اليَهودَ والنَّصارَى من جَزيرَةِ العربِ، حتى لا أدَعَ إلا مُسلِمًا**»(٢).

وفي لَفظٍ:

«**أخرِجوا اليَهودَ والنَّصارَى من جَزيرَةِ العربِ**»(٣).

وعن أبي عُبَيدَةَ، قال: آخِرُ ما تَكَلَّمَ بِهِ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أخرِجوا يَهودَ أهلِ الحِجازِ وأهلِ نَجرانَ من جَزيرَةِ العربِ، واعلَموا أنَّ شِرارَ الناسِ: الذينَ اتَّخَذوا قُبورَ أنبيائِهِم مَساجِدَ**»(٤).

* وأوصَى بالنِّساءِ خَيرًا:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**استَوصوا بالنِّساءِ خَيرًا؛ فإنَّهُنَّ خُلِقنَ من ضِلَعٍ، وإنَّ أعوَجَ شيءٍ في الضِّلَعِ أعلاهُ، فإن ذَهَبتَ تُقيمُهُ كَسَرتَهُ، وإن تَرَكتَهُ لم يَزَل أعوَجَ، فاستَوصوا بالنِّساءِ خَيرًا**»(٥).

«استَوصوا بالنِّساءِ خَيرًا»:

---

(١) مرقاة المفاتيح (٦/ ٢٦٣٢).

(٢) رواه مسلم (١٧٦٧).

(٣) رواه البزَّار (٢٣٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٢).

(٤) رواه أحمد (١٦٩١)، وصححه محققو المسند.

(٥) رواه البخاري (٥١٨٦)، ومسلم (١٤٦٨).

قال الطِّيبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السِّينُ للطَّلَبِ، أيِ: اطلُبوا الوَصيَّةَ من أنفُسِكُم في حَقِّهِنَّ».

وقال القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الِاستيصاءُ: قَبولُ الوَصيَّةِ، والمعنى: أوصيكُم بهِنَّ خَيرًا، فاقبَلوا وصيَّتي فيهِنَّ»(١).

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فيهِ**: مُلاطَفَةُ النِّساءِ، والإحسانُ إليهِنَّ، والصَّبرُ على عِوَجِ أخلاقِهِنَّ، واحتِمالُ ضَعفِ عُقولِهِنَّ، وكَراهَةُ طَلاقِهِنَّ بلا سببٍ، وأنَّهُ لا يُطمَعُ باستِقامَتِها»(٢).

* وأوصَى بأهلِ مِصرَ خيرًا:

فعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّكُم سَتَفتَحونَ مِصرَ، فإذا فتَحتُموها فأحسِنوا إلى أهلِها؛ فإنَّ لهم ذِمَّةً ورَحِمًا**»، أو قال: «**ذِمَّةً وصِهرًا**»(٣).

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**أمَّا الذِّمَّةُ**: فهيَ الحُرمَةُ، والحَقُّ، وهي -هُنا- بمعنى: الذِّمامُ، **وأمَّا الرحِمُ**: فلِكَونِ هاجَرَ أُمِّ إسماعيلَ منهم، **وأمَّا الصِّهرُ**: فلِكَونِ ماريَةَ أُمِّ إبراهيمَ منهم.

وفيهِ مُعجِزاتٌ ظاهِرَةٌ لِرسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **منها**: إخبارُهُ بأنَّ الأُمَّةَ تكونُ لهم قوَّةٌ وشَوكَةٌ بعدَهُ، بحَيثُ يَقهَرونَ العَجَمَ والجَبابِرَةَ، **ومنها**: أنَّهُم يَفتَحونَ مِصرَ، ووَقَعَ كُلُّ ذلك، وللهِ الحَمدُ»(٤).

وعن كَعبِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا افتَتَحتُم مِصرًا، فاستَوصوا بالقِبطِ خَيرًا؛ فإنَّ لهم ذِمَّةً ورَحِمًا**»(٥).

قال المُناويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القِبطُ: أهلُ مِصرَ، والمعنَى: اطلُبوا الوصيَّةَ من أنفُسِكُم بإتيانِ أهلِها خَيرًا، أو مَعناهُ: اقبَلوا وصيَّتي فيهِم، يُقال: أوصَيتُه فاستَوصَى، أي: قَبلَ الوَصيَّةِ، يعني:

---

(١) مرقاة المفاتيح (٥/ ٢١١٧).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٠/ ٥٧).

(٣) رواه مسلم (٢٥٤٣).

(٤) شرح النووي على مسلم (١٦/ ٩٧).

(٥) رواه الحاكم (٤٠٣٢)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في الصحيحة (٣/ ٣٦٢): «وهو كما قالا».

إذا استَولَيتُم عليهم، وتَمَكَّنتُم منهم، فأحسِنوا إليهم، وقابِلوهُم بالعَفو عمَّا تنكرونَ، ولا يَحمِلَنَّكُم سوءُ أفعالِهم، وقُبحُ أقوالِهم، على الإساءَةِ إليهم، فالخِطابُ للوُلاةِ مِنَ الأُمراءِ، والقُضاةِ»[1].

* وأوصَى أصحابَه من بَعدِه، بتَقوَى اللهِ، والسَّمعِ، والطَّاعَة:

والوَصيّةُ بذلك لَهم ولِمَن بَعدَهُم، فيَكونونَ لِمَن بَعدَهُم: القُدوةَ الحَسنَةَ، والمَثَلَ الصَّالِحَ.

عن عِرباضِ بنِ ساريَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: صَلَّى لَنا رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفَجرَ، ثُمَّ أقبَلَ عَلَينا، فوَعَظَنا مَوعِظَةً بَليغَةً، ذَرَفَت لها الأعيُنُ، ووَجِلَت منها القُلوبُ، قالوا: يا رسولَ اللهِ، كَأنَّ هَذِهِ مَوعِظَةُ مودِّعٍ، فأوصِنا، قال: «**أوصيكُم بتَقوَى اللهِ، والسَّمعِ، والطَّاعَةِ، وإن كان عبدًا حَبَشيًّا، فإنَّهُ مَن يَعِش مِنكُم يَرَى بعدي اختِلافًا كَثيرًا، فعليكُم بسُنَّتي، وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الراشِدينَ المهديِّينَ، وعَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ، وإيَّاكُم ومُحدَثاتِ الأُمورِ، فإنَّ كُلَّ مُحدَثَةٍ بدعَةٌ، وإنَّ كُلَّ بدعَةٍ ضَلالَةٌ**»[2].

وعن نُبَيطِ بنِ شَريطٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: كنتُ رِدفَ أبي على عَجُزِ الراحِلَةِ، والنبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخطُبُ عندَ الجَمرَةِ، فقال: «**الحَمدُ للهِ، نَستَعينُهُ، ونَستَغفِرُهُ، ونَشهَدُ أن لا إله إلا اللهُ، وأنَّ محمدًا عَبدُهُ ورسولُه، أوصيكُم بتَقوَى اللهِ، أيُّ يومٍ أحرَمُ؟**».

قالوا: هَذا.

قال: «**فَأيُّ شَهرٍ أحرَمَ؟**».

قالوا: هذا الشَّهرُ.

قال: «**فَأيُّ بَلَدٍ أحرَمَ؟**».

قالوا: هذا البَلَدُ.

---

(١) فيض القدير (١/ ٤٠٨).

(٢) رواه أبوداود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد (١٧١٤٤)، وصححه الترمذي، وابن حبَّان، وابن الملقّن، وابن حجر، وغيرهم.

قال: «**فإنَّ دِماءَكُم، وأموالَكُم، حَرامٌ عليكُم، كَحُرمَةِ يومِكُم هَذا، في شَهرِكُم هَذا، في بلدكم هذا**»(١).

* وأوصَى باليَتيمِ، والمرأةِ:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**اللهُمَّ إنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعيفينِ: اليَتيمِ، والمرأةِ**»(٢).

قال السّنديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أي: أُضَيِّقُ على الناسِ في تَضييعِ حَقِّهِما، وأُشَدِّدُ عليهم في ذلك، والمقصودُ: إشهادُهُ تعالى في تَبليغِ ذلك الحُكمِ إليهم، وفي الزَّوائِدِ: المعنى: أُحَرِّجُ عن هذا الإثمِ، بمعنى: أن يَضيعَ حَقُّهما، وأُحَذِّرُ من ذلك تَحذيرًا بَليغًا، وأزجُرُ عنه زَجرًا أكيدًا»(٣).

وأوصَى ﷺ جماعَةً من أصحابِه، بجُملَةٍ صالِحَةٍ من مكارِمِ الأخلاقِ:

* فأوصَى بَعضَ أصحابِه بالحَياءِ:

فعن سَعيدِ بنِ يَزيدَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَّ رَجُلًا قال لِرسولِ اللهِ ﷺ: أوصِني، قال: «**أوصيكَ أن تَستَحيَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، كما تَستَحي رَجُلًا صالِحًا من قَومِكَ**»(٤).

* وأوصَى آخَرَ، بألَّا يكونَ لَعَّانًا:

فعن جُرموزٍ الهُجَيميِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ أوصِني، قال: «**أوصيكَ أن لا تكونَ لَعَّانًا**»(٥).

---

(١) رواه أحمد (١٨٧٢٢)، والبيهقي (٥٨٠٦)، وابن سعدٍ في الطبقات (٦/ ١٠٥)، وصححه محققو المسند.

(٢) رواه ابن ماجه (٣٦٧٨)، وأحمد (٩٦٦٦)، وصححه البوصيريّ في الزوائد (٤/ ١٠٣).

(٣) حاشية السِّنديِّ على سنن ابن ماجه (٢/ ٣٩٣).

(٤) رواه الطبراني في الكبير (٥٥٣٩)، وأحمد في الزُّهد (٢٤٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤١).

(٥) رواه أحمد (٢٠٦٧٨)، والطبراني في الكبير (٢١٨٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤٢).

* وأوصَى أبا ذرٍّ، بالإحسانِ بَعدَ الإساءَةِ:

فعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لهُ: «**أوصيكَ بتَقوَى اللهِ، في سِرِّ أمرِكَ وعَلانيَتِهِ، وإذا أسَأتَ فأحسِن، ولا تَسألَنَّ أحَدًا شَيئًا، وإن سَقَطَ سَوطُكَ**»[١].

* وأوصَى أبا سعيدٍ بالجِهادِ، وذِكرِ اللهِ، وتِلاوَةِ القُرآنِ:

عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رَجُلًا جاءَهُ فقال: أوصِني، فقال: سَألتَ عَمَّا سَألتُ عنه رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قبلِكَ: «**أوصيكَ بتَقوَى اللهِ؛ فإنَّهُ رَأسُ كُلِّ شيءٍ، وعليكَ بالجِهادِ؛ فإنَّهُ رَهبانيَّةُ الإسلامِ**[٢]**، وعليكَ بذِكرِ اللهِ، وتِلاوَةِ القُرآنِ؛ فإنَّهُ رَوحُكَ**[٣] **في السَّماءِ، وذِكرٌ لكَ**[٤] **في الأرضِ**»[٥].

* وأوصَى مُسافِرًا بتَقوَى اللهِ، والتَّكبيرِ على كُلِّ شَرَفٍ:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رَجُلًا قال: يا رسولَ اللهِ، إنِّي أُريدُ أن أُسافِرَ، فأوصِني، قال: «**عليكَ بتَقوَى اللهِ، والتَّكبيرِ على كُلِّ شَرَفٍ**[٦]»، فلمَّا أن ولَّى الرجُلُ، قال: «**اللهُمَّ اطوِ له الأرضَ، وهَوِّن عليه السَّفَرَ**»[٧].

---

(١) رواه أحمد (٢١٥٧٣)، وجوَّد إسناده المنذريُّ في الترغيب والترَّهيب (٤/ ٥٤)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٣١٦١).

(٢) أي: الانقطاع إليه تعالى في هذا الدِّين، فإذا زهد الرُّهبان الدُّنيا، وتخلَّوا للتّعبد، فلا تخليِّ ولا زهد للمسلم أفضل من بذل النَّفس في سبيل الله.

(٣) قال السّنديُّ: «بضمِّ الراء، أي: سبب حياتك عند الله، أو بفتح الراء، أي: سبب رحمتك وقربك، والوجه: الأوّل» حاشية المسند، طبعة الرّسالة (١٨/ ٢٩٩).

(٤) أي: شرفٌ لك، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

(٥) رواه أحمد (١١٧٧٤)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٥٥٥).

(٦) أي: مكانٍ عالٍ.

(٧) رواه الترمذي (٣٤٤٥)، وحسنه، وابن ماجه (٢٧٧١)، وأحمد (٨٣١٠)، وحسنه محققو المسند.

* وأوصَى مُعاذًا بتَوحيدِ اللهِ، وحُسنِ الخُلُق:

عن عبدِاللهِ بنِ عمرَ رضي الله عنهما، أنَّ مُعاذَ بنَ جَبَلٍ أرادَ سَفَرًا، فقال: يا رسولَ اللهِ أوصِني، قال: «**اعبُدِ اللهَ، ولا تُشرِك بهِ شَيئًا**»، قال: يا رسولَ اللهِ، زِدني، قال: «**إذا أسَأتَ، فأحسِن**»، قال: يا رسولَ اللهِ، زِدني، قال: «**استَقِم، ولتُحَسِّن خُلُقَكَ**»[١].

* وأوصَى ببَعيرٍ -جاءَ يَشكو إليه- خَيرًا:

فعن يَعلى بنِ مُرَّةَ، عن أبيهِ رضي الله عنه، قال: سافَرتُ مع رسولِ اللهِ ﷺ ...، فذَكَرَ الحديثَ، وفيهِ: ثمَّ أتاهُ بَعيرٌ، فقامَ بين يَدَيهِ، فرَأى عَينَيهِ تَدمَعانِ، فبَعَثَ إلى أصحابِهِ، فقال: «**ما لِبَعيرِكُم هذا يَشكوكُم؟**» فقالوا: كُنَّا نعملُ عليه، فلمَّا كَبِرَ، وذَهَبَ عَمَلُهُ، تَواعَدنا عليه؛ لِنَنحَرَهُ غَدًا، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لا تَنحَروهُ، واجعَلوهُ في الإبِلِ، يكونُ مَعَها**»[٢].

وعن عبدِاللهِ بنِ جَعفرٍ رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ حائِطًا، لِرَجُلٍ مِن الأنصارِ، فإذا جَمَلٌ، فلمَّا رَأى النبيَّ ﷺ حَنَّ وذَرَفَت عَيناهُ، فأتاهُ النبيُّ ﷺ، فمَسَحَ ذِفراهُ[٣] فسَكَتَ، فقال: «**مَن رَبُّ هذا الجَمَلِ؟ لِمَن هذا الجَمَلُ؟**»، فجاءَ فتًى مِنَ الأنصارِ، فقال: لي يا رسولَ اللهِ، فقال: «**أفَلا تَتَّقي اللهَ في هَذِهِ البَهيمَةِ، التي مَلَّكَكَ اللهُ إيَّاها؟ فإنَّهُ شَكا إليَّ أنَّكَ تُجيعُهُ، وتُدئِبُهُ**[٤]»[٥].

(١) رواه الحاكم (١٧٩)، وصححه، ووافقه الذهبي، وجوَّده الألباني في الصحيحة (١٢٢٨).

(٢) رواه الحاكم (٤٢٣٢)، وصححه، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٨٥).

(٣) ذفرى البعير: أصل أذنه، وهي مؤنَّثةٌ، وهما ذفريان.

(٤) أي: تكرهه، وتتعبه.

(٥) رواه أبوداود (٢٥٤٩)، وأحمد (١٧٤٥)، وقال محققو المسند: «إسناده صحيح، على شرط مسلم».

الخاتمة

كانت هَذِهِ رِحلَةً مُبارَكَةً، وجَولَةً كَريمَةً، استعرَضنا خِلالَها بَعضَ المواقِفِ والأحوالِ النبويَّةِ الشّريفَةِ، من حَياةِ نَبيّنا محمدٍ ﷺ، مِمَّا اتّصَفَ بِهِ، من كَمالِ البَشَريّةِ، وتَمامِ الإنسانيّةِ.

فهذِهِ حَياةُ سَيِّدِ الأوّلينَ والآخِرينَ، مَسطورَة في كُتُبِ السِّيرَةِ، ومُصنّفاتِ الأئِمّةِ، وهذه مَواقِفُهُ المجيدَةُ، وأحوالُهُ الحَميدَةُ، تُنقَلُ لَنا بالطّريقِ الصّحيحِ، والسّنَدِ النّظيفِ؛ لِتَدُلَّنا على أكمَلِ أُسوَةٍ، وخَيرِ قُدوَةٍ: النبيِّ، الرّسولِ، الرّفيقِ، الشّفيقِ، الرّءوفِ، الرّحيمِ، الكريمِ، الناصِحِ، الأمينِ، الذي أرسَلَهُ اللهُ رَحمَةً للعالَمينَ.

نَسألُ اللهَ أن يَنفَعَنا وإخوانَنا المُسلِمينَ بهذه المواقِفِ النبويَّةِ الشَّريفَةِ، وتِلكَ المعارِفِ الإنسانيّةِ اللَّطيفَةِ، وهذه الأحوالِ السَّاميَةِ المُنيفَةِ.

والحَمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ.

الفهرس

ضحكه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١١٩

غضبه ﷺ

ملاطفاته ﷺ

إشاراته ﷺ

مناظراته وحواراته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٣٩١

تفكُّره صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٤٥١

صمته وسكوته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٤٦١

فطنته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٤٩١

معاملاته ﷺ الماليَّة والتجاريَّة.. ٦٤٣

أحوال المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

بلغَ نبينا محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الغايةَ القصوى منَ الكمالاتِ البشريّةِ، وحاز المقامَ الأسمى منَ الأخلاقِ الإنسانيّةِ، فكان عبدًا كريمًا، رؤوفًا رحيمًا، خاشعًا لله، متواضعًا بين النّاسِ، يخْصِفُ نعلَهُ، ويَخيطُ ثوبَهُ، ويحْلُبُ شاتَهُ، ويخدُمُ نفسَهُ.

يجلسُ إلى النّاسِ، ويختلطُ بهم، حتى لا يكادَ يُعرَفُ مِنْ بينهم، فيُحدثُهُم، ويعظُهُم، ويأمُرهُم، وينهاهُم.

وربّما ضاحَكَهُم، ومازحهُم، ولاطفَهُم.

وكان كغيره منَ البشرِ، يُحبُّ ويُبغضُ، ويرضى ويسخَطُ، ويفرحُ ويحزنُ، ويضحكُ ويبكي، ويتذكَّرُ وينسى.

وكانَ يُناظرُ ويُحاورُ، ويُقيمُ الحُجَّةَ باللِّسانِ الفصيحِ، والبُرهانِ القاطِعِ، ومَعَ ذلكَ فهُو يَصبرُ علَى المَحْجوجِ، ويُصْغِي للمُخالِفِ، ويَحتَملُ مِنَ النّاسِ أذاهُم.

وكانَ يغضبُ ويعتِبُ، ويُعزِّرُ ويؤدِّبُ، ويُعاقبُ ويُحفِّزُ.

ولهُ محبوباتُه ومرضيَّاتُه، ولديه هُمومُه واهتماماتُه، وعندهُ ما يشغَلُه وذكرياتُه.

ولذا تَوَجّهَ القصدُ إلى الكشفِ عن بعضِ أحوالِه الشريفَة، ومحاسنِ شؤونه المنيفَة.

وفي هذا الكتابِ جُملةٌ صالحةٌ من ذلك، لِمن رغبَ في مزيدِ العلمِ والمعرفةِ بحالِ نبيِّ الرّحمةِ، فيَستَنُّ بهديهِ المُستَنُّون، ويقتدي به المُقتدُون، ويسيرُ على دربِهِ السَّالكُون.

المملكة العربية السعودية
الخبر - هـ: ٨٦٥٥٣٥٥
جدة - هـ: ٦٩٢٩٢٤٢
ص.ب ١٢٦٢٧١ جدة ٢١٣٥٢

خصم خاص للتوزيع الخيري: ٠٥٠٤٤٤٦٤٣٢

ISBN: 978 603 8234 17 4